المجلد الأول

الرحلة العياشية

1661 - 1663م

عبد الله بن محمد العياشي

حققها وقدم لها:

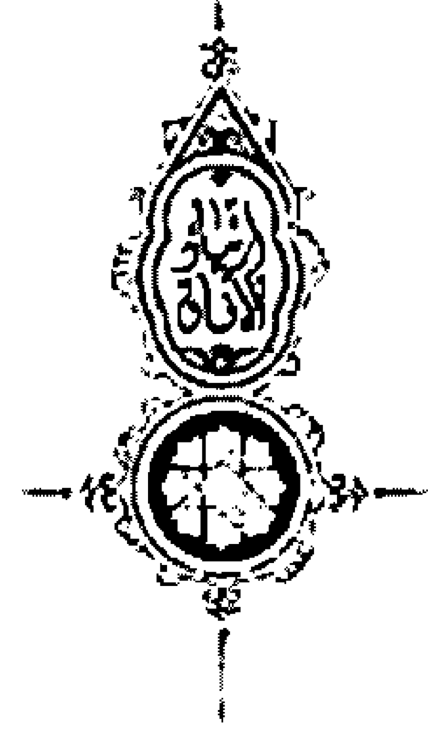
د. سعيد الفاضلي   د. سليمان القرشي



موسوعة رحلات الحج

الرّحلة العياشية

1661-1663م



الرِّحلة العياشيَّة – المجلد الأول
أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي/مؤلف، [حققّها وقدّم لها: د. سعيد الفاضلي ود. سليمان القرشي]
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: القرية الإلكترونية/أبو ظبي
الخطوط: محمد مندي

الرّحلة العياشيّة

1661 – 1663م

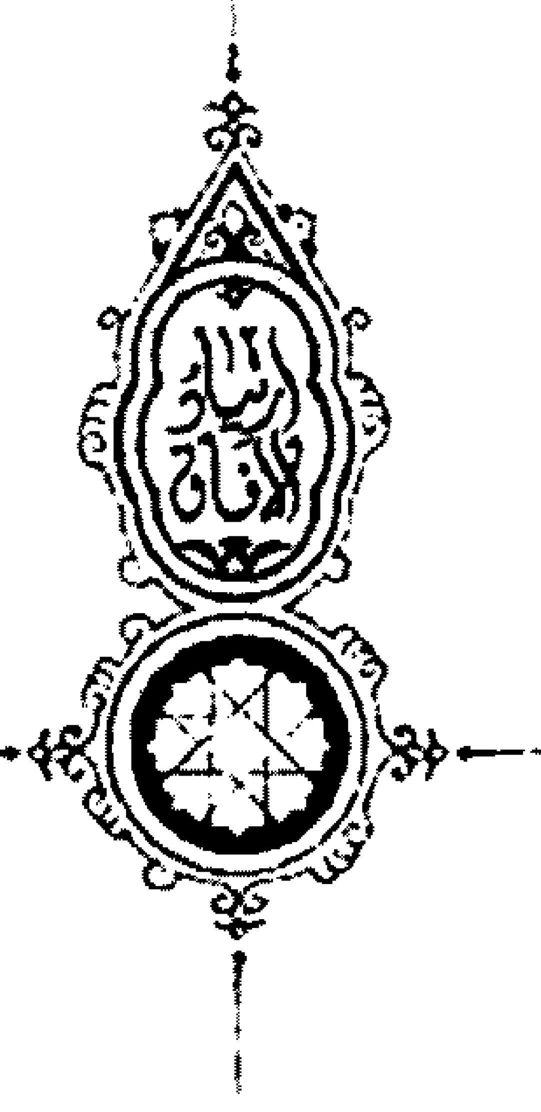
أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي

المجلد الأول

حقّقها وقدّم لها :

د. سعيد الفاضلي و د. سليمان القرشي

الكتاب الحائز على
جائزة ابن بطوطة
للأدب الجغرافي 2005



"... وهو ميدان كبير في القاهرة يسع الآلاف من الخيل، وآخر من يخرج الباشا، فتخرج أمامه طائفة من عسكره... وآخر من يخرج معه طائفة الشاوشية على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة... ويُؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد، كلها مخوصة بالذهب... ثم يُمر بكل ذلك بين يدي الباشا والأمراء، ويقومون لها إذا مَرَّت بهم تعظيماً... ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني، تنشر في صحن المسجد وتخاط هناك".

نص الرحلة ص 252

"... والمصريون يتكارمون في ما بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة، ونحن لا نعرفها، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة".

نص الرحلة ص 229

"... ثم ارتحلنا وأخذنا في نزول العقبة، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، وهي عقبة أيلة المشهورة... ولما كان المحل معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم، تهيأ الناس وأخرجوا أسلحتهم خوفاً من عدوانهم... وتقدَّمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة، ولم نرَ بها سارقاً ولا غائراً... وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف والمتالف".

نص الرحلة ص 272

"... وبعد الرجوع من أُحُدٍ نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية... وقدم خلق كثير من الأعراب، وأكثرهم حفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم مليا ثم يسجد على قدر ما يرى، إما ثماني سجدات أو عشر سجدات أو أكثر، على حسب نشاطه، ثم ينصرف."

نص الرحلة ص 453



تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبروهُ في أقاليمه، قريبة وبعيدةً، لاسيما في القرنين الماضِيين اللذين شهدا ولَادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرق، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغاتِ الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال

نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُستقطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدٍّ لمقاتلته.

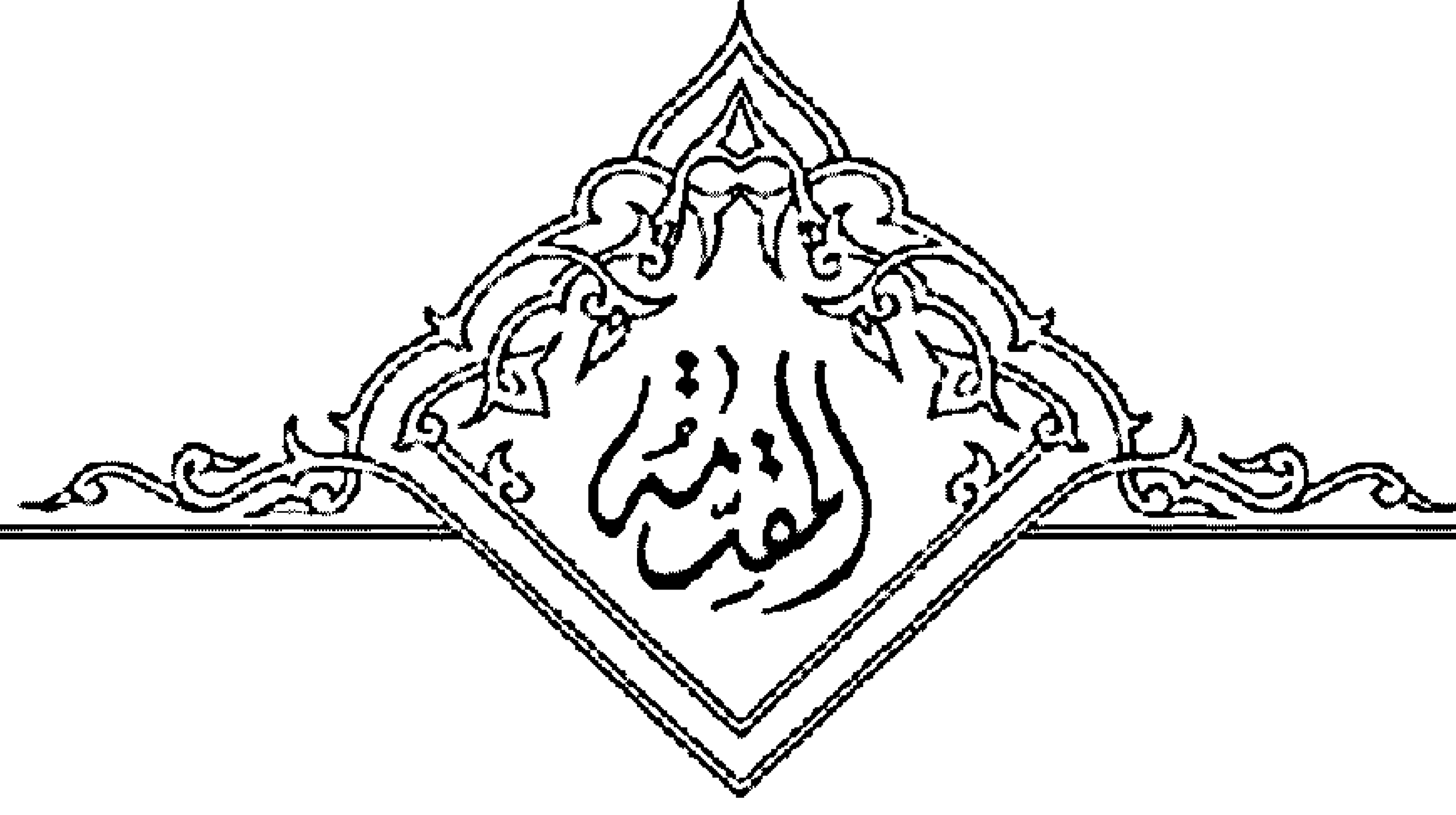
وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإنَّ أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من باب طَلَب العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناسِ والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه

مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي



شَكَّلت الرحلة بالنسبة لمسلمي الغرب الإسلامي، منذ فجر الدعوة الإسلامية وإشراق شمسها على ربوع هذا الجانب من العالم العربي الإسلامي، هاجساً دائم الحضور ومطلباً قوي الإلحاح، ورغبة دفينة في النفوس سرعان ما تعبر عن ذاتها وتتفتق مستندة إلى الواجب الديني مُمَثَّلاً في الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي، ومتكئة على تقاليد راسخة في شَدِّ الرحال نحو الآفاق بحثاً عَمَّا تجود به من زاد ديني أو دنيوي.

كما أنَّ العامل الجغرافي الذي جعل الغرب الإسلامي في أقصى نقطة من خارطة العالم العربي الإسلامي، حتى سُمِّي في بعض الحوارات الطريفة بذيل الطاووس[1]، كان دافعاً قوياً لأهله للتواصل مع عواصم الثقافة العربية في المشرق، وفي مقدمتها المدينة المُنَوَّرة التي شَكَّلت مكاناً أثيراً للمجاورة والتزام حلقات العلماء ومجالس الفقهاء و نوادي الأدباء.

بل إن الرحلة بأنواعها الدينية والعلمية والسياحية والاضطرارية، مَثَّلت طريقاً للمجد وشَكَّلت سبيلاً للشهرة والتألق في مجتمع ظَلَّت أنظارُه وقلوبُه وأفئدتُه مرتبطةً بالمشرق كرَمْز للصفاء والطهارة والنقاء، وكعلامة للجذور والأصول، وكمنبع للشريعة والحقيقة.

---

(1) أورد المقري حكاية لطيفة مفادها أن هارون الرشيد قد وفد بين يديه بعض أهل المغرب، فقال الرشيد: " يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب. فقال الرجل: "صَدَقوا يا أمير المؤمنين وإنه طاووس، فضحك أمير المؤمنين الرشيد وتعَجّب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره". (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ 243/1).

وفي هذا الصدد فقد ذكرت المصادر بكثير من الإسهاب والتفصيل مدى الحفاوة التي كان يُستقبل بها العائدون من رحلاتهم والقافلون إلى أوطانهم بعد طول النأي والبعاد، بل لقد تحَوَّل هؤلاء العائدون في كثير من الأحيان إلى مصدر للعلم يأخذ عنهم الآخذون، وتُشَدُّ إليهم الرحال للسماع عنهم واستجازتهم، أو للتبَرُّك بهم والتماس الدعاء منهم وتنَشُّق عبير الأرض المقدسة في ثيابهم ومحمولاتهم.

ولا غرابة أمام هذه الهالة التي أُعطيت للرحلة في الغرب الإسلامي أن تشرع الرحلات أبواب الشهرة والمجد في وجه الرحّالة الذين كان منهم العلماء والمتصوفة والزُهَّاد والعُبَّاد والأدباء والشعراء والأطباء والفلاسفة والسفراء والأمراء والمغامرون وغيرهم.

ولما كان جانب كبير من الرحّالين المغاربة نحو آفاق المشرق من الفقهاء والعلماء والقضاة والأدباء، أي أنهم مَثَّلوا النخبة المُثَقَّفة في عصرهم، فقد كان حرصهم شديداً على تدوين وتوثيق دقائق رحلاتهم إلى المشرق ومجرياتها، وتسجيل يومياتهم وملاحظاتهم التي لا تخلو في الغالب من إشارات دالة ببلاغة على جوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للبلد موضوع الزيارة ولِمَا حَفَّ بالطرق المؤدية إليه من بلاد وعباد.

وأمام كل هذه الدوافع، فإنَّ المكتبة المغربية تزخر بعدد هائل من الرحلات، سواء منها الحجية أو غيرها، وسواء منها المطبوعة والمشهورة بين الناس، أو تلك التي لا زالت مخطوطة وحبيسة جدران المكتبات العامة والخاصة، ومن هذه الرحلات نذكر رحلة أبي سالم العَيّاشي المغربي التي تتميز بالمسار الجغرافي الهام الذي مسحته، فقد انطلقت هذه الرحلة سنة (1072 هـ/ 1661م) من سجلماسة بأرض المغرب لتصل إلى القاهرة، مروراً بكل من الجزائر وتونس طرابلس، قبل أن تأخذ وجهتها المُحَدَّدة وهدفها المقدس؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة، موئل الشريعة والحقيقة، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم، وموطن الرجال والأفكار، ورمز الخلاص الديني والدنيوي.

ولكنَّ أبا سالم العياشي في خضم هذا المسار الباذخ لم يكتف بما اكتفى به غيره من الرحّالة، فقد آثر أن تمتد رحلته إلى القدس الشريف للقاء الرجال والاحتكاك بالأفكار، والتمسح بالمقامات والمزارات، فحَلَّ، ضمن ما حل به من

مدن وقرى، بكل من غَزَّة والرملة وبيت المقدس والخليل، والتقى خلال هذا المسار الجغرافي الغني بكثير من الرجال، ووقف على عدد من الكتب والأفكار، وجَابَه عدداً من التيارات العقائدية والصوفية.

على أنَّ عُمدة هذا العمل الرحلي الموسوعي يبقى بلا منازع المدينة المنورة التي لازمها أبو سالم العياشي لمدة سبعة أشهر درس خلالها فنوناً من العلم وألواناً من المعرفة، وجالس أثناءها عدداً من الرجال، واحتكَّ بجُملة من الأفكار والمعتقدات، وأجاز واستجاز، وتَلَّقى وأخَذ، وأفاد واستفاد، وقَيَّد وألَّف.

رحلة أبي سالم العياشي ديوان علم وأدب:

تَمَيَّزت الرحلة العياشية، انسجاماً مع شخصية مؤلفها واتساقاً مع خصائص عصرها، بنشاط علمي مُتَميِّز، فكانت، كما وصفها صاحبها ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، أي أن عجلتها قد دارت باتجاه الديني في تساوق تام مع العلمي، ولا غرابة أن يتلازم الهدفان عند أبي سالم العَيّاشي الفقيه العالم، والمؤمن الورع الذي يرتجي الخلاص ويقصد منابعه، يقول العياشي مؤكداً: "وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معا فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وبالإجابة لدعاء سائله كفيل"[1].

وبالفعل، فإن الرحلة العياشية تعتبر ديوان علم وأدب، وسجل تاريخ وتصوف، وكتاب أخبار وآثار، ويكفي أنها قد انفردت، دون سواها من الكتب والرحلات وأمهات المصادر، بإيراد جملة من النصوص والرسائل والإجازات والنقول وخطب الكتب التي لا نكاد نقف لها على أثر في غيرها من المظان، كما أنها تترجم لعدد من الأعلام الذين لا نكاد نحس منهم من أحد أو نسمع لهم رِكْزاً في غير هذه الرحلة التي تحتاج لوحدها إلى حَلْقةٍ من حَلْقات الدرس والبحث لكشف النقاب عن عدد من المواقف والرجال، والطرق والزوايا، والكتب

(1) الرحلة العياشية: 1:195.

والأشعار، والخزائن والمكتبات، والوقائع والأحداث، والمعارك والجولات، والبيوع والمعاملات، والإجازات والتوقيعات التي لا شك أن الوقوف عندها سيُعطي فكرة عامة وشاملة وموضوعية عن خصائص القرن الحادي عشر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الرحلة العياشية، أفكار ومعتقدات:

ولأنها تَمَّت في سياق تاريخي مُحَدَّد، ونظراً لخصوصية المجتمع العربي الإسلامي، الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، خلال القرن الحادي عشر للهجرة، فقد عَمَد أبو سالم العياشي بحرص الفقيه العالم، وبخصوصية عين الرحالة اليقظة، إلى تسجيل وتدوين كل ما صادفه في طريقه أثناء رحلته الموسوعية من أفكار ومعتقدات، وأعراف وعادات، وطقوس وممارسات، تداخل في تكوينها الخرافي بالديني، وشارك في نشأتها الاجتماعي والاقتصادي، وتعاون على تشكيلها اليومي والمعيش جنباً إلى جنب مع الثقافي والمكتسب.

وإذا كانت عين الرحالة يقظة وهي تُسَجِّل كل هذه الطقوس والعادات وترصد تلك الأعراف والمعتقدات، فإنَّ هذه العين لم تكن عن كل عيب كليلة، إذ حَرَص أبو سالم العياشي، الفقيه العالم، على رد كثير من المعتقدات الخاطئة، وتسفيه عدد من الأفكار الباطلة، ودَحْض جملة من المزاعم الضالَّة، وصَدّ الأفكار الجانحة نحو أطراف الغلو والشذوذ، سواء ما تَعَلَّق منها بالديني أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ولعل هذا ما يُعطي لرحلة العياشي خصوصية ويُكسبها نوعاً من التميز، باعتبارها رحلة موسوعية يجد كل باحث فيها ضالته ويستقي منها بسخاء مادته.

أفكار ومعتقدات دينية:

كان لمسار الرحلة العياشية نحو الديار المقدسة دور هام في تحديد ورسم طبيعة الأفكار التي وقف عندها أبو سالم العياشي في طريقه نحو المشرق، وتوجيه عين الرحَّالة إلى التركيز على أفكار ومعتقدات تتناغم وشخصية الرحَّالة ذاته،

باعتباره فقيهاً وَرِعاً وعالماً مشاركاً، فقد حَرَص العياشي على تدوين كـــل مـــا صادفه في طريقه من ضلالات وبدع وممارسات لا تمت إلى الـــدين الإســـلامي الحنيف بصلة، فكان أهم ما لَفَت نظره "هو البِدَع التي نَخَرت كيـــان المجتمـــع الإسلامي، شرقاً وغرباً، فعبَّر عن رأيه فيها بصراحة، وانتقد بكل جرأة العلمـــاء والفقهاء على سكوتهم على تفَشِّي الضلالات، وهو في رحلته كلما سَنَحت لـــه الفرصة يقدم لنا نماذج من هذه البِدَع والضلالات ويُبدي فيها رأيه ولو كان الأمر يتعلق بذوي السلطة والجاه"[1].

ومن الانحرافات التي سَجَّلها العَيّاشي في رحلته ما شاع في ركب أهل تونس من غلو وبدع وتضييع للأموال ومباهاة في مقام أبعد ما يكون عن زُخرف الحياة الدنيا و عوارضها الفانية، يقول: "وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها مَحَفَّة رفيعة تُحمل فيها، فلَمَّا ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها، وذلك غلو وبدعة وتضييع مال فإن المَحَفَّة لها مال وقيمة. وحضر أمير ركب تونس وكبراؤهم، و لم ينكر ذلك أحد منهم"[2].

ولما كانت هذه البِدَع والضلالات والطقوس والممارسات الضالة ليـــست على مجتمع معيّن بمحصورة أو على بيئة مُحَدَّدة بمقصورة، فإن أبا سالم العياشي لم يقدم جهة ما من جهات العالم العربي الإسلامي التي شملتها رحلته باعتبارها مركزا صحيحاً ومثالاً صافياً للعلم والعمل، أي أنه لم يتحيز لمنطلقه، و لم يؤخذ بموئلـــه وهو يسجل ما حَلَّ بعقيدة المسلمين وعملهم من خلل وزلل خلال القرن الحادي عشر للهجرة، بل إنه بدا مُتَحَلِّياً بموضوعية كبيرة لا شك أن وراءها، وكما قَدَّمنا، شخصية الرحالة العالم التي لا تبغي غير عين الحقيقة، على الأقل كما كانت تراها و تعتقدها. ففي الحرمين الشريفين، والعياشي يؤدي مناسك الحج، فإنه قد أثـــار الانتباه إلى ما اعتور سلوك الناس وممارساتهم ومعتقداتهم التي لا تمت إلى جـــوهر الحقيقة بصلة، وأعطى الأمثلة على هذه الضلالات، عامداً إلى تفنيدها بالبرهـــان والدليل، حرصاً منه على أداء دوره الديني، وتتريهاً منه لهذا المقام المقدّس من جهل الجاهلين وسفاهة السفهاء، ومما سجله العياشي في رحلته بهذا الخصوص نـــذكر قوله: "ثم ارتحلنا من ينبوع، وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية، وأشجار قليلـــة

---

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 19.
(2) الرحلة العياشية 149:1.

إلى أن نزلنا بموضع يُسَمَّى السقائف، ويقال له دار الوقدة، يقدون فيها الشمع الكبير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنَّه من أعظم المساجد المُسْرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشبَّه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين: أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقتل فيها أحد ذلك. وثانيها: لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدوّ فلا معنى له. ولا شكَّ أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه، والاستبشار بالأماكن التي أعزّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، ما لم يؤدِ ذلك إلى محظور، مثل اعتقاد أن الوقود سنّة متبعة، بل ربما ظَنَّ بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتُعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانّين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة مُحدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يميتنا على سنة النبي المستقيمة"[1].

على أنَّ البدع والضلالات التي سَجَّلها العياشي لم تقتصر على الطرقات، ولكنها تطاولت على المساجد وانتهكت حرمتها وقدسيتها، كما أنها لم تقتصر على العامة ولكنها امتدت لتشمل الخاصة من العلماء والفقهاء، ويُسَجِّل العياشي في هذا الإطار اتخاذ المساجد بالمدينة لعقد الإملاكات، مع ما يصاحب ذلك في كل زمان ومكان من تصنُّع ومباهاة أبعد ما تكون عن وظيفة المساجد الروحية ومهمتها القدسية، يقول العياشي مستنكراً: "ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد، ولقد حضرت إملاك هندي قَدِم من مكة مع الشيخ عيسى في الرجبية، وكان بينه وبين الشيخ صحبة، فأراد العقد لولده على ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة، خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع، ويضع نفسه بالمحل الذي وضعها الله فيه من الذل والاحتقار، فجلس الشيخ مُسْنِداً ظهره

---

(1) الرحلة العياشية 162:1.

للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس صَفّين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مُستَقْبِل القبلة وصف مُسندٌ ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخَطباء بالمدينة الخطيب أحمد البري، وبإزائه المتعاقدان والابن وأبو البنت، فشرع في الخطبة وأطال وأجاد في الثناء عليهما إلى أن ذكر العَقْد وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك، كل ذلك بلسان ذلق وصوت جهوري، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زور وباطل بحضرة أشرف الخلق وفي روضة الجنة، فصغرت نفسي عندي، وتضاءلت، ووددت أني لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أن صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته"[1].

على أن هذه البدع والضلالات كانت تأخذ بعدا أفظع لدى العامة، وتكتسي طابعا أكثر غواية وضلالة حين تقترن بفئة جاهلة لا تحمل من الإسلام إلا الاسم، ولا تميز صالح الأمور من فاسدها لغلبة الجهل عليها، وقد أورد العياشي في هذا الصدد بعض الوقائع والأحداث التي لولا معرفتنا الحقة بشخصٍ ناقلها لاعتبرناها من قبيل الغرائبي والعجائبي، ومن ذلك ما رواه العياشي قائلاً: "حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحملا إلى الحاكم، فشهدَت البيّنة أنها زوجته، وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال إنه لا ولد لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، ولم يعاقب"[2].

ويبدو العياشي وهو يرصد مظاهر الخلل في عبادات ومعاملات الناس، وخاصة العامة منهم، بالحرمين الشريفين حريصاً على تقديم الأسباب الموضوعية لذلك، وهو كثيراً ما يربط بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية في توجيه سلوك الناس وتأطير عاداتهم ومعتقداتهم، ثم إنه يحمل على البعد عن مراكز الحضارة والانعزال عن الناس، إذ يرى في هذا العامل سبباً لاستشراء الجهل والضلالة لغياب عنصر الاحتكاك والتأثير والتأثر، وبهذا فإن العياشي لا يكتفي بدور ناقل الأحداث والوقائع، ولكنه يتحوَّل إلى قارئ لخلفيات الأمور ومُحَلّل لها، يقول العياشي مستعرضاً بعض ما شاع من جهل في صفوف الأعراب من أهل الحجاز:

(1) الرحلة العياشية 1:287.
(2) نفسه 1:247.

"وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلَّمَا تجد أحدهم يُحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة وصلاة وصيام إلا القليل، وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميًا بالمغرب، وإن بلغ الغاية في الجفاء، إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود، وإن كان لا يُحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشدّ عندهم من الصلاة، بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مُخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك فقال: إنّ الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلّة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يُعَلّمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يُلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلّون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حَدًّا من حدود الشريعة؟ ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكّة فقال لي: ما حججت قط. وبينه وبين مكّة ثمانية مراحل، وسألته عن المدينة فقال لي: دخلتها مرتين أو ثلاثاً، وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون"[1].

الملمح الاجتماعي في مسار الرحلة العياشية:

كان للاجتماعي نصيب وافر من مدونة العياشي الرحلية، ولا عجب أن يحظى الملمح الاجتماعي بمكانة خاصة في الرحلة العياشية التي حرص صاحبها على الاختلاط بالناس والدخول إلى الأسواق، والاعتكاف في المساجد، وزيارة المقابر، والوقوف على المكتبات، والمشاركة في المناسبات، والمساهمة في حَلْقات الدرس. ولا شك أن هذه المشاركات الاجتماعية الواسعة قد كانت مؤطرة بشخص العياشي الفقيه الذي كان لا يُغْمِضُ جفناً عن مُنكر، ولا يغض طرفاً عن بدعة، ولا يتجاوز ضلالة إلا ودَوَّنها في رحلته وسَجَّل ملاحظاته بخصوصها، وقد كان

(1) الرحلة العياشية 1:300.

العياشي أثناء هذا التدوين والتسجيل حريصاً على قياس الشاهد على الغائب لرد الأمور إلى نصابها، على الأقل نظرياً، مع تقديم الدليل من الكتاب والسنة، والاعتماد على التاريخ، والمقارنة بين الأحداث والوقائع، مع الميل إلى التفسير والتعليل واستحضار العامل الاقتصادي في بروز ظاهرة اجتماعية معينة أو تفشي سلوك مُعَيَّن.

وقد سَجَّل العياشي بذكاء السبب الكامن وراء انتشار البُن في بيوت أهل الحجاز، فقد عزا العياشي هذا الأمر إلى أسباب اقتصادية ضاغطة، يقول: "أخبرني شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفي الدين القُشاشي كان يقول: مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق، والإنسان لا بُدَّ له من طعام يُقَدِّمه لمن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلُّف ذلك لكل أحد يدخل عليهم، وهذه القهوة خفيفة المؤنة، والناس راضون بها، غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأنَّ اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعاً"(1).

على أنَّ العامل الاقتصادي لم يكن المُحَدِّد الوحيد للعادات الغذائية في الحجاز، فقد كان المناخ أيضاً عاملاً مهماً في تحديد نمط الغذاء السائد في هذا الركن من العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر، يقول العياشي: "ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرُّون بتركه لحرارة أبدانهم ويبسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة، حتى إنَّ من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاءً إلا أن يكون لحماً، ويقلن: نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدَّى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غذاء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تَمَلَّكه بقصد ذلك"(2).

---

(1) الرحلة العياشية 1:122.
(2) نفسه 2:293.

وإذا كان العياشي قد بدا معجباً عبر دروب هذا النص الرحلي المتميز بأهل المدينة المنورة مبجلاً لهم، فإن هذا الإعجاب والتبجيل لم يمنع صاحبنا أحياناً من توجيه دفة ملاحظاته وتسجيلاته نحو مرفأ الانتقاد، خاصة حينما يتعَلّق الأمر ببعض ما كان يشذ في نظره عن السليم والسوي من السلوك والعادات. وفي هذا الصدد فقد نالت العامة دون الخاصة أكبر نصيب من هذه الملاحظات والانتقادات، وإن كانت في مجملها ذات طابع سلوكي مقارن بما خَلَّفه العياشي وراءه في قريته المغربية.

ووسط العامة تبرز المرأة المدينية في رحلة العيّاشي ذات نزعات خاصة تكمن بالأساس في رغبتها المُلِحَّة في الميل نحو مظاهر البذخ والترف، يقول العياشي مسجلاً: "ولقد أُخبرت أنَّ للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم"[1].

على أنَّ العياشي لا يقف عند هذا الحد في انتقاده لسلوك المرأة في المدينة المنوَّرة خلال القرن الحادي عشر للهجرة، ولكنه يُسَجِّل أن للنساء "على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن، من طيب أو شبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها، فقد حُكي أن امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفع لها عشرة دنانير ذهباً، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه وقالت له: أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلى أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها، وهذه حسرة عظيمة وذُل للرجال"[2].

ومن الآفات الاجتماعية الخطيرة التي سَجَّلها العياشي نذكر آفة الرشوة التي وجدت في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ساد خلال القرن الحادي عشر تربة خصبة ومجالاً ملائماً للانتشار حتى إنها أصابت كل المجالات ومست مختلف المهن، بما فيها المهن الشرعية؛ كالإمامة والخطابة والقضاء، يقول العياشي: "والحاصل أنَّ المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية، حجازاً ومصراً وشاماً، من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة، بل ووَقِيد المساجد

(1) نفسه 1:294.
(2) نفسه 1:247.

إنما تُنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عُزل دفع الراغب فيها مالاً للولاة فيولونه مكانه، على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك، خصوصاً منصب القضاء فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاضٍ يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعاً، وإنما مدار أمرهم على الرشا جهاراً، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مراراً متعَدِّدة بحسب كثرة الرشا وقلتها"(1).

والواقع، فإنَّ المتصفح لرحلة أبي سالم العياشي يجد أمامه دراسة اجتماعية متميزة، بحيث لا ينتهي من قراءة هذا النص الرحلي الضخم إلا وقد أخذ فكرة عامة وشاملة على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية في أهم مدن وحواضر العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر للهجرة.

جوانب من الحياة الاقتصادية بعين العَيَّاشي الرحالة:

حرص أبو سالم العياشي خلال رحلته الشهيرة إلى الديار المقدَّسة بحس الفقيه العالم على تتبع مختلف نواحي الاختلال في مجريات الحياة الاقتصادية كما لمسها في مختلف المعاملات التجارية، سواء بأسواق الغرب الإسلامي أو بأسواق المشرق التي خَبرها عن قرب ولمس خصائصها عن طريق المعاينة والمعاملة، ومن هذه المعاملات وتلك المعاينات نذكر مسألة الموازين والمكاييل وقيمة العملات وشرعيتها، والعياشي في هذا الجانب يتحول إلى صاحب حسبة يحرص على قيمة العملات حفاظاً على الاقتصاد من الانهيار والتداعي، كما يحرص على سلامة الموازين والمكاييل تأميناً لمصالح المشتري وحفظا لها.

كما أشار العياشي إلى احتكار السماسرة لعمليات البيع والشراء في أسواق الحجاز وانتشار عمليات السمسرة، سواء بأسواق المغرب أو المشرق، إلا أنه يقدم سبباً طريفاً لانتشار هذه الظاهرة وشيوعها، ويتمثَّل هذا السبب في التشابه والتشاكل بين السماسرة، من حيث المظهر والطباع، وبين جالبي السلع والمؤن من الأعراب إلى أسواق الحجاز، يقول العياشي: "ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذي يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب

(1) الرحلة العياشية 282:1.

الساكنون بالمدينة وأطرافها، ولهم اسم يختصون به، كالبرغازين عندنا بالمغرب، فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة، وهذا من تلقي السلع المنهي عنه، ولكنهم قد ألفوا ذلك واستمرَّت عليه عادتهم، وألف ذلك القادمون أيضاً، و لو أنَّ أحداً من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتري به البرغازون، فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك، ويركنون إليهم ويميلون إلى قولهم ويعرفون كيفية المساومة معهم، فلا يعتاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل وغيرهم ليس بتلك المثابة، فلا يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طباعهم، فاستسهل الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب"[1].

ولقد تتبَّع العياشي بدقة بالغة أسعار السلع وقيمتها، وأشار إلى أسباب ارتفاعها أو تدنيها، وألمح بين الحين والآخر إلى الأسباب المحددة للأسعار، كما أنه قدم خلال هذا عرضاً مفصلاً لمختلف معروضات الأسواق من أثواب ومفروشات، وخضر وحبوب، ومياه ومأكولات، وكتب وجوار، وبهائم وعلف، وغيرها مما يُباع ويُشترى، يقول: "وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة، فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة، وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث الريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مائدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية. وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها".

ولا شك أنَّ الاهتمام بهذه الجزئيات، والحرص على إيراد هذه الدقائق ينسجم والطبيعة الموسوعية للرحلة العياشية التي اهتمت بكل الجنبات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمسار الذي سلكته، كما أن هذا كله يكشف عن شخص الرحالة الذي بدا خبيراً مجرباً للأسفار والأخطار، فهو غير مأخوذ بما تقدمه الطريق كل يوم من جديد، كما أنه غير مشدود لذاته منعزل عن محيطه.

(1) الرحلة العياشية 1:291.

المجال الصوفي في الرحلة العياشية:

كان لمسار المجتمع العربي الإسلامي نحو الانحدار خلال القرن الحادي عشر للهجرة، لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وحضارية، دور كبير في انتشار الطرق والزوايا بمختلف ألوانها الشعبية والعالمة، والسنية والشيعية، والحضرية والبدوية، والمشهورة والمغمورة. وإذا استحضرنا انتماء أبي سالم العياشي إلى مدرسية صوفية معينة، وانحداره من مؤسسة الزوايا، أدركنا سر اهتمامه الكبير بالوقوف عند مختلف الطرق الصوفية المنتشرة في أرجاء خارطة العالم العربي الإسلامي التي مسحها خلال رحلته، أو تلك التي التقى أتباعها وأنصارها وحاور المنتسبين إليها.

ولقد عَرَّف أبو سالم العياشي بتعاليم بعض هذه الطرق وقَدَّم أدبياتها، وسَجَّل بعض المحاورات التي دارت بينه وبين أصحابها وأتباعها، وأبدى إعجابه، بل وافتتانه، ببعضها، كما أنه لم يُخفِ تحفظه من بعض الطرق المغالية، وقد صَرَّح العياشي أن سر اهتمامه بتعريف الطرق والمدارس الصوفية لقراء رحلته إنما هو بسبب غرابة تلك الطرق ببلده المغرب الذي لم تشتهر به غير طرق معينة، يقول: "وإنما ذكرت من ذلك شيئاً قليلاً لئلا تتشَوَّف نفس الناظر في هذا الكتاب إلى من تُنسب إليه هذه الطرق لغرابة أكثرها بقطرنا ما عدا الشاذلية وشُعَبها، والله تبارك وتعالى ينفعنا بمحبتهم ويرحمنا بالتطفل عليهم بمجرد الانتساب العَاري عن الاكتساب، فهو المتفضل على الإطلاق، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"[1].

ومن هذه الطرق التي عُرِف بها العياشي نذكر الطريقة النقشبندية التي وجَدَها كبيرة الاقتراب من مذهب السنة والجماعة، شديدة الشبه بالطريقة الشاذلية، يقول: "ولَمَّا كانت طريق ساداتنا النقشبندية مع نفاستها وظهور محاسنها ولطيف أسلوبها وجريانها مع الكتاب والسنة قَلَّما تُوجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد مشايخها، فلم تصل تآليفهم إليه ولا دَخَل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم، مع اكتفاء أهل المغرب منها ومن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأُمنت غائلتها، واستقامت أصولها، وجرت

(1) الرحلة العياشية 193:2.

مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها، طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع، الإمام أبي الحسن الشاذلي وأتباعه أئمة الهُدَى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق، رضي الله تعالى عن فريقهم، وجعلنا من سالكي طريقهم، ولعمري، وما عمري علي بِهيِّن، ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد، وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد"(1).

ويبدو أن سر اهتمام العياشي بهذه الطريقة واهتباله بشيوخها وأقطابها، هو اقتراب أصولها وفروعها وتعاليمها من الطريقة الشاذلية بحيث إن من "تأمَّل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية لم يجد بينهما اختلافاً إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلاً"(2).

ولقد حرص العياشي أثناء رحلته على زيارة الأضرحة والتبرُّك بالمقامات، والوقوف عند الزوايا والرباطات، وبدا مشغولاً بإيراد أخبار المتصوفة والزهاد والعباد، مع ذكر كراماتهم ومأثوراتهم والتأكيد على مكانتهم الروحية والاجتماعية. ولا غرابة في هذا، فالعياشي نتاج صادق لمؤسسة الزوايا، ووليد شرعي لبيئة أولت الكرامات أهمية بالغة في مسار ومصير البشر، وهو قبل هذا وذاك متصوف سني، وفقيه عالم، يُقَدِّر السلف الصالح حق قدره.

ولقد بدا العياشي في دروب نصه الرحلي متصوفاً سُنيًّا، عميق الإيمان، شديد التعلق بمحبة الرسول عليه السلام، "كما أنَّه يقتدي بالسلف الصالح ويقدر شيوخ التصوف وأهله، ولكنه صاحب حس نقدي وله نظرة صريحة إلى بعض المفاهيم والأقوال التي يأخذ بها العامة لأنها صادرة عن رجل صالح أو قطب من أقطاب التصوف بدون تأويل، وقد أَلَحَّ في أكثر من مناسبة على ضرورة التأويل، وصرح بأن لكلام الأئمة ظاهراً واضحاً، ولكن مراميه الخفية لا ينالها إلا العارف المجتهد العامل المتخلق بأخلاق المتصوفة"(3)، كما حاول العياشي البحث عن أصول سنية لبعض الممارسات الصوفية، فمن خلال "عرض أبي سالم لأسانيده الصوفية

(1) نفسه 1:181.
(2) نفسه 1:187.
(3) الخلق الصوفي عند أبي سالم العياشي، نفيسة الذهبي، مجلة المناهل (وزارة الثقافة – المغرب)، ع 38، دجنبر 1989،ص: 342.

ولمختلف مظاهر الاقتداء والانتساب والتبرك عند السالكين، يبدو مظهر اللباس الذي يتم برواية يتعين سندها، وقد تَتَبَّع عدداً مهماً من أسانيد لبس الخرقة الصوفية في كتاباته"[1] محاولاً خلال ذلك تسنين هذا الفعل ورده إلى جذور نبوية طاهرة، وهو الفعل الذي تَحَوَّل من الرسول عليه السلام/ الصحابي، إلى الشيخ /المريد، ولتتحَوَّل الملابس النبوية الشريفة إلى خرقة العارف، وليتحَوَّل الفعل برمته إلى نوع من المباركة وإيداع السر والتعبير عن الرضا والانتساب إلى الطريقة.

لقد كان التصوف عند أبي سالم العياشي محكوماً بقاعدة أخلاقية كبرى تستمد أسسها من الكتاب والسنة وما أُثر عن السلف الصالح، وقد كانت هذه القاعدة معياراً لتقييم مختلف الطرق الصوفية التي احتك بها العياشي في طريقه نحو محجه الروحي والعلمي، يقول ناصحاً: "إياك والاهتمام بالرزق، والخوف من الخلق، فإنهما أصل كل وهن في الدين، وضعف في اليقين، فإنَّ الأول يوجب الشك في المقدور، وفتور في النفس، وكل زائد في المعاش، وتعب في لاش، والثاني يثبط عن كثير من الخيرات، ويحمل على قبيح المداهنات، ويستعجل به المرء هماً لا ينقضي، إلى غير ذلك من المفاسد، والاعتماد على الله كاف عنهما وناف عنك مَعَرَّتَهما، مع التبري من الحول والقوة. وكن أعمى وأصم عن الأمور المستقبلة، وإنها لكذلك، واجعل زمامك بيد الشرع المحمدي الواضح"[2].

وإذا كان الشرع المحمدي الواضح البَيِّن هو الذي أطَّر تصوف العياشي، ومعه كافة أهل الغرب الإسلامي، فإن زمام الطرق الصوفية بالمشرق قد أفلت لدى بعضها، فابتعدت درجات عن الشرع المحمدي، ومن ثمة فقد بدا العياشي حريصاً على تعضيد ودعم التصوف السُنِّي، كما عمل بالمقابل على نقض ومدافعة التصوف الفلسفي الذي عَلَت بعضُ أصواته بالمشرق، وانتشر بعضُ أتباعه بالحجاز، وشاعت بعض مؤلفاته بين الناس، ومن هنا تبدو الرحلة العياشية بمثابة رصد دقيق وصادق لكل ما ضجت به الحياة في العالم العربي الإسلامي خلال القرن الحادي عشر للهجرة من تيارات فكرية وعقدية، ومذاهب صوفية وفلسفية عملت الحياة السياسية المضطربة على نموها وشيوعها بين الأفراد والجماعات.

---

(1) اقتفاء الأثر، ص: 45 من مقدمة المحقق.
(2) الرحلة العياشية 1:64.

رحلة أبي سالم العياشي... رجال وشخصيات:

تميز القرن الحادي عشر للهجرة، في وجهه الثقافي والعلمي، بظهور حركة فكرية نشيطة، خاصة في الحجاز الذي شَكّل نقطة استقطاب للعلماء والفقهاء والمتصوفة من مختلف ربوع العالم العربي الإسلامي، ورغم هذا فإن الباحث في التاريخ الأدبي خلال القرن المذكور يجد أن صفحات مُشرقة من النتاج الأدبي قد تم تجاوزها ونسيانها خلال مرحلة مديدة تعَدَّت هذا القرن لتشمل قروناً أخرى بحيث لا يكاد التاريخ الأدبي في هذه المراحل التاريخية يذكر إلا في ارتباط بمصر والشام وبعض المراكز الأخرى هنا وهناك، علماً بأنّ هذا مجانب تماماً للحقيقة ومخالف للواقع الذي لا زالت المصادر التي أرَّخت للمرحلة تمدّنا ببعض حقائقه التي تحتاج لمزيد من الجهد والعمل، دراسة وإخراجاً وكشفاً، لإنصاف مرحلة غنية بعطائها العلمي والفكري من تاريخ الأدب العربي، سيما في الحجاز الذي كان على الدوام منطلقاً وموئلاً للأدب والأدباء، ومهوى للأفئدة والعقول التي بقدر ما أعطت وتلاقحت بقدر ما أخذت واستفادت قبل أن تعود إلى بلدانها مُحَمَّلة بأغلى زاد وأشرف بضاعة.

مجاورة العلماء والفقهاء في الحرمين الشريفين؛ الجامعات المفتوحة:

شَكَّلت المجاورة بالحرمين الشريفين من طرف الفقهاء والعلماء والأدباء والمتصوفة الذين شَدُّوا الرحال إلى البقاع المطهرة من مختلف بقاع العالم الإسلامي وأصقاعه خلال القرن الحادي عشر للهجرة، وخلال ما سبقه وما تلاه من قرون أيضاً، ظاهرة مُتَمَيِّزة أغنت الحركة الفكرية والأدبية بالحجاز الذي أصبح بمثابة جامعة مفتوحة تستقطب الأساتذة الزائرين وتحتضن الطلبة المقيمين والوافدين على السواء، وساعد على قوة هذه الظاهرة وحيويتها انتشار المدارس والأربطة وإيقاف الأوقاف وتحبيس المكتبات وإهداء الكتب، والعناية بالطلبة والمُدَرِّسين.

ويسجل الدارسون أن المجاورة أصبحت تُشَكِّل ظاهرة علمية واجتماعية بارزة كان لها كبير الأثر في المجالات الاقتصادية والبشرية والعمرانية والثقافية

للحجاز، فقد عملت هذه الظاهرة على اختلاط الأجناس وتمازج الثقافات، وتجاور الأعراف والعادات، وانتقال الكتب والمؤلفات، وتبادل الرسائل والإجازات. كما ساهمت ظاهرة المجاورة في عملية التأليف والتدوين التي وجَدَت في الحجاز بيئة خصبة لنموها وانتشارها بعد ذلك في الآفاق، خاصة وأنها كانت تأخذ في كثير من الأحيان طابع المساجلات والمطارحات والمناقضات والمعارضات، والردود والتعقيبات، والشروح والتوضيحات، وهذا ما سَاهَم في بَعْث الحياة الثقافية في الحجاز الذي أصبح عاصمة للثقافة العربية الإسلامية حينئذ، إليه تُشَدُّ الرحال، وفي أرجائه تنزل الوفود، وفي مكتباته تستقر مختلف الكتب التي جادت بها القرائح على امتداد رقعة العالم العربي الإسلامي.

وقد كان أبو سالم العياشي المغربي واحداً من هؤلاء العلماء الذين شدوا الرحال باتجاه الحرمين الشريفين، وقد حرص في طريقه نحو وجهته المقدسة على لقاء الرجال والاتصال بالأعلام من متصوفة وفقهاء وقضاة وعلماء وأدباء وغيرهم، كما عمل أثناء مدة مجاورته التي فاقت السبعة أشهر على التفاعل الإيجابي والخلاق مع محيطه الاجتماعي، وهو ما نتج عنه جملة من الإجازات والاستجازات، وأفرز عدداً من القصائد والرسائل والخطابات.

أعلام وشخصيات:

عمل أبو سالم العياشي على المشاركة الفاعلة في الحياة الثقافية والعلمية لعصره، فقد أجاز واستجاز عدداً من معاصريه من العلماء، المشارقة منهم والمغاربة، كما عمل على تداول العلم والمعرفة بين قصاد مجلسه والوافدين عليه من مشارق الأرض ومغاربها، طلباً لما في يده، ورغبة في ما في جعبته من فنون العلم وضروب المعرفة، كما أنه قد تبادل مع معاصريه الرسائل والخطابات، وتناوب معهم الردود والتعقيبات.

و لقد بدا العياشي عبر مختلف دروب عمله الرحلي الضخم حريصاً على ترجمة عدد من الأعلام الذين التقاهم في مساره الرحلي وجالسهم، أو من الذين استجازهم وأخذ عنهم، حتى إنه عَقَد فصلاً خاصاً" في ذكر بعض السادات المشايخ الأعلام أئمة العلماء الكرام الذين [أخذ] عنهم ما تيسر من العلم الشريف

[وانتفع] بفوائدهم الجليلة تبركاً بذكرهم، وإيضاحاً لجليل قدرهم، واستجلاباً للدعاء لهم، رحمهم الله تعالى أجمعين آمين"[1].

والواقع فإنه يصعب، بل يستحيل التعرض في هذا المقام لكل من ترجم له العياشي في رحلته من العلماء والفقهاء والمتصوفة الذين يُعَدُّون بالعشرات، ويتوزعون بين المشهور والمغمور، والمشرقي والمغربي، والأديب والمتصوف، والعالم والمتعالم. ويكفي أن نذكر من كل هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي، يقول العياشي: "أول من قرأت عليه بالمدينة وأخذت عنه، بقية السلف الصالح وقدوة كل غاد في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي، زاده الله عِزّاً وشرفاً، وأسكنه من منازل التقرب غرفاً، هو من قدماء مشايخي"[2]. ومن مشايخ العياشي كذلك الشيخ عبد الجواد الطريني وإبراهيم الميموني، يقول العياشي فيهما: "وممن لقيته من مشايخنا في ذلك اليوم الشيخ عبد الجواد الطريني، ووجدناه قد أسن، وهو مع ذلك ملازم لباب خلوته في الجامع كما هو شأنه رضي الله عنه. ولقيت أيضا ذلك اليوم شيخنا الهمام علم الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، أبا إسحاق إبراهيم الميموني، وقد أثر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله، ومع ذلك قد متع بسمعه وبصره وبنضارة الوجه على كبره"[3].

ومن شيوخ التصوف الذين التقاهم العياشي نذكر الشيخ زين العابدين الطبري، يقول في حقه: "وفي يوم الأربعاء المذكور ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري فوجدته بداره وسلمت عليه، ورَحَّب بي كثيراً وعزيته في أخيه شيخنا أبي الحسن، وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة الأشغال بولايته الفتوى، مضافة إلى إمامة المقام، مع شغل البال بأيام الموسم، فلما كان يوم السبت لقيته بالمسجد الحرام بإزاء باب السلام، ولقنني وأجاز لي الخرق الثلاث: القادرية والسهروردية والكُبروية، وقد كان أجازنيها أيضا قبل ذلك"[4].

(1) الرحلة العياشية 289:2.
(2) نفسه 303:1.
(3) نفسه 115:1.
(4) نفسه 181:1.

والواقع فإن رحلة العياشي تعد بمثابة كتاب لتراجم أعلام القرن الحادي عشر للهجرة، إذ لم يبق ممن انتسب لهذا القرن من فقيه عالم، أو متصوف عارف، أو أديب شاعر، سواء بالغرب الإسلامي، أو بمصر والحجاز، أو بالقدس وما والاها من المدن والأمصار، إلا وحرص العياشي على الالتقاء به ومقابلته والأخذ عنه والتعريف به، أو اكتفى بالإشارة إليه حين حالت عوارض زمانية أو مكانية دون لقائه، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن أبا سالم العياشي قد ألف كتابين اثنين[1] سجل فيهما نشاطه العلمي والثقافي في مختلف المراكز الثقافية العربي الإسلامية خلال القرن الحادي عشر للهجرة.

الرحالة ورحلته، أبو سالم العياشي؛ مسار رجل:

تصدى للتعريف بأبي سالم العياشي وترجمته عدد من المصادر[2]، القديمة والحديثة، بل لقد خُصصت مؤلفات بذاتها تناولت جوانب مختلفة من شخصيته[3]؛ فهو ينتمي إلى قبيلة آيت أعياش بسجلماسة، وهو رحالة المغرب عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي، الملقب بعفيف الدين، ولد لليلة بقيت من شهر شعبان سنة (1037هـ: 4 ماي 1628م)، وتُوفي بالطاعون يوم (الجمعة 18 ذي القعدة عام 1090هـ: 1679م)، وبين التاريخين فقد مَرَّ صاحبنا بأطوار النشأة والتكوُّن التي ميزها حرصه على الأخذ عن علماء بلده وفقهاء قطره، وخاصة منهم شيوخ الزاوية العياشية، قبل أن يشتد عوده فيؤثر الرحلة إلى المشرق، يقول: "وكنت أول معاناتي للطلب، وتشبثي بأذيال الأدب، كَلِفاً بالرواية، ومستروحاً إليها من أثقال الدراية، فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلاً، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلاً ولا أبرأ عليلاً، لأنهم اقتصروا من الكتب

---

(1) نقصد بذلك كتاب: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، وهو فهرس لأبي سالم العياشي. أما الكتاب الآخر فهو: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، وعنوانه دليل على مضمونه.

(2) من المصادر التي عرفت بأبي سالم العياشي نذكر: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، و إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، وهما بقلمه، كما نذكر: التقاط الدرر، ص: 212 – 213. نشر المثاني 2:254. إجازة عبد القادر الفاسي لأبي سالم العياشي، ص: 127. تاج العروس: عيش. عجائب الآثار 1:115. فهرس الفهارس 2:832 – 835. شجرة النور الزكية 1:454.الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:509. الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ص: 90. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى 3:763. الفكر السامي 4:333. هدية العارفين 1:478.

(3) من ذلك نذكر كتاب: الثغر الباسم، وكتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب.

على ما اشتهر، واستغنوا بما غاب بما ظهر، دون المسلسلات والأجزاء الصغار وعوالي الإسناد وغرائب الأخبار، فلَمَّا مَنَّ الله تعالى بالرحلة إلى البلاد المشرقية أولاً وثانياً، ولعنان العزم نحو الرواية ثانياً، تتبعت ذلك عند مظانه وعند أربابه، ورميت، والحمد لله، بسهم مصيب مع أصحابه"(1).

"وتعد هذه الفترة من أخصب مراحل حياة أبي سالم، فقد ساهم في الحركة الفكرية التي عرفها عصره في العلوم والآداب، فسجلت رحلته ماء الموائد العلاقات الفكرية والاجتماعية بين المغرب والمشرق.. كما تصَدَّى للتدريس في المدينة المنوَّرة، وأجاز كثيراً من العلماء الذين أجازوه بدورهم"(2).

وأما شيوخه الذين أخذ عنهم واستجازهم وأجاز لهم، فقد جَرَّد قلمه وسَجَّل أسماءهم بحرص بالغ في كتابيه: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، واقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، فلا داعي لجردهم في هذا المقام، لكن ما نؤكد عليه هو الدور البالغ للرحلة العياشية في التقاء أبي سالم العياشي بالعلماء والفقهاء والأدباء من كل الأقطار والآفاق، الشيء الذي فتح باب التأثير والتأثُّر، وسمح بانتقال الكتب والمصنَّفات، ورواج الأفكار والمعتقدات على نطاق واسع بين المشرق والمغرب.

ولعل هم ما ميز حياة أبي سالم العياشي هو رحلاته الثلاث نحو الديار المقدسة(3)، وتدوينه لمجريات ثاء الأثافي منها، الشيء الذي أتاح له الانتشار على نطاق واسع، فكان بحق ملمحاً صادقاً من ملامح القرن الحادي عشر للهجرة بكل تجلياته.

لم يشع بين الناس من كتب ومؤلفات أبي سالم العياشي التي تناولت كل جوانب الأدب بمفهومه الواسع، بالإضافة إلى الفقه والتصوف؛ سوى ثلاثة كتب، وهي:

- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر.

(1) اقتفاء الأثر 100-101.
(2) أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 85 – 86.
(3) قام أبو سالم العياشي برحلته الأولى سنة 1059 هـ، ورحل للمرة الثاني سنة 1064 هـ، أما رحلته الثالثة التي تمخض عنها هذا النص فلقد انطلقت سنة 1072 هـ.

- إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء.

- ماء الموائد، أو الرحلة العياشية[1]، وهي موضوع هذا التحقيق.

أما مؤلفات الرحل المخطوطة فهي عديدة ومتناثرة بين المكتبات في عدد من الأماكن والبلدان، وقد جردها الأستاذة نفيسة الذهبي في سياق تقديمها لكتاب اقتفاء الأثر، فمنها:

- إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب. (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1956 د).

- التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز (مخطوط الخزانة العامة رقم: 43 ك ضمن مجموع).

- تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1388 د ضمن مجموع).

- الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف فيما وقع بين فقهاء سجلماسة من الاختلاف (مخطوط الخزانة العامة رقم: 39 ك).

- معارج الوصول؛ وهو كتابٌ في التصوف (مخطوط الخزانة العامة رقم: 1674 د).

الرحلة:

تستمد الرحلة العياشية قيمتها الحقيقية من مضمونها الغني الدسم الذي جعل صدرها يتسع لاحتضان عدد كبير من النصوص والأشعار والتراجم والأخبار، الشيء الذي أضفى عليها طابع الموسوعية، كما تستمد هذه الرحلة قيمتها من مكانة صاحبها، فالعياشي عالم من كبار العلماء، وفقيه من أجلّة الفقهاء، وهو بعد هذا شخص يبدو متزن الخطى رصين النزعات كما ينبغي لمثله أن يكون. ثم إنّ مسار الرحلة، وهو مسار مقدس، قد رسم معالمها العامة وحد حدودها التي آلفت

(1) طبعت الرحلة العياشية على الحجر في جزأين سنة 1316 هـ 1898 م، وأعيد طبعها بالرباط سنة 1977م.

بين جغرافيا الأرض والفكر، وزاوجت بين متطلبات الروح والعقل، ففي تساوق تام مع مسار الرحلة، فإن صاحبها بدا مسكوناً بالتعَرُّض لعلماء الأمصار وذكر تآليفهم وعرض لقاءاته بهم، وإيراد القضايا الفقهية والعلمية التي تطارحها معهم، كما أنَّه كان بين الفينة والأخرى يُلمح إلى طرف من مؤلفاتهم، ويشير إلى النوازل التي يطرحها الارتحال والسفر من أفق إلى آخر، كما كان يهتم بكل ما يتخَلَّل العبادات والمعاملات، هنا وهناك، من شوائب وزيادات.

ولعل هذا ما حفظ للرحلة العياشية مكانتها منذ أن خرجت للوجود، فكانت نبراسا اهتدى على ضوئه كثير من الرحالة، وتتبع خيوطه وخطوطه عدد من الكتاب والمصفين، سواء في مجال الرحلة أو مجال التراجم والأعلام، وبالنظر إلى قيمتها العلمية الكبيرة فإن الرحلة العياشية قد طبعت مرتين؛ الأولى على الحجر والثانية مصورة عنها، كما صدرت بعض مقتطفاتها وأجزائها[1].

والواقع، فإن رحلة العياشي، بالنظر إلى موسوعيتها، وبالنظر كذلك إلى طبيعة مادتها التي توزعت بين شتى ألوان المعرفة وفنون العلم، تعد بمثابة موسوعة علمية جامعة نأمل أن يكون إخراجها في هذه الحلة دافعا لإعادة قراءتها وكشف مخبئاتها.

(1) من هذه المقتطفات نذكر: المدينة المنورة في رحلة العياشي لمحمد أمحزون. و مقتطفات من رحلة العياشي لحمد الجاسر. وما الموائد ليبيا طرابلس وبرقة لسعد زغلول عبد الحميد ومحمد عبد الهادي شعيرة ومحمود حسن عطية السعران ونبيلة حسن محمد.

خطة التحقيق

اعتمدنا في تحقيق كتاب الرحلة العياشية على النسخة الخطية المحفوظة بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط تحت رقم: 406 ق[1]، وللإشارة فقد استنسخ عن هذه المخطوطة ميكروفيلم محفوظ بذات الخزانة، رقم: 493. ونشير إلى أن النسخة الخطية التي اعتمدناها أصلا لهذا العمل هي بخط أحمد بن عبد الرحمن العياشي، وقد نسخها لأبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي سنة 1102 هـ.

تقع مخطوطة الرحلة العياشية في 720 صفحة، كل صفحة تحتوي ما يقارب من 28 سطرا، ولا تخلو هذه النسخة من بعض الرسوم والبيانات، كما تتخللها بعض الهوامش والإضافات والحواشي والطرر. وقد رمزنا إلى هذه النسخة بالرمز: خ.

وإلى جانب هذه النسخة التي كانت معولنا في إخراج الرحلة العياشية، فقد استأنسنا بالطبعة الحجرية للرحلة، واعتمدناها للمقابلة وتصويب الخطأ ورد الخلل والزلل الذي يمكن أن يكون قد اعترى عملية الكتابة والنسخ، وقد رمزنا إليها بالرمز ط.

وقد سمينا هذه الرحلة بالرحلة العياشية، كما هو مثبت على أغلب النسخ التي رجعنا إليها، وارتأينا أن نتجاوز الاسم الذي أطلقه عدد من الباحثين على الرحلة، ونقصد بذلك ماء الموائد لأننا لم نجد لهذا الاسم أثرا في الرحلة ولا في سواها من أعمال أبي سالم العياشي وأعمال معاصريه.

ولإخراج هذه الرحلة في صورة تليق بمكانتها ومكانة مؤلفها، فقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر والأصول، أهمها كتب المؤلف، سواء منها المطبوعة أو المخطوطة، كما ركزنا على الكتب التي شكلت مادة الكتاب الرئيسة. ولإضاءة

(1) تحمل هذه النسخة عنوان: الرحلة العياشية إلى الديار النوارنية، ولعل المقصود: الديار النورانية.

النص واستجلاء خباياه وتبيين غامضه، فقد عولنا على مجموعة من الأصول التي تراوحت بين القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي الشريف، والمتون الفقهية، وكتب التاريخ والرحلات، ومعاجم اللغة والبلدان، بالإضافة إلى كتب التراجم والأعلام.

وقد عملنا على ضبط النصوص وتخريجها ونسبة الأقوال إلى أصحابها، وأشرنا إلى أوزان الأشعار الواردة في المتن مع التنصيص على مصادرها وأصولها، كما عنينا بضبط الألفاظ الغريبة وشرحها ووضحنا العامي منها، وعرفنا بالأعلام البشرية المغمورة مع الإشارة إلى مصادر الترجمة، وقد راعينا أن تكون هوامش التحقيق وظيفية ومسعفة على قراءة النص والتفاعل معه، فلم نُثقلها بما يُخرج الرحلة عن غرضها، أو يفقدها خصوصياتها وطابعها العام.

وقد ذَيَّلنا هذا الكتاب بفهارس كشافة؛ كفهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية الشريفة، وفهرس الأعلام، وفهرس الأشعار، وفهرس المدن والأماكن والبلدان، وفهرس البحار والأنهار والآبار والمياه، وفهرس الزوايا والأضرحة والمقامات والأربطة والكنائس، وفهرس الأبواب، وفهرس الكتب الواردة في المتن، وفهرس المصادر والمراجع، وختمنا كل هذا بفهرس للمحتويات.

ولقد عملنا على احترام السياق التاريخي لهذا العمل الرحلي الضخم، فتعاملنا مع المعطى الجغرافي في استحضار تام للمعطى التاريخي؛ فعرفنا بالأماكن والمواضع والمسارات انطلاقاً من معاجم البلدان والنصوص الرحلية المقاربة زمنياً لزمن الرحلة.

وقد لا نتفق مع كثير مما أورده العياشي في رحلته من آراء وما ساقه من أفكار ومعتقدات، كما أننا قد لا نشاطره الرأي في كثير من التأويلات والتبريرات التي ذَيَّل بها عدداً من القضايا الفقهية والاجتماعية والنوازل والوقائع التاريخية وغيرها، إلا أننا، وحفاظاً على نكهة النص، واحتراماً لصاحبه وعصره، وتحلياً بالأمانة العلمية، فقد اكتفينا في عملنا هذا بمحاولة إخراج النص في صورة أقرب إلى الصورة التي أرادها لها صاحبه.

كما أنَّ العياشي قد ذَيَّل رحلته هذه بإثبات فهرسته المسماة: إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، ولأنها لا تدخل في صميم متن الرحلة، ولأنها جاءت

في سياق زمني مخالف للسياق المتني للرحلة، ولأنها، كذلك، مطبوعة ومتداولة بين عموم المهتمين والباحثين، فقد رأينا أن نحتفظ بالنص كما كُتِب في الأصل مستقلاً بذاته مستغنياً عَمَّا سواه.

رموز التحقيق

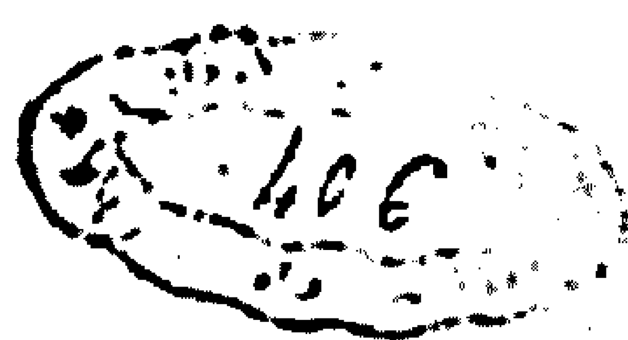
خ	:	النسخة الخطية.
ط	:	الطبعة الحجرية
[ ]	:	ما بين معقوفتين غير وارد في المتن.
(ـ تاريخ)	:	تاريخ وفاة العلم.
دت	:	دون تاريخ.
هـ رقم	:	هامش الصفحة رقم.

مسار الرحلة

- انطلاق الرحلة من بلد المؤلف صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الثاني عام 1072 هـ
- سجلماسة
- توات
- أوكرت
- واركلا
- نفزاوة
- طرابلس
- أنبابة
- القاهرة
- السويس
- أرض التيه
- مغائر شعيب
- العقبة السوداء
- الينبع
- جبل الرمل
- رابغ

- عقبة السكر
- مر الظهران
- التنعيم
- مكة المكرمة
- المدينة المنورة
- مكة المكرمة
- المدينة المنورة
- غزة
- الرملة
- القدس
- الخليل
- غزة
- العريش
- دمياط
- مصر
- الإسكندرية
- طرابلس
- توزر
- بسكرة
- محطة الوصول يوم الأربعاء ظهراً سابع عشر شوال من سنة أربع وسبعين وألف.

الرحلة العياشية
إلى الديار التواتية



الصفحة الأولى من النسخة الخطية

الصفحة الأخيرة من النسخة الخطية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي فرض من روح السبق بجنود الكشف وحث عليه في طلب
السعادة فقال تعالى [illegible] فيا سعادة من نفر إلى الله مع ذوي العزائم ولم يبال
بالشرود في البلاد إذا ادلهم والسير في الصحراء إذا انبهم بمركب الجمال والمراسي عن كل
دار بها مغتنم وإن راح المغامر إذا أثرت الركائب الكثب لرؤيته من البلد الذي لا يمكن
عن كثبه بقطع العيش الأخضر ولا يرتاد المجنون الأقدم ولا يبالي بحر عزمه إعراض
الأزرق ولا ركبان بين بني أب ضعف يا لموت الأحمر [illegible]
وصلى الله على النبي الحسيبة بأعلى مراتب الفضل والإحسان المشرقة لصلاة الكمال
وجمال ولسان وسلام على المختار بالمنح ملك الأبرار الإيثار المتوج بالنبوة حقا بين الأخيار
على نعمة الأبرار الزهود ومن ينابيع البحر والجود فبلغ الأمر المراد والملكوت في
الركوع والسجود وغير مرجعه العبقرية وعلمه لرسول المحمود وواصلت السعي الأمين
الثنية بتقطع الأغوار والنجود سيدنا محمد المحمود في حضرات القرب والتقريب
المنزل القرآن بطلع التقريب والتشريع المنصور من الله بأعلى مقام الخصوصية في
الانتهاء والابتداء الممنوح في كل المراتب أجل مراتب الهداية والاصطفاء
مع الملائكة والجن والإنس بعد الافتراق ولم يبلغ أحد منهم بما حازه الاعتلاء
بعزائم الله وخليفته ونوره الذي به استنارت خليقته بين العالم للعوالم
ومن العوالم للعالم فاستنزروا بأنوار لما استناروا بهدايته واهتدوا بالكمال
الدنيه حين التجأوا بحمايته أوضح لهم سبل الإرشاد بأرشد الأمور [illegible] فنادى من
رفعه [illegible] إلى النجاة الرابحة فلم يزل الدهر بالجد والاجتهاد داعيا والكلام
في السر والجهر [illegible] لا يمل في جهاد أعدائه [illegible] ولا بالمرغبات احتجابه
اقترابا بجيش الأذكار [illegible] الشيطان وقطع في الله أهله وعشيرته
وترفع بالتبشير والإنذار ثم [illegible] السبق بالسبق في جهاد من أبى وكفر

الصفحة الأولى من الطبعة الحجرية

في الغد خرجنا من الهمل ولقينا اخواننا في ذلك اليوم وبتنا معهم ومع الحجاج
صحابنا تلك الليلة وفي الغد فارقنا الحجاج وبقينا معهم من وصلهم الى ان
وصلنا بلدنا امنه الله برحمته يوم الاربعاء ثاني عشر
شوال من سنة اربع وسبعين والف والقينا عصا التسيار واستقرت بنا الدار
واكثرنا الاستغفار للملك الغفار وحمدنا الله على السلامة من ركوب الاخطار
والنجاة من مهالك الاسفار ونسأله الانابة والعافية وحسن القرار
في هذه الدار وفي تلك الدار بجاه سيدنا محمد المختار وعلى آله الاطهار
وصحابته الاخيار ومن تبعهم باحسان من الابرار والله يختم بالسعادة
آجالنا ويقرن بالعافية غدونا وآصالنا ويبلغنا من خير الدارين آمالنا
بجاه سيد الوجود ومنبع الجود سيدنا ومولانا محمد عليه افضل
الصلاة وازكى السلام وعلى آله وصحبه اجمعين سبحان ربك رب العزة
عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب ——— العالمين

انتهى الكتاب المبارك بحمد الله
وعونه اللهم اختم لنا بالسعادة
التي ختمت بها لاوليائك
واجعل خير ايامنا
واسعدها يوم
لقائك
يا ارحم الراحمين بجاه سيدنا محمد
صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه
وسلم

الصفحة الأخيرة من الطبعة الحجرية

نموذج من صفحات النسخة الخطية

حيث تبدو بعض الهوامش والإضافات

نص الرحلة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه[1] وسلم[2]

الحمد لله الذي قرن ممدوح السفر بممدوح الظفر، وحثَّ عليه في طلب السعادة فقال تعالى: "فلولا نفر"[3]، فيا سعادة من نفَر إلى الله مع ذلك النفر، ولم يمل السُّري في الليل إذا أدبر، والسيرَ في الصبح إذا أسفر، فذنب المجاهل والموامئ عنده دائماً مغتفر، وأرواح المعاطِن[4] إذا أثيرت الركائب أطيب لديه من المسك الأذفر[5]، لا يصده عن طيبة نضارة العيش الأخضر، ولا ازورار المحبوب الأصفر، ولا يَفل حد عزمه اعتراض العدو[6] الأزرق، ولو كان من بني الأصفر، فالموت الأحمر دون مرماه أشهى من الثريد الأعفر[7].

وصلاة الله المحيطة بأعلى مراتب الفضل والإحسان، المستغرقة لصلاة كل مَلك وجان وإنسان، وسلامه المحلى بأبهى ملابس الأمان، المتوَّج بأنهى حقائق الإيمان، على نقطة دائرة الوجود، ومدَد ينابيع المجد والجود، قِبلة أسرار الملك والملكوت في الركوع والسجود، وخير من جفت الجفون في وصله لذيذ الهجود، وواصلت السرى في المسير إليه بقطع الأغوار والنجود[8]، سيدنا محمد المحمود في حضرات العرفان والتعريف، المزمل المدثر بخلع التقريب والتشريف، المخصوص من الله بأعلى منازل الحظوة في الانتهاء والابتداء، الممنوح في كل العوالم أجلى مراتب

(1) ساقط من ط.
(2) في خ أضاف الناسخ عبارة: "قال الشيخ الفقيه العلامة تاج العارفين وإمام المحققين، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبأمثاله".
(3) يشير إلى قوله تعالى: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون): التوبة: 123.
(4) المعاطن: جمع معطن، والمعطن كالوطن للإبل وقد غلب على مبركها حول الحوض: لسان العرب: عطن.
(5) ذفر: ذكي الريح: لسان العرب: ذفر.
(6) ساقط من ط.
(7) الثريد الأعفر: المُبيض: لسان العرب: عفر.
(8) النجود: جمع نجد، الطريق في الجبل، وهو ما خالف الغور: لسان العرب: نجد.

الهداية والاهتداء، فصح للملائكة والجن والإنس به الاقتداء، و لم يسعْ أحدا منهم في ما حد له الاعتداء، فهو أمين الله وخليفته، ونوره الذي به استنارت خليقتـــه، بيّن المعالم للعوالم، وهدى العوالم للمعالم، فاهتدوا بأنواره لما اســـتناروا بهدايتـــه، واحتموا، باللجإ إليه حين التجؤوا لحمايته، أوضح طريق الرشاد[1] بأرشد الطرق الواضحة، فقاد من ربحت تجارته إلي التجارة الرابحة، فلم يزل لله بالجد والاجتهاد داعياً، ولكلامه في السر والإعلان واعياً، لا يمل في جهاد أعدائه اغتراباً، ولا يألو لمرضاة أحبابه اقترابا، فهجر الأوطان، وحارب حزب الشيطان، وقـــاطع[2] في الله أحبابه وعشيرته، ورفع بالتبشير والإنذار لهم عقيرته، يردف السفر بالـــسفر، في جهاد من أبى وكفر، إلى أن ختم أسفاره الدنيوية وتنقلاته البشرية بخروجه لحجة الوداع، فأظهر فيها من محاسن الشريعة ما شاع وذاع، وأودع القلوب من غرائب الحِكم أحسن الإيداع، وأكثر في خطبه الخمس التنبيه على معالم الحج المشروعة، ونهى عما كانت الجاهلية ابتدعته من الأفعال الممنوعة[3]، وأكمل الله للمـــسلمين دينهم في هذه الحجة، وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينـــا[4]، وأوضـــح المحجة، وحض على حج البيت مستطيعَه، وجعله من دعائم الإســـلام الخمـــس الرفيعة، فقال عليه السلام: من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج مـــن ذنوبه كيوم ولدته أمه[5]، واختار القرطبي وابن بزيزة[6] وغيرهما أن ذلك يتـــضمن الكبائر والصغائر، وقال عليه السلام: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحـــج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة[7].

---

(1) في ط: الإرشاد.

(2) في ط: قطع.

(3) في ط: الممنوعة.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا): المائدة: 4.

(5) ورد الحديث بنصه في تفسير القرطبي 4:142، كما ورد الحديث في الصحيحين بصيغة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه: صحيح مسلم 2:983، صحيح البخاري: 2:553.

(6) عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد التميمي التونسي، المعروف بابن بزيزة، فقيه مشارك، له شرح الأحكام، توفي سنة 700هـ: معجم المؤلفين 5:293.

(7) صحيح مسلم 2:983.

قال المازري[1]: أي لا يقصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، ولا بد أن يبلغ به إدخاله الجنة. وقال عليه السلام: تابعوا بين الحج والعمرة فإن متابعة ما بينهما تزيد في العمر والرزق، وتنفي الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد[2].

وقال عليه السلام: من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت، ما أتاه عبد يسأل الله دنيا إلا أعطاه منها، ولا آخرة إلا اذخر له منها. وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أنه عليه السلام قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله[3]. وقال عليه السلام: الحُجاج والعُمار وفد الله وزواره، إن سألوه أعطاهم، وإن استغفروه غفر لهم، وإن دعوا استُجيب لهم، وإن تشفعوا شفعوا. إلى غير ذلك من فضائل الحج المبرور، الحاملة على تجشم المشاق إليه مع الابتهاج والسرور، الواردة في الكتاب المبين، وعلى لسان الرسول الأمين، صلى الله وسلم عليه صلاة تكون لقدره الكريم كفاء، ولِحَقه العظيم وفاء، وعلى آله الحائزين قصب السبق بقرابته، وأزواجه وأصهاره وجميع الكرام صحابته، ما تشرف تابع بشرف متبوعه، وزكى مكتسب الخلق الحسن بزكاء مطبوعه.

أما بعد، حمدا لله الذي هو أول الذكر وآخر دعوى أهل الجنة، وأكد على افتتاح الأمر ذي البال به صحيح السنة، فيقول العبد الفقير، الذليل الحقير، المستجير بالله ورسوله، الملتجئ إلى كرم الله في حصول أمله من الخير وسؤله، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، جعل الله جميع تصرفه فيما يرضاه ابتغاء مرضاته، وغمره بلطائف إحسانه في حياته، وعند وفاته وبعد مماته، ولقاه في كل المخاوف أنسا وتأمينا، ويرحم الله عبدا قال آمينا: إني كنت منذ عقدت يداي إزاري، وتلوث مبيض صحيفتي بسواد أوزاري، متتابع الزفرات والأنين، كثير الاشتياق والحنين، إلى تكحيل إنسان العينين[4] بمشاهدة مشاهد الحرمين، ويتضاعف الوجد والتوقان، ويتزايد الشوق والبرقان، في أوان تجاوب أصداء الرفاق، إذا أهاب بهم مهيب التوفيق من جوانب الآفاق، فيطير الروح

---

(1) محمد بن علي بن عمر التميمي، المازري، الإمام المحقق، له عدة مؤلفات تدل على تمكنه من الفقه وعلم الحديث، توفي سنة 536 هـ بتونس ودفن بالمنستير: شجرة النور الزكية 1:186.

(2) الفردوس بمأثور الخطاب 2:46.

(3) صحيح مسلم 1:112.

(4) إنسان العين: المثال الذي يرى في السواد: لسان العرب: أنس.

بأجنحة الشوق إلى ذلك المكان ويود[1] مرافقتهم على أي حال كان، فإذا استتبع الجسم المثقل بالآثام إلى ذلك المحل، تمشت به مشي المقيد في الوحل، فربما فزعتُ إلى مدح الرسول، لأدرك به المنى والسُّؤل، وربما أغضيت الجفون على قذاها، وكظمت الجوانح على أذاها، إلى أن دعا داعي الفلاح فلبيت، وهدى رائد الهداية فاهتديت، ونظمني وافد التوفيق في سلك خير رفيق، فركبت متون المجاهل، ونقيت[2] القذى عن عيون المناهل، مع ركب يؤمون البيت العتيق، وينشرون[3] من طيب نشرهم على البلاد فتيت المسك الفتيق[4]، وكان ذلك في شهر ربيع النبوي سنة تسع وخمسين وألف، والشباب إذ ذاك ناعمة أغصانه، والهوى شديد على القلب عصيانه، وفن[5] الصبا ناعمة أوراقه، والوطن حبيب يشق فراقه، واستسهلت قطع تلك العلائق كلها، وخف عن القلب المشوق ثقيل كلها، ومتى أوجست من النفس بعض التلكي، أو أظهرت من الجزع شبه التبكي، ذكرتها ما تترجاه من لذيذ التهاني، وأنشدتها مغيري الروي بيتي الحسن بن هانئ[6]:

[طويل]

ذريني أَردْ ماءَ المفاوزِ آجنا ... إلى حيث ماءُ للكرام معينُ

دعيني أكثرْ حاسديك برحلةٍ ... إلى بلد فيها الرسولُ دفينُ

فكانت تلك الرحلة، وهي من الله أعظم نحلة، تقبَّل الله فيها صالح أعمالنا، وجعل مدد بركتها ساريا في جميع أحوالنا، ولم يَكن فيها كبير أمر يعتني بكتابة الرحلة لأجله، ويكاد علمه يستوي بجهله، إلا ما يشترك في معرفته عامُّ الحاج وخاصهم من أوصاف المسالك، وتعداد[7] المراحل وأسماء البلدان وما يضاهي ذلك، مما لا تطمح إليه عيون أولي الفضل، وترتاح لذكره همم أهل النبل، من لقاء

(1) في ط: يريد.
(2) في ط: نفيت.
(3) في ط: ينثرون.
(4) الفتيق: من فتق المسك، أي استخرج رائحته بغيره: لسان العرب: فتق.
(5) فن: أفنون الشباب أوله: لسان العرب: فنن.
(6) البيت الأول لابن دراج القسطلي الأندلسي (ت 421 هـ) برواية نمير بدل معين (الديوان، ص: 250) أما البيت الثاني فالشطر الأول منه لأبي نواس الذي يقول: ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير (ديوان أبي نواس، ص: 481).
(7) في ط: تعدد.

المشايخ الفضلاء، ومحاضرة الأدباء النبلاء، ومباحثة الأذكياء، وزيارة الأتقياء، إلا أشياء إن انفردت بالذكر قلّت، وإن أدرجت مع غيرها ضلت.

فعندما انقضى أمد الغيبة، وحصلت إلى الأوطان الأوبة، ظننت أن مشاهدة تلك الأماكن المشرفة بشرف الساكن، تشفي من أليم الشوق عليلا، أو تُبرد من أليم البعد غليلا، فبدا الأمر على خلاف المظنون، وافتضح المكنون، فلا يأتي أوان ارتحال الركب، إلا أطاعت الجفون داعي السكب، وحنت حنين الثكلى الواله إلى معاهد الرسول وآله، ودَبَّ بين الجلد والعظام دبيب الشوق إلى تلك المشاعر العظام، فعللت النفس في العام الأول والثاني، وسليتها بخُدع الأماني، وفي الثالث استجمعت لفك رهانها، وأظهرت وضح[1] برهانها، بما رويناه في صحيح ابن حبان ومصنف ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى يقول: إن عبدا أصححت له جسمه، ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم[2].

فهذا الحديث الصحيح يعطي بظاهره تكرار وجوب الحج، لولا ما عارضه من الإجماع على قصر الوجوب على المرة الواحدة، فحينئذ يحمل الحديث على الاستحباب المؤكد كالأحاديث المتقدمة في المتابعة بين الحج والعمرة، فلما ظهرت لي قوة هذا الدليل، وأوضح الشوق منه فهم السبيل، نويت العمل بمقتضاه، وقبلت بما دعا به داعي الغرام وارتضاه، وعزمت على العود في الرابع ثانيا، ولعنان التوجه نحو البقاع المطهرة ثانيا، فيسر الله ذلك في أواخر ربيع النبوي سنة أربع وستين وألف، وتوجهت على بصيرة، وأعددت لفوائد الرحلة عددا كثيرة، فاتسع المجال في لقاء الرجال، ومذاكرة الإخوان في كل أوان، ومحاضرة الأدباء، ومجالسة الظرفاء، وحصلت في تلك الرحلة المباركة ما حصلت لي به مع المرتحلين المشاركة، فعزمت على تدوين ذلك في مجموع تحصل به الإفادة لمن طلب الاستفادة، فإذا زبدة فائدته وثمرة عائدته أسماء المشايخ وذكر[3] مروياتهم، وذكر شيء من مصنفاتهم، وقد استوفيت جل ذلك لمن طلبه مني، ورام أخذه عني في كتاب اقتفاء الأثر بعد ذهاب الأثر، فانصرف العزم عن كتابة ما سواه، إذ هو بدونه قليل

(1) في ط: واضح.
(2) فيض القدير 310:2.
(3) ساقط من ط.

جدواه، وصممت العزم على الرجوع، وجعلته أكبر همي في اليقظة والهجـــوع، وأتحين الوقت المذكور في الحديث المتقدم، وأقرع على ما فاتني من المجاورة في تلك الأماكن المشرفة سن المتندم.

فلما جاء الوقت المذكور، ورجوت حصول السعي المشكور، وذلك في سنة تسع وستين دبت في مغربنا عقارب الفتن، وهاجت بين الخاصة والعامة مُضمرات الإحن، فانقطعت السبل أو كادت، وهاجت الأرض بأهلها ومادت، فكربـــت أيأس من بلوغ المرام، ولم يخمد مع ذلك متأجج نار الغرام، فعدت إلى طـــريقتي المثلى من أمداح الرسول التي في إلى أن كان أوائل سنة اثنين وسبعين أحـــسن الله عاقبتها، وكفى المسلمين غائلتها، اشتد العزم مني كما كان قبل ذلك وأعظـــم، وخيل لي أن أمر التوجه في سلك التوفيق قد انتظم، إلى أن قـــرب أوان الـــسفر، خدشت أظفار التعويق في وجه الظفر، واكفهرت ظلمات موانع يتعجب اللبيب من صباحها إذا أسفر، وأضرم الجوع في سائر الأرجاء ناره، فتولد منه من الفتك والحرابة ما أعلى تفريق الكلمة مناره، وتطاير في كل أفق شراره، وأهان خيار كل قطر شراره، واتخذت البدعة شعارا والزندقة دثارا، وفر الساكن من بلده، والوالد من ولده، وبلادنا إذ ذاك بحلل من الله برداء العافية،إلا أن مخايل جوانبها تدل أنها لعروض غيرها من البلاد قافية، فلأجل ذلك أشار بترك السفر من لا تُعصى لـــه إشارة، ونهى عنه من له عليَّ أكبر حق بصريح العبارة، فأيست إذ ذاك منه بعـــد العزم القوي، وطويت شقة ذلك العزم أي طي، فلحقني من التخلف كرب شديد، وعناء في القلب مديد، فاستروحت من ذلك العناء والألم، إلى مدح النبي، صـــلى الله عليه وسلم، منها عدة قصائد في أيام مولده الشريف، وبذلت فيها من خامد القريحة التالد[1] والطريف[2]، نسقتها نسق حروف المعجم، وأفصحت فيها عما في القلب من الود استعجم، فأتممت منها قبل يوم المولد عشرا، حسنت مخبرا وطابت نشرا، أظهرت فيها التودد والتعطف، وأكثرت التشكي والتبكي والتلهف، على ما فات من القصد الجميل في هذه السنة، وممانعة السيئات الجمـــة هـــذه الحـــسنة، وأطنبت في الاستغاثة إلى الله بنبيه الكريم أن يُيَسر لي في زيارته من فضله العظيم، وما كنت أطمع أن ذلك يكون عن قريب، بل هو عندي أغرب من غريب. فلما

(1) التالد: المال القديم الأصلي: لسان العرب: تلد.
(2) الطريف: الطريف والطارف من المال: المستحدث: لسان العرب: طرف.

مضى يوم مولده الشريف بيوم أو يومين، والعزم قد أمحى أثره بعد العين، هبت رياح الرحمة من حيث لا أحتسبها، ونفحت نفحات من كرم الله وما كنت إذ ذاك أرتقبها، فأزعجت للسير بعض الإخوان، إزعاجا لا يمكن رده بالمال والأعوان، فرمت صرفه عن ذلك بما صرفني، ومنعه عنه بما عنه منعني، فصارت الموانع عنده بواعثا، وعاد عزمه لكل عقد عقدناه ناكثا، فلا أذكر له دليلا إلا رماه وراءه ظهريا، فعلمت أن الوارد بذلك قهريا، لا تمكن مدافعته، ولا تحسن مراجعته.

فائدة:

كنت مذ تقوّى العزم مني في السنين الماضية كثير الاستخارة لله تعالى في خلال ذلك بالكيفية الواردة في الصحيح، فلا يقع في العزم فتور، أو يبدو مانع عن التوجه المذكور، إلا طبت نفسا بالواقع رضى بخيرة الله وتصديقا بالوعد، إلى أن يسر الله المأمول في هذه السنة مع العوارض المذكورة والعوائق المشهورة، لم أرتب أن المنع فيما مضى والتيسير الآن لم يكن إلا لخير أراده الله تعالى[1] ممن ألقى إليه أزمة اختياره، وسلم إليه أمر تدبيره في إيراده وإصداره، فلم أزل بعد ذلك أتعرف حسن اختيار الله لي فيما صرفني عنه وصرفني إليه شيئا فشيئا، وتبدو لي اللمحة منه بعد اللمحة، فأحمد الله على ذلك كثيرا، فلا تعلم نفس ما أخفى لي في ذلك من قرة أعين[2]، فلله الحمد على ما أنعم والشكر على ما ألهم. فعلى المؤمن المهتم بإصلاح حاله دينا ودنيا أن لا يغفل عن الاستخارة في مهم عرض له، مع توطين النفس على الرضى بما يجريه القضاء، واعتقاد أنه الأولى، ثقة بوعد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد منَّ الله علي بعد ذلك بملازمة الاستخارة في كل شؤوني والإعراض عما هو من قبيل الطيرة وما شاكل ذلك، والاهتبال بالمرائي

(1) ساقط من ط.
(2) إشارة إلى قوله تعالى: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون): السجدة: 17.

الموحشة، فحيث لم ألتفت إليه بالكلية، فلم أر من الله في كل أحوالي إلا خـــيرا، وإن خفي عني ذلك في بعض الأحيان اعتقدته حتى يبدو لي ما أراد الله ابتداءه من ذلك، والله المسؤول أن يتم نعمته علينا، ويديم إحسانه إلينا،إنه سميع مجيب.

ذكر ابتداء التهيئ للمسير في ذلك الأمد اليسير

وحين رأينا من الأخ المذكور قوة عزمه، وشدة إقدامه على القدوم وحزمه، لم يمكن إلا مساعدته، إذ لم تغن مواعدته، فارتفعت الموانع قهرا، وأذن من كان نهى دهرا، وركبنا للتهيئ للسفر كل صعب وذلول، وطبنا أنفسا بمفارقة المنازل والطلول، فيسَّر الله غالب المحتاج إليه في أقرب مدة، وجعلنا الاعتماد عليه فيما تيسر وتعسر أقوى عُدة، وكان العزم منا وقد بقي من الشهر نحو من نصفه، والركب في سجلماسة[1] قد عزموا على الخروج في ذلك الوقت لطول إقامتهم بها وغلاء الأسعار، فوجهت كتابا إلى أمير الركب الأخ الصالح، والمحب الناصح، سيدي محمد بن محمد الحفيان رضي الله عنه، أخبره بقدومنا عليه وعزمنا على التوجه، وكان يحب ذلك كثيرا لما بيننا وبينه من الألفة و المودة، وما كنا نحج قبل ذلك إلا معه، فجزاه الله خيرا من أمير هو في الحقيقة خادم لرعيته، وساع في مصالح أهل رفقته، قد جمع الله له ما زانه به من الأخلاق الحسنة حياء وكرما وصبرا وشجاعة وديانة وحلما. وسألته أن يثبط الحجاج ويستوقفهم لنا ريثما نيسر من أمرنا أيسره، وأخبرته أني خارج أول الشهر، وكتبت أيضا إلى من له من أهل الركب وجاهة أو كلام يسمع، كصاحبنا الفقيه النبيه المحترم الوجيه، قاضي مدينة مراكش وأعمالها، وأحد قضاة العدل في مغربنا على اختلاف أعمالها، سيدي أحمد الخطيب[2]. فلما وصلهما كتابي وجدهما قد تهيئا للخروج، وشق على الحجاج انتظارنا، والعذر لهم[3] في ذلك مبذول، فبذل كل واحد منهما وسعه في سياسة الحجاج وتثبيطهم، وتحيلا في ذلك من الحيل ما هو معدود في حسناتهما،

---

(1) سجلماسة: في صحراء المغرب، بينها وبين البحر عشرة مراحل، وهي على نهر يقال له زيز، وهي مدينة كبيرة كثيرة العامر، وهي مقصد للوارد والصدر: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1:225. الروض المعطار، ص: 305.

(2) أحمد الخطيب المراكشي: وصفه صاحب الإعلام ــ نقلا عن الرحلة العياشية ــ بالفقيه النبيه المحترم الوجيه، قاضي مدينة مراكش وأعمالها، وأحد قضاة العدل في المغرب على اختلاف أعمالها: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 2:320.

(3) في ط: لهم.

فجزاهما الله خيرا، وأنا في خلال ذلك في غاية الانزعاج، والسعي في أمور المشي على استقامة تارة واعوجاج، وكنت كثيرا ما أنشد في تلك الأيام قولي[1]:

[رمل]

فَـــوض الأمــــرَ إلى مــــن حكمــــه نافِــــذ في كـــــل وِرد وصــــــدر
وإذا نازَعـــــك الــــوهمُ فقــــل كــــل شـــئ بقــــضَاء وقَــــدر

وأسندت التراع إلى الوهم دون العقل، لأن العقل لا ينازع في ذلك إلا عند غلبة الوهم عليه. ولما جد جد البين وأزيحت العلل وزال المَيْن[2]، عظم فراقنا على كل من له بنا تعلق، وأكثروا التضرع في ذلك والتملق، و لم يدعوا حيلة في تثبيطنا إلا ارتكبوها، ولا حبالة إلا نصبوها، وبعثوا في ذلك إلى شيخنا ومفيدنا، وهادينا ومرشدنا، سيدي أبي محمد عبد القادر الفاسي[3]، رضي الله عنهم[4]، يـــستنجدون به فيما أرادوا من التأخر هذه السنة، وكتب رضي الله عنه إسعافا لرغبتهم، يشير بجَبْر خواطرهم، والجري على مقتضى أوامرهم، وقد - والله - امتثلت إشــــارته، وقبلت سفارته، لولا العذر الذي تقدم آنفا، وغلبة القدر الذي لا نجد له مخالفــــا، ولقد قال لي في أثناء المداعبة بعض من يتمنى المصاحبة: ما كان مشيُك هـــذا إلا فرارا من هذه السنة الشهباء التي أكثرت في القرى حرقا وفي الأقوات نهبـــا، وفي ذلك قلت:

[متقارب]

وقـــالوا: فـــررتَ ولـــيس الفـــرارُ لمثلـــك في القـــوم مـــن فعلـــهِ
فقلــــت: فـــررتُ إلي المــــصطفى ومثلـــــي يفـــــر إلى مثلــــهِ

(1) ورد البيتان في: النبوغ المغربي 3:819. كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 408.
(2) المين: الكذب: لسان العرب: مين.
(3) أبو محمد عبد القادر بن علي بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي، إمام مشارك، وعالم متصوف، ولد عام سبعة وألف، أخذ عن أئمة كبار، كالحافظ المقري، وأبي الحسن بن الزبير، وغيرهما. تولى خطة التدريس بزاوية سيدي عبد الرحمن، توفي سنة واحد وتسعين وألف للهجرة: خلاصة الأثر 2:444، التقاط الدرر، ص: 117-181. الأعلام 4:41.
(4) في ط: عنه.

وقال آخرون في محاورتهم عندما رغبت عن مجاورتهم[1]: ما قصدت إلا الإضرار بإخوانك، والفت في عضد أعوانك، والمرء - كما قيل - كثير بأخيه، وقل من يعدم إصابة الغرض في تأنيه وتوخيه، وفي ذلك قلت:

[طويل]

أحبة قلبي لا ضرار ولا ضرر ... ولكننا نرضى بما ساقه القدرْ

سأنفعكمْ في غيبتي بالدعاء في ... مواقف حجي حيث أصفو من الكدرْ

ولست بناس عهدكم ووداكم ... و إن طالت الأيام واتصل السفرْ

يذكرُنيكم كل حسن رأيته ... ولا سيما برد العشية والسحرْ

ولقد نفعتهم، والله، أي نفع، ودفعت عنهم مع غيبتي أعظم دفع، وأي نفع ودفع أعظم من المثول بين يدي النبي، صلى الله عليه وسلم، بكرة وعشيا في أوقات الشدائد التي كانت عليهم، والأهوال التي طارت[2] لديهم، أستشفع به إلى الله في دفع الأسواء، وإزالة الأدواء، وما غفلت عنهم ولا عن واحد من أحبائي، وخالصي أودائي، إلا في أيام المرض التي غفلت فيها عن نفسي، وكدت أغيب عن حسي، وإني لأرجو لي ولهم حصول بركات تلك الأوقات، في سائر أحوالنا في المحيا والممات.

ولما علمت أن نفس الناظر قد تتشوق إلى القصائد المدحية التي ذكرنا أولا أن بركتها هي التي أزالت العوائق، ونهجت لنا الطرائق، أردت أن أذكرها، وذكرها بتمامها يستدعي طولا، وقد أفردنا لها محلا لما جمع الله شملها بأخواتها، ولكن أذكر منها بعض أبيات تناسب المقصود، وترغم أنف الحسود، فمن ذلك مطلعها المحمود، وهو[3]:

[طويل]

أقولُ وحمدُ الله أجعله بدْءا ... مقالَ مريض قلبةُ يطلب البُرْءا

(1) في ط: مشاورتهم.
(2) في ط: صارت.
(3) وردت القصيدة في: التوجيهات (مخطوط الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط، ضمن مجموع، رقم: ك 1773) الورقة: 130.

مديحُ رســولِ الله طِــب عَلائلــي ... وردِءي من الأهوال حَسبي به رِدْءا
فقلبي به جــذلانٌ والــروحُ نــاعم ... وعيني به قرتْ وكفــى بــه مَلئــا
إذا نــابني أمــرٌ فزعــتُ لمدحــه ... فأُعْطى به خــيرا وأُكفــا بــه رزءا
نبيٌ له الخلــقُ الكــريمُ وكُملــتْ ... محاسنةُ لا نقــصَ فيهــا ولا ســوءا
فبكر الشفاعة العميمة ما ارتــضت ... وكم خاطب غير ابن آمنــة كفــؤا
يقول، وقد حار الفحول: أنــا لهــا ... بمسمعِ أهل الجمع طــرا وبــالمرأى
فيــشفعُ بــدءا ثم يرجــع عائــدا ... وقد حمدوا من أحمدَ العوْدَ والبــدءا

ومن ذلك في قافية الثاء[1]:

[طويل]

هنيئا لمــنْ قــد زارَ طيبــةَ لابثــا ... إلى الموت فيها لا عدمتُ بها اللَّبثــا
فمنْ حلَ فيها طابَ حيــا وميتــا ... فقد صحَّ فيها أنهــا تــدفعُ الخبثــا
فَحــسن بجــيران الــنبي جميــعهم ... ظنونك وامدحْ كلهم ودعِ البحْثــا
هو الليث هم أشبالهُ وهْــيَ غــابهم ... ومن أغضبَ الأشبال فليتقِ الليثــا
فيا ليث شعري هل أرى طيبة وهــل ... أحــث ركــابي في زيارتهــا حثــا
وهل أقِفَن مــا بــين قــبر ومنــبر ... أصلي، وكم سرٌ هنالــك قــد بُثــا
أناجي رســولَ الله بالــسِّر تــارة ... وأشكو إليه بعــدها الحــزن والبثّــا
وأطلب من مولاي مســتــشفعا بــه ... هدى وسرورا قارن الموت والبعثــا

ومنها في قافية الجيم[2]:

[طويل]

(1) وردت القصيدة في التوجيهات: 138.
(2) وردت القصيدة في: التوجيهات ص: 139.

جَمَاعُ الهدى في حب أحمــدَ أُدرِجــا فما لِي سواهُ في الــشدائدِ مُلتجــا

إذا ضاقَ بي أمرٌ وكانــتْ وســيلتي إلى الله مـــدحِي للـــنبي تَفرَّجـــا

وقِدْما بــه قــد فــرج الله كُــربتي ويَسَّر لي من فــضله كــل مرتجــا

وجربتُ في دفع الرَّدى كل حيلــة فلم أرَ في شيء سوى مدحه النَّجــا

فما المــدح إلا مــا يخــصُ جنابَــهُ ومدح ســواهُ في الحقيقــة كالهِجــا

ولم أر في نيـــل المـــنى كتوســـل به سيما إن غلب الــسائلُ الرجــا

وأخْلصَ فيــه القــصدَ لله وحــده وناجى به مولاهُ في ظلمــةِ الــدجى

وحاشــا إلهــي أن يخيــب ســائلا لخير عبــاد الله كــان لــه اللجــا

فيــا رب فاجعــلْ لي بجــاه محمــد حبيبكَ من كل الــشدائد مخرجــا

وجدْ لي بما يُرضيك عني وأهتــدي إليك به ربي مـــن العلـــم والحِجــا

ومُنَّ على ضعفي ونَــور بــصيرتي بنورك في ليل الخطوب إذا ســجى

ولا تجعلِ الدعوى مقــاميَ والهــوى إماميَ واسلُك بي إلى الحق منــهجا

ويَسرْ إلى البيــتِ العتيــقِ وفــادة لعبدكَ لا يشكو كلالا ولا وجــا[1]

وأخرى إلى خيْــرِ الــورى وإقامــة هناك فمــا أحلــى المقــام وأبهجــا

فيا طيب ذاك العيش لو نلتــهُ فمــا أشــد إذًا فقــري إليــه وأحوجــا

فيا خير خلق الله مــا لي أُذادُ عــن حماك وقدما كنتُ نحوك مزعجــا

إذا هاج شوقي رمتُ نحوك رحلــة فعاد صحيحُ العــزم مــني أعوَجــا

فكم مــرة صــممتُ دون تــردد وألجم مني العــزم خــيلا وأسْــرُجا

فيصرف شؤم الذنب وجهي وينطفي من العزم ما قد كان من قبل مسرجا

(1) الوجا: شدة الحفا: لسان العرب: وجا.

وما ذاك إلا مــن خــصال كريمــة | بها صالحُ الأعمالِ قد صــارَ مُرجــا
سلِ الله يــرزقني اتباعــك ســيدي | فلم يــنجُ إلا باتباعــك مــن نجــا
وصلّ وسلمْ يــا إلهــي عليــه مــا | غدا قاطعا في سيره البــدرُ أبْرجــا
صلاةً تفوق الحصرَ منــك أعُــدها | لــصالح أعمَــالِي لبابــك مغْرجــا

ومن ذلك في قافية الخاء[1]:

[طويل]

سريعٌ لبذلِ المال إن جــاء ســائلٌ | وللطعن في الهيجاءِ إن جاء صــارخُ
إذا لم ينلْ منــه المؤمــلُ كــل مــا | رجاهُ لعذرٍ فهْــو لاشــك راضــخُ
بمدحكَ قرتْ عــينُ كــل موحــدٍ | وحَن إليه القلبُ والــسمع صــائخُ
إذا تُليــتْ آياتــهُ زاد وجــدهُ | وباتَ ودمعُ العين للخــد ناضــخُ
فهــل لي وصــلٌ والمهامِــهُ بيننــا | وبينــك قفــرٌ والجبــال بــواذخُ
وأرضٌ يحارُ الفكرُ في قطعهــا فمــا | تعــد بــه أميالُهــا والفراســخُ
يحارُ القطا في قطعهــا وتَكــل عــن | تجاوز أدناهــا المطايــا الــدوائخُ[2]
فيا بُعدَ ما أرجو من الوصــل إنــني | من المال صفرُ الكف والرجل بائخُ[3]
فما تركَ المــشتاقُ للوصــل حيلــةً | وما ساعدَ التوفيقُ بــالعزم رائــخُ[4]
أَ أرجــو وصــالا للــنبي محمــد | و إني لثوب التوْب بالذنب لاطــخُ
عليه صــلاة الله تمحُــو جرائمــي | كما أن ضوءَ الصبح لليــل ســالخُ

ومن ذلك في قافية الدال:

(1) وردت القصيدة في التوجيهات ص: 145.
(2) الدوائخ: التي تدوخ المكان؛ أي تجول فيه: لسان العرب: دوخ.
(3) بائخ: عدا حتى باخ؛ أعيا وانبهر: لسان العرب: بوخ.
(4) رائخ: من راخ، أي لان واسترخى: لسان العرب: ريخ.

[طويل]

أرومُ ارتحـــالاً نحـــوهُ فتـــصُدني ... ذنوبٌ بها قد صرتُ في الغل والقيـــدِ
فصرتُ معنى لا الوصـــالُ يُتـــاح لي ... ولا المكثُ يهنا لي لما بي من الوجـــدِ
رضيتُ بما يقضي به الله مـــن نـــوى ... وبُعدِ مكان ما سلمتُ مـــن الـــصد
فكيفَ أخافُ الصدَّ والمدحُ شـــافعٌ ... إليه وما يحوي الفـــؤادُ مـــن الـــودِ
فإني وإن حالَ القـــضا دون وصْـــله ... فقلبي بفضل الله باقٍ علـــى العقـــدِ
ولا يأسَ مـــن روح الإلـــه ففـــضلُه ... عميمٌ فلا يُحصى بحـــصرٍ ولا عـــد
عسى نفحة منـــه يهـــب نـــسيمُها ... فتجذبني من غير عـــزم ولا قـــصدِ
فيا خيرَ خلقِ الله ضـــاقت مـــذاهبي ... وقلبي في سهو عظيم علـــى عمْـــدِ
وقد سَاءني ما نالني مـــن بِعـــادكم ... وقد غاظني غيظ الأسير على القيـــدِ
أُصـــبرُ نفـــسي تـــارة ثم تـــارة ... أُعلـــل إن عـــز التـــصبرُ بالوعـــدِ
وهل نافعٌ وعدُ امرئ لا يفـــي بـــه ... وليس لمصدورٍ عن النفثِ مـــن بُـــد

ومن تأمل ما أبديته في هذه القصائد من لطيف الخطاب، وحسن المـــترع الذي يستلذ في الأسماع ويستطاب، وبارع التوسل بأفضل رسول، وفي بلوغ المنى والسؤل، لم يرتب أن بركتها لي مزعجة، وأن مقدمات سعيي لبلوغ الوطر منتجة.

لطيفة:

أخبرني الشيخ الراوية أبو مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفـــري[1] عـــن بعض أكابر مشايخه أنه كان يقول: إن للقصائد، خصوصا إذا كانت عن حضور قلب، أثرا عظيما في تفريج الكربات، ونيل الرغبات، أعظم من أثـــر الأوفـــاق والدعوات وترتيبها في الخلوات، وقد جرب ذلك فظهر صدقه، ولا يبعد أن يكون

(1) عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري، من فقهاء المالكية الكبار، جاور بالمدينة المنورة مدة، وتوفي في رابع وعشرين من رجب عام 1080هـ: خلاصة الأثر 3:240، التقاط الدرر، ص:179. الأعلام 5:108.

لترتيب الألفاظ على وزن مخصوص ينشرح معها الصدر للتضرع واللجإ إلى الله، ويقوى معه الرجاء في حصول المطلوب، خاصية في تسهيل المقاصد، وأغرب من ذلك ما رأيته في بعض التقاييد بعد قول الشاعر(1):

[طويل]

وكنتُ إذا ما جئتُ سُعدى(2) أزورُها ... أرى الأرض تُطوى لي ويدْنو بعيدُهَا

من الخفرات البيضِ ود جليسُها ... إذا ما انقضت أحدوثةٌ لو تعيدُها

قال ابن عديس رحمه الله: إن هذا الشعر ما قيل في طريق إلا سهلت، ولا مكان مخيف إلا أمن فيه، ولا مجاعة إلا حصل الشبع، ولا معطشة إلا حصل الري، وذلك لخاصية في حروفه، وهو مما سمع من كلام العرب.

قال: ومن هذا المهيع(3) أن هذا الشعر الآتي ما قيل ثلاث مرات في ضيقة إلا فرج الله عن قائله، وهو:

[رجز]

كم حاصرتني شدةٌ بجيشها ... وضاقَ صدري من لقاها وانزعج

حتى إذا أيِستُ من زوالها ... جاءتني الألطاف تسعى بالفرج

انتهى.

قلت: وما ذكر من كون الخاصية في ترتيب الحروف قد ذكر نحوه بعض أهل الطريق في توجيه كون بعض الأذكار يعزى إليه من الخواص ما ليس لغيره،مع اشتماله على ما فيه وزيادة، والله أعلم.

(1) ورد البيتان بلا نسبة في كتاب: التذكرة الفخرية 2:97. نشر المثاني 2:139.
(2) في ط: ليلى.
(3) مهيع: طريق مهيع: واضح واسع: لسان العرب: هيع.

لطيفة:

ظفرت في بعض التقاييد بسر من أسرار الله الحسنى وذلك اسمه تعالى: الكافي الغني الفتاح الرزَّاق، ومن لازَم ذكر هذه الأسماء وهو يتمنَّى شيئاً حصل له بفضل الله. ولما عزمنا على المشي وأخذت[1] في جمع أسباب السفر، وأهمني أمر الرواحل إذ لم يكن عندنا منها شيء، وضاق الوقت غاية عن[2] السعي في ذلك، وجعلتُ هذه الأسماء من ورْدي وأضفتها إلى التهليل، فما مضت ثلاثة أيام أو نحوها من يوم شرعت في ذلك إلا وقد يَسَّر الله العظيم، ومنح من خزائن جوده الواسعة ما فضل عن الكفاية، ولله في أسمائه أسرارٍ، تضيق عن حملها الأسفار، فمن لازم هذه الأسماء بصدق وهو يتمنى مقصوداً محمودا شرعا ويسعى في إدراكه، يسر الله له بمنه "وكرمه"[3].

(1) في ط: أخذنا.
(2) في ط: على.
(3) زيادة من ط.

ذكر خروجنا من البلد ووداع الأهل والوالد والولد

خرجنا من بلدنا والعجلة لنا حادية، وعناية الله هادية[1]، صبيحة يوم الخميس أول يوم من ربيع الثاني، وتوخينا ذلك اليوم رجاء بركة قول النبي، صلى الله عليه وسلم، اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس[2]. وقد برزنا أمس ذلك اليوم إلى خارج البلد بإخراج الخباء والأمتعة والرواحل، ليتهيأ لنا التبكير المقصود. وبعد صلاة الصبح من يوم الخميس خرجت إلى زيارة قبر الوالد[3] رضي الله عنه ووداعه، ثم ودعت الأهل والعم والوالدة، وودعوني وأودعتهم الله الحفيظ وأودعوني، وقرأت من الآيات والأذكار ما وردت في قراءته عند الخروج من المنازل الآثار[4]، وجعلت آخر عهدي بالمسجد، وشاهدت بركة امتثال السنة في كل ذلك في المستقبل، ثم خرجنا إلى مخيمنا حيث الخباء والرواحل، وزرنا قبر الرجل الصالح سيدي عبد الله المازغي الدادسي، وكان بإزاء المترل. ثم أخذنا في الترحال عند طلوع الشمس من المترل الذي برزنا إليه بالأمس، وودعنا هنالك كثيراً من الأصحاب، وجملة من الأولاد والأحباب، في موقف مدت الأيدي فيه إلى الله ضارعة، وجأرت[5] الألسن بالدعاء بقلوب خاشعة، وتتابعت الزفرات، وأثارتها الحسرات، وغبط المقيم الذاهب، وشكر الظاعن الواهب، ومزجنا بحلاوة المتوقع مرارة الواقع، وقد يستشفى من بعض الأدواء باحتساء السم الناقع.

وحين فارقت الولد، والغرام فيه خصم ألد، سكبت من الدموع سجلا، وقلت أودعك الله نجلا، وفي ذلك أنشدت[6]:

---

(1) في ط: بادية.

(2) سنن ابن ماجة 752:2.

(3) هو محمد بن أبي بكر العياشي مؤسس الزاوية العياشية، أخذ عن عدة شيوخ، وكانت بينه وبين الجميع صحبة ومخاطبات كما يقول ولده، توفي سنة 1067هـ: اقتفاء الأثر، ص: 103، التقاط الدرر، ص: 129. صفوة من انتشر، ص: 242.

(4) في ط: وردت الآثار في قراءته عند الخروج من المنزل.

(5) في ط: عبارات: وجأر: يجأر جأرا: رفع صوته بالدعاء مع تضرع واستغاثة: لسان العرب: جار.

(6) ورد البيتان، الأول والثاني في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 434.

[كامل]

أبُنيّ إني مــا تركتُــكَ عــن قِلــى ... مني وأختك مــا قللــت وصــالها
لكمــا بقلــبيَ رحمــةٌ ومــودةٌ ... بنياط قلبيَ قــد عُقــدت حبالُهــا
لكن مــنْ طلــبي العزيــز يلَــذُ لي ... تركــي العزيــزَ بمــاءه وجمالَهــا
إني ليُــذْكرني بهــا داعــي الهــوى ... فــأقولُ مــالي إذا يئســتُ ومالهــا
قد ذقتُ بُعدكما وبُعــديَ ذقتمــا ... نارَ الفــراق ومــا أمــض وبالهــا

وزاد معنا بعض الإخوان والجيران، ممن هو في تخلفه عنا حيران، ولم يرجعوا إلا من مسيرة فرسخ أو أكثر، وأفكارهم في أذيال الحسرة تتعثر، وربما أذكــرني الوهم بعد المسير، محاورة الأهل قبل ذلك بيسير، وقولهم: لقد حملت نفسك من البين ما لا تطيق، وألزمتنا من فراقك ما عنه نطاق الصبر يضيق، فأنشدت في ذلك واصفا للحال، والقلب عن تذكره ما مال[1]:

[طويل]

ولم أنسهَا يقظانــةَ الهــم في الحــشا ... مُبلبلة الأشجان وســنانةَ الطــرفِ
تقولُ وقد جَــد الرحيــلُ أهكــذا ... تُحملني ثقل الفراقِ علــى ضــعْف
أتتركُ أفراخا كزَغب القطــا ومــا ... رحمتَ بنيك إذ سلوتَ عن الإلْــفِ
فقلتُ لها: كُفي المــلامَ وأعرضــتْ ... كخِشْف[2] النقا[3] تستعرض الــدمعَ
فودعتها والقلــبُ منطبــقٌ علــى ... أساهُ ودمعي لا يمل مــن الوكــفِ
عليــك ســلا مٌ لا زيــارةَ بيننــا ... مع البعدِ إلا أن أزورَ مــع الطيــفِ

وسرنا يومنا ذلك إلى العصر، ولم نصل إلى حلة ولا قصر، لقِصر النهار في ذلك الفصل، مع ما كان يُثبِّطنا عن المشي من أسباب الفصل والوصل، فبتنا قريباً من خنق تليشت في أرغد عيش، وزال عنا بعض ما كنا فيه من الطيش، إذ كنــا

(1) وردت الأبيات في: النبوغ المغربي 743:3.
(2) الخشف: الظبي: لسان العرب: خشف.
(3) النقا: كثبان الرمل: لسان العرب: نقا.

قبل ذلك في أشد ما يكون من القلق، خوف التعويق عن الركب لأنهم عــازمون على الخروج من سجلماسة، وخشينا ألا ندركهم، ورســلنا تتــابع إلــيهم أن ينتظرونا، ورسلهم تترادف إلينا تستحثنا، فأقلقنا ذلك و لم يلذ لنا مكث في البلد ولا قرار حتى خرجنا، وبات معنا تلك الليلة أخونا سيدي محمد، وكان خــرج ونيته التوجه معنا، ثم عرض له في تلك الليلة عارض مرض، فرجع من الغــد إلى البلد، فشق على النفس رجوعه، وسالت على ذلك من الجفن دموعه، وكان ممن يعتد به في الطريق، ويرى فيه خير رفيق، وتألمنا لفراقه غاية، ولكن في الله الكفاية.

لطيفة:

مما ألهمته عند ذلك التألم الرجوع إلى الله، والاستغناء بــه عمــن ســواه، وأكثرت من قول حسبنا الله ونعم الوكيل، وجعلته وِرْدي ذلك اليوم، فظهر سر ذلك وبركته، فقد جاء في الأثر أن من نزل به أمر وأكثر الحسبلة جعل الله له منه فرجا ومخرجا، والكتاب العزيز مرشد إلى ذلك بقوله: "فانقلبوا بنعمــة مــن الله وفضل"[1]، الآية، بعد قوله: "وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل"[2].

وقد قالت زينب[3] بنت جحش[4] لعائشة رضي الله عنهما في كلام جــرى بينهما: ماذا قلت حين حملك صفوان[5] على جمله؟ قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت زينب: لقد وفقت لما وفق إليه خليل الرحمن حين ألقي في النيران.

وهذا من السر المكنون، فينبغي للمؤمن إذا نابه أمر أن يلجــأ أولا إلى الله تعالى في دفعه مخلصا في ذلك، فلا يشوبه نظر إلى حوله وقوته وحيلتــه وتــدبيره فضلا عن حول غيره، ثم يكثر من الذكر المأثور، مستحضرا لمعناه، واثقا بوعد الله، فانه يرى عجبا. ولقد شاهدنا ذلك في هذه النازلة وغيرها، حتى رأينا من لطفــه

---

(1) آل عمران:174.
(2) آل عمران: 173.
(3) ساقط من ط.
(4) أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، توفيت سنة عشرين: شرف الطالب في أسنى المطالب، ص: 12.
(5) صفوان بن المعطل بن رخصة، من الصحابة، تكلم عنه أهل الإفك، اختلف في تاريخ وفاته، ورجح صاحب سير أعلام النبلاء أن تكون سنة 19 هــ: سير أعلام النبلاء 2:547.

تعالى بنا وتوليه لنا في كل أمر وكفاية لما نعده في سالف الدهر، ما لا يخطر ببال، ولا ينال بمنال.

غريبة:

ولقد بكيت في ذلك اليوم بدموع غزيرة، كادت أن تنفضح منها السريرة، فظللت أتفكر في ذلك، وأقول لقلبي عجبا لحالك، كم شاهدتِ للبين قبل هذا من مواقف، وفارقت اليوم من أصحاب ومعارف، وتجرعت من كؤوس الفراق، الذي لا يرجى بعده تلاق، وما كان الجفن في كل ذلك يسمح بقطرة، بل غاية ما يقع زفرة تثيرها حسرة، وأراك لهذا الفعل المرتضى، قد خالفت عادتك فيما مضى، فما السبب في هذا، وخرق هذه العادة لماذا ؟. فألقي في روعي أن القلب لما قسا قسا في كل شيء، ولما لان بفضل الله لان في كل شيء. فحمدت الله وشكرته، وعلمت أن العلة ما ذكرته، وما يقضي الله من قضاء لعبده المؤمن إلا كان خيرا له.

ثم سرنا يومنا ذلك إلى الليل وبتنا في تعلالن، ومن الغد ارتحلنا، وهو أول يوم من أيام الشتاء، ودخلنا الخنق[1] ونزلنا بقصر بني عثمان، وبتنا فيه ولقيت هناك محبنا الفقيه النبيه المقرىء المجيد محمد بن محمد السوسي، وبات معنا، وهش وبش وأنس وأحسن قدر وسعه، وودعناه هناك واستودعنا عنده صالح الدعاء. ثم ارتحلنا من هناك وزرنا عشية ذلك اليوم بمدغرة قبر الإمام الحسيب النسيب الحافظ اللافظ المقرىء المحدث مولاي عبد الله بن علي بن طاهر الحسني[2]، نفعنا الله به. وبتنا تلك الليلة عند ولده الذرية الطاهرة، والسلالة الطيبة الباهرة، الفقيه الأرضى السني المرتضى، الحسن الأخلاق الطيب الأعراق، مولاي محمد المدعو ابن علي[3] رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بمحبته، فقد بالغ في الإحسان، بما قرت به عين كل إنسان، وأجزل القِرى لحجاج أم القرى، فلم يدع خيرا إلا فعله، ولا ميسورا إلا بذله، من

(1) الخنق: بالقاف المعقودة، والخنق هو ممر ضيق في الجل: أنس الساري والسارب، ص: 27/ هـ 2.

(2) أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر بن الحسن بن يوسف الحسني السجلماسي، عالم عامل، توفي عام 1044 هـ: التقاط الدرر، ص: 97، نشر المثاني1:321، فهرس الفهارس 1:469.

(3) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي، المعروف بمولاي بن علي، فقيه مشارك، حج ولي المشايخ، توفي بالطاعون عام 1089 هـ: صفوة من انتشر،ص: 341. إتحاف الأخلاء، ص: 90.

طعام وشراب، وعلف دواب، وغير ذلك نسأل الله أن يكافيه عنا بأحسن المكافأة، ويحفظه دنيا وأخرى من جميع الآفات. فبتنا عنده في نعمة كاملة ومسرة شاملة، واغتنمنا بركة لقائه وصالح دعائه، واستودعناه الدعاء في خلواته وأدبار صلواته، فتكفل بذلك لنا، ورأيناه من أجل نعم الله علينا، وعقدت معه عقدة الأخوة في الله تعالى، أكرم به من عقد لا تحله يد الحدثان، وما لصروف الدهر عليه بفضل الله يدان. نسأل الله أن يحشرنا به في ظل العرش، ويصفي قلوبنا من كدورات[1] الغش.

لطيفة:

مما استفدته من مولانا المذكور حفيظة تلقاها من والده، رضي الله عنهما، تقرأ في محل الخوف، وهي آية الكرسي ثلاث عشرة مرة إلى (العظيم)، وسبع عشرة إلى (خالدون). وذكر لنا حفيظة أخرى وهي سورة يس معها بسم الله الرحمن الرحيم إحدى عشرة مرة.

ثم ارتحلنا من عنده ومررت بالفقيه النبيه الدراكة المتفنن سيدي أبي بكر بن علي بن محسن، فودعناه وأودعناه الدعاء الصالح، وتوفي رحمه الله أيام غيبتنا بالحجاز في أوائل سنة اربع وسبعين والف. ولم نترل ذلك اليوم إلى وادي الرتب عند رئيس البلد محمد بن جعفر، وأحسن الترل، وأطعم الجزل، فجزاه الله خيرا.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بزاوية سيدي أحمد بن عبد الصادق، فتلقانا ولده سيدي بن عبد الله بالبر والتعظيم، والترحيب والتكريم، فوجدنا بين أهل بلده فتنة عظيمة، وحاصر أحد الفريقين الآخر، واستعانوا بأمير البلد، وقطعوا لهم مئين من النخل، والله يخمد نار الفتنة.

ثم ارتحلنا صباحا وتلقانا في الطريق الشريف العفيف الفقيه اللبيب المجتهد في دينه، المتحري في دنياه مولاي محمد بن عبد الله بن سعيد[2]، وهو ممن تأكدت المعرفة والمحبة بيننا وبينه قبل ذلك، واستودعناه الدعاء وتكفل به، وذلك أيضا من أجل النعم لدينا.

(1) كدورات: جمع كدر؛ نقيض الصفاء: لسان العرب: كدر.
(2) في ط: السعيد.

لطيفة:

استفدت من مولانا المذكور حفيظة تستعمل في محل الخوف، وهي سورة يس خمسين مرة، قال: ما قرئت في أمر مهم إلا حصل.

ثم سرنا يومنا ذلك، ودخلنا سجلماسة عشية، ونزلنا بمصلى العيد خارج قصبتها، ووجدنا الركب قد نزلوا الغرفة خارج سجلماسة منذ أيام، وخرج أمير الركب سيدي محمد بن الولي الصالح سيدي محمد الحفيان يوم دخولنا لسجلماسة، وكان وصولنا يوم الأربعاء والركب قد عزم على الخروج يوم الخميس، فلما بلغه خبر قدومنا رجع إلينا وقام معنا في حوائجنا أتم القيام، فجزاه الله خيرا، وأخر الخروج بسببنا إلى يوم السبت، فلم نقم في البلد إلا يومين، وما كدنا أن نصل فيها إلى غرض من الأغراض لضيق الوقت، وقضينا من الحوائج ما أمكن، و لم نتفرغ لزيارة الصالحين الأموات، ولا لقاء الأفاضل الأحياء، فما زرنا من مزاراتها إلا قبر الولي الصالح سيدي عبد الله الدقاق[1]، وكفى به. وما تركنا زيارة غيره رغبة عنه بل لما ذكر من الاستعجال. والشيخ الدقاق ممن ظهرت بركته، وهو ممن ذكره التادلي[2] في كتاب[3] التشوف[4] وآثر من أحواله و كراماته ما يدل على شرف قدره، ونباهة أمره، وهو من أهل السادسة، والله أعلم.

ولقينا[5] من أفاضلها ومجمع فواضلها، وأمثل أماثلها، وواسطة عقد نبلائها، وزين محافل رؤسائها، وأنموذج علمائها، جامع الشرفين، وطيب الطرفين، مولاي محمد بن مبارك[6]، أسخى أهلها يدا، وأرشحهم ندى، وأكثرهم إنفاقا، وأحسنهم

---

(1) عبد الله الدقاق، من أهل سجلماسة وأحد كبار مشايخ التصوف، أخذ عن أبي مدين وأبي عمرو التلمساني، كان يتردد كثيرا على فاس: التشوف إلى رجال التصوف، ص: 156.

(2) التادلي: أبو يعقوب يوسف بن يحيى المغربي، المعروف بابن الزيات، علامة مؤرخ، له تأليف في صلحاء المغرب وشرح لمقامات الحريري، توفي وهو قاض بدقواق سنة سبع أو ثمان وعشرين وستمائة للهجرة: شجرة النور الزكية 1:265.

(3) ساقط من ط.

(4) التشوف إلى رجال التصوف، ص: 156.

(5) في ط: لقيت.

(6) محمد بن مبارك السجلماسي المغرواي، فقيه نحوي، توفي في ربيع الأول من عام 1092 هـ: التقاط الدرر، ص: 222.

أخلاقا، فواسى بالنفس والمال، واستمال كل قلب منا فمال، فجزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء، ووقاه سائر الأرزاء.

ولقينا[1] أيضا خطيب جامعها الأعظم، ومدرسها الأفخم، الفصيح اللسان والثبت الجنان، ذا الهمة العالية، والوجاهة السامية، مولاي محمد بن عبد الله بن السيد[2]. ولقيت بها أيضا يوم الجمعة في مصلى الأمير الأخوين الفاضلين الفقيهين النبيهين اللبيبين المدرسين سيدي أحمد بن محمد[3] وأخاه محمد[4] التاجموعتين، ولم يقتض المحل في الملاقاة اتساعا، فكان السلام معهما وداعا. ولقيت أيضا في ذلك المجلس الفقيه الأجل، القاضي الأبجل، سيدي رضوان. وأما الأخوان الأمجدان الأسعدان الفقيه المدرس سيدي العربي بن عبد العزيز وأخوه الأديب الأريب سيدي أحمد[5] فلم ألقهما إلا يوم انفصالنا من البلد لما خرجوا لوداع الركب. وأما الأمير (مولاي محمد الشريف بن علي الحسني)[6]، فقد أجزل الضيافة في يومي الإقامة، وزود مما يحتاجه المسافر أمامه، تقبل الله منه صالح عمله، وبلغه من الخير منتهى أمله.

---

(1) في ط: لقيت.

(2) ذكر العياشي في إتحاف الأخلاء محمد بن عبد الله بن السيد الذي أشركه معه في استدعاء الإجازات من شيوخه بالمدينة المنورة سنة 1073، أنظر: إتحاف الأخلاء، ص: 90.

(3) أحمد بن محمد التجموعتي الفيلالي، من أشياخ الحسن اليوسي، توفي عام 1080هـ: خلاصة الأثر 348:1، التقاط الدرر، ص: 179. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 526:2.

(4) محمد بن محمد التجموعتي، عالم محقق، من أشياخ أبي علي اليوسي، توفي عام 1088 هـ: خلاصة الأثر 348:1، التقاط الدرر، ص: 200. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 526:2.

(5) أحمد بن عبد العزيز السجلماسي: أديب مغربي، حج في سنة اثنتين وثمانين وألف، وجاور بمكة وأقرأ بالحرم الشريف، توفي بمصر سنة 1085 هـ: خلاصة الأثر 236:1.

(6) ما بين قوسين ساقط من ط.

وكنا قدمنا معنا بثلاثة من الخيل واشتريت آخر بسجلماسة، وأعطيت أفضلها لأمير الركب، واستصحبت الثلاثة الباقية إلى توات، وكتب الأمير أيده الله،إلى عماله فيما استقبلنا من البلاد أن يمدونا بالمحتاج من علف إلى توات.

ذكر خروجنا من سجلماسة

ثم سافرنا من سجلماسة يوم السبت العاشر من ربيع الثاني، وما خرجنا من البلد حتى وجدنا الركب أمامنا قد ارتحل وسار، ولم يبق منهم في المنزل داع ولا مجيب، واقتفينا أثرهم. فلولا أن أمير الركب خلف واحدا من أصحابه في منتصف الطريق يدلنا على منزل الركب لكدنا أن نذهب عنه، إذ لم نصل إليهم إلا بعد العشاء الآخرة، ووجدنا الركب قد نزل في عين العباس، فنزلنا معهم وأقمنا غدا هناك ننتظر لحاق بعض أصحابنا ممن تخلف عنا بسجلماسة لقضاء بعض الأوطار، فلحقوا بنا في ذلك اليوم. ومن هناك ودعنا آخرين جاءوا معنا من أهل بلدنا، وانقطعت أخبارنا عنهم وأخبارهم عنا. وكتبنا معهم كتابا للإخوان والأصحاب، وكتبنا من هناك إلى أصحابنا ومشايخنا بفاس[1]، ونحن في غاية وصول الكتب إليهم بين الرجاء واليأس.

ثم ارتحلنا من هناك مسرعين، وإلى داعي البين مهطعين[2]، ولم يبق لنا التفات إلى من وراءنا، ولم نشغل بغير ما نحن فيه آراءنا. واستقبلنا أراضي واسعة، ومناهل عن العمران شاسعة،لا يهم المرء فيها إلا نفسه، ولا يكون بغير راحلته أو عصاه أنسه، أرض لا يتشعب في شعابها إلا خوافق الرياح، ولا يجترئ على قطعها إلا ذو خف أو جناح. ثم نزلنا ذلك اليوم عشاء منهلا يسمى الرفاعية، وهي أحساء تحفر في رمل وماؤها طيب كالذي قبله، ومنه يؤخذ ماء ثلاثة أيام لقطع الحماد، فتفقد الناس قِربهم، ورووا ركائبهم، وأصبحوا مرتحلين، وطلعنا إلى ظهر الحماد ظهرا، وبتنا قريبا من الركب في موضع يقال له وادي السبط ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا إلى الليل في أرض حرشة وعرة، يغني عن وصفها ما لها من الشهرة، لا حطب فيها ولا كلا، ولا ماء إلا ما في القرب وإلا فلا، فلا تلمح العين في صلعتها[3] إلا

---

(1) فاس: مدينة عظيمة، وهي قاعدة بلاد المغرب، يشقها نهر كبير يسمى وادي فاس، وهي مدينة محدثة، أسست سنة 192 هـ: الروض المعطار، ص: 434.

(2) مهطعين: من هطع؛ أي أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه: لسان العرب: هطع.

(3) الصلاع: الصلعة والصلع: الموضع الذي لا نبت فيه: لسان العرب: صلع.

الصلاع[1]، ولا للإبل وأربابها إلى غير مواقع أقدامها اطلاع. وصادفنا فيه ريح بارد كأنه من نفس جهنم وارد، قد جمع إلى برده عصفا لا أكاد أستطيع له وصفا، و لم نبت إلى المغرب، و لم يجد الناس وقودا إلا أخضر صلاعها في بعض تلاعها. ثم من الغد نزلنا من الحماد بعد الظهر، وبتنا قبل العصر تحته في أرض سهلة مسترملة فيها بعض ما ترد به الأرض جرعتها، وتطفئ به لوعتها. ثم ارتحنا من هناك وبلغنا وادي جير ضحى، وهو وادي كبير أفْيَح، ملتف الأشجار، قليل الأحجار، كثير المرعى، غمض المسعى، يجتمع إليه السيول من المسافات البعيدة، ولا تصل إلا بعد أيام عديدة، وابتداؤه من ناحية بلادنا، وعليه قرى ومزارع، ويمتد كذلك إلى ناحية الصحراء، والعمارة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة، فمن هناك تنقطع العمارة إلى أن يصل إلى وادي الأساور، فتتصل قراه كذلك نحو من عشرة أيام إلى قريب من توات، فينعطف يمينا في رمال كثيرة، وهو من أطول أودية المغرب مسافة، وأقلها فائدة وأكثرها مخافة، إلا أنه في وقت مرورنا به في غاية العافية، قد وجدنا به أفراسا مهملة ليس معها أحد، ولا يقدر إنسان أن يقربها لمبالغة الأمير في التنقيب عن لصوص تلك البلاد، وإبلاغه في معاقبتهم فنفع الله البلاد بذلك، وإن كان غالبه ظلما لا تنكر الباطل في طوره، فإنه بعض ظهوراته.

وسرنا مع ذلك الوادي إلى الظهر، ونزلنا على ماء يقال له طاية الحمار، ثم ارتحلنا منه وقطعنا حمادة أخرى، ونزلنا قريبا من موضع يقال له السد على ماء في وادي جير غادرته السيول، ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بقرية يقال لها أجلي، وهي أول قرى وادي الساورة، وأول القرى التي كتب لنا الأمير إليها، فما أحسن صاحبها ولا أفضل، ونزلنا ذلك اليوم بقرية يقال لها مازر، ثم ارتحلنا منها ونزلنا قرى بني عباس[2]، وهي ثلاث قرى متصلة في جبل صغير، على شفير الوادي فيها نخل كثير، وفاكهة وبساتين حسنة، وفيها ساقية من الماء الجاري العذب، وبأحد

(1) الصلاع: الحر: لسان العرب: صلع.
(2) بنو العباس: قرى عل وادي الساورة: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 4:271.

قراها كان سيدي أحمد بن عبد الله ابن أبي محلى[1] القائم فيما مضى، ومنها كان ابتداء أمره وقيامه، وداره الآن معروفة.

لطيفة:

ولما وصلنا إليها وجه إلي سيدي إبراهيم السوسي[2]، وكان معنا في الركب، ولم تكن لي به إذ ذاك معرفة، سؤالا منظوما في ثلاثة أبيات لا أستحضرها الآن، وحاصله أنه قال: هل يجوز للشاعر اللحن في القوافي أم لا ؟. فاستهجنت هذا السؤال، واستنكرت أن يكون صاحبه ممن له بصناعة الأدب ماسة، وعلمت أن قصده السؤال عن ضرائر الشعر وما يقع فيه مما هو بعيد عن منهج العربية ولا يجري على قواعدها. فأجبته بأبيات مضمنها أن اللحن لا يسوغ في شيء من الكلام نظمه ونثره، إلا أن النظم لما كان أضيق من النثر اغتفرت فيه أشياء كثيرة لا يغتفر مثلها في النثر ولا يسوغ، وتلك الأشياء متفاوتة بعضها أخف من بعض، كقصر الممدود وعكسه، وصرف الممنوع من الصرف وعكسه بالنسبة إلى التقديم والتأخير والقلب في حروف الكلمة والحذف، فإن هذه أشد من الأولى. وقد استوفى ابن عصفور في كتاب ضرائر الشعر[3] غالب أنواع الضرورات، وإن كان بعضها لا يخلو من نقد. فإذا علم ذلك فارتكاب الشاعر شيئا مما ذكر أو نحوه ضرورة لا يسمى لحنا، لأن اللحن إنما هو ما لا وجه له في العربية، إذ لم تستعمله العرب ولا قيس على ما استعملته، وهذه الضرائر قد استعملتها العرب، فهي جارية على نهج أشعارهم، موجودة في بليغ كلامهم، فلا تسمى لحنا، ولا فرق في ذلك بين القافية وغيرها، وإنما تخالف القافية غيرها من أجزاء البيت في أمور ليس

---

(1) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي، ثائر متصوف، ولد بسجلماسة بالمغرب سنة 967 هـ، وخرج إلى فاس لطلب العلم مدة، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، توفي سنة 1022 هـ بعد أن خاض غمار السياسة وقاد عدة ثورات: نشر المثاني 1:188. الأعلام 1:161.

(2) إبراهيم بن محمد السوسي: ذكر المحبي أن له معرفة بعلم الأوفاق والزيرجا، دخل فاس بعد مراكش وأخذ عن جمع، وأقام بالزاوية من أرض الدلاء مدة، و دخل مصر سنة 1075 هـ، ثم وصل إلى مكة وأقام بها إلى أن مات سنة 1077 هـ: خلاصة الأثر 1:44.

(3) ذكر ابن عصفور أن ضرائر الشعر منحصرة في الزيادة والنقص والتأخير والبدل: ضرائر الشعر، ص: 22.

مرجعها اللحن، كالسناد[1] والإقواء[2] وغير ذلك من عيوب القوافي، كما أن للأجزاء سواها عيوبا أخر، ومحل ذلك في العروض لا النحو. هذا محصل الجواب.

ثم ارتحلنا من قرى بني عباس ظهرا على إثر سماء، ونزلنا بعيدا منها على شفير الوادي، ثم منه إلى قرب قرية يقال لها بشير، ثم ارتحلنا من هناك وتركنا الغابة عن يسارنا، وهي قرى كثيرة ذات نخيل، وهي أكثر قرى الوادي تمرا، وتقصدها العرب كثيرا للميرة[3]، ولم يكن مرورنا عليها بل أخذنا على حمادة عن يسارنا حتى نزلنا بموقع يقال له فم المدفع، وبه تجتمع الطريق التي سلكناها مع طريق صابر التي تقطع الحماد الكبير وتنزل على مزعمو.

ثم ارتحلنا منه ومررنا على قرية يقال لها بني خلف، وسرنا يوما حتى نزلنا بزاوية سيدي أحمد بن موسى، نفعنا الله به، وأحسن صاحبها في القرى لنا ولسائر أهل الركب، وأعطى ما بعث إليه الأمير. ثم ارتحلنا منه صباحا بعدما زرنا قبر السيد المذكور، وسرنا مع قراها ذلك اليوم حتى نزلنا وراء آخر قرية منها بموضع يقال له الطويل. ثم ارتحلنا منه وتركنا قرى أولاد رافع عن يسارنا، وقطعنا حمادة هناك، ونزلنا على ماء يقال له تمغارن، وبتنا به وأخذنا منه ماء ثلاث ليال، ثم ارتحلنا منه. ومر بعض الركب مع الوادي على قرى يقال لها القصبات، ومر الآخرون عن يسارها، وظن أصحابهم أنهم قد تاهوا فلم يجتمعوا إلا عشاء، ونزلنا آخر الوادي بمضيق من الجبل حيث ينعطف ذاهبا في الرمل. ثم ارتحلنا منه وذهبنا في الحماد الذي بين توات[4] والوادي. ونزلنا بموضع يقال له الدميرنة، تصغير دمران، اسم شجرة تأكلها الإبل كثيرا وتصلح عليها، وسمي بها المحل لوجودها فيه. ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا وما وصلنا إلى المهوى إلا قريبا من ثلث الليل الأول، وهي ثنية في آخر الحماد مشرفة على أول بلاد توات، وما سرنا قط مرحلة مثلها

---

(1) السناد من عيوب الشعر، وهو على خمسة اضرب، وأصل السناد من قولك: أسندت الشيء إلى الشيء إذا حملته عليه وأضفته، أو من قولهم خرج بنو فلان متساندين، أي خرجوا على رايات شتى، فهم مختلفون غير متفقين، فكذلك القصيدة اختلفت ولم تتألف بحسب جاري العادة في انتظام القوافي واستمرارها: الكافي في العروض والقوافي، ص: 165.

(2) الإقواء: اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة: الكافي في العروض والقوافي، ص: 160.

(3) الميرة: جلب الطعام: لسان العرب: مور.

(4) توات: واحة كبرى بصحراء المغرب، تفرعت عنها أسر كثيرة انتشرت بأنحاء المغرب: معلمة المغرب 2608:8.

كلالا وجوعا للإبل، وقاسيناه يوما قمطريرا وليلة نابغية[1]، والله يكفر بها الزلات، ويجعلها آخر ما نلقاه[2] من المشقات.

ثم ارتحلنا منها ودخلنا إلى أول عمالة توات، وهي قرى تسابت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي محمد بن صالح[3] المعروف بعريان الرأس، تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين[4] دفين مكناسة بمغربنا، نفعنا الله بهما وأدركنا بعنايتهما. وكان وصولنا إليها ضحى يوم الخميس آخر يوم من ربيع الثاني، وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما يحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر فيها رخيصا، ولم نلق هناك أحدا ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح، ولا من أهل العلم والفلاح، وغالب أهلها عوام أهل تجارة جل عيشهم التمر، وبخارج البلد مرعى حسن للإبل، صلحت فيه إبل الحجاج أيام الإقامة. وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة[5]، وكل هذه البلاد في طاعته. وقد صلينا الجمعة فيها أول يوم أقمنا فيها، وسرد الخطيب خطبة عظيمة وعظية حسنة تلقفها من صحيفة، إلا أنه أكثر فيها اللحن، وآخرها: فقد نصحكم الواعظ يا أهل الإسلام، فاقبلوا النصيحة والسلام. وحضر الخطبة رجل ممن كان معنا في الركب فبكى بموعظته تلك بكاء كثيرا، وأظن أن بكاءه ذلك كان عن صدق لا استعمال فيه، ولم أعلم حتى الآن من هو. وسبب إقامتنا في هذه البلاد في هذه المدة أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات فإن الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر، وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من

---

(1) إشارة إلى بيت النابغة الذبياني: فبت كأني ساوَرتني ضئيلة من الرُقْــش في أنيابها السم ناقعُ ديوان النابغة الذبياني، ص: 33.
(2) في ط: نتلقاه.
(3) محمد ابن صالح، الولي الصالح، من مؤلفاته كتاب الهدية، وضعه في سر الحرف وعلم الفلك والتنجيم: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 4:342.
(4) أبو عبد الله محمد المعروف بأبي الرواين، متصوف من أتباع الملاماتية، أثرت عنه أحوال ومقامات، توفي آخر العشرة السادسة من القرن العاشر: دوحة الناشر، ص: 74.
(5) نسبة إلى مولاي الشريف بن علي، أنظر: الاستقصا 7:14.أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 25.

تنبكت[1] ومن بلاد أكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خرج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحرير، فإذا قدم الركب إليها كان فيها سوق حافل.

ثم ارتحلنا من توات بعدما لحق بنا جملة ممن يريد الحج من أهلها يوم الخميس السابع من جمادى الأولى، وخلفنا قرى توات وراءنا وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكرت[2]. ونزلنا بقرى الدغامشة[3] قرب زاوية سيدي عبد الله ابن طمطم[4]. فلما ارتحلنا ذهب أمير الركب مع بعض أصحابنا لزيارته، ولم تتيسر لي زيارته لأن الركب عدل عنه يمينا وأنا لا أقدر إذ ذاك على المشي كثيرا راجلا، والبلاد ذات رمل، وقد أثنى لنا أصحابنا عنه كثيرا، وأنه من أهل الخير والدين، يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء.

غريبة:

ومما تواترت به الأخبار عن هذا السيد أنه لا يترك أحدا من أعراب ذلك البلد يأكل طعامه، فإن لم يشعر به حتى جلس بين الناس أقامه، ويقول لهم: هؤلاء اللصوص لا أتركهم يأكلون طعامي يستعينون به على ظلم المسلمين، ومع ذلك لا يقدر أحد منهم، مع عتوهم واستكبارهم، على إذايته، وعلى كل حال فالرجل من أهل الخير والصلاح تؤثر عنه كرامات كثيرة.

---

(1) تنبكت: عاصمة السودان العلمية، اشتهرت بكثرة المكاتب والعلماء: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 82.
(2) أوكرت: من القرى الواقعة في توات: أنس الساري والسارب، ص: 30.
(3) الدغامشة: ضبطها ابن مليح بالعين، وسماها الإفراني في الصفوة: الدغامسة، وهي قرى كثيرة بقرب بلاد توات: أنس الساري والسارب، ص: 30. صفوة من انتشر، ص: 169.
(4) عبد الله بن طمطم: صاحب الزاوية بتوات، صاحب أحوال ومقامات: التقاط الدرر، ص: 251. صفوة من انتشر، ص: 169.
نشر المثاني 2: 384.

لطيفة:

أخبرني الأخ في الله المحب المخلص سيدي عبد الرحمن بن الحسن، وكان ممن ذهب لزيارة هذا السيد، أنه لما خرج لوداعهم قرأ لهم فاتحة وبالغ في رفع يديه، فلما فرغ منها قال له رجل آخر من الحجاج: يا سيدي اقرأ لي فاتحة، فانتهره وقال له: أما علمت أن فاتحة الكتاب لما قرئت له، وأنها السبع المثاني والقرآن العظيم، فهلا نويت حاجتك عند شروعنا في قراءة الفاتحة، فإن فاتحة واحدة تكفي أهل السماوات والأرض، أو كلاما هذا معناه. ولقد صدق في ذلك، رضي الله عنه، وذلك مما يدل على أن له حالا مع الله وسعة معرفة به وبأسمائه وأسرار كلامه، وقد[1] نفعني الله بكلامه هذا، فلا أقرؤها بعد ذلك لنفسي أو لمن طلبها مني إلا نويت مطالبي كلها أو مطالب الطالبين، وإن تعددوا فأجد بركة ذلك، وهذا شأن أهل الصدق مع الله في ظهور أثر سماع كلامهم فيمن سمعه أو بلغه. والله تعالى يمدنا بمدد أهل القرب، الموجب لحصول مرضاة الرب.

و لم يلحق بنا أصحابنا الذين ذهبوا لزيارة هذا الرجل الصالح حتى نزلنا قرية يقال لها أولاد محمود، وهي من قرى الدغامشة، ثم ارتحلنا منها ونزلنا ببلاد أوكيرت عشاء، وهي قرى كثيرة ذات نخيل جم، وهي معدودة من بلاد تجورارن[2]. واشترى الناس منها ما احتيج إليه من الزاد إلي بلاد واركلا[3]، وأقمنا بها يومين وبدلنا بها من الأباعر ما ضعف.

لطيفة:

وكنا نزلنا بقرب زاوية سيدي محمد[4] عمر بن محمد بن صالح الأنصاري الخزرجي الشامي[1]، ولقيت بها رجلا ممن ينتحل الفقه اسمه سيدي محمد بن محمد

(1) في ط: وقد.
(2) تيجورارن: أو تيكورارين، تقع في الجزء الشمالي الشرقي لواحة توات، وهي قصور كثيرة: رحلة ابن خلدون، ص: 255 / هـ 1216.
(3) واركلا: غالبا ما ترد في المصادر باسم واركلان، وهي بلد في طرف الصحراء مما يلي إفريقية، قال صاحب الروض المعطار: وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وفيه سبع مدائن مسورة حصينة، بعضها قريب من بعض: الروض المعطار، ص: 600.
(4) ساقط من ط.

بن علي بن أبي بكر[2]، وهو في غالب الظن من أهل الخير، وله بعض الخبرة بفروع الفقه. وكان قد وجه إلى الركب بسؤالين أحدهما في نازلة من الأحباس والآخر في نازلة من البيوع، وألزمني بالكتب على الأخيرة منهما. ومضمن السؤال، وكان فيه طول، أن رجلا اشترى من آخر ستة أجزاء أو قريبا من ذلك من ماء عين جلبت من بعيد بالفقاقير[3]، وذلك وصف ماء هذه البلاد كلها، وثمانية أجزاء من عين أخرى. والعينان مختلفتان[4] في القلة والكثرة والبعد والقرب، وغير ذلك من الأوصاف التي تختلف بها رغبة الناس في المشترى اختلافا كثيرا. ثم إن هذا المشتري باع من آخر أجزاء معلومة العدد من كلتا العينين كخمسة مثلا، ولم يبين ما لكل عين من الأجزاء.

فأجبت بفساد هذا البيع للجهل بالمثمون، إذ لا يدري ما له من العين المرغوب فيها وماله من الأخرى، ثم إن خصم هذا المستفتي وجه بسؤال فيها إلى القاضي سيدي أحمد الخطيب، إلا أنه زاد في السؤال أن الماءين يجتمعان في بركة حتى يصيرا ماء واحدا، ثم بعد ذلك يجزأ أجزاء، وأن الأجزاء المبيعة إنما هي من الماء بعد اجتماعه في ذلك المحل، فأجاب بالصحة لأن الماء بعد اجتماعه في ذلك المحل صار معلوم القدر، وأجزاؤه معلومة وإن اختلفت مواده التي يجتمع منها. وذكر لي أن هذه المسألة كثيرة الوقوع عندهم ببلاد مراكش لأن أكثر بساتينهم بالخطاطير، ويسميها أهل هذه البلاد الفقاقير، وهو أنسب لأنها آبار متعددة بفقر من جنب كل واحد إلى الآخر، فيزيد ماؤه وينمو مع زيادة ماء غيره عليه، ولا يزال كذلك حتى يخرج على وجه الأرض فتسقى به الأجنة والمزارع، ويجزأ أجزاء كثيرة بالأيام، وقد يجزأ اليوم الواحد بأجزاء كثيرة فتباع تلك الأجزاء.

ولما كتبت الجواب على النازلة المذكورة على الوجه الذي ذكر في السؤال ذهب به المستفتي إلى القاضي المذكور ليضع خطه فيه بالصحيح فأبى وقال إن الجواب صحيح، وتحيَّل في عدم الكتب بعذر أبداه، فلما لقيته سألته عن عدم

---

(1) عمر بن محمد صالح الخزرجي الشامي صاحب زاوية بلاد وكرت، بالكاف المعقودة، على مرحلتين من توات، من أقطاب التصوف، توفي عام 1008 هـ: التقاط الدرر، ص: 33، نشر المثاني 1:74. صفوة من انتشر، ص: 191.

(2) أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر الأكرتي، أخذ الطريقة على يد والده، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشية: نشر المثاني 2:370.

(3) الفقاقير: والفقير؛ الآبار المجتمعة الثلاث فما زادت: لسان العرب: فقر.

(4) في ط: مختلفان.

تصحيحه للجواب، فقال لي: إنه وجه إلي بسؤال في النازلة على خلاف ما وجه به إليك وأجبت بالصحة، فلا أحب أن يوجد خطي في سؤالين متناقضين في نازلة واحدة، وإن كان كل منهما صحيحا بالنظر إلى ما ذكر في سؤاله، وكثيرا ما يقع هذا فينسب به المفتي إلى الميل والتعصب وإن كان بريئا من ذلك، وقبلت عذره في ذلك، وهو صحيح، وقد ذكر لي بعض مشايخنا أن سيدي أحمد المقري[1] لما ولي الفتوى بفاس كان لا يجيب في نازلة قد تقدم له جواب عنها بما يخالف مقتضى السؤال الثاني، ويقول: إن ذلك مما يوجب الطعن في المفتي عند كثير من الناس، فربما يقذف من أجل ذلك بألسنة الذم ويلحف برداء الحيف.

والذي يظهر لي، وإن كان لما ذكر وجه، أن الأولى الجواب عن السؤالين (معا، وينبه في الثاني على أنه قد تقدم له جواب في مثلها بما يخالف هذا)[2]، لاختلاف فصول السؤال بأن كان الأمر كما ذكر فالحكم كذا، فإذا فعل ما ذكرنا زالت الريبة وتبين الحكم لمن أراد اقتفاءه، وإلا أدى ذلك إلى التضييق على كثير من المستفتين والإبطال لحقوقهم، والله أعلم.

لطيفة:

وقد أخذ سيدي محمد بن محمد بن علي بن أبي بكر المتقدم طريق الإرادة عن والده، ووالده أخذ عن سيدي عبد الله بن أحمد الحجام[3] بزرهون، وهو أخذ عن سيدي عمر الخطاب[4] بفاس، وهو عن سيدي عبد العزيز التباع[5] بمراكش، رضي الله عنه، هكذا أملى علي السند. وقوله: إن سيدي عمر الخطاب بفاس، لعله كان بها حين أخذ عنه، وإلا فهو دفين زرهون.

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني، أديب فقيه مؤرخ، صاحب كتاب نفح الطيب وغيره، ولد سنة 922هـ، وتوفي بالقاهرة سنة 1041 هـ: خلاصة الأثر 302:1، شجرة النور الزكية 434:1.

(2) ما بين قوسين ساقط من ط.

(3) عبد الله الحجام الصبيحي، الولي الصالح، نزيل جبل زرهون، أثرت عنه خوارق وكرامات: نشر المثاني 39:1. ممتع الأسماع، ص:128.

(4) عمر بن عبد العزيز بن عمر الخطاب الزرهوني، فقيه نحوي، ولد سنة 972هـ، وتوفي قتيلا عام 1002هـ: ممتع الأسماع، ص: 74. نشر المثاني 41:1.

(5) عبد العزيز بن عبد القادر التباع: وصفه صاحب شجرة النور الزكية بالشيخ الكامل الولي القطب الواصل الكثير الكرامات والأتباع، توفي سنة 914هـ: دوحة الناشر، ص: 122. ممتع الأسماع، ص: 52. شجرة النور الزكية 397:1.

وقد ذكر لي سيدي محمد المذكور أن سيدي عمر صاحب الزاوية التي نزلنا بإزائها كان يذكر بالقطبانية، وأنه توفي عام ثمانية وألف، وأنه أخذ الطريق عن سيدي محمد بن أبي بكر الودغاغي، وهو عن سيدي موسى المسعودي التسفاوتي، وكلاهما بتجرارن، وهو عن سيدي أحمد بن يوسف الملياني[1]، وعن سيدي عبد الله الخياط[2]، وعن سيدي عبد الله الغزواني[3] رضي الله عنهم. ولما جئنا لزيارة سيدي محمد المذكور وقفنا بباب داره، وقيل لنا إنه داخل الدار، فكتبت إليه بيتين، وكان ذلك قبل اجتماعنا به، وهما[4]:

[طويل]

ببابِكَ قومٌ يطلبونَ زيارةً ... لكيما ينالوا دعوةً منك رابحةْ
أحبوكَ لا عن رؤيةٍ قد تقدمتْ ... ولكنْ لأخبارٍ أتتْ عنكَ صالحةْ

فخرج إلينا وهش وبش وأنس وأجزل القرى، جزاه الله عنا خيرا، وعقدت معه أخوة في الله، فلما ودعته طلبت منه الدعاء، فدعا لي وقال لي: معرفة الله كنز، ومعرفة أحكامه طريق إلى ذلك الكنز، فمن مات قبل الوصول إلى معرفة الله فقد مات في الطريق و لم يصل إلى الكنز، وهذا كلام حسن في بابه.

غريبة:

أخبرني من أثق به من طلبة توات وتجرارن أن من عادة أهل بلدهم أن من نشزت امرأته وطلقها، يأتي إلى شهود يسترعيهم ويقول: اشهدوا أني ما طلقت امرأتي إلا كي أكسر من سورتها وشدتها، فمتى أرادت التزوج استظهر بذلك الرسم، فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه، وأخبروا أن حكامهم يحكمون بذلك،

---

(1) أحمد بن يوسف الملياني، نزيل مليانة بين الجزائر وتلمسان، يعتبر من مشايخ التصوف وأقطابه الكبار، صحب الشيخ أحمد زروق، توفي سنة 927 هـ: دوحة الناشر، ص: 112، الأعلام 1:275.

(2) أبو عبد الله محمد الخياط، نزيل جبل زرهون، عارف واصل، أخذ عن الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، توفي مسموما في العشرة الثالثة من القرن العاشر: دوحة الناشر، ص: 77.

(3) أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني، من مشايخ التصوف وأقطابه الكبار، استقر بمراكش وبها توفي سنة 935 هـ: دوحة الناشر، ص: 88.ممتع الأسماع، ص: 56. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 8:235.

(4) ورد البيتان في نشر المثاني 2:370.

وأن عندهم فتوى لبعض الفقهاء بصحة ذلك. ولا أعلم الآن وجها لما ذكروا، إذ ليس نشوزها بإكراه لا يلزم معه طلاق الزوج، اللهم إلا أن يكون الزوج لم يصدر منه طلاق ويأمر من يشيع عند الناس أنها مطلقة، ويستحفظ عند الشهود أن ما شاع لا أصل له، وسكوته عند تحدث الناس بذلك إنما هو للغرض المذكور، فقد يقبل هذا، أو يطلقها بلفظ ليس بصريح، وإنما هو كناية مما ينوي فيه المطلق، ويشهد على نفسه أنه ما نوى به الطلاق، أو غير ذلك من الحيل المقبولة شرعا، والله أعلم.

ولما اطلع شيخنا أبو محمد عبد القادر الفاسي، رضي الله عنه، على ما كتبته هنا، ذكر لي نازلة[1] البرزلي[2] المذكورة في فتاويه[3]، لما عزم على الرحيل من القيروان، وأبت زوجته إلا أن يجعل بيدها طلاق من يتزوج عليها، ففعل ذلك واسترعى أنه غير ملتزم له، فنفعه ذلك عند قيامها. وقال لي: إن هذا يدل على صحة ما ذهبوا إليه من ذلك. وكنت قبل ذلك أرى أن نازلة البرزلي غير مساوية لما ذهبوا إليه، لما ظهر لي من كلام المخبر أنه إنما يفعل ذلك بعد وقوع الطلاق، ورأيت أن ذلك يعد منه ندما، فلو صح لكان كل من طلق وندم أتى بما يدفع طلاقه. ولما فاوضت شيخنا، رضي الله عنه، في ذلك علمت أن قصد المخبر بذلك الذي يودع الشهادة عندهم أن ما يوقعه من طلاق لأجل النشوز المذكور ويصدق فيه، وإن لم تقم عليه بينة، وهو قريب من نازلة البرزلي، رضي الله عنه، فليتأمل.

لطيفة:

ولما نزلنا بهذه القرية وجه إلي سيدي إبراهيم السوسي سؤالا منظوما ونصه:

[طويل]

أجنــــةَ علــــمٍ في سمـــاءِ جلالـــة سقتها غوادي البر دانيـــةَ القطـــفِ

(1) في ط: نازلة أخرى بل نازلة.

(2) أبو القاسم بن أحمد البلوي القيرواني الشهير بالبرزلي، الفقيه المفتي، له ديوان كبير في الفقه، وله الحاوي في النوازل، توفي بين سنة 841 وسنة 844هـ، وقد نيف على مائة سنة: شجرة النور الزكية 352:1.

(3) يوجد للبرزلي بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط نسخة مخطوطة من كتاب: جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام، رقم 450 د.

جوابُكَ عن ثوبِ كثيــف ومحـــشو بقطن فهل به الـــصلاة بـــلا زيـــف
وعن أمرِ خير الرسْل في النوم إن جرى أيلزمُ أم لا ذُل حيرةً مـــن خلْـــفِ
وعن نازلِ ربْعــا يقــيم لأن بـــدا يصلي طرا ما يوجبُ القصرَ عن صرف
أفِضْ من عبابِ ذلك البحر ســامحا فلا زلتَ مجدا للمعـــارف واللطـــفِ

فأنت ترى ما في هذا النظم من الركاكة والكسر وعدم البيان الذي هو شأن السؤال، ولكن لما فهمت مقصده في المسائل الثلاث أجبته بقولي:

[طويل]

حمدتُ إلاهًا قد تـــزهَ عـــن كيْـــفِ وعز وجل عن ثناءِ وعـــن وصـــفِ
وأزكـــى صـــلاةِ الله ثم ســـلامةُ على المصطفى المبعوثِ بالذكرِ والسيفِ
وهذا جوابي عـــن ســـؤالٍ مهـــذبِ أتى بنظامِ رائـــقٍ محكـــمِ الرصـــفِ
فمنهُ سجودُ المرء فوق البـــساطِ لا صلابة فيه كالبـــساط وكـــالقطفِ
تَوقفَ فيه الـــبعضُ مـــن علمائنـــا وشهر فيه المنعَ بعـــضٌ بـــلا وقـــفِ
وذا كلهُ ما دام رخـــوًا و إن يكـــنْ تلَبد قـــالوا بـــالجوازِ بـــلا ضـــعفِ
وهذا الذي حصلتُهُ عـــن مـــشايخي وقد عللوا هذا الجوابَ بمـــا يـــشفي
ومنهُ لزومُ الفعـــلِ إن كـــان آمـــرًا به المُصطفى في النوم أو قالَ بـــالكَف
فإن كان ما قد قالَ وافـــق شـــرعَهُ فذلك أحرى باللزوم بـــلا خُلـــفِ
وإن خالفَ المنصوصَ فهْـــوَ مـــؤولٌ وتأويلهُ بالعلم يُـــدرى وبالكـــشْفِ
ومنهُ الذي ينـــوي بـــأرضِ إقامـــةً فيـــدو لـــه أمـــرٌ إقامتَـــهُ ينفـــي
فذا حكمُه حتى يسافرَ حكـــم مـــن أقام فقد لاح الجوابُ بمـــا يكفـــي
فإن وافقَ المطلـــوبَ مـــنكم فمنـــةٌ من الله أو لا فهو مما جنـــت كفـــي
وأطلبُ مـــنكم أن تَمُنـــوا بـــدعوةٍ أنال بها من سيدي غايـــة اللطـــفِ

ثم وجهت الجواب والسؤال معا إلى الفقيه الأجل، القاضي الأعدل، سيدي أبي العباس أحمد الخطيب المراكشي، وكان معنا في الركب، وطلبت منه أن يتصفحهما، واستفهمته عن السائل من هو، إذ لم أكن أعرفه إذ ذاك، وكنت أظنه رجلا آخر. فكتب إلى ما نصه: وعلى سيادة سيدنا أفضل السلام وأطيبه وآرجه، هذا وإن صاحب السؤال في علمي مجهول لا يعرف، ونكرة لا تتعرف، فإن كان ممن توسمناه حين تكلمنا على سؤاله الأول فإنما يعلمه بشر، فليستعمل الكل منا غاية في الفحص عن ميسمه، والتفرس في توسمه، وليس من ناحية حضرتنا قطعا، وقد طالعنا السؤال والجواب، وما لكم في ذلك من حسن محاضرة الخطاب، فلكم أجر من سئل وأجاب، وأرشد وأصاب. ومسألة أمره صلى الله عليه وسلم مناما لا جائز أن يكون زائدا على مضمون الأوامر الشرعية لكمالها، (اليوم أكملت لكم دينكم)[1]، ولا مخالف لها، إذ لا يقع ذلك منه صلى الله عليه وسلم، وإن كان موافقا باللزوم من غيره، وإلا لزم تحصيل الحاصل. فليتأمل سيدنا بذهنه الثاقب، وعقله الصائب، والله تعالى يحفظ ودكم، ويديم سؤددكم، والسلام عائد عليكم والرحمة والبركة.

وهو، كما ترى، مع وجازة لفظه وإبرازه في صورة التحقيق بحصر الأقسام وإبطالها، كلام من لم يحط بالمسألة خبرا، أو ذهل عما ذكره العلماء فيها طُرا، وتكلم فيها بمقتضى نظره، ومع ذلك فإن في تقسيمه تداخلا وتدافعا كما ستراه عند تعرضنا لذلك. ولما تأملت كلامه وفهمت معناه، وعلمت معتمده في رد ما ذكرناه، أردت أن أراجعه بما تتبين به المسألة وتتضح من أقوال المحققين وأنظار المدققين، فرأيت ذلك يستدعي تمهيد فصول، وتحرير أصول، وتبيين معنى حديث الرؤيا واختلاف رؤيته[2] وتعارض العلماء فيه، وتحرير كل ذلك لا يكون إلا في رسالة مفردة، وقد زورت[3] غالبها في نفسي وسميتها: تحرير كلام القوم في أمر النبي عليه السلام في النوم، فلما هممت بكتبها رأيت أن أمرها لا يتم دون كثرة المطالعة وصحة المراجعة، وذلك أمر متعذر في السفر، فأرجأت أمرها إلى أن يساعد المكان والإمكان. ولنكتب من ذلك الآن ما يتعلق بكلام صاحبنا القاضي الأجل فأقول: قوله لا جائز أن يكون زائدا الخ، إن أراد بالكون الوقوع وأن ذلك

(1) المائدة: 4.
(2) في ط: رواياته.
(3) زروت: زورت في نفسي كلاما؛ هيأت وأصلحت: لسان العرب: زور.

لا يقع منه، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وهو ظاهر كلامه، فالدليل إنما قام على أنه لم يبق شيء من مقاصد الشرع غير مذكور في الكتاب والسنة، وذلك إنما يقتضي أنه لا يثبت حكم زائد بما يأمر به في النوم لأن الدين قد كمل. لا على أن النائم لا يرى أن النبي، عليه السلام[1]، أمره بأمر زائد على المشروع، فان ادعى ذلك من يوثق به[2] و لم تظهر تهمة، سيما إن رآه على صفته، صدق في أنه رأى ذلك، وأن رؤياه حق، للحديث الصحيح، فاحتيج إلى التأويل، وتأويله إما بالعلم، أي بعلم التعبير، كأن يقول له حرام عليك أكل كذا وكذا من الفواكه، أو غير ذلك مما علم من الشريعة إباحته، فينظر في تأويل تلك الفاكهة عند علماء التعبير، وأنه، عليه السلام، نهاه عن ذلك الفعل لما يتوقع من ضرره ويترتب عليه من المفسدة للرائي، وإن كان الفعل في نفسه مباحا، أو يحمل لفظ التحريم على مجرد النهي لما له في ترك ذلك من المصلحة، كأن يكون الرائي مريضا ويشتهي تلك الفاكهة، فيكون قوله عليه السلام: حرام عليك، أي مضر بك غير موافق لمرضك، أو غير ذلك مما هو مقرر في فن التعبير، وهذا معنى قولنا: وتأويله بالعلم يزرى[3].

وأما قولنا: وبالكشف، فذلك إذا كان الرائي من أهل الكشف الصحيح، فيكشف الله له عن تأويل تلك الرؤيا وما أريد بها، وعن محل الأمر والنهي الوارد فيها من غير نظر إلى علم التعبير، فإذا علمت هذا علمت أنه لا يمتنع أن يأمر النبي، عليه السلام، بشيء أو ينهى عن شيء في النوم على خلاف المشروع، لأن الرؤيا كما هو عند المحققين من عالم الأمثال، وهو أوسع من عالم الحس حتى قال بعضهم: عالم الحس علويه وسفليه في عالم الأمثال كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض. وإذا كان كذلك فما في عالم الأمثال لا يوافق المحسوس منه على وجهه إلا النادر، وأكثره إنما يوافقه بالتأويل، فرؤيا النبي إنما فارقت رؤيا غيره في أنها ليست بأضغاث أحلام، ولا من تمثيل الشيطان، بل هي حق، فتخرج تارة على موافقة المرئي وتؤول تارة، وليس تأويلها بالذي يدفع حقيقتها، لأن ما ليس بحق لا يؤول بل يطرح بالكلية، فإن معنى التأويل تطلب ما يؤول إليه هذا الكلام من الحق لأنه حق، ولو كان باطلا كأضغاث أحلام وتخييل الشيطان ما تطلبنا له حقا يرجع إليه لأن الباطل لا يرجع حقا وبالعكس، وإنما ذلك في الحق الذي يشبه الباطل

(1) في ط: صلى الله عليه وسلم.
(2) ساقط من ط.
(3) في ط: يدرى.

وهو في نفسه حق، فيرجع به إلى الحق بتأويل[1] يزيل تلك الشبهة ويظهر حقيقته، فكذلك ما نحن بسبيله، فإن الرؤيا حق والأمر حق، وكون المأمور به باطلا أوقع[2] في الأمر شبها بالباطل، فيطلب لهذا الأمر مكانا من الحق يرجع إليه، ولا باطل فيه، فإذا حمل ذلك الأمر على محمل موافق للشريعة زالت عنه شبهة الباطل وظهرت حقيقته. وما قررناه ليس خاصا بالرؤيا بل هو جار حتى في أوامر اليقظة وأخبارها من كتاب وسنة، فقول النبي صلى الله عليه وسلم مثلا: حتى يضع الجبار فيها قدمه[3]، كلام حق لاشك فيه لأنه إخبار الصادق. ولما كان لفظ القدم في اللغة إنما هو الجارحة، واعتقاد ذلك في الجبار باطل، تطلبنا لهذا الكلام الحق مكانا يؤول إليه من الحق فتزول عنه شبهة الباطل، فتأولنا القدم بما لا يلزم منه محال مما هو مقرر في محله.

فإذا تأملت هذا حق التأمل عرفت أن رؤياه عليه السلام حق وأوامره فيها حق، ولا فرق بينها وبين اليقظة، فما وافق منها المشروع أجري على ظاهره، وما خالف أول، وحينئذ لا يحتاج إلى ما قاله جمع من المحققين كالعز بن عبد السلام[4] وأتباعه أنه إنما لم يعمل بما خالف المشروع لعدم الثقة بضبط الرائي، وأن من شرطه العدالة، وهي تقتضي التكليف، والنائم ليس بمكلف ولا ضابط إلا فيما لا يمكن فيه التأويل، فيرجع حينئذ فيه إلى الترجيح، فترجح رواية اليقظة على رؤيا النوم بما ذكر، فيكون من ترجيح رواية العدل على غيرها. والفرق بين ما ذكرته وما ذهبوا إليه أن ما ذهبوا إليه يقتضي أنه لا يعمل بما يراه الرائي مطلقا وافق أو خالف، ولا يؤول لأنه ليس بمكلف فضلا عن أن يكون ضابطا ثقة، وما كان كذلك لا يلتفت إليه، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف والخلف من تأويل الرؤيا وعملهم بأشياء يأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم من أذكار وأدعية، ويذكر

---

(1) في ط: بما.
(2) في ط: إن وقع.
(3) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: إن النار لن تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وأما الجنة فيبقى منها فينشيء الله لها خلقا آخر: تفسير القرطبي 49:16.
(4) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن، عز الدين الدمشقي ثم المصري، الشيخ الإمام، سلطان العلماء، فقيه شافعي، ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وتوفي بمصر سنة 660 هـ: طبقات الشافعية 109:2.

خاصيتها فيحصل لهم ذلك، وحسبك من ذلك ما نقله ابن الحاج[1] في مدخله عن المرجاني وابن أبي جمرة[2] وغير ذلك مما هو مستفيض. ولو تتبعنا ما ورد في ذلك عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى هلم جرا لكان فيه ما يملأ أسفارا، فالمحمل الذي ذكرنا أولى وأبين.

وأما قول صاحبنا المتقدم: ولا جائز أن يكون مخالفا للأوامر إذ ذاك لا يقع منه صلى الله عليه وسلم، فهو مثل قوله الذي قبله حذو النعل بالنعل، بل هو أعم منه لأن أمره بما ليس بمأمور به شرعا، أو نهيه عما ليس بمنهي عنه هو معنى مخالفة أمره المشروع، وإن كانت المخالفة تقع بالنقص كما تقع بالزيادة، فكل ما قيل في القسم الأول يقال هنا، وكل ما لزم هناك لزم هنا، وبهذا يتضح معنى قولنا أولا: إن في تقسيمه تداخلا، لأن القسم الأول داخل في هذا.

وأما قوله وإن كان موافقا فاللزوم من غيره وإلا لزم تحصيل الحاصل فنقول: سلمنا أن اللزوم من غيره، ولا نسلم أنه تحصيل الحاصل فقد يكون الحكم في اليقظة ثابتا إباحته وجواز الأمرين، فيأمر عليه السلام بأحد الجائزين لما فيه من مصلحة الرائي، أو ينهى عنه لما فيه من المضرة، أو يكون مندوبا فيتساهل الرائي فيه، فيأمره به في النوم ويبين له خاصيته ومنفعته لتقوى رغبته فيه، فيكون ذلك الأمر تأكيدا للأمر المتقدم في اليقظة، وقد وقع مثل هذا منه عليه السلام في حياته فلم يعد أحد ذلك تحصيلا للحاصل ولا مخالفة للمشروع، فيأمر بأحد الجائزين إن رأى فيه مصلحة للمأمور، وينهى عنه إن رأى فيه مضرة، ويأمر بالمندوب تأكيدا له، بل يأمر بالواجب بعد ذكر وجوبه من صلاة وصيام وحج وزكاة وأداء الأمانة وصلة الرحم وغير ذلك. ومن روى الأحاديث وشدا طرفا من السنة علم صدق ما قلنا من أمره بالصلاة، وما عطف عليها بعد وجوبها من علم وجوبها. فقد اتضحت هذه المسألة كل الوضوح، وتبين أمرها كل البيان والحمد لله من غير نقل كلام أحد من الأئمة، ولا التعرض لمعنى حديث الرؤية وما قاله الأئمة فيه، ولا نقل شيء من أقوالهم في أوامره عليه السلام في النوم. وربما تتشوق نفس الناظر إلى

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن لب التجيبي القرطبي المالكي، ابن الحاج، فقيه محدث، توفي مقتولا سنة 529 هـ وله إحدى وسبعون سنة: سير أعلام النبلاء 614:19. شجرة النور الزكية 479:1.

(2) عبد الله بن سعد بن أحمد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، فقيه مؤرخ مفسر، توفي بالقاهرة سنة 675 هـ: معجم المؤلفين 57:6. الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 25:1.

شيء من ذلك، بل ربما أعرض عن هذا كله، سيما إن كان بمعزل عـــن شـــيمة المنصفين، فيقول: لا يقبل منك شيء مما ذكرت إلا بنقل الحديث الذي هو أصل في هذا الباب وكلام الأئمة عليه وما لهم في ذلك من تحقيق وتدقيق. فاحتيج إلى التعرض (لنقل)[1] شيء من ذلك بحسب ما اقتضاه الوقت من الاختصار، ولعـــل عند نقلنا لذلك يكون في هذا القدر المذكور غنية عن الرسالة التي ذكرنا أولا أنا عزمنا على تأليفها في هذه المسألة. فمن أراد أن يجعلها رسالة مستقلة ويفصلها عن محلها فليضف ما ذكرناه مما منَّ الله به علينا من خزائن فضله إلي ما نذكره بعده مما استخرجناه بالمطالعة من النقول التي يعز اجتماعها في غير هذا، فتحصل بالمجموع الإفادة.

ولنذكر الآن حديث الرؤيا وما يتعلق به فنقول: روينا في صحيح البخاري من حديث ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم: من رآني في المنام فقد رآني، فان الشيطان لا يتمثل بي[2]. وفي الصحيحين من حديث أبي قتادة، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: مـــن رآني فقد رأى الحق[3]. وفي البخاري من حديث أبي سعيد الخدري، رضـــي الله عنه، أنه سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: من رآني في المنام فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكونني[4]؛ أي لا يتكون كوني، فحذف المضاف ووصل المضاف إليه بالفعل.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من رآني في النوم فقد رآني، إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثـــل في صورتي[5]، وفي رواية: فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي. وفيهما عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي[6]، زاد مسلم: أو فكأنما رآني في اليقظـــة، هكـــذا

---

(1) زيادة من ط.
(2) صحيح البخاري 6:2568..
(3) صحيح مسلم 4:1776.
(4) صحيح البخاري: 6: 2567، وفيه: لا يتمثل بي.
(5) صحيح مسلم 4:1776.
(6) صحيح مسلم 4:1775.

بالشك. ووقع عند الإسماعيلي[1] في الطريق المذكور: فقد رآني في اليقظة، بدل قوله فسيراني. ومثله في حديث ابن مسعود عن ابن ماجه وصححه الترمذي وأبو عوانة، ووقع عند ابن ماجه من طريق جحيفة: فكأنما رآني في اليقظة.

فهذا حديث صحيح مشهور متواتر المعنى عن سبعة من أجلاء الصحابة المتقدمين وغيرهم ممن لم نسق حديثه، بألفاظ مختلفة مرجعها كلها إلى تأكيد صحة الرؤيا، وهي قوله: فقد رآني، فقد رأى الحق، فقد رآني في اليقظة،(فكأنما رآني في اليقظة)[2]، فسيراني في اليقظة. وقوله: فإن الشيطان لا يتمثل بي. وقوله: إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي، وفي رواية لا ينبغي أن يتشبه بي، وفي رواية لا يتكونني. وهي كلها صادعة بأن الشيطان لا يتكون ولا يتمثل ولا يتشبه به، وأن رؤياه حق على كل حال. وعند البخاري، (رضي الله عنه)[3]، لا يتراءى بالراء بوزن يتعاطى، قال في المواهب[4]: ومعناه لا يستطيع أن يتمثل بي، يعني أن الله تعالى وإن مكنه من التصور في أي صورة أراد، فإنه لم يمكنه التصور في صورة النبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذهب إلي هذا جماعة فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا رآه الرائي على صورته التي كان عليها، ومنهم من ضيق الذرع في ذلك حتى قال: لا بد أن يراه على صورته التي قبض عليها حتى يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة.

وعن حماد بن زيد قال: كان محمد، يعني ابن سيرين، إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره، وسنده صحيح[5].

وقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب، حدثني أبي قال: قلت لابن عباس: رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام، قال: صفه، قال: فذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته. وسنده جيد[6]، ولكن يعارضه ما

---

(1) أبو بكر محمد بن إسماعيل بن مهران النيسابوري المعروف بالإسماعيلي، الإمام الحافظ، توفي سنة 295 هـ: سير أعلام النبلاء 118:14.
(2) ما بين قوسين ساقط من ط.
(3) زيادة من ط.
(4) وردت هذه الفقرة في كتاب المواهب 292:2، ويبدو أن العياشي يستقي كلامه هنا من كتاب فتح الباري.
(5) فتح الباري 384:12.
(6) نفسه.

أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن أبي هريرة، (رضي الله عنه)[1]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رآني في المنام فقد رآني، فإني أرى في كل صورة[2]، وفي سنده ابن التوأمة، وهو ضعيف لاختلاطه، وهو من رواية من سمع منه بعد الاختلاط. قال القاضي أبو بكر بن العربي[3]: رؤيته صلى الله عليه وسلم بصفته المعلومة إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فان الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون إدراك الذات الكريمة حقيقة، وإدراك الصفة إدراك المثال. قال: وقد شد بعض القدرية فقال: الرؤيا لا حقيقة لها أصلا، قال: فسيراني معناه فسيرى تفسير ما رأى لأنه حق وغيب، وأما قوله فكأنما رآني فهو تشبيه، ومعناه أنه لو رآني في اليقظة لطابق ما رآه في المنام، فيكون الأول حقا وحقيقة، والثاني حقا وتمثيلا. قال: وهذا كله إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفته فهي أمثال، فان رآه مقبلا عليه مثلا فهو خير للرائي، وعلى العكس فالبعكس[4].

وقال المازري: اختلف المحققون في ذلك، فذهب مقتدى أهل السنة وإمامهم القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أن المراد بقوله: من رآني في المنام فقد رآني، أي رؤياه صحيحة لا تكون أضغاثا ولا من تشبيهات الشيطان. قال: ويعضده قوله في بعض طرقه: فقد رأى الحق، وفي قوله: فإن الشيطان لا يتمثل بي، أي أن رؤياه لا تكون أضغاثا. قال: وقال آخرون: بل الحديث محمول على ظاهره، والمراد أن من رآه فقد أدركه ولا مانع يمنع من ذلك. وأما كونه قد يرى على غير صفته أو يرى في مكانين مختلفين، فإن ذلك غلط في صفته وتخيل لها على غير ما هي عليه. وقد يظن بعض الخيالات مرئيات لكون ما يتخيل مرتبطا بما يرى في العادة، فتكون ذاته صلى الله عليه وسلم مرئية وصفاته متخيلة غير مرئية. والإدراك لا يشترط فيه تحديد البصر ولا قرب المسافة، ولا كون المرئي ظاهرا على وجه الأرض أو مدفونا، وإنما يشترط كونه موجودا، و لم يقع دليل على فناء جسمه، صلى الله عليه وسلم، بل جاء في الخبر الصحيح ما يدل على بقائه، ويكون ثمرة اختلاف الصفات اختلاف الدلالات.

---

(1) زيادة من ط.
(2) فتح الباري: 12:383.
(3) نفسه.
(4) في ط: فالعكس.

قال القاضي عياض[1]: يحتمل أن يكون معنى الحديث إذا رآه على الصفة التي كان عليها في حياته لا على صفة مضادة لحاله، فإن رئي على غيرها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة، فإن من الرؤيا ما يخرج على هيئته، ومنها ما يحتاج إلي تأويل.

وقال النووي[2]: هذا الذي قاله ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة، سواء كان على صفته المعروفة أو غيرها، كما ذكره المازري.

وقال شيخ الإسلام ابن حجر[3]: وهذا الذي رواه النووي روي عن ابن سيرين اعتباره؛ فقد روى إسماعيل القاضي بسند صحيح من طريق حماد بن زيد عن أيوب قال: كان محمد بن سيرين إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها قال: لم تره. والذي قاله القاضي توسط حسن، ويمكن الجمع بينه وبين ما قاله المازري بأن رؤياه على الحالين حقيقة، لكن إذا كان على صورته كان ما يرى في المنام على ظاهره لا يحتاج إلي تعبير، وإذا كان على غير صورته كان النقص من جهة الرائي لتخيله الصفة على غير ما هي عليه، ويحتاج ما يراه في ذلك المنام إلى التعبير.

قلت: وهذا جار على ما ذكرنا أولا من التأويل في أخباره، فكما أن خبره النومي إذا لم يوافق المشروع يؤول، كذلك أيضا وصفه المرئي في النوم إذا لم يوافق صفته التي كان عليها بأن زاد أو نقص أول. ومعنى التأويل في ذلك مثل ما ذكره أهل التعبير، إن رئي شابا جَلدا دل على سنة شديدة، وإذا رئي شيخا كبيرا دل على سنة مخصبة، وإذا رئي ناقص بعض الأعضاء دل على نقص وخلل في دين الرائي، أو زائد بعض الأعضاء دل على غلوه في الدين وإدخاله فيه ما ليس منه، إلي غير ذلك، فالرؤيا على كل حال حق، والمرئي إن وافق فذلك وإلا أول.

فهذا زبدة ما تقدم من النقول، وما يأتي بعد هذا، وهو معنى التوسط الذي تقدم عن القاضي، والطرق الأخر حقيقتها على كل حال بمعنى مطابقتها لما في نفس الأمر فلا تؤول، والآخر محكي عن ابن سيرين أنها إذا خالفت فتلقى جملة ولا

(1) فتح الباري 12:384.
(2) نفسه.
(3) نفسه.

تأول[1]. ولا بد من حمل كلامهما على هذا، وإلا لزم الأول حقيقة المرئي ولو خالف، وهو لا يقول به، ولزم الثاني إسقاط التعبير رأسا لأنها إن وافقت فلا تؤول لمطابقتها للواقع، وإن خالفت فتلغى، وهو لا يقول بسقوط التعبير في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، فلزم حمل كلاميهما وكل من وافق كلاميهما على هذا التوسط الحسن وتعين ذلك.

ولنذكر ما بقي من كلام الأئمة على معنى الحديث فنقول: قال العارف بالله الشيخ محمد ابن أبي جمرة ذاهبا إلى ما اختاره النووي بعد أن حكى الخلاف[2]: ومنهم من قال إن الشيطان لا يتصور على صورته أصلا، فمن رآه في صورة حسنة فذلك حسن في دين الرائي، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص فذلك خلل في الرائي من جهة الدين، قال: وهذا هو الحق، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يبين للرائي هل عنده خلل أو لا، لأنه، صلى الله عليه وسلم، نوراني مثل المرآة الصقيلة، ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها وهي في ذاتها على أحسن حال، لا نقص فيها ولا شيْن، وكذلك يقال في كلامه، صلى الله عليه وسلم، في النوم إنه يعرض على سنته، فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي. فرؤيا الذات الكريمة حق، والخلل إنما هو في سمع الرائي أو بصره، قال: وهذا خير ما سمعته في ذلك. انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويظهر لي في التوفيق بين جميع ما ذكروه، وأن من رآه على صفته أو أكثر مما يختص به فقد رآه، ولو كانت سائر الصفات مخالفة، وعلى هذا فتتفاوت رؤيا من رآه، فمن رآه على هيئته الكريمة فرؤياه الحق التي لا تحتاج إلى التعبير، وعليها يتنزل قوله: فقد رآني، ومهما نقص من صفاته فيدخل التأويل بحسب ذلك، ويصح إطلاق أن من رآه في أية حالة كانت من ذلك، فقد رآه حقيقة. انتهى ما قاله ابن حجر.

وقال حجة الإسلام الغزالي[3]: ليس معنى قوله رآني أنه رأى جسمي وبدني، قال: والآلة تكون حقيقة وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هو مثال له على التحقيق.

---

(1) في ط: تأويل.
(2) فتح الباري 12:385.
(3) فتح الباري 12:89.

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى في المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقا في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله (تعالى)[1] في المنام، لا معنى أني رأيت ذات الله كما يقول في حق غيره.

قال الأبي[2] بعد نقل كلام المازري والقاضي ما نصه: قد علمت مما تقدم في حقيقة الرؤيا إن المرئي في النوم من حجر أو جبل أو إنسان أو غيره إنما هي أمثلة لتلك المرئيات لأنفسها، وبه يتوجه ما ذكروا من أنه يصح أن يراه إنسانان في وقت واحد في مكانين، فمعنى من رآني فقد رآني: من رأى مثالي فقد رأى مثالي، وعلل ذلك بأن الشيطان لا يتمثل به، وهي شهادة منه صلى الله عليه وسلم بأن الله قد عصم مثاله أن يتمثل به الشيطان في النوم كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة، هذا هو التوجيه الحق في أنه يصح أن يراه اثنان في مكانين. ووجهه الصوفية بأنه، صلى الله عليه وسلم، كالشمس هي واحدة وترى في أماكن عدة، وهو تنظير لا يصح لأنه غير موازن، لأن الشمس وهي بالأفق ترى من مكانين لا في مكانين، ورؤية واحد من مكانين تصح، بخلاف رؤيته في مكانين. وإنما الذي يوازن أن يرى زيد جرم الشمس في بيت، ويراه عمرو في ذلك الوقت في بيت آخر. ولو فرض ذلك كان فرض محال، كاستحالة أن يرى ذاته الكريمة اثنان في مكانين. انتهى كلام الأبي.

وما قرره هو ما قاله الصوفية، إلا أنه قبل التأمل ظن أن قولهم في مكانين وصف للمرئي، وإنما هو للرائي، فمعنى رآه اثنان في مكانين أي وهما في مكانين، وهذا سائغ في الاستعمال، بقول: رئي هلال العيد في بلادين، بمعنى أن الرائي له في بلدين، ولا يتوهم أن الهلال حل البلدين. فإن قيل: معنى ذلك رئي فيما يقابل البلدين من الأفق، تقول مثله هنا رئي عليه السلام في مقابلة مكان الرائيين. نعم إذا كشف الحجاب عن ذاته الكريمة لشخص بالمغرب وآخر بالهند في آن واحد فرآه كل واحد منهما، ظن كل واحد أنه رآه في مكانه وهو لم ينتقل عن موضعه، ورؤية البعيد كأنه قريب غير مستنكر، فإن النجم يرى على جبل، بل على مئذنة،

(1) زيادة من ط.

(2) أبو عبد الله محمد بن خلف المعروف بالأبي، العلامة المحقق، أخذ عن ابن عرفة وغيره، له شرح على مسلم سماه إكمال الإكمال، وله شرح المدونة توفي سنة 828 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 139. شجرة النور الزكية 1:351.

بل على طرف حائط بيتك، لولا علمك أنه بالأفق لتوهمت أنه حيث رأيته. بل رأينا كثيرا من ضعفة العقول ممن يتوهم ذلك، فليتأمل.

وقال الإمام أبو القاسم القشيري ما حاصله أن رؤياه على غير صفته لا تستلزم ألا يكون هو، فإنه لو رأى الله تعالى على وصف يتعالى عنه، وهو يعتقد أنه متره عن ذلك،لا يقدح في رؤيته، بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل.

وقال الطيبي[1]: المعنى من رآني في المنام بأي صفة كنت فليستبشر، ويعلم أنه قد رأى الرؤيا الحق الذي هي من الله، وهي مبشرة، لا الباطل الذي هو الحلم المنسوب للشيطان، فإن الشيطان لا يتمثل بي. وكذا قوله: فقد رأى الحق، وكذا قوله: فقد رآني، فإن الشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية والكمال، أي فقد رآني رؤيا ليس بعدها شيء، والله أعلم[2].

قال القسطلاني في المواهب[3] بعد نقل كلام الطيبي المذكور: والحاصل من الأجوبة أنه على التشبيه والتمثيل، ويدل عليه قوله: فكأنما رآني في اليقظة. ثانيها: معناه سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة. ثالثها: أنه خاص بأهل عصره من آمن به قبل أن يراه. رابعها: المراد أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذلك. قال شيخ مشايخنا الحافظ بن حجر: وهذا من أبعد المحامل خامسها أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية لا مطلق من رآه حينئذ ممن لم يره في المنام[4]. والصواب كما قدمناه في رؤيته، عليه الصلاة والسلام، التعميم على أي حالة رآه الرائي، بشرط أن يكون على صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجوليته أو كهوليته أو آخر عمره. وقد يكون لما خالف تعبير يتعلق بالرائي كما قال بعض علماء التعبير: إن من رآه شيخا فهو غاية سلم، ومن رآه شابا فهو غاية حرب. وقال أبو سعيد أحمد بن محمد بن نصر: من رأى نبينا على حاله وهيئته فذلك دليل على صلاح الرائي وكمال جاهه وظفره بمن عاداه، ومن رآه متغير الحال عابسا مثلا، فذلك دال على سوء حال الرائي.

---

(1) أبو الحسين بن محمد بن عبد الله الطيبي، عالم فقيه، له عدة مؤلفات، توفي سنة 743 هـ: الأعلام 256:2.

(2) فتح الباري 388:12. المواهب اللدنية 296:2.

(3) المواهب اللدنية 296:2.

(4) فتح الباري: 385:12.

تنبيه:

قال القرافي[1] في القواعد، وتبعه الزركشي في الخادم[2]، وحكاه جماعة من العلماء: إنما تصح رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، لأحد رجلين أحدهما صحابي رآه فعلم صفته، فانطبع في نفسه مثاله، فإذا رآه جزم بأنه رأى مثاله المعصوم من الشيطان، وثانيهما رجل تكررت عليه صفاته صلى الله عليه وسلم المنقولة في الكتب حتى انطبعت في نفسه، كما حصل ذلك لمن شاهده ورآه، فإذا رآه جزم برؤية مثاله عليه الصلاة والسلام كما يجزم به من رآه. وأما غير هذين فلا يحصل الجزم، بل يجوز أن يكون رأى النبي صلى الله عليه وسلم بمثاله، ويحتمل أن يكون من تمثيل الشيطان، ولا يفيده قول الذي يراه: أنا رسول الله ولا قول الذي معه.

قال الشيخ عبد القادر بن مغيزل الشاذلي[3] في كتابه الكواكب الزاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة بعد نقله وجلبه للنصوص المتقدمة، ومنه نقلت ما نصه: حاصل ما قاله القرافي هو عين ما قاله القاضي عياض وشيخ الإسلام ابن حجر، ووجه التحقيق في ذلك هو أن مراد القرافي رحمه الله بهذين الرجلين كون الرؤية في حقهما قطعية لا تحتاج إلى تأويل، لأن التعبير علم باجتهاد، والاجتهاد مظنون، فأشبه الفقه، ولأن الاجتهاد أيضا لا مجال له في القطعيات كما هو مقرر في أصول الفقه، بخلاف غيرهما بأن يراه أحد على غير صفته، فلا يحصل الجزم برؤيته لأنه جعل الرؤية في حقهما، والحالة هذه قطعية، وفي حق غيرهما ظنية. وهذا ملحوظ من فحوى قوله: وأما غير هذين فلا يحصل الجزم، ونفى الجزم فقط لكونه قطعيا، فتعين قسيمه، وهو الظن، بطريق اللزوم. فافهم ذلك فإنه نفيس لا تراه الآن مسطورا، والله أعلم.

---

(1) بدر الدين محمد بن يحيى القرافي، من فقهاء المالكية بمصر، له مؤلفات في الفقه والحديث، توفي سنة 1008هـ: التقاط الدرر، ص: 35، شجرة النور الزكية 417:1، خلاصة الأثر 258:4.

(2) الإشارة هنا إلى: خادم الرافعي والروضة في الفروع لبدر الدين الزركشي الشافعي المتوفى سنة 749 هـ، شرح فيه مشكلات الروضة وفتح مقفلات فتح العزيز، وهو على أسلوب التوسط للأذرعي: كشف الظنون 698:1.

(3) عبد القادر بن مغيزل بن الحسين بن علي الشاذلي، المعروف بابن مغيزل، له كتاب: الكواكب الزاهرة، توفي بعد سنة 594 هـ: معجم المؤلفين 286:5.

وقال ابن بطال[1]: معنى قوله فسيراني في اليقظة، يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أن يراه في الآخرة لأنه سيراه يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم ومن لم يره[2].

قال ابن التين: المراد من آمن به في حياته و لم يره لكونه حينئذ غائبا عنه، فيكون هذا مبشرا لكل من آمن به و لم يره أنه لا بد أن يراه في اليقظة قبل موته[3]، كذا قاله بعض العلماء.

قال المازري: إن كان المحفوظ فكأنما رآني في اليقظة، فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ: فسيراني في اليقظة، احتمل أن يكون أراد أهل عصره، فمن لم يهاجر إليه فإنه إذا رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه صلى الله عليه وسلم[4].

وقال القاضي عياض: قيل معناه سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها. وقيل معنى الرؤية في اليقظة أنه سيراه في الآخرة. وتعقب بأنه يراه في الآخرة جميع أمته، من رآه في المنام ومن لم يره، يعني فلا يبقى بخصوص رؤيته في المنام مزية[5].

وأجاب القاضي عياض باحتمال [أن تكون][6] رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها ووصف عليها موجبة لتكرمته في الآخرة، وأن يراه رؤية خاصة من القرب منه والشفاعة له بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات[7]. قال: و لم[8] يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه صلى الله عليه وسلم مدة[9]. وحمله ابن أبي جمرة على محمل آخر، فذكر عن ابن عباس أو غيره أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فبقي بعد أن استيقظ مفكرا في هذا الحديث،

---

(1) أبو عبد الله بن بطال بن مهدي التميمي، فقيه محدث، رحل إلى المشرق وأخذ عن جملة أعلام كعبد الملك بن جلاب وابن أبي أصبغ، توفي سنة 366هـ: شجرة النور الزكية 1:147.
(2) فتح الباري 12:385.
(3) فتح الباري 12:385.
(4) فتح الباري: 12:385.
(5) نفسه.
(6) زيادة من فتح الباري.
(7) نفسه.
(8) في ط: لا.
(9) فتح الباري: 12:385.

فدخل عليه بعض أمهات المؤمنين، لعلها خالته ميمونة، فأخرجت له المرآة التي كانت للنبي صلى الله عليه وسلم فنظر فيها فرأى صورة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ير صورة نفسه[1].

قال شيخ الإسلام ابن حجر: ويعكر عليه أن جمعا جما رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق صلى الله عليه وسلم لا يتخلف[2]. انتهى.

قال في المواهب[3]: وقال بعضهم ليست رؤيته عليه الصلاة والسلام رؤيا عين، إنما يرى بالبصائر، وذلك لا يستدعي حصر المرأى، بل يرى من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى العرش كما ترى الصورة في المرآة المحاذية لها، وليست الصورة منتقلة إلى جرم المرآة وعين الناظر مقابلة جميع الكائنات كالمرآة. واختلاف رؤيته، صلى الله عليه وسلم، بأن يراه بعضهم شيخا وآخر شابا، وآخر ضاحكا وآخر باكيا، يرجع إلى حال الرائين كاختلاف الصورة الواحدة في مرائي مختلفة الأشكال والمقادير، ففي الكبيرة يرى وجها كبيرا، وفي الصغيرة صغيرا، وفي المعوجة معوجا، وفي الطويلة طويلا إلي غير ذلك، فالاختلاف راجع إلى اختلاف الرائي إلى وجه المرئي، كذلك الراؤون له، عليه الصلاة والسلام، أحوالهم بالنسبة إليه مختلفة، فمن رآه متبسما إليه دل على أن الرائي متمسك بسنته، والله أعلم.

وقد أجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال رؤية جماعة له، صلى الله عليه وسلم، في آن واحد من أقطار متباعدة مع أن رؤيته صلى الله عليه وسلم حق، فإنه صلى الله عليه وسلم سراج، ونور الشمس في هذا العالم مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها كل من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم[4]، ولله در القائل[5]:

[كامل]

(1) نفسه.
(2) فتح الباري: 12:385.
(3) المواهب اللدنية 2:297.
(4) المواهب اللدنية 2:297.
(5) البيت لأبي الطيب المتنبي: شرح ديوان المتنبي، ص: 58.

كالبدْرِ من أي النــواحي جئتَــهُ[1]   يهْــدي إلى عينيــكَ نُــورًا ثاقبَــا

قال الأبي ما نصه: تنبيه، قد علمت من الحديث ومما تقدم أن الله عصم مثاله أن يتمثل به الشيطان في النوم كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة. وذكر القرافي من الكلام ما يشكل على هذا الأصل، ثم ساق كلام القرافي المتقدم بأبسط ممـــا ذكر ثم قال بعده: وموضع الإشكال قصر رؤياه على الرجلين، وتجويزه في رؤيـــة غير الرجلين أن يكون ما رآه من تخيل الشيطان مع شهادته، صلى الله عليه وسلم، أن الشيطان لا يتمثل به، فإن قلت: إذا لم تقصر رؤياه على الرجلين فـــبم يعلـــم غيرهما أنه رأى مثاله؟. قلت: يجوز أن يكون باعتقاد خلقه الله تعالى للرائـــي إن الذي رآه هو مثاله صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم أن محل الإدراك من النائم لا يأتي عليه النوم.

قال القرافي: وإذا تقرر أنه لا بد من تحقيق رؤية مثاله المخصوص فيشكل][2] ذلك بما تقرر في كتب التعبير أنه يُرى شيخا وشابا وأســود وذاهـــب القـــدمين والعينين، وعلى أنواع شتى من المثل التي ليست هي مثالا. قـــال: والجـــواب أن الأحوال صفات الرائي، وأحوالهم تظهر فيه، وهو كالمرآة لهم، فإذا صح للرائـــي المثال وانضبط فرؤيته أسود تدل على ظلم الرائي، ورؤيته ذاهب العينين تدل على عدم إيمان الرائي لأنه إدراك ذهب، ورؤيته ذاهب القدمين يدل على أن الرائي منع من ظهور الشريعة ونفوذ أمرها، لأن اليد يعبر بها عن القدرة. ورؤيته شابا يـــدل على أن الرائي يستهزئ به لأن الشاب يحتقر. ورؤيته شيخا يدل على أن الرائـــي يعظم النبوة لأن الشيخ يعظم، وغير ذلك من الصفات الدالـــة علـــى الأحكـــام المختلفة. ثم قال الغزالي: قلت لبعض مشايخي:إذا صح أن يراه على هذه الكيفيات فكيف يبقى المثال و لم يبق و لم يكن كذلك في الحياة؟. فقال لي: لو كان لك أب شاب تغيبت عنه ثم جئت فوجدته شيخا أو أصابه يرقان أصفر أو يرقان أسود، أو أصابه برص أو جذام أو بطلت أعضاؤه، أكنت تشك أنه أبوك؟. قلت:لا. قال: فما ذلك إلا لما انطبع في نفسك من مثاله المتصور عندك الذي لا تخلف[3] له مـــع

(1) في الديوان: من حيث التفت رأيته.
(2) زيادة من فتح الباري.
(3) في ط: تحيف.

عروض هذه الأحوال، فكيف من ثبت في نفسه مثاله من أحد الرجلين لا يشك فيه مع عروض هذه الأحوال له وغير الرجلين لا يثق بأنه رآه؟.

فصل:

وفي ما ذكرناه من كلام الأئمة على معنى الحديث كفاية، وهي كلها مصرحة بصحة الرؤيا مطلقا، ولنذكر كلامهم فيما يأمر به النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وما يلزم منه وما لا يلزم فنقول: قال النووي في فتاويه[1]: رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام لا يختص بها الصالحون. قال في الروضة[2]: ولكن لا يعمل بما يسمعه الرائي منه في المنام مما لا يتعلق بالأحكام لعدم ضبط الرائي، لا للشك في الرؤية، لأن الخبر لا يقبل إلا من ضابط مكلف، والنائم بخلافه. انتهى.

وسبقه إلى ذلك ابن الصلاح[3] في فتاويه، وقال: ليس ذلك من عدم الوثوق بالمرئي بل من جهة عدم الوثوق بضبط الرائي، وإن حالة النوم حالة غيبية وبطلان القوة الحافظة لما يجري في النوم على التفصيل.

وقال ابن الأستاذ: عندي في هذا نظر، فان رؤيته حق وقوله حق. قال الشيخ عبد القادر بن مغيزل: و لم أر واحدا من العلماء وافق ابن الأستاذ على هذا. فقد ذكر القاضي حسين[4] في فتاويه في مسألة صيام رمضان في من رأى ليلة الثلاثين من شعبان النبي صلى الله عليه وسلم قال له: غدا من رمضان. قال: لا يجوز له العمل به، لأنه، عليه الصلاة والسلام، حكم أن الصوم لا يجب إلا برؤيته الهلال أو استكمال ثلاثين، ووافقه على ذلك جماعة من الأصحاب. ونقل القاضي عياض الإجماع عليه. ونقل النووي أيضا في شرح مسلم عن أصحابنا وغيرهم أنهم نقلوا الاتفاق على أنه لا يغير بسبب ما يراه النائم ما تقرر في الشرع.

---

(1) فتاوي الأمام النووي المسمى المسائل المنثورة، ص 199.

(2) الإشارة هنا إلى روضة الطالبين وعمدة المتقين للإمام يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة 676 هـ: كشف الظنون 1:929.

(3) أبو عمرو عثمان بن الصلاح، الفقيه الإمام، له تآليف مفيدة منها كتاب علوم الحديث، له الفتاوى المسددة، توفي سنة 643هـ: الفكر السامي 4:402.

(4) القاضي الحسين خضر النسفي، من فقهاء الحنفية، أقام ببغداد مدة ومات في بخارى سنة 424 هـ، له: الفوائد والفتاوي: الأعلام 2:237.

وفي فتاوي الحناطي أحد أئمة أصحابنا إن إنسانا رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، في منامه على الصفة المنقولة عنه، فسأله عن الحكم فأفتاه بخلاف مذهبه، وليس مخالفا للنص والإجماع. فقال: فيها وجهان، أحدهما يأخذ بقوله، لأنه مقدم على القياس، وثانيهما لا، لأن القياس دليل والأحلام لا تعويل عليها، فلا يترك من أجلها الدليل. وعن[1] كتاب الجدل لأبي إسحاق الاسفرايني حكاية وجهين، في أن الرجل لو رأى النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام وأمره بأمر هل يجب عليه امتثاله إذا استيقظ؟ كذا هو في مجموع منسوب لابن الصلاح حكاه عنه ابن الملقن[2]. وحكى الزركشي في الخادم عن كتاب أدب الجدل ما حكيناه عن فتاوي الحناطي، فلعله انتقل نظره أو سقط شيء من النسخة. وفي المجموع المذكور لابن الصلاح حكاية وجهين في وجوب التمسك بالحكم من حيث هو في الحالة المذكورة.

وعن روضة الحكام للقاضي شريح من أصحابنا: لو كان النبي صلى الله عليه وسلم قال: لفلان على فلان كذا، هل للسامع أن يشهد لفلان على فلان كذا؟. وجهان. ونقل الزركشي عن الشيخ عز الدين خطيب الأشموني قال: أخبرني والدي أن إنسانا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له: اذهب إلى موضع كذا وخذ ما فيه[3] من ركاز ولا خُمس عليك فيه. وأنه توجه إليه فوجده كما أخبره عليه الصلاة والسلام، وأنه استفتى الفقهاء بدمشق فكلهم أفتاه بعدم الوجوب، وقالوا قد ظهرت دلائل صدق الرؤيا، والشيطان ممنوع من التمثيل بالنبي صلى الله عليه وسلم. قال وأفتاه شيخنا عز الدين بن عبد السلام بوجوب الخمس عليه، واستدل على ذلك بأن طريق رفع القواعد النسخ، فلا نسخ بعد انقطاع الوحي بموته صلى الله عليه وسلم. قال: ثم إني حكيت هذه الحكاية بين يدي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد[4] رحمه الله فصدق روايتها، وزاد على ذلك أن الشيخ عز الدين كان يرى ذلك من باب الترجيح على تقدير صدق النائم. قال:

---

(1) في ط: في.

(2) عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، ابن الملقن، من أكابر علماء الحديث والفقه، توفي سنة 804 هـ، من مصنفاته: إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، التوضيح لشرح الجامع الصحيح: الأعلام 57:5.

(3) في ط: به.

(4) عمر بن علي بن وهب المعروف بدقيق العيد، من أكابر العلماء بالأصول، ولي قضاء مصر وتوفي بالقاهرة سنة 702 هـ، له عدة تصانيف منها: إحكام الأحكام: الأعلام 283:6.

وأظن أنه أراد بالترجيح أن رواية الجمهور وجوب الخمس نصا، ورواية هذا شاذة في منام، والأول أرجح قطعا، فالعمل بها راجح، والله أعلم.

وقال الأبي في شرح مسلم ما نصه: قال القرافي: واختلف الفقهاء لو قال لرائيه: امرأتك طالق ثلاثا وهو يجزم أنه لم يطلق ثلاثا. هل يلزمه الطلاق ثلاثا لأنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا حقا؟ أو لا يلزمه شيء؟. قال القرافي: وهو الأظهر، لأن إخباره صلى الله عليه وسلم في اليقظة مقدم على إخباره في النوم، ولأن احتمال الغلط في ضبط المثال في النوم أرجح من الغلط في ضبط عدم الطلاق، لأن هذا لا يختل إلا على النادر من الناس، وأما المثال في النوم فلا ينضبط إلا للأفراد من الحفاظ لصفته صلى الله عليه وسلم، والعمل بالراجح واجب.

قلت: ونزلت، فيذكر أن الشيخ (الفقيه)[1] ابن البراء كان يقرئ في مسجد القبة من تونس[2] فأتاه رجل وقال له: رأيت البارحة النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي: قل لفلان يعطيك جبة، فقال له الفقيه: قال لي أنا في اليقظة لا أعطيك شيئا. فذهب الرجل فدخل على الرجل الصالح أبي عبد الله المشتهر بالمغربي في موضعه القريب من المسجد المذكور فأعطاه، فقيل له إن الرجل يتخرص، فقال الشيخ: لو علمت أنه محق لأعطيته الدنيا. انتهى كلام الأبي.

وقال شيخ شيوخنا محب الدين الفيشي[3] في تكملة السيرة الشامية ما نصه: قال النووي: أما إذا رآه يأمره بفعل ما هو مندوب إليه، أو ينهاه عن منهي عنه، أو يرشده إلى فعل مصلحة، فلا خلاف في استحباب العمل على وفقه، لأن ذلك ليس حكما بمجرد المنام، بل بما تقرر من أصل ذلك الشيء.انتهى.

فحاصل ما تقدم كله أن الرؤيا حق، فإن وافق المرئي صفته فلا تأويل، وإلا فيؤول. وكذلك أوامره إن وافقت بقيت على ظاهرها وأفادت تأكيدا وإرشادا لمصلحة وإلا أولت، وهو مقتضى كلام النووي هذا الأخير. ولو قال قائل: إن هذه الأخبار المنقولة عنه، عليه السلام، في النوم تنزل منزلة ضعيف الحديث وشاذه

---

(1) زيادة من ط.

(2) تونس: مدينة بإفريقية، محدثة إسلامية، بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام: الروض المعطار، ص: 143.

(3) أبو عبد الله محمد بن محمد محب الدين الفيشي، فقيه مالكي، ولد سنة 917هـ، له تآليف منها: شرح العشماوية: شجرة النور الزكية 1:406.

فيعمل به في الفضائل و تحصل به الشواهد والاعتبارات، لم يبعد ذلك لأن الشارع لم يلغ الرؤيا عن الاعتبار أصلا، سيما رؤياه عليه السلام التي هي حق ومعصومة من تمثيل الشيطان. وقد اعتبر الشرع جنس الرؤيا إذ جعل منها مبشرات، وجعلها جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة. نعم تخالف أخبار الرؤيا أخبار اليقظة في أن أخذ الأحكام من الكتب والسنة وفهمها له طريق معلوم مدون مهذب في أصول الفقه والنحو وغير ذلك بما يتوقف عليه الاجتهاد، وتأويل ما يؤول من الكتب والسنة يؤول على تلك الطريقة بخلاف أخبار الرؤيا، فإن لفهمها وتأويل المؤول منها طرقا غير ذلك لا تكاد تنضبط، ولذلك لم يكلفنا الشرع بالعمل بمدلولاتها لغموضها ودقة مدركها وخفي إشاراتها. فإن فهم الإنسان منها ما يوافق المشروع عمل به، وإلا توقف من غير أن يحكم ببطلانها جملة. ولنقصر عنان الكلام فإن للعلم في مباحث هذه المسالة مجالا واسعا، وللنظر فيها مرمى شاسعا، ولو تتبعناها خطر لنا فيها من المباحث المؤيدة بالأدلة التي هي على الركون إليها بواعث، لطال المقال، وتعارضت الأنقال، وتقارب ما بين الأصل والفرع، بشواهد العقل والشرع، وبالله تعالى نستترل[1] عزيز التوفيق، ونستهدى سواء الطريق.

(1) في ط: والله يستنزل.

ذكر خروجنا من بلاد أوكرت
وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة رحمه الله وعفا عنه آمين

كان رحيلنا من هذه البلاد صبيحة يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الأولى قاصدين إلى واركلا، وخرج معنا جملة من أهلها قاصدين الحج، وأخذنا على طريق وادي ايمكيدن ومعنا رجل من عرب الخنافسة اكتراه أمير الركب يدلهم على الطريق. ومعاطن المياه كثيرة في هذا الوادي، قل ما يخلو يوم من منهل، وماؤه عذب غزير، وفيه يقول أعراب ذلك البلد:

واد امكيدن ما نعطش فيه   كل يوم نجيء على ما

إلا أننا وجدنا غالب المناهل قد دفنها أولاد محمد، عرب توات، خائفين من عدوهم من[1] سعيد أن يغيروا عليهم، فطمسوا ما في طريقهم من الماء لأجل ذلك، ولم نزل نسير مع ذلك الوادي نرد الماء يوما بعد يوم في أيام بلغ بردها الغاية، وأفرط إلي غير نهاية. إلى أن نزلنا عاشر يوم على قرية يقال لها والاّ، بعدما قطعنا قربها رمالا كثيرة يحار النظر في كثرتها وصعوبتها، وقاسينا منها شدة، ولقيت الإبل أضعاف ما لقينا، وعلمنا عند ذلك حسن مبالغة القائل: اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد الرمال.

ولولا أن هذه القرية في مثل هذه المفازة ما حسن تسميتها قرية، إذ ليس فيها إلا نخلات معدودة قد يبس أكثرها، وبقيت جدرات تسفى عليها الرياح وحجرات من جريد النخل، وعرش من الجريد مرفوعة من الأرض مقدار القامة، يبس فيها تمر ذلك النخل، إذ لا يقدرون على وضعه على الأرض لئلا يغلب عليها الرمل فيذهب أدراج الرياح، ولم نجد في هذه القرية إلا رجلا واحدا ومعه نساء

(1) في ط: ابن.

من قرابته يعولهن، وهو من ذرية رجل من الصالحين اسمه سيدي محمد بن موسى مدفون في تلك القرية عليه بناء، وزعموا أنه أول من بنى تلك القرية وأحياها وفجر ماءها وغرس نخيلها، والعرب يحترمون النازل بها بحرمته، ويتأثر من تعدى عليه منهم بذلك، ويأتون ببعض صدقاتهم إليه. وقد وجدنا في روضته سفرا من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، قد أفسد القطر جانبا منه. ومعه إجازات لبعض السادات القادرية[1] بخط مشرقي، وكثر تعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية. وما كنا نظنه إلا من كتب سيدي محمد بن إسماعيل[2] الذي مات بتكورارن، فإنه لما مات هناك سنة أربع وستين خلف كتبا كثيرة وأوصى بها لخادم الروضة النبوية، وأوصى بأن يصبر شخصه بصبر وكافور، ويحمل إلى المدينة المشرفة يدفن فيها، وعين لمن يحمله نحوا من ثلاثمائة دينار من متخلفه، وكان له فرس أدهم من عتاق الخيل وأوصى به للجهاد، وأعتق عبيده ودفع لكل حصة من ماله، فلما مات أنفذ[3] أهل البلد وصيته إلا في حمله فانهم لم يجدوا من يحمله معتلين بخوف ظلم الولاة بمصر والحجاز أن يطالبوهم بماله إذا رأوا جنازته محمولة من العرب، ويقولون ما فعل به هذا إلا وله أموال تفوت الحصر، فدفنوه في بلادهم بعدما همَّ بعض التجار بدفعه. وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها إلي القليعة فارين بها لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها، ولم تزل هناك إلى أن ذهب سيدي علي ابن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين، فبعثوها معه وضاع كثير منها بسبب ذلك. وقد رأيت بعضها بالمدينة المشرفة، ورأيت زمام ما وصل منها وليس يشبه ذلك عدة كتبه. وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة لما لقيته بفجيج أن كتبه تبلغ قريبا من ألف وخمسمائة تأليف، والذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو من مائة وسبعين سفرا رأيت منها جملة كثيرة، وهي كتب نفيسة جدا اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول، اشتراها له الوزير الأعظم بسبب حكاية وقعت له معه قبل أن يتولى الوزارة، وذلك أنه لقيه ببغداد عند ضريح قطب الزمان عبد القادر الجيلاني، والوزير إذ ذاك مصروف عن عمالة كبيرة من أعمال السلطان فهو يتخوف من غائلة السلطان ويأمل الوزارة. فقال يا سيدي، ادع الله لي فإن

---

(1) نسبة إلى القطب أبي محمد عبد القادر الجيلاني، المتصوف الشهير، توفي ببغداد سنة 561 هـ: مرآة المحاسن، ص: 249.

(2) محمد بن إسماعيل: عالم فاضل، توفي بتكورارين عام 1064 هـ: صفوة من انتشر، ص: 222. نشر المثاني 2:69.

(3) في ط: أنفذ.

توليت الوزارة فاقترح علي ما شئت. فلما ذهب سيدي محمد بن إسماعيل إلى القسطنطينية وجده قد تولى الوزارة، فأكرم مثواه وأحسن نزله. فقال له شأنك وما تقترح ؟. فقال له: إن بهذه المدينة كتبا نفيسة وليس لي ما أحصل به أمنيتي منها. فبعث إلى دلال الكتب وقال له: كل ما يقع بيدك من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فاتركه له وخذ الثمن من عندي لأربابه، فلم يزل ذلك دأبه مدة إقامته هناك. وكان هذا الرجل أعجوبة في سائر أحواله، فإنه ممن حصل جانبا عظيما من العلوم الشرعية، ولم يخل من جانب الأذواق والوهبية، وجال البلاد شرقا وغربا، فلم يدع المغرب الأقصى ولا إفريقية ولا بلاد السودان، وأقام بمصر مدة، نحوا من سبع سنين في حياة الشيخ اللقاني. وأخبرني أنه ختم المختصر بالأزهر سبع مرات، ولقي مشايخ ذلك الوقت، وجاور بمكة والمدينة مدة، ودخل اليمن وادعى فيه المهدية أو ما يشاكلها فلم يتم له ذلك، ودخل العراق وأقام مدة ببغداد وانتسب للشيخ عبد القادر، وأخذ العهد على طريقه، ودخل في جملة أتباعه. ثم ذهب من هناك إلى القسطنطينة، وهو في كل ذلك يصرح بما في نفسه من الإمارة ولا يكني، غير متهيب صولة سلطان ولا غيره. ثم جاء من الروم إلى طرابلس في سنة ستين. ولقيته إذ ذاك بمسراتة عند ضريح الشيخ زروق. وقال لي: إني قد أذن لي في نصرة الدين وإظهار الكلمة، وأخبرني بذلك من لقيته من الصالحين. وقد جئت إلى هذا الشيخ أستأذنه، فأنا أنتظر الإذن من قبله. وتركناه هناك إلى أن بلغنا خبره أنه بلغ إلي سواحل البحر الغربي وزار سيدي عبد السلام بن مشيش[1]. وأقام بتلك البلاد مدة ولم يتم له ما أراد، وكان أظهر أمره قبل ذلك بسنين عديدة بالسوس الأقصى فلم يتم له الأمر. ثم كر راجعا من جبال غمارة إلى القلعية، وأقام بها مدة ثم سار من هناك إلى أن خرج إلى فجيج وأقام بها مدة، ولقيته بها أوائل سنة أربع وستين، فطلب منا المساعدة على ما يحاوله، فلم يصادف عندنا ما يحب، وأظهرنا له جلية أمرنا، وأنا لسنا ممن يتعرض لما ليس من شأنه، ولا ممن له قدرة على أقل ما يحاوله. فلما تحقق ذلك منا أظهر التأسف والتلهف على ما مضى من عمره وسعيه في غير طائل. وقال: إني جلت جوانب الأرض فلم أجد من يبكي الإسلام بالعين التي أبكي بها، فوالله ما كذبت ولا كذبت إلا أني عسى أن أكون قد غلطت في فهم ما أخبرت به، فإني رأيت

(1) أبو محمد عبد السلام بن مشيش، متصوف عارف، له الصلاة المشيشية، توفي مقتولا بجبل العلم سنة 622 هـ: مرآة المحاسن، ص: 249.

النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: أنت عالم وغني وسلطان، فأما العلم فقد حصلت منه ما قسم لي، وأما الغنى فإني لا أعدم الخمسمائة دينار أو ما يقاربها متى طلبتها، وأما السلطنة فلعلها سلطنة الآخرة، وكنت أظنها في الدنيا. وأنا الآن تائب مما أنا فيه، عالم أن الله لم يرد بي ذلك، فنيتي الرجوع إلى الحج والزيارة، ثم أستوطن جوار الشيخ عبد القادر الجيلاني أعبد الله حتى أموت. ففارقناه على هذه النية، فذهب من هناك إلى تجورارن ومات بها. وكان رحمه الله ينتحل السيمياء والكيمياء ويحسن الوفاق ويخبر عن نفسه ببعض ذلك. ولو استقصينا أخباره لطال الكلام. ومن محاسنه أنه لما دخل إلى طرابلس قال له عثمان باشا: اقترح علي، فقال له: إني أريد أن تحرر كل من في مملكتك من الأشراف فلا يعطون شيئا مما يعطيه غيرهم، وتحرر جيران الشيخ زروق. فعد من في عمالته من الأشراف، فوجد نحوا من خمسمائة دار، فحررت كلها و لم يؤخذ منها شيء إلى الآن. ولعمري إنها لفعلة حسنة. أنشد عند تأسفه على ما مضى من تطوافه في البلاد على غير طائل:

[وافر]

مشيْناها خطى كُتِبتْ علينا ... ومنْ كُتبت عليه خطى مشَاها[1]

وأرزاقٌ لنا متفرقاتٌ ... فمنْ لم تأتِه منا أتاهَا

ويزاد بعد هذا البيت:

ومن كتبتْ منيتهُ بأرض ... فليس يموت بأرض سواها

وأنشدني أيضا:

[كامل]

فسد الزمانُ كما ترى من حاله ... وكذا عوائِدُ آخرِ الأزمانِ

وأولى من هذا قول الآخر[2]:

[وافر]

(1) ورد البيتان في لمح السحر، وقال المصنف إنهما مكتوبان على قبر المتنبي: لمح السحر، ص: 211.

(2) ورد بلا نسبة في التمثيل والمحاضرة، ص: 247. لمح السحر، ص: 181.

يقولـــون الزمـــانُ بـــه فـــسادٌ وهم فسَدوا ومـــا فـــسدَ الزمـــانُ

وبالجملة فهذا الرجل كان أعجوبة زمانه ونادرة وقته سخاء وذكاء ودهاء، ونجدة وعلو همة وعبادة، لولا ما ابتلاه الله به من وسوسة الإمارة التي توسوس في دماغه، فلا تدعه يسكن في مكان ولا يقر له معها في أرض قرار. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة من كل ما يقطع عنه بمنه وكرمه.

ثم ارتحلنا من قرية والا ونزلنا ضحى بينها وبين القليعة، ولحق بنـــا هنـــاك سيدي علي بن الشيخ الحفيان، وهو أخو أمير ركبنا سيدي محمد، ولحـــق معـــه حجاج من أهل تجورارن. ثم ارتحلنا من هناك في يوم عاصف لم نر مثله فيما تقدم من سفرنا، لقي الناس فيه كلالا، ولا تفتح العين إلا ملئت رمـــالا. فالركبـــان بأرديتهم مترفلون[1]، والمشاة بجانب الإبل قهرا يرملون[2]. ونزلنا بالقليعة، تـــصغير قلعة، وهي قرية حصينة على حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبهـــا آبـــار كثيرة طيبة الماء، ونخيل ليس بكثير. وهي من طاعة سلطان واركلا، وبها عاملـــه، وهمته على قدر همة مستعمله. وقد أخبرني من رآه أسود حافي الرجـــل عـــاري الرأس، في ملاءة وسخة، ومع ذلك يتحاكم إليه أهل قريته ويذعنون لأمره. وبهذه القرية كان يترل الشيخ الحاج الأبر سيدي أبو حفص ابن الولي الصالح سيدي عبد القادر بن محمد بن سليمان ابن بوسماحة، ويعرف عند أهل بلده بسيدي الشيخ، وأولاده حتى الآن يدعون أولاد سيدي الشيخ، وله حرمة وصيت في هذه النواحي بلها[3] وصحرائها. خصوصا ولده هذا سيدي أبو حفص، فله هدي وصيت حسن وتنسك، مثابر على فعل الخيرات من جهاد وحج، فقد أفنى عمره في التردد على الحرمين الشريفين، وربما رجع من الطريق قبل أن يصل. ولم يزل كـــذلك إلى أن توفي في سنة إحدى وسبعين وألف، ودفن عند والده بمقبرتهم المعروفة بـــالأبيض، قرب بوسمغون. وقد حججنا معه سنة تسع وخمسين، وقفلنا معـــه إلى تـــوزر[4]، وزرناه مرارا عديدة، ولقيناه بعد ذلك في حجة سنة خمس وستين ونحن قافلون،

---

(1) مترفلون: من رفل؛ أي جر ذيله وتبختر: لسان العرب: رفل.
(2) يرملون: من الرمل؛ وهو الهرولة: لسان العرب: رمل.
(3) في ط: يمها.
(4) توزر: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ وأرضها سبخة بها نخل كثير: معجم البلدان: توزر. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 277:1.

وتؤثر عنه كرامات وله أتباع، وكان يسير غالبا للحجاز بنسائه وأولاده. ويعامله الناس كثيرا، الأمراء فمن دونهم، ويتبركون به.

ثم ارتحلنا من القليعة وسرنا نصف يوم والجبل عن يميننا، في يوم عاصف، إلى أن صعدناه عشاء وبتنا. وفي الغد سلكنا في أرض وعرة حرشة، إلا أنا وجدنا بها الكلأ للإبل فحمدناها. والطريق في غالبها يسلك في شعاب تنساب بين فدافد[1] انسياب الأرقم، فمن رآها من بعيد ظنها أرضا بيضاء يتصل بعضها ببعض وهي تتقطع تقطع السحاب. وفي اليوم الرابع جئنا إلى ماء يقال له زيرارة، وهي بئر طويل جدا متوحد في بسيط من الأرض بين جبلين، أحدهما من رمل، وماؤها حلو جدا، وفيه يقول أعراب ذلك البلد: ما أحلى ماءك وما أبعده يا زيرارة. فلما تجاوزناها حصلت للركب روعة لخبر أخبروه أن بازائهم قوم من العرب يريدون الإغارة، فشمر الناس للقتال وأخرجوا عدتهم، وهيؤوا آلة حربهم فلم يلقوا كيدا. وتبين بعد ذلك أن الخبر لا أصل له. وبات الحجاج في تلك الليلة على ماء يقال له الجديد. وفي ثاني يوم منه، وهو سادس يوم من رحيلنا من القليعة، نزلنا على ماء يقال له ولت دغير ضحى يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بئر واحد غزير الماء في بسيط من الأرض بين جبلين، لا يخلو من العمارة في الغالب ممن يجاوره من الأعراب. وغالبهم أهل عافية لا إذاية فيهم.

ثم ارتحلنا منها وأخذ الناس ماء أربع ليال، ومررنا في طريق بأسفل واديها، وفيها تل في بسيط من الأرض به رسم مسجد وقبور، وكأنه مزارة، فصلينا[2] به الظهر.، وزرناه بحسن اعتقاد لأنه محل تعبد في أرض قل ما يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقد سألنا الدليل عن ذلك الموضع فأخبرنا أنه مصلى السيد الحاج أبي حفص، والرجل من الصالحين يسمى الحاج يوسف. وعن يمينه في شعبة من تلك الشعاب ماء يقال له أبو الرغاوي. ثم بتنا تلك الليلة أسفل من العقبة التي يطلع منها إلى الحماد. ولم يسر الركب في ذلك اليوم إلا نصف مرحلة لأنهم وجدوا الكلأ كثيرا، فظلت الإبل راتعة، وصحابتها أمامها هاجعة. وتسوقنا هناك فئة قليلة من الأعراب بغنم قليلة تخاطفتها الحجاج بأغلى ثمن لطول عهدهم باللحم، ثم ارتحلنا غدا وطلعنا الحماد، وتراخى الناس في السير أيضا لأجل الكلأ تراخيا

(1) الفدفد: المكان المرتفع: لسان العرب: فدد.
(2) في ط: وصلينا.

أورثهم زيادة رحلة أجأتهم إلى سير جاد مخافة العطش، إذ لا ماء من المورد المذكور إلى واركلا.

ثم بتنا تلك الليلة وقد قل الكلأ، وأنذر قلته بالطلوع إلى سطح الحماد الكبير الذي قل مثله في بلاد المغرب. ثم ارتحلنا غدا وطلعنا إلى السطح المذكور، وهي أرض جرداء حرشاء لا علم فيها إلا المراير[1]، التي شقت على سلوكها المزايــر[2]، وأرجام[3] على الطريق مبنية، هي لمتأملها عن الدليل مُغنية.

ثم بتنا تلك الليلة، وهي ثالثة الليالي، بواد معشوشب انتفعت فيه الإبل، ونزلناه عند العصر، ثم ارتحلنا غدا في يوم عبوس قمطرير، ذو قتام[4] وزمهرير، وسلكنا في مهمه مغبرة أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، قد سخرت فيه الرياح للرمال، تحملها أمامها كالجبال، حتى لا يكاد الرجل أن يعرف مسايره، ولا يسمع مسامره، وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل، والرمال أمامنا كالسيل، ولقينا من ذلك ما نقص علينا عافية تلك البلاد، واستسهلنا معه ذهاب الطريف والتلاد، أستغفر الله، بل العافية لا يعدلها شيء، اللهم عافيتك أوسع لي.

ثم بتنا تلك الليلة وقد كلت الأبدان، وتشابهت ألوان الأحرار والعبدان، وهي الليلة الربعة، لألوان التعب جامعة، كأنها رابعة ليالي القادسية[5]، أو إحدى الليالي النابغية. ثم ارتحلنا غدا، وسلكنا في أرض كأنها المحشر ومحل المنشر، إلا أنها ليست بيضاء ولا نقية، بل سوداء شقية، لا تسمع فيها إلا همسا، ولا يسلك الدليل فيها إلا حدسا، لم تضع الإبل رؤوسها إلى الأرض، كأنها سائرة ليوم العرض، في أرض مزقت من حروشتها النعال، وآلمت أخفاف الإبل وحوافر البغال، فلففنا على الأرجل الخرق والرقاع، كأننا في غزوة ذات الرقاع[6]، نتعارج

---

(1) المراير: جمع مرة، وهي شجرة أو بقلة، وهي من أمرار البقول: لسان العرب: مرر.
(2) المزاير: جمع مزير، وهو الشديد القلب القوي: لسان العرب: مزر.
(3) الأرجام: والرجام؛ الحجارة المجموعة على القبور: لسان العرب: رجم.
(4) القتام: الغبار: لسان العرب: قتم.
(5) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة 16 من الهجرة، وقاتل المسلمون يومئذ وسعد في القصر ينظر إليهم فنسب إلى الجبن، وذكر أصحاب الفتوح أن القادسية كانت أربعة أيام، فسموا الأول يوم أرماث، واليوم الثاني يوم أغواث، واليوم الثالث يوم عماس، وليلة اليوم الرابع ليلة الهرير، واليوم الرابع سموه يوم القادسية، وكان الفتح للمسلمين، وقتل رستم جازويه ولم يقم للفرس بعده قائمة: معجم البلدان: القادسية.
(6) وقعت غزوة ذات الرقاع في محرم من السنة الرابعة للهجرة: شذرات الذهب 1:11.

في أرض صفصف قاع، هي في ما رأينا شر البقاع، وقد فرغ من عند الناس الطعام والشراب، وتعوضوا منهما الرمل والسراب. وكثير من الناس يظنون أنهم يُحصلون تلك الليلة واركلا، فكان الأمر على خلاف ما أملوه، وفوق الحساب الذي عملوه.

ثم بتنا تلك الليلة أيضا في أرض كالتي قبلها، ونراها في الجوع والعطش أعظم منها لا مثلها، ثم ارتحلنا غدا وهبطنا من الكرب، بعد شدة الكرب، قبل الظهر بقليل، والجسم من كل منا عليل، وأنشدت لبعض الإخوان في ذلك اليوم:

[وافر]

لئن طـالَ الجِهادُ لقد حَمِدنا | بفضْلِ الله عاقبةَ الجهادِ
سنبْلغُ سالمينَ وفضلُ ربي | علينا كل يومٍ في ازديادِ
سَيحسنُ في التناهي دون ريب | كما قد كانَ أحسنَ في المَبادِ

وتراءى لنا نخل واركلا كأنه سحابة وطفاء[1] أو ناقة عجفاء، يتقطع السراب دونه، وكثير من الناس لا يفهمونه. فدخلنا واركلا قبل غروب الشمس، ونزلنا باب المدينة المسمى باب السلطان، وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وابل وزرع، اشترى الناس ما احتاجوا إليه بأرخص ثمن، وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك وأكثر، فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأن تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم.

وكان دخولنا للمدينة عشية الخميس، وأقمنا بها يوم الجمعة واليومين اللذين بعده، ودخلنا للمدينة لحضور صلاة الجمعة، وصلينا بجامع يسمى جامع المالكية، وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف، والتقديم والتأخير، مع إدغام أكثر حروفها، حتى كأنها همهمة، فكنت أتخوف ألا تصح لنا معه جمعة إن كانت صلاته كخطبته، فنجى الله، فأحسن في قراءة الفاتحة. فما ظننا أن صلاتنا معه مجزية، ودعا في خطبته للإمام المهدي ثم للسلطان الأعظم، الخاقان الأفخم، محمد بن إبراهيم بن مراد، ثم لسلطان بلده مولاي علاهم. فلما فرغ من الصلاة

(1) الوطفاء: الديمة السح الحثيثة: لسان العرب: وطف.

بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له في الخطبة، أهو المنتظر أم أحـــد المنتحلين ذلك ممن مضى، فسأله عن ذلك فإذا هو لا يفقه شيئا من ذلك، وقال: أظنه النبي صلى الله عليه وسلم. فعلمت أنه إنما وجد الخطبة مكتوبة في صـــحيفة عنده فحفظها كما وجدها، إلا أنه لم يحرر حفظها ونقلها، ولعلها من خطـــب بعض من كان في أيام المهدي بن تومرت[1] زاد فيها هذا[2] الدعاء للإمامين اللذين في عصره.

ثم بعد الصلاة طلعنا للمئذنة، وهي مشرفة على المدينة كلها، فنظرنـــا إلي أطرافها ووسطها، وكنا نستقلها قبل ذلك، فإذا هي مدينة لها سبعة أبواب، وهي في وسط خط من النخل، ومساحة المدينة بالتخمين نحو من نصف فرســـخ[3] في مثله، محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها، لا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب، وقد خلا كثير منها بسبب فتنة وقعت فيها قبل قدومنا بنحو من شهرين. وذلك أن طائفة منها، وهم بيضة البلد وعصبة أهلها اتهمهم الأمير بالقيام عليه، فاتفق مع رعيته على قتلهم كلهم، وأن لا يفلتوا أحدا منهم كبيرا أو صغيرا. فأمر بسد أبواب المدينة، وتقدم إلى من هو خارج البلد من الأعراب أن يترصدوا[4] خارج السور، فمن أفلت من البلد قتلوه. فقام عليهم بالسيف بغتة هو ومن معه فقتل منهم مقتلة عظيمة نحوا من المائتين، و لم يسلم منهم إلا من تـــسور جـــدار السور إن لم يلقه الأعراب أو افتدى منهم. وهي فعلة شنيعة عدت من هفـــوات ذلك الأمير، وأسقط ذلك مترلته عند كثير من الناس. مع أنه معروف قبل ذلـــك بحسن السيرة، وأورث ذلك شحناء بينه وبين أخواله أولاد الشيخ أحمد بن جلاب، فإن أمه أخت الشيخ أحمد، وكانوا قبل ذلك شيعة له وبهم تمكن من البلد.

---

(1) ابن تومرت: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، فقيه عالم، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب، أقام بالمشرق مدة قبل أن يعود إلى المغرب للقيام بدعوته، من أهم كتبه: أعز ما يطلب. توفي سنة 525: شرف الطالب، ص: 61. شجرة النور الزكية 1:204.

(2) في ط: هو.

(3) الفرسخ: أصله فارسي دخل العربية بمعنيين، يدل الأولعلى الزمن، والثاني ارتبط بمسافة اتفق على تحديدها بالمسافة التي إذا مشاها الرجل قعد واستراح، وهي عند بعضهم ستة أميال، غير أن الفقهاء المسلمين قدروا الفرسخ بثلاثة اميال: لسان العرب: فرسخ. معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، ص: 337.

(4) في ط: يرتصدوا.

ثم لقيت إمام المسجد بعد ذلك وأدخلني إلى مترله وأحضر لي ما عندي من الكتب فإذا عنده أجزاء من الموطإ ومن البخاري ومن الإكمال[1]، وبعض شراح المختصر[2] والرسالة[3] غالبها لم يكمل.

وحبسني لطعام صنعه حتى حانت صلاة المغرب، فدخلنا[4] المسجد بازاء داره لصلاة المغرب، وهو مسجد متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان، على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة، ومكان لتسخين الماء، فأعجبني غاية. فلما دخل المؤذن كبر في أذانه أربعا أول الأذان وأربعا آخرا، فأنكرت ذلك في نفسي إذ القوم مالكية في ظني. فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون، فقلت عجبا، هؤلاء كلهم من ذوي الأعذار؟. ثم وقع في نفسي أنهم عزابة روافض. ثم سألنا بعد ذلك فإذا المسجد مسجدهم يصلون فيه، وهو معروف بهم[5]، وهم طائفة من الإباضية[6] من أتباع عبد الله بن إباض يوافقون المعتزلة في أكثر عوائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن، ويبغضون بعض الصحابة، وهم كثيرون في تلك البلدة. وأصل مادهم من جبال مزاب فإنهم كلهم روافض، وبها علماؤهم، وهي عند من هو على معتقدهم معظمة.

غريبة:

وهؤلاء الروافض يسمون أشياخهم بعم فلان، فيقولون نص على هذه المسألة عم داود أو عم إبراهيم.

(1) الإكمال للقاضي عياض (ت 544هـ): تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 93.
(2) يقصد مختصر خليل في الفقه المالكي.
(3) الرسالة لابن أبي زيد القيرواني.
(4) في ط: فدخلت.
(5) في ط: لهم.
(6) الإباضية: نسبة إلى عبد الله بن يحيى بن إباض الذي خرج في أيام مروان الحمار وانتشر أتباعه بالمغرب: التعريفات 1:20. سير أعلام النبلاء 15:153.

غريبة أخرى:

وأخبرني من أثق به من أهل ريغ من أشياخنا أنه مر بهم رجل قاصدا لمزاب، فسألوه من هو فقال: من أهل البصرة[1] جئت زائرا لبلاد مزاب، فقبح الله الزائر والمزور، ورده مأزورا غير مأجور.

وسألت بعض الناس عن عدم إنكار والي البلد على هذه الطائفة الملعونة، مع أنه ليس على معتقدهم، فأخبرني أنهم عصبيته في حروب تقع بينه وبين أخواله وأعرابهم، فلا يقدر أن ينكر عليهم لذلك. وهذا كله من رقة الديانة، وخيانة الأمانة. ولما كان آخر أيام الإقامة سألت صاحبنا إمام المسجد هل في البلد شيء من خزائن الكتب، فأخبرني أن عند الأمير خزانة من الكتب، وأنه لا يمنع من أراد الدخول إليها. فذهبت معه إليه ودخلنا ورحب بنا، وأخبره صاحبنا بما أريد، فأدخلني إلى كتبه، فإذا عنده نحو من أربعين سفرا من جملتها التوضيح والتتائي[2] وبهرام[3] وحواشي على الصغرى[4]. وأخرج لنا طعاما وسأل عن مسائل فقهية، وله بعض الإلمام بها. وجرى في الكلام معه ذكر تعارض الأصل والغالب، فطلب مني أن أكتب له في ذلك شيئا، فكتبت له بعد الخروج من عنده ما حضر من كلام العلماء في ذلك وأوردت له بعض الأمثلة.

وحضرني عند الكتابة بيتان في مدح هذا الأمير لما شاهدت من حسن خلقه ولين جانبه، وهما[5]:

[طويل]

فَإنَّ وُلاةَ الأمرِ في كُلِّ بلدةٍ ... كثيرٌ ولكنَّ الأميرَ علاهُمُ

(1) البصرة: مدينة بأرض المغرب، كانت مدينة مقتصدة عليها سور ليس بالحصين، ولها قرى وعمارات وغلات: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 2:531.

(2) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم التتائي، الفقيه الفرضي، تخلى عن القضاء وتصدر للتأليف والإقراء، له شرحان على المختصر وشرح على ابن احاجب، توفي سنة 942 هـ: لقط الفرائد، ص: 295.شجرة النور الزكية 1:393. الأعلام 5:32.

(3) بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز الدميري، حامل لواء المذهب المالكي بمصر، أخذ عن الشيخ خليل وبه تفقه، له تأليف منها شروح على المختصر، كبير ووسيط وصغير، وشرح مختصر ابن الحاجب، توفي سنة 805 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 135. شجرة النور الزكية 1:345. الأعلام 2:76.

(4) لمحمد بن يوسف بن عمر السنوسي عالم تلمسان، من تصانيفه: العقيدة الصغرى والعقيدة الكبرى، توفي سنة 895 هـ: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 47، هـ 2.

(5) ورد البيتان في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 287.

عَلاهُم علاهم إذ تحلوا بحِلية   من العدلِ والممدوحِ رقم حلاهُمُ

وبعثتها له مع صاحبنا إمام المسجد، وهذا الإمام يدعى عند أهل بلده بيا سيدي، وأخوه سيدي ختين[1]، وهما معروفان بأولاد الفقيه منصور، وهما أقرب من رأيت في هذه المدينة بسيرة الطلب، وما أظن أحدا منها يحسن بابا من أبواب أي علم:

[وافر]

ولكن البلادَ إذا اقشعرتْ   و صوَّح[2] نبتُها رُعي الهشيمُ[3]

ولأهل هذه البلدة دراهم يتعاملون بها يكثر فيها النحاس، أربعة وعشرون في ربع ريال. وقد أضاف أهل المدينة الركب أربع ليل ضيافة لا بأس بها.

غريبة:

وفي باب المدينة التي نزلنا من قِبله خرق كثيرة من صوف وكتان، أكثرها صحيحة لا قطع فيها، يصلح للانتفاع، وليس مثلها مما يرمى به في العادة. وتعجبنا من كثرتها مع صحتها، ولا نعلم السبب في عدم أخذ الناس لها وتركهم الانتفاع بها، وهي لو جمعت لكانت أحمالا. وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى، وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك ولا تمس، ولا نعلم صحة ذلك، والله أعلم.

غريبة:

من غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزير بحفر الآبار، فيحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة، ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه، فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا، ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا، فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء. ومتى احتاجت العين إلى الكنس حصلت

---

(1) في ط: سيد خير.
(2) صوح: صوح البقل:تم يبسه: لسان العرب: صوح.
(3) البيت لأبي علي البصير: الوساطة، ص: 221. وهو من شواهد لسان العرب، مادة: صوح.

لمتعاطي كنسها مشقة كثيرة، وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر. وقد أخبرني من أصحابنا من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب، وكذلك عيون أهل وادي ريغ.

ثم ارتحلنا من واركلا يوم الاثنين ونزلنا ببلدة قريبة منها على نصف مرحلة تسمى مكوسا. وهم من طاعة وادي ريغ لا من طاعة واركلا. فلما نزلنا منعوا الحجاج من الدخول واتهموهم انهم اتفقوا مع سلطان واركلا على أن يأتي أصحابه في وسط الحجاج كي يدخلوا الباب خديعة، وزعموا أنه اتفق معهم على أن يأخذ هو الأموال ويأخذ المغاربة البلد يسكنونها. وهذا من قلة عقولهم وبلههم، كيف يتوهمون أن أناسا تركوا أهلهم وأموالهم وديارهم، ابتغاء وجه الله، يرضون بسكنى هذه البلاد التي لا يسكنها إلا من ضاقت عليه البلاد؟. وبات أهل البلد يحرسون تلك الليلة وهم في أشد ما يكون من الحقد على أهل واركلا، ينتظرون قدوم العساكر من أميرهم الريغي فيزحفون إليها معتقدين أن أموالهم ودماءهم حلال، وأنهم كفار بسبب الفعلة المتقدمة. وقد سألت البعض منهم: هل يذهب أحد منكم هذا العام للحج فقال لي: من ذا الذي يذهب هذه السنة للحج ويدع الجهاد في باب داره؟ فلا تظن أن أحدا من أهل البلد يشتغل بشيء هذا العام إلا بالجهاد. فاستغربت ذلك كثيرا. وسبب توهمهم المتقدم في الحجاج أن بعض صعاليك الحجاج ممن قصده التمعش جلسوا عند سلطان واركلا وخدموا عنده وأعطاهم السلاح، فبلغهم ذلك، فظنوا أن الركب كلهم متفقون معه على ذلك. ثم ارتحلنا من هناك قاصدين وادي ريغ في أرض ذات رمال لا يهتدي فيها إلا من مارسها كثيرا.

وفي اليوم الثالث منها أصبحت علينا ريح باردة في مكان كثير الرمل، وجاءتنا من أمام حتى لا يكاد الرجل يرى من بجنبه، ودامت علينا إلى الليل ولقينا منها شدة، وهي إحدى الأيام البُهم[1].

وفي الغد منها مررنا ببلدة يقال لها أكرك، وهي أول بلد وادي ريغ. ورحنا إلى بلدة تماسن، وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل، وأميرها ابن عم أمراء تكرت، وهو كالمستقل في بلده، وأجزل ضيافة الحجاج. وفي مسجدهم صومعة وثيقة البناء

(1) البهم: جمع بهيم، وهو الذي لا ضوء فيه: لسان العرب: بهم.

طويلة جدا فيها نحو من مائة درجة، على بابها اسم صانعها، وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشرة وثمانمائة.

ثم ارتحلنا منها ونزلنا تكرت، وهي قاعدة وادي ريغ ومسكن أمرائها أولاد جلاب. وكان نزولنا بها يوم السبت الرابع عشر من جمادى الثانية، وأول من لقينا بعد النزول من طلبتها سيدي محمد بن عبد الكريم التواتي[1] ولد عالم توات في زمانه سيدي عبد الكريم قاضي توات، وبلده بيمنطيط[2]. ثم خرج ولده هذا بعدما تفقه وبقي بواركلا أعواما، ثم انتقل منها إلى تكرت. وهو رجل دمث الأخلاق، طيب الأعراق، وقد شدا طرفا من الفقه والنحو، وله بعض الخبرة بعلم العروض. وقد أجزل الضيافة جهده، وخرق إجماع متفقهة البلاد سواه وسألني عن قوله عليه السلام: بئس الميت أبو أمامة لليهود والمنافقين فإنهم قالوا: لو كان محمد نبيا ما مات صاحبه[3]. وظن متفقهة البلد أنه أبو أمامة الباهلي[4]. فكتبت لهم في معنى ذلك وبينت لهم أنه أبو أمامة أسعد بن زرارة[5]، وأن أبا أمامة الباهلي إنما توفي بعد أيام النبوة بأزمان كثيرة.

ثم خرج بعده مفتي البلد مع سيدي محمد أخي الأمير، وسيدي محمد بن إبراهيم تلميذ سيدي علي الأنصاري، وسألوا عن مسائل كثيرة منها ألغاز الحريري التي يقول فيها: ما مثل قولي لكم، وفككت لهم ما سألوا عنه منها، وجاء المساء فأنشدتهم بيتا من ذلك المعنى، فقلت لهم:

[كامل]

ما مثلُ قولةِ قائلٍ يا سادتي ... ذهبَ النهارُ وذلكَ الضيا فات

---

(1) محمد بن عبد الكريم التواتي، له مشاركة في الفقه والنحو والعروض: التقاط الدرر، ص: 250. نشر المثاني 2: 371.

(2) في ط: تمنطيط.

(3) روى شعبة عن محمد بن عبد الرحمن أن جده أسعد بن زرارة أصابه وجع الذبح في حلقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأبلغن أو لأبلين في أبي أمامة عذرا، فكواه بيده، فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ميتة سوء لليهود يقولون هلا دفع عن صاحبه، ولا أملك له ولا لنفسي من الله شيئا: سير أعلام النبلاء 1: 301، تاريخ الطبري 2: 9.

(4) أبو أمامة الباهلي، اسمه الصدى بن عجلان بن وهب، صحابي، مات سنة 86 هـ وهو بن إحدى وسبعين سنة: مشاهير علماء الأمصار 1: 50.

(5) أسعد بن زرارة النجاري، صحابي، من أوائل من أسلم من الأنصار، توفي في السنة الأولى للهجرة: شذرات الذهب 1: 9. سير أعلام النبلاء 1: 190.

فإن معنى الضيا فات وذهاب النهار متحد، وهو بيت عجيب فيه دلالة على الحال التي نحن فيها من ضيق الوقت وقرب المغرب، وفيه إشارة إلى ما يجب عليهم من ضيافتنا، إلا أنهم قوم بله لا يكادون يفقهون حديثا.

وفي الغد من وصولنا إلي تكرت بعثت إلى سيدي أحمد أخي الأمير بأبيات أستعير منه الأبي[1] واليعمري[2] وهي هذه:

[سريع]

يا سـيدًا يُخجـل بـدرَ الـدجى ... حُسنا وليث الغابِ يـومَ الـردى

يُدعى أبـا العبـاسِ يـومَ الـوغى ... وبـأبي بـشر بيـومِ النـدا

لـهُ محاسِـنُ الخـلال الـتي ... إحـصاؤها يُعجـزُ مَـن عَـددا

فَمـن بـالأُبي علـى مـسلم ... ثم أردهُ إلـيكم غـدا

أنظـرُ فيـه لفظـةً أشـكلتْ ... عَلـي في بعـضِ الـذي أسـنَدا

وابعـثْ إلينـا سـيرةَ اليَعْمـري ... أيضا فأنـت خـيرُ مـن أسْـعدا

لا زلـتَ تُحيـي دارسَ العلـم ... في أزمنةٍ قـد قـل فيهـا الهُـدى

أبقـاك ربي للهـدى صـاعدا ... ومُرشـدا في فعلـه مرشِـدا

و لم يزالوا مدة إقامتنا هناك يترددون إلينا ويسألون، واستحسنوا قـصائدي الوتريات[3]، وأخذ مني سيدي محمد بن إبراهيم الكراسة التي جمعت في معاني لـو الشرطية[4]، والكراسة التي سميتها تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهـد في الـدنيا الفانية[5]. أعطاني مجموعا فيه عدة تآليف اغتبطت به كثيرا. وقرأ علي سيدي محمد

---

(1) تقدمت ترجمته، والإشارة هنا إلى شرحه على مسلم المسمى إكمال الإكمال.

(2) محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري، مؤرخ عالم، أصله من إشبيلية، ولد بالقاهرة وبها توفي سنة 734هـ، من تصانيفه: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: لقط الفرائد، ص: 187. الأعلام 34:7.

(3) توجد نسخة منها على الميكروفلم بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط رقم: 194.

(4) اسم هذه الكراسة: المباحث المرضية فيما يتعلق بلو الشرطية، مخطوط الخزانة الصبيحية بسلا رقم 4/249، وأشارت الأستاذة نفيسة الذهبي إلى أنها ناقصة: إقتفاء الأثر، ص: 67.

(5) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم: 1388د (ضمن مجموع).

بن عبد الكريم شرح منظومة أبي الفرج الاشبيلي في ألقاب الحديث[1]، وسألوني عن قتال أهل واركلا هل يحل لهم أم لا ؟، فقلت لهم: إنهم ليسوا من أهل طاعتكم ولا ولاية لكم عليهم. فقالوا: إنه يجب علينا تغيير المنكر وهذا منكر. قلت: نعم، إلا أنه من شرط تغيير المنكر ألا يؤدي إلى منكر أعظم منه، فإنكم لا تصلون إلى ذلك إلا بعد قتل مئين من الناس كثيرة إن وصلتم.

وأمراء هذه البلدة أولاد الشيخ أحمد بن جلاب، وأسلافهم من بني مرين[2]، ووالدهم هذا كان من أمراء العدل على ما يحكى عنه، وأولاده على سيرته لا يقدمون على أمر إلا بعد سؤال متفقهتهم، وهم الذين أفتوهم بجواز قتال أهل واركلا، إلا أنهم ليس عندهم من يعتمد على قوله من الفقهاء، ولو كان عندهم من يحملهم على الشريعة ويدلهم عليها لأقاموا الدين على وجهه. وعلى كل حال فهم أعدل من رأينا من الأمراء، وليس عليهم أبهة الملك، بل يخرج الأمير منهم وحده أو مع رجلين، وهو عند أهله كواحد منهم في جلوسه وكلامه، يتوصل إليه كل أحد، وأخوه سيدي أحمد يحسن طرفا من الفقه يجالس الفقهاء، وله أخلاق حسنة ونية صالحة، بل جل أهل البلد من فقهاء وغيرهم لهم نيات صالحات وأخلاق حسنة، عريون من التكبر والعجب وأشباه ذلك. ولأمير البلد حكم نافذ في أهل مملكته والأعراب الذين يردون عليه. وقد ضاع لنا جملان ليلة رحيلنا فبلغ الخبر إليه، فأخذ الذي جاء يطلب البشارة وحبسه وبعث الحرس حتى أتوا بالإبل، فجزاه الله خيرا. وأما دراهمهم فقراريط صغيرة اثنان وثلاثون منها في ربع ريالة.

ثم ارتحلنا من تكرت يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الثانية، وسرنا قاصدين سوفا[3] في بلاد ذات رمال كثيرة، يضرب بها المثل في كثرة الرمل، وكان من فضل الله علينا الذي عجزت الألسن عن شكره، وحارت العقول عن كنه أمره، أن مطرنا في تكرت بفضل الله ورحمته لا بنوء الحاجوز مطرا لبدت الرمل حتى صار كالتراب، بل فاق التراب باللين والرطوبة، فلا تغمس[4] فيها الأقدام ولا

---

(1) ألف هذا الشرح يحيى بن عبد الرحمن القرافي الأصبهاني، وقد صدر عن دار البلاغ بالجزائر سنة 2002، ضبط وتعليق: محمد شايب شريف.

(2) بنو مرين: خلفوا حكم الموحدين بالمغرب، من أشهر ملوكهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي دخل مراكش سنة ثمان وستين وستمائة: الحلل الموشية، ص: 171.

(3) في ط: سف.

(4) في ط: تغيس.

تحملها الرياح، فسرنا فيه على أنعم حال، ونحمد الله ونشكره لما نشاهد[1] من كثرة الرمل وعظمته، ونتخيل وقوعنا في حبائلها لولا المطر المذكور، ومعونة فصل الشتاء فكيف بالزمن الحرور، ونتعجب ممن يستسهل فيها المرور، على ممر[2] السنين والدهور.

وقطعنا تلك الرمال في أربعة أيام، إلا أنا لا نجد السير فيها إلا في اليوم الأخير الذي وصلنا فيه إلى سوف[3]، وهي خط من النخل مستعرض في وسط الرمل قد غلب على أكثره، وفيه بلاد عديدة، وماؤها طيب غزير قريب من وجه الأرض. أخبرني أهل البلد أنهم إذا أرادوا غرس النخل بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا إلى الماء، فيغرسونها بحيث تكون أصولها في الماء، ثم يردون عليها الرمل فلا تحتاج إلى السقي أبدا. ويعالجونها بعد ذلك بأبعار الإبل وغيرها، فيضعونها في أصولها ولولا ذلك لماتت. وكذلك يفعلون بأنواع الخضر والبقول وسائر ما يغرسونه. وكثيرا ما يقتنون الكلاب للصيد، فإن بلادهم ذات صيد كثير، وجل معيشتهم منه ومن التمر، وتمرهم من أطيب ثمار تلك البلاد. وأقمنا بها يوما واحدا واشترينا بها ما نحتاج إليه[4] من إبل. وسكنى أهل هذه البلاد في زرائب من جريد النخل، فإليها يأوون وبها يخزنون.

ثم ارتحلنا منها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الثانية ونزلنا على ماء يقال له الرباح[5] على نصف مرحلة من البلد، في وسط رمال تكاد أن تغلب التي قبلها في الكثرة. وتبعنا كثير من أهل البلد يلتقطون البعر من مترل الركب للنخل على حسب ما ذكرنا أولا. ولقينا هناك أعراب من طرود[6] بإبل سمينة للبيع اشترى الناس منها حاجتهم.

ثم ارتحلنا ونزلنا بموضع يقال له العلندا، وأصابنا فيه مطر وابل، وأقمنا بسببه يوما على غير ماء لأن البلد كله رمل فلا يمسك ماء، فكان الماء سبب إقامة الناس، وهم لا يجدونه للوضوء والشرب إلا ما في القِرب معد للمراحل التي بعدها، أو ما

(1) في ط: شاهدنا.
(2) في ط: مر.
(3) في ط: سوف.
(4) ساقط من ط.
(5) في ط: الرياح.
(6) طرود: بنو طريد وبنو مطرود بطنان من بني سليم، وكذلك بنو طُرود: تاج العروس: طرد.

جمع في الأوعية المطروحة خارج الأخبية أو على أطرافها يجتمع فيها ما سال منها، وفي هذا الحال قلت:

[مخلع البسيط]

يا صاحِبي هل علمتَ شيئا كثرته سَبَبُ الإقامهْ
ولم نجدْهُ وقد سئمنا نزولهُ غايةَ السآمهْ
والناسُ في غايةِ احتياجِ لهُ وقد طلبوا انعدامهْ

ثم ارتحلنا من هناك مرحلتين، وفي الثالثة وصلنا إلى ماء قريب من السبخة. وما وصلنا إلى ذلك الماء ضحى حتى عطشنا، وأقام الناس عليه يحفرون. وفي إحدى تلك المراحل سايرت بعض الأصحاب ضحى في أرض مستوية الجوانب، متقربة المطالع من المغارب، لا يكاد البصر يرى فيها أكثر من ميل من جهاتها الأربع، تكاد السماء فيها على الأرض أن تقع، فأنشدته[1]:

[مجزوء الكامل]

انظرْ بعينكَ هل ترَى غيرَ السما فوقَ الثرى
والأرضُ من وشْيِ الحيا لبستْ رداءً أخضرا
والعيسُ بينها كشُهْـ ـبِ الليل جدتْ في السرى
والناسُ يتبعونها مثلَ المَجرة مِن ورا

لطيفة:

شاهدت من صنع الله في ذلك اليوم خروج النبات من الأرض في تلك الليلة بذلك المطر، وظهرت على وجه الأرض خضرته[2]، ولم نعهد مثل ذلك في غير هذه، وإنما يرى النبات فيها بعد المطر بأيام. ولما تعجنا[3] من ذلك، أخبرنا[1] الأخ

(1) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 325.
(2) في ط: خضرة.
(3) في ط: تعجبت.

الشقيق سيدي عبد الرحمن أن سيدي عبد الرحمن الثعالبي[2] ذكر في تفسيره عند قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة)[3]. قال: شاهدنا ذلك في أرض نفزاوة فتحققنا صدق ذلك، ولله القدرة الباهرة.

ثم ارتحلنا من ذلك الماء وبتنا على حد السبخة[4] التي هي على حد قرى نفزاوة، وأظن أنها آخر سبخة سيدي أبو هلال التي لم ير مثلها في سباخ الأرض كلها طولا وعرضا وكثرة ملح، إلا أن هذا الطرف منها قل ملحه وغلب عليها الرمل. ودخلناها إثر سماء[5]، فقاسى الناس فيها شدة، ولم يهتدوا للطريق إلا بعد هنيئة، وسلكت فيها على صراط غير مستقيم أرق من الشعر وأحد من السيف معنى لا حسا، لا يمشي فيه إلا بعير واحد إثر بعير، ومن أعرض عنه وأشاح يمينا أو شمالا ربما تسيخ رحلاه في الأرض، وخرجنا منها ظهرا بعد مشقة عظيمة.

غريبة:

وجدنا في تلك الرمل التي هي خارج السبخة أشجارا كثيرة من الرَّتَم[6] له زهر أبيض لا يشك من رآه أو شم رائحته أنه ياسمين في شكله ولونه وريحه.

ثم رحنا ذلك اليوم إلى قرية من قرى نَفْزاوة[7]، وذلك أول يوم من[8] رجب. وبلاد نفزاوة هذه قرى كثيرة تقرب من الألف، كل قرية منفردة وحدها على نشز من الأرض بنخل مجتمع بإزائها، وماؤها فيها حياض واسعة في وسط ذلك النخل.

---

(1) في ط: أخبرني.
(2) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، فقيه مفسر، من أعيان الجزائر ووجوهها، ولد سنة 786، رحل إلى المشرق، له عدة مؤلفات، منها: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، توفي سنة 875 هـ: فهرس الفهارس 2:732، الأعلام 3:331.
(3) الحج: 63.
(4) السبخة: أرض مالحة، أو أرض ذات ملح: لسان العرب: سبخ.
(5) أي بعد مطر.
(6) الرتم: نبات من دق الشجر: لسان العرب: رتم.
(7) نفزاوة: مدينة من أعمال إفريقية، قال البكري: وتسير من القيروان إلى نفزاوة ستة أيام نحو المغرب، وبمدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغي وهي عين كبيرة لا يدرك قعرها، ولمدينة نفزاوة سور صخر وطوب، ولها ستة أبواب وفيها جامع وحمام وأسواق حافلة، وهي كثيرة النخل والثمار، وبين مدينة نفزاوة وقابس ثلاثة أيام، وقد ضبطها ياقوت بكسر النون ووردت عند ابن خلدون بفتحها: معجم البلدان: نفزاوة. رحلة ابن خلدون، ص: 268.
(8) ساقط من ط.

والعجب من كون الماء فيها إنما يبرز في الغالب من الأماكن المرتفعة. وقراها شبيهة بقرى ريف مصر، إلا أن الأرض غير الأرض، وماؤها حلو، والحجاج يزعمون أصل تسمية هذه البلد بنفزاوة أنها كانت فيها ألف زاوية فقيل لها ألف زاوية، ثم تصرف في التسمية فسميت نفزاوة. وما ذكروه، و إن كان قريبا، لا يصح، لأن تسميتها بذلك قديمة من قبل الإسلام على ما في التواريخ. والأصل المذكور عربي، ولا عربية في المغرب قبل الإسلام اتفاقا.

ثم ارتحلنا منها ومررنا في طريقنا على قرى كثيرة فاقت الحصر، وبتنا بآخرها في زاوية يقال لها جمنة، وبها قبر رجل من الصالحين يقال له سيدي حامد الجمني، وعقبه إلى الآن بالقرية متمسكون بسيرة الفقراء يطعمون الطعام. ولقيت بهذه القرية رجلا اسمه سيدي محمد ابن أبي القاسم، من أصحاب الشيخ إبراهيم اللقاني[1]، وعليه سمت حسن ووقار، وله ماسة بالفقه وعنده بعض كتبه كالتتائي الكبير، وزرنا قبر صاحب الزاوية. ثم ارتحلنا من جمنة، وهي آخر قرى نفزاوة، ومررنا بأرض طيبة ذات مزارع وعشب كثير، ووجدنا غالب أهل نفزاوة يحرثون بها على البقر.

غريبة:

وقد وجدنا في تلك المزارع قوما يحرثون ببقرة واحدة و لم يعهد مثل ذلك في بلادنا. ومازلنا نتعجب منه حتى رأينا آخر يحرث ببعير، فأنسانا الأول وطال تعجبنا منه، مع أنه اشتهر من أمثال العامة في بلدنا: حراثة الجمل[2]، للشيء الذي يفسد أكثر مما يصلح. وما قضينا العجب منه حتى رأينا أعجب منه: إنسان يحرث بإنسان آخر: يمسك أحدهما المحراث ويجر الآخر. و لم نملك أنفسنا أن نزلنا على الرواحل للتفرج فيهم، وأعانهم على ذلك أن أرضهم كما ذكرنا طيبة لينة يكتفى فيها بأقل الحرث، ولا يكفي مثل ذلك من الحرث في غيرها من البلاد.

---

(1) إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي، اللقاني المالكي، نسبة إلى لقانة من قرى مصر، من شيوخ المالكية، له كتاب الجواهر، توفي عام 1040 هـ: خلاصة الأثر 6:1، التقاط الدرر، ص: 92، نشر المثاني 289:1.
(2) لا زال هذا المثل متداولا بالمغرب بصيغة مختلفة.

غريبة:

وقد خرج معنا رجل من أهل الزاوية المذكورة ممن ينتحل الفقه ومعه بعض الحمارنة قدموا هنالك يمتارون تمرا، وسألهم أمير الركب أن يـــدلونا الطريـــق إلى بلادهم فساروا معنا، فبينما أنا أسير في اليوم الثاني ضحى إذ هم قد جاؤوا علـــى خيلهم، وبأيديهم صقور، يسألون عني في الركب حتى وجدوني، فسلموا علـــي بعدما نزلوا عن خيلهم. فلما ركبوا قال لي المتفقه منهم: أريـــد أن تـــأذن لي في السؤال عن مسائل فقهية، واستحسنت أدبه في الاستئذان في السؤال، واستقبحت فعله في سؤاله إياي وهو راكب وأنا ماش. فأذنت له في السؤال حياءً مـــن رده، فأخذ يسأل عن مسائل من العبادات، فبينما أنا آخذ معه في ذلك إذ نفج[1] الركب أرنبا فتصايح الحجاج عليها يمينا وشمالا، فلما رأى ذلك أرسل عليها الصقر، وأخذ يركض في إثرها، وذهب وتركني ولم يسمع تمام الجواب عن مسائله. فتعجبت من استئذانه في السؤال وذهابه من غير استئذان قبل إتمام الجواب، فعلمت أن الرجل في الغالب أخرق وأن استئذانه أولا لم يكن عن أدب، وإنما هو شيء رآه من غيره أو سمع به فعلق بذهنه. وفي اليوم الثلث من رحيلنا من نفـــزاوة تركنـــا جبـــال مطماطة[2] عن يميننا.

ومررنا ضحى بقبر سيدي كناو، وهو في قرية خالية بفضاء[3] من الأرض، مدفون بإزاء مسجد حسن عتيق عليه بهاء ورونق. وأهل تلك النواحي يحترمونـــه كثيرا ويؤثرون عنه كرامات عظيمة، منها أن الناس يقصدونه من سائر النـــواحي بصدقات كثيرة من زرع وتمر وإدام ولحم، ويوضع ذلك في بيوت خارج المسجد، ومن جاع أكل منه حاجته ولا يرفع منه شيئا، ومن رفع منه شيئا عطب في الحين، واشتهر ذلك عنه وذاع على ألسنة الحجاج وغيرهم من أهل البلـــد. وكـــان في الركب كثير من الصعاليك فتسارعوا إليه أمام الركب رجاء أن يجدوا فيه شيئا من ذلك. ولم يصادفوا فيه شيئا لأن السنة كانت سنة قحط وجوع. ووجدنا عامـــل

(1) نفج: أثار؛ من نفج الأرنب إذا ثار: لسان العرب: نفج.
(2) مطماطة: موقعها بالقرب من مدينة قابس، ماؤها شروب، وبها نخل كثير: الروض المعطار، ص: 200.
(3) في ط: عالية بيضاء.

مدينة تونس مراد بي ابن حمود بي[1] قد نزل بعسكره بقابس[2] وأمر ببناء ذلك المسجد وإعادة تجديده وحفر بئر هناك، لأن الموضع لا ماء فيه، ووجدناهم قد حفروا في البئر نحو مائة ذراع وأكثرها في حجر أبيض كأنه رخام و لم يصلوا إلى الماء، وهم جادون في العمل. وفي ذلك اليوم رحلنا إلى قرب زريق، وهي بلدة فيها زاوية سيدي عبد الله بن عبد العزيز بن يحيى بن عبد الرحمن بن جابر، أحد السادات الحمارنة ومن أفاضلهم، وكان ولده قدم معنا من نفزاوة وتقدم هو إلى بلده. وهذا السيد قد أدركناه حيا سنة خمس وستين، وزرناه إذ ذاك وهو في مرض معضل طال به نحوا من خمس وعشرين سنة، في غالب أوقاته مضطجع دائم الاضطراب. وكان سبب مرضه، والله أعلم، أنه كان مولعا بعلم أسرار الحروف والأوفاق، وتعاطى ذلك كثيرا وجمع من كتبه جملة، و لم يكن ذلك منه على يد كامل عارف فأورثه ذلك ضررا في بدنه. إلا أنه، والحمد لله، معافى في عقله ودينه. وكان له أخ يتعاطى علم الحدثان واشتغل بعلم الزيراجة، ونال منها حظا كما نال أخوه حظا من علم الحروف والأوفاق، وربما يتصرف بذلك في بعض الأحيان فيظهر أثره في الوجود في قهر ظالم أو ما يشاكل ذلك. وقد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن أخيه الذي له اشتغال بالزيراجة بأمور غريبة أخبره بها أيام كانت الحرب بين عسكر الجزائر وعسكر تونس، وأن الغلبة لأهل الجزائر. وأخوه المذكور اسمه في غالب ظني سيدي أبو القاسم ابن عبد العزيز، و لم ندرك حياته بل توفي قبل هذا بأزمان. وأما سيدي عبد الله بن عبد العزيز فقد توفي في غالب ظني قبل السبعين هو وجملة من أولاده في مدة قريبة. و لم يبق منهم إلا ولده سيدي محمد الصالح. وقد أخبرني عن والده أنه في مدة مرضه كلها، مع تطاوله وغلبة الوجع، كان ثابت الذهن يدرس عنده كتب الفقه، و لم يترك أوراده ولا حزبه من القراءة. وفي أوقات الصلاة يجلس حتى يصلي. وولده هذا من أهل الخير يتمسك بسيرة أسلافه، وقد تعرض لنا يوم مرورنا بإزاء قريته، وأتى لنا ولشيخ الركب بتمر وشعير، فجزاه الله خيرا. ثم مشى معنا أميالا كثيرة، وودعنا وأودعناه الدعاء.

---

(1) احتلت الدولة العثمانية إفريقية سنة 981هـ، وقد تميز رجال هذه الدولة من حكام إفريقية بلقب الباي، ومن هؤلاء مراد باشا الذي توفي سنة 1041 هـ، فخلفه ابنه حمودة باشا المتوفى سنة 1076 هـ، فتولى بعده ابنه مراد باي الذي توفي سنة 1086: شجرة النور الزكية 2:179.

(2) قابس: مدينة بإفريقية، قال الإدريسي إنها: جليلة عامرة حفت بها من نواحيها غابات جنات ملتفة وحدائق، وعليها سور منيع، ولها أسواق وعمارات: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق 1:279.

ومررنا ذلك اليوم بقرى متعددة، و لم نبت إلى عرام، وهي قرية صغيرة فيها مزارات كثيرة غالبها من السادة الحمارنة، إذ بها مقابر أسلافهم سيدي يحيى وغيره من أكابرهم. وهم إلى الآن يقصدونها للدفن من الأماكن البعيدة إلا سيدي عبد العزيز المتقدم فإنه دفن بجانب زاوية بزريق. ثم ارتحلنا من قرية عرام ونزلنا قرب واد يقال له وادي السمار، ثم ارتحلنا منه ولقينا ركب أهل تونس القافلين من الحجاز، و لم يكن فيهم أحد ممن نعرفه حتى نستقصي منه الأخبار. وبالجملة أخبرونا عما استقبلنا من البلاد بخبر الخير من الخصب والرخاء والعافية، نسأل الله الكمال. ورحنا تلك الليلة إلى ماء يقال له النبش، وهي أحساء متعددة في أصل واد ولذلك تتردم كثيرا، قل ما يوجد منها مصلوحا إلا واحد، وقد لا يوجد فيتعب الحجاج في إصلاحه. ومع ذلك فماؤه ليس بذاك: تغلب عليه الحماة، فيتغير بها لونا وريحا وطعما. وقد وردناه سنة أربع وستين أول يوم من الصيف فكاد الناس أن يموتوا عطشا وهم نزول عليه لقلة الماء وخبثه، وكذلك وردناه قبل ذلك سنة تسع وخمسين ولقينا فيه مثل ذلك أو أشد. وفي هذه السنة جئناه أوائل الربيع والبرد غالب فلم يضطر الناس إليه كل الاضطرار. ثم ارتحلنا منه وسرنا يومنا إلى قرب العصر، خرج لصوص على بعض الصعاليك ممن تقدم أول الركب فسلبوهم، فبلغ الخبر إلى أمير الركب واتبعهم وحده حتى استنقذ منهم ما أخذوه، وفيه نجدة وكفاية في الأمور المهمة، فكم له من مثل هذه الفعلة الجميلة، جزاه الله خيرا، وبسبب ذلك نزلنا ذلك اليوم قبل وقت النزول بشفير واد كبير أفيح تحف به مزارع كثيرة من الجانبين، إلا أن ماءه ملح أجاج لا يساغ، ولو مع الضرورة، وقد يجمد أيام الحر فيصير صباخا[1].

وفي الغد ارتحلنا منه، وبقي لنا جمل نحره أصحابنا من الحجاج، وتأخرنا بسببه و لم نلحق بالركب إلى سواني ابن كردان، وهي آبار كثيرة غزيرة الماء في بسيط من الأرض كثير المزارع، وفيه آثار قرى خالية ومسجد و مزارة. ولا تخلوا هذه البلد غالبا من قوم يترلونها من الحمارنة أو غيرهم من بوادي تلك الناحية. وعادة الحجاج أن يأخذوا ماء يومين، فلأجل ذلك وقف الركب فيه برهة ريثما أخذ الناس حاجتهم من الماء وسقوا دوابهم واستقوا وساروا. وبتنا تلك الليلة قريبا من المجرى الذي هو في منتصف الطريق بين السواني وبرج الملح، لا يخلوا في

(1) صباخ: جمع صبخة، وهي لغة في السبخة؛ أي الأرض ذات الملح: لسان العرب: صبخ.

الغالب من ماء المطر، إلا أن الطريق لما كانت مسلوكة، لا يوجد فيه غالبا إلا بلل قليل لا يكفي القليل من الناس فضلا عن الركب.

وفي الغد ارتحلنا من هناك، فلما كان قريبا من الظهر بدا لنا البحر عن يسارنا، ودنونا منه فتسارع إليه من لم يعرفه من الحجاج. ولم تزل الطريق تقرب منه إلى أن مرت بإزائه كرمية بحجر عند برج الملح. ونزل غالب الناس هناك عن رواحلهم للوضوء ولأخذ المحتاج إليه من الملح. وفي ذلك المحل مرسى جيدة يترل بها النصارى بإذن أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك، وفيها ملح عجيب. ثم تجاوز الناس ذلك المحل قرب العصر، ولم يكن عند الناس ماء وهم طامعون أن يصلوا إلى الماء ولو بعد المغرب، فلم يسيروا إلا قليلا حتى ظهر في الإبل إجفال ونفور، ورفع كل بعير رأسه كأنه قناة تفور، فأكثرت العدو لما استقلت الخبب[1]، ولم يعلم الناس في ذلك ما السبب، فمن قائل إن سبب هذا الأمر المفجع، استيحاشها برؤية البحر المفزع، ولم تكن رأته قبل ذلك الأوان، ولا عهدته في سابق الأزمان، فارتاعت لرؤية شيء لم ترع دهرها بمثاله، إذ غالبها من صحراء المغرب الأقصى وجباله، لا تعرف إلا الهضاب والتلول، والمراتع المخصبة وأفنية الطلول. ومن قائل إن الشبع والمرح أحدث بها النشاط والفرح، ورب طرب أدى إلى هرب، وذلك لأنها وجدت الكلأ في تلك الأيام على أغراضها، واستراحت بذلك من تعبها وأمراضها، وكلا القولين أنسب، والأول أقرب، ولم يهتبل الناس بنفور ما نفر منها، ورأوا أن الرأي في الإعراض عنها، إذ لم يعهدوا ذلك منها فيما مضى، وظنوا أنها ترجع إلى حالها المرتضى، من التؤدة في المشي والسكينة، لما بها من الضعف حتى لا تكاد ترى فيها سمينة، فبينما هم على تلك الحال، وحال تلك عن نفورها ما حال، إذ جفلت إبل الركب كله أي إجفال، كأنها اتفقت على ذلك بلا إغفال، فلا يعلم لها إدبار من إقبال، ورمت ما عليها من الأحمال، ولم تلق لما ألقت من المتعة من بال، ولم تبال بقطع جديد من الحبال ولا بال، ولم يبق على ظهرها حقير من المتاع ولا ذو بال، وكان ذلك وقرص الشمس للغروب قد مال، فلا تسمع إلا صياح الحجاج عن اليمين والشمال، كأنهم رافعون أصواتهم بالإهلال، وتلفت في ذلك البضائع والحمال، ولم يسلم من

(1) الخبب: ضرب من العدْو، وقيل: هو مِثْل الرمَل؛ وقيل: هو أن ينقل الفرس أيمانه وأياسِرَه جميعاً، وكذلك البعير: لسان العرب خبب.

ذلك إلا من بادر إلى إناخة إبله وعقلها، وأخذ في جمع ما سقط من الأمتعة ونقلها، وبات مكانه منفردا، وإلا صار من ماله وإبله متجردا، وكنا ممن لطف الله به ففعل مثل هذا الفعل، فلم يضِع لنا بحمد الله بعير ولا حمل. وبات الناس في تلك الليلة يترددون في الطرقات، ويجمعون ما تساقط من الأمتعة في الفلوات، وتفرق الناس في النزول شذَر مدَر[1]، ولا يغني حذر من قدر، فلم يسأل جار عن جاره، ولم يبحث أحد عن محل داره، إلى أن أصبح الناس وقد عمهم الطيش، كأنما دهمهم الجيش، ولم يسلم من الضياع إلا القليل، وحار في أمرهم الدليل، فمن قائل نرحل حتى نصل الماء والعمارة، فنبعث في طلب ما بقي بعض السيارة، ومن قائل نقيم هنا ونستقصي في الطلب، ونبعث من يأتي بالماء في القرب، فكان الرأي ما رآه، واتبع الناس هداه، فركب أصحاب الخيل والنجائب[2]، وساروا في طلب ما تلف من الأمتعة والركائب، فجمع الله عليهم الإبل إلا جملين، وأما الأمتعة فضاع منها نحو من وقرين[3]، ومن جملة ما استولى عليه الضياع، بضائع لبعض الحجاج أخرجت من وسط المتاع، فاتهم في أخذ ذلك الصعاليك الذين في الركب، وظن الناس أن ذلك يظهر بالقرب، فلم يظهر ذلك إلا بعد مدة، ودخول الحجاج إلى مصر في العودة.

ثم ارتحلنا غدا وعادت الإبل إلى عادتها الأمسية، من النفور حتى كأنها ليست من الأنعام الأنسية، وكان المحل كثير العشب سيما شجر[4] البرواق[5]، فإذا مشت الإبل فيه لا تسمع إلا طاق طاق، فلحق الإبل من ذلك رعب شديد، ولحق أهلها منها عناء مديد، فاتخذ الناس لها أرسانا[6]، يقودونها بها أزمانا، إلى أن خرجت من ذلك المكان، وسكنت بعض السكون بالدخول بين المساكن والسكان، فحصلت لها بعض الدعة، بعد أن أتلفت أيضا في ذلك اليوم بعض الأمتعة. ونزلنا الزوارات الغربية قبل الظهر، ثم ارتحلنا غدا ومررنا بالزوارات الشرقية، ومر الركب خارج البلد، ودخلت أنا وبعض الأصحاب إلى البلد على رجلي، ولم ألحق الركب إلا

(1) شذر مدر: ذهب القوم شذر مدر: ذهبوا في كل وجه: لسان العرب: شذر.
(2) النجائب: جمع نجيب، والنجيب من الإبل: القوي الخفيف السريع: لسان العرب: نجب.
(3) وقرين: مثنى وقر؛ وهو الحمل الثقيل: لسان العرب: وقر.
(4) في ط: الشجر.
(5) البرواق: أو البروق؛ شجر ضعيف له ثمر حب أسود صغار: لسان العرب: برق.
(6) أرسان: جمع رسن؛ وهو ما كان من الأزمة على الأنف: لسان العرب: رسن.

بعد تعب و عناء[1]. وكان من لطف الله بالناس ذلك اليوم أن هبت ريح قوية جاءت من ورائنا فأذهلت الإبل عما خامر أسرارها من النفور، والناس مع ذلك لا يهدأ لهم روع بسببها. وبتنا تلك الليلة بإزاء المسجد الذي بين الزوارات وزواغة[2]، وهو مسجد صغير محكم الصنعة في أرض مرتفعة وحوله أثر بناء و مآجل[3] لماء المطر في صفاة واسعة، والمسجد كله ملبس بالجص الأبيض، وله إشراق وبريق يظهر من مكان بعيد، وبينه وبين البحر نحو من ميل. وقد أخبرنا أن بعض الصعاليك في بعض السنين آواهم الليل إليه فباتوا، فجاء مركب للنصارى إلى مقابلتهم في البحر ونزلوا لأخذ الماء أو لغير ذلك، فوجدوهم في المسجد، فأسروهم و لم يشعر بهم أحد لبعد المكان عن العمران.

ومن هذه المرحلة تقدم بعض أصحابنا إلى مدينة طرابلس لتهيئة المحتاج إليه من مسكن وغيره. وكتبت معه كتابا لشيخنا سيدي محمد بن مساهل أعلمه بقدومنا، والوقوف مع صاحبنا في مهماتنا، ومن جملته أبيات أولها[4]:

[طويل]

أسيدَنا مفتِي الوَرى ابنَ مساهلِ ومنهلَ فضلٍ فاقَ كلَّ المناهلِ

عليكَ سلامُ الله ممن غدتْ لكم عليهِ أيادٍ في العُصورِ الأوائلِ

بنورِكَ يَستهدي إذا الأرضُ أظلمتْ على أهلِها بالجهلِ أهلَ السواحلِ

فكم قد أنلتَ العرفَ سائلَهُ وكم منَنْتَ بلا سؤلٍ وجدتَ بنائلِ

في أبيات أخر لا أستحضرها.

وبعدما ارتحلنا من هذه الدار ووصلنا أوائل بلاد زواغة لقينا ركب الحجاج المغاربة من أهل مراكش ومن انضاف إليهم. وشيخهم أقدم أهل تلك الخطة في ولايتها، وأولاهم بالتقدم لحفظ حدودها ورعايتها، الشيخ إبراهيم الفران، ومعه الحاج منصور الغسال. وركبهم ليس بالقوي. وتلقفنا منهم خبر ما استقبلناه من

(1) في ط: عناء وتعب.
(2) زواغة: حدد الحميري موقعها غربي تاهرت: الروض المعطار، ص: 126.
(3) المآجل: جمع ماجل؛ وهو كل ماء في أصل جبل أو واد: لسان العرب: مجل.
(4) وردت الأبيات في: نشر المثاني2: 135.

البلد، ولقينا معهم بعض أهل بلدنا، وبعثنا معه كتبا إلى من خلفناه في بلدنا من الأهل والعشيرة والأصحاب. وسيأتي ذكرها عند تعرضنا لذلك. وكان لقاؤنا للركب المذكور في أشد ما يكون من القلق، و لم يستوعبوا لنا الأخبار التي تتشوق النفوس إليها، بل وقفوا هنيئة ريثما دفع إليهم[1]، من تيسر له، كتابا إلى أهله فتفرق الفريقان.

وسرنا ذلك اليوم وبتنا بزاوية صرمان، ثم في الغد مررنا صباحا بالزاوية الغربية، وزرنا سيدي يحيى الكمودي ودعا لنا بخير وودعناه. وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ومعهم سيدي عبد الحفيظ ابن الولي الصالح سيدي محمد الصيد الطرابلسي[2]، خرج معهم يشيعهم إلى جربة[3] ومعه صهره من أولاد سيدي حامد القاطنين بجربة، وكان تزوج منهم امرأة وله دار هناك عندهم بجربة يأتيها الفينة بعد الفينة. وهو ممن نفع الله به العباد في تلك النواحي، وجمع الله القلوب على محبته وهابه الأمراء، وانثال عليه للتبرك الأغنياء والفقراء. ولما التقينا به جلس معنا ساعة وزرناه ودعا لنا بخير. وأمير ذلك الركب سيدي محمد ابن الولي الصالح سيدي محمد بن المسعود من بلاد سد وكال، وله رباع ببسكرة، وربما استوطنها. وكان والد الأمير المذكور من أهل الصلاح، وممن كان يتردد بالركب إلى الحج الشريف، وتأكدت بينه وبين سيدي محمد الصيد الصحبة، فلذلك نشأ الولدان على طريق والديهما، فجزى الله خيرا ولدا أنهج له والده سبيل الخير فاقتفاه وقام بالعهد في اتباع سلفه الصالح ووفاه.

وممن لقينا في ذلك الركب الحاج الأبر الشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي أخو الأمير العادل الشيخ أحمد والد أمير بلاد ريغ في هذا العهد. وكان مجاورا بالحرمين عدة من السنين، وبيننا وبينه معرفة من قبل هذا. وهو الذي شفانا من الأخبار، وأخبرنا بموت شيخنا القشاشي[4]، رضي الله عنه، بالمدينة المنورة، وبموت الغوث

---

(1) في ط: لهم.

(2) أبو عبد الله محمد الصيد الطرابلسي، فقيه متصوف، أخذ عن عيسى بن محمد التلمساني الشهير بأبي معزة، توفي سنة 1050 هـ: التقاط الدرر، ص: 111، نشر المثاني: 1:378. صفوة من انتشر، ص: 171.

(3) جربة: جزيرة أقرب بلادها إلى قابس، طولها ستون ميلا من المغرب إلى المشرق: الروض المعطار، ص: 158.

(4) صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي، المقدسي المدني، فقيه متصوف، له تآليف في علم الكلام والتصوف، توفي عام 1071 هـ: التقاط الدرر، ص: 148. فهرس الفهارس 2: 970.

الأعظم بمكة سيدي[1] محمد باعلوي[2]، وبموت الشيخ أبي الحسن الطبري[3] بمكة أيضا، وغير ذلك من الأخبار. ثم ودعناه وسرنا يومنا وبتنا قرب زنزور[4].

ثم ارتحلنا منه قاصدين إلى مدينة طرابلس[5]، أمنها الله، وبينها وبين هذه البلدة نحو من اثني عشر ميلا.

(1) في ط: الغوث الأعظم السيد محمد باعلوي بمكة.

(2) محمد با علوي الحضرمي، اليمني الشريف الحسيني، عالم عامل، ارتبط بطريقة أبي مدين الغوث الصوفية، توفي عام 1071 هـ: التقاط الدرر، ص: 150. نشر المثاني 2:115.

(3) علي بن عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري، عالم مؤرخ، ولد بمكة المكرمة، تصدر للإفتاء والإقراء إلى أن توفي سنة1070 هـ، له تصانيف منها: الأرج المسكي والتاريخ المكي: خلاصة الأثر 3:161. الأعلام 4:301.

(4) زنزور: قرية شجرها مخصب: رحلة العبدري، ص: 74.

(5) طرابلس: مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، بها أسواق حافلة وحمامات كثيرة، وبينها وبين سرت عشر مراحل، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون: الروض المعطار، ص: 389.

ذكر دخولنا لمدينة طرابلس حماها الله من الأغيار

كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد، وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعايبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما، ولو لمن استحق ملاما، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في إفضالهم عليهم وإنعامهم، ولهذه المدينة بابان؛ باب إلى البر وباب إلى البحر، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها. والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر. ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله، وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر قلما تسافر وترجع بغير غنيمة، وقلما أسرت لهم سفينة إلا إن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد. فجزاهم الله خيرا وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين. وكان عادة الركب إذا دخل هذه المدينة، سيما في الذهاب، أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قل نظيرها، وهي مفازة برقة[1]. ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل والقِرب، ويتخذون زاد نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء، وإن كان صيفا فنحو من شهرين. وإبل عمالة طرابلس غاية في الجودة، قل أن يوجد لها نظير، شبيهة بإبل بلدنا، بل تزيد عليها بكثرة الخدمة، فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس، ويسقون عليها ويديرون الرحى، فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة، مع طيب هواء البلد ونقاء مرعاها، فيقل فيها الغش وتندر أمراضها، ولذلك قيل في أمثال الحجاج: جمل طرابلسي وقربة مصرية، لأن قِرب هذه البلد رديئة الدباغ،

(1) برقة: مدينة كبيرة بين الإسكندرية وإفريقية، بينها وبين البحر ستة أميال: الروض المعطار، ص: 91.

وماؤها خبيث المساغ، ومع ذلك لا تمسك من الشراب إلا كما يمسك الماء الغرابيل، من اتكل عليها أوسعت عليه الري أول المسافة، وأوردته آخرها وارد التلف والمخافة.

وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم، فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآيبين خمسة أو ستة، ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد، ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم، بل ربما نقص في البلد مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله. إلا أن أهلها مكتفون بها غاية، وراضون بها إلى النهاية، وهي جديرة بذلك. وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الأراحي غاية، فيلاقي الحجاج من ذلك مشقة، ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين، سيما من لم تطل إقامته كركبنا في هذه السنة، فإنا لم نقم بها إلا نحو العشرة أيام. وذلك شأن ركب الإبل الواردين على الصحراء في كل سنة، فإنهم يتأخرون ويستصحبون معهم جل ما يحتاجون من إبل وقرب، فلا يزيدون منها إلا قليلا، وإنما يحتاجون فيها إلى اتخاذ الزاد فقط.

وأما ركب الجريد، أهل البغال والحمير، فتطول إقامتهم بها في الغالب، وربما أقاموا الشهرين وأزيد لبيع الدواب وشراء ما تقدم ذكره، فكأنهم يستأنفون منها سفرا آخر(1) من غير السفر الذي كانوا فيه قبل ذلك لأنه مخالف له في كثير من أحواله، حتى كأنه لا يشاركه إلا في مطلق السفر. ولذلك تجد كثيرا ممن لم يتقدم له حج يشق عليه الخروج من طرابلس أكثر من الخروج من بلده، وكذلك من مصر بالنسبة لما قبله. نسأل الله العون والتوفيق على سلوك أحسن طريق.

وكان نزولنا يوم دخولنا طرابلس في المحل الذي كنا نترل فيه قبل ذلك في مصرية على باب المسجد المسمى جامع الحاج إبراهيم بأقصى المدينة قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي سالم المشاط. وكان إمام هذا المسجد صاحبنا الفقيه النبيه، الأورع(2) النزيه، سيدي أحمد بن عيسى اليربوعي، وكان من أماثل هذا البلد علما وورعا وزكاء أخلاق وطيب أعراق. وكان أبوه سيدي عيسى هو قاضي المدينة

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: الورع.

منذ أزمان كثيرة، فلما توفي أبوه تولى هو القضاء وحمدت سيرته فيه وتحلى بحلية العدل، ثم استعفى منه فأعفي، ثم أعيد ثانية، وبعُد صيته وانتشر الثناء عليه وكثر حامدوه، إلى أن توفي قبل وصولنا بأشهر قليلة، وكثر تفجع الناس عليه وأعقب الذكر الجميل فيهم. فلما سمعنا خبر موته تفجعنا لفقده، وكان لنا في تلك المدينة أحسن رفيق، وأعظم معين في النوائب شقيق، رحمة الله عليه تترا، ورضوانه دنيا وأخرى. وبعد وفاته لم يجد أهل حومته أفضل من ولده سيدي محمد بن أحمد لتولية المسجد المذكور والصلاة فيه، فقام بذلك، وهو سائر إن شاء الله على سير أبيه، والله يعينه على ما تولاه، ويرزقه القيام على شكر[1] ما أولاه. وقد تلقانا يوم قدومنا أحسن الملاقاة وقام ببعض الواجب مما كان يقوم به والده، رحمه الله، وهيأ لنا المترل وأعان في المحتاج من اتخاذ الزاد بالميسور من طحن وتوابعه.

ولما اطمأن بنا المترل ذهبنا لزيارة شيخنا مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد بن مُساهل[2] رضي الله عنه، فلقينا أحسن الملاقاة وفرح بقدومنا، فجزاه الله خيرا. ووجدناه، رضي الله عنه، قد استعفى من الفتوى فأعفي، وبقي ملازما لداره ومسجده للتدريس فيه مستريحا من التكاليف، مشتغلا بمطالعة التآليف، ولا يقطع القراءة في الغالب، صباحا ومساء شتاء وصيفا، يقرأ ما تيسر من فقه ونحو وما يشاكل ذلك، ويختم بشيء من كتب الوعظ والتذكير.

وهذا الشيخ، رضي الله عنه، من أحسن ما رأينا سمتا وعقلا، وأصدقهم قولا وفعلا. له مشاركة في العلوم وحسن اطلاع على فروع المذهب. طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة وحمدت سيرته فيها، وله مع ذلك ميل قوي إلى طريق القوم. وقد أخذ الطريق عن ولي الله بلا نزاع، بين تلك البقاع، سيدي محمد الصيد رضي الله عنه. والصيد في لغة هذا القطر هو الأسد، وسمي كذلك لكثرة ردعه للظلام وقهره للجبابرة، حتى كان لا يجترئ أحد على معارضته في ما أمر به، ولا يتعرض لمن انتسب إليه. وظهرت له كرامات. وقد أخذ الطريق عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة، وهو أخذ عن الولي الكبير

---

(1) في ط: بشكر.

(2) محمد بن أحمد بن مساهل، علامة مشارك، تولى الفتوى بطرابلس مدة، توفي عام 1074 هـ: التقاط الدرر، ص: 158. صفوة من انتشر، ص: 171. نشر المثاني2:135.

والعلم الشهير، سيدي أبي عمرو القسطلي المراكشي[1]. ولأجل هذه النسبة لم يزل ولد الشيخ المذكور سيدي عبد الحفيظ يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عمر، بل في تعظيم كل من يمت إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك. وإن اتفق قدوم أحد منهم عليه فلا يبقي ولا يذر في إكرامه والمثول بين يديه كأصغر الخدام وأحقرهم. ولقد حج معنا سنة ستين سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي عمرو، وتلقاه بالبر والتعظيم وأنزله عنده وبالغ في إكرامه، وشيعه في الذهاب والإياب نحوا من سبع مراحل.

ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم يده صباحا ورأسه من حناء، كان بها في إناء، فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه، نفعه الله تعالى[2] بحسن اعتقاده. ولهذا السيد اعتقاد حسن في كل من ينتسب إلى الصلاح. وقد نفعه الله بذلك فطار صيته وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه، وهابه الولاة فمن دونهم. وله، كما قيل، دنيا عريضة من كل المال، قد آتاه الله نعما وحرثا وغيرهما، يطعم منها الواردين، ويواسي المحتاجين، أعانه الله على ما به تولاه، ورزقه الشكر على ما أولاه، وتوفي الولي أبوه سيدي محمد الصيد سنة خمسين وألف. وقد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل أنه منذ عرفه لم يترك صلاة الجمعة عنده إلا لعذر ظاهر. ولم يزل على ذلك إلى الآن منذ أزيد من أربعين سنة، يذهب كل يوم جمعة ضحى إلى محل الشيخ المذكور بالقرية المسماة بالهنشير[3]، وبينها وبين المدينة ستة أميال، فيصلي هناك الجمعة، ويدرس هناك في مسجد الشيخ إلى أن يصلي العصر ويرجع إلى المدينة، لا يترك ذلك دائما.

---

(1) أبو عمرو بن أحمد بن أبي القاسم القسطلي، من وجوه مراكش وأعيانها، حفظت له بعض الكرامات، توفي عام 974 هـ: نشر المثاني 1:69. دوحة الناشر، ص: 98. ممتع الأسماع، ص: 117. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 4:50.

(2) ساقط من ط.

(3) الهنشير: محلة من محلات سوق الجمعة بطرابلس: صفوة من انتشر، ص: 171/ هـ 3.

لطيفة:

أخبرني شيخنا هذا أن الشيخ المذكور قال له إن لأهل الله مراغة كمراغة الإبل، لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها، وإني لأرجو أن يجعلك الله مراغة لأوليائه. ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب إلى هذه الطريق المباركة إلا كان إيواؤه إلى هذا الشيخ إما بنزول عنده أو بالتردد إليه. وكان، رضي الله، عنه يقوم بحوائجهم قدر الإمكان ويواسيهم، نفعه الله بقصده الجميل. ولقد وجدناه في هذه السنة منقبضا مترويا عن أكثر الناس لأجل ما حصل له من التوجع على صهره زوج ابنته. وكان من شأنه أنه كان هو وأخوه من طلبته، وكان من أنجب طلبة الحنفية، وزوجهما الشيخ ابنتيه. فلم يزل حالهما في الرقي إلى أن تولى أكبرهما فتوى الحنفية، وكانت له المنزلة الرفيعة في البلد وعند العسكر. وكان الشريف المتولي لطرابلس قبل محمد باشا المقتول سنة أربعين وألف، قد خلف ولدا صغيرا وبقي في كفالة خديمه محمد باشا الذي ولي الإمارة بعده، فلما مات وأفضت الإمارة إلى عثمان باشا مملوك الشريف المذكور رفع بضبعي[1] ولد سيده ورقاه مراقي الرياسة، فلما تمكنت قهرية الرياسة الممزوجة بحداثة السن من رأسه، منته نفسه الثورة على مملوك أبيه عثمان باشا، وظن أن المراتب الدنيوية بالاستحقاق، وأن نسبه الرفيع يحصل له به في سوق الولاية إنفاق، ولم يعلم أن الناس أعوان من واتته دولته، وهم عليه إذا خانته أعوان، وصادف ذلك ملال من الرعية لولاية هذا الأمير لكثرة ظلم أعوانه في الجباية. فمالت أنفس كثير منهم إلى مقالة الشريف، ورشح ذلك عندهم تأزره واعتضاده بولد نوير رئيس عرب الناحية الغربية من طرابلس، وكان ذا شهامة وبأس شديد. وقد أظلم الجو بينه وبين أمير البلد، فاتفقت كلمته وكلمة الشريف ومن دان بدينهم من الرعية كأهل تاجورا[2]، وساعدهم على ذلك مفتي الحنفية المذكور وطائفة قليلة من العسكر. فلما كاد أمرهم أن يتم، وتمت على سريرتهم أسارير أوجههم وإشارات أقوالهم، أوحي[3] بذلك إلى الأمير بعض بطانتهم ممن أراد بذلك اتخاذ يد عنده. فأوجس الأمير في نفسه خيفة منهم، وكان ممن لا يقعقع له بالشنان.

---

(1) الضبع وسط العضد: لسان العرب: ضبع.

(2) تاجورا: قد ترد تاجورة؛ قرية كبيرة عامرة، بها قصر متسع يشما على دور كثيرة، وكان ابتداء عمارتها في عام 55 هـ: رحلة التيجاني، ص: 307.

(3) في ط: أوشي.

فاحتال بالقبض عليهم خفية وأظهر التجاهل والغفلة عن أمرهم، وبادر بالخروج إلى ناحية تاجورا حيث محل ربطهم وحلهم. وأوعز إلى بطانته بعد تحصين البلد بالقبض على الشريف والمفتي ومن ساعدهم إثر خروجه. وأظهر للرعية عدم المبالاة بذلك، وقال: قد علمت أنكم برآء مما نسب إليكم يخدعهم بذلك لئلا يثوروا ثورة واحدة. واستعان على تسكين روعتهم بالشيخ عبد الحفيظ، وخضع له وتذلل. فلما رأت الرعية استكانته لجانب الشيخ اطمأنوا. و لم يزل كذلك إلى أن فرغ من أمر الشريف وأتباعه، فكر على الرعية بقتل ذوي الرأي و إغرام أتباعهم بما جعلهم عبرة لغيرهم. فلما خلا له الجو من هذه الطائفة أخذ يتجسس عن كل من مالأهم بكلمة أو إشارة. فربما أشير إليه بأن شيخنا سيدي محمد بن مساهل ممن له في ذلك إشارة، مرشحا ذلك بأن صهره مفتي الحنفية لا يقطع أمرا دونه، فتنكر له الأمير في باطنه و لم يبده للناس لوجاهة الشيخ في البلد بعلمه وورعه. فلما علم الشيخ بذلك استعفى من الفتوى فأعفي، وبقي ملازما لداره ومسجده للتدريس فيه مستراحا من التكاليف، مشتغلا بمطالعة التآليف، رضي الله عنه وأرضاه.

لطيفة:

وأخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشايخه أنه قال: إذا أُذن خلف مسافر فذلك أمان له حتى يرجع. وروى ذلك لنا[1] حديثا. وقد فعل لنا ذلك، رضي الله عنه، حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته ولله الحمد.

غريبة:

أخبرني أن سيدي علي الخضيري ذكر في شرحه على المختصر[2] أن الزباد[3] المسمى في عرف غربنا بالغالية[1]، نجس وأن كان عرق حي لمروره بمحل البول.

(1) ساقط من ط.
(2) يقصد مختصر خليل.
(3) الزباد مثل السنور الصغير يجلب من نواحي الهند، وقد يأنس فيقتنى، ويحلب شيئا شبيها بالزبد... وله رائحة طيبة وهو يقع في الطيب: لسان العرب: زبد.

قال: وكان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك، وأظنه شيخنا اللقاني. قال شيخنا: وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعثت بحضرة الشيخ سيدي عبد الحفيظ إلى قط من القطوط التي يستخرج منها الزباد، وكان عند بعض الأتراك، فلما أحضر أمرنا متولي استخراج الزباد منه بإخراجه بحضرتنا ففعل. فشاهدنا محل اجتماع ذلك منه خارجا عن محل البول لا يمر به أصلا، وإنما هو جليدة[2] رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيها ذلك العرق وتشتد عليه وتنطوي حتى يؤخذ منها. قال: فحينئذ اطمأنت نفوسنا وأيقنا بطهارته[3].

غريبة:

أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنين وستين وألف صوتا هائلا في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل. قال وظنناه سفنا للمسلمين تلاقت مع سفن النصارى، وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مسراتة[4]، وسمعه حتى أهل فزارة والإسكندرية، وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس، وكل يظن أنه قريب منه. وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل. وذلك أن جزيرة من جزر بر الترك خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت في الهواء تصدعت فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت. فإذا خرجت النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجُفَافة[5]. ودام ذلك إلى الليل، وارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت. وأعجب من ذلك أنهم قالوا إنه أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاسا في تلك الليلة، والله أعلم بغيبه. وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجاذيب، وقد أدركنا بها رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عنهم كرامات وحكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم. وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر

---

(1) الغالية: نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن: لسان العرب: غلا.
(2) في ط: جلدة.
(3) وردت الحكاية في كتاب: صفوة من انتشر، ص: 172.
(4) مسراتة: ذكرها التيجاني في رحلته: رحلة التيجاني، ص: 317.
(5) الجُفافة: ما ينتثر من القت والحشيش وغيره: لسان العرب: جفف.

الصالحين، ولا يعرف منهم الآن إلا قليل كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة، وقبره يزار. وسبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين فيها أن البلد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مرارا عديدة. فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته[1] أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان وافتداها منهم بخمس قناطير من الذهب العين، فعد ذلك من مآثره. انتهى. وقد استولى عليها النصارى أيضا في القرن العاشر.

لطيفة:

ممن لقيته بطرابلس من أفاضل أهلها سيدي شعبان بن مساهل[2] ابن عم شيخنا المذكور، وكانت له معرفة بنوادر من التاريخ وجزئيات من علم النجوم.

ومما أفادنيه من التواريخ أن الترك دخلوا تونس وأخذوا حلق الوادي من أيدي النصارى عام اثنين وثمانين وتسعمائة. قلت: وسمعت من غير واحد أن مولاي عبد الملك[3] صاحب الغزوة الكبرى كان حاضرا مع الترك في دخول تونس لما جاءهم مستصرخا على ابن أخيه محمد الشيخ وأبلى فيها بلاء حسنا[4]، وبعد ذلك أمدوه بالعساكير لما ظهر لهم من شهامته إلى أن كان من أمره مع ولد أخيه ما كان. فرضي الله عنه من ملك كان بدء أمره الجهاد وختامه الجهاد. والبدايات كما قيل مجلات النهايات، فمن طابت بدايته زكت نهايته.

(1) أنظر: رحلة ابن بطوطة 2:822.

(2) شعبان بن مساهل الطرابلسي، من أعيان طرابلس وفقهائها، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشية: نشر المثاني 2: 371.

(3) عبد الملك بن أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي، كان بسجلماسة رفقة أخيه أحمد المنصور حين بلغتهما وفاة أبيهما واستيلاء أخيهما على الملك بعده، ففرا إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه، ولم يزالا مقيمين بها على بلغهما خبر وفاة أخيهما عبد الله واستبداد ولده مولاي محمد بعده بالملك، فسارع عبد الملك إلى إصطنبول قاصدا السلطان العثماني، فأعاد هذا عبد الملك بجيش وعتاد وقواد، فنشبت بينه وبين المتوكل حروب استمرت أربع سنين، وانهزم المتوكل واتفق مع البرتغاليين وعاد بجيش كبير منهم، فتجددت المعارك، وهلك المتوكل غرقا في معركة وادي المخازن كما مات عبد الملك في التاريخ نفسه سنة 986: نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، ص: 120. الأعلام 4: 164.

(4) نزهة الحادي، ص:123.

ومما أفادنيه من تاريخ هذا البلد أن العدو، دمره الله، استولى على هذه المدينة الاستيلاء الأخير سنة ست عشرة وتسعمائة يوم ستة عشر في محرم[1]، وافتكت منه عام ثمانية وخمسين وتسعمائة، وتاريخه نقط قولك: جاء الترك بسر. وافتكها منهم درغوت باشا وكان بجربة، ومراد باشا وكان بمسلاتة. وبقي فيها درغوت إلى أن توفي بها، وقبره الآن يزار وعليه بناء عظيم. وسبب أخذها من العدو أن مراكب للمسلمين جاءت من اصطنبول مددا للعمارة المحاصرة[2] لحلق الوادي بتونس، فمرت بسواحل طرابلس، فكلمهم أهل السواحل في إعانتهم على النصارى، فقالوا: إنا لم نؤمر بذلك من السلطان. فقال لهم الباشا مراد: أعينوني في هذا الأمر، فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم. فحاصروها برا وبحرا إلى أن أخذوها. فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان وقال له: إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء. فرضي عنه وعنهم وأكرمهم. وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية[3] غريبة، وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة، فبينما هم كذلك قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة، فنزلت بالمرسى فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا، فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة[4]، فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك. فلما فرغوا قدم لهم دلاعا[5] فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين. فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها فقالوا: ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة عدو فحكوا له الحكايتين. فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها، ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا. وانحاز المسلمون إلى تاجورا وجبال غريان ومسلاتة، وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور. قال الشيخ مرعي

(1) في ط: من المحرم.
(2) في ط: الحاصرة.
(3) في ط: قصة.
(4) ساقط من ط.
(5) الدلاع: البطيخ: عامية مغربية.

الحنبلي[1] في كتابه نزهة الناظرين عند ذكر السلطان سليم[2] ولد السلطان سليمان ما نصه: وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلاد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب من[3] آل حفص، فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج، وأطمعوهم في بلاد المسلمين، فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع، بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج، وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد. فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحروب[4]، وصحبة ذلك سنان باشا وفلج علي باشا. وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف. فنصر الله المسلمين بعد أن قتل منهم نحو العشرة آلاف، مع الحصار المديد، والقتل[5] الشديد.

ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك حصنا حصينا وقلعة منيعة، أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة، فافتتحها المسلمون صحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يوما من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة. ثم خرب الوزير القلاع والحصون ولم يُبق لها رسما، ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة، فلم يمهله الأجل رحمه الله.

وفي[6] يوم دخولنا لهذه المدينة لقينا أصحابنا الفاسيون القافلون من الحج، وفيهم محبنا سيدي طاهر بن رضوان الخزرجي، وأخبرني بأعظم الرزية، وأفجع البلية، موت أخينا في الله المواتي، المساعد فيما يذر وما يأتي، الحبيب الشقيق، خير

(1) مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي، المقدسي الحنبلي، مؤرخ أديب، ولد في طولكرم بفلسطين، وانتقل إلى القدس ثم القاهرة التي توفي بها سنة 1033هـ، له مصنفات عدة منها: نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين: خلاصة الأثر 4:358. الأعلام 7:203.
(2) السلطان سليم بن سليمان ابن سليم، ملك القسطنطينية، تولى السلطة بعد أبيه، وكانت مدة سلطنته نحو ثمان سنين، توفي سنة 982 هـ: الكواكب السائرة 3:157.
(3) في ط: و.
(4) في ط: الحرب.
(5) في ط: القتال.
(6) ساقط من ط.

خل وأزكى رفيق، العلامة اللوذعي[1]، الرحالة الألمعي، سيدي محمد المنقوشـــي[2] سقى الله قبره شآبيب الرحمة والرضوان، وجعله ممن يستبشر بقدومـــه رضـــوان، وذلك في شهر الله محرم الحرام فاتح سنة اثنين وسبعين وألف بمدينة القـــسطنطينة العظمى، مات شهيدا بالوباء بعد دخولها بثلاثة أيام. وكان، رحمه الله، قبل ذلك كثيرا ما يلهج بها ويؤمل المشي إليها، ويشتاقها اشتياق المرء بلده، فصارت بعـــد ذلك ملحده. وقد ذكر لي أنه لمعت بارقة من نور على قبره، ولا يستبعد ذلك من أمره، شهيد الوباء والغربة وقاصد الحج وطالب علم إلى غير ذلك مـــن ســـيرته الحسنة. وقد بنى أخوه على قبره فصار مزارا، حط الله عنه بذلك آثاما وأوزارا.

ومن هناك كتبنا لأصحابنا الفاسيين، ومشايخنا المهديين. ومن جملة ما كتبت قصيدة تائية، ليست عن صوب الصواب نائية، خاطبت بها أصحابنا واستطردت بعدهم السلام على مشايخنا، كلا باسمه، محلى ببعض وسمه، وبعد إتمامها أتاني النبأ الفظيع، والخبر الوجيع، بموت أخينا المتقدم فزدت فيها نحوا من أربعـــين بيتـــا في رثائه، وستأتي بجملتها عند ذكر الكتب التي بعثت بها من طرابلس.

وممن لقيته بطرابلس مفتيها الشاب الزكي، الفقيه اللوذعي، خير خلف، عن خير سلف، سيدي محمد المكني[3]، بيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام، وأبـــوه سيدي محمد المكني[4] كان من أعلم أهل ذلك الساحل، وتولى الفتوى ببلده مرارا، واشتغل بالتدريس، وله مشاركة حسنة في فنون كثيرة، توفي قريبا من سنة ســـت وخمسين وألف. ولم يخلف إلا ولده هذا، واشتغل بالقراءة على شيخنا ســـيدي محمد بن مساهل وعلى غيره. وكان له ذكاء عقل، وزيادة نبل، فمهر في فنـــون عديدة وفاق أقرانه. فلما عزل شيخنا بن مساهل عن الفتوى، حسبما تقدم، وليها هو فحمدت سيرته فيها وظهرت نجابته وسدد في فتواه. وولي أيضا تدريس الجامع الكبير والخطابة والإمامة به. لقيته بداره ولم تطل مجالستي له. واســـتعرت منـــه

(1) اللوذعي: الحديد الفؤاد واللسان كأنه يلذع من ذكائه: لسان العرب: لذع.
(2) محمد بن أبي الشتاء المنقوشي الفاسي، الأديب الرحالة، مات بمدينة أسطنبول: التقاط الدرر، ص: 154.
(3) محمد بن محمد المكني الطرابلسي، من بيت علم وتصوف، ولي الخطابة والتدريس والإفتاء بمدينة طرابلس، توفي عام 1099 هـ: التقاط الدرر، ص: 238. نشر المثاني 2:59.
(4) أبو عبد الله محمد المكني الطرابلسي، توفي عام 1056 هـ: التقاط الدرر، ص:122. نشر المثاني 2:35.

المطول[1] لسعد الدين فأعاره، وكانت له خزانة كتب ليس مثلها لأحد من أهـــل بلده، ثم استعرت منه بعد ذلك العضد على مختصر ابن الحاجب[2]، وكان ذلـــك قرب رحيلنا، فأعاره، وكتبت له مع الرسول بيتين وهما[3]:

[طويل]

فمُنوا به قبلَ الرحيـــلِ لنـــا كمـــا   تطَـــولتُم مـــن قبلـــهِ بـــالُمطَولِ
فـــإنكمُ أهـــلٌ لكـــلِ فـــضيلة   كما أنكـــمْ أهـــلٌ لكـــل تفَـــضلِ

(1) هو شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626هـ: كشف الظنون 2:1763.
(2) الإشارة هنا إلى كتاب: منتهى السول والأمل في علمي الأصل والجدل، للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646 هـ، صنفه أولا ثم اختصره، وهو المشهور بمختصر المنتهى ومختصر ابن الحاجب، وقد شرحه العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756 هـ: كشف الظنون 2:1853.
(3) ورد البيتان في: نشر المثاني 2:36.

ذكر ما كتبت به من (مدينة)[1] طرابلس إلى [أشياخنا و][2] إخواننا بالمغرب وما وقع على بعض تلك المكاتبات من الأجوبة لبعض أصحابنا[3]، إذ لا يخلو ذلك من فوائد وأغراض لأجلها كتبت الرحلة.

فمن ذلك قصيدة تائية كتبت بها إلى بعض إخواننا بفاس، مجددا للعهد بهم، ومذكرا لهم ما سلف لي من وصلهم وقربهم، ومثيرا لأشواقهم، وراكضا لجـــواد القريحة في حلبة استباقهم. واستطردت فيها ذكر مشايخنا رضي الله عنهم، محليا لهم بالترر القليل من وصفهم الجميل، ومتضرعا إليهم في صالح الدعاء، ومظهرا لِمنتهم علي بالحقيقة لا بالادعاء، وسميتها: نفثة المصدور إلى الإخوان والصدور، ونصها بعد نثر قدمته لها طليعة، وأتبعته طلعتها الحسنة البديعة[4]:

[طويل]

أحبتنَـــا أهـــلَ الـــصفا[5] والمَـــبرةِ ... بفـــاس بقيـــتُم دائمـــا في مـــسَرةِ

ودامَ لكم سِـــلما زمـــان محـــارِبِ ... ولازلـــتُم في نعمـــةٍ مُـــستمرةِ

تَميسونَ ما بين القُـــصور كـــأنكمْ ... بُدورٌ أضـــاءتْ في خـــلالِ المجـــرةِ

يُـــذكرنيكُم كـــل رِفـــقٍ رَأيتـــهُ ... ولا سيما إنْ جـــاء بـــردُ العَـــشيةِ

كذلك إنْ هَب الصبا ســـحرًا فيـــا ... زمانًا تَقـــضى هـــلْ تُمـــن بعـــودةِ

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: لأصحابنا.
(4) وردت القصيدة في: نشر المثاني2:125.
(5) في ط: النقا.

يُخيـــل لي وقـــتٌ قطعنـــاهُ معْكُـــمُ أخذناهُ من طرْفِ الزمـــانِ بخلـــسةِ
وأيامُ أنس خارجَ المِصْر قد مـــضتْ لنَـــا بـــين دوْحٍ في ريـــاضٍ أنيقـــةِ
تشوقتُها فـــازدادَ قلـــبي تَحـــسرا فها أنا ذا ما بيْن شـــوْقٍ وحَـــسرةِ
كأني بـــصحبي وَفـــرَ الله جَمعهُـــمْ عَـــشية يـــوم الأربعـــا في البُليْـــدَةِ
يؤمُونَ قبرَ الشيخِ مـــصْباح دهـــرهِ أبي جيـــدَةَ[1] في همـــةٍ وســـكينَةِ
يُديرونَ كاســـاتِ المـــزاحِ كـــأنهم بدُورُ الدياجي بـــين تلـــك الأجنـــةِ
فيَا ليتَ شعْري هل ترى يَذكرونني هنالكَ أم ينسونَ مـــن بعـــدِ فتْـــرةِ
فإنْ ذكرونـــي عنـــدَ ذلـــك إنهـــمْ سيدعُونَ لي بـــالخيْرِ في كـــل زَوْرةِ
وهـــذا إذا مَـــا قَـــصْدُهمْ لِزيَـــارةٍ وأمـــا إذا مَـــالوا إلى القـــصية
هنالِكَ ينسى المرءُ من كان حاضـــرًا فكيفَ بـــشخصٍ في بـــلادٍ بعيـــدةِ
وعذرًا لهم في ذاكَ أحْرى إذا غَـــدوا لأكلِ طعامٍ جاءَ مـــنْ غـــيرِ قيمـــةِ
ولاشك أن القـــومَ إذ ذاك مـــالهُمْ شعورٌ بشيءٍ غـــيرَ تلـــك اللقْيْمَـــة
فلا يتركُوها لـــو تَلـــوتَ علـــيهم أحاديثَ فضْلِ الجوعِ معَ ذم بطنَـــةِ
وهَذا مِزاحٌ فاسْمَحوا العبـــدَ إنمـــا أرادَ يُسلي القلـــبَ في أرضِ غُربـــةِ
ولولا اعتِقادي أن ذا لا يَـــسُوؤكمْ ولو قلتُ فيكم مثلَ ذا ألـــفَ مـــرةِ
لأضْربْتُ صَفْحا عن مزاحِكمْ ومـــا كتبتُ إليكم من مِزاحِـــي بلفظَـــةِ
ولو كنتُ معكم كنتُ أعظمَ قـــائِمٍ لكم بحقُـــوقِ الـــود في كُـــل لحَـــةِ
فيا واصِلا للغَـــربِ بَلـــغْ سَـــلامنا إلـــيهم وارْخِ عَـــن عِنَـــان المَطيـــةِ

(1) أبو جيدة بن أحمد اليازغي، فقيه مغربي، أدرك العديد من أهل فاس وأخذ عنهم وانتفع بهم، رحل إلى المشرق وعاد بعلم غزير، وللنساء الفاسيات اعتقاد كبير فيه، وهن يتقربن إلى ضريحه بأنواع القرابين، توفي بفاس سنة نيف وستين وثلاثمائة، ودفن خارج باب بني مسافر الذي صار يدعى بعد دفنه بالقرب منه باب سيدي بوجيدة: أعلام المغرب العربي 302:1.

ودعهَا تَجد السيْرَ حــتى إذا أتَــتْ ... لفاسَ وفي باب الفتُوحِ[1] أنيخَــت[2]

بمَخْفِية أو في العُدول[3] فسلْ تَجــد ... مُنــايَ وقُــلْ عــني لِخــير أَحِبــةِ

مُحــبكُمُ العبــدُ الفقــيرُ لِربــهِ ... أبو سَالم يَــدعو لكُــم كــل ليلَــةِ

ويذكُرُكم مهما جَرى ذكركمْ بمَــا ... جُبلتم عليهِ مــن خــصالٍ جميلــةِ

ويُثني علــى أخْلاقِكــم وطبــاعكُمْ ... فَــأكْرِمْ بــأخلاقِ لــديكم حميــدَةِ

ويطلُبُ منكم أن تكُونوا لــه كمــا ... لكــمْ كــان إنْ وَفيــتُم بالمَحبــةِ

وقولــوا جميعًــا في دعــائِكُم لــهُ ... بقلب مُنيــب صــادق في المــودةِ

أيَــا رب بَلــغْ للمدينَــةِ ســالِمًا ... أبا سالِمِ واغفِــرْ لــهُ كــل زلــةِ

ويَــسرْ عليــهِ حَجــهُ ورجوعَــهُ ... إلى أهلِــه بعــدَ الجِــوار بطيبَــةِ[4]

وبَارِك لهُ في كل مــا قــد منحتَــهُ ... وعافِــهِ في ديــنِ ومــالِ وصِــحةِ

وسَــددهُ في أقوالِــه وفِعالِــهِ ... وحُطهُ من الأسْواءِ في كــل لحظَــةِ

وبلغْهُ ما يرجــوهُ حــالا وآجِــلا ... بجــاه نَــبي سَــاد كــل البَريــةِ

فأنتُم إذا قمتُم بــذا مــا أحقكُــم ... بخالصِ وِدي دونَ أهْلي وإخــوتي

فإن الــذي بــيْني وبيــنكُمُ كمــا ... علمتُم لشيءٌ زائــدٌ في الخــصوصَةِ

وِدادٌ وحــبٌ صــادقٌ وأخــوة ... مُمَكنةٌ في الله مــع طُــول عِــشْرَةِ

وعهدٌ وثيــقٌ في الــدعاءِ عهدتُــهُ ... إلــيكمْ وشــيءٌ لا يُنــالُ بفِكْــرةِ

وفي كلهَا ما ليسَ يَخْفــى علــيكمْ ... منَ الحق إنْ لم تُهملوا حق صُــحبةِ

ونُوبُوا صَحابي عن أخِيكم وقَبلُــوا ... أكُف شــيُوخي وانطِقــوا بالتحِيــةِ

---

(1) من أحياء مدينة فاس.

(2) في ط: اناخت.

(3) مخفية والعدول حيان من أحياء مدينة فاس.

(4) طيبة: المدينة المنورة.

وزِيدُوا عليها مــا يُقــرُ عنــدهُمْ ... ودادي وإن قَصرْتُ في حق خدمــةِ
وقولُوا عُبَيدا كانَ يحـضرُ عنــدكمْ ... بودٍ فــلا تَنْــسوهُ في حــالِ غَيْبــةِ
ومُنـــوا عليـــهِ بالـــدعاءِ فإنـــهُ ... لأحْوجُ ما قد كان مــنكمْ لِــدعوةِ
ولاسيما شيخِي وشــيخُ مــشايخي ... ومنقِــذي مــنْ حــيرةٍ أي حــيرَةِ
إمامي الذي يمْشي أمــامي بعلمِــهِ ... يقــودُ زِمــامي قــدوة أي قُــدوةِ
مُعلمُ جهْلي مرشدِي من ضــلالَتِي ... مُنورُ ســري[1] مــصلحٌ لــسرِيَرتِي
مُهذبُ أخــلاقِ الرجــالِ بهديــهِ ... مُرَقــي قلــوب العــارفينَ بهمــةِ
مُفيدِيَ عبدُ القادر[2] العــالِمُ الــذي ... غدا في ظلامِ الوقتِ شمْــسَ الأئمــةِ
عِمادِي وذُخري في الشدائِد كلــها ... ملاذِي إذا ما ضاقَ حَــوْلي وحيلــةِ
أُنادِي وإن[3] شطتْ بِيَ الدارُ باسمِــهِ ... فأخْلُصُ بعدَ اليأسِ من كُل وَحْلَــةِ
بهِ أقْتدي ما دمتُ حيــا وأهتَــدي ... على قدْرِ طــوقِي في فِعــالي ونيــةِ
فإنْ ســاعَدَ التوفِيــقُ لي في اتباعِــهِ ... هنيئًا وبُشرى قــد ظَفــرتُ بِبُغيــةِ
وأُشــهِدُ رَبي والملائِــكَ والــورَى ... بِــأنيَ مــن أتْباعــهِ دونَ مِرْيــةِ
وأنـــني قـــد أحببتُـــهُ واتخذتُـــهُ ... لنيلِ الذي أرجُــوهُ خــيرَ وســيلَةِ
وأنيَ قد قدمتُــهُ عــن جميــعِ مــنْ ... إليهِ استندتُ مــن شــيوخ أجِلــةِ
وأســـألُ رَبي أن يُطيـــلَ بقـــاءَهُ ... بأحـــسنِ حـــالٍ نافعــا للبريــةِ
وأولادُهُ الغُـــر الكـــرامُ محمـــد[4] ... وشيخي أبي زيد[1] وكــل العَــشيرةِ

---

(1) في ط: سيري.
(2) يقصد شيخه عبد القادر بن علي بن الشيخ أبي المحاسن الفاسي الذي تقدمت ترجمته.
(3) في ط: إنا.
(4) محمد بن عبد القادر الفاسي، الفقيه العالم، مولده سنة 1042 ووفاته سنة 1116 هـ، له تآليف عدة منها: شرح الحصن الحصين لابن الجوزي، وشرح شواهد ابن هشام: شجرة النور الزكية 1:475. فهرس الفهرس 1:182.

خصوصًا أخي عبد العَزيز ابن عمكم ففي الله قــد أحببتُــهُ منــذ مــدةِ
وأولاذُكم طــرا جميعًــا ومــن لــهُ لزاويةِ الشيخ الرضِي بعــضُ نــسبَةِ
وجملةُ أهلِ الحزْب[2] والمجلسِ الــذي بهِ أشــرقتْ آفــاقُ تلــكَ المدينــةِ
فيا سادَتِي لا تَحْرموا من دُعــائكم أخاكُم أمامَ الشيخ وقــتَ العــشيةِ
وبعدَ دروسِ العلــم مُنــوا بــدعوةٍ كذلكَ إثرَ الحزبِ في كــل غَــدْوةِ
وأزكى سلامٍ طيبٍ نــشرُهُ علــى إمامِي وشيْخي ذي التقى والفتــوةِ
محمــدٍ المــدعوّ مَيَّــارة[3] لــه عَلــي أيــادٍ لم تُكــدرْ بمِنــةِ
حميــد الــسجايا وارع متواضــع حليفُ الندى مُحيي علومَ الــشريعةِ
تــصانيفهُ في كــل علــم مَجيــدةٌ وأخلاقُــهُ أخــلاقُ نفــس مجيــدةِ
قدِ انتشرَتْ في الأرضِ آيــةُ علمــهِ فنــالَ بهــاءً في زيــادةِ رفعــةِ
وأولادهُ طــرًا ومَــن بجنابــهِ وأحفــادهُ أولي النــهى والمــروءَةِ
رفيعُ العمــادِ الألْمَعــي الــذي بــه تعززَ منــصبُ القــضا بعــد ذِلــةِ
مُفيدي وشيخي ذو الكمال مُحمــد إمامُ الهدى قاضي القضاةِ ابنُ ســودةِ[4]
لقد سادَ أهلَ العــصرِ طــرا وإنــهُ مدى الدهرِ في أحكامِه لابنُ حُــرةِ
أَغــر هُمــامٍ في أعَــز مدينــة وخيرُ إمــامٍ قــام في خــيرِ خِطــةِ
لهَ نطقُ سحبان[1] وجــودةُ حــاتم[2] وجرأةُ عمــرو في ذكــاءِ المغــيرةِ

---

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، العلامة المشارك، من مصنفاته: مفتاح الشفاء، وجارى به الشفا للقاضي عياض، وله: غاية الوطر في علم السير، توفي بفاس سنة 1096 هـ: فهرس الفهارس 735:2.

(2) الحزب: مجموع أذكار وأدعية وتوجهات وضعت للذكر: مرآة المحاسن، ص: 139.

(3) محمد بن أحمد ميارة، فقيه مشارك، له شرح على المرشد المعيـن، توفي سنة 1072هـ: اقتفاء الأثـر، ص: 114. شجرة النور الزكيـة 447:1. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 371:2.

(4) محمد بن أبي القاسم بن سودة المري، قاضي الجماعة بفاس، له تقاييد وتقارير في فنون من العلم، مولده سنة 1003هـ، ووفاته سنة 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 166. شجرة النور الزكية 449:1.

وعلمُ ابن عباسٍ وزهدُ ابن أدهـــم[3] وحِلم ابن حربِ في فـــصاحة ثوبـــةِ

إلى غير هذا من خـــصالٍ تجمعَـــتْ لــــهُ لم تكـــنْ إلا لـــنفس كريمـــةِ

جزاهُ الذي اســترعاهُ بحكمـــهِ بمـــا يؤملـــهُ عـــن عدلـــهِ في الرعيـــةِ

وأبنـــاؤهُ أبنـــاءُ صـــدقٍ أجلـــة وأكـــبرهُم أوْلاهـــمْ بالمَزيـــةِ

عليـــهِ ســـلامٌ دائمـــا وعلـــيهمُ يدومانِ مـــا ناحـــتْ حمـــامٌ بأيكـــةِ

ومن بعدهِ شيخي الذي طارَ ذكـــرهُ بأجنحَـــةِ المُـــداحِ في كـــلِ بلـــدةِ

مفيـــدُ العلـــومِ جـــامع لـــشتاتِها محققُهـــا مِزْوارُهـــا[4] في الحقيقـــة

رئيسُ علـــومِ العقـــلِ طـــرا كأنـــهُ تجسدَ شخصا مـــن ذكـــاءٍ وفطنـــةِ

لجمْعِ خصالِ الحمدِ قد زِيدَ في اسمـــهِ علامةُ جمـــعِ بعـــدَ حمـــدٍ لنكتـــة[5]

فأكرمْ بـــه مـــن عـــالمٍ أي عـــالِمِ سمَا رتبةً فـــوق الـــسما[6] أي رتبـــةِ

لهُ حالةٌ لم يرْضَ ذو العقـــلِ غيرهـــا وديـــنٌ مـــتينٌ لم يُـــدَنس بريبـــةِ

إلى رقةٍ في القلبِ من خـــوفِ ربـــهِ وإن شئتَ فانظرْ حالهُ عند خُطبـــةِ

فـــتعلمُ قطعـــا أن ذاك إشـــارةٌ منَ القلبِ قبلَ اليومِ كامِن خـــشيةِ

ومنْ بعدهِ الشيخُ ابن جَلال[7] الذي غدَا في سمـــاءِ المجْـــد تـــاجَ الأهلـــةِ

---

(1) سحبان بن وائل بن معن، من خطباء العرب وبلغائها: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص: 497.

(2) حاتم بن عبد الله الطائي، مضرب المثل في الجود: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص: 219.

(3) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد، أبو إسحاق العجلي الواعظ، أخباره مشهورة في مبتدإ زهده، وطريقه مشهورة: الرسالة القشيرية، ص: 391. فوات الوفيات 13:1.

(4) مزوارها: كل شيء كان صلاحا لشيء وعصمة فهو زوار وزيار: لسان العرب: زير.

(5) يقصد الشيخ حمدون؛ أحمد بن محمد بن موسى الأبار الفاسي، الفقيه المشارك، له فتاوي وحاشية على المختصر، توفي سنة 1071 هـ: اقتفـاء الأثر، ص: 113. شجرة النور الزكية 447:1.

(6) في ط: السها.

(7) أحمد بن عبد الرحمن ابن جلال، التلمساني الأصل الفاسي الدار والمولد، عارف بالنحو والفقه، أخذ عن عمه عبد الرحمن وأبي حامد الفاسي، توفي سنة 1079هـ: التقط الدرر، ص: 174. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 357:2.

سُلالةُ أهلِ الفضلِ والدين وارثُ مقامِهمْ في كل علمِ وحكمَةِ
فمنذُ الصبا قدْ سادَ بالعلمِ والحِجى وما زالَ ينمو في وقارِ وهيبَةِ
إلى أن غدا وهْو المبرزُ وحدَهُ فمن كل علمِ نال أكبرَ حصةِ
لهُ همةٌ من دونها النسرُ خاضِع فلا زال في جاه حصين وعزة
وخيرُ سلامي دائمًا لا يشوبهُ على حالةِ نقصِ وأزكى تحيةِ
على منْ غدا في الغربِ فردا وما لهُ شبيهٌ فنعمَ الحَبْر من خيرِ أمةِ
حليفُ كتابِ اللهِ مُحيي رسُومِهِ به المجدُ أضحى آهِلا بعدَ وحشةِ
إمَامي وشيخي بلْ وشيخُ جميعِ من لهُ خبرةٌ بالذكرِ في كل حضْرةِ
وأستاذُ أهلِ الغربِ طرا فكلهم أقَرَّ لهذا الشيخ بالأفضليةِ
فعنه وإلا عن تلاميذه رووا فصاروا لهُ طرا ذووا تبعيةِ
وذاكَ أبو زيدٍ[1] بن شيخِ زمانِهِ فريدُ بني القاضي[2] الهداةِ الأجلةِ
ولا عتْبَ في تأخيرِهِ عن جميعِ من تقدمَ لي في ذاك أعظمُ أُسوَةِ
وحسبكَ خيرُ الرسْلِ فهْوَ مقدمٌ على كلهِم وهْو الأخيرُ ببعثةِ
ومِن بعد ذا الأصحابُ والكل باسمهِ أشيرُ إلى بعضِ الأسَامي بخِفيَةِ
أُقدمُ أبناءَ الشيوخِ مكررًا لهم بعدهم أهلَ الصفا والأخوةِ
ونخبةَ أهلِ البيتِ لازالَ حبهُ بقلبي ومن يَنْمى لأهلِ الطريقةِ
أَخي أحمدٌ من بعدِهِ العربيون اس تَووا والمحمدون في كل حومةِ

(1) أبو زيد عبد الرحمن بن أبي القاسم، ابن القاضي، المكناسي، شيخ الجماعة في الإقراء بوقته، له تآليف في فن القراءات، توفي عام 1082هـ: التقاط الدرر، ص: 188. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:369.

(2) بنو القاضي: أسرة من مكناس بأرض المغرب، اشتهر كثير من أفرادها بالعلم والفقه، ومنهم: قاسم بن محمد ابن القاضي (ت 1022هـ)، و أحمد بن محمد ابن القاضي (ت 1025هـ)، ومحمد بن قام ابن القاضت (ت 1040هـ): أنظر: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين 2:369.

وليسَ لضيقِ النظمِ آثرتُ جمعكُـــم		فـــإنكم أهـــلُ العقـــول الذكيـــةِ
موازينكُم في النقدِ كـــاللحظ خِفـــة		وأحلامكُم مثـــلَ الجبـــالِ الرزينـــةِ
ولو شِئت اسْمي قلتُ فعلَلـــةٌ فعْـــل		فعالـــة فـــاعلانِ مـــن أي صـــيغةِ
ولكنني أجملـــتُ قـــصدًا ومـــثلكمْ		يبينُ لهُ التفصيلُ مـــن كـــل جملـــةِ
ولي غرضٌ فيـــهِ ســـيعلمهُ الـــذي		غَنى بالمعـــاني دونَ سَـــوْق الأدلـــةِ
وأهدِي ســـلاما طيبـــاً نـــشرهُ إلى		أخِي وخليلـــي في رخـــاءِ وشـــدةِ
مُؤَنسُني عبـــدُ الـــسلام[1] وبعـــدهُ		إلى كـــل مـــن يُـــدلي لـــه بـــأبوةِ
خصوصا أباه[2] الفاضلُ الماجدُ الذي		أياديـــهِ لم تمـــنُن وإن هـــي جلَّـــتِ
وكـــل الـــذي يُـــدلي لـــه بـــأخوة		صـــغيرًا كـــبيرًا كـــان أو بنُـــوةِ
ومن بعدِ هذا كل من كـــان ثَاويـــا		بمَخفيـــة أهـــلِ النفـــوس الأبيـــةِ
خصوصا بني الفاسِي[3] جميعا فـــإنهم		عمادي وذُخري في مقامي ورحلـــتي
ومن بعدِ ذا أزكى رفيقٍ وخيرِ مـــن		يقومُ بخيرِ الـــود في كـــل وجهـــةِ
أخي العربيُ الفاضـــلُ ابـــن محبنـــا		ســـليمان حيـــاهُ الإلـــه برحمـــةِ
وأهدِي سلاما طابَ نشرا مُخصصا		بهِ بعض مـــن قدمتـــهُ في قـــصيدتيَ
من أصحَابنا أعْني العـــدولَ مكـــررا		وللعبدِ في تكريـــرهِ بعـــضُ شـــهوةِ
أخـــي العـــربيُ وابنـــهُ وسميـــهُ		وأترابُـــهُ والمنتَمـــي لجَزولـــةِ
خذوها إليكمْ وانظروها بعـــينِ مـــن		لهُ غـــرضٌ في كاتـــبِ دونَ كتبـــةِ

---

(1) أبو محمد عبد السلام بن العربي الفاسي، توفي سنة 1095هـ: شجرة النور الزكية 1:456.
(2) أبو حامد محمد العربي الفاسي،العالم المشارك، له مرآة المحاسن شرح دلائل الخيرات وغير ذلك، توفي سنة 1052هـ: التقاط الدرر، ص: 144. شجرة النور الزكية 1:437.
(3) عن هذه الأسرة أنظر: مرآة المحاسن، ص: 30. كما تصدى للتعريف بأعلام هذه الأسرة السلطان مولاي سليمان في كتابه: عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد.

فـــإنكمُ إن تنظروهـــا كـــذاكَ لا محالـــةَ تـــستحِلوا جميعًـــا بـــديهَتي
وكل محـــب صـــادقٍ ســـيقولُ إن رآهـــا أجـــادَ الـــنظمَ دون رويـــةِ
علـــى أنهـــا ريانـــةٌ ببـــدائع مُحَكمة معْ أنهـــا بنـــتُ مُـــشية[1]
فإنْ لم تكـــن أرضـــتكُم لركاكَـــة بها فاسْـــمحوا إني كتبـــتُ بعجلـــةِ
وعذرًا ففي يومِ الرحيـــلِ كتبتـــها ولو كان في يوم الإقامـــةِ أرضـــتِ
وفي حالةٍ ينـــسى الخليـــلُ خليلـــهُ بهـــا لهمـــومٍ قـــد ألمـــتْ عظيمـــةِ
سَأخبركم عنـــها إذا مـــا لقيـــتكمْ ففيهـــا لمـــنْ لم يلقهـــا أي عـــبرةِ
وأما الذي مِثلـــي يـــشاهِدُها فمِـــن مقاســـاتِها في غمـــرةٍ إثـــر غمـــرةِ
وليس يُجيد النثرَ فيها أخو النـــهى فكيف بـــنظمٍ في معـــانٍ عويـــصةِ
ولكن لطفَ اللهِ يغمـــرُ كـــل مـــا لقيتُ فلولا اللطـــفُ مِـــت بغمـــةِ
وفي ذاك أســـرارٌ وحـــسنُ صـــنائع ســـيعلمها أهـــلُ العقـــولِ الزكيـــة
وليس الذي قدمتُ في النظمِ ذكـــره ثناءً على نظمي الركيـــكِ بجـــودةِ
فـــإن ثنـــاءَ المـــرءِ يومـــا ســـفاهةٌ على نظمهِ إحدى الأمورِ الـــسفيهةِ
على أنكم تدرونَ مـــن قبـــلُ أنـــني لـــذو قـــدرةٍ في نظمـــهِ أي قـــدرةِ
ولو كان باعِي في العلـــوم جميعِهـــا كعلمِ القريضِ كان بـــاعي كوثبَـــةِ
فلا تعجَبوا مـــن طولهـــا فـــودادكُمْ على قلمي يُملـــي لهـــا دون فَتْـــرة
ولو أنـــني طاوعْتُهـــا لتسلـــسلتْ فدامتْ وما كانـــت إلى الآن تمـــتِ
ومن بعد ما أتممتُ كَـــتْبي إلـــيكمُ أتى نبـــأٌ عنـــهُ المـــسامعُ صُـــمتِ
فأذهلَ فكري عـــن جميـــعِ أمـــورهِ وأيقظَ ساهي الحزنِ مـــن أي نومَـــة

---

(1) في ط: مثبت.

وأوْقَــدَ نيرانًــا بَطِــي خُمودُهــا   بقلــبِ ولم تخمُــدْ بــسائلِ دمعــةِ
بأن شــقيقَ الــروحِ غايَــة أنــسهِ   أخِي وسَمِي القلب في كــل طَجــةِ
مُوافِقُني في كــل حــالِ ومــؤثِري   على نفــسهِ في كــل خــيرِ ولــذةِ
حبيبي خليلي لا خليــلَ ســواهُ لي   يدانيــــهِ في أخلاقــهِ المُـــستقيمةِ
ســخاءٌ وصــبرٌ جــودةٌ وفُتــوة   تَوَقَــد ذهنًــا في صــفاءِ الطويــةِ
وعــزةُ نفــسِ لا تــرومُ دنــاءةً   وغايــةُ صــبرِ واحتمــالِ وعفــةِ
مُحمد المحمــودُ نجــلُ أبي الــشتا(1)   عليهِ مــن الــرحمنِ ســابغُ رحمَــةِ
قد اختلــستْهُ عنــدما تَــم بــدرُهُ   كمــالا وغالتْــهُ أكُــف المَنيــةِ
فوَالله لا عزيــتُ في فقــدهِ امــرأ   سِوايَ ومن أوْلى بذا غــير مهجَــةِ؟
لقد طــالَ مــا حذرتُــهُ ونــصحتُهُ   وقلتُ له احذرْ من ركوبِ الــسفينةِ
ولكنهُ مــن حبــهِ الخــيرَ مــسرعا   لنيــلِ المُــنى لم يهتبــلْ بنــصيحَةِ
فجرتْهُ قصدًا للردى غــيرَ هائِــب   سَلاسِــلُ أقــدارِ تقــودُ بزمــةِ
تجاوزَ أرضَ الرومِ حتى أتــتْ بــهِ   منيتُــهُ أقــصى الــبلادِ البعيــدَةِ
فذاقَ بها كــأسَ الحِمــام وخلفــتْ   رهينًــا بقُــسطنْطينةَ خــير طينــةِ
وكان كثيرًا مــا يكــررُ ذكرهَــا   فصارَ بها المُلحــودَ في بطــنِ تُربــةِ
رعَى اللهُ من بالرومِ أضحى مُجــدلا   ونشأتُهُ في الغــرب أفــضَلُ نــشْأةِ
وليــتَ المنايَــا أخرتْــهُ بحُكمهــا   على ما تشاءُ مــن فــداءِ رَشْــوَةِ
ولــو أنــني آليــتُ لا ذاقَ بعــدهُ   لذيذَ الكرى جفْنــي لَبَــرَّتْ أَلِيَّــةِ
لقد طابَ حَيــا ذكــرهُ في بــلادِهِ   كما فاحَ شرقا عَرفُــهُ بعــد ميْتــةِ

(1) الإشارة هنا إلى محمد بن أبي الشتاء المنقوشي الفاسي، الأديب الرحالة، الذي مات بمدينة أسطنبول: التقاط الدرر، ص: 154.

هَنيئا لهُ خــيرِ الــشهادةِ حازهــا ... على بغتةٍ بــالطعنِ في أرضِ غربــةِ
بخـــيرِ ثُغـــورِ المـــسلمينَ رباطُـــهُ ... بإثرِ ركوبِ البحْرِ في خـــيرِ وجهـــةِ
وآثرَ عنـــه النـــاسُ فيـــه كرامـــةً ... فـــصارَ مـــزارًا قـــبرُهُ في المدينَـــةِ
ملائكَـــةُ الـــرحمنِ عنـــهُ نيابـــةً ... يحجونَ قطعـــا كـــل عـــامٍ بحجـــةِ
إلى الله والمختـــارِ كـــان مُهـــاجرا ... فأدركَهُ موت على حـــالِ هجـــرةِ
فكان بلا شَـــك علـــى الله أجـــرُهُ ... فأكرِمْ بذا مـــوتٍ وأكـــرمْ بهجـــرةِ
سأبكيكَ يا خير الأحبةِ مـــا بَكـــى ... مُحب حبيبًـــا بالـــدموعِ الغزيـــرةِ
وأبكِي دما بعد الـــدموعِ وبعـــدها ... تسيلُ عليكم يـــا خَليلـــي مهجَـــةِ
محمـــدُ لا والله مـــا كنـــتُ ناســـيا ... لعهدكَ مـــا دامـــتْ حيـــاتِي بجثـــةِ
محمدُ مـــن للعلـــمِ بعـــدك ناشـــرًا ... فوائدُه في الناسِ مـــن دون هُجنـــةِ؟
محمدُ من للجودِ بعـــدكَ قـــد عفـــا ... وقد كنتَ بسطَ الكف جَم العطيةِ؟
محمدُ من للعِلـــم[1] بعـــدكَ إن أســـا ... عليكَ مـــسيءٌ لم تؤاخِـــذ بزلـــةِ؟
محمدُ من للـــدرسِ إن بـــاتَ أهلُـــهُ ... لهم نظرٌ في صفحةٍ بعـــدَ صـــفْحة؟
ومن لصحيحِ النقْلِ إن ضَـــل أهلُـــهُ ... يديرونَ في أمرِ طويـــلِ الخُـــصومة؟
محمدُ من يَلقـــى الأحبـــةَ ضـــاحِكا ... سواكَ بلا عـــبسٍ مُـــنيرِ الأســـرةِ؟
محمدُ مـــن للبحـــثِ يلقيـــه تـــارةً ... ويُلقي عليهِ مـــن فنـــونٍ عويـــصَةِ؟
تجيدُ سؤالا إن ســـألتَ كـــذاك إن ... أجبتَ بعقلٍ أو نـــصوصٍ صـــحيحةِ
محمدُ ماذا انتقـــي مـــن مـــدائِحي ... لعلياكَ؟ أنتَ البدرُ من فوق مِدحـــةِ
سأهْدى لكم طيبَ الثناءِ وأصـــطفي ... لكم من دُعائي دعوةً إثـــرَ دعـــوةِ

(1) في ط: للحلم.

عليكَ[1] سلامُ الله مني ورحْمَة | من الله تَتْرى في فراديسِ جنةِ
ومغفرةٌ سحاء تَهْمي سِجالها | على جدث[2] بالرومِ أضحى بحُفرةِ
وشفّع فيك المُصطفى وكتابُهُ | ولقّاكَ أمنا بانَ في كل روعَةِ
ورقاكَ في الفردوسِ أعلى مَكانة | مع العلماءِ العاملينَ الأئمَةِ
وأدعو لهُ ما دمتُ حيا ولم أكن | لأنساهُ في حجي ولا إثرَ عُمرةِ
ولا عندَ قبرِ المُصطفى وصَحابهِ | ولا إثْرَ ختمِ الذكرِ في كل خَتْمةِ

ومن ذلك ما كتبته إلى الأخ الصالح، والمحب الناصح، الفقيه الأديب، الوجيه الأريب، سيدي أبي عمرو عثمان بن علي[3]، ضمنته فنونا من المخاطبات، والمداعبات والمعاتبات، نظما ونثرا ووشحته بمواعظ تلين لها القلوب القاسية، وزواجر تتذكر بها العقول الناسية، وأمثال غريبة، وحكم عجيبة. أولها بعد الثناء على العلي الأعلى سبحانه، والصلاة والسلام على خير من نصح وأدى الأمانة، سيدنا محمد وصحبه وآله، وكل محب متعلق بأذياله. من العبد الفقير إلى الله تعالى، المتمسك بأذيال أهل الله حالا ومآلا، أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، أصلح الله قلبه وغفر ذنبه. إلى من ألفته وألفني، ولم يجفني منذ عرفني، الحسن الأخلاق مع لوثة[4] أعرابيته، الصافي المودة في سره وعلانيته، سيدي عثمان بن علي. ما زالت محاسنه على ألسنة مادحيه تتلى، وعلى آذانهم تملى. السلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

أما بعد، فنحن، والحمد لله، في أودية نعم الله نتقلب، وللمزيد منه مع الأنفاس نتطلب، قد صيرنا الهموم كلها هما واحدا، وأعرضنا عما كان عن مقصودنا زائدا، نقطع المجاهل، ونرد المناهل، وننعطف مع منعرج اللوى حيثما

---

(1) في ط: عليكم.
(2) في ط: جسدد.
(3) عثمان بن علي اليوسي، من تلاميذ العياشي، له إجازة منه، توفي سنة هـ1084: التقاط الدرر، ص: 169.
(4) اللوثة: القوة والشدة: لسان العرب: لوث.

التوى، ونسلك بين كثبان الرمل في مثل خط النمل، ونتبع آثار الرواحل ولا نعد المراحل، وطبنا بذلك نفسا و لم نرفع لما سواه رأسا:

[طويل]

على مثلِ ذا فليبْكِ من ضاعَ عمــرُهُ وليسَ له فيــهِ نــصيبٌ ولا ســهمُ

وحُق عليه النوْحُ إذ ضــاعَ ســعيُهُ وليسَ له اسمٌ في المعالِي ولا رَسْــمُ

إذا رامهــا صَــدته عنــها رِياســة كفعلِ الذي من أجلهِ كُتِب الرسْــمُ

هذا و لم نزل في طريقنا نتذكر رجوعكم من الطريق، وعدولكم مع ذلــك الفريق، فنتأسف على ذلك غاية، ونراه على تمكنكم في الرياسة أكبر[1] آية، ومــا كان أحوجكم إلى اللحاق بنا والسير معنا لو كتب، ولو لحقت بنا لقدناك قسرا، وسننا[2] لك التوجيهات رطبا وبُسرا، وسقناك إلى الجنة بالسلاسل، ولخضنا بــك مضايق يذهب فيها الشهم الباسل، و لم نزل إذا رأينا شيئا يستملح أو يــستظرف نقول كلنا: ليت فلانا كان معنا، وليت شعري ما الذي استبدل بعِثرتنا، وعوض من عشرتنا، أثلاثا أم ثلاثة ؟ أم أورثك ذلك وجاهة فبيست الوراثة، فإن كــان رجوعك شفقة على من خلفت وشوقا إلى من ألفت، فبيس ما ظننت بربك، وإن كان خوفا مما تلقى أمامك فبئس ما ظننت بربك. أتتوهم أن نأكــل ونــشرب وتجوع وتظما؟ أو نستظل وتضحى؟ أو نركب وتمشي على رجليك؟ كلا، لــو كنت معنا لجعلناك كما هو المعهود واحدا منا، بل ربما قدمناك على أنفسنا شفقة ومحبة، ولانتفعت دنيا وأخرى، وكان الفوز بهما أحرى، وما أظــن أن عزمــك تقوى، وإلا ما أثر فيه كلام ذلك النذل الذي كلفت بمحبته والشفقة عليه منــذ أزمان. فقد جازاك ابن عمك على ما كنت توافقه عليه مما هو مخــالف لرضــى المولى، فساق لك الله على يديه ما يناسب ما كان ساق له على يديك. ولو كنت ممن يتأسف على ما فاته من الخير لمقته أشد المقت وجفوته[3] كل الجفا، ولكنــت تنظر إليه نظر الموتور إلى ذي ثأره، والمكوي إلى موقد ناره، ولكنك عن هذا كله من الغافلين. وكأني بك تقول: لو رأيت أمورا قمت بها بعدك، ومنــافع وفيــت

(1) في ط: أعظم.
(2) في ط: سنا.
(3) في ط: لجفوته.

فيها[1] عهدك، لحمدت رجوعي. فأقول: كلا، فإن الثقة بالله والاعتماد عليه، لو جئت لحصل لك من الخير ما لا تكيفه، ولقيض الله لتلك المنافع من يقوم بها كن لم يرد أن يكون ذلك إلا كذلك. ومع هذا كله إن قمت بواحدة فلا بأس، وهي عمارة الخريبش، ولو بنفض الريش، وكثرة الكشيش[2]، لئلا يفقد ما كان يعهده قبل ذلك، وعلى كل حال:

[طويل]

فحقكَ إنشادُ مَدى الـدهرِ نادمـا لبيتٍ صحيحٍ[3] قد روتـهُ الأوائـلُ

وما كان بيني لـو لقيتـكَ سـالما وبـين الغِـنى إلا ليـالٍ قلائـلُ[4]

ولو كنتَ قـد أحببْتنـا لاتبعتَنـا وودعْتَ لكـنْ للمحـبِ دلائِـلُ

ومما يوقد نار أشجانكم، ويثير رياح أحزانكم، ويكثر تأسفكم بـه علـى مرافقتنا، وتلهفكم على عدم موافقتنا، وتقول (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا)[5]، ما أنعم الله به علينا من المشي في ركب قل ما يتيسر مثله قوة وكثرة ونجدة، خال من الأوباش، وكثرة من يغـدو في لاش، لا تكاد تسمع فيه صوت مخاصمة ولا منازعة، ولا ترى حينك فيه مراجعـة. قـد اشتمل على أهل البيوتات من الناس وذوي المروءة وأهل الحفاظ من تجار وفقهاء ورؤساء العشائر. وفي الركب نحو من عشر مؤذنين، فإذا كان الثلث الأخير مـن الليل ارتج الركب[6] بأصوات المؤذنين وقراءة القرآن. فلا شغل لنا إلا مدارسـة القرآن ومذاكرة الإخوان في علم الأديان. نختم كل ليلة ختمة من القرآن العظيم في خبائنا دون الحزب الراتب. وقد شفاني الله في هذه الطريق المباركة من جميع ما كان بي قبل ذلك من الأمراض الظاهرة والباطنة، وأعني بالباطنة الحسية، ولا نيأس من فضل الله في المعنوية، وقد أنعم الله علينا بنعم سوى ذلك لا تحصى، وأيادي لا تستقصى، فله المنة والطول، ونساله المزيد.

---

(1) في ط: بها.
(2) الكشيش: الصياح؛ وكشت البقرة: صاحت: لسان العرب: كشش.
(3) في ط: قديم.
(4) البيت للحطيئة: العقد الفريد 258:1.
(5) الفرقان: 27.
(6) ساقط من ط.

وقد حضرني حين الكتب أبيات، فلا بأس أن أداعبكم بها لعلمي بـأنكم تحبون ذلك، ولا غنى لكم إن كتبتم أن تنتخبوا أبياتا، فأردت أن أؤسس[1] لكم ما تبنون عليه، وهي هذه:

[وافر]

خَليلـيَ هـل تأمّلـتِ الـدروسُ ... وعطلَـتِ المحـابرُ والطـروسُ

وهل نَادى منـادي العلـمِ بـوس ... وفَرخَ إذ وهـتْ منـه الأسـوسُ؟

فأصـبحَ بعـد عزتـه ذلـيلا ... وبعـد نـضارة يعلـوه بـوس[2]

وهل غابـتْ سـعودُ بـني أبيـه؟ ... لـذا طلعَـتْ لِجانبـه نُحـوسُ

وهل جَمحتْ عن الميـدانِ جُـرد[3] ... عتاقٌ مـا لهـا قـرمٌ[4] يـسوسُ؟

أَجُـبنٌ قـد عـرَاهمْ أم تَـراهم ... يَخافوا النبـلَ أم غـابَ الـرئيسُ؟

ولستُ رئيـسَهُم ولكـن نفْـسي ... خلاَل مقانـب[5] الهَيْجـا تجُـوسُ

ألا فاسْـتلئِموا قومُـوا ودومُـوا ... فليس لمـثلكُمْ يُرضـى الجلـوسُ

بحقكُـمُ إذا عطلتُموهَـا ... بمـاذا يفـرحُ العبـدُ البئـيسُ؟

فـإن يـكُ هكـذا فـأبو سـعيد ... قـد أَمْتـهُ القبيلـةُ والعَـروسُ

فيقـضِي ليلَـهُ معهـا ويمـضِي ... نهـارًا معهـم بـيسَ الجلـيسُ

وعـارٌ يـا أبـا عمـروِ فِـرار ... لِمـثلكم إذا حَمِـيَ الـوطيسُ

فـآهٍ مـنْ زمـان قـد تَقـضى ... بقلبـي لا يـزالُ لـهُ رسِـيسُ[6]

---

(1) في ط: أسيس.
(2) هذا البيت متقدم على سابقه في ط.
(3) الجُرد: جمع الأجرد، وهو الفرس القصير الشعر؛ وذلك من علامات العتق والكرم: لسان العرب: جرد.
(4) القرم: القرم من الرجال: السيد المعظم. لسان العرب: قرم.
(5) المقانب: المقنب من الخيل: ما بين الثلاثين والأربعين: لسان العرب: قنب.
(6) الرسيس: رس الهوى في قلبه: دخل وثبت: لسان العرب: رسس.

وهفِـــيَ مـــن ربـــوعِ دارِســـات بُعيْــد الأُنــسِ لــيس بهــا أنــيسُ
فإن عِشنا فــسوْف تطيــبُ فيهــا لنـــا ولكـــمْ بمـــا نَرجـــو نفـــوسُ
نقـــيمُ بهـــا لأهـــلِ العلـــم سُـــوقا تَروجُ بها[1] اليواقِــتُ والفلــوس[2]
وإن متنـــا فـــذلكَ وعـــدُ صِـدق وعنـــدَ اللهِ يحتـــسَبُ النفـــيسُ

ومما أنعم الله به علي أن أعطاني من القدرة على المشي ما لم أكن أعهد من نفسي بعضه، وقد كنت تعلم حالي إن سرت إلى تزرفت[3]، فصرت اليوم أسير مرحلة كاملة، وأما نصفها أو أزيد أو أقل فكثير، ولا أشك[4] أنك لو جئت لكنت تمشي أكثر مني.

(نصيحة)[5]:

وزبدة الخبر ما قال صاحب الحِكم: "من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره"[6]. والله الله يا أخي في إصلاح نفسك، والزيادة على أمسك، وإعداد الزاد ليوم رمسك، ولا تركن إلى شيء دون الله ولا تتهمه فيما وعدك، ولا تستهن به فيما أوعدك، واتهم رأيك، واستعص سعيك. ولا يغرنك انتشار الصيت وارتفاع الجاه الدنيوي، فإن الرجل ليملأ صيته ما بين المشرق و المغرب[7] ولا يزن عند الله جناح بعوضة. ولا تمل إلى ما يجري على يديك من أمور هي في بادئ الرأي صالحات ومن الأشياء المهمات التي فيها صلاح الخلق، وهب أنها كذلك، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[8].

---

(1) في ط: به.
(2) الفلوس: جمع فِلْس: عملة.
(3) في ط: ترفت. وقد جمعت تزرفت بين قبائل شتى، أنظر: اقتفاء الأثر، ص: 28، هـ: 5.
(4) في ط: شك.
(5) زيادة من ط.
(6) الحكم، ص: 124.
(7) في ط: المغرب والمشرق.
(8) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر: صحيح البخاري 3:1114. صحيح مسلم 1:105.

وإياك والاهتمام بالرزق، والخوف من الخلق، فإنهما أصل كـــل وهـــن في الدين، وضعف في اليقين. فإن الأول يوجب الشك في المقدور، وفتور في النفس، وكل زائد في المعاش وتعب في لاش. والثاني يثبط عن كثير من الخيرات، ويحمل على قبيح المداهنات، ويستعجل به المرء هما لا ينقضي، إلى غير ذلك من المفاسد، والاعتماد على الله كاف عنهما وناف عنك معرتهما، مع التـــبرئ مـــن الحـــول والقوة. وكن أعمى وأصم عن الأمور المستقبلة، وإنما لكذلك، واجعل زمامك بيد الشرع المحمدي الواضح، فأينما قادك فانقد فإنك لا تلقى إلا الخير. ولا تظن أن أمرا أذن الشرع في فعله إيجابا يقع منه مضرة، ولا أن أمرا نهى عنه، ولو كراهة، يجلب خيرا، وما بينهما محتاج إلى بصيرة نافذة، ومن لم تكن له فالسلامة في الترك والإقلال. وهذه عجالة كتبتها وأنا متقدم أمام الركب، ولو اتسع الوقت لزدت، وفيها إن شاء الله كفاية. وعندك مما كتبناه أمثال ذلك وأفضل منه، إلا أن (هـــذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا)[1]. والخير منتظر بأحد النظر، فقد جاء الفرح وزال الترح، وظهرت البشارات على ألسنة أهل الإشارات، وقم بالحق في نادي الصدق، ونادي في النوادي، لا بلسان قالبك ورمز حالك: يا أهل الهمم، وحمالة الذمم، إياكم والعجلة، فإنها حجلة، وتثبتوا، وعلى المنهج اثبتوا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، ويخمد حربا كان مشعولا. وكن ابن وقتك، وخف من مقتـــك، واسبل الستر واكتم السر، وهلل وكبر، ولا تدبر، فإنه لا يحب ذلك منـــك، ولا يرضى به عنك، وهذا كله كلام لا يفهم، وليست له حقيقة فيستفهم، فلا تتعب نفسك في فهمه، ولا تشتغل بمدحه ولا ذمه.

ولا تنسانا من صالح دعواتك في أدبار صلواتك، خصوصا أوقات الخلوات، والخروج إلى الفلوات. سبحانك اللهم وبحمدك، أشـــهد أن لا إلـــه إلا أنـــت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وســـلم كثيرا دائما.

ومما كتبه إلي الأخ الصالح سيدي عثمان جوابا عن هذا الكتاب هذا النظم العجيب، المفتتح بما قبله من النثر الغريب، الدال على أنه أصدق محب وأخلـــص حبيب، ونصه: من أحببته حقة، واتخذته ثقة، وصيرته سميري، وجعلته أميري، لم يمله قط خاطري، ولا كل عنه ناظري، إن أمر ائتمر الفؤاد، وإن زجـــر انزجـــر

(1) المزمل: 19.

المنقاد، أبو سالم الأمجد، سيدي عبد الله بن محمد، الذي كنت له أطوع من نعله، وأتبع من ظله، ولا غرو إذ كان لي خير نديم، وألف بيني وبينه من لـه الحكم القديم، فكنا نتعاطى كؤوس خمر الوداد، ويحصل للقلوب من ذلك انتشاء خرج عن المعتاد واستمرت هذه الصبوة، ولم تعقبها سلوة، إلى أن رحل عني وبان مني، ثم كتب من بعيد، بعد أن هم أن لا يكتب لأبي سعيد، ولو فعل ما هم به لأنشدت بسببه:

[طويل]

أبا سالمٍ أنتَ المُحَب إلى قلبي　　وإن كنتُ دهري منْ عِتابكَ في حربِ
أتعرضُ حتى بالخيالِ لدى الكرَى؟　　وتبخلُ حتى بالسلامِ مع الركبِ؟

لكنه شرفني بخطابه، ونوه باسمي في كتابه، فقلت وقد قبَّلته بعدما تصفحته:

[بسيط]

نفْسي وأهلِي فدًى لخيرِ مكتُوب　　جاءَ الرسولُ بهِ من عندِ محبُوبِ
مبشرًا بضياءِ الوصْلِ بعد دُجى　　هَجري وكلي لهُ هَش لِترحيبِ
يا ما أُحَيسن ذاك اللفظ آنسَني　　وما أُميلحَهُ أَحدثَ تطريبِ
فاقَ الشقيقَ كما مُهديه عنْدي وقد　　فاقَ الشقيقَ وذا الأدْنى وتقْريبِ
نزهتُ طرْفيَ في روضِ محاسنهِ　　فجادَ شوقا بدمعٍ منهُ مصبُوبِ
وعادَ فكريَ مسلوبًا بفكرتهِ　　وكانَ قبلُ صحيحا غيرَ مسْلوبِ
يحسبُني الغمْرُ[1] إن يعجمْ أخا سَقم　　كلا فلستُ بهِ ولا بمطبُوبِ
وإنما كنتُ ذا نعماءِ وصلٍ وما　　ألِفتُ بؤْسَ الجفا وبُعد مصحوبِ
وخلتُ نفسيَ من أهلِ النهُوضِ إلى　　تصْدِير ثم بدا في الوقتِ تذْنيب
وبعثُ البيْنَ من خِلي فَعذبني　　آلامُهُ في حَشاي أي تعذيبِ

(1) الغمر: صبي غمْر: لم يجرب الأمور: لسان العرب: غمر.

أحسَسْتُ من جسدِي إذ ذاك بعد ضَنى　　　يا أيها الغمرُ مِز[1] وامْضِ لتجريـــبِ

يا سيدًا فـــارقَ الأوطـــانَ مُبتعـــدا　　　صَيَّرْتَ نازلهــا يُــدعى بمكـــروبِ

خلفتَ عَبدا حليفَ الشجو قِرْن أســى　　　يا ليتَني معكـــم قَرعـــتُ ظُنْبـــوبي[2]

أقسمتُ بالود لو كنـــتُ رفـــيقكمْ　　　لزالَ كَـــربي وذاك عـــين مطلُـــوبِ

علـــيكُم مـــن ســـلامِ الله أطيبُـــهُ　　　يا ذا الذي وصلهُ فـــوْزٌ بمرغـــوبِ

وكتب إلي أيضا، أطال الله بقاءه، وأدام في مراقي المجد ارتقاءه، جوابا عـــن قصيدتي السينية بقصيدة بارعة، ولُمصارعها في نادي البلاغة صارعة، إن لم تكـــن أفضل منها فلم تقصر عنها، وقبلها أبيات تسحر الألباب، ونثر أخذ من الفصاحة باللباب، ونص ذلك:

[طويل]

أَمَنْ لسِواهُ النكرُ وهْو لـــهُ العُـــرْفُ　　　وعمدَتُنا من لا يسُوغُ لـــه الحـــذْفُ

ضمِيريَ مبْنيٌّ علـــى ضَـــم ودكُـــمْ　　　ويعْجزُ عن إعرابِه النطقُ والوصـــفُ

وكان مدى الأزْمانِ عندي مُؤكـــدا　　　ولا بَدلٌ يعرُوهُ هل منكُمُ العطْـــفُ

إذا انصرفَتْ أسماءُ أهـــلِ ودادكُـــم　　　فعثمانُ في الأسماءِ ليسَ لـــه صـــرفُ

السري[3] ابن السري، العبقري الفري[4]، جالب المسرات، وطالب المبرات، وسالب المضرات، وعائب المعرات، خير أنيس في الوحشة، وأفضل جليس عنـــد الدهشة[5]، مفيد العلوم، ومبيد الهموم، سيدي أبو سالم، أبقاه الله والزمان له سالم. بعد السلام التام، المعرف بالألف واللام، يعم ذلك المقام، المعظـــم في الترحـــال والمقام، فإذا سألت عن عروس الدروس، واستخبرت عن المحـــابر والطـــروس[6]،

(1) مز: ماز الشيء ميزا: فصل بعضه عن بعض: لسان العرب: ميز.
(2) الظنبوب: مسمار يكون في جبة السنان، وقرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيأ له: لسان العرب:ظنب.
(3) السري: الشريف: لسان العرب: سرا.
(4) الفري: يقال فلان يفري الفري؛ إذا كان يأتي بالعجب في عمله: لسان العرب: فرا.
(5) في الأصل: الدهشفة، والدهش ذهاب العقل من الفزع: لسان العرب: دهش.
(6) الطروس: جمع طرس؛ وهي الصحيفة: لسان العرب: طرس.

واستفهمت عن العلوم هل وهي معقلها، وعن شواردها[1] هل في القوم من يعقلها؟ فاسمع الجواب المنوط إن شاء الله بالصواب:

[وافر]

نَعـم شـعثَتْ بُعيـدَكمُ عـرُوس ... دَروسٌ والحـداد لهـا لبـوسُ
تبـدَّل زَينُهـا المعهـودُ شَـيْنا[2] ... وأعقـبَ تلكـمُ النعمـاءَ بـوسُ
طـوتْ ثـوبَ السـرورِ وجنبتْنـا ... ودامَ لهـا التجنـبُ والعبـوسُ
فلـمْ تُـبح الوصـالَ لمبتغِيهـا ... ولم يحـصُل لعاشِـقها المسـيسُ
أراوِدُهـا[3] لِتعطـفَ ثم عَـزّتْ ... فَذا البُؤسِي[4] من عطـف يـؤوسُ
وحُـق لهـا التمنـعُ في حِماهـا ... فلـيسَ بكفئِهـا نَـذلٌ خـسيسُ
وكيف يـسُومها الأذنـابُ مِثلـي ... ومَأْلفُهـا مثـالكُمُ الـرؤوس
وعنـدَ إيـابكُم و[5] بحـوْلِ رَبي ... يكـونُ بهـا التمَتـعُ والجلـوسُ
ويذهبُ ما بهـا مـن بـؤْسٍ بُعْـد ... وفي حُللِ الجمـالِ لكـم تمِـيسُ
وعـن حـرْبِ المحـابرِ إنْ تـسَلني ... فما في القومِ بعـدك مـنْ يـسوسُ
ولا مُـستلئِم منـا إليهَـا ... وقد وُضِـع الصوارمُ والتـروسُ
فكـمْ رُمنـا رياضَـةَ خيـلِ درس ... فمـا مـن خيلِنـا إلا شُـموسُ
وكـم قُـدنا لهـا أجنـادَ فكْـر ... فما انقـادتْ لنـا وأبَـتْ نفـوسُ
وكـم ناديـتُ يـالَ أوْس ذهْـني ... فقالَ: جبنْـتَ إذ غـابَ الـرئيسُ
وأُفْـقُ العِلـم أظلـمَ إذ تـوارتْ ... لهُ مـن بَعْـد شخـصكُمُ نُفـوسُ

(1) في ط: شرادها.
(2) الشين: خلاف الزين: لسان العرب: شين.
(3) في ط: أرادوها.
(4) البؤسي: البائس والمسكين: لسان العرب: باس.
(5) ساقط من ط.

ومعقِلُ درسِـنا الّـذ قـد بنيـتُم   هوتْ منهُ العـلا ووَهـتْ أسـوسُ
وذلك حـينَ جـا الإهمـالُ مِنـا   وفي يـدهِ المعـاولُ والفـؤوسُ
وعند صباحِ وجهـكَ كُـل سَـعد   يـبينُ وتنْجلـي عنـا النحُـوسُ
وتُصلحُ ما وهـى مـن أُس عِلـم   وتنـشرُ في مجالـسهِ الطـروسُ
وتلـكَ مواسِـمُ التعلـيم[1] حقـا   تُـدارُ لهـا برحبتنـا كـؤوسُ
وكيفَ وأنـت في ذا القُطـرِ بحْـر   ومن فَيـضانِكم يُـروى الجلـيسُ
فمـا نيـلٌ لـذاك ومـا فُـرات   وما المعزى لطنجةَ[2] ما السويس[3]؟
فتلـك ببعْـضِها مـاءٌ أُجـاج   لـشاربه الكَـزازَةُ[4] والعُبـوسُ
وبحـرُ ذكائِـكَ الزخـارِ فيـه   كنـوزُ العلـمِ والـدر النفـيسُ
وكسْبُ يمينِ حِجـرك عـينُ علـم   وغـيركَ عنـدهُ منـهُ الفلـوسُ
بقيـتَ بقـاء دهـركَ لا تُبـارى   أعُمـدتنا ومـنْ هـو لِـي أنـيسُ
عليـك تحيـةٌ مـا قـال صَـب   نَعـم شـعثَتْ بُعيـدكُم عَـروسُ

ومن جملة كتاب كتبه صاحبنا الأديب، الفقيه النبيه (الأريب)[5]، سيدي أبو زيد عبد الرحمن بن الحسن، وكان معنا في رفقتنا إلى الفقيه العلامة سيدي عثمان بن علي، هذه القصيدة الطائية يلومه على التخلف عنا، ويثير أشجانه على ما فاته من رفقتنا، وهي هذه:

[طويل]

---

(1) في ط: التعليق.
(2) طنجة: مدينة بالمغرب قديمة على شاطئ بحر الزقاق (الأبيض المتوسط): معجم البلدان: طنجة..
(3) السويس: بئر بطريق مصر على ثلاثة اميال من مدينة القلزم، ومن أعاجيبها أن معزها مرسلة في السكك... وهي سمان فائقة السمن، ومن أمثالهم: أكل لحم التيس وشرب ماء السويس مع العقل ليس: معجم البلدان: السويس.
(4) الكزازة: اليبس والانقباض: لسان العرب: كزز.
(5) زيادة من ط.

سلامٌ على الإخوانِ والصحْبِ والرهطِ يفوحُ شـــذاهُ بالعنـــابرِ والقُـــسْط[1]
رُزِقنـــا وإيـــاكم ســـلامةَ دِيننـــا ودُنيا من الأهْوالِ والمكرِ والـــسخطِ
فإنْ تسألوا عن حالِنا بَعـــد بُعْـــدكم فإنا بفـــضلِ اللهِ في غايَـــةِ البَـــسْطِ
وصـــحةِ جـــسمٍ واغتنـــامِ قـــراءة بلا كلفةٍ ما بينَ صحبي ولا شَـــرْطِ
تَركنا[2] الهمومَ كلها مـــن وَرائنـــا فلا شغْل غير الرفْعِ والسوْقِ والحَط
ففي مثلِ هذا الحالِ ذو الجِد غَـــابط وخِدْن[3] التوَاني دائِما هو في خَـــبْطِ
كـــسيدِنا عُثمـــان أثْـــنى عنانَـــهُ لملوية[4] الأثْلاجِ والفتـــكِ والقحْـــطِ
فإنْ يكُ قِدما قـــد أَصـــابَ فإنـــه بإجماعِ أهْلِ الحـــق في هـــذه مخْـــطِ
على أنـــهُ يُـــدمي البَنـــانَ ندامَـــة لما فاتَهُ قطعـــا إذا مـــا رأى خَـــط
فليتك لم ترجعْ وليتَ ابـــنَ عمكـــم أبا مالكٍ ما كانَ في ذلـــك الغَـــوْطِ
فإن لقـــاءَ الأُسْـــد غايَتُهـــا القنَـــا فلا[5] نفْع مِن لُقياهُ في ذلكَ الـــشوْطِ
لقد عاقَكُم عـــن أي كـــرٍ فحقـــهُ على ما جنَى الهجْرانُ والضربُ بالـــسوطِ
تـــشجعتّم قبـــلَ اللقـــاءِ وعنـــدما أتاكَ أتاكَ الجُـــبن كالفـــأرِ والقِـــط
تألمَ كـــل الـــصحْبِ لمـــا أتيتـــهُم وأخبرتَهم عما لقيتَ مـــن الـــضغْطِ
وقالوا جميعا: ليتـــهُ كـــان واصِـــلا فَيُفجا عنهُ ما يلاقـــي مـــن غَـــطِّ[6]
أَرَدكَ قولُ الإفْكِ و الـــزورِ بعـــدمَا عزمتَ فهذا العزمُ خالٍ من الـــربْطِ
وآثرتَ مـــن بَعْـــد المـــودةِ قُـــربَهم وما جُدْتَ حتى بالكتابـــةِ في خَـــط

(1) القسط: عود يتبخر به: لسان العرب: قسط.
(2) في ط: تركت.
(3) الخدن: الصديق: لسان العرب: خدن.
(4) ملوية: الملاوي: الثنايا الملتوية التي لا تستقيم: لسان العرب: لوي.
(5) الفاء ساقطة من ط.
(6) الغط: العصر الشديد والكبس: لسان العرب: غطط.

فكَمْ عالِمٍ قد ضمهُ الركـــبُ عامنـــا | فكُل يُوفي الكيلَ في العلم بالقسْ طِ
أَجَلـــهم مُبــدي العلـــوم مُفيـــدنا | أبو سالم مهما تـــسَلْ فـــضْلَهُ يُعـــطِ
خُلاصةُ أبنـــاءِ الزمـــانِ جَـــوادهم | فأكْرِم بهِ من عَـــالم عامـــلٍ مُعْـــطِ
فلا زالَ ذا فضلٍ عظـــيم وفيـــضهُ | عميمٌ على من جاءَ للعلم يَـــسْتعطِ
ولا زالَ طوْد العلم فخمًـــا مُفخمـــا | وبحرًا مُحيطا واسعَ القَعْرِ والـــشط
وفي الركبِ أيضا عـــالمٌ ذو نباهَـــة | يجيبُكَ في كـــل العلـــومِ ولا يُـــبْطِ
وذا أحمدُ يُدعى الخطيـــبُ[1] مُـــنظم | له الخيرُ من كل الفضائلِ في خَـــيْطِ
به وبشيْخي قـــد سَـــلوْت أَحِـــبتِي | وصرتُ وإنْ شطتْ بِيَ الدارُ في رهـــطِ
إذا سُـــمطَتْ دُر المعـــالِي قـــلادَةً | فذلك بالإطلاقِ واســـطةُ الـــسمطِ
ولو كنتَ معهم كنتَ تِلْوهم ومـــا | أراكَ وإنْ غِبـــتَ عنـــهم بمُـــنْحط
وإنـــا لنَرْجـــو الله يجمـــعُ شملَنَـــا | بكم عن قريبِ في هناءِ وفي بَـــسْط
وإني وإنْ شَطتْ[2] بِيَ الدارُ عـــنكمُ | بجسمي فَرُوحي عنكمْ غيرُ مُـــشْتَط

وكتب الفقيه الأجل سيدي عثمان بن علي جوابا له عن هذه القصيدة مـــا نصه:

النفر الغيرُ المنفر، ومن السير معهم للذنوب مكفر، والتخلف عنهم من جملة الهفوات، والتربص دونهم معدود من الجفوات، إخوان الود الماكـــث الخـــالص، وأخدان العهد الغير الناكث ولا الناقص، من حازوا خـــصال الكمـــال وحلـــوا بسماء[3] المجد لفضائل شتى كحلولهم بأرض نجد، سيدي أبو سالم وإخوته، وأبـــو زيد وأسرته، أمد الله الجميع بتوفيقه بالمصطفى ورفيقه:

[طويل]

(1) أحمد الخطيب المراكشي: تقدمت ترجمته.
(2) الشطاط: البعد، وشطت الدار: بعدت: لسان العرب: شطط.
(3) في ط: سماء.

مِن الهائِمِ الحَيْرانِ من ليسَ ذا ضَبْط	تحيتُهُ تُثْرى علـــى ذلـــك الــرهْطِ
عصابةُ أُنسِ والأُلى ســكنوا الحــشا	وإنْ كان كل منهم عنـــهُ ذا شَـــط
تَخِــذتُهمُ قِــدْما أخــلاءُ مُهْجــتي	وهُم خُلصائِي في رِضَاهم وفي سُخْطِ
ألفتُهُم دونَ الجفَـا مــذْ عرَفتــهُم	وهُم في بني الدنْيا عِمَادي وهم قِـسْطِ
وإني مُعَظــمٌ عظــيمَ جنــابِهم	وقَــدْرهم لــدَيَّ لــيسَ بِمُــنحَط
أخُص بأضعافِ التحيــةِ مــن لــهُ	بقلبيَ ودٌ كَلَّ عن وصــفِهِ قَــط[1]
ذخِــيرةُ أربــابِ المحــابرِ كلــهم	أبو سالمٍ لازالَ في الخــيرِ ذا بــسْطِ
منيــلُ ذَوِي عَــي وســائِلَه وإنْ	يرُوموا قريضًا فهْوَ أيضا[2] له معْــطِ
وأهْدي ثنــاءً ســاطِعا لمقــامِ مــن	بقوسِ الأسى رمَى فؤادِي فلم يُخْطِ
فقيــه نبيــهٌ لــينٌ هــيْنٌ جانِــب	صبورٌ حليمٌ في المعارفِ ذو ضَــبطِ
أبــو زيــدِنا دُمــتَ بنــانُ يمينــهِ	تخُط طروسَ الأصْدِقا أحسَنَ الخــط
أخالُ أبــا زيــدٍ عطوفــا قُبَيْــل ذا	إلى أن رمى حشْوَ الجوانحِ بالــسوْطِ
أصبْتَ أبا زيــدٍ برمْيِــك مقْتَلــي	وإنْ كان ذاك الرميُ منكَ على شَحْطِ
وكيفَ ومعكم أبــو حمْــزَةَ الــذي	تجيءُ القوافي إن دَعاهــا ولا تُــبْطِ
عرفناكَ يا سُــوَيْد[3] منظُومــهِ وإنْ	تلفعْتَ من خَط بــذالكُمُ المَــرْط[4]
وإن الذي أهدَيْتَ يا خيرَ صــاحب	لقد فاقَ في حسْنٍ لآلــئٍ في سِــمْطِ
أيا منْ لــهُ أُتــيح قُــربٌ ووَصْــلةٌ	وخَلوا أخا الدنا وذي النأْيِ في خَبْطِ
وحَقكُــمْ لــيسَ المــرادُ فِــراقُكم	ولا مُنيتي في ذا التخلــفِ والــشطِّ

---

(1) القط: القطع عرضا، ومنه قط القلم كلسان العرب: قطط-، والمقصود هنا القلم عموما.
(2) في ط: قريضًا منهُ فهْوَ له معْــطِ.
(3) سويد: تصغير الترخيم من أسويد؛ وهو تصغير أسود: لسان العرب: سود.
(4) المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان: لسان العرب: مرط.

ولوْ أن لي الخِيارُ لاخترتُ جمعكُــمْ وسَيْرتي في البيدَاءِ مع ذلك الــرهْطِ
وألزمْتُ نفسي حَرْفكم يــا أحبتِــي كما الحرفُ ذو الإعجامِ يلزمُ بالنقْطِ
ولكن قــضاءَ الله للعبــدِ غالــب فليس لهُ إبــرامُ عقــدٍ ولا شــرطِ
عليكُم أُهَيْــلَ الــود طُــرا تحيــة من الهائِم الحيرانِ منْ ليسَ ذا ضبطِ

ومما كتبه أيضا الأخ الصالح سيدي عثمان مخاطبا لأخينا سيدي أبي بكــر، متشوقا إليه لما بينهما من الألفة والمحبة أبيات مفتتحة بنثر رائق، مشتمل على معنى لائق، ونصها:

من العائق عن الرفقة، الحاصل في أعظم ربقة، المبتلي بالبعاد، وإن لم يكن له من مراد، المكابد مشاق الأسف المؤدية لولا التجلد للتلــف، المقاســي الروعــة والقسوة واللوعة والسلوة، أبي عمرو عثمان، رزقه الله الأمن والأمان، إلى حبيبــه الأنجد، سيدي أبي بكر بن محمد:

[وافر]

أبــا بَكــرِ أبَــى كــرْبي يــزولُ وهذا الحــزنُ بعــدكَ فيــهِ طــولُ
وعيْشِيَ من ورائِــك غــيرُ صَــاف ونــومي خــائني منــه الثقيــلُ
ولُــبيَ حــارَ مُــذ راحَ المطايــا بشخــصِكم وبالجــسْمِ الــذبولُ
رحلتَ وذا رحيلكَ كــان حِــسا ومعنًــى في حــشَاي لــهُ الــنزولُ
ومِن عَجــب مقامُــك في فُــؤادي ومَــعْ هــذا فعنــكَ أنــا سَــؤولُ
حُبستُ وكــان حظكــمُ انطلاقــا كأنــك مالــكٌ وأنــا عَقيــلُ
أبــا بكــرِ أبى القــدَرُ انتِظــامي بــسلكِكُمُ وحُــق لِــي العَويــلُ
أبا بكــرِ ذهابُــكَ عــيْنُ حتْفِــي ونفسُ الفــتحِ لي منــكَ القبــولُ
أبــا بكــرِ بعــادُكمُ عَــسير وقــربُكمُ مَــآرب لي وسُــولُ
أبــا بكــرِ لقــاؤكَ يــوْمُ عِيــد مــتى لقيــاكُمُ ومــتى الوصُــول؟

عليــــكَ تحيــــةٌ مــــا قــــالَ خِــــل   أبــــا بكــــرٍ بكــــم كــــرْبي يَــــزولُ

ومما كتبته لأهل دارنا ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، (و)[1] صلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه (وسلم تسليما)[2]. من العبــد الفقــير إلى الله تعــالى، المتمسك بأذيال أهل الله حالا ومآلا، العبد الفقير إلى الله تعالى أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي وسائر إخوته، أسبل الله عليهم كنيف[3] ستره وسابغ رحمته، إلى من خلفنا بخير في أهلينا من إخواننا وعشيرتنا، خصوصا عمنا الأكبر، وخليفة والدنا إذا غاب وإذا حضر، من يحق له علينا الإجلال والإكبار، ســيدي عبد الجبار بن أبي بكر، أعانه الله على ما فيه أقامه، وأسبل عليه كنيــف ســتره وأدامه، وأخونا الكبير ومعلمنا الأثير، سيدي عبد الكريم[4]، والأخ الأمجد سيدي أحمد، والأخ الأسعد سيدي محمد، وابن العم الهمام، سيدي عبد السلام، والأخ الشقيق، البر الرفيق، عبد الخالق، وابن العم الأرضى سيدي أحمد بن عبد الله، وابن العم المجتهد سيدي أبو القاسم وأولاده، وعمنا الأجل سيدي يوســف وســائر أولاده، سلام الله الأتم، ورضوانه الأعم، وبركاته الشاملة، ونعمه المتواصلة، يغشى كل ذلك المبارك ناديكم، ليراوحكم وسميه ووليه[5] ويغاديكم.

أما بعد، فنحن والحمد لله كثيرا، والشكر له غزيرا، على أضعاف ما عودنا ربنا من البركات، وعهدناه من الخيرات والمسرات، لم تزل ألطافه تسايرنا، وآلاؤه تسامرنا، فطيبوا أنفسا من قبلنا، فنحن في حمى رب كريم رحيم، يكون لنا حيث لا نكون، ويرعانا في كل حركة وسكون، ولا ينسانا وإن نسيناه، ولا يهملنا وإن أهملنا ما به أمر وتركناه، وما نتوقع من كرمه أعظم، وما نامله أفخم. وقد كتبنا لكم قبل هذا كتابا من بلد[6] توات فأغنى عن كتابة ما قبله من الأخبار. وأما ما بعده فقد رحلنا منها سابع جمادى الأولى ونزلنا ببلاد أوكرت بعد ثلاث، وأقمنا بها يومين، وبدلنا بها جملين، وزدنا نحوا من عشرين مثقالا، وارتحلنا منها فسرنا في

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: طنف.
(4) عبد الكريم بن محمد العياشي: أكبر أبناء الشيخ محمد بن أبي بكر، استجاز له أخوه الأصغر أبو سالم، له تأليف سماه: أنوار السعادة في الصلاة على صاحب الشفاعة: الجركة الفكرية بالمغرب على عهد السعديين 2: 508.
(5) الوسمي: مطر أول الربيع. والولي: المطر في صميم الشتاء: لسان العرب: وسم.
(6) في ط: بلاد.

بلاد لا يعرف لها شبيه فتشبه، ولا يغفل فيها القلب عن الاعتبار فينبه، ذات رمال ومهامه ومعاطش ومهاب رياح. وبلغنا القليعة بعد اثني عشر مرحلة، وهي اسم على غير مسمى. ومنها قطعنا الحماد الذي تستمد منه الحمادات لطوله وعرضه وخشونته، لولا أن الله تدارك به بالكلإ لضاع الرحل، وهلك الركب والرجل، وقد ضاع لنا فيه جمل هو من أفضل إبلنا فيما نرى، ولقينا في كل ذلك من البرد شدة لم نعهد مثلها في بلادنا؛

[طويل]

بلى إنما تعفو الكُلُوم وإنما يُوكل بالأدنى وإن جَل ما يمْضي[1]

ثم بلغنا مدينة واركلا بعد اثني عشر مرحلة أخرى، وصادفنا فيه قوافل الأعراب جاءت تمتار تمرا، وقدموا بغنم كثير، وسمن غزير. فاشترى الناس من ذلك فوق الحاجة وتنعموا فيه أربع ليال. ثم ارتحلنا منه تاسع جمادى الثانية، وسلكنا في أرض مرملة، وبلغنا تكرت قاعدة وادي ريغ ومحل أمرائها، وأقمنا بها أياما ثلاثة. ومن هنالك أخذت في شراء القمح لفراغ الزاد الذي قدمنا به من عندكم، فوجدناها لا بأس بها في الأسعار، فالتمر رخيص جدا فيها وفي واركلا أيضا، والزرع تسع آصع[2] بريال. ثم ارتحلنا منها وقطعنا الرمال التي تضرب بكثرتها الأمثال، وهي رمال سوى أن الله لطف بنا لطفا لا تكيفه العقول، وذلك أنا مطرنا في تكرت بفضل الله ورحمته لا بنوء الحاجوز، فتلبد الرمل حتى لا يكاد يظهر فيه موقع القدم، فقطعناها على أحسن حال ونزلنا بلاد سف بعد أربع، واشترينا منها ثلاثة من الإبل لظهور الضعف في إبلنا والثقل بالزائد في أحمالها.

وقد استفدت سفرا من نوازل البرزلي، وهو الأخير بثمن بخس. واستفدت أيضا مجموعا من تكرت اغتبطت به كثيرا، فيه ابن الشاط[3] على الفروق[4] من تأليف الفقيه راشد[1] في الحلال والحرام.

---

(1) البيت لأبي خراش الهذلي: العقد الفريد 42:3.
(2) آصع: جمع صاع، وهو مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد: لسان العرب: صوع.
(3) قاسم بن عبد الله بن محمد بن الشاط السبتي، فقيه مصنف، له تآليف منها: أنوار البروق في تعقب مسائل الفروق، وتحفة الرائض في علم الفرائض، توفي سنة 723 هـ: لقط الفرائد، ص: 179. شجرة النور الزكية 311:2.
(4) أنوار البروق في أنواء الفروق لشهاب الدين أحمد القرافي جمع فيه خمسمائة واربعين قاعدة من القواعد الفقهية: كشف الظنون 186:1.

وعلى كل حال فنعم الله علينا قد غمرت كل مشقة، وقصرت عن[2] كل شقة، وكلنا أصاب هذه الطريق بشُهد العافية، واستسهلنا وعرها وطولها بالأمان من كل ناحية، نسأل الله الدوام ومتابعة الإنعام. ثم وصلنا إلى نفزاوة يوم الإثنين أول يوم من رجب. ومنها سرنا إلى عرام خمسة أيام، ووجدنا الركب التونسي قد جاز أمامنا.

وأسلم سلاما تاما على ابني أختنا محمد بن محمد بن عبد الجبار[3] ومحمد بن يوسف[4] وأترابهما من أبناء إخواننا وأعمامنا. وأؤكد عليهما في عمارة المسجد وخدمة العلم فإن الله كافيهما بذلك كل مهم. وإياكما والتسويف والاغترار، والركون إلى الأغيار، فإن ذلك مما يذهب بهجة العلم ونوره، ويكسف بدوره، فإن العلم هو نور القلب، والمسجد هو روح البلد، فإن حلت فيه الحياة سرت في سائر الجسد. وأؤكد على أخينا سيدي محمد وأخينا سيدي أحمد أن ينبهاهما ويشدا من عضدهما في عمارة المساجد، ولا تنسونا من صالح دعائكم عقب التدريس.

وأؤكد على محمد أن يجعل ذلك كالواجب عليه إثر القراءة قضاء لبعض ما لنا من الحق. وأوصيك (وإياي)[5] بتقوى الله ومراقبته وإخلاص العمل[6]، يكفي القليل منها. ولا تتكلف الأوراد والنوافل، فإن وردك التعليم والتعلم والمطالعة. ولا تخل نفسك من مطالعة كتب الشاذلية وغيرهم من أئمة التصوف ولو ورقة عند النوم أو قبله، لينام الإنسان وقلبه عامر بذكر الله ومحبته. ولا تتهيب شيئا من العلوم أن تقراه أو تقرئه. وإن لم تجد من يطلب ذلك منك فاقرأ لنفسك. واجتهد في الفقه وفي الأصول والبيان ومطالعة الكتب والحواشي ولو بدون إقراء. واستمد العون من الله يمدك، واسترشده يرشدك، وشاهده في كل أحوالك، يكن معك بلطفه في حالك ومآلك. وليكن جل اعتنائك ومجاهدتك في حفظ لسانك، فإن

---

(1) راشد بن أبي راشد، فقيه مصنف، له كتاب الحلال والحرام وحاشية على المدونة، توفي بفاس سنة 675 هـ: معجم المؤلفين 4:49.
(2) ساقط من ط.
(3)أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الجبار، فقيه راوية، توفي سنة 1071 هـ: نشر المثاني 2:139.
(4) محمد بن يوسف أعياش، قاضي الزاوية العياشية، ولد عم أبي سالم، شارك أبا سالم ي شيوخه، توفي عام 1111 هـ: التقاط الدرر، ص: 280.
(5) زيادة من ط.
(6) في ط: الأعمال.

الله قد كفاك ما سواه من الجوارح. واعظم ما تستعين به على ذلك، بعد اللجإ إلى الله، استحضار عظمة الله ومراقبته، مع مطالعة محل ذلك من كتابَي الإحيـــاء [1] والقوت[2].

والله يتولاك ويرعاك، ولا يخيب مسعاك، واستعن فيما ذكرنا من القـــراءة بالأخ الصالح سيدي عثمان، إن سلم من حبائل الشيطان وغوائل السلطان. وإنا لنرجو من كرم الله أن يجعل اهتمامه بالله حتى يكفيه كل هم دونه، فإن علامـــة إعراض الله عن عبده إعراض العبد عنه. ولا تأنف من القراءة عليه إن أنف هو من القراءة عليك، فكل منكما إن شاء الله أهل لأن يقرأ على الآخر ويقرئه، ولا فرق إذا حسنت النية.

أخوكم الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، كان الله له، آمين.

[طويل]

على أسْرَتي أزكَى ســلامٍ وأطيبُــهْ	وأحلاهُ في قلـــبي مــذَاقا وأعذبُــهْ
وأكمَلُ ما يرجـــو الفـــتى لحبيبــهِ	من الله في دُنيـــا وأخْـــرى ويطلبُــهْ
أخص به الإخوانَ كُلا ومـــنْ غـــدا	مدى دهرِهِ والحُـــب في الله مركبُــهْ
ومُنـــوا علينـــا بالـــدعا فَـــدُعاؤكم	أجَـــل دعـــاءٍ نرتجيـــهِ وأقربُـــهْ
وإنا لنـــدعو الله يـــصلحُ حـــالكُم	وليسَ جِزافا مـــا نقـــولُ ونكتبُـــهُ

---

(1) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.
(2) الإشارة هنا إلى كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي.

ذكر الرحيل[1] من مدينة طرابلس
حماها الله (بمنه وكرمه)[2]

وكان رحيلنا منها يوم السبت السادس والعشرين من رجب، وصادف ذلك خروج سفن الأمير بقصد جهاد أعداء الدين، وهي ست سفن فيها نحو من ألفي مقاتل خرجت مجتمعة، وذلك شأنهم إذا خرجوا للجهاد إرهابا للعدو. وكان يوم خروجها وخروج الحجاج يوما مشهودا. وتفاءل الناس بذلك لحصول الغنيمة، فكان[3] الأمر كذلك والحمد لله حق حمده. وفي الليلة التي خرجنا صبيحتها تمكن الحجاج الذين يبيتون في الركب ويحرسون الإبل والأمتعة من سارق دخل عليهم ليلا في خباء، وأوثقوه إلى الصباح، فجاء أصحاب الأمير فعرفوه وأخذوه، وكان مشهورا بالتلصص عندهم، معروفا بالسرقة، طالما راموا القبض عليه فلم يتمكنوا منه إلى أن أخذه الله على أيدي الحجاج. فأمر الأمير بخنقه فخنق على باب المدينة، وترك هناك معلقا فكان نكالا لغيره.

وخارج مدينة طرابلس وسائر عمالتها أكثر البلاد سرقة، وأعرابها أعلم الناس باستعمال الحيل في ذلك، مع إقدام وهجوم بالليل إن تمكنوا من ذلك. يبيت الحجاج فيها طول ليلهم في ضجيج وعجيج، وصياح ونباح، وإيقاد نار خارج المنازل، وضرب بالمكاحل[4]. ومع ذلك قل ما سلمت لهم ليلة من سرقة شيء، (والله من ورائهم محيط)[5]، والملتجي بجنابه محفوظ.

---

(1) في ط: رحيلنا.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: وكان.
(4) المكاحل: جمع مكحلة، وهي الوعاء (لسان العرب: كحل)، وهي هنا بمعنى البندقية (عامية مغربية)، ولعلها سميت بذلك لاحتوائها البارود.
(5) البروج: 20.

ولما خرجنا على باب المدينة منعنا البوابون من الخروج طلبا للمكس[1] زعما منهم أن معنا بعض أحمال ليست للحجاج. وقد صدقوا في زعمهم، إلا أنا أنكرنا ذلك صونا لمن التجأ إلينا من بعض من تعلق بنا من أهل البلد. ثم دخلت أنا وأمير الركب إلى باشة البلد فكلمناه في ذلك، فأحسن وأفضل في المقال، وصدق ذلك حسن الفعال، فبعث بعض خدامه إلى البواب أن لا يعترض[2] للحجاج فيما أرادوا إخراجه، وذلك دأبه مع الحجاج، جازاه الله خيرا، ألا يهتك لهم حرمة ولا يضيم لهم جانبا. وكانت العادة أن من اشتد عليه المغرم من الرعية وأراد الخروج من البلد والفرار لا يتركونه إلا إن كان مع الركب، فلا يتعرض له فيذهب مع الركب، منهم من يكون في بعض الأحيان أضعافه. فلما دخلنا على الباشة تلطف في المقال وقال لأمير الركب: إن هذا بلدكم، وأنتم لا تحبون خلاءها، فنطلب منكم أن لا تتركوا واحدا من هؤلاء الفارين يذهب معكم، فإن ذلك يشق علينا ولا نريد التعرض لهم معكم. فقال له أمير الركب: نحن لا نمنع أحدا التجأ إلى حرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فمن منعتموه قبل إن يصل إلينا فذاك، وإلا فلا يمكننا ذلك. وخرج معنا بقصد الوداع أخونا سيدي محمد ابن محبنا سيدي أحمد بن عيسى[3] وبات معنا ليلة. وكانت عادة الأركاب المبيت بتاجورا ويضيفونهم ضيافة حسنة. ولما تأخر الركب هذه السنة عن عادته استعجلوا السير و لم يبيتوا بتاجورا، وجاوزوها بأميال إلى موضع يقال له سدرات العشار على ساحل البحر. ثم ارتحلنا منه ومررنا بموضع يقال له وادي الرمل[4]، وهو وادي مخصب من أعلاه، فيه مزارع، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسواحلها أيام الربيع. وربما أخرج إليه الحجاج إبلهم مع رعاتها إن طالت إقامتهم بطرابلس. ثم مررنا في يومنا أيضا بوادي المسيد، وهو مثل الذي قبله أو أخصب منه، وماؤه غزير لا ينقطع صيفا ولا شتاء، ويكثر قي أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها. و لم نبت حتى تجاوزنا هذا الوادي بأميال كثيرة، ووجدت تلك البلاد مخصبة غاية. وفي تلك المرحلة تعرفنا برجل قدم معنا في الركب زعم أنه شريف، وأنه من أهل

(1) المكس: الجباية: لسان العرب: مكس.
(2) في ط: يتعرض.
(3) أحمد بن عيسى اليربوعي الطرابلسي، تولى قضاء طرابلس بعد وفاة والده، توفي عام 1047: التقاط الدرر، ص: 159. نشر المثاني 2:139.
(4) وادي الرمل: واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف، ومبدؤه من الجبل قاطعا إلى البحر: رحلة التيجاني، ص: 310.

المدينة المشرفة وأحد بوابي باب الرحمة من أبواب الحرم الشريف، وزعم أن الشريف زيد أمير الحرمين بعثه بكتاب إلى تونس لجمع أوقاف الحرمين التي بها، وعامله أمير تونس حمودا بإحسان غزير، وقدم مع ركب أهل تونس، فلما وصل طرابلس غضب عليهم زعما منه أنهم لم يقوموا بحقه، فجاء لركبنا فعظمناه غاية التعظيم لنسبه[1] ووطنه الذي انتسب إليه، وكانت فيه دعابة، فحمله الناس على ما هو عليه، ولما وصلنا إلى مصر تبين كذبه فيما زعم أنه من أهل المدينة. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا تحت وادي ينوت، وهو واد ينزل من جبال مسلاتة وعليه مزارع، إلا أن ماءه قليل يستقي منه الركب إن اضطرهم العطش إليه أيام الحر، وهو على يمين الذاهب، داخلا في أصل الجبل قليلا.

غريبة:

أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة القدس محمد النفاتي[2] التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي[3]، وكان أمير الركب، فمروا بهذا المكان في زمان القيظ، فألجأهم[4] العطش إلى بئر في وادي ينوت، فنزلوا عليه قائلة، ووافتهم هناك قفول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم، فذهب الناس إلى البئر فنزحوا ما فيها من الماء، فلم يشف بعض أوامهم، ورجع الناس مغمومين، فمن قائل نرتحل[5] هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك، ومن قائل نؤخر إلى آخر النهار. قال لي الشيخ: فدخلت على أخي فأخبرته بذلك وقلت له: إن الناس قد أشرفوا على الهلاك، واضطرب أمرهم في الرحيل، فمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا. قال: فاغتم لذلك واستند في خبائه كالنائم، فلما أفاق قال لي: ناد في الناس بالإقامة، وقل لهم يذهبون لسقي الماء. فقلت له: أبكَ الجنون؟ أنا أخبرك أنه لا قطرة في البئر والناس قد أشرفوا على الهلاك. فقال

---

(1) كلمة غير واضحة في ط.

(2) محمد ابن سالم النفاتي، حج مع أخيه أبي الحسن سنة 1049، وأقام هناك، تلد قضاء القدس سنة 1074، وبها توفي: شجرة النور الزكية 442:1.

(3) أبو الحسن ابن الشيخ المفتي سالم النفاتي، قاضي الجماعة بتونس، الفقيه الإمام، حج سنة 1049 وهو أمير الركب، ومات بالينبع: نشر المثاني 373:2. شجرة النور الزكية 442:1.

(4) في ط: ألجمهم.

(5) في ط: تحل.

لي: افعل ما أمرتك. فقلت له: لست بأحمق، أنادي في الناس بالإقامة على غير ماء. فلما أبيت نادى خديمه الغلام وقال له: ناد في الناس بالإقامة والذهاب لسقي الماء. فلما سمعت ذلك استحييت وتغيبت. فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جُوالها[1]. فاستقى الحجاج وجميع القوافل حاجتهم والماء كما هو. قال لي الشيخ: فلما رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر فقال لي: إني لما أغفيت عندما أخبرتني بخبر الناس رأيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم فقال لي: مر الناس بالإقامة، فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجا. قلت: ولا يستبعد ذلك في حق وفد الله وزوار نبيه، صلى الله عليه وسلم، فإن لله بهم عناية، ولهم منه أعظم وقاية.

ولقد[2] أخبرني عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا في سفرته تلك، وفيها توفي بقرية الينبع التي ينزلها الحاج وقبره إلى الآن ظاهر وعليه بناء خفيف[3] على تل مشرف على منزل الركب المغربي بالينبع. وكنا نزور قبل هذا ذلك المحل ولا نعلم من دفن فيه حتى أعلمني به القاضي المذكور، والله يتغمدنا وإياه برحمته ويغمرنا في الدنيا والآخرة بجزيل نعمته، آمين آمين.

ولم نزل نسير يومنا ذلك في أرض مخصبة ذات غياض وشعوب متوعرة، إلى أن بتنا تحت جبل النكازة أسفل العقبة، ووجدنا هنالك ماء طيبا غادرته السيول في سد مبني أعظم بناء، وبتنا في أنعم حال بين ماء و كلإ وحطب، لولا ما شابه من سهر الناس خوف السرقة، لكون المحل كثير الأحجار والأشجار بسفح جبل. وهناك تسوقنا أهل جبال مسلاتة بزيت كثير طيب رخيص اشترى الناس منه حاجتهم. وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقا، سيما ضرب منه يسمونه ضرب الماء، يعصرونه بالماء، ولا أدري كيف يصنعون بذلك، لا تكاد تميز بينه وبين السمن.

ثم ارتحلنا من هناك وقطعنا الجبل، وهو منتهى الجبال في تلك البلاد، وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولا وعرضا وخصبا وقرى متصلة وعمرانا

(1) الجول: جدار البئر: لسان العرب: جول.
(2) في ط: وقد.
(3) في ط: ضعيف.

متراكبا[1] وقبائل وافرة غالبها بربر. وأوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى، ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلي مراكش، وهو المسمى بجبل درن[2]، ثم يمر كذلك إلى بلادنا، ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان، ثم لم يزل يساير البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع، ويسمى في كل بلد باسم، إلى أن انتهى هنا بأطراف برقة. وقال صاحب تقويم البلدان[3]: إنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل. قلت: وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه، لأن أرض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان ونواحيها، والبحر من الناحية الأخرى من العقبة الصغيرة، وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل. والظاهر ما ذكرناه أولا، وهو ما اقتصر عليه غيره. فغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون وأشجار، وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال من البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة.

وفي هذا المحل الذي قطعناه منه آثار أبنية كثيرة في سفحه الذي يلي ساحل حامدٍ مدينة عظيمة يقال لها: مدينة لبدة[4]، قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها، قد أكل البحر كثيرا منها، وفيها مبان عظيمة وهياكل جسيمة وأبراج خارجها مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان، قد هرم الدهر وما هرمت وتعاقبت عليها الأزمنة وما ثلمت، فترى الأبنية ماثلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر، بحيث يقضي الحدس أن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر. وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها. ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان. ويقال إن بانيها الملك دقيوس[5]،

(1) في الأصل: عمران متراكب.
(2) درن: جبل بالمغرب مشهور، ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر مع المشرق مستقيما حتى يصل إلى نفوسة، ويتصل بعد ذلك بجبال طرابلس ثم يرق هناك ويخفى أثره: معجم البلدان:درن.
(3) كتاب تقويم البلدان للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل علي الأيوبي الشهير بصاحب حماة المتوفى سنة 732 هـ: كشف الظنون 1:468.
(4) لبدة: مدينة بين برقة وإفريقية، وقيل بين طرابلس وجبل نفوسة، وهو حصن من بنيان الأول بالحجر والآجر وحوله آثار عجيبة: معجم البلدان: لبد.
(5) دقيوس: أو دقيانوس الملك، صاحب أصحاب الكهف، أنظر أخباره في: الكامل 1:274.

وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية. وبعضهم ذكر أن النمرود[1] لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين، وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب، فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه، وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم متصل من حرف الوادي إلى أطراف المدينة، إلا أن ماء هذا الوادي الآن قليل آجن. ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادي كان حلوا غزيرا أيام عمارة المدينة. وكان مما يتواتر عند أهلها أنه إذا بدت فيه الملوحة فذلك علامة خرابها. فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها في الانتقال منها، والله أعلم أي ذلك كان. وقد ذكر العبدري هذه المدينة في رحلته، وذكر أنه وجدها خالية. والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح إفريقية، والله أعلم بغيبه.

غريبة:

أخبرني بعض أهل ذلك البلد[2] أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدر ما سببه، وأمر[3] بشق بطن واحد منهم فشق عن قلبه فوجد فيه دودة، فعلم أن ذلك سبب موتهم، فأمر بصب جميع الأدوية عليها واحدا فواحدا، فلم تمت حتى أخرج زيتا كان عنده في قارورة جاء به من أرض الشام، فصب عليها قطرة من زيت فماتت، فعلم أن دواء ذلك المرض أكل الزيت، فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون، فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها من مسلاتة إلى سوسة وتونس وأعمالها، ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد، والله أعلم.

وبعد إنزالنا بالجبل دخلنا بلدة ساحل حامد وبتنا بها، وهي بلدة كبيرة ذات نخل كثيرة ومزارع وسواني وزيتون، إلا أن نخل هذا الساحل كله رديء، تمره لا يدخر ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه، فيبقى كقطع الجلد لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم، لا تكاد تفرق بينه وبين لحى الشجر.

وفي هذه البلدة استهل علينا شهر شعبان ليلة الأربعاء. وزرت بهذه البلدة قبر الولي الصالح ذي الكرامات الكثيرة، والمآثر الشهيرة، سيدي مفتاح، وهو على تل

(1) النمرود ابن كنعان، أحد أشهر الملوك في تاريخ البشرية، زعموا أنه استمر في ملكه أزيد من أربعمائة سنة، وفي عهد بعث إبراهيم الخليل عليه السلام: البداية والنهاية 1:148.
(2) في ط: تلك البلاد.
(3) في ط: فأمر.

مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد في مكان يعلوه البهاء، ويتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، وتطمئن به القلوب إذا نزلت بقربه. وختمت عند قبره سلكة كنت ابتدأتها قبل ذلك، وزرته بنية صالحة وإخلاص قوي، وطلبت من الله عند قبره مسائل رأيت أثر الإجابة في بعضها بالقرب، وإني لأرجو الله فيما بقي منها. وهذا السيد مما تؤثر عنه كرامات كثيرة، وجربت إجابة الدعاء عند قبره، فلا ينبغي لمن مر بذلك البلد أن يهمل زيارته. والذي نبهنا لزيارته وأعلمنا بمكانته شيخنا سيدي محمد بن مساهل في سنة أربع وستين، وحضنا على زيارته، فزرناه إذ ذاك، ولم ندع بعد ذلك زيارته إذا مررنا ببلده. وقد قيل بأن قبره كان مخفيا[1] فأظهره سيدي عبد السلام الأسمر، وكان قد أظهر قبورا كثيرة للأولياء بذلك الساحل، وأظهرت فرسه أيضا آخرين، وذلك أنه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض، فيقول لهم الشيخ: احفروا فإن هنا قبر ولي فيجدونه. فظهرت بذلك مزارات كثيرة. وفقراء ذلك الساحل إلى الآن يعرفونها ويقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ، ولا بدع في ذلك فإن الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس، فقد بركت ناقة النبي، صلى الله عليه وسلم، في مكان مسجده، وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية. وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام وللأولياء رضوان الله عليهم يظهر أثرها في العجماوات، فما بالك بالآدمي[2] الذي هو أشرف المخلوقات. فلا تقصروا إخواني من خدمة الصالحين وزياراتهم وملاقاتهم فإن لذلك أثرا عجيبا في تليين القلوب وتسخير النفوس، والله تبارك[3] وتعالى يجعلنا من المحبين لأهل ولايته ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم دنيا وآخرة.

ثم ارتحلنا من ساحل حامد ومررنا بقربه بوادي تارغلات، وفيه آثار سانية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين يقال لها: عين كعان، وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول، منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة في وسطها نقرا متقنا، والحجر في غاية الصلابة قريب من حجر الصوان. والحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار، وعلم أن دهرا أفنى أولائك الأقوام جدير بأن

(1) في ط: مختفيا.
(2) في ط: في الآدمي.
(3) ساقط من ط.

يستأصل شأفة الأنام. ثم نزلنا في ذلك اليوم بلدة زلتين، وهي مثل التي قبلها في النخيل والسواقي، إلا أنها أصغر منها فيما يظهر. وكان نزولنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصريف، الغني بشهرته عن التعريف، سيدي عبد السلام الأسمر، وهو رجل من أهل المائة العاشرة، كثير الكرامات، عالي المقامات، من أجل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس، والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره، وله تصرف قوي. ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها، وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسرى من أيدي الإفرنج في حياته وبعد مماته شهيرة، وهو من بلدة يقال لها الفواتر، وأمه مغربية دراوية[1]. و لم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان، تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين، قالوا وهم ظاهرون بها حتى الآن، وليس عليهم سمْت متفقرة الوقت، بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم، إلا أنهم قائمون على منهج الشريعة. وكل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله، ولا يدخلها أحد فتجبر وتكبر إلا أذله الله. ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة. وقد ذكر لي بعض الإخوان أن سيدي عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذا البلد ومعه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج. فلما قرب من البلد نزل عن فرسه ومشى راجلا متواضعا إلى أن زار وخرج، فقيل له في ذلك فقال: لو دخلتها على الحال[2] التي كنت عليها خرجا من الركوب كهيئة المتبوع لخشيت على نفسي، أو كلام هذا معناه. وبلدة الفواتر (هذه)[3] هي[4] بإزاء زاوية سيدي عبد السلام، قريب منها بنحو فرسخ[5]، وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات.

(1) نسبة إلى درعة.
(2) في ط: الحالة.
(3) زيادة من ط.
(4) ساقط من ط.
(5) في ط: من فرسخ.

لطيفة:

وممن لقيته من سكان هذه الزاوية سيدي أحمد بن محمد بومجيب[1]، وهو مجذوب سالك، والغالب عليه الجذب، وفيه خير كثير، قارب في عمره المائة، ومع ذلك فهو صحيح الذهن والبصر والبدن، وخرج إلينا إلى مترل الركب. وسبب معرفتي به سيدي محمد بن محمد الحفيان، وكان أخبرني قبل الوصول إلى بلده بكرامة وقعت له معه في بعض حجاته. وقد حج هذا السيد مرارا عديدة مع سيدي محمد الحاج صاحب بسكرة، وكان يثني عليه كثيرا. وقال لي: لو عاش ما تخلفت عن الحج، فقلت له: ألا تحج معنا ؟ فقال لي: إنه لا مال لي وأنتم لا تشاركونني في دنياكم وكان هو يشاركني في دنياه. وقد حكيت لي عن هذا السيد كرامات، وشيخه سيدي أحمد الشريف البقال بفاس من تلاميذ سيدي مسعود الدراوي[2]، لقيه لما جاء للحج ومر بهذه البلدة وقال له في رجوعه من الحج: يا بومجيب أعلمنا بك الحبيب عليه السلام.

لطيفة:

أخبرني الشيخ بومجيب أنه لما حج بقي أمام النبي، صلى الله عليه وسلم، وقال في نفسه: إني لا أذهب لزيارة حمزة ولا غيره، هذا يكفيني. قال: فأخذتني سنة فرأيته، عليه السلام، فقال لي: يا أحمد يا حبيبي، عم الرجل عوض أبيه. قال: فقمت في الحين وذهبت إلى زيارة سيدنا حمزة وحدي، وكان وقت خوف، ولقيت هناك ثلاث رجال أحدهم الخضر عليه السلام.

---

(1) أحمد بن محمد أبو مجيب، الولي الصالح نزيل زاوية عبد الكريم الأسمر، توفي عام 1064 هـ: التقاط الدرر، ص: 159. نشر المثاني 2:139.

(2) أبو سرحان مسعود بن محمد الدرواي، من أهل الأحوال والكرامات، توفي بفاس سنة 1011 هـ: مرآة المحاسن، ص: 296.نشر المثاني: 1:84، التقاط الدرر، ص: 39. ممتع الأسماع، ص:184.

لطيفة:

أخبرني أيضا، وهو عندي صدوق، قال: أخبرني الشيخ اللقاني[1] أن الوزغ يتغذى بعينيه، وأنه، أي اللقاني، كان ذات يوم يأكل و وزغ ينظر إليه من السقف، فأمر من قتله، قال: وشقوا بطنه فوجدوا فيها من الخضرة التي كان الشيخ يأكل منها. أخبرني بهذا كله وهو عندي ثقة.

وقد عقدت معه عقد[2] أخوة في الله، وكتب لي خطه بذلك، نفعني الله وإياه بها آمين.

وممن آخيته في الله أيضا بهذه البلدة الشاب الزكي التقي النقي سيدي محمد بن أبي القاسم ابن سيدي علي الصوفي من بلاد غريان، قدم لهذه الزاوية مهاجرا لطلب[3] العلم، وجده سيدي علي تلميذ سيدي عيسى بومعزة. وهذا الشاب[4] ممن رزق السعادة في محبة القوم واتباع طريقهم، وقد أخبرني بغرائب كثيرة ممن لقي منهم، ودلني على بعضهم ممن في سواحل تلك البلاد. نسأل الله أن ينفعنا وإياه بهم وقد شيعني يوم سفري من هناك على رجله حافيا قريبا من ثلاثة فراسخ، شكر الله (له)[5] سعيه آمين.

ثم ارتحلنا من هناك وارتحل معنا سيدي عبد الله بن عبد السلام متولي الزاوية، من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام قاصدا للحج مع ثلاثة من أولاده وأتباعه، وكان من عادتهم السماع بالطار المزنج، قل ما يتركون ذلك في كل ليلة، لا يكادون يتركوننا من صوت الدفوف نحو الأربعة، مقتفين في ذلك آثار جدهم فإنه كان يسمع بالدف، إلا أنه كان، رضي الله عنه، ذا حال صادقة لا يقتدى به في ذلك، فحققهم السنة واجتناب مواقع الظنة. وليست الأحوال مما يورث، و لا مما يصح فيها التقليد، لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا، فليس لغيره اتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقة المشروع.

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) ساقط من ط.
(3) في ط: في طلب.
(4) في ط: السيد.
(5) زيادة من ط.

ومما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدي عبد السلام أنه سمع ذات يوم بالدف، فلما نقره سمعه كل من حضر يقول: الله الله، بحيث لا يمتارون في ذلك. قلت: هذا شاهد صدق في صحة سماعه وصدق حاله مع الله. ومثل هذا له أن يسمع بـأي شيء أراد من دف ومزمار لانقلاب سمية الملاهي في حقه درياقا، فعادت المخالفة لمشروع بانعكاس الثمرة وفاقا. فسبحان الذي أخرج (من بين فـرث ودم لبنـا خالصا سائغا للشاربين)[1]، ومن بين الزفر والزمر أحوالا سنية للمقربين.

وقد أخبرني بعض الإخوان من أهل مسراتة[2] أن شيخنا سيدي محمد بـن ناصر[3] لما حج سنة سبعين حج معه بعض أهل هذه الزاوية، وكان يسمع بالدف على عادتهم، فبعث إليه الشيخ فقال له: إن أردت مرافقتنا فاترك هذا السماع وإلا فاعتزلنا، فاعتل بأن ذلك من عادة أسلافهم فلم يقبل منه الشيخ ذلك، ولم يزل به حتى ترك السماع.

ولم نبت يوم رحيلنا من زلتين إلى أول بلد مسراتة، ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله، الدال على الله، صاحب العلمين، ومحقق النظرين، ومحصل المذهبين، ومرتضى الفريقين، مقتدى أهل العلم البـاطن ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قطب مغربنا، وإمام أئمتنا، سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي[4]، حقق الله إليه نسبتنا، وخلص في محبته سريرتنا، آمين. وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة، وزرنـا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار، وذل وانكسار، وصـلينا الجمعـة بالمسجد الجامع، وهو الذي كان الشيخ يصلي فيه، وخطب إمام المـسجد مـن ورقة، وليته أحسن القراءة منها، فإنه كان يتوقف حتى في آيات مـن القـرآن العظيم. وأسفت لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيـف

(1) النحل:66.
(2) في ط: مسلاتة.
(3) محمد بن محمد بن أحمد بن ناصر الدرعي، نسبة إلى درعة، من علماء المغرب، كانت له زاوية وأتباع، حج مرتين، له تصانيف في الفقه، توفي سنة 1085هـ: خلاصة الأثر 4:238. شجرة النور الزكية 2:453. الأعلام 4:63.
(4) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي، أبو العباس زروق، فقيه محدث صوفي، من أهل فاس، قرأ بمصر والمدينة المنورة، تجرد وساح، توفي بتكرين من أعمال طرابلس عام 899 هـ، له عدة مصنفات في التصوف: شجرة النور الزكية 1:386، دوحة الناشر، ص: 48. الأعلام 1:91.

يسند الأمر فيه إلى غير أهله، ويوضع في غير محله، و(لله الأمر من قبل ومن بعد)[1]. وبعد الفراغ من الصلاة زرنا خلوة الشيخ، وهي أمام المسجد قريبا منه وبها توفي رضي الله عنه. و لم نزل نتردد إلى قبر الشيخ، رضي الله عنه، ذلك اليوم والذي بعده، نفعنا الله بذلك، وأنار لنا به في دجى الخطوب المسالك.

وممن لقيته من أهل هذا البلد صاحبنا ومحبنا في الله خديم ضريح الشيخ ومتولي زاويته سيدي أبو العباس أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد[2]، وجده هذا أحمد هو خديم الشيخ، وهو الذي بنى المسجد الذي هو اليوم مصلى ضريح الشيخ، وتولى عمارته والقيام به ثم أولاده وأحفاده بعده إلى هلم جرا. والمتولي الآن هو سيدي أبو العباس هذا وابن عمه سيدي عبد الواحد، وهو أسن منه، وكلاهما لا يخلو من بركة. وهما ملازمان للصلاة بجوار الشيخ وقراءة وظيفته مع الفقراء النازلين بجواره، والكل محترمون بحرمته ليس عليهم مثل ما على غيرهم من الوظائف الجورية لأرباب الدولة.

(لطيفة)[3]:

وقد قرأت معهما وظيفة الشيخ غير ما مرة، وأخبراني بها عن سيدي محمد بن غلبون، وكان قد أسن وقارب المائة أو تجاوزها، ومسكنه بقصر أحمد على نحو من فرسخين، ومع ذلك لا يترك صلاة الجمعة بمسجد الشيخ ويحضر الوظيفة إلى أن مات، وهو قد أدرك وأخذ عن خديم الشيخ وأخص أصحابه وتلاميذه سيدي أبي زعامة، وفيه يقول (الشيخ)[4]، رضي الله عنه، مداعبا وممازحا، ومزاح الأولياء حق: يا بو زعامة، يا عنق الحمامة، أبشر بالسلامة، بيوم[5] القيامة. فهنيئا له أعظم البشارات على لسان أصدق أهل الإشارات. وقد أخبرني بهذه الحكاية السيدان المتقدمان كلاهما، وأذنا لي في قراءة الوظيفة مدرجا فيها قوله[6]: يا مولانا يا مجيب،

(1) الروم: 4.
(2) أحمد بن عبد الرحيم بن أحمد، تولى خدمة زاوية أحمد زروق.، ذكر القادري أنه لم يقف على تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 243. نشر المثاني 2:375.
(3) زيادة من ط.
(4) زيادة من ط.
(5) في ط: في يوم.
(6) نشر المثاني 2:375.

من يرجوك ما يخيب،اقض حاجتنا قريب، يا حاضرا لا يغيب،آمين الخ، بعد قوله: يا عالم السر منا إلخ.

وأخبراني أنه لم يكن من كلام الشيخ وإنما زاده تلميذه الإمام الخروبي[1] لما مر بزاوية الشيخ قاصدا للحج واشتكوا عليه من ظلم الأعراب فأمرهم بزيادته وإدراجه في الوظيفة، واستمر الحال عليه إلى الآن. وكثير من الناس يظن أنه من كلام الشيخ، رضي الله عنه، والصحيح إن شاء الله ما ذكراه إذ لم نجد هذه الزيادة في النسخ الصحيحة المتصلة السند والرواية بالشيخ، ولم يذكره الخروبي في كتابه كفاية المريد. وأصح الطرق التي روينا فيها هذه الزيادة طريق شيخ والدنا سيدي أحمد أذفال[2]، إلا أنه قال إنما أخذها عن شيخه بركات الحطاب بالإجازة، واجتهد في تصحيحها من النسخ بعد ذلك حسبما رأيته بخطه آخر نسخة من الوظيفة، رضي الله عنه آمين.

لطيفة:

وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خدم الشيخ قال للشيخ في حياته: ألا نبني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافا ؟ فقال له: يا أحمد، نحن لا تفوح رائحة مِسكنا إلا بعدما نتسوس تحت التراب. ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها، بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة. وقد وجدنا عند هؤلاء الإخوان جزء من شرح الرسالة للشيخ بخط يده رضي الله عنه.

وممن لقيته هناك أيضا الأخ في الله صاحبنا الفقيه سيدي علي ابن عزازة[3]، وجده أيضا كان من أصحاب الشيخ، وليس في هذا البلد أمثل من هذا الرجل في

(1) أبو عبد الله محمد الخروبي الجزائري، عارف متفنن في علوم الفقه والحديث، له تصانيف عجيبة مثل: كفاية المريد، وشرح صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه القطب أبي محمد عبد السلام ابن مشيش، توفي سنة 963 هـ بالجزائر: دوحة الناشر، ص: 114.

(2) أحمد بن محمد أذفال السوساني الدرعي، الفقيه المتصوف، ارتحل من موطنه درعة إلى فاس، وشد الرحال إلى المشرق حاجا، توفي عام 1023 هـ: التقاط الدرر، ص: 66، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 2: 424.

(3) علي بن عزازة، قاضي الزاوية الزروقية، فقيه مالكي، لم يعين القادري تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 244. نشر المثاني 2: 375.

بعض فروع الفقه. وكان قبل هذا متوليا للقضاء بهذا البلد ثم عزل. وقد آخيته في الله تعالى وأعطاني ورقة بخط الشيخ رضي الله عنه من شرح الرسالة، واشترط علي أن أثيبه عليها بدعوة على عرفات فوفيت له والحمد لله.

لطيفة:

وقد وجدت عند صاحبنا هذا ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده، وعدد متخلفه من كتبه وأمتعته. ولننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد، منها استفادة عدد أولاد الشيخ وأين استوطنوا بعده، فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه، ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش، ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له، ومع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه، ونصه بعد الافتتاح:

بعد أن توفي إلى عفو الله الشيخ الفقيه العالم العلامة الصالح العارف المحقق القدوة المتبرك به أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، غفر الله له ولوالديه، انحصر إرثه في زوجته أمة الجليل ابنة أحمد المكرم أبي العباس أحمد بن الفقيه العدل أبي زكريا يحيى الغلياني المسراتي، وأولاده منها أحمد أبي الفضل وأحمد أبي الفتح وعائشة. وزوجته فاطمة ابنة أبي عبد الله محمد الزلاعية الفاسية، وولده منها الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبي العباس أحمد الأصغر، وابنه الشيخ الفقيه القدوة المدرس أبي العباس أحمد الأكبر لا غيرهم في علمهم. ثم توفي أحمد أبو الفتح المذكور وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وشقيقه أبي الفضل وعائشة المذكورين، وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبي علي منصور بن أحمد بن محمد البجائي لا غيرهم في علم شهوده، ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصر إرثها في أمها أمة الجليل المذكورة وشقيقها أبي الفضل وأخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور المذكور. ثم توفي أبو الفضل المذكور، وانحصر إرثه في والدته أمة الجليل وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين، وأخويه لأبيه أحمد الأكبر وأحمد الأصغر المذكورين، لا غيرهم في علم شهودهم.

وكان من مخلف الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن، شركة بينه وبين الحاج عبد الله بن عزازة التكيراني المسراتي بالنصف الثاني، مع برنوس أبيض، وجبة صوف بزر مختم مع ثوب بالغزل، وسبحة قفل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني، نفعنا الله به، آمين. مع أربعة عشر سفرا، وكناش، فمن الكتب في الفقه من مختصر ابن عرفة[1] رحمه الله. وأسفار في الكبير مع حاشية الوانوغي[2] والمشدالي[3] على المدونة، مع سفر فيه مختصر الشيخ خليل، والشامل للشيخ بهرام[4]، رحمهما الله، مع شرح ابن عسكر[5] في الفقه للشيخ أحمد المذكور ألفه. ومن غير الفقه الديباج المذهب في التعريف برجال المذهب لابن فرحون[6]، رحمه الله، ومعه تأليف للشيخ أحمد المذكور: القواعد في علم التصوف[7]، ومعه شيء من علم الطب، مع سفر فيه قواعد للونشريسي[8]، والمذكور شيء من علم الطب، مع سفر فيه الزركشي[9] والسبكي في أصول الفقه[10]، وبلوغ المرام[11] لابن حجر، والبلالي اختصار

(1) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي، الإمام الفقيه، حج سنة 792، له مؤلفات عدة منها مختصره في الفقه، توفي سنة 803 هـ: شرف الطالب، ص: 88. شجرة النور الزكية 1:326.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد الوانوغي التوزري، نزيل الحرمين الشريفين، الإمام المحقق، له طرر على المدونة، وكتب على قواعد ابن عبد السلام، مولده سنة 755 هـ، ووفاته بمكة المكرمة سنة 819هـ: لقط الفرائد، ص: 241. شجرة النور الزكية 1:350.

(3) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم المشذالي البجائي، فقيه بجاية وخطيبها ومفتيها، ألف تكملة حاشية الوانوغي على المدونة، توفي ببجاية سنة 866 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 259. شجرة النور الزكية 1:379.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) عبد الرحمن بن محمد بن عسكر البغدادي، الفقيه الإمام،من تصانيفه: المعتمد، توفي سنة 732 هـ: لقط الفرائد، ص: 186. شجرة النور الزكية 1:292.

(6) إبراهيم بن علي بن فرحون المدني، قاضي المدينة المنورة، له شرح على مختصر ابن الحاجب و الديباج المذهب في أعيان المذهب وغير ذلك، توفي سنة 799هـ: وفيات الونشريسي، ص: 133. شجرة النور الزكية 1:319.

(7) قواعد الطريق في الجمع بين الشريعة والحقيقة للشيخ شهاب الدين أبى الفضل احمد بن محمد البرنسى الفاسي المالكي الشهير بالشيخ زروق المتوفى سنة 889 هـ: كشف الظنون 2:1358.

(8) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني الفاسي، الإمام المفتي، من مؤلفاته المعيار، وله كتاب القواعد في الفقه، توفي بفاس سنة 914 هـ: لقط الفرائد، ص:281. شجرة النور الزكية 1:397.

(9) تقدمت ترجمته.

(10) جمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين عبد الوهاب بن علي بن السبكي الشافعي المتوفى سنة 771 هـ، وهو مختصر مشهور: كشف الظنون 1:595.

(11) بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، حقق هذا الكتاب وصدر في عدة طبعات.

الإحياء[1] مع سفر به شرح التفتازاني[2] في أصول الدين، والحِكم[3] لابن عطاء الله، و المنهل الروي[4] في علم الحديث وغيره. مع سفر من ملم[5] الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور. وتأليف للشيخ عبد الرحمن الثعالبي مع إجازة له، وشيء من ابن حجرفي علم اللغة، رحمهم الله، وسفر فيه تفسير القرآن، وكناشه محتوى على وظائفه وغير ذلك.

وقد كان استوطن الشيخ أحمد المذكور[6] الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب، واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة حرسها الله، وأرسل مراسيل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده، وثبت منها بالعدالة حسبما بيانه، كما (أذن)[7] بأن يوجه له ذلك مع من أمكن، وكان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور، وامتنع من ذلك لعدم الأمن والأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور في عام تاريخه لمدينة طرابلس حرسها الله تعالى. و لم يأت بموجب يقتضي له قبض ذلك لأخيه، فتوقف أصحاب الشيخ المذكور، فطلب الشاب أحمد المذكور أن يعطى ذلك في زمانه[8]، يطلب نصيبه ونصيب والدته فاطمة المذكورة، لكونه وارثها ونصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الإذن المذكور بأن يعطي ذلك لأخيه، حضر إلى شهيديه الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائبا عن نفسه وعن أحمد الأكبر. وأشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف الفرس فإنه قبض ثمن ذلك، وهو ثمانية دنانير ذهبا مشحرة من الشيخ منصور المذكور قبضا تاما، وأبرأه بتاريخ أوائل ذي الحجة الحرام متم عام ثلاثة عشر وتسعمائة.انتهى.

---

(1) ذكر صاحب كشف الظنون أن لكتاب الإحياء للغزالي مختصرات، أحسنها وأجودها مختصر الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن جعفر العجلوني البلالي المتوفى سنة 812، شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر، وهو الراجح على غيره، وهو نحو عشر حجمه: كشف الظنون 1: 24.

(2) الإشارة هنا إلى شرح العقائد في أصول الدين لمسعود بن عمر التفتازاني: الدرر الكامنة 6: 112.

(3) الحكم العطائية للشيخ تاج الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن عطاء الله الإسكندراني، الشاذلي المالكي المتوفى بالقاهرة سنة 709 هـ: كشف الظنون 1: 657.

(4) المنهل الروي في علوم الحديث النبوي للشيخ الإمام بدر الدين محمد بن جماعة الكناني الشافعي المتوفى سنة 733 هـ: كشف الظنون 2: 1884.

(5) كذا في خ، وهو غير واضح في ط.

(6) ساقط من ط.

(7) زيادة من ط.

(8) في ط: زمامه.

وصلى الله (وسلم)[1] على (سيدنا)[2] محمد وآله، (نقلت)[3] الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة ولا نقصان مع وجود بعض التصحيف به، و لم أغير شيئا منه بل تركته كما وجدته، و لم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل منه، والله أعلم.

وممن لقيته هناك من أهل الخير والصلاح سيدي فتح الله بخير من أحفاد سيدي عبد السلام، وهو ممن ترجى بركاته[4]، ووسمه وسم خير، قد نزل وحده بداره منقطعا عن الناس في نخيل على طرف البلد من ناحية البر.

ولقيت هناك أيضا المجذوب الصادق سيدي أبا زكية، رجل متقشف لا يؤبه له[5]، أرى أنه ممن لو أقسم على الله لأبره، وهو نازل وحده بساحل البحر بأهله، يرد عليه أهل الخير السائحون في الأرض، يدخلون البادية من هناك على قدم التوكل قاصدين الحجاز الشريف، فمنهم من يرجع بعد أعوام، ومنهم من يبقى هناك، ومنهم من لا يقف[6] له على خبر. وقد حكى من ذلك ومن أخباره معهم شيئا كثيرا.

ثم ارتحلنا من زاوية سيدي أحمد زروق بعدما تنعمنا بزيارته وقراءة ما تيسر من القرآن عند قبره والمبالغة في الدعاء، وأودعنا الله عند قبره أنفسنا وأموالنا وأدياننا فرأينا بركة ذلك. وقد شاع بين الحجاج أن من مر بقبره وأودع الله عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع، ويفعلون ذلك إذا مروا به أو حاذوه في البحر فيجدون بركته. ولا بدع في ذلك ولا غرابة، فإن الله حفيظ لا تضيع ودائعه، والأولياء أبواب الله، فمن أودع الله شيئا عند باب من أبوابه فكيف لا يحفظه فيه (فالله خير حفظا وهو أرحم الراحمين)[7].

وكان رحيلنا من هناك يوم الأحد الخامس من شعبان، ومررنا بقصر أحمد ضحى، وهو آخر العمران هناك ولا عمارة وراءه على طريق الحاج إلى

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) زيادة من ط.
(4) في ط: بركته.
(5) في ط: به.
(6) في ط: يوقف.
(7) يوسف: 64.

الإسكندرية. وزرنا خارجه على تل مرتفع بساحل البحر قبر سيدي أبي شعيفة، ووجدت عند قبره سيدي أبو تركية، بل وجدني، واغتنمت دعاءه في ذلك المكان، وذهب بي إلى مزارة هناك في مغارة بساحل البحر يتعبد فيها الصالحون، لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة البحر، يغلب على الجالس بها الحضور إذ لا يرى إلا البحر، ولا يسمع إلا تسبيحه وتمجيده لربه، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)[1] لغفلتكم عنه. ومن امتزج تعظيم الحق وتسبيحه بلحمه ودمه وأنس بذلك سمع تسبيح كل شيء إما بحاله أو مقاله.

وقد أخبرني صاحبنا هذا أن مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدي فرج، وهو الآن بالجزائر، وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها، وأخبرني عن أناس آخرين مروا به هناك من الأخيار، وهم الآن بالحجاز أحدهم سيدي أبو القاسم السوسي[2] بالمدينة وسيدي علي التونسي. ثم ودعته هناك وكتبت له ورقة بخطي، تذكرة له وللإخوان في صالح الدعاء. وكنت أرى اجتماعي معه في ذلك المكان إحدى كراماته لأني فارقته بالأمس عند قبر الشيخ، ولم أقض الوطر من لقائه. ومترله بعيد لا يمكنني الذهاب إليه، فأتى به الحق إلى ذلك المكان من غير وأي[3] ولا عادة، والله يعين العبد على قدر نيته.

وفي ذلك فارقنا آخر العمران، ودخلنا برقة ومررنا ذلك اليوم بماء يقال له العريعر، وهو حلو طيب بين السبخة والبحر، ونزلنا آخر اليوم على ماء آخر يقال له أبو كدية مقابل بلد تاورغا بينها وبين البحر. وهذه البلدة منقطعة أول برقة، وفيها نخل كثير، وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل أجود منه، وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلا بإزالة النوى وطيبه، والله أعلم، لبعده شيئا ما عن البحر ورطوبته ودخوله قليلا إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلا عن النبات.

ثم في الغد نزلنا قرب الهايشة، وفي الذي يليه مررنا بالهايشة، وهي سبخة مستطيلة، وعلى جوانبها بناء وقصور خالية، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس

---

(1) الإسراء: 44.
(2) أبو القاسم بن محمد المغربي السوسي نزيل دمشق ومفتي المالكية بها، فيه واعية حافظ، كانت وفاته سنة ثمان أو تسع وثلاثين وألف: خلاصة الأثر 145:1، الفكر السامي 329:4.
(3) الوأي: الوعد: لسان العرب: وأو.

الشياطين لا ترى أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه، سيما المعاود لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز[1] والمعاطش التي يحار فيها الدليل، كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الآيب لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة. ونخيله آخر نخل يراه الذاهب وأول نخل يراه الآيب. وماء الهايشة ملح أجاج لا يكاد يساغ، يضرب به المثل في القبح، وليس في مياه برقة أقبح منه إلا مواضع قليلة لا يعتمرها الحاج، مع أن هذا أيضا لا يستقسي[2] منه إلا من اضطره العطش أو كانت أيام الحر، وهو ماء راكد في مواضع كثيرة يحيط به القصب، وبعضه أشد قبحا من بعض. وبآخر الهايشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح، فلا الماء يجمد ملحا ولا الملح يذوب ماء، وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة المحل. و لم نقطع ذلك المكان إلا بعد لأي[3] و لأي.

ثم نزلنا دور حسان، ومررنا الغد بحسان، وهو ماجل منقور في حجر يجتمع فيه المطر، فإذا فرغ المجتمع بقي محله يرشح بماء قليل يجم في قعره، يبل به الظمآن فمه. وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق الآن إلا رسومها تسمى فيما مضى قصور حسان[4] إضافة إلى بانيها، وكان عاملا لبني أمية لما نقض أهل إفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان، بنى هناك قصورا وأقام فيها نحوا من ثلاث سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرخ فتوح إفريقية وسمي المكان باسمه إلي الآن.

ثم بتنا آخر ذلك اليوم بقرب ساقية هناك هي أول عمالة سرت[5]، ثم منه إلى الزعفران، وهي أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب وعليه كثبان من رمل أحمر تظهر من بعيد، ومن وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت، وهي ثلاث قصور تخزن فيها العرب ميرتها. وكانت فيما قبل هذه السنة خالية، ووجدناها في هذه السنة فيها بعض العمارة ممن تركته العرب على خزائنها حافظا لها.

---

(1) في ط: المفاوز والمهامه.
(2) في ط: يستقي.
(3) اللي: الجهد والشدة: لسان العرب: لاو.
(4) نسبة إلى حسان بن النعمان الغساني الذي ولي إفريقية بعد استشهاد زهير بن قيس لبلوي سنة 76 هـ، فغزا ملكة البربر الكاهنة فهزمته فأتى قصورا في حيز برقة فنزلها وهي قصور يضمها قصر سقوفه أزاج فسميت قصور حسان: فتوح البلدان 1:231.
(5) أنظر ما جاء عن سرت في رحلة العبدري، ص: 85.

وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد ذات مزارع كثيرة بالبعل، وعربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم عن بلادهم وشتت شملهم، إلا أن أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم سيد روحه. ثم في الغد بتنا بموضع يقال له امكيرينة وبإزاءه بئر طويل. وفي الغد مررنا بمعطن يقال له المُدَينة تصغير مدينة، على ساحل البحر، ثم بآخر يقال له (أم)[1] السلطان، ثم بتنا مقابل آخر يقال له النعيم. ووجدنا هناك حلل أعراب سرت، وأميرهم عبد القادر بن عبد الله الملقب سيد روحه لقب أبيه عبد الله. قالوا سبب تلقيبه بذلك أن أباه كان من أهل الخير ومن أهل النسبة، ونزل بأولاده ساحل حامد، وكان له عدة أولاد، فلما نشأ ولده هذا واشتغل بما لا يعنيه وظلم الناس، فمن اشتكى إلى أبيه قال في شكواه: إن سيدي عبد الله فعل بي كذا وكذا، فيقول أبوه توبيخا لولده: ليس بسيدكم وإنما هو سيد روحه، فاستمر ذلك لقبا له ثم لإخوانه وأولاده من بعده. وأخوه عبد الرحمن هو رئيسهم الآن، وكلمته نافذة وأمره مسموع في عرب سرت وسائر عرب تلك النواحي إلى الجبل الأخضر. وهم مستندون إلى الأمير عثمان في الظاهر مستبدون برأيهم في الباطن، ولهم جدار وعقار كثير بساحل حامد، وكبيرهم عبد الرحمن نازل فيه، وأبناء أخيه عبد الله متفرقون في حلل الأعراب، فأما عبد القادر فهو مع عرب سرت، وأما أبو بكر أخوه فهو بحلله على الجابية ونواحيها مع عرب تلك الناحية.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الأحمر ضحى، وتسوقنا أولئك الأعراب بإبل في غاية السمن وغنم أخذ الناس منها حاجتهم وقليل سمن. ثم ارتحلنا منه وحمل الناس ماء خمسة أيام إلى المنعم، وتسمى هذه المسافة كلها عند الحجاج مقطع الكبريت تغليبا، وإلا فالمسمى بذلك حقيقة موضع واحد. وفي هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنها تقل (في)[2] بعض الأحيان، وبعضها أجاج فيحتاط الناس بأخذ الماء الطيب. ثم مررنا ذلك اليوم بماء يقال له العويجة، وبتنا بإزاء ماء آخر يقال له الشقة، وماؤها قبيح آجن ذو حمأة. ومن أمثال الحجاج: مائة دكية ولا شربة من الشكة[3].

(1) زيادة من ط.
(2) زيادة من ط.
(3) أثبتها العياشي بكاف معقودة.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بمزارع لأولاد سيدي ناصر؛ فقراء مرابطون من أهل سرت يطعمون الطعام[1] من ورد عليهم، ومعهم طرف من الديانة إلا أنهم أضر بهم جور الأعراب لأنهم بين عرب سرت وعرب برقة، فقلما يسلم لهم وقت من غارة ما من هؤلاء أو من هؤلاء. غير أنهم الآن مستظلون بظلال أسمال من العافية لما ولي عبد الرحمن الجيالي الملقب سيد روحه على البلاد وقهر الأعراب وقويت شكيمته على أهل البادية، فأمنت السبل بعض الأمان، فرجع فقراء الأعراب إلى بلادهم، وعمرت البلاد بعض العمران، وتلك سنة الله في البلاد والعباد أن الولاة وإن جاروا خير من مرج الرعية يعدوا بعضهم على بعض، فيعم الخراب الحواضر والبوادي، وبهذا السبب خلت أرض برقة كلها، وهي مسافة شهرين، وكانت متصلة العمارة من الإسكندرية إلى إفريقية لا تكاد تسير فيها بريدا[2] ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة داثرة. وقد جاء الإسلام وغالبها عامر، ثم لم تزل عمارتها تضعف إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ.

ثم مررنا في يومنا بسانية مقابل اليهودية جهرت[3] في هذا الوقت، وبتنا في سانية أخرى (وغدير ماء)[4]. واليهودية قرى كثيرة متقاربة فيها آثار[5] بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كبيرة. واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا وكذا من الخيل. قلت وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقراء أنه قال: دخلت مدينة اليهودية[6] بأرض المغرب وساق الحكاية إلخ. ولعل[7] تلك المدينة هي هذه؛ إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية غيرها، والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(1) ساقط من ط.
(2) البريد فرسخان، وقيل ما بين كل منزلين بريد: لسان العرب: برد.
(3) في ط: عمرت، وجهرت: بمعنى عمرت؛ والمَجْهُورة من الآبار: المعمورة، عذْبةً كانت أو مِلحة. وجهر البئرَ يجهرها جهراً
نزحها: لسان العرب: جهر.
(4) زيادة من ط.
(5) في ط: أثر.
(6) لم يرد ذكر هذه المدينة في الطبعة التي اعتمدناها من الرسالة القشيرية.
(7) في ط: وهل.

ثم ارتحلنا غدا ومررنا بقصر العطيش وبماء يقال له الكحيلة وبتنا وراءه. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا آخر النهار بماء يقال له أم الغرانق، إلا أنه لا يكاد يساغ فلا فرق بينه وبين ماء البحر إلا اللون والرائحة. وبتنا أمامه في سبخة مقطع الكبريت، وسمي هذا المحل مقطع الكبريت لأن في أعلى السبخة[1] معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين، ومن هناك يحمل إلى طرابلس وكذلك إلى مصر والإسكندرية، ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة لأن العرب الذين يحملون الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج، فإذا رجعوا حملوا على ما فضل من إبلهم عن الكراء كبريتا ويتقدمون أمام الركب بيوم إذا شارفوا هذا المحل، ثم يلحقون الركب في المنعم. وقد أصابتنا يوم نزولنا بهذه السبخة ريح عاصفة حمراء قوية جدا أسقطت كثيرا من الأخبية، دامت إلى الصباح، ولم نوقد نحن، ولا كثير من أهل الركب، في تلك الليلة نارا ولا طبخت عشاء من قوة الريح، وعصمنا الأخبية بالحبال فما أغنى ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بالمنعم، وهي أحساء بساحل البحر ماؤها طيب، عليها كثبان رمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها، وقلما يخلو من عمارة الأعراب. وقد وجدنا على هذا الماء عربا من أهل سرت، وأميرهم بومغاث، وهم يزعمون أن لهم عادة على الحجاج يعطونهم إذا مروا بهم فرسا لشيخهم، وأن ذلك عادتهم من جدهم سحيم. ولكن الله أضعفهم ودمرهم فلا يستطيعون التعرض للركب، وقد سرقوا جملا من الركب فأخذ الحجاج جملا لهم حتى أتوا به. وقد أخبرنا شيخهم بومغاث أن سبب هذه العادة التي يزعمون على الحجاج أن ركبا لأهل تونس مر بهم وضاع لهم جمل فيه قيمة ألف ريال، قال: فوجده الشيخ سحيم بعدهم وأدخله في بيت قصور سرت، ولم يحله حتى رجع الركب، فأخرجه لهم فوجدوه لم يضع منه شيء. ومن هناك التزموا له أن كلما قدم ركب من تونس جاءوه بفرس. فقلنا له: لسنا نحن من أهل تونس فلا عادة لكم علينا. وكفانا الله شرهم بضعفهم وقهر الجبالي[2] لهم، فلا يرفعون يدا ولا يجيبون ندا.

---

(1) في ط: السبخ.
(2) في ط: الجبار.

ثم ارتحلنا من هناك وتيامنا عن البحر قليلا، وبتنا ليلتين في الطريق، وفي الثالثة جئنا إلى الجابية، وفارقنا البحر من المنعم فلا تجتمع طريقنا معه إلى التميمي. وفي هذه الجابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر، وبنيان هائل بالحجر المنحوت، وهناك رسم مسجد قديم تهدم، ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوش سنة ثلاثمائة.

لطيفة:

قد أخبرني شيخنا سيدي محمد بن مساهل عن بعض المشايخ أن الإمام سحنونا كان مدرسا بهذا المسجد ثلاث سنين. وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه، وقيل إنها مدينة بالجبل الأخضر بالجانب البحري. وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنه رآها، وأن رسومها تدل على عمارة قوية، وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير. وقال لي: إن بها قبرا مشهورا يزار، ويزعم أعراب البلد أنه قبر نبي. فقلت له: الغالب أنه قبر صحابي، فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت[1] بن السكن الأنصاري النجاري، من الصحابة، قد توفي[2] ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد. وقتل ببرقة أيضا من الصحابة زهير بن قيس البلوي[3]، ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل. وما ذاك إلا قبر أحدهما، فإن كثيرا من العوام يطلقون اسم النبي على الصحابي، وقد شاهدنا كثيرا منهم يعتقدون[4] في أبي بكر وعمر أنهم من الأنبياء ويظن أن اسم النبي والصحابي مترادفان. فلما أخبرتُه بذلك فرح وقال لي: ليس إلا كما ذكرت.

(1) رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري المدني ثم المصري، الأمير، له صحبة ورواية، حدث عنه بسر بن عبيد الله وحنش الصنعاني وزياد بن عبيد الله وأبو الخير مرثد اليزني ووفاء بن شريح وآخرون، نزل مصر واختط بها، وولي طرابلس المغرب لمعاوية في سنة ست وأربعين، فغزا إفريقية في سنة سبع ودخلها ثم انصرف، توفي ببرقة وهو أمير عليها لمسلمة بن مخلد في سنة 56 هـ: سير أعلام النبلاء 36:3.

(2) في ط: دفن.

(3) عمل عبد الملك بن مروان بعد مبايعته على استعمال أخيه عبد العزيز على مصر، فولى أفريقية زهير بن قيس البلوى، ففتح تونس، ثم انصرف إلى برقة فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا من مراكب لهم فعاثوا فتوجهوا إليهم في جريدة خيل، فلقيهم فاستشهد ومن معه سنة 76 ه هـ، فقبره هناك وقبورهم تدعى قبور الشهداء: فتوح البلدان 231:1. البداية والنهاية 16:9.

(4) في ط: يعتقد.

ولما رجعنا من الحجاز سنة أربع وسبعين لقيته ببلده مسراتة وقال لي: إني قد ذهبت بعدك إلى المكان المذكور وتأملت القبر وعليه كتابة وإمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت. قال لي: وذكرت كلامك لبعض الأمراء في درقة ففرح بذلك وأمر بالبناء على القبر والتنويه به، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا[1]، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فإن صح أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور فتلك المدينة هي مدينة برقة المشهورة لا الجابية، والأمر في ذلك قريب، فإن بين المدينتين نحوا من خمسة أيام، فكلاهما يصح أن يقال بينها وبين كل من مصر وإفريقية شهر؛ إذ بذلك يعرفها الفقهاء، إلا أن التي في الجبل أقرب إلى[2] مسمى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن المخصبة والمزارع الكثيرة، والغياض الملتفة من أنواع الأشجار، بخلاف الجابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة[3]، والله أعلم بغيبه.

ومسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك، وفيها رسم[4] أبنية كثيرة، وإطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة، وهذا مما يقوي أن مدينة برقة هي الجابية. وبإزاء المسجد الذي بها قبر محوط عليه بالحجارة يزار، يقال لصاحبه سيدي يونس، وهو من عرب الفواخر[5]، وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعا كثيرا، وبقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفت في ذلك، وبعد ذلك ظهر لي جواز أخذه، فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه. ثم ارتحلنا من الجابية، وفي آخر ذلك اليوم تعاهد بعض الإبل داؤها القديم من النفور والجفال عند قرب المنزل، ولطف الله بالعباد.

ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بماجل كبير فيه بقية من ماء المطر، وبتنا على قرارة[6] فيها ماء كثير غادرته الأمطار، ثم ارتحلنا منها ونزلنا على سلوك ضحى، وهو آبار متعددة كآبار الجابية في صفتها ومائها، وبإزائها أيضا رسوم بناء إلا أنها

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) الكهف: 30.
(2) في ط: من.
(3) في ط: مغبرة.
(4) في ط: رسوم.
(5) في ط: الفراصد.
(6) في ط: فزارة؛ والقرارة: ما قرّ فيه الماء. والقَرارُ والقَرارةُ من الأرض: المطمئن المستقر: لسان العرب: قرر.

قليلة بالنسبة إلى الجابية، وماؤها يقل في أيام الحر، وقد مررنا عليها سنة تسع وخمسين في حمارة القيظ فلم نكد نروي منها إلا بعد عناء شديد وإقامة يوم وليلة أو ليلتين، وهذا المورد هو آخر برقة الحقيقية كما مر، وتسمى برقة الحمراء، وهو[1] بمرأى من الجبل الأخضر، ووجدنا عليه سوادا من العرب ينتظرون السوق مع الركب، وبتنا به ليلة، ومن هنالك[2] فارقنا من فارقنا من الأعراب القاصدين لمرسى ابن غازي، وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم، وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس، وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه ولا أكثر إداما فيما رأينا من البلاد، وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائهما من البلد، ومن هذا الجبل غالب إدامهم ولحمانهم، وقد دخلنا طرفا من هذا الجبل سنة تسع وخمسين من شدة الحر، وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل، ولم نعهد مثل ذلك في بلد من البلاد ولا رأينا أرخص منه سعرا ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله، يؤخذ منهم زهاء القناطير من السمن بالثمن التافه من بز[3] أو عروض[4]، أو غير ذلك من الحوائج، ولا يعرفون للدرهم قدرا، وكانوا إذ ذاك كنعمهم غفلا، لم يدخل التجار بلادهم ولا صادرتهم العمال عن أموالهم، إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها في بعض الأحيان لصاحب أوجلة، وأما صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم، وأما الآن فهم تحت إيالته وفي أسر طاعته يؤدون الخراج ويدخل التجار من أهل طرابلس ومسراتة بلدهم لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والإدام، فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها، وعرفوا الدرهم والدينار، وأما قبل ذلك فكانوا كالأنعام (بل هم أضل سبيلا)[5].

---

(1) في ط: هي.
(2) في ط: هناك.
(3) البز: الثياب: لسان العرب: بزز.
(4) العروض: جمع عرض؛ وهو المتاع: تاج العروس: عرض.
(5) الفرقان: 44.

غريبة:

عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا ونفاقا[1]، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله، ليس عندهم من الدين إلا اسمه، لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قل ما مر بهم ركب سلم من أنشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم، وقد وقع لنا ذلك معهم مرارا، وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة، فيحترس الناس منهم نهارا خشية النهب والغارة، وبالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين ولا تسرق لهم حاجة، وما ذاك، و الله أعلم، إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم، والسرقة في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران ويجتمع أجناس من الناس وتعمر أسواق ويوجد بيع و شراء، وأما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة، وفيما بينهم يأمن بعضهم بعضا، فألفوا ذلك.

ونوادر هذا الجبل في رخاء الإدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه، وبيعهم لبناتهم وأخواتهم وغير ذلك[2] أشهر من أن يذكر، وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحريه، وسبعة أيام من الناحية الأخرى، وأكثر شجر الناحية التي مررنا بها العرعر، حتى إنه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعاب مسلوكة، ومن خالفها توعر وانتشب في الغياض[3] بحيث لا يخلص إلا بمشقة، سيما إن كان ذا دابة. ومع كثرة غاب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد، والحجاج يزعمون أن سيدي أبا محمد صالح دعا عليه فأجلاه الله من هذا البلد لئلا يؤذي صعاليك الحجاج، وذلك إن صح غيض من فيض فيما لأولياء الله من الكرامات.

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم): التوبة:97.
(2) ساقط من ط.
(3) الغياض: جمع غيضة؛ وهي الأجَمة. والغَيْضَة: مَغيض ماء يجتمع فيَنْبت فيه الشجر: لسان العرب: غيض.

غريبة:

ومما شاهدناه في عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحمل الهوادج عليها، وإناختها عند الركوب والنزول مثل الإبل من غير مشقة عليها، ولا عليهم في الإناخة لاعتياد الكل لذلك، ولله في أرضه عجائب وفي طباع الحيوانات غرائب. وكذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها، قلت أو كثرت، وهي تتبعه، فإذا أمهل في السير أمهلت، وإذا أسرع أسرعت، وإذا جرى جرت، ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه مثل الكلب المعلم.

ثم ارتحلنا من سلوك، وتنكبنا طريق الجبل لوعرها وسوء خلق أهلها وتلصصهم على الحجاج، وسلكنا طريق السروال عن يمين الجبل، وهي مسافة سبعة أيام لا ماء فيها إلا ما غادرته الأمطار في قيعان الأرض، ولكن بفضل الله ما مرت علينا مسافة يوم إلا وجدنا من الماء فوق الكفاية، ثم طلعنا إلى سفح الجبل وبتنا هناك، ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا ضحى لغرض عنَّ لبعض أمراء الركب فيه بعض الغرض، وفي قلب أكثر الناس من الإقامة مرض.

ثم ارتحلنا والجبل عن يسارنا ومررنا ضحى بماء يقال له الخطاطيف؛ غدير كبير، واستقينا منه وبتنا بموضع يقال له الخروبة، وفيه ماء. ثم ارتحلنا وجئنا إلى وادي سمالوس قبل العصر ووجدنا فيه غديرا كبيرا، وبات الناس مبسوطين ناشطين ونحن في كل ذلك لم نخل ليلة من سوق مع أعراب الجبل يقدمون منه متعرضين للركب، ثم ارتحلنا منه ومررنا ضحى بمياه كثيرة وربيع أُنُف في أودية منحدرة من الجبل نالت منه الإبل فوق الحاجة، وسرنا يومنا إلى الليل، وعند نزولنا جاءت قافلة من الأعراب تحمل تمرا كثيرا قدموا به من سيوى[1] يريدون بيعه، وصادفوا حاجة الناس إليه، وأخذ الحجاج منه كفايتهم لصوم رمضان بأرخص سعر، وذلك فضل من الله ونعمة، ﴿والله ذو فضل عظيم﴾[2].

وتمر سوى من أحسن التمار لم نر من يوم خروجنا من تافلالت تمرا يشابه تمرها إلا هذا لونا وطعما، وهذا أنظف منه وأنقى لأن عادتهم أنهم لا يحملونه إلا

---

(1) سوى: سماها ابن مليح سيوة، وهي مدشر عظيم على ربوة مرتفعة: أنس الساري والسرب، ص: 37.
(2) آل عمران: 174.

في قفاف من العزف[1] تسع كل واحدة قريبا من نصف قنطار، ويجعلون لها معاليق تعلق بها على أقتاب الإبل، فيحمل الجمل منها (اثني)[2] عشر، أو أكثر أو أقل، على حسب صغرها وكبرها وقوة الإبل وضعفها، وتلك صنعة عجيبة يبقى التمر على حاله نظيفا ولا يحتاج مشتريه إلى غرائر للحملان، وليت أهل مغربنا يفعلون مثل ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك وجئنا ظهرا لقصر المُخيلف ووجدنا فيه مياها كثيرة في مآجل، ووجدنا به جابيتين متلاصقتين مبنيتان[3] بالحجارة المرصوصة بناء متقنا، وكل واحدة طولها نحو المائة ذراع في مثلها وقد تعرضتا لأفواه الشعاب وجمعتا من الماء ما تبحر وكاد أن يتفجر، وأخذ الناس منه حاجتهم وتوضؤوا. وهذا القصر من أعظم القصور الخالية التي بقيت رسومها في تلك البلاد، وفيه أثر مسجد ومئذنته باقية إلى الآن، وليس فيه ماء حي، ولو احتسب أحد من الولاة بحفر بئر فيه لكان فيه أعظم الأجر لأنه في محل بعيد من الماء من كل الجهات، وقل ما يسلم الحجاج في أيام الحر من شدة تقع لهم بسبب العطش في ذلك المحل أو قريبا منه. ثم تجاوزنا ذلك المحل و لم نبت إلى المغرب، واستهل لنا في تلك الليلة، وهي ليلة الخميس، شهر رمضان المبارك، وصامه من أراد صيامه، وأفطر من خاف أوامه، وليس على كلا الفريقين ملامه.

ثم ارتحلنا غدا ونزلنا أمام الغزيات، وهي قرية خالية مشرفة على واد كبير، وفيها مآجن كبيرة. ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا قرب التميمي ضحى و لم نصل إلى مورد التميمي لأن الله أغنى عن مائه الأجاج ببحار من الغدير في أعلى الوادي متصلة في صخور منقورة وبرك من صنعة الجبار بالماء الحلو معمورة، وبات الناس بها وجاءهم المتسوقون من درنة بالطعام الكثير واللحم السمين، ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى، بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيه، وكانت خالية منذ أزمان إلى أن عمرها الأندلس قرب الأربعين والألف، و لم يزالوا بها إلى أن بطروا، فأنشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس، فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل فيها مئون من أشرافهم، وهي الآن في طاعته، وفيها عامله المستولي عليها

---

(1) العزف: ليف الدوم: عامية مغربية.
(2) زيادة من ط.
(3) كذا في خ وط.

وعلى عرب الجبل الحاج محمود. ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم، سيما جزيرة كندية فإن بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر لإنها[1] في مقابلتها، والمعاش في هذه المدينة متيسر كثير لجمعها بين البادية والحاضرة، وهناك بلغنا خبر الوباء بأرض مصر والإسكندرية، نسأل الله أن يكفينا شره وأن يدفع عن العباد ضره.

ثم أقمنا بعد ذلك يوما هناك أزال الناس من أدرانهم واستراحوا في أبدانهم، والله يبلغ على خير. وكنت أفطرت يوم إقامتنا ولامني بعض الإخوان على ذلك و قال: ما حملك عليه إلا الشهوة. فقلت له ما قال بعض المشايخ: إذا وافق الحق الشهوة فذلك الزبد بالشهد. و قال: إنك ممن يُقتدى به، فإذا رآك الناس أفطروا وأدى ذلك إلى هتك حرمة الشهر. فقلت: إن الله تعالى هو المحرم، و لم يجعل لهذا الشهر حرمة في السفر، وحرمة الشهر، و الحمد لله، معلومة بين المسلمين لا يزيلها إفطار مفطر ولا يزيدها صوم صائم، ومن يقتدى به هو الذي ينبغي له الإفطار، وإن لم يتضرر بالصوم، لأن كثيرا من الناس يعتقدون حرمة الإفطار أو قبحه فيحتملون من ذلك مشقة عظيمة حسبما شاهدت ذلك مرارا في كثير من الأسفار المندوبة فضلا عن المباحة، فإذا رأوا من يعتقدون فيه الخير سهل عليهم الإفطار[2] وعلموا إباحته وأولويته لمن شق عليه الصوم، واستدللت بغير هذا من الأدلة.

ثم ارتحلنا من هناك وتركنا منهل التميمي عن يسارنا إلى أن وردنا عين الغزالة ظهرا، وهي عين من الماء العذب فيه بعض ملوحة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها، وليس في برقة كلها ماء يجري إلا هذا. ثم تجاوزناها بأميال فبتنا في أرض طيّبة كلها منقسمة بتخرم الحرث وآثار البناء متصل بأطرافها، وعن يمينها شعاب تنصب من الجبل وكأنها كانت مجاري السيل، ويقسمه أهل تلك الأرض على مزارعهم.

(1) في ط: فإنها.
(2) في ط: الفطر.

غريبة:

وفي الغد منه مررنا عن يسار الطريق ببيت منحوت في الحجر الصلد طوله عشرون ذراعا في مثلها وبداخله بيت آخر نحو نصفه، وفيه غرف صغار كأنها مخازن، وكل ذلك منقور في الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت وباب مربع كأحسن الأبواب، وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضا فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها، وتدبرنا قوله تعالى: (وتنحتون من الجبال بيوتا)[1]، وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه[2].

ثم سرنا يومنا ذلك وعدلنا عن طريق دفنة يمينا وبتنا بموضع يقال له المدور، وفيه مآجل كثيرة مملوءة بماء المطر، ثم ارتحلنا منه وبتنا مقابل دفنة، وهي منهل على ساحل البحر يمر عليه الحاج بالصيف وعند قلة الأمطار، ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بموضع يقال له الغريض وفيه مآجن ومزارع محروثة، وطلعنا سطح العقبة وبتنا به، ثم ارتحلنا منه وسرنا في سطح العقبة وهي أرض مستوية لا علم فيها إلا آثار الأبنية القديمة وبعض آثار المزارع، ونزلنا بفم العقبة الكبرى، وفي سطح العقبة قبر يزار يقال لصاحبه سيدي عزيز، وهو من عرب سمالوس يأتيه الأعراب بإبلهم وغنمهم فيمرون بها بين كومين هنالك[3]، ويزعمون أن من مر بها هناك لا تصيبه آفة في تلك السنة، ويقتدي بهم بعض الحجاج في ذلك.

لطيفة:

أرض برقة منقسمة في عرف أهلها على أقسام، أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت، ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء، ومن هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء، ومنه إلى التميمي يسمى الجبل الأخضر، ومنه إلى العقبة الكبرى يسمى البنطان، ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى العقاب،

(1) الشعراء: 149.
(2) رحلة العبدري، ص: 82.
(3) في ط: هناك.

ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغرى. وقد ذكر العبدري تقسيما غير هذا جار على اصطلاح أهل[1] زمانه[2].

ثم ارتحلنا من فم العقبة وانحدرنا منها في منحدر صعب مشرف على البحر، ثم نزلنا ذلك اليوم بماء يقال له بقبق، وهي أحساء كثيرة في رملة بيضاء في سفح كثيب من الرمل الأبيض يظهر من بُعد كأنه ثلج.

غريبة:

مررنا بهذا المحل سنة أربع وستين فوجدنا فيه سفينة للنصارى قد حرثت في ذلك المحل، وهو محل صعب على السفن يسمى جون العقبة، قلما تدخل فيه سفينة وتسلم، وبعد أن تجاوزنا ذلك المحل لحقنا نصراني من أهلها وتزيا بزي المسلمين، وكان يحسن العربية فقال: إني من إفريقية جئت في هذه السفينة التي حرثت وهي للمسلمين، وبقي معنا في الركب يحسن الناس إليه بالطعام والشراب حتى وصلنا الإسكندرية ودخل إلى سفن النصارى، ولم يتفطن له أحد أنه نصراني حتى وصل إليهم، وبقيت سفينتهم في ذلك المحل إلى أن أدركنا رسومها في هذه السنة.

ثم ارتحلنا من بقيق ونزلنا مقابلة ماء يقال له القتبل، وفي الغد نزلنا على ماء يقال له شماس، وقريب منه آخر يقال له الفوار، وهاتان المرحلتان كلتاهما فيهما آثار الأبنية المتصلة جدا حتى لا يكاد يخلو ميل واحد من البناء، والبقاء لله وحده.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء آخر بقربه طيب يقال له حلق الضبع، وفوقه غدير كبير في أصل جبل صغير قل ما يخلو من ماء الغدير، وما نزلنا إلى موضع يقال له قبر العاصي فيه قبور معلمة بأحجار وخشب. ثم ارتحلنا منه ومررنا بماء يقال له العبدية، وهي بئر كبير مطوي بحجر في سفح جبل ينزل إلى البسيط الذي فيه في منحذر صعب كان أحق باسم العقبة الصغيرة من المكان المسمى به، إلا أن العقبة

---

(1) ساقط من ط.

(2) قال العبدري: " وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة، والمغاربة يسمون بها ما ردت عين أقيان من غربي أجدابية إلى الإسكندرية، وذلك نحو من أربعين مرحلة، وأما عرب تلك الأرض فإني رأيتهم لا يسمون بها إلا ما رد الحصوى شرقا إلى أرض برنيق غربا، وهو الغابة، وما حاذاها من الساحل ومن القبلة، ويسمون ما رد الحصوى إلى العقبة الكبيرة البطنان، ومنها إلى الإسكندرية، لا ينكرون إلا العقبتين، وذلك مسيرة عشرة أيام" أنظر: رحلة العبدري، ص: 87- 88.

لما كانت في حدب ذاهب في البر يمينا لا غنى لأحد عن المرور به اشتهر اسمها، وهذا إنما هو على شفير البحر لا يمر به إلا من سلك ساحل البحر، وبإزاء العبدية ماء آخر يقال له مطيريح مصغرا، وهو آبار متعددة قريب ماؤها في بسيط من الأرض ذي قطف كثير يشرف على ذلك البسيط حاجب شبه جبل صغير فيه بيت منحوت في الحجر شبه الذي ذكرنا في البطنان، إلا أن هذا أصغر منه، وبعده ماء آخر يقال له مطروح مكبرا، وكان فيه نزولنا ظهرا، وسقى الناس إبلهم، وكانت قبل ذلك لا تشرب لكثرة العشب الرطب، والإبل إذا وجدت الكلأ الرطب لا تشرب ولو أقامت ما عسى، وما أذكر أن إبلنا شربت الماء الحي من قبل دخولها إلى طرابلس حتى وصلنا هنا، وأغرب من هذا[1] أنا عددنا للإبل سنة خمس وستين من يوم دخولنا مصر آيبين إلى أن خرجنا لبرقة وبلغنا الجابية تسعين يوما لم تشرب ماء حتى قرب الصيف وييس العشب وصار هشيما، وكذلك هذه السنة لم نر شدة الحر والجذب في الأرض إلى هذا المكان، وأما قبل ذلك فقل ما يخلو لنا يوم من ماء مطر و كلإ فوق الحاجة. وقدمت معنا غنم كثيرة من الجبل الأخضر جلبها التجار إلى مصر فما كانت غنمهم تجوع ولا تعطش، وأنعم الله على الحجاج بمرافقتهم لا تخلو لهم ليلة من شراء لحم بأرخص ثمن سيما التي أصابها الحَفاء[2] أو كلت عن المشي لسمنها، فيشترى ذلك بثمن بخس.

وبرقة في هذه السنة قد أنعم الله على وفده فيها، دخلوها في فصل الربيع فصادفوا ماء ومرعى، وقل ما تخلو لهم ليلة من لحم وسوق، إما مع عرب يصادفونهم، وإما مع المنتجعين معهم أو التجار الذين انضافوا إليهم إذ لا يقدرون على المشي وحدهم، فهم يتحينون قدوم الحاج حتى يذهبوا في خفارته، (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون)[3].

لطيفة:

ولما اشتد الحر كانت الغنم لا تقدر على المشي قائلة فيسوقها أصحابها آخر الليل، فإذا اشتد الحر قالوا بها حتى يلحقهم الركب عند هبوب الرياح وبرد الهواء

(1) في ط: نلك.
(2) الحفاء: رقة الحافر: لسان العرب: حفي.
(3) المنافقون: 8.

فيسيرون معه إلى المترل، ولما قربنا من العمران وتخوفوا أن يذهبوا وحدهم، اكتروا جماعة من الحجاج نحو العشرة يذهبون معهم بمكاحلهم آخر الليل ويتقـــدمون، فأعطوهم شاة لكل واحد، فزعم بعض الناس أن ذلك لا يجوز، وأنه ثمن الجـــاه، وخالفته في ذلك وقلت: إنما هذا كراؤهم في تقدمهم معهم وحملهم السلاح معهم خشية أن يقتطعهم أحد قبل وصول الركب، والجاه إنما هو للركـــب لا لهـــؤلاء الجماعة المتقدمين؛ إذ لو لقيهم أحد لم ينفعهم جاه الركب وهم غائبون عنه إلا أن يقاتل عنهم من معهم من الرماة، وقد أفتى الإمام ابن عرفة في بعـــض مرابطـــي إفريقية ممن كان يذهب مع القوافل بجواز أخذ الجعالة منهم، وقال إن ذلك عوضا عما كان يعطله من منافعه أيام ذهابه معهم، وأجرة على خطاه ومشيه لا علـــى جاهه كما نص عليه غير واحد من أصحابه، فهؤلاء أحدر بالجواز من ذلك.

ثم ارتحلنا من مطروح ونزلنا دون ماء يقال له المدار، وبالغد وجدنا دونـــه غديرا في رؤوس الشعاب أخذنا منه حاجتنا و لم نمر بالمدار، ونزلنا العقبة الصغيرة آخر ذلك اليوم، وبتنا على سانية هناك[1] بعيد ماؤها لم ينتفع منها بشيء إلا مـــن وصل الحبال بالحبال واستعمل في جذبها يديه معا على التوالي. وفي الغد ارتحلنـــا ونزلنا على ماء يقال له جميمة، وهي أحساء كثيرة في رملة بيضاء قريب ماؤهـــا طيب طعمه من أحسن المياه، وأقام الناس بها يوما لسقي الماء وشرب الإبل، وبات الحجاج ليلتهم وظلوا يومهم يخوضون في أمر الوباء لما تحققوه في الإســـكندرية[2] وما بإزائها وفي البحيرة ورشيد، وتحير الناس في أمره، فمن بين شديد الفزع مظهر الهلع يقول: نعطف من هنا يمينا إلى أوجلة ونقيم بها حتى يذهب الوباء، ولو فاتنا الحج، ونحج من قابل، وبئس ما رأى، ومن قوي القلب معتمد على الرب، يقول (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المومنون)[3]، فـــنحن بين إحدى الحسنيين، إما السلامة وحجة مبرورة، أو الشهادة ورحمة منشورة، لأننا مضطرون إلى الدخول بقصد الاجتياز لا بقصد الإقامة، ولا طريق لنـــا إلا مـــن هناك، والإقامة وإن قوي عليها البعض فالجل لا يقوون.

(1) في ط: هنالك.
(2) في ط: بالإسكندرية.
(3) التوبة:51.

ومال أكثر الناس مع صاحب هذا القول، وفي أثناء ذلك أنشأت هذه الأبيات متوسلا إلى الله بأحب ما يتوسل به إليه أن يكفينا ما يتقى من الشرور، خصوصا هذا الأمر المذكور، وتقبل الله دعاءنا، وكفانا شر ما أمامنا ووراءنا، وتلك سنته[1] فيمن التجأ إليه، و لم يجعل معوله إلا عليه، نسأل الله سبحانه وتعالى كما جعل بيننا وبين هذا الأمر أقوى جُنة، أن يكفينا كل هول دون الجنة، بجاه من توسلنا به إليه في هذه الأبيات، وإنما الأعمال بالنيات، وإني لأرجو من كرم الله تعالى، كما تقبل توسلنا وبلغنا فيما طلبنا منه سؤلنا وأظهر صدق إجابة دعوتنا في أنفسنا وأهلينا وأحبتنا، وأعطى من حضر معنا منهم ومن غاب أحسن ما أمل من المنح والرغبات، فكذلك يمن بجوده وإحسانه وعظيم امتنانه بإجابة دعوتنا وقبول رغبتنا في دفع عوارض الوقت المؤدية – لولا خفي لطفه – إلى عظيم المقت، وتبديل أنواع الشرور بأصناف السرور، ويرد كيد من كاد المسلمين في نحره، ويغرقه بسوء تدبيره في لج بحره، وينشر عافيته الدينية والدنيوية بين العباد، ويعم بالأمن والبركة كل البلاد، ويعلي منار السنة والجماعة، ويخمد نيران البدعة المشاعة، ويتولانا بما تولى به الصالحين من عباده، متوسلين إليه بمن ذكر في هذه الأبيات من أهل وداده.

وها أنا أمد يدي قائلا: يا من لا يخيب سائلا، ولا يمنع قائلا، يا من أملته راجيا، وناديته مناجيا:

[سريع]

يا حَي يا قيومُ يا ذا الجلالِ ... صَلِّ على محمدٍ ذي الجمَالْ

سَلِمْ عليهِ وارْضَ عن آلهِ ... وصحْبه أفْضلِ صحْبٍ وآلْ

واغفِرْ لهذا العبدِ أوزارَهُ ... وزَكِهِ في حالهِ والمَآلْ

وكُنْ لهُ عَوْنا على دهْرهِ ... وحُطهُ في دينِ ودُنيا ومالْ

وبَلغِ المأمولَ مِن حجةٍ ... وزَوْرة بها المرامُ ينالْ

ويَسرِ الأوْبة للأهْلِ في ... عافيةٍ ليسَ لها من زَوالْ

(1) في ط: سدنة.

وكـــنْ لنـــا ولهـــمُ أبـــدا حـــالَ إقامـــةٍ وحـــالَ ارتحـــالْ
واجمـــعْ بفـــضلِ منـــك مـــا بيننـــا وبينَ من نهْوى علـــى خـــيرِ حـــالْ
بالمُـــصْطفى والرسْـــل طُـــرا ومَـــن أحبّتَـــهُ مـــن النـــسَاء والرجـــالْ
إنـــا رجونـــاكَ لِنَيـــلِ المُـــنى ودفْعِ ما قـــد يُتقـــى مـــن وَبـــالْ
لا سِـــيما هـــذا الوبـــاءُ الـــذي أمَامنـــا عَجـــلْ لـــهُ بانتِقـــالْ
وطَهـــرِ الأرضَ بفـــضلكَ مِـــن رِجزِ يُـــذيقُ الخلـــقَ مـــن النكـــالْ
فطَعْنـــهُ قـــد فـــاقَ طعْـــنَ القنـــا والضربَ بالسيفِ وزُرْقِ النـــصالْ
لكنـــــهُ لمـــــا لجأْنـــــا إلى ســـيدنا فهْـــوَ ســـريعُ الـــزوالْ
يـــا رَب بالأسمـــاءِ بالـــذاتِ بالـــ أمْـــلاكِ بالرسْـــلِ بأهْـــلِ الكمـــالْ
بكـــلِ مَـــا أنزلـــتَ مـــن كُتُـــب بكـــلِ مـــا أوْدعْتـــها مِـــن مَقـــالْ
بـــاللوْحِ بـــالقلمِ بـــالعرْشِ بالـــ كُرسيِّ بالـــسر بحُجْـــب الجـــلالْ
يـــا رَب بالمختـــارِ خـــيرِ الـــورى محمـــدٍ قِبلـــةِ أهْـــلِ الوصـــالْ
بالـــصحْبِ والآلِ وأزواجِـــه بتـــابعيهمْ بحُـــسنِ الفِعـــالْ
بالعلمـــاءِ العـــاملينَ بمَـــن هذبتَ طُـــرا مِـــن ذمـــيم الخِـــلالْ
مـــن سَـــالكٍ أو عابـــدٍ زاهـــد أو ورِعٍ أو عـــارفٍ ذي اتـــصالْ
مثـــلَ أُويـــسِ القَـــرْنِيْ[1] ومَـــنْ يَمْـــشي علـــى منهاجِـــهِ باعتـــدالْ
مثـــلِ الجُنَيـــدِ[2] ومـــشايخهِ وصَحْبهِ ومَـــنْ لهـــم خيْـــر تـــالْ
في الحمْدِ والشكْرِ وصـــدقِ الرضـــا والحِلمِ والـــصبرِ وأكـــلِ الحـــلالْ

---

(1) أويس بن عامر المرادي القرني ذو المناقب الشهيرة، توفي في وقعة صفين: شذرات الذهب 1:46. سير أعلام النبلاء 4:24.

(2) أبو القاسم الجنيد بن محمد النهاوندي، ولد ونشأ في العراق، إمام متصوف، توفي سنة 297 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 340. شرف الطالب، ص: 46.

كالشيخِ عبـد القـادرِ المُرتَـضى الجيلـي[1] القُطـب يـومَ الـتزالْ

وكالإمـام الـشاذِلي[2] الـذي دعـا إلى الله بغـير اعـتِلالْ

بكـل أصـحابهما مَـنْ مـضى منهم ومـنْ يـأتي بغـيرِ انفـصالْ

بالبـدَوي[3] بالدسُـوقي[4] بمـن في السهلِ منهم أو رؤوسِ الجبـالْ

بالحـاتِمي بالرِّفـاعي[5] بمَـن في الشرق والغـربِ عـديمِ المثـالْ

بقُطـبِ ذا الوقـتِ بأوتـادهِ بالغوْثِ والأبـدالِ أهْـلِ النـوالْ

سَكنْ وأمـنْ روعـةَ النـاسِ مـنْ هـذا الوبـاءِ يـا شَـديدَ المحـالْ

كـمْ كربـةٍ فرجْتـها عنـهم وقـد غـدًا تفريجُهـا كالمُحـالْ

يـا ربنـا حُطنـا وكـنْ معنـا عـن الـيمين أبـدًا والـشمالْ

وارحَمْ جميـعَ الخلـقِ وارأفْ بهـم ولا تُـذِقْ وفـدَكَ أدنى الوَبـالْ

وقـدْ تبرأنـا إلى ربنَـا منْ كل حـوْلٍ عنـدنا واحتِيـالْ

عليـك يـا رب اعتمـادِي فـلا أرجـو سِـواكَ وعليـك اتكـالْ

فالـشكرُ لله علَـى فـضلِهِ والحمـدُ للهِ علـى كـل حـالْ

ثم الـصلاةُ والـسلامُ علـى مُحمـدٍ خـيرِ كـلامٍ يُقـالْ

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أبو الحسن علي الشاذلي المغربي، الإمام المتصوف، توفي بالحجاز سنة 656 هـ: لقط الفرائد، ص: 72. مرآة المحاسن، ص: 259.

(3) الشيخ أحمد بن علي بن محمد البدوي، العارف الواصل، سكن والده المغرب فولد له صاحب الترجمة بفاس سنة 596 هـ، ونشأ بها وحفظ القرآن، وقرأ شيئا من فقه الشافعي وحج أبوه به وبأخويه سنة ست وستمائة وأقاموا بمكة، ومات أبوه سنة 627 هـ، فرحل إلى مصر وبها توفي سنة 675 هـ: شذرات الذهب 3:345.

(4) إبراهيم الدسوقي الهاشمي الشافعي القرشي، شيخ الخرقة البرهامية، صاحب الأحوال والمقامات، توفي سنة 676 هـ: شذرات الذهب 3:350.

(5) أحمد بن علي بن أحمد، أبو العباس الرفاعي المغربي الأصل، ولد في المحرم سنة خمسمائة، وتخرج بخاله الشيخ منصور الزاهد، انضم إليه خلق من الفقراء وأحسنوا فيه الاعتقاد وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم الأحمدية والبطائحية، توفي سنة 578 هـ: طبقات الشافعية 2:5. سير أعلام النبلاء 21:142.

فـــذلك الحِـــصْنُ الحـــصينُ الـــذي بـــــهِ عثــــارُ المــــذنبينَ تُقـــالْ

مـــنْ حلــةُ قـــد احتمـــى بحِمـــى رَب كـــــريم مُـــنعم مُتعــــالْ

ثم ارتحلنا من حميمة، وفي الغد أتى الناس إلى ماء يقال له العميديين، وهـــي آبار في صخر سافل البحر قد غطى الرمل كثيرا منها، وعليها حصار مبني بنـــاء محكما في غاية الإتقان كهيئة أبراج الإسكندرية، إلا أنه قد الهد منه جانب، ولقينا عليه أعرابا كثيرة معهم حاكم عرب البحيرة، وأخبرونا عن الإسكندرية أن الوباء قد خف فيها، وأن البحيرة قد كثر فيها، وأن مصر بفضل الله وحلمه وستره سالمة منه. وتقوى عزم الناس على أن يتنكبوا الإسكندرية ويتركوها يسارا ويذهبون إلى مصر، وذهب إلى الإسكندرية طائفة قليلة من الناس ممن لهم بها أهل أو بضائع.

وكتبت من هناك كتاب سلام واستغاثة إلى القطب العارف بالله المجمع على ولايته واستقامته الشيخ أبي العباس المرسي[1] من جملة قصيدة توسلت فيها[2] إلى الله بجاهه أن يذهب عنا كل بؤس، ويكفينا شر الوباء، وبعثتها مع بعض أصحابنا من سكان الإسكندرية وأمرته أن يقرأها أمام وجهه الشريف، ثم يلصقها في الحـــائط يمين المحراب فإن هناك أيضا قصيدة لي ملصقة كتبتها سنة أربع وستين، وســـيأتي ذكرها عند ذكرنا الدخول[3] الإسكندرية في الإياب إن شاء الله، ولنذكر هنا هذه القصيدة وهي هذه:

[طويل]

ملاذِي إذا ضاقَتْ لكُربتها نفْـــسي وغوثِي أبو العَباس ســـيدُنا المُرْســـي

رئيسُ ذوي العرفانِ في كـــل بَلـــدة ووارثُ علمِ الـــشاذلِي بـــلا لُـــبسِ

محبتـــهُ ذُخـــري لكـــل مُلمـــة وأمْني في خوفِي وفي وحْشتِي أنْـــسِي

فمنْ صح من أهْلِ السلوكِ انتـــسابُهُ إليهِ أيخْشَى صوْلَة الجِـــن و الإنـــسِ

وإنِي مِـــن حُـــبي لـــه مُتطفـــل عليهِ وما تابعتُ منْهجَـــهُ القُدســـي

(1) أحمد بن عمر، أبو العباس المرسي، فقيه متصوف من أهل الأندلس، استقر بمصر وبها توفي سنة 686 هـ: الأعلام 1: 138.
(2) في ط: بها.
(3) في ط: دخولنا.

عساهُ بفضلِ منه يجذبُني إلى ... هُداه ويحميني من الرجزِ والرجْسِ

لقد حازَ فخرا دانَ من بعده له ... وناهيكَ من فضلِ له بانَ للحِس

تفَرسَ فيه شيخهُ وهْو صادِق ... تفَرسَ بَرٌّ صادقِ الظن والحدْسِ

فقالَ أبو العباس لو جاءَهُ امرُؤ ... يبولُ على ساقَيْهِ في غايةِ النجْس(1)

لَوَصَّلهُ لِلِه في لحظةٍ وهل ... يخافُ امرؤٌ بعد الوصولِ من النكْسِ

وقد قال فيه إنهُ الرجلُ الذي ... غدا كامِلا بينَ الأئمةِ في الجنْسِ

فأَكْرِمْ بها من قولةٍ بلغَتْ بهِ ... إلى رتبةٍ من دونها رتبةَ الشمسِ

لذاك التجأتُ نحوهُ وجعلتُهُ ... ملاذي وإنْ قصرتُ في اليوم والأمْسِ

ووجهتُ وجْهي نحوهُ فطريقُهُ ... شدَدْتُ عليها بالنواجد والضرْسِ

فيا سيدي إني نَوَيتُ زيارة ... وتمريغَ وجهي في ثرى ذلك الرمْسِ

وذاكَ مُنَايَ لو ظفرتُ ببعضِهِ ... فكانَ قضاءُ الله في ذاكَ بالعكسِ

ونَوبّتُ لَما عاقني عنكَ ما ترى ... ثنائِيَ مرقُوما على صفحةِ الطرْسِ

هنيئا لمنْ قد زارَ قبرك سيدي ... وكان لأرضِ القبر بالوجهِ ذا لمْسِ

رضيتُ بما يَقْضي به الله مُذْعِنا ... وإن شفَّني ما نالني عنكَ من حبْسِ

فإني لستُ عن حِماكَ بِخارج ... وإن كنتُ في أقصى المغاربِ ذا نحْسِ

فكيف أُراعُ بعد قربكَ بالعدا ... منَ الناسِ طُرا أو من الجِن بالمَس

فأنتَ رئيسُ الأولياءِ فكنْ لنا ... بفضلكَ من شر الوبا أعظمَ الترْسِ

لتشفعْ لنا لله يُذْهب بشر ما ... نخافُ من الطاعونِ يُصبحُ أو يُمسي

ويُبْلغنا ما نرتجي من إقامَة ... بطيبةَ بعد الحج والمشْي للقدْسِ

(1) في ط: النحس.

ويرجعَنــا مــن بعــدِ ذا لبلادِنــا   بأعظمِ أجرٍ دونَ نقص ولا وكْسِ[1]

بجاهِ رسولِ الله أفـضلِ مــنْ أتــى   من الله بالتوحيدِ والصومِ والخَمْــسِ

عليــه صــلاةُ الله ثم ســـلامُهُ   يكونانِ لي في وحشتي غايةَ الأُنْــسِ

وتغرِس وسْطَ القلبِ من حب خــالقي   وحُب الرسول المصطفى أطْيَب الغَرْسِ

ثم ارتحلنا من العميديين وعدلنا عن طريق الإسكندرية يمينا في أرض طيبة كثيرة آثار البناء جمة المرعى، وظهرت لنا عن اليسار على ساحل البحر قرية أبو صير وصومعة مسجدها إلى الآن ماثلة في الهواء، وهي خالية، وبتنا في مقابلة الإسكندرية. ثم ارتحلنا من هناك وفارقنا من كان معنا من الأعراب الذاهبين للبحيرة ومعهم الأمير يونس الدرازي[2]، وكان ذهب مغاضبا لحاكم بلده إلى درنة ثم رجع وجاء معنا خائفا من الهنادي[3]؛ طائفة من السلالمة، ومعه كثيبة من إخوانهم البهجة والأبراد، فلما قابلنا[4] الحوش فارقنا الدرازي ومن معه. ثم في الغد أتينا ضحى إلى وادي الرهبان ونزلنا به، وهو وادي كبير ذو رمل، وفيه فسلان[5] نخل، وماؤه كثير. ولما نزلنا واشتد الحر وكان الماء بعيدا منا فأردنا الذهاب إلى الماء، ثم إنا بحثنا في الرمل بإزاء خبائنا فوجدناه ثريا، ثم تابعنا البحث نحو ذراع فبلغنا إلى ماء حلو طيب جدا كماء النيل، فإذا الوادي كله على ذلك الوصف، فحفر كل واحد بباب خبائه ما أراده للشرب والوضوء، و لم يذهب إلى الموارد إلا من شاء سقي الإبل، وغالب الناس سقوها هناك. وكان نزولنا بهذا الوادي يوم الخميس الثاني والعشرين من رمضان. وهناك أنشأت أبياتا متوسلا إلى الله ومستغيثا به بمن في مصر من الأولياء في دفع شر الوباء لضيق القلوب وترادف الكروب من شأنه على الحجاج وعلينا معهم، إذ لا شيء أحب إلى الإنسان من نفسه، فإذا أحس بأدنى شيء يكون فيه إتلافها فلا تسأل عما يلحقه من الجزع والفزع، سيما مثلنا ممن استولت الغفلة على قلبه وغلب عليه حب البقاء، و لم

(1) الوكس: النقص: لسان العرب: وكس.
(2) في ط: الدراني.
(3) الهنادي: قبيلة تقيم بمصر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة 1: 196.
(4) في ط: فارقنا.
(5) الفسلان: جمع فسياة؛ وهي الصغيرة من النخل، والجمع فَسائل وفَسيل، والفُسْلان جمع الجمع: لسان العرب: فسل.

يشعر قلبه أن طلب البقاء في محل الفناء ضرب من الهوس، وما ذاك إلا من ضعف يقيننا ومحبتنا في الله، ولو أحببناه لأحببنا لقاءه، فإن الطاعون، وإن كان رجزا، فهو شهادة، وحب الشهادة من الإيمان، إلا أن الاستيناس بضوء هذا العالم وشدة ألفة الروح التي هي من العلم[1] العلوي بالبدن الذي هو من العلم[2] السفلي غلب على حب الشهادة الذي هو أثر الإيمان الضعيف. فنسأل الله أن يقوي قلوبنا ويفرج بالتسليم لقضائه كروبنا حتى لا يكربنا إلا ما فيه الإثم، ولا نفرح إلا برضوانه الذي هو غاية الغنم. اللهم طيبنا للموت واجعل فيه راحتنا يا أرحم الراحمين، وهذا مطلع القصيدة:

[بسيط]

الحمدُ لله حمْدَ من بُليَ فدعَا[3] والشكرُ لله شكرَ من إليهِ سعَى

ثم الصلاةُ وأفضلُ السلامِ على أفضلُ منْ لِذِمامِ الوافدينَ رَعى

محمدٍ المُصطفى وآلهِ وعلى أصحابهِ وجميعِ منْ لهُ تبعَا

و رضيَ اللهُ عن كلِ أئِمتنا منْ أظهروا دينَهُ وأخمدوا البدَعا

أهلِ المذاهبِ أربابِ المواهبِ أهْـ ـلِ النفعِ والدفعِ غوثِ المرءِ إن جزعَا

بهم توسلُنا لله[4] يَحفظنا من كل سُوءٍ ويُولينا الذي نَفَعا

يا سادةَ الناسِ يا أهلَ الولايةِ يا منْ لا يُخَيبُ منْ في برهم طَمعا

إنا لنقرعُ بابَ الله حافِظِنا بكم وما خابَ من لِبابهِ قرعا

يا أيها الشافِعي الحَبر عبدكُمُ إلى حماكم مخافةَ الردى نزعَا

مثلَكَ من يمنعُ الجارَ فجاركُمُ من كل سوءٍ بفضلِ الله قد منعَا

لك التصرف في هذي البلاد فلا يخيب عبد لغيث جودك انتجعا

---

(1) في ط: العالم.
(2) في ط: العالم.
(3) في ط: فزعا.
(4) في الأصل: للإله.

فاحْمِ أجْرِ وأغِثْ عبدا لبابكَ قد حَث الركابَ ولم يعْبأ بمن دفعَا
يا أهلَ مِصرَ قد اشتقنا زيارتكُمْ وقد سمعنا بما في أرضِكُم وقَعا
وفيكم من رجالِ الله طائفَة قد لازموا الصدقَ والتفويضَ والورعَا
لو أقسَمُوا لأبَر الله عن عجَل قسَمهُم وأزالَ الرجزَ والوجعا
ألا اشفعُوا فلعل الله يرفعه بفضلكم فلأنتم خيرُ من شفَعَا
يا أيها السيدُ المُرسي وتلميذهُ العَرْشي ومن نورهُ بالثغرِ قد سطعا
يا سادةَ الريفِ يا أهلَ البساطِ ويا أهلَ القرافةِ قد ناديتكم جمعا
يا سيدي البدوي والدسوقي ويا سيدَنا الحَنَفي يا غوثَ من فزعا
إننا نناديكُمُ في كل نائبَةٍ ومثلكم لنداءِ العبدِ من سَمعا
كم كُربة ضاقَ قلبُ المستجيرِ بها فرَّجتمُوها فعادَ الضيقُ مُتسعا
صلى الإلهُ على الهادِي وعِترتهِ صلاةَ عبدٍ متى خافَ الكروبَ دعا

وإنما سمي هذا الوادي وادي الرهبان لأن فيه رهبان النصارى يتعبدون في ديور أربعة، كل طائفة في دير، ولا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم، وليس لهم زرع ولا ضرع، وأهل الذمة من النصارى الذين بمصر يعاملونهم ويبعثون إليهم بالنذور والصدقات من الطعام والكسوة، ولم نصل إلى محل هؤلاء الرهبان، بل بيننا وبينهم رؤية العين، ومن هناك تمر الطريق التي تأتي من مصر إلى أوجلة، ولما تهيأنا للرحيل جاء شيخ عرب البهجة وحذر أمير الركب من عرب هذا البلد، وأخذ الناس حذرهم منهم، وهم عرب سوء، بل عرب السلالمة كلهم لا خير فيهم، والسلالمة طوائف ثلاثة، الهنادي والبهجة والأفراد، وهم الذين يسكنون أطراف البحيرة إلى الإسكندرية إلى ما بين العقيق، وهم كثيرون، وانضاف إليهم كثير من عرب برقة وطرابلس ممن يفر من جور عمال طرابلس وممن يرغب في سعة العيش من متفقرتهم كالجوائس[1] وبعض هوارة والفواخر وغير ذلك من طوائفهم، وهم تارة يذعنون ويدعون طاعة السلطان وتناهم الأحكام فيخف

(1) في ط: الجوابس.

ضررهم، وتارة ينقضون (وينكثون)[1]، وقد ألقى الله العداوة بينهم في هذه الأواخر فيستحيش طائفة منهم على الأخرى بالترك، وتستعين بهم حتى يكاد يجلوهم من البلاد ثم ترجع الطائفة الأخرى إلى الطاعة وتستميل وجوه الجند على الآخرين ويفعلون بهم مثل ذلك، والترك لا يبالون بما أضعفوا وأوهنوا أي الفريقين لشدة شوكتهم على الجميع، والدولة الآن في هذا الوقت مع الهنادي، ومن انضاف إليهم من المغاربة وضعف أمر البهجة والأفراد، وقد فرح الحجاج بما نال هؤلاء الأعراب من التفرقة والضعف فإنهم في سنة خمس وخمسين قد عارضوا الركب فيما بين العقبتين، وأمير الحجاج الحاج عمران، وعزموا على نهبهم، فلما علم الحجاج بذلك نزلوا وباتوا، فلما كان عند طلوع الشمس جاؤوا بخيلهم ورجلهم، وأحاطوا[2] بالركب، فصبر الحجاج صبر الكرام وقاتلوهم أشد القتال، وقتل الحجاج بعض خيل الأعراب وجرح كثير من الفريقين[3]، وكان في الركب جماعة من حجاج أهل تادلا نحو الأربعين صعلوكا، فصدقوا القتال، ولولاهم مع لطف الله كاد الركب أن ينهب على ما أخبرونا، فلما أيس العرب منهم وعلموا صبرهم على القتال انصرفوا عنهم وقالوا: ظنناكم تجارا، وهم كاذبون، ثم ارتحل الحجاج وكفاهم الله شرهم، ومن ذلك الوقت لم تقم لعرب السلالمة قائمة ببركة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسلط الله عليهم الترك يطردونهم كل مطرد، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مرارا متعددة، وهم الآن يهابون الركب بعض الهيبة لعلمهم أن ما أصابهم إنما هو ببركة الحجاج، وقد جرت عادة الله تبارك وتعالى، وله أعظم حمد وأجل شكر في ذلك بأن لا يهمل من تعرض ركب الحجاج، وفد الله ووفد رسوله، فينزل بهم من البلاء عاجلا ما يتعرفون به بركتهم ويكفهم عن معاودة أمثال ذلك، وقد شاهدنا ذلك في قوم كثيرين من أهل برقة وإفريقية والمغرب، ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته بهم بالانتقام ممن رامهم لتعطلت طريق الحاج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم وقلتهم وبعد الشقة عليهم، فكم من قصر ومصر وإقليم يقطعونه بلا عسكر ولا عدة ولا عدد ولكن:

[بسيط]

---

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: فأحاطوا.
(3) في ط: الأعراب.

وِقايةُ الله أغنَتْ عن مُضاعفة من الدروعِ وعن عَالٍ من الأطُمِ[1]

نسأل الله تبارك وتعالى بجوده وإحسانه العميم وبركة نبيه الكريم أن يحمي وفد بيته بما به حمى بيته، وينصر زوار رسوله بما به نصر رسوله، وأن لا يقطع الطريق بيننا وبين تلك الأماكن المشرفة والبقاع المطهرة، فما دمنا نرى في كل سنة طائفة ممن قدم تلك المعاهد وورد من تلك الموارد، وتشرف برؤية البيت العتيق والمسجد الحرام، ووقف بالمشاعر ونسك المناسك العظام، وصلى بين قبره ومنبره، عليه السلام، وزار محله الشريف ومحل أصحابه الأعلام، فلا نشك أن مدد ذلك يسري في أدياننا وبلادنا وأبداننا وسائر متعلقاتنا. ولو انقطعت رؤيتهم، ونعوذ بالله من ذلك، لاختل النظام وانقطع الخير بين الأنام.

ولما ارتحلنا من وادي الرهبان انحدرنا مع الوادي على جانبه حتى جاوزنا مقابلة وادي اليطرون، وهو وادي فيه معدن اليطرون ومنه يحمل إلى مصر وغيرها، ثم تركنا الوادي يمينا وعدلنا شمالا وسرنا في أرض مسترملة لا كلأ فيها، وباتت الإبل تلك الليلة لم تأكل شيئا. وفي الغد ارتحلنا، وقبل الظهر تراءى لنا بعضٍ قرى الريف، فلما قربنا منها تأخر بعض الحجاج، فلحق به فارسان فسلباه وهمّا[2] بأخذه، يظنانه[3] عبدا لسواده، فصاح وسمعه الناس وتصايحوا، فاجتمع الركب وأتبعهما الناس فلم يلحقوا بهما ورجعوا، فسرنا إلى أن نزلنا مقابلة[4] المنصورية عشاء، وظهرت لنا قرى الريف، وكان بعضها قريبا منا، فذهب سُرعانُ الناس إليها يتجسسون الأخبار عن الوباء، فأخبرهم أهل القرى بسلامة القاهرة وأحوازها منه، فبات الناس في سرور كامل ونعمة شاملة، نسأل الله أن يكمل علينا ذلك[5].

ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا فتقدموا مع من تقدم إلى القاهرة ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر، لأن كثيرا من الحجاج ينزلون بطولون ليقربوا من الرملة محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا

---

(1) البيت من بردة البوصيري (ضمن مجموع مهمات المتون)، ص: 56.
(2) في ط: فسلبوه وهموا.
(3) في ط: يظنونه.
(4) في ط: مقابل.
(5) ساقط من ط.

تجارة يترل بالوكائل. ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا، ونزول الوكائل لا يليق بنا لضيق بيوتها ونحن جماعة كثيرة، إذ لا يسعنا وأتباعنا إلا مترل واسع كثير المساكن جامعا للمرافق، وكتبنا له إلى محبنا وأخينا في الله الشيخ علي الدمشيتي ليبذل مجهوده في ذلك.

ولما أصبحنا ارتحلنا وسلكنا بين القرى و لم نأخذ طريق البر لبعدها. وما كان يحمل الناس عليها في غير هذا الوقت إلا فيضان النيل، فلا يتمكن المارون من السلوك فيما بين القرى من كثرة المياه، وفي هذا الوقت وجدنا البلد يابسا لا ماء فيه، إذ لم يأت وقته، ثم مررنا بالمنصورية ثم بقرية وسيم ثم بغير ذلك من القرى، إلى أن نزلنا خارج أنبابة ضحى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان الموفي خمسين يوما من يوم خروجنا من بلد سيدي أحمد زروق آخر العمران من عمالة طرابلس، و لم تكن هذه المدة كلها مشيا، بل فيها نحو الخمسة أيام إقامة، وخلص للمشي خمس وأربعون يوما من مسراتة إلى مصر، و لم يعهد قطع هذه المسافة في مثل هذه المدة إلا في النادر، وأعاننا على ذلك مع تيسير المولى جل جلاله اعتدال الهواء وطول النهار مع وجود الكلإ وشبع الإبل، وكنا نقطع هذه المسافة قبل هذه تارة في شهرين وتارة في شهرين ونصف، وربما مكثنا فيها إذا كان فصل الشتاء ثلاثة أشهر. ولما نزلنا بأنبابة تسارع الناس لشراء الفاكهة واللحم وطعام الحاضرة لبعد عهدهم بذلك.

وأنبابة هذه مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما في القاهرة، وهي بالجانب الغربي في مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقي، وأقمنا بها يومنا ذلك في أرغد عيش شبعا وريا، وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذي هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته ظاهرة للعيان في مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه، بيد أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك رقابهم فضلا عن أموالهم، ولا يجدون عن ذلك محيصا، بمنعة أو فرار، حتى أن أحدهم لو أراد أن يتخلى عن السبب ويترك الزراعة والفلاحة لم يتركوه، ولو فر لاتبعوه حتى يأتون به أينما كان، حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل منهم شفاعة شافع، فيعدون منهم من يريد أن

يتخلى عن الزرعة والفلاحة، (قاتلهم الله أنى يوفكون)[1]، لا هم ينصفون ويخففون عنهم من المظالم، ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاؤوا يسيحون في الأرض يرزقون كما ترزق الطير بالالتقاط من نبات الأرض وخشاشها فتغدوا خماصا وتروح بطانا، اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا، (والله من ورائهم محيط)[2]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر المؤرخون أن مصر لابد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار، والأخرى في غاية الذل والاحتقار[3]، وقد صدقوا؛ قد[4] كان بها فرعون وملأه فلم ينته دون أن قال: (أنا ربكم الأعلى)[5]، وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم)[6]، ثم لم تزل كذلك، وإنها في زمننا بل قبله بأزمان لعلى مثل ذلك الوصف، فبشواتها وصناجقها وولاتها وحكامها، بل وسائر جندها وعسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا وختم على سمعه وقلبه فلا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا، أينما بدت[7] لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها؛ إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله، إما مع رقبته أو بدونها إن كان في العمر فسحة، وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته، وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما هم فيه من الإهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم، ولا مشتكى لهم إلا الله، ومن تجاسر منهم واشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

قلت: ولعل (ذلك)[8] لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة، قد تربوا على الذل والاحتقار، وزالت الرئاسة وحبها من قلوبهم، بل لم تسكنها قط، فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة والتفت أدنى التفات لإصلاح حاله، لم يبق مانع بينه وبين ذلك، لأن أكبر الموانع وأعظم الآفات حب الرئاسة. ومن جال في أرياف مصر واستخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا، ومن لم يجل فليطالع الأخبار

---

(1) التوبة:30، المنافقون: 4.
(2) البروج: 20.
(3) في ط: الاستحقار.
(4) في ط: لقد.
(5) النازعات: 24.
(6) القصص: 4.
(7) في ط: تبدو.
(8) زيادة من ط.

في الكتب المؤلفة في ذلك، كطبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، وغيرها يرى مصداق ذلك. وأخبار مصر وظلم الولاة بها وغش الباعة وحيل المتسببين ومكر العاملين أعظم من أن تحصى، ولا غرض في تتبع ذلك، ومن أراده فليسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك، وأيضا جل ذلك لم نشاهده وإنما يجري على ألسنة الناس من أهلها والمجاورين بها وبعض الواردين عليها، وغالبها لا يخلو من كذب ومغالاة، فترهنا أقلامنا أن نكتب ما لا نتحقق علمه ولا يغلب على الظن صدقه، سيما إن خلا عن فائدة دينية أو دنيوية، بل كان مجرد ملاحة[1] أو مفاكهة.

وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا، لا تستغرب شيئا مما يحكى عنها من خير أو شر، ومصداق ذلك ما حدثنيه بعض أصحابنا من التجار في سنة أربع وستين قال: لما دخلت[2] مصر في حدود الخمسين سكنت في بعض الوكائل، وكان من قدر الله أن اجتمعنا في محل واحد جماعة منا فلان وفلان تجار، وفلان طالب علم، وفلان ممن يميل إلى طريق[3] الفقر، وفلان وفلان من أهل المجون، ذكر كلا بأسمائهم، قال: فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته، فإذا جن الليل جمعنا المترل فنتحدث بما رأينا، فيقول التاجر: ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهلها كلهم تجار، ويحكي من ذلك حكاية ما شاهد، ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك، وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن، فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد، فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره، ومن استعملها في غيره فكذلك، وقد ذكر ابن خلدون في كتابه: كتاب منتهى العبر[4] أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له: أقول لك فيها قولا وأختصر، من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة

(1) في ط: ملح.
(2) في ط: دخلنا.
(3) في ط: لطريق.
(4) قال ابن خلدون في رحلته: " وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس، الفقيه الكاتب أبو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان، منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسأله عن القاهرة فقال: أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار: عن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها اتساع الخاطر عن كل محسوس، إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها ": رحلة ابن خلدون، ص: 286.

الحس، فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيل، ومصر بخلاف ذلك؛ كل ما تخيلت فيها، فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك. وسئل آخر عنها فقال: كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد، كل واحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه.

وقد أخبرني شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي[1] فقال لي: من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشي في أزقتها وأسواقها على مهل وسكينة وتؤدة، بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا في سيره، إن كان راكبا فراكبا، وإن كان ماشيا فماشيا فكذلك. فتأملت ما ذكر لي فوجدته صادقا، وسبب ذلك، و الله أعلم أمران، أحدهما الرغبة والحرص المستكن في القلب فيحمل الإنسان أن لا يفوته شيء من أغراضه، وهو يظن أنه لو توانى في مشيه لفاته غرض مع كثرة الأغراض وتزاحم الأشغال، والآخر كثرة الزحام في الأسواق، فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما، فإذا خرجت منه لآخر وجدته مثله أو أشد، وقد شاهدنا الناس في بعض الأسواق تارة يقفون هنيئة لا يقدر أحد على أن يتحرك يمينا ولا شمالا من غير أن يكون هناك حاصر لهم من أمام إلا الزحام، وربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر فيهم[2] بعض تحرك، فيندفعون مثل السيل إذا اجتمع في مكان ضيق، فيدفع بعضه بعضا حتى ينفجر من جهة، فسبحان خالقهم ورازقهم وعالم نياتهم وضمائرهم، (يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)[3] (لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[4]، (رب السماوات والأرض وما بينهما)[5]، (العزيز الحكيم)[6].

وأخبار مصر وما فيها من العجائب وجميع ما يحتج إليه من أحوالها مستوفى في التواريخ فلا نطيل بكثير منه، وأحسن كتاب جامع في ذلك مع الاختصار كتاب: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي فإنه مفيد جدا،

---

(1) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، المصري الحنفي، فقيه محدث، ولد سنة 979هـ، تولى منصب قاضي القضاة بمصر، توفي سنة 1069 هـ: خلاصة الأثر 331: 1، فهرس الفهارس 377:1.
(2) في ط: لهم.
(3) القصص: 69.
(4) النمل: 26.
(5) الشعراء: 24، الصافات: 5، ص: 66.
(6) البقرة: 129.

ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة وأشياء قليلة مــن العــوارض المشخصات.

ولما نزلنا بأنبابة رددنا إبلنا مع بعض أصحابنا وما لا نحتاجه من الأثاث إلى قرية المنشية وبها بعض أصحابنا من الفلاحين، وقد تعرضوا لنا بالمنصورية، وتلك عادة الفلاحين عند قدوم الركب يتعرضونه ويتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل ويتركوها عندهم أمد الإقامة طلوعا ورجوعا، وهم كما قيل: الحرص على الأمانة دليل[1] الخيانة، فلا ترى أعجب من تلطفهم ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج، فيحلفون بالإيمان المغلظة على أداء الأمانــة وبــذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم، ولو من جربهم مرارا، ثم عند المفاصــلة قلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس، و من أمثال الحجاج: المال المودع بعْ وانتفع، فالعاقل من باع ما فضل عنه من إبله أو ضاع، ومتى احتاج اشترى. ولكن رزق يسوقه الله للفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد في قطعه، ففي كل مرة نقول: متى رجعنا لا نودع عند أحد، فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق[2] مــن وعــدهم الكاذب حتى نقع في حبائلهم ونتورط في مخالبهم التي يعسر الخروج منها بــدين سالم وعرض مصون.

وعندما رجع الفلاحون بالإبل رجع معهم إلى قرى الريف غالب من خاف الوباء من الحجاج، فإنا لما نزلنا أنبابة خرج للقائنا من سبقنا في البحر من أصحابنا المغاربة، وأخبرونا أن الوباء في محال قليلة بمصر، إلا أنه قليل، ومات منه جماعة من أهل مراكش القادمين في البحر، فلأجل ذلك رجع إلى الريف من تخوفه ونحــن اعتمدنا على الله وقلنا: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[3]، وما خاف ذو جد إذا هــو حسبلا

ثم في الغد من يوم نزولنا بأنبابة، وهو السادس والعشرون من رمضان قطعنا النيل إلى مصر، ووجدنا النيل في غاية ما يكون من النقصان، قد انحسر الماء عــن بقاع كثيرة في وسطه، فكأنه واد من أودية المغرب الكبار. ولما نزلنا بمرسى بولاق جمعنا أمتعتنا واكترينا لحملانها إلى الأزهر ثلاثة من الإبل.

---

(1) في ط: بدل.
(2) في ط: به رق.
(3) آل عمران: 173.

عجيبة:

ومما يتعجب منه ما يحمله الجمالون بمصر على إبلهم، فمن ذلك أنا قطعنا معنا بما كانت تحمله إبلنا تسعة عشر أو عشرون، فحملوا كل ذلك على ثلاثة، وقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليها، يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الحطب والتبن وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه، ثم يدخلونها السفينة كذلك وينيخونها فيها بأحمالها على ظهورها، ثم يخرجونها منها كذلك وقد ألفت إبلهم ذلك، وأما إبلنا فلا يدخل منها جمل إلى المركب إلا بعد عناء شديد ووثاق وثيق وضرب عنيف وإدارة الرجال بها بعضهم يحملها، وبعضهم يضربها. ولقينا هناك صاحبنا الشيخ علي الدمشيتي، فجزاه الله خيرا على صدق محبته وخلوص مودته.

لطيفة وعظيمة:

والشيء بالشيء يذكر، ذكر الشعراني في طبقاته، عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر، أنه كثرت إذاية أهل القرية التي هو بها له، فعزم على الخروج منها، فاكترى جمالا لحمل أمتعته، فأتي بجمل فجعل يلقي عليه كل ما كان من الأمتعة، فلما أكثر عليه قال له الشيخ: إنك قد ثقلت على هذا الجمل. فقال له صبي هناك: يا عم، إن الجمل يحمل أكثر من هذا، فتفكر في نفسه و قال: هذا خطاب من الحق لي، فإذا كان الجمل، وهو من الحيوانات العجم لا يعقل ولا يرجو ثوابا، يحمل أكثر من هذا، فكيف لا أتحمل أنا أكثر من هذا من إذاية الخلق، فحط أمتعته ورجع، فسمع منشدا:

[بسيط]

إن الجِمالَ التي بالحملِ قد عُرِفت   تأبى العياءَ ولو مُست من القتَب

ذكر دخولنا إلى القاهرة[1] (حفظها الله وأمَّنها)[2]

ثم دخلنا إلى[3] القاهرة ضحى، و لم نجد داراً للكراء بقرب الأزهر مع شدة رغبتنا في ذلك، فطرحنا أمتعتنا بوكالة قايت باي بباب الأزهر الغربي، وجعلنا نتطلب داراً للسكنى، فما وجدناها إلا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية، وجدنا هناك داراً واسعة فيها عدة مساكن، إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو من أربعمائة خطوة قريبة من مشهد الحسين، رضي الله عنه، واكتريناها بثلاثة وسبعين نصفاً، ونقلنا إليها أمتعتنا.

ووجدنا الوباء بالقاهرة كما بلغنا، إلا أنه خفيف[4]، يُصَلى في الجامع الأزهر كل يوم على نحو من عشرة، ومن علم حال مصر وما يموت فيها أيام سلامتها من هذا العارض يرى هذا، مع وجود الوباء، كلا شيء، وقد حكى لي بعض الأصحاب أن الوباء وقع بمصر مرة فكثر الموت حتى كان يدفن في اليوم الواحد أربعون[5] ألفاً، فهمَّ الباشا وأتباعه بالخروج من مصر والفرار لما شاهد من كثرة الموت، فلما فشا خبر إرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة والرأي فقال له: بلغني أنك تريد الخروج، فما الذي يخرجك؟. فقال[6]: هذا الموت الذريع الذي وقع في الناس. فقال له: وأي موت هنا، ابعث إلى شيوخ الحومات بمصر يعدوا لك كم من حومة بمصر، فبعث إليهم، فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفاً، فقال له ذلك الشيخ: أ لم أقل لك أي موت هناك، إنما هذا ميت من كل حومة، فهو إما عبد أو صبي أو امرأة. فلما سمع الباشا ذلك خَفَّ عليه الأمر فجلس.

(1) في خ: مصر.
(2) زيادة من ط.
(3) ساقط من ط.
(4) في ط: ضعيف.
(5) في خ: أربعين.
(6) في ط: قال.

وممن لقيته من مشايخنا في ذلك اليوم الشيخ عبد الجواد الطريني[1]، ووجدناه قد أسنَّ، وهو مع ذلك ملازم لباب خلوته في الجامع كما هو شأنه رضي الله عنه. ولقيت أيضاً في ذلك اليوم شيخنا الهمام علم الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، أبا إسحاق إبراهيم الميموني[2]، وقد أثَّر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله، ومع ذلك قد متع بسمعه وبصره وبنضارة الوجه على كبره، دخلت عليه بعد العصر فوجدته يُصَحِّح مع بعض الطلبة تأليفاً له في مباحث تتعلَّق بقوله تعالى: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم)[3]، الآية، مع آية[4] أخرى أتى فيه بالعجب العجاب، وهَشَّ رضي الله عنه للقائنا وبش وطش[5] مزن ترحيبه بماء المحبة ورش، وبالغ في التحفي والسؤال عن الأحوال، وأقسم أن لو كــان في منزله سعة لما نزلتم إلا عندي إلى أوان الارتحال، وعزم علينا أن نفطر عنده تلــك الليلة مع جماعة من الإخوان، ففعلنا وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة سبع وعشرين، وفي الحقيقة كل الليالي بذلك المسجد كليلة القدر لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار لا تنقطع منه العبادة ليلاً ولا نهــاراً، صيفاً وشتاء، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها، وإن خص هو بهذه الفضيلة، فغير مــستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل، إذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة، ولو سلم ذلك، ففي الفاضل من الفضائل ما يكون فضيلة المفضول الذي اختص بها بالنسبة إليها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فبتحقيق هذه القاعــدة تنحل إشكالات كثيرة في التفضيل بين الأشخاص والأزمنة والأمكنة وغير ذلك.

ثم في الغد من يوم دخولنا حضرت بعد صلاة الصبح مجلس الشيخ المحقــق العلامة المدقق الشيخ عبد السلام ابن شيخ الإسلام أبي المداد إبــراهيم اللقــاني[6]

---

(1) عبد الجواد بن إبراهيم الطريني، فقيه مشارك، كان ملازما للتدريس حسن التقرير، توفي عام 107 3 هـ: التقاط الدرر، ص: 156. نشر المثاني 2:133. شجرة النور الزكية 1:44.

(2) إبراهيم بن محمد بن عيسى برهان الدين الميموني، فقيه محدث، من مؤلفاته:"تهنئة الإسلام ببناء بيت الله الحرام"، توفي سنة 1079 هـ: خلاصة الأثر 1:46. التقاط الدرر، ص: 181. صفوة من انتشر، ص:259.

(3) هود: 117.

(4) في ط: آيات.

(5) طش: طشت السماء رشت: لسان العرب: طشش.

(6) عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني المصري، شيخ المالكية في عصره، توفي عام 1078 هـ:التقاط الدرر، ص: 172. صفوة من انتشر، ص: 281. الأعلام 3:355.

يقرئ شرح النقاية[1] للجلال السيوطي. والشيخ عبد السلام هو وارث علوم أبيه والفذ من أصحابه الذي ليس له شبيه، إلا أنه غلب عليه حب الانفراد والنفور من العباد، فمن قائل: إن ذلك منه تنسك وزهادة، ومن قائل: بطالة وملالة، والصحيح، إن شاء الله، الأول، فلا يدرس إلا في الشهور[2] الثلاثة، رجب وتالِيِيْه، وغالبِ تدريسه فيها الحديث وما أشبهه. ومما استفدته منه أن المؤمن، ولو كان عاصياً، إنما يحضر خروج روحه ملكان أبيضان منيران هينان لينان، وأنهما يحولان بينه وبين الأسودين، وإن كان فاسقاً. واستفدت منه أن الوباء، أعاذنا الله منه، يحدث في الجسم سمية منها يكون موت صاحبه، ولو برئ في ذلك الوقت فإن موته متى كان، ولو بعد مائة سنة، إنما يكون بتلك السمية الباقية في البدن، وهذا عندي مما ينظر فيه، إن ورد عَمَّن يجب التسليم له فيسلم، وإلا فالإنسان قد يموت مقتولاً أو بشرب سم أقوى أثراً من ذلك الأول، أو بغرق أو حرق أو هدم، وبعيد أن يكون سبب موت أحد هؤلاء السمية الباقية في البدن من وباءٍ متقدمٍ دون هذا السبب الظاهرِ الذي قرن الأثر المضاف إليه بالموت عادة وحساً وشرعاً، إذ يقال: قتل فلان فلاناً فيقتص منه، اللهم أن يرد ذلك مرفوعاً فيتبع لأن العقل لا يحيله، أو يكون ذلك خاصًّاً بالأمراض الحادثة في البدن من تغيّر أمزجة وتعفين أخلاط، وأن سبب ذلك السمية الباقية[3] فهذا أقرب من العموم.

وزرنا في يومنا ذلك شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مدافعة، الشيخ سلطان[4]، ودعا لنا، وكانت في خلقه، رضي الله، عنه شدة، لا يترك أحداً يُقَبِّل يده غالباً، وإن ألح أحد في طلب الدعاء انتهره، ويمضي ويتركه، ولا يتحمل للطلبة الذين يقرؤون عليه أدنى غلط يقع منهم، بل يبالغ في التقريع والتوبيخ، بل ربما زاد إلى الشتم، والناس يحتملون ذلك منه لتحقيقه وانفراده بذلك، مع تقشفه وورعه وصبره علىِ ملازمة وظائف العبادة جل نهاره، فأوقاته مُقَسَّمة بين صلاة وتلاوة وتدريس وفتيا، والحدة تعتري خيار هذه الأمة ومن أخلاق المؤمنين، إلا أن

---

(1) النقاية مختصر في أربعة عشر علما مع زبدة مسائلها لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ، ثم شرحه وسماه إتمام الدراية، فرغ من تأليفه ثالث ربيع الأول سنة 873 هـ: كشف الظنون 2:1970.

(2) في ط: الأشهر.

(3) ساقط من ط.

(4) الشيخ سلطان بن سلامة المزاحي المصري، رئيس أهل التجويد والإقراء بالقاهرة، توفي عام 1075 هـ: التقاط الدرر، ص: 164. صفوة من انتشر، ص: 257.

الشيخ رضي الله عنه أفرط فيها إلى غاية لا يحتملها له إلا من علم حقيقة حاله، وكان معه أيضاً زيادة تعظيم ومحبة للعلماء. والمغاربة، لما في أخلاقهم من الشكاسة، لا يكادون يصبرون على القراءة عليه، فأكثر الملازمين له أهل بلده لما جبلوا عليه من سعة الخلق وتحمل الأذى والصبر الذي لا يوازيهم فيه أهل قطر من الأقطار، فمن أضاف منهم كف الأذى، وما أقله، إلى هذا الخُلُق الذي جبلوا عليه من حمل الأذى، استكمل جماع الخلق الحسن، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)[1]، وله في كل خلق وخلق حكمة يعلمها، وهو الذي قسم الأخلاق كما قسم الأرزاق، (فتبارك الله أحسن الخالقين)[2].

ثم حضرت بعد العصر من ذلك اليوم درس الشيخ موسى القليبي المالكي[3]، وكان يقرئ الجامع الصغير للجلال السيوطي بباب رواق الحنفية، ومن جملة ما قرأ[4] في حديث: أيما عبد أبق من سيده فمات،[5] إلى قوله: ولو مات شهيداً. أن العبد إذا أبق فمات في قتال الكفار كان شهيداً من جهة قتله، وعاصياً من جهة إباقته. ثم قال بمنزلة من شرب خمراً فشرق فمات فإنه شهيد لغصته، عاص بشرب الخمر هـ كلامه. وهذا الأخير عندي غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة، وهي من الرخص التي ترخص الله بها لعباده المؤمنين، فأكرمهم بها زيادة في ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم في مرضاته، والعاصي بفعله لا يترخص له ولا سعي له في مرضاة ربه حتى يرضيه بالشهادة. نعم، إذا كانت المعصية بغير ما وقع به القتل كالآبق، أو من زنا أو شرق في سفره، فهذا قد يقال فيه شهيد من جهة، عاصٍ من جهة، لأن الجهة منفكة، فجهة قتله غير جهة عصيانه. وأما إذا كان سبب القتل في نفسه معصية كشرب خمر فيغص بها، أو تمكين امرأة من زنا بها فتموت منه، فبعيد أن تحصل لها رتبة الشهادة، أليس الغريق والحريق وذو الهدم والمبطون وغير هؤلاء كلهم قد ورد أنهم شهداء، فلو أن أحدهم رمي بنفسه في البحر عمداً فغرق، أو في النار فاحترق، أو تناول سُمّاً أو داء معلوماً فمات لا

---

(1) القصص: 68.
(2) المومنون: 14.
(3) أبو عمران موسى القليوبي المصري، الإمام الفقيه العلامة، تصدر للإقراء والإفتاء، ذكر ابن مخلوف أنه لم يقف على تاريخ وفاته، ويبدو جليا أنه أخذ الترجمة نقلا عن العياشي: شجرة النور الزكية 1:441.
(4) في ط: قرر.
(5) جاء في صحيح ابن خزيمة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثم إذا أبق العبد لم يقبل له صلاة حتى يرجع إلى مواليه: صحيح ابن خزيمة 2:69.

يقال فيه شهيدٌ اتفاقاً، وكذلك هذا تناوِل معصية كانت سبب حتفه، أنَّى له الشهادة، اللهم إلا أن يكون المحترق مثلاً ممن قام لنار يريد إطفاءها ولا يعلم أنها تحرقه، فغلب حتى احترق، أو أراد إنقاذ غريق وهو يظن من نفسه القدرة على ذلك، فغلب وغرق، أو غير ذلك من الوجوه التي يكون فيها أصل الفعل الذي وقع به القتل مباحاً، فهذا شهيد بلا كلام. وشارب الخمر، وإن لم يقصد به إتلاف نفسه فهو معصية واحدة، وما ترتَّب عليه من القتل معصية أخرى سببها معصية، وإن لم يكن القتل مقصوداً فإنَّ المعصية لا يتوقف كونها معصية على القصد إليها ونية أنها معصية، فإن الطاعة هي التي تتوقف على النية دون المعصية، فيؤاخذ بها عاجلاً ويعاقب آجلاً، نواها أم لا، ألا ترى أن من تعَمّد ضرب إنسان ولم يرد قتله ولا قصده فمات منه فإنه آثم آجلا، ويقتص منه عاجلا لأن السبب الذي نشأت عنه المعصية معصية كشرب الخمر في مسألتنا، فهو معصية ونشأت عنه معصية أخرى وهي قتل نفسه، إلا أنها ليست مقصودة له فلا ينفعه عدم القصد ولا يدرأ عنه الإثم. ولو سَلَّمنا أن إثم القتل مندفع عنه لكونه غير مقصود له فمن أين له الشهادة التي هي أشرف مقام خص به الله من جاهد في سبيله، ثم من صبر لضُرٍّ أنزله به مولاه حتى لقي ربه وهو راض عنه. نعم إن لم يمت هذا المغصوص بأثر الغص، وطالت حياته حتى تاب من فعله توبة صادقة، ثم تاب بإثرها من تلك المعصية، لا يبعد أن يقال هو شهيد بغصته، ولو قيل إنه مرتمك[1] في المعصية بعد توبته لبقاء أثر ما تسبب فيه، كما قال إمام الحرمين[2] في الخارج من المغصوب تائباً لما بعد ذلك. والصحيح صحة توبة هذا المقصوص إن لم يمت بإثرها كتوبة الخارج من المغصوب على الصحيح.

وإنما أطلت الكلام في هذه المسألة لأن بعض الإخوان عارضني في هذا الرد فأبديتُ ما عندي من الأدلة لينظر فيها ذوو الألباب، ولا أدّعي أنها سالمة من مناقضة أو معارضة، إلا أنها عندي أرجح مما يعارضها وأثبت مما يناقضها، والعلم عند الله تعالى.

---

(1) في ط: المرتبك. والمرتمك والرامك: المقيم لا يبرح: لسان العرب: رمك.

(2) أبو المعالي عبد الملك بن أبي يعقوب يوسف الجويني، إمام الحرمين، فقيه محدث، جاور بالحرمين مدة، وتوفي سنة 478 هـ: شذرات الذهب 2:358. شرف الطالب، ص: 58.

فلما كان يوم[1] تسعة وعشرين من الشهر ختم المشايخ دروسهم، فختم الشيخ عبد السلام اللقاني بعد صلاة الصبح، وعادتهم في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلامذة المدرس وكبراء إخوانه، فإذا فرغ المدرس قرأ القارئ آيات من القرآن بقراءة مطربة، ومنهم من يقرؤها بالقراءات السبع، وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلامذة فيها مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، والترضي عن مؤلف الكتاب المقروء، والدعاء للشيخ الذي يدرسه، ثم يقوم آخر ويثني على الله وعلى رسوله بثناء بليغ ثم على آل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه وتابعيهم بإحسان، ثم يرضي[2] عن المشايخ أرباب المذاهب، كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح، ثم يقرأ الفاتحة ويهدي[3] ثوابها إلى حضرة النبي، صلى الله عليه وسلم، وإلى كل من ذكر بعده، ويبالغ في الثناء عليهم إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر وصوت خاشع، ويؤمّن الحاضرون على دعائه، ثم يختم. وبعد هذا يقومُ أهلُ المجلس كلهم ويصافحون الشيخ ويدعون له ويدعو لهم، ثم بعد صلاة العصر ختم الشيخ موسى القليبي المالكي وفعل أصحابه كفعل أصحاب الشيخ عبد السلام[4] من القراءة والإنشاد والدعاء، تقبّل الله منهم. ويحضر عند الختم جمع عظيم من الناس وأهل الفضل والمجاذيب، ويغلب على الظن إجابة دعواتهم ونيل رغباتهم لتوفر دعاويهم وتظافر هممهم، ثم بعد العشاء الأخيرة ختم ولد شيخنا المرحوم بكرم الله تعالى الشيخ عبد القادر بن جلال الدين المحلي[5]، وكان أبوه رضي الله عنه يقرئ التفسير في الأشهر الثلاثة قراءة حسنة جامعة لأنواع الفوائد مشتملة على تقرير فنون من العلم، وقد حضرتُ قراءته مرة فيما مضى فسمعت أمراً عجيباً وطرازاً من التقرير غريباً، ثم تُوفي إلى رحمة الله في هذا الشهر المبارك قبل قدومنا بأيام قليلة، وجلس ولده هذا في موضعه لإتمام درس أبيه، وكان هو المتولي لوظائف أبيه من بعده خطابة وتدريساً، وقد حضر عليه بمجلسه يوم الختم غالب علماء الأزهر، وتكلم

(1) في ط: في يوم.
(2) في ط: يترضى.
(3) في ط: يهتدي.
(4) يقصد الشيخ عبد السلام اللقاني.
(5) يقصد الشيخ عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر المحلي الحنبلي الدمشقي، الشهير بابن فقيه فصة، الإمام المحدث، ولد سنة 1005 هـ، وتوفي سنة 1071 هـ: خلاصة الأثر2:283. فهرس الفهارس 1:450-451.

بكلام لا بأس به على ما أخبرني به بعض أصحابنا، و لم أحضر تلك الليلة لبعد منزلنا من المسجد مع ما لحقني من الكسل بسبب الصوم وقبح هواء البلد.

لطيفة:

تظافرت أقوال المنجمين و[1] المعدلين بالقاهرة في تلك الأيام بأن الهلال يُرى ليلة ثلاثين، فيكون الشهر تسعاً وعشرين، وقالوا: إن قوسه إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة درجة، ومعلوم أنه إن كان كذلك يظهر إن لم يستره غيم، وانتشر ذلك في الناس واعتقدوه حتى قيل إن الباشا طلب من قاضي العسكر الحنفي أن يحكم بذلك فأبى، جزاه الله خيراً، وقال: لا أحكم حتى يُرى الهلال، فلما كان قبل المغرب طلع قاضي الشافعية، وهو المعد لذلك، مع عدوله إلى رأس المئذنة، وكان الصحو التام، فارتقبوا حتى انتشر الظلام، فلم يروا شيئاً، فأوقدوا المصابيح في المئذنة كما هو عادتهم في ليالي الشهر كلها، فعلم الناس أن الغد من رمضان، فكَذَّب الله أقوال المنجمين المتخرصين على الغيب، (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)[2]. وصام الناس يوم الثلاثين.

وفي ذلك اليوم لقيت برواق المغاربة قاضي المالكية الشيخ عمر فكرون[3]، وهو رجل مسن أصله من سوسة، طالت إقامته بمصر، وله خبرة تامة بفروع المذهب، وله شرح على المختصر الفقهي في أربعة مجلدات، إلا أنه ليس بذلك على ما أخبرني به الثقة ممن رآه، وهو رجل يحب الفخر والثناء عليه وعلى مؤلفاته، وسرنا معه بسيره في ذلك، جبراً لخاطره لَمَّا رأينا من حسن إقباله علينا وانبساطه معنا، وأنشدنا أبياتاً كثيرة مما دار بين الشيخ المقري رحمه الله وأهل عصره من أهل مصر، وأطرفنا[4] بحكايات وأخبار غريبة، وهو على كبر سنه ممتع وسامع في محاوراته ومسمع، وهو مع طول توليته القضاء في هذه المدينة على سيرة إخوانه من

---

(1) في ط: من.

(2) الرعد: 41.

(3) عمر فكرون، التونسي، قاضي المالكية بالقاهرة، له شرح على المختصر للشيخ خليل في أربع مجلدات، لم تذكر المصادر تاريخ وفاته: التقاط الدرر، ص: 244.

(4) في ط: وأطربنا.

القضاة في هذه الديار، وحالهم لا يخفى، بل هو من أسهلهم وأقربهم إلى الصواب على ما يُحكى، وإلى الله المشتكى.

وقد خرجنا آخر يوم من رمضان عشاء لزيارة القرافة الصغرى، وكان يومنا كثير الحر، فزرنا قبر الشيخ خليل[1]، رضي الله عنه، وقبر شيخه الشيخ عبد الله المنوفي[2]، وهما في مكان واحد بقربهما تربة الأئمة اللقانيين، وزرنا قبر ابن عمنا سيدي محمد بن عبد الجبار، رحمه الله، وكان تُوفي بمصر سنة خمس وستين وألف، ولم نهتد لقبره إلا بعد تأمل شديد، ثم زرنا غالب من كان بتربة المجاورين من الصالحين، وسُمِّي هذا المكان تربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر، وبه يدفن غالب أهله والمجاورين له، بل الأماكن القريبة من الجامع كلها تُسَمَّى حارة المجاورين؛ إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء والغرباء والفقراء، وقل أن تجد بإزائه دار مُتجر أو أحد أرباب الدولة لضيق المحل، وهم يريدون السعة والقرب من القلعة التي هي محل الباشا وأكابر دولته.

وبعد الفراغ من زيارة تربة المجاورين زرنا قبر السلطان المرحوم الملك المعظم المهاب العدل المعدود من الأولياء الأتقياء، كما ذكر غير واحد من الأئمة، السلطان قايت باي[3] رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا ببركاته، وعلى قبره بناء عظيم وبإزائه مسجد متقن ومحلات لسكنى الفقراء ولقيم القبر، وهو لا يخلو من عمارة.

لطيفة:

عند رأس القبر حجر مبني عليه بناء حسن فيه أثر قدمين شاع عند الناس أنهما قدما النبي، صلى الله عليه وسلم، وهناك حجر آخر فيه أثر قدم يقال إنها قدم الخليل، والناس يزورونها ويذكرون أنها من الذخائر التي ظفر بها السلطان قايت باي أيام سلطنته، فجعلت عند قبره رجاء بركتها، ولا يبعد ذلك، فقد كان ملكاً عظيماً عدلاً موقراً مهاباً مُحَبَّباً إلى الخلق، ذا سيرة حسنة في الرعية واجتهاد في

(1) ضياء الدين خليل بن إسحاق الجندي، فقيه مالكي صاحب المختصر المشهور، كانت وفاته في حدود 776 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 127. شجرة النور الزكية: 1:321.

(2) الشيخ عبد الله المنوفي، فقيه مالكي، توفي سنة 749 هـ: النجوم الزاهرة 10:230.

(3) أبو النصر سيف الدين الظاهري، الأشرف قايت باي، (815- 901 هـ)، من ملوك الجراكسة بمصر، تلقب بالملك الأشرف، شهدت مدة حكمه عددا من المعارك والحروب: الأعلام 5:188.

عبادة ربه، إلا أنَّا لم نر من نص على أنه ظفر بشيء من هذه الآثار من المؤرخين، بل قد ذكر جماعة من حفاظ المحدثين أنَّ ما استفاض واشتهر خصوصاً على ألسنة الشعراء والمُدّاح من أن رجل النبي، صلى الله عليه وسلم، غاصت في الحجر لا أصل له، و لم يذكر أحد أن أثر الخليل، عليه السلام، موجود في غير حجر المقام.

قلت: وبالمدينة المُشَرَّفة ومكة والقدس آثار يقال إنها آثار بعض أعضاء النبي، صلى الله عليه وسلم، من قدم ومرفق وأصابع، والله أعلم بصحة ذلك، ولكن لم يزل الناس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء والصلحاء[1]، ويقتفي الآخر منهم الأول، فلأجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئاً من ماء الورد، فغمسنا فيه أيدينا ومسحنا به على أوجهنا ورؤوسنا وأبداننا رجاء البركة بحسن النية وجميل الاعتقاد لأن المنسوب إليه ذلك عظيم، ورائحة النسبة مع حسن النية كافٍ في ظهور الأثر وحصول المرام. و لم يزل الناس يتعرفون البركة وإجابة الدعاء في الأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والأولياء والعلماء، ولو لم تصح النسبة، فما بالك بما نُسب إلى سيد الوجود، فالكل في الحقيقة إليه منسوب، إذ هو أصل الموجودات وسر المشهودات، فأي محل كان مظهراً لبعض كمالاته بالفعل والقول، أو بمجرد النسبة مع أصل النسبة الحقيقية عَمَّته البركة وغشيته الرحمة، يدرك ذلك بالذوق أربابه، ويتعرفه بالبصيرة النورانية أصحابه، والله المسؤول أن يمدنا بمدده الساري في أسرار محققي أتباعه، وينظمنا في زمرة حزبه وأشياعه، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين والطاهرين.

و لم نستكمل مرادنا في الزيارة ذلك اليوم لشدة الحر وضعفنا بالصوم مع كثرة الزحام بالمقابر، فإن عادة النساء بمصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه إلى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمان، وتلك عادة مذمومة في سائر الأيام، فما بالك بيوم العيد فإنه يوم أكلٍ وشرب وفرح وسرور، وزيارة القبور تذكر الآخرة، وتُثير في القلب حزناً فتنافيا، ولذلك قال بعض الأئمة: إن الأولى ترك زيارة القبور أيام العيد إلا أن يكون بنية المواصلة وإدخال السرور على أهل المقابر من المسلمين خصوصا أقاربه.

(1) في ط: الصالحين.

ولما كان يوم العيد، وهو يوم السبت، بَكَّر الناس للصلاة وهم يصلون في المساجد ويبكرون بالصلاة يصلونها عند الإشراق أول ما تحل النافلة، وصلينا بالجامع الأزهر، وخطب الخطيب خطبة حسنة جلها في أحكام زكاة الفطر، واستوعب فروعها على مذهبهم، ومن جملة ما ذكر فيها أنها لا تلزم إلا من له فضل على مترل ومركب وخادم ولباس يليق به، وأنها تقسم للأصناف الثمانية إن وجدوا.

ولما فرغ الناس من الصلاة وتوابعها جعلوا يتزاورون، ووقف المشايخ لزيارة الناس، فجئنا إلى الشيخ عبد السلام فزرناه ودعا لنا، ثم إلى الشيخ سلطان كذلك، ولقينا غالب أصحابنا من طلبة الأزهر هنالك في المسجد، ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم الميموني، رضي الله عنه، ومترله قرب الجامع، وقدم لنا طعاماً حسناً، وكُنَّا جماعة، وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر، وإنما يتكارمون بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة، ونحن لا نعرفها، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة، والكلام فيها من حيث الحكم بالإباحة وعدمها طويل عريض معلوم شهير نظماً ونثراً، وأكثر العلماء مائلون فيها إلى الإباحة، وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية، مع تورعهم في المطاعم والمشارب، زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة، ويستعين بها الطلبة كثيراً في المطالعة الليلية، ولا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحاً، فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطاً، وأحس بخفة في رأسه، وهذا في الغالب لمن اعتادها، وهي مُخَفِّفة اتفاقاً وهاضمة، وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء، وتكره لمن طبعه الصفراء، وهي نافعة لصاحب البلغم وغيرها من أنواع المطعومات، كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره، ولا يكون ذلك موجباً للحكم بتحريمها. والحاصل أن الشاربين لها فريقان: فريق يشربونها في أماكن مُعَدَّة لذلك مزخرفة قلما تخلو من لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجواري والمرد، فهؤلاء الحامل لهم على شربها اتباع الأهواء والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة، فلا يبعد أن يقال إنها في حق هؤلاء محرمة، لا لذاتها، بل لما قارنها. وفريق يشربونها في مساكنهم أو حوانيتهم، أو يشترونها في السوق ويشربونها[1]، ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول، فهؤلاء الحامل لهم عليها الفهم لها،

---

(1) في ط: يشربونها في السوق.

حتى إنهم ربما يتضررون ضرراً خفيفاً بتركها كما يتضرر مَنْ أَلِفَ الحجامة بتركها، ومَنْ أَلِفَ شرب العسل المسهل بتركه وغير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس، ويحملهم عليها أيضاً تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحاً، وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف من كعك أو كسر خبز، فيكفيهم ذلك إلى وقت الغذاء، هذا كله مع خفة المئونة؛ إذ بفلس واحد يشرب من ذلك ما يكفيه، مع تيسرها في أي وقت أرادها، ولا يحتاج فيها إلى أكبر مئونة ولا مقارنة إدام أو ملح أو إبزار أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة، ويزاد على ذلك، وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقوم مقام القِرَى للضيف، بحيث لا يستحي أحد في تقديمها للباشا فمن دونه، ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في بعض الأحيان ديناراً فأكثر، ودرهم واحد يقومٍ مقام دينار لا يكرهه أحد، بل لو قدم إليه أي طعام لم تكن معه فإنه لم يقدم شيئاً، وإن قدمت هي كفت.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني[1] أن شيخنا الإمام صفي الدين القُشاشي[2] كان يقول: مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب، والناس يقدمون عليهم من الآفاق، والإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه، ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحد يدخل عليهم، وهذه القهوة خفيفة المؤنة، والناس راضون بها غنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسهم، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم، فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعا. قال ذلك في معرض المزاح وقد سئل عن حكمها.

قلت: وكلام هذا الشيخ، مع جلالة قدره، وجمعه بين العلم الظاهر والباطن وكلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها، لأن المسألة إذا

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن حسن الكوراني الكردي، فقيه متصوف، جاور بالمدينة المنورة وبها توفي عام 1101 هـ، له مؤلفات كثيرة أثارت جدلا واسعا بين العلماء والفقهاء: التقاط الدرر، ص: 255. إتحاف الأخلاء، ص: 121-122.

(2) تقدمت ترجمته.

كانت ذات قولين، وكان الصوفية مع إحدى الطائفتين، ترجح قولهم لا محالة لما رزقوا من صدق الإلهام ونفوذ البصيرة مع تأييد الله لهم عند اشتباه المأمور، فيميلون مع الحق أين ما مال لرفضهم دواعي الهوى، نص على ذلك غير واحد من الأئمة، وقد شاع وذاع عند كثير من الناس ذكر غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها وأخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدي علي بن عمر الشاذلي اليمني، وأمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة، ثم لم يزل أمرها يفشو شيئاً فشيئاً، ومن بلد إلى بلد، إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية وكثيراً من المغربية، فيحمل منها في كل سنة من بلد اليمن إلى كل أفق من الآفاق، شرقاً وغرباً، آلافاً من الأحمال، فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها من التجارة، فيبلغ الحمل منها في مكة إذا رخص فوق العشرين ريالة، وبمصر إلى الخمسين، وفي البلاد الشاسعة، كإفريقية وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق[1] المئين.

لطيفة:

لكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة، رأيت بمكة كلاماً للإمام ابن حجر الهيثمي المكي[2] في إباحة القهوة بالغ فيه بالثناء عليها وذكر محاسنها، وكان من جملة ما ساقه مساق الاستدلال على أنها مباحة، وأنها من شراب الصالحين ومعينة على العبادة، أن كثيراً من السلاطين والولاة والحكام قد بالغوا في إرادة قطعها والنداء عليها في الأسواق أن لا تشرب، وإراقتها والزجر عنها بأنواع الزجر، ومع ذلك لم تزد إلا شهرة وشيوعاً في البلاد، فدل ذلك على أنها من شراب الصالحين، وأنها قد شمل نظر مخرجها ومبدعها فلا يقدر أحد على قطعها، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به.

قلت: وهذا الاستدلال ساقط، فإن الدخان الذي شاع في الآفاق أكثر العلماء على تحريمه، وهو الصحيح إن شاء الله، لما اشتمل عليه من المفاسد، ولا

---

(1) في ط: من.

(2) أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي المصري، فقيه محدث، ولد سنة 899 هـ، له مصنفات عدة منها الفتح المبين في شرح الأربعين، توفي سنة 974 هـ: خلاصة الأثر 2:166. فهرس الفهارس 1:337.

منفعة فيه أصلاً، واتفق عليه أرباب القلوب شرقاً وغرباً على التنفير منه وكراهته، ولم يزل الأمراء مجتهدين في قطعه، ومع ذلك فلا يزداد إلا شهرة، بل الخمر المحرم بالكتاب والسنة والإجماع قد اشتهر في كثير من الأمصار وعمت البلوى به غالب الأقطار، فالاستدلال بالشيوع وعدم قطع الولاة والحكام على الإباحة لا يخفى ضعفه وبطلانه على من له أدنى معرفة وتمييز بين صحيح الأدلة وباطلها، فكيف بذلك الإمام، اللهم إلا أن يقال لما لم يقتصر في الاستدلال عليه وضم غيره إليه، فكأنه لم يعتمده دليلا، بل ذكره مقويا للأدلة ومستأنسا به، وهو الظاهر من كلامه، ومع ذلك فلا يخفى ضعفه، فإن ادعى على الهوى، سيما في الأواخر، غالب مع ميل النفوس إلى المطلوب وضعف داعية الردع من الطالب. ومن أحسن ما رأيته من الأسئلة والأجوبة في شأن القهوة نظما ما اشتملت عليه هذه الوجادة، فأقول: وجدت بخط شيخنا الإمام أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي بمكة المشرفة ما نصه: كتب العلامة رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفي المعروف بابن الحنبلي[1] للشيخ علي بن محمد بن عراق[2] سئل عن القهوة:

[رمل]

أيها السامِي لكلتا الذروتَينْ بجوارِ المُصطفى والمروتَيْن[3]

والعلِي القدْرِ عِلماً وكذا عملاً فوق عُلو النيرينْ[4]

منْ لهُ في الزهدِ باعٌ ويد وهُو في بذْلِ الندا رحبُ اليدينْ

أفْتني في قهوةٍ قد ظُلمتْ حيثما شِيبَ تعاطيها بشَيْن

مِن تَلَّة[5] هالنا مهيعُهُ واقتراف لأقاويلَ ومَيْنْ

ومراعاةِ أمورٍ شهدَتْ فعلَها في الحانِ كلتا المُقلتينْ

(1) رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف المعروف بابن الحنبلي الحلبي، فقيه مؤرخ، توفي بحلب سنة 971هـ: كشف الظنون 1:292. الأعلام 5:302.

(2) الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني المتوفى سنة 963هـ، فقيه مؤلف، له كتاب: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة: الكواكب السائرة 2:197. كشف الظنون 4:494.

(3) وردت القصيدة في كتاب: الكواكب السائرة 2:198- 199.

(4) النيران: الشمس والقمر.

(5) التله: الحيرة: لسان العرب: تله.

وحكـــى شُـــرابها أهـــلُ الطـــلا فالتـــداني بـــين تَـــيْن الفِـــرقتينْ
أُودِعو ذا الطرْسِ ما يرجـــو الفـــتى أودعوا فاليأسُ إحـــدى الـــراحتيْنْ

فأجابه الإمام ابن عراق[1]:

[رمل]

أيهـــا الـــسامِي سُـــمو الفَرقـــدينْ وإمـــامُ العلـــمِ مُفـــتي الفـــرقتينْ
يا رَضيَّ الـــدينِ يـــا بحْـــر النـــدا من رجـــاكُم راحَ مْملـــوء اليـــدينْ
جاءَني مـــنكمْ نظـــامٌ قـــد حكـــى في نصوح اللفظ مـــسبوك اللجـــين
قلـــتَ فيـــهِ إن ذي القهـــوةِ قـــد خلَّطوهـــــا بتُلـــــة وبِمَـــــيْنْ
وبمطعـــــومِ حـــــرامِ وغِـــــنى وبـــرقْصٍ وبـــصفْقِ الـــراحتَينْ
وطلبـــتَ الحكـــمَ فيهـــا بعـــدما قـــــد رأيـــــتُم رأي عـــــيْنْ
وجـــــوابي أنهـــــا حِـــــل ولا يقتـــضي مـــا قلـــتُم تحـــريمَ عَـــينْ
وعلى ذي الأمـــرِ إنكـــارُ الـــذي شـــانُها حـــتى تُـــصَفى دون رَيْـــنْ
وإذا لم يـــــــــستطِعهُ دون أن يمنعَ الأصـــلَ ففِعـــلٌ منـــه زيْـــنْ
والتـــداني مـــن حِماهـــا وهْـــيَ في وصفِها المـــذكُورِ شَـــيْن أي شَـــينْ
والـــصفا في شُـــربِها مـــعْ فئـــة أخلصُوا التقوى وشَـــدوا المِئـــزرينْ
ثم نـــاجَوْا ربهـــم جُـــنْح الـــدجا بخـــــشوعِ ودمـــــوعِ المُقلـــــتينْ
فابتـــداءُ الأمـــرِ فيهـــا هكـــذا قـــد حكـــاهُ عـــن وَلِيٍّ دون مَـــينْ
ذا جـــوابي واعتقـــادِي أنـــهُ في اعتـــدالِ كاعتـــدالِ الكَفـــتينْ

هـــ.

(1) وردت القصيدة في كتاب: الكواكب السائرة2:199.

قلت: والإمام ابن عراق مشهور فضله وعمله وورعه، وهو صدر في علماء الحرمين علماً وعملاً، وجوابه في المسألة هو الحق إن شاء الله، وإلى مثل ذلك تميل أجوبة كثير من الأئمة في جميع الأمصار التي هي فيها، وربما رأينا من يبالغ في التنفير عنها من الأئمة المتعمقين في الورع تركا لما لا بأس به، حذراً مما به إلباس كما هو شأنهم في غيرها من المباحات التي هي من الفضول.

ومما كتبته يوم عيد الفطر لشيخنا الإمام أبي إسحاق إبراهيم الميموني مهنئا بيوم العيد:

[طويل]

سلامٌ عليكُم أيها الأوحدُ الصدرُ ... ومن شَرُفتْ قدرًا بتشريفهِ مصرُ

ومن[1] أشرقَتْ شرْقا وغربًا علومُهُ ... فكانَ له في نشرِهَا الصيتُ والأجرُ

ومَنْ إنْ يُقَسْ أهلُ العلومِ به غَدوا ... كنَجْم السُّهى في جنْبه وهُو البدرُ

يدُل على هذا ذَكاءٌ وفِطنَة ... وعِلْمٌ وحِلمٌ والمهابةُ والصبْرُ

إلى غيرِ هذا من خصَالٍ حميدَةٍ ... سِواها وما قَدمْتُ منها هُو النزْرُ

فأكرِمْ بإبراهِيمَ أفضَلِ منْ علا ... لأعْلى مقام قد أحاطَ بهِ الفخرُ

إمامِي أبي إسْحاق خيرِ مشايخي ... علا قدرُهُ في عصرِهِ من لهُ القدْرُ

أيا شيْخَ الإسلامِ الذي عزَّ مثلُهُ ... علوْتَ مقامًا شامِخا دونَهُ النسرُ

هنيئا لكَ العيدُ السعيدُ ومثلكمْ ... تُهَنى بهِ الأعيادُ والعامُ والشهرُ

فلا زِلتَ ذا أمرٍ يسُركَ دائما ... ويعلو مُحياك المَهابةَ والبِشْرُ

وأبقاكَ ربي كعْبةً لعبادِهِ ... يطوفُ بها مَن مَسَّهُ الجَهْلُ والفقرُ

وعافاكَ في أهْلٍ وجسْمٍ وكلِ من ... يلوذُ بكم من شَر ما يجْلُبُ الدهرُ

---

(1) في ط: قد.

فلما دخلت عليه ناولتها له فأعطاها لولده فقرأها عليه، فأحسن الثناء ودعا بدعاء كثير وجزى بخير، وتعاطاها أولاده وتلامذته فاستحسنوها وتلقوها بالقبول، وما ذاك إلا لما جبلوا عليه من حسن الأخلاق وطيب الأعـراق، وإلا فليست هنالك وليس قائلها بأهل لبعض ذلك.

ومما كتبته في ذلك اليوم إلى الشيخ العلامة الفقيه الفهامة الشيخ موسى القليبي المالكي رضي الله عنه:

[وافر]

أسـيدَنا أبـا عمْـران أني	يُحبـك بالـسماع القلـبُ مِـني
وكنـتُ أود رُؤيـتكم وأدعـو	إلَهـي أن يُقـر بـذاك عَـيْني
وحينَ أتيـتُ مِـصْركَ زادَ شَـوْقي	لـرؤيتكُم وزالَ الـصبرُ عـني
وكيفَ الصبْرُ بعـد حلـولِ أرْض	بكُم شرُفت ونالـتْ كـل حُـسْنِ
فَجئتـكَ طالِبـا في يـوْمِ عِيـد	نوالـكَ بـل أُسـلمُ بـل أُهـني
ولـستُ بطالِـب دُنيـا فمـا لي	وللـدنْيا الـتي تُـرْدي وتُـضني
ولكـنْ طالـبٌ ذوْقًـا وسـرا	وعِلمـا صـالِحًا يُغـني ويقْـني
ومثلُك مـن أنـالَ المُرْتجـى مـن	أتَى يسْعى وصـدَّق حـسْنَ ظَـن
وصَـدَّقني بنَيْـلِ القـصْدِ نُـور	بوجهِكَ إذا خرجْتَ ضَحُوك سِـن
فـلا زلـتُمْ مؤمـلَ كُـل راج	وللـهْفانِ دُمْـتَ مَحَـل أمْـنِ

فذهبت بالقصيدة إليه مع أمير ركبنا سيدي محمد، وكان له به معرفة ومحبَّة أكيدة، فتلقانا ببشر وانشراح صدر ووجه كأنه شقة البدر، وبـالغ في التـأنيس والإكرام والبر والاحترام، وهو، رضي الله عنه، من أئمة المالكية المشهورين بحسن السيرة وطيب السريرة، شهير صيته بين علماء الأزهر وأرباب الدولة، وهو مـن أجل تلامذة أبي الحسن الأجهوري[1] المتصدرين للإقراء والإفتاء في حياته، ولـه

(1) أبو الحسن علي بن حسين بن عمر الأجهوري المصري، شيخ المالكية بالقاهرة، ولد عام 975 هـ، وتوفي عام 1066 هـ: خلاصة الأثر 3:157.التقاط الدرر، ص: 138.

خبرة تامَّة بفروع المذهب ومشاركة حسنة في غيرها من العلوم، أطلعني على مؤلف له في الشمائل والسير لا بأس به، وانفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوفاق وأسرار الأسماء والحروف بحيث لا يشارك في ذلك، وله أخذ وسلوك في طريق القوم على منهج صاحب كتاب الجواهر[1]، وقد تلقن وأخذ طريق الأسماء الخلوتية عن الشيخ محمد بن علي الشبراملسي[2]، عن الشيخ أحمد الخامي[3]، عن الشيخ صبغة الله[4]، عن وجيه الدين العلوي[5]، عن الشيخ محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر. وأسماء الخلوة أربعة عشر مذكورة في غير هذا المحل.

غريبة:

في يد الشيخ أمر جراحات كادت أن تتلف بها يده، فلما سألناه أو سألنا غيره من أصحابه عن سبب ذلك، فأخبرنا أن شيخنا أبا الحسن الأجهوري جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه في طلاق وقع بينه وبين زوجته، فرام أن يترَخَّص له في ارتجاعها، فأبى الشيخ، رضي الله عنه، من ذلك، فاحتقدها عليه المغربي وأسَرَّها خيفة سوء في نفسه، فلما كان ذات يوم جاء مشتملاً على خنجر والشيخ في المجلس يدرس، فلم يشعر به حتى ضرب الشيخ بخنجره، فترامى عليه من حَضَرَ من الطلبة يقونه بأنفسهم، فجرح جُمْلَةً منهم، ووقى الله الشيخ من كيده، وجرح في رأسه جرحاً كان السبب في ذهاب عينيه، رضي الله عنه، وكان الشيخ موسى من جملة من جرح، فقُبِض على ذلك المغربي وضُرِبَ ضرباً شديداً، فأراد الولاة قتله

(1) يقصد كتاب: الجواهر الخمس للشيخ أبي المؤيد محمد بن خطير الدين، ألفه بكجرات سنة 956، ورتب على جواهر؛ الأول في العبادة، الثاني في الزهد، الثالث في الدعوة، الرابع في الأذكار، الخامس في عمل المحققين من أهل الطريقة: كشف الظنون 1: 614.

(2) أبو الحسن علي بن علي أبو الضياء الشبراملسي المصري، فقيه شافعي، توفي عام 1086 هـ: خلاصة الأثر 3: 174. التقاط الدرر، ص: 199. صفوة من انتشر، ص: 262.

(3) أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي المدني، الملقب بالخامي، نزيل المدينة المنورة، عارف متصوف، توفي سنة 1028 هـ: نشر المثاني 1: 130.

(4) السيد صبغة الله بن روح الله بن جمال الله البروجي، الشريف الحسيني النقشبندي نزيل المدينة المنورة، متصوف عارف، ارتحل إلى الحجاز وحج في سنة خمس وألف، توفي سنة 1015 هـ: خلاصة الأثر 2: 243- 244.

(5) وجيه الدين العلوي: من علماء الهند، له كتب أكثرها حواشي، منها حواشيه على "تفسير البيضاوي" و"المختصر"، ولد في بلاد كجرات بالهند، وبها تعلم وأقام ومات سنة 998هـ: الأعلام 8: 110.

فمنعهم الشيخ من قتله، ثم قتله الله بعد مدة بأثر ما حصل له مـــن الـــضرب في المجلس.

وبعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحداً من المغاربة يدخل عليه إلا كان معــه أحد من أصحابه ممن يعرفه، و لم يزل شياطين الإنس والجن يــضمرون العــداوة والسوء لأهل العلم، وينصر الله أولياءه عليهم بمقتضى صادق وعده، (وكان حَقّاً علينا نصر المؤمنين)[1]، وينجيهم من كيدهم، ويحميهم من شرهم بحماية (ثم نُنجي رسلنا الذين آمنوا كذلك حقاً علينا نُنجي المؤمنين)[2].

ثم لمزاحمة الأشغال وضيق الوقت، مع بعد مترل الشيخ لكونه شمالِ بـــاب الناصر لم أتفَرَّغ للقاء الشيخ موسى إلا مرتين أو ثلاثة، فلم آخذ عنه شيئاً، (وكان أمر الله قدراً مُقَدَّوراً)[3]، وقد أخذت طرفاً من إحدى رسائله في علم الأوفاق عن بعض أصحابه.

ومما كتبته أيضاً يوم عيد الفطر لقاضي المالكية الشيخ عمر فكرون الـــذي تقدم ذكره هذه الأبيات:

[طويل]

عليكَ سلامٌ طَيبُ النشْرِ مِن شَخص ... يُحبك يا شيخَ الشيُوخِ أبا حَفْــصِ

لئِن حازَ قـــومٌ بالقيـــاسِ فـــضَائِلا ... لقد حُزْتَها يا سيدي أنـــتَ بـــالنص

بك الأزْهَرُ المعمورُ قد راقَ حـــسنُهُ ... وحازَ كمالا جابرا خلـــلَ الـــنقْصِ

فَعِلـــمُ بنيـــهِ خـــاتَمٌ في يَميـــنِكُم ... وعلمُكَ فيه النقْشُ في وسَطِ الفَـــص

وعُذرًا لكم فيمَا كَتَبتُ مِن الـــذي ... يُعَد كمَالا قد جَمعتَ ومنْ يَحْـــص

لقـــدْ زادَني حُبـــا لكـــم ومَـــودة ... مُجالسة في حُسنِها عـــاذِلي أغْـــصِ

أدرتَ علينـــــا قهْـــــوةً أدبيـــــة ... تكادُ لها الأروَاحُ تعلـــنُ بـــالرقْصِ

(1) الروم: 47.
(2) يونس: 103.
(3) الأحزاب: 38.

وأعليْتَ ذِكري بعدما كانَ خـــامِلا وأغْليتَ قَدرِي بعدما كانَ ذا رخْصِ

نُهنيكَ[1] بالعيدِ الذي أنـــتَ عِيـــدهُ فلا زِلتَ فيهِ للكمَـــالاتِ ذا قَـــنْصِ

بقِيتَ لأهْلِ الغرْبِ كَهْفــا ومَلجئـــا ودُمتَ على جَمْعِ الفضائلِ ذا حِرصِ

وهذه الأبيات من السهل الممتنع والسحر الحلال الــذي يــستلب عقــل المستمع، لسلاستها وحسن مساقها وتناسب اتساقها، وقد غرت عليهـــا منـــه، فأغرب علي بعضها فنقلته إلى محل هو أولى بها من هذا كما ستقف عليه في ترجمة شيخنا أبي حفص العلمي[2] المقدسي، ولا عتب على المرء فيما يفعله في شعره من تبديل وتغيير، أو نقل من محل إلى محل ممن لم يجد لبنات صدره كفؤاً، فلا حـــرج عليه في فسخ نكاحهن وتزويجهن من أكفاء كرام ينلن عنده غاية المرام.

لطيفة:

قد كان بالقاهرة شاب من أصحاب شيخنا أبي الحسن الشبراملسي يلقب بالزين، مشهور بحسن التصرف في العلوم الأدبية وجودة قريحـــة في التخـــيلات الشعرية، و لم يُقيَّض لنا الاجتماع به لضيق الوقت، وتفاوضتُ مع بعض أصحابنا المغاربة ممن أقام بمصر برهة في شأنه، وكان له به معرفة، وذكر لي أن له في فـــن المُعَمَّى يد بيضاء وذكاء يحرق الرمضاء، وقال لي: إن شئت فاكتب إليه شيئاً بهذا الغرض حتى يجيبك فتعلم حاله وتختبر مقدار تنبهه وجودة قريحته، فكتبت له معمى في اسم رضوان، اقتصرتُ فيه على أنواع من العمل التحصيلي، وهو هذا[3]:

[بسيط]

يا منْ يَعْمـــي علَـــي في مقاصِـــدهِ باسْمِ الحبيبِ وما التصريحُ منْ غـــرَضِ

فَعنفوانُ الهوى لا عُنفَ فيـــهِ علـــى مُتَـــيم بَعــــد فَقْـــد أولِ المـــرضِ

نارٌ بقلبِي وضـــوءٌ لا انتـــهاءَ لـــهُ فيهِ وإن زالَ رانَ القلبُ من عَـــرض

(1) في ط: أهنيك.
(2) في ط: القلعي.
(3) وردت الأبيات في الثغر الباسم، ص: 346.

وكتبت له أيضاً[1] في اسم زين:

[بسيط]

يا مَنْ لــهُ بــصَرٌ في أي مــا فَــن ... وليسَ يُبــصَرُ إلا ضــاحِكَ الــسن

إن زمَانــا بــهِ مــا زال ذكــركُم ... فيــهِ وحقكُــم يُمْــنٌ بــلا مَــن

فبعثتُ إليه بهذا المُعَمَّى والذي قبله مع صاحبنا المذكور، فلم يرجع إلي من عنده بشيء حتى أزِفَ الرحيل، فكل أمري إذ ذاك بينه وبين مشتهاه قد حيل، ولا أدري هل وصل إليه المُعَمَّى فتعامى، أو لم يصل إليه، ولو وصل لما تحامى.

ولم أزل أتردد مدة إقامتي بالقاهرة وإناخة الرحل[2] بمعاهدها الباهرة إلى شيخنا إبراهيم الميموني، وطلبته في القراءة، فاعتل بضيق الوقت وضعف البدن من أثر الصوم وشدة الحر، وقبلت عذره في ذلك، وحضرت يوماً قراءته مع بعض طلبة الأتراك في تفسير البيضاوي[3]، وقرأ قراءة حسنة. وشيخنا هذا ممن انفرد بتحقيق فني المعاني والبيان في هذه الديار، بل وفي غيرها على ما شهد به الاختبار وصَدّقته الأخبار، مستحضراً لقواعد الفن وأصوله، مُحَقّقاً لفروعه وفصوله، قلما يورد بحثاً من الأبحاث المتعلقة بذلك إلا وقال: أصل هذا البحث لفلان، وقد ألف في المسألة فلان، وقد عارضه فلان، والتحقيق مع فلان. منصوراً ذلك بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة، أخبرني في سنة أربع وستين، وقد جرى ذكر هذا الفن بين يديه فقلت له: هل يشتغل في هذه الديار أحد الآن بقراءة شراح المفتاح[4] فقال وشد بلحيته: ما أشاب هذه اللحية إلا التوفيق بين شرحي السيد[5] والسعد[6] على المفتاح، وكان ذلك بحيث القلوب من الأكدار صافية، وبرود الاشتغال ضافية، وأما الآن فقصارى همة من يتعاطى هذا الفن مختصر السعد وما يشاكله من

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: الرحل.
(3) الإشارة هنا إلى كتاب: أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير، للقاضي الإمام ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشافعي المتوفى سنة 692 هـ: كشف الظنون 1:186.
(4) يقصد مفتاح العلوم لسراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة 626 هـ: كشف الظنون 2:1762.
(5) يقصد شرح السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة 816 هـ على مفتاح العلوم: كشف الظنون 2:1763.
(6) هو شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626 هـ: كشف الظنون 2:1763.

المختصرات. فقلت له: وأي كتاب ترى لطالب تحصيل هذا الفن الاشتغال بـه؟ فقال لي: لا أشك أن دُرر هذا الفن كانت منتشرة في تآليف الأقدمين فقَصّرت عن تناولها أيدي المنتحلين، فلما جاء صاحب المفتاح جمع من تلك الدرر كل يتيمة علت قدراً وغلت قيمة، وأضاف إليها مما ارتضاه شيئاً كثيراً، ولم يغفل من المحتاج إليه إلا شيئاً يسيراً، فتنافس من بعده في شرح كتابه وحل مقفلات عباراته، فاختلفت أنظارهم، وتباينت مذاهبهم، ثم اختصره القزويني[1]، وأوضح مختصره بالإيضاح، فكثر شارحوه، فلما جاء الملا سعد الدين، قَدَّس الله سره ورفع في الملأ الأعلى قدره، ضرب تلك التآليف كلها بعضها ببعض، واستخرج من زبدها بعد التمحيص خالص المحض، فأودع ذلك في كتابه المطول، فهو نتيجة آراء المتقدمين، وزبدة أنظار فحول المتأخرين، فالمبرز في هذا الفن اليوم من يحقق أبحاثه ويدقق النظر في أنظاره، وقد أكثر الناس من الحواشي عليه والحواشي على الحواشي، والشرح الأطول للملا عصام الدين جامع لغالب النكت التي تضمنتها تلك الحواشي مع زيادة تحقيق وتبيين وتدقيق، فهذا زبدة معنى كلامه، رضي الله عنه، وهو مما يدلك على أنه صيرفي نقود هذا الفن وإمام أهل هذه الصنعة بالتحقيق لا بالظن، فكيف لا وهو المرجوع إليه في بيان مشكلاته وحل مغلقاته.

ومما يدل على ما ذكرنا من انفراد شيخنا بتحقيق هذا العلم أنّي كنت رأيت قبل هذا بأرض المغرب عند أخينا الفقيه النبيه سيدي عبد الله محمد المنقوشي، جدد الله عليه ملابس غفرانه، وأحله دار رضوانه، مجموعاً بخط مشرقي كان في الأصل ملكاً للشيخ ياسين الحمصي[2] مشتملاً على أسئلة وأجوبة في فنون شتّى، ومن جملتها سؤال مكتوب في أوله: سؤال من الشيخ الإمام العالم المحقق أبي العباس شهاب الدين أحمد الغنيمي[3]، رضي الله عنه، للشيخ العلامة الدراكة المحقق أبي إسحاق إبراهيم الميموني، ثم ساق الجواب إلى آخره معزوّاً للمسؤول المذكور، مشتملاً على تحقيق وتدقيق، فكنت أتوقف أنا وصاحبنا المذكور في كون المجيب

---

(1) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي المتوفى سنة 739 هـ؛ له تلخيص المفتاح: كشف الظنون 2:1764.

(2) ياسين بن زين الدين بن أبي بكر الحمصي الشافعي، نزيل مصر، له مشاركة في الفقه والأدب واللغة، ألف عددا من الحواشي، توفي سنة 1061 هـ: خلاصة الأثر 4:491.

(3) أحمد بن محمد بن علي، شهاب الدين الغنيمي، فقيه حنفي من أهل مصر، له عدة شروح وحواش على الأصول، توفي سنة 1044هـ: خلاصة الأثر 1:312. صفوة من انتشر، ص: 161. الأعلام 1:237.

المسؤول هو شيخنا هذا لما علم من جلالة الشيخ الغنيمي وقوة عارضته في العلوم، سيما المعقولية مع تقدم زمانه، بحيث يكون شيخنا في عدد تلامذته، و لم يـــزل في نفسي من ذلك شيء إلى أن لقيت الشيخ أمتع الله ببقائه، وجرى في المجلس ذكر ما شابه ذلك، فسألته عن السؤال والجواب، فقال لي إنَّ ذلك صحيح. فقال: إن الشيخ الغنيمي رضي الله عنه كان يجلني كثيراً، وكان مع تبحره في العلوم وجودة قريحته في الفهوم، إذا وقع في محل تدريسه بحث أو إشكال مما ينحو منحى هـــذه العلوم، كتب إليَّ بذلك فأجيبه بما عندي، فيستحسن ذلك، وهذا شاهد صـــدق فيما نسبناه لشيخنا من التحقيق، إذ كل ما يُنسب إلى التحقيق في غالب العلـــوم اليوم بمصر يتبجح بكونه من تلامذة الشيخ الغنيمي، وشيخنا إليه يرجع الغنيمي في حل المشكلات.

وقد حكى لي شيخنا حكايات كثيرة من أخبار الشيخ الغنيمي وذهابه إلى الروم ورجوعه، وما وقع له من المحن، وذكر أنه اختلط في آخر عمره، رضي الله تعالى عن جميعهم وأرضاهم وعنا بهم وأتحفنا برضاهم، آمين.

ولما كادت أيام الإقامة أن تنقضي وركب الحجاز أن يمضي، ابتدأ شـــيخنا الميموني قراءة مختصر السعد، وكانت قراءته بصحن داره يحضره أكابر الطلبـــة، والقارئ بين يديه ولده، فلازمت مجلسه تلك الأيام القليلة، فحضرت عنده الخطبة بكمالها، و لم يفتني منها حرف، قرأها في ثلاثة مجالس قراءة حسنة أكثر فيها مـــن الفوائد العجيبة والنقول الغريبة.

لطيفة:

حكى لنا في مجلس تدريسه أن الشيخ العلامة سعد الدين لما أَلَّـــف كتابـــه المطول، وكان كما ذكر في الخطبة على حال ضيق من معيشته وقلة ذات اليد، مع شدة الاحتياج إلى ما يقيم به أوده، ذهب بالكتاب إلى الأمير المذكور رجـــاء أن يحصل من جانبه ما يستعين به على دهره، وكان عند الأمير خوجة له خبرة بهذا العلم، وهو من خواص الأمير، فخشي العلامة سعد الدين إن قَدَّم الكتاب للأمير مع حضور الخوجة أن يصرف وجه الأمير عنه ويطعن في كتابه لما علم مما يكون بين أرباب الصنعة الواحدة، فجعل يرتقب غيبة الخوجة بسفر أو مرض أو موت،

إلى أن حصل للخوجة عارض مرض[1]، اغتنم العلامة ذلك ودخل على الأمير وأحضر الكتاب بين يديه، ففرح الأمير به وقال: أرسلوا إلى الخوجة ليحضر الآن حتى ينظر في هذا الكتاب، فسقط في يد العلامة لما كان يخشى من جانبه من الطعن عليه والإزراء بكتابه، فلما جاء ونظر الكتاب طار به فرحاً، وبالغ في الثناء عليه وعلى مؤلفه، وقام وقبَّل يد الشيخ وقال للأمير: لو لم يكن في سلطنتك من المفاخر والمناقب إلا قدوم هذا الشيخ لحضرتك وكون هذا الكتاب برسمك لكفاك، وقد كنت هممت أن أطلب منكم الإجازة في الذهاب إلى هذا الشيخ والأخذ عنه، ومن سعادة دولتكم أشخصه الله إلينا. قال: فجاءت المنن من حيث تخشى المحن، وبالغ الأمير في تعظيمه والإنعام عليه.

قلت: وقد حصلت للإمام سعد الدين آخراً حظوة عظيمة ورياسة كبيرة عند أمراء العجم بأصبهان وخراسان وسائر بلاد عراق العجم، فصارت عتبته ملتأم أكابر علماء تلك الديار، وشُدَّت إليه الرحال، وصارت له دنيا عريضة بعد أن كانت حاله أولاً على الضد من ذلك، وتلك سنة الله تعالى في حملة العلم الشريف، وإن ضيق عليهم أولاً فمآل أمرهم، سيما إن خلصت منهم النيات فيما حملوا وعملوا بما علموا، إلى التعظيم والتوقير وحسن الحال في الحال والمآل.

لطيفة:

ومما سمعته منه أيضاً في مجلس تدريسه أنَّ العلامة ناصر الدين البيضاوي، قدس الله سره، لما ألَّف تفسيره المشهور وأكمله، ذهب به إلى السلطان ببغداد، فمَرَّ في طريقه بقرية فيها بعض مشايخ الصوفية فنزل عنده وأضافه، وجلس فتحدث معه إلى أن قال له: أين قصدك؟ قال: إلى بغداد. قال: وما تريد منها؟ قال: إني صنفت تفسيراً أبذلت المجهود في تنقيحه وتهذيبه، ولي بنات قد أدركن، فاحتجت إلى تجهيزهن ولا مال لي، فأردت أن أذهب إلى الملك عسى أن يحل لي من عنده ما أستعين به في جهازهن. فقال له ذلك الشيخ: بم فسرت قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين)؟ [2] قال: فسرناه بأنا لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا

(1) في ط: من مرض.
(2) الفاتحة: 5.

بك. فقال له: فكيف تستعين بغيره؟ فأثّر كلامه في قلب العلامة وتنبّه ورجع من حيث جاء، و لم يذهب إلى بغداد، فمن أجل ذلك وضع الله القبول على كتابه، فأقبل عليه العلماء من كل جهة يأخذونه عنه، وحصل له نفع كبير.

لطيفة:

سألت شيخنا الميموني متى انقطعت الخلافة العباسية من مصر، إذ لم أر من ذكر ذلك، مع البحث عنه في مظانه، فقال لي: لما دخل بنو عثمان مصرا أمر السلطان سليم بقتل من فيها من الخلفاء وأرباب الطوائف؛ كالمشايخ الرفاعية والبدوية، لأنّ الغوري لما خرج لقتاله أخرج معه الخليفة والعلماء والصلحاء يستنصر بهم عليه، فلما دخل قتل كثيراً منهم حتى المجاذيب. قلت: وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني أن السلطان سليماً لما دخل مصراً قتل كثيراً ممن فيها من المجاذيب وأرباب الأحوال، وذكر عن بعض أهل الأحوال أنه كان يخبر بذلك قبل وقوعه، (وكان أمر الله قدرا مقدورا)[1] (قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير)[2].

ولله في ذلك سر لطيف يعلمه أهل البصائر، زائد على امتنانه على أوليائه بمرتبة الشهادة ونيل السعادة، وقد خلف هؤلاء المشايخ بعد قتلهم من هو في مثل حالهم ومقامهم وثابت على أقدامهم، فلم تنقطع، والحمد لله، الوراثة المحمدية ولا الخلافة الباطنية بموت من مات، وليس لما تبني يد الله هادم، فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه لواقح الأنوار ممن بقي بمصر بعد قتل أولئك جماعة كثيرة تقر بهم عين كل مؤمن بطريقهم، متبع لفريقهم من صحابة ومجاذيب أصحاب أحوال وتصريف عظيم، و(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[3].

---

(1) الأحزاب: 38.
(2) المائدة: 17.
(3) الجمعة: 4.

لطيفة:

لما سقط جانب من البيت الحرام في سنة تسع وثلاثين واحتيج إلى تجديد بنائه، كتب إلى مصر استفتاء في أمور كثيرة تتعلق بالبيت العتيق وإنقاضه وتجديد ما سقط منه وبنائه من أصله ومن يتولى بناءه وبأي مال يُبنى، وهل يبادر إلى ذلك أو ينتظر إذن السلطان، إلى غير ذلك من أمور كثيرة تتعلّق بالمسجد الحرام، فتصدى شيخنا الميموني للجواب عن ذلك، فألّف كتابه تهنئة الإسلام ببناء بيت الله الحرام[1]، فاستوعب فيه الكلام على تلك المسائل، وأضاف إليها أمثال أمثالها من الفوائد المتعلقة بذلك من النكت التاريخية والتحقيقات الفقهية، فجاء كتاباً حافلاً بجانب كبير من العلوم شاملا، ناولنيه، رضي الله عنه، وأجازنيه ووهبني طرفاً كبيراً منه نحو النصف، وقال لي: لو تعددت النسخ بيدي لوهبتك نسخة كاملة، وقد كتبت له على ظهر نسخته تقريضا حسنا من جملته هذه الأبيات[2]:

[بسيط]

لله روضَـةُ علـمٍ أنبتَـتْ حِكَمـا ... وطيّبَتْ بـشذاهَا البيْـتَ والحرَمَـا

نَزهْ جفونكَ فيهـا واقتطِـفْ ثَمَـرا ... من دوْحِها وانتشِقْ زهرًا بها ابتسمَا

قد جَمَعَتْ موجبات المدحِ إذ جَمعتْ ... ما كانَ من دررٍ في غيرها انقسمَا

نظمْتَ في سِلكها ما كـان مُنْتثـرا ... في غيرِها من للآلي العلْـمِ فانتَظمَـا

جلتْ محاسِنُها عـن أن تُعـد ولـو ... أفنَيْتَ في عَدها القِرطـاس والقلمَـا

لله دَر إمَـامٍ حـاكَ حُلتَهـا ... شادَ بها من بناءِ الدين مـا انهـدما

جزاهُ رَب الـورى خـيرًا وصَـيرهُ ... بحرمةِ الله طـولَ الـدهْرِ مُحتَرمـا

قال لي، رضي الله عنه، لما فرغت من تأليفي وأكملته في سنة أربعين، قلت: اللهم إني أتقرب إليك بحرمة بيتك الحرام بهذا الكتاب، فاجعل مما تثيبني به[3] عليه

(1) قال العياشي: وهو كتاب بديع حافل جمع فيه كل ما له تعالى بالبيت الحرام مما تتشوف النفوس إلى السؤال عنه، وبناء على أسلوب عجيب، ألفه في البناء الأخير سنة 1039هـ، وملكني طرفا منه: (اقتفاء الأثر، ص: 125)، ومن هذا الطرف توجد نسخة على الميكروفلم بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 117.

(2) وردت القصيدة في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 329.

(3) ساقط من ط.

وتعجله لي في الدنيا أن تيسر لي حج بيتك الحرام في هذه السنة، قال: وليس لي في ذلك الوقت مال أحج به، وأنا ذو عيال، فلما قرب وقت الحج بينما أنا ذات يوم إذ بعث إلي الأمير رضوان أمير الركب فقال: أريد من فضلك أن تحج معنا هـــذه السنة وعلي سائر ما تحتاج إليه من المئونة في سفرك أنت وأولادك. فعلمت أن الله تقبل دعائي، فتجهزت للسفر بأولادي ونسائي وكل من معي، فهيأ لي الأمير كل ما يحتاج إليه في السفر من الإبل والمحاف وغير ذلك، بحيث بلغت النفقة من عنده في حجتي نحو ألفي قرش. قال: وحج في تلك السنة الشيخ المحقق أبـــو الأمـــداد إبراهيم اللقاني المالكي، رضي الله عنه، وكان يحبني كثيراً، فلما قدمنا مكة جـــاء العلماء إليه يُهرعون للسلام عليه والتماس بركته، فكان إذا سُئل عن شـــيء ممـــا يتعلّق بالبيت أو الحرم يقول لهم: سلوا مولانا هذا، ويشير إلي، ويقول: إن له في ذلك تأليفاً عجيباً.

قال: فلما وصلنا إلى المدينة المشرفة دخلت المسجد النبوي يـــوم الجمعـــة فوجدت الزحام، فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً هل أرى موضعاً أجلس فيه، وكان الشيخ اللقاني، رضي الله عنه، سبقني إلى المسجد، فلما رآني أشار إلي فجئت إليه، ففسح لي بينه وبين ولده الشيخ عبد السلام، وأجلسني بإزائه، فلما اطمـــأن بنـــا المجلس سألته الدعاء لي ولأولادي أن يسلمنا الله ويبلغنا إلى بلدنا، فقال لي: أمـــا أنت فترجع سالماً وأولادك، وأما أنا فأموت. فقلت له: يا سيدي هـــذه حـــضرة الرسالة ادع الله أن يبلغك إلى أهلك. فقال: لهذا خرجت. قال لي: وكنت أرى ذلك كرامة له ومكاشفة منه رضي الله عنه. ولما اشتد به المرض في الدرب، وكان لا يستطيع الركوب، جاؤوه بمحفة ليركب فيها، فلما رآها تذكر ما كان يقول له بعض أهل الجذب بمصر، وكان يقف عنده في مجلس تدريسه ويقول له: يا إبراهيم إذا حججت وركبت في محفة فإنك تموت، فارتاع عند رؤيتها لذلك، ولم يمكنه إلا الركوب للمشقة التي لحقته، وكان مرضه يبس الطبيعة. قال: ولما مات في الليل انقض من السماء كوكب عظيم أفزع الناس فكبروا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا قائلاً يقول: مات الشيخ اللقاني رضي الله عنه آمين.

لطيفة:

لما جئت لوداع الشيخ الميموني عشية يوم الأربعاء كتب بعض أقاربه[1]: (لا إله إلا الله في رق، وكتب بإزائه: محمد رسول الله، وفصل ما بينهما بمقص حتى بقي منه شيء قليل، فأمرني أن آخذ إحدى القطعتين، وأخذ الشيخ الأخرى، وقطعناها ما بيننا نصفين، وقال لي: تحفظ على القطعة التي عندك، وأنا على التي عندي، فإن اسم الله واسم حبيبه إذا تفرقا لا بد أن يجتمعا بفضل الله تعالى. قلت: وكان هذا تلميح من قوله تعالى في الحديث القدسي: لا أذكر إلا ذكرت معي[2]. فإذا اجتمعت البطاقتان اجتمع من هما عنده، وهو المقصود.

وقد صدق الله العظيم تعالى في ذلك في واقعتنا، فرجعنا من الحجاز بعد مجاورة سنة، ووجدنا الشيخ، والحمد لله، سالماً في نفسه، ولم أجد قريبه الذي كتب ذلك، وكان فعل ذلك حرصاً على حياة الشيخ ورجاء أن يعيش حتى نرجع من الحجاز؛ لما كان يتخوف من هجوم الحِمام لكبر سنه، مع كثرة الأمراض الوبائية إذ ذاك بمصر، ولم يتخَوَّف ذلك على نفسه، وفي مثل ذلك قيل:

[متقارب]

وقبلكَ داوى الطبيبُ المريضَ فعاشَ المريضُ وماتَ الطبيبُ[3]

وممن لقيته بمصر، شيخ الإسلام، وعلامة الأعلام، وإمام المحققين ورئيس النظار المدققين، حائز قصب السبق في الفنون كلها، المتضلع في فرعي الفنون وأصلها، الشيخ أبو الحسن علي الشبراملسي الضرير، ذهبت لزيارته فوجدته في المسجد المسمى بمسجد المغاربة بإزاء داره، يقرأ عليه هناك كتاب المواهب اللدنية للإمام القسطلاني، وحضر مجلسه أعيان تلامذته، وقرأ قراءة حسنة، وقرر تقريرات عجيبة في حديث: أول ما خلق الله نور محمد، صلى الله عليه وسلم، إلخ الحديث، وقَرَّر وجه انقسام ذلك النور وكيفيته، مع أن الحقيقة الواحدة لا تنقسم، وليست

---

(1) وقع هنا اضطراب في الطبعة الحجرية للرحلة العياشية، فقد ورد بعد هذا مقتطفات من الخلعيات لأبي الحسين الخلعي التي سترد في الجزء الثاني من الرحلة، قبل أن يعود النص إلى مساره الطبيعي.

(2) جاء في مجمع الزوائد: "عن أبي سعيد، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول: كيف رفعت ذكرك. قال: الله أعلم، قال: إذا ذكرت ذكرت معي: مجمع الزوائد 8:254.

(3) نسب البيت في العقد الفريد لأبي العتاهية: العقد الفريد 3:140.

الحقيقة المحمدية إلا قِسْمَاً من تلك الأقسام، والباقي إن كان منها فقد انقسمت، وإن كان غيرها فما معنى الانقسام.

وحاصل جوابه أن معنى الانقسام زيادة نور على ذلك النـــور المحمـــدي، فيؤخذ ذلك الزائد، ثم يزاد عليه نور آخر، ثم كذلك إلى آخر الانقسام.

قلت: وهذا جواب مقنع بحسب الظاهر، والتحقيق، والله أعلم، وراء ذلك، وذلك إنما يدركه على الحقيقة من عرف معنى قوله تعالى: (الله نور الـــسماوات والأرض)[1]، ومعنى قوله، صلى الله عليه وسلم، لما قيل له: هل رأيت ربـــك[2]؟. فقال: نور أنى أراه، كما في بعض الروايات بفتح همزة أنى، ونونه كلمة استفهام، أو نوراني بياء النسب آخره، كما في بعضها. وتحقيق ذلك على ما ينبغي ليس مما يدرك ببضاعة العقول، ولا مما تتسلق عليه الأوهام والأفهام، وإنما يدرك بكـــشف إلهي وإشراق حصة من أشعة ذلك النور في قلب العبد، فيدرك نور الله بنـــوره، فيكون الحق في الحقيقة هو إدراك المدرك لنوره بنوره، ونسبة الإدراك حينئـــذ إلى العبد مجاز. وأقرب تقرير يعطي القرب من فهم معنى الحديث أن يقال: لما كـــان النور المحمدي هو أول الأنوار الحادثة التي تجلى بها النور القديم الأزلي، وهـــو أول التعينات لوجود المطلق الحقاني، وهو مدد لكل نور كائن أو يكون، فلما أشـــرق النور الأول في حقيقته فتنورت، بحيث صار هو نورا كما دل قوله، عليه السلام، في دعاء الأنوار: واجعلني نورا[3]، أشرق نوره المحمدي على حقائق الموجـــودات شيئاً فشيئاً؛ فهي تستمد منه على قدر تنورها بحسب كثـــرة الوســـائط وقلتـــها وعدمها، وكلما أشرق نوره وفاض على نوع من الحقائق ظهر النور في مظهـــر الانقسام، فقد كان النور الحادث أولاً شيئاً واحداً، ثم أشرق في حقيقة أخـــرى، فاستنارت بنوره تنوراً كاملاً، بحسب ما تقتضيه حقيقتها، فحـــصل في الوجـــود

(1) النور: 35.

(2) جاء في صحيح مسلم: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي، وحدثني حجاج بن الشاعر، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، كلاهما عن قتادة عن عبد الله بن شقيق، قال: ثم قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟. قال: كنت أسأله هل رأيت ربك. قال: أبو ذر: قد سألت فقال: رأيت نورا: صحيح مسلم 1:161.

(3) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعل لي في قلبي نورا، وفي لساني نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، ومن بين يدي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل في نفسي نورا، وأعظم لي نورا: صحيح مسلم 1:528. مسند أحمد 1:284.

الحادث نوران: مفيض ومفاض، وفي نفس الأمر ليس هناك إلا نور واحد أشرق في قابل الاستنارة فتنور، فتعددت المظاهر والظاهر واحد.

ثم كذلك كلما أشرق في محل ظهر بصورة الانقسام، وقد يشرق نور المفاض عليه أيضا بحسب قوته على قوابل أخر، فتتنور بنوره، فيحصل انقسام آخر بحسب المظاهر، وكلها راجعة إلى النور الأول الحادث إما بواسطة أو بدونها.

وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه العبارة في هذا التقرير، ومثلي في قصور باعه وعدم تضلعه من العلوم الإلهية، إن زاد في التقرير خشي على إيمانه، ولولا تأييد الحق، جل وعلا، ما كنا نقوى على أقل من هذا، و(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)[1].

وأقرب مثال يضرب لذلك لذلك؛ إذ بالمثال تتضح الأشياء بعض الوضوح، نور المصباح الذي ليس في البيت الكبير إلا هو، فتصبّح منه مصابيح كثيرة، ويصبح بعضها من بعض، فليس هناك في الحقيقة إلا نور المصباح الأول وقد انقسم إلى مصابيح كثيرة، وهو في نفسه باقٍ على ما هو عليه لم ينقص منه شيء.

وأقرب من هذا المثال إلى التحقيق وأبعد عن الأفهام، نور الشمس المشرق في الأهلة والكواكب، على القول بأن الكل مستنير بنوره، وليس لها نور من ذواتها، فقد يقال بحسب النظر الأولي: نور الشمس منقسم في هذه الأجرام العلوية، وفي الحقيقة ليس هناك إلا نورها، وهو قائم بها لم ينقص منه شيء، ولم يزايلها منه شيء، ولكنه أشرق في أجرام أجر قابلة للاستنارة، فاستنارت.

وأقرب من هذا للفهم ما يحصل في الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء وقوارير الزجاج، فيستنير ما يقابلها من الجدرات بحيث يلمح فيها نور كنور الشمس مشرق بإشراقه، ولم ينفصل شيء من نور الشمس على محله على ذلك المحل. ومن كشف الله حجاب الغفلة عن قلبه، وأشرقت الأنوار المحمدية على قلبه بصدق اتباعه له، صافية بصفاء إيمانه بالله ورسوله من شبه الباطل، أدرك الأمر إدراكا آخر لا يحتمل شَكّاً ولا وهماً.

(1) الأعراف: 43.

نسأل الله تعالى أن ينور بنور العلم الإلهي بصائرنا، ويحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا، ويغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل، بل نحن عن أهله بمعزل، و لم نطف قط بساحته فضلا عن المترل، ونسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير في حق ذلك الجناب فاشي عن القصور في مقام العرفان ونزول منازل الأحباب.

ولقد أجاد كل الإجادة صاحب منارات السائرين إلى الله(1) لما قرر معنى كون النور المحمدي أصل الموجودات، ولأجله خلقت مع مجيئه آخراً، وضرب لذلك مثلاً قريباً من للأفهام ببزر الشجرة مع الشجرة والثمرة، فجعل النور المحمدي لذي هو الأصل، كالبزر والعالم كله شجرة، واللطيفة المودعة في ذلك النور سارية في ميع أجزاء الشجرة من أوراق وغصون وأزهار فبه قامت، ولولاه ما وجدت، ثم الحقيقة المحمدية الموجودة بصورها آخرا بمترلة الثمرة هي عين اللطيفة البزرية السرية في عوالم الشجرة على أن ظهرت آخرا على أكمل وجه مع عوارضها المشخصة، فهي ثمر الوجود بأسره، ولولاه ما غرست الشجرة، ولأجلها كان غراسها، وعي أصلها.

وقد جعل صاحب الكتاب المذكور هذا المثال أصلاً بنى عليه فصول كتابه كلها، وهو حسن جداً مفيد في بابه، إلا أن فهمه يعسر على غير أهله.

وقد أطلت الكلام في هذه المسألة لكونها من غرر الفوائد، لم نر من وفاها حقها، فنسأل الله تعالى أن يتجاوز عن قصورنا وتقصيرنا، ويجعل إلى جنة رضوانه على أكمل حال غاية مصيرنا.

وكلام شيخنا الشبراملسي في هذه المسألة هو الذي فتح لنا الباب في هذه المسألة، وببركته فتح لنا ما فتح من فهم هذه المسألة. وشيخنا هذا من أفراد علماء القاهرة علماً وعملاً وزهداً وورعاً، وتلامذته من أنجب طلبة الجامع الأزهر، وعليه المعول في كشف معضلات العلوم العقلية والنقلية، وليس بمصر من يعادل الشيخ سلطان في فن القراءات إلا هو، بل كان شيخنا أبو بكر السجتاني يفضله عليه في

(1) الإشارة هنا إلى كتاب: منارات السائرين ومقامات الطائرين، للشيخ نجم الدين أبي بكر محمد أبي بكر عبد الله بن محمد بن الشاهانوري الرازي: كشف الظنون 2:1823.

القراءات ويقول: هو أتم منه تحقيقاً وأكثر تدقيقاً، إلا أن الشيخ سلطان أشهر منه في الناس، وأما أهل التحقيق فيميلون إلى الشيخ علي أكثر.

وقد كان شيخنا أبو بكر يقرأ عليه إلى أن خرج من مصر، مع أنه كان من أترابه ورفقائه في القراءة على شيخ الإقراء بمصر، الشيخ عبد الرحمن اليمني، رضي الله عنهم.

لطيفة:

أخبرني شيخنا أبو بكر السجتاني أنه كان ملازماً كثيراً للشيخ علي الشبراملسي، لما بينهما من الأُلفة والمحبَّة. قال لي: وما سمعته قط اغتاب إنسان صغيراً أو كبيراً، جليلاً أو حقيراً، حتى المشتهرين بالظلم من الولاة، إن جاء أحد يشتكيهم لا يزيد على الدعاء لهم بالهداية، وهذه منقبة شريفة لا تكاد توجد في زماننا إلا شذوذاً، وهي مما يدل على كمال الشيخ في طريق العرفان، ودوام مراقبته لله في أقواله وأفعاله، ونور الولاية ظاهر على وجهه، وسيمياء العارفين بادية عليه، حشرنا الله في زمرته.

وممن لقيته من فقهاء الأزهر المعمور شيخنا عبد الجواد الطريني، وهو رجل مسن أدرك أكابر العلماء بالأزهر، وله سند عال ومشاركة في كثير من العلوم، وقد أطلعني الله على جملة من رسائله في مسائل كثيرة غالبها يتعلق بمعاني بعض الأحاديث، وقد أجاد في كثير منها، وقد كتبت له على بعضها تقريضا حسنا، وقد توفي، رحمه الله، زمان جوارنا بالحجاز سنة ثلاث وسبعين وألف.

وممن لقيته بمصر الشيخ علي الصوفي[1] الساكن بسطح الجامع الأزهر، وهو رجل منفرد في بيت لم يتزوج قط، وله مخالطة بالفقهاء وبعض استحضار في الفقه، وهو ممن تُرجى بركته، وكان يتمنَّى الحج مع كبر سنه، ويبحث عن علم السيميا وأسرار الأسماء كذلك، وله نيَّة صالحة في ذلك، وسألني عن شيء من ذلك، فقلت له: يا شيخ، إن طريق مشايخنا معشر الشاذلية عدم استعمال الأسماء والأذكار، طلباً لفائدتها العاجلة، بل ولا الآجلة في الغالب، وإن كان حاصله في ضمن ذلك،

(1) علي الصوفي المصري: صاحب أحوال ومقامات: نشر المثاني 2:379.

والكفاية بالله أولى من التعلق بالآثار، والحج لم يُفرض عليك لضعفك وقلة ذات يدك، ومن أصول القوم أن لا يتكلف الإنسان ما كلِّفه. وأقر بصواب ما ذكرت له، و لم ترجع نفسه عن مآربه، ثم مَنَّ الله عليه بالحج في هذه السنة بأن حرك له قلب بعض الولاة، فأخذه معه رجاء بركته، وقام وتكفل بكل مؤنه، والله يعامل العبد على قدر نيته، وينفع أولياءه ولو على يد أعدائه، والفضل ما شهدت به الأعداء.

غريبة:

أخبرني هذا الشيخ أن بعض من ينتحل علم الأسماء أخبره أنه كان يستعمل دعوة آية الكرسي ويشتغل بها على طريق أهل ذلك الفن، فجاءه روحاني وقال: آتيك كل يوم بألف شريفي ذهباً بشرط أن تنفقها كلها ولا يبقى عندك درهم واحد. فقال له: لا أقدر على هذا، فإنه أمر لا يكاد يخفى، وأخاف على نفسي إن ظهر ذلك علي من أرباب الدولة، فلو كنت تأتيني كل يوم بشريفي واحد أو اثنين أو عشرة، ففيها الكفاية. فقال لي: لا بد من الألف على الشرط المذكور، وإلا فلا. و لم يزل يراجعه في الاقتصار على الكفاية حتى أبى عليه، فيئس منه وترك قراءة الدعوة.

قلت: وهذا من أعظم دليل على حمق الراغب في الدنيا، فإن الله قد تكفل له بالكفاية على وجه يرضاه له على قدر حاله، ويعلم فيه صلاحه إن رضي (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يترل بقدر ما يشاء)، فلو أعطي ما فوق اللائق بحاله لم يستطع، ألا ترى أن هذا لما رُد إلى حال لا تليق إلا بالملوك ومن يحاكيهم لم يقدر على ذلك، لأنه فوق طوره، ولو استغنى بالحال الذي أقامه الله فيها، فإنه أعلم بشؤونه، لاستراح. ولكنه أراد أن يدبر لنفسه حالاً ظَنَّ أنه أولى به، وهو على خلاف مراد الله به، فنبهه الله بما أراه على أن ما كان يظنه من أن كثرة المال هو اللائق حاله، وكسر في الرأي وغلط في التدبير، لعجزه عن القيام به. وهذا رجل ملطوف به، ولولا لطف الله به لقبل ذلك، فيكون فيه حتفه قريباً، ولكنه نظر بما آتاه الله من نور العقل والحكمة، فعلم أن ذلك لا يتم له، لأنه على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية.

ومن لقيت، وقد ذهبت لزيارته، الخليفة من أولاد سيدي محمد بن عنان، وهو من بقية أهل الخير، ولهم ولاية جامع المقسم، وبه يجتمع أتباعهم للذكر وقراءة وظائفهم، وهم من الطوائف المشهورة بمصر، وجدهم سيدي محمد ابن عنان[1] من أكابر الصالحين الجامعين بين العلم والعمل، عرف به سيدي عبد الوهاب الشعراني في الطبقات، وبالَغ في الثناء عليه، وذكر من أحواله وكراماته شيئاً كثيراً، ولم يزل الخير في أتباعه إلى اليوم. ولهذا الخليفة ولد صالح مقتف آثار أسلافه الكرام، لقيته بجامع المقسم، وأنس ودعا وأتى بطعام، وله معرفة بطريق القوم وأخبار الصالحين، وذكر لنا من بركات ذلك المسجد، وأنه من بناء الصحابة، وأنه ليس بمصر أصح قبلة منه ومن جامع عمرو بن العاص، رضي الله عنه.

قال: وقد نَصَّ بعض الأئمة على أنه لا يجوز للمصلي الاجتهاد في القبلة إذا كان بأحد هذين المسجدين. قلت: ولم أرَ في شيء من التواريخ أن جامع المقسم من بناء الصحابة، ويبعد ذلك، بكون هذا المسجد في طرف القاهرة من ناحية باب الناصر، والقاهرة معلوم أنها من بناء العبيديين، ليست من بناء الصحابة. اللهم إلا أن يكون مما بنته الصحابة خارج البلد. وعلى كل حال فهذا المسجد معروف البركة، مشهور الذكر بمصر، يؤثر أنه لا يلازم أحد الصلاة فيه مدة إلا ويجتمع بولي من أولياء الله، ينفعه الله به. ولم يزل أهل الخير يقصدون هذا المسجد للصلاة فيه والدعاء والاعتكاف، وقد ذكره سيدي عبد الوهاب في كثير من تآليفه، رضي الله عنه.

وبإزاء المسجد قريباً منه مسجد لسيدي أحمد الزاهد[2]، رضي الله عنه، ذكر سيدي عبد الوهاب، رضي الله عنه، في الطبقات، أن سيدي احمد الزاهد قال: من صلى في مسجدي هذا ركعتين أخذت بيده يوم القيامة[3]. ولأجل هذه المنفعة العظيمة قصدت هذا المسجد العظيم إلى أن صليت فيه ركعتين بهذه النية.

---

(1) الشيخ سيدي محمد عنان، من الزهاد العباد، توفي سنة 922 هـ: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 445 – 450.

(2) الشيخ احمد بن سليمان الزاهد، عالم عامل، مات سنة نيف وعشرين وثمانمائة، ودفن بمسجد: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 395 – 398.

(3) أنظر: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 396.

وممن لقيته يوم خروجنا الشيخ عثمان النحراوي الحنفي، وهو اليوم الخليفة من أصحاب الشيخ الشنّاوي، رضي الله عنه، ولم يتيسر لقاؤه إلا في ذلك اليوم، فدعا لي وودّعني، وهو ممن له خبرة بأصول القوم، سيما طريق صاحب الجواهر الخمس، فإنه ممن يرجع إليه فيها بتلك الديار، رضي الله عنه.

ولما بلغ شهر شوال نحو النصف، خرج المحمل الخروج الأول، وذلك يوم يُؤتى بكسوة الكعبة المشرّفة من دار الصنعة، فتضرب سحابة على باب القلعة، فيحضر السناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي، كل واحد مع أتباعه، ولكل واحد مجلس معلوم في السحابة المضروبة، ومجلس الباشا في الوسط وعن يمين مجلس القاضي، وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له، وقربهم من الباشا بحسب قربهم في مناصبهم، فإذا تكاملوا وأخذوا مجالسهم، وصُفّت الخيل عن يمينهم صَفّاً، كل طائفة مع جنسها، إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا، وهو ميدان كبير يسع الآلاف من الخيل، وآخر من يخرج الباشا، فتخرج أمامه طائفة من عسكره، بعضهم إثر بعض على ترتيب معلوم وقانون مضبوط. وآخر من يخرج معه طائفة الشاوشية على أرجلهم، عليهم جلود النمر، وعلى رؤوسهم طراطير طويلة من اللمط، لها ذيول معكوفة بين أكتافهم، وعلى جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب، تلمع لمعاناً، فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بإثرهم راكباً، فإذا وصل إلى السحابة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس، وكذلك يفعل من تقدّم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده، فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذي يحمل المحمل وعليه المحمل، وهو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن وشبابيك مُلَوَّنة بأنواع الأصباغ، وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب، ورقبة الجمل ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم، وعليه رسن محلى بمثل ذلك. والجمل في غاية ما يكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة، مخضب جلده كله بالحناء، يقوده رجل، وعن يمينه وشماله آخر، ويتبعه جمل آخر على مثل صفته، ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعاً قطعاً، كل قطعة منها على أعواد شبه السلاليم معدة لذلك، يحملها رجال على رؤوسهم والناس يتمسحون بها ويتبركون.

ويُؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد، وتُسَمَّى البرقع، كلها مخوصة بالذهب، حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد، بصنعة فائقة وكتابة رائقة، ثم يُمر بكل ذلك بين يدي الباشا والأمراء، ويقومون لها إذا مَرَّت بهم تعظيماً، ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك الجمع، ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني، تنشر في صحن المسجد وتخاط هناك.

ولما تفرق الجمع من ذلك الميدان الذي أمام القلعة، خرجت من هناك مع بعض أصحابنا لزيارة بعض المشاهد بالقاهرة، فكان مما زرناه المشهد العظيم المحتوي على جماعة من أهل البيت رجالا ونساء، أشرفهم السيدة نفيسة الطاهرة، وإليها ينسب المشهد وبها يعرف، وعليها بناء عظيم، وبإزائه مسجد كان الإمام الشافعي يصلي به التراويح في رمضان، رضي الله عن جميعهم. وبيوت تسكن قلما تخلو من زائر وراغب إلى الله في كشف كربه. وقبرها معروف بإجابة الدعاء، فهو ترياق لنيل كل مراد، كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد، وهي السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن علي بن الحسين، دخلت مصر مع زوجها إسحاق ن جعفر الصادق، وكان الإمام الشافعي يصلي بها التراويح في رمضان، رضي الله عن جميعهم.

وزرنا أيضاً قبر الإمام الذي لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته، إذ هو صاحب التصريف التام بمصر، رئيس الأئمة وشيخ مشايخ الأمة، محمد بن إدريس الشافعي، رضي الله عنه، وعليه بناء عظيمٍ ومسجدٍ وخانقاه، وقوم من الفقراء يسكنون هناك، وقيم المشهد لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، وهو من المشاهد الكريمة والمآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة، ويتخذ عند قبره في كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه ناس كثيرون يضيق بهم المسجد وأفنيته، ما بين فقراء وأمراء ورجال ونساء، يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة وقراءة قرآن وصلاة، لا يفترون إلى طلوع الفجر، وذلك دأبهم أبداً في كل ليلة سبت. ولا يخلو ذلك المجمع من جماعة من الصالحين، فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني أن جماعة من الأولياء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهو حقيق بذلك وجدير، فإنه بالمحل الذي لا يدرك عليما وعملا وحالا وفتوة وحسن أخلاق وزكاء أعراق ونصرة للدين وحماية له، باذلاً في ذلك نفسه وماله وجاهه، فقد

اتفق العلماء على أنه ليس في أصحاب إمام الأئمة مالك، رضي الله عنه، أثبت ولا أعلم ولا أفقه من الإمام الشافعي، كما اتفقوا على أن ليس في مشايخ الشافعي أجمع للخصال المذكورة من الإمام مالك بن أنس، رضي الله عن جميعهم. وما علم من تعظيم كل واحد منهما للآخر وثنائه عليه، يدل على أنهما عالِمَا الأمة وناصِرَا السنة، وشيخا المشرقين والمغربين، وقمرا سماء الكتاب والسنّة المنيرين، فالعلماء في كل قطر من بعدهما عيال عليهما، فهما فرسا رهان، وقطبا فلكي الإتقان، وإن انفرد الإمام مالك، رضي الله عنه، بفضيلة السبق ورتبة الأستاذية وسكنى المدينة، دار الهجرة والسنة إلى أن مات، فللإمام الشافعي أيضاً مزايا كثيرة ومآثر شهيرة، استحق بها أن يشتهر ويذكر، ويحمد في دين الله ويشكر.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا محبتهما وتعظيمهما ومحبة سائر الأئمة المجتهدين والعلماء المهتدين، خصوصاً شريكاهما في تقرير المذاهب وحيازة التشريف اسم الأئمة بالغلبة، وذلك من أعظم المواهب، الإمام الأعظم أبا حنيفة، وناصر السنة أحمد بن حنبل، فكلهم على هدى من ربهم، ومهتد حقاً من اهتدى بهم، فرضي الله عنهم وعن سائر العلماء أجمعين، وجعلنا لمناهجهم السديدة من خيار المتبعين.

وقد زرنا أيضاً قبر الإمامين الشامخين الهمامين الحاملين لراية مذهب الإمام مالك، السالكين في ذلك أحسن المسالك، راوية المذهب عبد الرحمن بن القاسم[1]، وحاميه وناصره أشهب[2]، رضي الله عنهما، وقبراهما متجاوران، وبإزائهما قبور كثيرة لمشايخ الأمة، رضي الله عنهم.

وزرنا أيضاً شيخ المشتهرين بحب الله وأمير المؤمنين في الشوق إلى الحضرة القدسية، لسان المحبين، أبا حفص عمر بن الفارض، رضي الله عنه، وعليه بناء ومسجد عليه أثر المهابة ورقة الصبابة.

وزرنا أيضاً قبور السادات بني الوفا، مناهل الصفا، ومشايخ العارفين.

---

(1) عبد الرحمن بن القاسم العتقي، فقيه حافظ، صحب الإمام مالك عشرين سنة وتفقه به، توفي بمصر سنة 191 هـ: شجرة النور الزكية 1:88.

(2) أبو عمر أشهب بن عبد العزيز المصري، فقيه مالكي، توفي بمصر سنة 204 هت: شجرة النور الزكية 1:89.

وزرنا أيضاً الإمام تاج الدين ابن عطاء الله، والإمام شرف الدين الأبوصيري، وغيرهما من المشايخ. وطلعنا إلى قبر الشيخ أبي عبد الله المغاوري، وهو على حرف الجبل، مشرف على القرافة كلها، فاستقبلنا من هنالك من بها من المشايخ، وقرأنا الفاتحة لساكنها، وتوجهنا إليهم، ونسأل الله أن ينفعنا بمحبتهم.

وفضل القرافة وما اشتملت عليه من المزارات أشهر من أن يذكر وأظهر من أن يشهر، وقد ورد غب الآثار أنها بقعة من الجنة، ولذلك أمر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بجعلها مقبرة للمسلمين، قائلاً: لا أعلم تربة الجنة إلا مقابر المسلمين، فرضي الله عنه، ما أصدق فراسته وأجلّ إمامته.

وقد زرنا في ذلك اليوم المسجد المنسوب للأمير العدل أحمد بن طولون[1]، وهو من أقدم مساجد القاهرة، وله بركة، وقد قيل إن موسى، عليه السلام، ناجى ربه في ذلك المكان، وكان يعرف بجبل يشكر، وقد ذكر ابن خلكان وغيره أن النبي، صلى الله عليه وسلم، هو الذي عيّن له في النوم المكان الذي بنى فيه قبلته[2]. وهو على شكل المسجد الحرام، وفي وسط صحنه قبة فيها ماء للوضوء والشرب على شكل البيت كما زعموا، إلا أنّ هذا المسجد أصغر من المسجد الحرام بكثير، وبخارج المسجد زيادة كثيرة، كان حجاج المغاربة يترلون فيها بإبلهم وأخبيتهم أيام الإقامة، وكان في ذلك رفق بالضعيف الذي لا يقدر على كراء المنازل، ثم منعوا منها في هذه السنين الأخيرة بعد الستين، وفي حسن المحاضرة أن هذه الزيادة كانت أولا في المسجد[3].

ومن يوم خروج المحمل شَمَّر الناس عن ساق الجد في التجهيز للسفر باتخاذ الزاد وشراء الإبل وكرائها، وأزيحت العلل، وكان الناس قبل ذلك في سعة من أمرهم. وقد الجمالون من الصعيد والأرياف، وكثر طالبو الكراء، واختلفت رغبات الناس، فمن قائل على الكراء، ومن قائل على الطلوع بإبله، فمن أراد

(1) أحمد بن طولون: صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، كان المعتز بالله قد ولاه مصر ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية، بنى الجامع المنسوب إليه الذي بين القاهرة ومصر في سنة تسع وخمسين ومائتين، وهذه الزيادة حكاها الفرغاني في تاريخه، وذكر القضاعي في كتاب الخطط أنه شرع في عمارته سنة أربع وستين ومائتين وفرغ منه في سنة ست وستين ومائتين، توفي سنة 270 هـ: وفيات الأعيان 1:173. شذرات الذهب 1: 157.

(2) أنظر: الانتصار لواسطة عقد الأمصار 1:133.

(3) حسن المحاضرة 2:199.

راحة بدنه وتعب قلبه والخصومة آناء الليل وأطراف النهار اكترى، ومن أراد سلامة قلبه ودينه والمخاطرة بماله اشترى إبله.

ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول من مصر على المويلح، فيشتري من عندهم كل من يطلع بإبله على ما يحتاج من العلف إلى المويلح، إذ لا تقدر الإبل على حمل زادها وحمل زاد أربابها ذهاباً وإياباً. ومن أراد المخاطرة فلا يكتري شيئاً، ويشتري في كل بندر ما يحتاج إليه، إلا أنه ربما يقل في بعض الأحيان، فيُشترى في بعض المحال غالياً. وغالب الأوقات يكون الأمر متقارباً في الشراء والكراء، وربما كان الشراء أرخص من الكراء، ولا يكتري أحد عند عرب الدرب للفول حتى يأتي شيخهم إلى أمير الركب، ويتقاطع معه في الكراء، ويعطون له حملاء هناك بمصر لئلا يغدروا، ومع ذلك ربما غدروا في بعض السنين، فيغلى الفول في بعض البنادر.

فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة، وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة، ويجتمع له الناس من أطراف البلد، ويؤتى بكسوة البيت من موضع خياطتها، وتجعل في المحال التي تحمل فيها، ويجتمع الأمراء والصناحق والجند جميعاً على الهيأة المتقدمة في الخروج الأول، إلا أن هذا أتم احتفالاً وأكثر جمعاً، فإذا تكامل جمع الأمراء على الوجه المتقدم، وصفت الخيل والرماة، وخرج الباشا، جيء بجميع ما يحتاج غليه أمير الحج من إبل وقرب ومطابخ وخيل ورماة وغير ذلك من الأسباب التي تخرج من بيت المال، فيحضر جميع ذلك في الميدان، كل طائفة لها أمير مقدم عليها، حتى الطباخين والفراشين والسقائين، ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جمله المذكور أولاً، يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا، فيأخذه بيده ويناوله لأمير الحجاج بمحضر القاضي والأمراء ومعاينتهم، ثم يناوله أمير الحج لسائسه، فيذهب به. وذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن للأمير المحمل وكل ما يحتاج إليه أمير الحج، من ذهابه إلى إيابه، وعلى أمير الحج بأنه تسلم ذلك، ويشهد على ذلك القاضي والأمراء، ويُكتب بذلك إلى السلطان.

فإذا مَرَّ المحمل بين يدي الباشا وذهب، جيء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القِرب والمطابيخ والآلات، كل طائفة بمقدمها، فإذا مرت الإبل كلها جيء بالمدافع، وهي خمسة تجرها البغال. ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون، ثم

تأتي الخيل فتمر، فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاء أرباب الوظائف، كل طائفة مع مشايخ الصوفية بشيخهم ولوائهم، رافعين أصواتهم بالذكر، كالقادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية، حتى السعاة يأتون بشيخهم. فيمرون بين يدي الباشا ويعطيهم ما تيَسَّر، فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحج خلعة، وعلى كل أمرائه الذاهبين معه، كالكيخيا والدويدار وغيرهما، ثم يودعه وينصرف.

ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة والناس مشرفون من الديار والمساجد التي تلي الشوارع، ويتعَطَّل غالب الأسواق في ذلك اليوم.

غريبة:

أخبرنا أنَّ بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تُكرى من أول السنة، ولا يسكنها مكتريها، ولا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصد التفرُّج، وفيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

وبالجملة، فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة، ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه، ويقرب منه أيضاً يوم قدوم الحاج، فهذه الأيام الثلاثة هي التي يحتفل لها عندهم غاية الاحتفال ويهتبل أتم الاهتبال.

فإذا خرج المحمل من الميدان الذي على باب القلعة إلى فضاء الرملة، بقي الكثير من الخيل هناك للتعب، ولا يذهب معه إلا المعينون للسفر معه. والرملة فضاء واسع خارج قلعة الجبل، وفيه تباع الإبل والخيل وسائر الدواب، وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة، وتنصب فيه أيام الموسم أراحي متعددة لتدشيش الفول، يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها، وقد أعطوا قوة على ذلك؛ يطحن الرجلان أرادب متعددة في يوم واحد، فتكون بالرملة هبر من الفول المدشش، كل هبر تزيد على المائة إردب، ومن هناك يكيل غالب الحجاج فولهم، ويعمرونه هناك في غرائرهم ويمكنونه للجمالين فيذهبون به، فلا يراه صاحبه إلى مكان المشترط معهم، وهو المويلح في الغالب.

وفي الرملة كثير من حلق المعجبين يلعبون هناك في سائر الأيام، كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات، كالدب والحمير والتيوس والكلاب.

وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل غريبة، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات، فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا مذللا، فسبحان الذي خلق لابن آدم ما في الأرض جميعا، (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[1].

وبطرف الرملة مسجد السلطان حسن، وهو مسجد حسن لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه، وإحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه، كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه، كما تفعل في شواهق الجبال، وفي أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى، وفيها نقوش عجيبة يقال إن على صورتها وضعت أبواب المسجد. قال المقريزي: لا يعرف ببلد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها. قال: وذرع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع. وقد وجدنا ركنا منه قد انهدم، فكنه طرف جبل قد سقط، فملأ ما تساقط من الشوارع والرحاب التي بإزائه، ووجدناهم مجدون في ترميمه، وقد أخبرنا أنهم أعطوا ستين كيساً من الريال على جمع أنقاضه ورفعها من الشوارع والرحاب لتعاد للبناء ثانياً، فإذا كان هذا أجرة جمع النقض فما بالك بأجرة البناء.

ولما رجعنا من الحجاز بعد سنة ونصف، وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم، وبالوا في إتقان صنعته ورفع بنائه ليناسب البناء الأول، فكان كما قيل:

[بسيط]

يا بارقا [من] بأعلى الرقمتين بدا لقد حكيتَ ولكن فاتك الشنب[2]

---

(1) الإسراء: 70.

(2) الشنبُ: ماء ورقة يجر على الثغرِ؛ وقيل: رقة وبرد وعذوبة في الأسنان: لسان العرب: شنب.

فرحم الله أفاضل الملوك الذين درجوا، والذين من الخلف على منـــهاجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم. ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المـــساجد والخانقات، ويبالغون في تعظيمها، يتأنقون في ذلك ويبادرون على إصلاح ما وهى منها. وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث، بـــل ولا مهدما قد جدد، أو واهيا قد اصلح، بل لو سقط شيء من اكبر مـــساجدهم فاحسن أحولهم فيه إن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر وجص، وإن كان مجصَّصاً أن يعاد بطين، بحيث تجد المسجد كأن مرقعة فقير هندي من كل لون رقعة، وإلى الله المشتكى.

وما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عـــدم تعظـــيم شعائر الله، ولو في الأمور الظاهرة، فضلا عن الباطنة، وقد قيل: إذا أراد الله خلاء بلد بدأ ببيته ثم يتبعه ما سواه، وإذا أراد عمارته فكذلك.

ثم يُسار بالمحمل على هيئته وتعبئته حتى ينزل ذلك اليوم بالعادلية خارج باب القصر، فيقم هناك إلى اليوم الثالث والعشرين[1]، فيرحلون من هنالك إلى البركة، ويخرج أمير الحج وجميع عسكره، ويخرج مع الركب من المشيعين ومن العساكر والأمراء أضعافهم، فتنصب الأسواق هناك ويخرج غالب الباعة والمتسببين، بحيث يوجد هناك ما يحتاج إلى السفر بأرخص من سعر مصر، ويقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع والعشرين[2].

وأما ركب المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده الذهاب مع المصري مؤثراً مشي الليل على مشي النهار، مستسهلا مشقة السهر بالليل على حر النهار، سيما في أيام الصيف. وإنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس: أهل القوة الـــذين لهـــم شقادف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل ويصبحون بالنـــهار كأنهم مقيمون، ولا شك أن هذا أولى لهم من السير نهاراً إذا وطنوا أنفسهم على بذل الدينار والدرهم للجمال والعكام[3] والسقاء والطباخ وقائد الإبل وغيرهـــم.

(1) في الأصل: العشرون، والصواب ما أثبتناه.
(2) في الأصل: العشرون، والصواب ما أثبتناه.
(3) العكام:عكَمَ المتاع يَعكِمُه عَكْماً: شدّه بثوب، والعِكامُ: ما عُكِمَ به، وهو الحَبْلُ الذي يُعكَمُ عليه: لسان العرب: عكم.

والنصف الآخر الفقراء الذين لا إبل لهم ولا أمتعة، فيسترفقون عند المصري بالماء المسبل في أوقات من الليل وعند الرحيل نهاراً، مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق وبفضل الأطعمة. إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشي والسهر ليلاً، وفي النهار يشتغلون بالسعي على ما يقوتهم، فلا يكادون ينامون إلا قليلاً. وأما المتسوقة والباعة والجمالون من فلاحي مصر فلهم قوة وفرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك، فبالليل يسيرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء والسقي والطبخ وعلف الإبل وإصلاح أقتابها ومداواة جراحاتها، فلا يكادون ينامون حتى القليل.

وقد أخبرنا أن بعض من اعتاد السفر في درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر إلى أن رجع إلى مصر مائة يوم، وهذا كالمحال عادة، فإن صح فهو من اغرب الغرائب، ولعله كان لا يضطجع للنوم على هيأة القاصد لذلك، بل يغفي إغفاءة تارة على ظهر بعير، وتارة في وقت انتظار حاجة أو فراغ من أكل أو ما يضاهي ذلك، فإن كان مثل هذا فلا يستبعد.

ذكر خروجنا من مصر إلى درب الحجاز
وما في أخبار الدرب من حقيقة ومجاز

كان ارتحالنا من مصر بكرة يوم الخميس السابع والعشرين من شوال، اغتناماً لشمول بركة الدعاء النبوي: اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس[1]. وفي ذلك اليوم خرج معظم المغاربة، وخرج أميرهم، وكان خروج أصحابنا بالإبل على القرافة الصغرى، وتأخرت أنا لبعض أغراض، فخرجت على باب الناصر. والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها سوق واحد من كثرة الذاهب والجائي، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات. ونزلنا قبل الظهر بالبركة التي هي محل نزول الركب المصري في فسيح من الأرض على شط بركة واسعة مد البصر، يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات، تنصب فيها الأسواق الحافلة بشط البركة والقهاوي المزخرفة والفساطيط المونقة، ويخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج والتفرج هناك والتنزه في بساتين ومقاصر على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة، وفي جانبها الغربي قرى متعددة في أحدها مسجد لسيدي إبراهيم المتبولي[2]، حسبما ذكره الشيخ الشعراني في الطبقات، فذهبنا لزيارة ذلك المسجد، وعند نزولنا أخذ المصري في الارتحال، وتلك عادته في الرحيل في اليوم السابع والعشرين، ورجع المشيعون له من هنالك، وأكثر المتسوقين في ذلك اليوم، ولم يبت عندهم إلا القليل، وبات هنالك من عُيِّن لحراسة الركب من الجند، لأن العادة من يوم خروج الركب المصري إلى العادلية ثم إلى البركة، يعين للخروج طوائف من العسكر يترلون في نواحي الطريق من مصرٍ إلى البركة لئلا ينتهب أحد أو يغار عليه، لاتصال المارة من مصر إلى القاهرة، ليلاً ونهاراً. ولا ترجع العساكر من هناك حتى ترتحل الأركاب كلها، ولم يخرج آخر المصري من الدار إلى قرب المغرب.

(1) المعجم الكبير 286:10.
(2) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ص: 403.

وبات الركب المغربي هناك يتملون من رؤية النيل وشرب مائه، ويتمتعون بشميم عواره[1]، وطيب غذائه وقد مزجوا حلاوة مائه، يتمتعون بمرارة ماله، من شدائد الدرب يتوقعون. وبات الناس يثيرون الرواحل وينيخونها، ويشدون عليها أقتابها ويرخونها، ويرتبون الأمتعة في الغرائر، وقد شقت منهم خوف هجوم الرحيل المرائر، وحملوا ما قدروا عليه من زلال ماء النيل، ولثقل الأحمال والشفقة على الجمال لم نحمل منه إلا القليل، وتلك الليلة عند الحجاج أخرى الليالي المشهورة، وبالقصر وعدم انشراح الصدر مذكورة، كان الدرب أمامهم عَدوًّا لا يرحم وبحر لا يقتحم، يترقبون مزاولته عند الصباح، ومبادرته بالكفاح، وإنه لكذلك، لولا ألطاف الله الخفية فيما هنالك.

ولما كان أمر الناس في هذه السنة متفقا، وأميرهم إلى كثير من الخيرات مستبقا، نادى مناديه عشاء ألا يرحل أحد حتى يصلي الفجر، ويضرب الطبل فيزول الحجر. وبعد صلاة الصبح من يوم الجمعة أخذ الناس في الارتحال وأثيرت الرحال، واستقبل بها مطلع الشمس ووجهة الصلوات الخمس، فودع الناس أصحابهم، وفارقوا أحبابهم، فودعنا هنالك صاحبنا وأخانا في الله الشيخ علي الدمشيتي، وهو رجل من أهل الخير، لم نر بمصر أصدق منه لهجة ولا أهدى محجة، ولا أوفى ذمة، فهو في الخلق الحسن وحده أمة، وكان ثقة أميناً خيّراً دَيِّناً فاضلاً سخياً وَرِعاً تقياً، يبيع الكتب بالأزهر وتلك معيشته، وتكفل لنا بالدعاء أيام غيبتنا، وقد رأينا بركة دعائه في مسيرنا.

ثم سرنا ذلك اليوم في أطيب هواء لا حر ولا قر، لا مخافة ولا سآمة، قد جعله الله علينا برداً وسلاماً. وقد تأخرنا بجماعتنا ضحى فظهرت لنا بالبيداء خيل قليلة هموا أن يقتطعونا دون الركب، فلما رأيناهم تهيأنا لمقاتلتهم، فرأوا الجد منا فتجنبونا، وكفانا الله شرهم. ثم نزلنا الدار الحمراء عند العصر، ووجدنا آخر المصري في المنزل، وكنا أيام إقامتنا بمصر، بل ومن قبل ذلك، قد أَهَمَّنا أمر الحر في الدرب، كثيراً ما استقبلنا فيه حارة القيظ وأوان اشتد الحر، مع صعوبة المسالك وكثرة المهالك، وجد السير وكثرة الشر، فجعلنا لا نلتقي أحداً ممن نتوَسَّم فيه الخير إلا استودعناه الدعاء أن ييسر الله علينا، فوجدنا، ولله الحمد والشكر، بركة دعائهم، فلم نر في طريقنا، بفضل الله، ما يسوؤنا.

---

(1) العوار: شجرة خضراء: لسان العرب: عور.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا عجرود عند المغرب، وماؤه يضرب به المثـــل في القبح، واشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيراً في مياه الدرب، إلا أنه كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاق الطريق، مع اعتياد الناس قبل ذلك لماء النيل، ووجود فضلة منه، لا يكادون يسيغون منه جرعة إلا وهمت من بطونهم بالرجعة، وفي هذا المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء، يترك الناس فيها ما اســـتثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع، وكثيراً ما تعطب المتين من الإبـــل في هـــاتين المرحلتين، لجد السير وثقل الأحمال، إذ لم يخفف منها شيء والإبل قد ألفت الراحة بمصر ويغلب عليها السمن، وكثير من الناس لا يشفقون عليها، فيحملونها فـــوق طاقتها، ولا يرخون عليها في المشي لما يتوقعون من خوف اللصوص علـــى مـــن تأخر، فكل واحد يريد أن يتقدم، وقد لطف الله بنا لكوننا في جماعة لا بأس بها، نتأخر في الغالب على الركب، فنسير بإبلنا على مهل، وينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض، فكان لنا في ذلك وللناس خير كثير، فلم يبق لنا في الدرب كله جمل.

وفي أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة يسنى دائماً بالبقر، ويخرج الماء من البندر إلى برك ثلاثة خارجه، اثنتان صغيرتان، والثالثة كبيرة، وصورها هكذا:

صغيرة	كبيرة
صغيرة	

وعمق كل واحدة نحو العشرة أذرع، ودور الكبيرة نحو الثلاثين ذراعـــاً في نصفها، وكنا خشينا ألا نجد في البرك ماء، لأن الركب المصري يشربه في الغالب، فلا يدع فيها شيئاً، فوجدنا الماء بفضل الله فاضلاً، أخذ الناس حاجتهم منه بـــلا كلفة، ولم يكثر الناس السقي منه لعزمهم على ورود ماء النابعة والمـــشي علـــى طريقها.

وفي الحصنين المذكورين عسر لا يفارقهما أبداً، وكذلك غيره من البنادر، في كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه، ولهم جراية من بيت المال على ذلك،

ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق، لما قدر أحد على سلوكها، مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها، ولكن الله سلم، (إنه عليم بذات الصدور)[1].

تتميم:

قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ محمد البكري، وأظنه شيخنا محمد بن الشيخ زين العابدين، ذكر فيها منازل الحج ودياره، ذهاباً وإياباً، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق، وصعوبتها وسهولتها، بنثر بليغ وعبارات رائقة، وذكر في كل مترلة شعراً يتعلق بأحوالها، فأردت أن أقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفا، إذ كلامي بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا، ولما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا، ومراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا، لم أذكر في كل مرحلة ما يناسبها من كلامه، فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين، أو ثلاثة أو أزيد، فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر، لأنها في الغالب متفقة، فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله، ليكون ذلك أسهل لمطالعته وأبقى لرونق كلامه من التقطيع وكثير التوزيع، فلنذكر الآن من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبل عجرود، فأقول: قال الشيخ البكري، رضي الله عنه فأول المنازل البركة[2] المباركة، التي توحدت في مشارق أنوارها ومشارع شوارع أقطارها عن المشاركة، وقصرت عن أوصاف محاسنها ذوي اللسن، وجمعت بين الماء والخضرة وقدوم الوجه الحسن، فهي مخضرة الأكناف، بديعة الأوصاف، قد صدحت أطيارها، ونفحت بالنسائم أزهارها، وبها الخيام منصوبة ومرفوعة، والخيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة، مع وقوف شاراتها على الأقدام، يستمد بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام، كأنه في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة، أو الإكليل إذا قارن الزهرة، وبها سوق تساق إليها بدائع البضائع التي يحتاج لها المسافر في كل الوقائع، ما قصد نحوه قاصد، إلا وعاد منه

(1) الملك: 13.

(2) البركة: موضع على بركة من برك النيل، وفيه محل اجتماع الركبان: أنس الساري والسارب، ص: 69.

موصولا بالصلة والعائد، وكان هذا النعيم المقيم مسامرنا في الذهاب والإياب، إلى أن رجعنا إلى بركة الحج ثانياً ولقينا الأحباب[1]:

قال الشاعر:

[مجزوء الرجز]

ببركَـــــةِ الحـــــج تـــــرَى   نخـــلا زهَـــا لكـــن عجـــبْ[2]

زبرجَـــــدا يحكـــــي ومــــا   ثمـــــــارهُ إلا ذهــــــــبْ

فيهــــا نـــــسيمٌ رائـــــق   بلطفــــهِ يـــــشفي الوصـــبْ

والطـــــيرُ فـــــوقَ بابهــــا   يـــــشدُو بـــــأنواعِ الطـــــربْ

فيـــــا لهــــا مـــــن برْكَـــــة   تبلـــــغ القلـــــبَ الأربْ

عوذتُهــــا مـــــن طـــــارق   وغاســـــق إذا وقـــــبْ

وبعدما كملت الركائب، واجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، وانقضى مقام المقيل، ونودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل، وحمل المحمل الشريف، وفـــارق المربع والظل الوريف، وسار الركب سير السيل، وتسابقت العيس لجهات الخـــير كأنها الخيل، حتى وصل إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، وفي الحقيقة هو باب الدرب ومفتاح السير، فاجتمع شمل الركاب في ذلك المكان، ورجع المودع في خبر كان، فاستراح الناس والبهائم، واستيقظ بسهر الليل كل نائم، ثم أطعمت الجمال العلائق، وقطع الحجاج من تلك المحطة العلائق. ومدة السير إلى تلك المرحلة ثلاث ساعات مكملة، ثم نادي منادي الرحيل، فسار الركب إلى أن أصبح مقاربا للبئر الطويل، وهو المكان المعروف بالمصانع، ومطلب راحة الناس في الإقامـــة لـــولا الموانع، وبه تقطير الجمال وضبطها في سير الركوب واحتياج لمشي من تعبـــه إلى الراحة والركوب، فيا له من يوم تقطر فيه الدموع، ويطول فيه الوقوف والوقوع، وتشرب فيه الفقراء كاسات الردى لشدة ما يحصل لها من جور الجنود واعتـــداء

(1) عادت هنا ط للمسار الطبيعي لنص الرحلة العياشية.

(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى التي ينقل صاحبها فقرة كاملة من الرحلة العياشية: الترجمانة الكبرى 217 – 230.

الاعتداء، فما من فقير إلا ويحتاج إلى غني يشفعه، وإلى عادل من ظلامته ينصفه، قال الشاعر[1]:

[المديد]

قد أتينا إلى محل المصانعْ فاصنع الخير فيه إن كنت صانعْ
وانفع الناس في كثير جميل عل تلقى خيرا كثيرا ونافعْ

واعلم أن عدة درج المسير إلى هذه المنزلة ست ساعات على التحرير. ثم قام دليل الركب للمسير وأمر الناس من تقطيع أزمة الجمال بالتقطير، فسرنا طول ليلنا إلى الإسفار، واسترحنا بالوصول إلى عجرود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجرود، وماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهل بندر السويس وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل والميس، وأهدوا إلينا الأحطاب للمشاعل، والأغنام للمآكل. وعدة درج هذه المرحلة المبهجة سبعة وثمانون درجة. هـ كلام الشيخ البكري رضي الله عنه.

فلنرجع إلى ذكر مراحلنا وحيث انتهى سيرنا فأقول، والله المستعان وعليه في جميع الأمور التكلان، إنه خير معين، آمين، آمين، آمين: ثم ارتحلنا من عجرود[2] قاصدين للنابعة، وعدلنا عن طريق الحاج التي فيها المصانع يميناً، والمصانع سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها على الطريق، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً مستطيلاً خارجاً إلى ناحية الطريق ليستدل به الماشي ليلاً، وربما عَلّقوا على بعض الأعلام مصابيح بليل، وبين كل علم وعلم نحو من فرسخ أو أقل، حتى انتهوا بها إلى رأس وادي الرمل. وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري دائماً، وكذا المغربي، إلا في أوان الحر وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن[3] طريق المصانع حتى يظهر لنا البحر، وتقرب منا مدينة السويس جدا، حتى يكاد الإنسان أن يتبيَّن من هو بخارجها، وهي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذي يأتي من الهند، وهناك يقف بين جبال شامخة. وبينه وبين البحر الرومي نحو من

(1) أنظر: الترجمانة الكبرى ص: 218.
(2) عجرود: منها يحمل ركب الحجيج الماء: أنس الساري والسارب، ص: 70.
(3) في ط: على.

مرحلتين، وفي هذه المدينة ترسى السفن التي تأتي من جدة ومكة واليمن وفيها السلع التي لا تحصى والبضائع التي لا تستقصى، ومن هناك تحمل إلى مصر في البر. فلما تجاوزنا وُجَاه[1] المدينة وخلفناها وراء ظهورنا، والبحر عن يميننا، نزلنا بعد الظهر بالنابعة؛ وهي واد كبير ذو رمل فيه أحساء كثيرة تزيد على المائة، بل أين ما حفرت مقدار وقفة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل، فلربما يتوهم أنه أحسن منه. وسقى الناس منه إبلهم وأخذوا من الماء حاجتهم، ووجدنا الأعراب الشعارة الذين يحملون الفول مع المصري قد نزلوا هناك، وتلك طريقهم دائماً، ومعهم جملة من الخيل الدرب[2]، وكانت هذه المسافة قبل ذلك يتدرك بها أقوام من العرب، ثم إنهم نافقوا[3] وذهبوا إلى ناحية غزة، وتدرك بها آخرون، فخاف الناس في هذه السنة منهم، فكفى الله شرهم.

ثم ارتحلنا من النابعة وسلكنا بين جبال في أودية من الرمل، وكان الهواء باردا والماء عذبا والناس ماشون على مهل منبسطون في غاية البسط، وكنت أقول لأصحابنا ممازحا: من عد هذا اليوم من أيام الدرب فقد ظلمه لأنه خالف الدرب في سائر أوصافه، فإن طريق الدرب معروفة بالماء القبيح والحر والخوف، وهذا اليوم بخلاف ذلك. و لم نبت تلك الليلة حتى توسطنا وادي الخروب[4] حيث تلتقي طريق النابعة وطريق المصانع، وسمي الوادي بشجرة من الخروب كبيرة في أصل الوادي.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا في الوادي مدة، ومررنا بالعقبة المشرفة على التيه، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت بناء متقنا حتى صارت طريقا لاحبا[5]، ونزلنا منها إلى أرض التيه بعد طلوع الشمس، وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد دروس.

وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر، وقد تتلف فيها أنفس كثيرة بالعطش، وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة تسع وخمسين؛ ارتحل الناس من

---

(1) الوجاه: هو وجاهك، أي حذاءك من تلقاء وجهك: لسان العرب: وجه.
(2) الخيل الدرب: التي ألفت الركوب والسير؛ أي عودت المشي في الدروب: لسان العرب: درب.
(3) نافقوا: أنفق الرجل إنفاقا إذا وجد نفاقا لمتاعه: لسان العرب: نفق.
(4) سماه ابن مليح واد الخروبة: أنس الساري والسارب، ص: 70.
(5) اللاحب: الطريق الواضح: لسان العرب: لحب.

عجرود ظهراً، و لم يمروا على النابعة، فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذي لا يتجرعه الظمآن ولا يكاد يسيغه، فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر في اليوم الثالث وقَلَّ الماء، ومات بعض الإبل، وجعل الناس يعصرون ما في بطون الإبل من الفرث ويشربونه، وفي ذلك قلت:

[متقارب]

ولَمْ أنْسَ بالتيْهِ يوْماً بِهِ		تفانَى الحجيجُ صَدى وولُوها
وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءِ		عجرود كالْمُهْلِ[1] يشوي الوجُوها

وأما في هذه السنة فلم يلقَ الناس فيه أذى لوجود الماء العذب. ودخلناه على أول النهار و لم نبت حتى قاربنا بندر النخيل، وفي الغد أتينا النخيل صباحاً ووجدنا الركب المصري قد بات به، وصادفنا هناك سوقاً كبيرة فيها كثير من أنواع الفواكه الشامية أتى بها أهل غزة؛ مثل التفاح واللوز وغير ذلك، وهناك بندر حصين فيه بئر ماؤه عذبة كبيرة لا تترح[2] أبداً، يُسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن، وهي ثلاثة مثل البرَك التي في عجرود، إلا أن هذه أعظم منها، وقد وجدنا الماء فيها فاضلاً عن الركب المصري، وأخذ الناس منه حاجتهم، وكان أمره قد أهمنا قبل ذلك لأنه من المواضع التي يصعب[3] فيه الماء؛ إذ ليس فيه[4] إلا بئر واحدة، فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر، فلا يصل الناس إلى الري إلا بعد حرج شديد ومشقّة فادحة. فلما جُنَّ الليل ورحل المصري كله خرج أصحابنا المغاربة وعسكروا خارج ركبهم إرهاباً للعرب لأنهم قد استقلونا فظهرت لهم في الركب قوة نار وكثرة رجال، وكنا قبل ذلك ربما يظهر بعض السراق بالليل، فمن ذلك اليوم لم نر سارقا بالليل ولا محاربا بالنهار بفضل الله، وأسكن الله قلوبهم الرعب.

ومما منَّ الله به على ركبنا في هذه السنة أن قلَّ فيه الفلاحون الذين يكثرون اللغط والزحمة في الركب، وقد كانوا في غالب السنين يكرون في الركب المغربي

(1) المُهل: النحاس المذاب: (لسان العرب: مهل)، والإشارة هنا إلى قوله تعالى: (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بيس الشراب وساءت مرتفقا):الكهف:29.
(2) لا تنزح: لا تنفد: لسان العرب: نزح.
(3) في ط: يضعف.
(4) في ط: فيها.

فراراً من جور عساكر المصري عليهم، فيكثر صخبهم وخصوماتهم، فلا يكاد ينضبط للركب المغربي أمر من كثرتهم فيه؛ إذ يرحلون في غير إبان الرحيل، ويتبع الآخر منهم الأول من غير تأن، سيما في محل الضيق والخوف، ولا يبالون بما أتلفوا من أنفسهم وأموالهم خشية التأخر والمزاحمة على القرب من أول الركب لغلبة الجبن والخوف، إذ لا يعرفون في بلادهم قتالا ولا مدافعة عن الأنفس والأموال، لكونهم رعايا إن شتموا مروا وإن ضربوا فروا. وكلما نقص الله من جهدهم وجرأتهم وبسط أيديهم زائد في ألسنتهم حيث لا يخافون، فيبالغون في الشتم والسب حتى لا يكاد سامعهم يملك نفسه، فإذا رأوا من هم بضرب خضعوا وقالوا: عافية يا مغربي عافية، ويقولون: المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب، وكان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل، ولعمري إنه لكذلك في حق كل مسلم لمسلم، ولكن الغريزة الغضبية، سيما من لم تذلله الأحكام، ولم تكسر من سورته شدة الأيام، لا يملكها إلا الأقوياء، وهي لا تنتهي دون أبلغ عقوبة تمكنها، نسأل الله أن يكفينا شرها ويسخر لنا أمرها، إنه سميع مجيب.

ومما أعان على جمع كلمة الركب المغربي في هذه السنة أيضاً ذهاب كثير من أهل الدثور من المغاربة مع المصري تفاديا[1] من شدة الحر بالنهار، ولم يبق في الركب المغربي إلا أهل المروءات من الناس وأهل الخير وذو الحفاظ، وتعمر الركب بالآذان والصلوات ورفع الأصوات بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وألف الله بين قلوب أهله، فلا يرحلون بليل وينزلون قبل الليل، واتفقت كلمتُهم، وقد كانت الأركاب قبل ذلك، لقلة الاتفاق، يقولون: شيخها جمل، يعنون برغاء الجمل، يرتحلون لا بإذن الشيخ، فأول من يسمع رغاء بعير يظن أن الناس يرتحلون فيقوم إلى بعيره، فإذا رآه الذي بجنبه قام، ثم كذلك، حتى يرتحل الركب من غير إذن شيخ ولا مشورته، وربما يرتحلون وسط الليل فيتمَكّن اللصوص من الإيقاع بمن تأخر أو انفرد عن الركب، ويحصل من ذلك ضرر عظيم، ولا يكون ذلك إلا من كثرة الأخلاط وغلبة الأجانب على المغاربة، فإذا انفردوا كهذه السنة كان أمرهم جميعاً، فمن رأى ركبهم وهو نازل، يظن أنه

(1) في ط: اتقاء.

قليل، وعند الرحيل تظهر كثرته وقوته، سيما إن حصل فزع وبـــادر النـــاس إلى السلاح وتهيؤوا للكفاح، سرَّت الخائف رؤيتهم، وأبهجته نجدتهم[1]:

[طويل]

ثِقالٌ إذا لاقوا خِفـــافٌ إذا دُعُـــوا قليلٌ إذا عُدُّوا كـــثيرٌ إذا شـــدُّوا[2]

تتمة فيما ذكره الشيخ البكري في رحلته من عجرود إلى النخيل:

ثم سرنا إلى النواظر ورأس الوادي المُنصرَف[3]، وهو وادي بكثـــرة الرمـــال والكثبان قد عرف، ليس به ماء ولا مرعى، وإنما عيون الناس لمضيق أرجائه ترعى، قال الشاعر[4]:

[رمل]

نـــزلَ الركْـــبُ بـــوادِ المُنـــصَرَفْ وعلى لقيـــاهُ كـــم مَـــال صُـــرِفْ
نحمــــدُ الله الـــــذي جئْنـــا لــــهُ وجميـــعُ الهـــم عنـــا مُنــــصَرِفْ

ثم سرنا إلى واد القباب[5]، وهو واد فسيح الرحاب، تهيم به قلوب الأحباب، ويتذكر به عهد زينب والرباب، لاسيما اجتماع الأصحاب في مـــواطن البعـــد والاغتراب، قال الشاعر[6]:

[رمل]

شـــاقنَا وادِي القبـــاب المُرْتقـــى في اسمـــهِ وهْـــوَ فـــسيحٌ في الرُّبَـــا
فوصـــلناهُ وقـــد قلنـــا عَـــسى بعـــــدهُ نـــــأتِ إلى وادي قُبَـــــا

---

(1) في ط: رؤيتهم.
(2) البيت لأبي الطيب المتنبي: شرح ديوان المتنبي، ص: 98، و فيه: كثير إذا اشتدوا قليل إذا عدوا.
(3) المنصرف: موضع بين مكة وبدر، بينهما أربعة بُرد: معجم البلدان: المنصرف.
(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 218.
(5) القباب: موضع بنجد على طريق حاج البصرة: معجم البلدان: القباب.
(6) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

وميقات المسير إليه عشر ساعات على التمام. وبعد إقامتنا بـــه إلى وســـط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادي بالرحيل، فـــسرنا إلى رأس وادي تيـــه بـــني إسرائيل[1]، وهو وادي واسع الفضا، يعتبر فيه بأحوال من مضى، ليس فيه ماء ترده الأنام، ولا ظل سوى ما ظلل بني إسرائيل من الغمام[2]، قال الشاعر[3]:

[بسيط]

لا تَسْلكنَّ بـــوادي التيْـــهِ مُنفـــردا   بلا دليلٍ ترَى وقْـــعَ الـــردى فيـــهِ

فما سمِعتُ كلامًـــا مـــن أخ مِقَـــة   في الناس إلا وقالَ:احذَرْ من التيْـــهِ

ومدَّة المسير إليه عشر ساعات حَرَّرها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة نخـــل المحمية وتعَجّبنا من كثرة الفواكه الشامية؛ من سفرجل ورمـــان وعنـــب علـــى اختلاف ألوان، والخيرات الكثيرة، وما يحتاج إليـــه الحجـــاج مـــن الـــذخيرة، والفساقي[4] المملوءة بالماء البارد المعَدَّة للغادي والوارد، قال الشاعر[5]:

[وافر]

إلى نخـــلِ الحُـــصَينَةِ سِـــرْ حميـــدا   ترَى فيهـــا المُنَـــى والخيْـــرَ بَـــاقِي

ولا تَـــشْكُ الظمـــاءَ لِفقْـــرِ مَـــاء   فـــسَاقِيها مُقـــيمٌ بالفَـــساقِي

ومدة المسير إليه ست ساعات مُحَرَّرة وخمس من الدرج مقدرة، انتهى كلام الشيخ البكري.

فلنرجع إلى ما شرطناه من تعداد المراحل على سيرنا فنقول، والله المستعان وهو خير معين، فإياه نعبد وإياه نستعين: ثم ارتحلنا من النخيـــل، ونزلنـــا بـــبر[6] الصعاليك، ويُسَمَّى بئر البارود، وهو بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن في

---

(1) تيه بني إسرائيل: هو الموضع الذي ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه، وهي أرض بين أيلة ومصر وبحر القلزم وجبال السراة من أرض الشام، ويقال: إنها أربعون فرسخا في مثلها، والغالب على أرض التيه الرمال، وفيها مواضع صلبة وبها نخيل وعيون مفترشة قليلة: معجم البلدان: التيه.

(2) إشارة إلى قوله تعالى:(وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون): البقرة: 56.

(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

(4) الفساقي: جمع فسقية، وهي النافورة.

(5) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 219.

(6) في ط: بر.

أصل وادي، وبجانب البئر أثر بناء وبِركتين، إلا أنه لا عمارة عليه، وماؤه بارد إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه، وسقى منها بعض الفلاحين الإبل.

وماتت في الركب تلك الليلة امرأة موسرة من أهل تونس، وكانت لها مَحَفَّة رفيعة تُحمل فيها، فلما ماتت أوسعوا في حفر قبرها ودفنوها بمحفتها، وذلك غلو وبدعة وتضييع مال فإن المحفة لها مال وقيمة. وحضر أمير ركب تونس وكبراؤهم، ولم ينكر ذلك أحد منهم.

ثم ارتحلنا منه ونزلنا بأول سطح العقبة وقد مررنا ظُهْرًا بموضع يقال له عرقوب البغلة، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سويت وبنيت واتخذ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقف، وذلك من عمل الأمير رضوان المتولي لإمارة الحاج أزماناً طويلة قريبة من ثلاثين، وتُوفي سنة ست وستين أو قريب منها، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز؛ من قَطْع الأشجار وإزالة الأحجار من الطرقات وحفر بعض الآبار وتجديد بعض البِرَك، فجزاه الله خيراً، فلقد كانت له هِمَّة عالية في تخليد المآثر، فكم بالغ في الثناء عليه كل لسان، وأعلن بالدعاء له كل إنسان:

[رجز]

وإنما المرءُ حديثٌ حسَن فكُنْ حَدِيثاً حسنًا لِمَنْ وعَى[1]

وبتنا في سطح العقبة، وكانت ليلة باردة تزَمَّلنا في ثيابنا فلم تغنِ شيئاً كأنَّا بتنا في بعض جبال المغرب، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، فإن الموضع وإن كان في بعد بلاد الشام، وهي باردة، فالفصل فصل حر لا طمع للمسافر فيه في أقل من ذلك من البرد، وقد عاتبنا من لم يجرب الطريق من أصحابنا وقالوا: كنتم تخوفونا بالحر حتى تركنا ثيابنا بمصر. فقلنا لهم: ستردون فتعلمون، وإن تظلمتم فلا تظلمون.

ثم ارتحلنا من السطح وأخذنا في نزول العقبة بعد طلوع الشمس، وهي عقبة كؤود، صعبة الهبوط والصعود، ولم لا وهي عقبة أيلة المشهورة، إلا أن الطريق بها منحوتة قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة وبنيت صافاتها ببناء متقن. ولما كان

---

(1) البيت لابن دريد: العقد الفريد 1: 194.

المحل معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهيأ الناس وأخذوا حذرهم وأخرجوا أسلحتهم خوفاً من عدوانهم، فإن الغالب أنهم لا بد أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته، وتقَدَّمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة، (وكفى الله المومنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً)[1]. و لم نرَ بها سارقاً ولا غائراً، ونزلناها على مهل، وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف والمتالف، فيُرى البحر من بعيد فيُظن قريباً.

ولما وصلنا إلى البحر تأخَّرنا لدفن بعض الأشراف مات بعد النزول من العقبة مطعوناً، وخَشي أقاربه من جور الولاة إن أوصلوه إلى البندر، فدفن هناك رحمة الله علينا وعليه، ووصلنا إلى البندر عند الظهر، وفيه حصن حصين في قرية على شاطئ البحر في سفح جبل، وبها آبار كثيرة، وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدواب، ووجدنا الفول فيها رخيصاً أرخص مما اكتري عليه من مصر، وبتنا بها، وبات المصري هناك، وأوقد بالليل نيراناً كثيرة وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء، ولها منظر عجيب وأسلوب غريب كأنَّها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء، فتراها في الجو طالعة حتى ترى من هام[2] شوامخ الجبال دونها، ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان، ثم يُسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار، فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى، وخروجهن فيما نرى من نار زرقاً كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالاً قوياً فتطلع منها تلك الشهب، ولا نعلم صنعة ذلك، وهي من الغرائب، والرمي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل.

ثم ارتحل في الغد وأقمنا بعده، و لم نرَ في مبيتنا وإقامتنا ما يسوؤنا من سارق ولا غيره، وقد سألنا هناك وبحثنا عن أثر القرية التي كانت حاضرة البحر[3] هل بقي من رسومها شيء، فقد ذكر المفسرون أنها أيلة[4]، فلم نجد من يشفي لنا خبرها، وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون

---

(1) الأحزاب: 25.
(2) في ط: أعالي هام.
(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾: الأعراف: 196.
(4) أيلة: مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم: معجم البلدان: أيلة.

مدينة، ولعلها هي، وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هنالك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء، إلا أنها خالية، ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر، والعلم عند الله.

تتمة في ذكر كلام الشيخ البكري من النخيل إلى العقبة.

قال: ثم سرنا من النخيل إلى وادي القريض المشهور، وهو وادي ينبت به الشوك عوضاً عن الزهور، فكم آذى بشوكه أقدام، وعطل من له على المشي إقدام، ولا سيما الفيحاء، لاتساع أرضه وزيادة في فضائه، في طوله وعرضه، قال الشاعر:

[سريع]

في وادي فيحاءِ[1] كمْ سَائِر ... من غيْرِ نعْلِ ثابتِ الكعبِ

قد صارَ كالإعْجامِ من شَوكِهِ ... يرقُصُ من قرص[2] على الكعْبِ

وسيرنا اثني عشر ساعة كاملة محررة في الميقات متواصلة. ثم سار الركب إلى بئر العلائي في التجريد، وهي محطة بئرها معطلة وليس بها قصر مشيد[3]، وبقربها حدرة منحدرة وأشجار أثل منتشرة، وبجانبها فِسقيتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتها بالأربعة. قال الشاعر[4]:

[رمل]

إلى بئْرِ العلائي قد أتَيْنا ... وفزْنا بالنجَاح وبالنمَاءِ

شكرْنا للدليلِ وقد دعانَا ... إلى شيءٍ يُوَصِّلُ للعلاءِ

ومدة المسير إليه اثنا عشر ساعة بالتحرير، وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف متسع الجوانب والأطراف، لا يوصل إليه إلا

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: رقص.
(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾: الحج: 45.
(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 220.

بالاستطاعة، لأن مدة المسير اثنا عشر ساعة. ثم سرنا إلى العقبة (وما أدراك ما العقبة)[1]، فكم بها من حذرات ومضيق وجبال في شكل الحمرة والبياض، وهي عقلة في الطريق، وصعود وانهباط، وعلو وانحطاط.

قال الشاعر[2]:

[رمل]

عقَباتٌ يسْلكُ الناسُ بها ... بقلُوبٍ لم تزلْ مرْتعِبَهْ

قد قطَعْناها بوقْتٍ هَيِّن ... لم نرَى فيها أمُورا متعِبَهْ

نحمدُ الله الذي خَلصَنا ... وأرَحْنا مِن عِقابِ العقَبَهْ

فقطعنا تلك الحذرة الكبرى، ثم سرنا إلى وادي بشاطئ البحر، وأحطت به خبراً. وبجانب البحرِ مغائر ماؤها عذب فرات، وآبار تُسقى منها الناس بسائر الجهات، ورأينا نخلاً زاهية وقلعة حصينة عالية، فأقمنا بتلك المترلة ثلاثة أيام ونحن في زيادة إنعام وذبح أنعام، وقد وردت الفواكه من غزة وأعمالها، فنصبت للبيع ورخصت الأسعار، ورفعت البواقي على أحمالها. وبقلعتها يوضع البضائع ودائع إلى الإياب، ومدة المسير تسع ساعات في الحساب، انتهى ما ذكره الشيخ البكري.

ولنرجع إلى ذكر المراحل على حسب سيرنا فأقول: ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر فيه إلا جمل إثر جمل كأنه متن الصراط، إلا أنه غير مستقيم، وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعَرّضون للركب، فتشتد إذايتهم وتعظم نكايتهم، ولكن ذلك في الرجوع أكثر، و لم نرَ في يومنا هذا بأساً. ونزلنا بموضع يقال له ظهر الحمار على بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين لا يخلوان من صعوبة، وتحته على ساحل البحر أحساء كثيرة في وسط حدائق نخل، وماء ذلك المحل كله طيب، وقد يُسَمَّى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل، وقلما يخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب، سيما في وقت جذاذ[3] النخل، ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد.

---

(1) البلد: 12.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 220.
(3) جذاذ: جذذ: قطع: لسان العرب: جذذ.

ثم ارتحلنا منه وخلفنا البحر يمينا، وسرنا يومنا في صعود إلى نحو العصر، فوصلنا إلى موضع يقال له شرفات بني عطية. وبنو عطية هم عرب هذه البلاد كلها في هذا الوقت، ويقال لهذا المكان أيضاً عش الغراب.

غريبة:

تزعم العرب أن الإبل تنفر في هذا المكان، ويقولون إنها تسمع صوت صقب[1] ناقة صالح وأنَّه في ذلك الجبل، وأنَّ هناك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمه، فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المحل تسمع صوت العشار فتنفر، ولا أدري من أين لهم ذلك، وهو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة، وهم قوم صالح عليه السلام. ثم انحدرنا من الشرفات إلى محل النزول، ويُسَمَّى أبو العظام[2]، وبه ينزل المصري، ونزلنا به وتسوقنا بعض نساء العرب بلبن وغيره، وأخبرونا أن من وراء الجبل الذي على يسارنا ماء جار وأرض مُخَصَّبة، وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتيهم العرب بماء يبيعونه.

ثم ارتحلنا من هناك وسرنا يومنا في هبوط منحدرين مع الوادي لا نفارقه إلى أن نزلنا في المكان المُسَمَّى بمغائر شعيب، عليه السلام، عند العصر، وأدركنا هناك أواخر المصري كما هو شأننا في كل دار، وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل وماؤها طيّب جداً حلو خفيف نافع، وتسوقنا بها أعراب مدين بأحمال كثيرة من العنب الجيد الأسود، وهو في غاية الحلاوة، وجاؤوا برمان كثير، واشترى الناس العنب أولاً بدرهمين، ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم، ووقعت بين الأعراب فتنة عند نزولنا مهارجة، فقتل واحد وارتث[3] آخر.

وبين الموضع الذي نزلنا به ومدين[4] مسيرة نصف يوم، وهي بلدة على ساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة، وسكانها أعراب أهل بادية، وكانت

(1) الصقب: ولد الناقة: لسان العرب: صقب.
(2) سماه ابن مليح أم العظام: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(3) ارتث: الرثية: انحلال الركب والمفاصل: لسان العرب: رثث.
(4) مدين: تقع على بحر القلزم، وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب، ومدين اسم القبيلة، وهي في الإقليم الثالث، طولها إحدى وستون درجة وثلث، وعرضها تسع وعشرون درجة، وهي مدينة قوم شعيب: معجم البلدان: مدين.

قبل ذلك مدينة، وأخبرونا أن أثر البناء باق فيها إلى الآن، وعلى يسار مترلنا خارج المضيق مغارة يقال إنَّ فيها كان شعيب عليه السلام يأوي بغنمه، وبإزائها بئر كبيرة معطلة، وبجانبها بركة، ويقال إن هناك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام، وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل، وعريش كثير في الوادي، وهو محل مخافة قل ما يخلو من لصوص أعراب.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا بعيون القصب[1]، وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس، وفي أعلى الوادي نخل[2] وأرض صالحة للحرث قلَّ ما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به، فيكثر الخوف ويعظم ضررهم، سيما عند نزول الليل، فطلع أمير الركب ومعه الرماة حتى حاؤوا على الوادي، بقوا هناك حتى استسقى الناس كلهم وأخذوا حاجتهم من الماء، وروت الإبل فرجعوا بعد العشاء. وعلى شفير الوادي عند مترل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه. ثم ارتحلنا منه ونزلنا إلى ساحل البحر، و لم نزل نسايره إلى بندر المويلح[3]، ونزلناه بعد العصر، وماؤه كثير، وفيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل، وهناك حصن كبير فيه عسكر وأمير، ويخزن فيه الميرة والفول كثيراً، وعلى بابه سوق كبير يوجد فيها غالب المحتاج، وفيه مقاثي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذلك، وبه مرسى حسنة تترل بها السفن القادمة من سويس والقادمة من جدة ومن القصير[4]، وكان الهواء، يوم نزولنا فيه ويوم إقامتنا، بحرياً بارداً، وبالجملة من يوم خروجنا من مصر إلى المويلح لم نرَ حراً شديداً ولا مشقة فادحة ولا خوفاً موحشاً ولا عطشاً مؤلماً، لم نزل نتعرَّف من الله الخير والبركة وغاية الرفق واللطف في أنفسنا وأموالنا ودوابنا، نسأل الله أن يكمل علينا بالخير.

[متقارب]

كما أحْسنَ اللهُ فيما مضَى كذلكَ يُحْسِن فيما بَقي[5]

---

(1) عيون القصب: مورد فيه روضة قائمة، ذكروا أنها لسيدي سلامة، يقصدها الزوار: أنس الساري والسارب، ص: 71. رحلة العبدري، ص: 161.
(2) في ط: محل.
(3) المويلح: قصبة على شاطئ البحر: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(4) القصير: مرسى المراكب، وهو أقرب موضع في بحر القلزم إلى قوص: معجم البلدان: القصير.
(5) البيت للإمام علي بن أبي طالب: ديوان الإمام علي، ص: 135.

غريبة:

ذكر المنجمون أن الشمس إذا كان رجوعها الصيفي في أول الليل أو ما يقرب منه يكون العام بارداً، وإذا كان في آخر الليل أو أول النهار يكون حارًّا. وذكر لي بعض الإخوان بمصر أن المقومين ذكروا أن هذا العام معتدل حسن، ونحن لا نعتمد في ذلك إلا على فضل الله وبركة رسوله وهم الصالحين من عباده المؤمنين ودعاء إخواننا الحاضرين والغائبين، والله تبارك وتعالى يُلَطِّف[1] بنا ويصلح أحوالنا بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وكان نزولنا بالمويلح يوم الجمعة الثالث عشر من شوال، وهو الموفى عشرين ومن يُنيّه من الشهور العجمية، والله يجعل العاقبة خيراً.

وعلى شاطئ البحر قرب مترل الركب،على مرقب، قبر سيدي محمد والد الشيخ عبد الكريم الفكوني القسمطيني[2] وعليه بناء، وقد زرناه وتبرّكنا به. وأقمنا هناك يومين أحدهما مع المصري والآخر بعد ارتحاله، وهناك أخذ الناس فولهم الذي اكتروا على حمله عرب بني عطية من مصر، ولم يضع لأحد منه شيء[3]، فخزن الناس منه هناك ما يحتاجونه في الإياب إلى العقبة، وأكروا على الباقي إلى ينبع، والذين يكرون من هناك في الغالب عرب بلي، وبلادهم من هناك إلى قرب الينبع حيث بلاد جهينة.

وممن منَّ الله علينا بلقائه هناك رجل من الصالحين من أهل الجذب اسمه الشيخ محمد العبدلي، وأصله من ريف مصر، دَلّنا عليه صاحبنا الشيخ أحمد المجذوب المصري، وأخبرنا أنَّ لهذا الشيخ في هذا المكان أزيَد من عشرين سنة، فذهب معنا إلى زيارته فوجدناه على سور الحصن وهو يجمع تراباً بكلتا يديه فكلّمناه، ودعا لنا دعاء كثيراً وقال لنا: حركوا معي في هذا التراب، فمن حرك حصلت له بركة، فامتثلنا أمره. وهو رجل قد طعن في السن ليس عليه إلا قميص،

(1) في ط: يرفق.
(2) عبد الكريم بن محمد الفكون القسنطيني، أو القسمطيني، أديب من أعيان المالكية، كان يلي إمارة ركب الجزائر في الحج، من كتبه: "شرح نظم المكودي"، و "حوادث فقراء الوقت"، و "رسالة في تحريم الدخان"، توفي عام 1073 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 163- 164. نشر المثاني 2:130 صفوة من انتشر، ص: 251..الأعلام 4:56.
(3) في ط: شيء منه.

وهو محلوق الرأس، كلما اجتمع عليه ناس فَرَّ منهم، وربما هرول في هروبه من الناس، ثم عاودت إليه آخر اليوم وزرته أيضاً وأقمنا بالمويلح يومين.

تتمة: قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في ذكر المراحل التي من العقبة إلى المويلح: ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر[1]:

[كامل]

صَعدُوا على ظهْرِ الحِمَار لعلهمْ ... أن يَبلغُوا بصعودِهمْ كل الأمَلْ

تعِبَ الجِمارُ منَ الطريقِ وطولِها ... ومدِيدِها واجْتثَّ من بعْدِ الرمَلْ

حتى الجِمالُ بهِ شلَتْ[2]: يا هلْ ترَى ... تقبلْ بهِ عُذْرَ الحمارِ أو الجمَلْ

ومدة المسير إليها ثمانية من الساعات محررة عند أهل الميقات. ثم سرنا إلى ما بين الجرفين، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج في أيام السيل إلى البحر الملح الأجاج، قال الشاعر ملغزاً فيه[3]:

[وافر]

وخمسةُ أحْرُف في اللفظِ تُقْرا ... فإنْ صحفْتَها صَحتْ بحَرْفَينْ

وإنْ أسْقطْتَ خُمْسَاها[4] فيبْقى ... ثلاثةُ أحْرُفٍ منْ أصْلِ ألْفَينْ

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السير متصفة، تتعب فيها الجمال ولو رحلت بلا رحال، لما فيها من الأوهاد والطلوعات الشداد، وخلف جبالها قبيلة بني عطية المعروفين بالسرقة والأذية، قال الشاعر[5]:

[مجزوء الوافر]

إذا ما جئْتَ للشرْفَهْ ... ترَى العربَانَ مُخْتلِفَهْ

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 221.
(2) في ط: ثلث.
(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 221.
(4) كذا في خ ط.
(5) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 221.

وأمـــــا العِـــــيسُ فاجْعَلـــــها بجـــــنْسِ الحفْـــــظِ مُنتَـــــصِبَةْ

فـــــإنْ مُنعَـــــتْ بحارِســـــها وإلا فهْـــــيَ مُنْـــــصرِفَةْ

ومدة المسير خمس عشرة ساعة من غير ريب، وبعده المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار تتبَرَّكُ به الناس وترى فيه الحظ والإيناس، وبه الماء العذب والتحليل، وشجر المقل والأثل والظل الظليل، قال الشاعر(1):

[خفيف]

قـــد وَصَـــلنا إلى مَغـــارِ شُـــعَيْبْ فرأينـــــا الميـــــاهَ كالأنْهَـــــارْ

فاسْـــتَقَيْنا مـــن مائِـــهِ واشْـــتفيْنَا وظفرْنـــــا بغايَـــــةِ الأوطَـــــارْ

وذكَرْنـــا بغـــارِهِ غـــارَ ثَـــورْ مـــنْ حـــوَى للـــصديقِ والمُختـــارْ

خيْـــر مـــنْ أنْـــزلَ الإلـــهُ عليْـــهْ (ثَانيَ اثنَـــيْنِ إذْ هُمـــا في الغَـــارْ)(2)

ومدة المسير ثمان عشرة ساعة مُحَرَّرة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرتها نضرة والأشجار بها منتظمة ومنتشرة، قال الشاعر(3):

[رمل]

قـــد وَصـــلنا لعُيـــونِ القـــصَبِ واسْتَراحَ القلـــبُ بعـــدَ النـــصَبِ

وعيونُ المـــاءِ فيهـــا قـــد جـــرَتْ كـــسُيولِ الغيـــثِ بـــين القَـــصبِ

فجلـــسْنا في صـــفاءِ حولَهـــا وظفرْنـــا عنـــدهَا بـــالأرَبِ

وتـــشَوقْنا لـــشادٍ مُطْـــرب يَـــتغنى بعُيـــونِ القـــصَبِ

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 222.

(2) تضمين لقوله تعالى: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم): التوبة: 40.

(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 222.

ورأينا مجاوراً لتلك العيون نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، ويتعاجبن بضفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار، وكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار، فكان قطْع المفاوز والأوعار كالمنتزهات في الرياض والأزهـــار، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة[1]:

[طويل]

بِرُوحـــيَ أَفْـــدي ظبيـــةً بَدويـــة ... لها وِجْنَـــة فيهـــا الأزاهِـــرُ نَابتـــةْ

إذا رُمْتُ منها أن تُكلمـــني غـــدَتْ ... تُكلمُـــني ألحاظُهـــا وهْـــيَ ســـاكِتهْ

ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة وثلاثة من الدرج، يتعب في سيرها من ركب ومن درج. ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور[2]، فيا له من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم التي تذهب برؤيتها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائـــع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع من ثمار تجلبها العرب، وزلابية[3] عجينها كاللجين، فإذا قُليت أشبهت الذهب.

وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال حاز رتبتي الجلال و الجمال، صاحي مجذوب، تميل إليه مهجة[4] القلوب، وله أسرار ظاهرة ومكاشفات باهرة، يعتقده الناس، ويحصل لهم به الإيناس، ولا يعرف الدرهم ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جُبَّة من صوف، ورأسه في غالب الأوقات مكـــشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثنـــاء العـــاطر، ويكسوه المارة العدد فيقبلها ويعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه يطلبها فيدفعها إليه، وهذا شأن الكرام الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البنـــدر ثلاثة أيام، وبعدها طوينا المضارب والخيام، ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة وخمس من الدرج في علم الصناعة، انتهى كلام الشيخ البكري، رضي الله عنه، فلنرجـــع إلى ذكر المنازل بحسب سيرنا في هذه السنة فأقول:

---

(1) ورد البيتان في المصدر السابق.
(2) طور سيناء: اسم جبل بمصر يقع قرب أيلة: معجم البلدان: طور سينا.
(3) في ط: زلافية.
(4) ساقط من ط

ارتحلنا من المويلح يوم الاثنين ومررنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان، و لم نترل فيه وتجاوزناه، وسلكنا في المضيق المسمَّى بشق العجوز[1]، ونزلنا على شاطئ البحر قريباً من مترل الركب المصري، ووجدنا هناك شرذمة من الأعراب يبيعون العلف، وعن يسار مترلنا جبال سلمى وكفافة[2].

ثم ارتحلنا من هناك يوم العنصرة[3]، ومررنا صباحا بقبر سيدي مرزوق الكفافي[4] على ساحل البحر، عليه أعواد قد عُلِّم بها عليه، والناس يتبرَّكون به. ونزلنا ذلك اليوم ببندر الأزلم[5] عند العصر، وبه ثلاثة آبار كبيرة محكمة البناء وماؤها غزير إلا أنه زعاف يصلح للإبل ولضرورة الناس من غسل وأشبهه، ولا يسيغه إلا المضطرون، وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار حساء محفور في أرض ليس بمطوي، ماؤه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل ولا يعرفه الكثير من الناس، وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه[6]، وهما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة، وقد انهد ما في داخله من البيوت وتثلم بعض صوره، والخلاء أقرب إليه من العمارة:

[طويل]

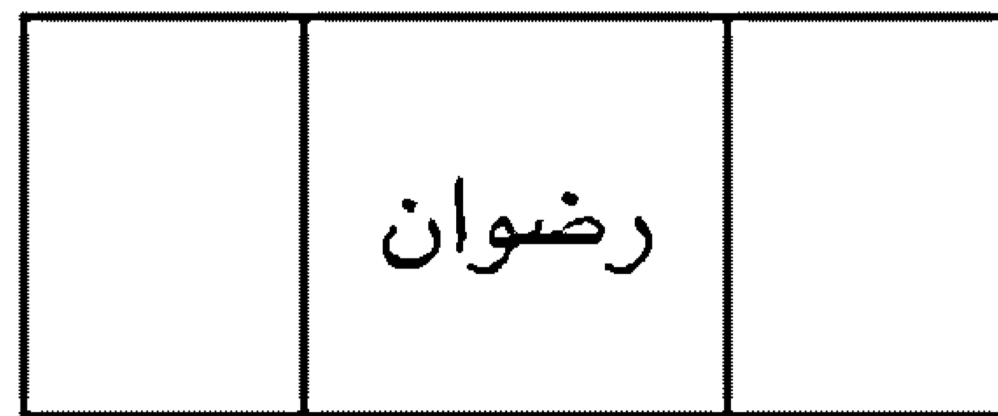
إذا لم يكُن فيكُن ظِلٌ ولا جَنى ... فأبعدكُن اللهُ مِن شجرَات[7]

ثم ارتحلنا من الأزلم[8]، ومررنا بين جبلين، وسرنا في مضايق وعقاب صغار إلى أن وصلنا المكان المسمى اصطبل عنتر عند العرب، وفيه ثلاثة آبار محكمة البناء بحجر منحوت، وماؤها حلو إلى الغاية إلا أنه ضنين أنزحته الدلاء بسرعة، وبات الناس ليلتهم يتربضونه تربضا ولأيا بعد لأي ما كفاهم للشرب، و لم ترد منه الإبل.

---

(1) شق العجوز: موضع صحرا: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(2) كفافة: جبل على يسار الطريق كما حدده العبدري. رحلة العبدري، ص: 161.
(3) العنصرة: هو اليوم الرابع والعشرون من حزيران، وفيه ولد زكرياء بن يحيى عليهما السلام.
(4) ذكره ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(5) سماه ابن مليح بئر الأزلم: أنس الساري والسارب، ص: 71.
(6) الوجه: قصبة بين جبال خارجة عنها الآبار: أنس الساري والسارب، ص: 72.. رحلة العبدري، ص: 161.
(7) البيت لابن صارة الشنتريني الأندلسي: لمح السحر من روح الشعر، ص: 166.
(8) في ط: الأزلام.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بوادي الأراك، وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريبا منه، وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم، ثم تجاوزنا منه إلى مضايق بين فدافد[1] من أجبل ذات حدور وصعود، فجئنا عشاء[2] لبندر الوجه عند الاصفرار وفيه حصن حصين في جرف واد كبير يخرج من بين جبلين والناس يتهيبون الترول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي. وفي الوادي عدة آبار بعضها حسن بمهملتين[3]، وبعضها بمعجمتين، والتي فوق البندر أحسن من التي تحته. وداخل البندر بئر تسقي بالبقر وتصب في ثلاث برك خارج البندر لصق حائطه، إحداهما من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه، والثنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه، والبرك الثلاث ملاصقة لسور البدر وصورهما:



أوسطها للأمير رضوان، وهي الكبرى. وفي أعلى الوادي بين الجبلين ماء يسمى الزعفران، وماؤه طيب إلا أنه قليل، فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس، وربما هجمت عليهم العرب هناك فيقع بينهم قتال، إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون.

واستقى الناس ما احتاجوا إليه من الماء، وأوردوا إبلهم وبالغوا في حمل الماء لأنهم استقبلوا المياه القبيحة والمسافة العويصة التي ليس في الدرب أصعب منها؛ لتوالي المياه القبيحة فيها وبعد العمارة وشدة الحرب لقربها من بلاد الحجاز، بل غالبها منه، وسوء أخلاق عربها. وخزن الناس في بندر الوجه ما يحتاجون في الإياب من طعام وعلف، وكذلك يفعلون في كل بندر مروا به من مصر في الغالب، وآكد المواضع للخزن هذا لأن الركب في الإياب قد يسبق الملاقي التي من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعض

(1) الفدافد: جمع فدفد، وهي الفلاة التي لا شيء فيها: لسان العرب: فدد.
(2) ساقط من ط.
(3) يقصد أن بعضها حسن وبعضها خشن.

الأوقات، ولأجل اشتغال الناس بالخزن وكراء الحوامل[1] لطرح الأمتعة تأخر رحيل الناس من هذا البندر إلى أن متع النهار[2]. وفي هذا البندر طائفة من العسكر كغيره من البنادر ولهم أمير، وهو آخر البنادر التي في طريق الدرب وليس بعده عمارة إلى الينبع الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريقنا.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله، عنه في ذكر المراحل من المويلح إلى الوجه ما نصه: ثم سرنا من المويلح إلى دار السلطان التي هي لعرب البادية أوطان، ونزلنا بوادي سلمى وكفافة، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة، وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل، وبجانبه القصطل البري منتظم كالنخيل، وحفائر مائها عذب بارد يشرب منه الغادي والوارد، قال الشاعر[3]:

[خفيف]

إن وادِي سلمَى بَهِيٌّ بَهِيج حيثُ فيهِ قبرُ الولِيِّ المُسَمى

صَاحِبِ السرِّ والمعارِفِ مَرزُو قِ الكفافِي طابَ روحًا وجِسْمَا

وإذا جِئْتَ قبرَهُ فتأدبْ وتوَسلْ بجاهِهِ ثم سلْ مَا

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة، وحصل لنا ببركة الشيخ مرزوق في الرزق الزيادة، ومدة المسير كاف تمام، وعددها معروف من غير إيهام.

ثم سرنا إلى بندر الأزلم، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم، فماؤه ملح أجاج، ما شربه إنسان إلا احتاج إلى العلاج، فأقمنا به من غير إقبال، ورحلنا منه بعد الزوال، ومدة المسير إليها ست عشرة محررة، وخمس من الدرج مقدرة.

(1) في ط: المواصل.
(2) متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال: لسان العرب: متع.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 223.

ثم سرنا إلى مرحلة تسمى اصطبل عنتر، وقد اختفى بها العربان للأذى وتستر، والمسير إليها بين جبال صاعدة، وحدرات وأوعار متقاربة ومتباعدة، وبها آبار عذبة، يود كل ظمآن شربة، قال الشاعر[1]:

[مجزوء الكامل]

إنْ جئـتَ للإصـطَبلِ لا تغفـلْ بـهِ عنـدَ النزُولْ
واحْـذَرْ مِـن العَـربِ الـذي بجبالـهِ أبـدا تَـصولْ
واعلَـمْ – فَـديتُكَ – أنـه صـعبٌ ولكـني أقُـولْ
قـد سُـمِيَ الإصـطبلُ مِـن عـرَبِ بـه شـبه الخيـولْ

ومدة المسير إليها ثلاث عشرة ساعة في العدد صحيحة الضبط والسند. ثم سرنا منه إلى وادي الأراك، وهو واد ليس لانفراد محاسنه اشتراك، وبعده دخلنا بين جبال وأوعار، ومضيق وأحجار، وحدرات طوال وصعودات وتلال، حتى نزلنا ببندر الوجه المبارك، وصار حصنه متقارباً متدارك، فرأينا به الآبار الخالية، وحفائر الماء العذب بقربه غير خالية، فأقمنا به إلى قبيل العصر، وقد زال من الناس الحصر، قال الشاعر:

[رمل]

قـد دخلنـا بنْـدرَ الوجـهِ الـذي فيـه قـوتُ[2] كـل عـام يختـزنْ
وشـربْنا مـن ميـاهٍ عـذبَتْ شُربُها يَجلـو عـنِ القلـبِ الحـزَنْ
نحمـدُ اللهَ الـذي أسْـعفنَا ورأينـا ذلـكَ الوجـةَ الحسَنْ

ومدة المسير إليها سبع عشرة وثلثي ساعة بالإجماع، حَرَّرها أهل العلم والاطلاع، انتهى كلام الإمام البكري رضي الله عنه.

---

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 223.
(2) في ط: قدر قوت.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من الوجه بعدما وقع اختلاف بين مشايخ الركب في الرحيل والقيلولة، فتبع الآخر منهم الأول، وارتحل الناس جميعا. ولما تجاوزنا البندر وغاب عن أعيننا، ظهر بعض الحرامية لآخر الركب ورموهم بمكحلة، فتصايح الناس، فدفع الله كيدهم ولم نرَ أحداً منهم قبل ذلك. ثم بتنا تلك الليلة دون الأكره، وفي الغد مررنا بالأكره ظهراً، وهو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة، يذكر أن سيل المدينة المشرفة يصل إليه، وماؤه قبيح جداً إلا أن يكون عقب سيل فيحسن، وفيه آبار كثيرة وأشجار ملتفة، والآبار المحفورة في ذلك اليوم أجود من القديمة، فأخذ الناس من مائه ما اضطروا إليه وسقوا إبلهم، وتجاوزوه بنحو فرسخين فباتوا.

وفي الغد مررنا بالموضع المسمى بئر الدركين[1] ظهراً، وهو منزل الحاج المصري، وإنما سُمِّي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز، فإنّ ما بعده من عمل الحجاز وفي درك أعرابه. ولم نبت ذلك اليوم إلا بقرب العقبة السوداء[2]، وتلك المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحر، وهي أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المار بها، والبحر يتراءى عن يمينه، وفيها غياض من شجر الطلح، وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيراً، إلا أن الناس لا يتركون الإبل للرعي فإن المحل مخوف تغير فيه أعراب بلي[3] وجهينة[4] وغيرهما.

ثم ارتحلنا ونزلنا من العقبة السوداء عند طلوع الشمس، وهي عقبة صغيرة في أرض سوداء ذات أحجار وأشجار، ويقال إنها أول أرض الحجاز، ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود، ويتقوَّى الحر وتسترمل الأرض. فسرنا محاذين للبحر إلى أن نزلنا الحوراء ضحى، وقال الناس فيها وتفرقوا بين تلك الأشجار على ساحل البحر، ومياهها حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير، وفيه ملوحة قليلة، والقريب العهد بالحفر أجود من غيره، وكلما طال في القِرَب خبث، والإكثار منها

(1) سماه ابن مليح: بين الدركين: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) العقبة السوداء: تقع برأس الوادي: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(3) بلي: قبيلة من قضاعة، والنسب غليهم بلوي: أسماء القبائل وأنسابها، ص: 52.
(4) جهينة: اسم قبيلة: أسماء القبائل وأنسابها، ص: 75.

يورث إسهالاً مفرطاً كماء الأكره والأزلم وعجرود، فلما وردت الإبل وأخذ الناس حاجتهم من الماء ارتحلوا ظهراً وطلعنا مع واديها الكثير الأشجار من أراك وغيره إلى أن ارتفعنا، فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على ألسنة الحجاج وادي العقيق، ولا مناسبة بين الاسم والمُسَمَّى، بل تسميته بوادي العقوق أنسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة، فهم من أجرإ الناس على ذلك، ومن أمثال الحجاج: لا رجال إلا رجال الحوراء، ولا جمال إلا جمال الدوراء، ويعنون بالدوراء الرجعة، يعني لا يعد صابراً من الجمال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز، إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف.

ولم نبت تلك الليلة إلى أن توسطنا الوادي، ثم ارتحلنا منه أول يوم من يُلْيز وجئنا إلى وادي النبط[1] وقت الظهر، وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت، وماؤها عذب حلو غزير في الغالب، وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته، فإذا حمل الوادي، ولو مرة في السنة، غزر ماء سائر السنة، وقد نزل الناس بهذا الوادي إلى أن سقوا واستقوا، فارتحلوا بعد العصر وتراءت لهم حرامية فوق الجبل وتصايح الناس واجتمعوا ففروا أمامهم.

ثم سرنا هنيئة ونزلنا قريباً منه بنحو فرسخ، ثم ارتحلنا غداً وسلكنا في وادي النار[2]، وهبَّت علينا ريح غربية كانت أول النهار باردة ووسطه وآخره سموماً لقي الناس منها شدة، ولم يروا أشد منه قبله، ولا يرونه إن شاء الله بعده. وألجأ الحر الناس إلى القيلولة قهرا من غير اتفاق منهم على ذلك، فكل من وجد صخرة أو شجرة التجأ إليها، وأناخوا الإبل ولم يحطوا عنها الأحمال، فكانت القيلولة أشد عليهم من السير، فلما استراحوا قليلاً وأبى الحر أن يخف ارتحل الناس وساروا في سموم وحر شديد لا يزيد مع العشي إلا شدة، وجئنا إلى الخضيرة[3] محل نزول المصري عند غروب الشمس، وتجاوزناه وسرنا إلى العشاء، وقطعنا ثلاثا من الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحجاج بسبع وعرات[4].

(1) سماه ابن مليح ماء النبط: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) ذكره ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(3) الخضيرة:: يقصد قرية خضرة؛ وهي من أعمال المدينة: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 19. معجم البلدان: خضرة.
(4) سبع وعرات: تقع بين جبال برأس وادي النار لا ماء بها: أنس الساري والسارب، ص: 72.

ثم بتنا والحر لا يزيد إلا شدة فأشفق الناس من ذلك لقلة الماء. وهذا الوادي قد طابق الاسم فيه المُسَمَّى، قلما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه بحر أو عطش أو محاربين، وهو واد كبير ضيق بين جبلين لا سعة فيه من النبط إلى الخضيرة، فإذا متع النهار واشتد الحر حجبت الجبال عنه الهواء البحري فينعكس غربياً أو شرقياً صاعداً من الوادي أو منهبطاً، فيصير سموماً محرقاً ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع، فربما أتلف الناسَ فيه عطشٌ مهلك، وربما أحدث ذلك سمية من الأبدان بقبح الهواء مع حرارته، فتموت المئون بل الآلاف من الخلق في أسرع مدة، ويأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت، ووقوع ذلك كثير، إنما هو في الإياب وفي الركب المصري أكثر، وقد حضرنا لطف الله الذي لا يكيف، وغمرتنا مواهبه التي لا تحصى، فلم نر في هذه السنة بأسا مع شدة هذا الحر وإفراطه فلم يمت أحد. ثم ارتحلنا من هناك قبيل الفجر، وقطعنا ما بقي من الوعرات فنظر الله إلى وفده نظر رحمة، فانقلب الهواء بحرياً، وخرجنا إلى متسع من الأرض جالت في أرجائه أرواح معتدلة، فانطفت جمرة الحر بعض انطفاء، ولولا ذلك لهلك الناس؛ فقد قل ماؤهم وتأخر بعض الإبل من شدة العطش، فخرج عليهم اللصوص بعدما قربنا الينبوع، فتصايح الناس ورجعوا إليهم، فلما أعجلوهم نحروا الجمل وفروا إلى الجبل، وقصدهم في ذلك أن يبقى لهم لحم الإبل لعلمهم أن الناس لا يأخذونه. وجئنا إلى بلد الينبوع[1] ظهراً واستبشر الناس بقدومها لأنها أول بلاد الحجاز العامرة، وفيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية، وفيها عامل لأمير مكة السلطان زيد.

وقد أخبر بعض من طلع مع وادي الينبوع أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام، والقرية التي ينزل[2] بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر وليس بعدها إلا ينبوع البحر الذي هو المرسى، وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق، وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان، ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير. وكان نزولنا بها في أول وقت جذاذ النخل، وأكلنا بها رطباً جيداً وبتنا بها ليلتين ريثما أصلح الناس من بعض شأنهم وأخذوا من العرب

(1) الينبوع: وصفه ابن مليح بكثرة النخيل والعمارة والأسواق: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(2) ساقط من ط.

أكريتهم التي بعثوها من المويلح، وكان الكراء منه إلى هنا بسبعة قروش ونصف، ومن مصر إلى المويلح سبعة قروش وثلث. وأدركنا المصري هناك وبتنا معه ليلة ثم ارتحل وبتنا وراءه ليلة أخرى، وهناك وجدنا أخبار مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز وتعرفنا خبر رخصها وغلائها، وخصبها ويبسها، ومن هناك تجلب الميرة إلى المدينة؛ فإن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها إلى المدينة يرسي بينبع البحر، وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حمل منه إلى المدينة، تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة ويتدركون بالطريق من هناك إلى المدينة، وقد خزن الناس هنا أيضا من الفول والزاد ما يحتاجونه في الإياب. وأكبر جبال تلك البلاد جبل رضوى، وهو المشرف على بلاد الينبوع، وليس هو الجبل الصغير الذي بجانب الينبوع، بل هو الجبل الكبير المشرف عليه، وإلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته، صلى الله عليه وسلم، ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود في المساجد التي صلى فيها صلى الله عليه وسلم. قال السيد السمهودي ما نصه: ومسجد العشيرة[1] معروف ببطن ينبع[2]، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري.[3] ولابن زبالة[4] أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد ينبوع بعين بُولا[5].

قلت: وعنده أيضا عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم، هـ.

وقد دخلنا هذا المسجد وتوضأنا من هذه العين، وكان نزولنا تحت القرية، وجعلنا خباءنا تحت المزارة التي على التل المرتفع، وقد تقدم أنها لأبي الحسن النفاتي. وفي الينبع[6] أيضاً قبر الحسن المثلث فوق القرية ولم نصل إليه لبعده، وزرناه من بعيد. وفي هذا البلد موطن طائفة من الأشراف، ومنهم شرفاء بلدنا القاطنين بسجلماسة.

---

(1) في ط: العسيرة.
(2) في ط: الينبوع.
(3) وفاء الوفا 3:457.
(4) ابن زبالة: إخباري نسابة، له من الكتب: كتاب أخبار المدينة: الفهرست 1:158.
(5) وفاء الوفا 3:458.
(6) في ط: الينبوع.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في ذكر المراحل من الوجه إلى الينبع[1] ما نصه: ثم سرنا من الوجه إلى مفرش النعام، ثم إلى حدرات وآكام وأماكن يرى منها البحر الأجاج، وشدة تلاطمه بالأمواج، ثم إلى حدرات كبيرة المقدار كثيرة الصخور والأوعار، ونزلنا في مرحلة يقال لها بركة أكره، وهي أرض بها حفائر ماء تكره ماؤها من المذاق، من تقيد بشربه حصل له الإطلاق، فهي مرحلة لا ترتاح بها النفوس ولا يضحك بها العبوس، قال الشاعر[2]:

[سريع]

يا من أتى أكْرَه في سَيْرِهِ أبْشِرْ بنَيلِ القصْدِ والمِنةْ

لا تكرهِ المكروهَ في أكْرَهْ فبالمكارِهِ حُفت الجَنةْ

ومدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، وثلث ساعة ثابتة في أحكامها. ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك، ولها من بين القرى اسم مشترك، بين فضاء واسع المجال ومراعي أعشاب للجمال، إلا أنها خالية من الماء للوارد، والإقامة بها إنما هي على طريقة السير المعتاد، ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان حررها أهل الإتقان. ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة، وقطعنا مفاوزها ونزلنا بالحوراء النضرة، وهي مرحلة رملها غزير ومحاطبها كثير، وبها شجر الأراك الأخضر، والماء من حفائر رملها يتفجر، قال الشاعر[3]:

[كامل]

جئنا إلى الحَوْراء وهْيَ مَحَطةٌ فيها الأراكُ نزاهةٌ للرائِي

ناديتُ خِلي[4] قِفْ بها مُتأملا وانظُرْ لرملِ مُغمَرٍ بالمَاءِ

واغْنم زمانًا مُقبلا بسُعودهِ فيهِ اجتماعُ الشملِ بالحوْراءِ

---

(1) في ط: الينبوع.
(2) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 225.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 225.
(4) في ط: خلا.

ومدة المسير إليها في جمل الأعداد، حررها أهل الإرشاد. ثم سرنا منــها إلى مفازة نبط، وهي حد عربان جهينة في الشيل والخط، وبطرقها مضايق وحدرات وجبال راسيات شامخات وشجر أثل كالنخيل وحفائر ماء عذب يشفي العليــل، قال الشاعر[1]:

[متقارب]

وفي أكـــرهٍ والـــتي بعـــدهَا　　مـــرارَة مـــاءِ تزيـــدُ القـــسَاوةْ

فجئنـــا إلى نـــبْط نـــشكُو الظمَـــا　　فأنْعـــشَنا ماؤُهـــا والطـــلاوَةْ

ولمـــا صَـــبرنا علـــى غيْرِهـــا　　فأعْقَبنـــا صـــبرُنا بـــالحَلاوةْ

ومدة المسير إليها عدد كان، وهي عشرون ساعة من غير اختلاف. ثم سرنا منها إلى هراهير[2] الراعي، وهي مكان تحمد فيه المساعي، وهي جبال سود فــوق الجبال، وتُسَمَّى أيضاً بالأباطح كما يقال، ثم إلى وادي يُسَمَّى وادي النار، وهــو واد بين جبال وعر وغبار. ثم نزلنا بالخضراء، وقيل الخضيرة بالتصغير، وهي مــن أعمال بندر ينبوع في المسير، قال الشاعر[3]:

[كامل]

أنظُرْ إلى الخضْراءِ واغْــنَمْ بــسْطهَا　　تلقَـــى رُباهـــا نُزهـــةً للرائِـــي

فلرب حشاش شـــكى مـــن همـــه　　قـــد زالَ عنـــهُ الهـــمَّ بالخـــضْراءِ

ومدة وصـــولنا إليهـــا في المـــسير　　[اثنا عـــشر ســـاعة بالتقـــصير][4]

ثم ارتحلنا منها واستقبلنا ذلك الوعر، ورأينا أول الوعرات قد ظهر، وهــي سبع وعرات كبيرة أصعبها الأولى والأخيرة، بين كل وعرة فضاء، وبعده عقلة في الطريق، ويليها شق جبل هائل ومضيق. ثم أنخنا الركاب ببندر ينبوع، وهــو أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع، به حدائق ونخيل وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور منيع وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسحة الرحاب،

(1) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(2) في ط: طراطير.
(3) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(4) بياض في خ وط، والزيادة من الترجمانة الكبرى.

فآل أمرها إلى الخراب، وبه الآن سوق للحجاج يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، وبه أفران وحيتان كبار، وعشش[1] تسقى فيها القهوة من أيدي الجوار، قال الشاعر[2]:

[رمل]

حَبذا بَنْدرُ ينبُوعِ وما　　في رُباهُ من رِياضٍ وعُيونْ

وسُقاة من مِلاحٍ نُهَّد　　يَصْرَعَنَّ الصب مْن نبْلِ العيُونْ

فارتَحِلْ عنهن واذهَبْ وانتصِحْ　　فإذا[3] خَالفتَ أذْهبْتَ العيُونْ

وجميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن، ويعم نفعها الساكن والظاعن، فنصبنا بهذا البندر الخيام، وأقمنا به ثلاثة أيام، ومدة السير إليها سبع عشرة ساعة في العدد محررة في ميقاتها صحيحة السند، انتهى كلام الشيخ البكري رحمه الله.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من ينبوع، وسرنا يومنا في رمال ليست بالقوية وأشجار قليلة إلى أن نزلنا بموضع يُسَمَّى السقائف، ويقال له دار الوقدة[4]، يقدون فيها الشمع الكثير، يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب، ويجعلونه على أقتاب الجمال بالليل، فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسْرجة مصابيحها في أحد المواسم، وشاع عندهم أنَّ الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نيراناً كثيرة فنحن نتشَبَّه بهم. وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين: أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران إنما كان في غزوة الفتح بمرّ الظهران[5] كما هو معروف في كتب السير، وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذلك. وثانيها: لو سلم أن ذلك وقع

---

(1) عشش: العشة من الشجر: المفترقة الأغصان التي لا تواري ما وراءها (لسان العرب: عشش)، و المراد بها هنا المكان المتخذ من أغصان الشجر كمسكن.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 226.
(3) في خ وط: فإن، والصواب ما أثبتناه.
(4) وقف عليها ابن مليح في رحلته: أنس الساري والسارب، ص: 72.
(5) الظهران واد قرب مكة وعنده قرية يقال لها مر تضاف إلى هذا الوادي، فيقال: مر الظهران، وبمر الظهران عيون كثيرة ونخيل: معجم البلدان: الظهران.

فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم، فحيث لا عدوّ فلا معنى له.

ولا شكَّ أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار بالأماكن التي أعزّ الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن، ما لم يؤد ذلك إلى محظـــور، مثـــل اعتقاد أن الوقود سنّة متبعة، بل ربما ظن بعضهم أنها من أفعال الحج، فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون: لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده؟ ظانّين أن ذلك من مناسك حجهم وشعائره، وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات، نسأل الله أن يميتنا على سنة النبي المستقيمة التي[1] (لا ترى فيهـــا عوجاً ولا أمتاً)[2].

ثم ارتحلنا من دار الوقدة ومررنا بعد طلوع الشمس تحت جبل الرمل الكبير المشرف على بدر، بينه وبين الجبل الأخضر[3] الأيمن. وكنت ممن تجَشَّم الطلوع إلى أعلى الجبل رجاء سماع ما يؤثر أنه يسمع هناك من صوت الطبل، ولم أسمع شيئاً، وقد زعم كثير من الحجاج أنهم سمعوه.

لطيفة:

وقد ذكر الإمام ابن مرزوق[4] في شرحه على البردة[5] ما نصه: ومن الآيات ببدر الباقية ما كنت أسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتـــازوا بـــذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمـــان. قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعلّه صلب فيستجيب فيه حوافر

(1) ساقط من ط.
(2) طه: 107.
(3) في ط: الآخر.
(4) محمد بن محمد بن أحمد، ابن مرزوق التلمساني، فقيه حافظ، حج سنة 861 هـ، ولقي في رحلته عددا من الأعلام منهم ابن حجر، توفي سنة 901 هـ: لقط الفرائد، ص: 275. شجرة النور الزكية 387:1.فهرس الفهارس 525:1.
(5) الإشارة هنا إلى قصيدة البردة الموسومة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية للشيخ شرف الدين أبى عبد الله محمد بن سعيد الدولاصى ثم البوصيرى المتوفى سنة 694 هـ، وهى 262 بيتا، عليها عدة شروح منها شرح أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني الذي سماه: الاستيعاب لما فيها من البيان والإعراب، وله شرح آخر سماه: إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة: كشف الظنون 1331:2.

الدواب. وكان يقال لي: إنه دهس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل، وأخفافها لا تصوِّت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال؟ قال: ثم لما منَّ الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي، وبيدي عود طويل من شجر السعدان، المسَمَّى بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلاّ واحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول: تسمعون الطبل! فأخذتني، لما سمعت كلامه، قشعريرة بيّنة، وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبلِ وأنا داهش مما أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله أعلم به، فشككت وقلت: لعلَّ الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث مثل الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك أنه صوت طبل وذلك من ناحية ﴿...﴾[1] ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا ببدر فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع، المرّة بعد المرّة، قال: ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس. انتهى.

وقال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى: وضربت طبلخانة النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة، نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير والصغير[2].

قلت: وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة، وإذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض.

وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقي البال لذلك فلم أسمع شيئاً أتحققه، وفي هذه المرّة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخراً وراءنا، وتحققنا ذلك بجلوسنا حتى مرّ بنا، وكثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنها الطبلخانة المذكورة. وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا سيدي أبا بكر السجتاني[3]، رضي الله عنه، فقال لي:

---

(1) بياض في خ وط مقدار كلمة.

(2) يقصد خلاصة الوفا ووفاء الوفا للسمهودي.

(3) أبو بكر بن يوسف السجتاني، أو السكتاني، عالم فقيه رحالة، رحل إلى المشرق ثلاث مرات، جاور بمصر والحجاز، وسافر إلى القدس، صحبه العياشي في رجوعه إلى المغرب، توفي سنة 1063 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 115.

كنت حريصاً على تحقيق ذلك، وقد مررت ببدر نحواً من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه، والعلم عند الله.

قلت: وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من ينبع[1] ويقولون: إن وادي النار اسمه وادي النور لأجل رؤيتها منه، فحرف الناس التسمية. وقد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا: إنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق في بلاد بعيده، وتحققنا ذلك بظهوره مرّات كثيرة في غير ناحية المدينة، وتارة في ناحيتها، ويتصل خفقانه حتى يقرب إلينا فنتحقق أنه برق، أو تظهر إمارات أخر تحقق ذلك، مثل رؤية غيم متراكم وصوت[2] رعد.

وأرض الحجاز معروفة بكثرة البرق، وكثير من الحجاج يصمّمون على أنها أنوار ولو ظهرت الإمارات، ولو كان من غير ناحية المدينة. وقد سألت أيضاً شيخنا أبا بكر السجتاني، رضي الله عنه، عن هذا فقال لي: كنت أتأمل ذلك كثيراً فلم أرَ شيئاً مما يزعمه الحجاج إلا البرق، نعم قال لنا رضي الله عنه: الذي لا يُمترى فيه إنه نور النبي، صلى الله عليه وسلم، حقيقة، وإن كانت جميع الأنوار من نوره، ما عاينّاه مراراً ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة، في الحرم الشريف، فإنا نجلس أحياناً نهاراً حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار، فيغشى الحرم الشريف كله فيراه الناس. قلت: ولعلَّ هذا الذي ذكر شيخنا، رضي الله عنه، خاص أيضاً به وبأمثاله ممن تنوّرت بصائرهم فاستنارت بنورها[3] أبصارهم، فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة، وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك (والله يختصُّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[4].

وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش إلى الآن، يزعم الناس أنّه موضع العريش الذي بُني للنبي، صلى الله عليه وسلم، يوم بدر، وأن ذلك موضع الوقعة[5] وليس به.

---

(1) في ط: ينبوع.
(2) في ط: أصوات.
(3) في ط: بها.
(4) البقرة: 104.
(5) في ط: الواقعة.

ونزلنا بدراً ضحى، بعدما حمى النهار، وهي قرية حسنة ذات نخيل وماء عذب، فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ومادّهّا من عين هناك، وعلى ذلك البلد أنوار تلوح، ورياح النصر تغدو وتروح، وينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الربّ، سبحانه وتعالى، ومعالم النبوة لا تخفى، ومواطن أقدام الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه لا تعفى.

وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول معلنين بذلك، فأسعارها -في الغالب- أرخص من غيرها، مع صغرها وانقطاعها عن البلاد، وأهلها محفوظون، آمنون مطمئنون، مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم.

وكان نزولنا خارج البلد بينه وبين الجبل، بالقرب من مقابر الشهداء، وقد زرناهم في محلهم، وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم. وبالقرب منهم قبور السادات الأشراف الرّدينيّة من أهل اليمن، نزل أسلافهم بهذا البلد، ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر، وكبيرهم اليوم السيد الغيث وقد زرته ودعا لي.

وزرنا المسجد المُسَمَّى بمسجد الغمامة، وهو موضع العريش يوم الوقعة ببدر، كما نصّ عليه غير واحد.

وانشرحت صدورنا بالمشي في أزقّة القرية وبين بساتينها المشرقة النضرة كأنما نخلها، من شدة خضرته ونعومته وإشراقه عراجين الثمار المصفرّة والمحمرّة بينها أغصان شجرة طوبى، ولم نألُ جهداً ما سرنا في أرجائها وجلنا في أقطارها عسى أن تطأ أقدامنا في موطئ قدم أحد أصحاب الرسول، ولو تحققنا موضع قدم واحد منهم لكان لثمه بالوجه غاية المنى والسول.

وقد بتنا ببدر تلك الليلة، وكانت العادة أن الركب الشاميّ يترل علينا هناك بالليل فلم يترل وتأخر.

وقد خزن الناس ببدر أيضاً ما يحتاج إليه من طعام وعلف مما يحتاج إليه من بدر إلى المدينة المشرفة وإلى الينبع[1] في الإياب، وكان خزيننا نحن عند رجل اسمه الشيخ حسن بن عليان، والغالب عليه أنه من أهل الخير.

---

(1) في ط: الينبوع.

تتمة:

قال الشيخ البكري في ذكر المراحل من ينبع إلى بدر ما نصه: ثم سرنا من ينبع إلى دهناء[1] في فضاء ورمال وآكام وجبال حتى وصلنا إلى الأبرقين، وهي كناية عن جبلين مفترقين أحدهما رمل صاعد، والآخر من وعر وجلامد، وبينهما ترن الطبول الحربية لنصرة خير البرية، فيسمعها من كان أهلا للسماع، ويحجب أهل الزيغ والابتداع. ثم دخلنا قرية بدر وحنين التي حماها الله من كل شَيْن، وبها جسر طويل وعيون تجري بين حدائق ونخيل، وبها مسجد العريش، وقيل مسجد الغمام وموضع حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومحل النصرة لجيوش الإسلام على أهل الأنصاب والأزلام، وهي الغزوة العظيمة المقدار التي بها شاهت وجوه الكفار، فيا لها من غزوة ما تلت فيها الملائك وضاقت بها على أعداء الدين المسالك، وأخزى الله أهل الشرك والغواية، واستشهد من المسلمين من سبقت له العناية، وخرج فيها أصحاب رسول الله، صلى الله عليه، وسلم للجهاد، وقتل أبو جهل رأس أهل العناد، فبلغت الشهداء من السعادة أوفى نصيب، وقلبت أعداء الله في القليب، ووجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[2]، قال الشاعر[3]:

[بسيط]

يا أهْلَ بدْرٍ لقد طابَتْ مآثرُكُمْ ... وقد علا قدرُكُمْ في أرْفَعِ الدرَجِ

فزتُمْ بغُفْرانِ أوزارٍ وحُسْنِ ثنَا ... على المدَى نشرُهُ من أطيَبِ الأرَجِ

يكفيكمُ في علاكُمْ قولُ مادحِكمْ ... هم أهلُ بدرٍ فلا يخشَوْنَ من حرَجِ

فيا لها من ليلة بتنا بها وقد أشرق بدرها وسما قدرها، أذهبت عن العيون الهجوع لاشتغالها برؤية القناديل والشموع، وأما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور، ومحت بضوئها ظلم الديجور، وقد دقت طبول الأفراح، وزالت عن القلوب

(1) الدهناء: رمال في طريق اليمامة إلى مكة لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر: معجم ما استعجم 2:559.. رحلة العبدري، ص: 163.
(2) البقرة: 211، النور: 44.
(3) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 227.

الأتراح، وأحضر السكر الماد[1]، وأذيب في الماء للوارد، وملئ به البواطي والحلل، وسقي به جميع الطوائف وأهل العمل، فشرب كل منهم أوفى نصيب، فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب، وقضينا الأوطار من مشاهدها المبتهجة. ومدة المسير إليها ثمان ساعات واثني عشر درجة، انتهى كلام الشيخ البكري رضي الله عنه.

رجوع وانعطاف:

ثم ارتحلنا من بدر[2]، وهبّت علينا ريح باردة استمرت ذلك اليوم وغداً، وتجاوزنا السبيل الأول الذي بالزوة[3] ظهراً. ثم مررنا على سبيل محسن عشاء وبتنا.

وفي الغد مررنا ضحى بقرية تسمى مستيرة[4]، وفيها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت، إلا أن الرمل قد غلب عليها، وحولها عمارة قليلة، وبها قبر يزار، عليه بناء اسم صاحبه الشيخ يحيى، قالوا إنه شريف من أهل اليمن، وفي الروضة قيّم يأخذ صدقات ذلك الشيخ. وسرنا يومنا، ونزلنا برابغ[5] بعد المغرب وبتنا، ووجدنا به بِركة كبيرة قد بنيت هناك مملوءة ماء، أعانت الناس في سقي الإبل وفيما يحتاجون إليه في إحرامهم من غسل ثياب واغتسال. وهي قرية فيها نخل وآبار كثيرة، في وادٍ يأتي إليه السيل من بعيد، وتزرع فيه مقاتي كثيرة، ودخن وذرة، وهو من أخصب أودية الحجاز.

ثم اشتغل الناس بغسل الثياب والاغتسال للإحرام وشراء النعال، توجد هناك معدّة للمحرمين إلا أنها غالية، ولم يتيسَّر الرحيل إلا بعد الزوال. فرحلنا وخرجنا عن القرية، وبرزنا إلى البرية، وصلينا الظهر جماعة، ثم ركعتي الإحرام، ثم أحرمنا

---

(1) الماد: الناعم اللين: لسان العرب: ماد.

(2) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار وهو ساحل البحر ليلة، وبها كانت بها الوقعة المشهورة في رمضان سنة اثنتين للهجرة: معجم البلدان: بدر.

(3) الزوة: يقصد البَزْواء، البزواء، وهو موضع في طريق مكة قريب من الجحفة: معجم البلدان: البزواء.رحلة العبدري، ص: 164.

(4) مستيرة: لعلها ستارة، وهي قرية من نواحي مكة: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 13. معجم البلدان: الخوار.

(5) رابغ: واد يقطعه الحاج بين البزواء والجحفة دون عزور: معجم البلدان: رابغ.

ملبّين بالحج مفرداً، محافظين على استحضار النية، والمتابعة على التلبية والنية إلى ذلك المحل أقرب للمقصود، وتابعنا السير ملبين صارخين بها فرحين مستبشرين آمنين مطمئنين[1]، وجاوزنا الرمال التي يتيه فيها الركب في بعض الأحيان بين العشاءين، فلما خرجنا إلى الأرض الصلبة أنخنا وبتنا إلى الصباح، ثم ارتحلنا وأخذنا بطن هرشى[2] التي يقول فيها الشاعر:

[طويل]

خُذوا بَطْن هَرْشى أو قَفاها فإنما كِلا جانِبَيْ هرْشى لهن طريقُ[3]

ومررنا بقديد، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان، وفيها فول وفواكه تُباع، ولا ماء بها إلا ما يُستقى من بعيد، وسألنا عن موضع مناة الذي بالمشلل حذو قديد[4] هل يعرفه أحد فلم نجد أحداً يعرفه، والحمد لله الذي هدم رسوم الطواغيت حتى لا يبقى أحد يعرف حتى أمكنتها، وقد أدركتنا القيلولة بجانب قديد فقِلنا هناك إلى أن زالت الشمس فارتحلنا ومررنا بأرض ذات مزارع كثيرة ومقاثي، إلا أن زراعتها إنما هي إذا جاء السيل، وأكثر المقاثي في بلاد الحجاز إنما تُزرع على ماء المطر في الأماكن التي يستنفع بها الماء، وقد أخبرنا أن كثيراً منها ينبت في البرية من غير استنبات، وبها دُلاّع جيد رخيص، ويسمونه بلغتهم حبحب[5]، ولا يكاد ينقطع شتاء ولا صيفاً إلا في السنة الجذبة.

ثم صلينا العصر بالموضع المُسَمَّى بعقبة السكر[6]، وأكثر الناس، خصوصاً المصارية، يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك ويؤثرون في ذلك أثراً لا أصل له، يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكراً فشربوه، وهي عقبة في جبل صغير فيها رمل يُتعب الإبل، وقد سوي البناء في جانبها والتقطت أحجارها وبُني مسجد صغير بأحد جانبيها، وبينها وبين خليص[7] نحو من ثلاثة

(1) إشارة إلى قوله الله عز وجل من قائل: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون): آل عمران: 170.
(2) هرشى: هضبة لا تنبت شيئا:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 23.
(3) ورد البيت بلا نسبة في الروض المعطار، ص: 592.
(4) قديد: اسم موضع قرب مكة: معجم البلدان: قديد.
(5) الحبحب: البطيخ.
(6) عقبة السكر: موضع بعد خليص: أنس الساري والسارب، ص: 76.
(7) خليص: حصن بين مكة والمدينة: معجم البلدان: خليص.

أميال، فبلغنا إلى خليص عند المغرب ونزلنا به، وفيه عين ماء تجري وأبنية وقهاوي وسوق، وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين يفجر عنها في مواضع للسقي والوضوء إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية لم أرَ أحلى منها ولا أعظم، يغرق فيها من لا يحسن العوم، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد. وبات الناس بجانب هذه البركة في أرغد عيش بسبب الماء الحلو الغزير، وسقوا واستقوا، وتوضأوا بلا كلفة في ذلك ولا مشقة.

ثم ارتحلنا غداً بعد الفجر ومررنا في غيظة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل[1] وغيره، وفي خلالها فدادين يزرع فيها المقاتي والدُّخْن[2] وغير ذلك، وسرنا حتى مررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عُسْفان[3]، والطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر، إلا أن هذه أطول منها وأسهل، وبأحد جانبيها مسجد، فلما خرجنا من العقبة وصلنا إلى قرية عسفان قريباً من الظهر، وفيها سوق وآبار متعددة من جملتها البئر التي يُذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها[4]، وماؤها حلو غاية، فشربنا منه تبركاً بآثاره صلى الله عليه وسلم، ولم نترل بقرية عسفان بل صلينا الظهر في مسجدها وسرنا ومررنا بالأرض المسماة برقة[5]، وهي أرض طيبة فيها مزارع ومقاثي، وصلينا بها العصر، ثم مررنا بالسبيل الذي بآخرها وصلينا بها المغرب، وسرنا إلى أن ذهب هزيع من الليل، ونزلنا قبل الوصول إلى وادي العميان، وسمي بذلك لكون الفقراء يتعرضون فيه للركبان طلبا للصدقة.

ثم ارتحلنا منه صبحا وجئنا مر الظهران ضحى، وهو المسمى بوادي الشريف[6]، وهو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري، وأعظمها القرية التي يترل بها الحاج، وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مونقة، وجدنا الثمار بها مزهوة، فالقلوب بالنظر إلى نضارتها من الأحزان مجلوة، مع ما

(1) الأثل: شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منه: لسان العرب: أثل.
(2) الدخن: حب الجاورس: لسان العرب: دخن.
(3) عسفان: قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلا من مكة، وهي حد تهامة: معجم البلدان: عسفان.
(4) ساقط من ط.
(5) بُرقة: موضع بالمدينة من الأموال التي كانت صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض نفقاته على أهله منها، وقيل إن نلك من أموال بني النضير: معجم البلدان: برقة.
(6) كذا سماه ابن مليح: أنس الساري والسارب، ص: 76.

غمرها من السرور بقرب الديار ومشاهدة الآثار، فوقفنا هناك هنيئة ريثما روت الإبل وتغذى الناس وحصل الإيناس.

تتمة:

قال الشيخ البكري، رضي الله عنه، في عد المراحل من بدر إلى هنا ما نصه: ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة، وتُسَمَّى طرف النجحان، ثم إلى عالج وجبل القرود ومكان يسمى ودان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، وتنزهنا في خضرة وسرحه المعطور، قال الشاعر[1]:

[خفيف]

قدْ شكَا لي بعضُ الحِبينَ يومًا	ظمأ الماءِ قلتُ: ذا غيْر ممكِنْ
كيفَ تشكُو الظمَا وتجزَعُ منهُ	وبهذَا السبيلِ أحْسنَ مُحسِنْ؟

ومدة المسير إليه ثمان عشرة من الساعات، وعشرون درجة محررة بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضي ونسينا بقرب الديار تعب السير الماضي، ثم نزلنا برابغ محل الميقات، وتجَرَّدنا عن لبس المخيط بصدق النيات، وأحرمنا بالعمرة والحج عملاً بقوله: الحج والعمرة والثج[2]. وأهللنا بالتلبية لعلام الغيوب، وسألنا الله تعالى غفران الذنوب، ورأينا حفائر ماء تنبع، ومزارع بطيخ يتنوع، ومسجدا قديم الأثر، ويسمى بالجُحْفة[3] كما ورد في الخبر، وهو محل إحرام المصطفى زاده الله شرفا، قال الشاعر[4]:

[طويل]

تَجردتُ لما أن وصلتُ لرابغٍ	ولبيتُ للموْلى كما حَصلَ الندَا

---

(1) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.

(2) ورد الحديث برواية: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الحج العج والثج، فأما العج فالتلبية، وأما الثج فنحر البدن، رواه أبو يعلى:مجمع الزوائد3: 224.

(3) الجُحفة: كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا بالمدينة فميقاتهم ذو الحليفة، وكان اسمها مهيعة، وإنما سميت الجحفة لأن السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام: معجم البلدان: الجحفة.

(4) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.

وقلتُ إلهي عنـــدكَ الفـــوزُ بـــالغِنَى وإني فَقـــيرٌ قـــد أتيـــتُ مُجَـــردا

ومدة المسير إليها ست عشرة تمام، وعشر[1] من الدرج ثابتة الأحكـــام. ثم سرنا إلى الجرينات، ونزلنا بطارف قديد الذي لا يحل في حرمه للمحرم المـــصيد، وأرجاؤه واسعة المجال كثيرة الوعر والرمال، إلا أنها تُبَشِّر بقرب الـــبلاد، وهـــي مواطن الأمجاد، قال الشاعر[2]:

[خفيف]

قـــد نزلنَـــا بطَـــارفٍ لقَدِيـــدِ ودخلنَـــا حِمـــاكَ نرجُـــو الحِمايَـــةْ

فتَفـــضلْ علـــى عُبَيـــد وفُـــود منكَ يرجُو دفْـعَ العنَـا بالعِنايَـةْ

ومدة المسير إليها سبع عشرة من الساعات، مُحَرَّرة بالميقات. ثم ســـرنا إلى عقبة السويق، وهي عقبة عالية الرمال في الطريق، ثم منها إلى خليص الشهيرة، وبها فِسقية من الماء كبيرة يخرج منها إلى الرمية[3]، ويختزن فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيسة. ثم خرجنا[4] من مدرج عثمان إلى قرية عسفان وبها البئر التي تفل فيها سيد البشر، وهي بئر من شرب من مائها زال عنه الضرر، قال الشاعر[5]:

[رمل]

إن عَـــسْفانَ تـــسَامَتْ رِفْعـــة وعلَتْ قَدْرًا علـــى كُـــل القُـــرَى

وبهـــا بِئـــرُ الـــنبيِّ الْمُـــصطفَى خيْر مـــن صَـــلى وصـــامَ وقـــرَا

فإذا جئـــتَ لهـــا فكـــنْ مُحْـــسنا فعسَى تُحسبُ مـــن أهـــلِ القِـــرى

ومدة المسير إليها زاي في العدد معلومة في المدد.

ثم سرنا إلى جبل غار العميان الذي يجتمع فيه الفقراء بقـــصد الإحـــسان، ونزلنا بالوادي وهو نهاية سير البوادي، وهو واد خصيب يُرى فيه طالب التراهـــة

(1) في ط: عشرون.
(2) ورد البيتان في الترجمانة الكبرى، ص: 228.
(3) في ط: الرية.
(4) زيادة من ط.
(5) وردت الأبيات في المصدر السابق، ص: 228.

أوفى[1] نصيب، أغصانه زاهية وقطوفه دانية، وأطياره ناطقة، وجداوله دافقة، ومزارعه تنبت من كل زوج بهيج، ويفوح من أزهارها كل عرف أريج، وهي زائدة الابتهاج، وعلى كل حديقة سياج، فلو رآه مصري من الناس نسي الروضة والمقياس، وبه عشش تسكنها عرب النوادي، وبأرضه ينبت شجر الكادي، قال الشاعر[2]:

[سريع]

يا حَبذا وادٍ فسيحِ الفضَا	أريجُهُ قد عطَّرَ النادِي
كَمْ فيهِ من فَاغِيةٍ[3] قد زَكَتْ	وفيهِ زهْرُ الفُلّ والكَادِي
وكم ثِمار وزُروع بهِ	والماءُ فيهِ يُنْعشُ الصَّادِي
قلتُ لِخلِي حينَ شاهدتهُ	ولاحَ لي نورُ السَّنا بَادِي
هل دارُ ليلى قد تدانَتْ لنا	فقالَ لي أنك بالوادِي

ووصوله خمس عشرة ساعة في المسير، وخمس من الدرج بالتحرير. ثم سرنا إلى سبيل الجوخي[4] المعروف، ورأينا جنان مَكّة دانية القطوف، ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة، إنما هي مساجد عائشة لأنها أحرمت من هناك بالعمرة، وأما قبر ميمونة فقبل ذلك بأميال، وقد اقترن بسماء سُموها كوكب الثريا بالزهرة، ولاحت لنا أعلى الديار ومشاهد المساعد والآثار، ووصلنا ثنية كداء[5] وبعدها المُعلى[6] التي بها مشاهد أهل الهدى. وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين

---

(1) في ط: أوفر.
(2) وردت الأبيات في الترجمانة الكبرى، ص: 230.
(3) الفاغية: ورد كل ما كان من الشجر له ريح طيبة: لسان العرب: فغغ.
(4) سبيل الجوخي: ذكر ابن مليح أن نوائل للقهوة تقام بهذا الموضع أيام الحج: أنس الساري والسارب، ص: 76.
(5) كداء: تقع بأعلى مكة عند المحصب دار النبي صلى الله عليه وسلم من ذي طوى إليها. وكدى بضم الكاف وتنوين الدال بأسفل مكة عند ذي طوى بقرب شعب الشافعين، ومنها دار النبي صلى الله عليه وسلم إلى المحصب، فكأنه ضرب دائرة في دخوله وخروجه ؛ بات بذي طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها وفي خروجه خرج من أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب. وأما كدي مصغرا فإنما هو لمن خرج من مكة إلى اليمن: معجم البلدان: كداء.
(6) المعلى: من مقابر المسلمين بالبقيع: الجواهر الثمينة 2:514.

حتى تلقتنا هواتف البشائر بقوله: (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمـــنين)[1]، فدخلنا من باب السلام، وشاهدنا البيت والمقام، وطفنا طواف القدوم، وذهبـــت عنا الهموم، وجئنا إلى محل الصفا، وسعينا في طلب الوفا، ولما تَمَّ سعينا بالطواف وحفتنا من عناية الله الألطاف، أقمنا بمكة بالإحرام إلى سابع ذي الحجة الحرام.

رجوع وانعطاف:

ولما قضينا الوطر من الوادي، وبدت لنا[2] من أعلام القرب الهـــوادي، أراد بعض الناس من شدة القيلولة، وقوي شوق الآخرين فشدوا الحمولة، وكنا ممـــن قوي عزمه على المسير، ورأى أن مقاساة الحر في جنب ما يطلبه يسير، فـــسرنا يومنا ونسمات الوصال تهب علينا، وبشائر التلاقي تترادف إلينا، ومررنا بسَرِف[3] وبه قبر أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها تُوفيت بهذا الوادي، وكان من غريـــب الاتفاق أن بنى بها صلى الله عليه وسلم وكان تزوجها بمكة وهو محرم في عمـــرة القضية، وبنى بها بسَرِف في رجوعه، وعلى قبرها بناء ومسجد قد تهدمت جوانبه، فزرناها من خارج البناء معظمين لحرمتها، راجين حسن بركتها.

ثم تجاوزنا وجئنا إلى التنعيم ظهراً حيث المسجد المنسوب لعائشة رضي الله عنها بني بالمكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن[4] بأمر الـــنبي، صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع، ومن ذلك المكان يحرم الناس بـــالعمرة في المواسم وغيرها، وهو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تـــسمية للشيء باسم ما يقع فيه كأحد التأويلات في قوله تعالى: (لهدمت صوامع وبيـــع وصلوات)[5]؛ أي أماكن صلوات، أو سميت الأماكن بالصلوات تسمية للـــشيء باسم ما يقع فيه.

---

(1) الفتح: 27.
(2) ساقط من ط.
(3) سَرِف: على ستة أميال من مكة من طريق مر، وقيل سبعة وتسعة واثنا عشر، وليس بجامع اليوم، وهناك أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بميمونة مرجعه من مكة حين قضى نسكه، وهناك ماتت ميمونة سنة ثمان وثلاثين: معجم ما استعجم 735:3.
(4) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: من الزهاد الشجعان، شهد مع قريش بدرا وأحدا مشركا، وأسلم في هدنة الحديبية، وله المشاهد الجميلة في نصر الإسلام، توفي سنة ثلاث وخمسين: شذرات الذهب 59:1. شرف الطالب، ص: 21.
(5) الحج: 38.

ثم تجاوزنا إلى المكان المُسَمَّى بالزاهر، ويسمى جنان مكة، وبه آبار وأشجار وحضرات، وبه قبر يذكر أنه قبر الصحابي الإمام المشهور عبد الله بـــن عمـــر[1]، رضي الله عنهما، فقد صَحَّ أنه مات بمكة بعد الحج، فقيل إنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه، فمن قائل إنه بهذا الوادي، ومـــن قائل إنه بالوادي الذي بطرف المحصب[2]، وهو الذي شهره كثير من الناس، إلا أنه ليس هناك قبر يُنسب إليه، وقد زرناه في هذا المكان بحسن النية، وأكثـــر النـــاس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طُوى[3] الذي بات به صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه، واستحب أكثر العلماء الاغتـــسال فيـــه، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أنّ ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكـــة واد آخر، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان[4]، وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة[5] حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج بأعلى هذا الوادي هو ذو طوى وأسفله هو الشبيكة.

(1) أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب، الفقيه الزاهد، كان من زهاد الصحابة وأكثرهم أتباعا للسنن، توفي سنة 74 هـ، عُمر ستا وثمانين سنة أفتى في ستين منها، ولما مات أمرهم أن يدفنوه ليلا ولا يعلموا الحجاج لئلا يصلي عليه، ودفن في ذات أذاخر، يعني فوق القرية التي يقال لها العابدة، وبعضهم يزعم أنه في الجبل الذي فوق البستان على يمين الخارج من مكة إلى المحصب: شذرات الذهب 1:841. شرف الطالب، ص: 22.

(2) المحصب: موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب: معجم البلدان: المحصب.

(3) ذو طوى: موضع عند مكة: معجم البلدان: طوى.

(4) قعيقعان: قرية فيها مياه وزروع:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 29.

(5) الشبيكة: بين مكة والزاهر على طريق التنعيم، ومنزل من منازل حاج البصرة بينه وبين وجرة أميال: معجم البلدان: الشبيكة.

ولم نغتسل نحن بالزاهر فقد أخذنا ماءنا في القِرَب إلى أن جئنا ذا طـوى وأنخنا الرواحل حتى اغتسلنا غسلاً خفيفاً كما هو سنة المحرم، وصلينا العصر هناك، وسرنا عامدين مكة المشرفة ودخلنا من باب المعلى، وهو الثنية العليا التي دخـل منها صلى الله عليه وسلم المسماة بكدا، بالفتح، وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة، ومع ذلك ففيها صعوبة، ومنها يشرف على مقبرة مكة المُسَمَّاة بالحجون[1]، وهي إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض كما ورد في الأحاديث[2].

---

(1) الحجون: مقبرة أهل مكة تجاه دار أبي موسى الأشعري: معجم ما استعجم 1:427.
(2) تفسير القرطبي 12:265.

ذكر دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفاً وتعظيماً

دخلنا مكة عشية يوم السبت خامس يوم من ذي الحجة وأول يوم من السمائم كفانا الله شر حرها، ودخل الركب المصري قبلنا في اليوم الرابع، ودخل الركب الشامي في السادس وبعضه في السابع، وكانوا لقوا من الحرامية شدة في الطريق حتى كادوا أن يتعوقوا، ودفعوا للأعراب مالاً كثيراً نحواً من مائة ألف بعدما انتهب من ركبهم كثير وقتل أناس. ثم دخل ركب العراق يوم الثامن بعدما رحل الناس إلى منى، ولما نزلنا من التنية أنخنا الركاب بالحَجُون[1] وسط المقبرة للضرورة، وحططنا الرحال بين القبور إذ لم نجد مكاناً سوى ذلك، والأركاب قد ملأت خيامهم السهل والوعر، ولم يسلم إلا أماكن القبور المبنية أو المحوط بها، والله يغفر لنا ما اقتحمنا من ذلك، واستأنسنا بقول من أجاز ذلك من الأئمة مطلقاً، وبقول من أجازه في القبور الداثرة مع الضرورة الملجئة لذلك.

وبعدما حططنا الرحال وجمعنا الأثقال، حان وقت الاصفرار وقوي الشوق لقُرْب المزار، فقال البعض: لو تأخرنا حتى تغيب الشمس وتحل النوافل فلا يقع بين الطواف وركعتيه أمر فاصل، فعصى داعي الشوق منا أوامره، ولم يعبأ بما أبدى لهم من حجة ظاهرة، فقلت لهم: إن الخطب سهل في ذلك، فلم تضق فيه المسالك؛ فإنا لا نفرغ من الطواف حتى تحل النافلة، فلا يقع الفصل إلا بصلاة المغرب الفاضلة، والفصل بمثل ذلك مغتفر، فما هو إلا كمن دعا بعد الطواف واستغفر، مع أنا لو صليناهما قبل المغرب لم يكن فيه كراهة، ولم نأت أمراً تطلب عنه النزاهة لفرضية طواف القدوم، والركعتان تابعتان له كما هو المعلوم. فذهبنا نؤم البيت الحرام، واثقين بنيل كل مرام، وجئنا إلى المسجد وقد حان الغروب وكادت تطير من الفرح القلوب، فدخلنا فرحين مستبشرين من باب السلام، وشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام، وقد تولت[2] أستاره وأشرقت

---

(1) الحَجُون: موضع بمكة عند المحصب، هو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذي يلي شعب الحرارين إلى ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف: معجم ما استعجم 1:426.
(2) في ط: تدلت.

أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون ذلك به من أول ما تقدم الوفود، ولا يطلقون الأستار حتى تعود[1]، وقد قلت في هذا المعنى وأبديت فيه تشبيها غريب المبنى[2]:

[كامل]

فكأنــــهُ لمـــا بــــدَا مُتـــشَمرا والطـــائِفونَ بـــهِ جميعـــا أحْـــدقُوا

ملكٌ همـــامٌ نـــاهِضٌ للقـــاءِ مـــنْ قـــد زارهُ ولـــهُ إليـــهِ تـــشَوُّقُ

فتبـــادرَ الغلمـــانُ رفْـــعَ ذُيولِـــهِ حـــتى إذا رجَعُـــوا جميعـــا أطْلقُـــوا

ومن رأى أكابر الملوك عند قيامهم، وتشمير الغلمان لفاضل الذيول عن يمينهم وشمالهم، علم غرابة هذا التشبيه وحسن موقعه، وأنه واقع في موضعه، وعلم ما بينه وبين من شَبَّهه بهند وليلى، وأنه لم يجد وصفاً ولم يُحسن قولاً. فلما وقعت عليه أبصارنا، وافتضح ما أكنت من الشوق إليه أسرارنا، اقشعَرَّت جلودنا من هيبته، وذهلت العقول من عظمته، فلم نزد على أن بَسْملنا وسلمنا وهللنا، فقصدنا باب بني شيبة للدخول منه، ولم نحد يميناً ولا شمالاً عنه، وتيمَّمنا الحجر الأسود فقبلناه، وطفنا طواف القدوم وأتممناه، ولم نبال بما نالنا في تقبيل الحجر من الازدحام، والمورد العذب كثير الزحام.

وبعد الطواف وقفنا بالملتزم، وشربنا من ماء زمزمٍ، ودعونا الله تعالى، فحانت صلاة المغرب وقدمناها على ركعتي الطواف تحرياً للخروج عن وقت النهي مع قلة الفصل، فلما فرغنا من الصلاة صَلّينا ركعتي الطواف وقَبَّلنا الحجر الأسود وخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، وبدأنا بما بدأ الله به، تبارك وتعالى، فوقفنا على الصفا، ثم أتينا المروة في زحام كثير في السعي لأنه من أسواق البلد العظيمة فيتضَرَّر الساعي بذلك كثيراً، ولو قيض الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير. وما كدنا نفرغ من السعي إلى قرب العشاء، فدخلنا المسجد وصلينا العشاء، ثم رجعنا إلى مترلنا بالحجون ملبين،

(1) جاء في رحلة ابن بطوطة في هذا الشأن: وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمر أستار الكعبة زادها الله تعظيما إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع، صونا لها من الأيدي أن تنتهبها، ويسمون ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة: رحلة ابن بطوطة 1:186.

(2) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم العياشي الأديب المتصوف، ص: 507.

وبتنا به حتى طلع الفجر، وتوضأنا وجئنا لصلاة الصبح بالمسجد الحرام، فطفنا وصلينا وبقينا بالمسجد حتى حلت النافلة، وطفنا واكترينا منزلاً بقرب باب إبراهيم أحد أبواب الحرم الشريف من عند صاحبنا الشيخ محمد القرامسي باثني عشر ريالاً، ونقلنا إليه أكثر حوائجنا وما نحتاجه لخزنه حتى نرجع من عرفة. ولقينا في ذلك اليوم شيخنا العلامة الماهر الفهامة أبا مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري المقرئ المجاور بحرم الله وحرم رسوله، فوجدته في غاية الضعف من مرض كان به قبل ذلك شفاه الله وعافاه.

وبتنا في المترل الذي اكتريناه ليلتين لقربه من المسجد اغتناما للطواف بالليل فإن الطواف بالنهار كالمتعذر من شدة الحر، مع ما لا بد منه من الأشغال، وتركنا الخباء والإبل ﴿تلك الليالي﴾[1] بمترلنا بالحجون، يبيت فيه بعض أصحابنا، ولقوا من أذى السراق بالليل شدة؛ فإنهم يهجمون على الناس هجوماً ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم في ذلك، وقد قيل إنهم يأخذون منهم جُعْلاً[2] على ذلك في أيام الموسم، فإذا أتي إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس، فإذا جن الليل أخرجوه. وأما في غير الموسم ففي تلك البلاد الحكم التام الذي لا يوجد في بلد من البلاد، ويعتلون في أيام الموسم باختلاط الناس من جميع الآفاق، وتعدد الحكام؛ إذ لكل ركب حاكم، ويقولون لو أطلقنا اليد في الحكومة على كل سارق ربما وقعنا في بعض خدام أمراء الأركاب فيؤدي ذلك إلى الهرج في أيام الموسم، وتلك حجة ضعيفة.

فلما كان اليوم الثامن خرجنا من مكة ضحى وجئنا إلى محل الإبل والأخبية بالحجون، ونزلنا هناك حتى زالت الشمس، وارتحلنا لأنَّه السنة، وجئنا لمنى وقت صلاة الظهر، ومررنا بمسجد العقبة ودخلناه، وصلينا ودعونا الله تعالى، وكان نزولنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير، وصلينا الظهر في مسجد الخيف جماعة وجلسنا فيه ننتظر صلاة العصر، فلما أذَّن المؤذنون وأقيمت الصلاة أحرمنا مع الإمام، وكنت عند إرادة الإحرام أختلج في خاطري أن الإمام لعله حنفي يصلي بالإتمام، ولا أدري بماذا أحرم، قلت: أحرمت بما أحرم به الإمام من قصر أو إتمام،

---

(1) ما بين قوسي ساقط من ط.
(2) الجعل: الأجر على الشيء: لسان العرب: جعل.

وكان الإمام كما ظننا حنفياً وأتم الصلاة، فلما فرغنا أمرت بالإعادة كل من صلى معه من أصحابنا ونوى التقصير، فأعادوا.

وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات، وذلك دأبهم منذ أزمان، فقد قال الحطاب[1]: وهذه السنة، أعني المبيت بمنى هذه الليلة قد أُميتت منذ أزمان. وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين، كابن رُشيد[2] والعبدري[3] ومن بعدهما، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب.

وقد مَنَّ الله على المغاربة بإحياء هذه السنة في كثير من السنين ولم يفتنا في حجة من الحجات، ولله الحمد، فلما رأى بعض المغاربة كثرة من ذهب إلى عرفات من الناس أخذوا يرتحلون وقالوا: لعل هذه الليلة هي ليلة عرفة، ولعدم علمهم بأن ذلك دأبهم كل سنة ظنوا أن الذاهبين إنما ذهبوا إلى عرفة في ذلك اليوم لبلوغ الخبر إليهم بسبقية رؤية الهلال، فقالوا الأحوط أن نذهب إلى عرفة لنحصل به الوقوف إن كانت هذه ليلته. فقلت لهم: إن وقوفكم بها الليلة على الشك لا يجزئ، لأنكم لم تقفوا بنيّة أنها عرفة، فهو كمن صام يوم الشك احتياطاً، فلا يجزئه، ولسنا بمأمورين باتباع الشك في مثل هذا، سيما الشك الذي لا مستند له مثل هذا، وإنما هو تجويز عقلي، فقد جاء الناس من أقطار الأرض مسير تسعة أيام من كل جهة ولم يخبر أحد برؤيته، فمنهم من أقام معنا ومنهم من ذهب، ومن رأى مثل رأينا بات هناك حتى أصبح.

وارتحلنا عند طلوع الشمس ومررنا بالمشعر الحرام واستقينا منه ما نحتاج من الماء للغسل والشرب، وسرنا حتى نزلنا بنمرة[4]. وكان خروجنا من بين المأزمين[5]، وكُنَّا فيما قبل ذلك من السنين ربما مررنا بالطريق اليُمنى من وراء الجبل حتى نأتي

(1) محمد بن عبد الرحمن الحطاب الأنصاري، من فقهاء المالكية، له شرح على مختصر خليل، توفي سنة 953 هـ: لقط الفرائد، ص: 299.
(2) ملء العيبة، ص: 87.
(3) رحلة العبدري، ص: 195.
(4) نمرة: ناحية بعرفة نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل نمرة: الجبل الذي عليه أنصاب الحرم عن يمينك إذا خرجت من المأزمين تريد الموقف حيث ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: معجم البلدان: نمرة. معجم ما استعجم 4:1334.
(5) المأزمان: موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عرنة: معجم البلدان: المأزمان.

نمرة، وتلك الطريق أسهل وأوسع وأبعد عن الزحمة، إلا أنّ فيها طولاً، ولشدة الحر في هذه السنة آثرنا هذه لقصرها، وقد قال بعض العلماء إن النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذهابه مر على تلك، وفي إيابه مر على هذه، ولا أستحضر الآن من ذكره.

ثم ضربنا الخيام للقيلولة خارج نمرة، وتلك السُّنة، فلما زالت الشمس اغتسلنا للوقوف[1] وصلينا الظهر والعصر جمعا بعد خطبة بديهية[2] ارتجلتها مقتصراً فيها على ذكر المحتاج إليه مما استقبلنا من المناسك غير متكلف للسجع، قصد إقامة تلك الشعيرة لأنا لم نصل مع الإمام في المسجد للزحام والحر الكثير.

ثم ارتحلنا وذلك يوم الأربعاء، وذهبنا إلى عرفات ووقفنا شامي القبة التي على الجبل من ورائها مستندين للجبل الصغير الذي فوقه. وبعد ما أخذنا في الاستغفار والدعاء ونحن واقفون على إبلنا، واشتد الحر، ثم مَنَّ الله بسحابة صبت على الواقفين سجلا من ماء كسرت سَورة الحر وابتلّت منها الأرض والثياب، وانطفت جمرة الحر وأعقبها نسيم بارد بقية اليوم، و لم نزل واقفين في محلنا حتى جاء الخطيب وذهبنا إلى محل الخطبة لاستماعها، فلم نتمكّن من سماع حرف منها لكثرة الأصوات واختلاطها، وازدحام الخلائق على اختلاف لغاتها وتباين مطالبها، فطلعنا إلى جبل الرحمة[3] حيث القبة المنسوبة لآدم عليه السلام، ووقفنا فيه ساعة، ثم جئنا إلى الصخور التي قيل إنها موقفه عليه السلام وليس به، فوقفنا بها ساعة، و لم نزل كذلك ننتقل من موضع إلى موضع رجاء بركة الواقفين حتى غابت الشمس ونفرت المحامل والأمراء بعساكرهم، ونفر غالب الناس معهم، وتأخّرنا بعدهم هنيئة لأخذ الجزء الواجب من الليل في ذلك المكان إيثاراً للسنة، وإلا فالنافرون عند الغروب لا يخرجون من الحل حتى يتحقق دخول الليل، ومن لا يبالي من الجمالين كثير منهم نفروا قبل الغروب، واستقينا الماء من عرفات للشرب والوضوء بمزدلفة، إذ لا ماء في محل المبيت منها. ثم نفرنا في أخريات الناس و لم نَرَ

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: بديعية.
(3) قال ابن بطوطة: بين منى وعرفة خمسة أميال، وكذلك بين منى ومكة أيضا خمسة أميال، ولعرفة ثلاثة أسماء وهي: عرفة وجمع والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح تحدق به جبال كثيرة، وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحد ما بين الحل والحرم: رحلة ابن بطوطة 1:187.

بفضل الله زحاماً ولا ضيقاً حتى خرجنا من بين المأزمين بعد مغيب الشفق، وعدلنا يمينا واستندنا للجبل ونزلنا وجمعنا الصلاتين وبتنا والتقطنا الجمار، فلما غاب القمر أخذ السراق يرموننا بالأحجار من الجبل لقربنا منه[1]، وكان ظنهم أنهم يخرجوننا من الرحال بذلك فيصادفوا فرصة، فكفانا الله شرهم، وبتنا بمنزلنا حتى طلع الفجر وتوضأنا وصلينا وارتحلنا غير مغلسين؛ لأنَّ ضوء الفجر لم يستبن لنا حتى انبهر جداً وارتفع لأننا تحت الجبل، وجئنا إلى المشعر الحرام وقد كادت الشمس أن تصفر فوقفنا به قليلاً داعين ومكبّرين.

ثم سرنا فأنخنا بالماء الذي عنده للسقي، لأن الماء بمنى لا يوجد، وهناك تركت الرحل وتقدمت مع بعض الإخوان راجلا إلى مكة عسى أن ندرك البيت مفتوحاً، وسرنا حتى جئنا وادي النار وأسرعنا به، وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض، وبهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك، خليل المكي[2]، حسبما نقله عنه البلوي[3] في رحلته إذ سأله عن حده.

ولم نسرع فيه في ذهابنا، وإن قال به بعض العلماء لأنه لم يتمكن لنا ذلك ونحن راكبون، ولم يتيَسّر النزول فمضينا كذلك على الطريق الكبير التي تشق منى حتى أتينا جمرة العقبة ورميناها بسبع حصيات من أسفلها، وملنا إلى الحلاقين الذين هناك وحلقنا، وكان أهمني أمر الحلق لأن الحلاقين في ذلك اليوم خصوصاً أول الوقت، يكثر الزحام عليهم فلا يستوعبون الرأس بالحلق ولا يحسنونه، ويكتفي منهم أكثر الناس بذلك، فإذا حلقوا ناحية من الرأس وبعضها قالوا: يكفيك هذا فقد أحللت طلباً للتفرغ لآخر استكثاراً في الأجرة، فيصدقهم كثير من الناس في الاكتفاء بذلك، وقد مَنَّ الله علينا برجل من أهل مصر عليه سيما الخير، فحلق لنا كما ينبغي ودفعنا له أجرته. ثم ذهبنا كذلك ونحن نخاف أن لا ندرك البيت مفتوحاً، ولا شيء أهم عندي من ذلك حتى دخلنا المسجد الحرام فوجدنا البيت مفتوحاً فقصدناه وقدمنا دخوله على الطواف خشية أن يفوت فلا يمكن تداركه،

---

(1) في ط: منها.

(2) خليل المكي المالكي، إمام المالكية بمكة المكرمة، توفي سنة 760هـ: الوفيات 2:222.

(3) ذكر البلوي في رحلته لقاءه بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عمر المكي المالكي المشتهر بخليل، وأكد استفادته "في مناسك حجه تفقها ومعاينة بين يديه"، ولم ترد إشارة العياشي في رحلة البلوي: تاج المفرق 1:313.

فيسَّر الله دخوله بلا كلفة ولا مشقة ولا سوء أدب، و لم ندفع أجـــرة في ذلـــك لأحد، فوجدنا به بعض زحام وصلينا إلى جوانبه الأربع، وغلبنا الحر من شدة الحر فيه لكثرة ازدحام الناس، ودعونا الله تبارك وتعالى فيه بما أطلق ألسنتنا به من خير الدنيا والآخرة، ودعونا لإخواننا ومن خلفناه في الرحال وكفانا مئونتها حتى فزنا بهذه البُغية.

ثم هبطنا و لم تطل مدة فتحه بعد هبوطنا وإنما يفتحونه في هذا اليوم لتعليـــق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة وليس بيوم دخول عام، وإنما يدخل القيم وأمـــير الحاج المصري وأتباعهما المعنيين في ذلك، ولا ينصب سلم للدخول وإنما يـــدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفّة أعضاء، وعلى الباب أحد خُدَّام الأمير يمنع الناس من الدخول، إلا أن الناس يكاثرونه، فإن منع من جانب دخلوا من جانب آخر، وربما يتعامى عن البعض، ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب مـــن ضرب وشتم بالألفاظ يتره المكان منها، فالأولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفوا صفوا من غير إيلام، وقد منَّ الله العظيم بدخوله بعد ذلك مرات متعددة بلا كلفة ولا مشقة، ولله الحمد حمدا كثيرا. ثم بعد الخروج شربنا من ماء زمزم، و لم نسع لأنا سعينا إثر طواف القدوم كما هو السنة.

لطيفة:

وكثير من العوام يظن أنه يلزمه سعي آخر إثر الإفاضة، وبعض المتفقهة أفتى من لم ينو فرضية طواف القدوم بإعادة السعي اقتداء بظاهر قول المختصر: ونوى فرضيته، وإلا فدم[1]. والتحقيق أن شروط السعي وقوعه إثر طواف، أي طواف، وكونه فرضا إنما هو واجب يجبر بالدم ولا يلزم منه بطلان السعي، ومعنى الفرضية كونه يتوقّف عليه صحة السعي لا كونه فرضاً في نفسه، وهذا القدر يعلمه كـــل من له أدنى معرفة بالمناسك، وإذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى إثر طواف القدوم، ولو لم يستحضر نية فرضيته إذا كان عالماً بذلك، فإن نية الإحرام كافية في الحج لأنه عبادة واحدة، ولا يشترط فيه إفراد نية لكل جزء منـــه، كالـــصلاة وتمييز الفرائض من غيرها أمر مختلف في كونه شرطاً في صحة الصلاة أم لا، والحج

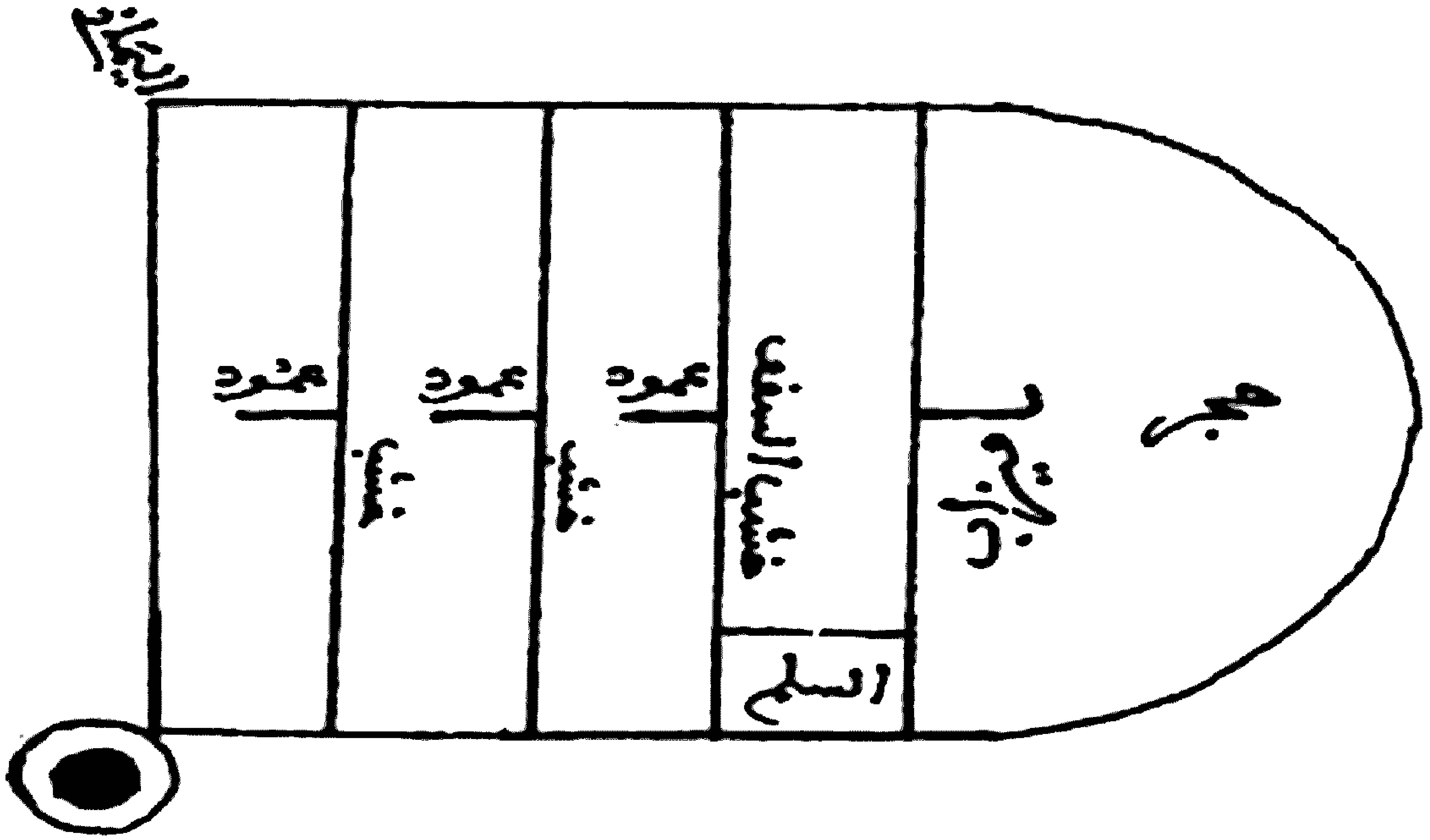
(1) مختصر خليل، ص: 81.

أوسع من الصلاة، ولا إعادة عليه أيضا لو جهل فرضية طواف القدوم، لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه إثر طواف، وهذا واقع إثر طواف، فإن كان عالما بالتلازم بينهما فلا دم أيضا إذ ذلك القدر هو المعبر عنه بالفرضية، وإلا فدم. هذا ما حققه بعض المشايخ وأدلة ذلك يطول سردها، وكثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق ويشغب على الناس بإلزامهم الإعادة ويقول: لا بد من إفراد نية لطواف القدوم إنه فرض وإلا بطل السعي، والعجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا في صحة السعي ولا يجعلونه شرطاً في صحة الطواف ذي النية، فتكون نية الفرض في ركن شرطا لركن آخر لا له، والشرط إذا لم يؤثر عدمه في محله كيف يؤثر في محل آخر، فشد يدك على ما ذكرنا من التحقيق، ولا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصر، والله تعالى أعلم.

ولما فرغنا من الطواف وتوابعه ملنا إلى ظل المسجد وجلسنا للاستراحة، وقد تعبنا غاية في مجيئنا لأنا أسرعنا المشي والوقت وقت حر.

لطيفة:

صفة البيت العتيق، زاده الله شرفاً: من داخله بيت مُربَّع، ونقص من الركن الذي عن يمين الداخل مقدار السلم نحو ثلاثة أذرع، يصعد منه إلى السطح، وأرضه مفروشة بالمرمر الملون المجزَّع، مكسو الحيطان والسقف بكسوة على هيئة الكسوة الخارجة في الصنعة والكتابة، مخالفة لها في اللون، فإن الخارجة سوداء كلها والداخلة بياض في حمرة، وفيه مصابيح كبيرة معلقة، بعضها من الذهب وبعضها من البلار الأبيض الصافي المكتوب بلون أزوردي، وله ثلاثة أعمدة من خشب مصطفة في وسطه ما بين اليمين والشمال، وكل عمود منها قد سمرت عليه ألواح من عود من أسفله مقدار وقفة، وهذه صورته:



والخشب المسقف به الذي عليه اللوح ذاهب من ناحية الباب إلى الجهة المقابلة له، أحدهما رأسه على رأس السلم، وهو أقربها لجدار البيت، وليس بينه وبينه إلا مقدار ما يصلى فيه، والثاني بينه وبين الباب، والثالث عند الباب. وقد أمعنت النظر فيه، وإن كان ذلك سوء أدب يغتفر ذلك لمن لم يكن قصده التفرج وأراد الوقوف على حقيقة الأمور[1]، والله يغفر ويتقبل.

ثم رجعنا إلى منى ونحن على أشد ما يكون من العياء والتعب، وجلسنا مراراً في الطريق وتوضأنا، من البركة التي بين مكة ومنى، وجئنا لمسجد العقبة وجلسنا فيه ساعة وصلينا فيه الظهر، وقد اختلف في صلاته، صلى الله عليه وسلم، الظهر يوم النحر؛ فقيل بمكة وقيل بمنى، وهو قول الأكثر. وهذا المسجد هو المكان الذي بايع فيه الأنصار، رضي الله عنهم، بيعة العقبة[2]، فهو من المساجد المنسوبة إلى

(1) في ط: الأمر.

(2) بيعة العقبة: ذكر صاحب الكامل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على القبائل كما كان يفعله، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام... فأجابوه وصدقوه، وقالوا له: إن بين قومنا شرا وعسى الله أن

النبي، صلى الله عليه وسلم، المتبرك بها، وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء، وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى.

ثم جئنا إلى منازلنا بمنى، وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به سورة المرسلات على النبي، صلى الله عليه وسلم، وخبره مذكور في الصحيح، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير والناس يقصدونه للصلاة فيه والدعاء، وهو في أصل جبل ثبير[1] بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر، وكان نزولنا في هذا المحل إيثارا لقرب هذا المكان وقرب المسجد مع كونه أنظف وأوسع وأقرب للجبل الذي يشرف منه على منى كلها، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق، فيستجير بعضهم ببعض، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس ولا يبالون بما نالهم في ذلك من وطء الأقدام وتقطيع الحبال وتعفّن الأرجاء وانتشار الروائح الكريهة، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جنب هذه المضار، وكان مترلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها، وقد ذبح في منى، في ذلك اليوم والذي بعده، من الغنم والبقر[2] ما أحسب الغني والفقير، وكفى الوارد والمستوطن، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم والجلد والساقط والأكارع، فلا ترى أحداً يأخذها، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك لم يمسه الناس، فمن الفقراء من يأخذ نحواً من عشرة من الغنم فيبيعون لحومها بأرخص ثمن وييبسون ما قدروا عليه؛ ضيافة الله الملك الحق الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى، أغنياء وفقراء، فأكل الكل من ضيافة مالكهم وتزودوا ما قدروا، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام، فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها، والمرجو بل المحقق من كرم الملك الوهَّاب ذي الطَوْل، كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التي صيرت الفقير كالغني في أيام الضيافة، كذلك أو

يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عنه، وكانوا سبعة نفر من الخزرج، فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوه: الكامل 1:610.

(1) ثبير: من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة، سمي ثبيرا برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به: معجم البلدان: ثبير.

(2) في ط: البقر والغنم.

أعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة وقبول الدعاء، وأجزل المثوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال وما ينال بقياس ومثال، فما أسعدنا به من رب كريم منعم متفضل وهاب جواد محسن متطول، لا إله إلا هو ملك الملوك ورب الأرباب، ولا يهلك على الله إلا هالك، نسأله سبحانه أن يعمنا بفضله وكرمه، ويتحفنا برضوانه، ويعاملنا بإحسانه، آمين.

وبتنا بمنى تلك الليلة في نعمة كاملة ورحمة من الله شاملة، ثم في الغد عمرت الأسواق وكثر الإنفاق وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان، وأكثر التجار يقولون: إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته وظهرت له ثمرته، ولا يبعد ذلك فإنه موسم شريف ومحل بركة يأتيه الناس من كل فج عميق (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام)[1] وقد عمهم الله فيه من أمر دنياهم وأخراهم[2] بغاية الإنعام.

ولما زالت الشمس خرجنا لرمي الجمار مبتدئين بالأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم بالوسطى، ثم ذات العقبة، واشتد الحر ولم نطل في الوقوف إثر الأوليين القدر المذكور، فوقفنا طاقتنا مجتهدين في الدعاء، وبعد الفراغ من الرمي جئت لمنزل أولاد شيخنا تاج الدين[3] فوجدت عندهم شيخنا سيدي عيسى الثعالبي، وجلست عندهم برهة حتى صليت العصر وأحضروا طعاما جيدا، وأخذنا منه حاجتنا.

ولأهل مكة، خصوصا الأكابر من أهل الوظائف؛ كالعلماء والأمراء والتجار وأكابر البلد، منازل بمنى ينزلونها أيام الموسم متقنة البناء، غالبها مشرف على السوق، فيها غرف عالية ومطابخ ومرافق، و ربما نزلوها في بعض الأحيان في فصل الربيع، فصل التفرج. ومنزل شيخنا تاج الدين المالكي هذا من أحسن المنازل، له مصطبة مونقة بجانب الطريق لها شبابيك، بينما نحن بها جالسون إذ مر

(1) الحج: 28.
(2) ساقط من ط.
(3) تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المكي، قاضي مكة، خطيب أديب عالم، له عدد من الرسائل في العقائد، توفي سنة 1066: خلاصة الأثر 1:470. شجرة النور الزكية 1:439.

أمير مكة الشريف زيد[1] في موكبه، وله شارة حسنة، معه طائفة من الأشراف والجند ذاهبا لرمي الجمار، قد ظلل على رأسه بمظلة كبيرة من حرير كأنها قبة خباء يحملها فارس بجانبه، يسايره وهو في ظلها والناس يحيونه عن اليمين والشمال، فالعوام يقولون في تحيتهم: نصرك الله يا زيد، والخواص يقولون: السلام عليكم، وهو يرد على كل من حياه من وضيع وشريف ولا يهمل أحدا ويشير برأسه إلى كل من حياه، وذلك لشدة تواضعه، رضي الله عنه، وهو رجل أسمر اللون أبيض اللحية سمح الوجه، ضرب من الرجال إلى النحافة أميل، وأثنى من حضر المجلس عليه كثيرا في سيرته وعقيدته، وأثنى عليه شيخنا أبو مهدي.

وهذا الأمير من أحسن أمراء عصره سياسة وحسن تدبير، ولم تزل الإمارة في أسلافه منذ أعصار متطاولة، وأسلافه هم المشهورون بآل أبي نمي، وهو بطن من أبي حسن، وإخوانهم بنو حسين لهم إمرة المدينة وولاية الحجاز الآن بأطرافه من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة، ثم إلى خيبر[2] مما يلي ناحية الشام، ثم إلى الينبع كلها للأمير زيد بن محسن وأسلافه، وليس لبني حسين في ولاية المدينة في هذا الزمان إلا الاسم فقط وبعض تصرف من تحت يد الأمير زيد.

وكان هذا الأمير فيما مضى على معتقد أهل بيته كاعتقاد الزيدية، ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، وحسن اعتقاده في علماء السنة، وبالغ في تعظيمهم وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة، ومنعهم من إظهار معتقداتهم، وقد بلغنا أنهم اجتمعوا ذات يوم ولاموه على رجوعه عن مذهبهم فقال لهم: ألا يكفيكم مني أني لم أجبركم ولم أقهركم على الرجوع عما أنتم عليه؟ إنما هو دين لا يسع المرء فيه إلا اعتقاد ما هو الحق واتباع ما رأيت وتبين لكم ما تبين لي، فينبغي أن ترجعوا إلى الحق والهدى، وإن لم تروه فـ: (لكم دينكم ولي دين)[3]، فمن ذلك اليوم أيسوا منه. وقد استفاض على الألسنة أنه من الأولياء لما يرون من إجابة دعوته وكثرة

---

(1) الشريف زيد: زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي، أمير مكة، ولد فيها سنة 1014، ووليها سنة 1041 هـ، وحسنت سيرته، حدثت في أيامه فتن تمكن من إخمادها، واستمر في إمارته إلى أن توفي بمكة سنة 1077 هـ: خلاصة الأثر 2:176.تاريخ أمراء المدينة المنورة ص: 345. الأعلام 3:60-61.

(2) خيبر: بينها وبين المدينة ثمانية برد: معجم ما استعجم 2:523. معجم البلدان: خيبر.
(3) الكافرون: 6.

عبادته وشدة تواضعه، وإن كان في تصرفات عماله لا تخلو من جور في الأموال كما شأن ولاة العصر، وقد أخبرني من أثق به أنّه كان ذات يوم دعا بعض عماله ليذهب إلى خليص في أيام الموسم فيجلس فيها مع طائفة من عسكره ردعاً للصوص وتأميناً للسبل كما هو شأنه في سائر الطرقات أيام الموسم، فاعتذر العامل بأنه مريض، ولا مرض به، فألح عليه في ذلك فقال: إني مريض لا أقدر، فقال له: إن كنت صادقا فشفاك الله، وإن كنت كاذبا فأماتك الله، قالوا: وكان ذلك صبحا فلم يأت الظهر حتى مات ذلك العامل. وأمثال هذا من إجابة دعواته كثير حتى كانت أعراب الحجاز تقول: نخاف من دعوة زيد أكثر مما نخاف من سيفه.

ومن محاسنه أنه لم يقتل قط أحداً من أهل بيته مع كثرتهم وكثرة خروجهم عليه وسعيهم بالفساد في ملكه، ولكن كل من أحس منه ذلك يقول له لا تسعك بلادي، فيخرجه من مكة، فلا يزال يحارب مع الأعراب ويسعى في إفساد المملكة حتى يذهب ما بيده من الأموال فيرجع إليه صاغرا حتى أيسوا من القيام عليه، فأذعنوا له، وكثير من العوام يقولون إنه قطب لأنه مكث في ولاية مكة أكثر من ثلاثين سنة. قالوا: ولا يمكث ثلاثين سنة في ملك مكة إلا القطب، ولا أدري من أين لهم ذلك، والغالب أن الله تعالى لا يمكن من حرمه الأمين وبلد نبيه المكين هذه المدة المتطاولة، مع حسن دفاعه عنه وكفاية أعدائه، إلا من عنده مكانة وله به عناية، مع ما من الله به من حسن الاعتقاد والإكثار من العبادة والطواف بالليل في غمار الناس حيث لا يعرف، وكثير من الناس ربما وسموه بالبخل. وقد أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه على خلاف ذلك وأنه يعتمد بصدقاته ومعروفه الأخفياء من العلماء والأتقياء ممن ليست له وظيفة معلومة، ويبعث لهم وإلى الفقراء من معروفه بليل، بحيث لا يشعر بذلك إلا خواص أصحابه. وأما أهل المناصب والوظائف فلا ينالهم من معروفه إلا القليل فيسمونه لذلك بالبخل.

ومن محاسنه تورعه عن سفك الدماء مع شدة بسالته بحيث تضرب به الأمثال في الشجاعة في حروبه، وأكثر ما يعاقب بالمال، إلا في حد من الحدود، وكثير ما يقع من عماله ما يخالف الشرع في الجباية ويبالغون في ظلم الرعية، ولم ير في أحواله ما يغمص عليه إلا هذا. وأما ثناء الناس عليه فأكثر من هذا كله، وأهل الحجاز يرون أنهم تحت جناح العافية وفي ظل الأمان ما دام حيا، ويفدونه بآبائهم وأمهاتهم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يطيل بقاءه، ويشيد في الدارين بناءه،

ويديم عزه لحماية حرمه الأمين بجاه النبي المكين، صلى الله عليه وسلم وعلى آلــه وصحبه أجمعين آمين.

ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقاد المصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنـــادق والمحارق المرتفعة في الجو، وفعل مثل ذلك السلطان زيد، وفي ذلك نزهة للأبصار وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والأذكار، والقبول والإنكار، مترل جمع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق بالنهار فصوصه المونقة[1] وبالليل مصابيحه المشرقة، ومما يناسب ذكره هنا ما قلته ونحن في هذا المكان بمنى سنة أربع وستين وألف[2]:

[بسيط]

لنا عليكَ بمحْضِ الفضْلِ حق قِــرى ... لألزَمَنَّـــك أو تقـــضِيَ لي حَقـــي

مُنَّ وجُـــدْ مالِـــكَ المُلــكِ بمغفِــرَة ... لا تَذرُ الرتْبَ في صُحْفي ولا تُبقِــي

غرسْتَ في قلبيَ الإيمانَ من صِــغَري ... يا ذا التفَضُّلِ مــا غرســتَهُ فاسْــقِ

فابْسُطْ عليَّ منَ الأرزاقِ أكثرُ مــن ... ما قد سألتكَهُ يـــا باسِـــطَ الــرزْقِ

غرقتُ في بحْرِ جهلِي ورجوتُ نَــدا ... عفْوكَ يُنْقذني مـــن لُجــة الغَــرقِ

مددْتُ نحوكَ كفَّ الفقرِ مُنّ علـــى ... ضَعفي بصِدْقِ الغِنى عن سائرِ الخلقِ

فاعْتِقْ من النارِ والأغيَــارِ أجْمَعهــا ... رقي فإنـــكَ قـــد أمــرتَ بـــالعِتْقِ

أمدَّني منك بالـــسر الخفِـــيِّ وكـــنْ ... لي مَوئِلا سيدي في الجَمْعِ والفــرْقِ

وكنْ مُجيبا دعائِي أنتَ أكرمُ مَــن ... مُدَّتْ إليهِ يدٌ في الغـــرب والـــشرْقِ

بجَاهِ أحمـــدَ خـــيرِ الخلـــقِ قاطبَـــة ... عليهِ أزكَى صـــلاة الملـــكِ الحَـــق

وقد طلعنا إلى فوق مترلنا بسفح الجبل نشرف منه على منازل الحاج كلها، وبقينا هناك في ليلة مقمرة مطربة مزهرة كأنها نهار مشمس قد شابه زهر الربـــا،

(1) في ط: فساطيطه.
(2) وردت القصيدة في الثغر الباسم، ص: 212.

نتمتع برؤية تلك العجائب ونستمطر رحمة الله من كل جانب، وصلينا هنالك[1] المغرب والعشاء، ولم ننزل من ذلك المحل حتى ذهب هزيع[2] من الليل، وبتنا تلك الليلة في أرغد عيش بارد وأصفى سرور وارد، لولا تشويش السراق علينا برمي الأحجار بعد مغيب القمر، وذلك في جنب ما حصل لنا من النعيم ليس ضرر. وبالجملة فليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان، ومحال بركة وعافية وأمان يتجلى فيها الحق لوحده بصفة الجمال جزاء لرضاهم، قبل ذلك يتجلى الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من الشدائد في جنب ما حصل له من النعيم والفوائد، وفي وصف هذه الليالي وما قبلها قلت من جملة أبيات في قصيدة لي مدحية أولها[3]:

[مجزوء الكامل]

لا شَيءَ أذْهَبُ للجُرم مِنْ أن تُنيخَ لدى الحَرمْ
حيث القِبابُ البِيضُ تلْمَعُ مِثلَ نارٍ في عَلمْ
بينَ المُحصَّبِ والحَجُونِ فذاكَ دِرْياقُ[4] السقمْ

ومنها:

وهناكَ يُمكِنُك التَّردُ للحرمِ المحترمْ
فاقصِدْهُ مِن بابِ السلامِ وأمَّ ركناً مُستلَمْ
قبِّلْ وطُفْ واركَعْ وسِرْ للسَّعْيِ بعْدَ المُلتَزَمْ
قِفْ بالصَّفا وبمَروة والسَّعْيَ بينهما انْحَتمْ
وارْجِعْ لزمْزمَ تَطْفِ ما وسْطَ الجوانِحِ من ضَرَمْ
واشْرفْ عليكَ التاجَ مُرْتفقاً وفوقَ البدْرِ نَمْ

(1) في ط: هناك.
(2) في ط: هجيع.
(3) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 234.
(4) الدرياق: الترياق: لسان العرب: درق.

كُــــل المُنَــــى بِمِنًــــى إذا ... مـــا جئتَهـــا تَكفِـــي الـــنقَمْ
أكـــرِمْ بـــهِ مـــنْ مَنْـــزِل ... فإليــــهِ تَجتمــــعُ الأمَــــمْ
فيــــهِ تـــشابَهتِ الـــسَّما ... والأرضُ في دَاجــــي الظُّلَــــمْ
هــــذا بأنجُمِــــهِ أضَــــا ... ءَ وذاكَ بالـــشَّمْعِ اضْــطرَمْ
يـــومٌ بـــأعْلى مـــسْجِد ... للخِيــفِ مــن أزْكــى الــنِّعَمْ
وليلـــةٌ في ذلـــكَ الـــسْـ ... ـــسَفْحِ المُعظـــمِ تُغْتـــنمْ
يــا طِيــبَ عــرْفٍ فــاحَ مــن ... عرفــاتَ يجــذِبُني أَمَــمْ
أكْـــرِمْ بـــهِ مـــن موقِـــف ... هُـــو للخلائِـــقِ مُـــزدحمْ

ومنها:

حـــسْبِي بـــأن أضْـــحى بـــهِ ... لا أبْتغِـــي ظِـــلٌ الخِـــيَمْ
جبـــلٌ عَـــلا فكأنـــهُ ... في أنْـــفِ موقفـــهِ شَـــمَمْ
طُـــوبى لمنـــصرفينَ منْـــ ... ـــهُ بحُـــسْنِ ظَـــن مُلتـــزمْ
نفَـــرُوا لِجَمْـــعٍ في جُمـــو ... عٍ كالـــسحَابِ إذا انـــسجَمْ
بـــاتُوا بـــهِ يُحيُّونـــهُ ... حـــتى إذا الليـــلُ انـــصَرَمْ
ولِمـــشْعَرٍ حَـــرَمٍ غَـــدوا ... يمْـــشُونَ والـــصبحُ ابتَـــسمْ
وقفُـــوا بـــهِ حـــتى بـــدَا ... للـــشمْسِ ضـــوءٌ في علَـــمْ
نفـــرُوا تقـــودهُمُ الـــسعا ... دَةُ مثـــل ســـيْلٍ إن هجَـــمْ
ســـالتْ بأعنـــاقِ المَطِـــيْ ... يِ ذُرى الأبـــاطحِ والأكَـــمْ
مَـــلأوا البـــسيطةَ بالقبـــا ... بِ كـــأنَّهُنْ بـــيضُ الـــنعمْ
بيـــضًا وخـــضرًا بـــين حُمْـــ ... ـــرٍ مثـــلَ عقـــدٍ مُنـــتظمْ

بُـــشرى لمـــنْ يَرْمـــي الجِمـــا	رَ مُكـــــــــــــبرا وأراقَ دمْ
نعْـــــم الـــــذخيرة فعلـــــهُ	يـــــومَ تـــــزلُّ بـــــهِ القـــــدمْ
يـــا حُـــسن عَـــيشٍ نـــاعم	يُـــؤذي القلـــوبَ إذا انـــصرمْ
واجعَـــلْ بمكـــةَ آخـــرَ الـــ	ـــعهْدِ المكـــانَ المـــستَلمْ
وارحَـــلْ بعـــزمٍ نحـــوَ طيـــ	ـــبةَ فـــالموفقُ مَـــن عَـــزَمْ

ثم شرعت بعد هذا في ذكر المدينة ثم مدحه صلى الله عليه وسلم وكلها منسجة تركنا ذكرها بتمامها لطولها.

فلما أصبحنا في اليوم الثالث أخذ الناس في الرحيل متعجلين، ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾[1]، وكثير من الناس رمى في ذلك اليوم والذي قبله قبل الزوال، جهلاً منهم، ولم يرتحل الأمراء حتى زالت الشمس وذهبت المحامل السلطانية وتعجل الناس كلهم، وتلك عادتهم، ولم يبق إلا ركب أهل العراق، وكلمنا أصحابنا المغاربة فأبوا الاستعجال لشراء القماش بمكة ظنا منهم أن بتأخير يوم يفوت غرضهم، ولم يشعروا أنَّ ما فاتهم من ثواب هذه الليلة وإحياء هذه السنة أعظم مما يدركون من الغرض العاجل، مع أنه لا يفوتهم ولو تأخروا، ولم يسعفنا في ذلك إلا أمير ركبنا سيدي محمد بن محمد الحفيان بنفسه وتعجل أصحابه، وصاحبنا الفقيه الأجل القاضي سيدي أحمد الخطيب المراكشي، وأناس[2] قليلون ممن رغب في الخير نحو من ثلاثة أخبية، واجتمعنا في موضع واحد وبتنا، ولما رجعنا ذلك اليوم من رمي الجمار صَلَّيت العصر بالمسجد، ولقيت بالقبة التي في وسط المشيخ سليمان بن الشيخ عبد العزيز الحبيشي من مدينة الأحساء بالموصل، وتكلمنا معه فوجدته له مشاركة حسنة في كثير من العلوم، وحصلت بيني وبينه ألفة، ولم يزل يتعاهدني في أيام الإقامة بمكة، وأهدى لي من ثمار بلدهم، وهو أجود الثمر، وقد عقدت معه عقد أخوة في الله، وكتب لي بذلك خطه، نسأل الله أن ينفعنا بها. ثم بتنا تلك الليلة ولم نر ما يسوؤنا من سارق أو غيره، والله يختم بخير. وهذا المسجد، أعني مسجد الخيف، يُسَمَّى مسجد علي،

---

(1) البقرة: 201.
(2) في ط: أنس.

قيل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه، وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حجة الوداع، وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم، وعرضه ثلاثمائة وأربعون، وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربعة وعشرون قدماً من خارجه، ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام. وصحن هذا المسجد كبير إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف، ومن سائر الجوانب غير مسقف، وقد رأيت قبل هذا في إحدى سواري هذا المسجد مكتوباً ما أظن أن صورته هذا:

[خفيف]

أيهـا الغـائِبونَ بـالله جُـودوا   لِغَريـب بـدعْوةٍ إن قَـدمتُمْ

كان منْ قبْلُ ها هنا مثـلَ مـا قـد   كنتُمُ حاضِرًا كمـا قـدْ حـضرتُمْ

وتحته مكتوب ما نصه:

[خفيف]

قدْ حـضرنا بـذا المكـانِ وغبـتُمْ   وشهِدْنا بـهِ كمـا قـد شـهِدْتمْ

وذكرنـاكُمُ بكـل جَميـل   فاذكرونـا بمثلـهِ إن حـضرتُمْ

ووجدت في سارية أخرى بيتا مفردا وهو:

[رمل]

إن في الجنـةِ نَهْـرًا مـن لـبَنْ   لعَلـيٍّ وحُـسَيْن وحَـسَنْ

وقد صدق قائله إلا أنه تُشَمُّ منه رائحة التشيّع، وأن هذا النهر خاص بهم، رضي الله عنهم، وبمن والاهم دون غيرهم من الصحابة وصالحي الأمة رضـي الله عن جميعهم، وجعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين.

ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من مِنى ورمينا الجمار بلا زحمة؛ إذ لم يبق بمنى إلا نحن وركب أهل العراق. ثم سرنا حتى نزلنا المحصب ولم يحـصب أحد سوانا، بل كثير من الناس لا يعرفونه وتعجبوا من نزولنا هنـاك، وصـلينا بالمحصب الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وبعده أخذنا في الرحيل فأصابنا مطـر

وابل و لم يمكنا المرور وسط مكة للزحمة والظلمة، فعدلنا ذات اليمين إلى كـــداء، ومررنا وراء الجبل حتى نزلنا أسفل ذي طوى بالمحل المسمى بالشبيكة ليلة الاثنين، وهناك يترل الركب المغربي، وبتنا هنالك ثم تركنا هناك خباءنا وإبلنـــا وبعـــض أصحابنا، ودخلنا إلى مكة ونزلنا بالمكان الذي اكتريناه قرب باب إبراهيم، وأقمنا يومين. ثم ذهبنا للعمرة وأحرمنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة[1] من شدة الحر وقلة الرفيق، وأتينا لها ليلا وفرغنا من سعيها عند طلوع الشمس. فلما كان يوم الأربعاء اجتمعت بالشيخ جمال الدين الهندي[2] بالمدرسة الداودية، جمعـــني بـــه شـــيخنا وصاحبنا الشيخ علي باحاج اليمني[3] بعدما سألته عمن هو اليوم في الحرمين أفضل هذه الطائفة النقشبندية، فدلني على الشيخ جمال الدين وعلى رجل آخـــر مـــن أصحاب الشيخ تاج الدين، إلا أن الشيخ جمال الدين أكثر منه عبـــادة وزهـــادة وإقبالا على الطريق، وكنت كثير التشوف إلى لقيا أحد من هذه الطائفة لما كنت أرى من محاسن أصحابها وجدهم واجتهادهم في الكتب المؤلفة في طريقهم. فلما اجتمعت بالشيخ جمال الدين أخذت عنه طريق السادات النقشبندية ببيته، وذلك ظهر يوم الأربعاء المذكور، وشيخنا هذا من أعبد أهل زمانه، مقبل على شـــأنه، مراقب للحق في سره وعلنه[4]، منقطع بالحرمين الشريفين لعبادة ربه، لا مال ولا أهل إلا أصحابه المشتغلون بالطريق على يديه، ولهم سيما وبهجة لا تخفى على ذي بصيرة، وطريقهم طريق جد واجتهاد، قريب فتحها، كثير خيرها، بعيدة عن الرياء والسمعة، إلا أنها تحتاج كغيرها من الطرق إلى مرشد عارف ناصح، وسنذكر بعد هذا نبذة من اصطلاح أهلها لغرابتها بمغربنا.

وفي يوم الأربعاء المذكور ذهبت إلى شيخنا زين العابدين الطبري[5] فوجدته بداره وسلمت عليه، ورحب بي كثيراً وعزيته في أخيه شـــيخنا أبي الحـــسن[6]،

(1) الجعرانة: الموضع الذي احرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف بعد فتح مكة، وهو موضع مشهور على بريد من مكة: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، ص: 168.
(2) جمال الدين النقشبندي، عالم متصوف، توفي بالمدينة المنورة سنة 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 167. نشر المثاني 2: 151.
(3) علي بن أحمد اليمني الشافعي، باحاج، عالم رواية، جاور بمكة لطلب العلم أعواما: اقتفاء الأثر، ص: 140.
(4) في ط: إعلانه.
(5) زين العابدين بن عبد القادر الطبري الحسني المكي الشافعي، إمام المقام الإبراهيمي، كانت وفاته بمكة سنة 1078 هـ: خلاصة الأثر 2:195. التقاط الدرر، ص: 172.
(6) الإشارة هنا إلى أبي الحسن علي الطبري الذي تقدمت ترجمته.

وواعدني يوم السبت لتلقين الذكر ولباس الخرقة، واعتذر بكثرة[1] الأشغال بولايته الفتوى مضافة إلى إمامة المقام، مع شغل البال بأيام الموسم، فلما كان يوم السبت لقيته بالمسجد الحرام بإزاء باب السلام، ولقنني وأجاز لي الخرق الثلاث: القادرية[2] والسهروردية[3] والكبروية[4]، وقد كان أجازنيها أيضا قبل ذلك، وضاق الوقت عن[5] كتب أسانيدها، ولنا بحمد الله أسانيد تتصل بها من طرق أخرى.

وفي ليلة الخميس دخلت المسجد الحرام بنية الاعتكاف، وبت به تلك الليلة و لم[6] يتيَسّر لي أداء حق الاعتكاف من كثرة الطواف والذكر والتلاوة، لأن الصوم أضعفني، وفي ذلك اليوم حدثت لنا نية المجاورة بالحرمين الشريفين، فأشغل ذلك البال، وسبب ذلك أني كنت كثيرا ما أتمنى ذلك وأهذي به في سفري، وأرغب إلى الإخوان في الموافقة، وكانت موافقتهم عندي أبعد من كل بعيد، إلا أني أذكر ذلك وأكثر منه ذكر من أحب شيئاً واشتغل قلبه به، وإن أيس منه، وكان أخي سيدي عبد الرحمن هو السبب في سفرنا هذا العام قد عزم على ذلك من بلادنا وكتمه و لم يظهره لنا، فلما كنا بمكة أعلن أمره وخدع أخاه سيدي أبا بكر بن محمد حتى أدخله الحجر، فلما صليا فيه وأخذ في الدعاء، وضع المصحف في حجره و قال: أقسمت عليك بكتاب الله في بيت الله إلا ما تركتني أجاور في هذه السنة ووافقتني، فلم يمكنه إذ ذاك إلا مساعفته مع تحمل المشَقّة الفادحة في ذلك، تعظيماً ورعاية لحق ما أقسم به عليه، فلما تبَيَّن أمره وجدت السبيل إلى إظهار ما كنت أقوله، وسَرَّني ما فعل، (فأسرها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم)[7]، فقلت للأخ سيدي أبي[8] بكر: إنه لا يمكن ترك أخينا وحده ولا بد من أحد يجلس معه، إما أنا

(1) زيادة من ط.
(2) نسبة إلى عبد القادر الجيلاني الذي تقدمت ترجمته.
(3) نسبة إلى السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش، العلامة الفيلسوف، ناظر فقهاء حلب فلم يجاره أحد فطلبه الظاهر وعقد له مجلسا فبان فضله، فقربه الظاهر واختص به، فشنعوا وعملوا محاضر بكفره وبعثوها إلى السلطان، وخوفوه أن يفسد اعتقاد ولده، فكتب إلى ولده بخط الفاضل يأمره بقتله، فلما لم يبق إلا قتله اختار لنفسه أن يمات جوعا ففعل ذلك في أواخر سنة 586 بقلعة حلب وعاش ستا وثلاثين سنة: سير أعلام النبلاء 21: 207. البداية والنهاية 13: 5.
(4) نسبة إلى نجم الدين الكبرى، أحمد بن عمر الخيوقي البغدادي المتوفى سنة 618 هـ: هدية العارفين 1: 90.
(5) في ط: على.
(6) في ط: لم.
(7) يوسف: 77.
(8) في ط: أبا.

أو أنت، وقد علمت أنه لا يمكنه الجلوس لكثرة التعلقات، فاقتضى الحال أن أجلس معه، وشق ذلك كثيرا على إخواننا وجميع أهل رفقتنا لألم المفارقة وقلة ذات اليد، وأنا في خلال ذلك ذاهل من الفرح وألم الفرقة، (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان)[1]، وأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه.

واعتقدت أن الخير الكثير فيما اختار الله من ذلك؛ لكثرة استخارتي واستغاثتي ودعائي من قبل ذلك، وحملنا إخواننا الذين معنا من ذلك مشقة عظيمة، بل وكذلك الغائبون، نسأل الله أن يتقبّل منهم ذلك، ويثقل به ميزان صالح أعمالنا وأعمالهم، وهم شركاء في الأجر وأعوان على الخير، والله تبارك وتعالى، لسعة جوده وكرمه وكثرة مواهبه وحُبِّه للتفضل كما لا يقبل العمل المشترك فيتركه لشريكه استغناء عنه وإظهاراً لصفة العزة والجلال، كذلك لا يقسم بين الشركاء فيما تعاونوا عليه من البر والتقوى والسعي في مرضاته، بل يعطي كل واحد أجره كاملاً موفوراً، ويزيدهم من فضله[2]، إنه كان (بالمؤمنين رحيما)[3]؛ إظهاراً لصفة الرحمة والفضل والكمال، فله الحمد على ما أولى، والشكر على ما به تولى، فهو الملك الذي لا أحد يدانيه في عظيم نواله، أو يشاكله في إتقان أفعاله، فسبحانه من رب ما أكرمه، وإله ما أعظمه، بيده الخير وهو على كل شيء قدير[4].

وقد أصابتني حُمَّى في بعض تلك الأيام فاحتجمت فعافاني الله منها. وكانت تلك الأيام التي أقمناها بمكة أيام حر واختناق الهواء، وكان ذلك والشمس في برج السنبلة، وأشد ما يكون الحر بالحجاز في السنبلة والميزان، ونسأل الله أن يثقل بما قاسينا منه الميزان.

وفي يوم الجمعة لقيتُ شيخنا الشيخ عيسى الثعالبي بمنزله بباب حزورة وتلقيت منه الذكر على طريق السادات النقشبندية، رضي الله عنهم، وألبسني الخِرَق الثمانية التي ضَمَّنها الشيخ أحمد بن أبي الفتوح[5] رضي الله عنه كتابه

---

(1) الرحمن: 17 – 18.
(2) إشارة إلى قوله تعالى:(ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور): فاطر: 30.
(3) الأحزاب: 43.
(4) إشارة إلى قوله تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير): آل عمران: 26.
(5) أبو الفتوح أحمد بن عبد الله بن أبي الفتوح الطاوسي الحنفي الصوفي، له كتاب: جمع الفرق لرفع الخرق، وهي ثمانية خرق: فهرس الفهارس 2:914.

المُسَمَّى: جمع الفرق لرفع الخرق، وهي ثمانية، وهو لبسها من شيخنا صفي الدين القُشاشي المدني، رضي الله عنه، وقد قيدت في مسوداتي عقب الإلباس ما نصه: لبست الخرق الثمانية التي اشتمل عليها كتاب[1] أحمد بن أبي الفتوح من يد شيخنا مسند العصر و علامة الدهر، سيدي أبي مهدي عيسى بن محمد الجعفري الثعالبي رضي الله عنه بمنزله بباب حزورة أحد أبواب المسجد الحرام، وأجازني بها عن الشيخ الأجل قطب وقته شيخنا أحمد بن محمد المدني القشاشي، عن الشيخ الكامل العارف أبي العباس أحمد بن علي الشناوي[2]، عن السيد غضنفر بن جعفر الحسيني، عن الخطيب الكازروني جد هبة الله بن عطاء الحسيني الحسني، عن جده أحمد بن أبي الفتوح فيما له. قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي كان الله له آمين.

ثم كتب الشيخ بخط يده بأمر هذا ما نصه: الحمد لله، صح ذلك وكتبه العبد الفقير عيسى بن محمد الجعفري المالكي وفقه الله. قلت: والخرق الثمانية لها وسائط ثمانية متصلة بالنبي عليه السلام؛ الواسطة الأولى: أبو العباس الخضر عليه السلام. الثانية: نبي الله إلياس عليه السلام. الثالثة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. الرابعة: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. الخامسة: باب مدينة العلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. السادسة: ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه. السابعة: سيد أهل الصفة أبو الدرداء[3] رضي الله عنه. الثامنة: قطب العارفين أبي البيان تباء بن محمد بن محفوظ القرشي رضي الله عنه ألبسه النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة عياناً، ولكل واحد من هذه الوسائط طرق متعدّدة بسط أسانيدها إلى أربابها ثم إلى الوسائط الثمانية، ثم إلى الواسطة العظمى سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم. وأما طريق ساداتنا النقشبندية فقد رواها شيخنا الثعالبي عن الشيخ محمد المعصوم العمري الهندي، وقد كتب للشيخ عيسى إجازة مشتملة على إسنادها فلنكتبها بجملتها ونصها: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي خلق آدم على صورته وكرمه بخلافته، وأجرى تلك السنة بين

(1) في ط: كتب.
(2) أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي المصري، عارف متصوف، له عدة مصنفات في التصوف، كانت ولادته سنة 975 هـ بمصر، وتوفي بالمدينة المنورة سنة 1028 هـ: خلاصة الأثر 1:245.
(3) أبو الدرداء الخزرجي، الزاهد الحكيم، أسلم بعد بدر، وولي قضاء دمشق لمعاوية في خلافة عثمان، توفي سنة 32 هـ: شذرات الذهب 1:39.

أنبيائه وأوليائه، وقدم إحسانه على منته، وأخر شكره على نعمته، و(هو الأول والآخر والظاهر والباطن)[1]، ولا مؤخر لما قدم، ولا مقدم لما أخر، ولا معلن لما أبطن، ولا مخفي لما أظهر، وسمت همم أوليائه عن الركون إلى الأكوان عارا، وتعلقت جنانهم بالله تعالى بارا، فدارت عليهم بكرة وعشية كؤوس المحبَّة من كوثر محبوبهم دارا، كلما جنَّ عليهم الليل جعل قلوبهم من شوق لقاء الخليل نارا، وتفيض أعينهم من الدمع مدرارا ليلا ونهارا، ويشتغلون بذكره سرا وجهارا، ويتمتعون بمناجاة المحبوب إعلانا وإسرارا، ويطوفون حول سرادقات الوحدة أفكارا، لا يزال منهم في كل زمان من يعرف في وجهه نضارة العرفان، وهو عطشان وحيران، له في فضاء العشق والوله طيران، غاية مطلوبه لقاء الرحمن، ونهاية مقصوده رضاء المنان، فيظهر في أقطار الأرض آثاره، ويظهر في الآفاق أنواره. لسانه ناطق بالحق، وهو داع إلى رب الخلق ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويقربهم ويحييهم، إن الله الغفور، والصلاة والسلام على من هو خير خلقه وأحبابه، وخاتم أنبيائه وأصفيائه، وهو رسول الرحمة وصاحب الشريعة الغراء والطريقة الزهراء والحنيفية البيضاء، وعلى خلفائه الأربعة وأصحابه الكرام البررة.
أما بعد: فإن الدعوة إلى الله العلام من أوثق دعائم الإسلام، وأكرم مناهج العمل والإحسان، على ما ورد في الخبر عنه عليه الصلاة والسلام: والذي نفس محمد بيده إن أحب عباد الله الذين يحببون الله إلى عباده ويُحبِّبون عباد الله إلى الله، ويمشون في الأرض بالموعظة والنصيحة[2]. كما قال تعالى: (قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)[3]، وأتباعه إنما يكون برعاية أقواله وأفعاله وأحواله. ثم إنَّ أخانا العالم الشيخ عيسى بن محمد المالكي دخل بتَوسُّط العبد المفتقر إلى رحمة الله الملك القيوم، محمد المعصوم العمري[4] غفر الله تعالى ذنوبه وستر عيوبه، في سلك إرادة الشيوخ النقشبندية الذين هم أحقاء للاقتداء، وأخذوا الوسيلة لما أنهم أدرجوا النهاية في البداية، والتزموا متابعة السنة، وجنبوا عن ارتكاب البدعة، كثر الله سوادهم، ودمر سبحانه حسادهم، وكان شيخه والده

(1) الحديد: 3.
(2) ورد الحديث برواية: إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله ويحببون الله إلى الناس، والذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله: السنن الكبرى للبيهقي 1:379.
(3) يوسف: 108.
(4) الشيخ محمد المعصوم، متصوف عارف، ولد سنة 1007 هـ، وتوفي سنة 1099 هـ، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 114.

القطب الرباني والمجد للألف الثاني، قدوة الأولياء والمحققين، ووارث علوم الأنبياء والمرسلين، الشيخ أحمد ابن الشيخ عبد الأحد قدس الله تعالى سـرهما، وشـيخه ومعلم طريقه مريد الدين الرضي الشيخ محمد الباقي وشيخه مولانـا خـواجكي الأمكنكي[1]، وشيخه مولانا محمد درويش[2]، وشيخه مولانـا محمـد الزاهـد[3] وشيخه قدوة الأحرار عبيد الله، وشيخه مولانا يعقوب الخرجي، وشيخه قبلة هذه الطريقة وإمامها بهاء الحق والدين المشتهر بنقشبند[4]، وشيخه ومعلم طريقته وآدابه الأمير كلال[5]، وشيخه مولانا محمد بابا[6] السماسي[7]، وشيخه علـي الـراميتني المشتهر بعزيزان[8]، وشيخه محمود أنجيرا الفغنوي[9]، وشـيخه مولانـا عـارف الرويوكري[10]، وشيخه رئيس هذه الطريقة عبد الخالق الغجدواني[11]، وقـد ربى بالروحانية هذا الرئيس الشيخ النقشبندي وشيخه الإمام الرباني الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمداني، وشيخه شيخ الطريقة أبو علي الفارمدي[12] الطوسي، وشـيخه

---

(1) الشيخ محمد خواجكي الأمكنكي، الشيخ العارف، توفي سنة 1014 هـ، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 106.

(2) الشيخ الدرويش محمد، من أئمة القوم وفضلائهم، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 103.

(3) الشيخ محمد القاضي الزاهد، من أئمة الصوفية، له كتاب: سلسلة العارفين وتذكرة الصادقين، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 101.

(4) الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 74 – 86.

(5) الشيخ سيد أمير كلال، ولد في قرية سوخار، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 71.

(6) في خ وط باباد السماسلي، والتصويب من تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية.

(7) الشيخ محمد باباد السماسي، الشيخ العارف، ولد في سماس، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 70.

(8) الشيخ علي الراميتني، من شيوخ الطريقة النقشبندية، توفي سنة خمس عشر أو إحدى وعشرين وسبعمائة: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 67.

(9) محمود الأنجير فغنوي، المرشد العارف، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 66.

(10) الشيخ عارف الريو كري، ولد في قرية ريو كر، أخذ عن حضرة العزيزان: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 65.

(11) الإمام عبد الخالق الغجدواني، عارف عالم، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص:56 – 65.

(12) الإمام الكبير شيخ الصوفية أبو علي الفضل بن محمد الفارمدي الخراساني، الواعظ، ولد سنة 407هـ، وسمع في رجوليته من أبي عبدالله بن باكويه وأبي منصور عبد القاهر البغدادي المتكلم وأبي حسان المزكي وطائفة، روى عنه عبد الغافر بن إسماعيل وعبد الله بن علي الخركوشي وأبو الخير جامع السقا وآخرون. قال عبد الغافر: هو شيخ الشيوخ في عصره المنفرد بطريقته في التذكير التي لم يسبق إليها في عبارته وتهذيبه وحسن أدائه ومليح استعارته ودقيق إشارته ورقة ألفاظه ووقع كلامه في القلوب،

قطب الزمان الشيخ أبو الحسن الخرقاني[1]، وشيخه ومربيه روحانية الإمام الأجل جعفر الصادق، وشيخه وجده من قبل الإمام قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وهو من كبار التابعين ومن فقهائهم السبعة المشتهر فيما بين التـــابعين، وشـــيخه سلمان الفارسي الذي شَرَّفه الرسول عليه الصلاة والسلام بتشريف: سلمان منـــا أهل البيت[2]. وشيخه مع درك فضيلة صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات أمير المؤمنين أبو بكر الصديق، وشيخه وإمامه أفضل الأنبياء وقـــدوة الرسل محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبارك، (أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)[3] هـــ. ثم تقييد عقب هذا بخط الشيخ محمد المعصوم ما نصه: بعد حمد الله والصلاة فقد أجزنا له، دامت بركاته، أن يبلغ عنا طريقـــة هؤلاء الأكابر إلى الطلاب بطريق السفارة وأداء الأمانة، ووصيناه سلمه الله تعالى أن يراعي حقوق الشرع من الأصل والفرع ممتثلاً لأوامر الله تعالى ومجتنباً نواهيه سبحانه، متابعا سنن رسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آلـــه، متأدّبـــاً بـــآداب الصوفية حق الآداب، وأن يشتغل بالله تعالى اشتغالاً باطنياً معرضاً عن غـــير الله تعالى كما قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: (واذكر اسم ربك وتبتل إليـــه تبتيلا)[4] زاهداً في الدنيا راغباً في العُقبى (والسلام على من اتبع الهدى)[5].

صحب القشيري وأخذ في الاجتهاد البالغ، وكان ملحوظا من الإمام بعين العناية موفرا عليه منه طريقة الهداية ثم عاد إلى طوس وصاهر أبا القاسم كركان وكان له قبول عظيم في الوعظ، وكان نظام الملك يتغالى فيه وكان ينفق على الصوفية أكثر ما يفتح عليه به، توفي سنة 477 هــ: سير أعلام النبلاء 565:18. التحبير في المعجم الكبير 2: 21.

(1) أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني البسطامي من قرية خرقان بالتحريك، قال السمعاني: هو شيخ العصر له الكرامات والأحوال، توفي يوم عاشوراء سنة 425 هــ: سير أعلام النبلاء: 421:17. تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 55.

(1) أبو عثمان المغربي، الإمام القدوة شيخ الصوفية أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني نزيل نيسابور، سافر وحج وجاور مدة ولقي مشايخ مصر والشام، وكان لا يظهر أيام الحج. قال الحاكم: خرجت من مكة متحسرا على رؤيته، ثم خرج منها لمحنة وقدم نيسابور فاعتزل الناس أولا، ثم كان يحضر الجامع. وقال السلمي: كان أوحد المشايخ في طريقته لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت امتحن بسبب زور نسب إليه حتى ضرب وشهر على جمل ففارق الحرم، توفي سنة 373 هــ: سير أعلام النبلاء: 320:16

(2) مجمع الزوائد 6:130.

(3) التوبة: 53، الفتح: 28، الصف: 9.

(4) المزمل: 8.

(5) طه: 47.

ثم بعد أن نقلت هذا من خط الإمام كتبت عقبه ما نصه: الحمد لله، يقول الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العيَّاشي، أخذت طريق السادات النقشبندية وتلقنت الذكر على طريقه من شيخنا العلامة المتقن الفَهَّامة، سيدي أبي مهدي عيسى بن محمد الجعفري المالكي بالسند المذكور قبل هذا، وذلك بعد صلاة يوم[1] الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة خاتم عام اثنين وسبعين وألف، وذلك بمنزله بباب حزورة، أحد أبواب المسجد الحرام عَمَّره الله بذكره آمين. ثم كتب شيخنا بعقبه ما نصه: الحمد لله، صح ذلك، وكتبه العبد الفقير عيسى بن محمد الجعفري وفَّقه الله.

وأما سند شيخنا جمال الدين الهندي بهذه الطريقة العلية فهو عن شيخه الإمام العارف الهمام السيد آدم الحسيني المجاور بالمدينة المشرفة، وبها تُوفي وقبره الآن مشهور يزار بجانب قبة أمير المؤمنين عثمان بن، عفان رضي الله عنه، وهو أخذ الطريق عن الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الأحد، قَدَّس الله أسرارهم آمين، بالسند المتقدم. وأخذت هذه الطريقة العلية عن قدوة المحققين، ورئيس علماء المتقين، الشيخ بدر الدين الهندي وذلك بالحرم النبوي قرب باب الوفود من أبواب الروضة المشرفة، وهو أخذها عن الشيخ محمد المعصوم بسنده المتقَدِّم.

قلت: مما ينبغي أن يتنبه له في السند المتقَدِّم ما ذكره الشيخ أبو الحسن الكاشفي في كتاب الرشحات[2] بعد أن ساق السند المتقدم إلى أبي علي الفارمي، قال: وهو من الشيخ أبي القاسم الكركاني[3]، وانتساب الشيخ أبي القاسم في علم الباطن إلى جانبين أحدهما إلى الشيخ أبي الحسن الخرقاني، وهو عن أبي يزيد، وولادته بعد وفاته بزمان، فتربيته من روحانيته، وكذلك تربية أبي يزيد من روحانية الإمام جعفر فإنه قد ثبت بالنقل الصحيح أن ولادة أبي يزيد بعد وفاة الإمام جعفر رضي الله عنه. قال الشيخ أبو طالب المكي: إنَّ للإمام جعفر نسبتين، نسبة من والده عن أسلافه الأكرمين، والنسبة الثانية للإمام جعفر من جده لأمه

(1) ساقط من ط.

(2) رشحات عين الحياة، وهو فارسي في مناقب مشايخ النقشبندية ورسوم طريقهم ضمنا لحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي، المشتهر بالصفي المتوفى سنة 903 هـ: كشف الظنون 903:1.

(3) الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي بن عبد الله الطوسي الطابراني الكركاني، كان شيخ الصوفية والمشار إليه بالأحوال والمجاهدة، سمع حمزة بن عبد العزيز المهلبي وعبد الله بن يوسف الأصبهاني وأبا بكر الحيري، وبمكة من محمد بن أبي سعيد الإسفراييني، توفي في ربيع الأول سنة 469 هـ: سير أعلام النبلاء: 405:18.

قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم، وله نسبة الباطن من سلمان الفارسي، قال: ثم النسبة الثانية للشيخ لأبي القاسم الكركاني إلى الشيخ أبي عثمان المغربي[1]، عن أبي علي الروذباري، عن الجنيد، عن السري عن معروف. ولمعروف نسبتان أحدهما، وهي لداوود الطائي، وهي معروفة، والأخرى لعلي بن موسى الرضي عن أسلافه، انتهى باختصار.

وما ذكر من أخذ الفارمذي عن الكركاني هو الذي ذكره غير واحد. وظاهر كلام الشيخ تاج الدين بن عثمان أنه أخذ عن الخرقاني والكركاني معاً، إلا أن انتهاءه على يد الكركاني، فعلى هذا فأبو علي الفارمذي أخذ عنهما معاً. وأبو القاسم الكركاني له طريقان أحدهما عن الخرقاني عن روحانية أبي يزيد عن روحانية جعفر، وهو الذي في الإجازة المتقدمة وعليه اقتصر صاحبها، وإنما اقتصر عليها، والله أعلم، لأنّ تربية الأزواج المقدسة أبلغ لأنها في مواطن القرب الحقيقي والقرب العياني، ولا تحصل إلا لأكابر أهل السلوك الذين صفت أسرارهم وأشرقت أنوارهم، (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)[2]. وأما أهل الحجب الكثيفة الظلمانية فليس لهم إلا تربية الأحياء الذين يسايرونها في مدارج أطوارهم ويعالجونهم بمراهم أنوارهم، ويمدونهم على خدر صفاء أسرارهم وإزالة أستارهم. الطريق الأخرى لأبي القاسم عن أبي عثمان المغربي لا انقطاع فيها، وهي أنسب لما عند علماء الظاهر في أسانيدهم إذ هو المعروف المحقق، وأما التقاء الأرواح فأمر غيبي مرجعه إلى الكشف الحقيقي، ولا علم به إلا لصاحبه، فإذا تحقق طريق أبي علي الفارمذي تحقق سند حجة الإسلام الغزالي في طريق القوم أيضاً، إذ الموجود بأيدي الناس والمنصوص عليه عند كثير من أهل الطريق أن شيخه هو أبو المعالي إمام الحرمين، وهذا لا خفاء فيه، إلا أنه لما أخذ عنه العلوم الظاهرة فهو من أجل تلامذته، و لم يشتهر أبو المعالي بسلوك طريق القوم كون الغزالي إنما دخل في طريق القوم وأخذ في تزكية النفس وسلوك مناهج

(1) أبو عثمان المغربي، الإمام القدوة شيخ الصوفية أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي القيرواني نزيل نيسابور، سافر وحج وجاور مدة ولقي مشايخ مصر والشام، وكان لا يظهر أيام الحج. قال الحاكم خرجت من مكة متحسرا على رؤيته، ثم خرج منها لمحنة وقدم نيسابور فاعتزل الناس أولا ثم كان يحضر الجامع. وقال السلمي كان أوحد المشايخ في طريقته لم نر مثله في علو الحال وصون الوقت امتحن بسبب زور نسب إليه حتى ضرب وشهر على جمل ففارق الحرم، توفي سنة 373 هـ: سير أعلام النبلاء: 16:320.
(2) النور: 35.

أهل الطريق بعد موت شيخه أبي المعالي بأزمان حسبما صرح به هو بنفسه في كتابه: المنقذ من الضلال[1]، وصرح به غير واحد ممن عُرِف به.

وإذا كان كذلك فشيخه في طريق القوم هو الإمام أبو علي الفارمذي كما ذكر الأسنوي في طبقاته[2] أنه لما اعتزل الناس وترك الاشتغال بالعلوم الظاهرة اتصل بالشيخ أبي علي الفارمذي وصار يحضر مجالسه، وذكر ذلك أيضا سيدي عبد الوهاب الشعراني. وقد ذكر الغزالي في الإحياء الشيخ أبا علي الفارمذي وصَرَّح بالسماع منه، وسماعه هو من أبي القاسم الكركاني في حكاية ذكرها في كتاب الرجاء والخوف، قال ما نصه: "سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي، رحمه الله، يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه، وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله، ولا في لسانه مجادلة عليه. فقال: حكيت لشيخي أبي القاسم الكركاني مناما لي فقلت: رأيت أنك قلت لي كذا. فقلت: لَمَ ذاك؟ قال[3]: فهجرني شهراً و لم يكلمني. و قال: لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام، وهو، كما قال، إذا قل ما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه"[4]. فهذا صريح في أخذ أبي حامد عن أبي علي، وفي أخذ أبي حامد عن أبي القاسم رضي الله عنهم.

وممن صرح بأخذ أبي علي الفارمذي عن الكركاني صاحب منارات السائرين[5] إذ قال: إن أبا علي الفارمذي جاء إلى أبي القاسم القشيري ليأخذ عنه، فدله على أبي القاسم الكركاني لعلمه أنه أتم منه حالا وأقوى على تربيته. وقد طال ما بحثت عن طريق الإمام حجة الإسلام وسنده في طريق القوم لما لاح لي ما ذكرت أولا فيما اشتهر من أن شيخه في الطريق إمام الحرمين، ثم رأيت شيخ مشايخنا سيدي العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن[6] بعدما ذكر ما في الطريق المذكورة من الانقطاع أشار إلى نحو مما ذكرنا، فتحققت حينئذ أن لحجة الإسلام في طريق القوم شيخا غير إمام الحرمين إلى أن حصلت، وما ذكرنا عن الأسنوي

---

(1) المنقذ من الضلال، ص: 68.
(2) أنظر: طبقات الشافعية 2: 271.
(3) زيادة من ط.
(4) إحياء علوم الدين 4: 155.
(5) منارات السائرين ومقامات الطائرين للشيخ نجم الدين أبي بكر محمد أبي بكر عبد الله بن محمد بن الشاهانوري الرازي: كشف الظنون2: 1823.
(6) أنظر: مرآة المحاسن، ص: 265.

والشعراني من أخذه عن الكركاني فتطلبت إسناد الكركاني وعمن أخذ فلم أجده حتى حصلت على طريق ساداتنا النقشبندية وشرح أحوال مشايخها فظفرت بذلك مستوفى، فاتصلت الطرق بحمد الله اتصالاً ينشرح به الصدر ويطمئن له القلب من غير عارض مخدش فيه ولله الحمد وله المنة على ما ألهم والشكر على ما علم.

لطيفة:

ولما كانت طريق ساداتنا النقشبندية -مع نفاستها وظهور محاسنها ولطيف أسلوبها وجريانها مع الكتاب والسنة -قَلَّمَا توجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد مشايخها، فلم تصل تآليفهم إليه، ولا دخل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم، مع اكتفاء أهل المغرب منها وعن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأمنت غائلتها، واستقامت أصولها، وجرت مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها، طريق القطب الجامع، وشمس المحافل والمجامع، الإمام أبي الحسن الشاذلي[1] وأتباعه أئمة الهدى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق، رضي الله تعالى عن فريقهم، وجعلنا من سالكي طريقهم، ولعمري، وما عمري علي بهيِّن، ما طريق ساداتنا النقشبندية منها ببعيد، وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد.

[طويل]

فإن لا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غذته أمه بلبانها[2]

ومن تأمل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية لم يجد بينهما اختلافا إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلاً.

رأيت أن أذكر في هذه اللطيفة بعض أصول طريقهم وكيفية سلوكهم مع الاختصار ليستفيد ذلك من طلبه، وقد اقتطعت من كلام الشيخ تاج الدين بن

(1) أبو الحسن الشاذلي: علي بن عبد الله الحسني، من أقطاب التصوف، توفي في طريقه إلى الحج سنة 656 هـ: شرف الطالب، ص: 72. شجرة النور الزكية 1:267.
(2) البيت لأبي الأسود الدؤلي: الديوان، ص: 162.

عثمان ومن كلام الكاشفي ما يكون فيه إشارة إلى المقصود وعوناً على المراد، فأقول: قال الشيخ تاج الدين في بعض رسائله ما نصه: فصل في طريق الوصول إلى الله تعالى على طريقة السادة النقشبندية إما بمحض الصحبة، أو بالذكر أو بالمراقبة، وطريق ذكر هذه السلسلة أن تذكر الكلمة الطيبة، أعني: لا إله إلا الله محمد رسول الله بحبس النفس، وتراعي العدد الوِتر، وإذا جاوز العدد إحدى وعشرين مرة ولم يظهر للذكر أثر فهذا دليل على عدم قبوله، فليشرع في ابتداء الذكر من أصله، وأثر الذكر هو أنك في زمان النفي تنفي عنك وجود البشرية، وفي زمان الإثبات يظهر فيك أثر من آثار تصرفات الجذبات الإلهية، والأثر متفاوت بحسب الاستعدادات. ثم قال بعد كلام: وكيفية الذكر أن تجعل اللسان ملتصقا بسقف الفم وتلصق الشفة بالشفة والأسنان وبالأسنان وتحبس النفس وتشرع في كلمة لا مبتدئا بها من السرة، وتصعد بها إلى جانب الدماغ، فإذا وصلت إلى الدماغ ملت بإله إلى جانب اليمين، وبإلا الله إلى جانب اليسار، ورميت بها على القلب الصنوبري بقوة بحيث يظهر أثرها وحرارتها في سائر البدن، وتميل بمحمد رسول الله من جانب اليسار إلى جانب اليمين، أي تأتي بها بينهما وتقول بعد ذلك أيضاً: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، يعني وهذا الذكر مع توجه القلب على وجه يظهر أثره في القلب ويؤثر منه، ويكون ذلك كله بحيث لا يظهر على ظاهره ولا يشعر به من كان بقربه، وفي حبس نفسه يذكر مرة أو ثلاثا مراعيا للوتر. وقال حضرة الخوجة نقشبند، قدس سره، في معنى الكلمة الطيبة: إن لا إله إلا الله معناه نفي الإلهة الطبيعية، وإلا الله إثبات المعبود بالحق، ومحمد رسول الله معناه أنك أدخلت نفسك في مقام فاتبعوني، وبعض أكابر هذه السلسلة قال في معنى الكلمة الطيبة: إن المبتدئ يتصور في لا إله لا معبود، والمتوسط يلاحظ لا مقصود، والمنتهي لا موجود إلا الله تكون ملاحظة لا موجود إلا الله كفراً. وقيل معناه لا متصرف في الملك والملكوت إلا الله، وينبغي الاجتهاد في مداومة الذكر لا تتركه في حال ولا في وقت ولا في قيامك ولا قعودك ولا في حريتك ولا في نومك، وإن حصل لك في الذكر أو في مجالسة الشيخ كيفية فافرضها كالخط المستقيم، فإن تخَيَّل هذا المعنى وشغل الخيال بأمر واحد فمد الجمعية. وقال بعض الأكابر: إذا تغيرت شعرة من بدنك بواسطة الحال وتأثرت ينبغي لك أن تتبع تلك الشعرة حتى يحصل التعطل، كما قال بعض الأكابر: الشغل هو عدم الشغل، وعدم الشغل هو الشغل. وقال المولى سعد الدين الكاشفي: إن الشيخ عبد الكريم اليمني سألني

وقال: ما الذكر؟ فقلت له: لا إله إلا الله. فقال: ما هذا ذكر، هذه عبارة. فقلت له: أفِدْ أنت. فقال: الذكر أن تعلم أنك لا تقدر على وجدانه. وقال سيد الطائفة الجُنيد: التصوف هو أن تجلس ساعة متعطِّلاً عن ملاحظة شيء. وقال شيخ الإسلام: في ملاحظة ذلك يحصل الوجدان بغير تفتيش، والرؤية بغير نظر. ومقصود الطائفة العلية الصوفية مشاهدة الحق كأنك تراه، وملكة الحضور يسمونها مشاهدة الحق، ويكون بالقلب، وأما الرؤية فتكون بعيني الرأس، والفرق بين الرؤية والمشاهدة أنك في الرؤية لا تقدر أن تبعدها عن نفسك وفي المشاهدة أنت بالخيار.

الطريق الثانية للسادة النقشبندية في سبب الوصول وحصول المعرفة، وهي أسهل الطرق وأقربها التوجه والمراقبة، وهو أن ذلك المعنى المقدس الذي بغير كيف ولا مثال المفهوم من الاسم المبارك، أعني الله، بغير واسطة، عبارة عربية أو عبرانية أو فارسية أو غيرها، تلاحظه وتحفظه في خيالك وتتوجه بجميع قواك ومداركك إلى القلب الصنوبري وتداوم على هذا الأمر وتتكلف في ملازمته حتى تذهب الكلفة من البين، و يصير هذا الأمر ملكة لك. وقال بعض الأكابر النقشبندية: إن المعنى المقصود إن عسر عليك فتخيله، فصورة نور بسيط محيط بجميع الموجودات العلمية والعينية، واجعله في مقابل البصيرة، ومع حفظ ذلك توجه إلى القلب الصنوبري بجميع القوى والمدارك إلى أن تقوى البصيرة وتذهب الصورة ويترتب على ذلك ظهور المعنى المقصود.

وقال حضرة الخوجة عبيد الله أحرار[1]: إن المراقبة من المفاعلة، فلا بُدَّ من التراقب من الجانبين، فعلى هذا لا بد للمراقب أن يكون مراقبا لاطلاعه على اطلاع الحق سبحانه على جميع أحواله ويداوم على ذلك، ويكون مراقبا لاطلاعه على موجده بلا فتور وتشتت خاطر. والطريق الآخر أن يكون مراقباً لقلبه الصنوبري ولا يترك الخواطر تحل فيه حتى تتيسر له الربطة بقلبه الحقيقي من غير ملاحظة معنى المفاعلة، وطريق المراقبة أعلى من طريق النفي والإثبات، وأقرب للجذبة الإلهية من غيرها، ومن طريق المراقبة يمكن الوصول إلى الوزارة والتصرف في الملك والملكوت، ويمكن بها الإشراف على الخواطر والنظر إلى الغير بنظر الموهبة

---

(1) عبيد الله الأحرار: ولد في شاش سنة 806 هـ، وتوفي سنة 895 هـ: أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 92 وما بعدها.

وتنوير باطنه، ومن ملكة المراقبة يحصل دوام الجمعية ودوام قبول القلوب، وهـذا المعنى يسمى جمعا وقبولاً.

الطريق الثالثة: الطريق الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقق التجليات الذاتية، فإن رؤيته بمقتضاهم الذين إذا رأوا ذكر الله تفيد فائدة الذكر، وصحبته بموجب، هُم جلساء الله تنتج صحبة المذكور، وإذا تيسرت صحبة مثل هذا العزيز ورأيت أثره في نفسك فينبغي أن تحفظ ذلك الأثر الذي تشاهده فيك بقدر الإمكان، وإن حصل لك في ذلك المعنى فتور راجع مصاحبته حتى يرجع لك ببركة ذلك الأثر، وهكذا تفعل مرة بعد أخرى حتى تصير تلك الكيفية ملكة لك، وإن لم يظهر من صحبة ذلك العزيز أثر ولكن حصلت به محبة وانجذاب فينبغي أن تحفظ صورته في الخيال وتتوجه للقلب الصنوبري حتى تحصل الغيبة والفناء عن النفس، وإن وقفت عن الترقي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمرا ممتدا وتأتي صورة الشيخ على ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك فإنه يرجى لك بذلك حصول الغيبة والفناء، انتهى كلام الشيخ تاج الدين.

ولما كان رأس هذه الطائفة العلية، وإمام هذه الطريقة السنية، هو الشيخ عبد الخالق الغجدواني، رضي الله عنه، ثم من بعده الشيخ بهاء الدين نقشبندي، وبه اشتهرت وإليه انتسبت، رأيت أن أذكر هنا بعض أحوال الشيخ عبد الخالق وبعض وصاياه مع اثني عشرة كلمة المأثورة عنه وعليها مبنى طريق السادات النقشبندية رضي الله عنهم، وقد ذكر هذه الكلمات أهل هذه الطريقة في رسائلهم وبالغوا في شرحها وإيضاح معانيها، فلنقتصر على ما ذكر أبو الحسن الواعظ الشهير بالصفي الكاشفي في كتاب رشحات عين الحياة عند ذكر ترجمة الشيخ عبد الخالق الغجدواني، ولنسق كلامه بتمامه لما اشتمل عليه من الفوائد فأقول: قال رضي الله عنه ما نصه: الخوجة عبد الخالق الغجدواني، قدس الله سره، هو الخليفة الرابع من الخلفاء الأربعة للخوجة يوسف الهمداني[1] قدس الله سره، وهو رأس هذه الطبقة الشريفة ومنبع طريق الخوجكان قدس الله أسرارهم، مولده ومدفنه موضع العجدوان من ديار بخارى على ستة فراسخ منه، والده عبد الجميل، وكان معروفا

(1) يوسف الهمداني: إمام عارف، ولد في همدان سنة 440 هـ، وتوفي سنة 535 هـ: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص:54.

بعبد الجميل إمام، وكان من أولاد سيدنا ومولانا الإمام مالك رضـــي الله عنـــه، وكان عالما بعلوم الظاهر والباطن، وكان ساكنا موضع ملاطية الروم، وأمه كانت من أولاد ملوك الروم، ونقل أن عبد الجميل إمام صحب الخضر عليه الـــسلام، وكان بشره الخضر بقرب وجود الخوجة عبد الخالق وسماه عبد الخــالق، وعبـــد الجميل إمام بسبب الحوادث خرج من ديار الروم مع التعلقات إلى ما وراء النهر، وجاء لبلاد بُخارى وسكن في قرية الفجرواني واشتغل في بخارى بتحصيل علـــوم الظاهر عند الشيخ صدر الدين، وهو كان من كبار علماء الزمان، وكان ذات يوم يقرأ في تفسير القرآن، فلما وصل هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنـــه لا يحب المعتدين)[1] سأل من الأستاذ كيف حقيقة الذكر الخفي وما طريقه لو يذكر بالجهر أو بتحرك الأعضاء يطلع عليه الناس، ولو يذكر بالقلب فالشيطان يطلـــع عليه بموجب الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. فقال الأستاذ: هذا علم لدني، وإن أراد الله يلقيك أحداً من الأولياء يلقنك الذكر الخفي فبعد هذا كان الخوجة عبد الخالق منتظراً لهذا النفس الشريف حتى جاء الخضر عليه السلام فلقنه الوقوف العددي. وذكر في كتاب فصل الخطاب[2] أن طريق الخوجة عبد الخالق حجة على جميع الفرق ومقبول لهم لأنه كان على الدوام على طريق الصدق والوفاء وتباعة الشرع وسنة المصطفى ومجانبة البدع ومخالفة الهوى، وكان يخفي طريقـــه علـــى الأغيار ويداوم على الذكر الذي وصل إليه من الخضر عليه السلام، والخضر عليه السلام كان قال له: أنت ولدي. وكان طريق تعليم الذكر له من الخضر عليـــه السلام هكذا أنه كان أمر الخضر عليه السلام للخوجة عبد الخالق أن يـــدخل في الغدير ويغطس ويذكر في القلب لا إله إلا الله محمد رسول الله، ففعل كما أمر، وداوم عليه وحصل له القبول ببركة الدوام، وفتح له أبواب الفتـــوح، ثم جـــاء الخوجة يوسف الهمداني إلى بخارى فصحبه ما دام في بخارى، و بعـــد حـــصول الصحبة فهم الخوجة عبد الخالق أن الشيخ يوسف أيضاً ذكر الباطن، فالخوجـــة خضر عليه السلام شيخ تعليم الذكر له، والخوجة يوسف شيخ الصحبة. أما الشيخ يوسف وأصحابه فكانوا يذكرون بالخفي والجهر أيضاً، وأما أمر الشيخ للخوجة عبد الخالق بذكر الجهر لأنه كان مأموراً من الخضر عليه السلام بالخفى، بل قال:

---

(1) الأعراف: 55.

(2) كتاب فصل الخطاب في المحاضرات، للحافظ الزاهد محمد بن محمد الحافظي من أولاد عبيد الله النقشبندى البخاري المعروف بخواجه النقشبندى: كشف الظنون 2: 1260.

كن كما أمر الخضر عليه السلام. وذكر في بعض تحريرات الخوجة عبد الخالق أنه قال حين كنت بين اثنين وعشرين كان وَصَّى الخضر عليه السلام للخوجة يوسف الهمداني بتربيتي، فما فارقت خدمته وملازمته حتى كان في بخارى، وكنت مستفيضاً منه على ساعة ولمحة، فبعدما رجع الشيخ يوسف إلى خراسان اشتغل الخوجة بالرياضة والمجاهدة، وكان يخفي أحواله من الناس، وحصل الولاية حتى كان يصلي الصلاة عند الكعبة المشرفة ويرجع في الوقت، وفي بلاد الشام اجتمع عنده المريدون والتلامذة وبنى بها الخانقات[1]، وأقام فيها بدعوة الطالبين الصادقين إلى الحق. وله رسالة في آداب الطريقة[2]، كتبها لولده الشريف الشيخ أولياء الكبير، وفيه فوائد كثيرة وعوائد جليلة لا بد منها للمريدين الصادقين سأكتبها تيمنا وتبركا.

رشحة[3]:

يا بني، أوصيك بتحصيل العلم والآداب وتقوى الله، وكن تابعاً لآثار السلف الصالح، وكن ملازماً للسنة والجماعة، واقرأ الفقه والحديث والتفسير، واجتنب عن الصوفية الجاهلين، وصل الصلوات الخمس بالجماعة بشرط أن لا تكون إماماً ولا مؤذناً، ولا تطلب الشهرة، ففي الشهرة آفات، كن كأحد من الناس ولا تتقيد بمنصب ولو كان محموداً؛ كالقضاء والفتوى، ولا تكن كفيل أحد ولا وصيه، ولا تصحب الملوك وأبناءهم والمرد والنساء والمبتدعة والعوام، ولا تبن الخانقات فيه، ولا تسمع النغمة إلا قليلاً، لأنَّ من كثرة السماع يتوَلَّد النفاق ويموت القلب، ولا تنكر على أصحاب السماع لأن أصحابه كثيرون، وقلل الكلام والطعام والمنام، وفِرَّ من الناس كما تفر من الأسد، والتزم الخلوة، وكل الحلال، واجتنب الشبهات، ولا تنكح إلا بالضرورة فعسى أن يغلب عليك طلب الدنيا، وفي طلب الدنيا يذهب دينك وإيمانك، ولا تضحك كثيراً لأن كثرة الضحك تميت القلب، ولا تنظر إلى أحد بالتحقير، ولا تزين ظاهرك، لأن تزين الظاهر من علامة إفلاس

(1) الخانقات: جمع الخانقاه، وهو رباط الصوفية معرب مولد، استعمله المتأخرون: المساجد في الإسلام، ص: 89.
(2) وردت الرسالة في كتاب: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 57 وما بعدها.
(3) تهذيب المواهب السرمدية، ص: 57.

الباطن، ولا تجادل مع الخلق ولا تسل من أحد، ولا تأخذ لأحد بخدمة، واخدم المشايخ بالمال والجاه والبدن، ولا تنكر على أفعالهم لأنه لا ينجى منكرهم، ولا تغتر بالدنيا وأهلها، وينبغي أن يكون قلبك محزوناً ومغموماً، وبدنك مريضاً، وعينك باكية، وعملك خالصا، ودعاؤك بتضرع، ولباسك خلقاً، ورفيقك الفقير، وبضاعتك الفقه، وبيتك المسجد، ومؤنسك الحق تعالى.

رشحة:

ومن كلماته القدسية هذه الكلمات الثمانية عليها بناء طريقة الخوجكان قدس الله أسرارهم وهي هذه: هوش دردم، نظر بر قدم، سفر در وطن، خلوة در انجمن، يا د كرد، باز كشت، نكاه داشت، وسواها حسبان وغرور.

ولا يخفى عليك أن من مصطلحاتهم ثلاث كلمات أخرى: وقوف زماني، وقوف عددي، وقوف قلبي، كلها إحدى عشرة كلمة. ولما كان الخوجة عبد الخالق رأس هذه الطريقة لا بد أن أبين اصطلاحه بين الإجمال والتفصيل، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1].

رشحة:

هوش دردم[2]: يعني لا تكن غافلا في خروج[3] النفس، بل أخرج النفس مع الحضور. و قال: مولانا سعد الدين الكاشغري: ينبغي للطالب أن يكون حاضرا من انتقال نفس إلى نفس مع الله، ولا يكون غافلاً وساهياً. وقال سيدنا ومولانا [عبيد الله أحرار][4]: أهم المهمات في هذه الطريق حفظ النفس، وقال: من لم يحفظ النفس يقال له فلان فقد نفسه. وقال الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره:

---

(1) الأحزاب: 4.

(2) جاء في كتاب تهذيب المواهب السرمدية: هوش بمعنى العقل، ودر بمعنى الظرفية، ودم بمعنى النفس: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 60.

(3) في ط: خرج.

(4) ما بين معقوفتين زيادة من تهذيب المواهب السرمدية.

إن معنى هذه الطريقة على النفس ينبغي لك أن تحفظ النفس وقت الدخول والخروج، بل أن تحفظ ما بين النفسين.

[بسيط]

يا واقِفاً عند شَطِّ البحر مُنحبسا | البحرُ متسعٌ والشر في الطرفِ

لا تنظرَنَّ إلى موجِ الحوادثِ بل | مع الخضم مُد الأنفاسَ فالتففِ

وقال مولانا عبد الرحمن الجامي[1] في أواخر شرح الرباعيات: قال الشيخ أبو الجناب نجم الدين الكُبرى في رسالة فواتح الجمال[2]: إن الذكر جار في نفوس الحيوانات بأنفاسهم الضروريات، لأنه وقت خروج النفس ودخوله يخرج حرف الهاء بلا مضدها، وهو إشارة إلى غيب الهوية، والهاء الذي في لفظ الله هو هذا الهاء، والألف واللام للتعريف، واللام الثاني للمبالغة، فينبغي لك أن تكون حاضراً بهذا الذكر بأن يكون هوية الحق سبحانه ملحوظا لك في وقت التلفظ بهذا الحرف حتى تصير ملكك، وإذا صار ملكك لا يزول أبدا، وإن ترد زواله.

شعر:

[بسيط]

غيبُ الهوية في هاء التنفس فا | أنفاسُ تأسيسها بالهاء فاعرفها

قفْ فيهِ حال الرجاءِ اليأس ذا عَجب | يا عارفَ الحق ما كنتَ مُنتبها[3]

ولا يخفى عليك أن غيب الهوية التي ذكره سيدي ومولاي عبد الرحمن الجامي اصطلاح أهل التحقيق عبارة عن حقيقة الذات ولا تعين فيه، يعني بشرط الإطلاق الحقيقي الذي لا تقييد فيه بوجه من الوجوه، بل بقيد الإطلاق أيضاً، وفي هذه المرتبة لا يتعلق به علم، وإدراك، وبهذه الحيثية هو مجهول مطلق.

(1) عبد الرحمن بن أحمد الجامي، عارف متصوف، ولد بجام من قصبات خراسان، واشتغل بالعلوم العقلية والشرعية فأتقنها ثم صحب مشايخ الصوفية وتلقن الذكر من الشيخ سعد الدين كاشغري، توفي سنة 698: شذرات الذهب 4:360.
(2) أشار إليها صاحب كشف الظنون بقوله: فواتح الجمال رسالة فارسية للشيخ أبى الجناب أحمد بن عمر الخيوقى المعروف بنجم الدين الكبرى المتوفى سنة 618 هـ: كشف الظنون 2:1292.
(3) البيت مكسور، وكذا ورد في خ و ط.

رشحة:

نظر بر قدم[1]: يعني ينفي أن يكون نظر السالك في وقف، كالماشي على ظهر قدميه حتى لا يقع نظره عن اليمين والشمال، ولا يحصل له التفرقة وتشتيت الطبع، ويحتمل أن يكون فيه إشارة إلى سرعة سير السالك في قطع مسافة الوجود الموهوم، يعني كلما ينتهي نظر السالك يضع قدمه عليه كما قال محمد الرويم: أدب المسافر أن لا يجاوز همه قدمه[2]، إشارة إلى أن أهل هذا السير والسلوك، كما قال مولانا عبد الرحمن الجامي في مدح الخوجة بهاء الدين نقشبند[3]:

لم يخْلُ عن نفسٍ دونَ الحضورِ ولم تسبقْ نواظرهُ الأقدامَ في السفرِ
وذا لسرعة سير فيه قد ركزت فما تخلف رجلاهُ عن النظرِ

رشحة:

سفر در وطن[4]: وهو أن يسلك السالك في الطبع البشري، يعني ينتقل من الصفات البشرية إلى الملكية، ومن الدميمة إلى الحميدة. قال مولانا سعد الدين قدس الله سره: إن الخبيث، وإن توجه إلى لطيف، لا يزول منه خبائثه حتى ينتقل من صفاته الخبيثة. ثم اعلم أن أحوال المشايخ في سفر الظاهر مختلفة، فبعضهم اختاروا السفر في البداية وأقاموا في النهاية، وبعضهم أقاموا في البداية وسافروا في النهاية، وبعضهم سافروا في البداية والنهاية، وما أقاموا أبدا، ولكلهم نية صحيحة الأعمال بالنيات كما شرح حالهم في ترجمة العوارف[5] بالتفصيل، لكن طريق الخوجكان يختاروا السفر حتى يحصلوا المرشد، فإن وجدوا المشرد في بلدهم لا

---

(1) جاء في كتاب تهذيب المواهب السرمدية: بر بمعنى على، والمعنى المراد انه ينبغي للسالك أن يكون نظره إلى قدميه عند المشي: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 59.
(2) طبقات الصوفية 148:1.
(3) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 60.
(4) أي السفر في الوطن: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 61.
(5) عوارف المعارف في التصوف، للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي المتوفى سنة 632 هـ: كشف الظنون 1177:2.

يسافرون ويختارون خدمته وملازمته حتى يحصل الحضور والشهود بطريق الدوام، يعني لا يزول حضوره في وقت الاشتغال بالتدريس والاشتغال بالدنيا، ثم يصير سفره وحضره على السوية. وقال سيدنا ومولانا: إن السفر لا يورث للمبتدئ إلا التفرقة، فينبغي للطالب إذا وجد الشيخ أن يكون ملازما لخدمته ولا يفارق صحبته إلا بعد التمكين، وإذا حصل له التمكين يكون سفره وحضره على النية الصحيحة.

شعر[1]:

[بسيط]

ما أحسنَ الضحكَ الجاري بغير فَم   ورؤيةٌ غابَ عنها هيكلُ البصَرِ

كن قاطنًا ظاهرًا والسر مرتحِلُ   فالسيرُ من دونِ رِجلٍ أحسنُ السفَرِ

وقال مولانا عبد الرحمن الجامي قدس سره في أشعة اللمعات في شرح هذا البيت صورته:

اتنه سفر دوراست كان يزيراي صورت ارتوراست

معناه: إن المرآة المصقلة يظهر فيها صور الأشياء المقابلة بلا احتياج إلى الحركة لأنَّ صفاءها ذاتي، فما يقابلها ينطبع فيها، وهكذا قلب الإنسان إذا أزالت منه تعلقات الأكوان وإرادات الطبع البشري يظهر له الصفاء والصقالة يستغني عن السير والسلوك.

رشحة:

خلوة در انجمن: سئل الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره: ما بناء طريقتكم؟ قال: الظاهر مع الخلق، والباطن مع الحق.

[طويل]

بقلبكَ كن بالحب منطبعا وكنْ   بظاهركَ المشهود في زي أجْنَبِي[1]

(1) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 61.

وهذا طريقٌ نادِرٌ عندَ أهلهِ على أنهم فازوا بأعذبِ مشْرَبِ

كما قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)[2]. وقال: نسبة الباطن في هذا الطريق وقع بوجه أنه يحصل الجمعية في الملا، وصورة التفرقة أكثر مما في الخلوة. وقال الجمعية في الصحبة والسهرة في الخلوة، وفي الشهرة الألفة، والخير في الجمعية، والجمعية في الصحبة بشرط أن تكونوا قانتين بينكم.

وقال الخوجة: ولها كبير الخلوة أن يكون اشتغالك واستغراقك في الذكر بحيث أن لو تدخل في السوق لا تسمع أصوات أهل السوق لاستيلاء الذكر. وقال سيدنا ومولانا: لو يذكر أحد بالحد والاهتمام يصل في خمسة أو ستة أيام إلى أن يسمع جميع الأصوات والحكايات ذكر الله، ويسمع أيضا كلام نفسه ذكر الله.

رشحة:

ياد كرد: عبارة عن ذكر اللسان أو القلب. قال مولانا سعد الدين الكاشغري إن طريق تعليم الذكر أن يذكر في قلبه أولاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وينبغي للمريد أن يحضر قلبه على مقابلة قلب الشيخ ويغمض عينه، ويطبق الفم والنفس مع السن، ويلصق اللسان بعرش الفم، ويحبس النفس ويذكر بالقلب لا باللسان بالتعظيم والقوة وبموافقة الشيخ، وفي ذكر الحبس يراعي عدد الوتر يذر مرة أو ثلاث مرات حتى يظهر أثر حلاوة الذكر في القلب. وقال سيدنا ومولانا: الذكر طرد الغفلة، فإن حصل لك في صحبة الشيخ حصل خلاصة الذكر وزبدته، وإن لم يحصل في الصحبة فاذكر الله بالطريق المذكور، ولكن لا يضيق نفسك فوق الطاقة، وينبغي أن تكون متوجهاً في أثناء الذكر إلى القلب الصنوبري الشكل حتى لا تجيء الخواطر من الدنيا والآخرة، وكن ذاكرا بهذه الطريق أن يبتدئ بكلمة لا من تحت السرة وترفعه إلى الدماغ، وبكلمة إله من الدماغ إلى الكتف الأيمن، وتضرب إلا الله مع الحركة على القلب الصنوبري الشكل حتى تصل حرارته إلى الأعضاء كلها، وبالنفي تنفي وجود المحدثات وتطالعها فانيا، وبالإثبات تثبت

(1) ورد البيتان في: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 62.
(2) النور: 36.

وجود الحق بنظر البقاء والمقصودية، فاذكر هذا الطريق مع ملاحظة المعنى المذكور، ولا تفارق الذكر وقتا من الأوقات حتى يثبت التوحيد ويستقر الذكر في القلب.

رشحة:

باز كشت[1]: هو عبارة عن رجوع السالك بعد الكلمة الطيبة بقوله في القلب الإلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، لأن بهذه الكلمات تنتفي الخواطر كلها من الخير والشر، فيكون الذكر خالصا لوجه الله، وإن كان مبتدئا، ولا يجد الصدق في قلبه، ولا يترك هذه الكلمات ويقول تقليداً للمرشد لأن المقلد يصير محققاً، وآثار الصدق يظهر بالتدريج. وقال مولانا علاء الدين الذي كان من أصحاب مولانا سعد الكاشفي: وكان شيخي علمني الذكر وأمرني بهذه الكلمات، وكنت لا أجد في نفسي صدقاً على وفق هذه الكلمات، وكنت منفعلاً، وذات يوم كنت في هذا أتفكر ورحت عند الشيخ، فقال الشيخ: تروح عند الشيخ بهاء الدين عمر، فرحنا عند الشيخ وجلسنا. فقال الشيخ بهاء الدين: إنه قال الشيخ بهاء الدولة. إن لم يجد الطالب إخلاصاً في الباطن ينبغي أن يذكر هذه الكلمات مع الذكر حتى يظهر الصدق في باطنه ببركة هذا الذكر، فلما خرجنا من عند الشيخ قال شيخي: إنه رجل من أهل الجذبة لا يعرف طريق الإرشاد لأنه ما كان وقت إظهار هذا المعنى لأني قبل السماع كنت منفعلاً ومحترقاً، وبعدما سمعته زال مني الاحتراق والاضطراب والقلق.

رشحة:

نكاه داشت[2]: وهو عبارة عن مراقبة الخواطر في أثناء الذكر. قال مولانا سعد الدين الكاشفي: ينبغي للذاكر أن يحفظ الخواطر ساعة أو ساعتين كلما تيسر لا يخطر غير الله في خاطره. قال مولانا قاسم الذي هو من كبار أصحاب الشيخ

(1) باز بمعنى الرجوع، وكشت... المراد بها عندهم أنه ينبغي أن يرجع في النفي والإثبات: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 63.
(2) نكاه بمعنى الحفظ، وداشت... يريدون بها أن يحفظ السالك قلبه على ملاحظة النفي والإثبات: تهذيب المواهب السرمدية، ص: 63.

مولانا وسيدنا أنا أحفظ الخواطر من طلوع الفجر إلى الضحى على وجه لا يكون للقوة المتخيلة أثر. قال أهل التحقيق وأرباب البقاء بعد الفناء: إن زوال[1] المتخيلة أمر عظيم ولو كان ساعة. ولبعض الكمل: يتفق هذا أحياناً.

رشحة:

ياد داشت: وهو من حضور القلب مع الله تعالى على سبيل الدوام مع الذوق والوجدان، وقال بعضهم: هو حضور بلا غيب، وعند المحققين: المشاهدة التي هي عبارة عن استيلاء شهود الذات بتوسط الحب الذاتي كناية عنه.

قال سيدنا ومولانا في شرح الكلمات الأربعة: ياد كرد، يعني ذكرك مع التكلف، وباز كشت: يعني رجوع السالك إلى الحق، سبحانه وتعالى، بعد ذكر لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهذه الكلمات: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، ونكاه داشت: يعني محافظة هذا الرجوع بلا تلفظ اللسان. ياد داشت: يعني رسوخه فيه.

رشحة:

وقوف زماني، قال الخوجة بهاء الدين نقشبند قدس سره: هو عبارة عن أن تكون واقفاً على أحوال نفسك إن كان موافقاً للشريعة مرضياً لله فاشكره وإلا فاستغفره. وقال مولانا يعقوب الجرخي[2] قدس سره: أمرني شيخي في حالة القبض بالاستغفار وفي حالة البسط بالشكر. وقال: رعاية هذين الحالين عبارة عن الوقوف الزماني. وقال الخوجة بهاء الدين نقشبند قس سره: مبنى طريق السالك في الوقوف الزماني على الساعة حتى يكون السالك واقفا على نفسه أنه يخرج بالحضور وبالغفلة، والوقوف الزماني عند الصوفية عبارة عن محاسبة الأحوال. وقال الخوجة بهاء الدين: المحاسبة أن تحسب كل ساعة أنها مضت بالغفلة أو بالحضور، ثم

(1) في ط: زوال.
(2) الشيخ يعقوب الجرخي، متصوف عارف، ولد في جرخ، ثم رحل إلى هراة ومصر، أنظر ترجمته وأخباره في: تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشندية، ص: 90.

تفهم وتحسب أن كل الأوقات والأفعال كانت، وترجع إلى الابتداء وتعمل بطريق المبتدي.

رشحة:

وقوف عددي، هو عبارة عن رعاية العدد في القلب لاجتماع الخواطر المتفرقة، وينبغي للطالب أن يراعي العدد الوتر يذكر مرة أو ثلاث مرات أو خمس مرات على هذا القياس إلى إحدى وعشرين مرة. قال الخوجة علاء الدين العطار قدس سره: ينبغي أن يذكر السالك مع الحضور والشهود، ولو كان مرة واحدة، والتكثير ليس بشرط، وإن جاوز العدد في ذكر القلب عن إحدى وعشرين مرة ولم يظهر له الأثر، والنتيجة فهو دليل على بطلان العمل، واثر الذكر أن ينتفي وجود البشرية في ذكر كلمة النفي وفي الإثبات يظهر أثر من تصرفات الجذبات الإلهية. وقال الخوجة نقشبند قدس سره: الوقوف العددي أول الدرجات من درجات العلم الذي يحتمل أن يكون معناه بنسبة المبتدئ مطالعة هذه الآثار وتصرفات الجذبات الإلهية كما قيل، فإنه حال موصل إلى مرتبة القرب ويكشف له فيها العلم اللدني، وبنسبة أهل النهاية أن يقف السالك على سريان الواحد الحقيقي في الأشياء كما هو واقف على سريان الواحد العددي في جميع الأعداد الحسابية

[طويل]

تعدد هذا الكونُ والكثرةُ التي ... تلوحُ خيالٌ كالسرابِ مَحلها

وما ثَم إلا واحدٌ جلَّ ذكرهُ ... لنا يتجلى في المظاهرِ كلها

وقال بعض الأكابر:

[بسيط]

من واحد العد كل العد منتشي ... نراهُ قد قدمَ التفصيلَ والجُمَلا

وإن يكنْ ليسَ منها فهْوَ مُنشؤها ... هذا بإجماعِ أهْلِ الكشفِ والعُقَلاَ

ولا يخفى عليك أن العلم اللدني علم يفهمه أرباب القرب بالتعليم الإلهي لا بالدلائل العقلية والشواهد النقلية، كما يدل عليه الكلام القديم في حق الخضر عليه السلام: (وعلمناه من لدنا علماً)[1]، والفرق بين علم اليقين والعلم اللدني أن علم اليقين عبارة عن إدراك نور ذات الله وصفاته، والعلم اللدني عبارة عن إدراك المعاني وفهم الكلمات من الحق سبحانه بطريق الإلهام.

رشحة:

وقوف قلبي: وهو محمول على معنيين، أحدهما أن يكون الذاكر حاضراً واقفاً بالحق سبحانه. قال سيدنا ومولانا: الوقوف القلبي عبارة عن الحضور والشهود لجناب قدسه على وجه لا يكون له إرادة والتفات إلى غير الله تعالى. وقال في محل آخر: إن هذا الحضور شرط ملازم في الذكر، وهذا الحضور يسمى الشهود والوصول والوجود والوقوف القلبي، وثانيهما أن يكون الذاكر في أثناء الذكر متوجها للقلب الصنوبري الشكل، وهو في الجانب الأيسر محاذيا للثدي الأيسر، فلا يفارقه يذهل على الذكر ومفهومه. وقال الخوجة نقشبند قدس سره: إن حبس النفس ورعاية العدد ليسا بشرط في الذكر لكن الوقوف القلبي بكلا المعنيين شرط فيه.

[بسيط]

لبيضَةِ القلبِ كن كالطيرِ مُحتضنا ... فهْيَ التي تلدُ الأحوالَ أجمعهَا

فلما قرب أجله أمر بإرشاد الناقصين أربعة نفر كلهم كانوا في مرتبة الإرشاد والهداية على الترتيب، كما سأذكرهم إن شاء الله تعالى. انتهى ما أردنا اقتطافه من كلام السادات النقشبندية، وفيه كفاية في التشويق إلى سلوك طريقهم لمن وجد مرشدا أو صحبة، والموالاة لهم فلها نفع عظيم والله بكل شيء عليم، واغتفرت ما في هذا الكلام من الطول لأجل ما اشتمل عليه من الفوائد التي لا توجد في غيره، وقصدي إن شاء الله من كتابة هذه الرحلة أن تكون في ديوان علم لا كتاب سمر وفكاهة، وإن وجد الأمران فيها معاً فذلك أدعى لنشاط الناظر فيها، سيما إن

(1) الكهف: 64.

كان صاحب تلوين، وأما صاحب التمكين فلكل شيء عنده موقع ونفع لا يوجد في غيره، والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا ويخلص لوجهه فيما نأتي ونذر قصدنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وبالإجابة لدعاء سائله كفيل، و لم يتسع الوقت مدة إقامتنا بمكة مع شدة الحر لاستيعاب الأماكن الفاضلة التي تزار بمكة شرفها الله، وأذكر بعضها، إن شاء الله، عند ذكرنا المجاورة بمكة.

و لم نزر في هذه المدة إلا الدار التي ولد فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد اتخذت الآن مسجداً ومزاراً عظيماً يجتمع إليه الوفود من كل جانب أيام المولد النبوي.

قلت: وقد علم من كتب السير ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء، وعلى أنه بمكة فقيل بالشعب، وقيل بالمحصّب إلى غير ذلك من الأقوال.

ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص، اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده، صلّى الله عليه وسلّم، فيترجح القول بأنه في مكّة في قضية عادية، وهي أنّ ولادة الإنسان في الغالب في مترل والده. وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة، فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله.

والعجب أنهم عينوا محلاً من الدار مقدار مضجع، وقالوا له: موضع ولادته صَلَّى الله عليه وسلم! ويبعد عندي كل البعد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف، لما تقدم من الخلاف في كونه في مكة أو غيرها، وعلى القول بأنه فيها ففي أيّ شعابها؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور؟ وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار.

والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سيّما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك، وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقيد بالأماكن التي لم يتعلّق بها عمل شرعي، لصرفهم اعتناءهم، رضي الله عنهم، لما هو أهم، من حفظ الشريعة، والذبِّ عنها بالسنان واللسان، وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام، من

مساجده عليه السلام، ومواضع غزواته، ومدفن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة، فما بالك بما وقع في الجاهلية، لا سيّما ما لا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له، كمولد علي ومولد عمر، ومولد فاطمة -رضي الله عنهم جميعهم -، فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة، فيقولون: هذا مولد فلان، هذا مولد فلان، وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم، لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبَّه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات، وإن كانوا أهل جاهلية. وأما مولده فمن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن، تقطع بعدم معرفته، إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته.

وحاصل الأمر أنَّ هذه أماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أُضيفت إليه، فيستحضر الزائر في قلبه عظمة من نُسبت إليه الأمكنة، وعصمة تلك النسبة، ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدمت في نفس الأمر، فرعاية تعظيم الموجودة على الألسنة له أثر كبير في الجلب والدفع، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيماً يوافق أوامره.

ومما زرناه أيضاً مولد فاطمة، رضي الله عنها، في دار خديجة رضي الله عنها والتعيين أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره. وزرنا أيضاً مولد علي رضي الله عنه، وزرنا أيضاً دار أبي بكر، رضي الله عنه، وغالب هذه الأمكنة اتخذت مساجد ومزارات، وبقرب دار أبي بكر، رضي الله عنه حجر في جدار فيه كأثر المرفق يقال إنَّ مرفق النبي صلى الله عليه وسلم غاصت فيه لما استند إليه والناس يتمسحون به ويتبركون، وقد تمسحنا به وتبركنا بالنية المتقدمة، والله ينفعنا بذلك. وكثير من هذه الآثار الشريفة والمشاهد المنيفة قد تطاولت عليها الأعصار ووجد التنصيص على اشتهاره في القرون الماضية من كثير من المؤرخين والمرتحلين، مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني وما بقربهما، فتزار بالنية المتقدمة وبنية بركة من دخلها وتبرَّك بها من المسلمين من لدن تلك الأعصار إلى الآن، وقد علم اختلاف الأئمة في القديم والحديث في تتبع هذه الآثار والمشاهد التي لم يرد بها خبر صحيح بمكة والمدينة والقدس، وميل أكثرهم، سيما المالكية أئمتنا إلى عدم التقيُّد بذلك لما علم من شدة حرصهم على الاتباع. فقد ورد أن عبد الله بن عمر، رضي الله

عنهما، ارتحل إلى المسجد الأقصى فلما دخله لم يزد على أن صَلَّى فيه ركعتين ودعا ورجع من يومه، و لم يقف إلى الصخرة ولا إلى غيرها من الآثار والمشاهد الكائنة هناك مع كثرتها، إذ لم يصح في الحديث إلا إتيانه للصلاة به، فاقتصر على ما صَحَّ عنده، و لم يعرج على غيره، والكل إن شاء الله مصيب، وتحقيق الكلام في هذه المسألة يطول، وفيما ذكرنا إشارة إجمالية تُغني المتأمِّل عن التفصيل، وربما نلم ببعض المباحث المتعلقة بذلك عند ذكرنا إن شاء الله مشاهد المدينة مشاهد بيت المقدس إن ساعد القدر.

ذكر الخروج من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة
زادهما الله شرفا

ولما كان يوم الأحد الموفى عشرين من ذي الحجة أخذ المغاربة في الرحيل من مكة بعدما قضوا[1] أوطارهم واشتروا تجارهم، وهم أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة، فلا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرفة، فطفنا طواف الوداع ضحى، وودعنا مشايخنا وأصحابنا، وخرجنا إلى مترل الحاج، وهو الشبيكة.

لطيفة:

لما عزمت على المجاورة بالحرمين واطمأن القلب لها، لم أجد عند الوداع والخروج من مكة من الاشتياق والتألم لمفارقة البيت والاجتهاد في الدعاء ما كنت أعهد في نفسي في غير هذه المرة عند الخروج ولشاهده من غيري، لعلمي بأني مقيم في البلد وناو الرجوع إليها من المدينة، فلم أجد ما يجد غيري من الراجعين إلى بلادهم فقلت في نفسي: لعل ما يجده المودع الراجع إلى بلاده بسرعة من ألم الفراق والتعطش إلى المشاعر العظيمة واجتهاده في الدعاء، مع الإقبال على التضرع بكليته، يوازي عند الله أعمال المجاور والمقيم بمكة طول السنة، إذ لا يحصل لهم في الغالب ذلك، وقليل عمل مقرون بتلك الأحوال السنية التي تحصل للمودع يعدل عند الله كثير عمل من ذلك، ولا يبعد أن يكون الأمر كذلك. ثم ارتحلنا من الشبيكة، وهي الثنيَّة السفلى التي بأسفل مكة، ومنها خرج صلى الله عليه وسلم.

---

(1) في ط: أفاضوا.

لطيفة:

قال ابن رشيد في رحلته: "وذكر بعض أئمتنا أنّ الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضاً"[1]، فرُوي عن الحافظ أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي[2] قال: "كَدَاء الممدودة هي بأعلى مكة عند المُحصب، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من ذي طوى إليها، أي صعد إليها. وكُدىً بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذي طوى بقريب من شعب الشافعين عند قُعيقعان، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من ذي طوى إليها؛ أي صعد إليها، وكُدىً، بالضم والتنوين، بأسفل مكة عند ذي طوى بقريب من شِعب الشافعيين عند قعيقعان، حلّق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، منها إلى المحصّب، فكأنه، صلى الله عليه وسلم، ضرب دائرة في دخوله وخروجه، بات، صلى الله عليه وسلم، بذي طوى، ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها، وفي خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب"[3]. قال أبو محمد الأندلسي الظاهري: أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العذري[4] عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك[5].

قال ابن رشيد: وإنما سلك النبي، صلى الله عليه وسلم، هذا الطريق ملحقاً شبه دائرة لأنه لا يحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك، فتأمله، والله أعلم[6]. انتهى كلام ابن رشيد رحمه الله حسبما نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه؛ صاحبه عبد المهيمن الحضرمي[7] رحمه الله تعالى، رأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار، وذكر في آخرها أنه

(1) ملء العيبة، ص: 82.
(2) أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد ابن حزم الإمام،الأندلسي القرطبي، الفقيه الحافظ المتكلم الأديب، الوزير الظاهري صاحب التصانيف، ولد بقرطبة سنة 384 هـ، وتوفي سنة456 هـ: سير أعلام النبلاء 184:18. وفيات الأعيان 325:3.
(3) ملء العيبة، ص: 82 – 83.
(4) أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري الأندلسي، الإمام الحافظ المحدث، ولد سنة 393، وحج به أبواه وهو حدث، فقدموا مكة في سنة408 هـ، فجاوروا ثمانية أعوام،صنف دلائل النبوة وكتاب المسالك والممالك وغير ذلك، مات سنة 478 هـ: سير أعلام النبلاء 567:18.
(5) مل العيبة، ص: 83.
(6) نفسه.
(7) عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي أبو محمد، مولده بسبتة عام ستة وسبعين وستمائة، ولي الكتابة والإنشاء للسلطان المريني أبي الحسن، وتوفي بتونس ثاني عشر شوال عام 709هـ في الطاعون: نفح الطيب 465:5. الأعلام 41:4.

استخرجها من مسوَّداته بعد عشرين سنة من رجوعه بسؤال عبد المهيمن المذكور منه ذلك. قال: بعدما كنت أغفلت ذلك وأعرضت عنه لقلة من يرغب فيه. فإذا كان الناس في زمانه لا يرغبون في جمع فوائد المرتحلين، سيما مثله في ضبطه وإتقانه وكثرة جمعه، فما بالك في زماننا هذا الذي عم فيه الفساد وغلب على بضاعة العلماء، ولا يسمع من فوائد الرحلة إلا ما كان أسمارا، وصارت حُلة الأدب فيه أطمارا، فالمشتغل بجمع ذلك مثلي، أو من هو على شكلي، ليس في الرأي ذا إصابة، إن لم يجعل ذلك عوضا عن البطالة.

قلت: وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم الظاهري من خروجه عليه السلام إلى عرفات من كدى، لم أرَ من ذكره من أهل السير والحديث، مع شدة تتبعهم لأفعاله، صلى الله عليه وسلم، في حجته لما جمعت من معالم الشريعة وقواعدها، وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته، صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا لا يكاد يخفى من أفعاله في ذلك الجمع العظيم، فقد حُفظ من أفعاله، صلى الله عليه وسلم، في تلك الحجة الخفي والجلي، حتى مبَاله، عليه السلام، في الشعب قبل الوصول إلى مزدلفة، فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسير، بيد أن الحافظ أبا محمد بن حزم مقر في مجمع الغرائب على سعة اطلاعه ووفور علمه وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقا لا يمكن أن يسوقها كذلك حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع، ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها، وهو أهل لذلك.

والمذكور عند سائر المحدِّثين أنه، صلى الله عليه وسلم، لم يزل نازلاً بالأبطح[1] من يوم دخول مكة إلى أن ارتحل ذاهبا إلى منى يوم التروية، ويبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى مكة، ثم يخرج من كدى ثم يصعد إلى كداء، فينزل منها إلى الأبطح، فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان الذي ارتحل، ومثل هذا ليس من الأفعال الجِبلية، ولو فعله، صلى الله عليه وسلم، لكان فيه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به، ولسأله أصحابه عن السر في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية، ولو كان ذلك لنقل نقلاً مستفيضاً وصار من أفعاله المطلوبة،

(1) الأبطح والبطحاء: المحصب: ملء العيبة، ص: 82.

وليس هذا مثل إدارته ناقته في محل لخفة الإدارة، وقد تكون لغرض اقتضاه الحال مثل قصد العدول إلى ناحية، أو إرادة تكليم أحد، فدارت الناقة لأجل ذلك، وذلك كثير ما يقع للإبل، ومع ذلك فقد نقل، فليتأمل ما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

وكان ارتحالنا من الشبيكة قبل الظهر، ومرضَ أخونا سيدي عبد الرحمن، وكان ابتداء مرضه بمكة، وتعب في الطريق من شدة الحر، ونزلنا من الظهر المسمى بوادي الشريف بعد العصر بقليل، ووجدنا أكثر الناس قد سبقونا إلى المترل، وبقي طوائف من الناس بمكة يأتون أرسالا إلى نصف الليل، وبتنا هناك. وفي الغد ارتحل الناس بعد طلوع الشمس وسرنا يومنا على الطريق المعهودة، و لم نقِل حتى نزلنا بعسفان بعد المغرب. ثم ارتحلنا وجئنا إلى خليص قبل الظهر في حر كثير مات منه أناس ومرض آخرون، وقيَّل الناس فيه، ثم بدا لهم في المبيت لدفن من مات، وفي آخر ذلك اليوم جاء إلينا مشايخ الركب وكبراؤه بالرحيل لئلا نجاور، وبالغوا في الحث والاعتذار، ورددناهم بأمر محتمل، وهم لا يشكون أنا قبلنا كلامهم، وكاد أخونا سيدي عبد الرحمن الذي كان سببا في المجاورة أن يميل إلى قولهم لما حصل له من المرض وما رأى من إلحاحهم علينا وإقسامهم، فلم أر رأيه في ذلك وهممت على المجاورة لأني خرجت من مكة غير مودع وداع مفارق، ولو ذهبت كذلك إلى المغرب لبقيت حسرة في قلبي ما شاء الله، ولكن الله بفضله وجوده أتم نعمته علينا وأسبغ آلاءه المترادفة إلينا من غير حول منا ولا قوة، فله الحمد والشكر، وهو رب العالمين.

ثم ارتحلنا من خليص ومررنا بقديد في الضحى الأعلى، و لم يقِل الناس ذلك اليوم لأنّ الهواء فيه بعض رطوبة، ومررنا بالسبيل الذي هناك قبل العصر، وفيه ماء قليل وحوله ناس من الأعراب يبيعون العلف والحبحب والرطب، يأتون بكل ذلك من القرية التي بإزاءه، وبينه وبينها عدة أميال على يمين القادم من مكة، و لم نبت ذلك اليوم حتى قاربنا الرمل الذي دون الجحفة، ثم ارتحلنا منه غداً وجئنا إلى رابغ عندما اشتد الضحى ونزل الناس به قائلين، ثم بدا لهم في المبيت خوفاً من العطش بالبزوة إن باتوا بعد ليلتين، فلما صلينا الظهر برز الناس إلى جانب الوادي الغربي وكانوا في النهار متفرقين في القهاوي والأجنة، ونزل بعضهم أعلى الوادي وبعضهم أسفله، واجتمعوا عند المبيت إلى محل يمكنهم منه التبكير.

ثم ارتحلنا من رابغ، وبالغ الناس في حمل الماء خوفا من العطش لكون البزوة معروفة في أيام الشتاء، فضلاً عن أيام الحر بذاك، وقد أخبرنا شيخنا سيدي محمد بن مساهل الطرابلسي أنه لما حج في سنة سبع وستين خرجت عليهم ريح في هذا المحل أهلكت كثيرا من الناس، وكان ذلك في أيام البرد، ولأجل ما يقع في هـذا المحل من العطش اتخذ فيه سبيلان للماء يجلب إليهما من نحو مرحلة، أحدهما يسمى سبيل مُحسن، إضافة لبانيه ومحبسه الأمير محسن[1] والد زيد بن محسن أمير مكة، وهو الذي يلي مسيترة، والآخر لولده زيد، وهو الذي يلي بدرا، وقد قسما المسافة ما بين بدر ومسيترة إثلاثا في التقدير، إلا أنهما قل ما يوجد فيهما ماء ليسارة ما يحمل إليهما من الماء لبعد الشقة.

ومررنا بمستيرة ظهراً، ولم يقل الناس لكون الهواء فيه بعض البرودة، وساروا يومهم ذلك حتى العشاء ونزلوا قرب سبيل محسن. ثم ارتحلنا من هناك ومررنا بالسبيل الآخر ظهرا، وما قيل الناس أيضا، وجئنا لبدر قبل غروب الشمس بقليل ونزلنا على طرف البركة التي هناك، ولم يتيسر للناس إخراج خزينهم في تلك الليلة، فلما أصبحوا أخذ الناس في رفع أزودتهم المدخرة هناك، ووجدوا ببدر رطبا كثيرا بأرخص قيمة وأخذوا منه ما اشتهوا، ولَمَّا لم يرتحل الركب صبحاً ظنوا أنهم لا يرحلون إلى آخر النهار، ويبرد الهواء، وبينما هم في اشتغالهم قبل الظهر بقليل في أشد ما يكون من الحر إذ ضرب شيخ أهل تونس طبله وارتحل الناس بلا مشورة، واشتد الحر عليهم ما بين تلك الجبال، ولم يصلوا إلى الصفراء[2] حتى وقع الموت في الإبل والناس، فمات ناس وإبل كثيرة من شدة الحر، وكان من لطف الله بنا أنا لما اشتد الحر عدلنا إلى قهاوي على يسار الطريق وأنخنا إبلنا خارجها، ودخلناها وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل، وتوضأنا وصلينا الظهر والعصر، ثم سرنا آخر الناس كلهم فلم يضع لنا جمل ولا رجل في ذلك اليوم، وبتنا بعدما جزنا الصفراء بساعة عند مفترق الطرق التي تذهب إلى الينبع والتي تذهب إلى جديدة[3]، ثم ارتحلنا منه وجئنا الجديدة وقت الغداء، واشتد الحر، ونزل الناس بها لخزن أموالهم وأحمالهم وما يفضل من زاد وعلف إلى أن يرجعوا من

---

(1) محسن بن الحسين بن الحسن، أمير الحجاز بين سنوات 1019 و1037هـ، ولد سنة 984 وتوفي سنة 1038هـ: خلاصة الأثر 309:3. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 341.

(2) الصفراء: قرية كثيرة النخل والمزارع: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 13.

(3) جديدة: قرية قرب المدينة: أنس الساري والسارب، ص: 91.

المدينة، وتلك عادة الركب المغربي والمصري، بل غالب المصري يبعثون أحمالهم وأثقالهم من بدر إلى الينبع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرضٍ لهم في الزيارة، إذ لا قصد لهم إلا في الكراء، وليس في بلاد الحجاز مكانا أشد حراً من هذه الخيوف فيما علمنا. ووجدنا هناك بركة عظيمة بجديدة بناها أمير الحاج الشامي ذات ماء غزير قد صنعت وراءنا، وما كنا رأيناها قبل ذلك، أعانت الناس في سقي الإبل وملء القرب، ولولا هي لأفناهم وإبلهم العطش؛ لأن ماء القرية التي يترل بها الحاج وجدناه قد غار، ورجع الناس إلى البركة فسقوا واستقوا وعزموا على الرحيل، ثم بدا لهم المبيت لكثرة الموتى والمرضى، ترى الرجل يمشي في حوائجه فتغيب عنه ساعة ثم يقال لك: قد مات، وذلك، والله أعلم، من شدة الحر وكثرة شرب الماء، مع التعب المفرط، فتنفرط قلوبهم، والله يعافينا. وفي هذه القرية مسجد جامع ببناء متقن تجري العين من تحته من بناء الأمير رضوان، رحمه الله[1]، وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدل على علو همته.

ثم ارتحلنا من جديدة وجئنا وقت الغداء للنازية[2]، ووجدنا بأولها سبيلا فيه ماء، وجئنا لمسجد الغزالة[3]، وهو من المساجد التي صلى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو المُسَمَّى عند المؤرخين بمسجد عرف الطيبة، وأناخ الناس فيه حتى أفطروا، ثم سرنا صاعدين مع الوادي حتى أتينا بئر الروحاء قبل الظهر وأنخنا فيه ساعة واستقينا منه ماء قليلا لأنّ بئره طويل وماؤه ضنين، وهو حلو وحوله بركة عظيمة قد تعَطَّلت، وبقربها مسجد وثيق البناء صحيح، ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه إعانة للحجاجٍ، (ولكن الله يفعل ما يريد)[4]. وقد ذكر السيد السمهودي قريباً من البئر مسجداً من مساجده، صلى الله عليه وسلم[5]، ولا أدري هل هو المبني الآن أو غيره، وقد تأملت فيما قرب من البئر فلم أرَ أثر مسجد غير هذا. ثم سرنا منه واشتد الحر وجعلت الإبل تدخل في الشجر

---

(1) الأمير رضوان بن عبد الله الغفاري، أمير الحاج المصري، قال المحبي: وله الآثار الحسنة في طريق الحاج المصري والحرمين وكان حسن السيرة، مكث نيفا وعشرين سنة أميرا على الحاج، كانت وفاته سنة 1066 هـ: خلاصة الأثر 2:165.

(2) النازية: عين ماء: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 34.

(3) يقع مسجد الغزالة ــ كما حدده السمهودي ــ في آخر وادي الروحاء مع طرف الجبل على يسارك وأنت ذاهب إلى مكة: وفاء الوفا 3:433.

(4) البقرة: 253.

(5) وفاء الوفا 3:432.

وتطلب الظل وتمتنع من المشي، ولو ضربت، فيسير الناس ساعة ثم يقفون، ومات أناس آخرون، و لم ننزل حتى قربنا من شرف الروحاء، وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء قبل العشاء بقليل. ولما قرب الفجر مَرَّت بنا قافلة أهل المدينة التي جاءت من مكة وهم يسيرون ليلاً.

ثم ارتحلنا بعد طلوع الفجر وجئنا لقبور الشهداء عند طلوع الشمس، وقد ذكر بعض الناس أنَّ قبور الشهداء الذين يسمى بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلما[1]. وقد ذكر أيضاً السمهودي مسجداً من مساجده عليه السلام بشرف الروحاء[2]، وهناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد يزوره الناس، وأظنه هو. وفي شرف الروحاء آثار آبار معطلة وبنيان داثر، وقد كانت في القديم هناك قرية و لم يبق الآن بها شيء من ذلك، وقد وجدنا هناك سبيلا آخر مبنيا تجدد وراءنا فيه بعض ماء، وحوله ناس من الأعراب يبيعون الماء والعلف، وأخبرنا أن وراء الجبل بلدا خال فيه آبار وبعض نخيل، وأظنه السقيا، فإنها قريب من شرف الروحاء.

فلما جاوزنا شرف الروحاء وجدنا قافلة المدينة التي مرت بنا ليلاً نزلت أمامنا وتجاوزناهم حتى جئنا الموضع المسمى بالعريش، فأناخ الناس حتى أفطروا وساروا في يوم حار عازمين على دخول المدينة المشرفة في ذلك اليوم، و لم يعبأ الناس ولا إبلهم بما لقوا من شدة الحر في ذلك اليوم لشدة الفرح الذي استولى على المرح، وإذا عمرت القلوب بالمسرات ذهلت الأجسام عما تلاقي من المضرات، وإذا تنغمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح، وأي مسرة أعظم من الدنو من دار الرسول؟ وأي لذة أهنا وأمرا من تنشق نسيمها الذي هو غاية المنى والسول، فلعمري لقد انتعشت الجسوم بعدما ذبلت، وطلعت شموس الأفراح بعدما أفلت، وانبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرقت، وسرى إجلالها وإكبارها من الأفئدة إلى الرؤوس، وأطرقت وظهر آثار النشاط والمرح في الركائب، فأسرعت وخفت من دون حاد ولا سائق وأوضحت، وكان ما يلفحها من سموم الرمضاء نسيم السحر، وكان عرفها السائل مع الأعناق بليل المطر، لا تلوي إلى سمرة خضراء، ولا تألوا ما أسرعت في

---

(1) أنظر: وفاء الوفا 3:429.

(2) شرف الروحاء، يقع على ميلين من السيالة قبلها، ويسمى مسجد الشرف، وبين السيالة والروحاء أحد عشر ميلا: وفاء الوفا 3:428.

مومات غبراء، وعندما شاهدت من صنيعها الغريب، ترنمت فوق الأكوار وأنشدت[1]:

[طويل]

خَليليَّ ما للعيسِ في سيْرها تعدُو | ومن قبلُ أعيَتْ من يسوقُ ومن يحدُو
أظُن لها علمًا يَقينا بأنها | لقبْرِ رسولِ الله قد أصبحَتْ تعدو
لذلكَ لم تجزَعْ لِحَر أصابها | كما جزعَتْ بالأمْسِ إذ مسها الجهْدُ
فلا تعجبُوا من علمِها باقترابها | وليسَ لها بالدارِ من قبلِ ذا عهدُ
ففضلُ رسولِ الله في الكونِ ظاهِر | أقرتْ به العجماءُ والحجَرُ الصلدُ
وأنوارُ أرضٍ حُلها قد تلألأتْ | أحسَّتْ بها الأبصارُ والعظْمُ والجِلدُ
دنَتْ فدنَتْ أعلامُها فبَدا لنا | من الشوقِ في الأحشاءِ ما لم يكُن يبدوُ
عليها منَ الرحمنِ أزكى تحية | تدومُ دواما ما لآخرهِ حَدُّ
تكادُ من الأشواقِ أرواحُنا لها | تطيرُ ولم تجزَعْ وأني لها كدُّ
ولولا الذي قد عاقَها من جُسومنا | لطارَتْ ولكن الجسومَ لها قيْدُ
وكنا نظُن القربَ يذهِبُ بعضَ ما | بها فإذا بالقرْبِ زادَ لها الوجْدُ
ولِمْ لا وءانُ الوصْلِ محكم ذكرها | غدا ناسِخا ما كان يقرؤهُ البُعدُ
أتاحَ لنا الرحمنُ فيها إقامَة | بخيرِ إلى أن يحويَ الجسد اللحدُ
بجاهِ حبيبِ الله أفضلُ من بهِ | توسلَ من لم يُغنهِ الجَد والجِدُّ
عليه صلاةُ الله ما دامَ وصلهُ | يزيدُ له شوْقي إذا ذُكِرت نجدُ

ومما قلته في ذلك اليوم أيضاً ونحن سائرون وبأجنحة الشوق طائرون، والناس بين قائل: لا نبيت الليلة إلا إلى المدينة، وقائل: بل نبيت وغدا ندخلها

(1) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 82.

سكينة، وهواي مع القائل الأول، وأعرضت عن الثاني وما تأول، فأنشدت مرتجلا، وكنت من المبيت دونها وجلا[1]:

[طويل]

هنيئا لقلبي هذه دارُ سَيدي | دَنتْ فدنتْ كل المسرةِ من يدِ
وقد كنتُ أقصى الغربِ أطلبُ وقفة | من الله قبلَ الموتِ في خيرِ مشْهدِ
وأرجُو وصَالا مذْ سنينَ كثيرَة | فها أنذا أرجوهُ في اليومِ أو غدِ
جديرٌ بمن قد نالَ ما نلتُ أن ترى | له جلسةٌ من فوقِ هامَةِ فرقَدِ
لأعلامِ دارِ المُصطفى هذه التي | نشاهِدُها من ربوةٍ فوقَ فرْقَدِ
كأن ثَراها مِسكُ دارينَ[2] والحصى | فرائدُ دُر في قِلادةِ عَسجدِ
إذا عاينَتْ أعلامَ طيبةَ مُقلتي | ترنَّح جسمي كاهتزازِ المُهندِ

و لم تزل ذلك اليوم في أرغد عيش، وإن كان لأجل الشوق غير خال من الطيش، لا تسمع الآذان إلا الحبيبة مسكن الحبيب، ولا تشاهد الأعين إلا مشاهد تحن إليها بنسب قريب، والزوار في كل واد يهرعون، وإلى الارتقاب فوق كل مرقب يسرعون، ليشاهدوا بعض تلك القباب، فتمتع العين قبل تمتع الجسم بالدخول من الباب، وأول مكان ترى منه قبابها وأسوارها، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرّح، إذ لا يبقى بعد الصعود إليه هم مبرح، فتسارع الناس عند الدنو منه صعوده، وتباشروا برؤية منزل الرسول وشهوده، فلم يتخلف عن الصعود إليه إلا من لا قدرة له عليه، وفي ذلك قلت هذه الأبيات ذاكراً لبعض المعالم التي هي للقرب من أصدق الآيات:

[كامل]

يا صاحِبي نلتَ المُنى فاستبْشِرِ | ودنوتَ من دارِ الرسُولِ الأطهَرِ

(1) وردت القصيدة في: الثغر الباسم، ص: 82.
(2) دارين: قريب في بلاد فارس على شاطئ البحر، وهي مرفأ سفن الهند بأنواع الطيب، فيقال مسك دارين وطيب دارين: معجم ما استعجم 2:538.

وبدتْ معالِمُ طيبـــةٍ لـــكَ فاســـتمعْ أوصافَها من صـــادقٍ لـــك مُخبِـــرِ
هـــذا مُفـــرّحُ كاسِـــهِ وكأنـــهُ ياقوتـــةٌ رُشَّـــتْ بـــذائب عَنْـــبرِ
وأمامَـــهُ البيـــداءُ يـــسطعُ نورُهـــا لبصائرِ الزُّوارِ هـــل مـــن مُبـــصِرِ
وعلى يمينكَ قد بـــدا عِـــيرٌ يُـــرى بالقرب كـــالثورِ العقِـــيرِ الأعْفَـــرِ
وأنِـــخْ ركابَـــكَ بـــالُمعرس إنـــهُ لمبـــــارَكٌ وبمائـــــهِ فتطَهّـــــرِ
واحْدُ الركابَ مع العقيـــقِ مُنعمـــا عينيـــكَ في ذاكَ المكـــانِ النيِّـــرِ
يـــا حَبـــذا أحُـــدٌ نـــراهُ يحبنـــا ونحبُّـــه[1] جبـــلٌ جميـــلُ المنظـــرِ
فكأنما هُـــو حُلـــةٌ مـــن عـــسجَد صـــبِغتْ جوانبـــها بمِـــسكٍ أذْفَـــرِ
وإذا أتيـــــتَ لحـــــرَّةٍ غَربيـــــة وعلـــوتَ غاربَهـــا عُلـــو مُـــشمرِ
ودنا النقا وبَـــدا المُـــصلى فـــاغتبطْ بالقُربِ من أصْلِ المفـــاخرِ وافخَـــرِ
واترُكْ قباءً عـــن يمينـــكَ واجعلـــنْ سِلعًا فُويتك في الجنـــاب الأيْـــسرِ
واصمدْ تُجاهك يعترضْـــك مُهنيـــا بَطحـــانَ ذُور مَناخـــةٍ والعَنـــصرِ
مـــا بعـــدَ ذا إلا الـــدخولُ لِطيبـــة بِـــسَكينةٍ تمـــشي بـــدونِ تكبُّـــرِ
يهديكَ للحرَمِ الأمينِ شـــذاهُ مـــن باب الـــسلامْ أدخلـــهُ دون تَـــصبُّرِ
وعن الصلاةِ علـــى الـــنبيِّ مُـــسَلما مهمـــا قربـــتَ لـــدارهِ لا تفتـــرِ
واعلمْ بأنـــكَ إن وقفـــتَ مُـــصليا ما بـــينَ روضـــةِ سَـــيدي والمنبَـــرِ
في روضـــةٍ مـــن جنـــةٍ مُتقلبـــا هـــيَ أرضُـــها في طـــاهرٍ ومُطهـــرِ
تغشاكَ من رحمـــاتِ ربـــك نَفحـــة تحظى بهـــا دُنيـــا ويـــومَ المَحـــشرِ

(1) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة: المعجم الأوسط 315:6.

فلأنــتَ بينـــهما يقينــا واقِـــف — مـــا بـــين جنـــةِ عدنـــهِ والكـــوثرِ
فـــإذا وقفـــتَ أمـــامَ وجـــهِ نبيـــهِ — حيـــاكَ بالرضـــوانِ منـــه الأكبَـــرِ
فهناك تستجلي البصيرةُ إن صـــفتْ — أصلُ الجمالِ بـــدا بـــأعظمِ مظهَـــرِ
فتـــرى العـــوالِمَ كلـــها بجمَالهـــا — وجلالِها حضرتْ بأقـــدسِ محْـــضَرِ
أصلُ الوجودِ ومنبعُ الجـــودِ الـــذي — عـــمَّ المظـــاهِرَ في جميـــعِ الأعـــصُرِ
نـــورُ الإلـــهِ بـــه اســـتنارَ عبـــادهُ — دُنيا وأُخـــرى ذي المُحيـــا الأزهَـــرِ
محمودُ كل الخلـــق أحْمـــد حامِـــد — ومحمـــد بمقـــامِ حَمْـــدٍ أشـــهَرِ
صـــلى عليـــه الله خـــيرَ صـــلاتهِ — والآل والأصحَاب أكـــرَم معـــشَرِ

ولما تجاوزنا جبل مفرح غلوة[1] أو غلوتين، وصلنا إلى منتهى أبعد الحرمين، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد، وحده طرف البيداء التي بها الهموم تبيد، وقطعناها بفرح وسرور ونشاط وحبور، وجئنا وقت العصر إلى ذي الحليفة[2] وقد نسي كل إلف من شدة السرور أليفه، وهي البطحة المباركة المكينـــة وميقـــات ساداتنا أهل المدينة، وفيها المُعَرس[3] الذي أمر النبي، صـــلى الله عليـــه وســـلم، بالتعريس فيه، فنحن في ذلك نقتفيه، فأنخنا بها حتى تطهرنا وصلينا الظهرين جماعة، وذلك في أقل من ساعة، وآثرنا الركاب نحثها حثا، وتيممنا المدينة و لم نطق دونها لبثا، وأغنانا التمتع بمسارح العقيق عن مساءلة الخل والرفيق، فوصلنا الحرة الغربية عند المغرب، وكان مرأى ومسموع لنا مطرب، و لم نترل مع ركـــب أصـــحابنا المغاربة إيثارا للدنو من الحرم والمقاربة، فعدلنا بعدما تجاوزنا بُطحان ذات اليمين، ودرنا مع سور المدينة الأمين إلى أن أتينا باب البقيع، وحللنا في حمى أهلها المنيع،

(1) الغلوة: قدر رمية بسهم: لسان العرب: غلا.
(2) ذو الحليفة :تصغير حلفة، وهي ماءة بين بني جشم بن بكر بن هوازن وبين بني خفاجة العقيليين رهط توبة، بينه وبين المدينة ستة أميال وقيل سبعة، كان منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من المدينة لحج أو عمرة، فكان ينزل تحت شجرة في موضع المسجد الذي بذي الحليفة اليوم، فإذا قدم راجعا هبط بطن الوادي، فإذا ظهر من بطن الوادي أناخ بالبطحاء التي على شفير الدار الشرقية، فعرس حتى يصبح فيصلي الصبح: معجم ما استعجم 1:464.
(3) المعرس: مسجد ذي الحليفة على ستة أميال من المدينة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرس فيه ثم يرحل لغزاة أو غيرها: معجم البلدان: المعرس.

ودخلنا منه بعد العشاء، وأذهلنا الالتذاذ بذلك عن طلب العشاء، ونزلنا بربـــاط سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق[1] مستجيرين بحماه من كل سارق وطـــارق إلا طارقا يطرق بخير، أو زائر يهني بانتهاء السير، فألقت عصاها واستقر بها النـــوى، كما قر عيناً بالإياب المسافر، وقد تيممنا بالنزول بجوار هذا السيد الجليل والإمام الأصيل، عظيم من عظماء أهل بيت الرسول، كريم يبلغ بجواره المنى والسول.

(1) إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو الحسن، كان من وجوه بني هاشم وأفاضلهم، وتوفي ببغداد سنة 210 هـ: تاريخ بغداد: 6: 260.

ذكر دخولنا[1] المدينة المشرفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

كان دخولنا للمدينة المشرفة ليلة الخميس الثانية من محرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف، وبتنا تلك الليلة بالرباط المذكور، فمنا من زار ومنا من تأخر إلى الصباح، لأن الحرم الشريف بعد صلاة العشاء يغلق ولا يكون له إلا قرب الفجر انفتاح. وكنت فيمن أخَّر الزيارة لشغل البال، وضيق الوقت ومزاحمة الأشغال. فلما كان قبل الفجر بقليل اغتسلت وذهبت إلى المسجد الأثيل، وصليت في روضة الجنة، وعظمت علي من الله المنَّة، وزرت أكرم نبي وأفضل رسول، وسلمت عليه وعلى صاحبيه الفائزين من قربه بأعظم مأمول، وصليت الصبح بذلك الحرم، وكرعت في مناهل الفضل والكرم. ثم رجعنا إلى محلنا ومحط رحلنا، وأخذنا في أهبة المجاورة، وانقطعت بيننا وبين أصحابنا في ذلك المحاورة، وما كان شيء أهم إلي ولا أشد علي من إقسامهم علي بالنبي، صلى الله عليه وسلم، بين يديه على ترك المجاورة لديه، وكنت أتَخَوَّف منهم ذلك قبل الوصول، ونهيت من توهم ذلك منهم أشد النهي مخافة التورط في سوء أدب يعسر الانفكاك منه بعد الحصول، فسلم الله من ذلك ووقانا شر ما هنالك، وأذعنوا للتفرقة بعدما علموا مني الخبر، وما يغني الحمد لولا مساعدة الجَد.

وأقمنا يوم الخميس ويوم الجمعة، وفي ليلة السبت نزل الركب المصري ليلاً وأقام أصحابنا المغاربة معه في المدينة يوم السبت، وبلغ الله أمنيتهم في إقامة ثلاثة أيام صحيحة بالمدينة وأربع ليال، فقرت أعينهم بذلك، وكانوا تخوفوا إزعاج المصري إياهم عن الإقامة، كما هو شأنه في غالب السنين، فلا يقيمون إلا يوماً واحداً. وفي هذه السنة أشغلهم عن ذلك ما وقع بينهم من الاختلاف، فقد جاءت كتب من مصر بعزل الأمير إبراهيم وتولية أبي الشوارب مكانه، وأبى الأمير

---

(1) ساقط من ط.

المعزول أن ينقاد لحكم العزل حتى كادت أن تكون فتنة، (ولكن الله سلم)[1]، فاستسلم للأمر الوارد، وسلم المحمل الأمير عبدان، وكان حج معه وأقام هو بالمدينة إلى أن توفي بها بعد شهر أو أزيد، ورجع أولاده وخدامه ومن كان معه إلى مصر، وكانوا يرون أنه مات مسموما ودفن بالبقيع، فتمت نعمة الله عليه ببركة حسن طويته، وكانوا أرادوا إهانته بالعزل، فكان له سبب الفوز بأكرم النزل، فأهله الله للموت بالمدينة، وتلك منقبة عند الله مكينة.

ولما كان صبيحة يوم الأحد تهيأ الركب المغربي للخروج، وخرج أصحابنا ضحى وودعناهم بالمسجد أمام الوجه النبوي، ولم نزد معهم، ورأيت أن ذلك هو اللائق في الوقت، وأن التوديع أمام وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، أدعى لحصول المراد لنا ولهم، ولرؤيته، صلى الله عليه وسلم، ما يلاقي الكل منا من فراق الآخر، كل ذلك طلباً لحصول مرضاة الله ورسوله، فعسى نفحة من نفحات جوده التي في ضمنها خير الدنيا والآخرة تهب علينا وعليهم. وقلت عند وداعهم بعد قضاء الحق الواجب من السلام عليه صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، إن هؤلاء إخواننا نسبا ودينا، وقد علم الله ما بيننا وبينهم من الألفة والمودة، وما حملنا على فراقهم طلب دنيا ولا جاه، بل حب مجاورتك، ولا طافت أنفسهم بتخلفنا عنهم أيضا إلا لإجلال قدرك، فهم في كفالتك يا رسول الله حتى يصلوا إلى أهليهم سالمين غانمين، كما أن في جوارك دنيا وآخرة حتى نلقاك على الحوض مطمئنين آمنين. وقد كَمَّل الله رغبتنا فيهم وفينا، فبلغوا على أحسن حال، وأقمنا على أجمل المراد حتى أقر الله أعين الكل بعد ذلك بالاجتماع في أوكاننا، فنسأل الله أن يتم لنا البقية بالسلامة والعافية ديناً ودنيا، ويَمُنُّ علينا بالعود إلى تلك البقاع الشريفة والموت بها على الملة الحنيفة.

ولما خرج أصحابنا وودَّعناهم وأيسوا منا كما أيسناهم، جَدَّدنا النيات وأخلصنا لله قدر الطاقة الطويات، واطمأنت القلوب، وانزاحت بفضل الله الأحزان والكروب، ورجعنا إلى الزيارة بقلوب من سوى ما هي بسببه فارغة، وترادفت علينا أنعم من الله سابغة. وفي صبيحة يوم الاثنين خرجنا لزيارة أهل البقيع، رضوان الله عليهم، وتتبعنا الأماكن المشهورة هناك. وكُنَّا في الأيام التي أقمنا قبل ذلك إنما نزورهم جملة لاشتغالنا بأسباب الانفصال والاتصال، فلما

(1) الأنفال: 43.

اطمأنت بنا الدار، وبلغنا الأوطار، أتيت الديار من أبوابها، وقصدنا المسببات من جهة أسبابها، فخرج معنا الناسك الزاهد أقدم المجاورين في تلك الديار هجرة وأكثرهم لما فيها من المشاهد خبرة الشيخ محمد الفزاري المالكي وأوقفنا على المشاهد كلها، وأرانا جليها وخفيها، ودعونا الله عند كل مشهد بما نرجو قبوله لنا لإخواننا ولأحبابنا الذين خلفناهم في بلادنا، ولمشايخنا وذرياتنا، نسأل الله أن يعود ببركة[1] ذلك علينا وعليهم في دنيانا وآخرتنا. وقد استوفى السيد السمهودي في تاريخ المدينة ذكر المشاهد الظاهرة بالبقيع أحسن استيفاء[2]، فليراجعه من أراد تحقيق ذلك، ولنذكر نحن بعض المشاهد ممن زرناه، وإلا فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع، فهي خارجة من الخلاف الذي في تفضيل المدينة على مكة؛ إذ لا تعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة وأفاضلها من الصحابة، خصوصا الخلفاء وأزواج النبي، صلى الله عليه وسلم، وأولاده وأكابر أهل بيته وسادات التابعين وتابعيهم بإحسان، فهم أول زمرة تحشر مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيهم خلفاؤه وأعمامه وعماته وبناته وولده إبراهيم وأزواجه وأكابر أهل بيته والجم الغفير من أصحابه وأنصاره وأولادهم وأتباعهم، فلا يشك مسلم أن ليس في أمة النبي، صلى الله عليه وسلم، أفضل من الزمرة التي تبعث من المدينة. وقد روي عن الإمام مالك، رضي الله عنه، أنه قال: دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة[3]، وبها شهداء أحد، وليس في غزواته، صلى الله عليه وسلم، أكثر من هذه الغزوة شهيداً، بها شهداء الخندق[4]، وبها شهداء الحرة[5]، وليس فيمن استشهد في الفتن بعد النبي،

(1) في ط: بركة.
(2) أنظر: وفاء الوفا 3:307.
(3) وفاء الوفا 3:300.
(4) كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس، وكان سببها فيما قيل أن نفرا من اليهود حزبوا الأحزاب على رسول الله، فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله، كما دعوا إلى حربه غطفان من قيس غيلان، فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن، فلما سمع بهم رسول الله وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار على رسول الله بالخندق سلمان رضي الله عنه: تاريخ الطبري 2:90. شذرات الذهب 1:11.
(5) كانت وقعة الحرة سنة 63 هـ، وذلك أن أهل المدينة خرجوا على يزيد، فجهز لهم مسلمة بن عقبة، فخرجوا له بظاهر المدينة بحرة واقم، فقتل من أولاد المهاجرين والأنصار ثلاثمائة وستة أنفس، وعددا من الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لثلاث بقين من ذي الحجة، وهجر المسجد النبوي فلم يصل فيه جماعة أياما، ولم تمتد حياة يزيد بعد ذلك ولا أميره مسلم بن عقبة: شذرات الذهب 1:69.

صلى الله عليه وسلم، أكرم منهم شهادة، وكم فيها من مآثر ومشاهد يعلم بعضها بالنظر في تآليف من ألف في فضلها.

ذكر المشاهد التي تُزار بمدينته عليه السلام

فأول ما يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب[1] على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي في وسط البقيع إلى ناحية المشرق، وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، حين خرج يستغفر لأهل البقيع، وقيل: هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب[2] التي دُفِن فيها، وفيها دفن كثير من أهل البيت. روى خالد بن [عرفطة] قال: كنت أدعو ليلة إلى زاوية دار عقيل، فمَرَّ بي جعفر بن محمد فقال لي: أعن أثر وقفت هنا؟ فقلت: لا. قال: هذا موقف نبي الله بالليل إذ خرج يستغفر لأهل البقيع، قال المراغي: وقد أخبرني غير واحد أن الدعاء هناك مستجاب[3].

فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يميناً إلى أن توازي قريباً من زاوية سور المدينة الذي فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك عن يسارك القبة الكبيرة الماثلة في الهواء وفيها مشهد العباس ومشهد الحسن بن علي، ومشهد أمه، رضي الله عنهم، على المشهور، ومشهد زين العابدين[4] ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وكثير من أهل البيت. وبين هذا المشهد وزاوية دار عقيل مشاهد متعدِّدة إلى جهة المشرق، منها مشهد أمهات المؤمنين، يُروى أنَّ فيه أمهات المؤمنين كلهن عدا خديجة

---

(1) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية أم الزبير عمة النبي صلى الله عليه وسلم. تزوجها الحارث بن حرب بن أمية أخو أبي سفيان فولدت له ثم خلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن العزي فولدت له الزبير بن العوام والسائب عبد الكعبة ثم لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسلمت صفية لما أسلم حمزة شقيقها وليس في إسلامها اختلاف بخلاف إخوتها وهاجرت إلى المدينة مع ولدها،وعاشت صفية إلى خلافة عمر فماتت ودفنت بالبقيع ولها ثلاث وسبعون سنة :رواة الآثار 99:1.الإصابة 743:7.

(2) عقيل بن أبي طالب الهاشمي، هو أكبر إخوته وآخرهم موتا وهو جد عبد الله بن محمد بن عقيل المحدث، شهد بدرا مشركا وأخرج إليها مكرها فأسر ولم يكن له مال ففداه عمه العباس، خرج عقيل مهاجرا في أول سنة ثمان وشهد مؤتة، توفي في زمن معاوية: سير أعلام النبلاء 218:1.

(3) وفاء الوفا 267:3.

(4) زين العابدين: على بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، ولد سنة ثمان وثلاثين بالكوفة، وتوفي سنة 94 هـ: شذرات الذهب 104:1. سير أعلام النبلاء 386:4.

وميمونة، وهو في قبلة المشهد المنسوب لعقيل. ومنها المشهد المنسوب لعقيل وفيه قبر ابن عمه أبي سفيان بن الحرث. رُوِي أن عقيل بن أبي طالب رأى أبا سفيان بن الحرث يجول بين المقابر فقال: يا ابن عمي، ما لي أراك هنا؟ قال: أطلب موضع قبر، فأدخله داره، وأمر بقبر فحفر في قاعتها، فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف، فلم يلبث إلا يومين حتى تُوفي ودُفِن فيه.

ومنها مشهد يقال إن فيه بنات النبي، صلى الله عليه وسلم، ما عدا فاطمة، رضي الله عنهن، وهو قريب من مشهد عقيل، ولا شك أن من مات من أهل بيت النبي، صلى الله عليه وسلم، في حياته يدفنه قرب قبر عثمان بن مظعون[1] لما ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي، صلى الله عليه، وسلم لما مات عثمان بن مظعون وضع عند رأسه حجراً[2] وقال: أعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي[3]. وهذا المشهد قريب من ذلك.

ومنها مشهد سيدنا إبراهيم بن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيه قبره وقبر عثمان بن مظعون، فقد جاء في الحديث أن أول من دفنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالبقيع عثمان بن مظعون، فلما توفي ابنه إبراهيم قالوا: يا رسول الله أين نحفر له؟ قال: عند فرطنا عثمان بن مظعون[4]. وفي الحديث ما يدل على أن بنات النبي، صلى الله عليه وسلم، هناك، فقد روى الطبراني عن ابن عباس لما ماتت رُقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون[5]، والثابت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحضر موت ابنته رقية لغيبته في بدر، وأنه حضر ابنته أم كلثوم وزينب. قال السيد السمهودي[6]: وأصل المروي في الطبراني وارد في أحدهما. ثم قال: والظاهر أنهن جميعا عند عثمان بن مظعون لقوله، عليه السلام، لما وضع الحجر عند رأس عثمان بن مظعون: أعلم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي[7]، رواه ابن ماجة والحاكم.

(1) عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي، من الصحابة، وأول من مات بالمدينة من المهاجرين: السنن الكبرى 412:3.
(2) المعجم الأوسط 169:4.
(3) سنن البيهقي الكبرى 412 :3.
(4) وفاء الوفا 270:3.
(5) المعجم الأوسط 41:6.
(6) وفاء الوفا 273:3.
(7) سنن البيهقي الكبرى 412:3.

وفي ذلك المشهد أيضا قبر فاطمة بنت أسد[1] أم علي، رضي الله عنه، كما حققه السيد واستدل لذلك بأحاديث ثم قال: وهذا [كله][2] صريح في مخالفة ما عليه الناس اليوم في المشهد المنسوب إليه[3]. قلت: والمشهد المنسوب إليها اليوم في فم زقاق أقصى البقيع من شرقيه، بل ليس من البقيع على ما حقق[4]. وفي هذا المشهد أيضا قبر عبد الرحمن بن عوف، رضي الله، عنه فقد روي عن حميد بن عبد الرحمن قال: أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن ابن عوف حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإلى أخويك. فقال: ما كنت مضيقا عليك بيتك، إني كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه[5]. وفي هذا المشهد أيضا سعد بن وقاص، رضي الله عنه، روي عن ابن دهقان قال: دعاني سعد بن أبي وقاص فخرجت معه إلى البقيع وخرج بأوتاد حتى إذا جاء موضع زاوية دار عقيل الشرقية الشامية أمرني فحفرت حتى إذا بلغت باطن الأرض ضرب فيها الأوتاد ثم قال: إن هلكت، فدلهم على هذا الموضع يدفنوني فيه، فلما هلك قلت ذلك لولده، فخرجنا حتى دللتهم على ذلك الموضع فوجدوا الأوتاد فحفروا له هناك. وفي هذا المشهد أيضاً قبر عبد الله بن مسعود، فقد روى ابن سعد في طبقاته أن ابن مسعود قال: ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون[6]. وفي المشهد أيضاً قبر خنيس بن حذافة السهمي[7] زوج حفصة قبل النبي، صلى الله عليه وسلم، فقد روي أنه دفن عند عثمان بن مظعون، وفيه أيضاً قبر أسعد بن زرارة رضي الله عنه. قال السيد السمهودي بعد ذكره لما تقدم مبسوطاً بأدلته: فينبغي السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم ومعه فاطمة بنت رسول الله، صلى

(1) فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي وهي أول هاشمية ولدت هاشميا وهاجرت إلي النبي عليه السلام، وماتت وشهدها النبي صلى الله عليه وسلم: فضائل الصحابة 2:555. سير أعلام النبلاء 2:118.

(2) زيادة من وفاء الوفا.

(3) وفاء الوفا 3:274.

(4) قال صاحب كتاب التحفة اللطيفة: مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي وجعفر وعقيل وهو شامي مشهد عثمان من جهة الشرق هكذا يذكر، والأقرب أنها عند عثمان بن مظعون، وأن الذي بهذا المشهد قبر سعد بن معاذ الأشهلي: التحفة اللطيفة 1:42.

(5) وفاء الوفا 3:278.

(6) طبقات ابن سعد 3:159. والعياشي ينقل هنا من تاريخ السمهودي: وفاء الوفا 3:278.

(7) خنيس بن حذافة السهمي، كان ممن شهد بدرا، زوج حفصة قبل النبي صلى الله عليه وسلم: تاريخ الطبري 2:213.

الله عليه وسلم، على القول بأنها بالبقيع، وهو الأرجح[1] انتهى. قلت: وقد تقدم أنها في قبة العباس مع ابنها الحسن وذريته، وهو الأولى إن شاء الله تعالى.

ومنها مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بموضع يسمى حُش كوكب[2] في أقصى البقيع من ناحية المشرق، عليه قبة عظيمة هائلة قد جدد بناؤها في هذه السنين القريبة العهد، رضي الله عنه، وفي قبلته خارجه محوط من خشب مخروط فيه قبر شيخ مشايخنا (السيد)[3] آدم الحسيني النقشبندي رضي الله عنه. ومنها مشهد ينسب لحليمة السعدية مرضعة النبي[4]، صلى الله عليه وسلم، شامي[5] مشهد عثمان إلى جانب الطريق عليه قبة لطيفة، وفي خارجه من قبلته دكة محوط عليها بأحجار فيها قبر شيخنا صفي الدين القُشاشي، رضي الله عنه، وهو الذي اتخذ هذه الدكة لدفن أصحابه، وكان أصحابه قبل ذلك يدفنون خارج قبة إبراهيم بن النبي، صلى الله عليه وسلم، وهناك قبور كثيرة من مشايخهم أصحاب سلسلة الغوث، رضي الله عنه، منهم الشيخ الشناوي، وشيخه السيد صبغة الله الحسيني، وكثير من أصحابهم. ولما رأى الشيخ، رضي الله عنه، في ذلك المكان من الضيق المؤدي إلى الدفن على الأموات قبل ذهاب أجسادهم اتخذ هذه الدكة في آخر البقيع، وكان فيها[6] مدفنه، رضي الله عنه. ومنها مشهد الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، إذا خرجت من باب البقيع كان مواجها لك على يمين زقاق البقيع الذي يشق وسطه، وإلى جنبه قبة يقال إنها لنافع مولى ابن عمر، وقيل لنافع القارئ[7]، وقيل لبعض ولد عمر بن الخطاب رضي الله عن جميعهم. ومنها المشهد المنسوب لفاطمة بنت أسد بأقصى البقيع، وقد سبق عدم ارتضاء السيد لذلك.

---

(1) وفاء الوفا 3:280.

(2) حش كوكب: موضع بالمدينة دفن فيه عثمان رضي الله عنه، والحش البستان، وكوكب الذي أضيف إليه رجل من الأنصار، وقيل من اليمن، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد اشترى حش كوكب ووسع به البقيع، فكان أول من دفن فيه: معجم ما استعجم 1:450.

(3) زيادة من ط.

(4) في ط: مرضعته.

(5) في ط: في.

(6) في ط: فيه.

(7) نافع بن أبي نعيم القارئ، مؤدب مالك بن أنس، توفي سنة 169: شرف الطالب، ص: 34.

قال عند ذكره لهذا المشهد: والظاهر أنه مشهد سعد بن معاذ الأنصاري[1]، رضي الله عنه آمين.

ومن المشاهد التي هي قريبة من البقيع، إلا أنها ليست فيه، مشهد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق الذي كان نزولنا فيه حسبما ذكرناه أولا، وهو كبير يقابل مشهد العباس في المغرب، وهو ركن سور المدينة هناك، وبني قبل السور فصار بابه من داخل المدينة، والمشهد الذي بجانب المشهد لزين العابدين، وعرصة المشهد داره، والبئر الذي بين الباب الأول والمشهد بئره، وقد ذكر أنه يتداوى بها. قلت: وهناك بئر أخرى في الرحبة الواسعة التي هي خارج المشهد يقال إنها هي التي يستشفى بمائها.

غريبة:

لما قدم ركب أهل العراق[2] وكان غالبهم روافض، بل كلهم كانوا يكثرون زيارة مشهد السيد إسماعيل، رضي الله عنه، كغيره[3] من مشاهد أهل البيت، وكانوا يأتون إليه أفواجا قلما ينقطع زائره منهم أيام إقامتهم بالمدينة، وقد تقدم أن نزولنا كان في الرواق الذي في باب المشهد، فبينما نحن ذات يوم جالسون إذ جاءت طائفة منهم فيهم بعض من يشار إليه منهم، فزاروا وسلموا، وكان من جملة سلامهم أن قالوا: السلام عليك يا سيدنا إسماعيل، وبالغوا في تعظيمه إلى أن قالوا: نشهد أنك على دين أخيك موسى، يعنون موسى الكاظم[4]، رضي الله عنه، ونشهد أنك غير مخالف له، متبع لطريقه. في هذيان كثير، وسبب ذلك، والله أعلم، أن الرافضة قبحهم الله منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه، ويقولون إنه هو الإمام بعد أبيه، وأنه أحد الأئمة الإثنا عشر المعدودين عندهم، يعتقدون فيهم

(1) سعد بن معاذ الأنصاري، من كبار الصحابة، توفي في السنة الخامسة للهجرة: شذرات الذهب 1:11. سير أعلام النبلاء 1:280.

(2) قال محمد كبريت الحسيني: وفي غضون (شهر محرم) يكون قدوم الركب العراقي، فينزل في مراحه، وهو شمال العُريض من شرقي المدينة، ويكون له سوق هنالك، وتعمر به هاتيك المسالك: الجواهر الثمينة 2:549.

(3) في ط: عن غيره.

(4) أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، من كبار الأئمة والفقهاء، ولد سنة 128 هـ، وهو أحد الأئمة الإثني عشر المعصومين على اعتقاد الإمامية، حبسه هارون الرشيد في دولته ومات في حبسه سنة 183هـ: شذرات الذهب 1:304.

العصمة، وهذه الطائفة تُسَمَّى الإسماعيلية، وكثير منهم بأرض اليمن الآن لهم مذاهب ينتحلونها، وآراء في العقائد يعتقدونها، ومن سوى هؤلاء من الروافض يعتقدون الإمامة لأخيه موسى الكاظم، رضي الله عنه، ويعتقدون أن أخاه لا ينازعه في ذلك، ويرون أن الإسماعيلية كاذبون عليه مفترون في ادعائهم الإمامة له، ولأجل ذلك يترهون إسماعيل عن مخالفة أخيه، رضي الله عنهما، ومن علم أحوال هؤلاء الأئمة من أهل البيت وأسلافهم وأولادهم رضي الله عنهم، وعلم ما كانوا عليه من تعظيم السنة ووفور العلم، وتعظيم أصحاب جدهم، صلى الله عليه وسلم، علم براءة ساحتهم من كذب هؤلاء الأرجاس وافترائهم عليهم أحاديث (ما أنزل الله بها من سلطان)[1] ولا جاء بها في سنة نبيه من بيان.

ولما خرجت الطائفة المذكورة من المشهد وجاؤوا إلى البئر الخارجة وقفوا عليها وترحموا ودعوا وقال لهم كبيرهم: إن هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، فغاب عن أعين الناس إلى الآن، وهم يظنون أنه قد مات، أو كلام هذا معناه. وقضينا العجب من حمقهم وقبح اعتقادهم في الذي آل بهم إلى تتريههم عن الموت، وذلك معتقد الروافض بأجمعهم في الإمام الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن حسن العسكري[2]، رضي الله عنه، يعتقدون أنه إلى الآن حي، وأنه هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان الموعود به في الحديث الصحيح أنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[3]. قلت: والعجب كل العجب من متابعة بعض أهل التصوف في ذلك لهم حسب ما نقله سيدي عبد الوهاب الشعراني عن بعض مشايخه وأنه اجتمع به وأخبره بمقدار عمره، وأنه جاوز السبعمائة سنة إذ ذاك، بل في كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشيخ محي الدين[4] يقول بذلك، ولولا الإطالة لنقلت كلامهم في ذلك، والعلم عند الله.

فإن صَحَّ عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك فنحن ممن يعتقدهم ويجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة، إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى في فهم ما

---

(1) يوسف: 40.

(2) الإمام محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي الذي تلقبه الرافضة بالخلف وبالحجة وبالمهدي وبالمنتظر وبصاحب الزمان، وهو خاتمة الإثنى عشر إماما عندهم، ويلقبونه أيضا بالمنتظر، كان عمره لما عدم تسع سنين، وكان نلك سنة 265 هـ: شذرات الذهب 1:150.

(3) المعجم الكبير 10:133.

(4) يقصد الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي.

ورد عنهم في ذلك، إذ ليس في الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض في هذه المسألة بخصوصها، وإن كانوا كاذبين في غيرها، وموافقة بعض أئمتنا الصوفية لهم في ذلك من جهة الكشف لا يقدح في كمال منصبهم لعدم القاطع في كذبهم، ولا يدل أيضا على صدق الروافض فيما سوى ذلك، فيما تبين كذبهم فيه وافتراؤهم، فإن موافقة المحق للمبطل في جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك ولا على كذب الصادق فيما سوى ذلك. وقد وافق كثير من الأئمة المحققين أهل الكشف الصادق وآراء الفلاسفة في جزئيات مما ادعوه لم يقم الدليل على بطلانها كما وافق في كثير منها أيضا جم غفير من المحققين من علماء الظاهر أهل الكلام، فلا يشكل عليك ما تجده في كلام أئمة الطريق، رضي الله عنهم، موافقا للفلاسفة تارة، وللروافض تارة، فذلك لا يقع في كلامهم، غالباً، إلا فيما لم يقم دليل على بطلان قولهم فيه، وإن فرض فيما سوى ذلك، وما أبعده من جلالة منصبهم، فهو مؤول قطعا، فشد يدك على ما قررنا، وهذه فائدة ساق الله تقريرها في هذا المحل و لم تخطر قبل ذلك لنا ببال.

ومنها مشهد على يسارك وأنت مار في زقاق البقيع يقال إنه لأبي سعيد الخدري[1]، رضي الله عنه، وقد ذكر السيد السمهودي المشاهد التي ذكرنا كلها إلا هذا المشهد والمشهد المنسوب لحليمة[2]، فلم يذكرهما ولا أدري هل حدث بناؤهما بعده أو لم يتضح له صحة نسبتهما لمن ذكر، مع أنّ السيد[3] قد ذكر أبا سعيد فيمن دفن بالبقيع فروى عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال لي أبي: يا بني إني قد كبرت وذهب أصحابي وحان موتي، فخذ بيدي، فأخذت بيده حتى جاء إلى البقيع، فجئت أقصى البقيع مكاناً لا يُدفن فيه، فقال يا بني، إذا هلكت فاحفر لي ها هنا. فإذا ثبت أن قبره في أقصى البقيع فلا يبعد أن يكون هذا قبره. وأما قبر حليمة فلم أرَ أحداً ذكر أنها دفنت بالبقيع، والله أعلم. وعلى كل حال فيزار كل مشهد له نسبة إلى منتسب إلى الله أو إلى رسوله، ولو لم تصح نسبة المشهد إليه فإن لمجرد النسبة أثرا في حصول البركة كما قررنا قبل هذا.

(1) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك، من أعيان الصحابة وفقهائهم، شهد الخندق وبيعة الرضوان وغيرهما، توفي سنة 74هـ الإصابة 3:78.: شذرات الذهب 1:81.
(2) حليمة بنت أبي ذؤيب، مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفيت قبل فتح مكة: الكامل 1:356.
(3) وفاء الوفا 3:307.

تتميم:

قد بَقي من المشاهد التي ذكر السيد[1] أنها تزار بالمدينة ثلاثة ليست في البقيع[2]، أحدها مشهد مالك بن سنان والد أبي سعيد، وهو من شهداء أُحد، رضي الله عنهم، ومشهده غربي المدينة بلصق السور من داخله، وعليه قبة قديمة البناء ومحله من سوق المدينة القديم. روي عن أبي سعيد، رضي الله عنه، أنه قال: أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من نقل من شهداء أحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا، فأدرك أبو مالك بن سنان عند أصحاب العباء؛ أي الذين يبيعون العباء في طرف الحناطين، ولابن زبالة: فوافوه بالسوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء، وهنالك كانت أحجار الزيت[3]. ثانيها مشهد النفس الزكية، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، وهو أخو السيد إدريس أول أهل البيت قدوما إلى المغرب، وعامة شرفاء المغرب من نسله إلا شرفاء سجلماسة فإنهم من نسل النفس الزكية. استوطن أسلافهم الينبع فقدم جدهم منه إلى المغرب في السابعة، والله أعلم. ومشهده بناء في جوف مسجد كبير شرقي سلع، وفي قبلة المسجد منهل من عين الأزرق، وهذا هو المستفيض بين أهل المدينة. قال السيد[4]: "ذكر سبط ابن الجوزي أن كثيرا من الناس كان قد بايعه، فخرج بعد حبسه لأبيه وأقاربه، فجهز إليه المنصور عمه عيسى بن موسى في أربعة آلاف، وذكر قتله عند أحجار الزيت، أي عند مشهد مالك بن سنان، وأن جسده دُفِن بالبقيع، وكان معه ذو الفقار؛ سيف علي، ثم انتقل إلى الرشيد، فعلى هذا فقبره بالبقيع، والمستفيض ما تقدم، والله أعلم.

وثالثها: مشهد سيد الشهداء حمزة، رضي الله عنه، وهو بأُحد، وسيأتي ذكره عند ذكرنا لزيارته. فهذه المشاهد المعروفة بالمدينة، فينبغي لزائرها أن يزورها ويُسَلِّم على أصحابها ويتوسل بهم إلى الله في بلوغ مآربه.

ولما كان يوم الثلاثاء سابع الشهر ارتحل الركب المصري من المدينة بعد إقامة ثلاثة أيام بها، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لا تكاد تسمع فيه صوت قارئ

---

(1) أنظر: وفاء الوفا 3:335.
(2) وفاء الوفا 3:307.
(3) وفاء الوفا 3:335.
(4) وفاء الوفا 3:310.

ولا مؤذن لكثرة اللغط والصخب ورفع الأصوات وازدحام الناس في المسجد، لا ينقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً، لأنّ أبواب الحرم الشريف لا تغلق ماداموا هناك، ويُكثِرون بالليل إيقاد الشموع في المسجد ويجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرؤون لهم موالد وقصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وهم محدقون بهم، ويسمون ذلك مولد النبي، صلى الله عليه وسلم، يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء، ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك، ويقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك، فيلتقطونه ويجمعونه ويرجعون به إلى بلادهم تبرُّكاً به، فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات كثيرة على هذا النمط، فيكثر لذلك الصياح في المسجد واللغط الذي لا ينبغي، لا سيما مع ما ينضاف إلى ذلك من ولاول النساء وبكاء الأطفال واختلاط النساء بالرجال. وبالجملة فعوام المصريين من أبعد الغوغاء عن إصابة الصواب لولا أن مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا تكدره الدلاء لكانوا جديرين بالمقت بسبب ما يحصل منهم من سوء الأدب وسيئ الأقذار في الحرم الشريف.

أعجوبة:

حكى لي بعض المجاورين أنه وُجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف، فحُمِلا إلى الحاكم، فشهدتِ البينة أنها زوجته، وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إنه لا ولد لنا، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله، و لم يُعَاقب.

وكانت عادة المصريين ليلة رحيلهم من المدينة أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة والأغوات في صحن المسجد ليلاً ويوقد شمع كثير على حُسك[1] كبار من فضة وُشيت بذهب، وتحضر[2] جماعة من المنشدين وينشدون قصائد في مدحه، صلى الله عليه وسلم، وينثر عليهم من اللوز والسكر والأزهار وأنواع الحلاوي، ويدار عليهم بالأشربة اللذيذة إلى أن يمضي هزيع من الليل، وهذه عادة أمرائهم

(1) حسك: مفردها: حسكة؛ شمعدان: عامية مغربية.
(2) في ط: يحضر.

وأمراء الشاميين في ليلة الرحيل. و لم يفعل المصريون شيئا من ذلك في هذه السنة لما وقع من الاختلاف والعزل بين أمرائهم كما تقدم شرح ذلك.

وبعد رحيلهم من المدينة بثلاثة أيام نزل الركب الشامي ليلة السبت، ولقوا من الحر في الطريق شدة عظيمة كالذي وقع للمصري قبلهم أو أشد، فماتت منهم جملة كثيرة في الطريق، وجملة بعدما وصلوا إلى المدينة. وأقاموا بالمدينة المشرفة عشرة أيام وتمتعوا بمشاهدة تلك البقاع، ونصبت الأسواق، واتسعت الأرزاق، وقسمت الصدقات، وكثرت الارتفاقات. وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة وطعام وزيت وأشربة يبيعونها في المدينة عند قدومهم ويدخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة، وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن، من طيب أو شبهه، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها، فقد حُكي أن امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة، فدفع لها عشرة دنانير ذهباً، فاستقلتها وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه وقالت له: أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار، فلم يملك من أمره إلى أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها، وهذه حسرة عظيمة وذل للرجال الذين جعلهم الله قوامين على النساء، فلا ينبغي لذي همة أن يرضى بذلك، بيد أن نساءهم يبالغون في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبرة، حتى من أطرافها، يلبسن الخفاف السود، ويتبرقعن ويسدلن من أزورهن ما يكون نهاية في الستر، إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة فيكون ما سترنه ظاهراً أبدينه باطناً، وبهذا فسر بعض العلماء قوله، صلى الله عليه وسلم: رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة، لأن الحكم في الآخرة إنما هو للحقائق، ومن هذه صفته من النساء، وإن اكتست في الظاهر فهي في الحقيقة عارية، لأنَّ حقيقة التعري إبداء ما حقه أن يخفى، كما أن التستر إخفاء ما لا ينبغي أن يظهر، ولا خفاء أن عطر المرأة من أعظم زينتها وألذ ما يُشتهى منها، وقد أُمرت بإخفاء ما هذا سبيله من أوصافها، فإذا ظهر منها ذلك فهي في الحقيقة عارية وإن اكتست، فإنَّ من العورات ما لا

تواريه الكسوة ولا يُواريه إلا تركه رأساً أو الخلوة؛ ككلام المرأة، فالصحيح أنه عورة، وكذلك عطرها، فلا يواريه إلا تركه، ولذلك جاز لها الطيب المؤنث، وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه، لأن اللون تستره الثياب، بخلاف الريح فلا يستره إلا الترك رأساً، أو عدم الخروج، فليتأمل.

وقد مَنَّ الله على الحجاج الشاميين بطول إقامتهم في المدينة وإدراك فضيلة الصلوات الكثيرة في المسجد النبوي، واستقصاء زيارة الآثار الشريفة لمن شاء منهم الذهاب إلى المساجد المنسوبة إليه عليه السلام والآبار التي شرب منها وتوضأ، وتلك منقبة عظيمة، خصوصا الصلوات في المسجد النبوي، فقد روى الإمام أحمد والطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، عن أنس بن مالك: من صلى في مسجدي أربعين صلاة، زاد الطبراني: لا تفوته صلاة، كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب، وبرئ من النفاق[1]. ولفظ الصلاة وإن كان شاملا للفرائض والنوافل، (فالظاهر من الحديث خصوص ذلك بالفرائض، بدليل زيادة الطبراني، لأن الفوات فيها أظهر، ولا يبعد إلحاق النوافل)[2] المؤقتة بأوقات معلومة بها، كالوتر وركعتي الفجر، وإن ألحقت بها الرواتب أيضا، والضحى والتهجد، خصوصا عند من لا يرى التحديد بينهما، كمالك، رضي الله عنه، اتسع الفضل ورُجي حصول ذلك الفضل لمن أقام يوما واحدا وحافظ على تلك الصلوات في المسجد النبوي؛ كحُجاج المغرب فإنهم في بعض السنين قد لا يقيمون إلا يوما واحدا، فليتنبه لهذه الدقيقة وليحافظ عليها من قصر إقامته بالمدينة ليحصل له هذا الفضل العظيم الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة.

ثم خرج الركب الشامي من المدينة على وجل عظيم من العرب الذين يمرون بهم في طريقهم، وكانوا قد أوقعوا بالركب وقعة شنيعة في ذهابهم قرب تبوك، وأخذوا مئين من إبل الركب وأموالا لا تحصى، وقتلوا أقواما، وسبب ذلك أنه كانت لهم إتاوة على الركب في كل سنة يأخذونها من أميرهم، كما هو شأن أرباب الدرك في كل طريق يعطونها من بيت المال، وفي هذه السنة عزل الأمير الذي كان يأتي بالركب كل سنة، واستبدل به غيره ممن لا يعرف حال الطريق وأعرابها، فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك لأخذ ما كان لهم عادة من عند

---

(1) المعجم الأوسط 5: 525. مسند أحمد 3:155.
(2) ما بين قوسين زيادة من ط.

السلطنة، منعهم من ذلك وأغلظ لهم في القول، وظن أن قوة عسكره تحميه منهم، ولم يعلم أن من قبله من الأمراء ما تحملوا لهم ذلك إلا لعجزهم عن مقاومتهم، فراجعوه في ذلك وناشدوه، فصمم على الامتناع، فلما أيسوا منه شنوا الغارة على الركب، فدافعهم قليلا، فانهزم، فنهبوا من الركب شيئاً كثيراً، فلما رجع لم يخرج من المدينة حتى بعث نجيبا إلى الشام ليأتيه المدد، وواعدهم موضعا معروفا في الطريق، ومع ذلك التزم للأعراب أزيد مما هو عادتهم، فسلم الله تعالى الركب بسبب ذلك.

ولما خرجت الأركاب من المدينة وصفا الجو منهم وهمدت الأسواق واتسع المسجد على أهله وزال الزحام من الطرقات والمزارات، تفرغنا لزيارة المشاهد والتطواف على الآثار المباركة ولقاء المشايخ.

ذكر المساجد التي تزار بالمدينة لنسبتها إليه صلى الله عليه وسلم:

فمنها مسجد قباء[1]، وهو المسجد الذي أُسِّس على التقوى في أصح الأقوال، وقيل هو مسجده، صلى الله عليه وسلم، كما ورد في حديث، وجمع بأنه يطلق على كل منهما، خرجنا لزيارته يومِ السبت الحادي عشر من محرم، واخترنا زيارته في هذا اليوم لما ورد في الصحيح أنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً[2]، وكان عبد الله يفعله، يعني ابن عمر. وورد في فضل هذا المسجد آثار كثيرة منها ما رُوِي عن عمر، رضي الله عنه، أنه قال: لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل[3]. وعن زيد بن أسلم، رضي الله عنه، أنه قال: الحمد لله الذي قرب منا مسجد قباء، ولو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل. وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحب إلي من أن آتي بيت المقدس مرتين،

---

(1) مسجد قُباء: يقع على ميلين من المدينة المنورة: الجواهر الثمينة 1:379.
(2) صحيح البخاري 1:399.
(3) الطبقات الكبرى 1:245.

لو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل[1]. وعنه عليه السلام: الصلاة في مسجد قباء كعمرة[2]. إلى غيرها من الأحاديث والأخبار.

وكان خروجنا إليه بكرة بعد صلاة الحنفي، ووصلنا إليه عند طلوع الشمس، ووقفنا قريبا منه قليلا ريثما حلت النافلة، فدخلنا وصلينا في مصلاه عليه السلام، وهو إلى حرف الأسطوان الذي في الصف الموالي لمحراب المسجد عن يمين المصلي فيه، وهناك أماكن أخر ذكر أنه عليه السلام صلى فيها، منها في رحبته، ومنها في زاويته الشرقية من الصف الأول. وقد ذكر السيد السمهودي ذلك كله وبينه أحسن بيان[3]. وخارج المسجد من قبلته موضع يسمونه مسجد علي. قال السيد: لعله مسجد دار سعد ابن خيثمة فقد ورد أنه عليه السلام اضطجع فيها وتوضأ من المُهراس التي فيها[4]. قال: وفي قبلته أيضا دار كلثوم بن الهدم[5] الذي نزل عليه، صلى الله عليه وسلم، لما قدم قباء[6]. قلت: ولعلها موضعه، مسجد صغير آخر لم نجد من يسميه لنا، وقريبا من مسجد قباء كناسة كبيرة من شرقيه يقال إنها مسجد الضرار.

ولما خرجنا من المسجد دخلنا الحديقة التي فيها بئر أريس، وشربنا من مائها، وسيأتي ذكرها في الآبار. وقد زرنا، والحمد لله، مسجد قباء وصلينا فيه مراراً متعددة نحو العشر. وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مليح مبني بالحجارة المنحوتة، فيه بيوت كثيرة يسكنها الغرباء، وله أوقاف، ومقدمهم القيم بأمر الرباط صاحبنا الشيخ صالح بن أحمد اليمني رضي الله عنه.

ومنها مسجد الجمعة[7]، وهو في طريق قباء على نحو ميل أو أقل من مسجد قباء، عن يمين الذاهب من المدينة إليها على الطريق التي تمر بين النخل، ومن مَرَّ على طريق الحرة الغربية فهو عن يساره، فقد رُوي أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم،

---

(1) فتح الباري 69:3.
(2) المعجم الكبير 210:1.
(3) أنظر: وفاء الوفا 158:3.
(4) وفاء الوفا 159:3.
(5) كلثوم بن الهدم: ابن امرىء القيس بن الحارث الأنصاري، شيخ الأنصار ومن نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم أول ما قدم المدينة بقباء وكان قد شاخ،توفي قبل بدر: سير أعلام النبلاء 242:1.
(6) وفاء الوفا 159:3.
(7) مسجد الجمعة هو الذي صلى به النبي أول جمعة بالمدينة وهو في بني سالم ببطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويقال له مسجد الوادي ومسجد عاتكة: التحفة اللطيفة 39:1.

لما خرج من قباء في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي، وهو أول جمعة صلاها عليه السلام بالمدينة[1]. وهذا المسجد اليوم في منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته، وفي شماله أطم خراب قيل إنه محل عتبان بن مالك[2]، رضي الله عنه، وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال إنه المكان الذي صلى به النبي، صلى الله عليه وسلم، من بيته. ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سال. ومنازل قومه في غربي الوادي على طريق الحرة.

ومنها مسجد الفضيخ[3]، وهو مسجد صغير شرقي مسجد قباء على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوح بحجارة سود[4]، فقد روي عن جابر بن عبد ال،له رضي الله عنه، قال: حاصر النبي، صلى الله عليه وسلم، بني النضير، فضرب قبته قريباً من مسجد الفضيخ، وكان يصلي في موضع مسجد الفضيخ ست ليال، [فلما حُرِّمت الخمر خرج الخبر إلى أبي أيوب ونفر من الأنصار، وهم يشربون فيه فضيخاً، فحلوا وكاء السقاء فهرقوه فيه، فبذلك سُمِّي مسجد الفضيخ][5]. وقيل غير ذلك، ويعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد: ولا أعلم سبب هذه التسمية[6].

ومنها مسجد بني قريظة قرب حرتهم الشرقية على باب حديقة هناك، وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة وأطم الزبير بن باطيا القرضي داخل في المسجد، ففي الصحيح أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بَعَث إلى سعد بن معاذ لَمَّا نزل بنو قريظة على حكمه، فلما كان قريباً من المسجد قال، عليه السلام، للأنصار: قوموا إلى سيدكم[7]. وليس المراد مسجد المدينة، لأنه عليه السلام لم

(1) وفاء الوفا 3:167.
(2) عتبان بن مالك بن عمرو ممن شهد بدرا وجاءه النبي إلى بيته فصلى فيه توفى بالمدينة في ولاية يزيد بن معاوية: مشاهير علماء الأمصار 1:22.
(3) يقع مسجد الفضيخ شرقي مسجد قباء على شفير الوادي، ويعرف بمسجد الشمس: التحفة اللطيفة 1:41.
(4) ينقل العياشي هنا عن السمهودي، أنظر: وفاء الوفا 3:169.
(5) في خ وط: وسمي مسجد الفضيخ لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بفضيخ، وهو فيه، فشربه، والتصويب من وفاء الوفا 3:169.
(6) وفاء الوفا 3:171.
(7) صحيح مسلم 3:1388.

يكن بها، بل مسجد بني قريظة كما أشار إليه الحافظ ابن حجر قال: وأخطأ من زعم أن لفظ المسجد غلط.

وهذا المسجد كبير عليه حضيرة من حجارة، قريب من القامة، وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منار المسجد قبل انهدامه، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في بيت امرأة من الحضر، وأن المكان الذي صلى فيه هو موضع هذا المنار. ومنها مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام[1]، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى في مشربة أم إبراهيم، وسميت بذلك لأن مارية ولدت إبراهيم ابن النبي، صَلَّى الله عليه وسلم، فيها، وكان النبي، صلى الله عليه وسلم، أسكنها هناك، وهي من أموال مخيريق التي هي من صدقاته، صلى الله عليه وسلم، وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية.

ومنها مسجد بني ظفر من الأوس شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية، ويعرف اليوم بمسجد البغلة[2]، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد بني ظفر، وأنه أتى بني ظفر في مسجدهم فجلس على الصخرة التي في المسجد ومعه عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، وأمر النبي، عليه السلام، قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية: (فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد)[3]، الآية. فبكى، الحديث.

وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهة القبلة يقال إنها أثر حافر بغلته صلى الله عليه وسلم[4]. وهناك أيضاً أثر على حجر كأنه أثر مرفق يذكر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، اتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه[5]، وعلى حجر آخر أصابع والناس يتبركون بها.

قلت: وقد مَنَّ الله بزيارة هذه المساجد المتقَدِّمة كلها في يوم واحد، خرجنا من المدينة صباحاً ومررنا بمسجد الجمعة ومسجد عتبان بن مالك، وجئنا إلى

---

(1) مشربة أم إبراهيم: أكمة بين النخيل حوط عليها بلبن، والمشربة البستان، قيل: كان بستانا لمارية القبطية، وفيه ولدت إبراهيم بن الرسول عليه السلام، وقد أقيم عليه مسجد: الجواهر الثمينة 2:436.

(2) مسجد بني ظفر شرقي البقيع ويعرف بالبغلة لما قيل إنه كان في جهة القبلة أثر حافر بغلته: التحفة اللطيفة 1:40.

(3) النساء :41.

(4) الجواهر الثمينة 2:533.

(5) نفسه.

مسجد قباء[1] ثم خرجنا إلى مسجد الشمس ثم إلى مسجد بني قريظة، ثم إلى مشربة أم إبراهيم، ثم إلى مسجد البغلة، و لم نرجع إلى المدينة إلا قرب العصر. وكنا مع جماعة من إخواننا المجاورين يدلونا على الطريق إلى هذه الأماكن، ومررنا يومنا ذلك بجملة من الآبار، كبئر بُصة، وبئر أريس، وبئر غرس، وسيأتي ذكر هذه الآبار عند ذكرنا للآبار المنسوبة له صلى الله عليه وسلم.

ومنها مسجد الإجابة[2]، وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس، وهو شمالي البقيع، قريب منه على يسار السالك إلى العريض، بإزائه تلول هي آثار قرية بني معاوية. ففي صحيح مسلم من حديث عامر بن سعد عن أبيه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أقبل ذات يوم من العالية حتى مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال: سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة؛ سألته أن لا يهلك أُمَّتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يُهْلك أُمَّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[3].

وعن سعد ابن أبي وقاص أنه كان مع النبي، صَلَّى الله عليه وسلم، فمر بمسجد بني معاوية فدخل فركع فيه ركعتين، ثم قام فناجى ربه، ثم انصرف. وعن محمد بن طلحة بلغني أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد بني معاوية على يمين المحراب نحواً من ذراعين. قال السيد: فليتحر ذلك مع الدعاء قائماً[4]. قلت: وقد زرنا هذا المسجد والحمد لله مراراً، وصليت فيه ودعوت الله بما أرجو إجابته لنفسي ولإخواني وأشياخي والمسلمين.

ومنها: مسجد الفتح[5] والمساجد التي في قبلته، وتعرف اليوم كلها بمساجد الفتح، والأول المرتفع على قطعة من حبل سلع في المغرب، يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية، وهو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق، ويقال له أيضاً مسجد

(1) مسجد قباء: وهو على ثلاثة أميال من المدينة، وصح أنه كان يزوره كل سبت راكبا وماشيا ويصلي فيه ركعتين، وفي حظيرة بصحنه محل مبرك الناقة، وفي قبلته دار سعد بن خيثمة عند الباب المسدود، ودار كلثوم بن الهدم، وهي إحدى الدور قبلته، وبئر أريس تجاهه: التحفة اللطيفة 1: 41.

(2) مسجد الإجابة: وهو مسجد بني معاوية بن مالك بن عوف من الأوس، شمالي البقيع على يسار السالك للعريض، وسمي بذلك لدعائه فيه بثلاث دعوات فأجيب في اثنتين: التحفة اللطيفة 1: 38.

(3) صحيح مسلم 4: 2216.

(4) وفاء الوفا 3: 177.

(5) مسجد الفتح الذي دعا النبي فيه يوم الخندق على الأحزاب وصلى فيه فاستجيب له وحوله مساجد تعرف بذلك وبغيره كأبي بكر وعلي وسلمان: التحفة اللطيفة 1: 41.

الأحزاب، والمسجد والأعلى. وفي مسند أحمد رجاله ثقات، عن جابر بن عبد الله أن النبي، صلى الله عليه وسلم، دعا في مسجد الفتح ثلاثاً: يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعرف البشر في وجهه. قال جابر: فلم يترل في أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة[1]. وروي أنه عليه السلام مر بمسجد الفتح التي على الجبل وقد حضرت صلاة العصر، فرمى فيه فصلى فيه صلاة العصر. وروى أنه عليه السلام دعا في مسجد الفتح يوم الأحزاب حتى ذهب الظهر وذهب العصر وذهب المغرب، ولم يصل بينهن، ثم صلاهن جميعا بعد المغرب. قال أبو غسان: وسمعت غير واحد ممن يوثق به يذكر أن الموضع الذي دعا عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الجبل هو اليوم إلى الأسطوانة الوسطى الشارعة في رحبة المسجد[2]. قال السيد[3]: ومحل ذلك اليوم ما يقابل محراب المسجد من الرحبة لتوسطه، فإنه كان على ثلاث أساطين بين المشرق والمغرب، فمسقفه رواق واحد كما هو اليوم، لكن غيرت أساطينه، وذكر الدعاء الذي ينبغي أن يدعى به في ذلك الموضع. قال: وتسمية هذا المسجد بمسجد الفتح لأن الاستجابة وقعت به وجاء حذيفة بخبر رجوع الأحزاب ليلا به، فأصبح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون قد فتح الله، عز وجل، لهم ونصرهم وأقر أعينهم. وأما المساجد التي في قبلته فقد روي عن معاذ بن سعد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله. قال السيد[4]: وهو ظاهر في أنها ثلاثة غيره، فأحدها الذي يلي المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسي[5]، وثانيها يلي قبلة هذا المسجد يعرف بمسجد علي بن أبي طالب[6]، رضي الله عنه، وثالثها في قبلة الثاني على طرف جبل سلع جانحا لجهة المشرق، ويعرف بمسجد أبي بكر[7]، وهو أصغرها في باب المعروف منها بعلي ماجل، يترل

---

(1) مسند أحمد 3:322.

(2) وفاء الوفا 3:183.

(3) أنظر: وفاء الوفا 3:183.

(4) وفاء الوفا 3:189.

(5) يقع مسجد سلمان الفارسي في قبلة مسجد الفتح: التحفة اللطيفة 1:40.

(6) يقع مسجد علي في قبلة مسجد الفتح جدده ضغيم المنصوري سنة ست وسبعين وثمانمائة: التحفة الطيفة 1:40.

(7) يقع مسجد أبي بكر الصديق بوسط حديقة العريضية المتصلة بقبة العين الزرقاء شمالي المصلى: التحفة اللطيفة 1:39.

إليه بدرج، وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفَرُّج في أيام كثيرة، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة فيبيتون بها في لهو وطرب، وهو يوم النصف من شعبان، وقد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء و لم نتمكن من الدخول إليه، وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة، ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلى التتره والتفَرُّج في البساتين والأماكن المنفسحة، ويُسَمُّون ذلك القائلة، فيقولون: نقيل اليوم في الموضع الفلاني. وخروج الرجال لذلك أكثر، فتكلف المرأة زوجها في ذلك من نفقة ما لا قدرة له عليه. ومن الأماكن التي هي في عداد المساجد ويتعين التبرك بها والصلاة فيه: كهف سلع، وهي لبني حرام، فقد جاء أن النبي، صلى الله عليه وسلم، جلس به وكان يبيت به ليالي الخندق. وقال السيد[1]: والظاهر أنه المراد بما في الأوسط والصغير للطبراني من أن معاذ بن جبل خرج يطلب النبي، صلى الله عليه وسلم، فدل عليه في جبل ثواب، فخرج حتى رقي جبل ثواب، فبصرته في الكهف الذي اتخذ الناس إليه طريقاً إلى مسجد الفتح، فإذا هو ساجد. قال: فهبط من رأس الجبل وهو ساجد، فلم يرفع حتى أسأت به الظن، فظننته قبضت روحه، فقال: جاءني جبريل بهذا الموضع فقال إن الله تعالى يقرؤك السلام ويقول لك: ما تحب أن أصنع بأمتك؟ قلت: الله أعلم. فذهب ثم جاء إلي فقال: إنه يقول: لا أسوؤك في أمتك. فسجدت بأفضل ما نتقرب به إلى الله؛ السجود[2].

قال السيد: جبل ثواب لم أقف له على ذكر[3]، لكن وصفه الكهف بما ذكر ظاهر في إرادة الكهف المذكور بسِلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية بقرب شِعب بني حرام، فإن عن يمينه هناك مجرى وسائلة تسيل من سلع إلى بطحان، فإذا دخلها صعد يسيراً في المشرق كان الكهف عن يمينه وأعلى منه في المشرق وكهف آخر لكنه صغير جداً، فالأول هو المراد، وإذا توجه من هذه السائلة طالب مساجد الفتح كان شعب بني حرام على يمينه، وهو شعب متسع به آثار مساكنهم وأثر مسجدهم الكبير الذي زاد عمر بن عبد العزيز في بنائه واختلف في صلاته، صلى الله عليه وسلم، بهذا المسجد بناء على أن تحولهم

---

(1) وفاء الوفا 192:3.
(2) المعجم الأوسط 49:9. المعجم الصغير 40:2.
(3) وفاء الوفا 192:3.

عن هذا الشعب كان في زمنه عليه السلام بإذنه. وروي أنه إنما كان في زمن عمر، رضي الله عنه، انتهى.

قلت: وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي، إلا أنه لا بناء عليه، وإنما عليه حظير صغير، وهو لا يعرفه كثير من الناس ولا يؤبه به، وكذلك الغار المذكور لا يعرفه كثير من الناس ولا يقصد للزيارة، وقد زرته والحمد لله، وسبب معرفتي به أنا لما سمعنا معجم الطبراني الصغير على شيخنا الثعالبي بالروضة النبوية ما بين القبر والمنبر، فعند سماعي هذا الحديث أخبرنا بمكان الغار ودلنا عليه وأخبرنا أنه جرب إجابة الدعاء في ذلك المحل، فقصدته مع صاحبنا سيدي يعيش الدراوي، وكان من المجاورين، وأتيناه من فوق جبل سلع حتى انحدرنا إليه من شرقيه. وأما مسجد بني حرام[1] فزرتُه مراراً، إلا أني أولا كنت لا أعرف نسبته إليهم، وإنما أصلي فيه إذا مررت به لزيارة مساجد الفتح.

ومنها مسجد القبلتين[2]، وهو لبني سلمة، وسمي مسجد القبلتين لأن القبلة حولت فيه. قال السيد[3]: والأرجح أن تحويل القبلة كان بمسجد القبلتين، والنبي، صلى الله عليه وسلم، يصلي به. وليحيى عن محمد بن الأخنس قال: زار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أم بشر بن البراء من بني سلمة في بني سلمة، فصنعت له طعاما قال: فحانت الظهر فصلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأصحابه في مسجد القبلتين الظهر، فلما أن صلى ركعتين، أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستدار، صلى الله عليه وسلم، إلى الكعبة واستقبل الميزاب، فهي القبلة التي قال الله: (فلنولّينّك قبلة ترضاها)[4]، فسُمِّي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

قلت: وهذا المسجد غربي بطحان وسلع، قريب من العقيق في مكان مرتفع، والطريق إليه في آكام سود من الحرة وشعاب، ولم أزره إلا مرة واحدة، وصليت ما كتب، وعليه بناء وثيق ليس بقربه شيء من العمارة، وقريب منه حديقة فيها بئر ماء وأرض تزرع.

(1) مسجد بني حرام: يقع بسفح جبل سلع عن يمين سالك مساجد الفتح: التحفة اللطيفة 1:39.
(2) سمي مسجد القبلتين لتحويل القبلة به في أثناء الظهر وهو بالعوالي: التحفة اللطيفة 1:41.
(3) وفاء الوفا 3:196.
(4) البقرة: 144.

ومنها مسجد السقيا الآتي ذكرها في الآبار، وليست السقيا التي بينها وبين المدينة مرحلة، بل محل آخر بالحرة الغربية، وهذا المسجد على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن ويشرف على المدينة، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، عرض جيش بدر بالسقيا، وصلى في مسجدها ودعا هنالك لأهل المدينة أن يبارك لهم في مدهم وصاعهم، وأن يأتيهم بالرزق من هاهنا وهاهنا. قال السيد[1]: وقد تطلبت المسجد بهذا المحل فرأيت رضما[2] على روبية هناك، فأرسلت له بعض العمال ليحفر عن أساسه فظهر تربيعه وبقية محرابه ومن جدرانه أزيد من نصف ذراع في دوره مبيضة بالفضة فبقي على أساسه الأول.

قلت: وهو اليوم مبني ببناء وثيق يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان، خصوصاً أيام الموسم فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية.

ومنها مسجد ذباب[3]، ويعرف اليوم بمسجد الراية، وهو على جبل صغير قريب من سلع من شرقيه قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام، فقد روي أنه عليه السلام صلى على ذباب، وعن أبي سعيد الخدري: ضرب النبي، عليه الصلاة والسلام، قبته على ذباب؛ يعني في غزوة الخندق، والأرجح أن الخندق كان من ناحية ذباب. قال السيد[4]: وقد رأيت لذباب ذكرا في أماكن كثيرة كلها متفقة على وصفه بأنه الجبيل المذكور بحيث لا تردد عندي فيه. قال[5]: ولعل اشتهاره بمسجد الراية لقول الواقدي في وصف اصطفافهم على الخندق: وكان يزيد بن هرمز في موضع ذباب يحمل راية الموالي، وصفهم كراديس[6] بعضها خلف بعض إلى رأس الثنية؛ يعني ثنية الوداع.

---

(1) وفاء الوفا 3:200.
(2) الرضم: حجارة أو صخور بعضها على بعض: لسان العرب: رضم.
(3) مسجد ذباب أو ذو باب، سمي باسم الجبل الذي عليه مسجد الراية: التحفة اللطيفة 1:39.
(4) وفاء الوفا 3:203.
(5) نفسه.
(6) كراديس: جمع كُرْدُوس؛ وهي الخيل العظيمة، وقيل: القطعة من الخيل العظيمة: لسان العرب: كردس.

ذكر جبل أُحد وما به أو بطريقه من المساجد النبوية

وذكر مشهد سيد الشهداء حمزة ومن معه من الشهداء

جرت عادة أهل المدينة، شرفها الله، بزيارة قبر سيدنا حمزة، رضي الله عنه، كل يوم خميس، وربما باتوا هناك ليلة الخميس في أغلب الأحوال. وقد خرجنا لزيارته والحمد لله، مراراً متعددة مع أصحابنا المجاورين، وكنا نخرج بعد صلاة الصبح مع الحنفي، وكان يسفر[1] في صلاته ولا نرجع إلا بعد الضحى عند اشتداد الحر، ومن أسرع المشي يرجع في أقل من ذلك، ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في يوم الخميس سببا، إلا أن يكون ما ورد من أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده. فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع، ويوم السبت لزيارة قباء، لم يبق إلا يوم الخميس. وزيارة أحد والشهداء به من السنن المأثورة، ففي صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين[2] كالمودع للأحياء والأموات. وفي حديث أبي داوود: خرجنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نريد قبور الشهداء، حتى إذا أشرفنا على حرة واقم[3]، فإذا تدلينا منها فإذا قبور الشهداء. فقلنا: يا رسول الله أقبور إخواننا هذه؟ قال: قبور أصحابنا. فلما جئنا قبور الشهداء قال: هذه قبور إخواننا[4]. وروي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يأتي قبور الشهداء بأحد على رأس كل حول فيقول: سلام عليكم بما صبرتم[5] (فنعم عقبى الدار)[6]. وكان إذا واجه الشعب قال: سلام عليكم بما صبرتم (فنعم أجر العاملين)[7]. ورُوي أن فاطمة، رضي الله عنها، كانت تزور قبر عمها حمزة، رضي الله عنه، ترمه وتصلحه، وقد علمته بحجر. وروى الحاكم عن علي أن فاطمة كانت تزور عمها حمزة كل جمعة فتصلي وتبكي عنده [8]. وروى البيهقي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، زار قبور الشهداء بأحد فقال: اللهم إن

---

(1) يسفر في صلاته: أي ينتظر حتى الإسفار، وهو أن يصبح الفجر لا يشك فيه: لسان العرب: سفر.
(2) صحيح البخاري 451:1.
(3) حرة واقم: اقم أطم من آطام المدينة تنسب إليه الحرة وفيها سقاية مونسة: معجم ما استعجم 436:2.
(4) سنن أبي داوود 218:2.
(5) مصنف عبد الرزاق: 573:3.
(6) الرعد: 24.
(7) الزمر: 74.
(8) وفاء الوفا 322:3.

عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء، وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه[1].

والمشهور أن الذين أكرموا بالشهادة يوم أحد سبعون رجلاً أفضلهم وسيدهم حمزة بن عبد المطلب. ورُوي أن مصعب بن عمير دفن معه في قبر واحد[2]، وأن عبد الله بن جحش معهما. قال السيد[3]: والصحيح أنه ليس معه أحد في قبره، وأن مصعبا وعبد الله دفنا بقربه، فيسلم على الثلاثة في مشهد حمزة. والمشهد عليه قبة عالية متقنة، وبابه مصفح بالحديد، وحوله بناء متسع فيه بئر وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح. قال السيد[4]: والقبر الذي عند رجلي سيدنا حمزة والذي بالصحن ليسا من قبور الشهداء.

وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة، وبإزائها صفة مسجد وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج، وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس، يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك، ولأهل المدينة موسم كبير في شهر رجب يحتفلون فيه لزيارة حمزة والشهداء، رضي الله عنهم، يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة واليمن والطائف والينبع، فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج. ويخرج أهل المدينة بأولادهم ونسائهم ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها، وتنتصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب، ويتلاحق الناس كل على قدر حاله، فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر، وهو اليوم المشهود عندهم ويوم الزينة، فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم، ويحصل هنالك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء، والرمي بالمدافع والمحاريق، ويبيت الناس طول ليلتهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر، ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير. وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر لا تنقطع القراءة الليل بأجمعه والنهار بتمامه، وكبيرهم شيخنا الملا إبراهيم، رضي الله عنهم، لا يفارقهم في ذلك المحل. وكيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ أحدهم فيقرأ

(1) تفسير القرطبي 160:14.
(2) التحفة اللطيفة 43:1.
(3) وفاء الوفا 334:3.
(4) وفاء الوفا 309:3.

جزء ويستمع الباقون، فإذا فرغ من حزبه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون، ثم كذلك سائر الليل والنهار.

لطيفة:

حكي لي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم: إن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها والتكلف في النفقات والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم الشبيه بشد الرحال، بل هو مع ما في ذلك من التشبيه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة واعتياد يوم في السنة، إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع. وكان ذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا، ويشدد النكير عليهم في ذلك، فبينما هو ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريباً منها، إذ غلبته عيناه، فرأى النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو يدخل ويخرج من الحجرة ويقوم ويقعد كفعل متهيئ لسفر وأثاث السفر معدة بين يديه، فقال له: يا رسول الله، ما هذا الذي أرى؟ أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة؟ قال: لا إنما نريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة، أو كلاماً هذا معناه، فانتبه الفقيه من نومه وتهيأ للخروج مع الناس فعجبوا من ذلك وسألوه. فأخبرهم بذلك. ولا بدع فإن للنبي، صلى الله عليه وسلم، تعلقا معنويا وموافقة روحانية لأمته في سائر شؤونهم وتقلباتهم فيهتم بما يهتمون، ويفرح بما يفرحون به، ويسوؤه ما ساءهم، فما بالك بأهل مدينته الطيبة المطيبة، وكل ذلك رحمة منه لهم ورأفة بهم وحنانا، ولا يمنعه من ذلك كون بعض شؤونهم قد يلابسها ويخالطها خلاف المسموع، فقد كان، صلى الله عليه، وسلم في حياته معهم على هذا الحال وفيهم المسيء والمحسن، والطائع والعاصي، بل المؤمن والمنافق، فيعلم جاهلهم ويرشد ضالهم، ويرفق بالشرس[1] الأخلاق منهم حتى ينقادوا، ولم تحمله إساءتهم ولا عصيان بعضهم، بل نفاقه على مفارقتهم والتخلي عنهم، إذ لو تخلى عنهم لعوجل المسيء بالهلاك، وخذل المطيع في طاعته، ولم يبال الله بهم باله، فكذلك حاله أيضا، صلى الله عليه وسلم، مع أمته بعد موته، وقد قال: حياتي خير

(1) في ط: الشرر.

لكم، ومماتي خير لكم[1]. الحديث. فهو معهم، صلى الله عليه وسلم، في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني، فيستغفر لمسيئهم، ويشهد لمحسنهم، وتستوهب من الله الزيادة لا يخفى عليه شيء من أحواله ولا يغفل عنهم طرفة عين في كل شؤونهم، فلا تستبعد حضوره، صلى الله عليه وسلم، بروحانيته في محافل المسلمين ومواسمهم ومحال اجتماعاتهم، على أي حال كانوا، فلو فارقتهم روحانيته الشريفة طرفة عين لضلوا عن سواء الطريق وهوت بهم الضلالة في مكان سحيق، فسبحان من مَنّ به علي عباده، وجعله برزخاً بينه وبين أهل وداده، فما أرأفه بنا من إله إذ جعله رسولاً إلينا ورحمة علينا، نسأله سبحانه أن لا يخلينا من مدده طرفة عين آمين. وتفهم من هذا ما يحصل من الاجتماع لعظيم في محال بعض الصالحين واشتماله على بعض المناكر، ومع ذلك يحضره الأولياء وأرباب القلوب من الصالحين، فيشاهدون حصول مدده لكل زائر، وسريان سره في سر كل حاضر، وذلك كمولد سيدي أحمد البدوي[2] بمصر، ومولد الإمام الشافعي وعند سيدي أبي مدين، وسيدي أبي يعزى[3]، وسيدي أبي العباس السبتي[4] بأرض المغرب، وعند مولاي عبد السلام بن مشيش[5] يوم المولد النبوي وغير ذلك من الأماكن الشهيرة المنسوبة لكثير من الأولياء شرقا وغربا فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كثير من تآليفه عن جماعة من أهل الكشف، رضي الله عنهم أنهم، يشاهدون النبي، صلى الله عليه وسلم، في مولد سيدي أحمد البدوي، رضي الله عنه، وأنه يحضره كل سنة مع اشتماله على أمور كثيرة لا تنبغي[6].

لطيفة أخرى:

أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشايخه أنَّ سيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد

---

(1) كشف الخفاء 1:442.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) أبو يعزى يلنور بن عبد الله، المتصوف العارف، نسبت إليه عدة كرامات وخوارق، توفي سنة 561هـ: شرف الطالب، ص: 63. أعلام المغرب العربي 2:211.
(4) أبو العباس أحمد السبتي، الفقيه المصنف، ولد بسبتة سنة 524هـ،و توفي بمراكش سنة 601 هـ: شرف الطالب، ص: 68. شجرة النور الزكية 1:264.
(5) تقدمت ترجمته.
(6) أنظر: الطبقات الكبرى، ص: 263.

البدوي، وأن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر، فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد وخليفته من بعده، فقال له مباسطاً: يا عبد الوهاب، لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية، والملوخية عند أهل مصر والريف من أشهى الأطعمة التي لا كبير مؤنة فيها، فلما استيقظ عَزَم على المشي وذهب، فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا أنه ليلة وصوله لمكان الشيخ اتفق أنه لم يطبخ أحد تلك الليلة في الزاوية كلها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية، فكانت طعامه وطعام أهل تلك الناحية كلها في تلك الليلة[1]. والحكايات الدالة على أمثال هذا كثيرة من انتصار أولياء الله لمن أذى من حضر محالهم أو انتهك حرمتهم، ولو كان من أوذي ممن يستحق ذلك في بادي الرأي، ومع هذا كله فلا يتخذ هذا ذريعة إلى الاستهانة بإقامة الحدود على من وجبت عليه في تلك المحال وإلى التغافل عن إزالة المناكر الواقعة هنالك لمن قدر عليها وإلى التعامي عن ذلك، بل التنبه لذلك والاشتغال به لمن له عليه قدرة من أفضل القربات لمن حسنت نيته، ولا يمنع من ذلك ما يقع لبعض من تعاطى ذلك من الأمور التي هي كرامة لذلك الولي، فإن ذلك في الغالب لا يقع إلا لمن لم تكن له نية صالحة في النهي عن المنكر وقصد بذلك إظهار نفسه أو تنقيص ذلك الولي، فإن فَرَض وقوعه لحسن النية فهو مما يزيده عند الله قربة ويقيم حرمة عبده المنسوب إليه المكان، ولله في ذلك أسرار خفية لا تخفى على أهل القلوب الصافية، وإلى مثل هذا التقرير كان يجنح شيخنا علامة الوقت سيدي عبد القادر بن علي الفاسي، رضي الله عنه، فيمن يأوي إلى قبول الصالحين من الجناة، وقد يكون على أحدهم حد من الحدود لا ينبغي إهماله، وإن خرج من المحل كان في ذلك هضم لحرمة الولي واستهانة بقدره عند العامة، فليخلص من ابتلى بذلك علمه لله، وليصدق الله في أمره فإن الله جاعل له من ذلك مخرجاً.

رجوع وانعطاف إلى ما كنا بصدده:

فقد طال بنا الكلام في هذه المسألة، ومع ذلك فهي من غرر المسائل التي قَلَّ أن توجد في كتاب، فنقول: من الأماكن التي ينبغي زيارتها في أحد قبور الشهداء،

---

(1) أنظر: الطبقات الكبرى ص: 262.

سوى قبر حمزة ومن معه، وأماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق، لكنـــها معلومة الجهة. فأمَّا مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش فيسلم عليهما في مشهد حمزة كما تقَدَّم، وأما سهل بن قيس من بني سلمة فقبره دبر قبر حمزة شاميا بينه وبين الجبل. وأما عمرو بن الجموح[1] وعبد الله بن عمرو بن حرام[2]، ففي الموطإ أنهما في قبر واحد مما يلي السيل[3]. قال الواقدي: مع عمرو بن الجموح في القـــبر خارجة بن زيد وسعد ابن الربيع والنعمان بن مالك وعبد ابن الحسحاس. قال أبو غسان: وقبرهم مما يلي المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع. قال السيد[4]: وقد تأملته فوجدت ذلك بالربوة التي غربي المسيل الذي هناك، ومجرى العين بقربهم من القبلة. وقد روي أن أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضا، وكذا خلاد بن عمرو بن الجموح، فيسلم على هؤلاء الثمانية هناك.

قال: وأما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم، والذي يظهر أنها بقرب الموضع المذكور وقرب قبر حمزة، رضي الله عن جميعهم، وأسماؤهم مذكورة عنـــد أهـــل السير. وفضل جبل أحد على الجملة معلوم مشهور، فقد قال، عليه الســـلام،إنه يحبنا ونحبه[5]، وكان يأتيه وقال: إنه على باب من أبواب الجنة، وترابه يُسْتشفى به. قال الزركشي: ينبغي أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة، رضـــي الله عنه، أي المأخوذة من المسيل الذي به مصرعه لإطباق الخلف والسلف على نقلها للتداوي من الصداع[6]. قال السيد[7]: وتربة صعيب أولى بـــذلك. وللطـــبراني أن رسول الله قال لأحد: هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه على باب من أبواب النار[8].

---

(1) عمرو بن الجموح: استشهد في وقعة أحد، قال مالك: كفن هو وعبد الله بن عمرو بن حرام في كفن واحد: سير أعلام النبلاء 1:254.

(2) عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري، شهد بدرا واستشهد بأحد: معجم الصحابة 1:36. سير أعلام النبلاء 1:324.

(3) الموطأ 2:470.

(4) وفاء الوفا 3:335.

(5) صحيح البخاري 3:1059.

(6) الجواهر الثمينة 2:497.

(7) وفاء الوفا 3:233.

(8) المعجم الأوسط 6:315.

وعَيْر[1] جبل كبير على يسار ذي الحليفة وأنت خارج من المدينة، وهو يقابل أُحُد إلى ناحية مكة من المدينة، وأُحُد إلى ناحية الشام. قلت: وحدثني من أثق به عن بعض مشايخه أنه كان يقول في وجه محبته، صلى الله عليه وسلم، لأحد وبغضه لعير أن أحدا من ناحية الشام، وهي مساكن اليهود، وهو أعدى عدو له، وأحد حائل بينه وبينهم، ولا أحب إليك ممن يحول بينك وبين عدوك، وإن عيرا من ناحية مكة، وهي وطنه، صلى الله عليه وسلم، ومسقط رأسه ومحل البيت الحرام، وهو أحب البلاد إليه عليه السلام كما دل عليه حديث إنك لأحب بلاد الله إلي، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت، ولما حال عير بينه وبين محبوبه أبغضه، إذ لا أبغض ممن يحول بين المرء وبين ما أحبه.

قلت: وفي هذا التوجيه نظر لاشتراك الجبلين في الحيلولة بينه وبين أعدائه، فقد سوى الله بين اليهود والذين أشركوا في عداوة المؤمنين فقال تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة)[2] الآية. وقد علم أن مضرة المشركين لأهل المدينة أقوى من مضرة اليهود مع الاشتراك في العداوة لضعف اليهود وقتلهم وذلتهم[3]، وأكبر ضررهم كيدهم بالقول، بخلاف المشركين فقد غزوا المدينة مراراً عديدة. قال السيد: وسمي أحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك، أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد[4]. ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأحدية بخلاف عير الذي هو اسم الحمار المذموم أخلاقاً. والحب في أحد من الجانبين حقيقة كما صححه النووي وغيره. ولذا كان من جبال الجنة إذ المرء مع من أحب، ولا مانع من وضع الحب فيه كما وقع التسبيح من الجبال. وقد خاطبه، صلى الله عليه وسلم، مخاطبة من يعقل فقال لما اضطرب: أسكن أحد[5]. ولا ينكر وصف الجماد بحب الأنبياء كما حنت الأسطوانة لمفارقته، صلى الله عليه وسلم، حتى سمع القوم حنينها. ومما ينبغي لزائر أحد أن يأكل شيئا من نباته، فقد رُوي عن زينب بنت نبيط، وكانت تحت أنس بن مالك أنها كانت ترسل ولائدها فتقول: اذهبن إلى أحد فأتينني من نباته فإن لم تجدن إلا عضاها فأتينني به فإن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله،

(1) عير: جبل جنوب المدينة يقع في مقابلة أحد، وبينهما المدينة:: كتاب أسماء جبال تهامة، ص: 33. الجواهر الثمينة 2:492.
(2) المائدة: 82.
(3) في ط: نلهم.
(4) وفاء الوفا 3:317.
(5) شرح الزرقاني 4:280.

صلى الله عليه وسلم، يقول: هذا جبل يحبنا ونحبه[1]. قالت زينب: فكلوا من نباته ولو من عضاهه[2].

قال: فكانت تعطينا منه قليلا قليلا فنمضغه. هـ. قلت: وقد أكلنا من نباته بعدما توقفنا في ذلك لكون جوانبه القريبة داخلة في حريم الشجر فلا يقطع نباتها، ولأجل التبرك قلدنا في ذلك من يبيحه من العلماء، وهو مذهب الحنفية.

لطيفة:

قد وضع البحث بين الطائفة المالكية ونحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخُبيز[3] وغيره، فإنه يؤتى به ويُباع في الأسواق، فهل يحل للمالكي ومن لا يرى جواز ذلك شراؤه وأكله؟ فكنت أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك والبائع له ممن يرى جواز ذلك في مذهبه لأنه فعل ما يسوغ له شرعا لأنا نقول بإصابة كل مجتهد، وإن كنا نرى أن غيره أصوب، والممنوع عندنا إنما هو قطعه، فلو وجد الإنسان شيئاً منه مقطوعاً بنفسه من غير أن يكون له سبب في قطعه جاز له الانتفاع به، وهذا بعد القطع ووصوله إلى الأسواق بوجه سائغ لمتناول ذلك صار في حقنا كالمقطوع بلا سبب لنا في قطعه، ولا يقاس النبات على صيد المحرم الذي هو ميتة لظهور الفرق بين الصيد والنبات. والإجماع على حرمة صيد المحرم والخلاف في نبات حرم المدينة، ولو فتح باب الامتناع من الشراء منهم لأدَّى ذلك إلى فساد كبير وحرج في المعاملات بالامتناع عن ذبائحهم والشراء منهم والبيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة في فروع كثيرة من الذبائح والصيد وأبواب الربا، فيمنع البعض ما يجيزه غيره، فلو كنا لا نشتري إلا ممن يتقي الربا على مذهبنا ويشترط في الصيد والذبيحة واللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق وحرج وتضليل بعض الأمة لبعض، وهو بعيد من نظر الشارع، فلما صح لنا الاقتداء به في الصلاة صح لنا أيضا في غيرها مما يقع فيه الارتباط بين الفعلين فإن البيع حقيقة متوقف حصولها على وجود فعل فاعلين من بائع ومشتر، فلا يشترط في صحة البيع إلا كون فعل كل واحد منهما موافقا للمشروع في مذهبه ومعتقده،

(1) صحيح البخاري 1059:3.
(2) عضاهه: العضاه من الشجر: كل شجر له شوك: لسان العرب: عضه.
(3) الخبيز: نبات معروف: لسان العرب: خبز.

وكذلك صلاة المأموم متوقفة صحتها على وجود فعل فاعلين هما المأموم والإمام، فإذا فعل كل منهما ما تصح به الصلاة في مذهب إمامه صحت الصلاة ولا يلزم كون الإمام فاعلا لما تصح به الصلاة في مذهب المأموم على المذهب المشهور. وتحقيق هذه المسألة سنذكره، إن شاء الله في الرسالة التي عزمنا على جمعها في مسألة اقتداء المالكي بحنفي يصلي في الحجر، وسميناها: رفع الحجر عن الاقتداء بإمام الحجر.

وبعد أن كتبت هذا رأيت في نوازل البرزلي ما يدل على اجتناب مثل ذلك من الورع، وتشتد فيه[1] الكراهة عند بعد المأخذ، ونص ما ذكر: وقد سئل اللخمي[2] عن تناول ما اختلف فيه الفقهاء؛ كشافعي رأى مالكياً غَصَبَ طعاماً فنقله، أو عقد عقداً فاسداً في عين وخلطها وقال: ملكت ذلك على مذهبي، فهل ملكه ملكاً صحيحاً لا شبهة عليه فيه أم لا؟ وهل يجوز للشافعي أن يعامله بالشراء منه والأكل له أم لا. فأجاب: لا ينبغي لمن قَلَّد الشافعي أن يفعل ذلك، وهذا مما يتأكد فيه الورع، وإن قلد مالكيا في هذا وأمثاله فلا بأس به، وإن كان شافعياً فقلد المالكي في هذا. ولعل هذا مما تشتد فيه الكراهة لبعد المأخذ فيه، البرزلي، فظاهره أن العزيمة في هذا أرجح من الرخصة إلا أن يقول إن هذا مما تعارض فيه الحظر والإباحة، فالورع تركه هـ.

قلت: فقد ظهر من قوله لا ينبغي، ومن قوله: مما يتأكد فيه الورع أن ذلك سائغ لا ممنوع، وهذا كله إذا لم نقل بجواز التقليد للمذاهب المخالفة مع القول بصحتها، وأما ما قلنا به، وهو قول جم غفير من المحققين منهم عز الدين بن عبد السلام فقد ارتفع الإشكال واتضح المقال.

ومن فضائل أُحُد ما رُوي عن جابر، رضي الله عنه، مرفوعاً، أن موسى وهارون عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة فخافا من يهود، فخرجا مستخفين فنزلا أحدا، فغشي هارون الموت فقام موسى فحفر له ولحده ثم قال: يا أخي أنت تموت. فقام هارون فدخل في لحده فقبض فحَثَا عليه موسى التراب. قال

---

(1) في ط: به.

(2) أبو الحسن علي بن محمد اللخمي القيرواني، فقيه حافظ، له تعليق على المدونة سماه التبصرة، توفي سنة 478 هـ بسفاقس: شرف الطالب، ص: 58. شجرة النور الزكية 1:173.

السيد: وهناك شِعب يعرف بشعب هارون يزعمون أنه بأعلاه، وهو بعيد جداً[1]. وبأعلى الجبل بناء اتخذه بعض الفقراء قريباً. قلت: وقد شاهدت هذا البناء يوم طلوعنا إلى الجبل في الرجبية، وهو صورة مسجد قريب منه موضع معد لماء المطر، وهو في قبة الجبل في مكان عالٍ مشرف على المدينة المشرفة وما حولها من البقاع، فيه نزهة للناظرين خصوصاً وقت طلوعنا إليه في فصل الربيع، وبعض الناس يُسَمُّون تلك القُبَّة قُبَّة هارون. وقد أخبرني بعض الناس أن بانيها رجل كان يتعبد هناك واسمه هارون فسميت به، ولم تزل إلى الآن يتعهدها الناس للعبادة والخلوة، وما أولاها بذلك فقد وجدت بقلبي عند الوقوف بها والصلاة هناك ما لا مزيد عليه من الحلاوة والتلذذ بالعبادة، وكيف لا ومستقبل القبلة فيها يكون الحرم[2] النبوي بين يديه والقبة الشريفة بين عينيه وبقاع المدينة المشرفة كلها تلقاءه ومكة تجاهه، حتى إنه ليخيل إليه أنه مشرف على الحرمين الشريفين وما بينهما وما فيهما من الأماكن المشرفة. وعلى كل حال لم أر مكانا ينشرح فيه الصدر ويصفو القلب من الأكدار وتتجلى فيه عظمة الربوبية وجلالة النبوءة كهذا المكان. ويقرب منه في ذلك جبل حرا وجبل ثور بمكة كما سيأتي عند ذكرنا لهما.

وكان طلوعنا لجبل أحد يوم الأربعاء الثاني عشر من رجب، وكان ذلك عند إبلال من مرض، فحصل لنا من التعب ما لم نَرَ مثله قبله ولا بعده، ولكن بعد طلوعنا إليه ووصولنا إلى المحل المذكور لم نحس بشيء من ذلك لاستلذاذنا لذلك المنظر البهي والمحل السمي. وفي أصل الجبل غار يزعمون أنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، اختفى فيه، ولا يصح ذلك، ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه: وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار، إنما كان تحت المِهراس[3] هـ. وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع في الصعود للجبل الموضع المُسَمَّى بالمِهراس، وهي مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة يجتمع فيها المطر قَلَّ ما تخلو منه، وقد وجدنا بها مياهاً كثيرة وجلسنا هنالك برهة في ظل بارد وماء مسكوب وشربنا من مائه[4] وتوضأنا، ومنه غسل جرحه، صلى الله عليه

(1) وفاء الوفا 3:319.
(2) في ط: بالحرم.
(3) مسند أحمد 1:287.
(4) ساقط من ط.

وسلم، يوم أحد كما في الصحيح[1]. وقد أخذت من نبات ذلك الجبل المبارك وأزهاره ضغنا أكلنا بعضه وأصحبنا بعضه معنا إلى بلادنا. وتحت المُهراس بقليل موضع يقال إنه موضع الصخرة التي نهض، صلى الله عليه وسلم، ليعلوها، وجلس طلحة تحته رضي الله عنه. وقال ابن هشام في السيرة: بلغني (عن عكرمة)[2] عن ابن عباس أن رسول الله[3]، صلى الله عليه وسلم، لم يبلغ الدرجة المبينة في الشعب[4]؛ أي فليست هي الصخرة المذكورة.

ومن المساجد التي تزار بأحد المسجد اللاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب للمهراس، وهو صغير منهدم. قال السيد[5]: والناس يسمونه مسجد الفسح ويقولون: إن فيه نزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا)[6] الآية. ويقال إن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى فيه الظهر والعصر يوم أحد بعد انقضاء القتال. وعن رافع بن خديج أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى في المسجد الذي بأحد في شعب الخدار على يمينك لازق بالجبل. قلت: وبين هذا المسجد وبين مشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية، واحدة ثنايا الإنسان، يقال إن فيه كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم. وحوله كان نزولنا بخبائنا لما خرجنا مع أهل المدينة المشرفة في الرجبية وبتنا هنالك في أرغد عيش وألذه، فيا لها من ليلة لو بيعت بجميع العمر لكان البائع مغبونا، بل ولو وزنت بليالي الشباب لرجحت به، ولو كان الموزون بها درا ثمينا. وهذا المسجد لم يذكره السيد السمهودي رضي الله عنه.

ومن المساجد التي تزار بأحد مسجد ركن جبل عينين الشرقي على قطعته من الجبل، وهذا الجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة، رضي الله عنه، وهو الجبل الذي كان عليه الرماة يوم أحد. وموضع المسجد هو المكان الذي طعن فيه حمزة، رضي الله عنه. وقد رُوي عن جابر، رضي الله عنه، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صلى

(1) صحيح البخاري 1063:3.
(2) زيادة من ط.
(3) في الرحلة: النبي.
(4) السيرة النبوية 35:4.
(5) وفاء الوفا 204:3.
(6) المجادلة: 11.

الظهر يوم أحد على عينين الطرف الذي بأحد عند القنطرة[1]. قال السيد: يعني بالقنطرة قنطرة العين التي كانت هناك قديماً[2].

ومن المساجد بأحد أيضاً مسجد الوادي على شفيره شامي جبل عينين قريب من المسجد قبله يقال إنه مصرع حمزة، رضي الله عنه، وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا فصرع. وقد رُوي أن حمزة، رضي الله عنه، لما قتل أقام في موضعه تحت جبل الرماة ثم أمر به النبي، صلى الله عليه وسلم، فحمل من بطن الوادي، ويسمى هذا المسجد أيضاً بمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]. قال السيد[4]: وتسميته بالمصلى إما لكونه موضع مصلى الصبح على ما جاء في غزوة أحد أنه، صلى الله عليه وسلم، صلى بأصحابه الصبح بموضع القنطرة وعليهم السلاح، يعني قبل القتال، وإما لما ورد من صلاته، صلى الله عليه وسلم، على حمزة.

ومن المساجد أيضاً مسجد طريق السافلة[5]، وهي الطريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة، رضي الله عنه، يقال إنه مسجد أبي در الغفاري رضي الله عنه. وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، أنه كان برحبة المسجد فرأى النبي، صلى الله عليه وسلم، خارجا من الباب الذي يلي المقبرة فخرج على إثره فدخل حائطاً من الأسواق فتوضأ ثم صلى ركعتين فسجد سجدة أطال فيها، وأن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له[6]: إن جبريل، عليه السلام، بشرني أنه من صلى علي صلى الله عليه، ومن سلم علي سلم الله عليه[7]. وفي بعض طرفه ذكر السجود فقط وقال: فسجدت لله شكراً. قال السيد[8] بعد نقله لما تقدم: والأسواق قريبة من محل هذا المسجد فلعله مسجد السجدة المذكورة.

---

(1) أنظر: الطبقات الكبرى 2:39.
(2) وفاء الوفا 3:206.
(3) المصلى: في الأصل اسم لموضع الصلاة، ثم صار بالغلبة علما على مصلى العيد: الجواهر الثمينة 2:335.
(4) وفاء الوفا 3:130.
(5) يقع مسجد السافلة في شرقي الطريق إلى مسجد السيد حمزة، ويقال إنه مسجد أبي ذر الغفاري: الجواهر الثمينة 2:501.
(6) ساقط من ط.
(7) شعب الإيمان 2:211.
(8) أنظر: وفاء الوفا 3:421.

قلت: وفي الطريق إلى أحد أيضاً عند آخر النخل مسجد صغير محوط عليه بأحجار يقال إن النبي، صلى الله عليه وسلم، جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحد، و لم يذكره السيد رحمه الله.

ومن المساجد التي ينبغي زيارتها والصلاة فيها مساجد مصلى الأعياد التي صلى النبي، صلى الله عليه وسلم، العيد فيها، وقد ورد أنه صلى العيد في أماكن متعددة، والمشهور منها الآن ثلاثة كلها غربي المدينة خارج باب المصري بين الموضع المعروف بالمناخة، وبطحان أحدها[1] يسمى مسجد مصلى العيد[2]، والآخر ينسب لعلي، رضي الله عنه، والآخر لأبي بكر رضي الله عنه. قال السيد[3]: ولعل سبب نسبتهما إليهما كونهما صليا فيه العيد؛ أبو بكر في خلافته، وعلي لما حُصر عثمان، رضي الله عنه، وإلا فيبعد أن يصليا في غير مصلى النبي صلى الله عليه وسلم. وروي عن أنس أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج إلى المصلى يستسقي فبدأ بالخطبة ثم صلى وقال: هذا مجمعنا ومستمطرنا ومرعانا لعيدنا ولفطرنا وأضحانا. فلا يبني فيه لبنة على لبنة ولا خيمة، وقد حمل بعضهم قوله عليه السلام: ما بين بيتي ومصلاي روضة من رياض الجنة[4]، على مصلى العيد فتتسع الروضة وفضل الله أوسع. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، كان النبي، صلى الله عليه وسلم، إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة ووقف يدعو.

وحق هذا المسجد أن يقدم ذكره أول المساجد ولكن اقتضى الحال تأخيره إلى هنا. وهذا آخر القول في المساجد المعلومة العين بالمدينة وأطرافها، وقد زرناها كلها والحمد لله، خصوصاً ما كان منها بطريق أحد أو بطريق قباء، فقد تعدد مجيئنا إلى المحلين مرارت كثيرة، فنمر على ما كان بالطريق منها، وقد تبعت السيد رحمه الله في ذكر ما ورد من فضائلها وتعيين أماكنها وأساميها القديمة، وهو القدوة في ذلك وكلامه المعول، وهو جدير بأن يقتدى به في ذلك، فقد جمع من ذلك وحرر ما لم يحرره غيره رضي الله عنه.

---

(1) في ط: أحد.
(2) يقع مسجد مصلى العيد غربي المدينة: التحفة اللطيفة 1: 41.
(3) وفاء الوفا 1313
(4) المعجم الكبير: 1: 147.

ذكر الآبار التي ورد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها أو شرب أو توضأ فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها[1] فصارت مقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها

ولم نذكر منها إلا ما زرناه وشربنا من مائه، وهي سبعة أولها: بئر أَرِيس، كجليس، نسبة إلى رجل من اليهود اسمه أريس، وهو الفلاح بلغة أهل الشام[2]. وفي الصحيح خبر خروج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأن أبا موسى الأشعري خرج في أثره حتى دخل بئر أريس وتوسط فيها وكشف عن ساقيه، وأن أبا بكر جاء ثم عمر ففعلا مثل ذلك، ثم جاء عثمان وبشر الجميع بالجنة، الحديث بطوله[3]. وفي الصحيح أيضاً أن خاتم النبي، صلى الله عليه وسلم، كان في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان حتى سقط منه في بئر أريس فلم يوجد[4]. وأما ما اشتهر على الألسنة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها، فقد قال العراقي[5] في تخريج أحاديث الإحياء: لم أقف له على أصل. قال السيد: ومن الغريب قول العز بن جماعة في منسكه: قد صح أن النبي، صلى الله عليه وسلم، تفل فيها[6]، وهذه البئر في حديقة غربي مسجد قباء قريب منه[7]، وماؤها غزير يسقي منه إلى بركة في الحديقة. وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار، وبها عنب كثير قلما يدخل أحد للزيارة في وقت العنب إلا ويشتريه ويأكله فيه حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات. وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة[8] فيها والتفرج، وقد جعل لمائها نفقا من[9] أسفلها على وجه الماء حتى يصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء، وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس، وهي بئر

(1) ساقط من ط.
(2) وفاء الوفا 3:339.
(3) صحيح مسلم 4: 1868.
(4) صحيح البخاري 2202:2
(5) العراقي: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالعراقي، الحافظ الكبير، ولد سنة 725 بمصر،رحل إلى بيت المقدس ومكة والشام فأخذ عن شيوخ هذه الجهات، وتصدى للتصنيف والتدريس، ومن جملة مصنفاته: تخريج أحاديث الإحياء، والألفية في علم الحديث وشرحها، توفي سنة 806 هـ: البدر الطالع 354:1.
(6) وفاء الوفا 346:3.
(7) ساقط من ط.
(8) يقصد القيلولة؛ وهي الاستراحة نصف النهار: لسان العرب: قيل.
(9) في ط: مت.

كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة، منها بئر أريس، فصارت متبحرة يشخب[1] فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار، فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول، فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فأظهرت داخل المدينة في مناهل مُتَعَدِّدة، وبني لها بناء متقن يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة الممشى منها يستقي[2] أهل المدينة كلهم لشربهم، والذي رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحرة، والآخر خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط، والآخر شامي المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامي. وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضاً، ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما انحدرت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة شرقي مسجد رومة، بينه وبين أحد وعليها هنالك مزارع، وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج، وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماء، والذي بها جل انتفاع أهل المدينة. ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة، ومنها تملأ الدوارق[3] التي توضع في الحرم الشريف للشرب، وهي لا تكاد تحصى كثرة، فما أعظم بركتها وأوسع نفعها، ولقد شاهدت من يستشفى بمائها فيشفى، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء، ولله در القائل[4]:

[طويل]

لئن قيل في زرق العيون شآمة   فعنديَ أن اليُمنَ في عَينها الزَّرقاء

وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة، وصوابه عين الأزرق، لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين فلُقِّب بالأزرق[5]، وكان إجراؤه لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة، وكان لمعاوية، رضي الله عنه، اهتمام بذلك، فأجرى بالمدينة وما حولها عيونا كثيرة قد دثرت كلها و لم يبق إلا هذه العين المباركة، وقد اعتنى بشأنها من قبل السلطنة، فلها أوقاف معلومة وجرايات تأتي من عند

---

(1) يشخب: يسيل: لسان العرب: شخب.
(2) في ط: يستسقى.
(3) الدوارق: مقدار لما يشرب يكتال به: لسان العرب: درق.
(4) ورد البيت بلا نسبة في: الجواهر الثمينة 1:302.
(5) الجواهر الثمينة 1:302.

السلطان، ولها أمير معلوم وله خدام يتفقد أحوالها على ممر الأزمنة ويصلح ما وهى منها، ولولا ذلك لدثرت كغيرها من العيون.

قال الواقدي: وكانت بالمدينة على زمن معاوية صوافي كثيرة، وكان يجد بالمدينة وأعراضها مائة ألف وسق وخمسين ألف وسق، ويحصد مائة ألف وسق حنطة هـ. فهذا الذي كان يجد معاوية وحده، فما بالك بما كان لغيره من الرعايا ووجوه الناس، فقد كان للصحابة، رضي الله عنهم، وأبنائهم في ذلك الزمان ضياع وقرى ومزارع كثيرة بالمدينة وما حولها، وما أظن هذا العدد الذي كان يستغل معاوية بالمدينة فقد يستغل في زماننا هذا من أرض الحجاز كلها، مع سعة أقطارها، ما عدا نجد فإن بها زراعات كثيرة، وبهذا تعلم نسبة زماننا هذا إلى الأزمنة الماضية في سعة الأرزاق وكثرة الخلق، مع أن اهتمامهم في ذلك الوقت بالدين كان أكثر من اهتمامهم بالدنيا، فأنت ترى كيف انبساطها عليهم، وأما الآن فالاهتمام كله بالدنيا، ولم يبق من الاهتمام بالدين إلا ما نسبته إلى الاهتمام بالدنيا نسبة الفلك الأعظم إلى الجزء الذي لا يتجزأ، وهذا أعظم دليل على قرب انقراض الدنيا واستبدال عمرانها بالخراب وأنهارها بالسراب، فإن عمرانها إنما هو بأسباب الدنيا والدين[1]، وأنت ترى ما آل إليه أمرهما معاً، فنسأل الله تعالى الخروج من الدنيا بلا محنة ولا بدعة آمين[2].

غريبة[3]:

قلت: قال السيد: ومن الغرائب ما ذكره الميورقي[4] في فضل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهابي أنه بلغه أن ميضأة وقعت في عين الأزرق بالطائف فخرجت بعين الأزرق بالمدينة[5]، هـ.

(1) في ط: البنين.
(2) ساقط من ط.
(3) ساقط من ط.
(4) أحمد بن علي العبدري الميورقي، له كتاب: بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج، توفي بالطائف سنة 678: وفاء الوفا 3:401.
(5) وفاء الوفا 3:401.

ولعل هذه الحكاية وأمثالها هي السبب في اعتقاد كثير من جَهَلَة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة، وأنها هي التي جاءت إلى مكة من ناحية عرفة من جبال وراءه، ويقولون إنه لما هاجر النبي، صلى الله عليه وسلم، من مكة تبعته، فهي التي ظهرت بمر الظهران ثم بخليص ثم ببدر ثم بالخيوف كلها إلى أن وصلت المدينة، ويصممون على ذلك حتى إني رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربي، رضي الله عنه، في مسألة الصلاة على النجاشي حيث قال بعضهم: رفع له حتى رآه النبي، صلى الله عليه وسلم، والآية[1] الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له، وبطلان كون هذا العين من مكة أوضح من أن يذكر فإن لم يكن في زمنه، صلى الله عليه وسلم، بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة (عين)[2] تذكر على هذا النعت ولا ما يقرب منه، وإنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

الثانية: بئر البُصة[3]، بضم الموحدة وتخفيف الصاد المهملة، ما هو الدائر على ألسنة أهل البلد. وقال المجد صاحب القاموس: إنه بالتشديد، كأنه من بص الماء بصا، رشح[4]. قال: وإن روي بالتخفيف فمن وبص يبص وبصا وبصة كوعد يعد وعدا وعدة إذا بلغ، أو من وبص لي من المال أي أعطاني. فقد روي عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: كان رسول الله،صلى الله عليه وسلم، يأتي الشهداء وأبناءهم ويتعاهد عيالهم فقال: فجاءني يوما فقال: هل عندك من سدر أغسل به رأسي فإن اليوم الجمعة. قلت: نعم. فأخرجت له سدراً خرجت معه إلى البُصة، فغسل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رأسه وصب غسالة رأسه وصراقة شعره في البصة.

وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قباء في حديقة نخل على طرف بطحان، وماؤها أخضر، وهناك بئر أخرى صغيرة، قال المطري[5]: والناس يختلفون فيهما أيتهما بئر البصة، والصغرى هي التي تلي أطم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. ورجح السيد أنها الصغرى حاكيا عن غيره في الأطم المذكور أنه الذي

(1) في ط: الآيات.
(2) زيادة من ط.
(3) البصة: تقع بالقرب من البقيع على يسار الطريق السالكة إلى قباء: الجواهر الثمينة 1:277.
(4) القاموس: فصل الباء.
(5) في ط: المطرزي.

يقال لبئره البصة. قال: والكبرى لا تنسب للأطم لبعدها منه. وقد ابتني بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج يترل فيها إليها، وقد شربنا من مائها مرارا وتوضأنا واغتسلنا والمنة لله وحده.

الثالثة: بئر بُضاعة[1]، بضم الموحدة على المشهور، وحكى كسرها وفتح الضاء المهملة[2] وأهملها بعضهم، وبالعين المهملة ثم هاء، غربي بئرها إلى جهة الشمال، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قيل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، إنه يستقى لك من بئر بُضاعة، وهي يطرح فيها ما يكره من النتن، قال: الماء لا ينجسه شيء[3]. وفي رواية: إلا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه. وعن سهل بن سعد: بصق النبي، صلى الله عليه وسلم، في بئر بضاعة وسقيته بيدي منها. وعن سهل أيضاً: بئر بضاعة قد بصق النبي، صلى الله عليه وسلم، فيها[4]، فهي يتنشر بها ويتيمن. قال المجد[5]: في الخبر أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أتى بئر بضاعة فتوضأ من الدلو وردها إلى البئر وبصق فيها، وكان إذا مرض المريض في أيامه يقول: اغسلوني من بئر بضاعة فيغسل فكأنما نشط من عقال. وقالت أسماء بنت أبي بكر: كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيتعافون. قلت: وقد كنت أيام مرض بالمدينة أبعث إلى مائها فأغتسل به فأجد الراحة، والبئر في حديقة كبيرة ذات نخل أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي عن يمين الخارج منه قليلاً، وحولها مسجد وبركة ماء.

الرابعة: بئر حاء[6]، بفتح الموحدة وكسرها، وفتح الراء وضمها، وبالمد فيهما وبفتحهما والقصر[7] فيعلى من البراح، وهي الأرض المنكشفة، وقيل: بئر أضيف إلى حاء من حروف الهجاء، وهو اسم رجل وامرأة ومكان، وخبرهما في الصحيح، وأنها كانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يدخلها

---

(1) بئر بُضاعة: تقع شمال المدينة، وعندها مسجد: الجواهر الثمينة 1:275. المغانم المطابة، ص: 31.
(2) في ط: المعجمة.
(3) السنن الكبرى 1:257.
(4) المعجم الكبير 6:122.
(5) المغانم المطابة في معالم طابة30، وفيها: البضة.
(6) بئر حاء: تقع وسط حديقة قرب البقيع، طولها عشرون ذراعا، وعرضها ثلاثة أذرع: الجواهر الثمينة 1:280. المغانم المطابة، ص: 36.
(7) في ط: وقصر.

ويشرب من ماء فيها طيب، وهي اليوم في حديقة صغيرة قريب[1] من سور المدينة شماليه بينهما الطريق، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع، وهي بينه وبين باب الشامي. قال السيد: والظاهر أن بعضها اليوم داخل السور[2]، وقد دخلتها والحمد لله مرارا، واستصحبنا شيئاً من زرع تلك الحديقة المسقي بمائها.

الخامسة: بئر رُومة[3]: بضم الراء وبالهمز ودونه، وفي الحديث: نعم القليب قليب المزني، فاشتراها عثمان فتصدق بها. وورد أيضاً: نعم الحفيرة حفيرة مزني، يعني رومة. وعنه صلى الله عليه وسلم: من يشتري رومة فله مثلها في الجنة[4]، وكان الناس لا يشربون منها إلا بالثمن[5]، فاشتراها عثمان فجعلها لله، وكانت لرجل من غفار أو مزينة، أو ليهودي اسمه رومة، فنسبت إليه، وهي بئر جاهلية، رُوي أنه استقى منها لتبع لما نزل بقناة، وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال، ولم أزر هذه البئر إلا مرة واحدة لبعدها، والطريق إليها على مساجد الفتح، ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبلتين، ثم يمر تحته أسفل منه قاصداً العقيق، فهي هناك، وبقربها مزارع. ولما خرجنا لزيارتها، وكان ذلك عقب مطر، فوجدنا العقيق قد سال سيلاً عظيماً فحال طرف منه بيننا وبينها، فخضناه حتى وصلنا. ومعظم سيل الوادي من غربيه.

السادسة: بئر غَرس[6]، بضم فسكون. وقال المجد: بفتح وسكون، وضبطه بعضهم بالتحريك كشجر، وهي بئر شرقي قباء على نص ميل من مسجدها إلى جهة الشمال، وقد ورد أن رباحا غلاما للنبي، صلى الله عليه وسلم، كان يستقي من بئر غرس مرة ومن بئر السقيا مرة. ولابن حبان في الثقة[7] عن أنس أنه قال:

(1) ساقط من ط.
(2) وفاء الوفا 3:370.
(3) بئر رومة: تقع غربي المدينة، وهي في براح واسع من الأرض: الجواهر الثمينة 1:274. المغانم المطابة، ص: 40.
(4) نص الحديث كما ورد في صحيح ابن خزيمة 121 :4:حدثنا إبراهيم بن محمد فلهنا حدثنا يحيى بن أبي الحجاج حدثنا الجريري بتمامه حدثني القشيري قال ثم شهدت الدار يوم أصيب عثمان وأشرف علينا فقال يا أيها الناس من أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها بئر مستعذب إلا رومة فقال من يشتري رومة فيجعل دلوه فيها كدلاء المسلمين بخير له منها في الجنة قالوا اللهم نعم قال فاشتريتها من خالص مالي وأنت تمنعوني أن أفطر عليها حتى أفطر على ماء البحر.
(5) في ط: بثمن.
(6) بئر غرس: بينها وبين مسجد قباء من جهة المشرق نحو نصف ميل: الجواهر الثمينة 2:272.
(7) يقصد كتاب الثقات للحافظ أبي حاتم محمد ابن حبان المتوفى سنة 354 هـ: معجم المؤلفين 9:173.

إيتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ. ولابن ماجة بسند جيد عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قِرَب من بئر غرس[1]. وكانت بقباء، وكان يشرب منها. وفي رواية: لم تحلل أوكيتهن، وكانت البئر لسعد بن خيتمة. وروي أنه عليه وسلم توضأ منها وأهرق بقية وضوئه فيها. وروي أيضا أنه قال: رأيت الليلة أني أصبحت على بئر من الجنة فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها وبزق فيها، وأهدي له عسل فصبه فيها. وقد جعل لها درج يترل إليها منها وحولها حديقة وبجانبها مسجد، وقد زرتها مرة والحمد لله.

السابعة: بئر اليسيرة[2]، من اليُسر ضد العسر، وتعرف الآن ببئر العِهن، بكسر فسكون، وهو لغة الصوف الملون، وهي معروفة بالعوالي مليحة جدا منقورة في الجبل وعندها سدرة. فقد روي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، جاء بني أمية بن زيد فتوقف على بئر لهم فقال: ما اسمها؟ فقالوا: عسيرة. فقال: لا، ولكن اسمها اليسيرة، وبصق فيها وبرك فيها. وروى ابن سعد في طبقاته[3] عن عمر بن أبي سلمة أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سماها اليسيرة، وأن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها، وقد زرتها والحمد لله وشربت من مائها، وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة[4]، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة ملك لبعض المغاربة. فهذه الآبار السبعة هي المشهورة اليوم عند أهل المدينة، وقد نظمها الزين المراغي فيما أنشد عنه السيد في بيتين وهما[5]:

[طويل]

إذا رُمتَ آبارَ النبيِّ بطِيبة ... فعدتُها سَبعٌ مقالا بلا وهْنِ

أريسٌ وغرسٌ رومة وبُضاعة ... كذا بُصة قلْ بيرُ حاءِ مع العِهْنِ

قلت: وبقي بئران آخران يتبرك بهما، أحدهما بئر السقيا، فقد ورد أنه، عليه السلام، كان يستعذب له الماء من بئر السقيا، والسقيا هذه في آخر مترلة النقا على

(1) سنن ابن ماجة 1:471.

(2) بئر اليسيرة: بئر بالعالية منقورة في الجبل، وتعرف ببئر العهن: الجواهر الثمينة 2:280.

(3) الطبقات الكبرى 3:241.

(4) يقع مسجد بني قريظة شرقي مسجد الشمس بعيد عنه بالقرب من الحرة الشرقية: التحفة اللطيفة 1:41.

(5) وفاء الوفا 3:396.

يسار السالك إلى بئر علي، وهي بالحرة الغربية، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك. والثاني بئر زمزم، وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا، وهي بئر مليحة في حديقة نخل حولها بركة وبناء، وسميت زمزم تشبيها لها بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق، وقد زرتها والحمد لله، وكانت إذ ذاك ملكا لبعض أصحابنا المغاربة المجاورين، فأطعمنا من تمر حديقتها وسقانا من مائها. وقد عد السيد، رحمه الله، آبارا متعددة سوى هذه ثم قال: فمن ذكر أنها سبعة فقط قصور منه[1]. وقد اقتصرت أنا على ما شاهدت منها وشربت من مائه.

ومن المواضع التي يتبرك بها بالمدينة تربة صعيب، فقد روي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أتى بني الحارث فإذا هم روبى. فقال: مالكم يا بني الحارث روبى؟ قالوا: أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى. قال: فأين أنتم عن صعيب. قالوا: يا رسول الله ما نصنع به؟ قال: تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء فيتفل عليه أحدكم ويقول: باسم الله تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء لمريضنا بإذن ربنا. ففعلوا فتركتهم الحمى[2]. قال طاهر بن يحيى العلوي عقب روايته ذلك عن أبيه: صعيب وادي بطحان دون الماجشونية، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه، وهو اليوم إذا وبى إنسان أخذ منه. قال ابن النجار: وقد رأيت أنا هذه الحفرة والناس يأخذون منها وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحاً. قال: وأخذت منه أيضاً. قال السيد بعد ذكر ما تقدم: وهذه الحفرة موجودة يأثرها الخلف عن السلف وينقلون ترابها للتداوي. وذكر المجد[3] أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوه للحمى فوجدوه صحيحا. قال: وأنا سقيته غلاما لي مريضا من نحو سنة تواظبه الحمى فانقطعت عنه من يومه. وذكر هو كالمطرزي، أن ترابه يجعل في الماء ويغتسل به من الحمى. قال السيد: فينبغي أن يفعل أولا ما ورد ثم يجمع بين الشرب والغسل.

قلت: وقد وصلت أنا إلى موضع هذه الحفرة وأخذنا من ترابها واستصحبناه معنا لبلادنا بقصد التداوي، وقد نص غير واحد على جواز نقله للتداوي كماء زمزم للتبرك، و لم يزل عمل الناس على ذلك قديما وحديثا. وقد ذكر الاستشفاء

---

(1) وفاء الوفا 3:395.
(2) معجم ما استعجم 3:834.
(3) يقصد الفيروزآبادي محمد بن يعقوب المتوفى سنة 887، صاحب المغانم المطابة.

أيضاً من الحمى بتراب مشهد حمزة وقد استشفيت أنا أيام مرضي بالمدينة بتربة صعيب فحصلت بركتها ولله الحمد.

ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها

فمنها وادي العقيق[1]، وهو أيضاً من المواضع المباركة التي ينبغي زيارتها ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: بوادي العقيق أتاني الليلة آت فقال: صل في هذا الوادي المبارك[2]. وروي أيضا مرفوعا: العقيق وادي مبارك[3]. وروي أن عمر، رضي الله، عنه كان إذا انتهى إليه إن وادي العقيق قد سال قال: اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك وإلى الماء الذي لو جاءنا جاء من حيث جاء لتمسحنا به. وقال فيه عليه السلام: هذا الوادي يحبنا ونحبه.

والعقيق وادي كبير غربي المدينة وراء الحرة الغربية يأتي سيله من أماكن بعيدة وربما دام شهرا فأكثر، وأسفله مما يلي الجرف هو المسمى بالعرصة إلى غربي رومة، وما فوق ذلك إلى البقيع يسمى العقيق. والمشتهر في زماننا بالعقيق من غربي رومة إلى ذي الحليفة، وفي العقيق بين عروة التي أكثر الشعراء من ذكرها في تشببهم، وفيها يقول السري بن عبد الرحمن الأنصاري[4]:

[خفيف]

كَفِّنُوني إن متُّ في دِرعِ أرْوى — واستقُوا لي من بئرِ عُروةَ ماءِ

سخْنةٌ في الشتاءِ باردةٌ في الصيف — سراجٌ في الليلةِ الظلماءِ

(1) وادي العقيق: يقع على ثلاثة أميال من المدينة، وقيل على ميلين منها: الجواهر الثمينة 1:349.
(2) صحيح البخاري 2:556.
(3) صحيح البخاري 2:556.
(4) ورد البيتان في: الجواهر الثمينة 1:353.

وعروة المنسوبة إليه البئر عروة بن الزبير، رضي الله، عنه فإنه هو الذي حفرها وبنى هنالك قصره بالعقيق، وهو منقسم إلى أصغر وأكبر. قال عياض[1]: البقيع صدر العقيق، وهما عقيقان أدناهما عقيق المدينة، وهو أصغر وأكبر، فالأصغر فيه بئر رومة، والأكبر فيه بئر عروة. والعقيق الآخر على مقربة منه، وهو من بلاد مزينة، وسمي عقيقا لأن سيله عق في الحرة، أي شق وقطع. وقيل سمي بذلك لحمرة موضعه. وقد روي أن عمر، رضي الله، عنه لما أقطع الناس العقيق وقف في موضع بئر عروة بن الزبير التي عليها سقايته وهو يقطع الناس فقال: أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة، فاستقطعه ذلك حوات بن جبير الأنصاري ما قطعه تلك الناحية فاشترى عروة موضع قصره وبياره بعد، وقد صدقت فراسة عمر، رضي الله عنه، في هذه البئر كما هو شأنه في كل ما يتفرس فيه. فهذه البئر من أغزر الآبار ماء وأحلاها، ولذلك أكثر الشعراء من ذكرها في أشعارهم، وفيها يقول بعضهم من جملة قصيدة[2]:

[طويل]

ألا ليتَ شِعْري هلْ إلى الرملِ عَودة وهل لي بتلك البانتين لمام

وهل نهلةٌ من بئر عُروة عذبَة أداوي بها قلبا براه أوام

وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المتنزهات من سالف الدهر، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة في كتب الأدباء. وقد حضرت بالمدينة سيلة ثلاث مرات فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه، وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب، وأقاموا به يوما أو يومين، وقد سال مرة سيلا عظيما منع الرفاق والواردين من مكة للرحبية عن الوصول إليها إلا بعد مدة، وقد حضرتني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها[3]:

[بسيط]

جرى العقيقُ ودمعِي كالعقيقِ جرى فلا تسلْ سائلِي عما هناكَ جَرى

(1) أنظر: وفاء الوفا 4: 11.
(2) البيتان للشيخ عبد السلام بن يوسف: الجواهر الثمينة 1: 352.
(3) وردت الأبيات في كتاب: أبو سالم المتصوف الأديب، ص: 320.

الوجدُ أورَى زنادا في الحشا فـصَلَى بهِ الفؤادُ فـسالَ الـدمعُ مبتـدرًا
أذْكرني جريُهُ جـريَ الـسوابقِ في بين الكتائـب في المَيـدانِ مُعتجـرا
وظلـه والنـسيم في جوانبـه[1] أكْربَني فسرَى الأحزان حين سَـرى
أذكرني زمنـا عنـد الـذين هم أفاخر الشهب في وسط الدجا سحرا
قومي وأهلي ومن ألبـست بينـهم شرخ الشباب نظيفا طيبـا عطـرا
قد استبدلت منهم نفس المشوق سوى طيب مجاورة المختار مـن حـضرا
أكرم بذا بـدلا قـد فـاز آخـذه لو أنه في الـشراء أدفـع العمـرا

(ومن جملتها هذه)[2]:

[مجتث]

ســالَ العقيـقُ ودمعِـي ســال كمثـلِ العقيـقِ
وســيلهُ كـالرحيقِ وأدمُعِـي كـالحريقِ
فــلا تلُـمْ يــا عــذُولي ولتَـسْعدَنْ يــا رفيـقِ

في أبيات.

ومنها وادي بُطْحان[3]، وهو الوادي المتوسط بيوت المدينة، ودور الأنـصار غالبها على حافتيه شرقا وغربا، وهو يمر من شرقي قباء، ثم يمر كذلك إلى أن يمر غربي سور المدينة إلى طريق المصلى حتى يخرج إلى غربي سِلع وقـرب مـساجد الفتح، ثم يمر كذلك إلى أن يلتقي مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسيال، فقـد روى البزار عن عائشة مرفوعا: بطحان على ترعة من ترع الجنة[4]. وقد سال مراراً ونحن بالمدينة، فخرج الناس للتفرج فيه.

---

(1) في خ وط بجوانبه، والصواب ما أثبتناه.
(2) زيادة من ط، ويقصد الأبيات التي استحضرها.
(3) بطحان: وادي في وسط المدينة: وفاء الوفا 2:133.
(4) التاريخ الكبير 2:51.

وعلى حافتيه منازل كثيرة لأهل المدينة قد جعلت لهم بشبابيك ومجالس إلى ناحية الوادي، وعليه قنطرة كبيرة قرب المصلى، وقل ما يخلو أعلاه من ماء يسيل به بخلاء يقوى إذا كثرت الأمطار، ويقل إذا قلت.

ومنها وادي قناة، وهو أعظم أودية المدينة سيلا، فإن سيله يأتي من الأماكن البعيدة فيروى أن تُبع نزله فلما شخص منه قال: هذه قناة الأرض، فسمي بـه[1]. ويسمى أيضا بالشظاة، وفي القاموس[2] أنه عند المدينة يسمى قناة.

ومن أعلى منها عند سد نار الحرة يسمى بالشظاة. وقال المدائني: قناة وادي يأتي من الطائف ويصب في الأرحضية وقرارة الكدر[3]، ثم يأتي بئر مَعُونة[4] ثم يمر علي طرف القدوم[5] في أصول قبور الشهداء بأحد، ثم ينتهي إلى مجتمع السيول بزُغَابة[6]. وقال ابن زبالة: سيل قناة إذا استجمعت يأتي من الطائف، وهو أحد فحول أودية العرب، فيأتي من المشرق وحتى يصل السد الذي أحدثته نار الحرة، وانقطع هذا الوادي بسببه ثم انخرق سنة تسعين وستمائة فجرى الوادي سنة على ما بين الجبلين، وسنة أخرى دون ذلك، ثم انخرق بعد السبعمائة، فجرى سنة أو أزيد، ثم انخرق سنة أربع وثلاثين وسبعمائة بعد تواتر الأمطار، فحفر واديا آخر غير مجراه الذي هو على مشهد سيدنا حمزة قبليه وقبلي جبل عينين. وبقي المشهد وعينين في وسط السيل نحو أربعة أشهر لا يقدر أحد على الوصول إليهما إلا بمشقة، وكان أهل المدينة يقفون على التل الذي خارج باب البقيع فيشاهدونه، ولو زاد مقدارٍ ذراع في الارتفاع وصل إلى المدينة ثم استقر في الوادي بين القبلي والشمالي قريباً من سنة.

قلت: وقد سال ونحن بالمدينة سيلاً عظيماً بقي مدة يجري، إلا أني لم يتفق لي الخروج إليه لبعده مع عائق المرض، إلا أنا لما خرجنا لزيارة سيدنا حمزة في

(1) معجم ما استعجم 1:377.
(2) القاموس: فصل الهمزة.
(3) قرارة الكدر: تقع بناحية معدن بني سليم قريب من الأرحضية وراء سد معونة، وبين المعدن وبين المدينة ثمانية برد: الطبقات الكبرى 2:31.
(4) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة: معجم ما استعجم 4:1245.
(5) القدوم: اسم بلد بالحجاز قرب المدينة: معجم البلدان: القدوم.
(6) زغابة: زعابة؛ زعم ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما فرغ من حفر الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزعابة، وفي بعض النسخ زغابة، وكلا الاسمين مجهول: معجم ما استعجم 2:698.

الرجبية أدركنا فيه بقية ماء. وهذا الوادي هو الذي ورد في الصحيح في استسقائه عليه السلام أنه سال شهرا، وأهل المدينة يخرجون إلى موضع أعلاه من ناحية المشرق وراء الحرة فيقيمون فيه الأسبوع أو أكثر. وقد ذكر السيد، رحمه الله، من جملة أودية المدينة وادي رانونا ووادي مذينب، ووادي مهزور[1]. وهذه الأودية ترجع كلها إلى بُطحان أو إلى قناة، بل إلى بطحان على ما يظهر من كلام السيد.

قال الزبير بن بكار[2]: ثم يلتقي العقيق ورانونا واد آخر وذي صلب وذي ريش وبطحان ومعجب ومهزور وقناة بزغابة وسيول العوالي هذه يلتقي بعضها بعضا قبل أن يلتقي العقيق، ثم يجتمع فتلقى العقيق بزغابة عند أرض سعد بن أبي وقاص وذلك أعلى وادي لضم، سمي به لانضمام السيول واجتماعها به. قال الزبير: ثم تمضي هذه السيول. فذكر الأماكن التي يمر بها من بلاد العرب إلى أن يصب في البحر عند جبل يقال له أراك. وقال المطري: إن مصبه في البحر من ناحية أكره في طريق مصر. قلت: وهو الوادي المسمى اليوم بالأكره بينه وبين الوجه مرحلة.

---

(1) وفاء الوفا 3:168.

(2) الزبير بن بكار: أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، من أهل المدينة، إخباري نسابة،تولى قضاء مكة مدة، توفي سنة 256 هـ: شذرات الذهب 1:133. الفهرست 1:160.

ذكر مواضع نزولنا بالمدينة وإقامتنا بها وتنقلاتنا لأحوال لنا إلى يوم خروجنا منها إلى مكة (نفعنا الله بحق سكنها)[1]

كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف لأنا دخلناها كما تقدم في الليلة الثانية من محرم، وكان خروجنا منها إلى مكة في السابع عشر من شعبان، وكنا نسكن أولا في محل نزولنا بجوار مشهد السيد إسماعيل، كما تقدم، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس، به أخلية للوضوء وبئران كما تقدم، وكان قيِّم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين، وهو الذي أنزلنا به، وكان يتولى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه، ولاه ذلك مفتي المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن، لأنَّ ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه، وانتفع بالباقي كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة، بل وبغيرها صارت أماكن جباية يولى عليها من قبل القاضي. وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذه لا يزاحمنا فيه غيرنا لولا بعدنا من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا، إنما تتقى ببقايا الظلال ومبادي الفيء تحت الجدران، ومع ذلك يلفحنا الحر لفحا فلا نصل إلى المسجد إلا بعد مشقة، ولكنا نحتسب في ذلك خطانا ونغتفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع، فنمر كل يوم مرارا على باب البقيع ونسلم على أهله وندعو، ومن طلع منا على سطح المشهد أشرف على البقيع كله وما والاه من الأجبنة وحدائق النخل، ويكون جبل أحد الذي هو من جبال الجنة قبالة وجهه، وما كان ينغص علينا فيه إلا كثرة النخاولة إلى ذلك المحل، وهم الروافض الساكنون خارج المدينة في العوالي[2] وغيرها من الجهات، فإن جل من يسكن هناك ويتولى العمل في البساتين والفلاحة فيها روافض، ويسميهم أهل المدينة النخاولة، ولا أدري معنى هذا الاسم.

---

(1) زيادة من ط.

(2) العوالي: جمع العالي ضد السافل، وهو ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة: معجم البلدان: العوالي.

ولهم عادة في كلٍ يوم خميس غالبا يأتون إلى المشهد من أول النهار ويطبخون هنالك طعاماً كثيراً، ويجتمعون رجالا ونساء بأولادهم، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم، فإن من له ولد يريد ختانه لا يختتنونه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان، وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد الزيارة وإطعام الطعام، ولا يحضر معهم غيرهم، وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة باللحم. وصفة طبخ الهريسة أن يجعل اللحم في المطبخ ويجعل معه القمح ويطبخ حتى يفارق اللحم العظم، فتزال العظام ويبالغ في طبخ اللحم مع القمح حتى يطيب القمح ويترلع[1]، فيأخذون عصيا شبه المغارف عراض الرؤوس فيلوكون ذلك به حتى يختلط اللحم مع القمح ويصير مثل العجين، فيأخذونه في الأواني ويصبون عليه السمن، وهي عند أهل الحجاز من أشهى الأطعمة، وهي قوية إذا شبع منها الإنسان قد لا يشتهي الطعام يوما وليلة.

و لم نزل ساكنين في المشهد المذكور إلى أواسط ربيع الأول، ومرضت فيه بالحمى الصفراوية، ومرض الجل من أصحابنا، وضعفنا عن الوصول إلى المسجد من المرض، وكان ابتداء مرضي ليلة المولد الشريف، وكان الناس يسمون ذلك المحل الذي سكنا فيه، مع كونه أفسح المحال، بثقل السكنى وكثرة الأمراض، ولذلك شاهد فإن هذا المحل قريب من ذنب مشعظ الذي قال فيه، صلى الله عليه وسلم[2]: اللهم حبب إلينا المدينة وانقل وباها إلى مهيعه وما بقي منها فاجعله تحت ذنب مشعط. وقال أيضا: إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مشعط. قال السيد[3]: ومشعط بالشين المعجمة كمرفق، أطم لبني جديمة كان في غربي مسجدهم قرب البقيع. وقال في موضع آخر: كان غربي مسجد أبي، ومسجد أبي قريب من مشهد العباس، فهذا المحل أقرب الأماكن بالمدينة إليه. وكنا نزولا هنالك بخمسة من أصحابنا فمرض الكل و لم يصح إلا واحد، فخرجنا منه واكترينا رباطا

---

(1) ينزلع: من تزل إذا تشقق: لسان العرب: زلع.

(2) نص الدعاء كما ورد في مسند أحمد (309:5): حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عثمان بن عمر أنا بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبي قتادة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، توضأ ثم صلى بأرض سعد بأصل الحرة ثم بيوت السقيا ثم قال: اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة وأنا محمد عبدك ونبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به إبراهيم لأهل مكة ندعوك أن تبارك لهم في صاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة واجعل ما بها من وباء نجم اللهم إني قد حرمت ما بين لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم الحرم.

(3) وفاء الوفا 211:3.

آخر قبلي العين التي في شرقي المسجد، وبقينا فيه نحو الخمسة عشر يوما، واشتد علي المرض فيه، و لم يوافقنا أيضا لضيقه وبعده عن المسجد أيضا، إلا أنه دون الأول في البعد، فخرجنا منه إلى الرباط المنسوب لقطب الأولياء مولاي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، وهو قريب من المسجد جدا ليس بين بابه وبين باب المسجد المسمى بباب النساء إلا نحو ثلاث خطوات، واغتبطنا بسكناه من قرب المسجد، وسكنا في البيت الذي عن يمين الداخل، وكان بيد شيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، فلما انتقل إلى مكة تركه بيد بعض أصحابه فكلمه أحد أكابر خدام الحجرة الشريفة، فدفع لنا مفتاحه، وكان في وسط البيت قبر أخبرت أنه لبعض الأعجام ممن تولى عمارة ذلك الرباط، وزادنا غبطة في سكنى ذلك الرباط مجاورة شيخنا جمال الدين الهندي النقشبندي فإن سكناه فيه في البيت الذي على[1] يسار الداخل، وكنت أدخل إليه وأجلس معه للمراقبة حتى منعت بشدة المرض، وبقينا في ذلك الرباط نحوا من شهر، فثقل علينا من مجاورة القبر الذي في البيت وعدم محل فيه للطبخ، وإنما كنا نطبخ في مكان آخر بعيد فشق ذلك علينا، فانتقلنا منه إلى رباط النخلة المجاور لرباط النساء، وهو تحت السليمانية، فوافقنا في السكنى، واكترينا فيه محلا واسعا ذا منافع ومرافق وأمكنة للخلاء وبئر للوضوء وماء للشرب يأتينا عفوا بلا ثمن من أحباس على ماء لذلك المحل، فانبسطنا واستوطنا واغتبطنا بتيسر المرافق مع قرب المسجد، وإن كان دون رباط الشيخ عبد القادر في القرب، و لم يزل سكنانا في ذلك المحل إلى أن خرجنا لمكة.

لطيفة:

كان في رباط الشيخ عبد القادر بئر حلو على خلاف المعتاد من آبار المدينة فإنها مالحة، فبينما أنا ذات يوم أتحدث مع نقيب الرباط حتى جرى ذكر ذلك فقال لي: إنما حدثت فيه الحلاوة منذ أعوام قريبة وكانت كغيرها من الآبار فأصبحت ذات ليلة وهي حلوة، ولا يعلمون السبب في ذلك، فقلت له: لعل مجرى العين قد انخرق إليها. فقال لي: ليس بالقرب منها مجرى للعين، والله أعلم بحقيقة ذلك.

---

(1) في ط: عن.

ذكر ما[1] أقرأته بالمدينة المشرفة أيام إقامتنا بها

ولما كان أول شهر صفر ألجأني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم مختصر الشيخ خليل في فقه مالك، فتعللت لهم بقلة الممارسة له وشغل البال وعدم ما يستعين به الإنسان من الشروح والحواشي، فلم يجد تعليلي لديهم، بل زادهم إغراء، فابتدأنا قراءته في مؤخر المسجد بالجانب الغرب منه، وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب، فقرأنا لهم قراءة لا بأس بها زعموا أنهم لم يروا مثلها منذ أزمان، ولا بدع في ذلك فإن البلد شاغر من محققي العلوم سيما فقه مالك، فلم نر هناك من يحقق أدنى مسائله، وقد صوح نبت العلوم بها فرعى الهشيم[2]؛

[مجزوء الرجز]

أعظم بجهل فتية أعلم من فيهم أنا.

وقرأنا فيه إلى فصل الأذان في أزيد من شهر، فجاء الله تبارك وتعالى بما نرجو به المغفرة ورفع الدرجات من المرض، فطال بي المرض ومنعني من الوصول إلى المسجد في غالب الأوقات، بل آل بي إلى أن عجزت عن الخروج للجمعة فضلا عن غيرها من الصلوات. وفي أثناء المرض كانت تنقلاتنا في المحال المذكورة، وقام بشؤوننا أصحابنا المغاربة فيما نحتاج إليه من أدوية وشراء الأطعمة، فجزاهم الله عنا أفضل المجازات، خصوصا صاحبنا الشيخ عبد المؤمن التنجري[3] فقد قام معنا أتم القيام، ولا نسب بيننا وبينه ولا سبب إلا ما جبله الله عليه من محاسن الأخلاق وكرم الأعراق، وإلا فأي مناسبة بين أقصى المغرب وأقصى السودان، فكافاه الله عنا أحسن المكافأة، وما قدرت على شهود الصلوات كلها في المسجد

---

(1) في ط: من.
(2) إشارة إلى بيت أبي علي البصير: (الوساطة: 221).
ولكن البلاد إذا اقشعرت وصوح نبتها رعي الهشيم
(3) في ط: التحري.

إلا في أواخر جمادى الثانية. ولما استهل شهر ربيع الأول طلب مني أصحابنا أيضا قراءة الشمائل[1]، فشرعنا فيها بعد صلاة الصبح بباب النساء، وعاق المرض عن ختمها إلى جمادى الثانية، واستعرت من شيخنا الشيخ ياسين شرح المناوي على الشمائل للنظر فيه أيام القراءة، فأعاره وهو من أحسن ما رأيت من الشروح، عليها يباحث ابن حجر الهيثمي كثيرا ويحل مشكلات الملا عصام وينتصر له أحيانا فيما رده عليه ابن حجر.

ومما استفدته من هذا الشرح نقلا عن الملا عصام في حديث رؤيا النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وأن الشيطان لا يتمثل به ما نصه: قال الشيخ محي الدين في شرح السنة[2] بعد كلام يتعلق برؤية الله تعالى: ولا يتمثل الشيطان بنبي من الأنبياء ولا بملك من الملائكة ولا بالشمس والقمر والنجوم المضيئة والسحاب الذي فيه الغيث.

لطيفة:

كنت رأيت في النوم عند ابتدائنا لقراءة الشمائل أن صاحبنا الشيخ المسن عبد الكريم التمام أتاني بسبحة من جواهر ويواقيت ثمينة فجعل يظهر لي محاسنها، واغتبطت بها كثيرا، فلما كان الغد، بعد فراغنا من الدرس، ابتدأ الشيخ عبد الكريم المذكور الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، التي جرت العادة بختم المشايخ بها الدروس في البلاد المشرقية كلها، مصرا وشاما وحجازا، وهي: اللهم صل أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون. يكررونها ثلاثا في آخر كل درس، خصوصا الدروس الحديثية. ولم نزل نقرؤها عند الفراغ من القراءة إلى ختم الكتاب، فتأولتها الرؤيا التي رأيت، ولعمري إنها لرؤيا صادقة، فإذا لم تكن الصلاة على النبي، صلى الله عليه

(1) الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية: لأبي عيسى محمد بن سورة الإمام الترمذي المتوفى سنة 279 هـ، شرحها الشيخ عبد الرؤوف المناوى: كشف الظنون 2:1059.

(2) شرح السنة للإمام محي السنة حسين بن مسعود البغوي المتوفى سنة 516هـ: كشف الظنون 2:1040.

وسلم، في العبادات بمنزلة الجواهر واليواقيت في الأموال، فلا شـــيء غيرهـــا في العبادات أحق بهذا الوصف.

لطيفة أخرى مثلها :

أخبرني صاحبنا الشيخ محمد الفزاري، وكان أوحد زمانه نـــسكا وعبـــادة وملازمة للحرم الشريف، وهو الذي ألح كثيرا في قراءتنا للمختصر أنـــه رأى في منامه عند ابتدائنا لقراءة المختصر[1] أن ساقية كبيرة كثيرة الماء صافية أخرجت من البحر واغتبط الناس بها للشرب والسقي، فجرت قليلا ثم وقفت و لم تزد، فتأولتها قراءتنا للمختصر، والبحر هو صلى الله عليه وسلم، فمنه المدد لكل معلم خـــير ومرشد إليه من أمته، والوقوف ما حصل لنا من المرض المكفر إن شاء الله لذنوبنا.

لطيفة:

من يوم قدومنا للمدينة كل من تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا: استعدوا لحمى المدينة فلا بد لكم منها فإنها تحفة النبي، صلى الله عليـــه وســـلم، وكرامته لجيرانه لتمحيص ذنوبهم، وكان بعض أصحابنا يتمغص من ذلك ويشق عليه سماعه منهم فيقول: نحن نرجو أن تكون كرامة النبي، صلى الله عليه وسلم، لنا بغير ذلك، فكان أولنا وقوعا في المرض وآخرنا وأطولنا إقامة فيه، والله يغفر له ويكفر به زلـــله.

قلت: ولا بعد ولا نكر في تسمية الحمى بتحفته، صلى الله عليه وســـلم، فلذلك أصل في السنة، فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى اســـتأذنت علـــى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: اذهبي إلى الأنصار فإن لهم علينا يدا. وكما قال عليه السلام. وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جـــابر: اســـتأذنت الحمى على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذه؟فقالت: أم ملـــدم. فأمر بها إلى أهل قباء، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله، فأتوه فشكوا ذلك إليه، فقال: ما شئتم؟ إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم، وإن شئتم تكون لكم طهورا. قالوا:

(1) مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي.

أو تفعل؟ قال: نعم. قالوا: فدعها[1]. وفي رواية: وإن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم هـ.

ولا تحفة ولا كرامة لزائريه أعظم مما يطهرهم من الآثام، وهل فارقوا الأهل والأولاد، وقطعوا الأوعار والأمجاد، وامتطوا ظهور النجائب، وعلوا بأرجلها ناصية السباسب، إليه، صلى الله عليه وسلم، إلا لتحط عنهم أوزارهم وتغسل أدرانهم، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جازى به نبيا عن قومه. وقد حقق العارف بن أبي جمرة، رضي الله عنه أن المغفرة أعلى ما يناله العبد من الله قائلا: إن الرحمة وإن نال منها الإنسان ما عسى يمكن أن تبقى معها بقية ذنب يؤاخذ به، بخلاف المغفرة، ولذلك امتن الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم. ومما أقرأته بالمدينة أيضا مقدمات الشيخ السنوسي[2] ونقاية السيوطي[3]، كلفني بعض أصحابنا المحبين من أهل السودان قراءتها، وما كنت قرأتها قبل ولا أقرأتها، إلا أنها لما كانت مبادئ علوم قد قرأنا فيها ما تيسر، وحصلنا منها النصيب الذي قدر حسدنا على قراءتها إلا فنين منها لم أقرأهما ولم أقرئهما، وهما فن التشريح والطب، فقد امتنعت من إقرائهما حين الوصول إليهما، فألح علي فيهما وقال: إني لم أقنع بما فهمت من كلام المصنف. فقلت: إن الله تعالى يقول: (ولا تقف ما ليس لك به علم)[4]، وأنا لا علم لي بهذين العلمين، ولم يتقدم لي فيهما قراءة على شيخ، وما يظهر من العبارة لا يكفي في تفسير العلم، إذ لكل علم اصطلاحات لا يعلمها إلا أربابه، وأنا أكره إن تعاطيت ذلك الكذب، خصوصا في حرم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحول قبره، وبمرأى منه ومسمع، فلا يبالي ما أعفاني من ذلك. وأقرأت أيضا القرطبية في فقه مالك، وأقرأت أيضا نحو ربع الألفية[5] وبعض مختصر العصامي في الاستعارة، كل ذلك في محل جلوسنا تحت الأسطوانة التي عن يسار

---

(1) مسند أحمد 3:316.

(2) محمد بن يوسف السنوسي، عالم تلمسان، فقيه مشارك، له العقائد الخمس، وهي: المقدمة، والصغرى، وصغرى الصغرى، والوسطى، والكبرى، توفي سنة 895 هـ: دوحة الناشر، ص: 109. الأعلام 7:155.

(3) النقاية: مختصر في أربعة عشر علما مع زبدة مسائلها لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ، ثم شرحه وسماه: إتمام الدراية فرغ من تأليفه سنة 873 هـ: كشف الظنون 2:1970.

(4) الإسراء: 36.

(5) ألفية محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي في النحو، أنظرها في: مجموع مهمات المتون، ص: 317 – 381.

السرير الذي يقوم عليه المؤذنون في الصف الذي يلي صحن المسجد، وكان عامة جلوسنا هنا. وبعدما خرجت من المدينة كتبت لأصحابنا بأبيات ثلاثة في روي، وأمرتهم بإلصاقها في الأسطوانة التي كنت أجلس إليها تذكرة بي لأنال من دعائهم، وهي هذه[1]:

[طويل]

أجيرانَ خيرِ الخلقِ مُنّوا بدَعوة ... لمنْ نابَ عنهُ في الخطابِ بنانهُ

لئنْ غابَ عنكمْ شخصهُ ففؤادهُ ... لديكمْ رهينٌ لا تُفكُّ رهانهُ

فإنْ خفتمُ نسيانهُ فكتابهُ ... يذكركمْ بهِ وهذا مكانُهُ

وأما ما قرأته بالمدينة على المشايخ القاطنين بها والواردين عليها فسيأتي ذكره عند ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ والأصحاب الذين ينبغي أن يشاد بذكرهم.

ولما كان منتصف صفر دخل الركب العراقي المدينة المشرفة ونزلوا بركبهم شامي سلع من غربي ذباب إلى قريب من مساجد الفتح، وكنا نخرج في بعض الأيام إلى مخيمهم قصد التفرج، وتأخر في هذه السنة قدومهم إلى المدينة لبطئهم في الطريق كثيرا. ذكر لي بعضهم أنهم أخذوا فيما بين مكة والمدينة نحوا من خمسة وأربعين يوما بسبب أداء المكوس الموظفة عليهم من قبل الأمراء، فقد أدوا من ذلك كثيرا. أخبرني بعضهم أن جملة ما أدوا من المكوس من يوم خروجهم من بلادهم بأصبهان يزيد على خمسين دينارا ذهبا لكل رأس، والخمسون عندهم معدة لهذا، يعدونها من بلادهم كل من خرج للحج منهم يخرج زيادة على ما يحتاج من النفقة والكراء خمسين دينارا للمكوس التي تؤخذ منهم في الطريق، فإن كانت المكوس التي تنوبهم الخمسين فأقل لم يتضرروا بذلك لاستعدادهم لها وإخراجهم بها مخرج الصدقة، وما زاد على الخمسين استضروا به، وقد أخذ منهم في هذه السنة عامل البصرة لما مروا بها ثلاثين دينارا، وذلك بأنهم لا يأتي معهم من بلادهم عسكر يحميهم في الطريق من أعرابها ومحاربيها، فإذا وصلوا إلى البصرة أشخص معهم عامل البصرة عسكرا من ناحيته وأميرا من قبله حتى يردهم إلى البصرة فيأخذ منهم ذلك لأجل هذا متعللا بأنهم ليسوا في ولاية سلطانه، فلا تجب عليه نصرتهم ولا

(1) وردت الأبيات في: نشر المثاني 2:264.

حمايتهم إلا بإتاوة يأخذها منهم، وأما سلطانهم فهو الشاه ملك أصبهان وما والاها من عراق العجم مما وراء النهر وعساكره لا تقدر على الوصول إلى عراق العرب الذي هو من أعمال مملكة صاحب الروم، ولأجل ذلك لا يدفع هذا المكس أهل بغداد ولا أهل الكوفة والبصرة، وإن قدموا معهم في الركب لأنهم في طاعة ملك الروم وإيالته.

وأمراء هذه البلاد عماله، فيلزمون بحماية الرعاية والدب عنها في مقابلة الخراج المأخوذ منهم في كل سنة، ومن لا يصل خراجه إلى بيت مال السلطان فيدب عنه سلطانه الآخذ لخراج بلده، وإلا فلا حماية له إلا ما يدفعه. وهذه سياسة كسروية ومقاصد دنيوية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا جاء لها في سنة نبيه من بيان، فكل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه[1] ونصرته وحمايته على القادر واجبة ولو كان أحدهما من أقصى المشرق والآخر من أقصى المغرب، فما بالك بوفد الله ووفد رسوله، فالدب عنهم والدفاع واجب على كل أمير ومأمور؛ رعاية لجانب الله ورسوله، واهتضامهم وإذلالهم بأخذ الخراج الزائد على الجزية أضعافا مضاعفة هضم لجانب الدين وسيرة الأئمة المعتدين لا المهتدين، بيد أن هؤلاء المأخوذ منهم هذه المكوس روافض فساق في الاعتقاد، فهم جديرون بأكثر من ذلك من الإهانة، إلا أن انتضامهم في سلك الحجاج الوافدين على الله ورسوله واتسامهم بسمة الإسلام يوجب لهم حرمة ما داموا في طريق الحج، على أن الآخذين منهم لم يقصدوا بذلك إهانتهم على فسقهم وسوء معتقدهم، بل طلبا لحطام الدنيا واتباعا للسياسة الكسروية كما قدمنا، فلو فرض أنهم أهل سنة وجماعة ما احترموهم لأجلها ولعاملوهم بمثل ذلك أيضا، وحينئذ فمدار أمورهم ومقاصدهم على ما يصلحون به أمور دنياهم وإن أضر بآخرتهم، والله المستعان، وناهيك بما يقع لحجاج المغاربة عند دخولهم مصر وخروجهم منها، إلا أنهم لا يأخذون إلا ممن معه تجارة. وعند الخروج من مصر لا يأخذون إلا من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان متعللين بما ذكرنا، أو لأنهم ليسوا من رعية السلطان، فلا يخرجون السلع من بلد السلطان إلى بلاد سواها إلا بجعل وخراج، (قاتلهم الله أنى يوفكون)[2]. وقد ذكر بعض المؤرخين أن مثل هذا كان يقع قبل هذا الزمان من

(1) مسند أحمد 2:360.
(2) التوبة: 30. المنافقون: 4.

أمراء مكة للحجاج المغاربة فيأخذون منهم قدرا معلوما من المال على كل غـني وفقير ومن لم يكن له مال يدفع منه ذلك المقدار حبس حتى يفوته الحـج إلى أن قيض الله لذلك بعض صالحي ملوك مصر فبعث إلى أمير مكة في إسقاط ذلك عن الحاج وجعل له قدرا معلوما عظيما من الأموال يأتيه في كل سنة مـن مـصر، فانقطعت تلك المحنة بسبب ذلك، فجزاه الله عن المسلمين خيرا.

فهكذا ينبغي أن تكون همم الملوك في النظر في مصالح المسلمين ودفع الضرر عنهم بأنفسهم وأموالهم إن لم يكن إلا ذلك، وعلة أمراء مكة في أخـذ ذلـك كالذين أسلفنا ذكرهم فيقولون: نحن حماة الحرم والذابين عنه وعن الوافدين عليه، ولولا ذلك لاختطفتهم ذئاب الأعراب، ولا يقوم ذلك إلا بعساكر وحمـاة، ولا قيام لهم إلا بأموال، وبلاد الحجاز ضعيفة لا يفي ما يتحصل من خراجها بـذلك فلا بد لنا من أموال نستعين بها على ذلك، إما من سـلاطين الأقطـار أو مـن رعاياهم إذا وصلت إلينا، ولهذا لا يأخذ سلطان مكة شيئا من كل ما يرد مـن الشام ومصر والمغرب لأنه، وإن كان مستقلا في مملكته هو في الحقيقة عامل مـن عمال الخاقان الأعظم صاحب الروم يأتيه من مصر بالأموال والأطعمة ما يقـوم بكفايته وكفاية عساكره، وأما أهل اليمن فأمراؤهم من الإمامية أقاربه من النسب، بل والمذهب، وبينهم مواصلات كثيرة ومحاماة، وأما الهند فلا يفدون إلا في البحر وغالبهم تجار فيدفعون العشر بجدة، وإن قدم بعض كبرائهم قاصدا للحج فقط فإنه يستصحب من الهدايا والتحف ما يجل وصفه. وأخذ أمير مكة في هذه السنة من هؤلاء الأعجام أهل العراق أحد عشر دينارا ذهبا لكل نفس ستة لدخول مكـة، وخمسة لدخول المدينة، وقد حبسهم على المشي بعد الخروج من مكـة إلى مـر الظهران حتى أقاموا هنالك نحوا من اثني عشر يوما بسبب بقية بقيت عليهم مـن الخراج المؤدى، فلما وصلوا إلى بدر حبسهم أميرهم هناك أسبوعا حتى أعطوا ثمانية دنانير أخر لكل نفس؛ متعللا بانقضاء الزاد والعلوفة بسبب التعطيل المذكور، وهذا كله سوى ما يعطونه للأعراب من يوم خروجهم من المدينة، وقد قدموا في هذه السنة بركب عظيم فيه داية الشاه وطبيبه وحاجبه أو وزيره، وعدة الذين أعطـوا المكس من الأعجام سوى الأعراب والخدام ثمانية عشر مائة، وطالت إقامتـهم في المدينة قريبا من شهر، ولم يكن فيهم نفع لأهل المدينة من بيع ولا شراء ولا صدقة إذ جلهم روافض، ويقصدون بصدقاتهم من هو على مذهبهم، ولا يزورون مـن

مزارات البقيع إلا مشاهد أهل البيت فلهم عليها ازدحام، وعند زيارة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يقفون للسلام على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بل كثير منهم لا يمرون بالناحية التي هما فيها، وقد مرض واحد من أصحابنا، ونحن إذ ذاك بمشهد السيد إسماعيل، وكان يضطجع بباب المشهد وعليه ثوب أحمر، والأعجام يلبسون الأحمر في الغالب، فإذا رأوه على باب المشهد وعليه زيهم مع ملازمته لمشهد السيد إسماعيل ظنوه على مذهبهم فتيمموه بصدقاتهم، و لم يرتحل هؤلاء اللئام من المدينة حتى سئم أهل المدينة مقامهم وملوا جوارهم مما أفسدوا بسرحهم من النخيل والبساتين، وكانت إبلهم ترعى بناحية الحرة الشرقية إلى قريب من أحد وإلى الغابة، فأفسدوا من صغار النخيل وضعيف الشجر كثيرا، وغلوا الأسعار بالمدينة لنفاد أزوادهم وعلوفاتهم، فارتحلوا في التاسع أو الثامن من ربيع الأول.

غريبة:

بينما أنا ذات يوم بالحرم الشريف ومعي رجل من الشرفاء من بلاد المغرب له رواء، وبين أيدينا كتب منها سفر من الفتوحات المكية وسفر من المحاضرات والمسامرات[1]، وكلاهما للشيخ محي الدين، إذ جلس إلينا رجل من أصبهان زعم أنه شريف، أظنه في سني، ممن قدم في ذلك الركب فقال لصاحبي: أنت من طلبة العلم، لما يرى من حسن سمته وبذاذة[2] ملبسي، فأشار له صاحبي إلي. فأخذ يسألني عن الكتب التي بين يدي، وأنست إليه حين زعم أنه شريف وزعم أنه مالكي المذهب. فسألته عما يقرا بناحيتهم من كتب المذاهب، فتبين لي كذبه. ثم أخذ يسألني و لم أعرف سوء معتقده. فكان مما قال لي أن قال: ما معنى الله ؟، و لم أفهم سؤاله، فقلت: علم على الذات الواجب الوجود إلى آخر ما يقال في ذلك. فقال: ما معنى العلم؟ فأجبته. وكانت في كلامه لكنة أعجمية، وكان يريد غير ما أجيبه به، ثم تأملت كلامه فإذا هو يريد البحث في مسألة الاسم، هل هو عين المسمى أو غيره، فتكلمت معه في ذلك بما لأئمتنا من التفرقة بين معنى الاسم والمسمى والتسمية، وإن الخلاف في ذلك عند المحققين يرجع إلى وفاق، ثم انتقل

(1) يقصد كتاب: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار لابن عربي.
(2) في ط: بذة.

إلى الكلام في مسألة إثبات الصفات، فشممت منه رائحة إنكارها، بـــل صـــرح بذلك إلا أنه يوري فيقول: هم يزعمون كذا، وأن معنى الوارد في إثباقما كذا، وأن إثباقما يؤدي إلى كذا وكذا، وكل ما أقمت عليه حجة في إثباقما ورد ما استدلوا به على نفيها يقول: لو كنت تفهم العجمية لأجبتك، وكان لسانه بالعربية فيه بعض ثقل، وعلى كل حال له مشاركة حسنة وقوة بحث في المعقولات على مذهب أهل الاعتزال، إلا أني بحمد الله لم يورد علي إشكالا في معتقد أهل السنة إلا نقــضته وأزلته، فلا يكون له جواب إلا ما تقدم من التعلل بعدم معرفتي بلسانه، فكان آخر ما قلت له: نحن معاشر أهل السنة والجماعة نجعل معتمدنا في العقائد الدينية الأدلة النقلية من الكتاب والسنة الصحيحة الموافقة للأدلة العقلية، ونرد ما خالف الكتاب من مقتضيات الفهوم والآراء، ونقدم رأي صاحب الشريعة، صلى الله عليه وسلم، وفهمه، ورأي السلف الصالح وفهمهم على آرائنا وأفهامنا ونتهمهما في ذلـــك، وأنتم بالعكس تحكمون عقولكم وأوهامكم فتحملون الأدلـــة الـــشرعية كلـــها المقطوع بها على ما يوافق أهواءكم وآراءكم، فتصيرون المتبوع تابعـــا، والتـــابع متبوعا، فشتان بين من يحكم الكتاب والسنة على عقله ورأيه، ويرد ما خالفهما إليهما بتأول تشهد له اللغة ولا ينفيه العقل، وبين من يحكم عقله ورأيه فيحمـــل عليها الكتاب والسنة بتكلف وتعسف، ويتخذ إلهه هـــواه ومعبـــوده موهومـــه، فكادت أصواتنا أن ترتفع حتى اجتمع إلينا ناس ممن بالمسجد، ويمنعني من الوقوع به والإغلاظ عليه بعد تحقق مذهبه وسوء معتقده انتسابه إلى أهل البيت. ثم تكلم في مسألة الكلام فأقيمت صلاة العصر، فقمنا إلى الصلاة وافترق المجلس و لم ألقه بعد ذلك. وقد أخبرت بعد ذلك أنه اجتمع بشيخنا بدر الدين الهندي، وهو ممن هو في تحقيق العلوم النظرية، وكان ذلك بمجلس صاحبنا أحمد بن التاج رئـــيس المؤقتين بالحرم الشريف، فدار الكلام بين الأعجمي وبين شيخنا، فـــألقى عليـــه الشيخ سؤالا فقال: لا أجيبك عن هذا إلا لو كنت في بلد إذا أقمت عليك الحجة أمرت بإحراقك بالنار فينفذ أمري. قلت: وهذه جرأة عظيمة منـــه قاتلـــه الله. وتساهل من حضر ذلك إذ كان حقهم أن يذيقوه على هذه الجرأة على أهل السنة في بلاد السنة ما يستحقه من النكال وعظيم الوبال، أو يرفع أمـــره إلى الـــولاة ويعرفون بما يستحقه على ذلك، إلا أن الاهتمام بمثل هذا في هذه الأوطان أغرب

من غريب، ولو رفع إليهم ما رفعوا لذلك رأسا، وقد نقل صاحبنا عبد الغني الحلبي[1] صورة المجلس بيني وبينه إلى شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني، وكانت له قوة نظر وإدراك وحسن تصرف ومعرفة بلسانهم فقال لي لما لقيته: لولا أنا نهينا عن مباحثتهم لبعثت إليه ولأخذت عليه بآفاق السماء حتى أكبه على وجهه، ولقد صدق؛ إنه لجدير بذلك، فإنه والله اليوم الذي لا يتعين لمناظرة أهل الأهواء سواه، لما آتاه الله من العلم والحكمة ونوراية الظاهر والباطن وعلم[2] باصطلاحات أهل كل علم يتوقف عليه إثبات العقائد الدينية بأدلتها القاطعة، فنسأل الله تعالى أن يمد الوجود بإطالة بقائه، وأن يفيض الجود من مدده علينا آمين.

ولما استهل ربيع النبوي نظف الحرم الشريف وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبثوثة الحسان التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك، وغالبها يأتي من أرض الهند من عند ملوكها، وقد رأيت سدا بعضها حريرا خالصا، وكنت أتوقى الصلاة فيها، وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة يفرش بها المسجد النبوي، أعني القديم السقف كله، وأخرجت الربائع التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء وصففت في قبلة المسجد وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس، وكانت عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة، ويسمونه الكنيس، جمعت بسط الحرم الشريف كلها وأدخلت إلى المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحصر. وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة، ورد كل من استعار كتابا إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذه منها، واقتضى غالب الديون، وتفاصل الشركاء، وانتهى أمر غالب الأكرية يتهيئون بذلك للموسم لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن وقدوم غائب، واجتماع الناس من الآفاق، واشتغال أهل المدينة بقبض الأوقاف، والجرايات التي تأتيهم من الآفاق، وذهب من يريد النسك إلى مكة أو من يريد التجارة، فلا يبقى بالمدينة إلا القليل من الناس، ويكنس الحرم

---

(1) عبد الغني بن صلاح الدين الخاني الحنبلي الحنفي، ولد بحلب سنة 1048 هـ، جاور بالحرمين مدة طويلة، ولازم الشيخ إبراهيم الكوراني، تولى بعض المناصب في المدينة،وألف رسائل وسمها المحبي باللطيفة، توفي بالمدينة المنورة سنة 1095هـ: خلاصة الأثر 4:434.

(2) في ط: العلم.

الشريف في ذلك اليوم، وفيه يكنس البيت العتيق بمكة أيضا، ويفعل فيها مثل ذلك وأيام الموسم عند أهل الحرمين الشريفين فيها يجمعون غالب أمور معاشهم فلا يتفرغ أحد لتدريس ولا عبادة إلا ما لا بد منه، فإذا انقضت أيام الموسم وذهبت الركبان الواردة من الآفاق و لم يبق بالحرمين إلا أهلها رجعوا إلى معتاد حالها في الأمور الدينية من القراءة والتدريس وأنواع العبادات والدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكايل والموازين. وأما أيام الموسم فلا سعر معلوما ولا مكيال وافيا، ولا ميزان صحيحا، كل يفعل ما شاء، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك إلا أن يقع أمر مهم. ولما تأخر ارتحال الأركاب في هذه السنة تأخر فرش الحرم الشريف إلى أول ربيع، وتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البُسط وغيرها، وعمل في ذلك الأمراء العظام فمن دونهم، وناهيك بشرف مقام يتشرف أعظم الملوك بتولي خدمته، ويجعل بسطه التي تداس[1] بالأرجل على رقبته، ويعفر مصون شيبه في قتير[2] حصره، ويكحل بتراب أرضه إنسان عين بصره، ولقد رأيت الأمير إبراهيم الذي كان أمير الحاج المصري، وهو من الأمراء الكبار مشمرا عن ساقه قد جمع عليه ثيابه وقد كاد الغبار أن يواري بشرة وجهه وهم يخرجون صناديق الكتب من الحجرة الشريفة، وما كان يتولى الخدمة هنالك إلا من ومن. ولقد جهدت أن أتشرف بشيء من تلك الخدمة فلم أقدر إلا على بسط الفرش في محالها بعد وصولها إليها، وفي ذلك، والحمد لله، كفاية ينال بها محصلها أكبر عناية.

ولما قربت ليلة المولد الشريف، وهي الثانية عشر، بولغ في تنظيف الحرم وتزيينه، وغسلت مصابيحه وجعل فيها مائع شديد الحمرة لا أدري ما هو، وألقي فوقه قليل زيت طيب أخضر، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق المصباح لشدة صفائه وملاقاته لضوء النار، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج، فتصير حمرته كحمرة الياقوت، وذلك الحظ من الزيت فوقه أخضر كالزمرد وفوقه صفاء الزجاج يتموج فيه ضوء النار، وينعكس فيمازج إشراقه صفاء الزيت وخضرته وصفاء المائع الأحمر وحمرته، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وبهائه، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيبا لائقا وشكلت تشكيلا بديعا بين تربيع

---

(1) في ط: تدوس.
(2) القتير: القصب: لسان العرب: قتر.

وتدوير، فيا له من منظر ما أبهجه، وليل ما أسرجه، ونور النبوءة مشرق على كل ذلك وبرز على جميع ما هنالك فقد اتفق أرباب الأذواق السليمة أن كل شيء مستحسن في الدنيا من ملابسها وجواهرها ويواقيتها وطيبها يزداد حسنا في المدينة على حسنه الذي كان له قبل ذلك لسر يدركه أهل البصائر بصفاء السرائر، وكيف لا وتلك حضرة مظهر أهل الجمال ومنبع الكمال، فما من جمال في الدنيا والآخرة إلا وهو مستمد بذلك الجمال، فكيف لا يزداد حسنا عند حصوله بمحل أصل الجمال لقربه من منبعه وقرب استمداده من مجمعه، فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر أخذ القناديل الكبار والحسك العظام من الحجرة غالبها من النحاس المطلى بالذهب، فمن لم يعرف أصلها لا يظنها إلا ذهبا خالصا، وكل واحدة أعظم من قعدة الرجل العظيم، وصفت في صحن المسجد ووضعت فيه الشموع الغليظة الصافية اللون منها ما يزن نصف القنطار ومنها ما دون ذلك، وفي وسط تلك القناديل قنديل كبير من فضة خالصة زنته أكثر من قنطار، فيه خمس حسك كبار من فضة مدور الشكل، فيوضع في كل حسكة منه شمعة وتبسط البسط الرفيعة من جوانب القناديل من كل جهة لجلوس الأمراء وأرباب المراتب ولجلوس المنشدين، فإذا صليت المغرب أوقدت المصابيح كلها والشمع التي في صحن المسجد وأخذ الناس في الاجتماع وأوقدت أربع مشاعل كبار على أساطين معدة لذلك في صحن المسجد اثنان في مقدمه واثنان في مؤخره، فإذا صليت العشاء جلس الأمراء في الفراش المعدة لهم كل في مرتبته، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون، وضربت خيمة قريبة من باب النساء ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة، فإذا امتلأ المسجد وغص بأهله وجلس كل واحد في موضعه قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة وتراجيع متسقة، وبإزائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة، فيجيء السقاؤون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء ثم المنشدين ومن معهم من أتباعهم[1]، ثم سائر الناس، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضغاثا ثم تفرق أيضا على الحاضرين، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلاوي فتفرق أيضا وينثر ما بقي منها على عامة الناس، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله، النصف أو

(1) ساقط من ط.

قريب منه، فينصرفون. وهذه الليلة من الليالي الغر المسترخص شراؤها بباقي العمر لولا ما شانها من كثرة النساء في المسجد وإكثارهن من الولاول، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد.

ومن عادة أهل المدينة أيضا في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب وتقسيم، والناس محدقون بهم، ولهم أتباع يردون عليهم مثل ما تقدم في ليلة المولد، إلا أنهم لا يحتفلون لذلك في ليلة الجمعة كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريبا منه. ومن عادتهم أيضا في يوم الجمعة الخروج للبقيع ووضع الرياحين الكثيرة على القبور، خصوصا المشاهد المعلومة، فيكون عندها أضغاث من الرياحين[1]، ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضا ويلقى من طيقان الشبابيك إلى داخلها فلا يزال هنالك حتى يذبل ويذوى[2] فيخرج الناس في كناسة الحجرة ويقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة، وما يتساقط من الطيب، فيجمعون ذلك يهدون منه لأصحابهم وللأكابر، ويبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق، وقد أنالونا من ذلك حصة، فجزاهم الله خيرا.

ومن عادتهم أيضا يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوي كله ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برايتين سوداوتين من ديباج مخوص أيضا فيركزان عن يمين المنبر وشماله، وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النعت أيضا، ويعلق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة، فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المأذنة فيبتدئ مؤذن الرايسية بالذكر والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وقراءة آيات من القرآن، فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك، ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والتلاوة في المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال يقتسمون الوقت بذلك، فإذا قرب دخول الإمام، قام أحد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي في

(1) في ط: الريحان.
(2) في ط: يزيل ويروى.

وسط المسجد، وكيفية آذانهم أنه يبتدئ رئيسهم فيقول: الله أكبر، فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله مثنى، فيقولونه أيضا بعد فراغه منه دفعة واحدة وهلم جرا إلى آخر كلم الآذان. وأما الخطبة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة، لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء، فمنهم مقل ومكثر، وذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة، وهو الغالب، فمنهم من تدور نوبته في كل شهر مرة، ومنهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرة في السنة، ومنهم بين ذلك على حسب أنصبائهم في المال المأخوذ على ذلك. والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية، حجازا ومصرا وشاما، من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة، بل ووقيد المساجد، إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه، على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك، خصوصا منصب القضاء فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعا، وإنما مدار أمرهم على الرشا جهارا، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارا متعددة بحسب كثرة الرشا وقلتها، والله المستعان على أن بعض أصحابنا ممن سيأتي ذكره عند ذكرنا من لقيناه بالمدينة، وهو الشيخ عبد الله باعفيف اليمني قد أثنى على قاضي المدينة لحينه، وهو القاضي مكي، ثناء حسنا، وزعم أنه متبع للحق جهده، وأنه من أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي اليمني المكي، وأنه هو الذي أمره بتولية خطة القضاء والبقاء فيها بعد إرادة التنصل عليها. وغالب الناس بالمدينة على خلاف مدعى صاحبنا هذا في هذا القاضي، والله أعلم بحقيقة أمره، بيد أن في سنة تسع وخمسين، وهو أول سنة حججت فيها، جاء إلى المدينة قاضي تركي من قبل القسطنطينية فأظهر فيها العدل غاية، وأقام الدين على الحق، وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون، فثقلت وطأته عليهم واشتدت شكيمته على السلطان الأمير زيد بنفسه، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة. وكان السلطان زيد قدم في تلك السنة إلى المدينة وأقام بها مدة فلم يزل يحتال على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي، وكان يأتي إلى المسجد النبوي قرب صلاة الصبح راكبا يصلي في المسجد، فكمن له رجل قريب من باب المسجد فضربه بجنبيه فقطع بها أمعاءه ففر الضارب في ظلمة الليل، ولم يكن مع القاضي إلا قليل من خدامه، فأجرى فرسه

من ألم الضربة حتى أتى باب المسجد، بل قيل إنه دخل المسجد بفرسه حتى أتى وجاه الوجه الشريف فترل وأخذ بشباك الحجرة مستغيثا برسول الله، و لم يرسل يده من الشباك حتى قبضت روحه إلى رحمة الله، وفر الضارب و لم يدر أين توجه حتى سمع به في مكة أو جدة، فأظهر السلطان التأسف على موته، وأظهر التفتيش على الضارب، وزعم أنه لا علم له به، ولو علمه لنكل به وقتله، والخاصة من الناس لم يصدقوه في ذلك وعلموا أنه لا يقدر أحد على الجرأة إلا بإذنه، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه وعظيم مكره وكثرة بهائه، حتى أنه لا يكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا؟، فيا لله أي قاض بعد هذا الشهيد، يقدر على إظهار الحق والقول به في هذه الديار وما شاكلها؟، وإلى الله المشتكى.

ومن عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء ويوم الجمعة، ويقرؤون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا بالمغرب من التعطيل يوم الخميس والجمعة، فكنت أيام إقرائي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس فيشق ذلك علي لكونه خلاف المعتاد لدينا، ولخروجنا في ذلك اليوم إلى زيارة أحد وغيره من المشاهد، فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثة فأبوا كل الإباية، فجريت على عادتهم كما قيل:

[سريع]

إن جئتَ أرضًا أهلُها كلهم عُور فغمضْ عينكَ الواحده[1]

ومن عادتهم أيضا بمكة والمدينة التهنئة بالشهر، أي شهر كان، خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد وماشاكلها، ولديهم لا بد من التهنئة في أول يوم من كل شهر، فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنيه بالشهر في مترله، ولله در القائل:

[كامل]

إن الأهلةَ في السماءِ مناجل بطلوعِها تتحصدُ الأعمارُ

أبدا[1] يُهَني بعضُنا بعضا بها وطلوعُها بأفولنا إنذارُ

(1) ورد البيت بلا نسبة في كتاب: ألف باء 42:1.

ومن عادتهم في إقامة الصلوات الخمس بالحرم الشريف الصلاة في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي فيؤخره إلى قرب الإسفار، فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس، وما يقيل غالب الناس إلا بعد الصلاة فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة، وكان ذلك يشق علينا قبل اعتياده، فتكاد صلاة الظهر تفوتنا في المسجد لأنا لا نتأهب بها إلا بعد الأذان، وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب، فمن لم يتأهب لصلاة قبل دخول الوقت فاتته الصلاة في الجماعة غالبا، وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر للجماعة إلى ربع القامة، وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي، إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكي، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي، فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الآخر الذي على يمين المنبر الشريف، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

لطيفة:

ربما صلى بعض المالكية في بعض الأوقات بالناس لتعذر غيره ممن هو أهل أو إنابته له فيصلي على هيئة الشافعي من الابتداء بالبسملة وقبض اليدين ورفعهما للركوع والرفع منه، وفي أول كل ركعة وتثنية التسليم جهرا أو تأخير القنوت عن الركوع والجهر به، وكان بعض المالكية ينكر ذلك على فاعله فيقول: إما أن يصلي الصلاة على مذهبه أو يدع الإمامة. وكنت أنا أخفف الأمر في ذلك فأقول: قد علم من الشارع التحذير من الأمور التي توقع في المخالفة وتوغر الصدور، خصوصا في أمور الدين، فإذا فعل الإمام حيث اضطر إلى الائتمام به أمورا ينكرها المأموم له، فربما دخل في وعيد من أم قوما وهم له كارهون، وهذا حيث لا ضرر ليه في الفعل والترك بأن لا يكون المتروك واجبا، ولا المفعول مبطلا، كبعض المستحبات وخلاف الأولى، فيكون ذلك من باب تعارض مندوبين أو مكروهين اضطر إليهما فإن موافقة المأموم للإمام وعدم كراهيته له أمر مرغوب فيه مكروه

(1) في ط: فلما.

خلافه، خصوصا إن كان ذلك يؤدي إلى تخليط على المصلين فإن كثيرا من المأمومين عوام لا يفرقون بين مقتضيات المذاهب ولا يعرفون محل الخلاف، فربما انتظر القنوت وراء الإمام في المحل الذي يعرفه فيتركه أصلا، ومعلوم أن تأخيره إلى بعد الركوع أولى من تركه بدليل أن ناسيه يفعله في ذلك المحل، وكالسلام فربما انتظر التسليمة الثانية إذ بها الخروج من الصلاة عند بعضهم، فيؤديه ذلك إلى ترك السلام أو الفصل الكثير بين سلامه وسلام إمامه، وكل ذلك محذور كترك البسملة فإنها واجبة عند الشافعي تبطل الصلاة بتركها فربما سمعه المأموم ممن لا يعرف جواز ذلك في غير مذهبه، أو يظن إن إمامه ممن يرى وجوبها وأنه تركها عمدا، فيعتقد بطلان صلاته، فيكون مقتديا بمن يعتقد بطلان صلاته، فيسري البطلان إلى صلاته إن كان ممن يعتقد ارتباط صلاة المأموم بصلاة الإمام، إلى غير هذا من المفاسد والتخليط الذي يقع في الصلاة مع أن هذه الأمور التي عددنا كلها أولا ليس في فعلها أو تركها كبير ضرر في المذهب. أما البسملة فقد علم ما في المذهب من الخلاف في ذلك، وحكاية ابن رُشيد مع ابن دقيق العيد معلومة في النقل عن المازري، وهو من هو، إنه كان يفعله ويقول: أفعل ما لا تبطل الصلاة بفعله في مذهبي قولا واحدا، وتبطل بتركه في مذهب غيري قولا واحدا، وقد ذكره الشيخ زروق، رضي الله عنه، مثالا لورع المحققين في غير ما موضع، وهو اتقاء مواضع الخلاف، وقد حكي عن بعض أئمة الشافعية أنه اقتدى بمالكي فكان يقول له عند الدخول في الصلاة: أقسمت عليك إلا ما بسملت، فلما سمعه لم يبسمل، قال: نويت الصلاة على مذهب مالك، انظر ورع هذا السيد ودقيق نظره فإنه استسهل الاقتداء بمن يعتقد بطلان صلاته، وليس كل الناس يحسن ذلك، فلو أن الإمام بسمل لأنقذه من هذه الورطة، مع أنه لا كبير ضرر عليه في ذلك، غايته أنه أتى بخلاف الأولى في مشهور مذهبه.

وأما القبض فقد علم ما فيه من الخلاف في المذهب، وقد قال به أئمة محققون من أهل المذهب، كاللخمي وغيره، خصوصا إن علل بخشية اعتقاد الوجوب، فإن ما هذا سبيله من المكروهات لا يعبا به المحققون إذا صحت به الأحاديث، سيما مع انتفاء العلة كهذه المسألة، فلو اطرد ذلك لأدى إلى ترك السنن كلها أو غالبها المداوم عليها لأن المداومة عليها ذريعة إلى ذلك، وإنما قال الإمام، رضي الله عنه، بذلك في مسائل قليلة لعارض في الوقت اقتضى ذلك،

كقول بعض العوام في آخر السبت من شوال العيد الثاني، فرأى الإمام قطع هذه المفسدة أولى من المحافظة على هذا المندوب، فإذا انقطعت المفسدة وأمن من عودها فلا معنى لترك ما جاءت به الأحاديث الصحيحة إلا محض التقليد الذي لا زبدة له إذا مخض، ويسمُج[1] في السمع إطلاق الكراهة والمنع فيما صح عنه، صلى الله عليه وسلم، أنه فعله أو أمر به ورغب فيه إلا لضرورة أسمج من ذلك، وقد رأيت كثيرا من المالكية يقبضون أيديهم في الصلاة وذلك لخفة الأمر فيه كما تقدم، ولكون السدل في البلاد المشرقية كلها شعار الروافض ولا يفعله من الأئمة إلا المالكية والعوام يعتقدون أنه لا يفعله إلا الرافضة، فمن رآه سادلا يديه في الصلاة قالوا إنه رافضي.

غريبة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أنَّ بعض الفقراء المالكية وصل إلى بعض أطراف الشام فدخل إلى قرية أهلها أهل سُنَّة وجماعة، فلما قام إلى الصلاة رأوه سادلاً يده فظنّوا أنه رافضي، فقصدوا إذايته، فقال لهم: إني مالكي وتبرأ من الرفض، فقالوا له: كذبت إن المالكية لا يسدلون أيديهم فليس أحد من أهل السنة يقول بذلك، وإنما هو فعل الروافض، حتى ذهب معهم إلى فقيه البلد فسألوه فقال لهم: صدق إن المالكية يقولون بذلك، فإلا بلأي ما أنقذه من أيديهم، فانظر هذه الحيرة التي ألقى فيها هذا المسكين نفسه، فلو أنَّه إذا أفضت به الحال إلى هذه البلاد التي صار فيها مذهبه غريباً لا يعرف ترك ما يشين عرضه ويؤدي إلى حصول الضرر له في بدنه، مع أنه لا كبير ضرر عليه في دينه، لسلم وسلم غيره من إساءة الظن به، كيف وقد جوز الأئمة، رضي الله عنهم، ترك كثير من السنن التي صارت شعارا للمبتدعة، بل استحبوا تركها لأنا نهينا عن التشبه بأهل الأهواء والبدع، فكما كره بعضهم لبس الخاتم في هذه الأزمنة لكونه من شعار أهل المجون مع أنه سنة ثابتة قولاً وفعلاً، وكرهوا تطويل اللحية وإعفاءها فوق المعتاد لأنه شعار الوهبية كما قال الشيخ زروق، مع أن إعفاءها قد قيل بوجوبه. فليكن السدل أيضا كذلك

(1) يسمج: يقبح: لسان العرب: سمج.

مكروها في البلاد التي صار فيها شعار الروافض، مع أن خلافه الذي هو القبض ثابت أيضا في السنة قولاً وفعلاً لثبوت الأرسال أو أزيد.

وممن كان يقبض في صلواته كلها فرضاً ونفلا من المالكية شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي، فكنت أرى أن السدل أولى به وبأمثاله ممن يقتدى ليراه عامي فيعلم أنه من فعل أهل السنة أيضا كالقبض، فتنتفي الريبة في حق العامي، فإذا رأوه هو وأمثاله من أئمة المالكية عوام أرباب المذاهب يقبض لم يصدقوا بعد ذلك من ادعى من عوام المالكية أنه في مذهبه واتهموه بالرفض وقالوا: قد رأينا أئمة المالكية يقبضون، فحقه هو أن لا يخالف رسوم المذهب في ورد ولا صدر لارتفاع الظنة والريبة في حقه لشهرته وعلمه، فيكون قدوة لغيره، وقد كنت أردت أن أشافهه بذلك فاستحييت.

لطيفة:

كنا أيام سماعنا للمعجم الصغير للطبراني على شيخنا الثعالبي بالحرم النبوي إذ مَرَّ بحديث فيه حجة لمذهب المالكية أشار إليَّ وإلى بعض فقهاء المالكية ممن كان يحضر المجلس فيقول: هذا حجة لكم، وإذا مر بما يخالف المذهب قال: هذا حجة عليكم، فلما جاء ذكر حديث: إنا معاشر الأنبياء أمرنا [بثلاث؛ بتعجيل الفطور وتأخير السحور و] بوضع اليمنى على اليسرى في الصلاة[1]. قال: هذا حجة عليكم، فقلت: لا حجة علينا في هذا، فإن ظاهر اللفظ الخصوص، ولا عموم فيه، فاستضعف جوابي وقال: وردت به أحاديث صحيحة عامة قولاً وفعلا، ومن أنصف علم أنه لا ضعف في الجواب لأني لم أنكر كون القبض ثابتا في السنة، وأنه له أصل، وإنما أنكرت إثباته بهذا الأصل بالخصوص وأن هذا الحديث بخصوصه لا يكون حجة على مالك في كراهية القبض، فلو لم يرد في القبض إلا هذا الحديث وحده لم يكن فيه حجة على منكر القبض، بل لساغ لقائل أن يقول بعدم جوازه لغير الأنبياء وأنه من الخصائص لظهور اللفظ في ذلك، كقوله: نحن معاشر الأنبياء

(1) المعجم الأوسط 3:238.

لا نورث[1]، ولكن كرهت مراجعة الشيخ بمثل ذلك في المجالس الحافلة الغاصة بأهلها، فأعرضت.

وأما الرفع في كل خفض ورفع فقد صحت الأحاديث به وثبتت الرواية به عن مالك، فقد روي عن أبي عمر بن عبد البر أنه كان يرجحه ويصحح روايته عن الإمام فقال له بعض أصحابه: ما يمنعك من فعله مع صحة الحديث به وثبوت الرواية فنقتدي بك في فعله. فقال: أكره مخالفة الأصحاب في أمر فيه سعة، فأنت ترى كراهيتهم رحمهم الله للمخالفة في الأمور التي فيها سعة، وقد كان شيخنا الثعالبي أيضا يفعله في الفرض والنفل، وكان حقه أيضا أن لا يفعل لما تقدم من كونه مُقتَدى به، ولكون هذا أيضاً من شعار الروافض، وزيادة أنهم لا يرفعون حتى مع تكبيرة الإحرام، وقد رأيت جماعة بالصفراء[2] يصلون في مسجد لهم فلم أرَ أحداً منهم يرفع يديه في تكبيرة الإحرام، بل يفتتحون الصلاة بالقراءة سادلين أيديهم، فعلمت أنهم روافض، وهم غالب أهل تلك القرى، وقد أطلعت شيخنا الثعالبي على كلام ابن عبد البر المتقدم في محله من شرح القباب لقواعد عياض[3]، فلم يلتفت إليه واستمر على رأيه في ذلك.

وقد رأيت بعض المشايخ يخالف ما جرى به العمل عند أهل المذهب إذا صَحَّت الأحاديث بخلافه، وهي وإن كانت قولة وردت عن الإمام كما صحت عن الشافعي أنه قال: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط[4]. بل قال بعض الأئمة إنَّ هذه القولة التي اشتهرت عن الشافعي، رضي الله عنه، وجعله أصحابه أصلاً من أصولهم حتى كثرت مخالفتهم لإمامهم في فروع كثيرة قد ورد عن الأئمة الأربعة، فالذي عند المحققين من أهل المذهب أنه لا ينبغي إظهار المخالفة ومصادمة نصوص المذهب في أمر له أصل في السنة، وإن لم يبلغ درجة غيره في الصحة فإن ذلك مما يؤثر الخلاف ويوقع في التشويش على الناس بذلك وحملهم على خلاف

---

(1) مسند الربيع 1:261.

(2) الصفراء: على لفظ تأنيث أصفر، قرية فوق ينبع كثيرة المزارع والنخل ماؤها عيون يجري فضلها إلى ينبع، وبين ينبع والمدينة ست مراحل، والصفراء على يوم من جبل رضوى: معجم ما استعجم 3:836.

(3) القباب: أبو العباس أحمد القباب، فقيه محقق، له شرح على قواعد عياض، توفي سنة 779 هـ: شرف الطالب، ص: 85.

(4) ميزان الاعتدال 6:220.

ما مضى عليه عمل الناس في الأعصار المتطاولة مما له أصل في السنة وفي كتاب سنن المهتدين[1] للمواق وما يكفي ويشفي من ذلك.

وأما القنوت بعد الركوع فأمره أخف من كل ما تقدم، مع ما يلزم من التخليط على المصلين الذين لم يألفوا ذلك إذا قدم، وقد كره الأئمة سجود التلاوة في صلاة الفريضة وأباحوا تركه خشية التخليط على المأمومين مع أنه سنة في الصلاة وغيرها، ولذلك قال ابن عرفة: إذا جرى العمل به كصبح يوم الجمعة في جامع الزيتونة بتونس[2] فلا ينبغي تركه، لأن تركه حينئذ يوقع في التخليط، فيظن من بعُد من المأمومين في ركوع الإمام أنه يسجد سجود التلاوة المعهودة، فيهوي إلى الأرض فلا يرجع حتى تفوته الركعة، فانظر كيف دار الأمر بين الاستحباب والكراهة مع الخوف من التخليط والأمن منه، فلا يبعد أن يقال: ينبغي للإمام أن يؤخر القنوت إذا خاف التخليط على المأمومين لجريان العمل بذلك.

وأما تثنية السلام فقد صحت به الأحاديث أيضا وثبت عن الإمام، رضي الله عنه، أنه كان يفعله إذا صلى وحده، وأما اختباره لنفسه في صلاته إلا وهو يراه صوابا، وفي تركه في البلد التي اعتيد فيها أيضا تخليط المأموم كما تقدم، ولا ضرر عليه في فعله لأنه بالتسليمة الأولى خرج من الصلاة، فأي ضرر عليه في ذكر تكلم به بعد الخروج من الصلاة فيه مصلحة لمن اقتدى به، وبمثل هذا أجاب بعض الأئمة على إنكار بعض العلماء لما جرى به العمل من التثويب بعد الآذان بقولهم: أصبح ولله الحمد، وبالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، قبل الآذان للعشاء ليلة الجمعة فقال: أرأيت لو أنه بعد الفراغ من الآذان تكلم بكلام دنيوي أو ضحك أو فعل فعلاً من الأفعال أينكر عليه في ذلك، فكيف إذا تكلم بذكر من الأذكار بعد الفراغ من آذانه، والعلة في ذلك ما ثبت عن الإمام في أمثال ذلك من خشية الإدخال مما ليس من العبادة فيها، وإن كان عبادة في نفسه، وهذه العلة في الغالب منتفية في هذه الأزمنة لتقرر الدين ووضوحه، فلا تلتبس عبادة بأخرى ولا يخشى اعتقاد وجوب ما ليس بواجب إلا على ما صرف، فيسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم، وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لكونها مما يحتاج إليها في تلك

(1) أنظر: سنن المهتدين في مقامات الدين، ص: 49.

(2) جامع الزيتونة: ابتدأ بتأسيسه حسان بن النعمان والي إفريقية والمغرب حوالي سنة 80 هـ، ثم أعاد بناءه عبد الله بن الحبحاب سنة 116 هـ: المساجد في الإسلام، ص: 558.

الديار، وليس هناك من يحققها مثل هذا التحقيق وللنظر فيها مع ذلك مجال، وستكون لنا عودة، إن شاء الله، إلى تحقيق هذه المطالب فقد كتبناها من غير مراجعة لأصول المسائل ولا مطالعة فروعها، وإنما كتبت ما سنح في الوقت ليكون عرضة للمتأمل في إبراز صوابه من خطئه وحقه من خطله، والله ولي التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف، فيصلى عليها بالمسجد، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف وُقيفة، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره، إلا جنائز الروافض كالنخاولة، فإنه لا يدخل بها المسجد ولا يُؤتى بها للمواجهة، بل يأتي بها أصحابها خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون، ولقد أحسن من سرّبهم[1] ذلك من الولاة، فحق من يبغض ضجيعي الرسول ورفيقيه في المحيا والممات أن يبعد حياً وميتاً.

ومن عاداتهم في الإملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد، ولقد حضرت إملاك هندي قدم من مكة مع الشيخ عيسى في الرجبية وكان بينه وبين الشيخ صحبة، فأراد العقد لولده على ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنيع والمباهاة خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الإنسان فيه أن يخضع ويخشع، ويضع نفسه بالمحل الذي وضعها الله فيه من الذل والاحتقار، فجلس الشيخ مسنداً ظهره للمنبر النبوي وجلست بإزائه، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة، صف مستقبل القبلة وصف مسند ظهره إلى جدار القبلة، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخطباء بالمدينة الخطيب أحمد البري[2]، وبإزائه المتعاقدان والابن وأبو البنت، فشرع الخطبة وأطال وأجاد في الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد وأشار إلى المتعاقدين، ورضيا بذلك، كل ذلك بلسان الذلق[3] وصوت جهوري، وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقدين بما أكثره زورٌ وباطل بحضرة

---

(1) سربهم: أذهبهم وأمضاهم.
(2) أحمد بن عبد الله بن أبي اللطف البري الحنفي الخطيب المدني، من أعيان المدينة المنورة وعلمائها، ولد سنة 1010 هـ، وتوفي سنة 1092 هـ: خلاصة الأثر 1: 231.
(3) ذلق اللسان: حدته: لسان العرب: ذلق.

أشرف الخلق وفي روضة الجنة، فصغرت نفسي عندي وتضاءلت، ووددت أني لم أحضر ذلك المجلس، ولو كنت أعلم أن صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته.

ثم أُتي بأطباق الرياحين ووضعت بين الصفين، وأطباق من اللوز والسكر وفُرّق ذلك على الحاضرين، وقام المنشد فأنشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي، صلّى الله عليه وسلّم، فافترق المجلس، وقام الحاضرون إلى المتعاقدين يهنونهما، فانسللت وكان ذلك ضحى وذهبت. وهذه صورة إملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة، وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم.

فإذا كان ليلة الدخول أُتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه، ومعهم الشمع حتى يوقف على باب المسجد بعد العشاء الآخرة، فيدخل ويسلّم على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، ويدعو فيخرج، ثم يذهب به، كذلك يزفون إلى بيت المرأة في دار أهلها، عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تُزَف إلى زوجها، وأن الدخول في بيت الزوج، وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يُزف، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته، وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة، وجاء الناس لتهنئته، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج، ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة، وعادات السادات سادات العادات.

ومن عاداتهم في التعامل بيعا وشراء أنهم يسمون الأربعين مائديا صرفا، فيقولون عشرة أصرف وعشرين صرفا، يعنون كل أربعين قيراطا من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرف كقولنا في المغرب مثقالاً، ويقولون للدينار من الذهب المسكوك شريفياً وسلطانياً، ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالاً وقرشاً. ويقولون للقيراط المسكوك مُحَلّقاً وللصاع الذي به التعامل ربْعيّاً، ولجزءيه ركيله، ويسمون الصروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهباً فيقولون: عشرون ذهباً وثلاثون ذهباً يعنون عشرين صرفاً من غير قصد إرادة الذهب، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها.

لطيفة:

قد وقعت بيني وبين بعض مدرسي المالكية مناظرة بسبب هذه المسألة، أعني تسمية الصرف بالذهب، وذلك أن بعض الموثقين كتب في معاملة بين شخصين: أربعين ذهباً أو ثلاثين ذهباً، يعني الصروف، فلما كان وقت الاقتضاء قال له: إني آتيك بالصروف التي هي العدة المذكورة من القراريط، قال له المدرس: لا يحل ذلك إلا مع المناجزة لأن هذا صرف مؤخر، فإن الذي في ذمتك هو الذهب، وأنت الآن تريد دفع الفضة عنه، فهو صرف ما في الذمة، ولا بدَّ فيه من صرف هنا، إذ المراد بلفظ الذهب هنا العدة المذكورة من الفضة باتفاق من المتعاملين وغيرهما من سائر الناس، حتى المدرس بنفسه لا ينازع في ذلك، والعبرة إنما هي بمدلول اللفظ المفهوم منه عند المتعاقدين لا بمدلوله لغة، فإن العرف الخاص نقل هذا اللفظ من مدلوله لغةً إلى مدلول آخر معروف في العرف الخاص لا ينازع فيه أحد من أهل البلد، فلو أرادوا مدلول الذهب لغة عنه باللفظ الدال عليه في عرفهم كما قدمنا ويفيد ذلك كون هذا المقدار من الفضة، وهو الأربعون قيراطاً، ليس في الذهب فرد يقابله من أفراد الذهب المسبوك الذي يقع به التعامل حتى يصار إلى أنه هو المراد، فلو قلنا إن المراد الذهب لغة لكان فيه جهالة، إذ لا يدري أهي أربعون ديناراً أو أنصاف الدينار أو أرباعه، ولأن كل ذلك لا يقابل الأربعين قيراطاً التي هي المرادة، فلو كان في التعامل ذهب مسكوك يروج رواج الأربعين قيراطاً لتوهم أنه المراد، وهذا غني بوضوحه عن الإيضاح. فلما بلغ ما قلت إلى ذلك المدرس لم يذعن للحق مع وضوحه، فطلب الاجتماع بي، وجاءني وأنا في المسجد فذكر ذلك لي، وذكرت له ما تقدم فلم يجد مدفعاً إلا أن قال: انظر ما تتقلد من ذلك فإني أخاف أن يكون ذلك ذريعة للناس إلى التعامل بالربا. فقلت له: إذا وضح الحق وتبين فلا يترك مخافة الوقوع في الباطل، فإن ذلك إنما يكون مع التباس الأمر واشتباهه فيحتاط الإنسان لدينه، فيترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس، وأما بعد تمييز الباطل بصفته المعلومة شرعاً وتمييز الحق جانباً منه بوصفه المعروف حتى لا يخاف التباس الحق بالباطل، فلا معنى لترك الحق إذ ذلك لأجل توهم متوهم.

ثم انجرَّ بنا الكلام إلى مسألة صرف الريال بالمائدية؛ وهي القراريط المذكورة من دون وزن بل بالعدد، وقد جرى على ذلك عمل أهل الحجاز ومصر إلا القليل، وقليل ما هم، فقلت له: لو انضبط لهم مقدار معلوم من خمسين أو ستين

من القراريط تكون في وزنها قريباً من وزن الريال، لخرجت عن مسألة العتبية[1] من قول ابن القاسم في الدينار بعشرين قيراطاً من الذهب، إذ لا فرق بين الذهب والفضة في ذلك، فلمّا خفف في دينار واحد في مقابلة عشرين قيراطاً، فليكن كذلك درهم كبير من الفضة وهو الريال في مقابلة أجزاء كثيرة من الفضة، نحو الأربعين أو الخمسين أو الستين إذ لا عبرة بكثرة العدد وقلته مع اعتبار التفاوت اليسير في الوزن، وانفراد إحدى الجهتين بالواحدة. ولكن لما لم ينضبط العدد المدفوع فيه الريال، فتارة يكون خمسين وتارة إلى ستين، كان في ذلك مكايسة ظاهرة، وخرجت المسألة من بابها المعروف الذي سبب الرخصة مع الضرورة. فأبى من قبول ذلك ولو مع الانضباط حتى أطلعته على كلام شيخ مشايخنا سيدي العربي الفاسي[2] في مسألة الريال والرد فيه من دراهم وقته، أو المبادلة، وقد حقق ذلك كل التحقيق، فلمّا رآه، رجع إلى مثل قوله الأول، والجواب عنه ما قررنا أولاً. وقد نقلنا من كلام الشيخ المذكور ما لا بُدَّ منه في شرحنا لنظم بيوع ابن جماعة[3]، وهو الذي أطلعته عليه إذ لم يكن عندي إذ ذاك عين الرسالة التي ألفها في ذلك.

ثم جرى ذكر مسألة أخرى قريبة من ذلك وهي أن المشتري للزرع مثلا قد يريد دفع الريال الكامل في آصع منه فيقول المشتري: أشتري منك الزرع على أن تأخذ مني الريال بحساب خمسين قيراطا أو ستين لكل ريال على ما يتفقان عليه، فيأخذ الزرع منه مثلاً بعشرة قراريط للصاع أو أقل أو أكثر، فيدفع له الريال على حسب ما تراضوا عليه أولا، فأفتى المدرس المذكور بعدم جواز ذلك قائلاً: إن البيع وقع بالقراريط فلا يجوز دفع الريال الكامل عنه لأنه مراطلة ما في الذمة وهي لا تجوز لعدم تحقق المماثلة، وهي شبه المسألة التي قبلها المرخص فيها في العتبية إذا استوفيت شروطها، لأنه إن ساغ دفع الريال في خمسين قيراطا يدا بيد بلا مراطلة ساغ دفعه في خمسين مترتبة في الذمة لأن المناجزة حاصلة في كلتا الصورتين، فإن ما في الذمة حاضر، وأما ما يسير التفاوت الذي عسى أن يقع فهو مغتفر للضرورة

(1) العتبية: منسوبة إلى مصنفها فقيه الأندلس محمد بن احمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفى سنة 254 هـ،وهو مسائل في مذهب الإمام مالك: كشف الظنون 2: 1124.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) يقصد: إرشاد المنتسب إلى فهم معونة المكتسب: شرح لمعونة المكتسب وبغية التاجر المحتسب، وهو نظم في 370 بيتا نظم فيه بيوع ابن جماعة التونسي، وتحتفظ الخزانة العامة بالرباط بنسختين منه تحت رقم: 1236د، و1479د: أنظر: إتحاف الأخلاء، ص: 61.

ولكون ذلك معروفا، والذي رأى أن هذه المسألة ليست من المراطلة ولا المبادلة في شيء فهي جائزة على كل حال لأن الذي وقع عليه العقد أولاً هو الريال الكامل لكون الدافع اشترط دفعه والآخذ رضي بأخذه، وبه وقع القضاء آخرا، فالـــذي وقع عليه العقد هو الذي وقع به الاقتضاء،، وذكر القراريط فيما بين ذلك إنما هو لبيان المقدار المبيع من الآصع إذ العرف بيع الأصع بالقراريط، فهو بمنزلة ما لـــو قال: أشتري منك من الآصع بالريال ما كان يباع بكذا وكذا قيراطاً، والقدر المبيع من الأصع بالعدة المذكورة من القراريط معلوم للبائع والمشتري، فلو كان الزرع مثلاً يباع بعشرة قراريط للصاع فقال المشتري للبائع: آخذ منك خمـــسة آصـــع وأدفع لك ريالاً كاملاً بحساب خمسين قيراطاً للريال، فقد علم البائع والمشتري من أول وهلة الريال مدفوع في خمسة آصع من الطعام لا في خمسين قيراطا مترتبة في الذمة، فلو امتنع البائع من أخذ الريال بعد ذلك لم يجبر المشتري على دفع القراريط إذ ليست معقودا عليها ولا يجبر المشتري إلا على دفع ما وقع عليه العقد، فليتأمل المنصف.

ومما أفتى به ذلك المدرس أيضاً أن المواعدة في الـــصرف إذا وقعـــت بـــين مصطرفين فلا يحل لأحدهما الصرف من الآخر بعد ذلك ولو فسخا عقد العـــدة وأنشئا عقدا آخر، وخالفته في ذلك فقلت: إنما الحرام هو نفس المواعدة لكونـــه ذريعة إلى الصرف المستاخر، فإن اصطرفا بعد ذلك وهما على ذلك الوعد وتقابضا تماماً للوعد المتقدم فهو حرام أيضاً لأنه مبني على حرام وناشئ عنه، وإن افترقا بعد المواعدة والعلم بتحريمها وألغياها فأتى أحدهما بنقده إلى الآخر وقال له: إن مـــا فعلنا من المواعدة حرام وقد ألغيناها فإن شئت الآن أصارفك علي ما نتراضى عليه الآن فعلت، ثم تراضيا على الصرف بحضور النقدين وأنشأا عقداً آخر فلا بـــأس بذلك، ولو قيل فيه بالكراهة إن قرب زمان المصرف من زمان الهبة لاتهامهما على القصد إلى الإيفاء بالوعد لم يبعد، وهذه المسألة قريبة من مسألة المواعدة بالنكاح في العدة، والعقد بعد الخروج من العدة، فلو رجعا عن تلك المواعدة وألغياها بعد الخروج من العدة وتابا مما صدر منهما من المواعدة لم يمتنع إنشاء عقد آخر عليها بعد الخروج من العدة، فلو امتنع ذلك لكانت مؤبدة التحريم ولا قائل به، بل لو عقد عليها في العدة ففسخه الحاكم قبل المسيس لم يمتنع العقد عليها بعد الخروج من العدة، فلا يكون العقد المحقق الوقوع أخف من المواعدة في الصرف، وعد في

وقت لا يحل فيه العقد لغيبة النقدين وأحدهما بإيقاعه في وقت يحل، وهو وقت حضورهما كمواعدة النكاح فإنها وعد في وقت لا يحل فيه النكاح للعدة بإيقاعه في وقت يحل، فإذا ألغى المصطرفان العدة وأنشآ عقدا حيث يحل لهما، فهو بمنزلة إنشاء عقد النكاح بعد الخروج من العدة، فيكره إن اتهما بقصد الوفاء بالوعد، بل لو عقد المصطرفان عقد الصرف في غيبة النقدين بحكم الحاكم بفسخه، فلهما إنشاء عقد آخر عند حضور النقدين، وحينئذ يقال: لِم قيل بالكراهة في تزويج المواعدة في العدة إذا تزوجها خارج العدة و لم يقولوا بالكراهة في المعقود عليها في العدة فيفسخ العقد، فإن شاء تزوجها بعد العدة فله ذلك من دون كراهة، مع أن العقد أشد من الوعد بالعقد كما ذكرتم أولاً؟ فيقال: لعل العقد، وإن كان أشد، فقد عرض له من الفسخ ما صير الموجود منه كالمعدوم لأن حكم الحاكم بالفسخ يصير العقد كأن لم يكن، وتقع به المفاصلة الكلية بين المتعاقدين حتى لا طمع لأحدهما في الآخر، فإذا أنشأا عقداً آخر علم أنه لا علقة ولا وصلة بينه وبين العقد المحظور، بخلاف العاقد بعد العدة والعدة فإنه لم يتخلل بين الوعد والعقد فسخ يفصل أحدهما من الآخر لأن الفسخ إنما يعتمد العقود، ولا عقد هنا، فيتهمان على البقاء على حكم الوعد المتقدم حتى يقع الطول الدال عادة على إلغائها، وهذا فرق لائح، والله أعلم.

ولتحرر هذه المطالب المتقدمة المتعلقة بالصرف بتأمل صادق ومراجعة كتب الفروع فإني كتبتها استعجالاً، وستكون لنا عودة، إن شاء الله، إلى تحريرها بعد الفراغ من تسويد الرحلة.

ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنون بالمدينة وأطرافها، ولهم اسم يختصون به، كالبرغازين[1] عندنا بالمغرب، فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة، وهذا من تلقي السلع المنهي عنه، ولكنهم قد ألفوا ذلك واستمرت عليه عادتهم وألف ذلك القادمون أيضا لو أن أحدا من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتري به البرغازون، فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك، ويركنون إليهم ويميلون إلى قولهم ويعرفون كيفية المساومة معهم فلا يعتاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل، وغيرهم ليس بتلك المثابة، فلا

(1) يقصد السماسرة والوسطاء.

يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طباعهم، فاستسهل الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب، ولقد شاهدنا في أيام المواسم بالحرمين العجب مما يباع فيهما من الهشيم اليبس وكثرته مع غلاء الأسعار، فيدخل السوق من الأحمال ما يقرب من الألف في كل يوم فلا يمسي شيء من ذلك، وشاهدنا حمل جمل يباع بدينار ذهباً، وأخبرت أن العرب يستعدون لذلك من أول السنة فيحصدونه في البادية إبان الربيع وييبسونه وينقلونه إلى قرب الأمصار حتى تأتي الركبان فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم.

ومن عادتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبع، أنّ بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين، فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم، فيعقدون له الكراء مع صاحبه، ويتكفلون بما عسى أن يصدر من الجمّال من غدر في الطريق بهروب أو مكر، ويسمى أحد هؤلاء المُخَرِّج، فلا يعقد أمر كراء إلا بحضرة أحدهم. وجلوسهم في الغالب بباب المصري، ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري، وذلك دأبهم بمكّة أيضاً.

وقد كانت الأسعار، أيام مجيئنا المدينة، شديدة، فكان القمح ثلاثة آصع بريال، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة، وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت، خلاف المعهود في غالب البلاد، والعسل اشتريت رطلاً منه للدواء بقريب من ثلث الريال، والسمن دون ذلك، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مائدية للرطل، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية. وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة خصوصاً عنبها ورطبها.

وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجزر والباقلا[1] والملوخية والبامية والبصل واللفت، والخضر البريّة ليس فيها إلا الخبيز، ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم الغوي[2] إلا أضر به ما لم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته في البلد تطبع بطبعهم وطبع ذلك البلد المشرق وهواؤه قلما يوافق أحدا من أهل مغربنا الأقصى ممن بلده ريف ذات مياه وخصب، وإنما يوافق أمزجة أهل

(1) الباقلاء: الفول: لسان العرب: بقل.
(2) الغوي: الفاسد: لسان العرب: غوي.

الصحراء كتوات وتجيورارن وأهل السودان، وذلك، والله أعلم، لفرط حرارة بلاد هؤلاء، فقلما رأيت أحدهم مريضا في تلك البلد إلا مرضا خفيفا، وقلّما رأيت أحداً ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألط[1] به المرض إلا القليل ممن طالت إقامته جدا في البلد وتطبع بطبع أهلها.

لطيفة:

لما قرب زمانٍ انقضاء الحر، وأقبلت هوادي زمن البرد، وظهرت البرودة في الهواء صباحاً ومساءً، أخذ أهل البلد يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد، وكنا نحن لألفتنا لشدة البرد في بلادنا نتلقاه بأبداننا ونعري له أطرافنا، فرحنا بقدومه لما قاسيناه من شدة الحر الذي لم نعهد مثله في قطرنا، فكان الناس ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي، ويقولون: ليس هواء هذه البلدة وبردها كالذي تعهدون، إن البرد في أول إبانه يسرع فساداً في الأمزجة، وهو أضرُّ من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء، ويقولون: إن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صميم الشتاء وشديد الزمهرير. فكنا لا نلتفت لذلك ثقة بما نعهده في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال لزماني الحرّ والبرد، فكان ذلك، مع قدر الله تعالى، هو السبب في حصول المرض المتطاول بنا وبكل أصحابنا، ولقد صدقوا فيما قالوا، ويشهد له قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: توقوا البرد في أول إبانه، وتلقوه في آخر أوانه، فإنه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار، فأوله محرق، وآخره مورق، هـ. ولم أكن رأيت هذا الكلام إذ ذاك وإنما اطلعت عليه بعد ذلك في كتاب ربيع الأبرار للزمخشري، ولو اطلعت عليه لم أعده، خصوصاً في تلك البلد، فإن بدن الإنسان يكون مشتعلاً حرارة ويبسا لغلبة الحرّ، فإذا فاجأ البردُ البدنَ في تلك الحرارة أضرَّ به، بخلاف البرد الذي يجيء في آخر الإبّان فإنه يصادف نحو البدن وقد سكنت حرارته، والله أعلم.

---

(1) ألط: لط يلط: لزق: لسان العرب: لط.

ولم تزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء إلى أن هجم الشتاء وقرب زمان الربيع، أرخت السماء عَزاليَها[1] بالأمطار الغزيرة المتوالية، وسالت الأودية، ولم يأت أحد من ناحية إلا حدّث بالجود، فلانت الأسعار وكثر اللبن والجبن في الأسواق، وكان الجبن أول ما بدأ يباع بثمانية مائدية للرطل، فلم تمضِ إلا مدة يسيرة حتى صار يباع بمائديين، وكثر اللحم السمين، وكان قبل ذلك هزيلاً جداً، ومع هزاله قلّ ما يوجد.

ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم، زاعمين أنهم يستضرّون بتركه لحرارة أبدانهم ويبسها، فيحصل لهم الترطيب به، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة، حتى إن من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاءً إلا أن يكون لحما، ويقلن: نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم، ولو أدى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غداء. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم، فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء، في زمن قلته، فلا يرجع إلى سيده حتى يحصله، أو يدور المدينة ونواحيها كلها، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم، ولا يستعمله في غيره، لأنه إنما تملكه بقصد ذلك.

وأهل المدينة، زادهم الله خيراً ووسع عليهم، أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا، وتغالٍ في الملابس الفاخرة، وتزيّوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم، لكثرة سكنى الأعاجم بها، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم معدون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء، فلا يغيثون ملهوفاً ولا يردعون ظالماً. وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام، يشترون الحصص والجامكية، فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويائها.

وقد كانت المدينة في الزمان المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال مالك، رضي الله عنه، في الكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها، فآل الأمر في هذا الزمان إلى خلاف ذلك فصاروا أرفه الناس عيشاً، وأكثرهم في المآكل

(1) أرخت السماء عزاليَها: كثر مطرها: لسان العرب: عزل.

والملابس إسرافاً، أعني الكبراء منهم، وأما الفقراء وغالب المجاورين - خصوصاً المغاربة - فهم على حالهم من الفقر والمسكنة.

ولقد أُخبرت أن للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة، وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم، ولقد سألت شيخنا الثعالبي عن سبب إيثاره سكنى مكة على المدينة، مع أنا نقول بفضل المدينة على مكة، فقال: إنَّ أهل هذه المدينة قد تحضروا وغلب عليهم طبع الأعاجم ورفاهيتهم وإسرافهم، وتشبهوا بهم في ملبسهم وفي غالب أحوالهم، وأنا امرؤ مسكين فقير أخاف أن ينشأ أولادي وأزواجي ويتطبعوا بطبعهم في ذلك، بخلاف أهل مكة فإنهم لم يزالوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة وعدم المبالاة والاعتناء في الملبس والمأكل، قد غلبت عليهم البداوة، وكثرة مخالطتهم لأهل البادية وسكناهم بها حتى أمراؤها من الأشراف، فإن غالب سكناهم بالبادية، وإن كانت لهم منازل بمكة، ومن ولد له مولود منهم استرضع له من العرب بالبادية، فلا يأت به حتى يقارب الحلم، ولباس الملك وأولاده وبني عمه، وإن كان في غاية الرفعة واللطافة فإنه على زي لباس العرب في تعممهم وتقمصهم، فيلبسون العمائم القصار ذوات الأهداب الطويلة ويرسلون لها العذبة إلى قريب من ذراع، ويلبسون الدشوت الرفيعة إلا أنها على هيئة دشوت الأعراب، ولا يلبسون الجوخ التي تلبسها العجم ولا الأقبية التي هي على زيهم، ويلبسون النعال ذات السيور التي على ظهر القدم دون السرموجة[1] التي تلبسها الأعاجم. وعلى كل حال فأهل مكة قد غلبت البداوة على جميع شؤونهم وظهرت فيهم دون أهل المدينة، ولذلك قل سكنى الأعاجم بها، إلا القليل، لأنها وطن السلطان وأولاده وأقاربه، ونفوسهم لا تنقاد للذل وجريان الأحكام عليها في كل ورد وصدر، فيشمئزون من سكنى مكة ويميلون إلى المدينة لكون عسكر الترك بها وهم جنسهم وأحكام السلطان، وإن كانت نافذة هناك أيضاً، لكنها بعيدة منهم فليست كمحل وطنه. أخبرني بهذا من سبر حال البلدين وعلمه زيادة على ما رأيته أنا من ذلك.

ولما كان في أواخر جمادى الثانية كثرت الأمطار بالمدينة وما حولها، وسالت أودية المدينة سيولاً متعددة كما قدمنا ذلك عند ذكر الأودية، وبينما نحن ذات يوم بالمدينة بعدما صلي الظهر أرخت السماء عزاليها وأمطرت مطراً وابلاً سحا كأنه

(1) السرموجة: نوع من الأحذية.

طوفان، وفي أقل من ساعة صار صحن المسجد كله كالبركة العظيمة من ماء الميازيب وماء المطر، فضاقت عنه البلاليع المتخذة لسلوكه في صحن المسجد، وكان ببعضها بعض اختناق فلم يرع الناس إلا اندفاق الماء إلى داخل المسجد وأتى على الزرابي المبثوثة والحصر، فبجد واجتهاد تصايح الناس ممن كان بقرب المسجد، وجمعت البسط والزرابي بعدما ابتل أكثرها، وصار الماء إلى المنبر والمحراب النبوي ووصل إلى الصف الأول، فصار المسجد من داخله بركة ماء، فما جاء العصر وأحد يجد مكان مصلي في المسجد سالما من الماء، فصلى الإمام العصر في تكة الخدام مع طائفة من الناس، وصلى باقي الناس في أروقة الصحن الشرقية والغربية، فاجتمع الناس لإخراج الماء من المسجد بالأسطال والأواني الكبار، فجد في ذلك من رغب في الجد، وكانت لنا سطلة كبيرة من نحاس فأتينا بها وبواحد من أصحابنا يستقي بها اغتناما لبركة الخدمة في تلك البقعة المطهرة، وكنت إذ ذاك فضلة مرض لم أقدر على مزاولة شيء من أعمال الخدمة باليد، ولكني وقفت ورغبت الناس في العمل، وعمل في ذلك جماعة من أصحابنا المغاربة أعمالا حسنة، وما فرغ الناس من إخراج الماء إلى قرب المغرب، فبات المسجد على حاله غير مفرش، وفي الغد بولغ في تنظيفه وغسله وكنسه، وأخبرنا ناس من أصحابنا الذين طالت إقامتهم بالحرمين أنهم ما شاهدوا وقوع مثل ذلك ولا سمعوا به فيما مضى، ويشهد لعدم وقوعه أنه لو وقع لاحتيل في فعل ساتر بينه وبين الصحن ووقاية تدفع الماء وتمنعه من الدخول كما وقع ذلك بإثر هذه الحادثة فإن شيخ الحرم أمر باتخاذ أحجار منحوتة محكمة الإتقان قدر ذراع في الطول مثبت أسافلها في أرض المسجد فيما بين كل أسطوانتين من الأساطين الموالية للصحن يمنع ذلك من دخول الماء إلى المسجد ولو اجتمع في الصحن إلا أن يكثر جدا ويرتفع فوق الأحجار، وذلك نادر أن يقع، ولو وقع لكان رجوعه إلى الخروج من باب الرحمة وباب جبريل أقرب من دخوله إلى المسجد، ولقد أجاد شيخ الحرم في وضع هذا الحاجز وفي تنقية البلاليع التي في صحن المسجد، وشيخ الحرم وهو كبير العبيد الأغوات الموقوفين على خدمة المسجد والحجرة الشريفة، والآغا بلغتهم كناية عن الخصيّ من العبيد، واختاروا وقف الخصيّ دون غيره لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغاً من الاشتغال، إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم، وهو أبعد من دنس الجنابة ومباشرة النساء، وهم عدد كثير قريب من الثمانين، يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقلّتهم، والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم

ومؤونتهم من بيت المال، وما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض، ويسمى ما سوى الأربعين البطالين، لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة، ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة، إنما يجلسون خارجها، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك، فلكل واحد منهم رتبة معلومة وشغل معلوم. فإذا مرَّ بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم، وكذلك الأكابر فيما بينهم، فأكبرهم شيخ الحرم وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر، ولا يأتي إلا من دار السلطان من عبيده، ويليه النقيب، ويليه المستشار، وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدى لهم أو للحجرة، وبيده مفاتيح الحجرة وحواصل الزيت والشمع، والحاصل أن جميع ما يتصرف فيه الأغوات ومصالح المسجد ومن أوقافهم كل ذلك بيده، فإذا مات أحد من الأربعين دخل أحد البطالين في موضعه، وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم، فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه، وليس فيهم شافعي ولا حنبلي، بل كلهم حنفية ومالكية على مذهب ساداتهم الذين أوقفوهم، وذلك لأن الشافعية والحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان.

ومن أوقف عبداً من الأغوات على الحجرة نسب إليه، سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء، فيقال: آغا فلان، وقد كان كبيرهم المستسلم أيام مجاورتنا الأغا يحيى، وهو من أوقاف الشيخ الصالح الحاج الأبر سيدي أبي حفص بن الشيخ عبد القادر بن بوسماحة المغربي من ناحية فِجيج، وتوفي الأغا يحيى بعد خروجنا من المدينة ونحن بمكّة، وتولّى مكانه الآغا مصطفى وهو مالكي أيضاً. وكلاهما كان يبالغ في تعظيمنا والإحسان إلينا، فجزاهما الله خيرا، وكل الأغوات أهل خير وبركة قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع وشرّفهم بالنسبة إلى أشرف الخلق، صلى الله عليه وسلم، ولقد شاهدت منهم أناسا على قدم صدقٍ في العبادة منهم الأغا عبد النبي، وهو شيخ البطالين إذ ذاك، والأغا عنبر منهم أيضاً، ولقد اعتكفت ليلة في المسجد فلم يبت فيه أحد غير سوى الأغوات، فاجتهدت أن أساويه في القيام والصلاة فما قدرت، والفضل بيد الله.

والأغوات كلهم يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحرم والنقيب، وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بيّن من مرض أو نحوه، ولكنهم،

جزاهم الله خيراً عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله، وعادتهم كل ليلة، إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها، قاموا بيدهم الفوانيس الكبار مشعلة، ليخرجوا الناس من المسجد، فيأتون إلى المواجهة والصف الأول فيقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره، فيخرجون كل من فيه، فإذا لم يبقَ أحد في ذلك الصف، تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها، فينتقلون إلى الصف الذي يليه، ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد إلا هم، فيغلقون الأبواب ويطفئون المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي في داخل الحجرة، فيخرجون من المسجد إلى الصحن وإلى الأروقة التي بجانبه، فيخرجون فرشهم من الحواصل، وينامون هناك، ولا ينام أحد منهم في المسجد، بل ولا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد. ومن وراء المسجد، في الناحية الشامية، ميضأة كبيرة فيها بئر كبيرة وأخلية، وفتح لها باب إلى مؤخر المسجد ولا تفتح إلا ليلا بعد غلق الأبواب، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك بليل، فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم وخشعوا، فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة، فمن احتاج منهم إلى أحد كلمه الآخر السِّرار[1]. ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل، حتى بالسعال والعطاس، وتنزل عليهم السكينة، وتلحقهم هيبة المكان، وليس ذلك منهم مجرد استعمال، بل لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان. ولقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بليل أن يصل إلى الروضة وأطراف الحجرة والمواجهة إلا الأفراد منهم، وأنهم يسمعون بالليل قعقعة السقوف وفرقعة الشبابيك، حتى يظن أن أحد أبواب الحجرة فتح، وأن بعض السقوف وقع، فلا يجدون شيئاً من ذلك، والله أعلم، لتنزل ملائكة الرحمة على قبره، صلّى الله عليه وسلّم، أو قدوم بعض رجال الغيب للزيارة، ويظهر ذلك بالليل لهدوء الأصوات به وخلو المكان، وإن كان تنزل الملائكة على قبره، صلى الله عليه وسلم، وغشيان الرحمة له لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً، ولقد شاهدت من الهيبة والعظمة في إحدى الليالي التي بتها في المسجد ما أعجز عن وصفه، ولقد كنت أجهد إذا عسعس الليل أن أصل إلى المواجهة وأقف للتسليم والدعاء فما أصل إلى ذلك حتى تكاد أوصالي تتقطع هيبة، فإذا وصلت وسلمت وأردت إطالة الوقوف للدعاء كما كنت أفعل نهاراً فلا أقدر، فأخفف السلام والدعاء وأرجع، ولقد

(1) السرار: مصدر ساررت الرجل سرارا: لسان العرب: سرر.

سمعت بعض ما ذكر من فرقعة السقف وما أشبه ذلك فملئت منه رعبا إلا أني كنت أشتغل عنه وأتلهى عن سماعه بقراءة القرآن سرا، فيا لها من ليلة هي نتيجة عمري وفريدة أيامي، فلئن كانت ليلة القدر كألف شهر فهذه الليلة عندي كألف ليلة القدر، اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد على جزيل عطائك ولك الشكر على سوابغ آلائك.

فإذا كان بعد الثلث الآخر من الليل جاء رئيس المؤذنين، ففتحوا له وصعد إلى المئذنة الرايسية، وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضؤون، ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصابيح، فإذا فرغوا من الإصباح، وقرب الصباح، فتحوا أبواب الحرم، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيرة من المجتهدين، ينتظرون الفتح، فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين، وتسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر، فمن سبق إلى موضع كان أحق به، فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة له في محله، فلا يجلس فيه أحد ولو أبطأ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره، فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة وأسبابها، وكثير منهم يبطئ في الطهارة فيحجر على الناس المحل، وربما عرض لأحدهم حاجة في منزله أو في السوق فيترك النمرة في محله فلا يقربه أحد وإن أبطأ كثيرا، وفي ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى، على أن في دخولهم مزدحمين واستباقهم إلى الروضة ربما سمع لأقدامهم دوي من شدة العدو، سوء أدب لا يخفى وربما يحتج لذلك محتج بقوله عليه السلام: لو يعلم الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه[1]، فلا بد بتقييد ذلك بما لا يخل بأدب البقعة المطهرة وساكنها لقوله عليه السلام: وآتوها تمشون، يعني الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا[2]، والمراد بالمسابقة في الحديث المتقدم الاهتمام بشأنه والحرص على الصلاة فيه والتبكير إليه من غير عدو بالأقدام ومزاحمة بالمناكب.

---

(1) نص الحديث النبوي الشريف كما ورد في كتب الحديث: لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه: تلخيص الحبير 1:290.
(2) صحيح مسلم 1:420.

وساداتنا الأغوات، رضي الله عنهم، لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف وتأديب من أساء الأدب فيه بلغط ورفع صوت أو نوم، ولو في قائلة، إلا في مؤخر المسجد، ومن وجدوه مضطجعاً من دون نوم للاستراحة، فإن مدّ رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه، وإن استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستدبراً لها تركوه، ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار، فإن خرجت طائفة جلست طائفة.

ولهم ديار وخدم وأتباع، وضياع وخيل، وسعة دنيا، ولا يشغلهم ذلك عَمَّا هم بصدده من خدمة المسجد، بل لبعضهم أزواج وسراري، اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع.

وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره، ولا يولّى عليهم ولا يعزل منهم، إلا بأمر شيخهم. ولا يرث معهم بيت المال إن مات أحدهم، إنما يتوارثون بينهم. ومن وجبت عليه عقوبة أو أدب منهم أدبوه، من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية، كل ذلك تعظيماً لجانب النبي، صلّى الله عليه وسلّم، أن تكون لأحد ولاية على عبيده. ولقد أنكرت منهم تأديب من لزمه الأدب من صغارهم في المسجد في بيت بإزاء دكتهم قريباً من الحجرة فيسمع صياحه وصوت الضرب كل من بإزاء الحجرة، فكنت أرى أن لو جعلوا لذلك محلاً بعيداً من المسجد والحجرة الشريفة، ولا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من أرادوا إدخاله بمال يدفعه عنه سيده عنه، أو يدفعه هو إن كان له مال، ومع ذلك يبقى في مرتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجية، فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين، وإن ظهرت منه خيانة وسوء أخلاق وسرقة أو شيء يشينه، نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

ولقد وجدت هناك خصيا لبعض ملوك المغرب دفع لهم مالاً جزيلا ليدخل في زمرتهم وكان كهلا لا يحسن خدمة الصغار، فدفع لهم مالاً آخر على تحريره من الخدمة، وقنع بأن يكون محسوبا في زمرتهم يناله من أوقافهم وصدقاتهم، ولقد أصاب في ذلك وأحسن النظر لنفسه إذ أنقذه الله من خدمة سلاطين الدنيا إلى خدمة سلطان الدنيا والآخرة، ومن جوار الظلمة العجزة إلى جوار الكرام البررة.

وبالجملة فلعبيد النبي، صلّى الله عليه وسلّم، وخدّام مسجده جلالة قدر، وعظم منصب، وسعة أرزاق، وكرم أخلاق، وهم أحقّاء بذلك. ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة، تنفذ أحكامه، وتمضي تصرفاته، في القويّ والضعيف ويطأ عقبه الكبراء والأشراف.

وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدرِ كيفية تصرف الولاة فيها، ولا من له التصرف التام بها، فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدّام كما تقدم تنفذ أحكامه، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً، وابن عم السلطان زيد وزوج ابنته السيدة تقية النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك، والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب، وهو من خدام السلطان كذلك. ولا أعلم هل لكل واحد من هؤلاء ولاية على قوم بالخصوص أو على عمل من الأعمال، ولم يشف لي أحد غرض إلا مجرد العلم بالإحاطة بأخبار المدينة دينيّها ودنيويّها لحبي لها ولساكنيها أسأل غرضاً في كيفية ذلك، ولم أبالغ في الفحص عنه، إذ لم يتعلق لي به الله أن يحقق لي ذلك ويجعل قبري بها على أحسن حال تسر المؤمن في دينه ودنياه آمين.

ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة، يدعى أولاً – بعد الصلاة على النبي، صلّى الله عليه وسلّم، والترضي عن الآل والخلفاء والصحابة – للسلطان الأعظم ملك الترك، إلا أنهم يبالغون في تعظيمه بأوصاف لا ينبغي أن يعظم بها أحد من الخلق، خصوصاً بحضرة الرسالة، وليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجمل ولا أكمل من قولهم فيه: خادم الحرمين الشريفين، فأكرم بها نسبة – وقد رأيت في بعض التواريخ أن أول من وصف بذلك من الملوك في الخطبة السلطان الأجل صلاح الدين بن أيوب، وأنه لما قال الخطيب ذلك وسمعه سجد شكراً لله أن أهّله لذلك وسمّاه به، وهكذا ينبغي أن تكون همم الملوك، فلا شرف لهم إلا بالانتساب لله ورسوله، ولا الله عز وجل إلا بالتذلل لجناب الله، ولا رفعة إلا بالخضوع لهيبة الله، ولا حماية إلا بالانقياد لأحكام الله.

ثم بعد الدعاء لملك الترك موصوفاً بكونه ملك البرّين والبحرين، والشامين والعراقين، يدعى للسلطان زيد بن محسن موصوفاً بكونه حامي الحرمين الشريفين.

ثم يدعى لأمير المدينة السيد الحسين بن حماد[1] موصوفاً بكونه حامي حمى المدينة وأميرها، على أنه — فيما يظهر – ليس له من ولاية المدينة وإمرتها إلا الاسم أو ما يقرب منها، لأنه من تحت أمر السلطان زيد والتصرف لنوابه وأقاربه.

وقد كانت إمرة المدينة فيما مضى والتصرف في ولايتها لبني حسين كما أن مكة لبني حسن، وكانت تقع بينهما حروب، وكانت بنو حسن لهم قوة وبطش ربما غلبوا عليهم. والآن صار الأمر لبني حسن، فجمعوا الولايتين، و لم يبقَ لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون ويترلون بنواحي المدينة، وهم قبيلة عظيمة قوية، ليس لهم اسم إلا بنو حسين، وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة نازل بالمدينة، وبعض أقاربه، ولهم شارة حسنة، ومنازل رفيعة تدل على نباهة الذكر.

ولما خَفَّ مرضي ووجدت بعض الراحة في أواخر جمادى الأولى وأوائل الثانية شرعت في تكميل الأمداح التي ذكرت أول الرحلة أني وضعتها على حروف المعجم، وكان التوجه إلى هذه الوجهة المباركة ببركة الشروع فيها، وكان الموضوع منها قبل الرحلة عشرة أحرف وبقيت عشرون، فشرعت في تكميلها وأنا ملازم للفراش، إنما كنت أكتب منها ما أكتب وأنا في فراش التمريض، إلا أن هذه القصائد جاءت على طراز آخر ونمط غير الأول، سيتبين منه اللبيب ذو الذوق السليم أن الأول نفس محب طالت عليه الغربة وأذاب قلبه لاعج الشوق، وأن القصائد الأخر نفس محب وصل على محبوبه وتمتع بالتقلب في ربوعه وأطلاله، وأول الحروف التي كملتها في المدينة حرف الزاي وأوله[2]:

[طويل]

زيارةُ خيرِ العالمينَ هي الكنزُ ... ومَدحي لهُ من كل نائبةٍ حِرزُ

جِواري لهُ حصنٌ حصينٌ وملجأ ... به تُكشفُ البَلوى بهِ يُدفعُ الرجزُ

وحُبي له سِرا وجهرًا ويقْظة ... ونوما وفي دُنيا وأُخرى هو الفوزُ

وسيأتي ذكر القصائد إن شاء الله بتمامها في آخر الرحلة.

---

(1) الحسين بن حماد أمير المدينة المنور في سنة 1073، وردت ترجمته نقلا عن الرحلة العياشية في: تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 349.
(2) وردت الأبيات في: التوجيهات، ص: 154.

ولما كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز كمكة واليمن والطائف ونجد وجدة وما والاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية وزيارة سيد الشهداء حمزة، رضي الله عنه، فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكة ونواحيها. وقدم شيخنا الشيخ عيسى الثعالبي بأولاده، وقدم معه جماعة من المغاربة المجاورين بمكة، وجماعة من طلبة مكة كأولاد شيخنا قاضي المالكية بمكة تاج الدين، وقدم جماعة من أصحاب شيخنا القشاشي، كصاحبنا العلامة حسن العجيمي، وفقيه من فقهاء الحنفية يسمى الزنجبيل، والشيخ حسن الذهان، وهو من أصحاب شيخنا القشاشي، ولم يزل الناس يتلاحقون، فخرج أهل المدينة إلى أحد من اليوم الخامس ولسادس من الشهر، ورجعوا في اليوم الثاني عشر، ولم يبق بالمدينة إلا القليل، وخرج العسكر لحراسة الطرقات من المدينة إلى أحد، وتقدم شرح ذلك في زيارة أحد.

وبعد الرجوع من أُحد نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية، وهي ليلة سبع وعشرين منه ليلة المعراج، وقدم خلق كثير من الأعراب، وكانت بالمدينة سوق عظيمة، وامتلأ المسجد وجوانبه، فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة، وأكثرهم عرب حفاة ليس لهم من دين ولا مذهب، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم، فيقف أحدهم مليا ثم يسجد على قدر ما يرى، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه، ثم ينصرف. وغالبهم على هذا الوصف، ومنهم أفراد يدينون دين الحق، وسلامهم على النبي صلى الله عليه وسلم: حيا الله محمد، رافعين بها أصواتهم، فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حسن الناس، فمن لم يدخل المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعا لصلاة المغرب والعشاء، فيغص المسجد بمن فيه ويفتح الحرم طول الليل ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح، فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد، وصياحا وصراخا رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، والاستغاثة به، فيرق قلب سامعهم، ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل، وعسى الله أن ينفعهم بحسن نياتهم.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم عن الشيخ القشاشي أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة إذ جاء أعرابي في شملته وبيده عصاه حتى وقف أمام الوجه الشريف، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول: يا محمد، يا محمد، لا تقل أنا ما جئتك، ها أنا ذا، فذهب و لم يزد على ذلك، وكان الشيخ يقول: عسى أن يكون ذلك نافعاً له عند الله فإن ذلك مبلغ علمه، ولو كان يرى أن أكثر من ذلك ينفعه ويقضي به حق تعظيمه لفعله. وكان الشيخ، رضي الله عنه، كوشف له عن حال ذلك الأعرابي فرأى من صدق نيته وقوة اعتقاده في جانب الرسول أن من جاءه ووقف عنده اتخذ بذلك عهدا عنده ينفعه يوم القيامة ما أوجب له أن صدق الله ظنه وجعل ذلك نافعا له في عقباه، ولا يبعد ذلك فقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يحتمل الأعراب أكثر من ذلك من جفاهم، ويقنع من حدهم بقوله: صبأت، إذا كان لا يحسن أن يقول أسلمت، حتى يعلمهم بلطف ويرفق بهم، فكذلك بعد وفاته أو أكثر، فإنه صلى الله عليه وسلم يزداد كل وقت ترقيا في مدارج الرحمة والقرب من الله فيقبل شفاعته في هذا الأعرابي الذي جاءه وهو يعتقد أن من جاءه ووقف ببابه استوجب بذلك، رحمة الله، أما تراه كيف أخذ يثبته ويناديه ويعلمه بأنه قد حضر بالباب، و لم يحسن أكثر من ذلك، وعلم الله في خلقه لا يحاط به، ورحمته وسعت كل شيء. وقد قال تعالى عقب هذا: (فسأكتبها للذين يتقون)[1]، الآية. و لم ينفها عمن سواهم، وذكر بعض أفراد العوام بعد ذكره لا يخصص على الصحيح.

وبالجملة فعرب الدرب[2] والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة وصلاة وصيام إلا القليل. وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميّاً بالمغرب، وإن بلغ الغاية في الجفاء، إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود،

---

(1) يشير إلى قوله تعالى: (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الأعراف: 156.

(2) الدرب: قرية باليمن: معجم البلدان: الدرب.

وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو أشدّ عندهم من الصلاة، بخلاف هؤلاء، فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا؟ وهو رجل كبير كهل، فقال: إني إلى الآن لم أصم، لكن أبي صام ثلاثة أيام، فاستفهمه عن ذلك فقال: إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار، وقلّة القرى في بلادهم، فلا يجدون أحداً يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يلقي إليهم أحد بالاً، ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلّون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم، أو يتغافل ويذهب عنهم، فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حدّاً من حدود الشريعة؟

ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه، وسألته عن مكّة فقال لي: ما حججت قط. وبينه وبين مكّة ثمانية مراحل، وسألته عن المدينة فقال لي: دخلتها مرتين أو ثلاثاً، وبينه وبينها ثلاثة مراحل، وأمثال هؤلاء كثيرون.

ولما استهل شهر شعبان أخذت القوافل في الرجوع إلى مكة، ورجع غالب من جاء من أهلها، و لم يبق بالمدينة إلا القليل ممن أراد شهود رمضان بالمدينة، فخرج سيدي عيسى الثعالبي مع أول قافلة، وكانت نيتنا أن نصوم رمضان بمكة، فتهيأنا للخروج و لم نخرج إلا بعد النصف من شعبان كما سيأتي ذكره إن شاء الله في خروجنا من المدينة إلى مكة، وقد سمعت عليه، رضي الله عنه، أيام إقامته بالمدينة المشرفة معجم الطبراني الصغير بلفظه بالروضة المنورة فيما بين القبر الشريف والمنبر، وسمعت من لفظه أيضا الأربعين حديثا عن أربعين شيخا لتقي الدين الفاسي[1]، رضي الله عنه، وسمعت من لفظه أيضا بعض الشمائل[2]، وأجاز لي سائر مروياته حسبما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى. ومما أنشأته في بعض تلك الأيام وأنشدته أمام الوجه الشريف هذه القصيدة:

---

(1) محمد بن أحمد بن علي تقي الدين الفاسي، نزيل الحرمين الشريفين، الفقيه العلامة، ولي قضاء المالكية بمكة المكرمة سنة 807 هـ، من أهم مؤلفاته: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، توفي سنة 833 هـ: لقط الفرائد، ص: 231. شجرة النور الزكية 1:363.

(2) الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية لأبي عيسى محمد الإمام الترمذي المتوفى سنة 279 هـ: كشف الظنون 2:1059.

[طويل]

لوجهِ رسـولِ اللهِ وجهـتُ آمَـالي وتَوجيهُها من خيرِ صـالحِ أعمـالي

إذا لم أُوجههـا إليـهِ مـن الـذي يـرقُ لأحزانـي سـواهُ وأوجَـالي

ومن يكشفُ الكربَ الذي أشتكي ومـنْ يغيثُ إذا أدعـو وينقـذُ أوحـالي

أتيـتُ بعـزمٍ زائـرًا ومُجـاورا وذاك الذي أملتـهُ منـذُ أحْـوالِ

وقـد حقـق اللهُ العظـيمُ بفـضلهِ أمانِيَ كانتْ قبـلُ تخطـرُ بالبـالِ

فما كانَ قِدْما خاطرًا صارَ حاضِـرا فللهِ ربي الشكرُ في كـلِ أحْـوالِ

فهـا أنـذا في طيبـةٍ مُتبختـرا بخلقانِ أثـوابي وأطـرافِ أسْـمالِ

لعَمري لأسْـمالي هنـايَ أعَـز لي من الحُلةِ الحَمْـرا هنـاكَ وأسمـالِ

فكم بين منْ في طيبـةَ آمنـا بهـا ومنْ في أقاصِي الغربِ ما بين أهوالِ

فذاكَ يَغَـدُّو في عنًـى ويـروحُ في ضنًى بينَ آسـادٍ هنـاكَ وأغـوالِ

وهذا يـروحُ في غِـنى ويبيـتُ في هنا بين إكرامِ الرسـولِ وأفـضالِ

يُصلي صلاةَ الفرضِ ما بـينَ مِنـبرٍ وقـبرِ تَغَـشاهُ طـوارق إجـلالُ

ومِن بعدها يَمـشي عليـهِ سـكينة إلى موقفِ الزوارِ من دون تِـشغالِ

فيبقى أمامَ المـصطفى واقفًـا لـهُ مناوبـةً مـا بـينَ عِـز وإذلالِ

إذا ما رأى خيرَ الورى عَز ثَـم أن رأى نفسهُ فالذلُ أولى بـذا الحـالِ

يُـصلي عليـهِ أو يُـسلم أو همـا معا دونَ فصلٍ وهْو غايـة إكمـالِ

ويعطفُ شيئا عـن يمـين مُـسَلما على صاحبيهِ مُوضحي كل إشـكالِ

ويـدعُو لديـهِ بُكـرةً وعـشية بما يرتجي في النفسِ والأهلِ والمـالِ

أُنادي إلَهـي عنـدَ بـابِ حبيبـهِ نـداء بـهِ تنفـك عـنيَ أغـلالِ

وأطلـــبُ ربي مُوقنـــا بإجابـــة   ليغفِـرَ أوزارِيَ ويُـــذهبَ أغـــلالي
وأخفِضُ صـوتِيَ في النـداءِ ببابِـهِ   وخفضت لقدري عند ذاك أعـــلال
عليـــهِ صـــلاةُ الله ثم ســـلامةُ   كذاكَ على الأزواجِ والـصحبِ والآلِ

وهذه القصيدة من جملة القصائد التي على حروف المعجم إلا أنها أول مـــا أنشئت بالمدينة.

ومما أنشدته أيضاً هذه الأبيات، وكان ذلك في ورد حال فقلت:

[خفيف]

يا رسولَ الإلهِ مـا لـكَ عِنـدي   حاجةٌ وحـوائجي الـدهرَ عنـدكْ
أنت عنيَ في غِـنى وعـن الخلــ   ــقِ جميعا وجئتُ أطلـبُ رفـدكْ
أنــت بـالله ذُو غِـنى واعتـزاز   ما الذي أرتَجـي لفقـري بعـدكْ
لـــيسَ لي ملجـأٌ سِـوى الله إلا   أنتَ يا ملجـأ المـساكينِ وحـدكْ
يا عَذولي بـهِ اسـتجرتُ فحـسبي   اجتهدْ إن شئتَ العـداوةَ جهـدكْ
فيـه اتقـي عـداك وأكفـي   وبهِ اجتني علـى الـرغمِ شَـهدكْ
لستُ يا دهرُ بعدَ نحـسكَ أخـشى   لا ولا أرتَجي مدى الدهرِ سـعدكْ
يـا نَـبي الإلــهِ أنـتَ جَـواد   كيـفَ لا تبلـغَ الأمـانيَ وفـدكْ
فعليـكَ مـن الإلـهِ صـلاةٌ   وسلامٌ بحسبيَ منَ الـسوءِ عبـدكْ

وأنشدت يوما آخر:

[بسيط]

ربِّ بأسمائِك الحُسنى بأوصافِك الـ   ـعُلى بـذاتكَ بـالملاكِ بالرسُـلِ
ربِّ برحمتكَ العُظمى التي سـبقتْ   غضبْكَ إرحَمْ عُبيدًا بات ذا وجَـلِ
ربِّ بكل الذي أنزلتَ مـن كُتـب   على النبيـئينَ للتـذكيرِ والعمـلِ

ربِّ بخيرِ عبادِ الله سيدنا ... محمد المُصطفى بجاهِ كل ولي

كنْ لي وخذ بيدي في كل نائبة ... وعافِني واهْدني لأوضح السبُل

ذكر من لقيته بالمدينة من المشايخ الأعلام والأصحاب الكرام ممن أخذت عنه أو أخذ عني أو صاحبته في الله ولم يخب فيه ظني حياهم الله

أول من قرأت عليه بالمدينة وأخذت عنه، بقية السلف الصالح وقدوة كل غاد في اكتساب الحمد ورائح، أستاذ المقرئين وإمام المحدثين، الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديّبع اليمني الزبيدي[1]، زاده الله عِزّاً وشرفاً، وأسكنه من منازل التقرب غرفا، هو من قدماء مشائخي، لقيته بمكة سنة أربع وستين فأخذت عنه ما تيسر، وأجاز لي كما هو مذكور في كتابنا اقتفاء الأثر[2]، وهو كان السبب في اتصالي بالشيخ الإمام الختم صفي الدين القُشاشي، وكتب إليه كتابا، ثم لقيته أيضا في هذه المدة بمكة. فكان السبب أيضا في اتصالي بشيخنا الملا إبراهيم خليفة شيخنا القشاشي، وكان الشيخ، رضي الله، عنه عقد بينهما عقد أخوة خاصة، فلما لقيته بمكة راسلته عن أصحاب الشيخ وأولاده وعن حالهم بعد وفاته، فأخبرني بخبر الخليفة المذكور، وأكّد علي في لقائه وأثنى عليه كثيراً، وكان شيخنا الثعالبي أيضاً ذكر لي جملة من خبره، وكان من قدر الله، مع إضماري لقاءه والاجتماع به، لم يقدر لي ذلك أيام إقامتي بالمدينة حتى قدم شيخنا أبو الحسن الديبع لزيارة النبي، صلى الله عليه وسلم، آخر المحرم أو أول صفر كما سيأتي في ترجمة شيخنا الملا إبراهيم، فذهبت معه إلى زيارته وعرفه بي. ولما قدم شيخنا أبو الحسن المدينة ونزل بجوار المسجد، وكان قدم بأهله قاصداً للزيارة، واجتمعت به في الحرم الشريف وأنست به، وكنت إذ ذاك حديث عهد بسكنى المدينة لم أخالط كثيراً من أهلها، فسألته أن أقرأ عليه ختمة من القرآن العظيم

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الديبع اليمني الزبيدي، فقيه محدث، سمع عليه أبو سالم صدر صحيح البخاري وأجاز له باقيه، توفي عام 1076 هـ: التقاط الدرر، ص: 167. اقتفاء الأثر، ص: 138. نشر المثاني 2:153.

(2) اقتفاء الأثر، ص: 139.

بقراءة الإمام عبد الله بن كثير المكي[1]، فأذن في ذلك وجعل لي وقتا معلوما بين من يقرأ عليه، وكان لما قدم المدينة انثال الناس عليه لقراءة القرآن، وكان محققا لقراءة السبع مجيدا لها حسن التلاوة، ما سمعت أذني في أقطار الأرض كلها،على كثرة ما سمعت، أحسن منه تلاوة للقرآن وأطيب منه نغمة به وأجود منه ترتيلا له، يعطي الحروف حقها في مخارجها من غير إفراط ولا تفريط، في تؤدة وسكون ووقار بقراءة مسترسلة متناسبة لا يرجع فيها ترجيع أهل الألحان ولا يسرع إسراع الهذرمة[2]، ولا يمد في غير محل المد، ولا يتركه في محله، محافظا على مراتبه من توسط وإشباع وقصر، مجيد للنطق بالإمالة وتسهيل الهمز وتليينه، مراعيا لصفات الحروف من تفخيم وترقيق، وتغليظ وتشديد، وغنة وإظهار وإخفاء، إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله، فجزاه الله عن كتابه خيراً.

وكان أيام إقامته بالمدينة كثيراً ما يقوم للإمامة لحسن صوته وعذوبة قراءته وتزاحم الناس على القرب منه لسماع قراءته. ولقد أخبرت أن شيخه الشيخ إسحاق جمعان[3] كان لا يترك أحدا يؤم بمسجده سواه ويقول: لا تقرأ في صلاة الصبح إلا بما فوق سورة الجمعة، يريد التلذذ بسماع قراءته، وكان ممن ابتدأ القراءة عليه بالمدينة شيخنا الملا إبراهيم وشيخنا بدر الدين الهندي وغيرهما، فابتدأت القراءة عليه صبيحة يوم الاثنين رابع صفر عام ثلاث وسبعين وألف بالمسجد النبوي أمام الوجه الشريف بعد صلاة الحنفي على يسار المحراب العثماني، وقرأ: (آنذرتهم)[4]، بالتسهيل بين بين، وكان حسن النطق به، وقال: لا نعرف فيه محض الهاء، فأخبرته بأن شيخنا أستاذ الجماعة بفاس أبو زيد بن القاضي[5] قد نقل في مفرداته عن أبي عمرو الداني[6] جواز إبدالهما هاء محضة، فسألني أن أطلعه على

---

(1) عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان، فارسي الأصل، العطار قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي وعلى مجاهد وحدث عن ابن الزبير وغيره، الإمام العلم مقرئ مكة وأحد القراء السبعة، عاش خمسا وسبعين سنة مات سنة 120 هـ: سير أعلام النبلاء 5:118. شذرات الذهب 1:157.

(2) الهذرمة: هذرم الرجل في كلامه: خلط فيه: لسان العرب: هذرم.

(3) إسحاق بن محمد جمعان اليمني، الفقيه، كان كثير التردد للحج، توفي عام 1076هـ: التقاط الدرر، ص 167.

(4) يشير إلى قوله تعالى: (وسواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون): البقرة: 5.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، الأندلسي القرطبي، الإمام الحافظ المجود المقرئ، ولد في سنة 371 هـ ورحل إلى المشرق سنة 397 هـ، من مؤلفاته: إيجاز البيان في قراءة ورش، والتلخيص في قراءة ورش أيضا، والمقنع في الرسم، وكتاب المحتوى في القراءات، توفي أبو عمرو سنة 444 هـ: سير أعلام النبلاء 18:77. شذرات الذهب 2:272.

ذلك، فأطلعته عليه، فسُر بذلك، ونص ما ذكره شيخنا ابن القاضي في مفرداته المكية: جرى الأخذ عندنا بفاس والمغرب في المسهل بهاء خالصة مطلقا، وبه قال الداني ومنعه أبو شامة الجعبري[1]، وفصل ابن حدادة بجوازه في المفتوحة دون المضمومة والمكسورة هـ. وقد اشتد سرور شيخنا الملا إبراهيم بالاطلاع على هذا النص لكونه، رضي الله عنه، غلبت العجمة على لسانه فيعسر عليه النطق بالهمز المسهل، بل كان لا يطيقه فقال: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة ولم يكلفنا فوق طاقتنا، فنحن نقنع بموافقة قول إمام من الأئمة، خصوصاً هذا الإمام المتفق على جلالته أبا عمرو الداني، رضي الله عنه.

ومما نبهني عليه شيخنا أبو الحسن حال القراءة، وكنت أغفل عنه كثيراً ما قال لي: ويحذر القارئ من قراءة (غشاوة)[2] ونحوه بالهاء على نية الوقف، ثم يصل، ولا بد من وقف بيّن، يعلم به أن القارئ فصل بين ما وقف عليه وما ابتدأ به، وإلا صار كمن قرأ بالهاء في الوصل، وهو لحن.

ومما نبهني عليه تفخيم الخاء في (يخادعون)[3] وما أشبهه، قال: وتتبعها الألف في التفخيم لأن الخاء حرف استعلاء، وكذلك أيضاً تفخيم القاف في نحو قال وقام، وكذلك المحافظة على إظهار اللام في نحو: قلنا وجعلنا. قال ابن الجزري في مقدمته[4]:

[و] احرِصْ على الإظهار[5] في جعلنا

لأنَّ اللام إن لم تظهر أسرع لها الفتح، وكان لا يسامح القارئ عليه في ترك الغنة في محلها من نون وميم، وميم أخفيت قبل باء، أو نون قلبت قبل باء، أو نون أو تنوين إدغاما في ياء، وواو وميم ونون، ويحذر من إخفاء الميم الساكنة لذي واو

---

(1) أبو بكر بن أبي شامة، الشيخ الجعبري، المقرئ المؤذن،الشيخ المجود، توفي سنة 713 ه: معرفة القراء الكبار 2:727.
(2) من قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم): البقرة: 7.
(3) من قوله تعالى: (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون): البقرة: 9.
(4) الجزرية، ضمن كتاب: مجموع مهمات المتون، ص: 208.
(5) في الجزرية: السكون.

وفاء لأنها يسرع إليها الإخفاء إن لم يتنبه لها نحو: (هم فيها)[1]، (قم فأنــذر)[2]، (إنكم وما تعبدون)[3].

وأنشد في حروف الإخفاء وقال: يجمعها أوائل هذا البيت وهو:

[بسيط]

صف ذاتنا جودُ شخصٍ قد سمَا كرما ضع ظالما زدْ تُقى دُم طالبــا فتــرى

وأنشد أيضاً في المواضع التي ورد أن النبي، صلى الله عليه وسلم وقف عليها، أملاها علي من حفظه و لم ينسبها:

[طويل]

أيا سَــائِلِي عمــا أتانَــا بــهِ الأُلى عن المُصطفى من وقْفــهِ مُتسلــسِلا

ففي البِكر جا الخيراتُ والثاني قلْ بهــا أتى بعد يُعلمْهُ علــى الله مُــسجلا[4]

وعِمــــران إلا اللهُ أولهـــا أتـــى[5] عقودٌ بها الخيراتُ قد جاء مُرسَــلا

وأيضا بها من أجْــلِ ذلــك جاءنــا وآخِرهــا قــد جــا بحــق مُــرَتلا

وأنْ أنذرِ الناسَ الذي حلّ يُونــسا[6] وقــلْ بعــدهُ فيهــا لِحَــق تَنَــزّلا

إلى الله جاء في يوســف وبتلوهــا[7] أتانَا علــى الأمثــالِ كــي يَتمــثّلا

خلقها بنحل بعد الأنعــام لفظــة[8] وبعدَ ألا تُــشركْ بلقمــانَ أنْــزلا[1]

---

(1) وردت العبارة 16 مرة في القرآن الكريم، أكثرها في سورة البقرة.
(2) المدثر: 2.
(3) من قوله تعالى: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) الأنبياء: 98.
(4) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب) البقرة: 197.
(5) يشير إلى الآية السابعة من سورة آل عمران.
(6) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس): يونس: 2.

(7) يقصد قوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) يوسف: 108.
(8) يقصد قوله تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) يوسف: 5.

وغافر فيها لفظـةُ النـارِ بعْـدها[2] حكايةُ حملِ العرْشِ في قـصةِ المَـلا
وقلْ بحشَرَ في النازعـاتِ وبعـدهُ[3] على ألْفِ شهْرٍ جاءَ في القـدْرِ أوّلا[4]
ومن كل أمـرِ جابهـا وبنـصرهِمْ على لفظِ واستغفرهُ تمّـتْ فحَمْـدلا[5]

وإفادته رحمه الله كثيرة، ومحاسنه شهيرة، و لم يختم عليه أحد القـرآن مـن الذين ابتدأوا عليه القراءة أيام إقامته بالمدينة، فيما علمت، إلا أنا فـإني لازمتـه، وكان معتنيا بشأني، وكنت أولا أقرأ وقتا واحدا بعد صلاة الصبح، ثم زادني وقتا آخر بين الظهرين، فلما كان اليوم الذي قبل يوم خروجه من المدينة ذهب لزيارة قباء، ولحقته هناك، وقرأت عليه هناك حتى قاربت الختم، وقرأت عليه أيضا المقدمة الجزرية في تجويد القرآن هناك أيضا، وتفرغ لي رحمه الله ذلك اليوم عـن جميـع أشغاله.

وفي الغد يوم رحيله ختمت عليه بالحرم النبوي قرب المواجهة، فكانت مدة القراءة نحوا من سبعة عشر يوما، وقد كتبت بين يديه، رضي الله عنه، بعد فراغي من قراءة المقدمة الجزرية[6] ما نصه: الحمد لله قرأت المقدمة الجزرية بمجلـسين في يوم واحد أولهما في رباط السلطان خارج مسجد قباء، وثانيهما بعد صلاة الظهر عند المحراب النبوي في مسجد قباء علي شيخنا صدر المقرئين وإمام المحدثين الشيخ أبي الحسن علي الديبع اليمني، رضي الله عنه وأرضاه، وأجازنا بها وبسائر مروياته، وقرأت القرآن أيضا عليه كله بقراءة ابن كثير، فأجازني به بأسـانيده المعروفـة، وحضر قراءة المقدمة المذكورة أخونا الأمجد الفقيه النبيه الشيخ الصالح صالح بـن أحمد المطري اليمني نزيل الحرم الشريف، قال ذلك وكتبته ظهر يوم الأربعاء الموفى

(1) يقصد قوله تعالى: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم): لقمان: 12.

(2) يقصد قوله تعالى: (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم): غافر: 7.

(3) يقصد قوله تعالى: (فحشر فنادى) النازعات: 23.

(4) يقصد قوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر): القدر: 3.

(5) يقصد قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا): النصر: 3.

(6) المقدمة الجزرية: في التجويد، وهي لشمس الدين محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833 هـ، أنظرها في: مجموع مهمات المتون، ص: 205 – 211.

عشرين من شهر الله صفر عام ثلاثة وسبعين وألف الفقير إلى الله تعالى أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي كان الله له آمين.

ثم كتب الشيخ، رضي الله عنه، بخط يده عقب ما كتبته ما نصه: الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده، صحيح ما قاله الأخ في الله تعالى، وقد استخرت الله تعالى وأجزت له ذلك وجميع مروياتي في علم القراءات بمضمون الشاطبية[1] والتيسير[2]، وجميع ما يجوز روايته من كتب الحديث وغيرها لعلمي بأهليته، وأجزت لجميع من ذكر بذلك، وأوصيه بتقوى الله تعالى، وأن لا ينساني من دعائه بحسن الخاتمة في عافية وسلامة، تقبل الله ذلك منه وجعله خالصا لوجهه الكريم، قال ذلك بفمه، ورقمه بقلمه أفقر عباد الله وأحوجهم إليه، العبد الفاني علي بن محمد بنِ عبد الرحمن الدّيبع الشيباني الشافعي مذهباً، الزبيدي بلداً ووطنا، الأشعري معتقداً، حامداً مصلياً عفا الله عنه وعن مشايخه في الدارين، وعن جميع المسلمين آمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .هـ ما كتبته عقب كتابتي الأولى.

وأما أسانيده في القراءات فقد كتبت من خطه ما نصه: قرأت على سيدي ووالدي وشيخي الفقيه الصالح الناسك الحافظ عفيف الدين عبد الله بن عبد الباقي العدني العقاقي الزبيدي رحمه الله قال: قرأت على سيدي الإمام العلامة محمد الطاهر بن المخلص الزبيدي، قال: قرأت على جماعة أجلهم الشيخ الإمام العلامة جمال الدين محمد بن أحمد الملحاني الشهير بمفضل الزبيدي، قال: قرأت على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن يدير، قال: قرأت على أبي محمد عبد الله بن محمد النائري، قال: قرأت على شيخ الشيوخ أبي الخير محمد بن محمد الجزري، قال: قرأت على عدة من المشايخ، منهم الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن علي بن المبارك البغدادي الواسطي المصري الشافعي، قال: قرأت على العلامة ملحق الأواخر بالأوائل، تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد الخالق الشهير بالصائغ، قال: قرأت على العلامة كمال الدين علي بن شجاع الضرير الشافعي، قال: قرأت على ولي الله أبي القاسم الشاطبي، قال: قرأت على أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن

(1) الشاطبية: أو حرز الأماني ووجه التهاني؛ قصيدة في القراءات للقاسم بن فِيُّره الرعيني الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة 589 هـ: شرف الطالب، ص: 66.

(2) تيسير الأصول إلى جامع الأصول لعبد الرحمن بن الديبع، والكتاب مطبوع.

هذيل الأندلسي، قال: قرأت على أبي داوود سليمان بن نجاح، قال: قرأت على الإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني بأسانيده. هـ ما نقلته من خطه رضي الله عنه. وبهذا السند أجاز لنا القراءات ومؤلفات ابن الجزري. وأما أسانيده في كتب الحديث وغيرها فهي مذكورة في رسالة اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر[1].

وخرج، رحمه الله، قافلاً إلى بلاده يوم الخميس الواحد والعشرين من صفر، وودعناه، وأودعناه الدعاء وأودعناه، وكان، رضي الله عنه، كثير الحج، قلَّ ما يخلو له عام من حج مع أنه فقير لا مال له، إلا أنه لعلمه وصلاحه يقصده الناس كثيراً من أهل بلده للاستيجار على الحج، وكان، رضي الله عنه، يتأول في ذلك نص إمامه الشافعي، رضي الله عنه، فقد روي عنه أنه قال: ما أكل المرء ما يأخذه في أجرة الحج. قال لي رضي الله عنه: فأنا أغتنم بركة شهود المشاعر العظام وأكل الحلال، ولا غضاضة عليه في ذلك، فإن الإجارة على الحج عند الشافعية جائزة بلا كراهة، بل من رغب فيها، بل واجب على العاجز الذي له مال، وعلى الميت الصرورة[2] المستطيع.

وشيخنا هذا، رضي الله عنه، مبتلي بفقد الأولاد والثكل بهم، فكان كثيراً ما يسأل مني ومن جماعة من أصحابنا الدعاء أن يرزقه الله ولدا يخلفه من بعده وينتفع بصالح عمله، حتى كتب إلي من مكة بذلك يؤكد في الوصية، وكنت أرجو أن يحج في العام المقبل فأغتنم بركة الاجتماع به، فلم يحج في تلك السنة ولا في التي بعدها كما كتب لي بذلك خليلنا حسن العجيمي[3] مخبراً أنه منعه مرض أستاذه الشيخ إسحاق جمعان، وهذا آخر العهد بخبره.

لطيفة:

تذاكرنا يوماً بحضرة شيخنا أبي الحسن دفن الموتى بالبقيع على مرور الأزمان في محل واحد، مع أنه لا يجوز الدفن في قبر ما دام صاحبه به، فقال لي: إن هذه

(1) اقتفاء الأثر، ص: 138.
(2) الصرورة رجل صرورة: لم يحج قط: لسان العرب: صرر.
(3) أبو علي حسن بن علي العجيمي المكي الحنفي، فقيه متصوف، أخذ عن مشايخ الحرمين، توفي بالطائف عام 1113 هـ: التقاط الدرر، ص: 284. فهرس الفهارس 2:810.

الأرض لملوحتها ونداوتها تفني الأجساد بسرعة، فقلما يجاوز فيها الإنسان سبع سنين إلا وتبلى عظامه فلا يبقى لها أثر، قال: وهي كأرض بلادنا مدينة زبيد[1] بأرض اليمن، قال: إني قد دفنت عدة من أولادي بيدي في قبر واحد في أمد غير متطاول، فكنت إذا مات لي ولد ذهبت به إلى قبر أخيه الذي قبله فأحفر فلا أجد له أثراً فأضعه وأواريه في محله، ثم كذلك الآخر. وكان سبب جريان ذكر ذلك أني زرت معه ذات جمعة البقيع فلما زرنا قبر شيخنا صفي الدين القشاشي في الدكة التي وضعها بأقصى البقيع معدة لدفنه ولدفن أصحابه قلت له: كيف وضع الشيخ، رضي الله عنه، هذه الدكة مع أن هذا بالقطع كله مقابر. فذكر لي ما تقدم، ولا شك أن القبر بعد ذهاب عظام المقبور فيه منه لا يمنع الدفن. قال صاحب المختصر: "والقبر حبس لا يمشى عليه، ولا ينبش ما دام به"[2]. ولا يعكر على ذكرنا من أكل أرض المدينة للأجساد بسرعة ما ورد من نقل بعض شهداء أُحُد بعد أزمان وأعصار متطاولة، ووجد أنهم على حالهم ومن بُدو قدم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، زمن عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، لأن ذلك كرامة وقعت على خلاف العادة وتصديق لحديث: لا تأكل الأرض أجساد الأنبياء ولا الشهداء[3]، ومن ذكر معهم، ولا شهيد على وجه الأرض أفضل من عمر، رضي الله عنه، ومن شهداء أحد رضي الله عنهم آمين.

ومنهم شيخنا العلامة الدراك الفهامة محقق العلوم على اختلاف أنواعها ومقيد شواردها في بطئها وإسراعها، ومداوي أدواء القلوب مع تباين طباعها، ومؤهل إضلال المعارف بعد إقواء رباعها، نادرة الأعصار، وعديم الشكل في سائر الأمصار، حامل لواء الشريعة والحقيقة، وغائص بحار الأنظار الدقيقة، بدهن ذهنه يستصبح في حوالك ليالي المعقولات، وبمنار نور علمه يهتدى في هواجر نهار النقولات، قد نهج لأهل الإرادة طرقا كانت قبله رمسة، فاقتدى من أغرم نفسه

---

(1) زبيد: بلد باليمن معروف: معجم ما استعجم 2:694.
(2) مختصر خليل، ص: 57.
(3) نص الحديث الشريف كما ورد في المعجم الأوسط (5:97): حدثنا عبد الرحمن بن زياد أبو مسعود الكنانى الأبلي قال حدثنا عبدة بن عبد الله الخزاعى الصفار قال حدثنا حسين بن علي الجعفى عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن افضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم علي معروضة. قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: يقولون قد بليت. قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

في يومه ما استهلكت أمسه، فأظهر نوعا من المعارف لا يدرك أهل زمانه جنسه، فصار ملة وحده، وطريقة ملته مترهة عن كل خسة، فهو إمام الأئمة وحبر الملة، (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)[1]، فقيه الصوفية وصوفي الفقهاء، وعالم الصلحاء وصالح العلماء، وارث علوم الختم، الصفي ووارد مورد الأنس الصفي، سيدنا وشيخنا وقدوتنا وإمامنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني زاده الله من نوره القدسي على نوره النفسي، ومن علمه الوهبي على علمه الكسبي، أناله الله من كل مكرمة أعلاها، وأذاقه من كل شربة قدسية أحلاها، نشأ، رضي الله عنه، على ما أخبرني، في بلاده من شهران من جبال الكرد في عفة وصيانة وديانة، وأخذ في طلب العلم في بلده على مشايخ قطره، فقرأ العربية ومهر في المحتاج إليه منها، وأول ما يقرؤون في العربية عندهم العوامل[2] للجرجاني، ثم كافية ابن الحاجب[3]، وهي العمدة عندهم، وقد ألف شيخنا هذا تأليفا حسنا في العربية على نمط العوامل المذكورة، استدرك عليه عوامل كثيرة تركها، وقرأ أيضا فنون المعقولات من كلام ومنطق وفلسفة بأنواعها من هندسة وهيئة وغيرهما، وقد أخبرني حين قراءتي كتاب الهداية الأثيرية[4] في الحكمة عليه أنه كان في أول قراءته لها عرضت مسألة هندسية فلم يتجاوزها حتى قرأ علم الهندسة وأتقنه، ثم عرضت مسألة من الهيئة فاشتغل بعلم الهيئة حتى عرفه، ولم يزل كذلك لا تعرض مسألة تتعلق بعلم من العلوم إلا وقرأ ذلك العلم حتى يحيط علماً بمقاصد الكتب، ولم يختمه حتى حَقَّقه وحقق معه عدة علوم، وكذلك كان شأنه في كل العلوم لا يرضى لنفسه الاقتصار منها على أدنى، وقرأ المعاني والبيان وأصول الفقه وفقه الشافعية، كل ذلك في بلاده، وقرأ لتفسير أيضا في بلاده على علماء قطره، وأكثر استفاداته على شيخه الملا محمد شريف، وسيأتي ذكره.

ولم يترك علماً من العلوم إلا أخذ منه نصيباً في بلاده إلا علمي الحديث والتصوف، أما علم الحديث فقال لي رضي الله عنه: ما كنت أظن أنه بقي على

(1) البقرة: 130.
(2) العوامل في النحو لأبي على حسن بن أحمد الفارسي المتوفى سنة 377 هـ: كشف الظنون 2:1179.
(3) الكافية في النحو للشيخ جمال الدين أبى عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب، المالكي النحوي المتوفى سنة 646 هـ: كشف الظنون 2:1369.
(4) الهداية إلى علوم الدراية: منظومة للشيخ الإمام محمد بن محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة 833 هـ: كشف الظنون 2:2028.

وجه الأرض أحد يقول حدثنا وأخبرنا حتى وصلت إلى بلاد العرب بالشام ومصر والحجاز. وأما التصوف فكذلك أيضاً ما كنت أظن أن ليس أحد يتداوله بالقراءة والتصنيف والمنازلة بالفعل إلا ما في بطون الدفاتر أو ما عند المنقطعين في رؤوس الجبال. ولقد أخبرني صاحبنا السيد محمد بن رسول[1]، وكان بلديه وعليه جل انتفاعه لأنه أصغر منه سناً أن شيخنا الملا محمد شريف كان يقول: بلغ من قوة حافظة الملا إبراهيم أنه لو لمح مسألة في أي ما[2] كتب وغاب عنه سبع سنين ثم سئل عنها لقال: هي في كتاب كذا في صفحة كذا في سطر كذا، وهذا لعمري إدراك ألمعي وذكاء إياسي، وكفى بشهادة هذا الشيخ له فإنه أدرى به من كل أحد لأنَّ الشيخ والد معنوي، والوالد أدرى بأخلاق ولده. ولما استكمل أنواع الكمالات الإنسانية التي أمكنه اكتسابها في بلده خرج من بلاده، بعد ما مات والده وتزوج وولد له، قاصدا لأداء فريضة الحج وسنة الزيارة، ثم يعود إلى بلده، وكانت طريقهم على بغداد؛ فإن بلادهم في ناحية الشمال من بغداد. ولما وصل إلى بغداد أقام فيها أياما ثم خرج مع قافلة قاصداً مكة، وكان معه أخوه عبد الرحمن، وهو أصغر منه، وبعد انفصالهم عن بغداد بأيام مرض أخوه مرضاً منعه من المشي وعزم على الرجوع إلى بغداد. قال: فلما رأيت عجزه وعزمه على الرجوع لم تطب نفسي بتركه وفراقه، مع ضعفه ومرضه، فرجعت معه إلى بغداد ولم يمكنهما الحج في تلك السنة، فبقي في بغداد وطالت إقامته به، أظن نحو العامين فيما أخبرني. وطلب منه أهل بغداد التدريس، قال: وكنت لا أحسن اللسان العربي إلا ما أقرأ في الكتب، فشق ذلك علي فعانيتُه أياماً، فسهل الله ذلك علي حتى لا أبالي أقرأت بالفارسية أم بالعربية. قال: وكان هنالك طلبة من الأتراك فطلبوا مني أن أقرئهم بالتركية في كتبهم التي هي بلغتهم، وكنت لا أحسن شيئا منها، فتعلمتها في مدة قليلة فصرت أقرأ بالعربية والفارسية والتركية، وما كان شيء أحب إلي من اللغة العربية حتى أني كنت أطلب الله تعالى كثيراً وأقول: أمنيتي من الدنيا أن يرزقني الله ولداً ذكراً أعلمه التكلم بالعربية، وذلك لغلبة العجمة في بلادهم. ولم يزل في بغداد على أحسن حال إلى أن مَنَّ الله عليه بمحبة كتب القوم والمطالعة فيها في مجاورة الشيخ قطب الزمان مولاي عبد القادر الجيلي. قال: فبينما

---

(1) السيد محمد بن السيد رسول الحسني الشهروزري البرزنجي، تفقه على يد الشيخ إبراهيم الكوراني: تحفة الأخلاء، ص: 123.
(2) زيادة من ط.

أنا ذات ليلة وقد فَكَّرتُ في أمري وخلوي مما عليه أهل الحق، فـــصغرت لـــدي نفسي وعلمت أن ذاك لا ينال إلا على يد شيخ، فسألت الله تعالى عند قبر الشيخ أن يلهمني ما فيه صلاح نفسي وأن يوجهني إلى حيث يعلم لي الخير ويجمعني بشيخ أسلك طريق الحق على يديه، قال: بينما أنا قائم في أثناء ذلك رأيت الشيخ عبـــد القادر، رضي الله عنه، في النوم وهو يشير إلى ناحية المغرب، فاستيقظت وعرفت أني أقصد جهة المغرب ولا أنتهي حتى ألقى من يدلني على الله، أو أجول أقـــصى العمران من ناحية المغرب، فتجهزت للرحيل من بغداد وقصدت الشام لأنهـــا في مغرب بغداد، فلما وصل إلى الشام أقام بها على الحال التي كان عليها في بغداد من التدريس ولقاء الناس بدمشق. قال: وكنت مغرما بكلام الشيخ محي الدين وزيارته ومطالعة رسائله، وحصلت لي مبادئ الفتح في فهم بعض كلام القوم.

قلت: وذلك الشأن ببركة الشيخ محي الدين فقد قال السيد عبد الوهـــاب الشعراني فيما رأيته في بعض تأليفه نقلاً عن غيره من المشايخ مقـــرراً لمـــا نقـــل ومصدقاً له أن من خاصية كلام الشيخ محي الدين أن المثابر على مطالعته يـــرزق الفهم في كلام القوم وحل مشكلاته، ومصداق ذلك في شيخنا هذا فإنه من أشد الناس كلفا بمطالعة كتبه الكبيرة والصغيرة، وقد أعطي من الفهم في كلام القـــوم وحل مشكلاته والإحاطة باصطلاحات الصوفية وفهم إشاراتهم، وكشف أسرارهم وتمييز أذواقهم ما لم يعطه أحد ممن رأيت[1] في مشارق الأرض ومغاربهـــا. ومـــن بركة مطالعة كلام الشيخ محي الدين اتصل بغوث الزمان ورئيس أهل العرفـــان، شيخنا الختم صفي الدين القشاشي إذ كان كلام الشيخ محي الدين هو السبب في ذلك، وذلك على ما أخبرني أنه وقع كلام بينه وبين بعض أصحابه أيام إقامتـــه بدمشق في حل إشكال وقع في بعض كلام الشيخ في الفتوحات[2]، فدار الكـــلام بينهما في ذلك، وبعد ذلك قال له صاحبه: إني رأيت في هذه المسألة كلاما لبعض علماء العصر من أهل المدينة المشرفة، يعني شيخنا القشاشي، وكان كتب في تلك المسألة شيئا فأتاه بكلامه، فلما رآه وطالعه استحسنه. قال لي: فقلت له: يبعد أن يكون في هذا الوقت من يتكلم بهذا الكلام لعله منتحل من كلام بعض من تقدم. فلما قلت له ذلك أتاني برسالة الشيخ المسماة بـــ: ضوء الهالـــة في ذكـــر هـــو

---

(1) في ط: رأينا.
(2) الفتوحات المكية للشيخ محي الدين ابن عربي الحاتمي الأندلسي.

والجلالة. فلما طالعتها ورأيت فيها ما بهر عقلي مما منح الشيخ من العلوم اللدنية والمواهب القدسية والكشوفات الغيبية، فرجعت على نفسي باللوم فقلت لها: لم يبق بعد هذا إن لم تصدقي بمقام الرجل إلا محض الخذلان الناشئ عن إساءة الظن بعلماء المسلمين ونسبة الكذب إلى ذي شيبة في الإسلام ملحوظ عند أهله بعين الإجلال والإكرام، فوقعت في قلبي محبته واعتقدت تعظيمه وإجلاله.

قلت: وقد رأيت هذه الرسالة وهي في كراسة مضمنها أن الشيخ، رضي الله عنه، طاب وقته ليلة من الليالي لورود بعض العارفين لزيارته فأخذ يذكر بذكر هو الله على كيفية بينها في الرسالة، وذلك فيما بين المغرب والعشاء، فاستغرق في الذكر إلى أن حصلت له غيبة مقدار ربع ساعة أو نحو ذلك، فكشف له في تلك الغيبة من أسرار الملك والملكوت ومعاني الأسماء والصفات، ومنح من العلوم الوهبية ما بَهَر العقول سماعه، فذكر، رضي الله عنه، في تلك الرسالة أنواع العلوم التي وهبها في تلك الغيبة والكشوفات التي حصلت والإسراءات الروحانية التي منحها في تلك المدة القليلة، وذلك شيء يستغرب وقوعه في هذه الأعصار من لم يؤيده الله بمدد التصديق بأهل ولايته، قال شيخنا الملا إبراهيم: وبعد رؤية هذه الرسالة لم يبق عندي شك في أن صاحبها هو الفرد في وقته وأنه طلبتي التي كنت أطلبها وإليه إشارة الشيخ عبد القادر؛ إذ نحو إشارته وجدت أخباره واتضح أمره، ولا يلزم من صدق رؤياي أن تكون إشارته إلى محل وجوده، بل ولو إلى محل وجود خبره. ثم أخذت في مكاتبة الشيخ، رضي الله عنه، من دمشق إلى المدينة فتأتيني كتبه بما يزيد وثوقا ويقينا بأنه البُغية.

وأقمت بدمشق قريبا من أربع سنين على هذا الحال إلى أن أتاني كتابه يأمرني بالقدوم إليه، فتجهزت للرحيل من دمشق وخرجت منها قاصدا مصر فمررت بالقدس والخليل وزرته[1]، فذهبت إلى مصر و لم أتفرغ للقاء المشايخ بمصر لشغل القلب أنا به متهم من القدوم على الشيخ و لم ألق من مشايخ مصر المشهورين إلا الشيخ شهاب الدين الخفاجي وإلا الشيخ سلطان، أما الشيخ شهاب الدين فسبب اجتماعي به أني كنت إذ ذاك آخذا في تأليف كتاب: إنباه الأنباه على إعراب لا إله إلا الله، فأشكلت علي مسألة، ووجدت النقل فيها عن كتاب سيبويه، وتوَهَّمت أن فيه تحريفاً، فأردت تصحيح النقل من نَفْس الكتاب فسألته

(1) في ط: وزرت.

عنه بمصر فقيل لي: لا يُوجد إلا عند الشيخ شهاب الدين، فذهبت إليه ورَحَّب بي وأخرج لي الكتاب، ووجدت النقل منه على نحو ما توهمت، فصححت النقل منه وفرحت بذلك غاية، وكانت تلك طلبتي ولم تكن همتي الرواية، وكنت أقول في نفسي: إني متوجه في طلب هذا الأمر الذي أنا بصدده وأنا عازم على ركـوب البحر إلى مكة، فربما غرقت فيه فلا يبقى مني من يقول حدثنا ولا أخبرنا، فأكون قد ضيعت وقتي بشيء لا أدري هل يحصل المقصود منه وشبت إرادتي بما ليس من شكلها، فأعرضت عن طلب الرواية وما هو من شكلها من ملاقاة علماء الرسوم، ولم أتفرغ إلا للزيارة وقضاء ما لابد من الأوطار.

وأما الشيخ سلطان فإن بعض أصحابي الذين كنت آلفهم ويألفوني كان من أصحابه ولم يزل يقول لي: يقبح عقلك أن يدخل القاهرة ولم يلق أحـدا مـن علمائها ولم يأخذ عن أحد من مشايخها، ولهم علو سند وقدمٍ راسخ في الروايـة والدراية، ولم يزل هذا شأن العلماء وأهل الفضل إذا قدموا بلداً أخذوا عَمَّن بهـا من كبار المشايخ، وكنت أتعلل له بما تقدم فيقول: هذا مقصد محمود من المقاصد الدينية لا ينافي ما أنت بصدده إذا أخلصت فيه النيَّة، فلم يزل بي حتى ذهبت معه إلى الشيخ سلطان، فسمعت عليه بعض أحاديث الصحيحين وبعض المنهاج[1] في فقه الشافعية، وأجازني وكتب لي بخطه الإذن في الفتوى والتدريس والرواية عنه.

قلت: وقد رأيت الإجازة التي كتب له الشيخ بخطه عنده، وكأني مع شيخنا الملا إبراهيم في لقاء المشايخ بمصر على طرفي نقيض، وذلك أني دخلت القاهرة قبله وبعده، فأخذت عن غالب من أدركت بها ممن هو أهل لذلك إلا الشيخ سلطان، فدخلها هو مرة واحدة فلم يأخذ عن أحد بها إلا عنه، وما منعني أنا من الأخـذ عنه، رضي الله عنه، إلا الحدة التي جبل عليها والشكاسة التي في أخلاقه والشراسة التي قل أن توجد بدين فضلا عن صديق، ولكن الله بلطف صنعه وخفي حكمته قادر على أن يجمع له بين تلك الأخلاق والمباركة التي هي أمر من الصبر وأحد من رؤوس الإبر، وبين الصدق مع الله في موارده ومصادره، كما يدل على ذلك جده واجتهاده في عباداته وتقشفه في هيبته وتعففه في مكسبه، وإعراضه عن الرياسـة الدنيوية، وما كان السبب لأخذ شيخنا الملا إبراهيم عنه إلا تسخير الله وسـبقية

(1) منهاج الدين: كتاب في شعب الإيمان، وهو الشيخ الإمام أبو عبد الله حسين بن الحسن الحليمي الجرجاني الشافعي المتوفى سنة 403 هـ: كشف الظنون 2: 1871.

الكتاب بذلك، ولعل المتوسط له في ذلك كان شديد المداخلة معه، فتحين في ذلك وقت انبساطه وما أنذره حتى أمكنه ذلك، وسيأتي إن شاء الله في ذكر رجوعي إلى القاهرة بعد المجيء من القدس ما وقع بيني وبين الشيخ سلطان عندما رمت الأخذ عنه والله يغفر لي وله وينفعنا ببركاته آمين.

وممن لقيته الشيخ إبراهيم، من مشايخ الطريق بمصر، من دون أخذ عنه، [و][1] الشيخ محمد الخلوتي[2] القاطن بجامع المارديني من مصر، وكنت قد اجتمعت به في إحدى خطراتي بمصر، وزرته مرتين أو ثلاثا في محله من الجامع المذكور وقال لي: إن طريقتنا نحن محمدية لا تنسب لأحد، وكان، رضي الله عنه، من الموسومين بالصلاح في تلك الديار. وطريق الخلوتية مشهورة عند أهل مصر وغيرهم، فلما اجتمعت بالملا إبراهيم وذكرت له ما سمعته منه قال لي: وأنا قد سمعت ذلك منه وأثنى عليه ثناء حسنا، وذكر لي أنه كان جالسا عنده فجرى في خلده يا ترى، وهل بقي أحد اليوم في هذه الديار ممن له التصرف في المقامات والأحوال وما يشبه هذا، قال: فلما جرى ذلك في قلبي قال لي بسرعة: قد بقي في هذه الديار من له التصرف والنفع والدفع، أو كلاما قريبا من هذا. قال: فقلت في نفسي: إن كانوا موجودين فأين هم؟ فإنا لم نَرَ منهم أحداً. فذكر كلاماً يدل على أنه منهم صريحاً، فشممت من نفسي رائحة الإنكار لذلك، فرجعت عليها باللوم والتوبيخ وقلت لها: ما أبعدك من الظفر بالخير، أي شيء يفيد فيك وأي حيلة تعمل معك؟ قلتِ هل بقي منهم أحد؟ فقال لك: بقي. وقلت: أين هو؟ فبينه لك، فأنفت. ولو بيّن غيره لما قبلت أيضاً هذا، والله الجحود البين، فتبت إلى الله من الإنكار عليه واعتقدته.

قلت: وهكذا ينبغي لمن ألهم رشده وسعى في إصلاح قلبه أن يكون خصيم نفسه وحجيجها حسن الظن بعباد الله ما لم يظهر منهم ما دل القاطع على منافاته لصلاح الطوية والحافظ بالمكابرة جحود وردي تقليد، وفيما سوى ذلك فسوء الظن من فساد الطوية وفساد الداخلة. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه.

---

(1) زيادة اقتضاها السياق.

(2) محمد بن أيوب بن أحمد الخلوتي الحنفي الدمشقي، لزم الشيخ أحمد العسالي مع والده في طريق الخلوتية، من فضلاء أهل النوق، توفي سنة 1072 هـ: خلاصة الأثر 3:399.

و لم تطل إقامة الملا إبراهيم بمصر على ما أخبرني، بل جد السير وأسرع النقلة قاصدا الحجاز وحادي الشوق يحدو به، وسائق العناية يسوقه، ورائق التوفيق يهديه، وهمة الشيخ جاذبة لأفكاره ومحبته آخذة بمجامع قلبه، فركب البحر من السويس حتى أناخ بجدة، وكان ذلك في أشهر الحج فبقي بمكة حتى حج وأدى الفريضة، فذهب إلى المدينة وزار الرسول الأعظم والنبي الأكرم وأفضل شافع وأقرب مشفع، صلى الله عليه وسلم، ولقي الشيخ الذي كان طلبته منذ أزمان فواجهته عنايته وجذبته إلى حضرة التقريب همته، فاجتمعت على قلبه نورانية حضرة الاصطفا، وسريان مدد أهل الصفا، فلم تلبث أمراضه أن عالجها الشفا، فأقام بحضرة الشيخ يغذيه بألبان تربيته ويربي طفل إرادته بلطائف أغذيته، ويحضره في أنديته، وينمي ضعيف سلوكه بأحسن تنميته، فقطعه عن أعظم ما لوفاته وألذها عنده، وهو التدريس في العلوم الظاهرة التي هي هِجيراه[1]، ومنعه من حضور مجالسها عند سواه، ثم أدخله الخلوة، وكان ذلك كما أخبرني في رباط السلطان الذي بباب الرحمة، أحد أبواب الحرم الشريف، وأمره بإنهاء كل ما يتجدد له من المعارف والعلوم إليه، فكان الشيخ، رضي الله عنه، يعظم سروره بما ينهيه إليه من ذلك ويعجبه حسن إدراكه وسرعة نفوذه في طرق المعارف وترقيه في مدارج السلوك، فينبهه على ما عسى أن يقع له من الوهم والحيرة، وينقذه من أوحال الشكوك بنافذ همته، فسار في مهامه السلوك سير جاد يهديه ماهر خريت[2]، عارف بأغوار الطريق وأنجادها، عالم بشعابها وأوهادها، فلا تسأل عن قرب وصول من هذه صفته إلى مقصوده، ولا تستبعد ما ينال عند وصوله من كرامة معبوده، وما شق عليه من عقبات الطريق التي سلكها، ولا طال عليه منها إلا عقبة محو الصور المنتقشة في لوح قلبه من مكتب تعليم العلوم الظاهرة وتقرير أدلتها التي هي من بضاعة العقل والحس مكتسبة وعلى نهجها سائرة، والعلوم الوهبية والمعارف الإلهية التي هي من وراء طور العقل لا ترسم في القلب ما لم يصف من كدر الجمود على النقل.

ولقد أخبرني، رضي الله عنه، أنه لما أدخله الشيخ الخلوة أدخل رجلا آخر من أصحابه، وكان ذلك في يوم واحد، فبعد الأربعين يوما أذن لصاحبه في

---

(1) هجيراه: دأبه وديدنه: لسان العرب: هجر.
(2) الخريت: الدليل الحاذق: لسان العرب: خرت.

الخروج و لم يأذن لي إلا بعد السبعين، وكنت أوبخ نفسي وأقول: ما أبعدك عن الخير، دخلت مع صاحبك في يوم واحد، وها هو لحسن استعداده وقوة جده واجتهاده قد أذن له في الخروج، وأنت إلى الآن لم تزالي مع كدوارتك ومعايبك. قال: فلما أذن لي في الخروج وجئت إلى الشيخ قال لي: يا ولدي ليس اللوح الذي لم يكتب فيه أصلا، وإنما توسخ من طول المكث مثل الذي كتب فيه طويلا وانتقشت فيه صور الحروف فإن الأول يقرب جلاؤه من دون كبير مؤنة والثاني لا ينجلي إلا بعد مؤنة كبيرة، فعلمت السر في تأخيري عن صاحبي، وكان هو قليل الأخذ في العلوم الظاهرة، و لم تزل حال الملا إبراهيم تترقى عند الشيخ إلى أن أذن له في الإفتاء والتدريس، وزوجه ابنته، وكان في آخر حياة الشيخ قبل موته بأعوام هو الذي يتولى كتب الجواب عن الرسائل التي تأتي للشيخ من الآفاق ثم يطلع عليها الشيخ، فتارة يزيد فيها شيئاً أو ينقص منها شيئاً، وتارة يتركها على حالها. ولقد رأيت كثيرا من الرسائل التي هي من تصنيف الملا لإبراهيم مكتوبا في هوامشها بخط الشيخ، وكان الشيخ، رضي الله عنه، ترد عليه أسئلة كثيرة من سائر الآفاق شاما وعراقا ويمنا، بل ومن الهند، وكان يجيب عن كل ذلك في العلمين الظاهر والباطن، وأعطاه الله من القوة على ذلك ما يدل على أنه مأذون له في الإرشاد وممد من الله بالتوفيق والإسعاد. وغالب رسائل الشيخ، وهي كثيرة نحو السبعين، إنما كانت أجوبة عن أسئلة، ولذلك انتشرت في البلاد، فيوجد كثير منها بالشام واليمن ما لا يعرفه أهل الحجاز، وقد اعتنى تلميذه وخليفته الملا إبراهيم بجمعها واستكتابها من الآفاق، فاجتمع عنده أكثرها. ولما قربت وفاة الشيخ، رضي الله عنه، قدمه على جميع أصحابه وأولاده، واستخلفه وأوصى إليه، فصار هو الخليفة من بعده ظاهرا وباطنا، قائما بوظائف التدريس ومجالس الذكر والتلقين والإلباس والصحبة والإرشاد إذ لم يترك الشيخ رحمه الله شيئا مما يتوقف عليه أمر الإرشاد إلا وأتحفه به من تلقين وإلباس وصحبة وغير ذلك، وسيأتي ذكر الوصية التي كتب له الشيخ، رضي الله عنه، قبل موته في آخر الترجمة.

ذكر اجتماعنا به، وما قرأناه عليه واستفدناه منه، وما كتبناه له وشيء من كلامه رضي الله تعالى عنه (وأرضاه)[1]

تقدم في ترجمة شيخنا أبي الحسن الديبع أنه هو وشيخنا الثعالبي كانا السبب في معرفتي به لثنائهما عليه وتحريضهما لي على لقائه والاتصال به، فلما قدمت للمدينة وكانت أيام الموسم وكثرة الأشغال وعلمت أنه لا يتفرغ لي، وكنت أؤخر لقاءه يوما فيوما لكون مترله خارج المدينة، فلم يقدر لي لقاؤه حتى قدم شيخنا أبو الحسن الديبع، وكان بينهما ود وإخاء من قبل الشيخ، فذهبت معه إليه ودخلنا إليه في مكانه الذي كان يجلس فيه خارج زاوية الشيخ، فوجدناه في علية له فيها كتبه التي يطالع فيها، فرحب بنا كثيراً، وأعلمه الشيخ أبو الحسن بشأني وأني ممن صحب الشيخ وأنتسب إليه، فرعى لي ذلك حق رعايته، وهش وبش، وأنس ورحب، ودعا بخير، وكنت كتبت قصيدة في مدحه قبل الاجتماع به فناولها إياه شيخنا أبو الحسن وهي هذه[2]:

[طويل]

أشافِيَ قلبي بعدما كنتَ جارحهْ ... يُحبكَ مني كل عُضو وجارحهْ

عليكَ ثنائي ما حييتُ فانثني ... بسانحَةٍ من كل خير وسارحهْ

وبينَ يديْ نجوايَ قدمتُ مِدحَتي ... لتُكرمَني والمرءُ يكرمُ مادِحَهْ

ولمْ أبْغِ إكرامًا بدُنيا أنالهَا ... ورِفعة قدرٍ في الديانَةِ قادحَهْ

ولكنْ لإصلاحِ بنفسٍ خبيثة ... عن الخيرِ ما زالتْ مدَى الدهرِ جامحهْ

فما زلتُ من أقصَى البلادِ أسُوقها ... إلى المُصطفى خيرِ الورى وهْيَ فارحهْ

ومنْ بعدهِ للشيخ كيما يدلها ... فتسكنْ فهي بالرياسَةِ طافحهْ

فلما وجدتُ الشيخَ لله رائِحا ... بروْحِ وريحانٍ وأعبقِ رائِحهْ

(1) زيادة من ط.
(2) وردت القصيدة في الثغر الباسم، ص: 12.

سألتُ ذوي العرفانِ عن بابِ فضلِهِ ومن صارَ بعد الشيخِ للناسِ فاتِحهْ
فقالوا أبُو إسحاق خاتِمة النهى وفاتِحَةُ الإحسانِ أكرِمْ بفاتِحهْ
فيممتُ هذا البابَ أرجو افتتاحه فها أنذا أدعُو وأقرأ فاتِحهْ
أناديكَ يا مولايَ بالسر قائلا مقالةَ صَبٍ قد سكنتْ جوانحهْ
أمولايَ إبراهيم يا منْ بفضلِهِ طيورُ العُلا في دوحةِ المجدِ صَادحهْ
ببابكَ عبدٌ طالِبٌ لزيارَة لكيما ينالَ دعوةً منك ناجحهْ
أحبكَ لا عن رؤيةٍ سبقتْ له ولكن لأخبارٍ أتتْ عنكَ صَالحهْ
يمُت بذا الشيخِ الذي بركاتهُ وأسرارهُ بينَ المُريدينَ لائِحهْ
وكانت لهُ من قبلِ ذا نسبةٌ له على نسبةِ الأشياخِ بالسرِ راجحهْ
وأنتَ لهُ نعم الخليفةِ وارث لمرتبةٍ عن أعيُنِ الخلقِ نازحهْ
فأكرِمْ بذا إرثا وأنعِمْ بوارث له فطنةٌ في أبحُرِ العلمِ سَابحهْ
إلى اللهِ يدعو القاصدينَ بهمة لكل مريدٍ لم تزلْ وهْيَ ناصِحهْ
ولْمْ لا وشيخُ العصرِ في السر خصهُ بغاديةٍ من كل علمٍ ورائحهْ
وهذبَهُ حتى تخلصَ واغتدى ورتبتهُ في الدينِ والعلمِ واضِحه
عليهِ من اللهِ الرضا وعليكَ ما أحبتكَ نفسٌ للمكارمِ جانِحهْ
وما دامَ قصدُ اللهِ من بابِ أهلهِ يزيلُ كُروبا لم تزلْ قبلُ فادحهْ
أصلي على خيرِ الورَى بعد حمْدِ منْ أتاهُ خزائِنُ الهُدى ومفاتِحهْ

هـ. والحمد لله.

ولما فرغ من قراءة القصيدة استحسنها ودعا لي بخير، وبالغ في التحفي، وقَدَّم لنا كسراً من الكعك مع ملح وسعتر، فلم أر ألذ من تلك الأكسار، وأتى بالقهوة على ما هو المعتاد منهم، وكنت غير راغب فيها، ولكن تناولت منها

مساعدة، وعندما أنس بي، رضي الله عنه، وتفاوضنا الكلام وعلم أن لي ماسة بطلب الحديث، وكانت رغبته فيه من أعظم الرغبات بعدما كان فيه أولا من الزاهدين كما قدمنا، سألني هل حصلت لك رواية الحديث المسلسل بالأولية بشرطه؟ فقلت له: نعم[1]. فقال: إني كنت راغباً في تحصيله بشرطه و لم يتفق ذلك لي إلى الآن، وهذا أول مجلس لقيتك فيه فأحب سماعه منك قبل سماع شيء من الحديث. فحدثته به فرأى ذلك غنيمة حصلت له، والحديث المسلسل بالأولية هو ما أخرجه البخاري في الكنى والأدب المفرد، وأخرجه غيره أيضاً عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاصي، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[2]. وهذا الحديث رواه سفيان بن عيينة، رضي الله عنه، عن عمرو بن دينار قال سفيان: وهو أول حديث سمعته من عمرو، ثم لم يزل الأئمة من لدن سفيان يرويه بعضهم عن بعض بصفة الأولية إلى أن وصل إلينا بصفته، فقد رويته عن عدة من مشايخي بشرطه، منهم شيخنا زين العابدين الطبري، حدثني به أول ما حدثني، ومنهم الشيخ إبراهيم الميموني حدثني أيضاً قال: وهو أول حديث سمعته من سيد الدنيا الشيخ محمد الرملي[3]، وأسانيد الحديث مذكورة في غيرها من إجازات مشايخنا، رضي الله عنهم، فلما سمع مني شيخنا الملا إبراهيم هذا الحديث الشريف واتصلت روايته له بشرطه طلب مني أن أجيزه به وبجميع مروياتي لما رأى لي من اتساع باع في الرواية، وسمع مني بعض الشفا وثلاثيات البخاري، فتعللت الله له واستعذرت، فلم يُجْد ذلك، فاستعنت بالله وكتبت له بطاقة تضمنت مرغوبه بعد أن ناولته برنامج رواياتي فقلت له: اقتطف منه ما أردت من الأسانيد وأسماء المشايخ والمسموعات في أي ما فن، لأن استيفاء جميعها يطول علي وأنت في غنى عن بعضها لوجوده عندك، ففعل، رضي الله عنه، وانتخب منه ما أحتاج إليه، فكفاني مؤنة سرد الأسانيد، وكذلك كنت أفعل مع جميع من استجازني في البلاد المشرقية إلا القليل منهم، فمن علمت أنه لا رغبة له في اتساع الرواية وأنه يكتفي بسند أو سندين ما كتبت له ما تيسر، ونص البطاقة

---

(1) أنظر: اقتفاء الأثر، ص: 165.

(2) كتاب الكنى 1: 64.

(3) محمد بن أحمد بن حمزة، شمس الدين بن الشعاب الرملي المنوفي المصري، فقيه متصوف، ولد 919 هـ وتوفي سنة 1004 هـ: خلاصة الأثر 3: 342.

التي كتبت له مجيزاً وصيرها لموعوده المقترح تنجيزاً، وجادت بها القريحة عندما سميتها تعجيزا: حمداً لمن قطع باسمه الأول سلسلة الأولية وأبقى باسمه الآخر تسلسل الحوادث الأبدية على وفق الأقدار الأزلية، وشكراً لأولي مستحق للحمد والشكر من كل ذي أولوية، وأجل محمود ومشكور في العوالم السفلية والعلوية، وأوثق مستند يحسن إليه الاستناد وأصح سند ترفع إليه سلاسل الإسناد الذي لم يستند إلى شيء إلا لانفراده بالقيومية والربوبية، وإليه يستند كل شيء بحكم المربوبية والعبودية، مجير من صح استناده إليه بالمعارف الوهبية، ومجازي من أصغى إلى حديث نفسه بتركه مع علومه الكسبية، راحم الرحماء من عباده أهل الخصوصية بجعلهم مظاهر لأخلاقه الرحمانية الرحيمة، وصلاة وسلاماً شرف قدرهما وفاح نشرهما وارتفع ذكرهما وأمر أمرهما على أسمى من إلى أعلى السماء يسمى، فأمسى وبأسمى الأسماء عند الله وملائكته في السماء يسمى، ثم أصبح وهو أسنى من كل ذي سناء وسما وأسمى، أحلم من تخلق بأخلاقه الحلما، وأحكم من تطفل على حكمته الحكما، وأعلم من أسند عنه العلما: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[1]، إنما يرحم الله من عباده الرحما[2]. ورضي الله عن آله الطيبين الأطهار وعن سائر أزواجه الطيبات والأصهار، أولئك أفضل من نشرت لنشر سؤددهم سود الرايات، وسودت بكتب محاسنهم صحف السادات من أهل الروايات، وعن أصحابه المستنين بسنته في كل سنن، الحاملين عنه الفرائض والسنن، العاضين عليها بالنواجد والأسنان، الضاربين عليها بحدد النصل والسنان، الناصرين لها باللسان والبنان، القاطعين في نصرها كل مجدول من شراك وعنان، وعن التابعين لهم وتابعيهم بإحسان الذين لهم المنة بنقل هذا الدين على كل إنسان، فقد هذبوا ونقحوا وكتبوا وصححوا وسمعوا فحملوا وردوا فقبلوا ورووا ورووا، وما نووا فيما نووا، (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا)[3] ولا تنكبوا عما عليه من نصرة الدين في سائر الأقطار، وكانوا حتى انتشرت الشريعة في سائر الأمصار، وتحصنت من الزيغ بأسلحتهم في كل الأعصار، فأشرق الدين بحول الله متألقة أزهاره مترعة حياضه وأنهاره، يحمله من كل خلف عدوله وأفاضله، ويبلغه من كل سلف رؤوسه أماثله حتى وصل إلينا على حين فترة من

(1) كتاب الكنى 1:64.
(2) كشف الخفاء 1:250.
(3) آل عمران: 146.

أهله وقلة فرعه وأصله، ولولا أنّ الله تكفل بحفظه في هذه الملة وجعله في صدور طائفة من الأئمة لمحيت منذ أزمان آثاره، وتمزق من طول ما لبسه شعاره ودثاره، ولله الحمد على نعمه التي لا تحصى وأياديه التي لا تستقصى. هذا وإن ممن أهله الله لحفظ هذه الرتبة في هذه التربة، وأحيا به رسوم الشريعة والحقيقة، وأبان به العلوم الجلية والدقيقة، وجمع له بين طهارة السر والعلانية، وجعل أعماله كلها على بصيرة وعلى نية، وأتحفه بالوراثة الأحمدية في البلد المحمدية، وطهره عن الأخلاق الدنية وحلاه بالوصاف الدينية، شيخنا ومرشدنا ومنعشنا ومنقذنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني[1] ثم الشهراني، بل النوراني ثم الصمداني، نزيل طيبة المطيبة، ومزيل الغطاء عن الأسرار المغيبة، جعله الله في كل أوطاره مهديا، ولعباده في نيل أوطارهم هاديا، وسلك به مسالك الموفقين رائحا وغاديا، ولقد بلغ من اهتمامه بأمر الدين وسلوك سبيل الأئمة المهتدين مبلغا لا يرضى فيه لنفسه أن يفوته شيء من شوارد العلوم إلا ما اقتنصه بحبالة عزمه، ولا يترك شاذة ولا فادة من الكمالات إلا تناولها بسيف حزمه، فلم يدع واديا من أودية الدراية إلا هبطه، ولا محلولاً من عقود الرواية إلا ربطه، ومن المعلوم أن من معالم الرواية التي هي على أنصاف الراوي أكبر آية رواية الأعلى عن الأدنى والأكبر عن الأصغر حسا ومعنى، وكأنه أسمى الله قدره، وأنار في سماء المعالي فجره، أراد لهذه الفضيلة تحصيلا، وقصد أن يحيط بطرق الرواية جملة وتفصيلاً، فرآني للرواية أهلا وإن لم أذق بين أهلها عللاً ونهلاً، لإنصافه الذي جاوز الحد وفات العد، فلذلك استجازني وليته أجازني، وإلى من هو من أهل الرواية جازني.

ولما ألزمته نفسي من طاعته وانجماعي على أني من جماعته لم أتلكأ فيما طلب مني، ولم استعذ بقصوري الظاهر عني، بل امتثلت ما أمر به، وأتيت وانتثلت سهم الإصابة من كنانتي ورمي، فإن قرطست الغرض فببركة همته، وإن أخطأت فالجعالة ثابتة في ذمته، إذ لم يشترط على الإصابة لانتفاء التقرير بالتقرير أني لست من تلك العصابة، فأقول لله مستخيراً وبه مستجيرا:

[طويل]

أجزتُكَ لكن مثلكُم مــن يُجيــزني ... ولم يَــستفِدْ مــني ولكــن يُفيــدني

(1) إبراهيم بن حسين: الكردي الكوراني، عارف متصوف، جاور بالمدينة المنورة مدة، توفي عام 1102 هـ: صفوة من انتشر، ص: 350.

بما قد سمِعتُ من شُـيوخي قـراءة … من الشيخِ أو مني وهُم يـسمعونَني
وكل الـذي أرويـهِ مما أجـازَني … ونـاولني مـن بالروايـةِ يعـتني
وكـل الـذي حمَّلتـهُ فحمَلتـهُ … بشرطٍ لدى أهْلِ الحـديثِ مُبـيَّنِ
وما صح أني قـد رويـتُ لـديكمُ … فاخبرْ به عـني وحـدِّثْ وعـنْعِنِ
خصوصًا حـديثَ الأوليـةِ أنـني … أجزتُ به مـن قبـلِ كـل مُعـيَّنِ
وكل الذي في جمعِنـا مـن مُؤلـف … بأي فنونِ العلـمِ أو مـن مُـدَونِ
بإسنادهِ إن شئتَ فاكتـبْ جميعَهـا … وإن شئتَ بعضًا فاقتطفْ منهُ واجتنِ
وأكثرهُ سـاويْتني فيـه أنـتَ في … غنى عنهُ بل في بعضهِ أنـت مُقـتني
وهَبْ أنني قد فتّ بـالترِ مهـولا … يقاربُ قطعا مـا بـهِ أنـت فُـتّني
فكم حِكمةٍ مـنكم تلقفتُهـا وكـم … فلم تستفدْ عشارَ ما قـد أفـدتَني
وما كنتُ أهـلا أن أجيـزكَ إنمـا … دعوتَ فلبيتُ النـدا إذ دعـوتَني
ولو أنني استطعت[1] امتناعا لكنت قد … أبَيْتُ وقِدمًا كـان ذلـك دَيْـدني
وفي كلِ حـالِ أحمـدُ الله مُهـديا … صلاةَ لِمَنْ مِـن ربـهِ حبـةُ يُـدني

وكتبت له هذه البطاقة إثر ما اقتطعته من الأسانيد وأسماء المشايخ، فاغتبط بذلك، ولا يخفى ما اشتملت عليه هذه النبذة من براعة البدء وسلاسة النظم والنثر وحسن التخلص ولطيف الاعتذار وتناسب الفقر وتمكن القوافي، وما أبعد صدور مثلها من مثلي لولا أن مكان القول ذا سعة، وأوصاف المخاطب عن أن يحيط بها قولي مع ذلك شاسعة.

ولم أزل مدة إقامتي بالمدينة أواصل زيارته وأكثر الترداد إليه في محله إلا أيام مرضي فإنه، رضي الله عنه، كان يتعاهدني بالعيادة، فجزاه الله خيرا، ولقد جبلـه الله على أخلاق من مجامع الخير قل أن توجد في غيره علماً وعملاً وورعاً وزهادة

(1) في ط: اسدطعت.

وتواضعاً وصبراً وحلماً واحتمالاً وصدقا وإخلاصا وعدم مبالاة بالنفس، يلبس ما تيسر ولا يأكل ما تعسر، تاركاً لزي متفقهة الوقت ومتصوفته من تكبير العمامة وتطويل الأكمام وإرسال الطيلسان ولباس الجوخ، إنما يلبس عمامة متقاربة يرسل عذبتها بين كتفيه، ويلبس من متوسط الثياب ما يناسب وقته من حر وبرد، وفشت[1] صوف ملون بالأبيض والأسود كما هو لباس عامة أهل الحجاز، وكومية لاطية تحت العمامة، إذا وجده من لا يعرفه في محل درسه مع أصحابه لا يميز بينه وبينهم لاختلاطه بهم، ولعدم تصديره وإظهار التمييز عليهم حتى في كلامه وتقريره للأبحاث، يبدي ذلك على وجه يشبه المذاكرة والمفاوضة فيقولك لعل كذا وكذا، ويشبه أن يكون كذا، أترون أن هذا يفهم على هذا، فإذا رجع ولو أدنى مراجعة توقف حتى يتثبت بيد أن لسانه فيه بعض ثقل في التقرير بالعربية. وإذا كتب فلا تسأل عما يبدي ويعيد في تقريره، وقد قرأت عليه شرح الهداية في الحكمة[2] لوالد السيد الجرجاني قراءة بحث وتدبر وتحقيق من أوله إلى آخره، وكان مجلسه، رضي الله عنه، روضة من رياض الجنة، قلّما يقرر مسألة من مسائل الحكماء إلا وأدرج فيها ما يشاكلها من الحقائق وعقائد المتكلمين، ويبدي ما بين كلامهم وكلام العارفين والمتكلمين من التفاوت ويقول: قاربوا العثور على الحق. ولما يهتدوا إليه لفقدان نور المتابعة والاستضاءة بمشكاة النبوءة، وذلك لأن موضوع العلمين ومطلوب الفريقين متقارب، إذ كل منهما البحث فيه إنما هو على ماهية الوجود المطلق، وأوليته ومتعلقاته وأوصافه وأقسامه وتمييز القديم منه من الحادث، إلا أن الحكماء تكلموا في ذلك ببضاعة عقولهم المزجاة فلم يصلوا إلا لحدس وتخمين وأوهام مستندة إلى تجاريب وقياسات الغائب على الشاهد، وكل ذلك لا يفيد صريح العلم الذي يثلج الصدر. بيد أن الإشراقيين منهم معتمدهم على كشوفات تحصل من الرياضات الفلسفية وأذواق وإدراكات وجدانية تحصل لهم من مصاحبة مشايخهم، وهي أيضاً كثيرة الغلط عظيمة الاشتباه، لا يكاد يتميز فيها الحق من الباطل، وهي طريقة الأقدمين منهم كأفلاطون. وأول من أخرج الحكمة والقوة إلى الفعل وجعل لها قوانين تعليمية من منطق وهندسة تلميذه إرسطا، وتسمى حكمة هؤلاء حكمة المشائين لمشيهم حول أساتذتهم يتعلمون من

---

(1) فشت: الفشاش: الكساء الغليظ: لسان العرب: فشش.

(2) هو شرح السيد الشريف على بن محمد الحرجاني المتوفى سنة 816 هـ على كتاب الهداية: كشف الظنون 2:2038.

ألفاظهم وحكمهم، وتسمى حكمة الأولين حكمة الإشراقيين لكون مرجعهم إلى ما يشرق في بواطنهم من الحكم والإدراكات، وهي كما قدمنا كثيرة الاضطرابات لأن للعقول حدا تنتهي إليه، والمطلوب وراء طور العقل، ولله در القائل:

[بسيط]

وللعقـــول قـــوى تـــستر مـــدى　　إن تعده ظهرتْ فيهِ اضـــطراباتُ[1]

وقد ألف في كل من الطريقين تآليف قديمة وإسلامية، وأحسن التآليف في الأولى تأليف السهروردي المقتول المسمى بـــ: حكمة الإشراق[2]، وقـــد قـــرأت بعضه على شيخنا الملا إبراهيم، وكان صاحبنا بلديه السيد محمد بن رسول ابتدأ عليه قراءة هذا الكتاب.

وأما المليون فالمتكلمون منهم بحثوا عن ماهيَّة الوجود من طريق العقل أيضا، إلا أنهم مستندون إلى النقل أيضاً، واعتمدوا عليه ورفضوا ما لم يمكن رده إليه من أقوال الحكماء، كقدم العالم وتأثير الأفلاك، والقول بالعلة والطبيعة، وغير ذلك مما هو مقرر في محله. ووافقوه في أشياء كثيرة لم يرد نقل بما يخالفها أو ورد واحتمل، فأهل السنة يتمسكون بصريح النقل ويهملون آراء الحكماء ولا يؤولون النقـــل، والمعتزلة بالعكس، ولأجل ذلك أدخل المتكلمون من الفريقين في كتبهم من أقوال الحكماء وآرائهم ومذاهبهم وعلومهم ما كاد العلمان به أن يشتبهاً، أعني علـــم الكلام وعلم الحكمة، حتى إن كتب المتأخرين من المتكلمين كالعضد[3] والسعد[4]، معظمها إنما هو في تقرير مذاهب الحكماء، فصارت الإلهايات والنبويات منها جزء من الجزاء، ومع ذلك فقد أبرزوها في قالب تقريراتهم واحتجاجاتهم، وإن كـــانوا يخالفونهم فيما لم يوافق عليه النقل.

---

(1) البيت مكسور.

(2) كتاب حكمة الإشراق للشيخ شهاب الدين أبي الفتح يحيى بن حبش السهر وردي المقتول بحلب سنة 587 هـــ: كشف الظنون 1:684.

(3) الإشارة هنا إلى شرح العلامة عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756 هـــ لكتاب: منتهى السول والأمل في علمي الأصل والجدل، للشيخ الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي، المتوفى سنة 646 هـــ: كشف الظنون 2:1853.

(4) الإشارة هنا إلى شرح سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791 هـــ لمفتاح العلوم للعلامة سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي المتوفى سنة 626: كشف الظنون 2:1763.

لطيفة:

ذكر الإمام السمرقندي[1] في بعض تآليفه كلاماً له يشتمل على تقسيم عجيب في التمييز بين مذاهب العلماء الإشراقيين والمشائين ومذاهب المتكلمين والصوفية المحققين، فلنذكره هنا تتميماً للفائدة فقال ما نصه: الطريق إلى معرفة المبدإ والمعاد من وجهين، أحدهما طريق النظر والاستدلال، وثانيهما طريق أهل الرياضة والمجاهدة، فالسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء عليهم السلام فهم المتكلون، وإلا فهم الحكماء المشاؤون والسالكون للطريقة الثانية، وهم أهل الرياضة والمجاهدة إن وافقوا في رياضتهم أحكام الشريعة فهم الصوفية المتسرعون، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون، انتهى. وهو كلام عجيب تتميز به المذاهب، وهو غير مخالف لما قدمنا من الكلام في مذهب الحكماء والمتكلمين.

وأما العارفون والمحققون فمعتمدهم في أول الأمر على النقل الصحيح والفهم الصريح من الكتاب والسنة من غير إسناد في ذلك إلى قول متفلسف تقليداً، ولا إلى تخمين بعقل وحدس بفكر إلا ما لا بد منه في فهم المنقولات، فيقبلون بكليتهم على صدق المتابعة وتزكية النفس وتهذيبها على طريق الاقتداء وأفراد الوجهة وقطع العلائق حتى تشرق أنوار الحق في قلوبهم فتفتح لها أبواب الملكوت فتشاهد بأنوار البصائر وصفاء السرائر حقائق الوجود العلوية والسفلية، وتدرك الأشياء الغيبية على ما هي عليه، ولذلك لا يقع في كلامهم غالباً على حقائق الموجودات ما يخالف ما أخبر به عنها مخترعها تعالى ومنشؤها على لسان رسوله الأكرم، صلى الله عليه وسلم، وإن ظنه من لم يفهم مقاصدهم مخالفاً فذلك لقصور نظره على أنهم متفاوتون في قوة نور البصيرة ونفوذ الإدراك وصحة الكشف، فقد يخبر أحد منهم بخلاف ما أخبر به، وكل منهم صادق لأنه أخبر بما أدرك؛ وفوق كل من ذي العلمِ العليم[2]، ومنتهى العلم إلى الله العظيم.

وما أقرب طريقهم من طريق الحكماء الإشراقيين، لولا ما فات الإشراقيين من نور التوفيق المسبب عن صدق المتابعة، ومن تأمل كلام حكماء العارفين كابن

---

(1) للشيخ الإمام نور الدين أبى بكر احمد بن محمد الصابوني الحنفي المتوفى سنة 508 هـ، من مؤلفاته :الهداية في الكلام: كشف الظنون 2:2040.

(2) في ط: عليم.

سبعين[1] والشيخ محي الدين وأضرابهما علم قرب ما بين الطريقين في المدرك وبعد ما بينهما في المدرك.

وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة لئلا يستبعد جاهل مزج قـراءة كتـب الحكماء بكلام العارفين الأصفياء، ولعمري إن في قراءة كتبهم وفهم كلامهـم أعظم معين على فهم الحقائق لمن وفق لصدق المتابعة، وأيـد بـصحبة عـارف كشيخنا الملا إبراهيم فإنه ما برز على أهل زمانه، ولا فات سائر أقرانه إلا بذلك فإنه بعد ما تمهر في فهم المعقولات وإدراك أقاويل الحكماء وسبر آرائهـم وَفْقَـاً لصحبة عارف زمانه، فأشرقت أنوار المعارف من مشكاة قلبه الذي كـاد زيتـه يضيء ولو لم تمسسه نار، وكذلك كان الإمام الغزالي، رضي الله عنه، وأضـرابه كما أخبر عن نفسه في كتابه: المنقذ من الضلال بعدما حقق تلك العلوم بأسرها وخاض فيها خوض ماهر خريت أدركته العناية الأزلية فصار أمره إلى ما صـار. وأما من لم يوفق لما وفق إليه من ذكر من صدق المتابعة وصحبة العارفين فهي من أعظم الضرر عليه توقعه في مزالق من الأوهام ومتشابهات من الأفهام، لا يكـاد يتحصل على شيء يشد عليه يده لا ينكشف له فهم يثق بما أداه إليه إلا سرى به إلى فهم آخر يصير معه الاعتقاد الأول شكًّا ووهماً. ثم كذلك إلى هلم جرا، وذلك شأن من ينتقل من كون إلى كون، والأكوان كلها ظلمة وخيالات وأوهـام لا تخرج من وهم إلا إلى وهم، ومن وفق انتقل من كون إلى مكون، ولا يكون ذلك إلا به، فمن انتقل بالله وصل إلى الله، ومن انتقل بنفسه وعقله الذي هو من جملة الأكوان لم يصل إلا إلى الكون الذي انتقل منه، ولله در العارف ابن عطاء الله إذ قال[2]: لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى [يسير والمكان][3] الذي انتقل منه هو الذي انتقل إليه، ولكن ارحل عن الأكوان إلى المكـوّن، (وإن إلى ربك المنتهى)[4].

---

(1) عبد الحق ابن سبعين: من كبار المتصوفة بالغرب الإسلامي، توفي بمكة المكرمة سنة 667 هـ: شجرة النور الزكية 1:281. الأعلام 3:280.

(2) الحِكم، ص: 112.

(3) إضافة من الحكم.

(4) النجم: 41.

وجل المكون أن يصل إليه أحد إلا بتوصيله، فمن طلب الحق بالحق وصل إلى صريح الحق، ومن طلب الحق بغير الحق لم يصل إليه أبدا، وكل ما سوى الله فليس بحق لأنه خيال ووهم إن فتشته لم تجد شيئا، والحق ليس كذلك.

وقد قرأت عليه، رضي الله عنه، طرفا من شرح المواقف للسيد، قال، رضي الله عنه، في إجازته لي ما نصه: وقد قرأ علي طرفا من شرح المواقف للشريف الجرجاني، قدس سره، قراءة دراية، واخترنا من مباحثه ما يكون سلماً إلى فهم الحقائق[1]. هـ كلامه. والذي اختار لي من ذلك هو مبحث الوجود هل هو مقول بالاشتراك على إفراده أو بالتوطؤ، وكلام السيد، رضي الله عنه، في ذلك غاية في التحقيق، وهو أرقب من رأينا من المتكلمين لمذاهب العارفين وأكثرهم عثوراً على مقاصدهم، و لم لا يكون كذلك وقد سلك على يد غوث الزمان الشيخ علاء الدين العطار البخاري أجل خلفاء الإمام القطب نقشبند، رضي الله عنهم، ودخل في طريق القوم على يديه وترك ما كان عليه من أبهة المدرسين، فأشرقت أنوار المعارف من قلبه، وظهرت عليه بركات صحبة القوم، وكان، رضي الله عنه، من جماعة الملا سعد الدين التفتزاني ومن أكابر أصحابه حتى برز عليه في حياته، وكتب على كثير من مصنفاته كتابات أبانت عن إنافته عليه في تحقيق العلوم، وقد حصلت بينه وبينه مناظرة في مجلس تمرلنك سلطان ما وراء النهر فأفحمه، ثم اعتذر إليه بعد ذلك، وقد أخبرني بعض المشايخ أن السعد وجماعته، وفيهم السيد قدموا لزيارة بعض المشايخ العارفين، فلما جلسوا بين يديه قال لهم ذلك العارف أيكم يتخلص عن هذه الوظائف ويترك هذا المنصب وجاهه لدنيوي وأنا أوصله إلى الله في أقرب مدة، فضن الملا سعد الدين برياسته، وكانت له رياسة كبيرة في آخر عمره وجاه عند الأمراء وجلالة قدر عند أرباب الدولة وغيرهم من العوام، فقال السيد لذلك العارف: أنا أتخلع من رياستي وأترك هذه الوظائف العلمية والمناصب الدنيوية، فقبل منه ذلك وصرف همته إليه، فانتفع بذلك في أقرب مدة و لم يسم لي من سمعت ذلك منه العارف الذي سلك على يديه حتى رأيت في كتاب الرشحات[2] للكاشفي أنه صحب الشيخ علاء الدين العطار

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 123.

(2) رشحات عين الحياة: كتاب فارسي في مناقب مشايخ النقشبندية ورسوم طريقهم ضمنا لحسين بن علي الواعظ الكاشفي البيهقي المشتهر بالصفي: كشف الظنون 2: 1844.

وصحب أيضا تلميذه الشيخ نظام الدين الخاموش بأمر شيخه علاء الدين رضي الله عنهم آمين. فعلمت أنه هو الذي وقع له معه ذلك.

وقرأت عليه أيضاً في علم الحقائق التحفة المرسلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للشيخ محمد بن فضل الله الهندي[1] أجل تلامذة الشيخ الإمام وجيه الدين العلوي، فهو في طريق أخو شيخ مشايخنا الفاضل، العلامة الجامع بين علم الظاهر والباطن، سيدنا صبغة الله بن روح الله الحسيني، قدس سره، وهي رسالة صغيرة مفيدة جدا في وحدة الوجود سيأتي إن شاء الله ذكرها في آخر الترجمة، وسماها: التحفة المرسلة لكون عادة العلما في بلاد العراق والهند بل ومصر والحجاز، إذ ألف أحدهم كتاباً أجاد فيه وأتقنه أتحف به ملك قطره وجعله برسمه واسمه، وهذا الإمام أجزل الله ثوابه لم ير في الوجود أعظم ولا أفخم قدراً من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل رسالته هذه تحفة مرسلة إلى روحه، صلى الله عليه وسلم، لكونه هو أصل الموجودات ومنبع فيضها ومددها على اختلاف أجناسها وامتداد فروعها لأن روحه المقدسة أول مخلوق على ما جاء في الأحاديث، فكأن الرسالة موضوعة فيه، صلى الله عليه وسلم، فناسب إرسالها إليه، ولقد أصاب مرسلها وأتى البيوت من أبوابها، ووفق لما ذهل عنه غيره ممن همه الدنيا وزهرتها، ولذلك عمت بركة هذه الرسالة. ولقد أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أن بعض أصحابنا المجاورين، وكان يقرؤها عليه إذ ذاك، ونحن هناك، أنه أخبره أن هذه الرسالة ببلادهم قد طار صيتها واشتهر أمرها، فصارت تقرأ في المكاتب ويتعلمها الأولاد، كالرسائل الصغار التي في مبادي العلوم، ولقد علم كل منصف أن ذلك إنما حصل لها ببركة نسبتها إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وبركة نية مؤلفها، وإلا فهذا العلم قد صار من الغرابة بحيث أنكرته أذواق كثير من فحول العلماء المحققين، فضلا عمن دونهم من المترسمين، فضلاً عن العوام، فضلاً عن صبيان المكاتب، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وزين إليه أسبابه، فكما يوفق العبد في صغره إلى أخذ العقائد الدينية الواجبة على عامة المؤمنين فيتلقفها تقليداً من غير أن يحصل له كبير فهم لمعانيها حتى إذا تكامل عقله وبلغ مبلغ المدركين لحقائق العلوم سهل عليه إدراك معانيها وانشرح صدره لقبول أنوارها لا لفعالها قبل تقليدا، فكذلك عقائد الأكابر التي لا يدركها عوام الخلق إذا

(1) محمد بن فضل الله الهندي، زاهد متصوف، توفي ببلده سنة 1092 هـ الأثر 110:4.

وفق العبد لأخذها في صغره تلقينا، ثم خلق الله له في كبره استعدادا لفهمها وجمعه بعارف يمد بأنواره في تحقيقها انشرح صدره لقبول ذلك وفهمه وإدراكه بسرعة بلا كبير مؤنة لإلفه لسماعه واعتقاده تقليدا، لكن الذي ظهر لي أنه الحق أولى بالصواب، وأظنه هو الواقع عندهم في بلادهم أن يلقن الصبي أولا العقائد المشهورة المألوفة التي كلف بها سائر الخلق الظاهرة من نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، ويؤمر بقراءة صغار الرسائل المؤلفة في ذلك لأئمة أهل السنة، ثم بعد ذلك، إن شاء وليه، أن يقرئه أيضا شيئا مما هو خاص بعقائد الأكابر تيمنا بهم وتبركا بكلامهم، ويعلمه أن هذا الذي لقنه الآن ليس هذا وأن فهمه، وأن له رجالاً مخصوصين هم صفوة الحق من عباده وخلفاء أنبيائه قلوبهم مملوءة بمعرفته ومحبته، لم يبق فيها مساغ لغيره وتكون فائدة تلقينه ذلك في الصغر أن لا ينشأ على جمود القريحة على ما اعتادته أولاً وتلقفته من الصغر، فيعتقد أن ليس هناك أمر وراء هذا ولا فهم أعلى منه ولا ذوق أحلى يمنحه الله من شاء من خالص أحبائه، زيادة على ما علمه غيرهم من عوام الخلق غير مناف لما في الكتاب والسنة ولا مباين لما أمر باعتقاده عوام البشر، إلا أنه أعلى منه وأدق وأرق وأصفى وأحلى وأغلى، فإن اعتقاد العبد أن ليس وراء ما أدركه من العلوم والمعارف مرمى ولا مطلب أعظم حجاب وأكبر منافع له عن الوصول إلى ما وصل إليه غيره، خصوصا هذه العلوم التي هي أذواق ومعارف وكشوفات خفية وإدراكات وهبية غير مكتسبة، فتعمل ولا متسلق عليها بمجرد بضاعة العقل، فقلما تحصل لمن لم يتقدم له حسن ظن بأهلها واعتقاد وجودها وتعظيم أربابها، ولذلك والله أعلم زاد المتأخرون من العلماء في ذكر العقائد التي ينبغي اعتقادها وإن لم تكن من الإلهيات ولا من النبويات اعتقادا أن الأئمة أرباب المذاهب على هدى من ربهم لئلا ينشأ المكلف على ردئ التعصب لبعضهم المؤذي إلى تضليل الباقين، فيحرم بركة الانتفاع بأقاويلهم وأقاويل أصحابهم، فيفوته جانب عظيم من علوم الديانة، إذ ما من علوم الشريعة إلا وقد ألف فيه أرباب المذاهب كلهم، والمشتغل بذلك الفن لا يقتصر على كتب أهل مذهبه فيه، فكم من مالكي انتفع بكتب الشافعية في التفسير والحديث والتصوف، وبالعكس، فلو كان المشتغل بقراءة هذه الكتب لا يعتقد تعظيم أصحابها ولا هدايته لقل انتفاعه بها أو عدم رأسا، ولأجل ذلك أيضا ينبهون في العقائد على أن طريق الجنيد، رضي الله عنه وصحبه طريق مقوم مقدم، وكذلك الإمام الشاذلي والجيلي وأضرابهم من رؤساء أئمة الصوفية الذين هم

مذاهب معروفة في طريق القوم وآراء منتخبة إذا اعتقد الإنسان من حال صغره عظمتهم ومحبتهم وأنهم على هدى، ساقه ذلك في كبره إلى الاقتداء بهم وأتباع طريقهم، واعتقاد ما يسمع من كلامهم ولو لم يفهم معناه لعلمه أن قائليه أهل حق وهدى وبصائر نافذة وقلوب مطهرة، والله تعالى أعلم، فلنذكر رسالة التحفة المرسلة بتمامها، لوجازتها وغرابتها في مغربنا، فأقول: قرأت على شيخنا الملا إبراهيم وسمعت منه بلفظي بسنده إلى مؤلفها قال: باسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتخلي عن الكونين، فلنذكر التحفة: باسم الله الرحمن الرحيم)[1]، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[2]، الحمد لله رب العالمين والعافية للمتخلي عن الكونين، والصلاة والسلام على المظهر الأتم، محمد وآله وأصحابه أجمعين، أما بعد، فيقول العبد الضعيف المذنب المحتاج إلى شفاعة النبي، صلى الله عليه وسلم، محمد بن الشيخ فضل الله: هذه نبذة من الكلمات في علم الحقائق جمعتها بمحض فضل الله وكرمه، وجعلت ثوابها لروح النبي، صلى الله عليه وسلم، وسميتها بالتحفة المرسلة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، (وأسال الله أن يبلغ ثوابها إليه)[3] إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

اعلموا إخواني، أسعدكم الله وإيانا، أن الحق سبحانه وتعالى هو الوجود، وأن ذلك الوجود ليس له شكل ولا حد ولا حصر، ومع ذلك ظهر وتجلى بالشكل والحد و لم يتغير عما كان من عدم الشكل وعدم الحد، بل الآن كما كان، وإن ذلك الوجود واحد والإلباس مختلفة ومتعددة، وأن ذلك الوجود حقيقة جميع الموجودات وباطنها، وأن جميع الكائنات حتى الذرة لا تخلو عن ذلك الوجود، وأن ذلك الوجود ليس بمعنى التحقق والحصول أنهما من المعاني المصدرية ليسا بموجودين في الخالق، فلا يطلق الوجود بهذا المعنى على الحق الموجود في الخارج، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، بل عنينا بذلك الوجود الحقيقة المتصفة بهذه الصفات، أعني وجودها بذاتها ووجود سائر الموجودات بها وانتفاء غيرها في الخارج، وأنّ ذلك الوجود من حيث الكنه لا ينكشف لأحد ولا يدركه العقل ولا الوهم ولا الحواس، ولا يتأتى في القياس لأن كلهن محدثات، والمحدث لا يدرك كنه المحدث، تعالى ذاته وصفاته عن الحدث علواً كبيراً، ومن أراد معرفته من هذا

---

(1) ما بين قوسين ساقط من ط.
(2) ساقط من ط.
(3) زيادة من ط.

الوجه وسعى فيه ضيع وقته، وأن لذلك الوجود مراتب كثيرة: المرتبة الأولى: مرتبة أن لا تعين، والإطلاق والذات البحث لا بمعنى أن قيد الإطلاق ومفهوم سلب التعين ثابتان في تلك المرتبة، بل بمعنى أن ذلك الوجود في تلك المرتبة منزه عن إضافة النعوت والصفات ومقدس عن كل قيد حتى عن قيد الإطلاق أيضاً، وهذه المرتبة تُسَمَّى بمرتبة الأحدية، وهي كُنه الحق سبحانه وتعالى، وليس فوقها مرتبة أخرى بل كل المراتب تحتها. والمرتبة الثانية: مرتبة التعين الأول، وهي عبارة عن علمه تعالى بذاته وصفاته وبجميع الموجودات على وجه الإجمال من غير امتياز بعضها عن بعض، وهذه المرتبة تسمى بالوحدة والحقيقة المحمدية. المرتبة الثالثة: مرتبة التعين الثاني، وهي عبارة عن علمه بذاته وبصفاته وبجميع الموجودات على طريق التفصيل، وامتياز بعضها عن بعض، وهذه المرتبة تسمى بالواحدية والحقيقة الإنسانية، فهذه ثلاث مراتب كلها قديمة، والتقديم والتأخير عقلي لا زماني. والمرتبة الرابعة: مرتبة الأرواح، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المجَرَّدة البسيطة التي تظهر على ذواتها وعلى أمثالها. والمرتبة الخامسة مرتبة عالم المثال، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المركبة اللطيفة التي لا تقبل التجزيء والتبعيض ولا الخرق ولا الالتئام. والمرتبة السادسة: مرتبة عالم الأجسام، وهي عبارة عن الأشياء الكونية المركبة الكثيفة التي تقبل التجزيء والتبعيض والخرق والالتئام. والمرتبة السابعة: المرتبة الجامعة لجميع المراتب المذكورة الجسمانية والنورانية والوحدة والواحدية، وهي التجلي الأخير واللباس الأخير، وهو الإنسان. فهذه سبع مراتب، الأولى منها هي مرتبة أن لا ظهور، والستة الباقية منها هي مراتب الظهور الكلية، والأخيرة منها، أعني الإنسان إذا عرج وظهر جميع المراتب المذكورة مع انبساطها يقال له الإنسان الكامل، والعروج والانبساط على الوجه الأكمل كان في نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان خاتم النبيئين، وأن أسماء مرتبة الألوهية لا يجوز إطلاقها على مراتب الكون والخلق، وكذا لا يجوز إطلاق أسماء مراتب الكون على مرتبة الألوهية، وأن لذلك الوجود كمالين، أحدهما كمالي ذاتي، وثانيهما كمالي أسمائي، وأما الكمال الذاتي فهو عبارة عن ظهوره تعالى له على نفسه بنفسه في نفسه لنفسه بلا اعتبار الغير والغيرية، والغنى المطلق لازم لهذا الكمال الذاتي، ومعنى الغنى المطلق مشاهدته تعالى في نفسه جميع الشؤون والاعتبارات الإلهية والكيانية مع أحكامها ولوازمها ومقتضياتها على وجه كلي جملي لاندراج الكل في البطون الذاتي ووحدته كاندراج جميع الأعداد في الواحد العددي، وإنما سميت غنى مطلقاً

لأنّه تعالى بهذه المشاهدة مستغنٍ عن ظهورِ العالم على وجه التفصيل لا حاجة له في حصول المشاهدة إلى العالم وما فيه، لأنّ مشاهدة جميع الموجودات حاصلة له تعالى عند اندراج الكل في بطونه ووحدته. وهذه المشاهدة تكون شهوداً غيبياً علمياً كشهود المفصل في المجمل الكثير، والكثير في الواحد، والنخلة مع الأغصان وتوابعها في النواة الواحدة. وأما الكمال الأسمائي فهو عبارة عن ظهوره تعالى لنفسه على نفسه وشهوده شهوداً عياناً عينياً وجودياً كشهود المجمل المفصل والواحد في الكثير والنواة في النخلة وتوابعها، وهذا الكمال الأسمائي من حيث التحقق والظهور موقوف على وجود العالم وما فيه لأن معناه السابق لا يحصل إلا بظهور العالم على وجه التفصيل، وأنّ تلك الوجود ليس بحال في الموجودات ولا متحد بها لأن الحلول والاتحاد لا بد لهما من وجودين حتى يحل أحدهما في الآخر أو يتحد أحدهما بالآخر، والوجود واحد لا تعدد له أصلاً، وإنما التعدد في الصفات على ما يشهد به ذوق العارفين ووجدانهم، وأن العبودة والتكاليف والراحة والعذاب والآلام كلها راجعة إلى التعينات، وأن ذلك الوجود باعتبار مرتبة الإطلاق منزه عن هذه الأشياء كلها، وأن ذلك الوجود محيط بجميع الموجودات كإحاطة الملزم والموصوف بالصفات لا كإحاطة الظرف بالمظروف والكل بالجزء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وأن ذلك الوجود كما أنه باعتبار محض الإطلاق وسار في ذوات جميع الموجودات بحيث يكون ذلك الوجود في تلك الذوات عين تلك الذوات، كما كانت تلك الذوات قبل الظهور في ذلك الوجود عين ذلك الوجود، كذلك الصفات الكاملة لذلك الوجود باعتبار كليتها وإطلاقها سارية في جميع صفات الموجودات عين صفات الموجودات، بحيث تكون تلك الصفات الكاملة في ضمن صفات الموجودات عين صفات الموجودات، كما كانت صفات الموجودات قبل الظهور في تلك الصفات الكاملة عين الصفات الكاملة، وأن العالم بجميع أجزائه غير الصفات الكاملة أعراض، والمعروض هو الوجود، وأن للعالم ثلاثة مواطن، أحدها التعين الأول، ويسمى فيه شؤونيا، وثانيها التعين الثاني، ويسمى فيه أعياناً ثابتة، وثالثها التعين في الخارج ويُسَمَّى أعياناً خارجية، وأن الأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود وإنما الظاهر أحكامها وآثارها، وإن المدرك أولاً في كل شيء هو الوجود وبواسطته يدرك ذلك الشيء كالنور بالنسبة إلى سائر الألوان والأشكال، ولأجل دوام الظهور وشدته لا يعلم هذا الإدراك إلا الخواص، وأن القرب قربان: قرب النوافل وقرب الفرائض، أما قرب النوافل فهو

زوال الصفة البشرية وظهور صفاته تعالى بأن يحيي ويميت بإذنه تعالى، ويسمع ويبصر من جميع جسده لا من الأذن والعين فقط، وكذا يسمع المسموعات من بعيد ويبصر المبصرات من بعيد، وعلى هذا القياس، وهذا معنى فناء الصفات من صفات الله تعالى، وهو ثمرة النوافل.

وأما قرب الفرائض فهو فناء العبد بالكلية عن شعور جميع الموجودات، حتى عن نفسه أيضاً بحيث لم يبق في نظره إلا وجود الحق سبحانه وتعالى، وهذا معنى فناء العبد في الله تعالى وهو ثمرة الفرائض، وإن من القائلين بوحدة الوجود من يعلم أن الحق سبحانه وتعالى حقيقة جميع الموجودات وباطنها علماً يقينياً، ولكن لا يشاهد الحق سبحانه وتعالى في الخلق، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق شهوداً حاليا بالقلب، وهذه المرتبة أعلى وأولى من المرتبة الأولى، ومنهم من يشاهد الحق في الخلق والخلق في الحق، بحيث لا يكون أحدهما مانعاً عن الآخر، وهذه المرتبة أولى وأعلى من المرتبتين السابقتين، وهي مقام الأنبياء والأقطاب بمتابعتهم، ومن المحال أن تحصل المرتبة المتوسطة من تلك المراتب الثلاث لمن خالف الشريعة والطريقة فضلا عن المرتبة الأخيرة التي هي أعلى مما سواها من المرتبتين، وأن جميع الموجودات من حيث الوجود هي عين الحق سبحانه وتعالى، ومن حيث التعين غير الحق سبحانه وتعالى، والغيرية اعتبارية، وأما من حيث الحقيقة فالكل هو الحق سبحانه وتعالى، ومثاله الحباب والموج وكور الثلج فإن كلهن من حيث الحقيقة الماء، ومن حيث التعين غير الماء، وكذا السراب من حيث الحقيقة عين الهواء ومن حيث التعين غير الهواء، والسراب في الحقيقة هواء ظهر بصورة الماء. أما الدلائل الدالة على وحدة الوجود فهي كثيرة، إما من القرآن بقوله عز وجل: (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)[1]، (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[2]، (وهو معكم أينما كنتم)[3]، (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون)[4]، (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم)[5]، (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[6]، (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)[1]، (وإذا سألك

(1) البقرة: 114.
(2) ق: 16.
(3) الحديد: 4.
(4) الواقعة: 88.
(5) الفتح: 10.
(6) الحديد: 3.

عبادي عني فإني قريب)[2]، (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[3] (وكـــان الله بكل شيء محيطاً)[4]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وأما من أقواله، صلى الله عليه وسلم، فقوله: أصدق كلمة قالتها العـــرب كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[5]، إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنما يناجي ربه فإن ربه بينه وبين القبلة. وقوله، صلى الله عليه وسلم، عن الله تعالى: ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها[6]. وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني[7]، إلخ. وروى الترمذي في حديث طويل: والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله تعالى[8]، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام (هـــو الأول والآخـــر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)[9] إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة.

وأما من أقوال الأئمة العارفين بالله الدالة على وحدة الوجود فكثيرة كثـــرة بحيث لا تأتي في العد والحصر، ولذا لم أذكرها، وإن شئت فعليك بمطالعة نسخهم تجد إن شاء الله تعالى أيها الطالب إذا أردت الوصول إلى الله تعالى فالزم متابعـــة النبي، صلى الله عليه وسلم، أولاً قولاً وفعلاً ظاهراً وباطناً، ثم أفعال مراقبة وحدة الوجود ثانياً التي هي معنى الكلمة الطيبة من غير اشتراط الوضوء، وإن وجد فهو أولى، ولا تخصيص وقت دون وقت ومن غير ملاحظة النفس دخولاً وخروجاً في المراقبة، ولا ملاحظة حروف الكلمة الطيبة، بل لا تلاحظ إلا المعنى فقط في كل حال، قائما أو قاعداً ماشياً أو مضطجعاً، متحركاً أو ساكناً، شارباً أو آكـــلاً. وطريق المراقبة أن تنفي إنيتك إلا هذه الإنية، وهي معنى لا إله، ثم تثبـــت الحـــق

(1) الذاريات: 21.
(2) البقرة: 185.
(3) الأنفال: 17.
(4) النساء: 125.
(5) صحيح مسلم 4:1768.
(6) المعجم الأوسط 9:139.
(7) صحيح مسلم 19:90.
(8) كشف الخفاء 1:125.
(9) الحديد: 3.

سبحانه وتعالى في باطنك ثانياً، وهو معنى إلا الله. فإن قلت: إذا كان الوجود واحدا وغيره ليس بموجود فأي شيء ينفي وأي شيء يثبت؟ قلت: وهم الغيرية والاثنينية الذي نشأ للخلق، وهذا الوهم باطل، فعليك أن تنفي هذا الوهم أولا ثم تثبت الحق سبحانه وتعالى في باطنك ثانيا. واعلم أيها الطالب إذا غلب عليك الحال بفضل الله تعالى لا تقدر على نفي إنيتك الوهمية، بل لم يبق فيك إلا إثبات الحق سبحانه وتعالى، رزقنا الله تعالى وإياكم هذا المقام بحرمة النبي، صلى الله عليه وسلم، آمين يا رب العالمين.

ومما قرأته عليه أيضاً إجازة الشيخ محي الدين بن العربي الحاتمي، رضي الله عنه، كتب بها لبعض ملوك وقته[1] ونصها مع بعض اختصار من آخرها: باسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، أقول: وأنا محمد بن علي بن العربي الحاتمي، وهذا لفظي استخرت الله تعالى أجزت للسلطان الملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل المرحوم، إن شاء الله، أبي بكر بن أيوب وأولاده ولمن أدرك حياتي الرواية عني من جميع ما رويته عن أشياخي من قراءة وسماع ومناولة وكتابة وإجازة، وجميع ما ألفته وصنفته من ضرب العلم وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر بين أهل هذا الشأن، وتلفظت بالإجازة عند تقييدي هذا الخط وذلك في غرة المحرم سنة اثنين وثلاثين وستمائة بمحروسة دمشق، وكان استدعاؤه أن أذكر له من أسماء شيوخي ما تيسر لي ذكره منهم وبعض مسموعاتي وما تيسر من أسماء مصنفاتي، فأجبت استدعاءه ونفعنا الله وإياه بالعلم، وجعلنا وإياه من أهله إنه ولي كريم، فمن شيوخنا أبو بكر محمد بن خلف بن صافي اللخمي، قرأت عليه القرآن الكريم بالقراءات السبعة والكتاب الكافي[2] لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيني المغربي في مذاهب القراء السبعة المشهورين، وحدثني به عن ابن المواق أبي الحسن شريح بن محمد بن محمد الرعيني عن أبيه المؤلف. وحدثني من شيوخنا في القرآن أيضا أبو القاسم عبد الرحمن بن غالب الشراط من أهل قرطبة، قرأت عليه أيضاً القرآن الكريم بالكتاب المذكور، وحدثني به أيضا عن ابن المؤلف.

---

(1) هو الملك المظفر بهاء الدين غازي بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، من ملوك الدولة الأيوبية، توفي سنة 645 هـ: فهرس الفهارس 317:1. الأعلام 112:5.

(2) الكافي في القراءات السبع لأبي عبد الله محمد بن شريح بن أحمد الرعيني الإشبيلي المتوفى سنة 476 هـ: كشف الظنون 1379:2.

ومن مشايخنا أيضاً القاضي أبو محمد عبد الله الباءتي بمدينة فاس، حدثني بكتاب التبصرة في مذاهب القراءات السبعة[1] لأبي محمد بنٍ طالب المقري عن أبي بحر سفيان بن العاصي عن المؤلف بجميع تواليف مكي أيضا، وأجازني إجازة عامة. ومن شيوخنا أيضا القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن حمزة، سمعت عليه كتاب التيسير[2] لأبي عمرو الداني، حدثني عن أبيه عن المؤلف وبجميع تواليف الداني وأجازني إجازة عامة. ومن شيوخنا القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأنصاري[3] سمعت عليه كتاب التفضي[4] لأبي عمر بن عبد البر السنميري الشاطبي، وحدثني به عن أبي عمران موسى بن أبي بكر عن المؤلف وبجميع تواليفه مثل: الاستذكار[5] والتمهيد[6] والاستيعاب[7] والانتقا[8]، وأجازني إجازة عامة وأجاز أن أروي عنه جميع توالفيه. ومن شيوخنا المحدث أبو محمد عبد الحق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الأزدي الإشبيلي[9]، وحدثني بجميع مصنفاته في الحديث، وعد لي من أسمائها: تلقين المبتدئ والأحكام الصغرى والكبرى والوسطى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره، وحدثني بكتاب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه.

ومن شيوخنا عبد الصمد بن محمد بن الفضل بن خراساني سمعت عليه صحيح مسلم حدثني به عن الفراذمي عن عبد الغافر الفارسي عن الجلودي إلخ،

---

(1) التبصرة في القراءات السبعة للشيخ الإمام أبي محمد مكي بن أبي طالب المقري القيسي المتوفى سنة 437 هـ في خمسة أجزاء وهو من اشهر مصنفاته: كشف الظنون 1:339.

(2) التيسير في القراءات السبع للامام أبي عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني المتوفى سنة 444 هـ: كشف الظنون 1:520.

(3) أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن زرقون الأندلسي، فقيه حافظ، له كتاب الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار، توفي بإشبيلية سنة 585 هـ: شرف الطالب، ص: 65.

(4) كتاب التفضي بحديث الموطأ للحافظ أبي عمر بن عبد البر يوسف بن عبد الله القرطبي بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة 463 هـ: كشف الظنون 2:1907.

(5) الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار وفيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار لابن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة 463 هـ: كشف الظنون 1:78.

(6) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للحافظ أبي عمر بن عبد البر: كشف الظنون 1:484.

(7) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن البر النمري القرطبي: كشف الظنون 1:81.

(8) الانتقاء للمذاهب الثلاثة للعلماء، يعني مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي لابن عبد البر القرطبي: كشف الظنون 1:175.

(9) عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين الأزدي، أبو محمد، من أهل إشبيلية، فقيه حافظ، خرج من وطنه ونزل بجاية بعد الخمسين وخمسمائة، له عدة مصنفات منها كتابه في الأحكام، وهو نسختان كبرى وصغرى، وكتاب التهجد، وكتاب العاقبة، وكتاب تلقين الوليد، توفي ببجاية آخر سنة 582 هـ: التكملة لكتاب الصلة 3:120.

وأجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا يونس بن يحيى العباسي الهاشمي نزيل مكة، سمعت عليه كتبا كثيرة في الحديث والرقائق منها صحيح البخاري، حدثني به عن أبي الوقت عن الداودي، إلخ. من شيوخنا المكيين أبي شجاع زاهر بن رستم الصبهاني إمام المقام بالحرم الشريف، سمعت عليه كتاب أبي عيسى الترمذي، حدثني به عن الكرخي عن العورجي عن الخزاعي عن المحبوبي أجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا البرهان نصرٍ بن أبي الفتح بن علي الحضرمي إمام مقام الحنابلة بالحرم الشريف سمعت عليه كتباً كثيرة منها السنن لأبي داوود السجستاني حدثني بها، عن أبي جعفر بن محمد بن علي بن محمد السمناني، عن أبي بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب، عن أبي عمر القاسم بن جعفر الهاشمي البصري، عن أبي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي، عن أبي داوود، وأجاز لي إجازة عامة وحدثني بكتب الخطيب. ومن شيوخنا محمد بن أبي الوليد بن أحمد بن محمد بن شبل، قرأت عليه كتبا كثيرة من تواليفه، وناولني كتاباً يُسَمَّى نائب المجتهد وكتاب المقصد والأحكام الشرعية من تواليفه. ومن شيوخنا أبو عبد الله بن علون حدثني بكتب القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافيري عنه أجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا عبد الله بن عمر بن أحمد ابن منظور الصفار حدثني بكتب الواحدي كتابة عن عبد الله الجبار بن محمد بن أحمد الحواري عنه. ومن شيوخنا أبو الوائل بن العربي سمعت منه سراج المهتدين للقاضي ابن العربي[1] ابن عمه، حدثني به عنه وأجاز لي إجازة عامة. ومن شيوخنا أبو الثناء محمود بن المظفر اللبار حدثني بكتب ابن خميس عنه، وبكتب الحميدي، ومنهم محمد بن محمد البكري سمعت عليه رسالة القشيري عن جده عبد الكريم المؤلف وأجازني إجازة عامة. ومنهم ضياء الدين بن عبد الوهاب بن علي بن سكينة شيخ الشيوخ ببغداد وأجازني إجازة عامة وأخذ عني أخذت عنه، حدثني بتآليف القشيري عن ابنه عبد الوهاب عنه. ومنهم أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف الطالقاني القزويني، حدثني بتآليف البيهقي وأجازني إجازة عامة. ومنهم أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني أجاز لي إجازة عامة، وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن عمر بن شريح الرعيني المقري.

---

(1) أبو بكر محمد بن عبد الله القاضي أبو بكر ابن العربي الإشبيلي، الفقيه العلامة، ولد سنة 468 هـ، وتوفي سنة 543 هـ، ودفن بفاس، له عدة تآليف منها: سراج المهتدين، قانون التأويل، العواصم من القواصم، وغيرها: شرف الطالب، ص: 62، شجرة النور الزكية 1:199. فهرس الفهارس 2:855.

وأيضا ممن أجازني إجازة عامة وكتب لي أن أروي عنه كتب السلمي عن محمد بن مصبار البيهقي عنه، ومنهم جابر بن أيوب الحضرمي، أجاز لي إجازةً عامة وهو يروي عن أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني المقري، وأيضاً ممن أجازني إجازة عامة محمد بن أسعد بن محمد القزويني والحافظ الكبير ابن عساكر. وهو القاسم بن علي بن الحسن بن وهبة بن عبد الله بن الحسن الشافعي صاحب تاريخ دمشق. ومنهم محمد بن يوسف بن علي القزويني، ومنهم أبو الطاهر بن عوف، ومنهم أبو الطالب اللخمي بالإسكندرية، ومنهم أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحافظ كتب بالرواية بجميع تواليفه. ومنهم أبو بكر بن أبي الفتح السجستاني، ومنهم محمد بن أبي المعالي عبد الله بن موهوب بن جامع بن عبدون البغدادي الصدفي، ويعرف بابن البنا.

ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي قرأ على جميع مصنفاته. ومنهم ابن النجار المالقي المحدث، ومنهم أبو الحسن بن الصائغ الأنصاري، ومنهم عبد الجليل[1] مؤلف المشكل في الحديث، وشعب الإيمان. ومنهم أبو عبد الله بن المجاهد. ومنهم عمران موسى بن عمران المتريلي. ولولا خوف الملل وضيق الوقت لذكرنا من سمعنا عليه ومن لقيناه.

وأذكر من مؤلفاتي ما تيسر فإنها كثيرة وأصغرها جزء أو كراس، وأكبرها ما يزيد على المائة. فمن ذلك المصباح في الجمع بين الصحاح في الحديث، واختصار مسلم واختصار البخاري واختصار الترمذي واختصار المحلى والاحتفال فيما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سني الأحوال. وكتاب الجمع والتفصيل في أسرار المعاني والتنزيل، فرغ منه أربعة وستون مجلدا إلى قوله تعالى في سورة الكهف: (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح)[2] الأربعين المتقابلة في الحديث الأربعين في الطوالات، ثم عد من تآليفه 358.

وما قرأته عليه أيضاً هذه المكاتبة وجوابها، وهما مفيدان غاية. ونص ما قرأته عليه: الحمد لله اجتمع الشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني ببعض أصحاب

(1) عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري الأوسي الأندلسي، المشهور بالقصري، متصوف مشارك، صنف التفسير وشرح الأسماء الحسنى وكتاب شعب الإيمان، توفي بسبتة سنة 608 هـ: سير أعلام النبلاء 22:12.
(2) الكهف :59.

الشيخ علاء الدولة السمسناني فسأله ما يقول شيخكم في ابن العربي وكلامه؟ فقال: يعتقد أنه رجل عظيم الشأن ولكنه غالط في قوله بأن الحق هو الوجود المطلق، فقال عبد الرزاق: أصل جميع معارفه هذا الكلام، ولا أحسن من هذا الكلام، فعجبا لشيخكم لا يستحسنه مع أن جميع الأنبياء والأولياء والأئمة على هذا، فأوصل التلميذ هذا الكلام إلى شيخه علاء الدولة، فكتب في جوابه في جميع الملل والنحل لا يوجد كلام أشنع من هذا الكلام، وإذا حقق الأمر كان مذهب الطبيعيين والدهريين أولى من هذه العقيدة بكثير، فلما وصل الكلام إلى عبد الرزاق كتب إلى علاء الدولة مكتوبا حاصله لا يخفى أن كل ما لم يكن على قانون الكتاب والسنة، فلا اعتبار له عند هذه الطائفة لأنهم متبعون. وبناء هذا المعنى، أي وحدة الوجود على هاتين الآيتين (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم)[1] إلى (شهيد)، (إلا إنهم في مرية من لقاء ربهم)[2] إلى (محيط). والناس على ثلاث مراتب: الأولى مرتبة النفس، وهم أهل الدنيا، وأصحاب الحجاب ينكرون الحق وصفاته، فمن آمن منهم نجا من النار. والثانية مرتبة القلب، وهم أهل البصيرة بتجليات الأسماء، يستدلون بآياته في الآفاق والأنفس على معرفة الصفات والأسماء وما كان معلوما عند الطائفة الأولى، أي أهل الإيمان، وهو مرضي عند هؤلاء. والثالثة مرتبة الروح وأهل هذا المقام تجاوزوا عن مرتبة تحلي الصفات إلى شهود جمع الأحدية، وحالهم في حالة الحد (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[3]، وهذه الطائفة يرون الخلق مرآة للحق والحق مرآة للخلق، وأعلى من هذا هو الاستهلاك في عين أحدية الذات ووصف المحجوبين مطلقاً (ألا أنهم في مرية من لقاء ربهم)[4]، وأهل التجليات، وإن حصل لهم اليقين ولكنهم قاصرون عن معنى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك)[5] الآية. ومحتاجون إلى تنبيه، (ألا إنه بكل شيء محيط)[6]، وشهود هذه الحقيقة وما ظفر بمعنى (كل شيء هالك إلا وجهه)[7] إلا الطائفة الأخيرة، وفي هذه الحضرة هو المقام الأول والآخر والظاهر

(1) فصلت: 52.
(2) فصلت: 53.
(3) فصلت: 53.
(4) فصلت: 54.
(5) الرحمن:26.
(6) فصلت: 53.
(7) القصص: 88.

والباطن عيان، وفي كل المتعينات وجه الحق مشهود، وتحققوا في وجود الأسماء والتعينات تتره (فأينما تولوا فثم وجه الله)[1]، فعلم من هذه الإحاطة أن الحق تعالى متره عن جميع التعينات، وتعينه بعين ذاته وأحديته ليست كأحدية الأعداد حتى يكون له ثان، فمن كان له هذه المرتبة جرده الله عن قيود العقول وشهد تلك الإحاطة، ومن لا بقي في حجب الجلال. قال سيدنا علي رضي الله عنه: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة، فإنه لو شاء حسا أو عقلا في وقت تجلي الجمال المطلق حصل التعين وصار الجمال جلالاً وصار الشهود نفس الاحتجاب، سبحان من لا يعرفه إلا هو وحده، والإنصاف أن كل بحث ذكرتموه في العروة وهو اسم كتاب لعلاء الدولة في نفي هذا المعنى دلائله ليست على منهج مشتقيهم، وإني بعدما حصلت العلوم الشرعية والعقلية حيث لم يحصل لي المطلوب منها علمت أن معرفة المطلوب وراء طور العقل فاخترت صحبة المتصوفة، واستحسنوا هذا الكلام، ومع ذلك لم أكن وجدته في نفسي لم يطمس إليه القلب فأخذت الخلوة في مفازة سبعة أشهر حتى كشف الله لي عن هذا المعنى واطمأن قلبي، والله سبحانه وإن قال: (فلا تزكوا أنفسكم)[2]، لكن قال: (وأما بنعمة ربك فحدث)[3]، ولو لم يكن كما ذكر كيف يصدق وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وكيف يصدق ولو دلى أحدكم حبله لهبط على الله، وكيف يكون أقرب من حبل الوريد.

والحاصل ينبغي أن ينظر في هذا المعنى فإن ثالث ثلاثة بنص القرآن كفر، ورابع ثلاثة صرف الإيمان (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم)[4] إذ لو كان ثالث ثلاثة كان متعينا مثلهم، ولكنه أبو جودة الحقاني محقق الأعداد فهو مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، ولو لم أجده عيانا ما أكثرت عليكم الدلائل، ومن لم يصدق الجملة هان عليه أن لا يصدق التفصيل (وإنا وأياكم لفي هدى أو في ضلال مبين)[5]هـ. ملخصاً.

(1) البقرة: 114.
(2) النجم: 31.
(3) الضحى: 11.
(4) المجادلة: 7.
(5) سبأ: 24.

وكتب جوابه علاء الدولة على ظهر مكتوبة وأرسله إلى كاشان، وهو هذا: (قل الله ثم ذرهم)[1] الآية. كبراء الدين وسالكوا طريق اليقين اتفقوا على أن الذي يجني ثمرة الحق هو من كان طيب اللقمة، وصدق اللهجة شعارا له ودثارا، وحيث أن هذين مفقودان فما المقصود من هذه الطامات والترهات، آية العزيز كنت أطالع في كتاب الفتوحات وأكتب على هوامشه، فلما وصلت إلى قوله: سبحان من أظهر الأشياء وهو عيناها، كتبت (والله لا يستحي من الحق)[2] آية. الشيخ: لو سمعت أحدا يقول فضلة الشيخ عين وجود الشيخ لا تسامحه البتة، بل تغضب عليه، فكيف يسوغ أن ينسب إلى الله هذا الهذيان؟ تب توبة نصوحا لتنجو من هذه الورطة الوعرة التي يستنكف منها الدهريون والطبيعيون واليونانيون، (والسلام على من اتبع الهدى)[3]. وأما ما كتبتموه من أن في العروة ليس على المنهج المستقيم، فنقول: إذا كان الكلام مطابقاً للواقع واطمأنت إليه النفس ولا يعترض عليه الشيطان فذلك يكفينا والقلب يطمئن على وجوب وجوده ووحدانيته ونزاهته، ومن لم يؤمن بوحدانيته فهو مشرك حقيقي، ومن لم يؤمن بنزاهته من جميع ما يختص به من الممكن فهو ظالم حقيقي لأنه ينسب إليه ما لا يليق بكمال قدسه والظلم وضع الشيء في غير محله، ولذلك لعنهم الله في محكم كتابه (ألا لعنة على الظالمين)[4]، سبحانه عما يصفه به الجاهلون.

ولما تأملت في المكتوب ثانيا تذكرت أن هذا المقام حصل لي في أوائل المكاشفة وأواسطه، ولما وصلت إلى نهاية المكاشفة ظهر لي غلطه أظهر من الشمس يقينا لا مدخل للشك فيه، وكيف يؤول أكثر الآيات البينة لأجل آيات معدودة متشابهات، وذلك مثل محكم قوله تعالى: (قل إنما أنا بشر مثلكم)[5] وأخواتها فنؤول هذا ونقتدي بقوله: (وما رميت إذ رميت)[6]، وما علموا أن هذا لأجل تفهيم الخلق خصوصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما يقول الملك إذا أرسل مقربا له رسولا: يده يدي ولسانه لساني. وكما يقول الشيخ في إرسال مريده لإرشاد قوم: يده يدي، والغرض أن الغفلة عن قوله: (ألا لعنة الله على

(1) الأنعام: 92.
(2) الأحزاب: 53.
(3) طه: 46.
(4) هود: 18.
(5) الكهف: 105. فصلت: 5.
(6) الأنفال: 17.

الظالمين)[1] والإعراض عن قوله: (إنَّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا)[2] وأمثالها والتمسك بآية: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)[3] جهل بأن المراد هو الأول الأزلي تنتهي إليه سلسلة الاحتياج فضلاً عن شيء آخر، وهو الآخر الأبدي بأنه إليه يرجع الأمر كله، وهو الظاهر في آثاره الظاهر بسبب أفعاله الصادرة عن صفاته الثابتة لذاته، وهو الباطن في ذاته لا تدركه الأبصار ولا يعرف ذاته إلا هو. وقد صح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: كل الناس في ذات الله حمقاً. وقال، صلى الله عليه وسلم: تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات الله[4]. آية العزيز العلم المجرد الذي هو اعتقاد جازم مطابق للواقع نسبته إلى الشريعة، وعلم اليقين تعلق ببداية مقام المكاشفة، وعين اليقين بوسطه وحق اليقين بنهايته وحقيقة حق اليقين التي هي عبارة عن اليقين المجرد المشار إليه بقوله: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)[5] تعلقه بقطب درجات مقام المكاشفة، وكل من وصل إلى هذا المقام كل ما يقوله فهو مطابق للواقع وليس التوحيد المذكور في منازل السائرين آخر المقامات، بل هو المقام الثمانون وآخر المقامات المائة العبودية، وهو عود العبد إلى بداية حاله من حيث الولاية دائر مع الحق في شؤون تجلياته تمكناً. وبالجملة هذا المعنى الذي ذكرتموه ظهر لي في بداية مقام التوحيد ووسطه وبعده. ولما وضعت القدم في نهاية مقام التوحيد ظهر لي أنه غلط مخطئ مقرا على نفسي أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، فيا أيها العزيز اقتد أنت بهذا. ولما وقع النظر إلى قوله تعالى: (فلا تضربوا لله الأمثال)[6] فحوت الأمثال بالكلية والسلام هـ.

وقال الملا جامي في ترجمة الشيخ محي الدين ابن العربي: الشيخ علاء الدولة كان معترفا بفضل الشيخ، ولكنه كان يخطؤه في قوله بأن الحق هو الوجود المطلق، بل كان يكفره. وبعض أهل العصر ممن كان يعتقد الشيخين ويتبع كلا منهما قال في بعض رسائله: لا خلاف حقيقيا بينهما فإن تخطئة الشيخ علاء الدين وتكفيره للشيخ راجع إلى أنه فهم من كلام الشيخ معنى غير مراد الشيخ، وذلك أن للوجود

---

(1) هود 18.
(2) فاطر:6.
(3) الحديد: 3.
(4) اعتقاد أهل السنة 3: 524.
(5) الحجر: 99.
(6) النحل: 74.

ثلاث اعتبارات: الأول اعتباره بشرط شيء؛ وهو الوجود المقيد. والثاني بشرط لا شيء؛ وهو الوجود العام. والثالث؛ لا بشرط شيء، وهو الوجود المطلق. والشيخ محي الدين أراد المعنى الأخير، وعلاء الدولة حمله على المعنى الثاني، ودليل ذلك أن علاء الدولة أشار إلى إطلاق وجود الذات بالمعنى الأخير حيث قال في بعض رسائله: الحمد لله على الإيمان بوجوب وجوده ونزاهته عن أن يكون مقيداً محدوداً أو مطلقاً لا يكون له، بلا مقيداته وجود، وذلك أنه تعالى إذا لم يكن مقيداً محدوداً ولا مطلقا يتوقف وجوده على وجود المقيدات فلا بد أن يكون مطلقاً لا بشرط شيء، فليس مشروطاً بالقيد ولا العموم. وأما القيود والتعينات فهي شرط لظهوره في المراتب لا أنها شرط لوجوده في حد ذاته. والنزاع الذي بين علاء الدولة وعبد الرزاق من هذا القبيل، والله أعلم.

ومما سمعته عليه بقراءة غيري طرفاً من الفتوحات المكية لأستاذ المحققين سيدي الشيخ محي الدين محمد بن العربي قدس سره وهو يرويها وبقية كتب الشيخ محي الدين عن شيخه سيدي الشيخ أحمد الشناوي عن الشمس محمد الرملي عن زكريا، عن أبي الفتح المراغي، عن الحافظ بهاء الدين عبد الله بن محمد العثماني المكي، عن الحافظ أبي نصر محمد بن محمد الشيرازي عن مؤلفها. و لم يزل يجري على لسانه كثير من حكايات صاحب الفتوحات، رضي الله عنه، ووقائعه ومن جمله ما حكى لي عنه أنه، رضي الله عنه، أعني الشيخ محي الدين ذكر عن نفسه أنه كان ذات يوم بمكة جالساً مع أصحابه فجرى ذكر الحديث الذي فيه قول الله جل جلاله لأبينا آدم عليه السلام أخرج بعث النار. فقال الشيخ، رضي الله عنه، لأصحابه: تعالوا نهدي لأبينا هدية نتخذ بها عنده يدا حتى لا يخرجنا فيمن يخرج. فقالوا: نعم، فأي شيء نهديه له؟ فقال الشيخ إن الله قد نهج لنا على لسان رسوله نهج النيابة عن الغير في بعض الأعمال البدنية كالحج والعمرة، وليس هذا وقت حج، قوموا بنا فلنعتمر عن أبينا آدم ليكون ذلك وسيلة لنا عنده. فقاموا كما هم فذهبوا إلى التنعيم بقصد الإحرام، فلما وصلوا مساجد عائشة وجدوا هنالك بعض أصحاب الشيخ، وكان قد خرج قبلهم بقصد العمرة فسألهم عن الخبر وقال: ما الذي أخرجكم وقد تركتكم ورائي بمكة وما لكم نية في الخروج. فأخبروه بما قال الشيخ. فجاء إلى الشيخ وقال له: إني خرجت قبلكم بقصد العمرة، وأنا الآن أريد أن أحرم بما به أحرمتم وبالقصد الذي به قصدتم. فقال له الشيخ له: امض أنت

على عملك الذي خرجت له فإنك لم تخرج بهذه النية. فأحرم الشيخ، رضي الله عنه، وأصحابه بالنية المذكورة، فجاؤوا مكة وتمسحوا بالبيت ووقفوا بالمروتين وتم نسكهم. فلما كان في الليلة المقبلة رأى صاحبهم الذي أحرم بغير ما أحرموا به أن القيامة قد قامت وحشر الناس وقيل لآدم عليه السلام: أخرج بعث النار، فجيء بالشيخ وأصحابه فقال آدم عليه السلام: إن لهؤلاء عندي يدا أكافيهم بها اليوم فلا أخرجهم فيمن أخرج. قال الرائي: فقلت: وأنا معهم فإني من أصحاب هذا الشيخ. فقال إنك لم تحرم بما به أحرموا. فقلت: قصدت ذلك فمنعني هذا الشيخ. فقال الشيخ، رضي الله عنه، مصدقا له: أنا منعته ولكنه صاحبنا فهبه لنا، فوهبه لهم. انتهت الحكاية بالمعنى.

وعندما حكى لنا شيخنا هذه الحكاية قال لي الشيخ: وأنت إذا ذهبت إلى مكة فاعتمر عمرة عن أبينا آدم بهذه النية، فلما منَّ الله بالوصول إلى مكة والإقامة فيها اعتمرت عمرا متعددة في رمضان وغيره، ولم ألق بالاً لما ذكر لي الشيخ، رضي الله عنه، ورأيت أن ذلك منه تلميحاً فقط حتى جاءني كتاب منه بعثه إلي من المدينة يحضني فيه على ذلك، ونص الكتاب تيمنا بألفاظه وتبركا بنفسه الرباني لما اشتمل عليه من الإشارات العرفانية والحقائق العيانية، وذلك شأنه، رضي الله، عنه في سائر كتبه على منهج شيخه الصفي، فلا دلالة لهم إلا على الله، ولا إشارة لهم إلا إليه، ونصه: الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه، عدد خلق الله بدوام الله، من الحقير إبراهيم إلى الأخ الفاضل نادرة الوقت سيدي الشيخ عفيف الدين أبي سالم عبد الله العياشي، كان الله له، حيث كان وأمده في السر والإعلان في عافية آمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإن سألت عنا فلله الحمد في عافية، والمسؤول أن تكونوا كذلك موفقين لاغتنام الخيرات في تلك المواطن المباركات، شاهدين من أقام فيها الآيات البينات لتكون من أهل الاعتبار التلويني من الصور إلى المعنى بسلطان من الله ذي العزة والجبروت، وهكذا ينبغي أن يكون شأن من أضيف إلى الله بكونه عبد الله لا عبدا لغيره من صور الأكوان من حيث هي، وما نظر إليها من حيث هي مجالي النور الأحدي، فلم يخضع إلا إلى الله كما ورد في آخر حديث الكسوف أن الله إذا انجلى لشيء خشع[1]. أيدني الله

(1) الجامع الصغير 154 :1.

وإياكم بنور من عنده من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، آمين والسلام على الأخ عبد الرحمن وبقية أصحابكم، وإن اجتمعت بأخي عبد الرحمن فبلغ سلامي إليه، وإن تيسر فاشربوا عني ماء زمزم بنية العفو والعافية، ثم بنية حفظ القرى، جزيتم خيرا، ولا تنسوا الاعتمار عن أبينا أبي البشر آدم صنع الله صلوات الله عليه وسلامه، صلة للرحم وتمهيداً للشفاعة، وامتثالا لأمر الله الطالب لذلك بما وضع من الشرع الشريف الموصل إلى السعادة بإذن الله المنان، وبلغ سلامي إلى شيخنا بركة الوقت سيدي الشيخ عيسى سلمه الله تعالى ونفع به آمين، هـ بحروفه.

وعندما وصل إلي الكتاب امتثلت أمره فخرجت إلى التنعيم راجعاً، وأحرمت بالنية المذكورة، نسأل الله أن ينفعنا بأمثال إشارة أوليائه ويشفع فينا نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وكل أنبيائه.

قال شيخنا، رضي الله عنه، بإثر الحكاية المتقدمة: ولما بلغت حكاية الشيخ محي الدين وأصحابه إلى بعض المترسمين من الفقهاء الشافعية قال: إذا يلزمهم الدم لأن آدم عليه السلام أفاقيا. قلت: البحث بأمثال هذا عند أهل القلوب مما يستبرد، وعلى تقدير وقوعه فلا نسلم أن آدم أفاقيا، إما لأن الدنيا كلها بالنسبة إليه بمنزلة بلد الإنسان أنزله الله إليها وأباح له التصرف فيها كلها والتقلب فيها حيث شاء، وإما لأن مكة أم البلاد وهو أبو أهلها، فهي بالنسبة إليه بلد الإنسان[1]، وإن كانت جميع الأرض له بنسبة دار الإنسان على جميع البلد الذي هو ملكه، أو نقول مكة هي بلده حقيقة إذ هو الذي بنى البيت أولاً على ما ورد في بعض الأحاديث، فلا يعلم على وجه الأرض موضع ما بنى فيه آدم، وطاف به وتعبد لله وسجد وكثر تردده إليه، إلا موضع البيت، وهذا معنى كونه بلده، إذ الموضع الذي كثر تردد الإنسان إليه أكثر من غيره وكثرت إقامته به وهو محل عبادته هو بلده، وعلى القول بأنه مدفون على جبل أبي قبيس كما قال به غير واحد، أو في موضع البيت على ما رأيت للشيخ محي الدين في بعض تآليفه، فلا كلام في أنها بلده، ويؤيد ذلك ما ورد أيضا أنه تعرف بحواء في عرفات، فسميت عرفات وازدلف إليها في مزدلفة، فسميت مزدلفة، فأول مكان اجتمع فيه الإنسان بأهله ودنا منهم هو بلده، فأي بلد على وجه الأرض يعلم لها من النسبة لآدم ما علم لهذا البلد من النسبة بالبناء والتعبد الكثير والدفن به والاجتماع بالأهل والدنو منهم. ومدفن

(1) ساقط من ط.

زوجته حواء بجدة، وهي من عمل هذا البلد على القول بأنها مدفونة فيها، فالبلد الذي هو مدفن الإنسان ومدفن أهله أحق البلاد بأن تنسب إليه من غيرها من البلد التي لم يعلم له فيها إلا مجرد مروره أو نزوله، كجبل سرنديب بالهند، فإن قيل قد علم أن آدم كان عيشه وعيش أولاده من الحراثة، والزراعة والغرس وتعاني الأعمال التي هي مكاسب أولاده من بعده،، ومكة ليست ببلاد زرع وحراثة وغرس كما هو المشاهد، ولقول إبراهيم (بواد غير ذي زرع)[1]، فظهر أن مسكن آدم وبلاده هي بلاد أخرى غير مكة، إما بالهند الذي هو محل نزوله، أو غيره من البلاد، فيقال: لا نسلم أن مكة إذ ذاك لم تكن بلاد زرع وحرث مع أن أعمالها القريبة منها من الطائف ونجد، ومن الظهران وغير ذلك من قرى الحجاز ذات مزارع، وكُور مكة بنفسها ليست بها مزارع الآن لا يقدح في ذلك، فقد قال الأعرابي للنبي، صلى الله عليه وسلم، في حديث الرجل الذي اشتهى الزراعة في الجنة: إذا لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً[2]، فوصف قريشا بالزراعة مع أن وطنهم بمكة وليست بأرض زرع، ولكنهم كانوا يزرعون في نواحيها، وأيضاً فإن آدم عليه السلام أعطي من القوة على العمل وغيره ومن عظم الجسم والخلقة ما لم يعط غيره من بنيه، بدليل حديث: و لم يزل الخلق ينقصون[3] حتى الآن، وسخر له الملائكة يعينونه في أعماله لكونه غريب الشكل في الأرض، فأيَّد بهم، يعينونه في أشغاله ويحرسونه من مردة الشياطين، مع ما أعطي من سلطان النبوءة والاجتباء، وأعطي من حلل الخلافة في الأرض، فلا يبعد أن تكون مكة هي وطنه، وأطراف الأرض من شام ومصر وعراق ويمن بالنسبة إليه وإلى بلده نسبة بساتين البلد ومزارعه إليه، فيتصرف في الشام والعراق في أشغاله؛ من حراثة وزراعة وغير ذلك، ثم يأوي إلى أهله[4]، ومسكنه بمكة، لما أعطي من القوة، فيكون ذلك عنده، مع بعد المسافة، بمنزلة غدوة أو روحة يغدوها أحدنا أو يروحها إلى ضياعه، ومكاسبه لما أعطي من القوة وأيد به من المعونة، وقد أطلنا الكلام في هذا مع أنه ليس من متين العلم، ولكنه لا يخلو من فوائد إظهارا لجهل هذا الفقيه المجترئ على الرد على أولياء الله تعالى و لم يراع الأدب، فنسبهم إلى الجهل بما يجب عليهم في

(1) إبراهيم: 39.
(2) صحيح البخاري 826:2.
(3) فيض القدير 11:2.
(4) في ط: إليه.

فرع من الفروع من الديانة، ومن أيد بنور العلم لم يشكل عليه شيء مما ورد عن أهل الله مما يبادر عوام الناس المترسمة إلى إنكاره، وإني أحمد الله حمدا كثيراً وأشكره شكرا أثيراً على ما منحني من حسن الاستماع وحسن القبول لما أسمع من كلامهم فإني بحمد الله ما أذر أني سمعت كلاماً من كلامهم فنفر منه قلبي أو كرهه، وإن كان في غاية الإشكال، بل ينشرح قلبي لسماعه وقبوله، ولو لم أفهمه، وغالبه لا أكرر النظر فيه مراراً بحسن النية إلا ويمن الله بفهمه على وجهه أو ظهور محمل لائق عليه، وما[1] لم أجد محملا أجد له في قلبي برد التسليم له والتفويض في معناه لله ولرسوله ولأولي العلم من خلقه إذ هم خلفاء الله ورسوله في فهم كلامه وكلام أوليائه.

وولد الشيخ محي الدين بمُرسية[2] ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ستين وخمسمائة.

ومن فوائد الشيخ محي الدين في كتاب الفتوحات ما نصه[3]: وعندي أن البسملة متعلقة بالحمد لله، فإنّ الله تعالى لا يحمد إلا بأسمائه ولا نتكلف في القرآن محذوفا إلا لضرورة، ولا ضرورة هنا، فإذا قال العارف: باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله علق الباء بما في الحمد من معنى الفعل كما قلت، لا يثني على الله إلا بأسمائه. وأما قولهم المصادر لا تعمل عمل الفعل إلا إذا تقدمت، وأما إذا تأخرت فتضعف، فعندي غير مرضي في التعليل لأنه تحكم من النحوي، انتهى. فما أدق فهم هذا العرف، فلله در الإمام الغوري في قوله فيه: هو أعرف بكل فن من أهل كل فن. قال بعضهم إثر ما تقدم: وما ذكر من الامتناع هو مذهب جمهور النحاة، واختار جمع من المحققين منهم الرضى والسعد جواز عمله في الظروف المتقدمة، وهو الأظهر لأنها مما تكفي فيها رائحة الفعل هـ.

قلت: فقول العارف محي الدين: لا يثني على الله إلا بأسمائه لا يرد عليه أن الثناء على الله كما يكون بالأسماء يكون بالأوصاف الكاملة، وكل أوصافه تعالى كاملة، وبأفعاله المحمودة وكل أفعاله تعالى محمودة، لأنا نقول الثناء بالأوصاف

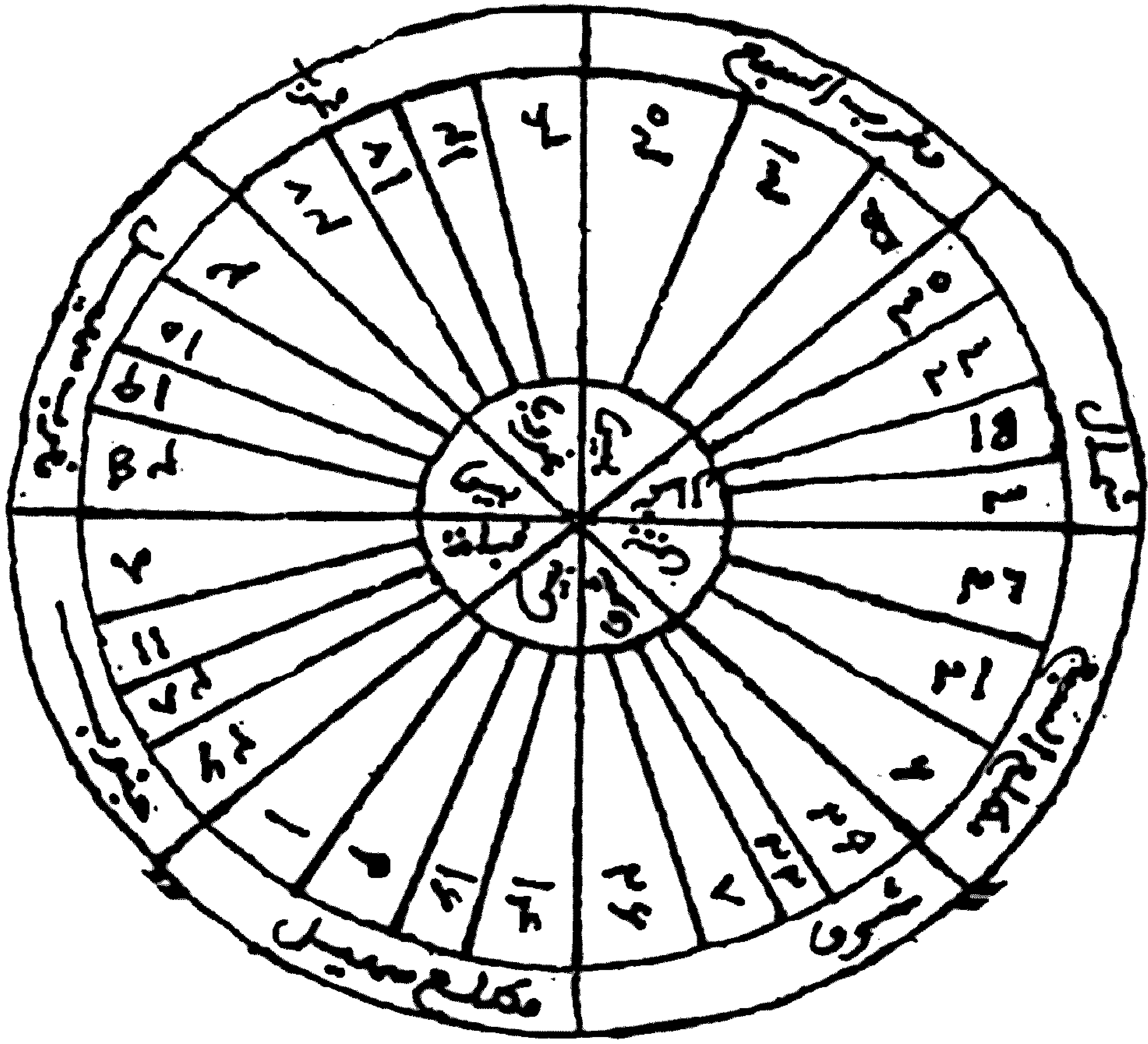
---

(1) في ط: لو.
(2) مُرْسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وسماها تدمير بتدمر الشام، فاستمر الناس على اسم موضعها الأول: معجم البلدان: مرسية.
(3) لم يرد هذا النص في الطبعة التي اعتمدناها من كتاب الفتوحات.

والأفعال يشمله الثناء بالأسماء فإن أسماءه مشتقة من أوصافه وأفعاله آثار أسمائه وصفاته، فيرجع الثناء كله إلى كونه بالأسماء، فإن قيل: لم يقل فإن الثناء عليه لا يكون إلا بأوصافه، فيكون شاملاً أيضاً لأن الأسماء مشتقة منها والأفعال أثرها.

قلنا: لو قيل ذلك لم يشمل الثناء بما ليس من الأسماء مشتقاً كأعظمها وهو الله الذي هو علم فإنه ليس مشتقا من شيء على أصح الأقوال، ولأن الثناء بالأسماء أبلغ من الثناء بالصفات لأن الأسماء دالة على الذات والصفات، فالعلم منها دال على الذات بسائر صفاته، والمشتق منها دال على الذات الذي له الصفة التي اشتق منها الوصف كما هو المعروف عند المحققين أن المشتق معناه الذات الذي له الصفة لا مجرد الصفة، بخلاف الصفة فإنها لا تدل على الذات بالوضع وإنما تدل بالالتزام على ذات ما تقوم بها الصفة، فقد ظهرت أبلغية الثناء بالأسماء، فلا يثنى على الله إلا بأسمائه وفي ضمنها الثناء بالأوصاف والأفعال. وللعارفين كلام أعلى من هذا وأدق في كون الأفعال كلها من مقتضيات الأسماء وكذلك الأوصاف، ولسنا الآن بصدده. وكلام العارفين بالله لا يخلو من ملاحظة هذه الأسرار لأن كلامهم ميراث كلام الله ورسوله الذي هو منبع اللطائف والأسرار.

ومن فوائد الشيخ محي الدين أيضاً في شرحه لكتابه: براءة المعاني في العالم الإنساني أن رجال الغيب والأرواح المقدسة في كل يوم من أيام الشهر متوجهون على جهة من الجهات الثمانية، فإذا أردت سفرا أو حاجة فاعرف موضعهم من الدائرة الآتية ثم توجه بقلبك وقالبك إليهم، ثم اقرأ الفاتحة واهد ثوابها إليهم وقل: السلام عليكم يا رجال الغيب يا أرواحا مقدسة يا نقبا يا نجبا يا أبدال يا أوتاد، أغيثوني بنظرة وأعينوني بقوة، بحرمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فترجع وقد نلت مطالبك وبلغت مآربك، وهذه الدائرة المباركة:



ورأيت في بعض التقاييد مما يتعلق بهذه الدائرة ما نصه: دعاء يقرأ بنية رجال الغيب وهو هذا: السلام عليكم يا رجال الغيب، يا أيها الأرواح المقدسة أغيثوني بغوثة، وانظروني بنظرة، يا رقبا، يا نقبا، يا نجبا، يا أبدال، يا أوتاد، يا أمامين، يا غوث، يا قطب، أغيثوني في جميع أموري بحرمة سيد المرسلين وإمام المتقين محمد، عليه الصلاة والسلام، سلمكم الله في الدنيا والآخرة. يدعو به وهو غير مستدبرهم ويقوم لهم بخشوع وسلام.

وهذا دعاء الاستقبال، يعني، والله أعلم، استقبال القبلة بعد التوجه إليهم أولاً ثم يقول: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك اللطف في القضاء كما لطفت بعظمتك دون العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك أني أسألك اللطــف في القضاء كما لطفت بعظمتك دون العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك، اجعل لي من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً، اللهم إني أسألك باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأقطار كلها أن تكشف عني ما أمسيت وأصبحت

فيه، يا حي يا قيوم يا قائم على كل نفس بما كسبت، أسألك بما سألك به الإمام الأعظم القطب الجامع الفرد وبالإمامين والبدلا والرقبا والنجبا والأمنا أن تسخر لي كل مخلوق على اختلاف الألوان واللغات، وأن تجلب لي المنافع والخيرات من جميع الآفاق والجهات، يا بروح اجلب المنافع والفتوح، وابعث لي الأرزاق من كل باب مغلق ومفتوح يا الله، قسماً عليك بنبيك الممدوح بالمدد والفرح والنجاة مـــشعر بروح، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لطيفة:

رأيت في كتاب المحاضرات والمسامرات للشيخ محي الدين ابن العربي، رضي الله عنه، ما نصه[1]: "أنشدنا أبو عبد الله بن عبد الجليل قال: أنشدنا أبو الحـــسن علي المسفر[2] بسَبْتَة لنفسه:

[مخلع البسيط]

يـــا أيهـــا المُبتلـــى بـــذَمي ... قـــد علـــمَ الله مـــا تقـــولُ

منْ حاســـبَ الـــنفسَ كُـــل حـــين ... لم يتـــهاونْ بمـــا يقـــولُ

كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر، حكيماً، عارفاً، غامـــضاً في النـــاس مخمول الذكر، رأيته بسبتة[3]، له تصانيف منها: منهاج العابدين[4] الذي يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، إنما هو من مصنفات هذا الشيخ، وكذلك له أيضا كتاب

(1) محاضرة الأبرار 160:1

(2) علي بن محمد بن يوسف بن عبد الملك الأنصاري الوراق، من أهل مرسية، يكنى أبا الحسن، اشتهر بلقب المسفر، رحل حاجا فأدى الفريضة وعاد إلى مرسية، وتوفي سنة 621 هـ،ستمائة ومولده بعد الخمسين وخمسمائة: التكملة لكتاب الصلة 232:3.

(3) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة: معجم البلدان: سبتة.

(4) قال صاحب كشف الظنون: منهاج العابدين للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة 505 هـ، وقيل هو آخر تأليفه، رتبه على سبع عقبات: الأولى عقبة العلم، الثانية عقبة التوبة، الثالثة عقبة العوائق، الرابعة عقبة القوادح، السابعة عقبة الحمد والشكر، وهو كتاب لطيف نافع لمن أراد الآخرة واعرض عن الدنيا: كشف الظنون 1876:2.

النفخ والتسوية[1] الذي يعزى لأبي حامد، ويسميه الناس المضنون به على غير أهله، ولهذا الشيخ أيضا القصيدة المشهورة"[2]:

[رمل]

قُــــلْ لإخـــوانٍ رأوني ميّتـــا فبكـــــوني إذ رأوني حَزنـــــا

أتظنـــــونَ بــــأني ميْـــــتُكمْ لـــيسَ ذاك الميْــــتُ واللهِ أنـــا

هـــ.

قلت: قد اشتهر واستفاض بسَبْتَة نسبة منهاجِ العابدين للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أتعجب من كونِه ليس جارياً على مذهبه في كتبه ولا هـــو مطابق لنفسه، وقد كنت أبحث كثيراً عن المشايخ الذين نقل عنهم فيــه حيــث يقول: قال شيخنا أبو محمد قال شيخنا أبو عمرو: وليس ذلك دأبه في مصنفاته، وأنا مع ذلك لا أشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك، وللإشارة فيه إلى إحياء علوم الدين، ولنقله فيه عن إمام الحرمين سماعا، فلما رأيت كلام الشيخ محـــي الـــدين المتقدم تيقنت أنه ليس له لعدالة الشيخ محي الدين وسعة علمه واطلاعه، سيما وقد ذكر أنه يعزى لأبي حامد مما نفاه عنه مع علمه بالعزو المذكور، إلا لعلم يقـــين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام الإمام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه، فإنه لسان وقته بلاغة وتحريراً، وذو الذوق السليم يميز بين الكلامين، ويشهد لذلك أيضا أن من عرف بالإمام أبي حامد من المتقـــدمين لم يذكر هذا الكتاب في تآليفه، والله أعلم.

وقد اشتهر نسبة كثير من التآليف لغير أربابها، فمنها كتاب مفتاح الفلاح[3]، فقد ذكر الشيخ زروق وغيره أنه لابن عطاء الله، وقد ذكر لي شيخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي أنه لشمس الدين البرشيني. قال لي شيخنا، وهو الغالب على الظن لبعده من كلام الإمام ابن عطاء الله في جميع تآليفه فإنه لا يكاد كلامه يخلو مـــن

(1) نقل صاحب كشف الظنون ما جاء في كتاب محاضرة الأبرار في سياق حديثه عن مؤلفات الغزالي: كشف الظنون 2:1876.
(2) محاضرة الأبرار 1:160.
(3)مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح للشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الإسكندراني المتوفى سنة 709 هـ: كشف الظنون 2:1769.

نقل كلام شيخه المرسي ومن كلام الشاذلي، وهذا الكتاب ليس فيه إلمام بشيء من ذلك، والله تعالى أعلم.

وأول ما أنشده الشيخ محي الدين في الفتوحات بيتين ذكرهما في خطبة الكتاب وهما[1]:

[مخلع البسيط]

الرب ربٌّ والعبدُ عبد يا ليتَ شِعري من المُكلفْ
إن قلتَ عبدٌ فذاكَ ميْت أو قلتَ رب أنى يُكلفْ

وذيلهما شيخ شيوخنا العارف بالله أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي بقوله[2]:

[مخلع البسيط]

نعمْ بحق إثباتِ عبْد لنعتِ فَرقِ معهْ يُكلفْ
والعبدُ مَيْتٌ بغيرِ رب لسِر عوْن منه مكلف

هـ.

قلت: ويمكن أن يقال بحسب مدرك عقولنا معاشر القاصرين، وإلا إشارته، رضي الله عنه، مما لم تبلغه عقولنا بعد المكلف هو العبد بعدما أفاض عليه الرب نور وجوده فصار مظهرا له، فليس بميت على هذا، فلولا نور الوجود الحق المفاض على العبد ما صح تكليفه إذ هو ميت كما قال: بل عدم محض، ولولا العبودية التي هي مظهر من مجالي ذلك الوجود ما صح التكليف أيضا إذ الوجود الحق لا يكلف، فمن أيده الله بنور الهداية أدرك الحقيقة المكلفة ذات النسبتين بحيث لا يصح التكليف بدون إحداهما، ومن طلب تمييز النسبة المُكَلَّفة من تلك الحقيقة لم يتضح له ذلك ووقع في الحيرة، بل لا يصح ذلك التمييز أصلاً لأن النسب أمور اعتبارية، والأمور الاعتبارية لا يمكن تمييزها بدون ما اعتبرت به أو له، إذ لو تميزت صارت قائمة بنفسها في الوجود الخارجي أو الذهني، والنسب والإضافات أمور

(1) الفتوحات المكية 2:1.
(2) ورد البيتان في: صفوة من انتشر، ص: 90.

اعتبارية لا تحقق لها في حد ذواتها، وأستغفر الله من الخوض فيما لم يبلغه فهمي وغاض دونه علمي، فإني أعلم أن إشارة العارف، رضي الله، عنه إنما هي لأمر فوق هذا، ولكن لما جرى في البيتين ذكر الرب تنزه وتقدس عَمَّا لا يليق بكماله من ممازجة الحوادث وملابستها أردت أن أذكر للبيتين معنى يقرب من أفهام العقول الضعيفة حتى لا يقذف الشيطان فيها شيئا مما يشين عقائد أصحابها أو يحملها على إساءة الظن باعتقاد العارف، ووازن ذلك السؤال مع تجنب ذكر لفظ الرب تنزيها له عن نسبة التكليف إليه ولو ترديدا مع سلبه آخراً عنه بأنى الاستبعادية أن يقال[1]:

[مخلع البسيط]

الروح روح والجسم جسم　　يا ليتَ شِعري من المُكلفْ

إن قلت جسمٌ فذاك ميت　　أو قلتَ روح أنى يُكلفْ

ويأتي فيه ما تقدم إذ الجسم بلا روح ميت حقيقة لا يصح تكليفه، والروح بلا جسم لا يكلف أيضا، إذ التكليف إنما هو بالأعمال المزاولة بالأبدان لمن يصح منه الفعل والترك، فأما من يصح منه الفعل أصلاً كالجسم دون روح فلا يكلف، ومن لا يصح منه الترك أصلاً، كالروح قبل ملابسة الجسم فلا يكلف أيضا لأنه من عالم الأمر، وقد قال الله تعالى: (قل الروح من أمر ربي)[2]، فهو كالملائكة الذين هم أرواح مجردة لا يصح وقوع المخالفة منهم فـ(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[3]، وكذلك كانت الأرواح قبل ملابسة الأجساد لا يصح وقوع المخالفة منها بل هي منقادة للأمر بدليل إقرارها بالربوبية كلها في عالم الذر دون تأب ولا تَلك، وكذلك أيضا قبل استحكام ملابستها للأجساد ووقوع الألفة المتطاولة بينه وبينها وذلك قرب الولادة بدليل قوله عليه السلام: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة[4]. الحديث. فإذا فهمت ذلك علمت أن المكلف الحقيقة الإنسانية الملاحظ في حقيقتها النسبة الروحانية والنسبة الجسمانية، وإن ذهبت لتحقيق تمييز إحدى النسبتين عن الأخرى ذهبت الحقيقة الإنسانية المكلفة

(1) الفتوحات المكية 2:1.
(2) الإسراء: 85.
(3) التحريم:6.
(4) صحيح البخاري 456:1.

رأساً، إذ الجسد بلا روح ليس بإنسان مكلف، والروح بلا جسد كذلك، فالحقيقة المكلفة تحدث عند ازدواجهما وتنفى عند اقترافهما، ولذلك قال أهل الحق: إنّ التنعيم والتعذيب في الآخرة إنما هو للروح والجسم معاً، إذ بهما توجد الحقيقة المكلفة المتوعدة بالعذاب الموعودة بالتنعيم لا للروح وحده كما قال الملحدة، فإذا فهمت معنى الترديد في التكليف هل للروح أو للجسم وهما معاً محدثان، وأن التكليف في الحقيقة إنما هو لأمر يوجد عند تمازج الحقيقتين لم يبعد عليك، إن نور الله بصيرتك ولم يسرع إلى خيالك اعتقاد الحلول والاتحاد في جانب الربوبية أن تفهم ذلك أيضا فيما بين الربوبية والعبودية، فالربوبية قديمة والعبودية حادثة والتكليف إنما هو لحقيقة توجد عند ملاحظة نسبة العبودية الحادثة للربوبية القديمة، والنسبة بينهما نسبة الأثر إلى المؤثر، فلولا فيضان نور وجود المؤثر على الأثر لما وجد الأثر، ولولا الأثر لما ظهر سلطان قدرة المؤثر لغيره، إذ لا غير بدليل: كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني[1]، يعني كنزاً لم يعرفني غيري، فبعد وجود الأثر منسوباً للمؤثر فثبت هناك حقيقة يصح نسبة التكليف إليها لا وجود لها بدون الأثر والمؤثر، وإن شئت قلت: هي الأثر ملحوظا نسبته إلى المؤثر، ولا نقول: هي المؤثر ملحوظاً ظهور وجوده في الأثر لما في ذلك من إيهام وقوع التكليف على الرب تعالى عن ذلك. وأما المثال الآخر في المحدثين فيصح ذلك من الجانبين، والله تعالى أعلم. وقرأت على شيخنا الملا إبراهيم طرفاً من فصوص الحكم للشيخ محي الدين، وناولنيه، كما قرأ منه على شيخنا صفي الدين وناوله إياه، وهو ناوله إياه الشيخ محي الدين في رؤيا رآها، وقد ذكر الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، في أول هذا الكتاب أنه ناوله إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وهذا الكتاب من أغمض كتب الشيخ محي الدين إشارة وأدقها عبارة على صغر حجمه، وقد اعتنى الناس بشرحه، فشرحه جماعة كثيرة، ومع ذلك حارت أفهامهم في فهم كثير من رموزه واستخراج خبايا كنوزه، وأحسن ما رأيت عليه من الشروح شرح الملا عبد الرحمن الجامي، وكان الملا جامي، رضي الله عنه، آية من آيات الله في علمي الظاهر والباطن، وله شرح على كافية ابن الحاجب، هو من

(1) كشف الخفاء 173:2.
(2) فصوص الحكم، ص:9.

أحسن شروحها، وهو أكبر ساداتنا أهل سلسلة الخوجكان صاحب أصحاب بهاء الدين نقشبند رضي الله عنهم.

وقرأت عليه أيضاً طرفاً من أنوار التنزيل للقاضي ناصر الدين البيضاوي، رضي الله عنه، من أوله[1]، وذلك المحل الذي قرأته عليه هو الذي قرأه على شيخنا صفي الدين القشاشي، فاخترت قراءة المحل الذي قرأه على الشيخ تيمنا بذلك. وقرأت عليه المراجعة التي وقعت بين كمال الدين الشيخ عبد الرزاق الكاشي وبين الشيخ علاء الدولة السمناني[2]، رضي الله عنهما، في مذهب الشيخ محي الدين، وقوله في معنى الوجود المطلق، وستأتي بنصها إن شاء الله، بل تقدمت.

وقرأت عليه أيضاً مواضع كثيرة من كلامه في رسائله وتآليفه، أكثرها يتعلق بمسألة وحدة الوجود ووحدة الصفات. وقرأت عليه رسالة كتبها برسمي في المسألة التي ألف فيها شيخنا صفي الدين وبالغ في إيضاحها وتعددت تآليفه فيها، وهي مسألة كسب العبد ونسبة فعل العبد إليه وإلى قدرة الرب، فقد انتصر الشيخ، رضي الله عنه، في ذلك للقولة المنسوبة لإمام الحرمين وتأولها على ما ينافي مذاهب أهل الحق، وتشهد له بصائر أهل الكشف وتعضده شواهد الآيات ومعاني الأخبار الصحيحة، وما فعل، رضي الله عنه، من تأويلها وتبيين معناها على حسب ما ظهر، وإن كان فيه غموض على أفهام كثير من الناس أولى مما فعله كثير من المشايخ من القضاة ببطلانها والتشنيع على الإمام أو على من نسبها إليه وأنكروا وجودها في كتبه، وذلك قصور منهم، رضي الله عنهم، فإنها قولة صَحَّت عن الإمام في رسالته النظامية التي هي من آخر مؤلفاته، ولذلك لم يتردد المتقدمون في نسبتها إليه لإحاطتهم بأخبار الإمام ومطالعتهم لكتبه. ولما لم تشتهر هذه الرسالة لتأخرها كاشتهار الإرشاد وغيره من كتبه، لم تبلغ إلى بعض المتأخرين، فأنكر وجود القولة المشهورة في شيء من كتب الإمام، وظن أنها مفتعلة عليه وصدرت منه في مجلس المناظرة على وجه المعارضة أو إرخاء العنان أو غير ذلك مما لا يعد مذهبا لقائله. وقد بالغ شيخنا رضي الله عنه، في إيضاحها والاستشهاد لها في رسائله الثلاث، وكذلك تلميذه الملا، إبراهيم بالغ في بيانها وكشفها، ومع ذلك لم

(1) إتحاف الأخلاء، ص: 124.

(2) أحمد بن محمد بن أحمد الملقب بعلاء الدولة السمناني، عالم مشارك، له تصانيف كثيرة في التفسير والتصوف وغيرهما، توفي قبل الأربعين وسبعمائة بقليل: طبقات الشافعية 2:248.

تخل من غموض و لم تتضح كل الوضوح، ولا غرو إذ هي من معضلات المسائل التي حارت فيها أفكار المتقدمين و لم تحصل على طائل في تحقيق معناها آراء المتأخرين، فقصارى أمرهم فيها اعتقاد انفراد الرب تعالى بالخلق والتقدير، واعتقاد أن للعبد في أفعاله الاختيارية كسبا به صح نسبة الأفعال إليه، وثبت التكليف وعلي ترتب الثواب والعقاب، وهذا معتقد جميع أهل السنة، وهو الحق الذي لا محيص عنه، ولكنهم إذا ضويقوا في تحقيق معنى هذا الكسب تباينت آراؤهم بين مائل إلى ما يقرب إلى الجبر، ومائل إلى ما يقرب إلى القدر. وأهل السنة لا يقولون بواحد منهما فقد قال الإمام سعد الدين في شرح العقائد بعد ما ذكر كلاما في معنى الكسب ما نصه: وهذا القدر من المعنى ضروري إذ لم نقدر على أزيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله تعالى وإيجاده مع ما للعبد فيه من القدرة والاختيار، فإذا علم أن فحول أهل السنة قد عجزوا عن تحقيق معناه مع تظاهرهم وتظافر معتقداتهم على نفي الجبر والاستقلال، فلا ينبغي المبادرة إلى التشنيع والإنكار على من أحدث قولا في المسألة بفهم أتاه الله إياه وانتصر لقول من الأقوال المقولة فيها لأهل السنة بدلائل بينها الحق له، وبصيرة أنارتها الهداية الإلهية ما دام لم يقض بصحة أحد القولين المتفق على إبطالهما عند أهل الحق، وهما الجبر والاستقلال، لأن ذلك هو المعيار الصادق، فما دام العبد يعتقد في المسألة معتقدا ليس بجبر ولا استقلال، فهو على الجادة وإن عجز عن تحقيقه، إذ لا نكلف بإدراك الكنه في كثير من المسائل الاعتقادية، وإنما المكلف به فيها اعتقاد الثبوت والوجود فقط. هذه المسألة، أعني مسألة الكسب، ليست من المسائل التي يستحيل فيها إدراك الكنه حتى نحكم بتضليل من ادعى إدراك كنهه وحقيقته، بل لغموضه وخفائه لم نكلف بمعرفة حقيقته بل باعتقاد ثبوته ووجوده، وإن للعبد كسباً به نيط التكليف يوجد بوجوده مع استكمال الشرائط، وينتفي بانتفائه لأن من لم يعتقد ذلك وقع لا محالة في أحد أمرين محالين: تجوير المولى تعالى أو تعجيزه تعالى الله عنهما علواً كبيراً. ولا بدع في اعتقاد الإنسان ثبوت شيء لا يدري كنهه كالروح، فإنا نعلم يقيناً وجوده وثبوته مع عجزنا عن إدراك كنهه. وليس إدراك الكنه فيه محال عقلاً ولكنه لصعوبته أمسك الشارع عن إيضاح معناه لعجز عقول أكثر الناس عن إدراكه. وقد نص الغزالي وغيره على أنه لا ينبغي

لمسلم أن يعتقد أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لم يعرف ماهية الروح ولم يدرك حقيقته كيف، وقد[1] أدرك من المعارف الإلهية والحقائق الربانية ما لم يخطر ببال أحد من الخلق سواه؟ فكيف يعجز عن إدراك حقيقة روحه الذي به هو هو، فيصير كأنه عجز عن إدراك نفسه، ومن عجز عن إدراك نفسه فهو عن إدراك غيره أعجز، وهو، صلى الله عليه وسلم، أجل قدراً من ذلك، بل له التصرف التام في عالم الأرواح بأسره، وهو روح الأرواح الأمين نديمه وسميره في غالب الأوقات، وروح القدس ينفث في روعه بما كان وما سيكون، فكيف لا يكون عالماً بالروح وحقيقته، وإنما أمرنا بالإمساك فأمسك لكونه مشرعاً، وقد قال: خاطبوا الناس بما يفهمون، أتريد أن يكذب الله ورسوله[2]، بذلك تقول في الكسب هو صفة من صفات العبد يحس كل أحد بوجودها فيه وثبوتها في محله فيها يفرق بين أفعاله الاختيارية والضرورية، ولكنه لا يدري حقيقتها ولا يحقق كل التحقيق نسبة أفعاله إليها، مع اعتقاد انفراد الله تعالى بخلق العبد وخلق أفعاله غير مفتقر إلى معين. واعتقاد أن لكسب العبد دخلا في وجود أفعاله على وجه لا يضايق فيه القدرة الإلهية ولا يزاحمها ولا يعينها، ولكن عجزنا عن إدراك ذلك على وجه، ومن أتاه الله فهما وعلما ونورا فأدرك حقيقة ذلك كما يدرك العارفون بالله حقائق أشياء كثيرة من علم الغيب والشهادة قد عجز عن إدراكها أكثر الخلق، فلا ينبغي الإسراع إلى الإنكار عليه ولا التشنيع عليه إذ لم يدع محالا، فالأولى التسليم له، سيما إن كان من أئمة الهدى ورؤساء السنة وكبراء الأمة، كإمام الحرمين، رضي الله عنه، وممن ظهرت ديانته، وثبتت إمامته، واتضحت عدالته، وغلبت على الظن ولايته، وثبتت في علوم الشرع مشاركته، ولم يرم ببدعة ولم ينبذ بسوء اعتقاد كشيخنا الغوث صفي الدين القشاشي رضي الله عنه، وإن كان لا بد من التعقب والنقد والنظر في كلام من هذه صفته، فلينظر بعين الإنصاف وسداد الرأي إلى كلامه، فإن فهمه الناظر حق إليهم سبره بالمعيار المتقدم من عرضه على آراء أهل الضلالة، فإن وافق أحد الجانبين الباطلين كل الموافقة حتى صار هو هو، فهو جدير بأن يلغى ويترك وتوكل سريرة قائله إلى الله لاحتمال أن عبارته لم توف بما في ضميره لعلمنا بأنه من أهل السنة، وإن لم يوافق أحد الجانبين المحكوم ببطلانهما إلا أنه على خلاف ما كنا نعتقده نحن ونتوهمه ونفهمه من كلام الغير، فلا ينبغي أن

(1) في ط: وهو قد.
(2) تفسير القرطبي 8: 184، وفيه حدث بدل خاطبوا.

تحكم ببطلانه لأجل مخالفته لكلام الغير، لأنَّ الحق في المسألة ليس منحصراً في شيء بعينه يدركه كل أحد، فيحتمل أن هذا القائل قد عثر على الحق أو على جانب منه إذ ليس فيه إمارة الباطل ودليله.

وأما إن كان الناظر في كلام أحد من الأئمة المتقدم ذكرهم لم يفهمه كل الفهم و لم يحط علما بمقاصده والتبست عليه المذاهب في تحقيق مقالته، وهذا وصف غالب من ابتلى بالاعتراض على المشايخ، فما أجدر هذا بأن يمسك عن الخوض في ذلك لأن الحكم على الشيء بالصحة والفساد فرع تصوره، وهذا لم يتصور شيئاً من معتقد هذا الإمام حتى يحكم برده أو إمضائه، فليحرر هذا المسكين معتقد نفسه على مذهب أهل السنة والحق، وليجتهد قدر طاقته في تتريهه عن مذاهب أهل الباطل في موافقة أهل الحق قدر وسعه، وليترك ما وراء ذلك لأهله، فإن خاض فيه فقد عرض نفسه لما لا قبل له به.

وقد ابتلي أقوام من المترسمة من أهل عصرنا بالتشنيع على شيخنا صفي الدين وتبديعه وتضليله، وقالوا: إنه يقول بتأثير القدرة الحادثة، وخالف الشيخ السنوسي وغيره من المشايخ، ورد عليهم. فإذا طولبوا بتحقيق ما ردوه عليه عجزوا، فإذا قيل لهم: ما معنى التأثير الذي نسبه للقدرة الحادثة وما معنى التأثير الذي نفيتموه أنتم مع تسميتكم لها قدرة؟ لم يؤتوا من الجواب إلا بجعجعة ليس لها طحين، وهمهمة ليس معها تبيين، مع أنَّ الشيخ، رضي الله عنه، مصرح بعدم تسميته وصف العبد قدرة إلا على وجه المجاز، إذ لا يعقل من معنى القدرة إذا أطلقت إلا وصف له تأثير، فإن سمينا وصف العبد الذي له نسبة في وجود الفعل جعلها الله له قدرة مجازاً، فلنسم تلك النسبة التي جعلها الله له في وجود الفعل أيضاً تأثيراً مجازاً، وإن قلنا لا تأثير لقدرته، نعني حقيقة، فلنقل لا قدرة له أيضاً حقيقة، وإنما هي قدرة واحدة قديمة إلهية ذات نسبتين، نسبة وجودها وقيامها بذات المولى جل جلاله أزلاً وأبداً، فتنسب إليها الأفعال حقيقة على وجه الخلق والاختراع والاستقلال بها على وفق الإرادة القديمة، ونسبة ظهورها في محل العبد وتجليها فيه كما هو شأن سائر الصفات في تجليها، إذ قدرة العبد من قدرة سيده، وحوله بحوله، وقوته بقوته، كما أفصح بذلك لا حول ولا قوة إلا بالله الذي هو كتر من كنوز الجنة، فتنسب إليها الأفعال بهذا المعنى على جهة الكسب والإضافة، وينسب إلى ذلك الكسب تأثير يناسبه على وجه المجاز لكونه محلاً لظهور الأثر، فإن المجاز عند العرب إذا تجوز في

حقيقة من الحقائق تجوز فيهما مع عوارضها المشخصة التي لا تثبت الحقيقة ولا توجد إلا بها، فإذا تجوز في إطلاق السبع على المنية تجوز في الحقيقة السبعية مع عوارضها وصفاتها التي لا تكمل السبعية إلا بها، مثل الأظفار والجرأة العظيمة والاغتيال بالقهر، وجعلت تلك الأوصاف كلها مجازاً للمنية كما كانت للسبع حقيقة، وإلا لما صح التجوز، فلو قيل مثلا: المنية سبع لا ناب له ولا ظفر ولا جرأة ولا اغتيال لقبح ذلك كل القبح عند كل ذي ذوق سليم، وقضى برده على كل ذي عقل فهيم، فكذلك يقلل في الكسب الذي هو وصف العبد مع القدرة، فإن سمينا وصف العبد قدرة لكونه له نسبة جعلية في وجود الفعل، كما أن للقدرة نسبة ذاتية في ذلك، فلنجعل لذلك الكسب الذي سميناه قدرة تأثيراً مجازياً يناسبه، وإلا بطل تسميته قدرة كما بطل تسمية المنية سبعا من غير إثبات أوصاف السبع لها، ولأجل هذا مع تتريه أوصاف الحق تعالى أن ينسب شيء منها إلى العبد تحاشى الأقدمون من أهل السنة والسلف الصالح عن تسمية وصف العبد قدرة فلا تكاد تسمع في مؤلفاتهم إلا الكسب حتى تجاسر على إطلاق القدرة المتأخرون ورأوا أن لا فرق بينه وبين القدرة، و لم يتجاسروا على إطلاق التأثير على نسبته إلى الفعل تباعداً عن قول القدرية بخلق العبد أفعاله فقالوا: قدرة لا تأثير، فأثبتوا لعبد قدرة فراراً من قول الجبرية، وقالوا لا تأثير لها فراراً من قول القدرية، ولعمري إنها لعبارة حسنة في بادي الرأي متوسطة بين قولي الإفراط والتفريط، إلا أنها إذا حكمت على معيار التحقيق وطولب صاحبها كل المطالبة أدَّت إلى شيء لا يدرك له صاحبه معنى ولا يجد له مفهوماً، ولذلك قال بعض من عاب علم الكلام كما نقله ابن القيم وغيره بمحالات الكلام ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، فإنك إذا حققتها لم تجد شيئاً، فطفرة النظام هو قوله إن الجوهر ينتقل من المكان الأول إلى الثالث من غير أن يمر بالثاني، وأحوال أبي هاشم يقول ليست موجودة ولا معدومة، وكسب الأشعري يقول قدرة ولا أثر لها وذلك عين العجز. وانظر إلى ما آل الأمر إليه بسبب سوء التعبير حتى عد معتقد أهل الحق والسنة مع محالات المعتزلة في نسق واحد، فإذا سعى أحد من علماء الأمة بما أتاه الله من النور والفهم كشيخنا القشاشي وبذل مجهوده في إثبات معنى للكسب يبعد به شيئاً ما عن هذه المحالات التي عد من جملتها وأيد ما أثبته من ذلك بالآيات والأحاديث وأقاويل أهل الحق مع نورانية الكشف الصحيح، فلا يشنع عليه إلا مخذول أعمى البصيرة، ولقد تكلمت مع بعض من زعم أنه ألف في الرد عليه فقال لي: إني

حرت في كلام هذا الرجل بينما أقول هو قدري محض، لما يظهر من كلامه إذ رجع رأيي فيه إلى أنه جبري محض، فلا أدري من أي الجهتين هو وقد حرت في أمره، قلت له: شهدت ورب الكعبة بالسنية المحضة، وأنت لا تشعر لأن أقوى دليل على كون معتقد العبد موافقا للسنة في هذه المسألة كونه ليس مع أحد الجانبين، ودليل كونه في غاية التوسط الذي هو غاية التحقيق كونك كلما اعتبرته مع أحد الطرفين ظننته أقرب إليه من الطرف الآخر كقطب الدائرة ومركزها، فعلامة توسطه أنك كلما اعتبرته مع قطر من أقطارها ظننته أقرب إليه من الآخر، وهكذا كلام هذا العارف إذا سمعت قوله القدرة العبد تأثير قلت: هذا قريب من مذهب القدرية، وإذا سمعت قوله: إنما هي قدرة واحدة ولا قدرة للعبد أصلاً إلا ما يظهر من أثر قدرة الحق في محله، قلت: هذا قريب من مذهب الجبرية، وهذا لعمري غاية التحقيق لمن علمه، وهو حري بالاعتقاد لمن فهمه، وبالتسليم لمن لم يفهمه فإن فيه نوع غموض لا يظهر كل الظهور إلا بالكشف الصحيح، ولذلك كانت تآليف الملا إبراهيم في المسألة أقرب إلى الأفهام من تآليف شيخنا الصفي لأن الصفي الغالب عليه والمستولي عليه صحة الكشف فيعتمد عليه كثيراً وعلى أقاويل العارفين كالشيخ محي الدين وأضرابه وعلى دلائل الكتاب والسنة، ولا يعرج على دلائل المتكلمين إلا قليلا فعسر فهم كلامه على كثير من المترسمة الذين لم يكونوا على قدمه في العرفان والكشف عن معاني الأسماء والصفات.

وأما شيخنا الملا إبراهيم فلقوة نظره في المعقولات وسعة اطلاعه على أقاويل المتكلمين وتمييز صحيحها من فاسدها أبرز المسألة في قالب مسائل علم الكلام، واحتج لها بادلتهم، وردها على صحيح أقوال أهل السنة، وتتبع الأدلة التي أبطل بها أهل السنة أقوال القدرية والجبرية، وبين أن واحداً منها لا يدل على بطلان هذه القولة بعمومه ولا بخصوصه، بل ذكر لي أنه فحص غاية الفحص فلم يجد في كلام الأشعري، رضي الله عنه، ما يدل على نفي الأثر عن القدرة الحادثة وإنما يوجد ذلك في كتب الأصحاب معزواً له. قال: بل وجدت في كلامه نفسه في كتاب الإبانة الذي ضمنه معتقده، وأمر أصحابه باعتقاد ما فيه، ما يشعر بما هو كمذهب إمام لحرمين، وقد نقل ذلك في رسائله وسأذكر بعضها آخر الترجمة إذ الغرض من هذه الرحلة أن تكون ديوان علم، فلا آلو ما أدخلت فيها من الفوائد لرغبة كثير من الصحاب في ذلك.

أخبرني الشيخ الملا إبراهيم أنه كان في أول اتصاله بالشيخ يضيق عليه النطاق في أمثال هذه المباحث من وحدة الوجود ووحدة الصفات وغير ذلك مما لم يوافق عليه العارفون بآراء المتكلمين لأنه كان متضلعاً بعلوم أهل الكلام، وكان الشيخ الصفي، رضي الله عنه، إذا أحس منه بشيء من ذلك يقول له: أثبت فسيشرح الله صدرك لقبول الحق، وليس هذا الأمر بسهل إنما هو كالخروج من دين إلى دين. قلت: والمعتقدات هي أعلى الدين، فلا يخرج الإنسان من معتقد ألفه إلى معتقد أعلى منه إلا ببرهان واضح ونور لائح، يظهر به عدم مخالفة الاعتقاد الثاني للمعتقد الحق الذي قامت عليه دلائل الكتاب والسنة، إلا أن المعتقد الثاني يكون أعلى من الأول وأبين أوضح إذ لا يكون الاعتقاد الثاني مبايناً للأول إلا إذا كان أحدهما فاسداً، ومعتقدات أهل السنة والحق قامت البراهين القطعية التي لا تحتمل شكا ولا ترديدا على صحتها إلا أن بعضها أكمل من بعض في الوضوح والبيان، وإن كانت كلها بينة واضحة فليس معتقد عوام المؤمنين المستند أولا إلى تقليد علماء الأمة ثم ثانيا بعد انتهاء عقولهم إلى نظر جملي كمعتقد علماء الأمة العارفين بأدلة الكتاب والسنة وقضايا العقول الضرورية والنظرية بمعتقدات هؤلاء لا يطمع في تزلزلها شيطان مريد ولا ملحد عنيد لتشييدها بالأدلة القاطعة والحجج الساطعة، ومع ذلك فليست معتقداتهم بالنسبة إلى معتقدات كبراء العارفين أهل الكشف الصحيح والذوق الصريح والبصائر النورانية إلا كنسبة معتقدات العوام إلى معتقداتهم، لأن معتقد العارف مستند إلى الشهود والعيان ببصائر الإيمان والإيقان، فلا يحتاجون إلى إقامة دليل ولا وجود برهان، فمثل معتقدات الفرق الثلاثة كمن كانوا في بيت مظلم فأخبرهم مخبر بطلوع الشمس فصدقوه كلهم لتجربتهم له قبل ذلك، ولأنه لا يكذب فلم يبق عندهم شك في طلوع الشمس، ثم نظر قوم منهم إلى شقوق وطيقان في جدار البيت فرأوا ضوءاً لامعاً ونوراً واضحاً فازدادوا يقينا بطلوع الشمس لقول المخبر: وما لاح لهم من الدليل الدال على طلوعها وهو الضوء اللامع، ثم قام قوم إلى باب البيت ففتحوه فرأوا قرص الشمس بعينه، فحصل لهم علم[1] اليقين بطلوع الشمس من غير احتياج إلى دليل، بل غابوا عن مشاهدة الدليل، فلو رام أحد منهم أن يستدل بعد الشهود عد ذلك منه غلطا كما قيل:

---

(1) في ط: علم.

[طويل]

فـــؤاديَ لا يحتـــاجُ فيـــه لـــشاهِدٍ   وتقريريَ المعلومَ ضربٌ مـــن الجهـــلِ

ومن الأمثال الشهيرة ليس بعد العيان بيان. وقد قال الشيخ أبـــو الحـــسن الشاذلي: إنا لننظر على الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان. فقد تبين لك تفاوت حال المعتقدات مع صحتها كلها، وكون المعتقد شيئاً واحداً، فالانتقال من عقائد العوام على عقائد العلماء لا يحصل إلا بعد فهم الأدلة الـــتي استدلوا بها، والعلم بصحتها، وكذلك الانتقال من عقائد العلمـــاء إلى عقائـــد العارفين لا يكون إلا عن مترلة صحيحة لأحوالهم والوصول إلى مقاماتهم، فمـــن أراد اعتقاد معتقداتهم تقليدا صعب عليه الأمر ونازعه الوهم لأن العقل لا يـــذعن لقبول ما لم يدرك، ولكن كما ينبغي للعوام تقليد العلماء فيما قالوه وإن لم تدركه عقولهم، وثوقاً منهم بحسن نظرهم وسداد رأيهم كذلك ينبغي للعالم تقليد العارف الذي فوقه فيما لم يبلغه عقله تحسينا لظنه به إذ لم يأت بشيء أقام القاطع مـــن العقل والنقل على بطلانه، إنما أتى بشيء عجز عقل العالم عن إدراكه لـــضعف بصيرته وعدم وصوله إلى ما وصل إليه العارف وببركة تقليده له وحسن ظنه بـــه يوصله الله إلى لقائه حتى يصير ما كان تقليداً علماً يقيناً، وما كان علماً عن غيب عرفاناً عن شهود، وإن لم يوفق لتقليده فيما قال، فأقل درجته التسليم له فيما أتى به، إذ منازعته فيما لم يحط به علما و لم يدركه عقله حرمان وخذلان.

ولقد أخبرني الملا إبراهيم أن الشيخ صفي الدين كان يقول لهـــم في أثنـــاء التقرير لهذه المباحث: يا أولادي إنما أشتغل بنقل هذه الأدلة وتهذيبها وأفرح بمـــا أجده من كلام أئمة الحق موافقا لقولي، كل ذلك لأجلكم وحرصا على هدايتكم، وإلا فإنا على بصيرة من ربي ونور منه فيما أقوله من ذلك وأعتقده، ولا يـــضرني مخالفة مخالف ولا يزيدني علماً موافقة موافق.

قلت: ومصداق ذلك قوله عليه السلام لما نزل قول الله تعالى: (فإن كنـــت في شك مما أنزلنا عليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك)[1] الآية. لم أشك و لم أسأل لكونه عليه السلام حصل له من العلم واليقين ما لا مزيد فيه موافقـــة أحد، ولا ينقص منه مخالفته. قال الملا: كنت أقول للشيخ لما ظهر لي لوائح صدق

(1) يونس:94.

مقالته وشرح الله صدري لفهمها: يا سيدي إن هذه المقالة لا يمكن تقريرهـــا ولا تمشيتها على قواعد المتكلمين إلا من فهم معنى وحدة الصفات، وأقر بها وصـــدق بها، وأكثر المتكلمين لا يقولون بذلك ولا يعرفونه كما لا يعرفون وحدة الوجود. قال الملا: ثم رأيت بعد ذلك في كلام العارف بالله الشيخ عبد الجليل القـــصري صاحب شعب الإيمان، وهو من أشياخ الشيخ محي الدين ما يشير إلى نحو ما قلته وإن لم يصدق بوحدة الوجود ووحدة الصفات لم يقدر على فهم شيء من أقوال العارفين خصوصاً في المعتقدات، ومع ذلك فقد كان الملا لا يألو ما أبرز أقاويـــل العارفين في قالب آراء المتكلمين تقريبا للأفهام، ومن طالع رسائله وتآليفه صدق بذلك وعلم صحته.

لطيفة:

كان شيخنا الملا، رضي الله عنه، ذات يوم، يقرر لي مسألة مـــن الحقـــائق المتعلقة بوحدة الوجود، فاعتاصت على فهمي وأبيت من قبولها، ثم بعد ذلك لقيته فقال لي: إني كنت اغتممت آنفاً لعدم قبول فهمك لما أقرره لك وأهمني ذلـــك كثيراً، فنمت فرأيت في النوم قائلاً يقول لي: حياتهم تفقههم، فانتبهت، فزال ما بي من الغم، ورجوتُ الله تبارك وتعالى سيفقهك في هذا الأمر بما يضعه من حيـــاة المعرفة في قلبك لا بنظم الأدلة وتقريرها، وإني لأرجو بركة هذه الرؤيا وأطمع في ظهور صدقها، ولا يأس من روح الله[1]. على أني أحمد الله تعـــالى ولا أجحـــد حصول بعض أثرها، نسأل الله تعالى تمام النعمة ودوامها.

ولقد كان، رضي الله، عنه يعجبه صدقي في عدم قبول ما لم أحط به علما، وقولي له: إني وإن صدقت القوم فيما يقولون، واعتقدت صحة مقالتهم، فإني لا أنتقل عما أنا عليه من معتقد العوام المقطوع بصدقه إلا ببرهان من الله واضـــحٍ، وحجة منه قاهرة، فإن يُردني الله بذلك ويؤهلني لسلوك طريقهم، فسيفتح لي باباً من المعرفة فسأدرك ما تقول، وإن يكن غير ذلك فلا ينبغي لي أن أتعاطى ما ليس لي به علم: ولا خير في ود يكون تكلفا[2].

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) :يوسف: 87.
(2) هذا صدر بيت لليوسي بقيته: ولا في ودود حيث لنت له شمخ: زهر الأكم 2:235.

وقد قال صاحب الحِكم: الواردات الإلهية قلما ترد إلا بغتة، وقد جلت أن تنال بتعمل وتكلف[1]. وربما أكثر محاورتي بعض أصحابه عند جمودي على ما أنا عليه من عقائد العوام، فيقول لهم الشيخ: دعوه فإن لصدقه بركة سينال بها بعض ما امتنع من قبوله الآن، واستصوب رأيي في ترك تكلف ما لم يؤهلني الله لمعرفته، ولكن مع ذلك كان يحضني على تصديق المشايخ واعتقاد أن ما قالوه حق وإن لم أفهمه، وتقليدهم فيما لا ضرر عليّ في تقليدهم فيه، ويقول لي: إن تقليد الصادق واعتقاد صحة قوله أصل كل خير، وما نال من نال من أهل الطريق إلا ببركة اعتقادهم في مشايخهم، والتقيد المذموم إنما هو الاقتصار عليه من غير سعي في إدراك العلم، أو تقليد ما لم يتبين صدقه، وأما من تبين صدقه، كالرسل، عليهم السلام، أو ورثتهم من أكابر العارفين، فتقليدهم بمنزلة العلم الحاصل بالدليل، لأن الدليل القائم عندك على عدالتهم وهدايتهم وسلوكهم سبيل الحق دليل لصدقهم فيما ادعوا ومُبين لصدق مقالاتهم، وهذا كله فيما كان ظاهر اللفظ واضح المعنى، وأما ما خفي على الإنسان معناه، لغموضه ودقته، فيجزم بصحته وصحة مدعيهم على نحو ما فهموه هم، لا على نحو ما يخيل إليه هو أنه هو معناه، حتى يتبين له ببرهان واضح أنه فهمه على النحو الذي أرادوه، وعلامة ذلك أن يفهم كلامهم على نمط لا يخالف كتاباً ولا سُنَّة، ولا يورثه شكاً ولا تزلزلاً في معتقداته، بل ينشرح به صدره ويقوى به يقينه، وتنبسط أنوار علمه في قلبه حتى يعلم أنه الحق، وما دام يجد على المعنى الذي فهمه من كلامهم ظلمة وشكا وتزلزلا في اليقين، وتخيلا لتصوير الحق على صورته، وتنقلاً من فهم إلى فهم، تارة أعلى منه وتارة أدنى منه من غير انضباط، فليعلم أنه لم يفهم إلى الآن كلامهم على ما هو عليه، وليتمسك بمعتقده الذي لا خفاء فيه، وليحسن الظن بهم فيما قالوه أنهم أرادوا به غير ما فهمه هو، وليلجأ إلى الله تعالى أن يفهمه ما أشكل عليه من كلامهم تفهيما يوافق به ظاهر الكتاب والسنة، وهذا معيار صادق يعلم به الإنسان أنه فهم كلام العارفين على وجهه أو أخطأ فيه فتمسك به، (ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون)[2]، وإلى هذا المعنى يشير قول بعض العارفين من شيوخ الرسالة في قوله[3]: إنه لتقع لي

(1) جاء في الحكم: قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتة، صيانة لها أن يدعيها العباد بوجود الاستعداد: الحكم، ص: 119.
(2) الروم: 59.
(3) لم ترد هذه الفقرة في النسخة التي اعتمدناها من الرسالة القشيرية.

النكتة من كلام القوم فأدعها تختلج في صدري أياما، فأقول لها: لا أقبلك إلا بشاهدين عدلين من كتاب وسنة، فمعنى شهادة الكتاب والسنة للنكتة أن يفتح له فيها فهم توافق الكتاب والسنة حتى ينشرح صدره لقبولها، فمعنى عدم قبولها عدم قبول المعنى الذي فهمه منها لا عدم قبولها أصلا وردها على أربابها وحكمه ببطلانها، فمعاذ الله أن يقضي عارف بذلك في كلام عارف، ولأجل ذلك قال سيدي عبد الوهاب الشعراني ناقلاً عن غيره ومقرراً له في أي ما كتب من تآليفه: ما من أهل كل علم من العلوم إلا ويقع بينهم اختلاف في أشياء كثيرة يثبتها قوم وينفيها آخرون، أو يصححها هذا ويبطلها ذاك، إلا المحققون من الصوفية العارفون بالله فإنه لا يقع بينهم اختلاف أصلاً، وما يظن أنه اختلاف في كلامهم لا اختلاف فيه أصلاً عند من فهمه لأنهم لا يتكلمون إلا بصدق وعن مشاهدة، لأن الطريق لسان صدق، وما كان صادقاً لا يمكن فيه اختلاف، لأن الصدق لا يناقض الصدق؛ إذ كل متناقضين من الكلام فأحدهما صادق والآخر كاذب، ولا يقع فيه وهْم أيضا لأنهم لا يتكلمون عن حدس وتخمين، وإنما يتكلمون عن مشاهدة ويقين، ولأجل ذلك لا يقع اختلاف وتناقض في كلام الله وكلام أنبيائه ورسله لأنه كله صدق، والصدق يصدق بعضه بعضا، ولذلك كان القرآن (مُصَدِّقاً لما بين يديه)[1] وما خلفه، فهو مصدق لكل صدق، ويصدقه كل صدوق، وكذلك كلما هو صِدق، والعارف وارث النبي في الصدق، ولذلك كانت الصديقية أدنى درجة تلي درجة النبوءة، فمن وجدت في كلامه اختلافا حقيقيا وتناقضا بينا فليس بصديق، بل هو في عداد السالكين السائرين، يستقيم تارة ويعوج أخرى، حتى يصل إلى ما قسم له أو يعاجله الأجل في الطريق، فيحشر في زمرة السائرين إلى الله لا في زمرة الواصلين إليه، والمؤمن القوي عند الله خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، والله المستعان.

ولقد قَرَّر لي الملا، رضي الله، عنه ذات يوم كلاماً يتعلق بشيئية المعلوم، وأن المراد بذلك عند العارفين الحقائق العلمية، فهي شيء لحصول الوجود العلمي لها، وأنه ما من شيء وجد، أو سيوجد، إلا وله حقيقة علمية هي عينه في الدائرة العلمية، وهو عينها في الدائرة الحسية وعلى طبقها في الوجود الخارجي من دون

---

(1) البقرة: 97.

تفاوت، فالموجودات كلها لها مراتب في الوجودِ من وجودٍ خارجي ووجود علمي وما بينهما من مراتب الوجود إلى أن تصير محواً وعدماً في وجود الذات.

وأراد رضي الله عنه أن يدرجني بفهم ذلك إلى فهم وحدة الوجود، وأنَّ الوجود المطلق الحق الشامل لكل وجود مقيد غير مقيد في حد ذاته حتى بقيد الإطلاق، فاعتاص علي فهم ذلك التقرير وامتنعت من قبوله لما سبق إلى أفهامنا من أن المعدوم قبل وجوده محض ليس بشيء ولا ثابت خلافاً للمعتزلة القائلين بشيئيته وثبوته، وكنت أظن أن هذا التقرير ينحو نحو هذا المنحى، فاشمأزَّت نفسي منه لعداوتي أهله حتى تبين لي بعد ذلك أن بين المذهبين بون بعيد، (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)[1].

وقد ألَّف شيخنا الصفي في هذه المسألة رسالة سماها نفحة اليقين وزلفة التمكين للموفقين بَيَّن فيها معنى كون المعدوم شيئاً وثابتاً عند العارفين وأهل السنة، وأن ذلك بمعنى حقيقته العلمية؛ إذ لا نزاع في أنه ثابت في علم الله متميز بحقيقته عن كل الحقائق، فله حصة من الوجودِ التي هي الوجود العلمي، لا كما يقوله المعتزلة – أذلهم الله – من كونه موجوداً في نفسه ثابتاً كالصور في البيت المظلم، فيدخل عليها سراج، فيبرزها ذلك السراج ولا يوجدها[2] لأنها موجودة قبل ذلك.

وأهل السنة يقولون: إنها قبل الوجود عدم محض، يعني ليس لها شيء من الوجود في حد ذاتها، ولا ينكرون تعَلُّق العلم بها. والعارفون كشفوا القناع وفصلوا في الجزء المشاع، فقالوا: إن للوجود مراتب كثيرة، أول مراتبها، التي يقع فيها تفصيل الحقائق وتمايزها الوجود العلمي، وآخرها الوجود الخارجي الحسي الذي هو غاية تمايز الحقائق وتباينها بعوارضها الخارجية المشخصة لها، فالمعدوم بالنظر إلى الوجود العلمي المتعلق به شيء وثابت، وبالنظر إلى الوجود الخارجي عدم محض إذ لم يحصل له شيء منه، وهو الذي نفاه أهل السنة عنه رضي الله عنهم، وهو الصحيح. وأما الوجود العلمي فلم يقع فيه نزاع بين الفريقين، ولم يبق خلاف بين أهل السنة وأهل الحرمان إلا في كون الحقائق، باعتبار تعلق العلم بها، تستحق بذلك إطلاق الشيئية والثبوت عليها أم لا تستحقه، وهو خلاف لفظي،

(1) فصلت: 33.
(2) في ط: يوجهها.

والخطب فيه سهل. وقد علم أن ما هذا[1] سبيله لا يعده المحققون خلافاً، والذي اعتاص عليَّ من فهم[2] هذه المسألة عند تقرير الشيخ لها هو جعلها أصلاً لوحدة الوجود ووجه بنائه عليها، فكان يُخيَّل لي إذ ذاك أن ذلك يؤدي إلى القول بقِدَم العالم لأن تعلق العلم بكل موجودٍ قديم، فلو قدرنا المعدوم موجوداً بذلك الوجود العلمي لكان ثبت له الوجود أزلاً، وذلك معنى القِدَم. وذهب عني أن هذا الوجود العلمي من النسب والإضافات التي هي اعتبار محض، وأن الوجود الحقيقي الذي يحكم بقدمه أو حدوثه وجود الشيء في نفسه الذي هو به في حد ذاته، وذلك لم يقع في الأزل إلا لله بأسمائه وصفاته، ووقوعه لغيره إنما هو فيما لا يزال، وما سميناه وجوداً علمياً حاصلاً للمعدوم إنما هو اعتبار محض، أي اعتبرنا تعلق علم الله به، فحصل له بذلك وجود ما صح أن يعتبر في مرتبة ما، وهي مرتبة تعلق العلم بمعلومه، إذ العدم المحض لا يعتبر في مرتبة ما، إذ ليس هنالك ما يعتبر، فلا يخبر عنه ولا يشار إليه ولا يراد، إذ لا فرق بين قولك: أردت عدماً محضاً و لم أرد شيئا، وعلمت عدماً محضاً و لم أعلم شيئاً، بخلاف العدم الإضافي فإنه معتبر في مراتب كذا، فتقول: أردت عدم كذا وعلمت عدم كذا، فقد تبين لك أنه لا فرق بين قولنا حقيقة المعدوم موجودة في علم الله قبل وجوده في الخارج، وبين قولنا تعلق علم الله بوجوده في الأزل.

ولقد قال لي صاحبنا السيد محمد بن رسول، وكان حاضراً: تقرير الشيخ للبناء المذكور وعدم تسليمي له ذلك: عجباً لك فلان مع ذكائك وزكاء فطرتك، كيف لا يقبل ذهنك هذا مع ظهوره. فقلت له: أعجب من ذلك أمرك لي أن أقفو ما ليس لي به علم[3]، وأطلق من يدي ما كنت أعلم قبل هذا قبل أن أجد ما هو أحسن منه، مع شهادتك لي بالذكاء وزكاء الفطرة، فلا أعظم بلادة وبلها من الصبي، ومع ذلك لو جهدت كل الجهد أن يعطيك ما في يده من غير أن تعطيه أحسن منه لم يعطِكه، فإذا رأى أحسن منه فلا يحتاج إلى معالجة بل يرمي ما في يده ويأخذه، وأنا لو رأيت أحسن مما في يدي، وفهّمنيه الله وعلمنيه، لأخذته ورميت ما عندي من غير أن أحتاج إلى تحريضك لي وثنائك علي، فأنا أتمسك بما

(1) في ط: هذا ما .
(2) في ط: فهمه.
(3) إشارة إلى قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا): الإسراء: 36.

عندي وأطلب غيره، فإن وجدت منها أحلى وأصفى وأبرد مما في أدواتي، وشربت وملأت أدواتي، وأهريق[1] ما فيها، وإن هرقتها قبل ذلك لقول الناس: إن أمامك ماء عذب بارد أحسن من الذي في الأداوة، خشيت أن تهب سموم محرقة فأموت عطشا قبل الوصول إلى الماء، فدعني أنبلغ بما عندي، فإنه ممسك لرمقي وكاف لحاجتي حتى يأتيني الفتح أو أمر من عند الله. (فإذا جاء أمر الله قضي بالحق)[2]، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، وقديما قيل في الأمثال: رد بمائك، وكم من مريد ضل من هذا الوجه إن برقت له بارقة من فهم أو علم أراق ما عنده من ماء العلم والمعرفة، فاعتمد عليها قبل أن يتمكن منها، فقد ينقطع ذلك أو يكون برقيه خُلّبا[3]، فيبقى مذبذبا لا بما أمامه انتفع ولا بما خلف ورائه انتجع. ومن أراد ستر عورته فلا يخلع القميص الموالي لبدنه حتى يلبس آخر فوقه، وإلا انكشفت عورته وهو لا يدري. ومن رأى حلة تباع في السوق فباع شملته[4] ليشتريها فقد فوّت على نفسه الانتفاع بالشملة، ولم يدرك التمتع بالحلة، فافهم الأمثال وتجنب مواضع الإشكال، وعض على دينك بالنواجد والأضراس، ولا تكن طُفيل الأعراس، والله المستعان.

ولما قرأت على الملا في شرح الهداية قول الحكماء: لا بد للجوهر من وقفة بين كل حركتين مختلفتين، فألزموا على ذلك أن ذرة لو ارتفعت في الجو ولقيها جبل منهبط لوقف الجبل عند ملاقاته، إذ لا بد للذرة من وقفة بين حركتها مرتفعة وحركتها منهبطة، فالتزموا ذلك. فقلت له: يا سيدي يمكن أن يجاب من قبل الحكماء بأنا لا نسلم وقوف الجبل لأن الذرة لا تثبت حتى تلاقي الجبل، بل يردها انضغاط الهواء أمام وقع الجبل، فتنحدر قبل ملاقاة الجبل فتكون تلك الوقفة الخفية قد حصلت لها قبل ملاقاتها للجبل. فقال: يمكن أن يجاب بهذا، وكان رضي الله عنه منصفا. وقد يقال في هذا الجواب أنه لم يصادف محل الإلزام لأن الإلزام إنما هو على تقدير ملاقاة الجبل للذرة، وأنتم فرضتموه غير ملاق لها، فلا يكون جوابا. فنقول: إن الملاقاة المذكورة لا تقع عادة، ولو قدرها العقل وفرضها، إذ لا يصح عادة طلوع ذرة مصادمة لهواء قد ضغطه انحدار جبل قوي مع أن حركتها

(1) أهيرق: هراقت السماء ماءها وهي تُهَريق، والماء مُهراق: لسان العرب: هرق.
(2) غافر: 77.
(3) خلب: البرق الخُلّب: الذي لا غيث فيه: لسان العرب: خلب.
(4) الشملة: كساء يشتمل به: لسان العرب: شمل.

قهرية وحركته طبيعية، وإذا لم يبق إلا مجرد الفرض والتقدير، فلا يضرنا تقدير جبل قد حصرته ذرة ومنعته من الهبوط إذا كان ذلك فرضا وتقديرا غير واقع في الخارج. فإن قيل: إن الهواء المنضغط المانع لحركتها العلوية هو أيضاً متحرك، فيلزم أيضاً وقوفه، ووقوفه يستلزم وقوف الجبل فيعود الإلزام، فنقول: إنما يلزم من ذلك وقوف الجزء الملاقي للذرة من الهواء لأنه ذو أجزاء، ووقوف ذلك الجزء وحده لا يلزم منه وقوف الهواء كله المستلزم لوقوف الجبل. وعلى تقدير تسليم وقوف الهواء كله تلك الوقفة التي بلغت النهاية في القلة والخفة وسرعة الانقضاء حتى لا يثبتها حس ولا تدركها نفس، فلا نسلم استواء الحركتين في الخفة، أعني حركة الهواء وحركة الجبل، فقد تكون حركة الهواء أسرع، وهو الظاهر، فتحصل تلك الوقفة بلا هواء ولا تحصل للجبل لأنها أقل مما بين الحركتين والتفاوت أو مساوية[1] فتأمل.

وعندما جرى ذكر قولهم: أتحصر الذرة الجبل، قال لنا الملا رضي الله عنه: كان شيخنا الصفي يقول في أشياء يتوقف فيها أكابر العلماء وفحول النظار مع أنها سهلة المدرك قريبة الفهم: هذه ذرة حصرت جبلا كما قال الحكماء لكون عقول الأكابر وأفهامهم كالجبال، ومع ذلك توقفت عن فهم تلك المسائل مع حقارتها كالذرة. قال: فمن ذلك ما ورد في بعض التفاسير في قوله تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم)[2] أنه أكرمهم بأنهم يأكلون بأيديهم، ورد عليه بعض العلماء أنه يرد هذا التفسير بكون هذا غير خالص بالآدمي، فإن القرد يأكل بيده. قال شيخنا الصفي: وهذه ذرة حصرت جبلا، فإن ما يأكل به القرد ليس يداً، إنما هو رِجل لأنه من ذوات الأربع، وقوائم ذوات الأربع إنما هي أرجلها لأنها عليها تمشي، وتسميته ذلك في بعض الأحيان يدا عند إرادة التمييز بين المقدم منها والمؤخر إنما هو على سبيل المجاز، وإلا فتسميتها أرجلا شائع لغة وعرفاً، فانظر إلى هذا مع وضوحه كيف خفي على هذا العالم حتى يرد به على المفسرين، وأشباه هذا كثير في جميع الفنون، فقد روي أن بعض فحول النظار خرج من المسجد فوجد رأس إحدى نعليه عند عقب الآخر، فلم يدر كيف يدخلهما، إن جاء من ناحية عقب هذا لم يتمكن له إدخال الأخرى، حتى جاء صبي فقلبها، فجعل عقبها من ناحية

(1) في ط: متساوية.
(2) الإسراء: 70.

عقب الأخرى، فأدخل رجليه فيهما واعترف لذلك الصبي بالذكاء. فاعجب لهذا مع كونه من أكابر النظار كيف خفي عليه هذا وتوقف فيه حتى أرشده صبي.

وقرأت على شيخنا الملا إبراهيم كراسة بخطه فيها الأسماء الإدريسية وسنده فيها وما يوجد بين الروايات من الاختلاف فيها، وهي ثلاث روايات: رواية أبي طالب المكي في قوت القلوب، ورواية ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء، ورواية الغوث الموجودة في كتاب الجواهر، وذكر ما اختلفت فيه الروايات وترجيح الراجح منها، وذكر بعض شروط العمل بها وأدعية الفتح والاختتام، وذكر بعقبها فوائد أخر نافعة، كل ذلك مما أخذه عن الشيخ الصفي وتلقاه منه، وبآخر ذلك ما اقتطفته من الوصية التي كتبها له الشيخ قبيل موته، وأجازني بكل ما اشتملت عليه الكراسة بعد قراءتها عليه كلها قراءة بحث وتدبر وتفهم ومراجعة فيما لم أفهمه، ولنسق الكراسة المذكورة بتمامها، وإن كان فيها طول لاشتمالها على فوائد كثيرة قل أن توجد في غيرها، وهذا نصها:

باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، الحمد لله، رأيت بخط شيخنا الإمام قدس سره وأعاد علينا من بركاته آمين ما صورته: قال شيخنا أحمد بن علي الشناوي رحمنا الله به: وكل اسم من الأسماء الأربعينية ذكر أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين بنية وفاء جميع الشرائط حصلت بإذن الله تعالى، هـ. ورأيت أيضاً بخطه رحمنا الله به ما صورته: يا غياثي عند كل كربة، ومجيبي عند كل دعوة، ومعاذي عند كل شدة، ويا رجائي حيت تنقطع حيلتي، يا غياثي، قله كل يوم تسعة وتسعين مرة وصل على النبي صلى الله عليه وسلم أوله وآخره، فهو يكفيك لمهمات الدنيا والآخرة، وترى به خيراً كثيراً إن شاء الله تعالى هـ. ورأيت بخطه أيضا نفعنا الله به ما صورته: "الاسم الحادي والأربعون: يا غياثي عند كل كربة، ومجيبي عند كل دعوة، ومعاذي عند كل شدة، ويا رجائي حين تنقطع حيلتي، (يا غياثي من خواصه)، من داومه سنة كاملة أدرك أقصى المطالب، وانتهت إليه جميع المآرب، وهذا الاسم غني عن الشروط فلا يحتاج إلا إلى الإجازة والعمدة على معرفة من يؤديه بصدق وجمع همة وحضور مع الله"[1]، ذكره سيدنا محمد الغوث بن خطير الدين الشطاري رضي الله عنه في جواهره، وقد أجاز كاتبه أحمد بن محمد القشاشي به وما قبله من الأسماء أخاه

(1) الجواهر الخمس، ص: 151.

الأكمل أبا بكر السكري عملا وإجازة لمن يستحق، والله الموفق لا رب غيره، وأن يبتدئ العامل عند بدئه في الشروع بالفاتحة إلى المشايخ المجيزين والأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، ويصلي ركعتين يهدي ثوابهما إلى روح النبي، صلى الله عليه وسلم، ولكافة أرواح المشايخ ولوالديه والمسلمين، وأن يتقي الله في عمله ولا يعمل إلا خيرا، ويتجنب مخالفة الشرع وكافة المعصية ما استطاع، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وعلى كافة النبيئين والمرسلين وآلهم آمين. فإذا وفى بإذن الله ذلك حصل له التصرف في خواص جميع الأسماء العظام بكرم الله وعنايته، وينكشف له حقيقة كل ذرة من ذرات العوالم الثمانية عشر ألفا ويعلم أحوال العالم خيراً أو شَرّاً. ومن قرأ يا غياثي كل يوم أربعين مرة يشاهد جمال وجه سيد الأنبياء وسلطان مملكة الاصطفاء في كل ليلة، ويتشرف به وكل ما أشكل عليه ينحل له بالسهولة، والله أعلم.

ورأيت بخطه أيضاً نفحنا الله بنفحة خير منه ببركاته آمين ما صورته: يا الله، يا واحد يا أحد، يا جواد، انفحني منك بنفحة خير (إنك على كل شيء قدير)[2]، من قرأ هذه الأسماء كل يوم أحد عشر مرة بعد الفريضة من الصبح أو السنة يسر الله عليه نفقة يستعين بها على أمر دينه ودنياه، وإن لم تصل يوماً فيوماً تصل جملا جملاً، وهو عمل غوث الثقلين ووصل إلى هذا الفقير من شيخه ومفتاح قفل نشأته الأكمل أحمد بن علي الشناوي، قدس الله روحه، فإذا أراد العامل الشروع فيه يشرع من فجر يوم الخميس كما شرطه المشايخ رضي الله عنهم، وليقرأ الفاتحة عند الابتداء لروح غوث الثقلين وجميع أهل سلسلته من المجربين[3] والتابعين وعباد الله الصالحين، وإن قرأ الفاتحة كل يوم كان أكمل، وإن لم تتيسر فيكفي أول مرة مجازا به كل راغب فيه بإذن الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، انتهى.

قلت: ووصل إلى هذا الفقير الحقير من شيخه وقدوته إلى الله تعالى إمام وقته وغوث زمانه وقطب أوانه سيدي الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد المدني

---

(1) الأحزاب: 4.
(2) آل عمران: 26.
(3) في ط: المجيزين.

المعروف بالقشاشي، روح الله روحه وأعلى في أعلى منازل المقربين فتوحه، ورحمنا به آمين، كما كتبه لي بخطه في هذا المجموع كغيره من الأسماء، والله المرجو النفع به، والحمد لله رب العالمين يوم الأربعاء.

قال سيدنا شيخ السلسلة الغوثية رحمنا الله بأهلها سيدي الشيخ محمد الغوث قدس الله روحه ورحمنا به وبكُمّل أتباعه آمين في مقدمة الجوهر الثالث ما نصه[1]: "إذا أراد أن يشرع في دعوة الأسماء العظام فعليه أن يتعلم فن الدعوة (أي شروطها)[2]، من المرشد الكامل".

قال سيدي الشيخ أبو المواهب قدس سره في ضمائر السرائر، أي العامل، ثم قال الغوث قدس سره[3]: "وبعض المشايخ يجيزون المسترشدين[4] بلا عمل ويرشدونهم[5]، فلهذا لم يجد التأثير فقلما يجدونه، فلو عمل ولو بجزئيات الأسماء، وأجاز ولو بكلياتها، جاز". ثم قال الغوث قدس سره: "حتى ظهر عالم المعينات على عالم الأرواح (...) مع عظمته في عهد الفقير بحيث لا يكون في سلسلة الفقير إلى يوم القيامة رجعة في الدعوة"[6]. ثم قال بعد قوله: "وأن تجمع مقطعات الاسم بحساب الجُمل فيطرح من الجملة 12.12 إلخ، فإن لم يطابق بهذا الوضع يقل التأثير في بعض الدعوات التي شرط فيها استخراجهما؛ أي شرائط الأسماء وشرائط العمل"[7]. قال سيدي أبو المواهب، قدس سره، في الضمائر: اعلم أن التأثير ولو اشترط في دعوته موافقته للبرج والكواكب لا ينضبط ولو في كليات تلك الخواص لاختلاف القوافل والقلوب إلخ. وبخط شيخنا قدس سره ورحمنا به على حاشية الجواهر ما نصه: قوله رضي الله عنه في بعض الدعوات: دليل لك أنك في بعضها وهو الغالب لا يقل التأثير، وعليه جرى سلطان قوله تعالى (أدعوني أستجب لكم)[8]، جرت أوضاع دعوات السنة بالتلقين للمؤمنين والمؤمنات، فلا تغفل والله أعلم هـ.

---

(1) الجواهر الخمس، ص: 103.
(2) ما بين قوسين غير وارد في كتاب الجواهر.
(3) الجواهر الخمس، ص: 104.
(4) في الجواهر: المسترشد.
(5) في الجواهر: ويرشدونه.
(6) الجواهر الخمس، ص: 105.
(7) الجواهر الخمس، ص: 106.
(8) غافر: 60.

وقال شيخنا الإمام، رحمنا الله به، في كتاب الترغيب الملقب ببستان العابدين بعد أن ساق الأسماء الإدريسية بسنده، على الحافظ ابن حجر بسنده، إلى ابن أبي الدنيا في كتابه الدعاء بسنده للحسن البصري قال: هذا في هذا الطريق إلينا، وأما من طريق شيخنا عن سيدنا السيد صبغة الله عن سيدنا الوجيه العلوي عن سيدنا السيد محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر الخمس ففيها في الجوهر الثالث إلى أن قال: ولكن له شروط يحتاج العامل إليها في طريق العمل، وهي تحتاج الحضور بين يدي المجيز للمعاناة خوفا من الضرر بعون الله وإذنه، والإجازة أيضا لا تكون في شرطه إلا لمن عمل ولو بجزئيات الدعوة على ما شرطوه فيها، ليكون له بـذلك اليقين خبرة واطلاع إذا كان له قوة ينفذ منها إلى باقي الدعوات الكبـار، إلى أن قال: هذه كلها مطالب فيها مشاق وأخطار عظيمة يخشى معها علـى الـنفس والعقل، فلذلك لم نجز المذكور، وهذا المقصد أي المروي في كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، وهو سبيل الرحمة وطريق النبوءة في زمن التجنب، أي الطريق الأولى سهلة يسيرة يخبر بها كل طالب راغب إلى الله في قضاء حاجته من فضل الله. وقد قال تعالى: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم)[1]، فمن أراد قضاء حاجـة لآخرته ودنياه، من ذكرٍ أو أنثى، من المؤمنات العابدات صام لله ثلاثة أيام، فـإذا أتمها اغتسل ولبس ثوباً جديداً، ولو قميصاً، أو ما تيسر، رجاء حصول المطلوب والإجابة فيه من فضل الله ورحمته، وتبدل الحال الأول بالحال المطلوب، وبرز إلى فضاء من داره أو مسجده أو صحراء حين نوم الناس فيناجي الله بها، ويحتاج إلى حفظها ليكون أهنى وأمرى للمناجاة، وألذ وأشهى، إلى أن قال في هذه الطريقـة بأنها سليمة مأمونة، وهي طريق الأنبياء والتابعين، والأخرى طريق المجتهدين الأفراد أهل الجهاد في الله لأنفسهم التُّبَّع للرسل على العزيمة من سيدهم، إلى أن قال: فقد انقطع سيدنا السيد محمد الغوث للعمل بالأسماء ثلاث عشرة سنة، إلى أن قـال: فاستخرج الجواهر بالغوص الماهر، وظفر بالدر، وإفاضة الدر، ولكنه بـشروط، وكُلف ساحة لا يطيقها إلا هو وأمثاله، فلذلك لم نجر بطريقة لأجل ما فيها من الشروط والضبط المضبوط في سماع الأسماء أيضاً، ولو كان على خلاف العربيـة فيعتمدونه كما هو مسموع لهم من المشايخ.

(1) البقرة: 197.

قلت: يعني أنهم ذكروا الأسماء خواص عديدة عليها، منها خواص لها إذا قرئت معربة على قواعد النحو، ومنها ما يترتب عليها إذا قرئت بنوع لحن، وإن أمكن في بعضها توجيهه بوجه يخرج عن ذلك النظام، وهذا مما كتبوه عن وجدانهم وتجريتهم مع العمل بها وقراءتها، والله أعلم. ثم قال: بخلاف الطريق الأولى لسلامتها وتيسر عملها إلا بالشروط المذكورة فإنها سهلة قريبة يسيرة، وقد يفتح الله فيها للعامل بها ما لا يحصى خيره مما سأل وزيادة، فقد سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو الخليفة الأعظم، عن ماء البحر أطهور هو؟ فقال: هو الطهور ماؤه الحل ميتته[1]، فزاد على المسألة، فكيف بالكريم المنان على الجميع، وعلى الله قصد السبيل وإليه المرجع والمآب، هـ.

قال سيدي الشيخ أبو المواهب الخامي، قدس سره، في ضمائر السرائر، الفصل الثالث في الدعوة الحرفية: اعلم أنّ في دعوة هذا الفصل وفي الفصل السادس يوافق بعض الإعراب في الاسم القواعد النحوية، وبعضا يخالفها لتعلقه بالسماع ليس له قاعدة، عرفوه بالمكاشفة وتالي الأسماء إن شاء قرأها على إعرابها الأصلي، وإلا ففي قراءتها بالمجموع سر خفي لم يذكر في الأصل لكن أهل الكشف أظهروه وقالوا: لكل شكل منه خاصية. انتهى.

حدثني شيخنا الإمام غوث زمانه وقطب أوانه، السيد الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الملقب بعبد النبي، ابن القطب أحمد بن علي المقدسي الدجاني المدني قدس الله سره ورحمنا به والمحبين آمين بالأسماء الإدريسية، عن شيخه المحقق سيدي أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس العباسي ثم الشناوي ثم المدني، عن شيخه العلامة السيد صبغة الله بن روح الله الحسيني البروجي ثم المدني، عن شيخه العلامة سيدي وجيه الدين العلوي الأحمد أبادي، عن شيخه شيخ السلسلة الغوثية سيدي السيد محمد بن خطير الدين الحسيني المعروف بالغوث الذي دخل عالم الأرواح في عهده بحيث لا يكون في سلسلته رجعة في الدعوة إلى يوم القيامة كما صَرَّح به عن نفسه في كتابه الجواهر الخمس. قال سيدنا أبو المواهب الشناوي قدس سره في ضمائر السرائر التي هي حاشية الجواهر: وفي هذه المنقبة ما تتطاطأ دونه شمارخ المجد من كل رتبة، وشواهد هذا المدعي فيمن تلاه على قدمه وارتضع ثدي المجد من حكمه كالعروة الوثقى؛ وجيه

(1) السنن الكبرى للبيهقي 1:253.

الدين العلوي، والآية الكبرى صبغة الله الإلهي الولَوي، وعقود المراتب الكـــبرى أولاده ومعدومي النظير أحفاده، وكذلك روح الله الإمام العصمة وولده صبغة الله نعمة الله وأوفى نعمة إلخ هـــ.

واتصل الجواهر المتضمن للأسماء وغيرها بشيخنا في هذه السلـــسلة علمـــا وعملا، فمن التلقي والعمل سلسلة الغوث من طريق شيخه الحاج حضور قدس سره إلى المنتهى فذلك مذكور في كتابه الدرجات له، وغـــيره، وأورد سلاســـل الغوث شيخنا قدس سره في كتابه: السمط المجيد[1]، وأما من طريق الرواية فـــدل كلام الغوث قدس سره في أول كتابه الجواهر[2] أن ولادته كانت ســـنة 956 أو 957. ثم بخط سيدنا السيد صبغة الله، قدس سره، أن مولد الغوث سابع رجـــب سنة 956، لأنه قال بعد حكايته رحلته إلى شيخه سلطان الموحدين الحاج حضور، وما يتعلق بذلك من رياضته وتصنيفه للجواهر بعدها وإظهاره إياه للناس. قـــال: "وكان عمري إذ ذاك خمسين سنة، وكان في ست وخمسين سنة بعد التـــسعمائة هجرية"[3]، ووفاة القاضي زكرياء سنة 966، وقد أجاز من أدرك حياتـــه مـــن المسلمين كتابة وتلفظا، فدخل الغوث قدس سره في عموم إجازته، وهو ممن يروي عن الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى وشكر سعيه. والأسماء الإدريسية مذكورة في كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، وقد قال الحافظ ابن حجـــر: أخبرنـــا بكتاب الدعاء لابن أبي الدنيا أبو هريرة بن الذهبي إجازة، أنا القاسم بن مظفر بن عساكر سماعا بإجازته من أبي منجابي الليثي، بإجازته من أبي الفرج مسعود بـــن الحسن الثقفي والحسن بن العباس الرستمي قالا: أنا أبو نصر أحمد بن محمد بـــن عمر بن ساسويه، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي قراءة عليه وأنا أسمع من حديث النعمان بن بشير[4]: الدعاء هو العبادة إلى قوله: فاغفر لي ذنوبي. وإجازة لسائره. أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علم الصفار، ثنا ابن أبي الدنيا فيمـــا أورده الحافظ جلال الدين السيوطي في فتاويه الحديثية في كتاب: الأدب والرقاق حيث قال بعد قوله: مسألة السماء التي اشتهرت للبوني هل لها أصل في السنة ما

---

(1) ذكر الكتاني أن هذه الفهرسة قد طبعت بالهند: فهرس الفهارس 2:790.
(2) الجواهر الخمس،ص: 6.
(3) الجواهر الخمس،ص: 6.
(4) النعمان بن بشير بن سعد الخزرجي، من الصحابة الأجلاء، توفي حوال سنة 65 هـ: أسد الغابة 5:22.

نصه: الجواب: لم أقف لها على أصل إلا ما أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء قال: نا محمد بن سعيد قال: نا سلام الطويل عن الحسن بن علي عن الحسن البصري قال: لما بعث الله إدريس عليه السلام إلى قومه وقد فشا فيهم السحر فلم يطقهم، علمه الله تعالى هذه الأسماء ثم أوحى إليه ألا تبذلهن للقوم فيدعوني بهن ولكن قلهن سراً في نفسك، فكان إذا دعا بهن استجيب له، وبهن دعا فرفعه الله مكاناً عَلِيًّا، ثم علمهن الله تعالى موسى وكان لا يخلص إليه سحر ولا سم إذا دعا بهن، ثم علمهن محمدا، صلى الله عليه وسلم، فكان إذا دعا بهن استجيب له، وبهن دعا في غزوة الأحزاب. قال الحسن: فإذا أردت أن تدعو الله التماس المغفرة لجميع الذنوب والخطايا فصم ثلاثة أيام، واغتسل والبس ثيابا جددا، وقم إذا نام كل عين فاخرج على فضاء من الأرض فادع الله تعالى بهن أربعين مرة فإنهن أربعون اسماً عدد أيام التوبة، ثم سل حاجتك من أمر آخرتك ودنياك، تقول: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه. يا إله الآلهة الرفيع جلاله. يا الله المحمود في كل فعاله. يا رحمن كل شيء وراحمه. يا حي حين لا حي يبقى في ديمومة ملكه وبقائه. يا يوم ولا يفوت شي من علمه ولا يؤوده. يا واحد أنت الباقي في أول كل شيء وآخره، يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه. يا صمد من غير شبه ولا شيء كمثله. يا بار فلا شيء كفؤه ولا مداني لوصفه. يا كبير أنت الذي لا تهتدي القلوب لصفة عظمته. يا بارئي النفوس بلا مثال خلا من غيره. يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه. يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله. يا نقيا من كل جور لم يرضه ولم يخالط أفعاله. يا منان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة. يا منان ذا الإحسان قد علم كل الخلائق منه. يا ديان العباد فكل يعود خاضعا لرهبته. يا خالق من في السماوات والأرض وكل إليه معاده. يا رحيم كل مصرخ ومكروب وغياثه ومعاذه. يا تام فلا تصف الألسن كل جلاله وعزه. يا مبدئ البدائع لم يبغ في إنشائها عونا من خلقه. يا علام الغيوب فلا يفوت شيء من حفظه. يا حليم الأناة فلا يعادله شيء من خلقه. ما أفنى إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته. 26: يا حميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه. يا عزيز المنيع الغالب على أمره فلا شيء يعادله. 28: يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه. يا قريب المتعالي فوق كل شيء علوه وارتفاعه. يا مذل كل جبار بقهر عزيز سلطانه. يا

نور كل شيء وهديه[1] الذي فلق الظلمات بنوره. يا عالي الشامخ فوق كل شيء علوه وارتفاعه. يا قدوس الطاهر من كل آفة فلا شيء يعادله من خلقه. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته. يا جليل المتكبر عن كل شيء، فالعدل أمره والصدق وعده. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه. يا عجيب[2] فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، أسألك أمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما يملكه غيرك، اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان هـ.

الحمد لله أخبرني[3] شيخنا الإمام صفي الدين أحمد بن محمد المدني قدس سره ورحمنا به، عن شيخه المحقق أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس الشناوي، عن جماعة؛ منهم الشيخ شمس الدين الرملي، والبدر حسن الدنجيهي، فالرملي عن القاضي زكرياء، عن جماعة منهم الحافظ عمر بن فهد[4] عن الجمال المرشدي المكي، عن الحافظ بهاء الدين عبد الله المكي، عن سليمان بن حمزة المقدسي، وأحمد بن نعمة البياني، والدنجيهي عن الحافظ جلال الدين السيوطي، أنا الشهاب الحجازي إجازة عن أبي إسحاق التنوخي عن أبي العباس الحجار كلهم، أي المقدسي والبياني والحجار، عن عبد العزيز بن دلف، أنا أبو الفتح محمد بن يحيى البرداني، أنا أبو علي محمد بن محمد المهدي[5]، أنا عمر بن أبي طالب محمد بن علي بن عطية المكي، أنا أبي بكتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب، ومنه في الفصل الحادي والعشرين في كتاب الجمعة وهيئتها وآدابها وذكر المريد في يوم الجمعة وليلتها ما نصه: "ومما يختص به يوم الجمعة من الذكر والتحميد[6] بالأسماء فصول أربعة:

---

(1) في ط: وهذا أنت.
(2) في ط: مجيد.
(3) في ط: أخبرنا.
(4) عمر بن محمد بن محمد بن أبي الخير، ابن فهد، عالم مؤرخ، توفي بمكة سنة 885 هـ: الأعلام 63:5.
(5) في ط: الهندي.
(6) في القوت: التمجيد.

أولها: الأربعون اسماً التي دعا بها إدريس صلى الله عليه وسلم، خصه الله تعالى بها، وذكر الحسن البصري أن موسى صلى الله عليه وسلم قد كان دعا بهن وإنها[1] كانت من دعاء محمد صلى الله عليه وسلم"[2]. إلى أن قال: ذكر دعاء إدريس النبي صلى الله عليه وسلم: ثنا الحسن بن يحيى الشاهد، قال: ثنا القاسم بن داوود القراطيسي، قال: ثنا عبد الله بن محمد القرشي، قال: ثنا محمد بن سعيد المؤذن قال: ثنا سلام الطويل عن الحسن البصري، قال: لما بعث الله تعالى[3] إدريس عليه الصلاة والسلام إلى قومه علّمه هذه الأسماء، فأوحى الله تعالى: قلهن سرا في نفسك ولا تبدهن للقوم فيدعوني بهن. قال: وبهن دعا فرفعه[4] الله تعالى مكانا عليا، ثم علمهن الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم، ثم علمهن الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم، وبهن دعا في غزوة الأحزاب. قال الحسن: وكنت مستخفيا من الحَجاج فدعوت[5] الله تعالى بهن فحبسه عني، ولقد دخل علي ست مرات فأدعو الله بهن، فأخذ الله تعالى بأبصارهم عني، فادع تعالى بهن التماس المغفرة لجميع الذنوب، ثم سل حاجتك من أمر[6] آخرتك ودنياك فإنك تعطاه إن شاء الله تعالى فإنهن أربعون اسما عدد أيام التوبة: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه [ورازقه وراحمه][7]: يا إله الآلهة الرفيع جلاله، يا الله المحمود في كل فعاله، يا رحمن كل شيء وراحمه، يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وبقائه، يا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده، يا واحد أنت الباقي في أول كل شيء وآخره، يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه، يا صمد من غير شبه ولا شيء كمثله، يا بارئ فلا شيء كفؤه ولا إمكان لوصفه، يا كبير أنت الذي لا تهتدي القلوب لوصف عظمته، يا بارئ النفوس بلا مثال خلا من غيره، يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه، يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله، يا نقيا من كل جور لم يرضه و لم يخالط فعاله يا حنان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلما، يا منان ذا الإحسان قد عم كل الخلائق منه، يا ديان كل العباد كل يقوم خاضعا لرهبته، يا

(1) في الرحلة: فإنها.
(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب 133:1.
(3) في القوت: عز وجل بدل تعالى في كل هذا الدعاء .
(4) ساقط من الرحلة.
(5) في الرحلة: فأدعو.
(6) في الرحلة: إمرة.
(7) إضافة من قوت القلوب.

خالق من في السماوات والأرض وكل إليه معاده، يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه، يا تام فلا تصف الألسن كل جلال ملكه وعزه، يا مبدئ البدائع لم يبغ في إنشائها عوناً من خلقه، يا علام الغيوب فلا يفوته شيء من خلقه ولا يؤده، يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه. يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته، يا حميد الفعال ذا المن على جميع الخلق بلطفه، يا عزيز المانع الغالب على أمره فلا شيء يعادله. يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه. يا قريب يا متعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه. يا مذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه. يا نور كل شيء وهديه الذي[1] فلق الظلمات بنوره. يا علي الشامخ فوق كل شيء علوا ارتفاعه. يا قدوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعادله من خلقه. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته. يا جليل المتكبر عن كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه. يا عجيب فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، أسألك اللهم يا رب الصلاة على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم، وأمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما لا يملكه غيرك. اللهم هذا الدعاء ومنك الإجابة، وهذا الجهد وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً"[2] هـ. الحمد لله.

قلت: أبو طالب إنما رواها في القوت من طريق ابن أبي الدنيا، كالسيوطي في الفتاوى فإن عبد الله بن محمد شيخ القراطيسي هو ابن أبي الدنيا، والسند الذي بعده السند الذي ساقه السيوطي في الفتاوى عن كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا، إلا أنه زاد بين سلام الطويل والحسن البصري شخصاً هو الحسن ابن علي، ووقفت على نسخ من قوت القلوب فلم أجد في شيء منها هذه الزيادة، و لم أقف على كتاب الدعاء بعد، فلا أدري أسقط من نسخ القوت أو زيد في نسخ الفتاوى، والكل فيه مخالفة لرواية القوت في الجواهر، ولننبه على ذلك، فمنها أن سيدي

(1) في ط: وهذا أنت.
(2) قوت القلوب في معاملة المحبوب 1:133- 134.

الشيخ أبا المواهب الشناوي قدس سره ذكر في ضمائر السرائر حاشية الجواهر ما نصه: واختلف في الاسم الأول، فبعضهم فيه إلى يا رب، وبعضهم إلى كل شيء، وبعضهم إلى ورازقه، وبعضهم إلى وراحمه، لكن العاملون المتأخرون اتفقوا على أنه من سبحانك إلى وراحمه، لأن الزيادة لا تزيد الحكم بل تفيده فائدة زائدة هـ.

ورواية كتاب الدعاء باتفاق القوت والسيوطي إلى ووراثه كما رأيت. ومنها أن نسخ القوت والجواهر متفقة على يا قيوم فلا يفوت بالفاء، وفي نسخة الفتاوى: ولا بالواو، ولعله من الكاتب. ومنها: يا صمد، من غير شبه بلفظه، ومن شبه على وزن مثل وفلا بالفاء في الجواهر وفي القوت، ولا بالواو. وفي مكان من في بعضها وبعضها كالجواهر وشبيه على فعيل بزيادة الياء. وفي نسخة الفتاوى: وكذلك إلا أنها في لا من. ومنها في الفتاوى: يا بار، كالجواهر، وفي القوت: يا باري. ثم القوت كالجواهر إلا في حرف يدانيه. والفتاوى يخالفهما في قوله: ولا مدانٍ لوصفه. ومنها: يا كبير أنت الله الذي. في الجواهر بذكر الجلالة والعقول مكان القلوب، والوصف مكان الصفة، وفيهما: أنت الذي، بلا تصريح والقلوب، قال: لوصف وفي سيدي لصفة، ولفظ العقول أنسب في المعنى من القلوب، والوصف أوضح من الصفة في المعنى المصدري. ومنها: يا نقيا بالنصب في ج وفي ق وس: يا نقي بصورة المرفوع، ولعله على قاعدة بعض المحدثين في كتابتهم المنصوب بصورة المرفوع، ثم يكتبون عليه فتحتين علامة للتنوين كما نقله السيوطي في شرح المسند للشافعي، وحكى أنه رآه كذلك في خط الذهبي وغيره، وذلك لأن نقيا منادى مشابه بالمضاف، لأن قوله من كل جور متعلق به فيكون منصوباً كما هو مُقَرَّر. ومنها: يا منان، ففي ج وق زيادة علما بعد رحمة، وفي نسخة س: بلا علم، ولعله من الكاتب. ومنها يا ديان العباد، ففي ج: كل بلا فاء يقوم خاضعا لرهبته ورغبته، وفي ق كل بلا فاء أيضا يقوم خاضعا لعزته، وفي نسخة لرهبته، وفي ف فكل، بالفاء يعود بالعين، والدال لرهبته. ومنها: يا خالق ففي ج: كل إليه بلا واو، وفيهما: وكل بالواو. ومنها: يا تام، ففي ج: كل جلاله وملكه وعزه، بإضافة كل إلى جلاله وإضافته إلى الضمير. وفي س كذلك إلا أنه حذف وملكه، وفي ق: كل جلال ملكه وعزه بإضافة جلال إلى ملكه.

ومنها في ق وس يا مبديء البدائع بالهمزة، وفي ج: يا مبدع بالعين، ومنها: يا قريب، ففي ج: علوا ارتفاعه، بإضافة علواً إلى ارتفاعه، وفي ق: كل شيء

ارتفاعه بحذف علوا، ورفع ارتفاعه، وفي س علوا وارتفاعه بإضافة علوا إلى الضمير وعطف الارتفاع عليه. ومنها يا قدوس، ففي س: يعادله، وفي ج: يعاد، بالعين المهملة والذال المعجمة، وكذا في نسخة من القوت وفي نسخة منه يضاده بالضاد والدال المهملة المُشَدَّد، وفي نسخة من القوت أيضاً: يعانده بضم الياء والعين المهملة بعدها نون وبعده دال مهملة من المعاندة، وفي بعض نسخ الجواهر يعازه، بالزاي، وأورده في بعضها بالراء المهملة، وفي بعضها بالدال المهملة مخففة، والذي يغلب على الظن أن الرواية يعانده أو يضاده بالضاد المعجمة، والدال المهملة المشددة، وأن يعاده بالعين المهملة والدال المهملة أو بالذال المعجمة، وكذلك بقية النسخ كلها تصاحيف بعضها من بعض بتصرف الكتاب، والله أعلم، وإن قال في الضمائر: إن العمل على يعاذه بضم الياء التحتية والذال المعجمة، أي ليس له من يعيذه من خلقه هـ. وذلك لأن ما ذكره تفسير ليعيده معلوما، وأما يعاده مجهولا فلا يتعدى إلى المفعول إلا بالحذف والاتصال، فإن كان محفوظا بالتقدير فلا شيء يعاذ منه، فحذف من الجارة وأوصل والمعنى مأخوذ من مضمون قوله تعالى: (وهو يُجير ولا يجار عليه)[1]، أي فلا شيء يعاذ ويصان في ملاذ وملجإ منه إذا أراد به شيئا من جميع خلقه ويعاده إن كان محفوظاً، فمعناه يغالبه بالعزة ويعاره بالعين المهملة، والراء، إن لم تكن تصحيفاً فمعناه لا شيء يفعل به ما هو كاره له بمعنى غير مريد، فالكراهة تقابل الإرادة التي هي المشيئة لا الإرادة التي هي المحبة التي تقابلها الكراهة الشرعية فإنّ الكراهة الشرعية واقعة لأنها مرادة، أي مشيئته وإن لم تكن محبوبة، والله أعلم.

ومنها: يا جليل، ففي ج: المتكبر على كل، وفيهما عن كل منها يا عجيب، ففي ج: يا عجيب الصنائع، بإضافته إلى الصنائع، وفي نسخة من القوت: يا عجيب الأمور، بإضافته إلى الأمور، وفي شرح الأسماء الحسنى لزروق: يا عجيب الشأن. وفي نسخة منه كالفتاوى يا عجيب بلا إضافة إلى شيء، ثم فيها ما إلى وثنائه، وفي ج زيادة ونعمائه، ومنها يا غياثي، ففيهما إلى دعوة بزيادة حرف النداء في مجيي، وفي ج زيادة ومعادي، والله أعلم.

الحمد لله ترجم شيخنا الإمام، قدس سره، لدعاء الافتتاح له والاختتام ننقله بعبارته تبركا. قال قدس سره: هذا دعاء الافتتاح بأسماء الله الحسنى ولسائر

(1) المومنون: 89.

الدعوات والأوراد إذ لا تخلو منها جميع الدعوات والأوراد، وبها، إن شاء الله، حصول كل مراد للمريد كما شاء وأراد لأمر الفاني أحمد بن محمد بن عبد النبي الدجاني مجيزا به من أراد، وبالله الرشاد والسداد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم، باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما إلى يوم الدين آمين. اللهم إني أسألك بحق أسمائك الشريفة وما اشتملت عليه من مكنون سرك وبديع أمرك وغامض لطفك وشديد فهمك، يا من أبرز صوراً عنها كما شاء وسلها منها ببدائع الإنشاء، أسألك اللهم بجبروتها المصور القاضي في العالمين بما كان ويكون أن تفتح اللهم لي خزائن أسرارها، وتمكن لي بدائع اقتدارها في الذين يعلمون والذين لا يعلمون بكلمة التقدير الإلهي التكويني، كما يكون على لباس عافيتك في ذلك وكمال وقايتك عن سطوات قهرك المتدارك، وأن تسلك بي في ظاهرها وباطنها وأولها وآخرها مسلك أوليائك، وأن تجنبني بها مواقع نجوم أعدائك المنسلخين عنها بعد الإيتاء لابتلائك، وتعيذني برضاها من سخطها، وبمعافاتها من عقوبتها، وبها منها بعضا وكلا، إذ هي منك إياك لا غيرك (فادعوا الله مخلصين له الدين)[1] بالاسم المُسَمَّى، وذلك من تسبيحها عند عبدك بمأمور وارد (سبح اسم ربك الأعلى)[2]، فإن تجعلني بكرمك عند النداء بها إليك بذلك أهلا، يا نعم النصير ونعم المولى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلى عامة الأنبياء والمرسلين وآلهم وتابعيهم صلاة لا تبرح بالدوام تتلى، وتتجدد على مر الدهور ولا تبلى.

ولنسق الأسماء الإدريسية هنا كما هي مذكورة في الجواهر ثم نورد دعاء الاختتام لشيخنا قدس سره بعدها، وقد رويناها كما مر عن شيخنا الإمام عن شيخه أبي المواهب أحمد بن علي الشناوي، عن شيخه السيد صبغة الله بن روح الله، عن شيخه سيدي وجيه الدين العلوي، عن شيخه شيخ السلسلة صاحب الجواهر سيدي الشيخ محمد الغوث قدس الله أسرارهم أجمعين إنه أوردها في الجواهر هكذا: سبحانك لا إله إلا أنت يا رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه[3].

(1) غافر: 13.
(2) الأعلى: 1.
(3) الجواهر الخمس، ص: 130.

يا إله الآلهة الرفيع جلاله[1]. يا الله المحمود في كل فعاله[2]. يا رحمن كل شيء وراحمه[3]. يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وبقائه[4]. يا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤوده[5]. يا واحد الباقي في أول[6] كل شيء وآخره[7]. يا دائم فلا فناء ولا زوال لملكه وبقائه[8]. يا صمد من غير شبيه فلا شيء كمثله[9]. يا بار فلا شيء كفؤه يدانيه ولا إمكان لوصفه[10]. يا كبير أنت الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمتك[11]. يا بارئ النفوس بلا مثال خلا من غيره[12]. يا زكي الطاهر من كل آفة بقدسه[13]. يا كافي الموسع لما خلق من عطايا فضله[14]. يا نقيا من كل جور لم يرضه ولم يخالطه فعاله[15]. يا حنان أنت الذي وسعت كل شيء رحمة وعلما[16]. يا منان ذا الإحسان قد عم الخلائف منّه[17]. يا ديّان العباد كل يقوم خاضعاً لرهبته ورغبته[18]. يا خالق من في السماوات والأرض كل إليه معاده[19]. يا رحيم كل صريخ ومكروب وغياثه ومعاذه[20]. يا تام فلا تصف الألسن كل جلالك[21] وملكك وعزك[22]. يا مبدع البدائع لم يبغ في إنشائها عونا من خلقه[23].

---

(1) نفسه، ص: 132.
(2) نفسه.
(3) نفسه، ص: 133.
(4) نفسه.
(5) نفسه.
(6) في الجواهر: أول.
(7) الجواهر الخمس، ص: 134.
(8) نفسه.
(9) نفسه.
(10) نفسه، ص: 135.
(11) نفسه.
(12) نفسه، ص: 136.
(13) نفسه، ص: 137.
(14) نفسه.
(15) نفسه، ص: 138.
(16) نفسه.
(17) نفسه، ص: 139.
(18) نفسه.
(19) نفسه، ص: 140.
(20) نفسه.
(21) في الجواهر: جلاله وملكه وعزه.
(22) الجواهر الخمس، ص: 141.
(23) نفسه.

يا علام الغيوب فلا يفوت شيء من حفظه[1]. يا حليم ذا الأناءة فلا يعادله شيء من خلقه[2]. يا معيد ما أفناه إذا برز الخلائق لدعوته من مخافته[3]. يا حميد الفعال ذا المن على جميع خلقه بلطفه[4]. يا عزيز المنيع الغالب على جميع أمره فلا شيء يعادله[5]. يا قاهر ذا البطش الشديد أنت الذي لا يطاق انتقامه[6]. يا قريب المتعالي فوق كل شيء علو ارتفاعه[7]. يا مذل كل جبار عنيد بقهر عزيز سلطانه[8]. يا نور كل شيء وهداه أنت الذي فلق الظلمات نوره[9]. يا عالي الشامخ فوق كل شيء علوا ارتفاعه[10]. يا قدوس الطاهر من كل سوء فلا شيء يعادله من خلقه[11]. يا مبدئ البرايا ومعيدها بعد فنائها بقدرته[12]. يا جليل المتكبر على كل شيء فالعدل أمره والصدق وعده[13]. يا محمود فلا تبلغ الأوهام كل ثنائه ومجده[14]. يا كريم العفو ذا العدل أنت الذي ملأ كل شيء عدله[15]. يا عظيم ذا الثناء الفاخر وذا العز والمجد والكبرياء فلا يذل عزه[16]. يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه[17]. يا عجيب الصنائع فلا تنطق الألسن بكل آلائه وثنائه ونعمائه[18]. يا غياثي عند كل كربة، ويا مجيبي عند كل دعوة، ومعادي عند كل شدة، ويا رجائي حين تنقطع حيلتي[19].

---

(1) نقسه، ص: 142.
(2) نقسه.
(3) نقسه، ص: 143.
(4) نقسه.
(5) الجواهر الخمس، ص: 144.
(6) نقسه.
(7) نقسه، ص: 145.
(8) نقسه، ص: 146.
(9) نقسه، ص: 147.
(10) نفسه.
(11) نفسه.
(12) نقسه، ص: 148.
(13) نفسه.
(14) نقسه، ص: 149.
(15) نفسه.
(16) نقسه، ص: 150.
(17) نفسه.
(18) نقسه، ص: 151.
(19) نفسه.

دعاء الاختتام:

"اللهم إني أسألك بحق هذه الأسماء الشريفة وشرفها وكرمها أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأسألك إيمانا وأمانا من عقوبات الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء، وأن تصرف قلوبهم عن شر ما يضمرون إلى خير ما لا يملكه غيرك. اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة، وهذا الجهد مني وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين برحمتك يا أرحم الراحمين"[1].

دعاء الاستجابة:

"اللهم يا مُفتح الأبواب ومسبب الأسباب، ويا مقلب القلوب والأبصار، ويا دليل المتحيرين، ويا غياث المستغيثين، ويا مخرج المحزونين، أغثني أغثني، توكلت عليك يا رب، قضيت فرضيت]، فوضت أمري إليك، يا رزاق يا فتاح يا باسط، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين"[2]هـ.

وهذا دعاء الاختتام لها ولكل دعاء ولا دعاء إلا بها ولها: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وبكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك واستأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن نور بصري وجلاء همي وذهاب غمي، وأن تجعل لي من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا يا من قامت السماوات والأرض بأمره، يا من يمسك السماء باسمه الماسك أن تقع على الأرض إلا بإذنه، يا من لا يدعى إلا بأسمائه (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)[3]، فبأسمائك الحسنى دعوتك فلا تخيبني وأكرمني بها ولا تهني وأعطني ولا تحرمني، وآثرني بها ولا تؤثر علي، فالدعاء منك وإليك، والمعول في تحقيق المطالب على ما سبق به علمك وفاضت به على يد إرادتك وقدرتك مواهب يديك، يا من يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، فأسألك اللهم أن تتقبل مني وأن تكون لي فيما طلبته مني

(1) نفسه، ص: 70.
(2) نفسه.
(3) الزمر: 67.

بمأمنك وإليك فيما أرجو وأخشى وأستنزل بك المحبوب من كل مطلوب وأستدفع بك الكروب في السكون والممشى، يا من له الإنشاء فيما أراد كيف شاء، لا إله إلا أنت يا حنان يا منان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجـــلال والإكــــرام ثلاثا، وصلى الله على من فتحت به خزائن الغيب فكان الغيب فيـــه مـــشهودا والقائمون على ذلك بعد الإنزال شهودا، وسلم عليه تسليما رشيدا سديدا أبيـــدا على سائر الأنبياء والمرسلين وآلهم وصحبهم والتابعين، (سبحان ربك رب العـــزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1] هـــ الحمد لله. وفي هامش النسخة الفارسية للجواهر التي عليها خط سيدنا السيد صبغة الله، قدس الله سره، ما معناه وترجمته: افتتاح الأسماء الأربعين العظام يصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، اثنا عشر مرة ويقول ناد عليها سبع مرات، ويقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب ثلاث مرات، ويقول: هذا الاسم الذي عده بعضهم من الأسمـــاء العظام الأربعين ثلاث مرات، وهو: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه، ثم يشرع في قراءة الأسماء العظام بعد الاعتصام واعتصام الأسماء العظام هذا: باسم الله الرحمن الرحيم، اللهم يا قيوم الوجود، ويا فائض الجود، ومنزل البركات، وغاية الحركات، ومنتهى الرغبات، نور النور ومدبر الأمور وواهب الحياة للعالمين، أيدني بنورك، ووفقني بمرضاتك، وألهمني رشدك، وطهرني من رجس الظلمات، وخلصني من غسق الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ومعاينة أضوائك ومجاورة مقربيك ومرافقة سكان ملكوتك، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم (مـــن النبـــيّين والـــصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً)[2]، غفرانك اللهم غفرانك، آمنا بـــك وأقررنا بآياتك، وصَدَّقنا رسالاتك، وعلمنا أنه لا مذهب وراءك، ولا حـــول إلا حولك، ولا عز إلا عزتك، خضعت لجلالك رقابنا، وخشعت لعزتك نفوســـنا، اقبضنا من غضبك إلى رضاك، ومن عذابك إلى رحمتك، ومن ظلماتنا إلى نورك، أزل عنا العمى وارفع عنا الهوى، ما جعلت إلينا أمر خلقنا فلا تجعل إلينـــا مـــر كمالنا، وارحمنا وارضنا عنك وارْضَ عنا إنك بالجود الأعم على العالمين منا رحمة للعالمين برحمتك، يا أرحم الراحمين. من منهج الدعوات لابن طـــاووس[3] هـــــ

(1) الصافات: 180- 182 .
(2) النساء: 69.
(3) علي بن موسى بن جعفر، ابن طاووس، فقيه فاضل، توفي سنة 664 هــ ترجم له الزركلي ولم يذكر له منهج الدعوات: الأعلام 5: 26.

بصورته. وفي هامش تلك النسخة بعد إيراد الأسماء الأربعين ما معناه وترجمته: اختتام الأسماء الأربعين العظام: يقول: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه ثلاث مرات، وسبحان ربي العلي الأعلى الوهاب ثلاث مرات، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم سبع مرات، ثم يقرأ هذا الدعاء فإنه للأمن من الخوف وسعة الرزق ومجرب إلى الغاية منقول عن الأمين: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صل على محمد وآل محمد، اللهم إنك أمن من كل شيء، وكل شيء خائف منك، فبأمنك من كل شيء وبخوف كل شيء منك، أمني من خوف كل شيء يا من (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1]، (كهيعص)[2]، كفيت (حم عسق)[3] حميت، (وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما)[4]، تحصنت بذي الملك والملكوت، واعتصمت بذي العزة والجبروت، ورميت كل من أرادني بسوء، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله أجمعين الطيبين الطاهرين، والحمد لله رب العالمين، من منهج الدعوات لابن طاووس، هـ.

الحمد لله الطريق الأول يصوم ثلاثة أيام، يوم الأربعاء والخميس والجمعة، ثم في يوم الجمعة وقت الضحى يغتسل ويصلي ركعتين سنة الوضوء، ثم يصلي ركعتين لروح النبي، صلى الله عليه وسلم، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة والضحى، وفي الثانية بعد الفاتحة سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة، ثم يصلي ركعتين لروح الشيخ شهاب الدين السهروردي، في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يصلي ركعتين لروح السيد جلال البخاري، وركعتين لروح الشيخ محمد الغوث قدس الله أسرارهم أجمعين، في كل ركعة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يصلي ركعتين مثل ما تقدم لروح شيخنا صفي الدين القُشاشي، ثم يصلي ركعتين لازدياد محبة الله تعالى، يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة الإخلاص ثلاث مرات، ثم يقرأ ألفي مرة ومائتي مرة هذا الاسم: يا حليم ذا الأناة فلا يعادله شيء من خلقه، يا حليم، يختم بالاسم، وهكذا في كل اسم قرئت مجموعة أو مفردة لدفع الرجعة، فلا يرجع اسم من أسماء الله، ولو فوت القارئ من الشرائط،

(1) الشورى: 9.
(2) مريم: 1.
(3) الشورى: 1.
(4) طه: 108.

وهذا الاسم لا يعلم للسفهاء، ثم يشرع بنية الشرائط. السند الأول: يشرع بعد استيفاء الشروط على أوجه العزيمة أو الرخصة يوم السبت بعد صلاة الفجر يقرأ كل يوم خميس من الأسماء 434 مرة، والخمسة الثانية من الأسماء في اليوم الثاني، وهكذا إلى تمام الأسبوع، والستة الباقية يقرؤها العدد المذكور بعد صلاة الجمعة، فبعد هذه الشرائط وآدائها يصير متصرفاً في الأسماء كلها، فيقرأ بنية الدعوة لأي حاجة أراد كل يوم خمسة من الأيام بالشرط المذكور، والبداية بع صلاة الفجر من يوم السبت، ويلازم بعد العصر: يا قريب المجيب المداني دون كل شيء قربه، يا قريب. والورد أحد وأربعون مرة قبل صلاة الفجر يقرأ الخمسة كل يوم إحدى وأربعين مرة بطريق الورد كل خمسة موزعة على أيام الأسبوع، والنهاية بعد صلاة الجمعة كما سبق يحصل المقصود.

السند الثاني بعد الصيام والصلاة وقراءة الاسم الذي سبق لرد الرجعة، يقرأ لكل خمسة بنية النصاب ألفين ومائتين مرة، وبنية الزكاة ألف ومائة، وبنية العشر خمسمائة وستين مرة، وبنية القفل ثلاثمائة مرة، وبنية الدور المدور تقرأ الأسماء كلها مائة مرة، وفي هذا الطريق لا حاجة بالمبدإ والختم بعد فراغ هذه الشرائط يقرأ لكل حاجة كل خمسة ثلاثمائة وستين مرة، ووروده بعد تمام الدعوة والشرائط أن يقرأ كل يوم خمسة من الأسماء إلى تمام الأسماء في الجمعة، والستة الباقية بعد صلاة الجمعة إحدى وأربعين مرة كل يوم بطريق الملازمة.

سند الدعوة المجموعة: بعد أداء الصوم والصلاة والقراءة المذكورة أن يبتدئ بقراءة الأسماء كلها من سبحانك إلى غياثي ألفا وإحدى وأربعين مرة في مدة تيسرك بعد أداء الشرائط، إن كان مبتدئا يقرأ بها في إحدى وأربعين يوما مقسما الألف والآحاد والأربعين مرة على الأيام الأربعين، وإن كان متوسط يقرؤها في تسعة أيام واثني عشر يوماً أو أحد وعشرين يوما، ويقسم القراءة على أيام القراءة، وإن كان منتهيا يقرؤها في ثلاثة أيام أو في سبعة أيام العدد المذكور مقسماً على الأيام للحاجة، ولكل حاجة عدد معين يقرؤه بين الصبح الكاذب والصادق، أو في دير جبل، أو في واد، أو في بستان، أو في خلوة، أو في ساحل الماء الجاري، إن لم تتيسر هذه الأماكن يقرأ في نصف الليل في مكان خال مع الاعتصام، وهو هذا: باسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد بعدد كل ذرة ألف ألف مرة،

وعلى آل سيدنا محمد وبارك وسلم (نصر من الله وفتح قريب)[1]، (وبشر المومنين)[2]، (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين)[3]، ويقرأ هذا قبل الأسماء في كل مرة والاختتام، واللهم إني أسألك بحق هذه الأسماء الشريفة الكريمة أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وأسألك إيمانا وأمانا من عقوبة الدنيا والآخرة، وأن تحبس عني أبصار الظلمة المريدين بي السوء،.. إلخ.

الحمد لله، رأيت بخط شيخنا الإمام قدس الله سره ورحمنا به ما صورته لكاتبه: اللهم إن الوقوف لكل سائل ببابك والعياذ بك والتوجه في كل حال إليك، بل أنت الطالب والمطلوب عند كل طالب ومطلوب، فخلصنا بك إليك ولا تحجبنا بنا يا من إليه المشتكى والمفزع، اقض حوائج عبادك آمين.

ومن خطه أيضا: عزيمة لأم الصبيان[4]، وذلك مس من الجن: باسم الله الرحمن الرحيم ارقاش باعش مرقاش أسطاف اسنطاف خطوف خطاف شعداس وفرداس، الله رب العزة يا طها وحبوش ارفح شنوح أرمد حشيا القديم الأزلي الأبدي (إن الذين فتنوا المومنين والمؤمنات) إلى (الحريق)[5]، أنشدكم بالله العزيز القهار الوافي الدافع، وبالعهد الذي أخذه عليكم سليمان بن داوود عليهما السلام، أن لا تضروا من يحمل هذا التعويذ، وأن تتركوه وتحفظوه في حرز الله وضمانته، بحق النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين وباسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من كل عرق نقار ومن شر حر النار، أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً هـ.

ومن خطه أيضا روّح الله روحه: روى الشيخ الوفائي أنَّ واحداً من مريدي الشيخ صدر الدين القونوي[6] -قدس الله سره- دخل عليه فرأى عنده جماعة مهيبة بحيث ارتعدت فرائصه من الخوف حتى التجأ إلى نعل فضمها إلى صدره، فسكن بعض روعه وهم ينظرون إليه نظراً المغضب وقالوا: لولا نعل الشيخ عنده لأخذناه

---

(1) الصف: 13.
(2) لبقرة: 221.
(3) يوسف: 64.
(4) أم الصبيان: كناية عن الريح التي تعرض للإنسان فيغشى عليه منها: لسان العرب: أمم.
(5) البروج: 10.
(6) محمد بن إسحاق بن محمد القونوي، صوفي، من تلامذة ابن عربي، توفي سنة 673 هـ: الأعلام 6:30.

كما نأخذ بني آدم، وحكوا كيفية أخذهم، وطلب الشيخ منهم أن يكون بينه وبينهم عهد وذمة لا ينقضوها ولا يأخذوا من كانت هذه الأسماء عنده، قال: وقد جربت هذا من لدن الشيخ فما تخلق بإذن الله تعالى، والحمد لله. يكتب في ورق لطيف ثم يلف ويجعل في شمع ويجعل في كرباس[1] أزرق، ويجعل في جلد أخضر ويعلق في عنقه، وإن لم يندفع بهذه الكيفية يكتب في إناء أخضر جديد ويصب عليه الماء ويرش به المريض يشفى بإذن الله، ويؤخذ عليه وزن نواة من ذهب أو فضة يتصدق بها طعاماً على الفقراء لمن قدر على ذلك أو حسب ما تيسر له هـ.

قلت: وقد شافهني شيخنا الإمام روح الله بهذه الحكاية ثم قال: وقد اشترط الشيخ صدر الدين شروطا ونحن نعلمها بلا ترك الشروط، ويقع بها النفع بإذن الله، فلما سألته عن المجموع الذي كتبت فيه العزيمة فدلني عليه. ثم بعد هذا المجلس منه بمدة رأيته كتب بخطه على حاشية الصفحة التي فيها هذه العزيمة وغيرها ما نصه: نقل هذا كله وأنفع به الناس، نفعك الله ونفع بك آمين.

ومن خطه نفعنا الله به ما صورته: ومما يكتب للحُمَّى حروفاً مقطعة يتبخر بها حين تأتي ثلاثة أيام وهي: 1 فرعون هامان قارون في النار. 2 هامان قارون فرعون في النار. 3 قارون فرعون هامان في النار. ومما يكتب لها للأكل كذلك ثلاثة أيام كل يوم واحدة حروفا مقطعة 1 يعقوب 2 كيعوب عيغوب.

ومما يكتب للضرس في ورقة صغيرة وتجعل في الضرس إذا كان محفورا: (لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون)[2]، وتقرأ الفاتحة عليه ثلاثا أو خمسا أو سبعا يزول بإذن الله.

ومما يكتب ويعلق للصداع: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)[3].

ومما يكتب للمصروع من الجن آية الكرسي وآخر سورة البقرة فإنها لا تستطيعها البطلة أي الجن هـ. ما في تلك الصفحة.

(1) الكرباس: الثوب: لسان العرب: كربس.
(2) الأنعام: 67.
(3) هود: 44.

ومن خطه قدس سره فائدة تعمل لجميع أنواع الجن المؤذية، وتكتـــب لأم الصبيان أيضا التي يصرع بها الصبيان ولمريض طال مرضه وشبه هذا، وهي نافعـــة مجربة بإذن الله تعالى، وهي تكتب في إناء مدهون أو صيني أو في ورقة ويعلق، أو ورق سبع أشجار لا شوك بها وهي: آل شلع يعويق بيه يه يه وه تبكـــه تبكـــف تمكعال بصعي كفي مال مطيعي لك يا الله، اللهم بشلشل هنوت حيفوش هاشه كاشه عند عشيش ريح، أخرج أيها السوء والوجع الطارق من هذا الجسد جسد عبد الله فلان بن فلان أو جسد أمة الله فلانة بنت فلانة بعزة من (لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد)[1]، ثم تكتب الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وبعده تكتـــب (ونترل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[2]، وأضف إليه صموم قـــصوم طائر متوشلخ سلوم كلوم، (وهو القاهر فوق عباده)[3] يخرج الجني بالقهر بـــإذن القاهر فوق عباده هــ. وقد أجزت به المسلمين لنفع المسلمين هـــ من خطه قدس سره.

(ومن خطه، قدس سره)[4]، ومما ينفع للمصروع قراءته العشر الآيات مـــن سورة البقرة، فمن قرأها على مصروع أفاق، ومن علقها عليه عوفي بإذن الله، أولها من أول السورة إلى (المفلحون) أربع آيات، وآية الكرسي، وبعـــدها آيتـــان إلى (خالدون)، وثلاث من آخرها (لله ما في السماوات) إلى آخرها. وقد أجزت بها مريدها، وهن رعاية الله عليه هـــ. قال شيخنا الإمام رحمه الله ومن خطه الشريف نقلت: اعلم أن الفاتحة الكريمة حقيقة جملة القرآن، وإنما القرآن إلى الكريم كلـــه تفضيلها فكله الفاتحة والفاتحة كله، وساق الكلام في بيان ذلـــك بنحـــو ورقـــة وصفحة، ثم قال: وقد أجزت بها مريدها أن يكتبها لكل علة لأنها محيطة بجميـــع آيات الشفاء من جميع الأمراض فتكتب لكل داء ولكل علة وكرب وضيق وعسر يفك بإذن الله، وتقرأ كذلك وردا أقله سبع في اليوم وسبع في الليلة، وتقرأ سبعين مرة صباحا ومساء سبعين، وتقرأ مائة وعشرين ليلاً ومثلها نهاراً، وتقرأ أيضاً 125 مرة موزعة على الليل والنهار 28 في الصباح ومثلها في الظهر وكـــذا مثلـــها في العصر، وفي المغرب 25، وفي العشاء 28، فذلك 125، وتقرأ ثلاثمائة وستين وردا

(1) الإخلاص: 3- 4.
(2) الإسراء: 82.
(3) الأنعام: 19.
(4) زيادة من ط.

في اليوم والليلة مجموعة أو موزعة مع الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، أول كل ورد منها وأوسطه وآخره، وفيها أوراد كثيرة بحسب القائلين إلى هنا كلامه قدس سره: الحمد لله وحده.

ومن خط شيخنا صفي الدين القشاشي، قدس الله سره، ما نصه: وصية العبد أحمد لأولاده زكاهم الله وآتاهم تقواهم بكرمه آمين، ورحم الله الموصي والموصى، (وهو أرحم الراحمين)[1]، وجعل الكل لما رضيه من التابعين. باسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله)[2]. وقال: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[3]، وهم المجانبون للهوى المتبعون للأجر، وهم الخلفاء أبدا، فالتقوى لله جملة العبادة أمراً ونهياً، والعبودية الباطنة علماً وعقداً، والعبودية الخالصة لله بكل ذلك أفراداً وقصداً، إذ هو الطالب ذاك والمطلوب منه العون عليه، كذلك فله العبادة من الكل وبه الاستعانة فيه، (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه)[4] لمن فهم، وعلى ذلك المدار ظهوراً وبطوناً بدءاً وعوداً، ثم لتكون التقوى لله لا لشائبة من الهوى والحكم للخالص من ذلك، وإن قل، ثم للغالب بلا مغالب، ثم للمغالب مع المغالب.

وهذه درجات[5] العاملين للتقوى، والرابعة البارزة عنها للغافلين حتى حكم الله لصاحب ذلك بالانتقال والبقاء، والله خير الحاكمين. وقد عم أرباب البصائر في الدين أن الهوى مفسد أو مقعد في الأوامر الإلهية فكيف بالكونية. قال تعالى: (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن)[6]، فلا يستقيم الأمر الإلهي من قبل الإله أو من قبل الرسل أو من قبل الخلفاء إلا لاتباع الأمر، ويرشد إلى مزيد بيانه في الحضرة الكونية قوله تعالى: (يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد)[7]، يعني باتباع الهوى، يعني حالاً بالشقاق،

(1) يوسف: 64.
(2) النساء: 130.
(3) التوبة: 120.
(4) الزمر: 67.
(5) في ط: درجة.
(6) المومنون: 72.
(7) ص: 25.

ومآلاً بما نسوا يوم الحساب، فلا تنس أيها الخليفة ومن معك، ذكرني الله وأياكم يوم الحساب، وهذا خطاب من الله لمن خاطبه الله تعالى به ثم لجميع المستخلفين في الأرض ليحكموا به ولو في أنفسهم أو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين بقصد الله، لا[1] مهاباة ولا محاباة إلا ما كان في مؤلف يدعى إلى الحق الأكمل وإلى الكمال، ثم لا يمنعه عن الصرف لله إذ هو الطالب والمطلوب كما في وارد قوله تعالى: (أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى)[2]، فهذه تذكرة للتابعين المتخلفين لأنهم كما كان خلقه القرآن، كذلك التابع له يكون إذا استوفى خلقه القرآن بحسبه، فأوصى الخلفة من بعدي والتابعين رأيي والمسلمين بتقوى الله العظيم، وأن لا يتبع الهوى كما أمر الله[3]، فإن المتروك فينا من كتاب الله وسنة رسوله، وهذا كتاب الله كما سمعت وعليه استنطاقه بسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: فاستنطقوا القرآن بسنتي ولن تعمى أبصاركم ولن تزل أقدامكم ولن تقصر أيديكم ما تمسكتم بهما، فأوصي من بعدي بذلك كما أوصى به الرسول، صلى الله عليه وسلم، فإن أجابه من التابعين ذوو النهى بترك هواه لله واتّباع الحق وطلب رضوانه مع المكرمين بذلك، جعلك الله بكرمه كذلك فقد وفى ووافى الإسلام ووفى الاستسلام، وليعظه وليبين له ليقبل، فإن أعرض عن القبول و لم يرضِ إلا اتباع الهوى فيعرض عنه ويتبع سبيل من أناب إلى أن يحدث الله بعد ذلك أمراً، فإنما هما سِماطان[4] يمر المستخلف بينهما كما مر النبي بينهما، فمن استجاب تبعه، ومن أبى تخلف إلى الهوى عبادة له، (ومن أضل ممن اتبع هداه بغير هدى)[5] ولا علم، وفيه فسحة ورخصة، وإلا فالعزيمة التجريد لله وهو متاع المقربين، ولذلك لما كان الإمام علي، رضي الله عنه، من أولي العزم والعزيمة أعرض عن المشرك الباصق في وجهه وقد أضجعه للذبح، فلما فعل به ما ذكر تركه وقام فقيل له في ذلك، فقال: كان القصد أولا مجردا لله وإعلاء كلمته، فلما فعل بي خشيت أن يدخل ذلك القصد شيئا مما للنفس، فأعرضت عنه لذلك، فهكذا شأن أولي العزم، والعزم بالتعزم كالحلم بالتحلم. فأوصيك أيها الخليل

---

(1) في ط: فلا.
(2) عبس: 5- 7.
(3) إشارة إلى قوله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب): ص: 26.
(4) سماطان: مثنى سماط، وهو الصف: لسان العرب: سمط.
(5) القصص: 50.

والتابعين بذلك (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)[1]، لأن هذا سبيلهم الاستخفاف لعدم يقينهم بالعاقبة كأنهم يرونها، فدوموا بعون الله على اليقين، فاليقين الإيمان كله، فهذه نبذة هو الأمر كله ولا تخلص العبادة عن شر إلاه عبد إلا بترك الهوى لأنه شر إله عبد على وجه الأرض، وقد قال تعالى في حق المؤثرين له، وهو سمة المبتدعين السوء قاطبة، (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى)[2] (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى)[3]، أي حالا مآلا إذ تارك الهوى في روضة من رياض الجنة برضاء الله عنه حالا كما لا يخفى على البصيرية، وهذه النبذة للعامل عليها هي مدرجة كل خير متى فارقت الهوى تولاه الله بها إلى سرح خيره الظاهر والباطن حقق الله للجميع ذلك بكرمه إذ هو المعبود والمستعان وعليه التكلان. وإذا كانت الأخرى، وهي محل الانسفار بقليل أو كثير وما بينهما وبقدر ذلك يكون الشقاق، وبقدر المتروك منه يكون الالتئام والانجبار، (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)[4].

وأوصيكم أن فرط شيء من القصور فليكن مجردا للعزيمة على الرشد بإذن الله والتوبة والإقبال على الله، لا مؤخراً على الإقدام ولا موجباً لليأس كما ورد: اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن[5]، أو كما قال، فعلى ذلك ووزنه تكونون في عبادته حال كونكم مستعينين به وإليه المصير. ثم أوصيك وإياهم برعاية اتباع الأوامر واجتناب المناهي والحضور مع الله في ذلك فإنه الآمر والناهي والكتاب نائب الله ونائب الرسول، فاستحكموه مسكة المقبل عليه المؤثر على غيره بلا عكس فإنه العكس، ولتعلم كل مفرد من الجميع أنه مكلف بالكتاب كله ومخاطب بالطاعة للرسول، ولا يعود عليه من ذلك إلا ما يخصه، كما قال: (لا يضركم من ضَلَّ إذا اهتديتم)[6]، فاهتد أيها الخليفة ومن معك مستمسكاً، وكن على أريكته الكريمة متدركاً فإنه دار الخلافة والأمان لأهل البصائر لا العميان، متى جانب آي الاستمساك والتدرك والهوى أو تذكر عند

(1) الروم: 59.
(2) النجم: 23.
(3) النازعات: 39 – 40.
(4) هود: 114.
(5) مسند أحمد 5:135.
(6) المائدة: 107.

المفارقة فلذلك فارعوي، وفعل ذلك من أولي الألباب ذكرى وإنابة إلى الله وإليه مآب.

وأوصيك ومن معك من الأولاد والأتباع ألا تأخذوا بقول القائل حتى تستبينوه لتمضوا على بينة غير ملامة ولا ندامة، أخذاً وتَرْكاً بإذن الله تعالى، فاحرصوا على هذا فإنه طريق سلامة لمن اتبعه، ومجرد وبال لمن خالفه حيث يصبح على فعله نادما، وإذا أنعم الله بنعمة فنفرت فلا تيأسوا من روح الله[1] والله يقبض ويبسط بما سبق به العلم فانتظروا الفرج، وانتظار الفرج عبادة[2]، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)[3]، فما نفى العسر بل أثبته، وجعل الفرج يعقبه بإذن الله. وأوصيك وسائر التابعين أن تستقيموا الأمر أخذا وتركا فإنه حبل الله الممدود ولا تطغوا ولا تقصروا (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)[4] من المبتدعين والظالمين (ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[5]، وعافانا الله وإياكم وبصرنا بذلك في المستبصرين وإياه نعبد وإياه نستعين، واستعينوا عند الشدائد بالصبر والصلاة ليلا ونهاراً (إن الحسنات يذهبن السيئات)[6]، واصبروا (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)[7]؛ وهم العاملون بالأمر أخْذاً وتركاً. وأوصيكم أن لا تتركوا قراءة يس والجزر[8] وتبارك كل ليلة والواقعة فإنها أمان من الفاقة، و(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم)[9] والله يحب من عباده فعل الرخصة كما يحب منه فعل العزيمة. وكل صباح يس وتبارك، ففي ذلك الكفاية من المضار، ودفع المكاره، والأمان من الأعداء الظاهرة والباطنة. وكمال العبودية بإذن الله تعالى في يس قلب القرآن، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات، فلا تضيعوا هذا الخير المرفوع بالله والذخيرة ليوم

(1) إشارة إلى قوله تعالى :(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون): يوسف 87.
(2) شعب الإيمان 205:7.
(3) الطلاق: 7.
(4) هود: 113.
(5) الحجرات: 11.
(6) هود: 114.
(7) هود: 115.
(8) كتب في الطرة من ط: وهي ألم السجدة.
(9) البقرة: 197.

النشور (يوم التغابن)[1]، (فاذكروا آلاء الله لعلكم تُفلحون)[2]، وتبارك الواقية والأمان من مخوف القبر، أي وقت مات العبد، وتظلل عليه يوم القيامة، وسورة الجزر كذلك، ويدافعان عنه ويناديان على رأسه لا سبيل إليه، فاذكروا واقبلوا، هذا من فضل الله واذكروا نعمة ربكم إذ استويتم عليه فيه الاستواء والاحتواء، واذكروا تعدد السور مع كل تال قبله الله في وحدانيتها الشخصية وصورها العددية بحسب العاملين، ولا يشغله عامل عن عامل، فالله الله في ذلك، لا تفرطوا فيه بعد بذله ووصوله إليكم فإنما تفرطون، فالتفريط فيكم وتغبنون بالتفريط يوم التغابن، فاذكروا، فالذاكر حي ومقابله ميّت، أحياكم الله وإيانا آمين، فتجملوا بفضل الله، وجملونا بين عباد الله جملكم الله بذلك مع من جمله الله وإيانا آمين. فالشيخ في قومه كالنبي في أمته كما تعلمون. وأوصيكم بالمحافظة بعد ركعتي الفجر بدعاء العزيز باسمه العزيز: يا عزيز، يا عزيز، يا عزيز إحدى وأربعين مرة وإحدى عشرة مرة: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا جواد، انفحني بنفحة خير إنك على ما تشاء قدير. ويا إله الآلهة الرفيع جلاله خمس عشرة، ويا قيوم فلا يفوت شيء من علمه ولا يؤده سبعة وعشرين مرة، إلى هنا بين السنة والفريضة، وباسم الله على ديني ونفسي، باسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على ما أعطاني ربي لا أشرك به شيئا، الله أكبر الله أكبر، أعز وأجل وأعظم مما أخاف وأحذر. اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل جبار عنيد وشيطان مريد، وأعوذ بك من كل ذي شر، (أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم)[3] ثلاث مرات. اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم واسمك العظيم من الكفر والفقر، (رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين)[4] ثلاثا. اللهم علمني ما ينفعني وتقبله مني، ومرة واحدة الذي خلقني إلى سليم، (فسبحان الله حين تمسون)[5] إلى (تخرجون)، فمن قرأ ذلك في الصباح مرة وفي المساء مرة أدرك ما فاته، فأدركوه ولا تتخلفوا عنه، وليعلمه بعضكم بعضاً، ولمن أحب من ذكر أو أنثى فإن خيره لا يحصى.

---

(1) التغابن: 9.
(2) الأعراف: 68.
(3) من قوله تعالى: (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) هود: 55.
(4) الأنبياء: 88.
(5) الروم: 16 – 17.

وأوصيك ومن معك أن تلقنوا أذكار السنة من سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، مائة بالصباح ومائة بالمساء أو سبعين سبعين، أو أربعين أربعين دبر كل صلاة مفروضة لا تتركونه، أتركوا غيره ولا تتركوه توسلوا به. قال صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كُنَّ فيه أو واحدة منهن تزوج من الحور العين حيث شاء: رجل أؤتمن على أمانة فأداها مخافة الله عز وجل، ورجل خلى عن قاتله، ورجل قرأ في دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات[1]، فالله الله في ذلك. وأوصيكم بحفظ الصلاة والصيام[2] والجنابة لإمكان الحياز ولو بالتسامح، فيدخل على العامل الجنب في الصيام والصلاة، والجنابة بالغفلة عن شيء لا يتم معه عمله، فليحرص ولا يصل إلى أحد الوسواس الخناس، فنعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس.

وأوصيك والجماعة أن لا تفرطوا في القراءة لله كل صباح على أحياء ما أنعم الله به على الجميع (وذَكِّر فإنَّ الذكرى تنفع المومنين)[3]، ولا تنسوا ما يحتاج إليه الوقت من إحياء سنن القوم المتروك بقراءة شيء من كتبهم، كالرسالة[4] أو العوارف[5] أو القوت لأبي طالب المكي، أو طهارة القلوب[6] أو الإحياء الجامعة للإحياء لمن ذاق الحيا، وكذلك تذكرة القرطبي[7] والبدور السافرة[8] والصواعق[9] للإمام الفائق، والصحاح مرة مرة، البخاري ومسلم مرة مرة، سنن أبي داوود مرة، والترمذي والنسائي وابن ماجة، فأحيوا تحيوا، حقق الله ذلك بكرمه وجعله كلمة باقية فينا وخلفنا عباد الله الصالحين وعامة التابعين آمين. وكذلك إحياء المكتب بالقرآن إن تيسر وتوفر من أبنائكم من يقرأ، والفقراء والجيران وكذلك الراتب بالزاوية ليلة الثلاثاء، والإحياء برمضان على نسق عادة الله المنان، علينا بها من

---

(1) فيض القدير 3:290.
(2) في ط: السلام.
(3) الذاريات: 55.
(4) يقصد الرسالة القشيرية.
(5) عوارف المعارف للسهروردي.
(6) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب للشيخ الإمام عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدهرى الديرى المتوفى سنة 697 هـ: كشف الظنون 2:1118.
(7) التذكرة بأحوال الموتى والآخرة، لمحمد بن أحمد القرطبي الأندلسي المتوفى سنة 671 هـ: كشف الظنون 1:390.
(8) عنوان الكتاب كاملا: البدور السافرة عن أمور الآخرة، للسيوطي: فهرس الفهارس 2:1016.
(9) الصواعق على النواعق لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ: كشف الظنون 2:1083.

الأدران، والصلاة جماعة، والتروايح، وختم القرآن كل ليلة بالربعة بعد الصلاة، وقراءة ما تيسر من الحديث بعد ذلك وقراءة الوترية بالزاوية والقرآن عشرة أجزاء كل ليلة بالمكتب يقوم محمد ومصطفى والأولاد إن هدوا إلى الطيب من القول وأنتم معهم، وناظرنا على الكل بالتلاوة والزاوية، وكذلك لمصرف الأرادب 3 التي تخرج من الوكالة في المعادات كما يعرفه الأولاد. وخصص الزاوية معوزة على ذلك القيام، والراتب على الألسنة ودرس القرآن والختم يوزع عليه، ومن رغب إلى الله كان لله نفسا ومالا، فيجد الله عنده توابا رحيما حالا ومآلا، وكذلك عشر ذي الحجة لا تتركوها بالإحياء والصيام لله فإنها من أحب الأعمال الصالحات المسرعة بالعاملين إلى حضرة الرب قرب الله ومحبته، ويرحم كبيركم صغيركم، ويوسع له الكنف، وليوقر الصغير الكبير، وليتق الله كلا ولا يبخس منه شيئا، ومن لم يستطع (أن يمل هو فليملل وليه بالعدل)[1]، فالأخلاق كالأحوال والأقرار كالأقدار، وتواصوا جميعا بالحق (وتواصوا بالصبر)[2]، (ولا تيأسوا من روح الله)[3] ولا يصدق أحدكم الإساءة عن التماس عفو الله والإنابة مع المنيبين إلى الله، (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا)[4] وقد تم فالتمسوه كما تلتمسوا ليلة القدر. هـ ما يتعلق به الغرض من الوصية، باقيها في أمر الأوقاف والأولاد جزاه الله خيرا عن نصيحته وجعلنا ممن امتثل بركته، ومن نظم شيخنا الملا إبراهيم، أبقاه الله، في تاريخ وفاة الإمام القطب أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

[طويل]

إمامُ التقى نجمُ الهدى شاذِليهم غياثُ الورَى في القومِ من فضلِ ذي المَننِ

توفي وكيفَ العيشُ والزمنُ الذي مضَى فيه قد أضحى توفي أبو الحُسْنِ

وله أيضا في تاريخ شيخ شيخه الشناوي (رضي الله عنهما)[5]:

[طويل]

---

(1) البقرة: 281.
(2) العصر: 3.
(3) يوسف: 87.
(4) الطلاق: 3.
(5) زيادة من ط.

سلامٌ لعباس إمامُ معارف ... وذا هو شنَّاوهمُ أحمدُ الأوحَدْ
مضى ولسانُ الغيبِ عن عامِ موتهِ ... يترجمُ تاريخا مضَى نجْبةُ أحمدْ
توفِّ ليومِ الأربعاءِ ودفنُهُ ... بصبحِ الخميسِ بالمضافِ إلى الفرقدْ

يعني بقيع الفرقد، وهي مقبرة المدينة زادها الله شرفاً وجعلنا بها مقبورين على الإيمان في عافية.

وقد ألبسني، رضي الله عنه، كما ألبسه شيخنا الصفي، ونص ما كتبته بين يديه: الحمد لله، ألبسني شيخنا العلامة الموفق بفضل الله للرشاد الجارية أحواله بتوفيق الله على السداد، الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن حسن الشهرزوري العمامة بعدما اعتم بها على رأسه المبارك وأرخى لها العذبة، كما ألبسها من شيخنا العمدة القدوة صفي الدين أبي العباس أحمد بن محمد القشاشي، رضي الله عنه، بسنده، وكان إلباسه لي آخر يوم الجمعة ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وسبعين وألف بالمدينة المشرفة بمنزل سيدنا الأخ الأجل الفاضل الأكمل السيد محمد بن رسول الشهرزوري كان الله لنا وله آمين. ثم كتب هو بخط يده عقبه: صحيح ذلك. وكتبه إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوي ثم الشهراني ثم المدني كان الله له عنه فيما له بفضله آمين والحمد لله رب العالمين.

ذكر تآليفه رضي الله عنه

فمنها كتاب إنباه الأنباه على إعراب لا إله إلا الله، ابتدأه في بلاده، وفرغ من تهذيبه وتحقيقه وإكماله بعد استقراره بالمدينة، وهو كتاب مفيد لم يؤلف في معناه مثله، أودعه من التحقيقات ما لا يوجد في غيره، ومن النكت النحوية والقواعد الأصولية والمباحث البيانية كل درة فريدة وجمانة ثمينة، لم يدع شيئا يتعلق بإعراب الكلمة المشرفة من جميع العلوم إلا ذكره مع زيادة التحقيق والتدقيق، ثم ختمه بأربعين حديثا في فضل لا إله إلا الله وذكر سنده في تلقينها، وقد طال بحثه على جمع الأحاديث المذكورة في مجالها، واستعان في ذلك بشيخنا أبي مهدي الثعالبي، فلم يتفرغ لذلك إلى أن منّ الله عليه بجمعها من مظانها في

رسالة للعارف محمد البكري[1] أفردها لفضل لا إله إلا الله، ذكر فيها أزيد من مائة حديث، فكتبت إليه بخبرها وأنه إن احتاج إليها لتغير شيء من الأحاديث التي ذكرها أبعثها له. وبالجملة فهو كتاب نفيس محتو على درر العلم تنافس أصحابنا ومشايخنا في كتابته لما أدخلناه المغرب، نفعنا الله وإياه وإياكم بذلك آمين.

ومنها إفاضة العلام في مسألة الكلام أجاد فيه كل الإجادة، وقد علم محل هذه المسألة وعظم قدرها من علم الكلام وأنها لصعوبتها هي السبب في إضافة هذا العلم للكلام، ومبنى هذا التأليف أولاً على تحقيق النزاع الذي بين الأشعرية والحنابلة في الكلام، وذهاب الحنابلة فيه إلى القول بالحرف والصوت، وادعاء القدم لهما صونا لجانب القرآن عن نسبة الحدوث إلى شر منه، و لم يبالوا بما أداهم إليه ذلك من جحد الضرورة المشاهدة في حدوثها وانقضائها، وقد كثرت القالة في ذلك بين متأخري الشافعية والحنابلة حتى أدى ذلك إلى تضليل كل من الفريقين صاحبه، وبسبب هذه المسألة وغيرها من المسائل التي تمسك فيها الحنابلة بظواهر الكتاب والسنة، كالاستواء والنزول والقدم والوجه والعينين وغير ذلك من أحاديث الصفات، حكَم بتضليل شيخ الإسلام ابن تيمية، وأتباعه كابن القيم، معاصروه من الشافعية كالسبكيين وغيرهم، وتحاملوا عليه ونسبوه إلى العظائم، وقد أجاد شيخنا رضي الله عنه بالفحص عن كل ما نسب إلى الحنابلة و لم يقلد في ذلك أهل مذهبه من الشافعية لعلمه بما يقع بين المتناظرين وعدم تحقيق محل النزاع ونسبة كل واحد منهما صاحبه إلى لازم قوله وتعلقه بظواهر أقواله، وإن كان في صريح كلامه ما يدفع تلك اللوازم ويحي على تلك الظواهر، ولذلك كتب شيخنا عند عزمه على البحث في هذه المسائل بإشارة شيخه الصفي إلى الشيخ عبد الباقي الحنبلي البعلي الدمشقي، وهو إذ ذاك كبير الحنابلة وإمامهم علما وعملا وصلاحا بدمشق ليكتب له بمعتقد الحنابلة محررا مبينا بأدلته حتى لا ينسب إليهم شيئا مما يقولوه وأخذ هو في الفحص عن رسائل الشيخ ابن تيمية وأصحابه فيما يتعلق بذلك حتى ظفر من ذلك بما تحرر له به معتقد الحنابلة ومبنى طريقهم، وكتب إليه الشيخ عبد الباقي رسالة متضمنة لجميع ما طلب منه بيانه، فحينئذ أخذ في تصنيف هذا الكتاب وحرر فيه النظر ودققه وحققه في مسألة الكلام ثم في سائر المسائل

(1) محمد بن محمد بن عبد الرحمن، أبو الحسن البكري المصري، مفسر متصوف، كان يقيم عاما بمصر وعاما بمكة المكرمة، من كتبه: شرح منهاج النووي، تفسير البكري، توفي سنة 955 هـ: الكواكب السائرة 194:2. الأعلام 57:7.

التي وقع فيها النزاع ونظر في ذلك نظر ما هو منصف متحل بجميل الأوصاف.
قال لي: لما أمعنت النظر في رسائل القوم ومصنفاتهم وجدتهم برآء من كثير مما رموهم به أصحابنا الشافعية من التجسيم والتشبيه، وإنما القوم متمسكون بمذاهب كبراء المحدثين كما هو المعروف من حال إمامهم رضي الله عنه من إبقاء الآيات والأحاديث على ظاهرها والإيمان بها كذلك، مفوضين فيما أشكل معناه، وهذا لا يذمه أحد من الأشعرية، بيد أن الحنابلة مشددون في رد التأويل في ذلك يجهّلون من يذهب إليه كالأشعرية، فيقولون: الله ورسوله وسلف الأمة أدرى بمعاني الآيات والأحاديث من هؤلاء المؤولين وما ورد عنهم أنهم أولوا شيئا من ذلك، فأما أن يكون ذلك لأن معناه خفي عليهم فكيف ظهر لهؤلاء ما خفي على أولئك، وإما لأنها على ما يظهر من معناها لأن الشرع جاء بلغة العرب فمراد الله بهذه الألفاظ هي المعاني التي تريدها منها العرب في لغتهم وتطلق على كل واحد بحسب ما يليق به، فالمراد بالاستواء والفوق والنزول هي معانيها المعهودة في كلام العرب، فإذا قلت زيد فوق السرير فمعناه مستقر عليه متمكن منه مستعل. ولما علمنا أن زيدا جرم من الأجرام والسرير كذلك تحقق لنا أن الفوقية في حقه واستقراره فوق السرير يوجب مماسته له وتحيزه في جهة من جهاته، وغير ذلك من الأوصاف التي يوجبها استقرار جرم على جرم. وأما المولى جل جلاله فماهية ذاته غير مدرَكة لأحد من الخلق، فكيف نقول بأن استقراره فوق العرش يوجب مماسته له وتحيزه في جهة، لأن ذلك لازم استقرار الجسم. وأما استقرار من ليس بجسم، فلا نحكم بأنه يوجب كذا وكذا حتى نعلم ماهيته والماهية غير معلومة، فنثبت له استقرارا حقيقيا فوق عرشه لأنه أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله بإثبات الفوقانية التي معناها في اللغة التي جاء بها القرآن الاستقرار على الشيء والاستعلاء عليه على وجه يليق بذاته لا ندركه الآن لأنا لم ندرك ذاته ولم نعلم ماهيته، فكيف نحكم على ذاته بأن استقرارها على شيء وعلوها عليه يوجب المماسة والتحيز، فقد يستقر الشيء على الشيء بلا مماسة لاستحالتها من المستقر وإن جازت في حق المستقر عليه، وكذلك يقولون في النزول إن المحالات المذكورة إنما تلزم من نزول الأجسام من الانتقال[1] والتغير، بل نثبته له لأنه أثبته لنفسه، ونقول إنه نزول حقيقي منزه عما يطرأ ويقع من نزول الأجسام لأنه ليس بجسم، وكذلك

(1) في ط: الانتقام.

القول في الاستواء نؤمن به على ما هو المفهوم من كلام العرب لأنه أثبته لنفسه بكلام هو من لغة العرب، ولا نقول بما التزمتمونا من الجهة والمماسة أيضا لأن ذلك في استواء الأجسام بعضها على بعض. وأما استواء من ليس بجسم على جسم فلا ندرك منه ونعقل، إلا أنه استواء وكيفيته وما يلزم منه لا نعلمه لعدم علمنا بالماهية، وقد بالغ ابن القيم في الرد على الأشعرية في مثل هذا حتى أتى بعبارة سوء وقال: إنهم تكلفوا في كلام الله تعالى ورسوله، وتنطعوا في فهمه، و لم يتلقوه بالقبول كما فعل من أخلص إيمانه من السلف الصالح حتى وقعوا فيما وقع فيه من قبلنا من الأمم من تنطعهم على أنبيائهم. قال: فلام الأشعرية كنون اليهود في الزيادة والتنطع، فاليهود أمروا أن يدخلوا الباب سجدا ويقولوا حطة[1]، فدخلوا يزحفون أستاههم وقالوا حنطة، فزادوا النون تنطعا وتقوّلا على الله ما لم يقله، والأشعرية كذلك. قال الله تعالى: (الرحمن على العرش استوى)[2]، فتنطعوا وقالوا: استولى، فزادوا اللام تنطعا. ولقد أساء، سامحه الله، الخطاب وتنكب بمحض العصبية عن الصواب فإن الأشعرية، رضي الله عنهم، لم يجحدوا استوى و لم يمتنعوا من قوله، بل قالوا استوى وبه يقرؤون ويتقربون إلى الله تعالى، ولكن بعضهم أول المعنى لما رأى الظاهر منه محالا على الله فقال: معنى استوى استولى لورود اللفظين معا في لغة العرب بمعنى واحد كقوله[3]:

[كامل]

قد استوى بشر على العرَاق ... من غير سَيف ودم مهراق

وأمثال هذه التعصبات الفاسدة هي التي أوقعت الفريقين فيما وقعوا فيه، وإلا فالكل على هدى، إن شاء الله، فيما يظهر لأن المفوض مسلم لمراد الله تارك ما لم يكلف بعلمه، والمتأول متبع لما علم صحته وثبوته من الكتاب والسنة حامل عليه ما لم يتضح معناه حتى تكون العقيدة كلها على نسق واحد ولا يسرع إلى فهم القاصر معنى لا يليق بالرب فيثبته له، فالتأويل لأجل هذا حسن لأنه حراسة عن اعتقاد ما لا يجوز اعتقاده، فإذا سمع قاصر الفهم استوى لم يتبادر إلى فهمه إلا

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون): البقرة: 58- 59.
(2) طه: 5.
(3) ورد البيت بلا نسبة في: شذرات الذهب 1:79.

المعنى المستحيل، فإذا سمع قول العالم معناه استولى عليه بالقهر والغلبة زالت تلك الشبهة من قلبه، وهذا الذي أولنا به الاستواء وإن لم يكن هو مراد الله ورسوله فهو لا شك معنى ثابت لله متصف به لا ينافي ما هو معناه عند الله، فلا كبير ضرر في ذلك ولا تحكم إذ لم نقل ليس له معنى إلا هذا، بل نقول يحتمل أن يكون معناه هذا وهذا صدق لأنه محتمل. ولقد أطلعني بعض أصحابنا الحنابلة بالقاهرة على رسالة للشيخ ابن تيمية وهي معتمدة عند الحنابلة فطالعتها كلها فلم أر فيها شيئا مما ينبز به ويرمى به في العقائد سوى ما ذكرنا من تشديده في رد التأويل وتمسكه بالظواهر مع التفويض مع المبالغة في التتريه مبالغة نقطع معها بأنه لا يعتقد تجسيما ولا تشبيها، بل يصرح بذلك تصريحا لا خفاء فيه. والعجب ممن يترك صريح لفظه بنفي التشبيه والتجسيم ويأخذه بلازم قوله الذي لا يقول به ولا يسلم لزومه لقوله: وعلى كل حال فهو كما قال كثير من المشايخ في الشيخ محي الدين، وكثيرا ما سمعته من شيخنا العلامة سيدي عبد القادر رضي الله عنه يقول: محكم كلامه يقضي على متشابهه، ومطلقه يرد إلى مقيده، ومجمله إلى مبينه، ومبهمه إلى صريحه، كما هو شأن كل كلام ظهرت عدالة صاحبه، والله أعلم .

ولقد أحسن شيخنا، رضي الله عنه، التوفيق بين كلامهم وكلام الأشعرية وبرأهم من كثير مما نسب إليهم متأخرو الأشعرية، كما أن الأشعرية مبرأون مما نسب إليهم (متأخرو)[1] الحنابلة من التعطيل والتحريف لكلام الله عن مواضعه، والكل على هدى إن شاء الله متمذهبون بمذاهب أهل السنة والجماعة، يصدق كلام بعضهم بعضا، ويصدقون كلهم بكلام الله ورسوله، وهو مصدقهم وإن اختلفوا في التأويل والتفويض فهما طريقان مسلوكان منتهجان منسوبان معا لأهل السنة والجماعة، وإن كثر التفويض عند السلف لعدم احتياجهم إلى ذلك بظهور أهل الأهواء المتمسكين بمتشابه الآيات والأخبار الحاملين لها على قبيح آرائهم، فتعين عن[2] أهل السنة والجماعة المناضلين على الاعتقاد الحق تأويلها على ما يوافق الحق ليبطل تمسك المبتدعة بها. و لم يقل أحد من الأشعرية بوجوب التأويل وأنه لا يجوز الإيمان بالمتشابه على ما هو عليه، بل استحبوا التأويل للغرض المذكور و لم يخالف عقائد أهل الحق من المقلدين للأئمة الأربعة إلا طوائف قليلة لا يعبأ بهم

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: عن.

كما قال الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه مفيد النعم ومبيد النقم، فقد قال فيه عند ذكره للعلماء في المثال السادس والأربعين ما نصه: وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري، رحمه الله، لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية فلم يُر مالكي إلا أشعري العقيدة هـ لفظه. قلت: وناهيك بهذه المنقبة العظيمة لإمامنا وأتباعه، رضي الله عنه، أقر له بها عظماء مخالفيه من أهل المذاهب. ولأهل مغربنا خاصة، فلم يعرف في علمائهم وأكابرهم قديما وحديثا من هو رأس وإمام في مذهب من المذاهب المخالفة، وقد استدل بذلك سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي على صحة معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري قال: ويدل على صحة مذهب الإمام الأشعري كون معتقد أهل الغرب قاطبة الذين شهد لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأنهم؛ لا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله[1]، وهم ظاهرون، كما ورد في بعض روايات الحديث، طائفة من أهل الغرب، وتأويله بالدلو العظيم أو غير ذلك عدول عن الظاهر بلا ضرورة، فالصواب إبقاؤه الله[2] على ظاهره. قلت: ومن أراد أن ينشرح صدره ويتبين له تبينا لا مراء فيه صحة مذهب الإمام الأشعري وأنه مذهب أهل السنة والجماعة، فليطالع كتاب الإمام أبي القاسم بن عساكر المسمى بتبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري فقد أتت فيه من أدلة الكتاب والسنة وأقاويل السلف والخلف بما لا يمترى معه عاقل خال من التعصب أنه إمام السنة ورئيس الجماعة المضمون لها العصمة من الله. ولقد قال لي شيخنا الملا إبراهيم يوما: ما رأيت مذهبا من مذاهب أئمة المتكلمين أقرب إلى مذاهب العارفين وأشبه بها من مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري، فما قال العارفون أهل الكشف في مسألة بخلاف أقوال المتكلمين إلا وجدت قول الأشعري أقرب إلى قولهم من قول غيره بحيث يمكن رده إلى أقوالهم بأدنى تأويل، بل المواضع المستشكلة من كلامه جارية على وفق ما يقوله أهل الكشف، ولذلك أشكلت على من لم يبلغ مقامه في المعرفة من أهل الظاهر، كقوله في الوجود: إن وجود كل شيء عينه هو عين قولهم في الوجود المطلق

(1) مسند أحمد 4: 429.
(2) ساقط من ط.

ووحدته. وقوله في الصفات: لا هي هو ولا هي غــيره. وقولــه في الكــسب والاستطاعة: كل ذلك لا كبير فرق بينه وبين ما اتضح لبصائر أهل الكشف، ومن طالع تآليف المؤلفين في عقائد العارفين وإجماعاتهم كالكلاباذي[1] في التعريــف، وجدها لا تباين مذاهب أهل السنة والجماعة فيما اتفقوا عليه، وقريبة من مذهب الأشعري فيما اختلفوا فيه، وقد ذكرت ما قال شيخنا الملا لشيخنا صدر الجماعة وإمام كل صناعة العلامة العارف المحقق سيدي عبد القادر علي الفاسي، فصدقه في ذلك وقال: لا شك أن الإمام الأشعري كان له حظ وافر من العلــم بــالله والمعرفة به مؤيدا في أقواله مسددا في آرائه غير خال من الكشف الصحيح والذوق الصريح، ولولا ما أقامه الله فيه من مناظرة أهل الأهواء ومناضلتهم والجري معهم على نحو ما عرفوه من أدلة المتكلمين لكان رأسا في طريق القوم وإمام العارفين في زمانه، وقد شهد له بذلك أهل البصائر من العارفين في زمانه وبعده، ولقد قال لي شيخنا الملا: إنه ليشق علي كثيرا أن أجد في كلام العارفين ما يخالف بظاهره أقوال الإمام الأشعري دون غيره من المتكلمين، ومع ذلك فلا ألبث إلا يسيرا حتى يفتح الله لي بابا من الفهم يتضح لي به موافقة كلامهم لرأيه فأحمد الله كثيرا، وقد قدمنا أن أهل الصدق لا اختلاف بينهم وإن أوهمه ظاهر كلامهم في بعض المواضع، والله أعلم .

ومن تآليفه أيضاً القول الجلي، وهو جواب عن أسئلة وردت من قبل بعض علماء الزيدية من أهل اليمن في حياة الشيخ الصفي وأمره بالجواب عنه. ومــن رسائله التتمة على المسألة المهمة، يعني مسألة الكسب التي ألف فيها شيخه الصفي رسائله الثلاث. ومنها رسالة أخرى سماها ذيل التتمة في المسألة أيــضاً. ومنــها الرسالة التي ألّفها برسمي في المسألة. فرسائله فيها ثلاث عدد رسائل شيخه، إلا أنها أصغر منها. ومنها رسالة في حديث الأعمال بالنيّات أجاد فيها كــل الإجــادة وحقق الكلام فيها غاية التحقيق، وسبب اطلاعي على هذه الرسالة أني ذكرت له يوما أني رأيت بالقاهرة سفرا من شرح الجامع الصغير[2] للمبتولي ذكر صاحبه أنه شرح حرف الهمزة منه في ثلاثة عشر مجلدا، والسفر الذي رأيته سفر كبير وليس

---

(1) محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي، من حفاظ الحديث، له كتاب: التعرف لمذهب أهل التصوف، توفي سنة 380 هـ: كشف الظنون 1:225. الأعلام 5:295.

(2) شرح الجامع الصغير للسيوطي لأحمد بن محمد المتبولي المتوفى سنة 1003 هـ: كشف الظنون 1:560.

فيه إلا الكلام على حديث إنما الأعمال بالنيات. فقال لي: إن التطويل في مثل هذا إنما هو بأمور خارجة عن معنى الحديث المشروح أو بأمور ليست من التحقيق في شيء، كالاشتغال بجلب الأقوال غثها وسمينها، والاسترسال في جلب الفروع الفقهية المتعلقة بذلك، واختلاف آراء الفقهاء في ذلك، وأما تحقيق معنى النية وزبدة الأقوال المقولة في معناها وكيفية انطباقها وشمولها لسائر الأعمال فهو ما أودعته رسالتي المؤلفة في ذلك، ولقد صدق في دعواه. قال لي: وقد أطلعني شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي على رسالة القرافي المسماة بالأمنية، فأحكمت مطالعتها فلم أجد فيها زيادة على ما ذكرت، وحين أطلعته على رسالتي حكم بأن رسالتي أتم تحقيقا وأوجز لفظاً.

ومنها رسالة أخرى ألفها في مسألة طال البحث فيها بين الشيخ القشاشي وأصحاب الشيخ عبد الأحد النقشبندي الهندي، وهي مسألة تفضيل البشر على الكعبة، وهي مسألة قديمة البحث تكلم عليها الشيخ محي الدين في الفتوحات وحكم بتفضيل البشر، فلما جاء الشيخ آدم شيخ شيخنا جمال الدين على المدينة، وهو من أجل تلامذة الشيخ عبد الأحد، ألف رسالة في ذلك وجنح إلى تفضيل الكعبة وزعم أن شيخه كان يقول بذلك، وخالفه في ذلك شيخنا الصفي، فلم ينشب الشيخ آدم أن توفي إلى رحمة الله. وسمعت بعض الأصحاب يقول إن الشيخ الصفي تصرف فيه بقوة الحال وأعلم بموته فمات قريبا من ذلك. فلما قدم إلى المدينة في سنة ثمان وستين أولاد الشيخ عبد الأحد السيد محمد المعصوم وأخوه وأولادهم، وكانت لهم نجابة وعلم وفهم على ما أخبرني شيخنا الملا، جرى ذكر المقالة التي وقع البحث فيها بين شيخنا الصفي وبين تلامذة أبيهم، فأمر الشيخ الصفي تلميذه الملا إبراهيم أن يؤلف في ذلك فألف رسالة مفيدة، ولما قدِم أولاد الشيخ عبد الأحد المدينة قدموا في شارة عظيمة وأتباع كثيرين، وانثال الناس عليهم للأخذ منهم والتبرك بهم، فبعثوا أولادهم للقاء شيخنا صفي الدين وزيارته. قال لي شيخنا الملا لما انفصل أولادهم من عند شيخنا قال لنا إن هؤلاء كبراء قوم وأهل علم ونسبة لله قد قدموا علينا في هذه البلدة المشرفة وتفضلوا ببعث أولادهم لزيارتنا، فيحق عليكم أن تزوروهم في محالهم التي نزلوا فيها مكافأة لهم لئلا يجدوا في قلوبهم، فوجهني أنا والشيخ مهنا للقائهم، وكان الشيخ مهنا رضي الله عنه من رجال وقته له حال قوية وسلوك مستقيم في الطريق، صحب السيد سالم شيخان

باعلوي[1]، رضي الله عنه، وبعد وفاته اتصل بالشيخ القشاشي لما بينه وبين شيخه من الصحبة والألفة، وكان الشيخ مهنا يقول إنه وجد الشيخ القشاشي لما اتصل به أكمل حالا وأتم عرفانا من السيد سالم، فلعل الشيخ الصفي وصل بعد السيد سالم إلى مقام أعلى من مقامه، أو كان كذلك أعلى منه حتى في حياته، إلا أن الشيخ مهنا لقوة استغراقه في شيخه لم يشعر إذ ذاك بعلو مقام الصفي على مقامه. قال لي الملا: ولما عزمنا على زيارة السيد المعصوم أنا والشيخ مهنا وجماعة من الأصحاب أضمرت الجزع منهم وهيبت لقاءهم لما أخبرت به أن لهم تصرفاً في القلوب قويا وتوجها عظيما في مراقبتهم، كما هو شأن السادات النقشبندية، رضي الله عنهم، فلما أردنا الخروج قال لنا الشيخ: اذهبوا على بركات الله وتحفظوا على نعالكم لئلا تسرق لكم، ولكن ما ثم إلا الخير، قال ذلك على وجه المزاح، وفهمت منه أنه قال: تحفظوا على قلوبكم وأسراركم أن يتصرفوا فيها بهممهم وتوجهاتهم. ولكن لما قال الشيخ ما ثم إلا الخير، علمت أنه يمدنا بمدده، فلا يقدرون على التصرف فينا. قال: فلما دخلنا على كبيرهم وجدناه على سرير وتلقانا وسلم علينا وأجلسنا وجلس، فلحقتنا هيبة منه عظيمة ورعب، والمجلس غاص بأهله، فلما استوى بنا المجلس نظرت إليه وهو متوجه، ونظرت إلى الشيخ مهنا وهو جالس بإزائي ضارب برأسه إلى دقنه وهو يغط غطيط البكر، ولم يشعر به أحد غيري، فبعد ساعة رفع الشيخ مهنا رأسه وهو يقول سراً: تحسبون أن أحداً ليس يقدر عليكم، أو أن ليس في البلد أحد يقاومكم حتى خشيت أن يسمعه، فرفعت رأسي إلى السيد المعصوم فرأيته قد ارفضّ عرقاً، فانفصل المجلس ولم يكلمنا بكلمة واحدة، فعلمت أن الشيخ أمدنا بمدده وأنه رام التصرف فينا ولم يقدر، فأوجم لذلك، وكذلك عادة المشايخ النقشبندية، رضي الله عنهم، إذا راموا التصرف في أحد وغالب حاله حالهم وقوي عليهم ولم يقدروا عليه انقلبت قوة حالهم عليهم، فمنهم من يغشى عليه، ومنهم من يصعق، بل ربما أدى ذلك بعضهم إلى الموت. أو ما ترى الصقر إذا انقض على الصيد بقوة فاخطأه ربما كان في ذلك هلاكه، وكان هذا الشيخ لما توَجَّه إلى بواطن أصحاب الشيخ بالتصرف وقابله الشيخ مهنا بتوجه أقوى منه لقوة مدد شيخه فلم يقدر على التصرف فيهم انفعل لذلك وارفض عرقا. فلم يتكلم بكلمة خجلا، وكان الشيخ مهنا، رضي الله عنه، إذ ذاك أقوى

(1) سالم بن أحمد شيخان باعلوي، الحسيني الشافعي، عارف مصنف، من أئمة الصوفية بمكة المكرمة، ولد سنة 995 هـ، وتوفي سنة 1046 هـ: خلاصة الأثر 2:200. الأعلام 3:70.

أصحاب الشيخ الحاضرين هناك حالاً وأتمهم استعداداً، فتوجه لمنازلة هذا القــرن ومقاومته دون أصحابه، فلما رجعنا إلى الشيخ وجدناه ينتظرنا وكأنه كان يمدنا، والله أعلم.

ومن تآليفه أيضاً الشرح الكبير والصغير على منظومة شــيخه الــصفي في العقائد، وقد أجاد فيها كل الإجادة وأحسن غاية الإحسان، وقد وهب لي نسخة من الشرح الكبير وكتب على ظهرها بخطه هدية من الفقير إبراهيم إلى أخيه فلان والله تبارك وتعالى يكافيه عنا بأحسن المكافآت. وله رسائل أخرى وســوى مـــا تقدم، وتقاييد على مسائل مما يشكل في فنون كثيرة. ومن تآليفه رسالة في الكلام على الاستخارة اليومية التي جرى عمل الصوفية بها، وهي صلاة ركعتين في كل يوم بنية الاستخارة وقراءة دعاء الاستخارة معتبرا لجميع شؤونه الدينية والدنيوية. كان يقول، على ما ذكر بعضهم، في خلال الدعاء: اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أحرك فيه وأنطق به في حقي وفي حق غيري، وجميع ما يتحرك فيــه غــيري وينطق به في حقي وفي حق أهلي ومالي وولدي من ساعتي هذه إلى مثلها من الغد خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأقدره لي. إلى آخر دعاء الاستخارة الوارد في الحديث، فإن بعض الناس قد أنكر ذلك على الصوفية وقال: ليس له أصل في السنة. فكتب الملا في ذلك رسالة استطرد فيها شرح دعاء الاســتخارة شــرحاً وجيزاً مفيداً، نفعنا الله وإياه بذلك.

ذكر التعريف بشيخه الذي هو قدوته وإمامه ومُرَقيه في مدارج العرفان

وهو شيخنا الإمام قدوة الأكابر الأعلام، شيخ العارفين، وسائس قلــوب الراحلين والخائفين، ذو التصرف التام في العلمين، ومرشد الــسالكين، وإمـــام الحرمين، غوث زمانه، وقطب أوانه، الشيخ السيد صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس المُلَقَّب بعبد النبي بن القطب أحمد بن علي المقدسي الدجاني بتخفيف الجيم، المدني، قدس الله سره ورحمنا به، والمحبين آمين. كان رضي الله عنه إماماً في العلوم الظاهرة والباطنة، رأساً في علوم الحقائق، صدراً في صدور أهل هذه المائة، قد أقر له بالتقديم علماء زمانه وكبراء أوانه، وشَهِد له بالقطبانية العظمــى والــصديقية

الكبرى أهل البصائر الصافية، فصاروا من أعوانه. أخبرني شيخنا الملا إبـــراهيم أن الشيخ الكامل المكمل سيدي أبا الصبر أيوب بن أحمد بن أيوب الصالحي العدوي الشامي الدمشقي[1] رضي الله عنه كتب إلى شيخنا القشاشي كتابا قال فيه بعـــد الافتتاح: أما بعد، لأن لكل وقت صمدا يصمد إليه في الأمور، وأنت صـــمد ذا الوقت، ثم ساق الكلام على هذا النمط إلى آخر الكتاب. قال الملا: فلما قـــرأه الشيخ أمرني بكتب الجواب كما هو عادته في آخر أمره. فقلت: يا سيدي إن مثل هذا لا أقدر على أن أجيب عليه، إنما يجيب عليه أنت، ولكن إذا كتب ســـيدنا الجواب فليطالعنا عليه، وإنما امتنعت عن الجواب لأن المرء لا يخبر أحداً عن حاله إلا نفسه، وهذا عارف يكاتب عارفاً ويصفه بالصمدانية الـــتي هـــي القطبانيـــة العظمى، فمن أين لمثلي أن يجيب عن ذلك بنفي أو إثبات. قال: فلمـــا كتـــب الجواب وأطلعني عليه وجدته قد افتتحه بقوله: الحمد لله على ذلك، كذلك، فقلت في نفسي: هذه البغية فلا أعظم من شهادة هذا العارف له بالقطبانية، وتصديقه له في ذلك بحمد الله على ذلك، والإقرار أنه كذلك، والشيخ أيوب هذا كان إماماً في المعارف والعلوم الإلهية، تصدر للعلم وتربية المريدين في دمشق ونواحيها، وأتـــاه الناس للسلوك على يديه من أقطار الأرض، وله تأليف في علوم القوم كثيرة النفع غزيرة العلم. أخبرني بعض الأصحاب أنه ألّف كتاباً عظيماً على نمط الفتوحـــات المكية فرأى الشيخ محي الدين في النوم وكأنه قد غار منه، فقال له: يا أيوب أتريد أن تخمل ذكر كتابي بظهور كتابك؟. فلما أصبح ذهب به إلى الماء وغسله كلـــه تأدبا مع الشيخ محي الدين. وهذا لعمري غاية الأدب مع العارفين، ولا يعـــرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل، فشهادة مثل هذا الشيخ على جلالة قـــدره وتمكنه في العلوم والمعارف مقبولة لا يقدح فيها إلا أعمى البصيرة، وكـــم مـــن عارف وسالك شهد بما شهد به هذا الشيخ، وشهادة الكون بأسره أقوى شهادة إذا ألقت إليه كبراء العارفين أزمتهم في زمنه، ووردت عليه الأسئلة من جميع أقطار الأرض بالاستفتاء في العلوم الظاهرة والباطنة، فيجيب الكل بما لا ينازعه فيـــه إلا مكابر ممن أعلم أهل الهند بما أعلم به أهل المغرب من علمه وفضله حتى انقـــادوا للاقتداء به إلا من أهله، لذلك وأظهره علما لعباده ينتفعون بالأخذ من علومـــه

(1) الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي، متصوف من الطريقة الخلوتية، ولد ونشأ بدمشق، صنف عددا من الرسائل والكتب في التصوف، توفي سنة 1071 هـ: خلاصة الأثر 422:1. الأعلام 37:2.

ويسترشدون باقتفاء آثاره، ومن رأى تآليفه ورسائله في أنواع العلوم، خصوصا علوم الحقائق، لا يمتري في أنه قطب زمانه لأن الأوصاف التي ذكر أهل الطريق للقطب، والعلوم التي ذكروا أنه مختص بها كلها موجودة في الشيخ رضي الله عنه، وهذه كتبه فلينسج أحد على منواله فيها ممن لم يهتد بطريقه و لم يستفد من تحقيقه. أصله رضي الله عنه من القدس الشريف، وبه كان جده الأعلى الشيخ العارف قطب زمانه أحمد بن علي المقدسي رضي الله عنه، وله أتباعٍ كثيرون هناك وأولاد وزاوية، فلما نشأ ولده يونس المسمى بعبد النبي وذاق شيئاً من المعارف ساح في الأرض وترك بلاده وانسلخ من الجاه الذي ورثه من والده وبقي إخوته وسائر متعلقات أبيه بالقدس، وذهب هو إلى الحجاز وساح فيه وفي اليمن، ثم استقر آخراً بالمدينة، وسبب تلقيبه بعبد النبي أنه كان يجمع الفقراء ويأتي بهم إلى المسجد ويدفع لهم الأجرة ليصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يومهم، فسمي لذلك عبد النبي، وكان يبيع بالمدينة القشاشة، وهي سقط المتاع من الأشياء التي تسترخص من أي نوع من نعالٍ أو خرق ومحابر وإبر وغير ذلك مما يحتاج إليه الفقراء، فسمي لأجل ذلك القُشاشي، بضم القاف وتخفيف الشين، أخبرني الملا أنه قدم رجل من اليمن يقال له القَشّاشي، بفتح القاف والشين المُشَدَّدة، فجاء إلى الشيخ وقال: يا سيدي أنت منا، يعني في النسبة. فقال الشيخ: لا، نحن قشاشتنا سماوية، وأنتم قشاشتكم أرضية، يشير رضيٍ الله عنه إلى الرفع والخفة في الأولى، وإلى النصب والثقل في الأخرى، ويشير أيضاً إلى أن نسبتنا اكتسبناها من الفرار إلى الله والتعلق به وهضم النفس، ونسبتكم اكتسبتموها من الأسباب الدنيوية والاستكثار منها لأن القشاش في عرف التاجر الذي يبيع أصنافا كثيرة من التجارة المطلوبة لكل أحد، بخلاف القشاشة المتقدمة لا يشتريها إلا الفقراء ولا يشتغل ببيعها، سيما إن كان ذلك عن اختيار لا عن ضرورة، إلا من ذلت نفسه لله وقصد بذلك نفع الفقراء كهذا الشيخ، و لم يزل الشيخ يونس بأرض الحجاز خامل الذكر لا يشعر أحد من أهله بمكانه، سيما مع تغير النسبة وحدوث اللقب إلى أن تُوفي وبقي ولده والد الشيخ سالكاً على طريق والده من الاشتغال بما يعنيه، وبسلوك طريق أهل العلم بالله، وثم نشأ ولده شيخنا صفي الدين على قدم أسلافه من الزهد والعبادة وطلب العلم في صغره، فحصل منه ما كفاه وسلك في طريقٍ القوم على يد والده وغيره من المشايخ وجال في بلاد الحجاز، ودخل اليمن مرارا ولقي أكابر العارفين بها، وكانت إذ ذاك وكراً للصالحين بها جماعة كثيرة من أهل

المعرفة وأصحاب الأحوال من آل باعلوي ومن العيدروسية ومن الجبرتية وغيرهم من أرباب الطوائف، فانتفع بلقائهم وتأدَّب بآدابهم، وحصل النفع الكثير والخير الكبير بزيارتهم وخالص دعواتهم رضي الله عنه وعنهم وعنا بهم أجمعين، وكانت طريق أسلافه، رضي الله عنهم، في السلوك قادرية، ومذهبهم في الفروع مالكية، فنشأ الشيخ، رضي الله عنه، على ذلك سالكاً على طريقتهم متمذهباً بمذهبهم المالكي إلى أن اتصل بالشيخ الشناوي كما سيأتي، وسلك على يديه، اقتضت محبته له وشدة اتّباعه له واقتداؤه به في سائر تقلباته كما هو شان المريد الصادق مع شيخه الحاذق إن تمذهب بمذهب الشيخ في الفروع أيضاً، وكان الشيخ الشناوي شافعيا، وكان الشيخ القشاشي، رضي الله عنه، يقول: تشفعت بالشيخ، وهو كلام بليغ موجه كما ترى إذ يحتمل التشفع به إلى الله تعالى لأن الشيخ للمريد شفيعه أو تصيره شافعياً بسببه، وكلاهما حاصل، وكان الشيخ أولاً قد قرأ في المذهب المالكي عدة مؤلفات، فلما انتقل إلى مذهب الشافعي وقرأ كتب[1] أصحابه صار يُفتي في المذهبين، وقد أخبرني الملا عنه أنه قال: قرأت المقدمة العشماوية في مذهب مالك على النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام كلها، ورأيت بخط صاحبنا وحبيبنا حسن بن علي العجيمي في رسالة له، وهو من أجل تلامذة شيخنا الصفي أن الشيخ أخبره أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم في النوم القرآن كله من أوله إلى آخره، وهذه منقبة عظيمة لهذا الإمام فإن المشايخ قديما وحديثا كانوا يتباهون بقراءة آية أو سورة أو بعضها على النبي، صلى الله عليه وسلم، في النوم، وينقلون ذلك مسلسلاً بأسانيدهم، ويرون ذلك من أجل المفاخر وإن كثرت فيه الوسائط، فكيف بمن قرأ القرآن كله عليه صلى الله عليه وسلم، ولا يذهبن بك الوهم الكاسد والتخيُّل الفاسد إلى أن الشيخ، رضي الله عنه، انتقل عن مذهبه ومذاهب أسلافه الذي هو مذهب مالك إلى مذهب الشافعي لهوى نفس أو تحصيل رئاسة أو ولاية منصب، كما هو شأن كثير من أرباب النفوس في هذه الأزمنة، خصوصا مذهب الحنفية فقد كثر المنتقلون إليه في هذه الأزمنة لأغراض فاسدة، حداهم[2] على ذلك وجود الملك والرئاسة في أهل ذلك المذهب، وهذا شأن من لا خلاق له ولا دين، وإنما الحامل للشيخ على التمذهب بمذهب الشافعية ما ذكرنا أولا من اقتدائه بالشيخ الشناوي وسلوكه

(1) في ط: كتاب.
(2) في ط: هداهم.

على يديه في الحقائق، وكان ذلك في زمان تعطشه إلى موارد الحقيقة، وفي عنفوان إقباله على السلوك بكليته، فوجد الشيخ الشناوي رضي الله عنه منهلاً بارداً وماء معينا وزلالاً صافياً لا يظمأ من شرب منه أبدا، ولا يروى منه من تابع الـــسقي مجرداً، فاستولت بذلك عليه روحانية الشيخ وغاب كله في كله، فلم يبق له حينئذ مذهب ولا رأي إلا مذهبه ورأيه في مصادره وموارده حتى في العادات، فضلاً عن العبادات بحيث لو أن الشيخ انحرف طبعه ومزاجه عن أكل طعام ما أو فاكهة ما لما وجد المريد في حال اتحاده بالشيخ مساغا لذلك وغص بريقه عند تناوله، وفي هذه الحال وتمكنها من المريد يتهيأ سريان جميع ما أودع الله من المعارف في قلب الشيخ إلى قلب المريد بسهولة من غير تكلف ولا تعمل، ويتخلّق جنين المعرفة في قلب المريد، ويتكون ولا يزال، مع شدة الاتصال، ينمو إلى أن يصير بشراً سوياً، فيكمل خلقه وولادته وفطامه في الأمر الذي قدر الله، فإذا بلغ أشــــده فحينئـــذ يتمكن انفصاله عن الشيخ وتمايزه عنه كانفصال الوالد الحسي عن والده، مع أن أصله منه ومبدأ نشأته منه، ولولا شدة الاتصال الكائن بين الأبوين في مبدإ نشأة الولد وتمازج مائهما في حال لا يمكن في الحس أن يقع أكثر منها اتصالا لما تكون الولد وتخلق من النطفة، فلو وقع أدنى انفصال بين النطفتين يتمكن معه من دخول ريح بينهما لفسدت النطفة واستحالت إلى شيء آخر، فكذلك الولادة المعنوية ما لم تمازج الأسرار الأسرار، والقلوب القلوب، وتتحد الأوصـــاف بالأوصـــاف، وتغيب الأرواح في الأرواح حتى لا يبقى تمايز إلا في الأشباح، ولا يتخلق جـــنين المعرفة في باطن المريد، فإن فارقه بعد تخلقه أيضا قبل تمام الولادة وإكمال التربية قلما يكون منه شيء، إلا أن هذه الولادة المعنوية قد تكون على نعت توالد أهـــل الجنة كما ورد في الحديث أن الرجل ليشتهي الولد في الجنة فيكون حمله وولادته ومبلغه مبلغ الرجال في ساعة واحدة[1]، فكذلك أيضا هذه الولادة المعنوية عند قوة الاستعداد من الجانبين قد يحصل ذلك في آن واحد، وبقدر ضعفه يطول الأمـــر، ولهذا أشار بعض العارفين بقوله إن العقبات السبع التي ذكرها صاحب المنهاج من

(1) نص الحديث النبوي الشريف كما ورد في سنن ابن ماجة: حدثنا محمد بن بشار، ثنا معاذ بن هشام، ثنا أبي عن عامر الأحول، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضعه في ساعة واحدة كما يشتهى: سنن ابن ماجة 1452:2 .

الناس من قطعها في ساعة واحدة ومن الناس من قطعها في سبعين يوما، وقد انجر الكلام إلى تقرير هذه المسألة في هذا المحل من غير قصد ساق إلى ذلك.

ذكر حال الشيخ مع شيخه الشناوي وإيضاح عذره في الانتقال إلى مذهبه

فإن الإنسان إذا صار إلى هذه الحال لا يمكنه أن يكون له مذهب ولشيخه مذهب في الشريعة والحقيقة معا ظاهراً وباطناً، فإن قلت إن هذا يقتضي أن كل من اقتدى بشيخ في المعارف والحقائق لزمه أن ينتقل إلى مذهبه في الفروع، وإلا لم يفتح له مع أن الواقع خلاف ذلك، فقد اقتدى علماء أكابر محققون من المالكية بأئمة شافعية وبالعكس، وحصل لهم النفع التام مع بقاء كل واحد على مذهبه في الفروع، فنقول: لم نذكر ذلك إيذاناً بأنه ضربة لازب بحيث لا يصح الاقتداء إلا مع ذلك، وإنما ذكرناه إظهارا لعذر من انتقل، وإيضاحا لبيان سببه، وأنه لم يكن عن هوى نفس وإنما هو لأرجحية ذلك المذهب عنده بما استولى عليه من محبة شيخه وامتزاج روحانيته بروحانيته حتى صار الراجح عند الشيخ راجحا عند المريد، والإنسان لا يجوز له أن يقلد من المذاهب إلا ما اعتقد راجحيته لا مرجوحيته كما هو مقرر عند الأصوليين، وأسباب الترجيح كثيرة فقد يكون هذا أحدها، بيد أن المريد إن قويت عارضته في علوم الديانة وسبقت من الله هدايته وتشعشعت نورانيته بحيث (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار)[1]، فأقل اتصال بالشيخ يكفيه في توقد مصباح قلبه كما ذكرنا، فمن قطع العقبات في ساعة واحدة فإذا نور الله بصيرته وأتحف بمفاتيح الهداية سريرته، أدرك بعين قلبه وإنسان عين بصيرته توافق المذاهب في الأصل، أنه لا اختلاف بينهما في نفس الأمر وإن كان يظنه ضعيف البصر فلقصوره فلا يضره مخالفة شيخه في المذهب، إذ لا يراه خلافاً كما هو في نفس الأمر ليس بخلاف، ولو كان في نفس الأمر خلافاً لضره ولو اعتقد هو عدم المخالفة[2]، فإن الموافقة في الديانة والعقيدة شرط في الاتصال الحقيقي، وما ليس بخلاف حقيقي فلا تضر المخالفة فيه، بل هو كالمخالفة في الخلق

(1) النور: 35.
(2) في ط: المخالف.

والألوان لا عبرة به إذ اللطيفة التي كان الإنسان بها إنسانا متحدة وإن تغايرت الأجسام. نعم، إذا كان المريد من المُترسمة الذين غلب على قلوبهم حب التعصب بحيث يعتقد خطأ أهل مذهب شيخه في أشياء يفعلها، ويرى أن شيخه لم يصادف في فعلها، وأنّه أخطأ فيها الصواب، فهذا تضره مخالفة شيخه في المذهب لأن اعتقاد المخالفة يضر ولو لم تكن مخالفة في نفس الأمر، كما أن اعتقاد الموافقة لا ينفع إذا لم تكن موافقة في نفس الأمر، فمتى ينتفع المريد بشيخ يعتقد خطأه وعدم إصابته في فروع من الديانة، وإذا شاهد بنور العلم أو بصفاء البصيرة اتفاق المذاهب في أصلها وأنها دين واحد من رب واحد على لسان رسول واحد لإنسان واحد، لأنّ الإنسان واحد من حيث التكليف إذ لم يكلف الإنسان بما لم يكلف به إنسان آخر، والخلاف بين أهل المذاهب إنما هو في الصورة، فلا يرى بينه وبين شيخه اختلافاً، ولو اختلفت المذاهب، بل يرى بينهما كل الموافقة، فهذا لا يلزمه الانتقال، ولذلك لا يأمر الشيخ المريد بالانتقال إلى مذهبه، لأنّ[1] المذاهب شيء واحد، وقد ألّف في اتفاق المذاهب علماء من أهل الظاهر والباطن، وأجل التآليف في ذلك جمع بين كلام أهل الظاهر وأهل الباطن كتاب الميزان[2] لسيدي عبد الوهاب الشعراني، رضي الله عنه، فقد بيّن أولاً اتفاق المذاهب من حيث الحقيقة وذكر ما بنيت عليه مقاصد الشريعة، وذكر ما كشف له من أحوال أهل المذاهب من طريق الكشف، ثم تتبّع الفروع التي وقع فيها الخلاف بين أرباب أهل المذاهب يترلها على تلك المقاصد، حتى اتضح أن المذاهب كلها جارية على نهج واحد، وسأضرب لك مثلاً واضحاً لذلك لم أرَ من ذكره، ويتضح لك به اتفاق المذاهب كل الوضوح، وذلك مثل قوم نبتت لهم عين ماء زلال من صخرة في جبل، فاجتمعوا للمورد[3] منها، فكان كل واحد يتناول منها على قدر حاجته من غير واسطة، وذلك مثل الهدى الذي جاء به النبي، صلى الله عليه وسلم، ومثل الصحابة الذين تلقوه منه بلا واسطة، ثم تكاثر الناس عندما[4] سمعوا بذلك العين و لم يقدروا على أن يتناولوا كلهم من العين بلا واسطة، فاتخذت لماء العين بركة عظيمة يجتمع فيها الماء، فيتناول الناس من جوانب تلك البركة، ولا يصلون إلى

---

(1) في ط: لكن.
(2) أنظر: الميزان 1:93.
(3) في ط: الورود.
(4) في ط: بعدما.

العين، وذلك مثل ما اجتمع بين دلائل الكتاب والسنة في زمان التابعين وتابعيهم حتى دونت السنة وجمعت من حملتها المتفرقين في البلاد من الصحابة وتابعيهم، فصار الناس يأخذون الأحكام من الكتاب والسنة، فمن صح عنده حديث عمل به، ومن فهم آية من كتاب الله تعالى اقتدى بها، ثم تكاثر الناس تكاثراً أكثر من ذلك الأول، وفيهم أعجمي وعربي، وذكي وبليد، وصغير وكبير، وحر وعبد، فوقع الازدحام العظيم على البِركة المذكورة، وليس كل الناس يقدر على التناول منها ولا جميعهم يحسن السباحَة فيها لعمقها وعظمها وسعة جوانبها، فصار بعض الناس ممن لا يحسن التناول منها ولا يقدر على العوم فيها يقع في وسطها فيهلك، وبعضهم يقف على جانبها حتى يموت عطشاً ولا يصل إليه إلا بلالة أيدي المتناولين، فلما رأى أهلها ذلك اتخذوا لماء البركة المستمد من ماء العين مسارب من تحت الأرض، وخدّوا له الأخاديد، ودرجوه بلطيف صنعهم وحسن احتيالهم حتى أروه على وجه الأرض وجعلوه أنهاراً عظيمة من عن يمين البركة ويسارها ذاهبة في عامر الأرض وغامرها طولاً وعرضاً، وقسموا تلك الأنهار جداول صغيرة كثيرة تستمد من الأنهار المستمدة من البركة المستمدة من العين، فعظم النفع بذلك لكل أحد من قوي وضعيف، فصار كل واحد يتناول حاجته على حسب قوته، فإن كان المحتاج إلى تناول الماء واستعماله ضعيف جداً تناول من الجدول الصغير الجاري على وجه الأرض فيغترف بيديه أو يكرع بفيه، وذلك مثل العامي الذي لم يفقه شيئاً من العلم فيتناول من العالم العارف بمذهبه المقلد لإمامه، وهو مثل الجدول المستمد من النهر العظيم الذي هو مثل الإمام المجتهد المستمد من البركة العظيمة التي هي مثل دلائل الكتاب والسنة المستمدة من العين الحرارة الغزيرة العذبة الباردة الصافية التي هي مثل النبوءة التي أوتيها سيدنا ومولانا محمد، صلى الله عليه وسلم، وإن كان هذا المحتاج لتناول الماء واستعماله له فضل قوة وعنده آلة يقدر بها على التناول من النهر تناول منه من غير احتياج إلى الجدول، وذلك مثل من له فقه في الدين وقدرة على فهم كلام الأئمة المجتهدين؛ كالعلماء المقلدين لأئمتهم من أهل كل مذهب العارفين بنصوص أهل مذهبهم المتفقهين فيها، فيأخذون الأحكام من نصوص الأئمة المجتهدين وأقوالهم من غير احتياج إلى تقليد مقلد آخر لقدرة أخذهم على فهم كلام الإمام المجتهد الذي قلده هو وغيره، وإن كان هذا المحتاج لتناول الماء قد تمهر وتدرب ولطف ذكاؤه وحسن استعداده وقويت عارضته، وجمع من كل الآلات التي يحتاج إليها الغواصون في البحار

العظيمة لاستخراج الدرر النفيسة حتى حصلت لهم ملكة تامة وقدرة نافذة على أن يتناول من أصل البركة من غير احتياج إلى جدول ولا نهر، فهذا يسوغ له الأخذ من ماء البركة قبل انقسامه إلى أنهار وإلى جداول، وهذا مثل المجتهد الذي كملت فيه أوصاف الاجتهاد التي ذكرها الأصوليون وذكروا أنه لا يجوز له أن يقلد غيره بل يأخذ أحكام دينه من دلائل الكتاب والسنة على حسب ما أداه إليه اجتهاده وافق ذلك قول مجتهد آخر أو خالف، وليس بعد هذه الرتبة رتبة على نزاع في بقاء أحد من أهلها في هذه الأعصار إذ لا يجترئ أحد أن يقول اليوم أخذت الأحكام من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكرعت من أصل العين من غير احتياج إلى الماء المجتمع في البركة العظيمة التي هي مثل الكتاب والسنة، ومن قال ذلك وهو سالم العقل والإدراك ضربنا معشر المسلمين الذي فيه عيناه[1]، وإن كان في عقله خلل صفعنا قفاه بالإعراض عنه وتركناه. نعم قال عارف محقق ذو كشف صحيح وذوق صريح: أنا قد منّ الله علي بمشاهدة نبع الماء من أصل العين وشاهدت دخول جريته الصافية في البركة فاستقيت منه على بصيرة أنه ماء العين لم يخالطه غيره من ماء مطر أو غيره ولا دنسته الأيدي، فيسلم له حاله إذ لم يأت بما يخالف كتابا ولا سنة، وإنما ادعى أنه أخذهما من أصلهما بلا واسطة، وذلك مثل ما قال الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، أنه صحح أحاديث كثيرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من طريق الكشف وإن لم تصح عند أهل الصناعة الحديثية، ومثل من يقول من العارفين إنه سمع القرآن أو آيات منه من النبي صلى الله عليه وسلم، فيسلم له ذلك، ولو ادعى مع أنه سمع منه قرآنا غير هذا أو حديثاً مخالفاً لما ثبت بوجه صحيح أو ضعيف لضرب بذلك وجه صاحبه وعد من مثالبه لا من مناقبه، فقد استبان لك مما قررنا في مثل هذا المثال وقربنا من المنال أنه لا اختلاف بين أرباب المذاهب في الحقيقة وأنه ماء واحد من بركة واحدة من عين واحدة وإن اختلفت مجاريه، وكثرت جداوله وأنهاره، وتغيرت بعض أوصافه لاختلاف محاله، فإن الماء عند المحققين لا لون له، وإنما لونه لون إنائه ولون حصباء نهره، وطعمه ورائحته لا يختلفان باختلاف الأواني، إلا أن يكون في أرضه عفونة أو حمأة، أو في إنائه دسومة ودهنية، فيغتفر من ذلك الشيء القليل لأن الماء لا ينجسه إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه، وذلك مثل ما يقع في آراء بعض المجتهدين مخالفة

(1) يقصد رأسه.

بعض ظواهر الكتاب والسنة مما يظن به ضعف نظر المجتهد في تلك المسألة، وذلك في بعض الصور النادرة، فلا يضر ذلك وله أجر واحد، ولا يخرجه ذلك عن كون قوله دينا بخلاف ما خالف صريح الكتاب والسنة، أو خرق إجماع الأمة، فهذا مثل التغير[1] الفاحش المخرج عن خلقية الماء، فيلغى ولا يعتبر ولا يعد ديناً فليتأمل.

والأقسام التي ذكرنا في المثال من مجتهد ومُقَلِّد وعامي يمكن أن يزاد فيها وتقسم إلى أكثر من ذلك بحسب المجتهد في المذهب والمقلد الذي له قدرة على الترجيح وغير ذلك من أقسام المقلدين إلى أن يصل إلى العامي الصرف الذي لا يفهم إلا ما شوفِه به مع المبالغة في التبيين، فيفهم المثال لأجل ذلك بعد الجدال إلى مذاهب صغيرة ثم إلى القرب والأدوات، إلى أن يصل إلى صاحب الآنية التي ليس فيها إلا قدر ما يشربه، ولكن اقتصرنا على الأقسام الثلاثة إيثاراً للاختصار، وقد أطلنا الكلام في هذه المسألة ولا بأس بذلك لأنها من غرر المسائل، وقد ساق إليها ذكر انتقال الشيخ القشاشي إلى مذهب شيخه الشيخ الشناوي، رضي الله عنهما، وكان السبب في اتصال الشيخ القشاشي بالشيخ الشناوي على ما أخبرنا به الملا إبراهيم عن حكاية الشيخ له أنه بمكة في بعض سياحاته بعدما لقي مشايخ كثيرة بمكة واليمن والمدينة فرأى في المنام وهو بمكة الشيخ الشناوي كأنه واقف وذكرُه يسيل منياً قد تلطخت به رجلاه وثيابه، فلما استيقظ من النوم قال: علمت من الرؤيا أن الشيخ الشناوي وصل إلى مقام تربية المريدين وأنه ذكر مستعد للولادة ولكنه لم يجد مريداً يتلقى منه علومه، فذهبت ضائعة كما أن الفحل الذكر إذا لم يجد أنثى تقبل الولادة ذهب منيّه ضائعاً، فانظر رحمك الله إلى لطف هذا التعبير وخفاء مدركه الذي لا يشك عاقل في صدقه بعد وضوح معناه، فلو أنَّ أحداً من ضعفاء العقول أمثالنا الذي رأى هذه الرؤيا لعدها من أضغاث الأحلام، أو أوَّلها على حمق المرأى وسفهه، (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده)[2].

قال الشيخ رضي الله عنه: فلما أصبحت وظهر لي تأويل الرؤيا عزمت على السفر إلى المدينة المشرفة، وكان الشيخ الشناوي إذ ذاك ساكنا بالمدينة، قال: فلما دخلت المدينة كان أول من لقيت الشيخ الشناوي فصافحني وأخذ بيدي وقال: مرحبا بمن جاء يقتبس من علومنا، أو كلاماً هذا معناه، فذهب إلى محل زاويته

---

(1) في ط: الغير.
(2) إبراهيم: 14.

وكاشفني بجميع أحوالي وتيقنت صدق رؤياي، فلزمته من ذلك الوقت و لم أفارقه إلى أن مات. و لم تزل حال الشيخ القشاشي تترقى عند الشيخ الشناوي حتى صار عنده أخص أصحابه وزوجه ابنته، وصار هو الخليفة من بعده، كما وقع لشيخنا الملا إبراهم مع الشيخ القشاشي إذ زوجه ابنته وصار خليفته. وكان الشيخ القشاشي مع لقائه لمشايخ كثيرين لا ينتسب آخرا إلا إلى الشيخ الشناوي لأن كماله على يده وهو الذي رقاه إلى منصة العرفان وبلغه مبلغ الرجال وأفاض عليه المعارف الإلهية فيضا، وكان رضي الله عنه إماما في العلمين: علم الشريعة والخليقة. له تآليف كثيرة في المعارف والحقائق، منها: ضمائر السرائر، وحاشية على كتاب الجواهر، وهو كتاب نفيس جليل القدر عظيم النفع، وله رسائل كثيرة في علوم الحقائق، واسمه الشيخ أبو المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس القرشي العباسي الشناوي ثم المدني، وكان يلقب بالحرمي[1] رضي الله عنه، لقي كثيرا من المشايخ وأخذ عن علماء عصره كالشمس الرملي، والشهاب بن قاسم العبادي[2] وغيرهما من علماء القاهرة وغيرها، واستقر آخرا بالمدينة عند شيخه ومربيه ومن إليه انقطع بالنسبة واشتهر بالتتلمذ له، وهو السيد صبغة الله بن روح الله الحسيني البروجي ثم المدني، والسيد صبغة الله أخذ الطريق عن شيخه العلامة سيدي وجيه الدين العلوي الأحمد أبادي، وهو عن شيخه شيخ السلسلة الغوثية سيدي السيد محمد بن خطير الدين الحسيني المعروف بالغوث، وكان من بلدة كواليار[3] بأقصى الهند من وراء دهلي وباقي السند مذكور في الجواهر[4] وغيرها، وكانت، وفاة الشيخ محمد الغوث خامس رمضان سنة تسع وخمسين، أو سنة ستين، وتسعمائة، ومولده سابع رجب يوم الجمعة وقت الظهر سنة خمس وتسعمائة، ووفاة تلميذه الشيخ وجيه الدين العلوي سنة تسع وتسعين وتسعمائة أو قبلها بسنة على ما ذكر الملا نظام الدين السندي، ووفاة تلميذه السيد صبغة الله ضحى نهار السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وألف بالمدينة المنورة، ودفن خلف

---

(1) في ط: الخامي.

(2) شهاب الدين أحمد بن قاسم العبادي القاهري الشافعي، الإمام العلامة الفهامة، من مصنفاته الحاشية على شرح جمع الجوامع المسماة بالآيات البينات، وحاشية على شرح الورقات، وحاشية على المختصر في المعاني والبيان، وحاشية على شرح المنهج، توفي بالمدينة المنورة عائدا من الحج سنة 994 هـ: شذرات الذهب 4: 434. الأعلام 1: 198.

(3) في ط: كبداليار.

(4) الجواهر، ص: 5 – 6.

قبة سيدنا إبراهيم بن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووفاة تلميذه الشيخ أبي المواهب الشناوي خامس ذي الحجة سنة ثمانية وعشرين وألف[1]، ودفن بالبقيع قرب شيخه، وولادته ثامن شوال سنة خمس وسبعين وتسعمائة، ووفاة تلميذه شيخنا غوث الأنام سيدي أبي الفضل صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي المقدسي المدني تاسع عشر ذي الحجة سنة واحد[2] وسبعين وألف، روح الله أرواحهم وقدس أسرارهم، ورضي عنهم آمين.

كتبت هذه الوفيات من خط شيخنا الملا إبراهيم رضي الله عنه إلا أنه كان عبر عن الوفاة بالعرس فيقول: عرس فلان وعرس فلان، وسألته عن ذلك فقال: إن هذا اصطلاح بعض مشايخ الهند وقد صدقوا، فإن يوم اجتماع العارف بربه وخروجه من سجن الطينة الدنيوية إلى فضاء الأرواح القدسية خير أيامه وأسعدها وألذّها إليه فتسميته عرساً أنسب.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر بعض أحوال شيخنا القشاشي فقد علمت مما تقدم من الوفيات أنه لم يمكث أحد من مشايخ سلسلة الغوث في الخلافة القدسية والوراثة المحمدية أكثر منه، فقد نيف على أربعين بعد موت شيخه الشناوي، وقد علم أن شيخه الشناوي لم يخلف أحداً من أصحابه يساوي الشيخ القشاشي في مقامه ولا يحاكيه في مرامه، فهو من لدن وفاة الشيخ إمام عارف معرف سالك مسلك، يربي المريدين، ويرشد المرادين، ويترقى في مقامات اليقين، ويؤم أولياء الله المتقين إلى أن حاز الصديقية العظمى والقطبانية التي هي المقام الأسمى، والله أعلم كم مكث فيها، وكانت منة الله العظمى علي بالاجتماع به والأخذ عنه سنة أربع وستين بسبب وصية لي من شيخنا الثعالبي ومن شيخنا أبي الحسن الدّيبع، وأنا من جملة أصحابه، بل الثاني من خواصهم، وأصحبني من مكة كتاباً إلى الشيخ يتضرع إليه في قبوله وإقباله علي، فلقيته في محل تدريسه من زاويته مرتين أو ثلاثا، ولقنني الذكر وأوصاني بما أرجو الانتفاع به في حياتي وبعد مماتي، وأمرني بانتساخ شرحه على الحِكَم[3]، وحضني على لزوم طريق السادات الشاذلية بعد ثنائه الكثير عليها، وكان هذا من جملة ما كنت أحتج به على شيخنا الملا

(1) كذا في خ وط.
(2) كذا في خ وط.
(3) الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ.

إبراهيم مباسطا له إذا ألح علي في تقرير شيء من كلام الشيخ محي الدين، رضي الله عنه، وعدم انقيادي له في أخذ ذلك تقليدا، فأقول له: إن الشيخ، رضي الله عنه، لم يشاهد في قبول شيء من الطرق غير طريق الشاذلية، ولذلك حضني عليها وأمرني بملازمتها، ولو رأى في استعدادا لغيرها لأمرني به، فيقول لي: بل رآها هي الغالبة عليك في الوقت، فأمرك فلزومها حتى تترقى بركة لزومها إلى فهم غيرها، والله المستعان.

أخبرني شيخنا الملا أن الشيخ الصفي، رضي الله عنه، رأى الشيخ محي الدين في منامه وألبسه وزوجه أخته. قلت: ولعل هذه الرؤيا هي التي تقدمت عن شيخنا الملا أن الشيخ محي الدين ناول فيها شيخنا الصفي كتاب الفصوص له، وقد قلت يوما لشيخنا الملا عقب ذكره لرؤيا الشيخ هذه: أتدري ما تعبير رؤيا الشيخ هذه؟. قال: لا، إلا أنها رؤيا حسنة تدل على وصلة بين الشيخ الصفي وبين الشيخ محي الدين في عالم الأرواح.

قلت: لكني أفهم منها أكثر من هذا إن أذنت لي. قلت. قال: لا بأس قل ما ظهر لك في لباسها. قلت: أما إلباسه إياه فهو إشارة إلى قيامه مقامه وظهوره بحاله في شرح الحقائق العرفانية، فإنا لم نَرَ ولم نسمع في وقتنا هذا بعارف له لسان الشيخ محي الدين في الحقائق كأنه ينطق بلسانه، إلا شيخنا هذا فهو محيي طريقه ومبين إشكالاتها ومبرز خباياها كما لا يخفى على كل ذي ذوق سليم. وأما تزويجه إياه أخته فهو إشارة إلى ما منحه الشيخ من التكلم في مسألة وحدة الصفات وتأليفه فيها وشرحه لها واستدلاله عليها بما لم يتهيأ مثله لأحد قبله، فقد كانت هذه المسألة إنما توجد في كلام العارفين المتقدمين إشارة ورمزاً وأدراجا في كلام آخر ولم يفرد لها أحد بالكلام ولا بين غورها وصيَّرها عُرضة للقبول والرد إلا شيخنا الصفي فله بها مزيد اختصاص، وقد علم أن وحدة الصفات هي أخت وحدة الوجود التي لم يأت أحد من المتقدمين والمتأخرين فيها بما أتى به الشيخ محي الدين حتى صار إمام كل قائل بها ومتبوع كل مصدق بها، فأكثر فيها التأليف، وشرح وأوضح ورمز وأشار واستدل ودل، وضرب الأمثال وأزاح الإشكال، فكل متكلم فيها إلى آخر الدهر عيال على كلامه فيها، فهو أحق بها وأهلها، وإليه تُنسب دون غيره ممن له فيها كلام حتى صار إذ قال المترسمون في أحد يريدون وصفه بالقول فيها فيقولون: فلان يقول بمذهب ابن العربي، أو ينتحل مذهب

الحاتمي في الوجود، فإذا فهمت ذلك فمعنى تزويج الشيخ محي الدين أخته من شيخنا تمكينه من التصرف في وحدة الصفات، وهي أخت وحدة الوجود التي هي علم الشيخ وأصل معارفه وأدقها وأرقها، والتمكين من الشيء والإذن في التصرف فيه على وجه سائغ شرعاً إذا كان ممن هو أهل لمن هو أهل وكفؤ هو معنى التزويج وإظهار ذلك في عالم المثال على صورة بتزويج دون الهبة والعطية والبيع، إعلاما بشدة الاتصال والإيلاف لذلك الأمر والاغتباط به، وحصول النتيجة كما هو شأن الزوجة، وإعلاما بأنه أيضا كفؤ إذ التزويج لا يكون إلا من الكفؤ بخلاف البيع والهبة، وإعلاما أيضا بكرامة هذه المسألة وأنها ليست مما يباع ويوهب لحريتها وكرامتها على أهلها إلى غير ذلك من الأسرار التي يدركها كل ذي ذوق سليم (وفوق كل ذي علم عليم)[1].

وكان الشيخ الصفي له بصر تام في فهم كلام الشيخ محي الدين وغيره من أهل الحقائق، ومع ذلك فكان يعطي كل مقام حقه ويوفي كل علم قسطه ويبين مرتبته من الدين، فلم يغلب علم من العلوم غلبة يترك لها غيره ويزهد فيها، وكان له بصر تام بعلم الأسماء والحروف وأسرارها وبعلم (الأذواق)[2] والدوائر والأوفاق وطبائع الأشياء، كل ذلك له فيه التصرف التام، وبعين[3] الدعوات وأسرارها، كل ذلك يتصرف فيه تصرف ماهر بحيث لا يتقيد بما يذكره أهل الفن من الشروط والقيود لذلك، بل يزيد تارة وينقص أخرى، ويعتبر ما لم يعتبروا ويلغي ما اعتبروا، وكان كتاب الجواهر الخمس الذي هو من أسرار أهل سلسلته نصب عينيه مع حاشية شيخه عليه، وله أيضا كلام كثير وتقاييد حسنة في ذلك، إلا أنها متفرقة بيد أصحابه لم تدون، ومع ذلك فكان لقوة كماله وتصرفه في المقامات لا يرى هذا العلم هو الغاية كما يراه من المتقدمين والمتأخرين من أربابه كالبوني والبسطامي[4] وغيرهما.

أخبرني الملا إبراهيم قال: كان الشيخ الصفي يقول: نحن لا ننكر على أصحاب هذه العلوم الجادين فيها الباحثين عنها المشتغلين بها كل الاشتغال من

---

(1) يوسف: 176.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: بعبر.
(4) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، سلطان العارفين، أثرت عنه كرامات وخوارق، توفي سنة 261 هـ: البداية والنهاية 11:35. سير أعلام النبلاء 13:89.

حيث أنها ليست جزء من أجزاء الكمال، إنما ننكر عليهم من حيث ادعائهم أنها عين الكمال حتى اقتصروا عليها وجعلوها هي غاية مطلوبهم فإن المطلوب الذي هو عين الكمال أمر وراء ذلك لا يتقيد صاحبه بعلم ولا عمل ولا حال ولا مقام لأن له كل علم وعمل وحال ومقام. قال لي شيخنا الملا: وكان الشيخ الصفي إذا جرى ذكر أرباب المقامات والأحوال ربما يشير إلى نفسه ويقول: نحن لا مقام لنا لأننا من أهل يثرب، وقد قال الله تعالى: (يا أهل يثرب لا مقام لكم)[1]، وما ذاك إلا أن لهم كل المقامات، فليس لهم مقام مخصوص، وكذلك النبي، صلى الله عليه وسلم، وكمل أصحابه ليس لهم مقام مخصوص يستولي عليهم دون غيره من المقامات، بل يتصرفون في كل مقام بما يوافق مراد الحق ويعطون كل ذي حق حقه، فهم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة)[2]، ولم يقل تعالى: لا بيع لهم ولا تجارة، بل كان لهم بيع وتجارة وضياع ومزارع، ولكنهم يتصرفون في كل ذلك تصرف من لم يغب عن شهود الله في كل ذلك، فيؤدون إلى الحق الذي منه عليهم ويتناولون منه الحق الذي لهم، كل ذلك لله بأمر الله، وهذا هو مقام العارفين الكمل من أهل الله، ولعل جاهلا بإشارات العارفين يقول: إن حمل قوله تعالى (يا أهل يثرب) الآية، على هذا المعنى إحالة لكلام الله عن ظاهره وتحريف له عن مواضعه، وذلك لجهله بمذهب العارفين في إشاراتهم بالآيات والأحاديث فإنهم لا ينفون المعاني الظاهرة للآية، بل يثبتونها ويقرون بها، ويستخرجون ما أعطاهم الله من الفهم والنور ومعاني أخر تشير إليها الآية إشارة خفية يقتبسها العارف منها، وهذا المقدار من الدلالة لا ينكره إلا جاهل، والشيخ، رضي الله عنه، أشار بذلك إلى أنه من العارفين الذين استولوا على سائر المقامات ولم يستول عليهم مقام، وأنه في ذلك من خلفاء كمل الصحابة الذين لهم قدم صدق في الوراثة المحمدية، وهذا المقام الذي هو كناية عن سائر المقامات إنما يكون الكمال منه لقطب الوقت، فكان الشيخ أشار بالقطبانية لنفسه ولم يفهم ذلك إلا خواص أصحابه رضي الله عنهم، وما رأيت[3] كلام أحد من عارفي[4] زماننا، بل ومن قبله، يساوي كلام الشيخ الصفي في مزج الحقائق

---

(1) الأحزاب: 13.
(2) النور: 37.
(3) في ط: رأينا.
(4) في ط: كان في.

بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية حتى لا يكاد كلام له يخلو من آية أو حديث، فكأن كتب الحديث كلها جمعت له جمعاً، فهو يأخذ منها ما شاء متى ما شاء، مع زيادة عزو الحديث لراويه ومخرجه، وذلك قلما يوجد في كلام غيره من أهل الحقائق إن أتوا بحديث أطلقوه بلا نسبة إذ ليس ذلك من وظيفهم. والشيخ رضي الله عنه كما أخبر عن نفسه لا مقام له ولا وظيف مخصوص ولا اصطلاح مفرد، بل له كل المقامات والاصطلاحات والوظائف والتصرف التام في غالب علوم الشريعة، وكذلك كان رضي الله عنه في هيئته المحسوسة وأحواله الظاهرة ليس على نمط الفقهاء المدرسين أهل المناصب، ولا على نمط الزهاد المتقشفين يلبس الطيب ويأكله ولا يأتي أبواب الأمراء ولا يرغب في معرفتهم، وإن أتوا إلى بابه لا يمنعهم من الدخول عليه، وإذا دخلوا عليه لا ينهرهم ولا يعبس في وجوههم، بل يترلهم منازلهم التي أنزلهم الله فيها، ويكرم كريمهم كما أمر بذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويقدم إليهم من الطعام ما حضر، ومع ذلك فلا يخليهم من نصيحة برفق ووعظ بلين، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد من جهالة وإنقاذ من ضلالة، فلا يخرجون من عنده حتى يظهر فيهم أثر الخير والميل له والحب له، وتصغر عندهم نفوسهم لما يشاهدون من عظمة وعزة من اعتز بعزة الله وعظمته، وهذا لعمري خلق الكُمل من العارفين، ولم يكن رضي الله عنه منقبضا عن الناس متزويا عنهم، بل كان يجالسهم ويكالمهم ويتصرف فيما احتاج إليه من أموره الدنيوية ويحسن القيام بأوقاف زاويته بتولية من هو أهل وصرف غيره، والأمر بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه وإيصال الحقوق إلى أربابها، وذلك كله لا يشغله عن الله طرفة عين، فلا تكاد تسمع منه كلامين متناسقين لم يتخللهما ذكر الله أو دلالة عليه أو وعظ أو دعاء أو إرشاد مسترشد، قال لي شيخنا الثعالبي: ما رأيت مثل شيخنا الصفي، ما دخلت عليه قط فأخرج إلا والدنيا بين عيني أحقر[1] من كل حقير[2] ونفي أذل من كل ذليل، ولو تكرر دخولي عليه مرات، وهذا شأن الذين إذا رُؤُوا ذُكِر الله.

وأما مكاشفاته، رضي الله عنه، بالإخبار عَمَّا في ضمائر أصحابه وإشارته إليه في أثناء كلامه فبحر لا ساحل له، ولقد أخبرني الملا أن الشيخ كان مع تمكنه

---

(1) في ط: أصغر.
(2) في ط: صغير.

من الحقائق إذا أراد أحد من أصحابه أن يقرأ عليه شيئا من المواضع المشكلة في الفتوحات أو غيرها لا يأذن له حتى ينصرف الناس ويخلو المكان إلا من خواص أصحابه ويأمر بغلق الأبواب، وهذه صفة العارفين، فقد كان الجُنيد رضي الله عنه لا يتكلم في الحقائق إلا مع خواص أصحابه ويقول: علمنا هذا إنما هو خاص لخاص، وشاهد ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم: خاطبوا الناس بما يفهمون[1]، الحديث. وقول أبي هريرة رضي الله عنه: ملأت من النبي، صلى الله عليه وسلم، وعاءين، أما أحدهما فها أنا أبثه لكم، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا البلعوم[2]، وليس هذا الوعاء المذخر إلا علوم الحقائق التي هي خاصة، وقد أخطأ من زعم أنه علم الحدثان، إذ لا يكون ذلك وعاء يقابل به الوعاء الذي بثه في الناس من علوم الشريعة، لأنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، إنما ذكر لأصحابه من أمور الكائنات أشياء قليلة لعدم تعلق علم ولا عمل بذلك، بخلاف علوم الحقائق فقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، مع أصحابه كالشيخ مع المريدين يأمرهم بالتكاليف والأحكام العامة لسائر المؤمنين، ويخص من شاء منهم بما شاء من الحقائق والمعارف، ويأمر البعض بقيام الليل، ويترك البعض، وينهى البعض عن سرد الصوم، ويقر عليه آخر، كل ذلك منه صلى الله عليه وسلم بلطف تربية وحسن تغذية بالأعمال والمعارف، ومما ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه[3]:

[بسيط]

يا رُب جَوهرِ علم لو أبوح به ... لقيلَ لي أنت ممن يعبدُ الوثنا

ولاستَحل رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنًا

(1) ورد هذا الحديث النبوي الشريف بصيغة: حدث الناس بما يفهمون: تفسير القرطبي 184:2.
(2) ورد هذا القول في صحيح البخاري برواية: حدثنا إسماعيل قال حدثني أخي عن بن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال ثم حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم: صحيح البخاري 56:1.
(3) لم يرد البيتان في ديوان الإمام علي.

لطيفة:

أخبرني الملا إبراهيم قال: أخبرني شيخنا الصفي عن شيخه الشناوي أنه كان ذات يوم في خلوته مستلقيا إذ رأى وزغا يمشي على الحائط، فأراد أن يضربه وغلب عليه شهود الحقيقة وأنه خلق من خلق الله موجود بإيجاده مصرف بتصريفه إلى غير ذلك مما تقتضيه الحقيقة، ثم تذكر أمر الشرع بقتله، وأنه لا ينبغي إهمال الأمر الشرعي نظراً إلى الحقيقة، فتردد في الشهودين حتى غلب عليه امتثال أمر الشرع، فأخذ حجرا فرماه به فأخطأه، ففر فضحك الشيخ وقهقه وقال: الحمد لله الذي جمع لنا بين الأمرين؛ امتثال أمر الشرع بضربه وعدم قتله المنافي بظاهره لحكمة الله في إيجاده وتصويره وإحيائه وتصريفه فيما خلق له.

قال شيخنا الصفي إثر حكايته لذلك: أما أنه لو كنت أنا ذلك لما توقفت ولشدخت[1] رأسه بالحجر من دون رمي، لأن ذلك هو عين الحكمة التي اقتضتها الحقيقة، فإن كل ما أمر الشرع بفعله فذلك هو عين الحكمة الموافقة لمراد الله في ذلك الفعل، كذبح كل حيوان أبيح أكله وقتل العدو الكافر، فلا يمنع من ذلك شهود الحقيقة لأن ذلك هو عين الحق الذي هو مقتضى الحقيقة ببيان الحق لنا على لسان الشرع صلى الله عليه وسلم، وهذا كما ترى غاية في التحقيق يدل على علو شأن هذا الشيخ وكمال شهوده حتى لا تغلب عليه حقيقة ولا شريعة، بل انطوت عنده الحقيقة في الشريعة والشريعة في الحقيقة، فصار الكل شيئا واحدا، فما من شريعة إلا وهي حقيقة، إذ هي مراد الحق، وما من حقيقة إلا وهي شريعة لإرشاد الشارع إلى مشاهدته، ومن غلب عليه وصف كان بحكمه، ومن غلب على الأوصاف كان بحكم الحق في كل وصف.

لطيفة:

أخبرني شيخنا الملا إبراهيم أنه كان في أول مرة يتعانى شهود الصلوات في الحرم الشريف اغتناما لفضل الصلاة فيه، وكانت نفسه لا تطيب أن تفوته الصلاة فيه ومترله كان خارج المدينة، فربما أغلقت دونه الأبواب داخلا أو خارجا،

(1) الشدخ: التهشيم: لسان العرب: شدخ.

فتحصل له المشقة في ذلك، فقال له الشيخ يوماً: لا تكلف نفسك ما تتضرر به وصل هنا في مسجدنا، وإنا لنرجو من الله أن يحصل لك من الثواب ما يحصل لمن صلى في الحرم الشريف، فمن ذلك اليوم طابت نفسي ولا أبالي إن تعذر علي الوصول إلى الحرم. قلت: ربما سمع هذا قاصر من المتفقهين فيبادر إلى إنكاره فيقول: كيف صح له التسوية بين مسجد محله والمسجد النبوي مع أن الصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه، وهل هذا غلا تشريع فأقول: ليس في هذا ما ينكر. أما من جهة الحكم الظاهر فقد ورد أن نية المؤمن خير من عمله، وأن الله يعطي العبد على قدر نيته، وورد أن من نوى أن يعمل عملاً صالحاً فعيق عنه بعائق كتب له أجره، كما ورد أنه يكتب للمريض والمسافر أجر ما كان يعمل في الصحة والحضر، ويكتب للنائم إذا نوى القيام فغلبته عيناه أجر قيامه، فكذلك هذا السيد لما كانت نيته الصلاة في المسجد النبوي ولازم ذلك حتى عيق عنه في بعض الأوقات بما يحصل له من المشاق التي يرخص للشارع لأجلها في ترك كثير من المأمورات، فلا بُعد في قولنا أنه يحصل له أجر من صلى في المسجد لأجل نيته سيما مع امتثال أمر شيخه وعمارة مسجده والصلاة بمن فيه من الفقراء وعمارته بالذكر والقراءة والصلاة مع الشيخ وفضلاء أصحابه فإن في هذه القربات إذا خلصت فيها النية ما ينجبر به ما فات من التضعيف، فرب قربة وحسنة تفوت ألف حسنة أو تساويها لما حفت به من الأوصاف الجميلة والفوائد الكثيرة، كهذه الصلاة التي يصليها في مسجد الشيخ بحضور قلب وسكون وتؤدة مع جماعة فيهم الشيخ فتسري بركته في صلاة الحاضرين، فإن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها، وقد ورد: من صلى مع مغفور غفر له[1] ولو ذهب إلى المسجد لم يصل إليه حتى يتعب لبعده ويتشوش فكره بالرجوع وتخييل غلق الأبواب دونه، سيما إن أبطأ الإمام شيئا ما، فبمجرد فراغه من الصلاة يقوم بسرعة من غير جلوس لذكر ودعاء، فلا يبعد أن تكون الصلاة الأولى مساوية لألف صلاة من أمثال هذه في غير الحرم، هذا مع أن مسجد الشيخ داخل في حدود ما بين المصلى والحجرة كما في بعض الأحاديث: ما بين مسجدي ومصلاي روضة من رياض الجنة[2] على قول بعض

---

(1) ورد هذا الأثر في تفسير ابن كثير برواية: من أكل مع مغفور له غفر له، قال ابن كثير: وهذا الحديث لا أصل له وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، في المنام فقال: يا رسول الله أنت قلت من أكل مع مغفور له غفر له؟. قال: لا، ولكني الآن أقوله: تفسير ابن كثير4:394.
(2) التاريخ الكبير 2:276.

العلماء أن المراد بالمصلى مصلى العيد، فكان بعض السلف يرغب في سكنى الناحية التي بين المسجد النبوي ومصلى العيد ويقول: إنه روضة من رياض الجنة.

وأما توجيه ما ذكر الشيخ من حيث الباطن فإن شرف الأمكنة ليس لذاتها إنما هو لما اشتملت عليه وأودعه الله فيها، وشرف المسجد النبوي لمجاورته لغيره، صلى الله عليه وسلم، وبيته وصلاته فيه مدة حياته وغير ذلك، فإذا أكرم الله تعالى ولياً من أوليائه بحضور روحانيته، صلى الله عليه وسلم، وشهوده في محله دائماً، وإن كان بعيداً من مسجده، لأنَّ الأمكنة بالنسبة إلى الأرواح مستوية، فلا يبعد أن يكون لذلك المكان الذي حضرت فيه روحانيته، صلى الله عليه وسلم، وحصلت مشاهدته على الدوام ما كان حاصلاً بمسجده من الفضل بالنسبة إلى ذلك الشخص الذي أكرمه الله بذلك، ولا يلزم من ذلك مشاركة ذلك المكان للمسجد النبوي في الفضل لأنَّ حصول ذلك الفضل للمسجد النبوي عام في الأزمان والأشخاص، وهذا خاص بهذا الشخص والزمن الذي هو فيه، ولا شك أن الشيخ رضي الله عنه من أهل هذا الشهود، فيكون لمسجده من الفضل بالنسبة إليه وإلى خواص أصحابه الغائبين في المتحدين فيه حبا وولاء مثل ما كان للمسجد النبوي لحضوره، صلى الله عليه وسلم، بروحانيته فيه سيما مع قرب المكان جدا بحيث لا يكاد يغيب عن خيال المصلي شهود الروضة والحجرة وما هناك من الآثار حتى كأنه فيه وإن كان من أهل الكشف كشف له عنه حقيقة حتى يراه وكأنه فيه، وإن بلغ إلى رتبة الأبدال أمكن أن يكون فيه مع أنه في محله، فكم من بعيد الدار وهو قريب، وهذه المراتب الشريفة ليست بعيدة من حال الشيخ، فإذا أتحف بذلك وصارت صلاته كمن صلى في الحرم النبوي، فلا يبعد أن يتحف الله بذلك جميع من صلى معه ببركته، سيما إن كان هو إمامهم وارتبطت صلاتهم بصلاته.

ذكر بعض تآليف شيخنا صفي الدين رضي الله عنه

وهي كثيرة تقارب السبعين، فيما أظن أني رأيت من أسمائها مقيداً في برنامج بعض الأصحاب، والذي تعلق ببالي منها الآن شرحه على حِكم ابن عطاء الله،

وهو في غاية الجودة[1]، لولا صعوبة كلامه على القاصرين أمثالنا لدقة مغزاه فيه ورقة منحاه، وغلبة الإشارة، إلى حضرة الوجود المطلق على كلامه، وانفرد من دون الشروح بخصيصة لا يعادله فيها غيره، ومأثرة لا يشارك فيها، وهي ختمه رضي الله عنه كل حكمة بحديث يناسبها، وهذا مما يدل على سعة اطلاع الشيخ وحفظه للأحاديث النبوية وفهمه لها، بحيث يدرك المناسبة بين الحديث والحكمة في بعض الحكم من وجه خفي لا يكاد يتفطن له، وهذا شأن فطن العارفين وأفهامهم، وقد حضني على استنساخه عند لقائه، رضي الله عنه، فيسّر الله ذلك من وجه لا عسر فيه، وكان والده سيدي محمد بن عبد النبي كتب على الحكم شرحاً كبيرا فأراد الشيخ اختصاره، فطلب منه شيخنا محمد بن علوي عندما ورد المدينة سنة 1047 أن يبتكر شرحا غير مختصر من الذي قبله لأن ذلك أجدر بإيداع الفوائد التي يفتح الله فيها فقبل إشارته.

ومنها حاشية له على المواهب اللدنية للقسطلاني، مفيدة مع صغرها، رأيتها بخطه في عدة كراريس. ومنها كتابه: بستان العابدين، ذكر فيه أورادا كثيرة بأدلتها وفضائلها وفضائل آيات من القرآن وسور منه، وهو غاية في بابه.

ومنها كتابه السمط المجيد[2]، ذكر فيه طرق رواياته وأسانيده عن مشايخه، وأكثرها في طريق القوم، فقد استولى غالب طرقهم وساق أسانيده إلى أصحابها ثم أسانيدهم إلى منتهاها مع ذكر شيء من حكاياتهم ومآثرهم.

ومنها رسائله الثلاث في مسألة الكسب التي انتصر فيها لقول إمام الحرمين، والصغرى منها أتمها تحقيقاً وأكثرها تدقيقاً.

ومنها الرسالة المسماة: ضوء الهالة في ذكر هو والجلالة، وقد تقدم خبرها في أول ترجمة الملا إبراهيم.

ومنها شرحه لرسالة السيد سالم شيخان المسماة منقذة الموهوم من مزلقة الوهوم، وهي صغيرة جداً موجزة لفظاً كبيرة قدراً. ولنذكر نص الرسالة المذكورة، ومنها يعلم حال شرحها وشارحها، ونصها: باسم الله الرحمن الرحيم،

(1) ذكر محقق كتاب الحكم أن نسخة من هذا الشرح محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق: الحكم، ص: 85 من مقدمة المحقق.

(2) السمط المجيد: في تلقين الذكر والبيعة وإلباس الخرقة وسلاسل أهل التوحيد للقشاشي: فهرس الفهارس 2:1061.

قال سيدنا السيد الأمجد العلامة الأوحد سالم بن أحمد شيخان باعلوي، رحمهما الله تعالى: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لوليه، والصلاة على نبيه، وعلى آله وصحبه وتابعيه وحزبه، وبعد فإن كل شيئية امتازت في وجودها بنسبة واحتازت في شهودها برتبة ما ميز منها ما في الوجود إلا العلم، ولا أظهر ما عنها في الشهود إلا النور، وهي من حيث هي قابلة تتقلب عليها الشؤون بظهور أثر الأسماء طوراً بعد طور، فالظاهرية في مظهرية الشيء لمن له الولاية بالحق لا لاختلافه الشيء الموسوم بالخلق فإن الأشياء بحقائقها لا بخلائقها، فحكمه حكم الصدى بالنسبة الترجيعية إلى الندى، وحكم الجليد بالنسبة الجمودية إلى الماء، معقودان عينا موجودان حكما، والمظاهر الخليقة الملازم لها الحدوث، ولم ترتفع عنها أنحاء العدمات ليست هي من حيث خلقيتها عين الذات، بل هي لها اعتبارات لأنها ليست مما ثبت قدمه حتى يستحيل عدمه، وليس لها وجوب وجود استقلاليا في وجودها حتى تساوقه فتكون عين وجودها وما طرف العدم مع متعلقها بأولى من طرف الوجود إن لم يترجح لها في التعقل الذاتي إلى أمد نسبة الوجود، فصارت هي وإن كانت من حيث المظهرية معلومة هي من حيث الظاهرية التي بها كل شيء هالك معدومة، وإن فرضت فموهومة، وما قصد المحققون فيما إليه بالحق ذاهبون إلا وحدة وجودية العبد الصادقة على أمرية معانيه لا وحدة موجوديته الصادقة على خليقة مباينة كون صورة موجوديته من تجسد الخيال لها حكماً ما إذا انصبغت[1] للنجيب بظاهرية الحق في مظهريته، وتعالى محيط السبحات أن تكون القاذورات من حيث اختلاف موجوديتها عين الذات، وما عنوا بهذا إلا وجوديتها التي هي تعلقها في علم ربها ما لها هي هي في ثبوتها الحكمي وسلبها، وهي الدقيقة الذاتية والأمر الإلهي التي يتوجه إليه منها الخطاب (وما يذكر إلا أولو الألباب)[2].

تمت منقذة الموهوم من مزلقة الوهوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومنها الإفاضة الرحمانية على الكمالات الإلهية، وهو حاشية على كتاب الكمالات الإلهية للشيخ عبد الكريم الجيلي رضي الله عنه، وهو كتاب جليل القدر نبيه الذكر، جعل صاحبه الحقيقة المحمدية هي مظهر الكمالات الإلهية بأسرها

---

(1) في ط: الصبغة.
(2) البقرة: 268.

ومنها تفرعت إلى غيرها من المظاهر، ثم أخذ يفل ذلك شيئا فشيئا ولكنه قد يغلب عليه في شهود الحقيقة فلا يعطي الشريعة حقها، وللشيخ الصفي، رضي الله عنه، في حاشيته تعقبات ظاهرة عليه ظهر فيها علو مقامه وتمكنه من الشريعة والحقيقة، وهذه الحاشية مفيدة جدا، ولنذكر كلاما منها يتعلق بالوجود المطلق نصه: الحق وجود مطلق على تعينه بنسبة دون الإطلاق، وإلا فجميع ما هو له على حدته في بطونه كما هو على حدته في ظهوره، لا تبديل له، ولا للكمالات عن[1] مقتضى تمايزها في الباطن اعتبارا، كما حال التجرد يكون العالم والمعلوم والعلم واحدا مع تميز كل، وإن انمحى اثر التمييز ظاهراً فهو باطن ما يبدل القول لديه بحال في الظهور والبطون، فكذلك في الشؤون، وإنما ينمحي الاسم ظاهراً ويندرج في الإطلاق، بحيث لا تميز له، ثم بحال إلا بحكم ما لله عند كل شأن منه وإليه لا دخل لنسبة الظهور بحال إلا لله وحده، كما قال سيدنا علي وفا أو محمد وفا، الكل هو بلا مراء إن أطلقت قيوده، والكل نحن يا فتى لأننا صدوره، فالكل هو من حيث الطمس فيه يكون وانمحاء الآثار التي هي مقتضيات التعين، فلا إشارة ثمة إلا له لهلاكه فيه لا لكونها صارت هو لأنها حدوده وحدوده معتبرة له في البطون والظهور عند أهل العيان والعيون، فالخلط لا سبيل له، فلو تغيرت الحقائق باطنا لتغيرت ظاهرا، ولا وجود له بل (كل في فلك يسبحون)[2] ظهورا وبطونا، ويختلف بحسب المحلات والمراتب إذ لكل درجات، فتحفظ ولا تغلط، واضرب لك مثالاً بالماء وما عنه من المنعقدات إذا ظهرت أو لفظت فهي في باطنه هو بمعنى الاستهلاك فيه وانمحاء التمييز والآثار لا فإن صارت داخلة في حقيقة الماء وإلا لعدم المنعقد وطلب مكانه لأنه انقلب ماء، فتذكر ترشد، فكل باق على حدته وحقيقته، وإن بطن وصار مرفوع القيد في مطلق كما في مطلق الوجود وقس به مثله، (وعلى الله قصد السبيل)[3].

ومنها رسالة: نفحة اليقين وزلفة التمكين للموفقين، وهي التي حقق القول فيها على كون الحقائق مجعولة أو غير مجعولة على مذهب العارفين أهل الكشف الصحيح.

(1) في ط: على.
(2) الأنبياء: 33.
(3) النحل: 9.

لطيفة:

قال الشيخ، رضي الله عنه، في آخر هذا الكتاب: ولما كان ليلة الثلاثاء خامس عشرين شهر رجب الحرام من هذا العام، عام اثنين وستين وألف، بالمدينة الشريفة رأيت في المنام خيراً إن شاء الله تعالى، ورأيت الله جل جلاله في مثال إنساني وقد فتح بابا من أبواب الجنة بوسط جبل من جوف ذلك الجبل، وهو كباب السر يدخل منه أقوام مخصوصون، ويسر الله بكرمه وعفوه الدخول مع الداخلين منه، وكأنا من حيث الدخول في محل شاهق بجبال كريمة صورتها كالسكر النبات المعقود تمثيلا، أو البرد أو البلور الذي يرى منه ما وراءه، ونحن نازلون منها إلى المستقر، ثم خيام لا يكيف حسنها على نسق واحد بيض مضروبة بغير أوتاد ولا طُنب[1]، ونحن نتبع أمر الله جل جلاله، وكان في نفسي مسألة في هذه الدار أود سؤال الحق جل وعلا عنها عند اللقاء، فذكرتها وسألت عنها أهي كذا؟. فقال الحق جل جلاله: نعم، هي لك كذلك. فسجدت شكراً لله بين يديه تعالى ثم انتبهت وما أردت كتابة هذا ولا تدوينه، فلما كان من الليلة الثانية رأيت أمراً يقتضي إثباته، ورأيت أن العقم سرى في الرجال عن اللقاح، وهو شخص ممثل يمشي على هيئة من غير استعمال، فحيث وصل حصل منه بذلك المحل ما بعث له، وحيث لم يصل الأمر فيه موسع باستغنام تلك الفرصة بين يدي مجيئه، ورأيت في الواقعة الأولى أكثر الداخلين المسرعين إلى كرامة الله من غير المنظورين والمُشَار إليهم، بل أكثرهم من أهل الأسباب الرعاة للأمانة والأوامر ومن لا أعرف، (فاعتبروا يا أولي الأبصار)[2] (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)[3]. فجوهرة القلب الجامدة بالغفلة إذا سلط عليها السالك بإذن الله بنار الذكر الشديد، وأجج وقودها آداب الذكر جامدها فعاد ماء جاريا محيطا، وفك مركبها فعاد واحدا بسيطا وصفه الأوصف وقيده الأقيد، فخطابه في الحضرة المحمدية، ومنها (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)[4]، ومتابعة، (فاتبعوني يحببكم الله)[5]،

---

(1) الطنب: حبل يشد به الخباء والسرادق: لسان العرب: طنب.
(2) الحشر: 2.
(3) الزمر: 21.
(4) الفتح: 10.
(5) آل عمران: 31.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده ومريده[1]، و(يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً)[2]، فخذ من الكثير ولو بالقليل، فالوعد بالعطاء عطاء، ولو كان تعطى التعليل فوعد الكريم دين لأنه دين، والجزاء واجب عند مالك يوم الدين، فدن بالدين لعلك تكن من السالكين الذاهبين إلى ربهم في طلب هدايته، وقل عند توجهك في كل نفس: (إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)[3] آمين. (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً)[4] أو قل: (وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[5]، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلامٍ على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[6]. وهو آخر الرسالة، وهي مفيدة جداً في بابها.

ومنها رسالة (في)[7] الذكر باسم الجلالة مفرداً، وهي مسألة كثر فيها البحث بين المتأخرين، فأجاز ذلك العارفون عن آخرهم، ومنع بعض المترسمة محتجا بظواهر لا تجري، ورسالة شيخنا في هذه المسألة مفيدة مع صغر حجمها.

وله رضي الله عنه ديوان شعر أكثره على لسان أهل الحقائق، ونظمه فيه عذب المذاق، وإن كان ربما يوجد فيه ما يستضعف عند أهل الأدب، فمن ذلك قوله:

[طويل]

عليكَ بصافِي ود ليْلى وكُنْ لها ... غلامَ غلامِ خالصَ الود والعهْدِ

ولا تبتغِي من دونِ ذلك بُغية ... فما دُونها إلا توهمُ لا يُجدي

---

(1) في ط: مؤيده، زالإشارة هنا إلى نص الحديث القدسي :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم إن الله عز وجل يقول: ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به، فإذا دعا أجبته، وإذا سألني أعطيته، وإذا إستنصرني نصرته، وأحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي: المعجم الكبير 206:8.
(2) الفتح: 10.
(3) الفاتحة: 5 – 7.
(4) الإسراء: 80.
(5) الإسراء: 81.
(6) الصافات: 180 – 182.
(7) زيادة من ط.

فقِبلــةُ كــلِ العاشــقينَ جَمالُهــا إليه تُــصلي فِتيــةُ العلَــمِ الفــردِ
إلى أن بدتْ منهم علــيهمْ وفــيهم وأبدَتْ ثنايا حُسنِ بارقهــا الهِنــدِي
ولاحَتْ بشرقِ الكوْنِ مذ بانَ صُبحها وأمسَتْ بغربِ الغرْبْ تسألُ عن نجْدِ
فلما اهتدَى السَّاري بهــا لخِيامهــا وباتَ على دينِ الغرامِ بهــا يــشدِي
وآذَنَ داعِي الحانِ نــدمانَ وَصْــلها وبثَّ كؤوسَ الوصلِ في سكرةِ الوجــدِ
بدا حيُّها القيومُ في كــلِ شــاخِص وأشرقَ في سلْمَى وأغربَ في دَعْــدِ
وأوْرَى فأوْرَى فالورَى مــن تــوارَّه يــسيرُ برُكبــانِ الغــرامِ إلى نجــدِ
إلى دارِ ليلى والمــضَارب شــرعتْ بــساحَتها للنــازلينَ بهــا تهــدي
فمُتــسعُ الأحْــشا خِيــامُ مَقِيلــها وفَيْحا مجالِ العادياتِ مــن الوجــد
أثرْنَ به نَقْعــا فلمــا[1] انتــهوا إلى نمى غايةِ التزيلِ في الــسيرِ والجــد
وسطْنَ بهِ جَمعا على الــضد منــهمُ لأنهمُ في الأصلِ خالونَ عــن ضــد
فيا لكم إذا قــامَ ســوقُ غرامِهــا على ساقهِ والوجــدُ يخفــقُ بالبنــدِ

هــ.

لطيفة:

إنما كنا معشر أتباع الشيخ القشاشي نلقبه بصفي الدين، مع أن المشتهر في اصطلاح المشارقة تلقيب أحمد بشهاب الدين، لما أخبرني به شيخنا الملا إبراهيم أن الشيخ كان يكره هذا اللقب ويقول: إن أحمد أشرف الأسماء، فكيف يلقب بالشهاب الذي هو للعذاب والرجم. وأظن أنه قال: وهو اسم شيطان، فكان، رضي الله عنه، يرى أن الأولى تلقيب أحمد بصفي الدين، فانظر ما أحسن هذا

(1) اقتباس من قوله تعالى: (والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا): العاديات: 1 – 5.

اللقب وما ألطف مناسبته لهذا الاسم الشريف. وإشارات العارفين واستبطاناتهم كلها على هذا الأسلوب عند من فهم ذلك عنهم، والله يجعلنا من أهل الفهم عنه وعنهم آمين آمين.

ولما اجتمعت بغالب فقهاء المدينة المشرفة، رضي الله عنهم، وأخذت عمن هو أهل للأخذ منهم، كتبت استدعاء يشمل على نثر ونظم استجزتهم فيه لنفسي وولدي وجماعة من أصحابنا وأبناء مشايخنا، وكان من جملة من كتب عليه بإسعاف الرغبة شيخنا الملا إبراهيم، رضي الله عنه، ويأتي ذكر الاستدعاء المذكور وما كتبت عليه آخر الرحلة، إن شاء الله تعالى، لأني أفردتُ لذلك رسالة سميتها: تحفة الأخلاء بأسانيد المشايخ الأجلاء أذكرها بتمامها هناك، إن شاء الله.

ولنختم ترجمة شيخنا الملا إبراهيم بالرسالة التي كتبها برسمي فيما يتعلق بمسألة الكسب التي هي من مفادات شيخه الصفي رضي الله عنه وسبب كتبه لهذه الرسالة أني كنت قبل ذلك بمدة ونحن بالمغرب وجدت عند بعض الإخوان من أصحاب الشيخ الصفي إحدى رسائله في المسألة، وهي الوسطى، فاستنسختها ثم أطلعت عليها شيخنا علامة الوقت وعارف الزمان الشيخ أبا محمد عبد القادر بن علي الفاسي، قدس الله سره ورفع ذكره، وطلبت منه مطالعتها والنظر في مقاصدها لكثرة الطاعنين على صاحبها، ولا يقبل في كلام العارفين إلا كلام أمثالهم، فطالع بعضها فاستطالها لكونها غير مبوبة ولا مفصلة، ومع ذلك فلم يحكم على صاحبها بتضليل ولا تبديع كغيره من المترسمين، وقال: لو اختصر هذا الكلام وحصلت مقاصده لكانت لنا عودة إلى تحقيق النظر فيه وإمعانه. ولما اجتمعت بالملا إبراهيم سألته أن يختصر مقاصد الشيخ في رسائله حتى يمكن الناظر فيه تأمله، ويجرده من كثرة الأمثلة والشواهد والأدلة، فكتب هذه الرسالة وسماها: الإقماع المحيط، وهي هذه: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الغني القريب، الأقرب العلي الأعلى، الجامع بالذات بين الكمالات المتقابلات وله الحمد في الآخرة والأولى، أحمده على أن منّ علينا بالإيمان، فإنه الأحد الواحد المتجلي في كثرة الأسماء القدوس الذي في عين قدسه به قام كل علو وسفل، إذ هو قيوم الأرض والسماء، وأشهد أن لا إله إلا الله الصمد الجواد العزيز الحكيم الواسع المحيط الحق الذي مد ظل النور الوحداني على الحقائق فتعدد في عين وحدته بإظهار آثار كل مركب وبسيط، وذلك أن الله، لغناه الذاتي، له الإطلاق التام الحاوي لكل تقييد وإطلاق،

فكان له التجلي متى شاء وكيف شاء فيما شاء من حقائق الأنفاس في الآفـــاق، ومن تحقق ما ذكر اتضح عنده معنى لا قوة إلا بـــالله في عـــين، و(أن القـــوة لله جميعا)[1]، وانكشف لديه معنى: (والله خلقكم وما تعملون)[2] في عين إثبات تأثير قدرة العبد بإذن الله موفقا سميعا، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعـــوث بالكلمة الجامعة لمراتب التوحيد، لا إله إلا الله المؤيد بتأييد (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)[3]، المقرب بتقريب (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله)[4]، وصلى الله وسلم على آله الأطهار وأصحابه المقربين الأبرار، من المهـــاجرين والأنـــصار وتابعيهم بإحسان من السابقين واللاحقين، صلاة وتسليما فائض البركات علـــى الآفاق والأنفس في الظاهر والباطن عدد خلق الله بدوام الله الخلاق وذي القـــوة المتين.

أما بعد، فإن مسألة توحيد الأفعال مع إثبات الكسب بتأثير قدرة العبد بإذن لا باستغلال قد ألف فيها شيخنا الإمام العارف بالله المحقق الراسخ الكامل المكمل الأكمل، قطب زمانه وغوث أوانه، سيدي الشيخ صفي الدين أحمد بن محمد بن يونس الملقب بعبد النبي بن الولي الشهير أحمد المقدسي الدجاني المدني المعـــروف بالقشاشي، قدس الله روحه وأعلى في أعلى المقربين فتوحه، وأعاد علينا والمحـــبين من بركاته آمين رسائل آخرها الكشف والبيان عن مسألة الكسب والإيقان، وهي آخر مؤلفاته على الإطلاق. ولما وصل في هذه السنة، ســـنة 1073 إلى المدينـــة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، سيدنا العالم العامل فيما أحسبه ولا أزكي على الله أحدا، نادرة الوقت، غريب الزمان، الفقيه المحدث، الـــصوفي ذو الحظ الوافر من جامعيته تجلى الاسم المضاف إليه، سيدي الشيخ عفيف الدين عبد الله أبو سالم بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، عاش لله بالله عبد الله، من خلص حزب الله في حماية الله آمين. وذكر لنا أن بعض رسائل شيخنا قـــدس سره في مسألة الكسب وصلت إليهم، ثم نظر في رسالة الكشف وصلت إليهم، ثم نظر في رسالة الكشف والبيان ورآها مبسوطة، طلب تلخيص مقاصدها تقريبا لها إلى الأفهام مع تذييله بالتنبيه على اندفاع ما استدل به العلامة التفتازاني في شرح

(1) البقرة: 164.
(2) الصافات: 96.
(3) الأنفال: 17.
(4) الفتح: 10.

المقاصد على أن قدرة العبد لا تأثير لها أصلاً من العقليات فإنه من باب إماطة الأذى عن طريق تحقيق المقام. فاستخرت الله تعالى ثم توجهت للمطلوب سعيا في تبليغ ما اهتم بنشره الشيخ قدس سره، ولاسيما في هذه الأواخر شديد الاهتمام مستحضرا أن هذه المسألة لكونها على هذا الوجه المنقح من نفاذاته، قدس سره، بإذن الله كأنه القائل على لساني وفي ميزانه، الله ولي كل توفيق وإنعام، والله سبحانه بيده أزمة القلوب وملكوت كل شيء وإليه المصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في كل مقصد صغير وكبير، وهذا أوان الشروع فيما هو المطلوب من التلخيص والتقريب، والله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

تمهيد: اعلم أن الحق الذي يجب اعتقاده وإن كان هو الوسط بين طرفي إفراط وتفريط كما ورد: خير الأعمال، وفي لفظ، الأمور أوساطها[1]، ودين الله بين القاسي والغالي، وفي لفظ أن دين الله وضع دون الغلو وفوق التقصير، والحسنة بين السيئتين لا ينالها إلا بالله[2]، الحديث. وأن الكسب هو أمر بين الأمرين لا جبر ولا تفويض لبطلان الجبر بالضرورة، وبطلان الخافية استقلالا بالاستدلال، لكن القول بأن الوسط هو أن يكون للعبد قدرة تتعلق بالمقدور لا تأثير لها فيه أصلا لا يحصل به توسط شافي، إذ لا يتميز عن الجبر تمييزا يكشف الغمة عن طالب التحقيق في هذه المسألة المهمة، ولهذا قيل: إن الكسب بهذا المعنى اسم بلا مسمى، والأقوال التي ذكرها العلامة التفتازاني في شرح المقاصد في تفسير الكسب ليس فيها شفاء.

أما القول بأن الوسط هو أن يكون للعبد قدرة مؤثرة، لكن بإذن الله لا بالاستغلال فهو توسط حسن متميز عن الطرفين تمييزاً بيِّناً يكشف الحيرة، وقد أيده شواهد الشرع المعصوم لمن تلقاها بالإيمان الواسع، وأمعن النظر فيها بالعقل السليم، لا ينكره النظر العقلي من ذي فطرة سليمة، لم يتكدر صفاء بصيرته بغبار الشبهات الخيالية، ومحاها الله المنان عنه بعد التكرر بعزته فإنه يمحو الله ما يشاء ويثبت و(لكل أجل كتاب)[3]. وأما من اشتغل محله بالمألوف المتداول ثم لم يسلك طريق الإنصاف خاليا عن التعصب، طالبا للتحقيق، فالغالب أنه لا يتلقاه بالقبول

(1)السنن الكبرى للبيهقي 3:273.
(2) شعب الإيمان 3:403.
(3) الرعد: 39.

لكونه يتوهم ببادي الرأي أنه كقول المعتزلة حيث يسمع لفظ التأثير، وهذا من كون الإنسان عجولا[1] لما فيه من الخفة النارية، فلو ثبت بما فيه من الترابية المحتوية على الرزانة لينظر باذلا للجهد فيقدم، أو يحجم على نية، لكان أمس بإنسانيته مع ما فيه من امتثال قوله صلى الله عليه وسلم: إذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يريك الله منه المخرج[2]، وقد قال تعالى: (فإن تنازعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر)[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[4]. وقد ورد: طوبى للسائرين إلى ظل الله تعالى الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، والذين يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم، وذلك أن هذه المسألة لا يعلمها على التحقيق الأتم إلا من سلك منازل السائرين إلى الحق المبين ففاز بعد الفناء التام بالبقاء من الله العلام، فتجرد له إدراك آخر ليس من قبيل إدراكه الأول، فعرف نفسه معرفة محققة شهودية يعرف ربه بحسب درجته وسعة دائرته، فكان من الراسخين في العلم من طريق الوهب الإلهي لا من طريق الفكر، فيعلم الحافظ أن الفعل بتأثير القدرة المضافة إلى العبد بإذن الله لا يكون قادحا في توحيد الأفعال مناف لكلية لا خالق إلا الله لكونه يعلم تأويل المتشابهات بالوهب الإهي على وجه ليس فيه صرف اللفظ عن ظاهره، مع أنه لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، ولا حلولاً ولا اتحاداً، ولا تجزئة ولا قياما للحادث بالقديم ولا بالعكس، ولا ما يشاكل ذلك من الشبهات التي تطرأ على أهل الأفكار في المتشابهات لو حملت على ظاهرها، ويليه من آمن بشواهد الشرع إيمانا صادقا لا يزلزله المألوف في الكتب الكلامية المتداولة، ثم نظر فيها نظر منصف طارح للتقييد بما تقرر عنده أولا طالب للتحقيق متوجها إلى الله في المضايق وعند طرق الشبهات أو يهديه سواء السبيل، فإن الله سبحانه يمن عليه بفهم الآيات على وجهها والهداية إلى الحق المختلف فيه بصادق وعد الله، (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم)[5]، وإن تفاوتت[6] الدرجات في ذلك، وانظر في كلام أئمة الكشف الصحيح لمن تلقاها بالإيمان الواسع في مساعدة لفهم

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا) الإسراء: 11.
(2) الأدب المفرد 306:1.
(3) النساء: 58.
(4) الفردوس بمأثور الخطاب 153:5.
(5) التغابن: 11.
(6) في ط: تفاوت.

الآيات والأحاديث على الوجه المطلوب وبالله التوفيق. ويليه صاحب النظر الفكري إذا اعتنى الله به فوفقه للنظر الصحيح فإنه تناول المسألة من وراء حجاب الفكر، ولكن دون درجة من قبله، أعني صاحب الإيمان بالمتشابهات الذي هدي إلى الحق لاختلاف مبنى المسألة عندهما، فإن صاحب الإيمان إذا تم له الأمر في الفهم بهداية الله تعالى مبني المسألة على توحيد الصفات مع فهمه أنه لا يلزم شيء من الشبهات المشار إليها، وصاحب النظر الفكري المجرد لا يبنيها على ذلك لظنه استلزامه للمحذورات السابقة، ويكتفي بأنه لا مانع عقلا من أن يخلق الله للعبد قدرة يمكنه بها من العقل، لأنه لا ينقطع نسبته إليه تعالى بالإلحاد لأن إلحاد المكلف له إنما هو بتمكن الله تعالى إياه منه وإقداره عليه، وهذا وإن كان فيه الكفاية لكونه من لوازم الأول، ولكن بين القولين بون بعيد، وكل ميسر لما خلق له وبالله التوفيق، وإذا سمعت هذا، فنقول وبالله التوفيق وبيده ملكوت التحقيق: من المعلوم أن الممكن لما كان في كونه موجودا محتاجا إلى غيره كان الفقر إلى الغير في وجوده وكمالاته التابعة لوجوده ذاتيا له، وأن الواجب لما كان في كونه موجودا غنيا بذاته عما سواه كان الغنى (عن الغير في وجوده)[1] وكمالاته ذاتياً له والله سبحانه وتعالى هو الواجب الوجود لذاته، فهو الغني بذاته عما سواه في وجوده وكمالاته، والممكن فقير بالذات إلى الله في وجوده وكمالاته التابعة لوجوده، فكما لا وجود له إلا بالله، كذلك لا كمال له إلا بالله، ومن كمالات العبد القدرة على أفعاله الاختيارية وتمكينه من تحصيلها بلا قدرة له على تحصيل شيء منها إلا بالله كما قال تعالى: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله)[2]. وقال، صلى الله عليه وسلم، في الحديث المتواتر كما قال السيوطي[3] رحمه الله: ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومفاد الاستثناء من النفي إثبات، والتراع فيه مدفوع كما أوضحنا في إنباه الإنباه على تحقيق إعراب لا إله إلا الله، فالعبد كما أن له وجودا بالله لا مستقلاً، كذلك له قوة بالله لا مستقلة، ومعلوم عند الالتفات أن كل وصف حاصل لشيء بغيره فهو في الحقيقة لذلك الغير لا لشيء، فكما أنه لا وجود حقيقة إلا لله ولغيره بالله، كذلك لا قوة حقيقة إلا لله ولغيره بالله، ولهذا قال سبحانه: (أن القوة لله جميعا)[4]، أي أن

---

(1) بياض في ط.
(2) الكهف: 38.
(3) لعله يشير إلى قول السيوطي: لا حول ولا قوة إلا بالله، أي لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته: الديباج 122:2.
(4) البقرة: 164.

القوة الظاهرة في مظاهر الأقوياء لله جميعاً حقيقة لا لهم لأنها بـــالله كوجـــودهم، وهذا من أوضح الدلائل على توحيد الصفات لكل ذكي منصف فإنها، أي صفات الكائنات من عكوس أنوار التجليات للصفات الأزلية بحسب الظاهر، فهي وحدة بالذات متعددة بالنسب والاعتبارات على وجه مقدس عن جميع الـــشبهات، ولا يعلم ذلك تحقيقا إلا أهل الكشف الصحيح والمؤمنون بالمتشابهات المؤيدة لقـــولهم إيمانا واسعا صادقا مع التنزيه بـــ(ليس كمثله شيء)[1]، فإنه الإيمان الجامع بين نفي التشبيه والتعطيل الذي هو التوحيد عند أهل السنة كما قال الحافظ ابن حجـــر رحمه الله تعالى في فتح الباري حيث قال: وأما أهل السنة ففسروا التوحيد بنفـــي التشبيه والتعطيل[2]، والإمام أبو الحسن الأشعري -شكر الله سعيه- قد صرح في الإبانة[3] الذي هو المعتمد في المعتقد له وأنه آخر مؤلفاته، كما صرح به الحافظ ابن تيمية الحنبلي، رحمه الله، بالإيمان بالمتشابهات إجمالاً وتفصيلاً بعض تفصيل، ومن ذلك أنه قال: وإن لله تعالى عينين بلا كيف، ثم قال: وإن الله تجلى للجبل فجعله دكا[4]، إلى أن قال: وإن الله يقرب من عباده كيف شاء، وهو في كل حال متره عن الكيف حتى في حال تجليه في ذلك الكيف، وذلك أن الله تعالى له الإطـــلاق الحقيقي الذي لا يقابله تقييد لذاته، فهو متره عن كل قيد في عـــين التجلـــي في المقيد، فالتجلي في الصور والمظاهر كما صح به الأحاديث لا يقدح في كمـــال نزاهته، بل هو كمالات إطلاقه الحقيقي، فإن مقتضاه أن لا يتقيد بقيد مع قابلية الظهور بكل قيد إرادة، والله واسع حكيم.

ثم نرجع ونقول: من المعلوم أن كل فعل صادر عن العبد فإنما يصدر بقوة، وإذ لا قوة إلا بالله، فلا فعل له إلا بالله، وكلما ثبت أنه لا قوة إلا بالله ثبت أنه لا قوة إلا لله كما يوضحه قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعلمون)[5]، وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله صانع كل صانع وصنعته[6]، فالله ســـبحانه خَلَـــق العُمَّـــال

(1) الشورى: 9.
(2) فتح الباري 344:13.
(3) الإبانة 22:1 .
(4) إشارة إلى قوله تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) الأعراف: 143.
(5) الصافات :96.
(6) تذكرة الحفاظ 272:1.

والأعمال، بل خلق كل شيء كما قال، لكنه كيف يشاء بواسطة مع غناه عنها أو بلا واسطة كما يدل عليه قوله تعالى: (إن الله يفعل ما يشاء)[1]، وقوله: (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)[2]، عموماً وما سيأتي من الآيات والأحاديث خصوصا، وكلما كان كذلك كان كون الأفعال الاختيارية للعباد محكومة لله تعالى بواسطة مظاهرهم على كونها مكسوبة لهم بالله لكن بنسبتين مختلفتين، فإن الله خالقهم وخالق أعمالهم مع غناه عنهم، وإحاطة علمه بتفاصيل تلك الأعمال ومباديها وهم كاسبون لأعمالهم بالله مع فقرهم الذاتي وعدم استقلالهم، وعدم علمهم بتفاصيل شيء منها إلا ما شاء الله منها، وقد دل شواهد الشرع على تحقيق الاعتبارين، أي أن الله يفعل بالأسباب، أي بتوسط مظاهر العباد، كما يفعل عندها وكما يفعل بلا سبب، وأن العباد يعملون بالله ما يشاء الله أن يعملوه بإذنه، أما ما يدل على أن الله يفعل بالأشياء مع غناه فنحو قوله تعالى: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)[3]، مع قوله: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)[4]، فالذي يميت الألوف بكلمة كيف يحتاج إلى مقاتلة المخاطبين لتعذيب الكفار، فإنه (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)[5]، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك، فأبرز الأمر بمقتضاها بجوده ورحمته مع تحقق غناه، ونحو قوله تعالى: (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض)[6]، فدفاع الناس بعضهم بعضاً عين دفاع الله بعضهم ببعض، إلا أنهم يدافعون بالله مع تحقق الفقر إليه تعالى، إذ لا قوة لهم إلا بالله والله يدافع بهم مع غناه عنهم، ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم: أنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر[7]. وقوله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي[8]. وقوله صلى الله عليه وسلم: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم[9]، إلى غير ذلك من

---

(1) الحج: 18.
(2) آل عمران: 6.
(3) التوبة: 14.
(4) البقرة: 241.
(5) يس: 81.
(6) البقرة: 249.
(7) صحيح البخاري 3:1299.
(8) صحيح البخاري 4:1574.
(9) صحيح البخاري 3:1077.

الآيات والأحاديث. وقوله: إن الله يفعل عند الأشياء لا بها، إن أريد به أن فعل الله لا يتوقف على الأسباب، بل هو غني عنها قادر على الإيجاد بلا مدخلية توسطها بدليل أن أول مخلوق خلقه الله لم يكن صدوره عنه تعالى بواسطة مظهر العبد وإلا لتسلسل، وكلما كان غنياً عنها فعله بها لحكمة اقتضى جوده ورحمته مراعاتها حسبما سبق به العلم المحيط لا للافتقار إليها، فهي أسباب عادية، أي أن الله جرت عادته بإيجادها[1] الأشياء بها لحكمة مع غناه عنها، فهو في معنى الفعل عندها لا بها كان قولا صحيحا، وإن أريد به أنه لا يصح أن يفعل لحق سبحانه بتوسط الأسباب أصلا ولا لمقتضى الحكمة مع غناه عنها، فهو قول لا دليل عليه، تأمل.

وقولهم بلزوم الاستكمال بالغير شبهة تنكشف بأن الإيجاد بالأسباب، إنما يستلزم الافتقار المنافي للمعنى المستلزم للاستكمال إذا توقف الفعل على تلك الأسباب حقيقة لا عادة، لكنها عادية فلا افتقار فلا استكمال بالغير وبالله التوفيق.
وأما ما يدل على الاعتبار الثاني، أي أنَّ العباد يفعلون بالله ما شاء الله أن يفعلوه فمن ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي الصحيح لداوود، عليه الصلاة والسلام، بعد ذكره صلى الله عليه وسلم أعمال عابد آل داوود من الصلاة والتسبيح والتكبير وغيرها: يا داوود إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني ما قويت عليه، الحديث. فمفاد الاستثناء أن تلك الأعمال التي صدرت منه إنما كانت بالله، وصدورها منه فرع تأثير قدرته بإذن الله وعونه وتمكينه وتقويته وأقداره، لأن الأعمال آثار القدرة ولا أثر بلا تأثير كما هو واضح. قال أستاذ المحققين محي الدين محمد بن علي بن العربي قدس سره ونفعنا به في الدارين آمين في الباب 104 من الفتوحات المكية ما نصه: فهل ما يطلب منا نعجز عنه أو لا نعجز، ومحال أن يطلب منا ما لم يجعل فينا قوة الإتيان به ويمكننا من ذلك فإنه حكيم، وقد أعطانا في نفس هذا الطلب علما بأن فينا قوة ربانية ولكن من حيث أنا مظهر لها، اكتسبناها قصوراً عَمَّا تستحقه من المضي في كل ممكن، فطلبنا المعونة منه، فشرع لنا أن نقول (وإياك نستعين)، ولا حول ولا قوة إلا بالله [2]. هـ بلفظه، وفيه قول بتوحيد الصفات وتأثير القدرة المضافة إلى العبد بالتمكين والمعونة وقرر هذا في غير ما موضع من الفتوحات قدس سره. ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنك

(1) في ط: بإيجاد.
(2) الفتوحات المكية 186:2.

سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك فأعطنا منها ما يُرضيك عنا[1]. ومفاد الاستثناء أن العبد يملك ما سئل منه من التكاليف بالله ولا يكون ذلك إلا بتأثير قدرته فيها بإذن الله. ومنها قول سيدنا أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، بعد أن استخلف: لقد قلدت أمرا عظيما ما لي به من طاقة، ولا يد إلا بتقوية الله [2]. ومنها قول سيدنا علي، رضي الله عنه، للقائل بالاستطاعة: قل أملكها بالله الذي إن شاء ملكنيها. ومنها قوله تعالى: (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)،[3] فإن مفاد الاستثناء أن الضرر والإتيان بسلطان يقعان بإذن الله وتمليكه والوقوع فرع تأثير. قال البيضاوي: أي ليس لنا الإتيان بالآيات، ولا يستبد به استطاعتنا حتى نأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمر بمشيئة الله فيخص كل نبي بنوع من الآيات هـ. فلم ينف في الأول لا التأثير بالذات لا مطلقا، ولم ينف في الذاتي إلا استبداد استطاعتهم واستقلالها لا أصلها المقيد بالإذن. وقال الحافظ في فتح الباري في حديث الاستخارة في قوله: وأستقدرك، أي أطلب منك أن تجعل لي على ذلك قدرة، ثم قال في قوله: فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم ما نصه: إشارة إلى أن العلم والقدرة لله وحده وليس للعبد من ذلك إلا ما قدره الله له[4] هـ. وهذا كالتصريح بتوحيد الصفات، وهو الأصل في هذا الباب، وهو كقول الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتاب الشكر من الإحياء: ولا قادر إلا الملك الجبار[5]، مع قوله في جواهر القرآن في باب المحبة: لا قدس ولا قدرة ولا علم إلا للواحد الحق، وإنما لغيره القدر الذي أعطاه إلخ. وقال في كتاب الشوق من الإحياء: فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: (إِنَّا مَكَّنَّا له في الأرض)[6]. وهذا القول من الإمام حجة الإسلام ومن وافقه، أعني توحيد الصفات، هو التحقيق الذي ليس فوقه إلا عين اليقين ثم حق اليقين، وعليه مدار التكليف، وبه يزاول إشكالات هذه المسألة لمن أتاه الله فهمه سالما من الشبهات الخالية، ويؤيده أن شواهد ذو النسبتين مختلفتين كما في تقريره، فقد شهدت بأن القدرة واحدة بالذات متعددة بالنسب والاعتبارات لما حصل لها

(1) طبقات المحدثين 3:224.
(2) المستدرك على الصحيحين 3:70.
(3) البقرة: 101.
(4) فتح الباري: 11:186.
(5) إحياء علوم الدين 4:77.
(6) الكهف: 83.

التعدد في المظاهر بالتعينات الجزئية المتفاوتة حسبما تفاوت المظاهر من غير لزم شيء من الشبهات المتوهمة، كالتبعيض والحلول والاتحاد وقيام القديم بالحادث أو ما يشاكلها لما مر أن الحق سبحانه له الإطلاق الحقيقي، ومقتضاه أن لا يتقيد بقيد مع صحة ظهوره في كل قيد شاء الظهور فيه كيف شاء، وهو مع ذلك على كمال نزاهة قدسه كما هو واضح لمن فهم معنى الإطلاق الحقيقي الذي لا يقابله تقييد، وبالله التوفيق. ومنه ينكشف للفطن المؤمن أنه لا منافاة بين القول بتأثير القدرة المضافة إلى العبد المتعينة بحسب مظهره بإذن الله، وبين توحيد الأفعال، وأنه لا خالق إلا الله. وإذا علمت هذا فنقول الكسب في اللغة بالمعنى المصدري كما سيجيء نقله هو التحيل مطلقا، بمعنى الحاصل بالمصدر هو المكسوب المحصل، وشرعا بالمعنى المصدري تحصيل خاص، وهو تحصيل العبد بقدرته المؤثرة بإذن الله ما تعلقت به مشيئته التابعة في التعلق به لمشيئة الله، فبقيد التأثير تميز من الجبر تمييزاً واضحاً، وبقيد الإذن وتبعية المشيئة تميز عن الإيجاد بالاستقلال الذي هو قول أهل الاعتزال القائلين بأن الله يشاء ما لا يفعلونه ويفعلون ما لا يشاء الله، وانكشف توسط بين طرفي تقصير الجبر وعلو الاستقلال انكشافا بينا بإذن الله الكبير المتعال والحمد لله رب العالمين.

فصل:

دل كلام الشيخ أبي الحسن الأشعري -شكر الله سعيه- في الإبانة على أنه لم ينكر على المعتزلة إلا الاستقلال لا أصل التأثير بالإذن، وذلك أنه قال: "أما بعد، فإن كثيرا من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى التقليد إلى رؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلا لم ينزل الله به سلطانا ولا أوضح به برهانا"[1]. إلى أن قال: "وزعموا أن الله يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون من أن ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون، وردا لقول الله (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)[2]، فأخبر أنا لا نشاء

---

(1) الإبانة 14:1، والظاهر أن العياشي ينقل من كتاب كنب المفتري الذي يتطابق نصه مع ما أورده، أنظر: تبيين كنب المفتري 155:1، وما بعدها.
(2) الإنسان: 30.

شيئا إلا وقد شاء أن نشاءه"[1]، إلى أن قال: وزعموا" أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم [من دون الله عز وجل][2] ردا لقول الله تعالى [لنبيه صلى الله عليه وسلم][3]: (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله)[4]، وانحرافاً عن القرآن وعما أجمع المسلمون عليه، وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم دون ربهم، وأثبتوا لأنفسهم غنى عن الله عز وجل"[5]. إلى هنا انتهى كلامه رحمه الله بلفظه في آخر مصنفاته والمعول عليه من بين كتبه الكثيرة.

وظاهر بأدنى التفات أنه لم ينكر عليهم إلا زعمهم الاستقلال بالمشيئة والاستقلال بملكهم الضر والنفع لأنفسهم لا بالله، وزعمهم الانفراد بالقدرة على أعمالهم، وأن ربهم المستلزم للغنى عن الله والاستقلال والانفراد باطل بالنقل والعقل والكشف. وأما القدرة على الأعمال بلا زعم الانفراد بل بإذن الله وتمكينه، والملك للضر والنفع بإذن الله، فليس في كلامه ما يدل على نفيه أصلا، بل مفهومه يثبته كما لا يخفى، ويوضحه قوله فيما بعد: وإنَّ أحداً[6] لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله ولا يستغني عن الله[7] هـ. فإنه يدل على أن العبد يستطيع أن يفعل شيئاً بالله في وقت فعل الله له، فإن قوله: ولا يستغني عن الله يدل على أنه إنما يفعل بالله لا بنفسه مستقلا، وكل ما كان كذلك فلا يتأتى له الفعل قبل فعل الله، بل حين فعله، فإن الفعل واحد بالذات متعدد بالنسبة والاعتبارات كما مر، ومن هنا يقول إن القدرة مع الفعل وكل ما كان كذلك كان قابلاً لتأثير قدرة العبد بإذن الله، لأن استطاعة الفعل حين فعل الله إيقاعه بالله حين إيقاع الله إياه بالعبد وإيقاع الله بالعبد بالتأثير بلا خلاف، فإيقاع العبد أيضا بالتأثير تمكين الله لما مر من كون الفعل واحد بالذات مختلف بالنسب، وهذا من لوازم توحيد الصفات عند التحقيق. وقولهم لازم المذهب ليس بمذهب، معناه أنه لا يحكم به بمجرد لزومه، فإن اعتقده فهو مذهب، ويترتب عليه حكمه اللائق به، ولم يبلغني عن الأشعري نص بالالتزام أو عدمه، لكن ظاهر إيمانه بالمتشابهات مع التتريه يقتضي

---

(1) الإبانة 1:15- 16.
(2) ما بين معقوفتين زيادة من الإبانة.
(3) ما بين معقوفتين زيادة من الإبانة.
(4) يونس: 49.
(5) الإبانة 1:17.
(6) في ط: واحدا.
(7) تبيين كذب المفتري 1:159.

ذلك، ولا سيما تنصيصه على أن الله يتجلى وأنه يقرب من عباده كيف يشاء مع نفيه للكيف أولاً، وهذا تمام التحقيق، فإن الله سبحانه، وإن تجلى في ذي الكيف، فهو متره عن الكيف في كل حال، لإطلاقه الحقيقي كما مرت الإشارة إليه، ويوضحه قوله قبل ذلك، وتثبت لله قدرة كما قال: (أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة)[1] هـ. فإن مقتضى اسم التفضيل استدراك المفضل والمفضل عليه في أصل شيء واحد مع مزيد الأول على الثاني فيه، ومقتضى هذا لغة أن يكون القوة حقيقة واحدة ثابتة لله بالذات لكونه هو الذي خلقهم، لهم بالجعل والإفاضة والأصل في الإطلاق الحقيقة، وهو القائل: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما رُوي عن الصحابة، ونحن بذلك معتصمون[2]. وهو القائل: ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم[3].

وعلى هذا فحقيقة الكسب المعتمد ما عرفناه به لا تعلق للقدرة بالمقدور بلا تأثر لها فيه أصلاً، كما هو المشهور عنه. ومنه يتضح أنه لا منافاة بين أقواله السابقة الدالة على أن لقدرة العبد تأثيراً بإذن الله لا مستقلاً، وبين قوله فيما بعد: وإنه لا خالق إلا الله، وإن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة[4] هـ. أما لما تبين من كلامه الدلالة[5] على القول بتوحيد الصفات، وإما لأنه فعل للعبد إلا بإذن الله وتمكينه، وكل ما كان لا فعل له إلا بالله فلا فعل إلا لله حقيقة، والله أعلم. ومنه يظهر أن ما نقله في المواقف عن الإمام الرازي في الجمع بين مذهبي الأشعري والمعتزلة ما نصه: ولعل الشيخ الأشعري أراد بالقدرة القوة المستجمعة شرائط التأثير، فلذلك حكم بأنها مع الفعل وأنها لا[6] تتعلق بالضدين، والمعتزلة أرادوا بالقدرة مجرد القوة العضلية، فلذلك قالوا بوجودها قبل الفعل وتعلقها بالأمور المتضادة، فهذا وجه الجمع بين المذهبين .[7]هـ ملخصا. جمع صحيح، لأن الشيخ الأشعري، رحمه الله، على ما تقرر قائل بالتأثير بإذن الله وأما ما في شرح المواقف

(1) فصلت: 14.
(2) الإبانة 1:20.
(3) نفسه 1:29.
(4) الإبانة 1:23.
(5) في ط: من الدلالة.
(6) ساقط من ط.
(7) المواقف 2:138.

من الاعتراض عليه بأن القدرة الحادثة ليست مؤثرة عند الشيخ، فكيف يصح أن يقال إنه أراد بالقدرة القوة المستجمعة لشرائط التأثير، فمدفوع عنه بأن القول بعدم التأثير إن كان منقولاً عنه نقلاً صريحاً ففي غير الإبانة المعول عليها، فيقدم ما فيها على ما في بقية الكتب على أن قوله في عامة كتبه كما نقله ابن القيم في شفاء العليل يدل على التأثير أيضا فإنه "قال في عامة كتبه: معنى الكسب أن يكون الفعل بقدرة محدثة، فمن وقع منه الفعل بقدرة قديمة فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة محدثة فهو مكتسب".[1] هـ.

ولا شك أنه صريح في أنّ العبد يقع منه الفعل بقدرة محدثة، ومن المعلوم أن الواقع بالقدرة أثرها وإلا لم يكن واقعاً بها، والأثر فعل التأثير بالضرورة فقوله: في عامة كتبه[2] أيضا موافق لما في الإبانة، والإشكال في قوله: بقدرة العبد[3]، مع وقوعه بقدرة الله يزول بكون الفعل واحداً بالذات مختلفاً بالاعتبار لكون القدرة واحدة بالذات مختلفة بالاعتبار كما تقرر، ودل عليه كلام الأشعري، رحمه الله، أيضاً وبالله التوفيق.

فصل:

ذهب إمام الحرمين في النظامية التي ألفها بعد الإرشاد[4] إلى أن قدرة العبد مؤثرة بتمكين الله لا بالاستقلال، وقد نقل كلامه في بيان ذلك بلفظه وطوله العلامة ابن القيم الحنبلي في شفاء العليل[5]، وحيث إن الداعي لشيخنا قدس سره في تأليف رسالته الانتصار كان نصرة قول إمام الحرمين، فلا بأس بنقل طرف من كلامه، فإن بعض المتأخرين أنكر ثبوت ذلك عنه، وعلى تقدير صحته عنه رده عليه بما جوابه مذكور في اختصار الانتصار لشيخنا قدس سره، فنقول، وبالله التوفيق، أقوالا في معنى الكسب ما نصه: وقد اضطربت آراء أتباع الأشعري في الكسب اضطراباً عظيماً واختلفت عباراتهم فيه اختلافا كثيراً إلى أن قال: قلت:

(1) شفاء العليل 1:130.
(2) شفاء العليل 1:130.
(3) شفاء العليل 1:142.
(4) الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد لعبد الملك بن عبد الله الشافعي المعروف بإمام الحرمين: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 105.
(5) شفاء العليل 1:142.

الذي قاله الإمام في النظامية أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري والبـاقلاني ومـن تابعهما، ونحن نذكر كلامه بلفظه قال: قد تقرر عند كل حاضر بعقله مترق عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد أن الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم حياتهم، وداعيهم إليها ومثيبهم ومعاقبهم عليها فيما لهم، وتبين بالنصوص التي لا تتعرض بالتأويلات أنه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم به ومكنهم من التوصل إلى امتثال الأمر والانكفاف عن مواقع الزجر، ومن نظر في كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث والزواجر ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم، فهو مصاب في عقله أو مستقر على تقليده مصمم علـى جهله، ففي المصير إلى أنه لا أثر لقدرة العبد في فعله قطـع طلبـات الـشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون، فإن زعم من لم يوفق لمنهج الرشاد أنـه لا أثـر لقدرة العبد في مقدوره أصلاً، وساق الكلام في رده إلى أن قال: فقـد فهمنـا بضرورات المعقول من الشرع المنقول أنه عزت قدرته، طالب عبده بما أخبر أنهم ممكنون من الوفاء به فلم يكلفهم إلا على مبلـغ الطاقـة والوسـع، ثم سـاق احتمالات، قال في آخرها: وهذه الأقسام بجملتها باطلة ولا ينجى من هذا الملتطم ذكر اسم محض لقب مجرد من غير تحصيل معنى. قال: فإذا لزم المصير بأن القدرة الحادثة تؤثر في مقدورها، فنقول: قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفـاق القـائلين بالصانع والفعل المقدور بالقدر واقع بها قطعا، ولكنه يضاف إلى الله سبحانه تقريراً وخلقاً فإنه وقع بفعل الله، وهو القدرة، وليست القدرة فعلاً للعبد وإنما هي صفة، وهي ملك لله وخلق له، فإذا كان موقع الفعل خلق لله فالواقع به مضاف خلقا إلى الله تعالى وتقريرا، وقد ملك الله العبد اختياراً يصرف به القدرة، فإذا وقع بالقدرة شيئاً آل الواقع إلى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله، ولو اهتديت إلى هـذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف، ولكنهم ادعوا اسـتبدادا بـالاختراع وانفرادا بالخلق والابتداع، فضلوا وأضلوا، ونبين تمييزنا عنهم بتفريع المذهبين بأنا لما اضطررنا فعل العبد إلى تقدير الآلة قلنا أحدث الله القدرة في العبد على أقـدار أحاط بها علمه، وهي أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد أن يفعل وأحدث فيه دواعي مستحثة وخيرة وإرادة وعلم أن الأفعال ستقع على قدر معلوم فوقعت بالقدرة التي اخترعها للعبد على ما علم وأراد، إلى أن قـال: ومن هدى إلى هذا استمر له الحق المبين ثم بعد ضرب مثل هذا قال: فهـذا والله الحق الذي لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن وعاه حق وعيه. ثم بسط الكلام بسطا

وافيا إلى أن قال: قد أطلت أنفاسي ولكن لو وجدت لي اقتباس هذا العلم من يسرد لي هذا الفصل لكان وحق القادر على كل نفس بما كسبت أحق إلى من ملك الدنيا بحذافيرها طول أمدها هـ، والحمد لله رب العالمين.

فصل:

ذكر الإمام حجة الإسلام، قدس سره، في كتاب التوبة من الإحياء كلاما تضمن القدح في الأقوال الثلاثة أعني: الجبر المحض والاختراع الصرف الذي هو الاستقلال والتوسط، بمعنى كون القدرة مقارنة غير مؤثرة أصلا. ثم قال: فإن قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب بأنه صادق من وجه، وهو مع صدقه قاصر، وهو متناقض، فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال[1]. ثم مَثَّل بحكاية الحمار مع الفيل إلى أن قال في آخر الكلام: وإذا كان هذا كلاماً يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها، وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده[2] هـ. وهو إشارة إلى توحيد الصفات المشار إليه في جواهر القرآن. وفي الإحياء أيضا كما مر نقله. ويدل كلامه هذا أن ما تقدم في قواعد العقائد جرى على المشهور لا على المختار، والله أعلم.

فصل:

قال المحقق الكمال ابن الهمام الحنفي في المسايرة بعد نقل ما في قواعد العقائد من معنى الكسب في المشهور ما حاصله: قولكم إن القوة تتعلق بالفعل لا على وجه التأثير لا طائل تحته، لأنا لا نفهم من الكسب إلا التحصيل. قال تلميذه الكمال ابن أبي شريف الشافعي: قوله إن الكسب لا يفهم منه إلا التحصيل هو بحسب ما وضع له لغة هـ. قال: وتحصيل الفعل المعدوم ليس إلا إدخاله في الوجود، وهو إيجاده، وقولكم بأنّ القدرة تتعلق بلا تأثير كتعلق القدرة القديمة تتعلق في الأزل قياس مع الفارق، لأن معنى ذلك التعلق بنسبة معلوم من مقدوراتها

(1) إحياء علوم الدين 4: 6.
(2) إحياء علوم الدين 4: 6.

إليها بأنها ستؤثر في إيجاده عند إرادة إيجاده، فإذا تعلقت الإرادة أثرت القدرة، لكن القدرة الحادثة عندكم مقارنة لا تؤثر أصلاً، ولا وقت تعلق الإرادة، فصحة كون من قدرته تؤثر عند تعلق إرادته فاعلا بالاختيار لا يستلزم صحة كون من لا تؤثر قدرته أصلا، ولو تعلقت الإرادة فاعلا بالاختيار، وكلما كان كذلك لم يتميز الكسب عن الجبر المحض المستلزم لضياع التكليف وبطلان الأمر والنهي، فإن مجرد تعلق القدرة بلا تأثير لا تحصيل به فلا كسب به فلا يدفع الجبر والجبر باطل وملزوم الباطل باطل، ولا مانع عقلا من أن يخلق الله للعبد قدرة يمكنه بها من الفعل لحكمة صحة التكليف واتجاه الأمر والنهي، مع أنه لا تنقطع نسبته إليه تعالى بالإيجاد لأن إيجاد المكلف لها، إنما هو بتمكين الإله تعالى إياه منها وأنواره عليها، وأما ما ذكروه من العقليات على نفي تأثير قدرة العبد بالكلية فليس شيء منها لازما على ما يعلمه الواقف عليها هـ ملخصاً. قلت: وذلك لأنهم ذكروا وجوها عقلية كلها مفروضة في أن العبد لو كان مستقلا بإيجاد أفعاله لكان كذا كذا كما يظهر ذلك بمراجعة شرح المقاصد وشرح المواقف، وظاهره أنه لا ورود لشيء من ذلك أصلاً على من يقول بأن العبد لا تؤثر قدرته إلا بإذن الله وتمكينه، لأنه ناف للاستغلال، كالجبر فهي إن تمت إنما تنهض حجة على من يدعي الاستقلال كالمعتزلة ومن يحذو حذوهم من أهل الأهواء، وإنما قلنا إن تلك الوجوه العقلية مفروضة في استغلال العبد لأن التفتازاني، رحمه الله، صرح بالاستقلال في الأربع من الوجوه الخمسة التي ذكرها في شرح المقاصد، وترك التصريح في واحد منها وهو الثاني، ولفظه: "إن العبد لو كان موجدا لأفعاله لكان عالما بتفاصيلها واللازم باطل"[1]، وهذا الذي ذكر فيه التصريح بالاستقلال صرح فيه السيد بالاستقلال في شرح المواقف حيث قال: التأثير لو كان العبد موجدا لأفعاله بالاختيار والاستقلال لوجب أن يعلم تفاصيلها واللازم باطل إلخ، ومع تصريحه بالاستقلال لم يسلم من الاعتراض فإنه لما بين بطلان اللازم بأن النائم وكذا الساهي قد يفعل باختياره كانقلابه من جنب إلى جنب ولا يشعر بكمية ذلك الفعل وكيفيته قال: واعترض عليه بأنه يجوز أن يشعر بالتفاصيل ولا يشعر بذلك الشعور أو لا يدوم له الشعور هـ. وهذا يوضح أن الله جعل للإنسان في كل من حالتي النوم واليقظة إدراكا يدرك به الأشياء على حسب ذلك الموطن، وقد صرحوا بأن القوة الفكرية التي لها

---

(1) شرح المقاصد 228:4.

التركيب والتفصيل والاستنباط، متحركة دائما لا تسكن لا في النوم ولا في اليقظة أصلا، والحاصل أن ما ذكروه في بيان الملازمة من أن الإتيان بالأزيد والأنقص والمخالف ممكن، ولا بد لرجحان ذلك النوع، وذلك المقدار من مخصص هو القصد إليه، ولا يتصور ذلك إلا بعد العلم به، انتهى، لازم للقائل بالاستقلال.

وأما القائل بأن العبد لا يشاء إلا أن يشاء الله، ولا تؤثر قدرته إلا بإذن الله، ولا يعلم شيئاً من التفاصيل إلا ما شاء الله، فلا يلزمه ذلك لأن المخصص عنده لرجحان ذلك النوع وذلك المقدار من مخصص هو القصد إليه، ولا يتصور ذلك إلا بعد العلم به انتهى لازم للقائل بالاستقلال.

وأما القائل بأنَّ العبد لا يشاء إلا أن يشاء الله، ولا تؤثر قدرته إلا بإذن الله، ولا يعلم شيئا من التفاصيل إلا ما شاء الله، فلا يلزمه ذلك لأن المخصص عنده لرجحان ذلك النوع، وذلك المقدار هو مشيئة الحق سبحانه، وهي تابعة لعلمه تعالى، وعلمه محيط بالتفاصيل، والعبد يقصد الفعل على الوجه الذي يأذن الله له ويمكنه منه، والعبد عالم به على هذا الوجه، وهو كاف للقصد إليه التابع لمشيئة الله تعالى، وإن لم يكن كافياً لزاعم الاستقلال، ونحن لا ندعي إلا التأثير بإذن الله لا بالاستقلال، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1].

ومنهم الشيخ العلامة الدراك الفهامة الفقيه النبيه الخطيب الأديب الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي[2]، رحمه الله تعالى ورضى عنه، أحد خطباء المسجد وأئمته، وأمثل المدرسين به في هديه وسمته، أصله من بلد الخليل عليه السلام، وكان عمه الإمام الأجل الشيخ غرس الدين الخليلي قد استوطن المدينة آخر أمره، وتولى بها عدة وظائف من إمامة وخطابة وتدريس، وكان الشيخ ياسين ابن أخيه ويتيمه في حجره، فرُبِّي في كفالته وقرأ عليه وعلى غيره من المشايخ، ودخل مصر والشام في حياة عمه وقرأ على جماعة من المشايخ، فلما توفي عمه بالمدينة المشرفة سنة ثمان وخمسين تولى وظائفه وأكثر مكاسبه إذ كانت ابنته تحته،

(1) الصافات: 181- 182.

(2) الشيخ ياسين بن محمد بن غرس الدين الشافعي الأنصاري، الخليلي، فقيه مصنف، كان متمكنا من علوم كثيرة لا سيما الفقه والحديث،جاور بالمدينة وتولى الخطبة والتدريس بالمسجد النبوي مدة، توفي سنة 1086 هـ: خلاصة الأثر 493:4. التقاط الدرر، ص: 123. نشر المثاني 382:2.

فاستقر بالمدينة واستوطنها وصار أحد المشار إليهم فيها، وله مروءة وحشمة وديانة، فهو أقرب من رأيت من أرباب الوظائف للتمسك بالهداية وأبعدهم عن أسباب الغواية. لقيته، رضي الله عنه، أول ما لقيته بمكة المشرفة وكان فيها حاجًّا ومجاوراً مدة، فقرأت عليه هناك بعض شرحه على ألفية العراقي في السير، وهو شرح حافل أجاد فيه وأودعه من لطائف علم السير وبدائعه ما تفرق في كثير من مؤلفات المتأخرين، كسيرة الشامي والحلبي وغيرهما، وهو في سفرين كبيرين، وكتبت له أول ما اجتمعت به بيتين وهما[1]:

[بسيط]

يا من لهُ رغبةٌ في العلمِ يحملهُ   عن أهله فالتَجِىء للشيخ ياسين

فهْو الذي يُرتجى في كل مشكلة   وهْو الذي من جراحِ الجهل يأسوني

ولما قدم المدينة بعدما استقر بنا المترل فيها شرع في التدريس بالحرم النبوي، وكان معظم تدريسه في صحيح البخاري وفي كتاب إحياء علوم الدين، وكنت أحضر تدريسه فيهما بعض الأحيان، وقرأت عليه في مترله بعض كتاب المواهب[2] وبعض الشفا وغير ذلك، وأجازني إجازة عامة[3]، وهو أول من كتب على الاستدعاء الذي كتبته هناك كتابة مطنبة حسنة، وسيأتي ذكرها في تحفة الأخلاء آخر الرحلة، وقد ناولني تذكرة له شحنها بالفوائد وأودعها كل غريبة من نظم ونثر، وأنشدني قصيدة للشيخ المقري ولمفتي الشام في حينه، وكانا قد اجتمعا في نادي بعض الأكابر، فتجاريا وتباريا، فكان ينظم هذا بيتا وهذا بيتا إلى أن كملت قصيدة نحوا من ثلاثين بيتا، ولم يعلق بذهني منها إلا بيت واحد للمقري لغرابة جناسه وهو:

[رجز]

يا جُملتي لا تدْغمي وفَككي   مُفصل المَدح لهُ من فكّك

وكلامهما في فن البلاغة طويل النجاد غمر الرداء من الأدب المستجاد.

---

(1) ورد البيتان في: إتحاف الأخلاء، ص: 92. نشر المثاني 2:42.
(2) كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني.
(3) أنظر نص الإجازة في: إتحاف الأخلاء، ص: 92 وما بعدها.

ومنهم الشيخ الذكي اللوذعي الذكي الفصيح اللسان والبنان، الثبت الجنان، الممدود العنان في كل فن، المحدود السنان في العلوم على حداثة السن، الراوية ذو الأسانيد العالية، الشيخ إبراهيم بن الشيخ خير الدين[1] رضي الله تعالى عنهما، كان أبوه، قدس الله سره، من علماء القاهرة ومدرسيها، ثم قادته سلاسل السعادة وحَدَا به حادي الرغبة في فنون العبادة إلى سكنى الحرمين الشريفين، فقدم المدينة على ما أخبرني ولده سنة سبع وعشرين وألف. أخبرني ولده، أدام الله رعايته، أنه لما قدم المدينة أنشأ قصيدة سينية في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول في أثنائها[2]:

[طويل]

أريــدُ مقامًــا عنــدكمْ لا يــشوبهُ خروجٌ لغيرِ الحج إلا مــنَ الــرمسِ

فكمل الله له مطواه[3] من ذلك وبلغه مراده، فلــم ترقــل[4] ركائبــه ولا أوصعت[5] نجائبه إلى قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار من لدن حل المدينة إلا لمكة المكينة، حتى توفي إلى رحمة الله بطيبة سنة ست وخمسين وألف، ومن أبياتــه السائرة سيرة الأمثال التي قل أن يوجد لها مثال قوله في محبة المدينة الشريفة[6]:

[طويل]

إذا لم نطبْ في طِيبــة عنــد طيّــب بــه طيبــة طابــتْ فــأين نطيــبُ

طَيَّب الله نشره وأطاب عيشه في الفردوس الأعلى وذكره، ورفع في المــلإ الأعلى قدره، وقد تطفلت عليه في ذلك فقلت:

[طويل]

بطيبــةَ طــابَ الطيبــونَ لطيبهــا بأطيــبِ طيــبِ طَيّــب لُمطّيــبِ

---

(1) الشيخ خير الدين بن أحمد بن نور الدين الرملي، الإمام مفسر فقيه، شيخ الحنفية في عصره، أقام بالقاهرة مدة قبل أن يجاور بالمدينة المنورة، توفي سنة 1056 هـ: خلاصة الأثر 2: 134. التقاط الدرر، ص: 243. نشر المثاني 2: 368.

(2) ورد البيت في: نشر المثاني 2: 36. صفوة من انتشر، ص: 228.

(3) مطواه: حاجته؛ من الطية وهي الحاجة والوطر: لسان العرب: طوي.

(4) ترقل: أرقت الناقة إرقالا: أسرعت: لسان العرب: رقل.

(5) أوصعت: يصعن الحصى غيبنه في الأرض (لسان العرب: وصع)، والإشارة هنا إلى الحركة والانتقال.

(6) ورد البيت في: نشر المثاني 2: 36. صفوة من انتشر، ص: 228.

وكانت له، رحمه الله، حشمة وافرة وحرمة ظاهرة أزمان إقامته بالمدينة، وصار معدوداً من أخيار أهلها، وتولى بها المناصب الفاخرة من إمامة وخطابة وتدريس إلى ديانة ظاهرة ومروءة باهرة حتى تُوفي، فتولى ولده الشيخ إبراهيم ما كان لأبيه من الوظائف ولم يقصر به عن ذلك حداثة سنه، بل رفع بضبعيه[1] إلى أعلى مراتب أبيه الجد والجد، فدرس وأمَّ وخَطَبَ وأفتى، وقام بذلك أتم قيام، وأعطي فصاحة في نطقه، وسلامة في ذوقه، وإنصافاً في خلقه، وسماحة في خلقه، فباشر الوظائف بعفته، وغلها وقاره على طيب شبابه وخفته، كان أول اجتماعي به أوائل سنة خمس وستين بمنزله، وقرأت عليه بعض الأربعين النووية وأجازني إجازة عامة، وكتب لي بخطه ذلك، وهو أيضا ممن كتب على الاستدعاء الذي كتبته بالمدينة، وسيأتي نص كتابته في تحفة الأخلاء[2]، وله نظم رائق ونثر فائق كتب لي بخطه قصيدتين من نظمه إحداهما في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، فلنذكرهما تبركا وإعلاما بقدر قائلهما، وإظهارا لمنزلته في علم البلاغة، وإشادة برفعة قدره في نادي أهل البراعة، وهذه أولهما عارض بها دالية مشهورة لغيره في وزنها ورويها واختار لها من المقاصد مدح النبي صلى الله عليه وسلم إذ هو أجل المقاصد وأسنى المراصد:

[بسيط]

زارتْ على غفلةٍ من غيرِ ميعادِ	غيداءُ تسحبُ تيهًا خيرَ إبرادِ
كالشمسِ إن وضحتْ والبدرِ إن لحتْ	والوردِ إن سمحتْ في ضدها نادي
والدر إن بسمتْ والزهر إن نسمتْ	والزهر إن نظمتْ عقدا لأجيادي
حوراء ما حللتْ لي نظرة حرمتْ	لكن أذابتْ بِحَرِّ الهجر أكبادِي
يا ويحَ قلبي بها كمْ ذاقَ من حُرق	حتى لقد شَيَّبتْ بالبُعدِ فؤادِ
أبكي وأمسحُ دمعي كاتِما لأسى	نيرانُهُ في الحشا آلتْ لإيقادِ
يا صاحبي إذا ما رُمتما سَكنى	عُوجا قليلا كذا عن أيْمَنِ الوادي

(1) ضبعاه: عضداه: لسان العرب: ضبع.
(2) أنظر: تحفة الأخلاء، ص: 148.

أو رُمتما شرحَ حالي في الهوى فلقد		غُدّيتُ در التصابي قبلَ ميلادي
وصادغُ البيْنِ أن يخفَى فلا عجب		صوادحُ البانِ وهنا سجوهَا بادِي
يا ضرةَ الشمسِ يا من لا شبيةَ لها		جبينك أعذبُ من عذبِ إلى صادي
فإن يكن عزَّ وصلٌ أو بخلتِ بهِ		فعللينا ولو طيفا بميعادِ
أما علمتِ بنيرانِ الخليل وذا		تَنْسيمُ وصلكِ يشفي غلةَ الصادي
يا صاحِ إن رُمتَ فعلا من جَميلك بي		وقفْ بمُنعرجِ الزوراءِ يا حادي
فثَم من صيّرتْني في الهوى مثلا		لا أرتضِي قيسَ فيها بعضَ أندادي
صاحتْ عن الوصلِ لم تسمحْ به صلبا		بلى تثنَّت على حقْف بميادِ
وأقبلتْ كالمَها تَختال في حُلل		فعطَّرَ الند منها ذلك النادِي
ولاحَ في الخد وردٌ والربا زهْر		يا حيْرتي بينَ ناء فيكَ أو ناءِ
وعندما أبصرتْ جسمي يذوبُ أسى		وزفرتي بين إصدار وإيرادِ
وإنني لم أطقْ أخطُو ولا قدما		كأنني مُرصَدٌ في حِفظ أرصَاد
قالتْ: أسرتُك يا هذا وصرتَ لنا		رِقا وما سُورنا ما إن له فادِ
فهل ترى مَخْلصا منيِ؟، فقلتُ: نعم		مَدحِي لأشرَفِ مبعُوث لإرشادِ
مُحمد سَيد الكَونينِ والثقليْن		والفريقينِ منْ قَارِ ومن بَادِ
خير الخلائقِ محمود الطرائِق		معْروف السوابقِ مَرجوا لإنجادِ
حامِي الذمارِ مغيث الجَار إن وجلتْ		قلوبٌ وقّادة من فادح أو غادِ
هادي الأنَامِ شفيع في الزحَام إذا		ضاقَ الخناقُ بأرواحِ وأجسادِ
يقولُ كل لِهولِ الخطبِ: نفسي، لا		يثنيهِ عطفٌ لآباءِ وأولاد[1]

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه): عبس 34 – 36.

فينثني قــائِلا، لا قــولَ مُفتخــر: أنا لهــا عنــدَما ضــاقَتْ بِــورادِ

فذاكَ حَقا مقامُ الحمــدِ خُــص بــه أتـــى يُـــداني بـــأزواج وأفْـــرادِ

أوصافهُ الغُر لا تُحصى وما بَرحــت عَواليــا مُرغمــاتٍ أنــفَ حُــساد

لذاكَ مــن راجَ يَرويهــا لــشهرها بين المَــلا غــير مُحتــاج لإســنادِ

مــاذا يقــولُ بليــغٌ راح يمدحُــه والله مادحهُ في قــافٍ وفي صــادِ(1)

يا سيدِي يا رسولَ الله خُــذ بيــدي يا ملجأ العاكِف المُــضطر والبَــادِ

إليك أشكُو أمُورا عِيل مُــصطبري منها ولا ملجَــأ يُرجــى لإسْــعاد

إلاكَ يــا خــيرَ مَبعــوث لأمتــهِ بَرا عَطوفــا رَؤوفــا رَاحمــا هــادِ

فأنتَ أنتَ إذا خطبٌ خشَى فغــشَى مــأمولُ راج ومقــصودٌ لقُــصادِ

فلتُنْجِ ذا العبدِ مما حــلّ يــا أملــي ولتُدركنـــهُ بإصـــلاحِ لإفـــسَادِ

فقد غدا ســائِلا بالبــاب مُنطرحــا قتيلَ ما قد جنَــى مــا إن لــه وادِ

فلا تُضع سعيهُ يا خيرَ من وخَــدت(2) لــهُ المطايَــا بتبْويــب وإسْــنادِ

فــإن للجــارِ حَقــا ثَابتــا ولــهُ فيكم مَطــامعُ لا تُحــصى بعــدّادِ

فبلغــوهُ المُرَجــى مِــن مطالبــهِ أوْروا لهُ زنــدَهُ مــن بعــدِ إخمــادِ

فقد أتَى مادحًــا يرجــو إجَازتــهُ قــضاءَ أمــرٍ مُهــم فــادحٍ عــادِ

فقد كفينا له يا خيرَ مــن قَــضيت بــسرحهِ الرحــب آمــال الوُفــادِ

فذاك أقصى مــرامِ جئــتُ أطلبــهُ بعد الــشفاعَةِ والحُــسنى وإمــدادِ

فإن يلُحْ لي المُرجى منــك ا أمَلــي فكل دَهــري كــأعراسِ وأعيَــادِ

ما صنعتِي الشعْر لكني وفــدتُ بــه أرجــو جَــوائزهُ رغمــا لحُــسادِ

---

(1) يقصد سورتي ق وص.
(2) وخدت: الوخد ضرب من سير الإبل، وهو سعة الخطو في المشي: لسان العرب: وخد.

فاقبَلْ ألوكة[1] صَب خـــائفٍ وجِـــل | مُضْنى الفـــؤادِ بـــأحزانٍ وأنكـــادِ
وجازِهِ بالذي ترضـــاهُ مـــن مِـــنح | حتى يـــصيرَ بـــأنواعِ الثنـــا شـــادِ
يهدي لكم من بناتِ الفكرِ حالِيـــة | صِينَتْ مناهلـــها عـــن وِرد مُرتـــاد
فاقتْ سِواها بـــلا مِثـــل يُعارضُـــها | إذ لبستْ من ثنـــاكُمْ خـــيرَ أبـــرادِ
وزيَّنتها صِـــفاتٌ ضِـــمنها نُظمـــت | كالعقدِ زيـــنَ بلبّـــات[2] وأجيـــادِ
فاقبَلْ شـــفاعتهَا في شـــأنِ ناظِمهـــا | حتى يلـــوحَ فريـــدا بـــين أنـــدادِ
صلى عليكَ إلهُ العرشِ ما مـــدحتْ | بلابـــلُ الـــروحِ في أفنـــانِ ميـــادِ
وآلكَ الغُر والصحْبِ الكرامِ ومـــن | يقفـــوهمُ حـــالَ إصْـــدارِ وإيـــرادِ
مع السلامِ الذي مسكُ الختـــامِ بـــه | يزهُو بزهر الربا إن فاحَ في النـــادي
ما فازَ بالوصلِ مهجُـــور فأنـــشدنَا | زارتْ على غفلةٍ من غـــيرِ ميعَـــاد

انتهت القصيدة المباركة بحمد الله.

وله أيضاً ممتدحاً بعض الولاة:

[متقارب]

تَعطـــفْ بمُـــضنى عليـــلِ المقـــالْ | ودعْ عنك هـــذا الجَفـــا والمِطـــالْ
أمـــا قـــد علمـــتَ بـــأني امـــرؤٌ | أحِب الجميـــلَ وأهـــوى الجمـــالْ
وأغـــشَى المغـــاني إذا مـــا حـــوتْ | لطيـــفَ البنـــانِ حليـــفَ الـــدلالْ
بـــسهمِ اللحـــاظ إذا مَـــر بي | أصـــابَ فـــؤاديَ دون النـــصَالْ
ووردِيّ خـــــــــــد إذا لاح لي | سما الطـــرفُ مـــني بمثـــل الـــلآلْ
ووجـــهٍ يفـــد ســـناهُ البـــدور | إذا مـــا تَبـــدى بجـــنح الليـــالْ

(1) ألوكة: رسالة: لسان العرب: لوك.
(2) اللبات: جمع لبة؛ وهي وسط الصدر والمنحر: لسان العرب: لبب.

وجـــسم حكَـــى المـــاءَ في رِقـــة عليه مـــنَ الـــشعرِ مثـــل الظـــلالْ
فـــصبح الجـــبينِ وليـــل الـــشعُورْ بهـــذا الهُـــدى وبهـــذا الـــضلالْ
وقَـــدٌّ كغُـــصنٍ ويـــا ليتـــهُ يميـــلُ بـــنفحِ الـــصبَا والـــشمالْ
فخُـــذْ مـــا صـــفَا لـــك مـــن ودهِ ولا تخـــشَ عـــارا ولا أن يُقـــالْ
فما كـــل وقـــتٍ يـــبيحُ الزمـــانْ لنا عاطِـــلٌ هـــو بالحـــسنِ حـــالْ
ولا الـــدهرُ في كـــل ســـاعاتهِ يغيـــثُ الفقـــيرَ ببـــذلِ النـــوالْ
فـــإنْ لاحَ فـــاجتنِ أنـــوارهُ فمـــا كـــل يـــوم يلـــوحُ الهِـــلالْ
ولا تمهلـــنْ لـــذةً أمكنـــتْ وبـــاكرْ صـــبوحك قبـــل الـــزوالْ
أحباتنـــــــا إن مُـــــــضناكمُ لدى سرحكم قـــد أنـــاخَ الرحـــالْ
فـــلا تمهلـــوهُ ولا تتركـــوهْ ولا تمنعـــوهُ لذيـــذَ الوصـــالْ
فما كـــل شـــوقٍ لـــديكم يُبـــث ولا كـــل عِلـــم لـــديكم يُقـــالْ
ولا كـــل سَـــهم يُجيـــد المـــضا ولا كـــل شَـــهم يُجيـــد الـــترالْ
وإني امـــرؤٌ ســـابق للعُـــلا أبُـــث النـــوالَ وأجنِـــي المعـــالْ
وأقتطـــفُ الأدبَ المُجـــتنى فـــأحيي رســـومَ ربـــوعٍ خَـــوالْ
فـــلا تعـــذِلَنّي ولا تلحِـــني ودعـــني أُنَظـــم سِـــلك الـــلآلْ
فكـــم في بقايـــا الركيـــا نَـــدى وكـــم في خَبايـــا الزوايـــا رجـــالْ
فـــأعظِمْ بمـــولى سمـــا قـــدرهُ وحـــازَ مـــن المكرمـــاتِ العَـــوالْ
ســـليلُ الأكـــابرِ عـــينُ الأفـــا ضل ذخر الأماثـــل تـــاج المـــوال
مُحكـــمُ آرائـــهِ في النـــدا ومولى الـــصفات جزيـــل النـــوالْ
إذا مـــا أتـــاهُ ذوو حاجـــةٍ أغـــاثهمُ قبـــلَ بَـــث الـــسؤالْ

ليهنكَ طيرُ السعودِ الذي بدوح معاليكَ أضحى وقالْ

وله أيضاً، أسمى الله قدره، مجاوباً عن بيتين كتبتهما له أول اجتماعي به ونسبة هذه الأبيات لسببها الركيك الردي نسبة الروض الأنيق للثرى الندي[1]:

[بسيط]

مذ لاحَ بالمغربِ المأهولِ فاضلةُ وراحَ مُرتضعا ثديَ العُلا ناشِي

عاشت معالمُ أربابِ النهى وسمتْ ولا عجيبٌ إذا عاشتْ بعياشي

فليقَ للعلم كيْ تبقى مدارسةُ مأهولة يقتفِيها القاصدُ الناشِي

وأما البيتان اللذان هما سبب هذا السحر الحلال والعذب الزلال فهما قولي[2]:

[وافر]

سبرنا العالمينَ فما رأيْنا كإبراهيمَ سيدنا الخيارِي

تخيرهُ الزمانُ كما تراهُ خيارا من خيار مِن خيارِ

وله نظم كثير[3] ونثر غزير سوى ما ذكر، وله يد طولى في الخطابة وباع طويل في الكتابة.

لطيفة:

أخبرني شيخنا إبراهيم الخياري[4]، يوم رجوعي من مكة، وقد لقيته بالحرم الشريف وسلمت عليه وقال لي: كنت رأيت قبل قدومك بيوم أو يومين رؤيا، وهي أني خرجت إلى الحرم الشريف فوجدتك جالساً فيه متربعاً وليس عليك إلا

---

(1) وردت الأبيات في: نشر المثاني 2:384.
(2) ورد البيتان في: نشر المثاني 2:384.
(3) ذكر المحبي أن للشيخ الخليلي ديوان شعر مرتب على حروف المعجم: خلاصة الأثر 2:134.
(4) أبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري الشافعي المدني، المصري الدار، فقيه حافظ، من شيوخ أبي سالم العياشي بالمدينة، توفي في حدود سنة 1083 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 140، خلاصة الأثر 1:25.

كساء صوف من هذه التي يلبسها المغاربة وأنت كهيئة المحرم، ولك جثة عظيمة قدر أربعة رجال، ولبطنك أعكان[1] كبيرة قد بدت من جوانب الكساء، وحولك نحو سبعة رجال على زي المغاربة وأنت تدرس لهم في كتاب، ففرحت لما قص علي من تلك الرؤيا لأنها رؤيا صالحة من رجل صالح في بقعة صالحة تدل على حال صالحة إن شاء الله، وهذه الرؤيا تحتمل أوجها من التعبير كلها يشير إلى مكانة في الدين عالية وأهلاها أجلاها وهو أحلاها وأغلاها، ولا يأس من روح الله فهو ولي المؤمنين من عباده.

ومنهم شيخنا قدوة الأكابر الأعلام، وشيخ مشايخ الإسلام، الباذل عمره في خدمة العلم، المتحلي بحلية الوقار والحلم، الناهل من أحلى مناهل أهل الصفا، المتمم نسكه لمجاورة المصطفى، الشيخ بدر الدين الهندي[2] رضي الله عنه. كان رضي الله عنه آية في الذكاء والفهم ووعاء من أوعية العلم، له في كل الفنون تحقيق، وفي فهم المشكلات تمكين وتدقيق، إماماً في الأصولين، بارعاً في اللسانين، ماهراً في المعقولات، باهلاً في المنقولات، سلك على طريق السادات النقشبندية سلوك خريت هاد، وخبر منه الشعاب والوهاد، قدم المدينة المشرفة سنة ثمان وستين مع أبناء الشيخ عبد الأحد، معدودا من علية أتباعهم، جادا في سلوك طريقهم وأتباعم، و لم يزل بالمدينة من لدن قدومهم قاصدا جوار المصطفى واغتناما للحج فيما بعد ذلك من السنين واغتناماً لتكثير القربات في محل مضاعفة الحسنات، وأقبل في المدينة على نشر العلم وبثه وبعث رائد التعليم لما يعلم وحثه، مع شدة إقباله على أنواع العبادة، و لم يمنعه ذلك من الإفادة والاستفادة، ما رأيت أمضى منه عزماً ولا أشد منه حزماً، ولا أكثر منه تأدباً في تردداه بالحرم الشريف وعند الزيارة يكنس مع الخدام في غالب الأيام بيده في المسجد النبوي، قرأ على الشيخ عبد الحكيم الهندي[3] وهو أكبر تلامذة الشيخ عبد الحليم الهندي، وكان يبالغ في الثناء على شيخه، ويذكر عن شيخ شيخه من قوة الفهم وغزارة العلم ونفوذ بصره في سائر العلوم ما لا مزيد عليه، وذكر أن له حاشية كبيرة على

(1) الأعكان: الأطواء في البطن من السمن: لسان العرب: عكن.

(2) بدر الدين الهندي: حافظ مشارك، انتسب إلى الطريقة النقشبندية، انتقل من الهند وجاور بالمدينة مدة: التقاط الدرر 245. نشر المثاني 2:385.

(3) الملا عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي، من علماء الهند وأعيانها، ألف مؤلفات عديدة منها حاشية على تفسير البيضاوي، وحاشية على مطول السعد، كانت وفاته سنة 1067 هـ: خلاصة الأثر 2:318. الأعلام 3:283.

البيضاوي في أربعة أسفار وأكثر فيها من التحقيقات وبالغ في التدقيقات، ولشيخنا هذا، أرضى الله عنه، اعتناء بالدراية أكثر من الرواية، ويرى الاشتغال بها قصوراً كما هو شأن علماء العجم، وله عارضة قوية في علوم المناظرة، حضرت تدريسه في شرح المنار في أصول الفقه لابن الملك، وهو كتاب نفيس في أصول الحنفية قد اعتنى المتأخرون منهم بشرحه، وفيه من نفائس العلم ودقيق البحث ورقيق الاستنباط شيء كثير، وكانت تقع بيني وبين طلبة الحنفية في مجلسه أبحاث كثيرة، وينتصر الشيخ لمذهبه معهم، و لم يكن يحضر مجلسه من المالكية ولا فضلاء الشافعية من أستعين به في نصرة المذاهب المخالفة لهم، بل ربما حضر من لا[1] يعد في العير ولا في النفير فيكون عليّ لا لي، فمن ذلك أنه جرى في بعض كتبهم ذكر التسمية في الوضوء، وعزى بعض أئمتهم القول بوجوبها لمذهب مالك، فقلت لهم: إن مشهور مذهبنا خلاف ذلك، بل لا نعلم في المذهب قولاً بوجوبها، فقام رجل من أهل المجلس مالكي فقال: إن في المذهب قولاً بوجوبها، وما أراد بذلك إلا إظهار نفسه وأنه من أهل العلم، وأنا أتحقق جلية أمره، وأنه لا يعلم في المذهب ما يقيم به فرضه من فروعه، فأعرضت عنه لذلك علما بأنه لا يفيد مراجعته لعدم من ينصفني منه.

وحضرت على الشيخ بدر الدين أيضا قراءة شرح الفناري على إيساغوجي، وكان يقرره أحسن تقرير ويبالغ في التبيين بإيضاح الأمثلة وإظهار العلل ويلقي على الحاضرين أبحاثاً نفيسة، ثم يجيب عنها بعد عجزهم ويقرر لهم من قواعد الفن ما تتضح به مشكلاته، فإذا أورد إشكالاً وعجزوا عن حله قال: هذا مما يدل على عدم اعتنائهم وتحصيلهم، أليس قد قررنا آنفاً كذا وكذا في قاعدة كذا وكذا، وبه ينحل هذا الإشكال وربما طالبهم في أول درس اليوم بإعادة درس الأمس، فيعجز أكثرهم عن ذلك، فإن أردت أن أتكلم معهم قال لي: لست إياك أعني. وحضرت تدريسه في مختصر السعد على تلخيص المفتاح، وجرى فيه مجرى الذي قبله في الإيضاح والتبيين وحسن التقرير وإظهار الحجج، و لم أر فيه أمراً أغمصه[2] عليه سوى الاقتصار في علم النحو على مقدمات منه صغيرة، وأكبر تأليف يعرفه في النحو كافية ابن الحاجب، فكان لأجل ذلك ربما يقع في البحث قصور من جهة

(1) في ط: لم.
(2) أغمصه: أعيبه: لسان العرب: غمص.

علم العربية والاقتصار على القواعد المتداولة منه، وكان يجري على لسانه كثيراً فتح همزة أن بعد حيث، وكنت أستحي أن أذكر له ذلك حتى جرى ذكره يوماً فقلت له: رجح أكثر النحاة فيها الكسر وعدوها من المواضع التي تكسر فيها إن، فأنكر ذلك وأعانه الحاضرون لقصورهم، وقالوا إن ابن مالك لم يعدها في المواضع التي تكسر فيها إن، ولكن دل على أنها مفتوحة، فقلت لهم: أليس في كلامه ما يدل على حصره مواضع الكسر، مع ذلك فلم تناولها ضابط الفتح لأن حيث لازمة الإضافة إلى الجمل، فإذا كانت في أول جملة لزم كسرها إلى غير ذلك من الحجج، فلم يلتفتوا لقولي ولم يكن بيدي إذ ذاك من كتب الفن ما أستظهر عليهم، فأعرضت عنهم.

وقد قرأت عليه أول شرح المواقف للسيد، وكان، رضي الله عنه، يحثني على الاشتغال به والمقامِ معه حتى أختمه، ولم يمكني ذلك لقرب الرحيل إلى مكة، وابتدأت عليه أيضاً شرح القطب على الشمسية، وقرأت عليه منه جملة صالحة، وكان يأمرني بتقييد تقريراته وأبحاثه، ثم أعرضها عليه فيرد عليّ من تقييدي ما لم يوافق تقريره، وعلى كل حال، فلم ألق بالبلاد المشرقية كلها أقوى منه عارضة في علوم المناظرة وتقريرها. ووقعت بينه وبين شيخنا أبي مهدي جفوة بسبب سؤال كان كتبه صاحبنا النبيه الدراك سيدي محمد بن سليمان الروداني[1]، وأوهم أنه جاء من ناحية من النواحي في مسألة منطقية، وهي شكل من القياس الشرطي يشتمل الحد الوسط منه على جزء غير تام، فسأل عن كيفية رده إلى أحد أشكال الحملي، فلما وجهوا به إلى الشيخ بدر الدين وتبجحوا بأنه صعب المرمى يقرب من المعمى، فاستسهل الأمر فيه أولاً قبل تأمله، ثم إنه توقف في الجواب برهة وطلب مراجعة كتب الفن، فشنعوا عليه استسهاله مع الاحتياج فيه إلى المراجعة والتوقف الطويل، وصادف ذلك مجيء شيخنا أبي مهدي من مكة، وكانت له عارضة قوية في علم المنطق، فطولع بالسؤال وكان قد تقدم له علم بتلك المسألة فأجاب فيها أحسن جواب، فآل الأمر إلى أن كتب في المسألة الشيخ بدر الدين وكتب الشيخ أبو مهدي، فأورث ذلك جفوة بين الشيخين، وزعم شيخنا بدر الدين أن المغاربة تمالئوا عليه، أعني السائل والمجيب، وأنهم قصدوا امتحانه، وتبرأ

(1) محمد بن محمد بن سليمان السوسي الروداني، نزيل الحرمين، إمام محدث، ولد سنة 1037 هـ، أخذ على يد جلة من علماء المغرب والمشرق، جاور بمكة والمدينة سنين عديدة، توفي سنة 1094 هـ: خلاصة الأثر 4: 205. التقاط الدرر، ص: 229.. الفكر السامي 4: 334.

الشيخ أبو مهدي من ذلك، وأخبرني أنه كتب ولا علم له بالسائل ولا بمطالبة الشيخ بدر الدين بالجواب، وقد أخبرني صاحبنا الشيخ أحمد بن التاج[1] أنه ألف في المسألة رسالة جمع فيها كلام السائل والمجيبين، وأنه ينقل كلام كل واحد يصوب ما ظهر له تصويبه ويحكم بخطإ غيره، وقد تحامل فيه على الشيخ بدر الدين تحاملاً بينا مع أنه في الفن ليس بذاك ما أظنه يصلح أن يكون كأجل تلامذته، ولكن كان يرى نفسه أعلى من الشيخ قدرا، وما ذاك إلا لقوة إنصاف الشيخ، رضي الله عنه، وقوة رغبته في العلم واستدراك فضيلة الكمال في جميع العلوم، فكان يقرأ على صاحبنا ابن التاج كتاب ابن الياسمين في علم الجبر والمقابلة[2] لمعرفته بعلم الحساب والتوقيت والتنجيم فإنه رئيس المؤقتين بالحرم الشريف، رآه يتردد إليه متعلما شمخت نفسه ورأى أنه أعلم منه، وما ذاك إلا من جهله بنفسه، فأين الثريا من يد المتناول.

وقد كنت كتبت إليه أطلب منه أن يقرئني كتاب الهداية في الحكمة للأثير، وشرح الشمسية للقطب، وأفزع إليه أن يلقنني الذكر على طريق السادات النقشبندية، فأنعم بكل ذلك، إلا أنه أشار بقراءة شرح المواقف للسيد بدل الهداية وقال: إنه مشتمل على زبدة علم الحكماء وآراء المتكلمين، وكتبت له في ضمن ذلك أبياتا وهي هذه:

[طويل]

أمولايَ بدرَ الدين إنيَ ظمآنُ	لما أنت له من عُلومك ريَّانُ
فإنكَ بحرٌ بالمعارفِ موجةُ	وما غاضَ بحْر موجه الدهر عرفانُ
فلا تمنَعنْ ذا غلةٍ من صبابَة	وقد جاءَ يَسعى نحوكم وهْو لهفانُ
وحاشَا تُرد الكف صِفرا ونحوكمْ	على طمعِ مُدت وعلمكَ طوفانُ
أنلني بفضلِ حكمةٍ في هدايَة	فليس لما أنعمتَ عنديَ كفرانُ

(1) شهاب الدين أحمد بن التاج، عالم متصوف، له كتاب الجفر الكبير، توفي بمكة عام 1081 هـ: التقاط الدرر، ص: 246.

(2) ابن الياسمين: أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحجاج الأدريني، توفي ذبيحا بمراكش سنة 601 هـ له أرجوزة في الجبر والمقابلة توجد منها نسخة محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 2427 د: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 2:147.

ومُــنَّ بإصــلاحِ الجنــانِ بمنطــق وإيقاظِ قلبٍ دائمــا هــو ســكرانُ
وتلقين ما لُقنــتمُ مــنْ شــيوخكمْ فكانَ لكــمْ بــالله علــمٌ وإيقــانُ
وإن مُــرادي في انتــسابِ إلــيكمُ يُنــالُ بــه عفــوَ الإلــهِ وغفــرانُ
فإن جُدتَ من قَصدي بما أنت أهله فذلكَ فضلٌ من عُــلاك وإحــسانُ
وإنْ كانَ منــعٌ إنــني أنــا أهلــهُ وفضلكَ منه لــيسَ يمنــعُ إنــسانُ
فلا زلتَ تُولي الفضلَ من جاء قاصِدا وتكسُو لباسَ العلمِ من هُو عريــانُ

وقد أقبل علي لما ناولتها إياه إقبالاً تاماً ولقنني الذكر على طريق السادات النقشبندية بين المغرب والعشاء في روضة الجنة بين القبر والمنبر عند باب الوفود وقال لي: إن أقمت معنا هنا بالمدينة بذلنا معك المجهود فيما قصدت من العلوم العقلية ثم بعد ذلك نبتدئ قراءة البخاري دراية لا كما يفعل مشايخكم أهل الرواية، وكان يقول لي أيام سماعنا للمعجم الصغير للطبراني على شيخنا أبي مهدي: لو حضر طلبة الهند قراءتكم هذه لاستغربوا ضحكاً منها، وأي فائدة في سماع الحديث من غير بحث عن معناه منظوما ومفهوما وما فيه من عموم وخصوص، والنظر بينه وبين معارضه وما يؤخذ منه من الأحكام، إلى غير ذلك من فوائد قراءة الحديث، ولا شك أنّ ما ذكره هو دراية الحديث وفائدته الغائية، ومع ذلك فلا ينكر فضل علم رواية الحديث وفائدته وثمرته، فإنه علم شريف قد اعتنى به قدماء الأئمة وتفننوا فيه وأكثروا فيه التآليف ونظموا ونثروا وشرحوا وحشوا، وقد قل اعتناء أهل العصر به كما هو شأن علماء العجم، فليس لهم به إلمام لا لهم عليه تعويل، متقدمهم ومتأخرهم، إلا القليل، ولذلك تقع للمفسرين منهم والفقهاء أوهام كثيرة واستدلال بأحاديث ضعيفة، بل وموضوعة إلى غير ذلك مما لا يخفى على متأمل كلامهم.

وقد فاجأني الرحيل إلى مكة ولم استوف الغرض من صحبته ولا قضيت لباناتي من القراءة عليه، وكان، رضي الله عنه، مشتغلا أيام مجاورته بالمدينة بكتابة شرح على الشفا للقاضي عياض، وأخبرني بعض أصحابنا أن بيته الذي كان يسكن فيه في الرباط المقابل للحجرة الشريفة، فيه كوة تقابل الحجرة، وكان يجلس وقت التصنيف بإزائها مكشوف الرأس مستقبل الحجرة بأدب وتواضع فكأنه

يستمد من الحجرة النبوية، وأشعر نفسه بعض ما لها من التعظيم والإجلال والإكبار، وشيخنا هذا ممن رزق السعادة في ذلك، فما رأيت في المجاورين وسكان البلد من يدانيه في ذلك فضلاً عمن يساويه. ولقد كان، رضي الله عنه، في محل تدريسه بالحرم الشريف لا يجلس إلا مستقبل الحجرة بوجهه، وإن جلس أحد بينه وبينها بحيث يحول بينه وبين رؤيتها أقامه وحوله عن يمينه أو يساره، فتكون حلقة تدريسه منفرجة من ناحية الحجرة، وفي ذلك أدب منه ومن الجالس لأنه يستدبر بذلك الحجرة الشريفة المطهرة. وما أحق شيخنا هذا إلا أن يلقب بين المتأخرين بإمام الحرمين كأبي المعالي في الأقدمين لأنه مكث فيهما زيادة على المدة التي مكثها أبو المعالي سنة، وهو يعلم ويدرس ويجيب السائلين، وقد أخبرني بعض الأصحاب أن لشيخنا هذا في بلاد الهند رئاسة عظيمة وإنافة قدر بين علمائها ورؤسائها، وله هنالك أولاد وديار ودنيا عريضة، وترك كل ذلك رغبة في جوار المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد أخبرت أنه يريد الآن الرجوع لبلاده لقضاء حق الأهل والولد، فنسأل الله تعالى أن ينفع بطول بقائه المسترشدين ويجعله من الأئمة المهتدين آمين.

ومنهم شيخنا جمال الدين الهندي النقشبندي، رضي الله عنه، وقد تقدَّم ذكره وإني لقيتُه بمكّة وتلقنت منه هناك، ولما قدمنا المدينة وألقينا عصا التسيار بها قدم بعدنا بأيام ونزل برباط الشيخ عبد القادر شرقي المسجد، وكنت آتيه هناك مراراً كثيرة وأجلس بين يديه للمراقبة أحياناً، وكان يحثني على الإكثار من مجالس المراقبة وترك الاشتغال بالعلوم الرسمية ويقول لي: إنها تشوش الفكر وتحجبه عما هو بصدده، وتحول بينه وبين ما يترقبه من تجلي أنوار الحضرة الصمدية على القلب، ويقول لي: إن هذا الأمر لم تشتغل به الآن إلا حيث أمكنك ذلك في هذا البلد قل ما يتأتى لك ذلك في غيره، بخلاف هذه العلوم الكسبية التي هي من جملة الأمر الصناعي أينما حاولت أمرها أمكنك ولو بعد الرجوع إلى بلادك، والعاقل يقدم ما يخشى فواته على غيره وإن كان مساويا له، فما بالك إذا كان المخشي فواته أشرف، وكنت أعلم صدق كلامه في ذلك وصحته، ولكن نفسي لم تطاوعني إلى ذلك، ولم تسخ بترك ما ألفته من مباحثة علماء الرسوم، وأنا أكره التكلف في الفعل والترك من دون باعث قوي ووارد وقتي يعين على الفعل والترك

ما دمت أجد لحالي موافقاً في الشرع، وأستسلم لأمر الله فيما وراء ذلك، وأسأل الله أن يحقق ذلك على الوجه الذي يرضاه العبد الفقير.

وكان شيخنا، رضي الله عنه، قد غلب عليه في آخر أمره مرض بخفقان القلب وانضغاط الروح في أوقات مخصوصة من ليل أو نهار، وكان يخيل إليه أن ذلك أثر سحر كيد له من بعض الحسدة لما يراه من تنقله في الأوقات، ويسألني عما يرقي به ذلك ويبطل عمل السحرة لاعتقاد أهل تلك البلاد أن للمغاربة في فن الدعوات وأسرار الأسماء والترقي يد طولى ليست لغيرهم، وأتعلل له بعدم المعرفة لشيء من ذلك، فيظن أن ذلك من باب إخفاء الأسرار وكتمانها على الأغيار، فكتبت له شيئاً مما أراه نافعاً لذلك، ومع ذلك فما كنت أعتقد أن ما أصابه سحر، بل غلب على ظني أن حرارة الذكر هي التي تثور في قلبه فيحصل له منها ما يحصل، فإنه كان شديد المثابرة على الذكر الخفي بالقلب والسر، فأشرت له بذلك فلم يقبل لرغبته في ذلك ووفور داعيته إليه وطول ملازمته له منذ زمان، إلا أنه، رضي الله عنه، مع شدة مجاهدته وانتفاعه بصحبة عارف زمانه غير مطالع لكتب القوم كثيراً ولا منفر عن أغوارها، فقصاراه الإقبال علي والجد والاجتهاد فيما هو بصدده، وقد نَصَّ كثير من الأئمة على أن حرارة الذكر تورث مثل ذلك، سيما الأسماء المفردة، وخصوصا الذكر على طريقتهم العلية بحبس النفس وضبط الحواس وسكون الأطراف فإن ذلك مما يقري حرارة الباطن ويثيرها على القلب فيحصل له خفقان للروح الذي سلطانه في القلب انضغاط، وقلت له: يا سيدي لو مزجت الذكر بغيره من الأذكار التي يحصل بها التسكين للروح مثل الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، وغيرها، ومثل مناجاة ابن عطاء الله[1] فقد نص الأئمة أنها تورث البسط القوي فإذا استعملها من غلب عليه القبض اعتدل حاله و لم يلتفت إلى شيء من ذلك وغلب عليه توهم ما تخَيَّله أولاً، وأنا لا أقدر على مراجعته هيبة له وإجلالاً، وقد أنحله ذلك المرض حتى صار مثل الخلال وغلبت عليه آثار الجلال مثل من رآه علم أنه من الحضرة الجلالية والله تبارك وتعالى ينفعنا بمعرفته والانتساب إليه.

(1) أنظر مناجاة ابن عطاء الله في: الحكم، ص: 163 – 169.

لطيفة:

أخبرني شيخنا جمال الدين أن شيخه الشيخ آدم النقشبندي رضي الله عنه كان لقوة حاله ربما سرى مدده في بعض العجماوات. قال: ومن ذلك أنَّ كلباً كان يتبع الشيخ في أسفاره ويلازم محله ولا يعرف أحد من أين هو، قال: وسافرنا إلى مكة وتبعنا فأخذه بعض الفقراء وربطه إلى شجرة بالبادية بعدما ذهبت الرفقة، فلم يشعروا إلا وهو معهم في مكة. قال: وغار منه بعض الفقراء وأنفوا منه، فقتله، فكانوا يرون أن ذلك الكلب حصل من الشيخ التفات إليه في بعض أحواله الغالبة عليه. قلت: لا بدع في ذلك فقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته في ترجمة سيدي يوسف العجمي أنه كان إذا خرج من الخلوة بعد انتهاء أمره فأول من وقعت عليه عيناه ظهر أثر تلك النظرة فيه واكتسب بها أحوالا نفيسة، فخرج مرة من الخلوة وقد احمرت عيناه فلم تقع عينه إلا على كلب فصار ذلك الكلب يتبعه الكلاب أينما ذهب، فتسامع الناس به وصاروا يأتونه فاشتهر أمره حتى صاروا يهدون له الأطعمة وللكلاب التي معه، فبلغ خبره إلى الشيخ فبعث من أتى به فلما وصل بين يديه قال له: اخسأ، فدارت عليه الكلاب التي كانت تتبعه فصارت تنهشه حتى قتلته[1]. قال: وكان الشيخ، رضي الله عنه، يتأسف[2] على تلك النظرة ويقول: لو وقعت على إنسان لصار عينا من عيون الله ينتفع به الخلائق، وهذا أمر لا يحيله عقل ولا يمنعه شرع، ولله في خلقه أسرار لا تحيط بها أفهام كثير من العقلاء الأكابر فضلا عن غيرهم.

لطيفة:

لما لقيت الشيخ بمكة شاورته عَمَّا أرومه من المجاورة بالمدينة فحَضَّني عليها ورَغَّبني فيها فقال لي: قد ورد في الحديث أن حب الوطن من الإيمان[3]، والمدينة هي وطن كل مؤمن لأنها وطن الإيمان، فلذلك يحبها كل مؤمن. قلت: ويشهد لما قال، رضي الله عنه، من أنها وطن الإيمان قوله عليه السلام: إن الإيمان ليأرز إلى

(1) الطبقات الكبرى، ص: 375.
(2) في ط: يأسف.
(3) كشف الخفاء 413:1.

المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها[1]، فإذا كانت وطن الإيمان وهو أشرف أوصاف المؤمن، بل هو في الحقيقة كليته التي بها صار معتبراً وجوده، ولولا الإيمان لكان العدم المحض أفضل منه، فإذا ثبت هذا ثبت أن وطن الإيمان هو وطن المؤمن، وقد ثبت في الحديث المتقدم أن المدينة وطن الإيمان، وفي هذا إشارة حسنة إلى أدب حسن وهو أنه لا ينبغي لساكن المدينة بل ولو لمن بات بها ليلة، بل أقام بها لحظة من المؤمنين أن يرى في حال إقامته بها أنه غريب، بل يرى نفسه كأنه في ذلك الوقت استقر بوطنه الذي هو أحب أوطانه بين أهله وأقربه إذ المدينة وطنه الحقيقي كما تقدم، بل لا ينبغي أن لا يطلق على أحد ممن في المدينة من أهل الآفاق وأنه غريب أو مجاور تأدّباً لما يشعر به ذلك من غربته في وطن الإيمان الذي هو روحه وحقيقته، ولا يكون غريبا في وطن الإيمان إلا من لا عبرة بإيمانه، فأي صفة ذم أقبح من وصف المؤمن بكونه دخيلاً في الإيمان غريبا فيه، فلتتأمل هذه النكتة فإنها حسنة عند من له ذوق سليم وعرف الإشارة و لم يتقيد فهمه بصريح العبارة. نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن كانت المدينة وطنه حسا ومعنى، ونال من جميع الآفات الدينية والدنيوية سلامة وأمنا، آمين[2].

---

(1) صحيح البخاري 663:2.

(2) ورد في آخر الجزء الأول من النسخة خ: "انتهى السفر الأول من رحلة الفاضل أبي سالم سيدي عبد الله بن محمد بن أبي بكر، تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، على يد الحسن بن محمد بن احمد، تاب الله له وغفر زلته، إنه سميع مجيب، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه".
وفي ط جاء ما نصه: " انتهى النصف المبارك بحمد الله وعونه".

محتويات المجلد الأول

المجلد الثاني

الرحلة العياشية

1661 - 1663م



عبد الله بن محمد العياشي

موسوعة رحلات الحج

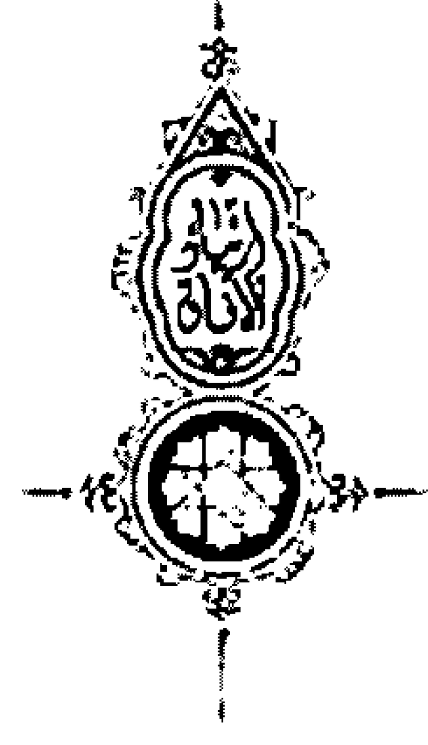
حقَّقها وقدَّم لها:

د. سعيد الفاضلي   د. سليمان القرشي



الرّحلة العياشية

1661–1663م



الرِّحلة العياشيَّة – المجلد الأول
أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي/مؤلف، [حققّها وقدّم لها: د. سعيد الفاضلي ود. سليمان القرشي]
الطبعة الأولى، 2006
حقوق الطبع محفوظة



دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6322079، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت
الصف الضوئي: القرية الإلكترونية/أبو ظبي
الخطوط: محمد مندي

الرّحلة العياشيّة

1661 – 1663م

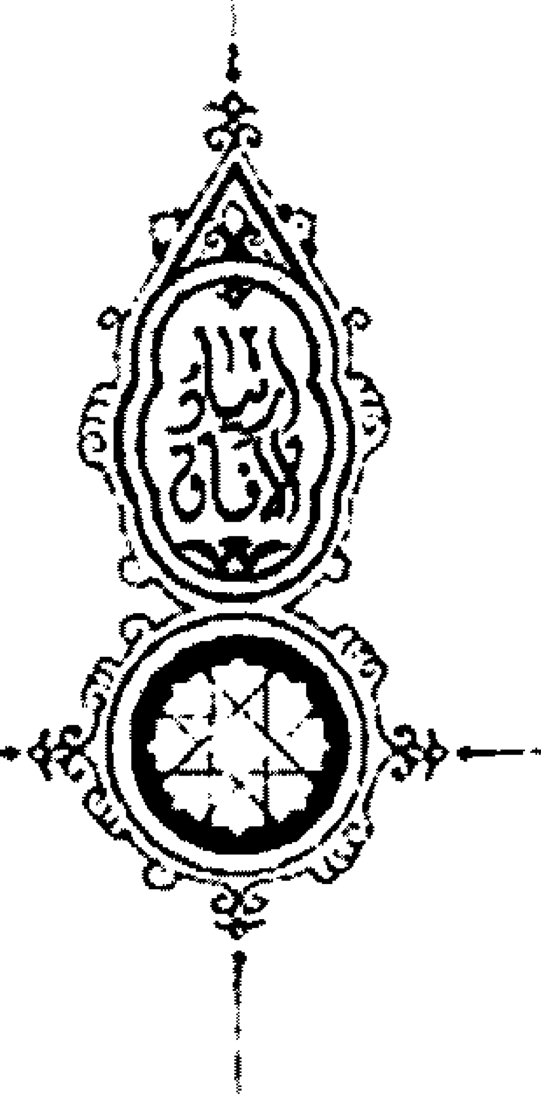
أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي

المجلد الثاني

حققّها وقدّم لها:

د. سعيد الفاضلي و د. سليمان القرشي

الكتاب الحائز على
جائزة ابن بطوطة
للأدب الجغرافي 2005





تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبروهُ في أقاليمه، قريبة وبعيدة، لاسيما في القرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرق، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغاتِ الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري، لتجد نفسها تملك، بدورها، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال

نحو الآخر، بحثاً واستكشافاً، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته، ونمط عيشه وأوضاعه، ضاربة بذلك الأمثال للناس، ولينبعث في المجتمعات العربية، وللمرة الأولى، صراع فكري حاد تُستَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته، وبين معادٍ للغرب، رافض له، ومستعدٍّ لمقاتلته.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإنَّ أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناسِ والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه

مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة التي قد تبلغُ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاق، واستعداده للمغامرة من باب نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

محمد أحمد السويدي

[الجزء الثاني من رحلة الشيخ

الإمام العلامة القدوة الهمام العارف

الكبير والمحقق الشهير أبي سالم

سيدي عبد الله العياشي

رضي الله عنه

ونفعنا به آمين][1]

(1) ما بين معقوفتين زيادة من ط.

باسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً[1]

ومنهم صاحبنا ذو القدر المنيف والخلق الظريف والجاه الخطير والحسب الأثير، رئيس المؤقتين بالحرم الشريف، الشيخ شهاب الدين أحمد بن التاج[2]، (رحمه الله)[3]، كان ممن نشأ في حجر النباهة، ورضع ثدي الوجاهة من لدن صباه إلى كبره، وهو مع ذلك مطوي على غره، له عقل ذكي وإدراك جلي، أخذ العلم عن أبيه وعَمَّن أدركه من مشايخ الحرمين، وتمهر في علم الحساب والتوقيت والتنجيم، وانفرد في تلك الأقطار بمعرفة علم السيميا والزيارج والحدثان بطرق متعددة، فنال بذلك وجاهة عند الأمراء وأرباب المناصب، رأيت عنده كتاب الجفر الكبير الذي قل أن يوجد في الدنيا حتى قال بعضهم: إنه من الأشياء التي وضعت لها الأسامي ولم توجد مسمَّياتها، وهو سِفْرٌ كبير نحو الأربعين كُرَّاساً في القالب الكبير، مرتب على حروف المعجم، وهو كله حروف مقطعة في مربعات صغار، كل مربعة فيها أربعة أحرف، وصفة ذلك[4] أن في كل حرف من حروف المعجم ثمانية وعشرين صفحة، أربعة عشر ورقة، في كل صفحة جدول من ثمانية وعشرين في مثلها، فيصير في الجدول الذي في الصفحة الواحدة ثمانية وعشرون سطراً، في كل سطر ثمانية وعشرون بيتاً، أعني بالبيت المربعة الصغيرة، وفي كل بيت أربعة أحرف من حروف المعجم بالوضع العربي، ولا توجد الحروف التي في بيت واحد مُكَرَّرة مع بيت آخر من أول الكتاب إلى آخره، مع أن في كل سطر منه حروف المعجم كلها لا يخلو منها بتمامها سطر، ووجه ذلك أن حرف الألف مثلا فيه ثمانية وعشرون صفحة عدد حروف المعجم، وأول كل سطر من صفحات حرف الألف إلى آخره مبتدأ بالألف، ثم يعتبر معه حروف المعجم كل

---

(1) ساقط من ط.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) زيادة من ط.

(4) أنظر: كتاب الجفر الجامع والنور اللامع، ص: 5.

في سطر إلى آخر الصفحة، وضابط ذلك، كما قال بعضهم، أنَّ حرف الترجمة يحفظ لك أول الحروف، يعني أول الحروف في كل بيت من كل سطر من أسطر الكتاب كلها، والصفحة تحفظ لك ثاني الحروف، يعني أيضا الحرف الثاني من كل بيت من كل سطر من كل صفحة، والسطر يحفظ ثالثها كذلك، والبيت يحفظ رابعها كذلك، فأول البيوت كلها من الكتاب فيه أربعة ألفات هكذا: اااا، ووجهه على الضابط الأول أن الترجمة ترجمة الألف، فجعلنا الألف أول الحروف والصفحة أول الصفحات، فجعلنا الألف أيضاً ثاني الحروف، والسطر أول السطور، والبيت أول البيوت، فكانت الحروف كلها ألفات، ولا يوجد بيت فيه أربع ألفات سواه إلى آخر الكتاب، ثم البيت الثاني من السطر الأول فيه ثلاث ألفات وباء هكذا: ااab، لأن الترجمة لأول الحروف، وهو الألف، وهذه الصفحة الأولى والسطر أول السطور، فكانت ثلاث ألفات، وأما البيت، وهي الحافظة للحرف الرابع، فهي ثانية البيوت، فكان الحرف الرابع باء، والبيت الثالث ثلاث ألفات وجيم، ثم كذلك إلى آخر السطر متكون فيه ثلاث ألفات وياء آخر الحروف، وفي أول السطر الثاني ألفان وباء وألف هكذا: اا ب ا، ووجهه على الضابط الأول أن حرف الترجمة أول الحروف، والصفحة أيضاً أولى الصفحات، فيوضع ألفان، السطر ثاني السطور، فيوضع باء، والبيت أول بيت من السطر فيوضع ألف، وفي البيت الثاني من السطر الثاني ألفان وباءان، لأن الترجمة لأول الحروف والصفحة أولى والسطر ثان، والبيت ثان، ثم كذلك، فإذا فهمت ذلك في الصفحة الأولى من حرف الألف سهل عليك اعتبار ذلك في سائر الحروف، ومثال ذلك أيضاً السطر الثالث من الصفحة الرابعة من حرف الكاف تضع في البيت الأول منه كاف ثم دال ثم جيم ثم ألف هكذا: ك د ج ا، لأن الترجمة للكاف، والصفحة الرابعة للدال، والسطر الثالث للجيم، والبيت أول البيوت من السطر الألف، وفي البيت الذي يليه كاف ودال وجيم وباء، ثم كذلك إلى آخر السطر وآخر حروف المعجم، ومثال ذلك أيضا الصفحة السادسة من حرف الألف أول بيت من أول سطر منها فيه ألف حرف الترجمة، ثم واو حرف الصفحة، ثم ألفان حرف السطر، والبيت السادس من السطر الأول،يعني من الصفحة السادسة من حرف الألف فيه ألف الترجمة، ثم واو الصفحة ثم ألف السطر، ثم واو البيت، وإنما نوعت الأمثلة قصدا للبيان، وإلا فالضابط الأول كاف في وضع جميع الكتاب كله لمن تأمل وفهم.

وكان صاحب الترجمة يتبجح كثيرا باستخراج كتاب الجفر، والجامعة[1] من هذا الضابط المتقدم، مع أنه لا كبير مؤنة فيه، بعد العلم بالضابط المتقدم، سيما من تقدمت له رؤيته، وكنت سألته هل رأيته على هذا الوضع قبل هذا، فأخبرني أنه رآه مرة أخرى في خزانة سيدي صبغة الله الحسيني[2] صاحب الأسرار الإلهية، وهي التي في شامي المسجد النبوي بيد شيخنا صفي الدين القُشاشي رضي الله عنه، ولما لقيت صاحب الترجمة وأظهر البشاشة والمودة، ورحب وأنس، وكشف لي عن خبيئة أمره، وأبدى لي ما عنده وأبديت له ما عندي، وصافاني وده كما صافيته، ولما طلبت منه إيضاح المعمى من هذه الأسرار المودعة في الموضوعات الحرفية والأوضاع الجفرية بطريق الزيارج أو غيرها من الطرق، فأنعم بذلك وسهل الأمر فيه، وواعدني وقتاً يتيسَّر فيه إفراغ البال لذلك، ولم يزل يسومني، وصادف ذلك مني عدم وفور رغبة في ذلك الأمر، إنما هو تشوف نفس وتوقانها للشعور بما لم تعلم من بعض جهاته، فلم يتفق ذلك لي ولا له إلا في الليلة التي عزمت على السفر صبيحتها من المدينة المشرفة إلى مكة، وهي ليلة الثلاثاء سابع عشر من شعبان من سنة ثلاث وسبعين، فاستدعاني إلى منزله بعد صلاة العشاء، فعندما استقر بنا المجلس ويسر ما يحتاج إليه من آلة ذلك، قال لي[3]: افرض سؤالك في أي حاجة شئت حتى أوضح لك كيفية استخراجه من طريقة الجامعة التي هي الجفر الكبير، وكنت إذ ذاك كثير التمني لزيارة المسجد الأقصى بعد الانفصال عن الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً، فجعلت ذلك موضوع السؤال، فأمرني برسم جدول من أحد عشر في أربعة ويسمى جدول التركيب، ثم تعمير أوائل بيوته بحرف الطالع في وقت السؤال، ثم بحروف قطب الأقاويل الشفرية، وهو سؤال عظيم الخلق، ثم بحروف السؤال بعد الاقتصار منه على ما يبلغ أربعاً وأربعين، وستأتي صورة ذلك، ثم بَيَّن لي كيفية اللفظ من جدول التركيب بإسقاط الدرج والمنازل والبروج والأفلاك والطبائع حتى تخرج الأدوار الأربعة، وأخذت في ذلك فلم أفرغ من استخراج الأدوار الأربعة التي هي أصول تركيب البيت الأول المسمى بالتركيب الطردي حتى مضى هزيع من الليل، وأثَّرَ السهرُ فيَّ وفيه، وظهر الملل من كلا الجانبين، وقال لي: هذا نصف العمل، وهو أصعبه، وما بعده يتوَقَّف على

---

[1] في ط: الجامع.

[2] تقدمت ترجمته.

[3] في ط: فقال.

أحكام هذا وإتقانه، وقد بلغ بنا الحال إلى ما ترى من الكلل والسآمة، وأنت عازم على السفر غداً، فأنا أقيد لك ما تتقن به هذا العمل فراجعه أيام غيبتك بمكة، وكَرِّر مطالعة جدول التركيب حتى يرتسم في خيالك كيفية الوضع واللفظ من دون غلط، ويسهل عليك استخراج الأدوار الأربعة لكل أصل من أصول التراكيب الأربعة، وبعد رجوعك إن شاء الله أبين لك ما بقي، وصادف ذلك مني بعض ملل وكلل، فقبلت ما ذكر، ولا أدري هل ذلك منه ضن بإتمام الفائدة كما هو شأن أرباب هذه العلوم، أو الوجه ما ذكر، إلا أن الراجح عندي هو الأول لأنه لما كتب ما وعد به اقتصر فيه على القدر الذي شافهني به، وما ضره لو استوعب الكلام على المسألة كتابة لما تعذر مشافهة، إلا أني توسمت من كثرة تحريضه لي على إخفاء ذلك ولا أذاكر به أحدا ما دمت بأرض الحجاز أنه يخاف إن كشف الغطاء عن المسألة إلي ربما أبديتها لبعض أصحابنا ممن كان يلتمس منه ذلك ويمتنع عليه، فرأى إخفاء ذلك إلى قرب الرحيل أدنى لحصول المراد من غير ضرر يتوقع، ولو وقع ذلك لوقع كما توهمه، لأني كنت سليم الصدر مجبولاً على عدم إخفاء شيء مما أرى فيه فائدة ممن تحققت محبته ومودته من الأخلاء، وكان لي خليل مكي ممن يرغب في ذلك، واستحكمت الأخوة بيني وبينه حتى أبديت له عُجَري وبُجَري[1]، وأبدى لي من نفسه مثل ذلك، فأطلعته على هذا القدر الذي كتبه لي وعلى غيره مما عندي من المخبآت، فوقع ما استشعره صاحب الترجمة، ولم تنجع ولم تنفع وصيته لي، ولما منَّ الله بالعود من مكة المشرفة إلى المدينة بعد أداء النسك، تزاحمت الأشغال، وتراكمت لفراق الأحبة الأهوال، فلم أتفرغ للقائه إلا كخلسة طائر أو نهبة غائر، ووجدته قد كتب وجها آخر في رسالة له كتبها لوزير الشاه الهندي سوى الوجه الذي ذكر لي، وزعم أنه أتم تحريرا من الوجه الذي كتب لي، ومكنني من الرسالة برمتها، فلم أتفرغ لاستيعاب مطالعتها واستخراج مضمونها، فاستنسخت منها بعض شيء مما ظننت أنه يحصل المراد به، وبعد مفارقته راجعت ذلك فلم يتحصل لي منه طائل لعدم مشافهتي له بالاستفسار عن أماكن مغلقة وأسامي مبهمة، مع كثرة الجمع والطرح والتقسيم الحسابي، وذلك مما تشمئز نفسي من الكثير منه وتنفر منه كل النفور، حتى أني ربما أتبلد في بعض الأحيان عن إدراك ما هو كالضروري منه، ويقع لي فيه الغلط كثيرا، وقد

---

[1] عجري وبجري: همومي وأحزاني، وقيل: ما أبدي وما أخفي: لسان العرب: عجر.

انضاف إلى ذلك عدم وفور الرغبة وصدق الهمة الذي هو أعظم الأصول الموصلة إلى المقصود، والسبب في ذلك وهو العائق لي عن تحصيل كثير من العلـــوم أن لي نفسا تواقة ذواقة تتهالك على الوصول إلى ما حجب عنها من علوم وغيرها، ولا تبالي بما لاقت في جنب ذلك من أضرار وما ركبت من أخطار، فإذا استشعرت ذلك من بعض وجوهه، وأدركت هواديه، بدا الفتور في الداعيـــة، والخمـــود في الذائقة، والجمود في القائلة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن يحصل الانصراف عنـــه بالكلية، وذلك غاية الخذلان ونهاية الحرمان، نسأل الله تعالى أن ينقذنا من ذلـــك ويقوي هممنا فيما يوصل إلى مرضاته، إلا أن ذلك، والحمد لله، وإن كان يعتريني في كل مطلوب وعند كل محجوب، إنما يغلب علي ويسرع إلي عند الإشـــراف على الغاية، فإن كانت الثمرة مقطوعا بنفعها مضرا بتركها، ووضعها مشروطا في الكمال الإنساني، احتناؤها مطلوب في الشريعة ولو على الندب اقتناؤها، فربمـــا جاهدت نفسي وغالبتها على طبعها وسبغتها الأمرين على الولوج في مـــضايقه، وجشمتها مكابدة الاشتغال بسوابقه ولواحقه، مستعينا بالله في تحصيل القدر الذي أنا به مطالب، ومغالب حولي وقوتي بحوله وقوته الذي لا يغالـــب، وإن كانـــت الثمرة قليلة الفائدة نذرة العائدة، ضررها هو الأكثر من طبعها، وإثمها أكثر مـــن نفعها، انصرفت نفسي عنه بالكلية فجعلته من شواغلها الأمسية، كهذا العلم فإني نظرت في أوله ومباديه حتى خيل لي أني لو وجهت إليه كليتي وشغلت به طويتي لأدركت بعضه، ففكرت في ثمره، فلم أجد له جدوى دنيا وأخرى. أما الأخرى، فظاهر بلا تأمل، سيما مع توافر نصوص الأئمة على ذمه، وأما في الدنيا، فغايـــة أمره، بعد تحقيقه وصدقه، الاطلاع على أمور مستقبلة في نفس المطلع أو غيره، أما ما كان في غيره فليس فيه إلا مجرد التمتع بسماع الأخبار وحكاية أحوال لغـــيره مستقبلها كالماضي في التلذذ بسماعه، وأما في نفسه فلا يخلو من كون ما يطلـــع عليه خيرا، وما أقله، أو شَرّاً وهو الكثير، فإن كان خيرا وهو النادر، فهو إن قدر واصل إليه على كل حال علمه، أو لم يعلمه ويفوته بالعلم به قبل وقوعه الفرح به عند وقوعه واستشعار نعمة الله عليه المؤذن بشكر تلك النعمة المؤذن بـــدوامها، وفوات ذلك داع إلى زوال النعمة وعدم البركة فيها، وهو ضرر عظيم، وإن كان شرا، وهو الكثير فإن قدر فلا يغني عنه علمه به قبل وقوعه، بل يستعجل بـــذلك هَمّاً حاضراً لا يغني ولا يجدي، وهو لا يتمالك عن الاحتيال في دفعه، وهـــو لا يندفع، فما أعظم عناه وأفظع مصيبته، وإن كان ممن يقدر فأعظم حسره وأعظم

مع ما في ذلك من التجسس والتطلع على الغيب، وصاحبه في الغالب سيئ العاقبة تسرع إليه المصائب أكثر من غيره، والله يرزقنا حسن التفويض والتسليم لتــدبيره واختياره آمين.

وقد أخبرني صاحب الترجمة أنه، مع تحققه بهذا العلم، ما استعمله قــط في استطلاع أمر من أمور نفسه ولا في استعلام حال من أحواله المستقبلة الخاصة به للنكتة التي قدمنا، وهو أمر حسن. وأخبرني أيضاً أنه ما علمه أحد إلا بعد أخــذ الميثاق عليه أنه لا يسكن في القطر الذي هو فيه خشية إظهاره فيتضرر من قبــل الولاة بالانتساب إليه مع ما في ذلك أيضا من حب النفس للتفرد بالأمور التي هي كمال، أو تظن أنها كمال. وأخبرني أيضا عن رجل ممن تعلم منه ذلك أنه ما دخل بلدا من البلاد إلا استطلع علم أحواله فيها فيجدها على خلاف ما يريد، فيفــر منها، ولم يزل شريداً في البلد طريداً بلا جريمة إلى أن وصل بلاد الواحات[1] من أطراف السودان مما يلي صعيد مصر، فتولى فيها ولاية، فكانت عاقبة أمره أن قتل شر قتلة، وسلب نعمته، وفي مثل هذا العلم ينبغي أن ينشد:

[وافر]

إذا ألقــاكَ علمُــك[2] في مَهــاو فليتــكَ ثم ليتــك مــا علِمتــا

البيت لأبي إسحاق الإلبيري[3] في تائيته المشهورة.

فإن قيل: قد لوحت ثم صرحت بذم هذا العلم مع أن كبار الأئمة، كالشيخ محي الدين والشيخ شهاب الدين البوني وغيرهما من كبراء العارفين، قد بالغوا في مدحه، وقالوا: إنه من الأسرار التي اختص بها الأنبياء عليهم السلام وورثهم مــن العارفين الكُمل، ونسبوه إلى جعفر الصادق، وأنه ورثه من آبائه إلى الإمام علي بن أبي طالب، وأن لهم فيه تأليفا، وأن الإمام كتبه على مسك جمل وبدمعي الجفن، حتى بالغ الشيخ محي الدين فيه إلى أن قال: إن لآدم عليه السلام فيه ثم ولده شئت وبجملة من الأنبياء من أولادهم حسبما يذكر بعد هذا في كلام الشيخ محي الدين، وقد ذكر السيد الجرجاني في شرح المواقف في مقصد تعلق العلم بمعلومين عنــد

---

(1) الواحات: قال صاحب معجم البلدان: واحدها واح على غير قياس لا أعرف معناها وما أظنها إلا قبطيــة وهي ثلاث كور في غربي مصر ثم غربي الصعيد: معجم البلدان: واحات.

(2) في الديوان: فهمك.

(3) ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص: 27.

ذكر الجفر والجماعة أنهما كتابان للإمام علي بن أبي طالب يستخرج منهما أحوال الحوادث إلى آخر الدهر برموز وحروف مقطعة.

فأقول: لسنا، والحمد لله ممن يرتاب في كلام العارفين، ولا يتوقف في صدقه، وهب أنه كما ذكروا، فهو من العلوم التي يجب كتمانها ولا ينبغي التصدي لمعرفتها بطريق من الطرق المكتسبة بالأدلة الرسمية لأنها من علوم الكشف، وهي خاصة لخاص كسائر علومهم رضي الله عنهم الخاصة بهم من حيث كونها كذلك هي مضرة بعامة الخلق ممن لم يبلغ مبلغهم وتعاطيها من غير طريقها الوهبي، وقبل بلوغ رتبة أهلها نقص في حق المتعاطي وذم له لتعاطيه ما ليس هو من أهله، وهلاكه فيه أقرب من نجاته، وأما العارفون فقد تولى الحق تصديقهم وتأييدهم فيما ألهموا الدخول فيه من العلوم والأحوال، فلا تجري أحوالهم فيه إلا على استقامة، ولا يتصرفون إلا على هوى نفس، وغاية هذا العلم، وهو استطلاع الأمور المستقبلة، يحصل لكثير منهم في أوائل[1] المقامات بكشف إلهي وبصيرة نورانية من غير استناد إلى طالع وغارب، ولا عد ولا حسبان، ولا لقط ولا إسقاط، بل بطالع التوب وغارب الحوب، وعد الأنفاس وحساب الأنفس، ولقط المتوبات من واجبات ومدوبات بإسقاط المحرمات ثم بإسقاط المكروهات ثم بإسقاط خلاف الأولى، ثم بإسقاط المباحات، ثم بإسقاط الغفلات عن الله وبه تتم الأدوار وتتجلى الأنوار، وتتكشف الأستار عن غيوب الأسرار، فيتيهون في حضرة الأحدية التي ليس فيها ماض ولا مستقبل، ولا يعتنى فيها بغيرها ولا يهتبل، فربما يتجلّى لأحدهم في هذه الحضرة أحوال العالم بأسره خيره وشره، حلوه ومره، ومع ذلك فلا يلتفتون إليه ولا يبالون ما له[2]، وربما كان في ذلك نفع لهم في أنفسهم، أو لأحد مريديهم كما هو مشروح في كتبهم، فإن العارف مثلاً إذا اطلع من أحوال نفسه على أمر مستقبل هو خير فإنه يتحقق وقوعه، ويكون من الآن فرحاً بنعمة الله عليه به قائما بشكر الله عليه، معمرا وقته بالشكر عليه من الآن إلى زمن وقوعه، رائيا أن ذلك من الله لا من كسبه، وإن كان معلقاً وناشئاً عنه في الظاهر لعلمه به قبل حصول كسبه، فيترتب عليه زيادة الشكر لوجود الشكر قبل وجود الفعل بأزمان، وشهود المنة والتبري من الحول والقوة بخلاف غير العارف إذا اطلع

---

(1) في ط: أول.
(2) في ط: باله.

على مستقبل من الخير فلا تحصل له هذه الثمرة، بل ربما حصلت أضدادها، وهو الغالب، سيما إن كان ذلك مما ينسب عن كسبه فلا يتمالك أن يبادر إلى ذلك جادًّا فيه ظانًّا أنه إنما حصل منه ولا يهتدي للشكر عليه قبل وقوعه، ولا يأتي زمان وقوعه حتى تكون لذته وحلاوته قد ذهبت من قبله وخلقت جدته، فلا يرى لنعمة الله عليه عند حصولها كبير موقع في قلبه، فيسلب بركتها ويحرم شكرها إلى غير ذلك من المضار التي تشاهدها بصيرة العارف فيحتميها، ويعشو عنها بصر العامي فيعتميها. وإن كان الأمر المطلع عليه شرا فإن العارف يجتهد في الدعاء إلى الله واللجإ إليه أن يثيبه عند وروده، ويؤيده بالعصمة فيه من السخط لقدره، ويوطن نفسه على لقائه بالصبر الحسن والرضا الجميل، فلا يأتي وقته إلا وقد وطن نفسه بالاستعداد له واستجار منه باللجإ إلى الله فلا يضره مع ما يحصل له من ثواب الصبر والرضا به من قبل وقوعه نظير ما تقدم في الشكر، والعامي غافل عن هذا كله، بل ربما يقع منه ضد ذلك وهو الغالب كما لا يخفى، فيستعجل السخط والتألم والتبرم به قبل وقوعه، فيكون ذلك زيادة في عقوبته، والله يلهمنا رشدنا آمين.

وهذا نص ما كتبه لي صاحب الترجمة حسبما تقدمت إشارة إليه: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد، فقاعدة تعمير جدول التركيب: ارسم جدولاً طوله أربعة وعرضه أحد عشر بيتا، ثم اعرف حرف الطالع بأن تأخذ الطالع وقت سؤالك ببلدك واعرف حرفه، ثم عمر أوائل بيوته مبتدئا بحرف الطالع تجعله في أولها، وثانيه في ثانيها، وهلم إلى آخر البيوت وإلى الحرف الذي قبل ما ابتدأت به، ثم ارسم ثانيا حروف القطب بجعلك أوله في البيت الأول بعد حرف الطالع، وثانيه بعد حرف الطالع في البيت الثاني وهلم إلى آخر البيوت وآخر القطب، واثبت التنوين نونا، والمشدد حرفين، ثم ارسم ثالثا حروف السؤال بجعلك أول حرف منه في البيت الأول ثالث الحرفين، وثانيه في البيت الثاني بعدهما، وهلم إلى آخر البيوت وآخر السؤال[1]. وبه يتم التعمير. ثم اعلم أن المستخرج منه أربعة أبيات بأربع طرق، الأول طريق التركيب الطردي، ووجهه أن تأخذ الحرف الثلاثين من حروف الجدول مبتدئا من أوله وترسمه في جانب، ثم الثامن والعشرين منه وتضعه

[1] ساقط من ط.

بعده، ثم الثاني عشر منه وترسمه بعدها، ثم تاسعه كذلك، ثم سابعه كذلك، وبه يتم الدور الأول، ثم سابعه كذلك بعد فصل، ثم تاسعه كذلك بلا فصل، ثم ثاني عشره كذلك، ثم ثامن عشريه كذلك، ثم ثلاثيه كذلك، وبه يتم الدور الثاني من الأول، ثم رابعه بعد الحرف العاشر فيكون الملفوظ معك إحدى عشرة[1] حرفا، وبه تتم حروف الدور الأول، ثم خذ سابع ما انتهيت إليه فهو مفتاح الدور الثاني، ثم تاسعه ثم ثاني عشريه، ثم ثامن عشريه ثم ثلاثيه، وبه يتم الأول من الثاني، ثم ثلاثيه، ثم ثامن عشريه، ثم ثاني عشره، ثم تاسعه، ثم سابعه، وبه يتم الدور الثاني من الثاني، ثم رابعه، وبه تتم حروف الدور الثاني، وحروفه إحدى عشرة حرفا، ثم استخرج الدور الثالث كالأول والرابع كالثاني، وبهما تتم الأدوار الأربعة وتسمى أصول التركيب الطردي، والعمل في استخراج أدوار التركيب العكسي كالعمل فيه، إلا أنك تبدأ من آخر حروف الجدول. وطريق استخراج أدوار نصف التركيب الطردي كهذا أيضا إلا أنك تبدأ من أول الجدول الثالث بالعد، فإذا انتهيت إلى آخر الرابع بدأت من أول الأول إلى أول الثالث وهلم جرا. واستخراج أدوار نصف التركيب العكسي كذلك، غير أنك تبدأ بالعد من آخر حروف الجدول الثاني إلى أوله، ثم من آخر الأول إلى أوله، ثم من آخر الرابع إلى أوله، ثم من آخر الثالث إلى أوله، ثم من آخر الثاني وهلم جرا، وبه تتم أصول حروف تركيب الأدوار الأربعة، وفي كل أصل أربعة أدوار. ثم اعلم أن العد بالثلثين يسمى إسقاط الدرج، وبثمانية وعشرين يسمى إسقاط المنازل، وباثني عشر يسمى إسقاط البروج، وبتسعة يسمى إسقاط الأفلاك، وبسبعة يسمى إسقاط الكواكب، وبأربعة يسمى إسقاط الطبائع، ولهذا لا يستعمل في كل دور إلا مرة واحدة وغيره مرتين لأن المقصود منه تعديل الأدوار بالطبائع، والمقصود من غيره قوام الماهية، فلذا كرر غيره على نسبة المساواة بلا تفصيل، وسيأتي الكلام، إن شاء الله تعالى، على بقية تركيب حروف الأدوار، وإن بقاعدة الكتاب الجفري، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

مثال ذلك عبد الله العياشي يسأل أيحصل له وصول إلى المسجد الأقصى، وليحاول حتى تكون حروف السؤال أربعا وأربعين هكذا: وكان الطالع وقت السؤال بالمدينة المشرفة العقرب، وهذا صورة الجدول:

---

[1] كذا في خ و ط.

حروف الطالع حروف القطب حروف السؤال الجملة ثلثها نـــصفها ربعها

ع س ع	ق و ب	ر ا د	ب ل ا	ق ز ل	و ع ل	س ط ه	ج ى ا	د م ل	ى ا ع	دل ي
ل غ ا	و ل ش	ح و ى	و خ ي	ت ز	ح ت ا	م ف ل	ل ص ا	ث زى	واح	ردص
خ ز ل	و غ ل	ر ز ه	ا ا و	س ي	ر ب و	ط ش ل	ا ى ا	رزل	ا ض ى	س ب ا
د ط ل	س ه م	ز ا س	ب ل	ل ج د	ت د ا	م م ل	ى ث ا	رث ق	ال ص	زاى

أصل تركيب الأول أربعة أدوار تسمى التركيب الطردي، والعمل فيه مـــا تقدم: الدور الأول، الدور الثاني، الدور الثالث، الدور الرابع.

ع ا ز ا ر ا ل ى ا س د ل ح س ز ث ر ت ا ش ت ث ر ج ى ا ل س ب و ح ع ق ن س د ن د ث ط ح و ر ذ ر ن ع.

أصول تركيب البيت الثاني أربعة أدوار يسمى التركيب العكسي، أصـــول تركيب البيت الثالث أربعة أدوار، ويسمى نصف التركيب الطـــردي. أصـــول تركيب البيت الرابع أربعة أدوار ويسمى نصف التركيب العكسي. وهذا آخر ما كتب لي وكتبت بين يديه وشافهني به، وهو كما ترى ناقص غير تام الفائدة، وإنما كتبته رجاء أن يطلع راغب في هذا العلم على ما يتم به العمل في محل آخر فـــإن المؤلفين فيه ربما ذكر أحدهم ما حذفه الآخر كما رأيت ذلـــك في عـــدة مـــن رسائلهم، فقد يترك أحدهم شيئاً مما يتوقّف عليه العمل قصد الإخفاء ثم يـــذكره آخر ويحذف غيره، فربما استنبط الحاذق اللبيب مما ذكره كل واحد ما تـــتم بـــه الفائدة.

ولنذكر أول ما رأيته مقيداً في كتاب أول الجفر الجامع والنور اللامع ممـــا زعم كاتبه أنه يعرف به كيفية الاستخراج منه، وهو ناقص أيضاً كمـــا ســـتراه، ونصه: قال صاحب المفاتيح الغيبية والمصابيح الوهبية في وضع الجفـــر الجـــامع: وقاعدة الاستخراج منه والشروط اللازمة فيه ما نصه: الباب الثاني في معرفة قاعدة الاستخراج بجميع الأحوال المجهولة من صفيحة واحدة أو صفيحتين باســـتخراج الحروف الملفوظية والمكتوبية والمسرودية من الصفحة، وتثبت كل نوع على حدته

حروفا متفرقة، فبيان معرفة الملفوظية، وهو كل حرف يكون ناطقا بثلاثة أحرف، وهي: ألف جيم دال سين شين صاد ضاد عين غين قاف كاف لام. والمكتوبية، وهي كل حرف يكون أوله كآخره، وهي: ميم نون واو. والمسرودية كل حرف آخره ألف، وهي اثنا عشر حرفا وهي: با تا ثا حا خا را زا طا ظا فا هـا يـا. القاعدة أنك إذا استخرجت كل قسم من الحروف الملفوظية المكتوبية والمعدودية فأثبت كل واحد منهما على حدته، فإذا أردت تركيبها تعد كـل قـسم ع ع، تأخذ الرابع إلى أن ينتهي الأقسام الثلاثة، فإذا بقي قسم واحد من هذه الأقـسام فليس له اعتبار، والقاعدة أنك تأخذ أولاً من الملفوظية ثم من المكتوبيـة ثم مـن المسرودية وتجعلها بالتركيب وتثبتها وتعربها وتقرأ ما بعد الإعراب، ويقال لهـذه القاعدة مكتوبية، ومعرفة قاعدة الإعراب على طريق جعفر رضي الله عنه فسبعة أحرف من الهجائية مفتوحة أَ وَ يَ لَ عَ زَ عَ، وسبعة مكسورة وهي: وِ رِ سِ ثِ ذِ صِ طِ، وسبعة مضمومة جُ زُ كُ سُ بُ تُ حُ، وسبعة مجزومة بْ خْ ذْ ظْ غْ ضْ قْ. واعلم أن من ابتداء الصفحة إلى موضع الاسم ماض، ومن موضع الاسم حال، والبقية إلى آخر الصفحة مستقبل. الخاتمة في بيان الكشف الساطع في حل الجفر الجامع: متى أردت استخراج سؤال ما فانظر إلى شهرك العربي كم مضى منه من يوم، فخذ حرفه فإن كنت في الأول فخذ حرف الألف، والثاني فخذ حرف الباء، والثالث فخذ حرف الجيم، وهكذا إلى العاشر فخذ حرف الياء، وفي اليوم الحادي عشر فخذ حرف الكاف، أو في الثاني عشر فخذ حرف اللام، وهكذا إلى آخر حروف أبجد، وإذا أتممت من الشهر ثمانية وعشرين يوماً، وهي عدد حروف أبجد، فعد في التاسع والعشرين إلى الأول من حرف أبجد، وهـو الألـف، وفي الثلاثين إلى الباء إذا علمت ذلك فيكون هذا الوضع الأول، ثم انظر إلى حـرف المنزلة وهو أن تعلم القمر في أي منزلة من منازله الثمانية والعشرين الآتي بيانهـا، فتأخذ حرف تلك المنزلة، وهذه أسماء المنازل وما لها من الحروف على الترتيـب: شر طين بطين ثريا دبران هقعة هنعة دراع بثرة طرفة جبهة خرثان طرفا عوا سمك غفر زبانا إكليل قلب شولة نعايم بلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الأخبية مقدم مؤخر رشا. ثم تأخذ حروف إحدى الكواكب السبعة السيارة وهي: زحل حروفه الجدي والدلو. ومشتري حروفه معجمة قوس حوت، مريخ حروفه مفردة، حمل عقرب شمس حروفه مفردة، أسد زهرة حروفه معجمة، ثور ميزان عطارد حروفه معجمة، سنبلة جوزا قمر سرطان حروفه مفـردة. إذا

علمت ذلك فميز المشترك من غير المشترك، والمشترك هو الذي فيه التداخل بحسب الأثلاث وهي: د خ ص ط ر ن ز ج وما بقي من الحروف هو غير المشترك، ثم تأخذ حرف اسم السابق فإن كان السؤال في العشر الأول تأخذ الحرف الأول، وإن كان في الثاني فتأخذ الثاني، أو في العشر الثالث فتأخذ الحرف الثالث، هذا إذا كان الاسم ثلاثيا، فإن كان رباعيا فالرابع منه حكم الأول، وإن كان خماسيا فالخامس منه حكم الثاني، وإن كان سداسيا فالسادس منه حكم الثالث، مثال الثلاثي عمر والرباعي أحمد، والخماسي عثمان، والسداسي سليمان وأبو بكر، وقس على ذلك فقد كشفنا لك سراً عظيماً، وقد تم لك أربعة حروف فتعمد بها البيت الأول من الصفحة، وهي الأصول، وتعمر باقي الصفحة من البيت الأول إلى الغاية، وقد بلغت النهاية، وبهذا يكون الختام، والحمد لله على الإتمام، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم.

لطيفة:

أخبرني خليلي حسن العجمي المكي[1] وكتب لي بخطه مما وجد بخط صاحبه محمد الشجادي[2] المتوفي بمكة وذكر عنه أن له يدا طولى في هذا الفن ما نصه: زايرجة السبتي، تكتب الطالع والغارب والمتوسط والوتد والسؤال وكوكب الساعة، وتمزج بالقطب حرفاً بحرف، ثم تحذف المكرر ويدخل في الجدول، ثم تنظر إلى كوكب الساعة الثالثة وتطرح عوده أدوارا اثنا عشرية، وما فضل يدخل في اللفظ، مثال ذلك: جاء رجل يسأل عن ضائع منه، وكان اسمه عبد الرحمن، والطالع الأسد، والمتوسط القوس، والغارب الدلو، ووتد الأرض الثور، وكوكب الساعة المشتري، فكتبناها هكذا: ع ب د ا ل ر ى س ا ل ع ر س ا ر ق ا س د ق و س د ل و ث و ر ث و ر م ش ت ر ى. ثم أخذنا منها حرفا وهي العين، وكتبنا بعده حرفا من أول حروف القطب، وهو سؤال عظيم الخلق، ثم حذف المكرر وأنزل الباقي في الجدول، ثم نظرنا إلى الساعة الثالثة فكانت الشمس عددها 455 الفاضل 4 بعد إسقاطها 3 أدخلنا بها في اللفظة فطلع هذا البيت:

[1] الحسن بن علي العجيمي المكي الحنفي، فقيه صوفي له اشتغال بأسرار الحروف وخواص الأذكار، توفي بالطائف عام 1113 هـ: التقاط الدرر، ص: 284. فهرس الفهارس 2:810.
[2] في ط: الشجانلي.

[طويل]

وسارقةُ المنديلِ تُدعى بزينب　　　ودَلالُها في السوقْ يُسمى أبا العُلا

فذهب السائل إلى السوق فوجد ذلك صحيحا.

وما ذكرناه كله قاعدة لسائر السؤالات. واعلم أنه إذا فضل شيء[1] من الحروف في المزج تفرق وحدها، فإذا أنقضت[2] ولم يستقم معك الكلام، فخذ الذي فضل واقعد به اللفظ، وإذا شئت أن يكون الجواب بيوتا كثيرة كرر الدور باللقط ه. وهذا أيضا غير تام إذ لم يذكر كيفية الجدول ولا كيفية الوضع فيه، ولا كيفية اللقط هل على التوالي أو غيره، وكل ذلك فهم يتوقف عليه العمل.

ومن كتاب الجفر الجامع والنور اللامع للشيخ محي الدين، ورأيته بالمدينة عند صاحبنا السيد محمد بن رسول[3]، وفيه غرائب من هذا الفن ما نصه: فصل في سر الاستنطاق، وأول بيت في الجفر عدده 4 ينطقه، وعلى سر العدد من غير التكسير ينطق ا ي ق ع فإذا أضيف إليها د ا ي ق ع عاد العدد 11141 انطق بثلاثة أسماء أحدها مركب (خير الوارثين) أبدي هادي فظهرت الأربعة الألفات لمن فهم مع أنهم قالوا: إن الأربعة المثلية لا تنطق بشيء، وذلك لقصر أفهامهم، وحاشا لإمام العلوم أن صنع[4] ما لا معنى له. ومثال الباب: ب ب ب عدد 8 نطق ح، وعلى سر العدد من غير التكسير غ ع ب ك ر، وإذا أضيف إليها عاد العدد 223 نطق لا إله إلا الله مجيب غالب، باعث ثواب، وقس على ذلك تصب. واعلم أن سر الله في العلوم اللطيفة والكثيفة والعلوية والسفلية والملكية والملكوتية تقع على نسبتين أعداد وحروف، فأسرار الحروف في الأعداد وأنواع الأعداد في الحروف، فالأعداد العلوية الروحانية الملكوتيات سر الأقوال والحروف سر الأفعال، فعالم العرش أعداد، وعالم الكرسي حروف، فنسبة الحروف للأعداد كنسبة الكرسي للعرش، فآخر مرتبة الحروف أول مرتبة الأعداد، وآخر مرتبة

---

(1) في ط: كان أفضل شيء

(2) في ط: أنطقت.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) ساقط من ط.

الأعداد أول مرتبة الحروف، فسر العدد فهم سر العقل الرباني، وسر الحــروف[1] فهم سر الروح الروحاني، ومن أشرف العلوم علم الحساب بعد السنة والكتاب.

اعلم أن الحروف على ثلاثة أنواع؛ فكرية ولفظية وخطية، فالفكرية صورة روحانية في أفكار النفوس مصورة في جواهرها، واللفظية أصوات محمولة في الهوى مدركة بالقوة السامعية، والخطية نقوش خطت بالأقلام في الألواح، واعلم بـأن الخط هيئة روحانية وإن ظهر بآلة جسمانية، والحروف أصل في الروح وإن ظهرت بآلة حواس الجسم، والخط مأخوذ من دائرة هي أصل الحروف كلها، فإذا ناسبت الحروف تلك الدائرة صح الخط أصاب المقصود، وأوله الألف وهو قطب الدائرة، وما بعد ذلك من تباين الحروف من المطات والتعريقات والمرادات، وكل ما ظهر من الأجسام المدورة والمربعة من التدوير والتربيع فمن نسبة الدائرة، وهو مأخوذ عن أبي ذر. قلت يا رسول الله، وأي كتاب أنزله الله على آدم؟ قـال: كتـاب المعجم. قلت: أي كتاب المعجم؟ قال صلى الله عليــه وســلم: ا ب ت ث إلى آخرها، وقد تكلم آدم عليه السلام بسبعمائة أفضلها العربية، ثم علم الحرف من بعده ابنه شيت وارث عهده، وهو الذي بنى الكعبة بالطين والحجر، ولــه سـفر جليل في علم الحروف اجتمعت به وقرأت عليه، وعنه أخذت هذا المثلث العظيم الشأن[2]:

[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]

ورأيته بمكة وحل لي ما أودعه في سفره 626، وهذا المثلث وهو رابع كتاب في الدنيا في علم الحروف، ثم توارث بنوه علم الحرف إلى إدريس، عليه السلام، يقال إنه أول من كتب بالقلم، صنف كتاب كنز الأسرار وذخائر الأبرار، وقـد شرحه تنكلوشا البابلي، وكذا ثابت بن قرة الحراني، ولما أطلعني الله على العـوالم الماضية سألت عن شرحيهما فقال إنهما لم يعلما إلا الظاهر، وأنه إلى الآن مقفل فحله لي، فرأيت فيها أسراراً غريبة لا يهتدي إليها إلا فحول الأفراد من الأفراد، وهو خامس كتاب في علم الحرف، وعلمه جبريل علم الرمل، وبه ظهرت نبوته،

(1) في ط: الحرف.
(2) في ط: وهو عظيم الشأن.

وورث علم الحرف بعده الهرامسة، وهم أربعون رجلاً، وكان أمهرهم أفليـــوس الذي هو أبو الحكماء والأطباء، وهو أول من أظهر الطب، ثم إلى هـــود عليـــه السلام، وهو أول من تكلم في علم الوفق، وقيل إنه وضع مربع مائة في مائـــة في أساس مكة، وله سفر في علم الحرف، وهو سابع كتاب قرأته عليه وسألته مسألة عرفني بها ح 2 4 ثم إلى موسى عليه السلام، وعلمه الله علم الكيمياء، وقد صنع الوفق المسدس على صفيحة من ذهب واستخرج بها تابوت يوسف من نيل مصر، وبذلك أمره الله، ثم يوشع ثم داوود ثم سليمان، ثم عيسى ثم محمد صـــلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم الإمام ورثه من النبي، وهو آخر الخلفاء كما أنه آخـــر الأنبياء، وما رأيت فيمن اجتمعت بهم أعلم منه، وهو أول من وضع مربع مائة في مائة في الإسلام، وقد صنف الجفر الجامع في أسرار الحروف، وفيه مـــا جـــرى للأولين ويجري للآخرين، وفيه اسم الله الأعظم وتاج آدم وخاتم سليمان وحجاب آصف، وما زال أهل التحقيق من السابقين، كالحسن البصري وسفيان الثـــوري، يغترفون من بحر أسراره، وكانت الأئمة الراسخون من أولاده يعرفون أسرار هذا الكتاب، وهو ألف وسبعمائة مصور المعروف بالجفر الجامع والنور اللامع، وهـــو عبارة عن لوح القضاء والقدر قال: وأكثر تلاوة اسم العليم ليظهرك على سر هذه العلوم الربانية والأسرار النورانية، ومن أراد التصريف بما ذكرنا في هذا الكتـــاب المكنون والسر المخزون، فلا يطالع فيه حتى يتوضأ ويصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب مرة، وآية الكرسي ثلاث مرات، وفي الركعة الثانية فاتحة الكتـــاب وآية النور: (الله نور السماوات والأرض)[1] إلى (عليم) ثلاث مرات، وآية الزمر، (وأشرقت الأرض بنور ربها)[2] إلى قوله (لا يظلمون)، وآية (لقد كنت في غفلة من هذا)[3] إلى (حديد) ثلاث مرات، فإذا فرغ من الصلاة صلى على النبي، صلى الله عليه وسلم، و 7 مرة أيضا، يقول باسم الله الرحمن الرحيم، و7 مرة أيضا، ثم سورة (ألم نشرح) ثلاث مرات، ثم يقول: اللهم يا من بيده مفاتح أسرار الغيوب ومصابيح أنوار القلوب، أسألك أن تكشف لي عن كل اسم مكتوم وسر مختوم، يا من وسع علمه الظاهر كل معلوم، وأحاطت خبرته بباطن كل مفهوم، يا حي يا

---

[1] النور: 35.

[2] الزمر: 69، ونص الآية القرآنية الكريمة: (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بـــالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون).

[3] ق: 22، ونص الآية القرآنية الكريمة: (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبـــصرك اليـــوم حديد).

قيوم، أسألك أن تصلي على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، شمس معـــارف أنوارك، ومظهر لطائف أسرارك، وعلى آله الأتقياء وأصـــحابه الأصـــفياء، وأن تشهدني غيب كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء، ولا تشك ولا تـــردد، واخلص في عملك يظهر لك سر الله تعالى، ولا تعين ظالما، ولا توصله إلى حاكم، ولقد سجنت وما بحت، وإياك أن تذكر سر الله لأحد قبل أن يؤذن لك فيسلبك من أعطاك، وتغش نفسك، وتقو أبناء جنسك، وقد قال شاه الكرماني: من نطق عن درجة و لم يرزقها كان حقا على الله أن يحرمه تلك الدرجة فلا ينالها هـــــ. كلامه.

ومما أنشده الشيخ محي الدين في هذا الكتاب إثر كلام يتعلق بخلـــوة كـــل حرف، وأنه لا يتم الفهم والتصديق بأسماء الحروف إلا بعد استعمال خلوة لكل حرف يريد التصديق به، وأطال في ذلك ثم أنشد لنفسه:

[مخلع البسيط]

أســـــرارُ دور مِـــــن الحُـــــروفِ	جــــاءتْ بلُطـــفٍ مـــن اللطيـــفِ
فاستعن بالكـــشف[1] عـــن عيـــان	أظهـــرَ مـــا كـــن في الظـــروفِ
مـــن كـــل ذُورٍ حـــوَى مَعـــانٍ	أدنـــاهُ مـــا عُـــد بـــالألوفِ
أخـــبرَ عمـــن قـــضَى ويـــأتي	مِـــن كامـــلِ العقـــلِ والـــسخيفِ
مـــن عـــامَ في بحـــرهِ بفهـــم	يـــسيرُ سَـــيرا بـــلا وقـــوفِ
يظهـــر بـــدرا بـــشمس كـــشف[2]	جَل عـــن الخـــسْفِ والكُـــسوفِ
منحـــتُ بـــدرا أعَـــز علـــم	أودعـــــهُ الله في الحُـــــروفِ

ويعني ببدر خادمه الملازم له المسمى بدر الحبشي، وله ألف كثيرا من تآليفه.

والذي تحصل لي بعد مطالعة كثير من كلام أهل هذا الفن أن هذا العلم لا تكفي في تحصيله وتحقيقه الأوضاع الرسمية والقوانين التعليمية، ولا بد مـــن ذوق صحيح وكشف صريح، وبصيرة منورة، وسريرة مطهرة، كما أشـــار إلى ذلـــك

(1) في ط: كشف.
(2) في ط: بشمس كمدف.

الشيخ محي الدين في كلام له، وما سمعنا أن أحداً أدرك حقيقته إلا من اتصف بالصفات المتقدمة، ولو كان من العلوم الرسمية لما استعصى على كثير من الناس الذين لهم عقول ذكية وأفهام سنية، ويدل على ذلك أيضا اختلاف آراء المكلفين فيه، فكل انتحل صفة ووجها غير وجه صاحبه، فقد طالعت عدة رسائل وأمعنت فيها النظر فوجدتها على ما ذكرت لك، منها رسالة الشيخ محمد بن أبي الفتح الصوفي[1]، ومنها رسالة الشيخ عمر الدنديلي، ومنها كتاب الشيخ محي الدين المتقدم، وهو حافل، ومنها رسالة ابن خلدون سوى ما ذكر في المقدمة، ومنها كلام للبوني في شمس المعارف الكبرى، ومنها رسالة لصاحب الترجمة كتبها للسيد أحمد وزير الشاه ملك الهند لما قدم حاجا سنة ثلاث وسبعين، إلى غير ذلك من التقاييد.

ولنرجع إلى تمام الكلام على حال صاحب الترجمة فأقول: كتبت إليه قبل لقائي له بأبيات استعير منه كتبا احتجت إليها في الوقت، فأعارني ما طلبت منه، وكانت عنده خزانة كتب كثيرة، وهذه الأبيات المذكورة:

[وافر]

شهاب الدين مَولانا ابن تاجَهْ ... فنِعمَ التاج أنجبَ في نتاجِهْ

فكمْ من مُعضل قد حارَ فيه ... أساة الكلْمِ زالَ لدى علاجِهْ

وكمْ من فهمهِ هابتْ سلوكا ... به العُلماء خيمَ في بجاجِهْ

وكمْ عِلم وحِلم في حيَاء ... ولين القول رُكب في مزاجِهْ

له ذهنٌ توقدَ من ذكَاء ... فكل العِلم يُقبس من سِراجِهْ

غَدا فردا فسدَّ مَسدَّ جمْع ... لمن قد أمَّهُ في نيْلِ حاجهْ

عليكَ به إذا ما رُمتَ عِلما ... ودعْ عنك المُعاندَ في لجاجِهْ

[1] محمد بن أبي الفتح، شمس الدين، الصوفي، فلكي متصوف، شافعي مصري، له كتب منها الجواهر النيرات في العمل بربع المقنطرات، والرسالة الشمسية في الأعمال الجيبية، توفي نحو سنة 853 هـ: الأعلام 326:6.

فنــورُ عُلومــه[1] في ليــلِ جَهــل يــضيءُ لمــن تَوغــل في دلاجــة[2]

قد احتَجنــا لكُتْــب منــك تــأتي ومثلك أنــتَ يُــؤثرُ في احتياجــةْ

وعذرا في التخلــفِ عــن لِقــاكمْ وذلك للحــشَا أقــصَى ابتهاجــةْ

فللمقــــدورِ وقـــتٌ قبلــــهُ لا يطيــقُ المــرء ذاك مــعَ انزعاجــةْ

ويكفِي الضعفُ مُذ[3] قدمتُ عُــذرا وحــالٌ لا يحــولُ عــن ارتجاجــةْ

أيــا مــن قــد تفَــردَ في عُــلاهُ بخُلــقٍ كالــصباحِ لــدى انبلاجــةْ

عليــكَ تحيــة مـــني فقابِــلْ ثنــائِي بــالقبولِ علــى اعوجاجــةْ

وله شرح حسن على منية الحساب للشيخ ابن غازي[4] أطلعني عليه، وهو حافل، وله مشاركة في فنون كثيرة.

لطيفة:

أخبرني أنه رأى في صغره رؤيا وهي أنه أدخل بستانا وقيل له: هذا بستان العلوم، فرأى فيه أشجاراً كثيرة كل شجرة تنسب إلى علم من العلوم، قال: فأول شجرة لقيتني وأنا داخل من باب البستان شجرة علم النحو، فإذا ساقها الكلام كأنه مكتوب مستطيلا مرفوعا في الهواء، وتفرعت من ذلك الساق أغصان ثلاثة أحدها اسم، وثانيها فعل، وثالثها حرف كأنها مكتوبة أيضاً على هيئة الساق المتقدم، ثم تفرع ساق الاسم إلى فروع كثيرة من معرب ومبني، ومعرفة ونكرة، ومشتق وجامد إلى غير ذلك، وكل فرع ينقسم إلى فروع أخر وهلم جرا. ثم الفعل كذلك ثم الحرف إلى أن أكمل فن النحو كله، وكذا أشجار سائر العلوم. قال: وبقيت صورة ذلك منقوشة في خاطري كأني أشاهدها الآن، ولما استيقظت

(1) في ط: علمه.

(2) في ط: إدلاجه.

(3) في خ و ط: منذ، والصواب ما أثبتناه.

(4) ابن غازي: محمد بن أحمد بن محمد المكناسي، مشارك مصنف، توفي سنة 919هـ، من مؤلفاته: منية الحساب، وتقع في 400 بيت، توجد منها عدة نسخ بالخزانة العامة بالرباط: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 2:73.

قصصت الرؤيا على والدي واستبشر بها. قال لي: ولم أزل من ذلك الوقت يختلج في خاطري تصنيف كتاب جامع للعلوم التي رأيت في الرؤيا وأسميه بالاسم الذي ذكر لي في الرؤيا وأرتبه على ترتيب ما رأيت، وكان والده من علماء المدينة، أخذ عن جماعة من علماء الحجاز وغيره، وممن أخذ عنه العالم العامل الولي الصالح سيدي أبو الغيث القشاش التونسي[1] رضي الله عنه، وسبب اجتماعه به أنه توجه من المدينة إلى مصر، ومنها إلى بلاد الروم لغرض له في لقاء سلطانها في ذلك الوقت، فركب البحر من الإسكندرية فحكم القدر بأسره في أيدي العدو، واستقر في أسره بمالطة دمر الله أهلها، فلما بلغ خبره إلى أهل المدينة، وكانت له فيهم مكانة، كاتبوا سيدي أبا الغيث في فدائه وأعلموه بحاله ومكانه، وأنه رئيس المؤذنين بالحرم الشريف، فبذل رضي الله عنه جهده في فدائه إلى أن فدي بخمس عشرة مائة ريال، فركب البحر من مالطة إلى تونس لزيارة الشيخ الذي سعى في فدائه، فلما قدم عليه فرح بقدومه واستبشر وأحله غاية الإجلال، وأكرمه إكرام مثله لمثله، وحبسه عنده سنة غبطة فيه، فاستفاد في تلك السنة من الشيخ علوماً كثيرة من علوم الأسرار، وعنه أخذ ولده ما لديه منها. ثم رجع إلى المدينة مكرماً.

لطيفة:

أخبرنا صاحبنا أن والده لما كان في الأسر تكلم مع راهب من رهبانهم فقال له الراهب: إنكم معشر المسلمين تزعمون أن كتابكم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فقال له الشيخ تاج الدين: نعم نقول بذلك. فقال له: أين تجد في كتابكم اسمي؟ فقال له: ما اسمك؟ قال: كبك. فأخرج له الشيخ تاج الدين المصحف فأراه ما بعد الراء من قوله تعالى: (ما شاء رَكَّبكَ)[2]، فتعَجَّب الراهب من ذلك وصدق بأن في الكتاب كل شيء.

قلت: وهذه فراسة قوية وهداية سنية من الشيخ رضي الله عنه، ولا شك أنَّ في الذكر كل شيء، ولكن لا يهتدي إلى ذلك إلا من خصه الله بالفهم الرباني

[1] أبو الغيث القشاش التونسي، فقيه رحالة محدث مفسر، توفي بتونس سنة 1031 هـ: شجرة النور الزكية 1:424.
[2] الانفطار: 8.

والعلم الإلهي، وقد ذكر لي بعض الناس أنه رأى منصوصا وقوع هـــذه الحكايـــة لغيره، والله أعلم.

لطيفة:

من نظير ما تقدم من اشتمال القرآن الكريم على أخبار كل شيء حتى علم الحدثان والوقائع ما أخبرنا به صاحب الترجمة شهاب الدين أحمد بن التـــاج، أن ملك بلاد الروم السلطان سليم أحد (أجداد)[1] ملوك الوقت، وهو أول داخـــل منهم لمصر وتملكها من يد السلطان الغوري سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، كان سبب تملكه لها أنه لما تملك بلاد الشام حدثته نفسه بالتملك على بلاد العراق، إذ هي أصل منشئهم ومساكن أسلافهم التركمان، فخرج من بلاد اصطنبول التي هي قاعدة ملكهم، فلما وصل إلى الشام بعساكره تعذرت عليه العلوفة لغلاء حصل في تلك الناحية، واحتاج إلى الميرة والتزوُّد من مصر، فكتب بـــذلك إلى الغـــوري ليستأذنه في الامتيار من بلده، وكان الشاه ملك عراق العجم في ذلك الوقت لمـــا سمع بتحرك السلطان سليم كاتب الغوري، وكانت بينهما صداقة، يطلب منه أن يشغله عنه وأن يثبطه ما استطاع، وصادف ذلك من الغوري غيرة من الـــسلطان سليم وأنفة من تملكه لبلاد الشام، خشي إن اتسع ملكه أن يستولي على مـــصر، ومصر إذ ذاك هي أم البلاد الإسلامية، وملكها أعظم الملوك لانتقـــال الخلافـــة العباسية من العراق بعد واقعة التتار إلى مصر، وعندما طلب السلطان سليم مـــن الغوري الميرة تعلل له بأن ذلك لا يمكن في هذا الوقت لغلاء الأسعار، واعتـــذر بأعذار ضعيفة، فتفطن سليم لما قصد، وعلم أنه إنما أراد تعويقه عـــن المـــسير إلى العراق، فحدثته نفسه بالركوب عليه وصرف العنان عن غزو العـــراق إلى غـــزو مصر، فاستشار في ذلك من كان بحضرته من العلماء وذكر لهـــم عـــذره، وأن الغوري منعه التزود من بلده، وهو محتاج إلى الزاد، فكلهم قال له: إن ذلـــك لا يبيح لك قتاله لأنه ملك بلاده، لم يخلع لك يدا من طاعة، ولا بـــاداك بحـــرب، فكيف يحل الهجوم عليه في بلاده ومحاربته بلا سبب، وكان من جملـــة العلمـــاء

[1] زيادة من ط.

الحاضرين المحقق ابن كمال باشا[1] وكان أصغرهم، فقال له: أيها الأمير إنه يباح لك غزوه، وفي كتاب الله أن تدخل مصر في هذه السنة، فقال له: وكيف ذلك؟ فقال: لا أفتي بين يدي هؤلاء الأئمة وهم مشايخ الإسلام حتى تؤجلهم سبعا لينظروا ويتدبروا فإن الله تعالى قال: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[2]، فكيف لا تكون هذه النازلة في كتاب الله تعالى الذي فيه تبيان كل شيء؟ فقال لهم سليم: إني أجلتكم سبعاً عسى أن تجدوا أو يتبين لكم ما قال. فقالوا كلهم: أيها الأمير، ما كان جوابنا الآن هو جوابنا بعد سبعة. فقال ابن كمال: لا بد من التأجيل، وقصده، والله أعلم، إظهار مزيته عند الملك، وأنه اهتدى لما عجزوا عنه بعد التدبر والتلوم، إذ لو أبدى ما عنده في المجلس فربما ادعى أن ذلك يمكن الاهتداء إليه بالتأمل والتدبر، فأجلهم الأمير سبعا، فلما انقضت جمعهم وسألهم فقالوا: جوابنا فيما مضى هو جوابنا الآن. فقال ابن كمال: أيها الأمير إنهم ليقرؤون في كتاب الله العظيم أنك تدخل أنت وجندك[3] هؤلاء مصر في هذه السنة إلا أنهم لا يهتدون لفهمه. فقالوا: أين هو؟ فقال: قوله تعالى: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)[4]. فضحكوا منه وقالوا: أين هذا مما نحن فيه؟ فقال لهم: إن قوله تعالى: ولقد في قوة لفظ سليم بحساب الجمل، فإن كل واحد من اللفظين عدده مائة وأربعون، فتكون إشارة الكلام سليم كتبنا في الزبور من بعد عشرين وتسعمائة أن الأرض يرثها، لأنَّ الذكر عدده بدون آلة التعريف ما تقَدَّم. قال: والأرض في الآية الكريمة على قول كثير من المفسرين هي مصر، والعباد الصالحون في هذا الوقت هم جنودك، إذ لا أصلح منهم من عساكر المسلمين في أقطار الأرض لإقامتهم سنة الجهاد وفتحهم أكثر البلاد النصرانية، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة وغيرهم من عساكر البلاد، أما ممن فسدت عقائدهم كأهل العراق وأكثر اليمن والهند، وإما ممن ضعفت عزائمهم عن إقامة شعائر الإسلام كأهل المغرب، وإما ممن استولت عليهم الدنيا كمصر، وبالغ في تقرير هذا المعنى، وسُر السلطان سليم بقوله وسلم له الفقهاء حسن الاستنباط

[1] أحمد بن سليمان بن كمال باشا، شمس الدين، قاض من العلماء بالحديث ورجاله، له مصنفات عديدة منها: طبقات الفقهاء، توفي سنة 940 هـ: الكواكب السائرة 2:107.الفكر السامي 4:215. الأعلام 1:133.

[2] الأنعام: 40.

[3] في ط: لتدخل وجنودك.

[4] الأنبياء: 104.

ولطف الإشارة إلا أنهم قالوا له: إن هذا لا يكفي في إباحة قتال من لم يخلع يـــداً من طاعة ولا حارب أحدا من المسلمين، وإن كانت الإشارة القرآنية تدل على أن هذا سيكون فلا بد من إظهار وجه تعتمده الفتوى الفقهية، فقال ابن كمال: أيها الأمير أما هذا فهو أيضا متيسر وذلك بأن تبعث إلى السلطان الغوري وتقول له: إني لما قدمت إلى هذه الأوطان ولم يتيسر الغرض الذي قدمنا لأجله عزمنا علـــى التوجه للحجاز لأداء فريضة الحج، وليس لنا طريق ولا تزود إلا من بلادكـــم، فأردنا أن تأذن لنا في المرور ببلادكم والتزود منها، فإنه لا محالة مانعك وصـــادك عن المرور ببلده، فإذا صدك عن حج البيت جاز لك قتاله وصار محارباً، فاستحسن الفقهاء رأيه في ذلك لأن الحيل في مذهبهم سائغة، وانتهاج طريقها عندهم شريعة شائعة، فكتب السلطان سليم إلى الغوري بذلك، فراجعه الغوري بجواب ســـيي وصرح بمنعه وصده، وأنه لا يشرب من نيل مصر جرعة ماء إلا إن مشى علـــى ظهور الموتى إلى غير ذلك من التهديد، فتقوى عزم السلطان سليم على غزو مصر وتهيأ لذلك، فكان ما كان من استيلائه عليه ومحو الدعوة الغورية مـــن مـــصر، وإنحائه وقتله لأكثر العلماء والصلحاء والخليفة العباسي وكثير من أرباب المناصب، (وكان أمر الله قدراً مقدوراً)[1]، فعظمت بذلك مكانة ابن كمال عنده، وخـــيره فيما شاء من الولاية، فاختار الفتوى فتولاها، وحسنت سيرته فيها، وتصَدَّى لنشر العلم وتعظيم أهله، والله يتقبل منه آمين[2].

قلت: ومن نظير ما تقدم أيضا من استخراج الحوادث من القرآن العظيم ما أخبرني به أيضا صاحب الترجمة، وذكره أيضاً في رسالته التي ألفها لملك الهنـــد، وذلك أن السيد أحمد وزير ملك الهند لما قدم للحج في سنة ثلاث وسبعين ونحن إذ ذاك بمكة زادها الله شرفاً، وقدم معه بأموال كثيرة من عند ملك الهنـــد بقـــصد الصدقة على أهل الحرمين، وقد أخبرني الثقة أنها زيادة على مائتي ألـــف ريـــال، وبسط كثيرة غريبة الصنعة لتفرش في المسجدين، فأوسع أهل الحرمين برّاً وصدقة، فلما قَدِم المدينة اجتمع بصاحب الترجمة على ما أخبرني به، وطلب منه أن يكتب له رسالة فيما يتعلق بأحوال سلطانه، وكان سلطانه مهتما بشأن سلطان ملـــك أصبهان وعراق العجم لأنه هو الذي يواليه في المملكة، فأراد استطلاع أحوالـــه

[1] الأحزاب: 38.
[2] وردت الحكاية نقلا عن الرحلة العياشية في كتاب: الفكر السامي 4:216 – 217.

واستعلام ما يؤول إليه أمره، وكان من جملة ما ذكر فيها بعد تقديم كيفية طريق الاستخراج من كتاب الجفر، وأطال فيه إلى أن قال ما نصه: مثاله سئل مؤلفها هل القران الأعظم الواقع عام أربعة وسبعين وألف من الهجرة يكون مقيداً لدولة ملك أصبهان أم لا، وكان وقت السؤال والماضي ثلاث ساعات من شروق يوم الجمعة رابع عشرين شوال عام ثلاثة وسبعين، والشمس يومئذ بأقسام الدرجة الثالثة عشر من برج الجوزا والقمر وقت السؤال بأقسام منزلة الرشا آخر المنازل بالمدينة المنورة، أخذنا حرف اليوم الرابع والعشرين فكان الخاء المعجمة لأنه الرابع والعشرون من حروف أبجد، وكان منزلة القمر الغين المعجمة لأنها الثامن والعشرون من الحروف أيضاً، وكان حرف الطالع وهو الثلث الأول من الأسد الهاء وحرف الاسم الميم من أحمد، لأنّ السؤال وقع في الثلث الأخير من شهر شوال، وبه كانت الأمهات أربعة بهذا الترتيب خ غ هـ م، ثم رسمنا الجدول المذكور وكسرنا الأمهات بقاعدة تعمير الجفر الجامع، وجمعنا الأسطر المبسوطة والقائمة بالجمل الكبير، وضبطنا الحاصلين فتطابقا، فكانت صورة الجدول كما ترى، ثم وضع الجدول، ثم أطال الكلام في بيان الاستخراج منه إلى أن استخرج ستة وخمسين حرفا هي حروف الجواب، فكان سطر الجواب بعد تركيبه هكذا: يغير دولة ملك أصبهان أشد تغييرا من غيرها، وكون الخراب فيها أتم بلا ريب هـ.

قلت: وقد ظهرت مخايل صدقه، فقد بلغنا الخبر أن في ذي القعدة الذي من سنة أربع وسبعين وقعت أمور هائلة بإقليم أصبهان وخسفت الأرض بمدن وقرى وجبال، ووقع تحويل لبعض القرى من مكان إلى مكان، وخسف بأكثر مدينة تبريز وهي من قواعد ذلك الإقليم، فإن صح ذلك والغالب صحته، لتعدد نقلته ففيه تصديق لقوله، وكون الخراب فيها أتم، (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[1]، وهذا الخسف إن صح من أعظم أشراط الساعة المذكورة في بعض الأحاديث، فلتنتظر أخواتها، ففي بعض الحديث: من أشراط الساعة خسف بالمشرق ومسخ بالمغرب، وقذف بجزيرة العرب[2]، ونسأل الله اللطف في كل حال.

---

[1] يوسف: 21.

[2] أنظر: تفسير القرطبي 1:384.

ومن جملة ما ذكر صاحب الترجمة في الرسالة المذكورة أنه استخرج من قوله تعالى: (يتلو صحفا مطهرة)[1] بعض أحوال سلطان الهند واسمه أورتربيك، وهو موافق لعدد رسول، فإن ولايته تتلو العدد الذي تضمنه صحفاً مطهرة في كلام طويل لا أستحضره الآن، على أن التسلي في مثل هذا وتعاطي فهمه من القرآن مما لا ينبغي إلا لذي بصيرة نورانية يصدق كشفه فتحه، وإلا فالهجوم عليه ببضاعة العقل مخطر فإن الواقع قد لا يكون كذلك فيؤدي إلى نسبة شبه الكذب لخبر الله تعالى، وإن بالفحوى والإشارة، والقرآن يتره عن مثل ذلك فإن الله ما أنزله على عبده لهذا وإن كان موجوداً فيه، وإنما أنزله هدى وموعظة وذكرى لأولي الألباب، فاستعمال الفكر في معانيه التي حض الله عليها ورسوله أولى من استعماله في أمثال هذه الأمور التي لم يرد عن المشايخ ولا عن السلف الصالح اعتبار جنسها في أمثال هذه الأمور، وإن اعتبرها بعض السلف، لكن في غير هذا الجنس كاستخراج ابن عباس رضي الله عنه تعيين ليلة القدر من بعض آيات سورها، وأما المتأخرون فمنهم من اعتبره في هذا الجنس كاستخراج بعضهم فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين بن أيوب من قوله تعالى (غلبت الروم)[2] إلى قوله: (في بضع سنين)[3]، إلا أنه أمر نادر لا ينبغي، وذو الحال الصحيح والكشف الصريح لا يقتدي به، والله الموفق للصواب.

لطيفة:

القِران الأعظم الذي ذكره صاحب الترجمة هو اقتران العلويين زحل والمشتري أول درجة من الحمل، ثم لا يعود اقترانهما فيها إلا بعد تسعمائة وستين سنة. قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير المسمى بالعبر ما نصه: "وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم إلى صغير وكبير ووسط، فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك إلى أن يعود إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة، والوسط هو اقتران العلويين في كل سنة اثنتي عشرة مرة، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى، والصغير هو اقتران العلويين في برج، وبعد

[1] البينة: 2.
[2] الروم: 1.
[3] الروم: 2.

عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجته ودقائقه، مثال ذلك: وقع القران يكون أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين سنة يكون أول دقيقة من القوس، وبعد عشرين في الأسد، وهذه كلها نارية، هذا كله قران صغير، ثم يعود إلى أول الحمل بعد ستين سنة، ويسمى دور القران، وعود القران، وبعد مائتين وأربعين ينتقل من النارية إلى الترابية لأنها بعدها، وهذا قران وسط، ثم ينتقل إلى الهوائية ثم المائية، ثم يرجع إلى أول حمل في تسعمائة وستين سنة، وهو الكبير، والقران الكبير يدل على عظام الأمور مثل تغيير الدول والملل وانتقال الملك من قوم إلى قوم، والوسط على ظهور المتغلبين والطالبين للملك، والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن وعمرانها"[1]، هـ محل الحاجة منه.

وقد ذكر صاحب الترجمة في بعض رسائله، وشافهني به، أن القران الأعظم يقع في شهر ربيع الأول من سنة أربع وتسعين[2] وألف، وحقق ذلك بأدلته، وأخبرني أن القران الأعظم الذي قبل هذا وقع في حدود العشرة الثانية من المائة الثانية بعد الهجرة، فقلت له: أما ما ذكروه من كونه يدل على انتقال الملك من قوم إلى قوم، وعلى تغير الدول فقد ظهر أثره في ذلك القران، ففي ذلك الوقت كان أول ظهور أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة وبدء الانحلال في الدولة الأموية، وبعقب ذلك انتسخت الدولة الأُموية من جميع الأقطار الإسلامية بالدولة العباسية حتى لم يبق للأموية أثر في جميع الأرض إلا ما قبض لها بعد ذلك من كون الولاية للقطر الأندلسي، وهو أقل من كثير بالنسبة إلى ولايتهم الأولى، وأما قولهم يدل على انتقال الملل، فإن الملة الإسلامية بحمد الله لم تنتقل ولا أعقبها غيرها، ولا يعقبها بحمد الله إلى آخر الدهر. فقال: لعل ذلك يدل على ما وقع في ذلك الوقت من ظهور الأئمة المجتهدين وظهور التآليف في الملة الإسلامية، وكثرت فيه الفرق الداعية إلى خلاف مذهب السنة والجماعة، وأدخلت علوم الأوائل من التنجيم والطب والفلسفة والمنطق وغيرها في العلوم الإسلامية، ودونت باللغة العربية، وتزيا الملك بزي ملك الأعجام، واستتبعت الدولة كثيراً من الأتراك والفرس إلى أن كان ذلك سبب تغلبهم على الدولة العباسية إلى غير ذلك مما يعلم بالنظر في سير الأوائل، وقد كانت الملة قبل ذلك ملة أمية لما قال عليه السلام: نحن أمة أمية لا

[1] مقدمة ابن خلدون، ص: 335.
[2] في ط: سبعين.

نكتب ولا نحسب[1]، وكان الدين رطبا تلقاه الأبناء عن الآباء، والعقائد سالمة من الزيغ تتلقاه من الكتاب والسنة من غير مشاركة لبضائع العقول والفروع كذلك تتلقاه من أحكامه عليه السلام وأحكام خلفائه الراشدين لم يدخلها قياس ولا استحسان، ولا قيل فيها برأي، والناس هادون مهتدون في أنفسهم لقربهم من زمان النبوة، وهم قريب من حال العرب في باديتهم لم تتشعب فروع المعاملات فيما بينهم ولا كثرت الخيانات المحوجة إلى استخراج أحكام كثير من الفروع بالقياس والاجتهاد إلى غير ذلك مما يعلم أيضا بالنظر في سيرهم في الدين، ومن حقق ذلك وعلم بون ما بين حالهم وحال من بعدهم لا يرتاب في أن ما كانوا عليه بالنسبة إلا ما آل إليه الأمر كحال ملة بالنسبة إلى ملة، لأن الملل الحقيقية لا تختلف في أصول الديانات، وإنما تختلف في فروعها كما نص عليه غير واحد. قلت له: سلمنا ذلك في القران الماضي، فماذا عسى تراه يقع في هذا القران من تغيير الملل، فأنا نقطع بخبر الصادق أن هذه الملة لا تنسخها ملة إلى آخر الدهر. فقال: لا أدري اللهم إلا أن يأتي من يحمل الناس على مواقع الإجماع وإلغاء الخلاف الواقع بين المجتهدين فإن ذلك يكون بالنسبة إلى ما نحن عليه تغييرا للملل والنحل. قلت: وما ذكره، وإن كان محتملا فهو بعيد جدا، بل هو كالمحال لأن موانع الإجماع سيما في فروع الديانات بالنسبة إلى مواقع الخلاف أقل من قليل، فكيف يمكن حمل الناس على ذلك وعلى تقدير وقوعه فهو رفض للشريعة ومحو لما بقي من رسومها لأنه يؤدي إلى بقاء أكثر العبادات والعادات بلا حكم، فنعوذ بالله من ذلك، والذي يظهر لي إن صح جريان عادة الله تعالى تغيير الملل عند حصول هذا القران أن يحمل التغيير الواقع بعده على أمرين أحدهما ما كان يختلج في فكري قبل هذا، وذلك أني كنت أود لو أن الله قيض لهذه الأمة من يجمع أربعة من محققي علماء كل مذهب من هذه المذاهب الأربعة الموجودة، ويختار لكل واحد جماعة من أهل مذهبه يستعين بهم في المطالعة وتحقيق ما يشكل عليه من فروع الديانات، فيأمر الأربعة بالاجتماع في محل واحد في وقت مخصوص من ليل أو نهار بقصد تأليف ديوان في فروع الفقه، ويتخذ لهم كتابا مهرة يستعينون بهم ويجري على الجميع من الجرايات ما يكون سبباً لفراغ بالهم لما هم بصدده، وبعد مراجعة كل واحد منهم مع أصحابه ما يحتاج إليه من كتب مذهبه في المحل الذي يؤلفون فيه،

---

[1] كتاب التمهيد 340:14.

فيجتمعون يتتبعون فروع الديانات الجزئيات من أول مسألة مُدَوَّنة في الفقه على قدر طاقتهم إلى آخرها، فيذكر كل واحد مشهور مذهبه في كل نازلة، فإذا علموا مشهور المذاهب في كل مسألة مسألة نظر من تصدى للكتابة والتأليف عندهم إلى المسائل المتفق عليها بينهم فأثبتها، ولا يحكي شيئاً من الخلاف فيها، ثم المسائل المختلف فيها يقتصر فيها على قول ثلاثة منهم اجتمعوا ويحذف قول الرابع، ثم إن قال اثنان بقول واثنان بقول، جعلها ذات قولين مشهورين، ثم إن تباينت آراؤهم في النازلة وهو قليل حكاها كلها بلا تشهير، وتكون مسألة خلاف، أو يقدم ما كان منها مستندا إلى كتاب، ثم ما استند إلى سنة، ثم ما استند إلى صحابي، قوي، ثم ما أخذ من الاجتهاد، فإذا ألف الديوان على هذا الوصف وحمل الناس على اتباعه كان أقرب لضبط الانتشار الواقع الآن وكثرة الخلاف الواقع بين أهل المذاهب والتعصبات الفاحشة المؤدية إلى تضليل بعضهم بعضاً، فإن الاختلاف إنما كان رحمة حين كانت القلوب سالمة، والأرض بالعلماء المحققين عامرة، فيحملون الخلاف بينهم على أحسن محامله، ويجد العامي من أهل كل مذهب في كل قطر من الأقطار من يقتدي به في دينه، ومن جال في الأقطار الشاسعة كالعراق والشام واليمن والحجاز وغير ذلك علم قبح ما آل إليه الأمر في ذلك، فإن العامي المقلد لمالك مثلا يكون في بلد ليس فيها أحد ممن يحقق مذهبه ولا يقارب تحقيقه، وتنزل به النوازل المتعددة في دينه، فيأنف أن يقتدي فيها بمن في ذلك البلد من العلماء المحققين على خلاف مذهبه، فيعمل فيها على جهالة، أو يسأل عاميا مثله أو أجهل منه فيقول له سمعت ذات مرة كذا، ووقع لي يوماً كذا فسألت عنه أو رأيت في كتاب كذا وهو شبيه بما نزل بك، فيقتدي به في ذلك وهو جهل عظيم وضرر في الدين عميم، فلو قدر وجود مثل هذا الكتاب وحمل الناس عليه لكن شبه تغيير في الملة مع ما فيه من الصلاح.

ثانيهما: أن يكون هذا القران دالاً على زمن الإمام المهدي المنتظر، وهو غير بعيد أيضاً من كلام من تكلم على أخباره وزمنه من طريق الكشف أو من طريق النقل المستند إلى بعض الأحاديث الضعيفة فإن كلامهم كلهم يشير بفحواه إلى قريب من المائة الثانية، وجعل بعضهم غايته المائة التي بعدها، والصحيح عندي أن ظهوره من أشراط الساعة، وتعيين زمن الساعة وأشراطها مع القطع بوقوعها مما استأثر الله بعلمه، ومن طالع تواريخ المتقدمين علم صدق ما ذكرنا فإن كثيراً منهم

عين المائة الثانية واستند إلى ظواهر من الأحاديث ومن بعدهم عينوا المائة السابعة متمسكين بمثل ذلك، ولما ظهرت نار الحجاز ووقعت وقعة التتار ببغداد وغير ذلك من التغيرات لم يشكوا أنها بقرب ذلك وهلم جرا، وغالبهم لا يشكون أنها لا تجاوز الألف، وإلى الآن كل يتكلم على حسب حدسه ووهمه، والعلم عند الله، وعلى تقدير ظهوره بإثر هذا القران فإن سيدي عبد الوهاب الشعراني قد حكى في بعض تآليفه عن كثير من أهل الكشف أن المهدي إذا ظهر لا يكون أحد أعدى إليه من الفقهاء لأنه إمام مجتهد، فيحكم في كثير من الفروع بما يخالف ما قاله أئمتهم وهم يظنون أن الله لا يحدث مجتهدا بعد أئمتهم، وهذا إمام هدى بشهادة الرسول. ومن شرط الإمام أن يكون مجتهدا إن وجد، فيحكم بحكم الوقت المناسب له، ويكون له وزراء سبعة أو تسعة كلهم مجتهدون من أهل العلم والكشف والتصديق بالإذن الخاص من الله في المملكة، فيحكم كل واحد سنة بحكم الوقت المناسب لتلك السنة الجاري على الكتاب والسنة بعلم صريح وكشف صحيح، لا بوهم وتخمين. قلت: وهذا ليس ببعيد حيث يكون الإمام هو قطب الزمان ووزراؤه هم الموالون له في الرتبة المقتبسون من فيض مدده، سيما إذا نزل رسول الله عيسى عليه السلام وهو على نبوته ورسالته حاكم بكتاب الله القرآن وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيجتمع نور النبوة والرسالة والولاية، فأي احتياج بعد ذلك إلى حكم بقياس علة أو شبه دلالة أو نظر إلى حكم الأصل، وعلته وغير ذلك مما بنيت عليه الفروع عند إعواز هذا النور لبعد العهد من زمان النبوءة، وزمان المهدي وعيسى عليه السلام، وإن كان بعيدا حسا فليس ببعيد حكما لأنهم يقتبسون من مشكاة نبوته صلى الله عليه وسلم بلا واسطة. وقد قال عليه السلام: خير هذه الأمة أولها وآخرها[1]، فلولا أن آخرها مشابه لأولها في الهداية لما شارك بينهما الرسول في الخيرية، والله أعلم، فإذا جاء هذا الزمان فما أقرب حال الناس فيه بالنسبة إلى ما كانوا عليه قبل بأن يقال فيه بتبديل الملل، وما أحسن هذا التبديل فإنه تبديل من صلاح إلى أصلح، ومن حسن إلى أحسن، فإن الحكم بالتقليد الصحيح حسن، وبالاجتهاد الصحيح أحسن منه، بهذان الوجهان يمكن أن يحمل على أحدهما التغيير الواقع في هذه الملة إثر هذا القران إن صح من غير معارضة للدليل القطعي بأن هذه الشريعة لا ينسخها شيء، ولا تزال طائفة

---

[1] نوادر الأصول 92:2.

من أهلها على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون، وإنما قلنا في التغيير الواقع إثر القران إن صح، لأن الحكم بصحته عقلاً أو شرعاً لا دليل عليه قوياً أو ضعيفاً، والحكم بأن الله أجرى عادته بوقوع مثل ذلك عند حصول هذا القران بعيداً أيضاً لأن حكم العادة مستند إلى واسطة التكرر، ولا يثبت ذلك بوقوعه مرة ولا مرتين ولا ما يقارب ذلك، وهذا أمر قد زعموا أنه إنما يقع بعد نحو ألف سنة، فلم يقع في الإسلام إلا مرة واحدة، وهذه الثانية على زعمهم. وهب أن الأخبار المستفيضة في التواريخ وغيرها دلت على وقوع ما زعموا من التغير في المائة الثانية، فمن لنا بوقوع ذلك في القرانات الواقعة في الأزمان الماضية قبل الإسلام، والأعصار القديمة والدهور المتطاولة في عصر عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيراً، فما أبعد نقل خبر متكرر مراراً متعددة في أزمنة متعددة بين كل زمانين نحو ألف سنة، بحيث يكون الوقت الثاني مثل الأول، والذي بعده مثله إلى أن وصل إلينا، فهذا أبعد من بعيد، إلا أن ذلك لما كان مشتهراً بين أرباب ذلك العلم تكلمنا عليه بما يناسبه من الكلام لما شرطنا في أول الرحلة من الكلام على كل ما تتشوف إليه النفس من الفوائد العلمية المتجددة لنا في هذه الرحلة، والله يصلح الطويات، ويعفو عن الزلات.

لطيفة:

تفاوضت الحديث يوما مع صاحب الترجمة فجرى ذكر الشيخ داوود الأنطاكي[1] صاحب التذكرة في الطب التي لم يؤلف مثلها في ذلك الفن على ما قيل، وأثنى صاحب الترجمة عليه ثناء جميلا وذكر تمهره في الفنون[2] العقلية وسلامة عقيدته، وحكى لي حكاية عنه تدل على تمهره في فنه، قال صاحب الترجمة: أخبرني الشيخ عبد العزيز الزمزمي المكي[3]، وكان من فضلاء فقهاء الشافعية

---

[1] داوود بن عمر الأنطاكي، الطبيب المشهور، كان ذا وجاهة لدى أمراء مكة، من مؤلفاته كتاب التذكرة وكتاب النزهة، وكلاهما في الطب، توفي في حدود سنة 1005هـ: خلاصة الأثر 140:2. التقاط الدرر، ص: 247.

[2] في ط: العلوم.

[3] عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز المكي الزمزمي، فقيه مصنف، ولد بمكة سنة 997 هـ، و أخذ على يد علمائها وانتهت إليه رئاسة الشافعية، توفي سنة 1022 هـ: خلاصة الأثر 426:2. التقاط الدرر، ص: 153. نشر المثاني 122:2. صفوة من انتشر، ص: 232.

ورئيس المؤذنين على ظهر زمزم بمكة المشرفة، وبتلك الخطة نسب أسلافه إلى زمزم، وكان قد طعن في السن وأدرك حياة الشيخ داوود المذكور، قال: كان الشيخ داوود له وجاهة عظيمة عند أمراء مكة، وكان يحضر مجلس والدي في التدريس، وكان الوالد يجله، وكنت أنا في نفسي أبغضه وأستثقله وأعاتب الوالد على إجلاله إياه وتعظيمه، وأقول: كيف تجل رجلا فيلسوفيا من شأنه كذا وكذا، فيقول: يا بني، إن الرجل من حكماء الإسلام، وله وجاهة عند أرباب الدولة، وقديماً قيل[1]:

[طويل]

وما عجبٌ إكرام ألف بواحد لعينٍ تُعد ألفَ عينٍ وتكرمُ

قال: ثم عرض لي عارض مرض ذات يوم واشتد علي و لم أحضر الدرس، فحضر الشيخ داوود وسأل الوالد عني فأخبره بحالي، فلما تفرق المجلس قال لوالدي: اذهب بنا لعيادة ولدك، فدخل علي وأنا في أشد ما يكون من المرض، فحبس يدي ثم قال لوالدي: ليس هذا وقت معالجة هذا الولد، ولكن خذ هذا الدواء لشيء استخرجه من جيبه يسقى أو يذهن به، يخف عنه ما هو فيه، وأنا راجع إليه غدا وقت كذا، فذهب واستعملت ما أمر به، فخف عني ما أجد، ثم حضر غدا في الوقت الذي ذكر واستحضر حَجَّاماً وقال: هيئ آلة الفصادة، وأراه العرق الذي يفصده ومحل الفصد منه، وقال له: إذا سمعتني قلت: الله، رافعاً صوتي به فافصد المحل الذي ذكرت لك، وإذا قلته ثانيا فحل رباط الفصد وامسك عن إخراج الدم، فهيأ الحجام الآلة وربط المحل، فبقي ينتظر إذن الشيخ، والشيخ مطرق برأسه مدة، ثم قال: الله، ففصد العرق مع قوله، فلما قاله ثانيا أمسك، ثم رفع الشيخ رأسه وقال: أخرجت لك دماً مخصوصاً في وقت مخصوص لأمر مخصوص، وذكر أن الأمر المخصوص قرب الثمانين سنة، فوجد الشيخ عبد العزيز الراحة من حينه، و لم يعاوده المرض إلى قرب الثمانين كما ذكر.

والشيخ عبد العزيز هذا كان حيا سنة خمس وستين بمكة، وحرصت على لقائه والأخذ عنه إذ ذاك فلم يقدر لي لضيق الوقت، ولما رجعت في هذه الوجهة

[1] ورد البيت بلا نسبة في نشر المثاني 2:122.

وجدته قد انتقل إلى رحمة الله و لم أسأل عن وقت وفاته[1]، وتولى مكانه في التقدم على المؤذنين على ظهر زمزم ولده الشيخ عبد السلام، ويحكى عن أهـل بيتـهم كرامات وخوارق ظهرت عليهم من ملازمة ذلك المحل الشريف، فمن ذلك مـا سمعته من جماعة من المجاورين بمكة أن الشيخ عبد العزيز، أو أحدا من أهل بيتـه، احتبس ذات يوم في شغل له خارج مكة من ناحية، فلما قرب الوقت توجه ليدرك وقت الأذان بالمسجد الحرام فأدركه الوقت وهو على الثنية التي تـشرف علـى المحصب من ناحية مكة، وعلى عقبة منى من ناحيته، فأذن في ذلك المحل وبينه وبين المسجد مسافة بعيدة وجبال وشعوب يستحيل معها عادة وصول صوته إلى مـن بأسواق مكة، فضلاً عمن كان بالمسجد، فسمع صوته من كان في المسجد كأنه يؤذن في محله المعهود، فكانوا يرون ذلك كرامة له. ومن ذلك أن الرئيس منـهم يصوت قبل طلوع الفجر بسبعة أصوات بين كل صوتين نحو نـصف درجـة، ويكون طلوع الفجر عند آخر صوت منها، واستفاض عند كثير من النـاس أن تلك الأصوات هي كلام أو ذكر بلغة لا يفهمها أحد إلا أولئك يتوارثونه بينهم، وأن سبب ذلك أنه كان المؤذن منهم إذا طلع الفجر أذن ثم أقام الصلاة بقـرب ذلك، قالوا: فجاءه رجل من الأبدال من ناحية أقطار الأرض البعيدة فخاصـمه وعاتبه وقال له: إني إذا سمعت أنك ببلدي أسرعت لأدرك الصلاة، وربما فـاتني شيء منها، فعلمه تلك الأصوات، زعموا أنه إذا صوت بها سمعـه الأبـدال في مشارق الأرض ومغاربها، فيحضرون الصلاة، وأنا ترصدت ذلك مراراً وسمعـت الأصوات فليس فيها حرف أصلا حتى تنسب إلى لغة دون لغة، والغالب على ظني أن ذلك إنما هو من التصوت باسم الجلالة بعد النطق بأوله سِرًّا وإخفاء الهـاء في آخره، وكنت بعثت إليه أيام مجاورتي هناك في رمضان هل يصح صيام من شرب أولها أم لا؟ فأخبرني أن من أكل أو شرب قبل الثلاثة الأخيرة صح صومه، وبعد لا، والعلم عند الله تعالى.

[1] ذكر المحبي أن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى سنة 1072 هـ: خلاصـة الأثـر 427:2.

لطيفة:

رأيت عند صاحب الترجمة تذكرة له جمع فيها فوائد كثيرة وسماها السفينة، قال: لأن السفينة تحمل أصناف المتاع من دني وسني، ومن جملة ما رأيت فيها أوضاعاً للحروف الثمانية والعشرين متباينة الأشكال تبلغ نحو السبعين، والكثير منها من استنباطه، على ما قال. ومن جملة ما أعجبني منها قلمان بالوضع العربي أصالة وخالف في موضوعاتها موضع لكل حرف اسما غير اسمه المألوف، ينفع ذلك عند قصد التعمية في رسالة أو تقييد شيء خيف نسيانه و لم يرد إطلاع الغير عليه، فإذا رأيت الحروف المعهودة طولب منها معناها الذي تدل عليه تراكيبها الأصلية، والمقصود خلاف ذلك، وسمى أحد القلمين قلم النظير والترقي والتدلي، والآخر القلم الدريعي، أما الأول فهذه: أُيْ بَكٌ جَلْ دَزٌ هَيْ وَسُ زَعْ حَفُ طَصْ كَعٌ رَطْ شَضٌ تَدْثَخٌ لا وفوا. وهذا ينتظم منه بيت شعر مشتمل على حروف المعجم كلها ووزنه فاعل ثمان مرات، ثم أردفه ببيت بينه، ونصه:

[متقارب]

فكل فما قبلهُ مُبدل وكل بما بعدهُ يُعرفُ

يعني أن الحرف الأول من الكلمة يوضع موضع الثاني منها، والثاني موضع الأول، فالألف مثلاً في محل الياء، والياء في محلها، ولام الألف تبقى في محلها على حالها إذ لم تركب مع شيء سواها إلا أن البيت الثاني من المتقارب، ولو قال:

[متقارب]

كل حرف بما قبله مبدل وبما بعده أول يعرف

لكان البيتان من بحر واحد.

وأما القلم الثاني فنصه:

كَمْ اَوْحَطٍ صَلا لَهُ دُرْسُعٌ في بَزْخَش تَذَنو تَضْ عَج

وهو أيضا بيت من مستفعلن مستفعلن فاعلن، فأضاف إليه آخر بيانا لـــه، ونصه:

[سريع]

فبـــدلِ الحـــرفَ بمـــا قبلـــهُ   تظفـــرُ بالمـــدخلِ والمخـــرَجِ

قال: والطاء تبقى على حالها، وهذا أيضاً مثل الذي قبله يوضع كل حرف موضع الذي بعده وبالعكس فيوضع الأول موضع الثاني، والثاني موضـــع الأول، ومثال ذلك في القلمين لفظ أحمد بالعربي هكذا: أحماد، والنظير هكذا: ي ف د م وبالدريعي: و ط ك ر، ومثل هذا يحتاج إليه كثيرا أهل هذه العلوم الغريبة، وقـــد رأيت بالمدينة المشرفة كتاب عنقاء مغرب ومعرفة ختم الأولياء وشمس المغـــرب ونكتة سر الشفا في القول اللاحق المصطفى[1] للشيخ محي الدين، ورأيت له فيـــه قلما ابتكره يكتب له الأسطر المتقدمة مما يريد إخفاءه، وهذه صورته:

صح: ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي.

ومنهم حكيم الإسلام وأحد العلماء الأعلام المتوقد فطنة والمتوهج ذكـــاء الممتلئ حكمة وإيمانا، و لم يرشح له وعاء، ولا حل له أحد وكاء، الذي توغل في أقطار الأرض وجال وبلغ على حداثة سنه مبلغاً عجز عنه فحول الرجال، المتفنن في علوم كثيرة، والمتحلي بحلى من محاسن الأوصاف أثيرة، سيدي محمـــد بـــن سليمان الروداني[2]، كان ممن ألهم الرشد في صغره، فاجتنى ثمر رشده في كبره، نشأ ببلده بين والديه بمدينة تارودانت[3] قاعدة بلاد السوس الأقصى، فلما بلغ مبلـــغ الرجال شاقت نفسه إلى تعلم العلم فخرج فارًّا من أبويه، فدخل بـــلاد درعـــة واستقر عند صالح علمائها وعالم صلحائها سيدي محمد بن ناصر الدرعي[4] رضي الله عنه، فاقتبس من علومه مدة ثم خرج من هنالك وجال في أقطـــار المغـــرب،

---

[1] كتاب عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء أو نكتة سر الشفا في القرن اللاحق بقرن المصطفى للـشيخ محي الدين ابن عربي، توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط: الموسوعة المغربيـــة للأعـــلام البشرية والحضارية 2:54.

[2] تقدمت ترجمته.

[3] تارودانت: تقع قرب أكادير، كانت تعرف قديما بـــ Vala: الموســـوعة المغربيـــة للأعـــلام البـــشرية والحضارية 4:306.

[4] تقدمت ترجمته.

ودخل سجلماسة وغيرها من البلاد القبلية، ثم وصل إلى مراكش ثم وصل إلى تادلا[1] ثم إلى فاس، ولقي بها أوحد زمانه في سلوك طريق الصدق، العديم النظير في معرفة أدب معاملة الحق والخلق، سيدي محمد بن عبد الله معن الأندلسي[2] رضي الله عنه، وكان دخوله لفاس بقصد تعلم العلوم الرسمية سيما علم الحكمة من هيئة وتنجيم وحساب ومنطق وما شاكل ذلك، فقد كانت له اليد الطولى في ذلك، شديد البحث عمن يتقن بعضها، فلم يظفر في بلاد المغرب بمن يشفي غليله في ذلك، فلما دخل فاسا ولقي العارف بالله سيدي محمد بن عبد الله زجره أشد الزجر عن تعاطي هذه العلوم وغيرها من العلوم الرسمية، ومنعه من لقاء علماء الوقت، وألزمه بالرجوع لوالديه[3] والأخذ بخاطريهما، فرجع إلى والديه حتى طابت قلوبهما وأذنا له في السفر، فرجع إلى مراكش وأقام بها مدة وانتفع بعلمائها كسيدي محمد بن سعيد[4]، وحكيمها المريد، وغيرهما، ولم يزل ينتقل في البلاد إلى أن وصل البلاد المشرقية، ودخل[5] الجزائر وأقام فيها مدة، وانتفع بأهلها كسيدي سعيد بن إبراهيم قدورة[6] وغيره، وأخبرني أنه لقي هنالك رجلا من أصفياء الصالحين، وكان يواظب الجلوس عنده، وهو في الغالب ساكت لا يتكلم. قال: وذات يوم ضاقت علي نفسي، ولا أدري أين أتوجه من البلاد، فجئت إليه فلما جلست عنده قال لي: أنت مسجون عند النبي صلى الله عليه وسلم، وقد آل الأمر به إلى ما قال، فإنه انتهت به سياحته إلى المدينة المشرفة ولم يخرج عنه من لدن وصلها إلا إلى مكة، ثم دخل كثيرا من البلاد الإفريقية، ثم ركب البحر إلى اصطنبول، ووقعت هنالك وقائع مع بعض علمائها، منها ما أخبرني به أنه نزل

---

(1) تادلا: كانت تسمى دالا، وكانت دائما محط عناية الملوك نظرا لما كانت تحتوي عليه من مراحل ونزلات بين فاس ومراكش: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 4:303.

(2) محمد بن عبد الله معن الأندلسي، صوفي صاحب الزاوية بالمخفية من فاس، من أصحاب الشيخ أبي المحاسن الفاسي وتلامذته، توفي عام 1062 هـ: التقاط الدرر، ص: 130. اقتفاء الأثر، ص: 143. شجرة النور الزكية 1:446.

(3) في ط: إلى والديه.

(4) محمد بن سعيد بن محمد المرغيثي السوسي المراكشي، إمام محدث، أخذ عن العربي الفاسي ومحمد الجنان وعيسى السكتاني، استكتب لبعض أمراء الدولة السعدية، من تآليفه: المقنع في التوقيت وشهور العام، توفي سنة 1089 هـ، وكانت ولادته سنة 1007 هـ: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام 5:304.

(5) في ط: وصل.

(6) سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري الدار التونسي الأصل، مفتي الجزائر وخطيبها، له حاشية على شرح الصغرى، توفي عام 1066 هـ: التقاط الدرر، ص: 139. شجرة النور الزكية 1:447.

هناك عند رجل يتظاهر بالعلم والصلاح، ويزعم أنه من ذرية الشيخ زروق، رضي الله عنه، وله صيت في ذلك البلد، قال: وكنت لفرط اعتقادي في الشيخ زروق لما سمعت أنه من ذريته آويت إليه وأجللته واعتقدت فيه الخير، قال: وأخرج إلي رسالة في التصوف لبعض المتأخرين وأمرني بنظمها، فنظمتها، وكان ذلك دأبه إذا ورد عليه غريب ممن ينتحل العلم كلفه بنظم شيء أو تأليفه، ثم ينتحل لنفسه ذلك ويباهي به الأعاجم الذين يعتقدونه، وعندما بدا لي خبث طويته وظهرت لي منه مقاصد غير محمودة، اعتزلت عنه، وصادف ذلك بعض الأشهر المعظمة، فاعتزلت في بعض الرباطات أتحنث ليالي ذوات عدد، ولم يعرفني أحد ولا خرجت ولا دخل علي أحد مدة، وخفي عليه مكاني وطال بحثه عني، ولم يقف لي على خبر، وتحير في شأنه لأنه لفرط غباوته عندما قدمت عليه وسر بي كأني منه، أوحى بالخبر إلى أم السلطان أنه قد قدم علينا هنا رجل من شأنه كذا وكذا، وبالغ في التعظيم حرصاً على ترقية مهابته في قلوبهم بأنه ممن يقصد للزيارة من الأماكن البعيدة، واستدراراً لصلتهم، فطالبته بإيصالي إليها، فلم يقف لي على خبر، وسقط في يده، فأخذ يتعلل لها وأنا لا أشعر بشيء من ذلك، فلما فرغت من تحنثي وخرجت من خلوتي جئته ذات يوم لأسلم عليه ولا علم لي بما وقع، فلما وقعت عينه علي هش وبش ورحب وقال لي: أين كنت؟ فقلت: في بعض أطراف المدينة لأغراض، فرمز لي بالخبر، فأخذت أعتذر له، فتنكر لي وقال لي: أنا مطالب بك، وأخاف على نفسي إن لم أحضرك، فلما علمت منه الجد علمت أنه لا ينجيني منه إلا الكيد، وكنت في خلال ذلك لم أظهر له التصميم على الإباية، فعدلت إلى فن آخر من الكيد وألنت له الكلام وقلت له: هذا من ظهور أثر بركتكم علي حيث صار مثلي ممن يطلب إلى هذه المراتب العلية، فجزاك الله عني خيرا، فسمعا وطاعة لأمرك، حتى اطمأن إلى قولي، وقلت له: إن لي بعض أمتعة في بعض الحواصل، وأنا أريد أن أحولها إلى عندك هنا وآتي بكتبي ليطمئن قلبي. وقال لي: هل تحتاج إلى معين فأبعث معك أحداً؟ فقلت: لا، وجزيته خيراً فخرجت من عنده، فلم تلق عيني عينه إلى الآن. ومن جملة ما وقع له أيضا هناك ما أخبرني به أنه دخل على بعض المفتين من علمائهم فقدم إليه القهوة والدخان، وذلك عندهم من جملة المكارمة، فامتنع من ذلك، وألح عليه فلج في إبائه، فقال له: أزهدا أم تزهدا؟ فقال: بل فرارا من حرام أو شبهة، فدار الكلام بينهما في ذلك. قال: ومن الله علي بقوة القلب واستحضار الجواب، وكنت إذ ذاك قريب عهد بالقراءة، وقد

أتقنت طرفا من أصول الفقه والمنطق، فلم يأت بدليل إلا من الله بإبطاله حتى أفحمته، وانفصل المجلس وتسللت من عنده واختفيت في بعض الأماكن، وشاع الخبر[1] في البلد أن مغربيا دخل على المفتي وناظره في كذا وكذا حتى أفحمه، ولم أزل مختفيا إلى أن خرجت منها بعد مدة. ثم وصل إلى مصر ولم تطل إقامته فيها وسافر إلى الصعيد وأقام مدة بمدينة جرجا[2] إلى أن سافر منها إلى الحجاز.

لطيفة:

كان صاحب الترجمة ينهى عن لباس الصوف الرائق الذي يأتي من بلاد الروم منسوجا وتتخذ منه الجوخات [والأقبية الرفيعة الشبيهة بالحرير في لونه وصنعه ورطوبته، وهو لباس غالب علماء مصر والقاهرة والشام والحجاز][3] وغيرها، ويرى بطلان الصلاة فيه قائلا إنه استيقن الخبر من أهل البلد التي يأتي منها أنهم ينتفونه عن الغنم وهي حية، وأنه لا يكون إلا كذلك، وبذلك يصير في تلك الحال من الرطوبة والرقة، وإذا ثبت أنه كذلك فهو نجس، ولما كان بالصعيد كتب سؤالا في ذلك إلى شيخ المالكية بمصر شيخنا الأجهوري، رحمه الله، فكان من جملة جوابه على ما قال: أنه إن ثبت ذلك فيخرج على أحد الأقوال في النجاسة من سنة، واستجاب لعموم البلوى به، فراجعه بأن القول بالسنة مرجعه إلى الوجوب على ما قال الحطاب وغيره، والقول بالاستحباب لم يقل أحد بتشهيره فلا يعول عليه، فأجاب بأنه قد شهر أيضا ومن شهده الفاكهاني.

قال صاحب الترجمة: ولم أر للفاكهاني تشهيرا من ذلك، وكان يحط من قدر الشيخ الأجهوري وأصحابه بمثل ذلك؛ لأن أصحابه في ذلك الوقت هم المتأولون بجواب ما يرد عليه من الأسئلة لكبر سنه وإضراره له من الكتابة.

قلت[4]: ويمكن البحث في كلام صاحب الترجمة بأحد ثلاثة أمور أحدها ما كان يورده على نفسه ولا يرتضيه، وقال لي إن بعض الناس قد نقل له ذلك عن محقق المغرب سيدي أحمد بن عمران، وكان إذ ذاك بالقاهرة، وهو أن الصوف

---

(1) ساقط من ط.

(2) جرْجا: قرية من أعمال الصعيد قرب إخميم: معجم البلدان: جرجا.

(3) ما بين معقوفتين ساقط من ط

(4) وردت هذه الفقرة من كلام العياشي في نشر المثاني 2:315.

المذكور إن سلم أنه كان منتوفا فالمتجنس منه جزء قليل من أصله وهو أضعف ما فيه، وما سواه يطهر بالغسل. ومن المعلوم أن هذا الصوف لا يصير إلى هذه الحال التي يلبس فيها إلا بعد أعمال كثيرة من غسل ودق ونفش وقصر وغزل ونسج وغير ذلك، ومعلوم أيضا أن ذلك الجزء الضعيف لا يصبر على[1] ملاقاة هذه الأعمال ولا يبقى معها بل يضمحل بالكلية، وإذا تحقق أن عين النجس قد ذهب فلا معنى لمنع ما سواه، ولو نفشت قطعة من هذا الصوف وتتبعت شعراتها لم يوجد فيها ما يتوهم أنه من أصل الشعر إذ لم يبق إلا الصحيح المشابه للحرير، وهذا الذي قاله صحيح، وصاحب الترجمة يقدح في ذلك بتدقيقات عقلية ويقول: إنا قد تحققنا نجاسة هذا المحل فلا يطهر إلا بتعين ولا يقين مع احتمال بقاء جزء ولو مثل رأس الإبرة في جميع الجبة الكبيرة، وتفتيش قطعة منها، ولم يوجد فيه شيء لا يدل على سلامة الجوخة كلها، بل ولو فتشت جوخة ولم يوجد فيها، فغيرها محتمل لأن يوجد فيه. قلت: ومثل هذه التدقيقات بالاحتمالات العقلية تنبو عنها الفروع الفقهية المبنية على غلبة الظن القريب من القطع؛ إذ لو بنينا الأمر عليها ما صحت لنا عبادة إذ ما من ماء ولا ثوب إلا وهو محتمل عقلا أن يكون تعلق به شيء من النجاسة، وبعد غسل المتجنس أيضاً على هذا التدقيق لا يطهر لأن الغسل لا ينفي احتمال بقاء جزء قليل من النجاسة في خلال المغسول احتمالاً عقلياً، لكن الأحكام في ذلك إنما نيطت بما يغلب على الظن مستندا في ذلك إلى حكم العادة لا إلى مجرد التجويز العقلي الذي لم يستند إلى عادة في الغالب، فمن غسل ثوبه حتى غلب على ظنه أن أجزاء النجاسة كلها قد خرجت مع الماء فقد طهر ثوبه مستنداً في ذلك إلى أن العادة في ملاقاة هذا القدر من الماء لهذا القدر من النجاسة، مع مثل هذا العرك وتوالي الصب لا يبقي من النجاسات في هذا المحل، ولا نبالي مع ذلك بما يجوزه العقل من بقاء شيء من الأجزاء غير مستند في ذلك إلى عادة ولا إمارة من لون أو طعم أو ريح، ولا أظن الفقهاء يختلفون في مثل هذا.

وأشباه هذا كثير، ومنه غسل المخرج في الاستنجاء فليس بمرئي، بل إذا غلب على ظنه النقاء مستندا إلى إمارة، كحروشة المحل وذهاب الرطوبات فقد أنقى، وكذلك تعميم العضو في الوضوء والجسد في الغسل، فإذا غلب على الظن

[1] في ط: عن.

إيصال الماء إلى المحل المطلوب وصوله إليه، وإن كان غير مرئي ولا ملموس باليد، بل بحبل وعصا ومستندا في ذلك إلى أن العادة أن هذا القدر من الماء إذا مر بمثل هذا العضو يغمره فقد تطهر المحل بذلك، وما يجوزه العقل من بقاء شيء لم يصل الماء إليه لا عبرة به، واعتباره هو عين الوسوسة المنهي عنها، وقالوا إن أصلها خبال في العقل أو جهل بالسنة، فلولا أن السنة هي الجري مع المعتاد والظن الغالب في أمثال هذه الأمور لما عدوا هذا جاهلا بها، وحيث عبر الفقهاء في الصلاة والطهارة وسائر أنواع العبادات باليقين، فالمراد به هذا الظن الغالب الذي يعد مقابله وسوسة لمرجوحية احتماله لا اليقين الذي هو أقوى أنواع العلم كما هو عند المتكلمين إذ ذاك عزيز الوجود في العقائد التي هي أصل الدين، فما بالك بفروع الفقه المبنية على الظن والاجتهاد في كثير منها، فإذا علمت ما قررنا فمن رأى هذا الصوف المذكور وإتقان صنعته الغريبة الدالة على تعدد الأعمال والأشغال المتداولة عليه إلى أن صار لا يميز بينه وبين صافي الإبريسم إلا من عرفه قبل ذلك، وأخبر بعد ذلك بأنه قد نتف لا يكاد يرتاب في بقاء شيء من أصوله فيه، فإذا غلب على الظن غلبة قوية عدم بقاء شيء من أصوله فيه مستنداً إلى العادة الواضحة في أن بقاء ذلك الجزء الضعيف الرخو فيه مما يخل بإتقان تلك الصنعة فلا معنى للتوقف في طهارته، إذ بهذه الطريق حكمنا بطهارة كل متجنس، ويزيد هذا وضوحاً أن الصوف المجزوز الاتفاق على طهارته مع أنه في الغالب لا يخلو من شعرات متعددة منتوفة في حال الجز وقبله، وبقيت في خلال الصوف، بل العادة قاطعة بوجودها، ومن باشر ذلك ورأى الصوف على ظهور الغنم وحضر جزازها علم ذلك وتحققه، ومع ذلك فقد ألغينا ذلك القليل الذي لا يمكن الاحتراز منه عن الاعتبار مع تحقق وجوده لعدم العلم بعينه، وللمشقة الفادحة في تمييزه عن غيره، فليكن مثله هذا الجز الذي احتمل بقاؤه على تقرير بقائه.

ثانيهما: إذا سلمنا أن هذا الصوف منتوف، فمن لنا بأنهم لا يجزون الأصول بعد النتف، والغالب أنهم يجزونها إذ لا غرض لهم في بقائها، بل تعين لهم الغرض في إزالتها لتجويد الصنعة وإتقانها، وإذا كان المباشرون لذلك مسلمون كما قال، فالأصل فيهم توقي النجاسات وإزالتها عن ملابسهم، سيما حيث لا غرض لهم فيها، فيكون الأصل فيها الطهارة حتى يثبت عدم الجز، أو يقوم مقامه وما أبعد إثباته.

ثالثها: سلمنا نتفها وبقاء أجزاء النجاسة فيها إلى الآن، و لم نلاحظ أيضاً ما ذكرنا في بقاء مثلها في الصوف المجزوز بالمشاهدة، فلا يبعد قول الشيخ الأجهوري، فخرج على القول بعدم وجوب زوال النجاسة لأمور أحدها أن ما ذكره الحطاب من أن الخلاف في الوجوب والسنية لفظيا غير مسلم لورود ظواهر في جزئيات كثيرة تدل على أنَّ القائل بالسنية يقول بلوازمها من عدم الإثم حيث لم يقصد التهاون وصحة الصلاة وغير ذلك. ثانيها ما ذكر من كون القول بالاستحباب لا يشهره أحد شهادة على النفي والمثبت مقدم على النافي، سيما مثل الشيخ الأجهوري[1] في جلالته وسعة اطلاعه على فروع المذهب التي سلم له فيها المناظر فإنه لم يبلغنا عن أحد في عصرنا وما قرب، منه أنه جمع من كتب المذهب ما جمعه، فلا يبعد أن يكون اطلع على تشهير هذا القول، سيما وقد عزاه، والناقل أمين. ثالثها: سلمنا عدم مشهوريته فليس ببدع تخريج قول في مسألة عمت البلوى بها وعسر الاحتراز عنها، وجرى في أقطار الأرض العمل بها من غير نكير على قول في المذهب، صحيح ليس بمنكر ولا غريب ولا مردود، إلا أنه لم يشتهر كغيره، وكثيراً ما يكون القول المخرج هو المشهور في المذهب، والمخرج عليه ضعيف، فيقولون: هذا مشهور خرج على ضعيف، ومن تأمل فروع المذهب واستقراها من أماكنها علم صحة ما ذكرنا، وشيخنا الأجهوري أمثل من له في زمانه الترجيح في فروع مذهبه والتخريج على أن هذه المسألة من فروع قاعدة أصولية وهي تعارض الأصل، والغالب، وقد علم ما فيها من الخلاف، وشهرت جزئيات كثيرة من كلا القولين، نعم يمكن أن يقال أم هذه الجزئية مما ألغي فيها الأصل اتفاقا لما أعتقد به الغالب من الوجوه التي قربته من القطع عادة، وقد قيل بذلك في أشياء إن لم تكن هذه أقوى منها فهي مثلها، والله الموفق للصواب.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر حال صاحب الترجمة، فقد ذهب إلى الحجاز على طريق الصعيد، ثم حج واستوطن المدينة المشرفة، وكان سكناه بها آخر بيت منفرد برباط السلطان فيه طاقات يشرف منها على الحرم الشريف، فاعتزل فيه عن الناس و لم يعاشر أحدا في المسكن، وتعاطى أسباب معاشه بيده، وترك الخروج نهاراً، وربما خرج بليل للزيارة أو لمهم آخر، وربما أغلق على نفسه بابه شهراً أو أشهراً لا يراه أحد، فنشأت له بذلك هيبة في القلوب، وحصل له ناموس

[1] ساقط من ط.

عند الخاصة، وربما تعاطى القراءة مع بعض خواصه في بيته في وقت معلوم لا يأذن فيه لغيرهم، وربما لمته على كثرة[1] الانزواء وعدم التدريس في المسجد لنفع العام والخاص، فيعتل بفساد الوقت ونيات أهله ومشاهدة المناكير مع عدم القدرة على زوالها كلبس الحرير وتعاطي الدخان، وقال لي: كيف أجلس إلى قوم أعلم حالهم وحال مكاسبهم من أكل المكوس وتعاطيهم للعقود المحرمة شرعا، مع العلم بذلك فإن نهيتهم وزجرتهم وقعت معهم في أشد مما وقعوا فيه، وإن سكت عنهم وباسطتهم وألنت لهم القول كنت معينا لهم وممالئا لهم على ما هم فيه، وتركت الواجب علي من هجرانهم بلا عذر إلى غير ذلك مما هو معلوم، وكان رضي الله عنه شديد الورع ضيق الحوصلة في تحمل أعباء ملاقاة الخلق، مقبلا على شأنه لكنه غير عارف بزمانه كما قيل:

[رمل]

كانَ لا يَدري مُداراة الورَى   ومداراةُ الورَى أمرٌ مُهم[2]

وكان هو وشيخنا أبو مهدي في حاليهما في ذلك على طرفي نقيض مع صلاح حالهما معا وديانتهما ووفور علمهما، وربما عاب كل منهما على الآخر ترك ما عاب عليه فعله، وقد قلت له ذات يوم: إنَّ سيدي عيسى يقول: ما أحسن فلانا لو أنه كف من غربه شيئا وألان جانبه للخلق، فقال لي: وأنا أقول ما أحسنه وأعلمه وأجراه على منهاج السلف، لو انقبض عنهم شيئاً وترك مداهنتهم في الحق، وكل على هدى، إلا أن النفس إلى ما عليه الشيخ عيسى أميل حسبما أشرح حاله في ترجمته، لأن اعتزال الخلق في هذه الأزمنة وعدم الاختلاط بهم والتجهم لهم وحجبهم عند الاستئذان مع معرفتهم له واستشعارهم لخصوصيته مما يزيدهم به إغراء وله مطالب، فيشار إليه بالأصابع، ويحمل من يرى في نفسه أنه مشارك له في علمه وخصوصيته على التطلع لعوراته والتتبع لزلاته والقعود له بالمراصد ليسقط مترلته من قلوب الخلق، فيصيب نفسه غرضا لسهام ألسنتهم فيتضرر بذلك في دنياه وفي دينه إن كان ممن يكثر تألمه بما يبلغه عنهم ويؤثر ذلك عنده حقدا، وإنما ينبغي ذلك ممن كان مغموضا بين الناس لا يؤبه به ولا يفتقد إن غاب ولا يستأذن عليه إن احتجب فيجد الراحة في نفسه من عدم مشاهدتهم

---

[1] في ط: لكثرة.

[2] البيت لابن الوردي، ورد في: طبقات الشافعية 3: 44.

ومخالطتهم من غير أذى يصل إليه منهم، فيسلم له دينه ودنياه، وأما مـــن كـــان مشهورا بينهم موسوما بخصوصية تستشرف النفوس إلى لقائه ومخاطبته، فلا ينبغي له أن يحتجب عنهم ويظهر الانزواء عنهم والتكره للقائهم، سيما إن كان يصرح بذمهم ويعيب ما هم عليه، فإن ذلك، وإن كان حقاً في نفسه، إلا أنه عرض بـــه نفسه لآفات كثيرة كان في غنى عنها، اللهم إلا أن تكون له حال قاهرة فيترك وما انتحل من ذلك فإن الله جاعل له عنه فرجا ومخرجا. وقد بلغني بعد انفصالي عن المدينة بأزمان أن صاحب الترجمة، حرس الله مهجته، قد أوذي وكثرت القالة في شأنه، وأدى ذلك إلى خروجه من المدينة إلى مكة، وأطلق الحسدة فيه ألـــسنتهم، وكنت شممت بعض ذلك من بعض الناس ونحن هناك إلا أني ما كنت أظن أنـــه يبلغ ما بلغ، (وكان أمر الله قدرا مقدورا)[1]، وديانته ومكانته من العلم بالله تحميه إن شاء الله منهم، سيما وهو غير منازع لهم في دنياهم ولا مساهم لهم في خططهم التي يتنافسون فيها، إذ أن داء الحسد قديم، ودواؤه من بين سائر الأدواء عـــديم، (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)[2].

ولما قدمت المدينة المشرفة ولقيت صاحب الترجمة، ولم أكن أعرفه قبل ذلك ولا عرفني، إلا أن عنده من خبري ما عندي من خبره، فبالغ في التحفي، وباشـــر الملاقاة أحسن المباشرة، وعندما أخبرته بما نويته من المجاورة سر بذلك وهيأ لنـــا مترلا بجواره كان يترل فيه قبل، وهو محل خزانة كتب وقف السلطان قايت باي مشرف على الحرم، وأدخلني إليه وأرانيه وباشر الخدمة فيه بنفسه من كنس وفرش وتنظيف وتهييء مرافق، حتى أخجلني ما رأيت من بره وإحسانه وتواضعه، فجزاه الله أحسن الجزاء، ورمت أن أساعده في العمل وأخفف عنه فامتنع، وكتبت إليه بسبب ذلك أبياتا:

[طويل]

بطيبةَ قـــد خيمـــتُ بعـــد تَعـــشق ... وزرتُ شفيعَ الخلقِ في كل موقـــفِ

وصَححتُ عزمي في الجوارِ بأرضـــهِ ... وكان نُزولي عند أفـــضلِ مُنـــصفِ

أخي وخَليلي بل إمـــامي وســـيدي ... وجامع كل الفـــضل دُون تخلـــفِ

(1) الأحزاب: 38.
(2) النور: 44.

فلما نزلنَا أحسنَ النزل واللقا وقامَ مقام الخادم المُتلطفِ

وليسَ بعيب خدمة المرء ضيفهُ ولكنها زيادة في التشرفِ

وبالغَ في إكرامنا واحتفى بنا ودامَ على حُسن اللقا والتآلفِ

وأخجلني إحسانهُ فهممتُ أن أخففَ عنهُ رغبةً في التعطفِ

وقالَ لي الظن الجميل به فما عليكَ فلا تخجل فلست بمُسرفِ

ولا كُلفة فيما فعلت فإنما علامةُ صدقٍ والود تركُ التكلفِ

وقد كنتُ أرجو أن أفوزَ بوصلهِ وكنتُ له قِدما كثيرَ التشوفِ

وإذْ نلتهُ فالحزم أن لا أضيعهُ وأطلبُ ما يُبقيهِ دون تَشوفِ

جزاهُ إلاه العرشِ عني فإنني لِما نالني من خيرهِ ذو تعرفِ

أقو لُ له والقلبُ يغبطُ حالهُ هنيئا لك البُشرى بما نلتَ فاعرفِ

مُنحت جوارَ المُصطفى فاغتبطْ به يُنلك غِنى الداريْنِ حَسبك فاكتَفِ

هُو البحرُ جُودا غير أن شمائلا له عذبَتْ حتى حلا ذكرهُ بفِي

عليه صلاةُ الله ثم سلامهُ يُنيلان أمْنا في مكان التخوفِ

ثم لم تتيسّر الإقامة بجواره لتعذر أسباب اقتضى الوقت مباشرتها، فانتقلت إلى محل آخر، ولم أزل بعد ذلك أكثر الترداد إليه وأستشيره في أموري، وكان ميمون النقيبة له ورع تام ما رأيته في عصرنا لأحد، لا يقبض من أحد شيئا إلا قليلا ممن علم وجوه مكاسبه وتحقق استقامته فيها، انتهى به الورع إلى ترك أكل ثمار المدينة بالجملة لفساد معاملة أرباب الحوائط لعمالها في الغالب، فإن رب الحائط يعامل المساقى أوسق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاشٍ عندهم قَلَّ من يعامل المساقى بالجزء المشاع السائغ شرعا، ومن ورعه أنه لا يتقوت في الغالب إلا من كسب يده، وكانت له يد صناع يحسن غالب الحرف المهمة، سيما القيقة العمل الرائقة الصنع، كالطرز العجيب، والصياغة المتقنة، وتسفير الكتب، والخرازة، وقد أخبرني أنه لما كان بمراكش كان لا يتفرغ في الأسبوع إلا يوم الخميس فيطلع فيه

ثلاثة أزواج من السباط[1] أو أكثر، فيبيعها ويتقوت بها إلى الخميس الآخر، وله يد طولى في عمل الأسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية كالأربـــاع والـــدوائر والأنصاف والمكانات[2]، ومن أعجب ما رأيته من صناعته أنه يجبر قوارير الزجاج المنصدعة بحسن احتيال ولطف تدبير إلى أن لا يكاد صدعها يبين، ويصير مثـــل الشعرة الرقيقة، ومن ألطف ما أبدعه وأدق ما صنعه وأجل ما اخترعه الآلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة و لم يسبق إلى مثلها ولا حاذى أحداً على شكلها، بل ابتكرها بفكره الفائق وصنعه الرائق، وهي كورة مستديرة الـــشكل منعمـــة الصقل مغشاة ببياض الوجه المموَّه بدهن الكتان، يحسبها الناظر بيضة من عجسد لإشراقها، مسطرة كلها دوائر ورسوم، قد ركبت عليها أخرى مجوفة منقـــسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف لدوائر البروج وغيرها، مستديرة كالتي تحتها مصقلة مصبوغة بلون أخضر، فيكون لها ولما يبدو من التي تحتها منظر رائق ومخبر فـــائق، وهي التي تغني عن كل آلة تستعمل في فني التوقيت والهيئة [مع ســـهولة المـــدرك لكون الأشياء فيها محسوسة والدوائر المتوهمة في الهيئة][3] والتقاطع الذي بينـــهما مشاهد فيها، وتخدم لسائر البلاد على اختلاف أعراضها وأطوالها، وحاصل القول فيها إن الوصف لا يكاد يحيط بها، ولا يعلم قدرها ومزيتها إلا مـــن شـــاهدها، وكانت له معرفة بالعلمين فيرى ما يذهل الفكر ويحير النظر، ويعلم أن من اهتدى لاستخراج ذلك للعيان بعد أن كانت القرائح الجيدة تحير في تصويره ذهنا قد أيد بنور الهدى، وإلهام رباني، وقد ألف واضعها رسالة في وصفها وكيفية العمل بها في سائر المطالب التي تدرك بغيرها وزيادة، فلنورد أولها لما فيه من غالب رســـومها والأشكال المثبتة فيها.

قال: رضي الله عنه، باسم الله الرحمن الرحيم، إن أزهى ما تجلى البـــصائر العقول من أوجات عوالم الإلهام وأبهى ما تحلى بمشاهد عرفانه دوائـــر النفـــوس وطوالع الأفهام، حمد من تحجب في سرادقات الكبرياء بسبحات عـــزه ومجـــده، وأصدع بمحامد لسن العوالم، (وإن من شيء إلا يسبح بحمده)[4]، فسبحانه مـــن

[1] السباط: الحذاء: عامية مغربية، يقول الدكتور محمد بنشريفة: والـــسباط عنـــد الأندلـــسيين والمغاربـــة: الحذاء، وهي في الإسبانية Zapato: أمثال الوام في الأندلس 2: 109.
[2] المكانات: جمع مكانة، وهي الساعة في العامية المغربية.
[3] ما بين معقوفتين ساقط ن ط.
[4] الإسراء: 44.

عظيم خجلت سوابق همم الأبطال دون مطالع جلاله المحجب الحاجب، وحكم نصبت قدرته الباهرة في فسيح الفضا قبب الأفلاك المرصعات بجواهر زواهر الكواكب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه نجوم الاهتدا وقادة المشارق والمغارب. أما بعد، فإن من فيض منن الله التي لا تحصى، وإغداق وابل مواهبه التي لا تستقصى، أن ألهمني لوضع آلة يستفيد بها إن شاء الله في علمي الهيئة والتوقيت من القاصرين أمثالي، ويجمع بها ما تفرق في جميع الآلات من أعمال الأيام والليالي، ومن أحاط بها علما أغنته عن المجسطا[1] في التعليل والبرهان لأنه غيب وهي شهادة، وليس الخبر كالعيان، وقد فتح الله تعالى بتعليق هذه العجالة عليها وأبتهل إليه جل جلاله في الإسعاد بالرجوع ثانيا إليها، لإبراز ما تنطوي عليه وما كمن من الفوائد لديها، ولرجائي من الكريم نفعها سميتها بالنافعة على الآلة الجامعة[2]، وحسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب أينما توليت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله (وصحبه)[3] وسلم.

مقدمة في تسمية أجزاء الجامعة ورسومها، الجزء الأول من الأجزاء المنفصلة المركبة، وهو: الكرة[4] العليا من الجامعة المخرمة المنفصلة إلى قطعتين وصل بينهما قفلان ويشتمل على تسع دوائر وأربعة أقطاب، ومحور، وشطبتين، وقوس، ومدى[5] الأجزاء، وكواكب. وأما الدوائر فالأولى هي منطقة الفلك الثامن، وتسمى منطقة البروج، وهي المنقسمة إلى ستين قسما[6] متساوية عليها أسماء البروج مكتوبة. الثانية: منطقة الفلك التاسع، وتسمى معدل النهار، وهي المقاطعة للأولى على غير قوائم، وغاية ميل الأولى عنها هو غاية الميل الأعظم، وتنقسم إلى مثل الأقسام الأولى. الثالثة دائرة مبدإ الميل، وهي المقطعة للثانية على قوائم المنقسمة إلى مثل تلك الأقسام أيضا. الرابعة دائرة وسط السماء، وهي المقاطعة

---

(1) المجسطا: المَجَسْطِيّ: اسْمٌ لِعلْمِ الهَيْئَةِ، وبه سمي الكتاب الذي وضعه بطليموس الحكيم، وعُرِّب في زمن المأمون: تاج العروس: مجسطَ..

(2) أشار محقق إتحاف الأخلاء إلى أن شار بلا قد نشر هذه الرسالة في: tome XXVI.p. 7-82 Bulletin d'études orientales أنظر: ص: 25 من مقدمة المحقق.

(3) زيادة من ط.

(4) في ط: وهي الكورة.

(5) في ط: مري.

(6) في ط: شس أقسام.

للثلاث الأول على قوائم، وهي والخمس البواقي محددات للبروج الإثني عشر، قسم منها مرسومة، وقسم مخرومة، والمحددة منها بين الحمل والحوت تتقاطع مع الثلاث الأول على نقطتين إحداهما رأس الحمل، وتسمى بالاعتدال الربيعي، والثانية رأس الميزان، وتسمى بالاعتدال الخريفي، وأما الأقطاب فاثنان منها قطبا الفلك التاسع، ويقال لهما قطبا معدل النهار، وهما النقطتان المتقابلتان التي تتقاطع عليهما دائرة مبدإ الميل، ودائرة وسط السماء في إحداهما مسمار يسمى المحور، والاثنان الباقيان قطبا الفلك الثامن، ويقال لهما قطبا فلك البروج، وهما النقطتان اللتان يتقاطع عليهما دوائر البروج، وأما الشطبتان فهما الصفيحتان المثقوبتان المنصوبتان على دائرة مبدإ الميل في جنبتي القطب الذي فيه المحور، وأما القوس فهو أحد نصفي دائرة مبدإ الميل فيما بين قطبي العالم، وأما المدي فهو النقطة التي هي رأس الحمل ومنه ابتداء أجزاء كل من القوس وفلك البروج ومعدل النهار، وأما الكواكب فهي الشظايا المحددة المكتوب عليها أسماء الكواكب، وقد توضع على سطح المركب نقط لكواكب أخر ويكتب في كل جنب نقطة اسم ذلك الكوكب.

الجزء الثاني: الكرة، وهي المجسمة التي يدور عليها المركب، وسطحها ينقسم إلى نصفين، أحدهما يسمى الظاهر، وهو الذي رسمت فيه المقنطرات، وهي الدوائر المتوازية المتضايقة، وأعظمها أولها، وتسمى دائرة الأفق، وعدد المقنطرات تسعون، وتكون ثلاثية وخماسية وغير ذلك، وفي داخل أضيقها نقطة تسمى سمت الرأس والسموت، وهي المقاطع جميعها لجميع المقنطرات، ولسمت الرأس ويقسمها إلى أربعة أقسام عظيمتان قائمتان على سمت الرأس على الأفق، وتسمى إحداهما نصف النهار، وهي التي ربعها مبخوش بأبخاش تسمى أبخاش العروض، وقد يطلق نصف النهار على النصف الظاهر من هذه الدائرة، وهي التي تقاطع الأفق على نقطتين المبخوشة منها تسمى عين الشمال، ومقابلتها تسمى عين الجنوب، والدائرة الأخرى تسمى دائرة عين المشرق والمغرب، وأم السموت أيضا، ومنها (دائرة)[1] مبدإ السموت، فإذا عدلت الجامعة بأن وضعت المحور في عين الشمال، وأردت المركب حتى يكون أول السرطان على نصف النهار من النصف الظاهر، فنقطة تقاطع أم السموت والأفق التي تحت أول الميزان تسمى نقطة المشرق، وعين

[1] زيادة من ط.

المشرق ومشرق الاعتدال وعين المغرب ومغرب الاعتدال ونصف الجامعة، والحالة هذه الذي حول المحور من السموت ونصف النهار والمقنطرات ومنطقة البروج والكواكب والأقطاب يسمى شمالياً، والنصف الآخر يسمى جنوبيا، والنصف الذي حول مشرق الاعتدال يسمى مشرقيا،ومقابله يسمى مغربياً فالربع من السموت الذي من عين المشرق إلى عين الشمال شرقي شمال، ومقابله غربي جنوبي، والذي إلى عين الجنوب شرقي جنوبي، ومقابله غربي شمالي، وفي كل ربع تسعون سمتا، وقد يوضع بين المقنطرات قوس العصر أو غيره في عرض مخصوص، وقد يوضع ذلك بين الساعات، وهو الأصح. والنصف الآخر من سطح الكرة يسمى الخفي، وفيه قسى الساعات الزمانية لبعض العروض وهي قطع دوائر عددها اثنا عشر ساعة، ومبدؤها من الأفق الغربي ونصف الليل، ويسمى وتد الأرض، وهو النصف الخفي من دائرة نصف النهار، ويقسم النصف الخفي من دائرة المشرق والمغرب إلى ربعين، كل منهما مقسوم إلى تسعين جزء أدراج الارتفاع، وقد يكتفي غالبا بالمغربي منهما ويسمى قوس الارتفاع، وقوس الظل هي الموازية لقوس الارتفاع المقسومة إلى نصفين، فبينهما فصل مشترك مكتوب على الموالي لأفق الظل المنكوس، وعلى الآخر الظل المبسوط، فإن قسم كل منهما إلى اثني عشر فالأقسام أصابع أو إلى ثمانية فهي أشبار، أو إلى سبعة فهي أقدام، وقد يوضع لكل منها قوس فتكون قسيا متوازية وموازية لقوس الارتفاع، ومبدأ المنكوس والارتفاع من الأفق، ومبدأ المبسوط من وتد الأرض وقوس الجيب، وهو قوسان متوازيان تحت قوس الظل الأعلى للجيب المبسوط، وابتداؤه من الأفق الأسفل، والأسفل للجيب المنكوس وابتداؤه من فوق الأرض وتحت الأفق قوسان موازيان له الشرقي منهما يسمى قوس الفجر، والغربي يسمى قوس الشفق، وتحت عين الشمال في وتد الأرض بخش يسمى بخش التركيب، والفصل المشترك بين قوس الارتفاع، ويسمى سمت الرجل وفيه مسمار مقصوص مغرق وفي رأسه ثقب يسمى بخش التعليق، ونصف هذا النصف الخفي وهو الربع الجنوبي من الكرة وضعت فيه الأقاليم السبعة ووضعت في كل إقليم بعض مدنه المشهورة، فلنفرض أنه هو الربع الشمالي من الأرض، وهو المسكون. الجزء الثالث: العلاقة، وهي كلاب منفصل معلق في خيط وثيق توضع عطفة الكلاب في بخش التعليق عند تعليق الجامعة لأخذ الارتفاع، وفي الجامعة دوائر أخر موهومة كدوائر الميول

ودوائر العروض، وسيأتي قريبا إن شاء الله بيانها، وكدوائر مقنطرات الانحطاط وسموته، وأهملنا وضع جميعها لعدم الاحتياج إليها والله (تعالى)[1] أعلم.

وقد قرأت[2] عليه بعض هذه الرسالة، مع إحضار الآلة الجامعة وبيان ما يحتاج إلى البيان من الأعمال المأخوذة منها، ولما شاع ذكر هذه الآلة عند الناس تنافسوا في اقتنائها، ولا يقدر أحد على إتقانها إلا هو، فكان يبيع الآلة منها بثمن غال، وطلبت منه بيع واحدة منها، فأبى من البيع ووهبها لي جزاه الله خيراً، والعجب أنها مصنوعة من الكاغد[3] ومع ذلك لو ألقيت من شاهق لم تنكسر، فهي مع صلابتها خفيفة الحمل لينة المجسة. وصفة ما تتخذ منه على ما أخبرني أن يؤخذ الكاغد فيلقى في الماء حتى يتحَلّل ويصير مثل العجين، ثم يأخذ الصمغ العربي في الماء حتى يتحلل فيعجن بمائه ذلك الكاغد عجناً ناعماً، ثم يتخذ منه الكرة ويجتهد في تكويرها حتى تكون متساوية الأقطار بالنسبة إلى المركز، بحيث لو ألقيت على سطح مستو لوقفت على نقطة واحدة، وقد أخبرني أنّ ذلك شَقّ عليه حتى أخذ مسماراً وأدخله في وسطها ثم أخذ نصف دائرة من نحاس مثقوب الطرفين فأدخل طرفيه في رأسي المسمار الخارجين عن جنبي الكرة، ثم أخذ يدير نصف الدائرة المذكورة على ذلك العجين المكور ويزيل الناتئ منها ويزيد على المنخفض حتى تكورت غاية التكوير، ثم طلاها ببياض الوجه، ثم كتب عليه ما احتاج إلى كتابته، ثم دهنها بدهن الكتان فوق الكتابة، فلأجل ذلك لا تمحى الكتابة المذكورة ولو أصابها بلل من عرق اليد وغيره، وكذلك أيضا الدائرة التي فوقها مصنوعة من مثل ذلك إلا أنه يخرمها ما دامت رطبة، فإذا يبس شيء منها قبل تمام خرمه شق عليه خرمه لأنه لا يكاد يعمل فيه الحديد إلا بمبرد من الهند يبرده به كما يبرد النحاس والحديد، وقد أخبرني أن الآلة الأولى التي استخرجها بقي في وضعها نحو عام واحتاج إلى كثير من الآلة في اصطناعها، ثم بعد ذلك سهلت عليه حتى صار يصنعها في مدة قليلة، وبالجملة، فهو أعجوبة الدهر في الذكاء وصنعة اليد، فلا يكاد يتعاصى عليه شيء من الصناعات المندرسة التي لم يبق إلا أخبارها فضلاً عن الموجودة، وقد حقق علم التنجيم بجميع أنواعه مع ما يتوقف عليه من علوم كالحساب وغيره، إلا أنه يتحامى تعاطي ما يدل منه على الحوادث المستقبلة ديانة

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: قرأنا.
(3) الكاغَد: القِرْطَاس، فارسي مُعرّب، تاج العروس: كغد.

منه رضي الله عنه، وكان يقول لي إن ما يتبجح به فلان، يعني ابن التاج، من علم حوادث الجو من الخسوفات والكسوفات ونزول الأمطار والصواعق ومـا هـو بسبيل ذلك أمر قريب المدرك سهل التناول، والتحقيق في هذا العلـم أمـر وراء ذلك، والتشاغل بمثلٍ ذلك بطالة وتمويه على العوام بأمور تـشبه إدراك الغيـب، وذلك مذموم شرعاً.

وله رضي الله عنه قصيدة في علم التوقيت أكبر من الروضة[1] بالغ في تجويد نظمها وأتقن فيها الفن غاية الإتقان، وخالف كثيرا من المؤلفين في ذلك الفن في أشياء بين حقيقتها بالدليل والبرهان، وقرب العمل فيها بضوابط وقواعد مبنية على الإرصادات الصحيحة الواقعة في هذه الأزمنة القريبة، كأرصاد السلطان أولغ بيك أحد ملوك العجم المتأخرين تمهر في هذا الفن غاية، وجمع من علماء مملكته من هو مثله في تحقيق الفن، فاستعان بهم في تحقيق ما رامه من ذلك، و لم يقلد الأقـدمين ولا بعدهم في شيء من تلك الأشياء، فرصد بنفسه هو وأصحابه ما احتـاج إلى رصده، حتى تحقق له ما يبني عليه الأعمال المطلوبة حسبما ذكر، كل ذلك في أول زيجه الذي هو أصح الأزياج في زماننا هذا على ما قال أرباب ذلك الفن.

ولصاحب الترجمة شرح على منظومته المذكورة أجاد فيه غاية الإجادة أعانه الله على إكماله، وقد كنت أردت كتابة ما كتب منه فلم يتيسر لي، ومن نظمه الدال على براعته قصيدة أجاب بها أبياتاً لصاحبه الشيخ يحيى بن الباشا الأحسائي[2] نزيل المدينة، وهي كما ترى ثمانية أبيات من المديد رويها الهمزة، وتتفرع عنـها عدة أبيات من أبحر شتى حسبما رسم فوقها، وأوائل حروف الأبيات الأصـلية حروف: (يا يحيى خذ) مشيراً إلى قوله تعالى: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة)[3] علـى طريق الاقتباس، ويغتفر ما فيها من الركاكة وعدم الانسجام لأجل ما اشـتملت عليه من أفنان الفنون ويانع الغصون:

---

[1] يشير إلى كتاب: روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار، وهي منظومة في 336 بيتا، توجد منهـا نسخة بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط تحت رقم: 1596 د، وهي لأبـي زيـد عبـد الرحمن بن أبي غالب الشهير بالجادري المتوفى سنة 539 هـ: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية 1:32.

[2] يحيى بن علي باشا، الأحسائي المدني الأمير، فقيه متصوف، ولد بالأحساء وبها نشا، تلقن الذكر ولـبس الخرقة، جاور بالمدينة إلى أن توفي سنة 1095 هـ: خلاصة الأثر 4:476.

[3] مريم: 12.

من اعلى الى اسفل وبالعكس متقارب بيتين مقصورا لقافية

من اعلى الى اسفل متدارك [illegible] فا قافية زاد

من اعلى الى اسفل وبالعكس هزج متدارك فا قافية [illegible]

شعر من المجتث والقافية مقصورة موصولة بالهاء

كل شطر شطر من الهزج والردف زاد

كل شطر من مجزوء البسيط والردف غير موصولة

كل شطر شطر من المديد انما لكلها القافية مقصورة موصولة بالهاء

كل شطر شطر من الوافر والزوج با مشرفة وعاقرار ممزوج

اذا قرأت من اعلى الى اسفل فهو المتقارب والقافية ممدودة

ي	يفعــت غــرة بــدر تباهــا	لامعــا وجهــا سمــي الــذكاء
ا	ارتقــى علــى الأنــام ضــياه	ساطع عطــرا شــدي النــداء
يـ	يقــظ فطــن أريــب لبيــب	شــامخ المجــد ذكــي النــهاء
حـ	حــاكم نظــم اليتــامى ذكــاه	بــارع شــعرا ســني البــهاء
ي	يقــضي شــكرا علينــا ثنــاه	بــاهر الحــسن بهــي النقــاء
أ	أصــله عنــد انفخــام حبتــه	رافــع قــدار ولي اللــواء
خ	خطبه في نــسج نظــم بــديع	بحــره طــام وفي العطــاء
ذ	ذا رشا عبــق الخــزام شــداه	هــامع زهــرا زهــي الــصباء

ثم كتب بإثر الأبيات نثراً نصه: دونكها بكراً تدانيها، لأنك أخــو أبيهــا، اقترحها فكر بارد، وقدحها زند خامد. قال تعالى: (يُخرج الحي من الميــت)[1]، وفقتها من القصائد عشرا، وفوقتها من النوافح نشراً، لتكون مكان قصيدتك بمالها، والحسنة بعشر أمثالها، ولهذا ساوت بقصائدها الظاهرة أبيات قصيدتك البــاهرة، فإن لاقيتها فيا فوزها بسعادتها، أو ألقيتها فيا خسارتها في تجارتها، فإن قلت الشعر بالشعر ربا، والتفاضل في البيع ربا، قلت: التفضيل عند المالكية حاصل، والتحصيل بعد المعية فاصل، وقول باهرتك إن القريض على العبيد عسير علي بمعنى عنــد، وسبق القلم، فكتب محل الكاف عينا، والثاء سينا، تدنيك منه بنكتة كالــشمس خفاها، والضياء دجاها، وصلى الله على من لا نبي بعده، ولا يخلف وعده، سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لطيفة:

ومن مفادات صاحب الترجمة ما رأيته في مجموع له بخط سيدي الطيب ابن أحمد البوعناني الجزائري، وذكر لي أنَّه رواه وكتبته من خط من ذكر، ونــصه: الحمد لله، وجد بخط سيدي أحمد بن أيوب ما نصه: وأما الواو من: وصــلى الله بعد البسملة فهكذا هو في حكي المؤلف، رحمه الله، يعني سيدي عبــد الــرحمن الثعالبي[2]، وقد رويته عنه بواسطة الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن منــصور الجزائري[3]، ابتدأت عليه قراءة الرسالة لأبي محمد بن أبي زيد فقلت: باســم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد، قال: قل وصلى الله، فإني لما ابتدأت رواية البخاري على سيدي عبد الرحمن الثعالبي فقلت: باسم الله الرحمن الــرحيم صلى الله على سيدنا محمد. قال لي: قل وصلى الله، فإني لما ابتدأت الختمة علــى الأستاذ سيدي أبي جمعة ببجاية أريد الجمع، قلت: باسم الله الرحمن الرحيم صلى الله. قال لي: قل وصلى الله فإني رأيت سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فاستأذنته أن أقرأ عليه القرآن، وأذن لي فقلت: باسم الله الرحمن الرحيم صلى الله

---

[1] الأنعام: 95.

[2] تقدمت ترجمته.

[3] أبو عبد الله محمد بن منصور قشور الجبالي الإفريقي، العالم الفقيه المحرر، اخذ عن الشيخ أحمــد بــن الشيخ الصالح محمد بن عبد الكريم المرساوي المتوفي سنة 1012، له بغية ذوي الحاجــات فــي معرفــة تقرير النفقات، قال ابن مخلوف: لم أقف على تاريخ وفاته: شجرة النور الزكية 1:423.

على سيدنا محمد وآله. قال: صلى الله عليه وسلم قل: وصلى الله، فهذا ما حدثني به سيدي محمد بن منظور بالجامع الأعظم من مدينة الجزائر أمنها الله، ولهـذا لم يوجد بخط هؤلاء الشيوخ إلا بإثبات الواو، ولهذا لم أكتبه بخطي بإثباتـه اقتـداء وتبركا بهم. هذا ما وجد بخط سيدي أحمد بن أيوب في نسخة من الأنوار نسخها من خط مؤلفها الشيخ الثعالبي ذكر ذلك في آخرها بعدما ذكر أنه لم يغير ما وجد بخط الشيخ من شكل ولفظ. ومن جملة ما وجد بخطه ما ذكر، وجده الطيب بن أحمد البوعناني. هـ ما وجدته بخطه بحروفه، وأخبرني عنـه صـاحب الترجمـة فاتصلت لنا روايته بحمد الله تعالى.

ومنهم الماجد الغطريف، الشاب الظريف، مدرس المالكية بالحرم الشريف، الفقيه الأرضى، النبيه المرتضى، الشيخ حسن البري[1]، قرأ ببلاده[2] وهو البر الكبير الذي على صعيد مصر المتصل بأطراف الحبشة، وإليه تنسب طائفة من طلبة العلم لقيناهم بالحجاز ومصر، فيقال[3]: فلان البري، ثم دخل مصر بعد ذلك و لم تطـل إقامته بها، ثم قدم المدينة فاستوطنها، ولخلو فنائها ممن يحسن المذهب المالكي قدمه من بها من المالكية للتدريس لهم، وجمعوا له الكتب، وهو رجل جهوري الصوت طَلْق اللسان، له جرأة على الأمور مع أخلاق حسنة وسلاسة طبع وحسن تـودد إلى الخلق ولطف مباشرة، ونقاوة بزة، وحلاوة رواء، ومقاربة شكل، فحـلاً في أعين الناظرين بذلك، ونفقت له سوق عند الأغوات والمجاورين والوردين، فراشوا من جناحه ما هاضه الدهر، وعاملوه من فضول أموالهم بما حسنت بـه حالـه ونظفت أثوابه وتعطرت أردانه، فلم يكن في مدرسي المالكية هناك من يناويه مع أنه ضعيف التحصيل في الفقه الذي هو أشهر علومه التي ينتحلها، وربمـا أقـرأ الحديث، كمصابيح البغوي والشمائل، وبضاعته في ذلك مزجاة، بل مرجاة. ولما قدمت المدينة واستوطنتها أشار عليه صاحبنا سيدي محمد بن سليمان[4] بملاقاتي، وأثنى علي عنده فجاء إلي واعتذر عن تأخره عن لقائي بعدم العلم بحالي، وأحسن الملاقاة وتلطف في السؤال، وأضافنا في منزله إلى أن رأى إقبـال الطلبـة علـي

[1] حسن البري، مدرس المالكية بالحرم الشريف، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشـية: نشر المثاني 2: 389.
[2] في ط: بلده.
[3] ساقط من ط.
[4] يقصد محمد بن سليمان الروداني الذي تقدمت ترجمته.

وإلزامهم لي إقراء مختصر الشيخ خليل في الحرم الشريف، فكأنه غار من ذلك لما رأى من اتساع الحلقة، فخشي أن أعتزله من منصبه، أو أحول بينه وبين مطلبه، فتحامى الجلوس عندي والتردد إلى حتى استيقن الخبر من عند بعض أصحابنا أن ليس قصدنا دوام الاستيطان، وإنما هي مجاورة عام ثم الرجوع إلى الوطن، وسأل عن حالي في بلادي وعن طبعي في إرادة التصدر والتقدم على الأقران حتى أمن مما كان يتوهمه من قبلي، فأقبل علي كل الإقبال، وقرأ علي بعض أشياء عندما قرب ارتحالنا من المدينة إلى مكة، كالحكم العطائية ومنظومتي في البيوع وبعض الشمائل وغير ذلك، واستجازني فأجزته، وكان قد تزوج امرأة من أهل[1] المدينة ورزق منها ولدين، وكان كثيرا ما يتشكى لي مما يلقى من عوائد نساء المدينة، وأنه لولا علقة الأولاد لما تحمل من ذلك ما تحمل، ثم مات الولدان أحدهما بإثر الآخر، فتألم لموتهما وكتبت له أعزيه، لأني إذ ذاك فضلة مرض لم أتمكن من لقائه، وهذا ما كتبت:

[طويل]

هنيئا لقد قدمتهُ فرَطا يجري ... أمامك يسرو الهم في موقفِ الحشرِ
فطِبْ بقضاءِ الله نفسا فكل ما ... قضاه لعبد مؤمن غاية الخيرِ
ولستَ بحمدِ الله ممن تروعهُ ... وإن عظمت أوجالُها صدمة الدهرِ
لأنكَ تدري ما يكونُ جزاء من ... يقابلُ حكمَ الله إن جاء بالصبرِ
ومثلكَ عندي لا يُنبهُ إنما ... يُنبه غير عندَ مُشتبهِ الأمرِ
على أن هذا النجل عصفُور جنة ... تبوأ منها حيثما شاءَ في وكرِ
فأكرم بها من فضلة منك ضمها ... بطيبة لحد طيب عبق النشرِ
ومن قبلها أخرى فصارَ كما أتى ... عن النارِ والأهوالِ من أوثق السترِ
أعزيكَ لا أني أسليكَ بل لما ... جرى سنة في الدين مشتهر الذكرِ
فحق عليكم سيدي عوضَ الأسى ... سرور بما قد نلتَ من أعظم الأجرِ

---
[1] ساقط من ط.

حباك المُنى من قد حباك الــذي بــه   تفردتَ في العليا من الحُسن والــبر

ولم لا تنال الفــضل أجمعــه وقــد   تجمعَ كل الفضل في الحسن الــبري

ومنهم الناسك الخاشع العابد الخاضع المقري الفصيح، البر النصيح، المتواضع الزاهد، حليف المساجد، الفقيه النبيه، سيدي الشيخ محمد الفزاري مــن أقــدم المجاورين بالمدينة المشرفة، وأكثرهم للأماكن التي هناك تزار معرفة، قدم من بلاده فزارة التي بين أعالي النيل وأرض السودان، فاستوطن المدينة قريبا من أربعين سنة، وله مشاركة في فقه مالك، يتقن قراءة القرآن، وهو دائماً يقرئ الأطفال بمــؤخر المسجد الشريف من دون مشارطة على أمر معلوم، فمن دفع له شيئا أخذه، ومن أبى لم يطالبه، والناس يتبركون به ويرون ظهور بركته على أولادهم، فيتنافسون في القراءة عنده، ويأوي إليه الغرباء فيبصرهم ويقوي قلوبهم ويحــضهم علــى آداب المجاورة، ويعاملهم بما قدر عليه، وكان من أكثر الناس علي إلحاحــا في التقــدم للإقراء بالمسجد، وكان يحضر عندي، وأعانني بما احتجت إليه من إعارة الكتب، وكانت على يده خزائن من كتب الوقف، منها كتب السيد محمد بن إسماعيــل المسناوي التي أوقفها وبعث بها من المغرب، وذكر لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم مراراً في النوم، ولقي كثيراً من الأعلام القادمين علــى المدينــة، وانتفــع بصحبتهم، إلا أنه غلبت عليه العبادة، وليس له اعتناء بالرواية.

لطيفة:

أخبرني رضي الله عنه أنه كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي مات فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي[1]، قال: فجاءني ذات يوم وقال لي: إني رأيت في النوم أختي، ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما. فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا الإسلام، قطعوا يدي بسلا. قال: فلما أخبرته قلت له: الذي يظهر لي من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان

[1] محمد العياشي، اشتهر بالتصوف والجهاد ضد الوجود الأجنبي بالمغرب، قتل عام 1051 هـــ: الــتقط الدرر، ص: 113.

بسلا قد قتل. قال: وبعد ذلك في آخر العام قدم الحجاج من المغرب وأخبرونـــا بموته رضي الله عنه.

ومنهم صاحبنا الأديب الماهر الأريب الباهر، أحد الخطباء بالحرم النبـــوي، متولي خطة الفتوى على مذهب مالك بالمدينة المُشَرَّفة الخطيب أحمد بن محمد بن عبد القادر المالكي، أصل سلفه من بلاد المغرب، ولأسلافه بالمدينة صيت، وبيتهم مشهور بالعلم والتقدم في مذهب مالك إلى أن اتسعت بهم الآراء، فانتقل بعضهم إلى مذهب الحنفية، وصار اليوم أمثل من فيهم ممن تمذهب بمذهب مالك صاحب الترجمة، وأخوه الخطيب عبد الرحمن، إلا أن صاحب الترجمة مع ما أعطى من فرط الذكاء وجودة القريحة ألهاه عن الاشتغال بالعلم الولوع بالفلاحة والزراعة وتثمير المكاسب بالقيام على ضياعه ورباعه، فيغيب في العوالي أياما عديدة، فلا يكـــاد يرى في المسجد إلا أيام الجمع أو ما ضاهاه، وكانت بيني وبينه ألفة قديمة ومعرفة أكيدة من لدن أول قدماتي للمدينة سنة تسع وخمسين، ولم يزل بعد ذلك يكاتبني وأكاتبه، ولي فيه عدة قصائد منها ما كتبت به إليه من المغرب، ومنها ما أنـــشأته بالمدينة في بعض تلك القدمات.

ولما من الله بالمجاورة في هذه السنة طوى كشحا عن المواصلة، ولوى ذنبـــه عن المثافنة[1]، متعذرا بكثرة الأشغال، والغيبة في افتقاد الضياع والأموال، ولم اقبل له في ذلك عذرا، بل رأيت ذلك في عتابه أحرى كما قيل:

[كامل]

إني لأعـــــذرهُ لكثـــــرةِ شُــــغلهِ　　　وألومــــهُ إذ لـــستُ مـــن أشـــغالهِ

ومع ذلك لم أظهر له موجدة ولا ازورارا في المعاملة، بل طويت البساط بما فيه، ولم أصرف عن طريق المجاملة، ولنذكر شيئا من نظمه، ليستدل به على قدر نبله، فإن كلام المرء ميزان عقله، فمن ذلك قصيدتان موجبتان كتبهما لي بخطـــه فلنوردهما تبركا بالممدوح صلى الله عليه وسلم، وتيمنا بذكر بعض أوصافه العلية.

القصيدة الأولى:

[بسيط]

[1] المثافنة: المُثافِنُ: المواظِب. ويقال: ثافَنْتُ فلانا إذا حابَبْتَه تُحادِثُه وتُلازِمُه وتكلمه: لسان العرب: ثفن.

بشراكِ يا عينُ هذا منتــهى الأمــلِ وذا الجوادُ الذي بالمكرمــات مُلــي
هذا الرسولُ الذي ما خابَ ســائلهُ فاستمطري من نَدا إحسانهِ وســلي
هذا الذي قد رقى فوق البُــراق إلى أدنى من القاب فضلا غــير منتحــلِ
هذا الذي قد بــراهُ الله جــل ثنــا ؤهُ نعمة للورى يُنجي مــن الخطــلِ
محمد أحمــدُ المحمــود أفــضلُ مــن هدى سواءَ طريقٍ واضــح الــسبُلِ
محمــــد أحمــــدُ المــاحي ببعثتــه ريب الطغاة بُغــاة الزيــغ والزلــلِ
محمد سيدُ الكــونين أكــرمُ مــن مشى على الأرض من حافٍ ومنتعلِ
ولا تُعــد ولا تُحــصى فــضائلهُ فكل فضل لــهُ مــن ســابقِ الأزلِ
فكم لهُ مُعجــزاتٌ لــيس يُنكرهــا إلا الجحودُ بزور الإفــك والجــدلِ
نطق الغزَال وضَــب والــذراع ور د الشمس منها ومنها منطقُ الجمــلِ
والجدعُ حــن إليــهِ حــين فارقــهُ حنين ثكلى شجتها لوعــةُ الثكــلِ
ومنبعُ المــاءِ عــذبا مــن أصــابعهِ أروى به الجيشَ بعد الــري بالنــهلِ
وكم أفَاد مريــضا لمــسُ راحتــه برءا أزالَ الذي يشكو مــن العلــلِ
وكم شواهدُ صــدق للــنبي أتــتْ كالشمسِ ما إن يراهَا غير ذي مُقل
توراةُ موسى وإنجيل ابن مــريم قــد جاءا بتصديقِ وحي في الزبور تلــي
بإنه خاتمُ الرسلِ الكــرامِ وخيــــ ر الخلق طُــرا مــن الآتــين والأولِ
وحسب طــهَ كــلامُ الله معجــزة وحيٌ من الله حــق غــير مفتعَــلِ
يتلى ويعجــز عنــهُ أن يعــارض أو يُوتى بمثل له والحــق فيــه جَلــي
فيا نــبي الهُــدى إنــني ببابِــك لا أرجو سِواك لما ألقى مــن الوجــلِ
وقفتُ بالباب إذ ما لي ســواهُ وإن كنتُ المسيء بما كُلفتُ من عمــلِ

وليسَ يــأوي الفــتى إلا لــسادتهِ إن نابهُ خطبُ سوء كــارث جلــلِ
يا صاحبَ النجوة العظمى أغثْ دنِفــا أودى به الحــالُ في حــل ومُرتحــل
لا تتركنهُ لا يرى الحادثــات ففــي جميلِ جُودك ما يُغــني عــن الحِيَــل
وكن لــه ولأســلاف لــه سَــلفوا واشفعْ له ولهم يــا أســعدَ الرســلِ
عليكَ أزكى صــلاة الله يــصحبها أزكى سلام لدى الإشراق والطفل[1]
وآلك الطهر والصحب الكرامِ ومن والى ســبيلهم الحُــسنى وكــل ولي

القصيدة الثانية:

[بسيط]

العفوُ شيمة زاكي الأصلِ والــشيَم والصفح عادةُ أهل الجُود والكــرمِ
وأن يُــضام نزيــل الأكــرمينَ وإن كانَ المــسيءُ كــثير الإثم واللمــمِ
فكيفَ أخــشى الرزايــا وأخوفهــا ولي بطــةَ ذمــام غــير مُنفــصمِ
ولي جِوار لــه مــا زلــتُ آملــهُ وأرتجيــهِ وحــسبي منــه معتــصمِ
فإن تبدتْ وجــوهُ البــوس قاطبــة فجاهُ أحمد ينجــيني مــن الــسقمِ
وإن دجا خطبُ ليل كــارث فيــه أجلو غياهبَ ما أخشى من الظلــمِ
محمد أشــرفُ الكــونين مُعتمــدي وســيدُ الــسادة الآتــين والقِــدَم
يا صاحب الجاه يا ذخرَ العباد أغِثْ وانظرْ لعبدكَ فيمــا حــل مــن ألمِ
يا أسعدَ الرسلِ ما لي غير فضلكَ في ما قد ألَم فقــد أودَت بــه هِمَــم
ببابــك المُرتجــى في كــل نائبــة وقفتُ أرجو حِفاظا عــاليَ الأطُــمِ
وأنت تعلمُ ما لقيــتُ مــن غِيَــر وخصم سوء كثيرا البَغي والخــصَم

[1] الطفل: لليل: لسان العرب: طفل.

إليكَ أشكوهُ والأحــشاءُ في حُــرق والقلبُ في وجَــل والــدمعُ في دِيمِ
فإن يكُ أحمد بــن المــالكي جنــا فليسَ يقــصر عنــه ســابغ الــنعمِ
عليك أزكى صــلاةِ الله يــصحبُها أزكى سلام زَكــي غــير منقــسِمِ
يعم آلك والصحبَ الكــرامَ ومــن والَى سبيلهم مــن ســائرِ الأمــمِ

أسبل عليك ستر التغاضي، فإن منشئها بإظهار قبائحها غير راضي، العبــد الفقير، المعترف بالتقصير، راجي رحمة الملك القدير، أحمد بن محمد بن علي المالكي المدني.

ومما خاطبته به ونحن بالمدينة المشرفة عام ستين وألف، وينتظم من أوائــل حروف كل بيت: مولاي أحمد الخطيب، وهي هذه:

[طويل]

مُنايَ وإن عَز المُنى قُــرب ســيدي وحتفي على تيسيرهِ عنــدهُ بُعــدي
ولا عذرَ لي إن لمْ أتِــهْ كلفــا بــه بتَيهي وَوجــدي في محبتــهِ رشــد
لهُ همةٌ تسموُ علــى هِمــة الــسها ووجةٌ كبدرٍ حل في مــترلِ الــسعدِ
أظن وإنْ شَــطتْ بيَ الــدارُ منــهمُ تعاظمَ وِزري لست أُحرمُ من قصدي
يود فُؤادي قربةُ ليث شــعري مــا يُكافي به قلبي علــى ذلــك الــود
أؤمــلُ منــه أن يكــونَ جــزاؤه وصال ليسَ يشفيهِ مــن ألمِ البُعــد
لأحظى بما يشفي غليلَ الفؤاد مــن جِــوار إمــام العــالمينَ مُحمــد
خطيب الورَى في الحشر أحمد سيدي عليه صلاةُ الواحد الأحــدِ الفــرد
طمعتُ أنال من وصالك بعض مــا به نلتَ أنت موجب الشكر والحمدِ
يميني به صدقا لقــد شــاعَ ذكــرهُ من المغربِ الأقصى إلى بلــد الهنــدِ
بــنى الأقــدمونَ الله يــرحمهم لــه من المجدِ ما يرضيهِ في كــل مــشهدِ

أيُعطى عُبيد الله حسن جواركم بطيبة فازَ بالمُنى جارُ أحمد

حِماه أتيتُ مُثقلا بجرائمي ووزري ما أخفيهِ منه وما أُبدي

مددتُ يدي أرجوهُ فامتلأتْ بما تساقطَ حولَ البابِ من كثرة الأيدي

دواءُ ذنوبي في لقاه وإنما مُناي وإن عز المُنى قرب سيدي

[وكتبت إليه من المغرب في عام ثلاثة وستين وألف ما نصه: غاية الأماني وشفاء المتيم العاني، ونهاية مطلوب الهائم الشائق، ورغبة التائه التائق، مَن إليه القلوب وامقة وعيون البصائر رامقة، من له سويداء القلب محل، ونومي وسهادي حرم وأحل، من هو في جملة المحاسن المثل السائر؛ سيدي أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن عبد القادر، رزقني الله من مودته النصيب الطويل المديد البسيط الوافر الكامل، ولا حرمني من امتداحه بها، غير مستوعب لمحاسنه ولا كامل، عليه مني، ومبلغ إليه، إن شاء الله، عني تجديدا لوصاله واستجداء لنواله:

[طويل]

سلامٌ كعَرفِ المسكِ أو كجنا النحلِ سلامٌ كوقعِ الغَيثِ في زمَنِ المحْلِ

سلامٌ عميمٌ يُخجل الروضَ عرفُهُ سلام به نُعطى منانا من الوصلِ

يؤم أبا العباسِ أحمد من لهُ بقلبيَ ود ثابت الفرْع والأصلِ

خطيب ولا غير القلوبِ تجيبهُ جواد ولكن للمتيم بالقتلِ

خطيبٌ له تعنُو القلوبُ مهابة على منبَرِ الحُسن الذي جل عن شكلِ

علو وحمدٌ منهما رُكب اسمُهُ وبينهما ما شئتَ من خُلق سهلِ

هنيئا لكم ما نلتمُ مِن جِوار مَن أمنتمْ بهِ ما تتقونَ مِن الهَولِ

فلا تمنعُوا المشتاقَ فضلَ دُعائكم وحاشاكمُ أن تمنعُوا فضلةَ الفضلِ

مولاي عبدكم المحب لكم الودود، قد أنحل جسمه الصدود، وجاب في محبتكم الأغوار والنجود، وأذهب رونق شبابه الهجود، وطالت عليه أيام الفراق، وتضرمت في حشاه نار الاشتياق، وضاق ذرعاً بالأسى والقلق، وعيل صبره على

السهاد والأرق، وازدحمت عليه الهموم والأنكاد، وفني من هول ما يلقاه أو كاد، يمثل له الحسن سُويعات مضت بقربكم، وأويقات تنعم فيها بلذيذ وصـــلكم؛ إذ عين الزمان عنا غافلة، وصروفه آفلة، ودعاوى الفراق باطلة، وأجياد الغرام عاطلة، وركائبنا في جنى اللذات ناصبة عاملة، ومعاقل الأنس للمحب والمحبوب شـــاملة، فانتهزنا من فرص المسرات أطيبها، ووردنا من موارد اللقاء أعذبها، فيا لهـــا مـــن ساعة فرجت على المحزون بعض كربه، وما أحسنها من أويقات لو وُزِنَت بالعمر لرجحت به، إلى أن انتبه لنا الدهر بخيله ورجله، ورمانا عـــن قـــسيِّ التفـــرق بمصميات[1] نبله، فيا له من تذكر أردف الزفرات بالزفرات، وأعقب الحـــسرات بالحسرات، وأتبع القلوب والأكباد بنار البعاد، فكنت كثيراً ما أنتشق من ريـــح الحجاز نسيمه، وأرتقب من ناحيتكم تميمة[2] تشفي لواعج الغرام، وأتعوذ بها من تباريح الانصرام، تتضمن نبذة من أخباركم، وتبشرني بـــأني لم أزل أخـــتلج في أفكاركم، وإن غبت عن أبصاركم ونأيت عن أمصاركم، لتيَقني أن تفكيركـــم إياي في تلك الحضرة وجريان ذكري على لسانكم في دار الهجرة ينتج لهذا العبد دعوة مقبولة يبلغ بها في حاله ومآله مأموله، لأنَّ الدعاء خفيف المئونة لا يحتاج في استعماله إلى كبير معونة، هذا مع ترادف كتبي إليكم وكثرة تلطفي عليكم، وشدة احتياجي إلى نوالكم، ودوام تعلقي بحبالكم، فبحق ما لكم في قلبي وقـــالبي مـــن المودة، وما كابدته في طول هذه الغيبة الممتدة، إلا ما جعلتم ذكري على بـــال، وكان لكم بحليف بعادكم اهتبال، فلما طال انتظاري، وعز اصطباري، وكـــدت أصدق الظنون الكاذبة في أن محبتي من قلوبكم ذاهبة، وتخيل لي أن حبال العهد قد ارثتت[3] ودوحة المودة من أصلها قد اجتثت، حزنت لذلك غاية، وبلغ مني الوجل النهاية، لأن ما منّ الله به علي من معرفتكم، وأتحفني به من مودتكم، من أقـــوى العدد عندي وأسنى الذخائر لدي، اتخذته حصنا حصينا في مهماتي، وملجئا ألتجئ إليه في ملماتي، لأن مودة أهل الفضل أمثالكم، وصحبة الناسجين على منوالكم، تُستجاد وتستحب، لأن المرء مع من أحب[4]، فكنت أتشوف بشدة تلك المعيـــة، وأرجو بها الكون معكم في الرتبة السنية، وحين خامرني الجزع مما توهمت، أسبلت

---

[1] المصميات: التي تخترق العظم؛ والمصمم من السيوف: الذي يمر في العظم: لسان العرب: صدمم.
[2] التميمة: عوذة تعلق على الإنسان: لسان العرب:: تمم.
[3] ارثتت: انحلت: لسان العرب: رثا.
[4] إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: المرء مع من أحب: صحيح مسلم 4:3420.

الدمع وهينمت[1]، وأعملت اليراع وترنمت، وأخذت القرطاس ورقمت مخبراً عما يلقاه القلب فيكم من الهيمان، ومادحا لكم بما ستراه من الهذيان[2]:

[مخلع البسيط]

يـــا بَـــينُ أنى لـــكَ انقطـــاعُ	يـــا وصـــلُ أنى لـــكَ ارتجـــاعُ
يـــا دارهُـــم بـــالحِمى أبِـــيني	هـــل لي بـــساكِنك اجتمـــاعُ
وهـــل تعـــودُ لنـــا ليـــال	مـــضتْ بقـــربهمُ سِـــراعُ
يـــا ســـائلِي مـــا الـــذينَ تَعـــني	سِـــرُ الأحبـــةِ لا يُـــذاعُ
كيـــف تَرَجّـــى الجفـــونُ نومـــا	والجـــسمُ لـــيس لـــه اضـــطجاعُ
أمـــا لكُـــم حـــائزينَ قلـــبي	إلى عبيـــدكمُ اصـــطناعُ
أطـــوي علـــى الـــشامتينَ مـــا لا	أطيـــقُ لـــو كُـــشفَ القنـــاعُ
علـــى النـــوى ســـلَّطوا وصـــالا	بـــهِ يكـــونُ لـــه ارتِـــداعُ
مـــا للحَـــشا بعـــدكُم حَمـــيم	ولا شـــفيعٌ لـــهُ يُطـــاعُ
لم يُلهِـــهِ عـــنكمُ قـــصُور	ولا ديـــارٌ ولا رِبـــاعُ
والـــدمعُ مـــذ غبـــتمُ وبِنـــتمْ	لـــه علـــى الوجنـــةِ انـــدفاعُ
لـــو تركـــوا في الـــسماع يومـــا	ذكـــرك مـــا لـــذ لي الـــسماع
والأذنُ لـــيسَ لـــهُ لـــشَيء	إلا لـــذكركُمُ اســـتِماعُ
أجـــودُ بـــالنفسِ في لقـــاكمْ	والمـــالِ والأهـــلِ لـــو يُبـــاعُ
كيـــفَ تطيـــبُ الحيـــاةُ ممـــن	حـــرّم مـــن وصـــلكمْ رضـــاعُ
أم كيـــف أنـــسَى جَمـــال خِـــل	وفي الفـــؤاد لـــه انطبـــاعُ

[1] هينمت: من الهينمة؛ وهي الكلام الخفي لا يفهم: لسان العرب: هينم.
[2] وردت القصيدة في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 334 – 335.

من كلّــف الــصبرَ عـــن حبيــب كُلّـــفَ مـــا لـــيسَ يُـــستطاعُ
جُـــودوا بوصْـــل علـــى مُعَـــنى لـــــهُ لأمْـــــرِكمُ اتبـــــاعُ
وقائـــــلِ أيـــــنَ ســـارَ قلـــبي إلى الحجـــــازِ لـــــه انتجـــــاعُ
قد عُمِّـرت مـن سـقامٍ وجْـد هـــضابُ قلـــبيَ واليفـــاعُ
يـــا حـــسْرتي إذ تنُـــوب عـــني في وصـــــلِ داركـــــمُ الرقـــاعُ
مـــتى أشـــــافهكُمْ وأحظـــــى بالوصــــلِ لـــيس لـــهُ دفـــاعُ
وأعمــــلُ العِـــيسَ ناصـــبات بحيــــثُ يُـــستعمَل الـــيراعُ
وأجتنـــي مـــن ثِمـــار وصْـــل لــــيسَ يُنغّـــــصهُ وداعُ
خِـــلأيَ إن جُزتمــــا بـــسلع وكـــــانَ بي لكمـــــا انتفـــاعُ
عوجَـــا بطيبـــة واطلبـــا لي قلبــــا وعقــــلا هنـــاك ضـــاعَوا
سَــلا خطيــبَ الــورى لــهُ مــن خـــبر مـــا تطلبـــا اطـــلاعُ
أحمــد نجــلُ علــي أبغــي وصـــــالهُ ولـــــهُ امتنـــــاعُ
هـــو لكـــل الـــورَى جَمـــال ولِمَّحاســــــنهم جمـــــاعُ
لم يلتجـــئ لَمتـــاع دُنيـــا إن الثنـــاءَ لـــــهُ متـــاعُ
مـــن آل بيـــتٍ زَكـــوا نُفوســا وكُرّمــــتْ منـــــهمُ الطبـــاعُ
هـــمُ هـــمُ للـــورَى غِيـــاث مـــن كـــل مـــا يُتقـــى جيـــاعُ
هُـــم لكـــل الـــورَى ابتـــسام وعـــــن متـــــاعهمُ شِبـــــاعُ
هـــم مـــن الـــلاءِ قِيـــلَ فـــيهم يـــا أهـــلَ طيبـــةَ لـــو تـــراعُ
يـــا مـــن لأجـــلِ نـــواه عـــني فيَّ فُنـــون الهـــوى ابتـــداعُ
بلّـــغْ لخـــيرِ الـــورَى ســـلامي مـــن لِـــيَ في مدحـــهِ اتـــساعُ

يـــا ملجـــأ الخـــائفينَ يـــا مـــنْ   بـــــه تـــــشرَّفتِ البقـــاعُ

يـــا أفـــضلَ العـــالمينَ يـــا مـــن   فـــوقَ الـــسماءِ لـــهُ ارتفـــاعُ

أنـــت الـــذي أُخـــبرا بـــسُم   وضَّـــع في لحمهـــا الـــذراعُ

وأنـــتَ أحمـــدُ مـــن أقـــرتْ   بفـــضلِهِ الـــوحشُ والـــسباعُ

وقـــل عبيـــدكَ عـــن لقـــاكم   قـــد عانـــهُ القـــدرُ المطـــاعُ

فاشـــفعْ لـــه يـــومَ لا يُرجّـــى   للـــــهول ود ولا سُـــــواعُ

صـــلى عليـــك الـــذي حبانـــا   بـــكَ فكـــانَ لـــك ارتفـــاعُ

مـــا قـــالَ صـــب يـــرومُ وصْـــلا   يـــا بَـــيْنُ أنَّـــى لـــك انقطـــاعُ

ومنهم صاحبنا ذو الحسب الأصيل، والمجد الأثيل، النحوي الأديب المشارك الأريب، الشيخ يحيى بن الباشا الأحسائي الحنفي، كان أصله من مدينة الأحساء، وكان والده من كبراء أمرائها، ثم انتقل إلى المدينة المنورة واستوطنها، وتملك بهـا أملاكا وعقارا، فنشأ ولده هذا وإخوته بالمدينة أحسن نشأة، وانتحل طلب العلم، وازور عن الرياسة الموروثة، وأقاربه إلى الآن هم أمراء بلدهم وذوو الرياسـة في قومهم، وهو وأخوه معدود من أهل البيوتات والجادة في المدينة، ملحوظين بعـين التجلة عند الخاص والعام، لهم رواء ووجاهة لحسن حالهم ولما كان لسلفهم مـن الرياسة، وقد شدا صاحب الترجمة طرفا من كثير من العلوم، وجل اعتنائه بالنحو، وله فيه مشاركة حسنة، واعتنى بكتاب التصريح[1] للشيخ خالد وجعله سميره، وصيَّره في الوصول إلى غيره من كتب الفن أميره، وربما قرض من الشعر أبياتاً على قدر بضاعته المزجاة فيه، وإياه أجاب صاحبنا سيدي محمد بن سليمان بالأبيـات المتقدمة في ترجمته عن أبيات له كتب بها إليه، وبعدما طالت إقامتي بالمدينة كـان ربما يأتيني ويسأل عن أشياء من علم العربية، وبينما أنا ذات يوم جـالس أتـاني بأبيات له على صورة لغز نحوي بخطه، وذكر لي أنها له، وطلب مـني الجـواب،

---

[1] التصريح بمضمون التوضيح، وهو شرح للشيخ خالد بن عبد الله الأزهري النحوي الذي فرغ عنه سـنة 890هـ: كشف الظنون 1:154.

وأكد علي ألا أطلع عليها أحدا من طلبة المدينة، فأجبته عن لغزه بأبيات عديدة، وانتقدت عليه أشياء فيه، هذا نص ما كتب إلي:

[كامل]

يا مفردَ الأوصافِ صفْ لي ما طــرا ... واسمعْ حــديثا مثلــه مــا حُــرِّرا
قـــد ســـرنيّ ســـرورا وللعـــلا ... لما أتـــى في صُـــورةٍ منـــها يـــرى
فما علـــى مـــنْ ذاقـــهُ عتـــب إذا ... من حُسنهِ أبدَى الذي قـــد أضـــمَرا
هلْ كُل شـــيءٍ لا كـــلام بـــل ولا ... كَلمٌ ولا عـــن كلمـــة قـــد قـــررا
قولٌ على من رامـــهُ ســـهلٌ فكـــنْ ... يا طيـــبَ الأنفـــاسِ عنـــه مُخـــبرا
قد احتَوى نظمي علـــى لفـــظٍ لـــهُ ... فاعْرب هُديتَ ما اعتلى إذ كُـــررا
فهاكَهَـــا أظْهِـــر لمعناهـــا وعـــن ... بحرِ لها اخبرْ تُفْـــدَ يـــا مـــن قـــرا
علمَ العـــروضِ والقـــوافي واعـــتلا ... هذا أتَتْ قصدا لكم تَبغـــي القِـــرا
ثم الـــصلاةُ والـــسلامُ الفـــائقُ ... أهديهما للمصطفى خـــيرِ الـــورَى
والآل والأصحاب ما حـــاد حـــدا ... يَسري وما شـــوق بمـــشتاق ســـرا

وقد عنى بلغزه ما ركب من الأعلام والأوصاف وغيرهما من الأسماء تركيب إضافة، وعنى باشتمال نظمه عليه قوله مفرد الأوصاف، وقوله بعد طيب الأنفاس على ما فيهما من البحث الآتي في الجواب، وهذا نصه:

[كامل]

يـــا ناظِمـــا فـــوقَ الطـــروسِ دُررا ... أزرتْ علـــى دُر يُحلـــي الطـــررَا
يا نـــائِلا بـــينَ الـــدروسِ جـــوهَرا ... كـــل عُقـــول الـــسامعينَ بهـــرَا
يا مُظهرا ما حيرَ الألباب مـــن يـــرَ ... في المُعمـــى إذا غـــدا مُـــستترا
ما زلتَ تُبدي منـــه كـــل عجـــب ... مـــا خلتـــهُ في كتـــب مُـــسطرا
كـــل العلـــوم بكـــم تـــشرفتْ ... لا ســـيما النحـــو بكـــم تبختَـــرا

أبديتَ منه لغزا لفهمهِ　　　لا يهتدي من لم يكن تمهرًا
وليسَ كل ماهر يدركهُ　　　كم ماهر في مثلهِ تحيرًا
وذاك في كلمتينِ رُكبت　　　إحداهما مع أختها بلا مِرا
تركيبَ تقييد وذا التركيب لا　　　يفيدُ فهو لا يُسمى خبرا
ولا يسمى كلما لأنه　　　من كلمتين مثلما تقررا
ولا يُسمى كَلمة لأنه　　　كلمتان حسب ما قد سُطرا
وهو يُسمى مُعرب مركب　　　لفظا وقولا كل ذاك اشتهرًا
كمثل عبد الله ذو محبة　　　لكم رجاكم تسمحوا إن عثرا
لكن في كلامكُم يا سيدي　　　نقدا سيبدُو للذي تدبرًا
فقولكم هل كانَ شيء صادق　　　بكل شيء لو يكونُ حجرا
لو قالَ شخص إن ما سألتم　　　عنه يصحُ أن يكونَ شجرًا
لكانَ صادقا لأن ذاك لم　　　يصدق عليه كل ما قد ذُكرا
فكان ينبغي لكم أن تذكروا　　　بدلهُ لفظا يزيلُ الضررا
وفيه أيضا أنكم أتيتم　　　بكلمة من بعد نفي قُررا
وذاك ينفي كونهُ كلمتين　　　وكلما وكلمة كما ترَى
لأنه نكرة وهي كما　　　في علمكم تم إن نفي عرًا
فإن لا رجُلا قطعا شامل　　　فردا وجمعا ومثنى فانظرا
فكانَ ينبغي لكم تقييده　　　بما يفيدُ وحدة ليظهرا
ووارد أيضا عليكم أن ما　　　قد جاء في كلامكم مُكررا
كمفرد الأوصاف أو كطيب　　　الأنفاسِ فيه الخبر ينفي الخبرا

كلاهمـــا إذا نظـــرتَ كلـــم لأن زال في الكـــل كلمـــة تُـــرى

فـــذي ثـــلاثُ أوجـــه ذكرتهـــا نقـــدا وتنبيهـــا لمـــن تـــذكرا

وقد رأيـــتُ في كلامكـــم ســـوى ما قـــد ذكرتـــهُ وجوهـــا أخـــرى

أعرضتُ عن إيرادهـــا خـــشية أن يطـــولَ أو يمـــل مـــن قـــد نظـــرا

عـــذرا إلـــيكم ســـيدي فلـــم أرد إلا التـــودد بمـــا قـــد ســـطرا

فـــلا تظنـــوا غـــير ذا فـــإنني أحـــبكم ومـــثلكم قـــد عـــذرَا

خـــدها إلـــيكم ســـيدي خريـــدة لمـــثلكم تـــزفُ إن راع القـــرا

حليتـــها بلؤلـــؤ مـــن وصـــفكم فعـــذبت لفظـــا وراقـــتْ منظـــرا

من ســـابع الأبحُـــر قـــد أخرجتـــه صافٍ مـــن االأقـــذاء مـــا تكـــررَا

نفثتـــه بـــالفكر حـــتى صـــح أن يـــنظم في ســـلك العـــلا محـــبرا

حسبي فما قدرت أن أحـــصرَ مـــن أوصـــافك الغـــرا حـــتى العـــشرا

أنى يكـــون ذلـــك لي لـــو أنـــني جمعت من كل اللغـــات حـــرف را

ومن المدرسين بالحرم الشريف الذين لم آخذ عنهم شيئاً ولا أخذوا عني، ولا تأدى إلي من أخبارهم ما تتشوف النفس إلى معرفته سوى العلم بأسمائهم وبعض العلوم الذي يحسنونه؛ الشيخ إبراهيم الحجار أحد مدرسي الحنفية، عُمري النسب من ذرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، له صوت جهوري لا يكاد الإنسان يسمع جليسه إذا أخذ في التدريس، ما سمعت في المدرسين في سائر البلاد أندى منه صوتا.

ومنهم الشيخ علي الضرير المالكي الأحسائي[1]، جاور بالمدينة مدة طويلة، وله بعض معرفة بمذهب مالك. يدرس الرسالة أحياناً، وحضرت يوماً مجلسه عند

---

[1] أبو الحسن علي المالكي، فقيه مفسر، ولد سنة 857 هـ، من مؤلفاته شروح على الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وحاشية على الترغيب والترهيب للمنذري في الحديث توفي سنة 937 هـ: إتحـاف الأخـلاء، ص: 182.

المنبر النبوي، يسرد عليه تفسير البغوي أو الدر المنثور للسيوطي لا أدري أيهما لطول العهد، فلم أسمع تحقيقاً ولا تحصيلاً، وهو رجل ذكي الطبع يكاد يحفظ كل ما يسمع، وربما هجم على إنشاء الشعر في بعض الأحيان، فتقع له أبيات تستطرف، في خلال الغثاء الذي يسيل به واديه، سمعته ينشد ذات يوم مطارحات زعم أنها وقعت بينه وبين شيخنا تاج الدين المكي. وقد جمعتني وإياه قافلة في رجوعنا من مكة إلى المدينة، فرأيت منه عجباً، يركب النجيب[1] فيسير به العنق[2]، فإذا وجد فجوة نَصَّ[3] من دون سائق ولا قائد. وأخبرني بعض أصحابنا أنه ربما يمر راكباً من المدينة على طريق الفُرْع[4]، فيتقدم أمام القفل وحده فلا يخطئ الطريق مع توعرها، وكثرة شعابها، والتفاف أشجارها، فينفذ فيها نفوذ الماهر الخرِّيت. وما رأيته قط بالمدينة وأفنيتها ولا في الطواف والسعي يحتاج إلى قائد.

ومن طالع نكت الهميان في نكت العميان للصلاح الصفدي لا يستغرب مثل هذا من ذكائهم وفطنتهم، وناهيك بما يحكى عن الإمام الشاطبي أنه مَرَّ بموضع في سفرة له وهو راكب فانحنى فوق الدابة، فقيل له في ذلك. فقال: أليس ههنا شجرة؟ فقالوا: ما نرى من شجر. فقال لهم: انظروا إن لم تكن هنا شجرة فلا تثقوا بشيء مما تأخذونه عني، فإنني مررت بهذا الموضع منذ عشرين سنة، وفيه شجرة، فحفروا فوجدوا عروق الشجرة وأصولها، وقد اندثرت فروعها.

ومنهم الشيخ محمد السوداني، رجل من أهل السودان، جال في بلاد المغرب، وقرأ في بعض نواحيه، ثم توجه منه إلى الحج، واستوطن المدينة مدة طويلة مرموقاً بعين التجلة، مظنوناً به الصلاح، ثم توجَّه إلى بغداد ودخل الكوفة، وحصلت له وجاهة عند من بتلك الناحية من المالكية، لشغور بلادهم ممن يحسن شيئا من مذهبهم، وتزوج هناك، ثم حصلت له آفة في عينيه فكف بصره، ثم رجع إلى المدينة واستقر بها، وصار من المدرسين بها يقرئ المختصر قراءة ضعيفة، وهو لا يمشي إلا بقائد حتى في المسجد، خلاف الذي قبله، لأن هذا عمي في الكبر، وهذا شأن غالب من عمي في كبره.

---

[1] النجيب: النجيب من الإبل؛ الخفيف السريع: لسان العرب: نجب.
[2] العنق: العنق من السير المنبسط، وأعنق: أسرع: لسان العرب: عنق.
[3] نص: النص والنصيص: السير الشديد والحثيث: لسان العرب: نصص.
[4] الفُرْع: موضع بين مكة والمدينة: لسان العرب: فرع.

ومنهم صاحبنا ذو الحسب الزكي، النسب العلي، والخلق الشهي، والعقل الذكي، السيد محمد بن رسول الشهرزوري بلدي شيخنا الملا إبراهيم وأجل تلامذته، وشاركه في الأخذ عن كثير من مشايخه، قدم المدينة واستوطنها بعد الملا إبراهيم، وأخذ عن شيخنا صفي الدين القشاشي، وظهرت عليه بركته، وله فهم رائق في علوم متعددة، ربما درس بالحرم الشريف في فقه الشافعية، ،أطلعني على رسالة له كتبها في الانتصار لمذهب الإمام الشافعي في الجهر بالبسملة أول الفاتحة، وأنها آية منها، وذكر لي أن سبب تأليفها أن بعض طلبة الحنفية قال له: لا مستند للشافعي قطعي في ذلك، فتأملت الرسالة، فوجدته قد تصرف فيها تصرفا حسنا، وذكر الأدلة من السنة الواردة في ذلك، وبنى القطع بها على ما اشتهر عند متأخري المحدثين أن ما اشتمل عليه الصحيحان للبخاري ومسلم من الحديث يلحق بالمتواتر لتلقي الأمة لهما بالقبول شرقاً وغرباً، واشتهار أحاديثهما عند علماء النقل، إلا أنه تحامل فيه على من نفى قراءتها و لم يثبتها، ورد مذاهبهم بأشياء لا تقاوم أدلة مذاهبهم عند تحقيق النظر، ولأجل ذلك قلت له عند مطالعتها إنها رسالة حسنة في بابها، إلا أنها إن كان القصد بها إثبات مستند لمذهبكم رداً على من زعم نفيه، فهي وافية بذلك، كفيلة بتحصيل المراد مما هنالك، وإن كان القصد ترجيح المذهب على غيره، وتوهين أدلة من سواه، كما يظهر من فحوى كلامكم فيها، فلا تستقل بذلك، فقد ذكر علماء الحديث بعدما حصلوا طرق الأحاديث الدالة على إثباتها والقراءة بها في الصلاة، وتعاضدها أنها بجملتها لا تقاوم رواية أنس الواردة في الصحيحين وغيرهما، الدالة على عدم قراءتها لصحتها وشهرة رواتها، بحيث لا مطعن فيها ولا مغمز، فما ظنك بها إذا انظم إليها غير ذلك من الأدلة التي استدل بها المخالفون، ولصاحبنا هذا نية صالحة وسلوك في طريق القوم على يد شيخنا القشاشي، وقد قرأ علي طرفا من الشفا واستجازني فأجزته.

ومنهم الشيخ المسن المعقولي المفسر الملا نافع العجمي[1]، شهير الصيت عند علماء العجم وعند أرباب الدولة، تنثال عليه صِلاتهم في كل أوان، ويرون له مزية على غيره، وقد سكن المدينة مدة، وهو شيخ كبير قد أصابته آفة في رجليه، فصار يمشي على عصوين، يقرأ عليه تفسير البيضاوي في الحرم الشريف، ولا يحضر

---

[1] نافع العجمي، من أهل القرن الحادي عشر، تولى الإقراء في الحرم الشريف باللسان التركي والفارسي: التقاط الدرر، ص: 246. نشر المثني 2:389.

بمجلسه إلا الأتراك، أو من كان عارفاً بلسانهم، فإنه إنما يكون يقرر باللسان التركي والفارسي، ولذلك لم أحضر مجلسه ولم أستفد منه شيئاً، والعارفون بلسانه يثنون على حسن تقريره وجودة ملكته، رضي الله عنه.

ومنهم رئيس الخطباء وجمال الأدباء، واحد الفصحاء اللسن، الآخذ من براعة المنطق بطرف من الحسن البليغ، المفوه الفقيه الأفوه الخطيب أحمد السبري الحنفي، هو من أعمام الخطيب أحمد المالكي المتقدم، إلا أنه تمذهب بمذهب أبي حنيفة ورأس عند الحنفية، وله بلاغة منطق، يتولى الخطبة في المحافل الكبيرة فيجيد، وله عدة أولاد مقتفون أثره في انتحال الطلب، رأيت اثنان منهما يحضران مجلس شيخنا بدر الدين الهندي، لا بأس بهما، ويحضران مجلس والدهما في تدريس فقه الحنفية، كتبت إليه قبل أن ألقاه أستعير منه طبقات التاج السبكي الكبرى، وأنا إذ ذاك متلبس ببقية مرض لا أتمكن من الخروج، وهذا نص ما كتبت له:

[طويل]

أسيدنا السبري أحمَد خير مَن ... له المجدُ والبر العميمُ بلا شكِ
أؤمل منكمْ أن تُعيروا بفضلكمْ ... لنا طبقاتِ العالِم الماهرِ السبكي
ولولا الذي قد عاق من مرض لما ... تأخر عن تقبيل كفكم فك
على أنها الأيام تجري على الفتى ... فطورا بما يرضى وطورا بما يبك
ولكنني والحمد لله لم أزل ... أعاين لطف الله في الظلم الحلك
ومن كان جار المصطفى فهو آمن ... من الدهر أن يغشاه بالبوس والضنكِ
فعجلْ بما أملته منك سيدي ... فذلك للمعروف كالعرف للمسك
وأزكى صلاة الله ثم سلامه ... على أحمد الهادي المنزه عن إفك

فلما وصلت الأبيات له، بعث إلي بالسفر الثالث منها، وذكر أنه ليس عنده غيره، وكتب معه بأبيات جواباً على أبياتي في عددها ورويها، وهي هذه:

[طويل]

أبا سالمٍ سلمتَ من عارضِ الضنكِ ... وعشتَ مُعافى سالم الجسم والمسكِ

ووافتكَ في الأصــباح مــني تحيــةٌ		تفوق علــى الكــافورِ في العــرف
لقد جــاءني نظــمٌ توهمــتُ أنــه		هو الدر إلا أنــه الفــائقُ الــسلك
ترومُ به ما ألــفَ الــسيد الــذي		تآليفه شاعت لدى العرْب والتُّــركِ
هو الندي تاج الدين أوحد عــصره		ومن فاق في الترتيب والوضع والسبكِ
فها نبذة منها علــى حــاجتي لهــا		وما غيرها عندي ولا دخلت ملكي
فعذرا وعذرا حيث قصرت حــين لم		أزرك وكان اللوم مــستلزم التــركِ
ودُم سالما مــن كــل ســوء ممتعــا		بقرب مقام دونــه شــامخ الملــكِ

وحيث كان القصد من هذه الرحلة جمع الفوائد، لا انتقاء الفرائد، فلنذكرِ ما انتقيته من الفوائد من السفر الثالث المستعارِ من طبقات الــسبكي، تكــثيراً للفائدة، وهي مع طولها مستجادة مستحسنة، قلَّ أن توجد في غيره لغرابة هــذا الكتاب بمغربنا، فلم تقع عيني عليه، ولا سمعت أذني به عند أحد في قطرنــا، والله الموفق.

الحمد لله، هذه فوائد انتقيتها من الطبقات الكبرى للسبكي بالمدينة المنورة، ولم يقع بيدي منها إلا السفر الثالث، ونص ما انتقيته وانتخبته، مع الاســتعجال، كتبت عن صلاح الدين في النهي عن الخوض في الحرف والطوق، (لئن لم ينتــه المنافقون)[1]، الآية: خرج أمرنا إلى كل قائم في صف، أو قاعد في أمام وخلف، ألا يتكلم في الحرف بصوت، ولا في الصوت بحرف، ومن تكلم بعدها كان الجــدير بالتكليم (فليحذر الذين يخالفون)[2] الآية. قال التاج السبكي: لا أشك أن هــذا الفصل من كلام القاضي الفاضل أبي بكر بن قوام البالسي صــاحب الأحــوال والكرامات، المجمع على ولايته، ولد سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ألف في مناقبه حفيده أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي بكر، وذكر له من الكرامات ما يبــهر

---

(1) الأحزاب: 60.
(2) النور: 61.

العقول، توفي يوم الأحد منسلخ رجب سنة ثمان وخمسين وستمائة بالقرب من حلب، ثم نقل إلى قاسيون[1].

أحمد بن إبراهيم الشيخ عز الدين الفاروثي[2]، ذكر عنه أنه شاهد بالعراق رجلا مكث سنين لا يأكل ولا يشرب. قال الذهبي: وذكر لي عدد أثق بهم أن امرأة بالأندلس مكثت نحوا من عشرين سنة لا تأكل شيئاً، وأمرها مشهور. ثم ذكر قصة المرأة التي ذكرها الحاكم في تاريخ نيسابور، وفيها طول حاصلها أنها امرأة بعض الشهداء من بعض مدن خوارزم، اسمها رحمة بنت إبراهيم، وأن أبا العباس عيسى بن محمد الطهماني المروزي لقيها وسألها عن خبرها، فأخبرته بما حاصله أن زوجها مات في بعض الغزوات، وكان نجارا فقيرا معيشته من عمل يده يوما فيوما، ولها منه عدة أولاد، فلما مات أدركها عليه من الحزن ما يدرك المرأة الشابة على زوج أبي الأولاد، وجاء أولادها يطلبون الخبز، وليس عندها شيء، فضاق صدرها، قالت: فسمعت أذان المغرب، ففزعت إلى الصلاة، فصليت ثم سجدت أدعو وأتضرع وأسأل الله الصبر، فذهب بي النوم، فرأيت كأني في أرض حسناء أطلب زوجي، فوجدته مع قوم من الشهداء يأكلون، فناولني خبزا فأكلته، فقال اذهبي كفاك الله مئونة الطعام والشراب ما حييت، فانتبهت من نومي شَبعاً رَيَّاً لا أحتاج إلى طعام ولا شراب، ومكثت كذلك طول عمرها، وفي القصة طوَل اختصرناه[3].

ومنها في ترجمة المحب الطبري[4] أنه ذكر في شرح التنبيه [أنه][1] يجوز قطع ما يتغذى به من نبات الحرم، غير الإذخِر[2]، كالرِّجلة[3]، لأنه في معنى الزرع[4].

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8: 401.وانظر ترجمة البالسي في: شذرات الذهب 3: 295. طبقات الشافعية 3: 9.

(2) أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن سابور، أبو العباس الواسطي الشيخ عز الدين الفاروثي، ولد بواسط في ذي القعدة سنة 614هـ، وقرأ القرآن على والده وعلى الحسين بن أبي الحسن بن ثابت الطيبي، وسمع ببغداد من عمر بن كرم الدينوري والشيخ شهاب الدين السهروردي وأبي الحسن القطيعي وأبي علي الحسن بن الزبيدي وأبي المنجا ب، وحدث بالحرمين والعراق ودمشق، وكان فقيها مقرئا عابدا زاهدا صاحب أوراد، قدم دمشق من الحجاز بعد مجاورة مدة سنة تسعين تولى مشيخة الحديث بالظاهرية، ثم ولي خطابة الجامع ثم عزل منها فسافر إلى واسط وبها توفي سنة 694 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 7: 8 – 9.

(3) أنظر الحكاية في: طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الثامن، ص: 7 وما بعدها.

(4) أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الحافظ أبو العباس محب الدين الطبري ثم المكي، شيخ الحرم، مولده سنة 615 هـ، سمع ابن المقير وابن الجميزي وغيرهما، روى عنه البرزالي وغيره، وتفقه بقوص على الشيخ مجد الدين القشيري والد شيخ الإسلام تقي الدين، وصنف التصانيف

ومنها في ترجمة أحمد بن عيسى بن القليوبي[5] أنه استنبط من قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك)[6] الآية. أن ما يفعله علماء هذا الزمان من سعة الأكمام وكبر العمة، حسن، وإن لم يفعله السلف لأن فيه تمييزاً لهم، ليلتفت إلى فتاويهم[7].

ومنها أحمد بن عمر نجم الدين الكبري[8] بن الجناب الزاهد، الكبير والكبرى، على صيغة فعلى، ومنهم من يمد فيقول الكبراء، جمع كبير، استوطن خوارزم، اجتمع به الفخر الرازي[9].

ومنها أحمد بن فرح[10]، بالفاء والحاء المهملة، الإشبيلي نزيل دمشق، أخذ عن عز الدين بن عبد السلام، توفي سنة تسع وتسعين وستمائة، وله المنظومة التي أولها: غرامي صحيح[11].

ومنها لابن خلكان من جملة قصيدة[12]:

الجيدة منها في الحديث: الأحكام، وله مختصر في الحديث أيضا رتبه على أبواب التنبيه، وله كتاب في فضل مكة حافل وله شرح على التنبيه مبسوط فيه علم كثير: طبقات الشافعية الكبرى 8:18 – 19.

(1) زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.

(2) الإنخر: الحشيش الأخضر: تاج العروس: نخر.

(3) الرجلة: ضرب من البقل: تاج العروس: رجل.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 8:20.

(5) أحمد بن عيسى بن رضوان بن القليوبي أبو العباس، فقيه مصنف، من مصنفاته: نهج الوصول في علم الأصول، وكتاب طب القلب ووصل الصب، وكتاب الجواهر السحابية في النكت المرجانية، ولي قضاء المحلة مدة، قال الذهبي إنه توفي سنة 896 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:24.

(6) الأحزاب: 59.

(7) طبقات الشافعية الكبرى 8:24.

(8) أحمد بن عمر بن محمد الشيخ، الإمام الزاهد الكبير نجم الدين الكبرى، أبو الجَناب، الصوفي شيخ خوارزم، والكبرى على صيغة فعلى كعظمى، ومنهم من يمد فيقول الكبراء جمع كبير،كان إماما زاهدا عالما طاف البلاد وسمع بها الحديث، سمع بالإسكندرية أبا طاهر السلفي، وبهمذان الحافظ أبا العلاء، وبنيسابور أبا المعالي الفراوي، روى عنه عبد العزيز بن هلالة وناصر بن منصور الفرضي والشيخ سيف الدين الباخرزي وآخرون: طبقات الشافعية الكبرى 8:25. الأعلام 1:185.

(9) طبقات الشافعية الكبرى 8:25.

(10) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلي، فقيه مشارك، رحل إلى مصر سنة بضع وخمسين، تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسمع من شرف الدين الأنصاري الحموي والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزون وغيرهم، وعني بالحديث وأتقن ألفاظه وعرف رواته وحفاظه، وتوفي سنة 699هـ ومولده سنة 625 هـ: نفح الطيب 2:528. طبقات الشافعية الكبرى 8:27.

(11) طبقات الشافعية الكبرى 8:27. وهي قصيدة غزلية في ألقاب الحديث مطلعها:

غرامي صحيح والرجا فيك معضل ... وحزني ودمعي مطلق ومسلسل

(12) طبقات الشافعية الكبرى 8:34.

[كامل]

قلْ لي بـــأيِ وَســـيلة أدلِـــي بهـــا   إنْ كنـــتَ تُبعـــدنِي لأجـــل تقـــربي

ومنها أحمد بن محمد أبو العباس الملثم[1]، من جملـــة أصـــحاب المقامـــات العاليات، كان مقيما بمدينة قوص، وله فيها رباط، وكان من المعمرين، حتى قيل أدرك القاهرة أخصاصا قبل أن تُبنى، وكان أبوه ملك بالمشرق، وتوفي أبو العباس يوم الثلاثاء رابع عشرين من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وستمائة، وهو مدفون برباطه بقوص[2].

ومنها قاضي القضاة بالديار المصرية، من جمع بين قضاء مـــصر والقـــاهرة [....][3]. ومنها في ترجمة أبي الطاهر المحلي[4]، أن الشيخ ضياء الدين ولد أبي عبد الله القرطبي، بعثه والده إليه في حاجة، فوجده في المحراب، فلم يقم له، ولم يكن عادته، فقال له بعد ذلك إنك أتيتني في موضع لا يقام فيه إلا لله[5]. وذكر أنه كان لا يرى نسخة من ملخص الرازي[6] إلا اشتراه حتى لا يقع في أيدي الناس، ويقول تقليل للمفسدة، وكان يعير الكتب لمن يعرف ومن لا يعرف، ويسافر بها الناس، ويقول: ما أعرت كتابا إلا ظننت أنه لا يرجع، فإذا رجع كان نعمة جديـــدة[7]. ومن أعظم أشياخه أبو عبد الله القرشي، قال التاج السبكي[8]: والقرشي هذا من كبار العارفين، وهو صاحب القصيدة المسماة بالفرج بعد الشدة، المجربة لكشف الكروب، وأولها: اشتدي أزمة تنفرجي. وساقها إلى آخرها، ثم ذكر أنه رأى في الغرة اللائحة لأبي عبد الله محمد بن علي التوزري، المعروف بابن المصري، أن هذه

---

[1] أحمد بن محمد الشيخ الصالح أبو العباس الملثم، من أصحاب الكرامات والأحوال،كـــان مقيمـــا بمدينـــة قوص له بها رباط، توفي سنة 672هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 8:35.

[2] طبقات الشافعية الكبرى 8:37.

[3] فراغ في خ وط، ولعله محمد بن الحسين بن رزين بن موسى بن عيسى، ابن موسى العامري الحموي، قاضي القضاة بالديار المصرية، ولد سنة 603 هـــ بحماة، ثم انتقل إلى القاهرة، ثم درس بالظاهريـــة، ثـــم ولي قضاء القضاة وتدريس الشافعي، وكان فقيها فاضلا حميد السيرة كثير العبادة، مشاركا في علوم غيـــر الفقه كثيرة، توفي سنة680 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 8:46.

[4] أبو الطاهر محمد بن الحسين المحلي الأنصاري، فقيه زاهد، صاحب أحوال ومقامات، توفي ســـنة 633 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 8:55.

[5] طبقات الشافعية الكبرى 8:50.

[6] الملخص في الحكمة والمنطق للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة 606 هـــ: كـــشف الظنون 2:1819.

[7] نفسه 8:55.

[8] طبقات الشافعية الكبرى 8:57.

القصيدة لأبي الفضل ابن النحوي التوزري، قال السبكي: وكثير من الناس يعتقد أنها مشتملة على الاسم الأعظم، وكنت أسمع الوالد إذا أصابته أزمة ينشدها[1].

ومنها حكاية وقعت في زمن محمد بن جرير الطبري، ثم وقعت في زمن ابن عين الدولة، وهي أن امرأة قالت لزوجها: إن كنت تحبني فاحلف بطلاقي ثلاثا مهما قلت لك تقول مثل ما قلته في ذلك المجلس، فحلف، فقالت: أنتِ طالق ثلاثا، فأمسكا وارتفعا إلى ابن عين الدولة، وقال: خذ بعقيصتها[2]، وقل أنت طالق ثلاثا إن طلقتك. قال السبكي[3]: وكأنهما ارتفعا إليه في المجلس. ثم ذكر أيضا ابن عين الدولة أنه لم يقبل شهادة الملك الكامل لما شهد عنده، وقال السلطان يأمر ولا يشهد، فلما ألح عليه في قبولها، ذكر له ما يفسق به[4].

قال السبكي[5]: وغفل القاضي أنه يلزم من ذلك بطلان ولايته للقضاء، لأن تولية الفاسق لا تصح. ثم أجاب بأن الصحيح أن الفسق لا ينعزل به السلطان، ولكن لا تصح منه الأفعال التي تمكن من غيره، فلا يقضي ولا يزوج، لأن فيمن يقيمه من القضاة غنية عنه، وأما تولية القضاء فلا يمكن إلا منه، فيصح.

ومنها في ترجمة محمد بن عبد الله بن الفضل المرسي[6]، قال النحاة في إعراب قوله تعالى: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو)[7] هو في موضع رفع على الابتداء، والخبر محذوف تقديره لنا، أو في الوجود، واعترض صاحب المنتخب تقدير الخبر، فقال: إن كان لنا، كان بمعنى ما قبله، فيكون تكرارا محضا، وإن كان في الوجود، كان نفيا لوجود الإله، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان الإعراض عن هذا الإضمار أولى. أجاب المرسي في ري الظمآن قال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن الإله في موضع الابتداء عند سيبويه، أو اسم لا عند غيره، وعلى كلا التقديرين فلا بد من خبر للمبتدإ، وأما

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8:60.

(2) العقيصة: الضفيرة: تاج العروس: عقص.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 8:65.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) محمد بن عبد الله بن محمد السلمي شرف الدين ابن أبي الفضل المرسي، ولد بمرسية سنة 570 هـ، رحل إلى دمشق ثم مصر ثم قوص ثم مكة، ثم عاد إلى بغداد، كان فقيها محدثا أديبا زاهدا متعبدا صنف تفسيرا حسنا، توفي بين العريش وغزة سنة 655 هـ: طبقات الشافعية الكبرى: 8:65.

(7) البقرة: 162.

ما قاله إذا لم يظهر كان نفيا للماهية فليس بشيء، لأن الماهية، أي نفيها، هو نفي الوجود، لأن الماهية لا تتصور إلا مع الوجود، فلا فرق بين لا ماهية ولا وجود عند أهل السنة خلافا للمعتزلة. قال السبكي[1]: وما ذكر صاحب المنتخب من عدم التقدير يشبه ما يقول الشيخ الإمام في إعراب الله من قوله تعالى: (ليقولن الله)[2]، ولكن لا يقال هنا مبتدأ، ولكن تجعل الله كلمة مفردة لا معربة ولا مبنية.

ومنها محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري[3]، الإمام فخر الدين الرازي ابن خطيب الري، ثم بالغ في الثناء عليه كثيرا، ولد سنة ثلاث أو أربع وأربعين وخمسمائة، واشتغل على والده وغيره، ثم عد تصانيفه، فقال[4]: وأما كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم فلم يصح أنه له.

قال السبكي[5]: واعلم أن شيخنا الذهبي ذكر الإمام في كتاب الميزان في الضعفاء، وكتب على كتابه أنه ليس لذكره في هذا المكان معنى، ولا يجوز من وجوه أعلاها؛ أنه ثقة حبر من أحبار الأمة، وأدناها أنه لا رواية له، فذكره في كتب الرواة مجرد فضول وتعصب وتحامل. وقال في الميزان: له كتاب أسرار النجوم سحر صحيح. قلت[6]: وقد عرفناك أن هذا الكتاب مختلق عليه، وبتقدير صحة نسبته، فليس بسحر، فليتأمله من عاين السحر. وأطال في الرد على شيخه الذهبي، ونسبه إلى التعصب في هذا. قلت: وما ذكره السبكي من كون كتاب أسرار النجوم ليس له، لا يصح، فقد رأيت بالمدينة نسخة من الملخص للإمام الفخر وعلى ظهرها مكتوب بخط شيخنا الملا إبراهيم ما معناه أن الإمام أشار في هذا الكتاب إلى أن كتاب أسرار النجوم له، فمن نفاه عنه فهو قصور منه، فالأولى تأويل كلامه فيه. ثم ذكر وصية أوصى بها تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني لما احتضر نصها[7]: يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8:72.

(2) العنكبوت: 61.

(3) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري الإمام فخر الدين الرازي ابن خطيب الري إمام المتكلمين، ولد سنة ثلاث وأربعين وقيل أربع وأربعين وخمسمائة، توفي سنة 606 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:81.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 8:87.

(5) طبقات الشافعية الكبرى 8:88.

(6) نفسه.

(7) طبقات الشافعية الكبرى 8:90 – 92.

بن الحسن الرازي، وهو أول عهده بالآخرة وآخر عهده بالدنيا، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق، أحمد الله بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات شهاداتهم، وأحمده بالمحامد التي يستحقها، عرفتها أو لم أعرفها، لأنه لا مناسبة للتراب مع رب الأرباب، وصلواته على ملائكته المقربين، وأنبيائه المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، اعلموا أخلائي في الدين، وإخواني في طلب اليقين، أن الناس يقولون إذا مات ابن آدم[1] انقطع عمله وتعلقه عن الخلق، وهذا مخصص من وجهين، الأول أنه [إن][2] بقي منه عمل صالح صار ذلك سبباً للدعاء، والدعاء له عند الله أثر. الثاني ما يتعَلّق بالأولاد وأداء الجنايات، أما الأول فاعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم، فكنت أكتب من كل شيء شيئاً لأقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقا أو باطلا، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة أن العالم المخصوص تحت تدبير مدبره المنزه عن مماثلة المتحيزات، موصوف بتمام القدرة والعلم والرحمة، ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذلك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك المناهج العميقة، فلهذا أقول كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء[3]، كما في القدم والأزلية والتدبير والفعالية، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله به، وأما ما ينتهي الأمر فيه إلى الدقة والغموض، وكل[4] ورد في القرآن والصحاح، المتعين للمعنى الواحد، فهو كما قال، والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فكل ما مده قلمي أو خطر ببالي، فأستشهد وأقول: إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقديس اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصدق، فلتكن رحمتك مع خطرتي لا مع حاصلي، فذلك جهد المُقِل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في زلة، فأغثني وارحمني،

[1] في طبقات الشافعية الكبرى: إن الإنسان إذا مات.
[2] زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.
[3] في ط: الشريك.
[4] في ط: كما.

واستر زللي، وامح حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينقص ملكه بخطإ المجرمين، وأقول: ديني متابعة الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، وكتابي القرآن، وتعويلي في طلب الدين عليهما، اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقيل العثرات، أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت أنا عند ظن عبدي بي، وأنت قلت: (أَمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه)[1]، فهب أني ما جئت بشيء، فأنت الغني الكريم، فلا تخيب رجائي، ولا ترد دعائي، واجعلني آمنا من عذابك قبل الموت وعند الموت، وبعد الموت، وسهل على سكرات الموت، فإنك أرحم الراحمين. وأما الكتب التي صنفتها واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذفن القول السيئ، فإني ما أردت إلا تكثير البحث وشحذ الخاطر، والاعتماد في الكل على الله.

الثاني، وهو إصلاح أمر الأطفال، فالاعتماد فيه على الله، ثم سرد وصيته في ذلك إلى أن قال: وأمرت تلامذتي ومن لي عليه حق إذا أنا مت يبالغوا في إخفاء موتي، ويدفنوني على شرط الشرع، فإذا دفنوني قرأوا علي ما قدروا عليه من القرآن، ثم يقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه. هذا آخر الوصية. قال الإمام في تفسيره، وأظنه في سورة يوسف، عليه السلام: والذي جربته طول عمري أن الإنسان كلما عول في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سببا للبلاء والمحنة، وإذا عول على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق، جعل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين، فعند هذا أسفر قلبي على أنه لا مصلحة للإنسان في التعويل على شيء سوى فضل الله وإحسانه.

قال السبكي[2]: وما ذكره حق، وإن فرض أن أحداً عَوَّل على غيره في أمر، فحصل له، فهو إما ممكور به، والعياذ بالله، وإما رجل يطلب شراً، وهو يحسبه خيراً لنفسه، ويظهر له ذلك بعاقبة ذلك الأمر. واعلم أنَّ هذه الجملة من كلام الإمام دالة على مراقبته طول وقته، ومحاسبته لنفسه، رضي الله عنه، وقبح من

(1) النمل: 64.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 8:93.

يسبه، أو يذكره بسوء حسدا من عند نفسه. توفي الإمام بهراة يوم الإثنين، يـــوم عيد الفطر، سنة ست وستمائة.

اختار الإمام في سورة الإسراء أن تسبيح ما سوى الإنسان إنما هو بلــسان الحال. قال السبكي: وفصل قوم فقالوا يسبح الناس دون غيره، بـــدليل حـــديث الجريدتين، والصحيح أن الكل يسبح بلسان المقال، ولا يلزم سماعنا إلا على وجه المعجزة، أو الكرامة، ونقل أدلة على ذلك[1].

ومنها محمد بن محمود بن النجار[2] مؤلف تاريخ بغداد في ثلاثين مجلدا، ذيل به على تاريخ الخطيب، له رحلة واسعة بلغت مشيخة أشياخه ثلاثة آلاف، توفي سنة خمس وستمائة.

ومنها محمد شمس الدين الأصبهاني[3] شارح المحصول، أخذه مـــن شـــرح القرافي، إلا أنه نقح وهذب، إذا جاء من يقرأ عليه الفلسفة، يقول له: حتى تمتزج بالشرعيات، كان قاضيا بقوص، ويشهد مجلسه تقي الدين ابن دقيق العيد، وشكا إليه رجل بشاعر هجاه ليعزره، فقال: أخاف أنا أن يهجوني أيضاً، وكان عـــدلاً ثبتاً في أحكامه، حتى أدب الحاجب بمدينة قوص، ولد بأصبهان سنة ست عشرة وستمائة، وتوفي بالقاهرة في العشرين من رجب سنة ثمان وثمانين وستمائة.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8:94.

(2) محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن، الحافظ الكبير الثقة محب الدين أبو عبـــد الله ابـــن النجار البغدادي، مصنف تاريخ بغداد الذي ذيل به على تاريخ الخطيب فجاء في ثلاثين مجلدا، ولد فـــي ذي القعدة سنة 578 هـــ، له الرحلة الواسعة إلى الشام ومصر والحجاز وأصبهان ومرو وهراة ونيسابور، قال ابن الساعي: كانت رحلته سبعا وعشرين سنة واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ، توفي ببغـــداد ســـنة 643 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 8:98-99.

(3) محمد بن محمود بن محمد بن عباد أبو عبد الله القاضي شمس الدين الأصبهاني، كان إماما في المنطـــق والكلام والأصول والجدل، خرج من أصبهان شابا ودخل بغداد فاشتغل بها، ثم قدم حلب وولـــي القـــضاء بمنبج، ثم قدم القاهرة فولاه قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء قوص فباشرها مباشرة حـــسنة، ولد بأصبهان سنة 616 هـــ وتوفي بالقاهرة سنة 688 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 8:100-102.

ومنها في ترجمة عماد الدين ابن يونس الإربلي[1]: أدلة الشرعِ منحصرة في النص والإجماع والقياس، لأنَّ الحكم المدعى إما أن يكون مستفاداً من نقل أو لا، فإن كان فلا يخلو إما أن يكون بواسطة أهل الحل والعقد، أو لا، فإن كان فهو المُسَمَّى إجماعاً، وإن لم يكن فهو المسمى نصاً. وإن لم يكن مستفادا من نقل، فلا يخلو إما أن يكون مستفادا من معنى معقول أو لا، فإن كان فلا يخلو إما أن يكون ذلك المعنى راجعا إلى أحد هذين القسمين أو لا، فإن كان راجعا فهو المسمى قياسا، وإن لم يكن مناسبا مرسلا، وهو غير معمول به عندنا، وإن كان لا من نقل ولا من معنى، فلا يثبت، فثبت أن الأدلة منحصرة في النص والإجماع والقياس[2].

وكان يجعل من موانع النكاح اختلاف الجنس، ويقول: لا يجوز للآدمي أن يتزوج الجنية، قال القمولي[3]: وفيه نظر[4].

ومنها إبراهيم بن محمد القطب المصري[5]، ومن تلامذة فخر الدين الرازي، قال السبكي: لا تغتر بكلام أبي علي بن خليل السكوني المغربي، صاحب كتاب التمييز على كشاف الزمخشري، حيث تكلَّم فيه بعدما تكلم في الإمام الفخر نفسه باعتراضه على المتقدمين، كالأشعري فمن دونه من أتباعه، وهذا لا يعاب به العالم، والمغاربة لا يحتملون أحداً يعارض الأشعري في كلامه، والإمام لا ينكر عظمة الأشعري، كيف وهو على طريقه وبقوله يأخذ، ولكن لم تزل الأئمة يعترض متأخرها على متقدمها، ولا يشينه ذلك بل يزينه.

---

(1) محمد بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك الشيخ عماد الدين بن يونس الإربلي، أحد الأئمة من علماء الموصل يكنى أبا حامد، ولد سنة 535 هـ، وتفقه بالموصل على والده ثم رحل إلى بغداد فتفقه بها، على السديد السلماسي وأبي المحاسن يوسف بن بندار الدمشقي، وسمع الحديث من أبي حامد محمد بن أبي الربيع الغرناطي، وعاد إلى الموصل ودرس بها في عدة مدارس، وعلا صيته وشاع ذكره وقصده الفقهاء من البلاد، وصنف المحيط في الجمع بين المهذب والوسيط، وشرح الوجيز، توفي بالموصل سنة 608 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:109 – 110.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 8:110.

(3) أحمد بن محمد بن أبي الحزم مكي بن ياسين، أبو العباس الشيخ نجم الدين القمولي، فقيه مشارك، ولي حسبة مصر، وولي التدريس بالفخرية بالقاهرة، من مصنفاته: البحر المحيط في شرح الوسيط، وكتاب جواهر البحر، توفي بمصر سنة 727 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:30. الدرر الكامنة 1:359.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 8:111.

(5) إبراهيم بن نصر بن طاقة المصري الحموي الأصل، برهان الدين المعروف بابن الفقيه نصر، فقيه أديب، مولده سنة 571 هـ، أجاز له ابن الجوزي وجماعة، وحدث سمع منه الحافظ المنذري وغيره، وولي نظر الأحباس بالديار المصرية ونظر الديوان بالأعمال القوصية، امتحن ابن الفقيه نصر في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وصودر وسلم إلى من عاقبه، فضربه حتى مات في ليلة ثاني جمادى الأولى سنة 638 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:124.

[مجزوء الكامل]

أشكو إليك وأنت أر ... حمُ من شكوت إليه حالي

ضاقتْ علي ثلاثة ... رزقي وصدر واحتمالي

وعدمتُ حسنَ ثلاثة ... جَلدي وصبري واحتيالي[1]

ومنها في ترجمة عبد الرحمن أبي شامة[2]، قيل: بلغ رتبة الاجتهاد، له كتاب: نور المسرى في تفسير سورة الإسراء[3]، رد فيه قول السهيلي مستدركاً على أهل اللغة قولهم: أسرى وسرى لغتان، بأن الرواة اتفقوا على تسمية أسرى، و لم يسمه أحد سرى، فدل على أن أهل اللغة لم يحققوا العبارة، فقال أبو شامة: إنما أطبقوا محافظة على لفظ القرآن، وإلا ففي مسلم: لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي. ومن فوائده في هذا الكتاب قال[4]: افتتح الله سور كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام؛ الأول الثناء في أربعة عشر سورة، إما بالإشارة إلى إثبات صفة الكمال في سور سبع، الحمد لله في سور خمس، وتبارك في سورتين، وإما بالإشارة إلى نفي صفات النقص في سبع أخر، سبحان، سبح، يسبح، سبح. الثاني؛ حرف الهجاء في تسع وعشرين سورة، الثالث؛ النداء في عشر سور، الرابع؛ الجمل الخبرية نحو: (أتى أمر الله)[5] في ثلاث وعشرين، الخامس؛ القسم في خمسة عشر سورة، السادس؛ الشرط بإذا في سبع، السابع؛ الأمر بقل واقرأ في ست، الثامن؛ الاستفهام كما في عم وهل والهمزة في ست، التاسع؛ الدعاء بويل وتبت في ثلاث، العاشر؛ التعليل في سورة واحدة وهي (لإيلاف قريش)[6] هـ.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8:125.

(2) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، الشيخ الإمام المتفنن شهاب الدين المقدسي الدمشقي، أبو شامة، برع في فنون العلم وقيل بلغ رتبة الاجتهاد، واختصر تاريخ الحافظ ابن عساكر، وصنف كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وله أرجوزة حسنة في العروض ونظم مفصل الزمخشري، ومن محاسنه كتاب البسملة الأكبر وكتاب البسملة الأصغر، وكتاب ضوء القمر الساري إلى معرفة الباري، وكتاب نور المسرى في تفسير آية الإسراء، ولد أبو شامة سنة 599 هـ، وأخذ عن شيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام، وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية ومشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية، توفي سنة 665 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:165 – 166.

(3) صدر الكتاب عن دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي سنة 2000 بتحقيق الدكتور عبد الحكيم الأنيس.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 8:166.

(5) النحل: 1.

(6) قريش: 1.

ولابن بنت الأعز[1]:

[طويل]

ومن رامَ في الـــدنيا حيــاة خَليــة   من الهـــم والأكـــدارِ رامَ مُحـــالا[2]

وهاتيك دعوى قد تركت دليلــها   على كـــل أبنـــاء الزمـــانِ محـــالا

ومنها في ترجمة فخر الدين ابن عساكر[3] أنه كان يدرس بمدارس بدمــشق وبالقدس، يقيم بهذا أشهرا، وبهذا أشهرا، قال السبكي[4]: وقد تعلق بهذا من ولي تدريسا في بلدين متباعدين؛ حلب ودمشق، وأفتى جماعة بالجواز على أن يستنيب، والذي يظهر لي أن هذا لا يجوز، وأكل المال فيه أكل باطل، وغيبته عن واحــدة لحضور أخرى ليس بعذر، فما ظنك بمن يغيب بالكلية، وقد تعلق بعض من أجاز هذا بأن الشيخ الإمام أفتى فيما إذا مات فقيه وله زوجة وأولاد أن يعطــوا مـــن معلوم تلك الوظيفة، ثم إن فضل شيء لا بأس أن يعطى لمن يقوم بالوظيفة، أخذا من قول الشافعي: من مات من المقاتلة أعطيت زوجته وأولاده. وقد أفتى ابن عبد السلام والنووي في إمام مسجد يستنيب فيه بلا عذر أن المعلوم لا يستحقه النائب لأنه لم يول، ولا المستنيب لأنه لم يباشر، وخالفهما الشيخ الإمام فيما إذا كــان النائب مثل المستنيب، أو أرجح، وقد تصح الاستنابة لحصول الغرض الــشرعي، واقتضى كلامه جواز الاستنابة بلا عذر. وعندي فيه توقُف، وقد أشاع كثير من الناس أن الوالد كان يرى تولية الأطفال وظائف آبائهم مع عدم صلاحيتهم، إذا قام بالوظائف صالح، ونحن أخبر بأبينا ومقاصده، ولم يكن، رحمه الله، رأى ذلك على الإطلاق، إنما كان رأيه فيمن كانت له يد بيضاء في الإسلام، من علــم أو غيره، قد أثار في الدين آثارا حسنة، وترك ولدا أن يباشر وظيفته مـــن يـــصلح،

---

[1] عمر بن عبد الوهاب بن خلف، قاضي القضاة، صدر الدين ابن بنت الأعز، فقيه مشارك،ولد سنة 625 هـ، وتوفي بالقاهرة سنة 680 هـ طبقات الشافعية الكبرى 8:310. طبقــات الــشافعية 2:144. النجــوم الزاهرة 7:123.

[2] أنظر: طبقات الشافعية الكبرى 8:174.

[3] عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عبد الله بن الحسين الدمشقي، أبو منصور فخر الــدين ابن عساكر، شيخ الشافعية بالشام، ولد سنة 555 هـ، وتفقه بدمشق على الشيخ قطب الــدين النيــسابوري، وسمع الحديث من عميه الإمامين الحافظ الكبير أبي القاسم والصائن هبة الله وجماعة، وحدث بمكة ودمشق والقدس، روى عنه الحافظ زكي الدين البرزالي وزين الدين خالد وضياء الدين المقدسي وآخــرون، ولــه تصانيف في الفقه والحديث، توفي سنة 620 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:177.

[4] طبقات الشافعية الكبرى 8:179.

وتكون الوظيفة باسم الولد، وتكون التولية توليتان، تولية اختصاص وتولية مباشرة، فالصبي يتولى تولية اختصاص، بمعنى أن يكون له بعض خصوصية بها، ويصرف له بعض المعلوم، والصالح يتولى تولية مباشرة، يعني أنه يأتي بالمعنى المقصود من الوظيفة، فيحصل غرض الواقف، ومراعاة الصغير إعانة لحق الله، ويقول: أنا في الحقيقة إنما أولي المباشر، وهو ذو الولاية الحقيقية، فقلت له: فلم لا تصرح بالولاية؟ قال: أخشى على الطفل منه أن لا يعطيه شيئاً. قلت له: اجعل المباشر هو المتولي، واشترط عليه بعض المعلوم للطفل. قال: يتأهل الطفل فلا يسلم له الوظيفة. فقلت له: فما الذي ثبت للطفل الآن؟ قال: ولاية الاختصاص، بمعنى أنه يصير أحق بهذه الوظيفة إن تأهل من غير احتياج إلى تجديد ولاية، وإطلاق بعض المعلوم مادام عاجزاً. قال: وأما من لم يمكن ولايته كزوجة وبنت، فهؤلاء لا أوليهم مطلقاً، وإنما أقول لمن أوليه التزم بالنذر الشرعي أن ترفع لها كيت وكيت، ما دام كذا من معلوم هذه الوظيفة. قلت له: هذا كله فيمن سبقت لأبيه سابقة، فما قولك فيمن لا سابقة لأبيه؟ قال: إن كان فقيرا أفهم من نص الشارع طلب إعانة مثله، فعلت معه ذلك أيضا، ولا أتركه يبيت جائعا، والرزق الذي كان يدخل إليه مع أبيه، إلى غير ذلك من تفاصيل كان يذكرها، والله أعلم بنيته فيها، والرجل كان متضلعا بالعلم والدين، هـ كلامه، وقد تركت الكثير من مراجعته لأبيه في هذه المسألة.

ومن شعر ابن عساكر[1]:

[مجزوء الرمل]

خفْ إذا ما بت ترجو ... وارجُ إن أصبحت خائفْ

كم أتى الدهر بعُسر ... فيه لله لطائفْ

ومنها أن فخر الدين هذا مر بالموفق بن قدامة، فسلم ولم يرد، فقيل له في ذلك، فقال إنه يقول بالكلام، وأنا أرد عليه في نفسي، واستبعد السبكي ذلك من دين ابن قدامة[2]. ومنها أن صلاح الدين خليل بن كيكلدى[3] أنكر كون

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 8:184.

(2) نفسه.

(3) في ط: بن كيكارى. وهو خليل بن كيكلدى العلائى، ولد سنة 694هـ، اشتغل بالفقه والعربية وصنف التصانيف في الفقه والأصول والحديث، من مصنفاته: تحفة الرائض في علم الفرائض، والأربعين في

المرشدة[1] لابن تومرت قائلا إنه كان يوافق المعتزلة في أصولهم، وهذه مباينة لهم. قال السبكي[2]: لا يصح عندنا ما ذكره في ابن تومرت، والأغلب أنه كان أشعرياً صحيح العقيدة، أميراً عادلاً، داعياً إلى طريق الحق، ثم ساق العقيدة بتمامها.

ومنها أفتى فخر الدين بجواز كتب الصداق في الحرير، وخالفه ابن عبد السلام والنووي[3].

ومنها، وللتهامي وخمسها الديريني[4]:

[كامل]

حكمُ المنيةِ في البريةِ جارِ ... ما هذهِ الدنيا بدار قرار[5]

بينا ترى الإنسانَ فيها مُخبرا ... ألفيتهُ خبرا من الأخبَار

طبعتْ على كدر وأنتَ تريدها ... صفوا من الأقذاء والأكدارِ

ومكلف الأيام ضد طِباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

وإذا رجوتَ المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شَفير هار

والعيشُ نوم والمنية يقظة ... والمرءُ بينهما خيال سار

فاقضوا مآربكم عِجالا إنما ... أعماركم سفرٌ من الأسفار

وتركضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تسترد فإنهن عوار

ليس الزمانُ وإن حرصت مسالما ... خلق الزمان عداوة الأحرارِ

أعمال المتقين، وولي تدريس الحديث بالناصرية ثم الصلاحية بالقدس وقطن به إلى أن مات سنة 761 هـ: الدرر الكامنة 2:212.

(1) المرشدة: هي العقيدة الموحدية التي كان الموحدون بالمغرب يلزمون تعلمها وتعليمها وحفظها الصغار والكبار، أنظر نصها في: ملء العيبة 5:345.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 8:185.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 8:187.

(4) عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري الديريني، الشيخ الزاهد، صاحب الأحوال والكرامات والمصنفات، له نظم التنبيه والوجيز وغريب القرآن وغير ذلك، مولده سنة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة وستمائة، وتوفي سنة 694 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:199. شذرات الذهب 3:450.

(5) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى 8:202.

ومنها في ترجمة عز الدين ابن عبد السلام: قرأ الأصول على سيف الـــدين الآمدي، وسمع الحديث من الحافظ القاسم بن الحافظ الكـــبير أبي القاســـم بـــن عساكر، روى عنه ابن دقيق العيد، وهو الذي لقبه سلطان العلماء، ولد سنة سبع، أو ثمان وسبعين وخمسمائة، وولي الخطابة والإمامة بدمشق، إلى أن أعطى السلطان مدينة ضيد للفرنج، فأنكر عليه هو وابن الحاجب، وغضب السلطان، فخرجا إلى القاهرة، ولما دخلها أكرمه حافظ العصر وزاهده عبد العظيم المنذري، وامتنع من الفتيا، وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه، وكان مع فقره كثير الصدقات، ربما قطع من عمامته وأعطى فقيرا سأله، وعن جمال الدين ابن الحاجب، كان ابن عبد السلام أفقه من الغزالي، لـــبس خرقـــة التصوف من الشيخ شهاب الدين السهروردي، وتوفي سنة ستين وستمائة في تاسع جمادى الأولى[1].

وحكى أن شخصا جاء إليه وقال إني رأيتك في النوم تنشد[2]:

[طويل]

وكنتُ كذي رجلينِ رجلٌ صحيحة ورِجل رمى بهـــا الزمـــانُ فـــشُلّت

فسكت ساعة ثم قال: أعيش من العمر ثلاثاً وثمانين سنة فإن هذا الـــشعر لكثير عزة، ولا نسبة بيني وبينه غير السن، أنا سني وهو شيعي، وأنا لست بقصير وهو قصير، ولست بشاعر وهو شاعر، وأنا سلمي وليس هو بسلمي، لكنه عاش هذا القدر، وكان الأمر كما قال[3]. ولا يعرف شعر إلا قوله:

[كامل]

لو كانَ فـــيهم مـــن عـــراهُ غـــرام مـــا عَنفـــوني في هـــواه ولامُـــوا[4]

أنشده للطلبة وقال لهم أجيزوه، فأجازه شمـــس الـــدين عمـــر الأســـواني (بقوله)[5]:

---

(1) نفسه 8:245.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 8:245 ـــ 246.
(3) نفسه 8:246.
(4) نفسه.
(5) زيادة من ط.

[كامل]

لكنهم جهلوا لذاذة حُسنهِ وعلمتُها ولذا سهرتُ وناموا[1]

لو يعلمونَ كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجناب وهاموا

أو لو بدتْ أنوارهُ لعيونهم خروا ولم تثبتْ لهم أقدامُ

إلى أن عرج منها إلى مدح الشيخ فقال:

مولايَ عز الدين عز بك العلا فخرا فدونَ حذاك منه الهامُ

لما رأينا منكَ علما لم يكن في الدرس قلنا إنه إلهامُ

جاوزت حد المدح حتى لم يطق نظما لفضلك في الورَى النظامُ

فعليك يا عبدَ العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلامُ

ومدحه أبو الحسين الجزاز[2] الأديب بقصيدة أولها[3]:

[خفيف]

سارَ عبدُ العزيز في الحُكم سيرا لم يسرهُ سوى ابن عبد العزيزِ

عمنا حكمهُ بفضل بسيط شاملٍ للورى ولفظ وجيزِ

قال في القواعد الكبرى: لم أقف على ما يعتمد على كون الربا من الكبائر، فإن كونه مطعوماً، أو قيمة الأشياء، أو مقدوراً، لا يقتضي مفسدة عظيمة يكون كبيرة لأجلها[4]. وفي القواعد الصغرى: إن الملائكة لا يرون ربهم. وقال في الكبرى: إذا وجد شخصين مضطرين متساويين، ومعه رغيف إن أطعمه أحدهما عاش يوما ومات الآخر، وإن فضه عاش كل منهما نصف يوم، المختار أن تخصيص أحدهما غير جائز، لأن أحدهما قد يكون ولياً، وكذا لو كان له ولدان لا يقدر إلا على قوت أحدهما فض. وقال أيضا: من قذف شخصاً بمكان خال لا

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى8: 246.

(2) في ط: الخراز.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 8: 247.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 8: 249.

يعلمه إلا الله والحفظة، الظاهر أنه ليس بكبيرة موجبة للحد. قال السبكي[1]: وأنا أسلم له الحكم ولا أسلم له أن هذا قذفا، لأن القذف هو الثلب والرمي، ولا يحصل بهذا القدر، وذكر في أماليه أن القاتل إذا ندم وعزم ألا يعود لكنه امتنع من تسليم نفسه للقتل، لم يقدح في توبته، وهذا ذنب جديد بعد الذي عصى به، خالف لما وقع به العصيان من القتل، ونحن إنما نشترط الإقلاع في الحال عن الفعل. واستحسن السبكي هذا قائلا: وإن خالفه نصوص الأصحاب. وقال أيضا: ينبغي أن يؤخر الصلاة عن أول الوقت بكل مشوش يؤخر الحاكم الحكم بمثله. وقال فيها أيضاً: القطع في السرقة يكفر ما يتعلق بربع دينار فقط، ولا يكفر الزائد. وقال فيها أيضاً: القتال في الجهاد أفضل من القتل.

قال السبكي[2]: وهذه المسائل الثلاث مليحة ظاهرة الحكم، لا ينبغي أن يطرقها خل. وقال في آخر كلام له في المنع من صلاة الرغائب: وهذه الصلاة لا يصليها إلا أهل المغرب الذين شهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لطائفة منهم أنهم لا يزالون على الحق حتى تقوم الساعة، وخالفه ابن الصلاح، وكان أفتى أولا بالمنع، ثم صمم بعد على خلافه.

منها في ترجمة المنذري[3] أن ابن عبد السلام كان يسمع الحديث قليلا بدمشق، فلما دخل القاهرة أبطل ذلك، وصار يحضر زكي الدين المنذري، ومن شعره[4]:

[كامل]

اعملْ لنفسكَ صالِحاً لا تحتفلْ ... بظهُورِ قيلِ في الأنامِ وقالِ

فالخلقُ لا يرجى اجتماع قلوبهم ... لا بد من مُثن عليك وقالِ

(1) نفسه.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 8:251.
(3) عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة ابن سعد المنذري، الحافظ الكبير الورع الزاهد، ولد سنة 581 هـ، وتوفي سنة 656 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:260.
(4) نفسه 8:281.

ومنها في ترجمة عبد الغفار القزويني[1]، صاحب الحاوي الصغير، أنَّه حج سنة حج الشيخ شهاب الدين السهروردي بعد ما أضر، وقال لأصحابه: أشم هنا رائحة رجل، ووصفه لهم فطلبوه فوافوه وهو يكتب في الحاوي وقد أضاء[2] له نور في الليل، وهو يكتب عليه فقالوا له: إن الشيخ يطلبك. فلما حضر وقال له ما تكتب؟ قال أصنف هذا الكتاب، ووصف له الحاوي، فقال له الشيخ: أسرع وعجل. فقيل للشيخ في ذلك، قال إن أجله قد دنا فأردت أن يفرغ من هذا الكتاب قبل أن يموت، فكان كذلك مات بعد الفراغ بيسير. قال السبكي[3]: وإضاءة النور وقت التصنيف للقزويني كرامة ذكرناها في ترجمة الرافعي ووالده.

ومنها في ترجمة عبد الكريم بن القاسم الرافعي[4] صاحب العزيز في شرح الوجيز، قال السبكي[5]: لم يصنف مثله في مذهب من المذاهب، من فوائده في قوله عليه السلام إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، [من أحصاها دخل الجنة][6] إنما قال مائة إلا واحدا لئلا يتوهم أنه على التقريب، وفيه [فائدة] رفع الاشتباه [فقد يشتبه] في الخط [تسعة وتسعون] بسبعة وسبعين. ومن كلامه:

[بسيط]

وكيف ما دارتِ الأيامُ مقبلة وغير مقبلة فالحمدُ محمودُ

وسئل الأصمعي[7] عن معنى يغان على قلبي، فقال عمن يروى ذلك؟ قيل عن النبي عليه السلام. قال لو كان عن غير قلب النبي فسرت لك، وأما قلبه فلا أدري، فكان شعبة، وهو السائل، يتعجب منه.

---

(1) عبد الغفار بن عبد الكريم بن عبد الغفار القزويني، الشيخ الإمام نجم الدين صاحب الحاوي الصغير واللباب وشرح اللباب المسمى بالعجاب، وله أيضا كتاب في الحساب، كان أحد الأئمة الأعلام، له اليد الطولى في الفقه والحساب وحسن الاختصار، توفي سنة 665 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:278.

(2) في خ وط: فأضاء.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 8:281.

(4) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل بن الحسن القزويني، الإمام الجليل أبو القاسم الرافعي، صاحب الشرح الكبير، له كتاب الإيجاز في أخطار الحجاز، ذكر أنه أوراق يسيرة ذكر فيها مباحث وفوائد خطرت له في سفره إلى الحج، توفي سنة 623 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:281.

(5) طبقات الشافعية الكبرى 285- 8-286.

(6) زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.

(7) نفسه 8:290.

وعن الجنيد لولا أنه حال النبي، صلى الله عليه وسلم، لتكلمت فيه، ولا يتكلم على حال إلا من كان مشرفاً عليها وجلت حاله أن يشرف على نهايتها أحد من الخلق. تمنى الصديق، رضي الله عنه، مع علو رتبته أن يشرف عليها فعنه: ليتني شهدت ما استغفر منه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال الرافعي: والذي يستحسنه والدي إنه الترقي في الدرجات، كلما ترقى درجة رأى التي تحتها قاصرة بالإضافة إليها، فيستغفر[1].

ومنها في ترجمة علي بن الأثير[2] صاحب التاريخ، لقبه عز الدين، وهو أخو مجد الدين صاحب النهاية وجامع الأصول، وأخو أبو زيد ضياء الدين صاحب المثل السائر.

ومنها في ترجمة علاء الدين علي بن النفيس الطبيب[3]، صنف في الطب كتاب الشامل، ولو تم لكان ثلاثمائة مجلد، تم منه ثمانون مجلداً.

ومنها في ترجمة سيف الدين الآمدي[4]، قال ابن عبد السلام: ما سمعت أحداً يلقي الدرس أحسن منه، كأنه يخطب، إذا غير لفظا من الوسيط كان لفظه أسمى في المعنى. وقال أيضاً: ما علمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الآمدي. وقال لو ورد على الإسلام متزندق مشكك ما تعين لمناظرته غير الآمدي لاجتماع أهلية ذلك فيه.

---

(1) نفسه 8:291.

(2) علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري، ابن الأثير، الحافظ المؤرخ صاحب الكامل في التاريخ، ولد بالجزيرة العمرية سنة 555 هـ ونشأ بها، ثم تحول بهم والدهم إلى الموصل وأخذ على شيوخها، وأقبل في أواخر عمره على الحديث، توفي سنة 630 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:299.

(3) علي بن أبي الحزم القرشي، الشيخ علاء الدين بن النفيس، الطبيب المصري صاحب التصانيف الفائقة في الطب الموجز وشرح الكليات وغيرهما، كان فقيها على مذهب الشافعي، صنف شرحا على التنبيه، توفي سنة 687 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 8:305.

(4) علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، الإمام أبو الحسن سيف الدين الآمدي، الأصولي المتكلم، ولد بعد الخمسين وخمسمائة بيسير بمدينة آمد، وقرأ بها القرآن، ثم قدم بغداد فقرأ بها القراءات أيضا، وتفنن في علم النظر وأحكم الأصلين والفلسفة وسائر العقليات، ثم دخل الديار المصرية وتصدر للإقراء، خرج من القاهرة وقدم إلى حماة فأقام بها، ثم قدم دمشق ودرس بالمدرسة العزيزية، ثم أخذت منه، وبدمشق توفي، من مصنفاته: كتاب الأبكار في أصول الدين، والإحكام في أصول الفقه: طبقات الشافعية الكبرى 8:306.

ومنها في ترجمة عبد الوهاب ابن بنت الأعز[1]، وقال أهل التجربة: إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كانت البلد فيها لغير الشافعية خربت، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعاً، وكأن هذا السر جعله الله في هذه البلاد كما جعل مثله لمالك في بلاد المغرب ولأبي حنيفة فيما وراء النهر، فكان الرأي السديد لمن رأى قواعد البلاد مستمرة على شيء غير باطل أن يجري الناس على ما يعهدون، هـ كلام السبكي. وقال: لما مات ابن بنت الأعز رثاه بعضهم بأبيات منها[2]:

[كامل]

يا دهرُ بِع رُتَبَ المعالي بعده ... بيعَ الهوان ربحتَ أم لم تربحِ

قدمْ وأخر من تشاء من الورى ... ماتَ الذي قد كنتَ منه تستحي

وقال السبكي في ترجمة عمر السهروردي[3]: المشهور في المذهب، المصحح عن المتأخرين، أن الاستماع إلى الأجنبية غير مُحَرَّم كما زعم السهروردي.

ومنها في ترجمة فضل الله التوربشتي[4]، وتُوربشْت بضم التاء، بعدها واو ساكنة ثم راء مكسورة ثم باء مكسورة ثم شين ساكنة ثم تاء، ومن الفوائد عنه ما ذكره في شرح المصابيح في قوله عليه السلام: ابن لبون، وذكر وبنت لبون أنثى، أن الابن والبنت إنما يختصان بالذكر والأنثى عند الإطلاق في بني آدم، وأما في غيرهم فقد استعمل على غير هذا الوجه، فقيل: ابن عرس وابن آوى وابن دأية وابن ذكاء وبنت الأرض وبنت الجبل وما أشبه ذلك من الأسماء.

قال السبكي[5]: وذكر المازري في شرح التلقين ما نصه: حكي عن بعضهم أن لفظ الذكر والأنثى هنا للتأكيد وحسنه اختلاف اللفظين كقوله تعالى

---

(1) عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي، تاج الدين ابن بنت الأعز، ولد سنة 604 هـ، وسمع من جعفر الهمذاني، وقرأ سنن أبي داود على الحافظ زكي الدين، ولي قضاء القضاة بالديار المصرية والوزارة والنظر، واجتمع له من المناصب ما لم يجتمع لغيره، توفي سنة 665 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 319:8. النجوم الزاهرة 222:7.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 323:8.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 341:8.

(4) فضل الله التوربشتي، محدث فقيه من أهل شيراز، شرح مصابيح البغوي، مات في حدود الستين والستمائة: طبقات الشافعية الكبرى 349:8.

(5) طبقات الشافعية الكبرى 351:8.

(وغرابيب سود)[1]، قال المازري: والمرضي عندي أنَّ هــذا ورد للتنبيــه علــى مشروعية كل منهما في هذا النصاب الواحد وهما مختلفان في السن على خــلاف قاعدة بقية النصيب ليتبين أنهما كالمتفقين إذا توصل حالهما لأن بنت مخــاض وإن كانت صغيرة حينئذ لا يحمل عليها فلها فضيلة الأنوثة المتوقع منها الدر والنــسل وهو مقصود، واختص عنها الذكر في هذه الحالة بنيل الشجر وأكل الكلإ، ويمنع صغار السباع عن نفسه، ويرد المياه ويحمل عليه، فهما كالمتوازيين، فأشار عليــه السلام بتنفيذ كل واحد منهما بوصفه الخاص به، المشعر بتلك الخصوصية، وهو مثل قوله عليه السلام في الفرائض بلا ولي رجل ذكر.

وفي ترجمة تاج الدين ابن عطاء الله قال: كان شافعي المذهب، وقيل كــان مالكياً[2].

ومنها في ترجمة أحمد شهاب الدين ابن جبريل، له تأليف في الرد على ابــن تيمية في إثبات الجهة، ونقله بجملته، وفيه طول.

ولابن نباتة[3]:

[كامل]

لا تخشَ من غَم كغــيم[4] عــارِض ... فلسوفَ يُسفر عن إضــاءةِ بــدرهِ

إن يُمس عن عباس حالــك راويــا ... فكأنني بــكَ راويــا عــن بــشرهِ

ولقد تمر الحادثــاتُ علــى الفــتى ... وتــزولُ حــتى مــا تمــر بفكــرهِ

هونْ عليــكَ فــرُب أمــر هائــل ... دفعــت قــواه بــدافع لم تــدرهِ

ولــرُب ليــل بــالهموم كــدمل ... صــابرتهُ حــتى ظفــرتُ بفجــرهِ

---

(1) فاطر: 27.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 9:23.
(3) نسبت الأبيات في طبقات الشافعية الكبرى لأبي المعالي بن القماح: طبقات الشافعية الكبرى 9:93.
(4) في ط: لغيم.

ومنها في ترجمة محمد شمس الدين ابن اللبان[1]، من كلامه على حديث: إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، إلخ، فيه إشارة إلى أن خشية سوء الخاتمة مخصوص بأعمال أهل الجنة، وأما أهل الإخلاص لأعمال التوحيد فلا يُخْشَى عليهم، ولهذا قال يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع، فافهم بـــذلك أن المتقرب متقربان، متقرب إلى الجنة بأعمالها، [ومتقرب][2] إلى الله بذكره كما ثبت في أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إلى قوله: وإن تقرب إلي ذراعـــا [تقربت منه باعا]، وذلك يفهمك أن المتقرب إلى الله لا يمكن أن يبقى بينه وبينه ذراع لأن ذلك الذراع إن كان التقرب به مطلوبا من العبد لم يبق بعده مقـــدار يتقرب الله تعالى به إليه وذلك يستلزم الخلف في خبره، وهو محـــال، وإن كـــان موعودا به من الله لزم تنجيز وعده وتحقق القرب للعبد، فلا يبقى بعد ولا دخول إلى النار، فعلم أن ذلك الذراع مخصوص بأهل القرب إلى الجنة، فافهمه فإنه بديع، هـــ ما نقله السبكي.

قلت: وفيه عندي شيء لأنه يقال قد يكون المطالب به العبد، ولا يلزم من مطالبته به فعله حتى يلزم المحذور،لأنه قد لا يفعله إن حقت عليه السابقة، فالخوف على كل حال لازم.

وقال أيضا[3]: أنكر ابن العربي الرؤية في الموقف في كتاب العارضة، وقال إن نعيم الرؤية لا يكون إلا في الجنة، وما في الموقف امتحان، والصحيح خلافه.

ومنها في ترجمة شمس الدين بن عدلان[4] أنه أفتى في وقف اشترط صاحبه أن لا يليه إلا ورع، والورع ترك الشبهات، وخالفه الشيخ الإمام فقـــال: الـــورع اضطرب فيه العرف، وأقله ترك الكبائر، فيكتفي فيه بظاهر العدالة. وأفـــتى ابـــن

---

(1) محمد بن أحمد بن عبد المؤمن، الشيخ شمس الدين بن اللبان، صحب في التصوف الشيخ ياقوت المقـيم بالإسكندرية، برع ابن اللبان فقها وأصولا ونحوا وتصوفا ووعظ الناس وعقد مجلـس التـذكير بمـصر، ودرس بالمدرسة المجاورة لضريح الشافعي رضي الله عنه، واختصر الروضة، وبوب الأم ورتبها علـى المسائل والأبواب، توفي بالطاعون سنة 749 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:94.

(2) زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 9:96.

(4) محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان،الشيخ الإمام، سمع من العز الحراني والحافظ أبي محمد الدمياطي وأبي الحسن علي بن نصر الله بن الصواف، وأفتى وناظر ودرس وأفاد وناب في الحكم عن شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد، مولده سنة نيف وستين وستمائة، وتوفي في الطاعون سـنة 749 هـــ بالقاهرة: طبقات الشافعية الكبرى 9:97.

عدلان أيضا في وقف اشترط صاحبه أن لا يليه من له ولاية، فإنه يليه من له إمامة مسجد، وخالفه الشيخ الإمام لنص الشافعي أن الإمامة ولاية في قوله: وما أكره الإمامة، إلا أنها ولاية، وأنا أكره سائر الولايات.

ومنها في ترجمة محمد شمس الدين الذهبي الحافظ[1]، قال السبكي: اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ بينهم عموم وخصوص، المزي[2] والبرزالي والذهبي والشيخ الإمام [الوالد][3] لا خامس لهؤلاء في عصرهم.

وبعدما بالغ في الثناء عليه قال[4]: وكان شيخنا والحق أحق ما قيل، شديد الميل إلى آراء الحنابلة، كثير الإزراء بأهل السنة الأشاعرة، فلذلك لا ينصفهم في التراجم ولا يصفهم بخير، صنف التاريخ الكبير، وما أحسنه لولا تعصب فيه، وأكمله لولا نقص فيه، وكان قد أضر قبل موته بمدة يسيرة، أنشدنا لنفسه:

[متقارب]

تولى شبابي كأن لم يكنْ　　　وأقبلَ شيبٌ علينا تولى

ومنْ عاينَ المنحنى والنقا　　　فما بعد هذين إلا المُصلى

وقال لي شيخنا الذهبي مرة: من في الأمة أفضل من أبي بكر الصديق بالإجماع؟ فقلت: يفيدنا الشيخ، فقال: عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه من أمة المصطفى ينزل على باب دمشق ويأتم في الصلاة بإمامها ويحكم بهذه الشريعة.

ومنها في ترجمة محمد فتح الدين القليوبي[5]، أرسل له بعضهم بُسرا كثير النوى فكتب إليه[6]:

[كامل]

أرسلتَ لي بُسرا حقيقته نوى　　　عارٍ فليسَ لجسمهِ جلبابُ

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى 9:100.
[2] في ط: المزني.
[3] زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.
[4] طبقات الشافعية الكبرى 9:103.
[5] محمد بن أحمد بن عيسى بن رضوان القليوبي القاضي، كان فقيها شاعرا مجيدا، ولي القضاء بأشموم ثم بأبيار، ثم ولي قضاء صفد، ثم انصرف منها وعاد إلى الديار المصرية وتقلبت به الأحوال، توفي سنة 725 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:126.
[6] نفسه.

ولـــئن تباعـــدتِ الجـــسومُ فودنـــا		باقٍ ونحن علـــى النـــوى أحبـــابُ

إذا كتب (شخص)[1] آية فطمسها بالمداد أو قطع حروفها، هـــل يمـــسها الجُنُب؟ فيها وجهان[2].

ولبدر الدين بن جماعة[3] أنشدها لنا ولده عز الدين[4]:

[بسيط]

جهاتُ أموال بيتِ المـــال ســـبعتها		في بيتِ شعر حَواهـــا فيـــه كاتبـــهُ

خمسٌ وفيء خـــراج جزيـــة عـــشر		وإرث رد ومـــال ضَـــل صـــاحبهُ

وله أيضا[5]:

[طويل]

ومنْ كان لا يُرضيه من حالتي سوى		خِلاف مُراد الله مـــا حـــيلتي فيـــه

وقال في الرحمن الرحيم: فعلان مبالغة في كثرة الشيء ولا يلزم منه الدوام كغضبان، وفعيل لدوام الصفة كظريف، فكأنه قيل العظيم الرحمة الدائمها.

وللسبكي[6]:

[وافر]

فـــذم الـــدهرِ للإنـــسان خـــير		مـــن الإنـــسان ذم لـــه الزمـــانُ

ولغيره[7]:

[كامل]

---

(1) زيادة من ط.
(2) المسألة من فوائد محمد بن إسحاق بن محمد بن المرتضى الشيخ عماد الدين البلبيسي: طبقات الـشافعية الكبرى 9:129.
(3) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، قاضي القضاة، محدث فقيه، ولد سنة 639 هـ بحماة، ولـي قضاء القدس مدة، مات بمصر سنة 733 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:139.
(4) نفسه 9:139.
(5) نفسه 9:142.
(6) نفسه 9:152.
(7) نفسه 9:153.

جهلُ الفتى عارٌ عليه لذاته وخمولهُ عارٌ على الأيامِ

وقال آخر[1]:

[بسيط]

ما في خُمولي من عارٍ على أدبي بل ذاك عارٌ على الدنيا وأهليها

وقال آخر[2]:

[خفيف]

أن يكونَ[3] الزمانُ عيبي أوْلى بيَ[4] من أن أكونَ عيبَ الزمانِ

ومنها في ترجمة صفي الدين الهندي[5] المتكلم الأصولي، وكان خطه في غاية الرداءة، فيحكى أنه قال: وجدت في سوق الكتب مرة كتاباً بخط ظننته أقبح من خطي، فغاليت في ثمنه، واشتريته لأحتج به على من يدعي أن خطي أقبح الخطوط فلما عدت إلى البيت وجدته بخطي القديم.

ومنها في ترجمة كمال الدين الزملكاني[6]، ومن فوائده في تفسير قوله تعالى (التائبون العابدون)[7] الآية، في الجواب عن السؤال المشهور؛ وهو أنه لَمَ ترك العطف في الجميع وعطف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ وقال: عندي فيه وجه حسن وهو أن المقام إذا كان مقام تعداد صفات من غير انظر إلى جمع أو انفراد، حسن إسقاط حرف العطف، وإن أريد الجمع بين الصفتين، أو التنبيه على تغايرهما، عطف بالحرف، وكذا إذا أريد التنويع لعدم اجتماعهما أتى بالحرف،

---

(1) نفسه 153:9.

(2) نفسه 153:9.

(3) في ط: إن أكن.

(4) ساقط من ط.

(5) محمد بن عبد الرحيم بن محمد، الشيخ صفي الدين الهندي الأرموي، المتكلم على مذهب الأشعري، من تصانيفه في علم الكلام الزبدة، وفي أصول الفقه النهاية والفائق والرسالة السيفية، مولده ببلاد الهند سنة 644 هـ، ورحل إلى اليمن سنة 667 هـ، ثم حج وقدم إلى مصر، ثم سار إلى الروم،ثم قدم دمشق سنة 685 هـ واستوطنها، توفي بدمشق سنة 715 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 162:9.

(6) محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم، كمال الدين بن الزملكاني، الإمام العلامة المناظر،قرأ الأصول على الشيخ صفي الدين الهندي، والنحو على الشيخ بدر الدين ابن مالك، ولد سنة 667 هـ، ولي قضاء حلب مدة، توفي سنة 727 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 190:9.

(7) التوبة: 113.

وفي القرآن أمثلة تبين ذلك؛ (عسى ربه إن طلقكن)[1] الآية. عطف الأخيرين، لأن المقصود من الصفات الأول ذكرها مجتمعة، والواو قد توهم التنويع، فحذفت، وأتى بالواو في الأخيرين لتضاد النوعين. وقال تعالى: (غافر الذنب)[2] الآية. عطف الأولين دون الأخيرين، لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يتوهم أنهما يجريان مجرى الواحد، لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فبين بالعطف أنهما مفهومان متغايران يجب أن يعطى كل واحد منهما حكمه، وذلك في العطف أبين. وأما الأخيرين فكالمتضادين فحذف ليعرف أنهما مجتمعان في ذاته، فحسن ترك العطف.

وأما آية (التائبون العابدون)[3]، فيتضح معنى العطف فيها وتركه مما ذكر لأن كل صفة لم تعطف مغايرة للأولى، والغرض في اجتماعهما أنهما كالوصف الواحد لموصوف واحد فلم يحتج إلى العطف فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما كالمتلازمين كـ(غافر الذنب وقابل التوب)[4]، حسن العطف ليبين أن كل واحد معتد به لا يكفي منه ما يحصل في ضمن الآخر بل لا بد من صريح الأمر والنهي، فاحتاج إلى العطف، وأيضا لما كان الأمر والنهي ضدين كانا كالنوعين المتغايرين في قوله: (ثيبات وأبكارا)[5].

ومن فوائده أيضاً: إذا استخار الإنسان فليفعل بعدها ما بدا له، سواء انشرحت نفسه أم لا، فإن فيه الخير، وليس في الحديث اشتراط انشراح النفس.

ومنها في ترجمة ابن دقيق العيد[6] شيخ الإسلام، الحافظ الزاهد، المجتهد المطلق، وأطال في الثناء عليه إلى أن قال: قال أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري: لم أرَ مثله فيمن رأيت، ولا حملت عن أجل منه فيما رويت، إلى أن قال: له بالتجريد تخلق، وبكرامات الصالحين تحقق، وله مع ذلك في الأدب باع وكرم طباع، حتى لقد كان الشهاب محمود الكاتب يقول: لم تر عيني آدب منه. قال السبكي: ولم ندرك أحداً من مشايخنا يخالف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس

(1) التحريم: 5.
(2) غافر: 2.
(3) التوبة: 113.
(4) غافر: 2.
(5) التحريم: 5.
(6) طبقات الشافعية الكبرى 9:207.

السبعمائة، وأنه أستاذ زمانه علماً وديناً، ولد في البحر المالح، وكان أبوه متوجها من قوص إلى مكة ولذلك ربما كتب الثبجي، ثم أخذه والده على يده وطاف به وهو يدعو الله أن يجعله عالما عاملاً.

ويحكى أنه قرأ على والده [الحديث][1] المسلسل، يقول وأنا دعوت فاستجيب لي فسئل ما الذي دعوت [به] فقال: أن ينشئ الله ولدي محمدا عالماً، وكان والده مالكيا، ثم تفقه هو على عز الدين بن عبد السلام فحقق المذهبين، ولذلك يقول فيه ابن القويع في قصيدة:

[وافر]

صبا للعلم صبا في صباه فأعلن بهمة الصَّب الصبيِّ

وأتقنَ والشباب له لباس[2] أدلةَ مالك والشافعيِّ

وذكر له كرامات، وكان يقول ما تكلمت كلمة ولا فعلت فعلا إلا أعددت له جوابا بين يدي الله، وكان يخاطب السلطان فمن دونه بقوله يا إنسان، وإن كان [المخاطب][3] فقيها كبيرا قال [يا] فقيه وتلك كلمة لا يسمح بها إلا لابن الرفعة ونحوه، وكان يقول للشيخ علاء الدين الناجي يا إمام ويخصه بها.

قال السبكي[4]: سمعت الشيخ عليا الهجار[5] المكشوف الرأس يقول: مَرَّ أبو العباس المرسي بالقاهرة في غلاء فرق على الناس، وتمنى لو كان معه ما يؤثرهم به، فأحس بثقل في جبته، فأدخل يده، فأخرج دراهم جملة، ودفعها للخباز، وفرق الخبز على الفقراء، فلما انصرف ناداه الخباز: هي زيوف، فتفكر في نفسه أن رقته اعتراض فاستغفر، فوجدها الخباز جيدة، وجاء إلى ابن دقيق العيد وحكى له الحكاية فقال له ابن دقيق العيد: يا أستاذ أنتم إذا رفقتم على أحد تزندقتم، ونحن إذا لم نرق على الناس تزندقنا، وأنشد له أبياتا كثيرة منها[6]:

[سريع]

---

[1] زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.
[2] في ط: قياس.
[3] زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.
[4] طبقات الشافعية الكبرى 9:213.
[5] في ط: الهجام.
[6] طبقات الشافعية الكبرى 9:214.

كمْ ليلة فيــك وصَــلنا الــسرى لا نعــرفُ الغمــضَ ولا نــستريحْ
واختلف الأصحابُ مــاذا الــذي يزيـــلُ مـــن شـــكواهمُ أو يـــريحْ
فقيـــــلَ تعريـــــسهم ســـــاعة وقيلَ بل ذكراك وهْـــو الـــصحيحْ

(غيره له)[1]:

[كامل]

أتعبتَ نفسكَ بـــين ذلـــة كـــادح طلبَ الحياة وبين حـــرص مؤمـــلِ[2]
وأضعتَ نفسك لا خلاعـــة مـــاجنٍ حـــصلتَ فيـــه ولا وقـــار مبجـــل
وتركتَ حظ النفس في الـــدنيا وفي الأخرى ورُحت عن الجميع بمعـــزلِ

(غيره له)[3]:

[بسيط]

أهل المناصب فِي الـــدنيا ورفعتـــها أهل الفضائل مرذولـــون بينـــهمُ[4]
قد أنزلونـــا لأنـــا غـــير جنـــسهم مترلة الوحش في الإهمـــال عنـــدهمُ
فما لهـــم في تـــوقي ضـــرنا ضـــرر ولا لهـــم في ترقـــي قـــدرنا همـــمُ
فليتنـــا لـــو قـــدرنا أن نعـــرفهم مقدارنا عندهم أو لـــو دروه هـــمُ
لهم مُريحان من جهل وفـــرط غـــنى وعنـــدنا المُتعبـــان العلـــمُ والعـــدمُ

(غيره له)[5]:

[طويل]

إذا كنتُ في نجد وطيـــب نـــسيمها تذكرت أهلي بـــاللوى فمحجـــرِ[1]

---

(1) زيادة من ط.
(2) نفسه.
(3) زيادة من ط.
(4) طبقات الشافعية الكبرى 9:215.
(5) زيادة من ط.

فإن كنتُ فيهم ذبت شوقا ولوعة على ساكني نجد وعيل تصبري
وقد طالَ ما بين الفريقين قصتي فمن لي بنجد بين قومي ومعشري

(غيره له)[2]:

[كامل]

ادأبْ على جمْع الفضائلِ جاهدا وأدم لها تعب القريحة والجسدْ[3]
واقصدْ بها وجهَ الإله ونفع من بلغته ممن جد فيها واجتهدْ
واترك كلامَ الحاسدين وبغيهم هملا فبعدَ الموت ينقطع الحسدْ

أنشدها في أول خطبة[4] لابن الحاجب.

ومنها في ترجمة فتح الدين ابن سيد الناس[5]، بعد الثناء الكثير عليه: لما ولي الوالد مشيخة الحديث بالظاهرية، سعى فيها الشيخ فتح الدين وساعده نائب السلطنة، و لم يتجاسروا على الشيخ، فأرسل إلى الشيخ الوالد يقول له: أنت تصلح لكل منصب في كل علم، وأنا إن لم يحصل لي تدريس حديث ففي أي علم يحصل لي تدريس، فرق له الوالد وتركها له، ثم ذكر له نظما حسنا[6].

ومنها في ترجمة ابن نباتة[7] أديب العصر، له فنون ثلاثة لم نر من لحقه ولا قاربه فيها، سبق الناس إلى حسن النظم فما لحقه لاحق، وإلى أنواع النثر فما قاربه مقارب، وإلى براعة الخط فما قدر معارض على أن يحكي له خطا.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 9:229.
(2) زيادة من ط.
(3) في ط: من.
(4) في ط: شرحه.
(5) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، الأندلسي الأشبيلي ثم المصري، الحافظ الأديب، أجاز له النجيب الحران، وحضر على الشيخ شمس الدين بن العماد الحنبلي، له تصانيف ونظم كثير، تولى مشيخة الحديث بالظاهرية واستمر بها إلى أن مات سنة 734 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:268. لقط الفرائد، ص: 187.
(6) نفسه 9:270.
(7) طبقات الشافعية الكبرى 9:273.

ومنها في ترجمة شيخه أبي حيان[1] بعد الثناء الكثير: جال في بلاد المغرب، ثم قدم مصر قبل سنة ثمانين وستمائة، أخذ عنه غالب مشيختنا وأقراننا، منهم الشيخ الإمام، وناهيك بها لأبي حيان منقبة، وكان يعظمه كثيراً، وله نظم كثير، موشحاته أجود من شعره. ثم ذكر له شعراً كثيراً إلى أن ذكر منظومة حازم الميمية التي امتدح بها بعض سلاطين تونس، وضمنها علم النحو، وذكر مسألة؛ فإذا هو هي أو إياها، قال السبكي في بيان ذلك[2]: إذا وقع بعد الفجائية ضميران نحو قولك فإذا هو هي، الأصل فإذا هو مثلها، فمثلها خبر مضاف إلى الهاء، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فارتفع [وانفصل وصار فإذا هو هي][3]، ومن قال [فإذا هو] إياها فالأصل [فإذا هو] يشبهها، ثم حذف الفعل والفاعل وبقي المفعول فانفصل[فصار فإذا هو إياها] ونظيره في حذف الخبر وبقاء معموله قراءة [علي رضي الله عنه] (ونحن عصبة)[4] أي [ونحن] نوجد [عصبة]، وقول النابغة:

[طويل]

وحلتْ سوادَ القلبِ لا أنـا باغيـا سـواها ولا في حبـها مُتراخيـا

أي لا أوجد باغيا.

وقد أخذ شاعر العصر ابن نباتة أكثر أبيات الملحة وضمنها في مدح الشيخ الإمام، وذكر منها جملة.

ومنها في ترجمة خليل بن أيبك الصفدي[5]، صنف الكثير من التاريخ والأدب، قال لي إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد مصنفاً، وكانت بيني وبينه

---

(1) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي الأندلسي الجياني الأصل الغرناطي المولد والمنشأ المصري الدار، شيخ النحاة، مولده بغرناطة سنة 654 هـ وبها نشأ وقرأ القراءات والنحو واللغة، وجال في بلاد المغرب، ثم قدم مصر قبل سنة ثمانين وستمائة، توفي بالقاهرة سنة 745 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 9:276. لقط الفرائد، ص: 196.

(2) نفسه 9:299.

(3) زيادة من طبقات الشفعية الكبرى.

(4) يوسف: 8.

(5) خليل بن أيبك الشيخ صلاح الدين الصفدي، الإمام الأديب الناظم الناثر، ولد سنة 696 هـ، وقرأ يسيرا من الفقه والأصلين، وبرع في الأدب نظما ونثرا، له عدد من المصنفات المشهورة، توفي سنة 764 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 10:6. الأعلام 2:315.

صداقة، فإنه كان يتردد إلي والدي فصحبته، وكانت له همة عالية في التحصيل، ما صنف كتابا إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه من فقه وحديث وأصول ونحو[1].

ومنها في ترجمة عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المطرزي عضد الدولة الشيرازي[2]، يذكر أنه من نسل أبي بكر الصديق، اشتغل على الشيخ زين الدين الهنكي، ثم ذكر مكاتبته مع فخر الدين الجاربردي، ومراجعته وانتصار ولده إلى كلام بعض الأئمة في الآية المسؤول عنها، ثم ذكر كلام ولده، ومن جملته أن الله [تعالى] تحدى بالقرآن في أربع سور في ثلاث منها بصفته في نفسه، في يونس[3] وهود[4] والإسراء[5]، [والسياق في ذكر القرآن من حيث هو هو] ولذلك لم يوت بمن في الأولين، [لفظة من المحتملة للتبعيض ولابتداء الغاية فتركها يعين الضمير للقرآن]. وفي [سورة] البقرة [لما قال (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا)[6] قال: (فأتوا بسورة من مثله) فيكون من لابتداء الغاية والضمير في مثله للنبي ويكون قد] تحداهم فيها بنوع آخر من التحدي غير المذكور في السور الثلاث وذلك أن الإعجاز من جهتين؛ من فصاحة القرآن وهو المقصود، في [السور] الثلاث، ومن إتيانه[7] من النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب وهو المتحدى به في البقرة، إلى أن قال[8]: وهذان النوعان من التحدي يشتملان[9] على أربعة أقسام لأن التحدي بالقرآن أو ببعضه بالنسبة إلى من يقرأ ويكتب وإلى من ليس كذلك[10] والتحدي بالنسبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، بالنسبة إلى مثل المنزل وإلى أي سورة كانت، [فإن من لم يكتب لا يأتي بها] فصار الإتيان بسورة من مثل النبي،

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 6:10.

(2) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد الإيجي المطرزي، قاضي القضاة عضد الدين الشيرازي، كان إماما في المعقولات عارفا بالأصلين والمعاني والبيان والنحو مشاركا في الفقه، له في علم الكلام كتاب المواقف،وفي أصول الفقه شرح مختصر ابن الحاجب، وفي المعاني والبيان القواعد الغياثية، مولده بايج من نواحي شيراز بعد سنة ثمانين وستمائة، وتوفي مسجونا سنة 756 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 46:10.

(3) إشارة إلى قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا): الإسراء: 88.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله): يونس: 38.

(5) إشارة إلى قوله تعالى: (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات): هود: 13.

(6) البقرة: 23.

(7) في ط: إثباته.

(8) طبقات الشافعية الكبرى 59:10.

(9) في خ وط: يشتمل.

(10) في خ وط: لا يقرأ ولا يكتب.

صلى الله عليه وسلم، ممتنعا شابهت القرآن أم لا، والإتيان بسورة من مثل القرآن ممتنعا كانت من كاتب قارئ أو من غيره، هـ المقصود.

وحاصل ما ذكره هو وغيره في كلام الزمخشري أن امتناع عود الضمير في مثله لما نزلنا عند تعلقه بـ(فآتوا)، وهو رابع الاحتمالات، يستلزم وجود مثل القرآن، إلا أنهم عجزوا عن الإتيان منه بسورة، وهذا الذي أطبقوا عليه عندي فيه نظر لأن المراد مثل القرآن في زعمهم، لأنهم زعموا ذلك فقالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا، (إن هذا إلا أساطير الأولين)[1]، فتحداهم الله تعالى بالإتيان من ذلك المثل، الذي زعموه إن كان مثلا حقا بسورة فليتأمل، والوجوه الأربعة أن يكون من مثله صفة لسورة أو متعلقاً بـ: (فآتوا)، والضمير في كليهما إما (لما أنزلنا)، أو (لعبدنا).

ومنها في ترجمة عبد الغفار بن نوح[2]، كذا يقال، وإنما اسم والده أحمد بن عبد المجيد بن عبد الحميد الأقصري القوصي، صاحب كتاب الوحيد في التوحيد[3]، أخذ الحديث من الدمياطي والمحب الطبري، حج فلما أبصر الكعبة قال لنفسه[4]:

[كامل]

دعني أعفرُ جبهتي بترابها وأقبلُ الأعتابَ من أبوابها

خودٌ رأيت البدرَ تحت نقابها سلبت رجال الحي عن ألبابها

فالكل صرعى دون رفع حجابها

مات بالقاهرة، وأوصى أنه إذا دفن أن يترع عنه الكفن ليلقى الله عريانا.

ومنها في ترجمة جده عبد الكافي[1]، كان من أعيان نواب ابن دقيق العيد، قرأ الأصول على القرافي، وكان كثيرا ما ينشد[2]:

---

(1) الأنعام: 25.

(2) عبد الغفار بن نوح، له كتاب الوحيد في التوحيد، طلب العلم وسمع الحديث من الحافظين أبي محمد الدمياطي والمحب الطبري، مات بمصر سنة 708 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 10:87.

(3) في خ وط: الوجيز.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 10:88.

[سريع]

يـــا أيهـــا المغـــرورُ بـــالله فـــــر مـــــن الله إلى الله

ولـــذ بـــه وســـلهُ مـــن فـــضله لقـــد نجـــا مـــن لاذ بـــالله

وقـــم لـــه والليـــل في جنحـــهِ فحبـــذا مـــن قـــام لله

واتـــلُ مـــن الـــوحي ولـــو آيـــة تُكـــسى بهـــا نـــورا مـــن الله

وعفـــر الوجـــه لـــه ســـاجدا فعـــــز وجـــــةٌ ذل لله

قال: سمعت شيخنا الإمام تقي الدين أبا الفتح بن دقيق العيد يقول: أقمت مدة أطلب الفرق بن الجهر والسر فلم أجد إلا قوله ما أسر من أسمع نفسه.

ومن خطه: نسبتنا معاشر السبكية [إلى] الأنصار، ولم يكتب الشيخ الإمام الأنصاري قط في نسبه تورعا منه رحمه الله، وكان شيخنا الدمياطي يكتبها لـــه، ومدحه الشعراء بقصائد فيها نسبته إلى الأنصار ولم ينكر، وكان أتقـــى مـــن أن يسكت على ما يعلمه باطلاً.

ومنها في ترجمة عبد الكريم علم الدين العراقي[3]، أنه قال في درس ابن بنت الأعز على وجه السؤال في حديث: إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر، لا يخلو إما أن يحصل للطير الحياة بتلك الروح وهو عين ما تقوله الناسخية، أو لا، وهو مجرد حبس الأرواح وسجنها. قال السبكي: الجواب أن يلتزم الثاني ولا يلزم كونه [مجرد] حبس [وسجن] لجواز أن يقدر الله لها [في تلك الحواصـــل] مـــن السرور والنعيم ما لا تجده في الفضاء [الواسع]. قلت: وهذا الجواب عندي غـــير كاف، ولا بد من أبسط من هذا، ولا يسعه هذا المحل.

---

(1) عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، كان من أعيان نواب الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، قرأ الأصـــول على القرافي والفروع على الظهير التزمنتي، له نظم كثير غالبه زهد ومدح في النبي عليه الـــسلام، تـــوفي سنة 735 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 10:89. لقط الفرائد، ص: 189.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 10:91.

(3) عبد الكريم بن علي بن عمر الأنصاري، الشيخ علم الدين العراقي الضرير، صنف فيه الإنـــصاف فـــي مسائل الخلاف بين الزمخشري وابن المنير، مولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وتوفي في سنة 704 هـــ بالقاهرة: طبقات الشافعية الكبرى 10:95.

ومنها في ترجمة الحافظ عبد المومن بن خلف الدمياطي[1]، روى عن المنذري، وروى عنه من الأئمة الحافظ المزي، وقال: ما رأيت أحفظ منه، والحافظ الذهبي، والحافظ ابن سيد الناس، والحافظ محمد بن شامة الطائي، والحافظ الوالد، رحمهم الله، وكان الوالد أكثرهم ملازمة له، وسأله الحافظ علي بن محمد اليونيني عن هلال ومرار هل شهدا بدراً وأطال في السؤال، فإن ابن الجزري وغيره أنكر ذلك، فأجاب بأن قال: لم يشهدا بدرا ولا أحدا أيضا، وإن ذكرهما الإمام الإمام أحمد والبخاري ومسلم، وإمام الشرق والغرب ابن عبد البر، قلت: كان هذا تنكيتا منه، لأن اليونيني سماه بذلك، قال: وإنما قلد بعضهم بعضاً، والمقلد الأول الزهري، ومنه أتى الوهم، وممن ذكرهما في الطبقة الثانية ممن شهدا أحدا فلقدم إسلامهما لا لشهودهما الوقعة، ثم قال: وأما قولكم لصاحب الاستيعاب إمام المغرب والمشرق فلقد عثرت له على أوهام كثيرة في كتابه، ثم ذكر منها شيئاً، وأما إمام الدنيا أبو عبد الله البخاري ففي جامعه الصحيح أوهام، ثم ذكر منها شيئاً.

ومنها في ترجمة علي بن عبد الظاهر الأخميمي[2]، قال الله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)[3]، ومن للتبعيض، ومعنى التبعيض [أن] لا ترفع شيئاً من بصرك إلى شيء من المعاصي[4].

ومنها في ترجمة علي بن إسماعيل القونوي[5] بعد الثناء الكثير عليه، وذكر أن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد قال: إنه يطلق على القونوي اسم الفاضل استحقاقا. وناهيك بابن دقيق العيد. شرح كتاب التعرف، واختصر المعالم وغير ذلك.

---

(1) عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن، الحافظ شرف الدين الدمياطي، ولد سنة 613 هـ، وتوفي سنة 705 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 102:10. لقط الفرائد، ص: 165.

(2) علي بن أحمد بن جعفر، صاحب أحوال ومقامات، توفي سنة 701 هـ بإخميم: طبقات الشافعية الكبرى 130:10.

(3) النور: 30.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 132:10.

(5) علي بن إسماعيل بن يوسف قاضي القضاة الشيخ علاء الدين القونوي، درس بدمشق ثم قدم القاهرة وأقام بها مدة، وولي التدريس بمدارسها، صنف شرح الحاوي، واختصر منهاج الحليمي، وشرح كتاب التعرف في التصوف، ثم ولي قضاء الشام إلى أن مات سنة 729 هـ: طبقات الشافعية الكبرى132:10. لقط الفرائد، ص: 184.

ومنها في ترجمة والده علي بن عبد الكافي[1]، الشيخ الإمام، الفقيه المحدث، الحافظ المفسر، المقرئ الأصولي، المتكلم، النحوي اللغوي، الأديب، الحكيم المنطقي، الجدلي الخلافي، النظار، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، تقي الدين، إمام الناس؛ جامع كل علم، فريد الدهر، أسمى من تسامى. وبالغ في الثناء عليه جدا إلى أن قال: أقسم بالله إنه لفوق ما وصفته، وإني لناطق بهذا وغالب ظني أني ما أنصفته. قال: حكى أنه لم يأكل لحم الغنم إلا بعد العشرين من عمره لحدة ذهنه، وإذا شم رائحته حصل له شيء، دخل القاهرة مع والده، وعرض على ابن بنت الأعز وغيره، وقيل إن والده دخل به على ابن دقيق العيد، وأنه قال له: رده إلى البر حتى يصير فاضلا، ثم عد به إلى القاهرة، و لم يعد حتى مات الشيخ، ثم ذكر جملة من أشياخه، ثم قال: سمع منه المزي والذهبي والبرازلي وغيرهم، وذكره الذهبي في المعجم الصغير، وأثنى عليه إلى أن قال: سمعت منه وسمع مني،وذكر أحمد بن يحيى بن فضل الله في المسالك وأثنى عليه كثيرا إلى أن ذكر رده على ابن تيمية في مسألة الزيارة ومسألة الطلاق، وأنشد ابن فضل الله:

[كامل]

وتطاعنا وتوافقتْ خيلاهُما وكلاهُما بطلُ اللقاءِ مقنعُ

قال التاج[2]: هذا كلام ابن فضل الله، ولا يخفى ما بينه وبين الوالد من الشحناء، رحل إلى الشام في طلب الحديث سنة ست وسبعمائة، وناظر بها، وأقر له علماؤها، وعاد إلى القاهرة في سنة سبع مستوطنا، وحج وزار في سنة ست عشرة، و لم يزل على نشر العلم بها إلى سنة تسع وثلاثين، فولي قضاء الشام بعد جلال الدين القزويني بعد ممانعة طويلة، قال ولده: قبل[3] الولاية، يا لها غلطة، أف لها وورطة، ليته صمم ولا فعلها. ولي مشيخة دار الحديث بعد المزي، فالذي نراه أنه ما دخلها أعلم منه ولا أحفظ من المزي، ولا أورع من النووي وابن الصلاح، وقال شيخنا الذهبي: حين ولي الخطابة ما صعد هذا المنبر بعد ابن عبد السلام أعظم منه، ثم ذكر له شعرا كثيراً منه[4]:

---

[1] علي بن عبد الكافي بن علي، ابن سليم السبكي، الشيخ الإمام الفقيه المحدث الإمام المشارك، ولد سنة 683 هـ، به ترجمة ضافية في طبقات الشافعية الكبرى 10:139.

[2] طبقات الشافعية الكبرى 10:157.

[3] في ط: قبلها.

[4] طبقات الشافعية الكبرى 10:179.4

[كامل]

إن الولايـــةَ لـــيس فيهـــا راحـــةٌ | إلا ثـــلاثٌ يبتغيهـــا العاقـــلُ
حكـــمٌ بحـــق أو إزالـــةُ باطـــل | أو نفـــعُ مُحتـــاجٍ ســـواها باطـــلُ

ومنه قصيدته التي أولها:[1]

[طويل]

كمالُ الفتى بـــالعلمِ لا بالمناصـــبِ | ورتبةُ أهلِ العلـــم أســـنى المراتـــبِ

أنشدها حين أخذت منه مشيخة جامع طولون، ومنه في جواب سؤال عن السماع:[2]

[كامل]

فيـــه خـــلافٌ للأئمـــةِ قبلنـــا | سرج[3] الهدايـــةِ ســـادة الـــساداتِ
لكنـــه لم تـــأتِ قـــط شـــريعةٌ | طلبتـــهُ أو جعلتـــهُ في القُربـــاتِ

وقبلها:

واعلم بأن الرقصَ والـــدف الـــذي | عنه ســـألتَ وقلـــت في أصـــواتِ

وهي أبيات، ومنها في مدح الأخ الأكبر أبي حامد:[4]

[طويل]

أبو حَامد في العلم أمثـــال[5] أنجُـــم | وفي النقدِ كالإبريزِ أخلص بالـــسبكِ
فـــأولهمْ مـــن إســـفراينَ نـــشؤه[6] | وثانيهمُ الطوسي والثالثُ الـــسبكي

(1) نفسه 10:180.
(2) نفسه 10:182.
(3) في ط: شرح.
(4) طبقات الشافعية الكبرى 10:190.
(5) في ط: أمثل.
(6) في ط: نشأة.

ولقد كان الوالد يجل الأخ ويعظمه، سمعته غير مرة يقول أحمد والد. سمعته في مرض موته والأخ غائب في الحجاز يقول: غيبة أحمد أشد علي مما أنا فيه من المرض.

ثم ذكر التاج في ثناء الأئمة على والده قال[1]: وصح عن الشيخ تقي الدين بن تيمية أنه كان لا يعظم أحداً من أهل العصر كتعظيمه له، وكان كثير الثناء على تصنيفه في الرد عليه، وقال فيه[2]: لقد برز هذا على أقرانه، ولم يكتب المزي شيخ الإسلام إلا له ولابن تيمية ولابن أبي عمر، وأما ابن الرفعة فكان يعامله معاملة الأقران، ويعرض عليه ما يصنفه. حكي[3] أن ابن الرفعة حضر مجلس الدمياطي فوجد الوالد بين يديه فقال: محدث أيضاً؟ وكان لعظمة الوالد عنده في الفقه يظن أنه لا يعرف سواه فقال الدمياطي: بل إمام المحدثين. فقال ابن الرفعة: وإمام الفقهاء فبلغت شيخه الباجي[4] فقال وإمام الأصوليين، وبالجملة أجمع من يعرفه على أن كل ذي فن إذا حضره يتصور فيه، وأنه لا فن له إلا ذلك الفن، لا يماري أنه كان إمام الدنيا في كل علم على الإطلاق، إلا جاهل به أو معاند.

وكان ينهانا عن النوم في النصف الثاني من الليل ويقول: يا بني تعود السهر ولو أنك تلعب.

ولقد نزل لي شيخنا الذهبي عن مشيخة دار الحديث الظاهرية في حياته، فلم يمضها لي، وقال: أنا أعرف استحقاقه ولكن سن الشباب منعني أن أمضي له، وقال: ما أعلم أحداً يصلح لمشيخة دار الحديث غير ولدي عبد الوهاب وشخص آخر غائب؛ يعني صلاح الدين العلائي.

وقال لي في أيام مرضه: لا تطلب القضاء بقلبك فضلاً عن قالبك وأنا أطلبه لك لعلمي بالمصلحة في ولايتك لك ولقومك وللناس.

وقال لبعض الفقراء: أريد ثلاثا؛ ولاية ابني هذا موضعي، ورؤية ولدي أحمد، وموتي بمصر، أشهد بالله لقد سمعت ذلك منه. فقال له الفقير: سلِ الله في ذلك إن كان مصلحة، فقال: قد تحققت المصلحة له في الدنيا والدين جميعاً.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10:194.
(2) ساقط من ط.
(3) نفسه 10:196.
(4) في ط: الناجي.

ثم ذكر في سلسلة الحفاظ ما نصه: لم تر عيناي احفظ من أبي[1] الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي والوالد، رحمهم الله، وغالب ظني أن المزي يفوقهما في أسماء رجال الكتب الستة والذهبي في أسماء من بعد الستة والتواريخ والوفيات، والوالد يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبيه. فيما يتميز به فيه المشاركة الفائقة. وسمعت شيخنا الذهبي يقول ما رأيت أحدا في هذا الشأن أحفظ من الإمام أبي الحجاج المزي، بلغني عنه أنه قال: ما رأيت أحفظ من أربعة ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزي، فالأول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث، والثاني بالأنساب، والثالث بالمتون والرابع بأسماء الرجال. وساق سلسلة، ثم قال: وأنا أقول ما رأت عيناي أعرف بالقراءة منه، ولا رأى كابن الصائغ، ولا رأيت أفقه منه، ولا رأى[2] كابن الرفعة، ولا رأيت بعد أبي حيان أنحى منه، وكان يفوقه في حسن التصرف، وتصانيفهما[3] تنبئك عن ذلك، وكان يقول: هو لم يلق في صناعة اللسان كأبي حيان، ولا رأت عيناي في المعقولات بأسرها وفي علم الكلام مثله، ولا رأى مثل الباجي[4]، ولا رأى الباجي كالخسروشاهي ولا هو كالفخر الدين الرازي.

وكان يرى أن النكاح بلا ولي إذا قضى الحنفي بصحته ينقض، ويقول: أنا أستحيي من الله أن يرفع إلي نكاح صح عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه باطل وأستمر به على الصحة لرأي حاكم.

وقال إن تحلية الكعبة وسائر المساجد بالذهب والفضة جائز حلال، والمنع منه في الكعبة شاذ غريب في المذاهب كلها.

وقال: إن المرتد إذا قال بعد وجوب قتله: عرضت لي شبهة فأزيلوها، ناظرناه وأزلنا شبهته ما لم يظهر منه[5] التسويف، وأن الولد لا يجوز له السفر في تعلم فرض كفاية، ولا تجارة، وإن غلب الأمن، إذا منعه أحد الوالدين، وإن طاعتهما في الشبهات واجبة، وفي ترك السنن إن لم يكن على الدوام، وأنه لا يحل لشافعي لعب الشطرنج مع من يعتقد تحريمه.

---

(1) في ط: ابن.
(2) في ط: ولا ولي.
(3) في ط: تصانيفهم.
(4) فيط: الناجي.
(5) ساقط من ط.

ثم ذكر شيئا من مباحثه وقال: سمعت بعض الفضلاء يقول أنا أعتقد أن كل بحث يقع اليوم على وجه الأرض فهو له أو مستمد من كلامه وتقريراته.

وقال[1] في قوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم)[2]، ذلك تعليم من الله لإبراهيم عليه السلام الحجة على قومه، فأراه ملكوت السموات والأرض، وعلمه كيف يحاجج قومه، ويقول لهم: إذا حاججهم في مقام بعد مقام على سبيل التترل إلى أن يقطعهم بالحجة، ولا يحتاج مع هذا إلى أن يقال ألف الاستفهام محذوفة، ويدل عليه صدر الآية (وكذلك نري إبراهيم)، وعجزها (وتلك حجتنا).

وقال[3]: سمعت الباجي يقول في قوله: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه)[4]: لِم لَم يقل هواه إلهه؟ ولم أزل أفكر في الجواب منذ أربعين سنة حتى تلوت ما قبلها [وهو قوله: (وإذا رأوك)[5] إلى قولهم: (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا)[6]] فعلمت أن المراد الإله المعبود بالباطل[7] الذي أشفقوا من الخروج عنه فجعلوه هواهم.

وقال[8]: إنما يصير الفعل عبادة بالنية، والنية فيها أمران؛ أحدهما قصد الناوي، والثاني كون الفعل واقعاً على وجه الامتثال، وذلك ناشئ عن القصد، وهذا الناشئ ركن بلا شك، وهو مع الفعل كالروح مع البدن، وتوجه قصد الناوي إلى ذلك خارج؛ لأن القصد إلى الشيء غير الشيء، فمن هنا أشبهت الشرط، واشتبه الأمر في كون النية شرطاً أو ركناً، فصح أن يقال هي ركن باعتبار ذلك المعنى المقوم للفعل المقارن له من أوله إلى آخره، وهي شرط باعتبار القصد القائم بالناوي، فهما أمران أحدهما قائم بذات الناوي والثاني صفة للفعل، فالأول شرط والثاني ركن، ولا يعتقد أن الناوي يقصد[9] الفعل المجرد وإنما يقصد[10] الفعل بوصف كونه مطلوباً للرب سبحانه، وذلك الفعل يكتسب من

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10:267.
(2) الأنعام: 75.
(3) نفسه 10:270.
(4) الفرقان: 43.
(5) الفرقان:41.
(6) الفرقان: 42.
(7) في ط: المعهود الباطل.
(8) طبقات الشافعية الكبرى 10:271.
(9) في ط: يعتقد.
(10) في ط: يعتقد.

الوصف صفة ينصبغ بها كانصباغ الثوب، فالثوب المصبوغ صبغته جزء منه، والصبغ الذي هو فعل الفاعل خارج عنه، وشرط فيه، كذلك العبادة.

وقال[1]: اختلف الناس في شرط الحديبية، [من جاءك منا ترده][2]، هل هو مخصوص أو منسوخ في النساء بقوله تعالى (فلا ترجعوهن)[3]، والذي اختاره أنه منسوخ، ولا ينبغي أن يقال إنه مخصوص، لأن النبي لا يظهر خلاف ما يبطن.

وقال[4] في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا)[5]، هل الضمير في اغسلوا للذين آمنوا فيكونوا مأمورين الآن بالغسل وقت القيام؟ أو للذين آمنوا القائمين للصلاة لما دل عليه الشرط؟ فلا يكونوا مأمورين إلا وقت القيام للصلاة، وفيه بحث، والأظهر الثاني، ويشهد له قوله تعالى: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء)[6].

وقال[7] في قوله تعالى (ولا هم يحزنون)[8]: قيل إنه لنفي الحصر، فلا يلزم نفي الحزن. وجوابه، على تسليم أن (هم يحزنون) للحصر، تقدير هم داخلة على لا يحزنون، كما إذا دخل النفي على الفعل المؤكد بنون التأكيد، يقدر التأكيد[9] داخلا بعد النفي لا قبله، وقدم في اللفظ لا[10]، ليقابل بها لا خوف عليهم، ولا مسلطة على (يحزنون) لا على الجملة.

وقال[11]: من قواعد الفلاسفة الفاسدة أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد لأنه لو صدر عنه أكثر، فكونه مصدرا لج مثلا مخالف لكونه مصدرا لب فالمفهومان إن كانا داخلين في الذات لزم التركيب، أو خارجين لزم التسلسل إلخ ما نظموا من الشبهة، وهذا بعينه يلزمهم في صدورالواحد مع كونه صادراً عن الذات والنسب

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10:273.
(2) زيادة من طبقات الشافعية الكبرى.
(3) الممتحنة: 10.
(4) نفسه 10:274.
(5) المائدة: 6.
(6) الطلاق: 1.
(7) طبقات الشافعية الكبرى 10:276.
(8) البقرة: 38.
(9) ساقط من ط.
(10) ساقط من ط.
(11) نفسه.

عندهم ثبوتية[1] فيقال لهم الصادر وتأثير القادر فيه إمـا أن يكونـا داخلـين أو خارجين أو أحدهما [داخلا والآخر خارجا] إلخ، وينتقض [كل قسم] بنا نقضوا به.

وقال[2] في قول الشاعر:

[طويل]

لنا الجفناتُ الغر يلمعـنَ بالـضحى [وأسيافُنا يقطرنَ من نجـدةٍ دمـا]

إنما [قال بالضحى و] لم يقل بالدجى لأنها إذا لمعت في الضحى كان أبلغ، فإن القليل يلمع في الدجى ولا يلمع في الضحى إلا الكثير.

وقال[3]: يقال رضِعَ الثدي، بكسر الماضي وفتح المضارع ورضَع، عكسه إذا تلاءم، والرجل راضع أي لئيم، (ومنه اليوم يوم الرضع)[4]، أي هذا يومكم أيهـا اللئام.

وقال في كتابه: كشف القناع في حكم لو للامتناع[5]:

[رجز]

مدلول لـو ربـط وجـود ثـان بـأول في سـائر الزمـان

مـع انتفـاء ذلـك المُقـدمِ حقـا بـلا ريـب ولا تـوهمِ

أمـا الجـوابُ إن يكـن مناسـبا ولـيسَ غـير شـرطه مُـصاحبا

فاحكمْ له بـالنفي أيـضا واعلـمْ بـأن كـلا داخـل في العـدم

أو لم يكـن مُناسـبا فواجـب من بـاب أولى ذاك حكـم لازب

في مناسـب لـه إذ يفقـد مُناسـب سـواه قـد لا يوجـد

---

(1) في خ وط: والمثبت عندهم ثبوته.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 10:280.
(3) نفسه 10:281.
(4) زيادة من ط.
(5) نفسه 10:279 ـ 280.

هذا جوابُ لــو بتقــسيم حــصل ... ممتنـــع وواجـــب ومُحتمـــل

ومُعظـــم المقــصود فيمـــا يجـــب ... إثباتـــه في كـــل حـــال يطلـــب

مثالـــهُ نعـــم الـــذي لـــو لم يخـــف ... لمـــا عـــصى إلهـــهُ ولا اقتـــرف

ومُعظـــم المقــصود في الممتنـــع ... بيان نفـــي شـــرطهِ الـــذي ادعـــى

كلـــو يكـــونُ فيهمـــا شـــريك ... لفـــسدا فالواحـــدُ المليـــك

أو أن ذاك النفـــيُ حقـــا أثـــرا ... في عـــدم الـــذي يلـــي بـــلا مـــرا

كلـــو أتيـــتني لكنـــت تكـــرم ... كـــرامتي لمـــن قلانـــي[1] تعـــدم

وقال:[2] قوله: (كلنا لك عبد)، أفرده لأنه قصد أن يكون الخلق أجمعـــون بمترلة عبد واحد وقلب واحد.

وقال[3]: الحنث العظيم[4] القسم على إنكار البعث المشار إليه في قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)[5].

وقال[6] في قول السهيلي: إن قوله عليه السلام: أو مخرجي هم[7]، فيه دليـــل على حب الوطن، أحسن منه أن يقال تحركت نفسه لما في الإخراج من فوات ما

---

(1) في ط: تلاني.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 10:281، وهذا جواب عن سؤال وجهه المؤلف لوالده فحواه: لم يقول المصلي في الاعتدال: كلنا لك عبد، ولا يقول: عبيد، مع عود الضمير في كلنا على جمع؟

(3) نفسه.

(4) إشارة إلى قوله تعالى: (وكانوا يصرون على الحنث العظيم): الواقعة: 46.

(5) النحل: 38.

(6) طبقات الشافعية الكبرى 10:285.

(7) جاء في صحيح البخاري: "حدثنا يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن عقيل عن بن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: ثم أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مـــن الـــوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكـــان يخلـــو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلـــى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قـــال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتـــى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقـــال: (اقـــرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم)، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وســـلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك

ندب الله إليه من إيمانهم وهدايتهم، فإن ذلك مع التكذيب مترقب، ومع الإخراج منقطع، وذلك هو الذي لا شيء عند الأنبياء أعظم منه، لأنه امتثال أمر الله، وأما مفارقة الوطن فأمر جبلي، والنبي أعلى وأجل من الوقوف عنده في هذا المـــوطن العظيم.

وقال[1]: إنما لم يقل إن شاء الله في قوله: وباسمك أرفعه، [لقوله تعالى: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله)[2]] لأنه لو تقدم الفعل على الجار والمجرور، ويكون معناه الإخبار بالرفع وهو عمدة الكلام، وجاء المجرور تكملـــة، فهنا يقال إن شاء الله، وإذا قلت باسم الله أرفع، كان المعنى الإخبار بأن الرفـــع كائن باسم الله وهو عمدة الكلام، انتهى. وكون الرفع[3] باسم الله محقق فلا يحتاج إلى قوله إن شاء الله. وعندي فيه وجه آخر أن قوله: باسمك أرفعه، وإن كان صيغة خبر، فهو بمعنى الدعاء؛ كأن النائم دعا الله أن لا يكون ممن يقبض في هذا النوم، بمعونة القرآن، ويدل له ما بعده، والداعي لا يقول إن شاء الله.

وقيل له: إن الكتب على الرسم ببطلانه إفساد لملك الغير بغير إذنه، فأجاب بأن الكتب عليه واجب بالكتاب والسنة والإجماع والقياس؛ الكتاب قوله: (ليحق الحق)[4] الآية، لتبين للناس، (لتبيننه)[5]. الحديث: من رأى منكم منكراً إلى غـــير ذلك. الإجماع [فإجماع الصحابة مع عثمان رضي الله عنهم] على تحريق المصاحف الباطلة لما فيها من زيادة أو نقص عن غير المجمع عليه، فإذا جاز تحريقه لباطل فيه فالكتابة عليه بالباطل أولى، وأما القياس فعلى حكم الكتب في البياعات والأوقاف

لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت بـــه خديجـــة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهليـــة، وكـــان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيـــرا قـــد عمـــي، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من بن أخيك، فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فـــأخبره رســـول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتنـــي فيهـــا جذع، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟ قال: نعـــم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم ينشب ورقـــة أن توفي". صحيح البخاري 1:4.

(1) طبقات الشافعية الكبرى287:10.

(2) الكهف: 23 – 24.

(3) في ط: باسم الله.

(4) الأنفال: 8.

(5) آل عمران: 187.

وغيرها حتى لا يغتر بما فيها، وهو أولى من إعدامه، لأنه[1] قد يقول قائل كان ما فيه حق وأما عند وجوده فليتأمل. ولا ينبغي أن يعطى لمن كان في يده، لأنه قد يتعلق به بإزالة ما كتب عليه أو بلبس.

ولأنَّ الكتب إنما يملكها من له فيها حق[2]، فإذا بيعت الدار فكتبها ينتقل ملكها بانتقال الدار إلى المشتري ليشهد له بملكها، وهذا الكتاب لا حق فيه لزوره وبطلانه.

وقال[3] إن الكلام النفسي يسمع، وإن التعلق قديم. وقال[4] البشر أفضلٍ من الملك ولكن لا يجب [على المكلف] اعتقاد ذلك ولو لقي (المكلف) الله ساذجاً من هذه المسألة لم يبال.

وقال[5]: إن قولك من عندك؟ يطلب به التصور لا التصديق، ومن زعم أن المطلوب به التصديق فقد غلط، وأن الجواب فيها مفرد لا مركب، ولا يقدر له مبتدأ ولا خبر،وعلى هذا قوله [تعالى]: (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله)[6]، وأما قوله: (خلقهن العزيز العليم)[7]، فابتداء كلام يتضمن الجواب وليس اقتصارا على نفس الجواب، فالله في الآية الأولى اسم مفرد، والذي يقدره النحاة [من أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف ونحو ذلك] إنما يصح بأحد طريقين؛ أحدهما أن لا يراد الاقتصار على الجواب بل زيادة إفادة الإخبار، ويحصل في ضمن ذلك الجواب وهو إفادة التصور، والثاني أن يراد الاقتصار على الجواب لفظا ويدل بالالتزام على المعنى التصديقي وهو أن الله خلقهم، فنظر النحاة إلى هذا المعنى الالتزامي وأعربوا عليه لأن صناعتهم تقتضي النظر فيه ليكون الكلام تاما، وليس من صناعتهم النظر في المفرد [قال: لكن يبقى بعد هذا بحث وهو أنه إذا كان مفردا فحقه أن لا يعرب لأن الأسماء قبل التركيب لا معربة ولا مبنية وإذا لم يكن معربا فحقه أن ينطق به موقوفا]، وإنما جاء في القرآن مرفوعاً و لم ينطق به موقوفا،

---

(1) زيادة من ط.
(2) في ط: حظ.
(3) طبقات الشافعية الكبرى 10: 294.
(4) نفسه 10: 295.
(5) طبقات الشافعية الكبرى 10: 304.
(6) الزخرف: 87.
(7) الزخرف: 9.

فلعله مراعاة لما استفيد منه بدلالة الالتزام، وقد يقال الأسماء المفردة ينطق بها على هيئة المرفوع، لأن الرفع أقوى الحركات، ولهذا يقال في العدد واحد، اثنان بالألف كالمرفوع، قال: وأصل هذا إذا قيل ما الإنسان؟ فقيل: الحيوان الناطق، فإنه مفرد ليس بكلام، إنما القصد به تصور حقيقة الإنسان، ولهذا يعد المنطقيون الحد خارجا عن الكلام ومتى قيل هو الحيوان الناطق كان دعوى لا حدا.

وقال[1]: يقال جاء شيء، ولا يقال جاء جاء، وإن كان الجائي أخص من شيء، لأن جاء مسند والمسند إليه الفاعل، ومعرفة المسند إليه متقدمة على معرفة المسند، فمتى عرف الجائي عرف المجيء، فلا يبقى في الإسناد فائدة، والشيء قد يعرف ولا يعرف مجيئه.

قال ولده التاج[2]: استمر به الضعف من ذي القعدة سنة خمس وخمسين [وسبعمائة] بدمشق إلى أن وليت أنا القضاء، ومكث[3] بعد ذلك نحو شهر، وسافر إلى مصر، وكان يذكر أنه[4] لا يموت إلا بها، فاستقر بها أياماً ثم توفي ليلة الاثنين المسفرة عن ثالث جمادى الأخيرة سنة ست وخمسين وسبعمائة بظاهر القاهرة، ودفن بباب النصر.

ومنها في ترجمة علي بن محمد علاء الدين[5] الباجي[6]، شيخ والده في الأصول، بينه وبين النووي صحبة أكيدة، وكان النووي يحب طعام[7] الكشك، فإذا طبخه دعاه وقال: أنا أحبك وأحب الكشك فلا أحب أن آكله إلا معك، فقال له الباجي[8]: يا شيخ محيي الدين أنا أحبك ولا أحب الكشك، لأنه كان يعافه.

---

(1) نفسه 10:306.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 10:315.
(3) في ط: مكثت.
(4) ساقط من ط.
(5) علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب، الشيخ الإمام علاء الدين الباجي، الفقيه المشارك، مولده سنة 631 هـ، ولي قضاء الكرك ثم استقر بالقاهرة، توفي بها سنة 714 هـ: طبقات الشافعية الكبرى 10:339. لقط الفرائد، ص: 173.
(6) في ط: الناجي.
(7) ساقط من ط.
(8) في ط: الناجي.

وقال بعد ثناء كثير: لما رآه ابن تيمية أعظمه، ولم يجر بين يديه بلفظة، وقال الشيخ علاء الدين: تكلم نبحث معك، وابن تيمية يقول مثلي لا يتكلم بين يديك أنا وظيفتي الاستفادة منك.

وله[1]:

[وافر]

رثى لي عُودي إذ عايَنُوني   وسحبُ مَدامعي مثل العيونِ
وراموا كُحل عيني قلتُ كُفوا   فأصلُ بَلِيتي كُحل العيونِ

وقال التاج[2]: ولما ظهر السؤال الذي أظهره بعض المعتزلة، وكتم اسمه وجعله على لسان بعض اليهود، وهو:

[طويل]

أيا علماءَ الدينِ ذميٌّ دينكم   [تحيرَ دلوهُ بأوضحِ حجة]

وهي ثمانية أبيات.

ويقال إن هذا الناظم هو ابن البققي[3] الذي ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة وقتل بسيف الشرع في ولاية الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، فانتدب علماء مصر والشام لجوابه، ومنهم علاء الدين الباجي[4]، وأجاب ابن تيمية بجواب فيه طول.

ولابن الوردي[5] في بعض القضاة:

[رمل]

كان والله عفيفا نزها   وله عرض عَريض ما اتهم

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10: 344.
(2) نفسه 10: 352.
(3) في ط: الثقفي.
(4) في ط: الناجي.
(5) عمر بن مظفر بن محمد بن أبي الفوارس، ابن الوردي، فقيه أديب نحوي، ولي قضاء حلب مدة، من تصانيفه: نظم الحاوي، وله رسالة في الطاعون، توفي سنة 749 هـ بحلب: طبقات الشافعية الكبرى 10: 373. لقط الفرائد، ص: 203.

وهـــو لا يـــدري مُـــداراة الـــورى ومُـــداراة الـــورى أمــــرٌ مهـــم

وله[1]:

[سريع]

لمـــا رأى الزهـــرُ الـــشقيقَ انـــثنى مُنـــــهزما لم يـــــستطعْ نحـــــهُ

فقلـــت[2] مـــن جـــاء، فقلنـــا لـــهُ جـــاء شـــقيقٌ عارضـــا رمحـــهُ

وله:[3]

[مجزوء الرمل]

دهْرنَـــــا أمـــــسَى ضَـــــنينا باللقـــــا حـــــتى ضَـــــنينا

يـــا ليـــالي الوصـــل عُـــودي واجمعينَـــــــا أجْمعينـــــــــا

ومنها[4] في ترجمة الفرج بن محمد الأردبيلي[5] شارح منهاج البيضاوي، نقل عن بعض كتب الرافعي أنه قال: خطر لي أنه من سمع المؤذن وأجابه وصـــلى في جماعة، ثم سمع مؤذناً ثانياً لا يجيبه، لأنه غير مدعو بهذا الأذان، وهذا بحث صحيح ومأخذ حسن.

ومنها[6] في ترجمة القاسم بن محمد علم الدين البرزالي[7] الأشـــبيلي، أحـــد الأئمة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة، مات محرما في خليص ســـنة تـــسع وثلاثين وسبعمائة.

ومنها[1] في ترجمة جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي[2]، ذكره الذهبي في المعجم وأثنى عليه إلى أن قال: يشارك في الفقه والأصول، ويشارك في مـــضايق

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10:374..

(2) في ط: فقلنا.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 10:375.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 10:380.

(5) فرج بن محمد بن أبي الفرج، نور الدين الأردبيلي، قرأ المعقولات بتبريز، ثـــم قـــدم دمـــشق، ودرس بالظاهرية والناصرية، توفي سنة 749 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 10:380.

(6) طبقات الشافعية الكبرى 10:381.

(7) القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي علم الدين أبو محمد الإشبيلي، فقيه محدث، ولد سنة 665 هـــ، وتوفي بخليص سنة 739 هـــ: طبقات الشافعية الكبرى 10:381.

المعقول. قال التاج: ولا أحسب شيخنا المزي يدري المعقولات فضلا عن الخوض في مضايقها، فسامح الله شيخنا الذهبي.

وقال[3]: عاصرت أربعة لا خامس لهم؛ المزي والذهبي والوالد والبرزالي، و لم أر البرزالي، وكان يفوقهم في معرفة الأجزاء ورواتها، وكل الثلاثة يعظم المـــزي ويقرءون عليه ويعترفون بتقديمه. وبالجملة فشيخنا المزي أعجوبة زمانه، يقرأ عليه القارئ نهارا كاملا والطرق تضطرب، والأسانيد تختلف، وضبط الأسماء يشكل، وهو لا يسهو ولا يغفل.

وقال فيه الشيخ الإمام حين قيل له في عزله عن دار الحديث: من ذا الذي يتجاسر أن يقول المزي ما يصلح لدار الحديث، والله لو عاش الدارقطني لاستحيا أن يدرس مكانه. وإنما قيل بعزله لأن شرط الواقف أن لا يتولاها إلا أشـــعري، والمزي لم يتولها حتى كتب بخطه أنه أشعري، و لم يصدق في ذلك، ولذلك لم يتولها الذهبي بعده، ويتولاها الشيخ الإمام بعد إشارته بالذهبي، ولهذا حكاية.

قال التاج[4]: كان يخوض في شيء من الصفات في أصول الديانات، وأمـــا المعقولات فلم يكن يدريها ولعل الذهبي خطر له أن ذلك القدر الذي كان يخوض فيه من أصول الديانات هي مضايق المعقولات، وهذا ظَنُّ مَنْ لا يدري مـــدلول المعقولات، وأنها علوم وراء علم الكلام يعرفها أهلها. وقال الذهبي إن المزي كان يقرر طريقة السلف في السنة فيعضد ذلك بقواعد كلامية ومباحث نظره. قـــال وجرى بيننا معارضات في ذلك.

قال التاج: وليس المزي والذهبي عندنا في هذا المقامٍ والحق أحق ما قيـــل. واعلم أن هذه الفرقة، أعني المزي والذهبي والبرزالي وكثيراً من أتباعهم، أَضَرَّ بهم أبو العباس ابن تيمية إضراراً بَيِّناً، وحملهم من عظائم الأمور ما ليس هيناً. وحدث المزي نحو خمسين سنة، سمع منه ابن تيمية والبرزالي والذهبي، وابن سيد النـــاس، والشيخ الإمام، هـــ.

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى 10:395.

(2) يوسف بن الزكي، عبد الرحمن بن يوسف، الشيخ جمال الدين، أبو الحجاج المزي، الدمشقي، ولد ســـنة 654 هـــ بظاهر حلب، وسمع ببلاد كثيرة وجمع له الدراية والرواية وعلو الإسناد، صنف تهذيب الكمـــال، توفي سنة 742 هـــ بدار الحديث الأشرفية ودفن بمقابر الصوفية: طبقات الشافعية الكبرى 10:395.

(3) طبقات الشافعية الكبرى 10:397.

(4) طبقات الشافعية الكبرى 10:399.

وممن لقيتُه بالمدينة المُشَرَّفة[1] ممن ينتمي إلى الصلاح وسلوك طريق الإرادة؛ الشيخ مواز الشامي الدمشقي، جاور بالمدينة مدة، وكان أصله من دمشق، وله خبرة بطريق القوم، ولقي عدة من المشايخ؛ كالشيخ أيوب الشامي، وشيخنا القشاشي وغيرهما. وجمع من كتب الفن كثيراً، سيما مؤلفات الشيخ محي الدين ابن العربي فله بها اعتناء، وسبب معرفتي له أني ذات يوم جالس بالحرم الشريف إذ أتاني بمؤلف من مؤلفات الشيخ محي الدين وأرانيه، وسألني عن حل كلام له فيه صعوبة، وكان قد تقدم لي الخوض في تلك المسألة، فذكرت له ما ظهر لي في فهمها، واستحسن فهمي فيها، ثم لم يزل يوالي الجلوس إلي بعد ذلك، وأعارني كتاب عنقاء مغرب ومعرفة ختم الأولياء وشمس المغرب، للشيخ محي الدين ابن العربي، وما رأيته قبل ولا بعد إلا عنده، والذي يظهر من كلامه أن الختم الحقيقي، والمهدي المنتظر هو نبي الله عيسى عليه السلام، واستدل على ذلك، وعلى أوصافه وزمنه، بآيات قرآنية لا يهتدي إلى فهم ذلك منها إلا هو وأمثاله، وله في هذا الكتاب قلم ينسب إليه، يكتب به ما أراد إخفاءه وستره، وصورته قد تقدمت.

لطيفة:

أخبرني صاحب الترجمة أنه صحب الشيخ الفقيه، الأديب البارع، حافظ المغرب في زمانه، سيدي أحمد المقري أيام إقامته بدمشق، وكان يلازمه ويرافقه في تقلباته بها وزياراته، ويحكي عنه أحوالا عجيبة، فمما حكى لي عنه أنه ذهب معه ذات يوم لزيارة قبر الشيخ محي الدين ابن العربي خارج المدينة، قال: وكان خروجنا بعد صلاة الصبح، ووصلنا إلى المزارة عند طلوع الشمس، فلما جلسنا عنده قال لي الشيخ المقري: إني ابتدأت عند خروجنا إلى الزيارة ختمة من القرآن لروح هذا الشيخ، وقد ختمتها الآن، وهذا من غريب ما يحكى في هذه الأزمنة.

وذكر لي صاحب الترجمة أيضا أنه لقي في بعض حجاته رجلا فقيها من أهل تلمسان حكى عنه أحوالا غريبة، منها أنه رافقه من مكة إلى المدينة، وكان يختم في كل يوم كذا وكذا ختمة، قال: فلما وصلنا إلى المدينة ودخلنا المسجد النبوي وتقدمنا إلى الزيارة، ووقفنا بالمواجهة، قال: فلما فرغت من الزيارة على الوجه

[1] في ط: المشرفة.

المعتاد، رجعت إلى الروضة وجلست أنتظره، فأبطأ علي هنيهة، فإذا هو داخل، فقلت له: ما أبطأك عني؟ فقال لي: ختمت ختمة أمام وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم جئتك، وهذا لا يستبعد على سبيل الكرامة وخرق العادة، ولا شك أن من ألف قراءة القرآن واعتاد به، قد يبلغ إلى ختم ثلاث أو ما يقرب من ذلك في اليوم، وأما مثل ما تقدم فلا يكون إلا كرامة وخرق عادة، وقد ذكر الناس في كرامات الأولياء من يختم العشر والعشرين وأزيد في اليوم الواحد، وأغرب ما سمعنا من ذلك ما حكاه غير واحد ممن ألف في كرامات الأولياء أن بعض أصحاب الشيخ أبي مدين حَجَّ في السنة التي حج فيها الشيخ السهروردي، فذكر له عنه أنه يختم في اليوم والليلة سبعين ألف ختمة، فبعث بعض ثقات أصحابه يختبر له ذلك فوجده يطوف بالبيت وهو يقرأ، فتبعه من الركن إلى قريب من الحجر، فختم عددا كثيرا من الختمات، وفي هذا خرق عادة للقارئ والسامع، لأن سماع مثل هذا في هذه المدة لا يمكن عادة، وهذا قريب من ختمة في كل نفس، فقد قيل إن أنفاس الآدمي المعتادة في اليوم والليلة نحو من ذلك العدد، وعلم الله أوسع من أن يحاط به.

ومنهم القانت الخاشع، الناسك الخاضع، الراكع الساجد، حليف المساجد، الشيخ عبد الله بن نُمي العمودي اليمني[1]، كان هذا الرجل من أصحاب شيخنا عارف وقته الشيخ محمد باعلوي اليمني[2]، وما أظن أنه خلف في أصحابه مثله ديانة وورعا واجتهادا في العبادة، وكان هو والسيد محمد قد صحبا شيخهما السيد عبد الله بن علي صاحب الرهط الرفيع المشهور الذكر في بلاد اليمن والحجاز، فلما توفي انثال الناس بعده على تلميذه الشيخ عبد الله، واجتمع عليه الفقراء، وانتشر له صيت، وأصحابه لا يشكون أنه الوارث لمقامه، وأهل البصائر يعلمون أن السيد محمد هو وارث مقامه، إلا أنه بقي خامل الذكر، لا يشعر به ولا يعرفه إلا الخواص، وبقيا على تلك الحال مدة إلى أن ظهر للشيخ عبد الله أن الشيخ محمد هو الوارث لمقام الشيخ وأحق منه بالتقدم لتربية المريدين، فأصبح ذات غداة على باب السيد محمد واقفا مكشوف الرأس وقوف التائب المستغفر من التقدم عليه بدون استحقاق، والناس يتعجبون من ذلك، ولا يعلمون سببه، فبعد

---

[1] عبد الله بن نمي العمودي، ترجم له صاحب نشر المثاني نقلا عن الرحلة العياشية: نشر المثاني 2:389.

[2] سبقت ترجمته.

ساعة أذن له السيد محمد فدخل عليه، واستغفر وتنصل مما أتاه، وقبل السيد توبته، وصار من خواص أصحابه، وانثال الناس على السيد محمد من يومئذ، وانفضوا عن السيد عبد الله، إلى أن صار أمر السيد محمد إلى ما صار من شدة الظهور والانتقال إلى مكة، والتردد بينها وبين المدينة، إلى أن توفي إلى رضوان الله وجنتـــه، وبقـــي الشيخ عبد الله بعده على حاله من الخمول لا يعرفه إلا خواص أصحاب الشيخ، وكأنه لم يؤذن له في الظهور بعد ذلك لاستعجاله الظهور أولا قبل أوانه، ولذلك بقي أصحاب الشيخ بعده فوضى لا إمام لهم، و لم يترشح إلى الآن أحد ينقـــادون إليه، ويصيرون إلى رأيه، ولله في ذلك حكم وأسرار يعرفها أهل النهي والأبصار، وقد اعتنى صاحب الترجمة آخر الأمر بسماع الحديث على أيمته لنيته الـــصالحة، وأخبرني أنه فتح له سر عظيم وذوق غريب عند اشتغاله بذلك، وأكب على سماع مصابيح البغوي وملازمته في غالب أوقاته، فلا يكاد يفارق كمه، إلا أنه لأميتـــه يسمع ممن وجد.

لطيفة:

ممن اشتغل صاحب الترجمة بسماع المصابيح منه، وصاحبنا الشيخ حـــسن البري المتقدمة ترجمته، فيجتمع إليهما جماعة من العوام والطلبة تتسع بهما الحَلْقَة، وكان ذلك بالروضة بين المنبر والقبر الشريف، ومررت يوماً بالمجلس فـــسمعت الشيخ حسنا يقرر حديثا، فاستمعت له، فإذا هو حـــديث أن الله يـــضحك إلى رجلين قتل أحدهما الآخر، قالوا: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يقتل أحدهما في سبيل الله، ثم يتوب الله على القاتل، فيستشهد بعد ذلـــك[1]، الحـــديث بمعنـــاه، فاستمعت لتقريره فكان أول ما طرق سمعي أن قال: وذلك كسيدنا وحشي قاتل سيدنا[2] حمزة، فإنه قد أسلم بعد ذلك، فيكونان ممن يضحك الله إليهما، فاقشعر جلدي من ذلك، وأنكره قلبي بعد ذلك كل الإنكار، سيما في ذلك المحل العظيم بمرأى من النبي، صلى الله عليه وسلم، ومستمع، ما كان، صلى الله عليه وســـلم،

[1] نص الحديث النبوي الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم إن الله يضحك إلى رجلين يقتـــل أحدهما الآخر، كلاهما دخل الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد، ثم يتوب الله على قاتله فيسلم، فيقاتـــل في سبيل الله فيستشهد: سنن ابن ماجة 1:68.

[2] زيادة من ط.

ليرضى التسوية بين عمه سيد الشهداء الذي لم يصب من أهل بيته بمثله، وبين قاتله وحشي الحبشي الذي أعرض عنه بوجهه يوم جاءه مُسَلِّمًا، وقال له: إن استطعت أن تغيب وجهك عني فافعل، ولم تعرف له صحبة للنبي، صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ولا لقاء آخر يرضى فيه عنه، ولا قرب منه عليه السلام، إلى أن مات، والعجب كل العجب من هذا المدرس، والله يغفر لنا وله، كيف سَوَّلت له نفسه هذه التسوية، وعلى تقدير صحتها، وما أبعدها عن الصحة، كيف قدر لسانه على النطق بذلك في مثل هذه الحضرة تأدباً معه، صلى الله عليه وسلم، أن يسوى أحدا من الرعاع بعظماء أهل بيته، خصوصاً زعيمهم الذي قيل فيه أنه أفضلهم، فما بالك إذ سوى بقاتله الذي اشتد سخط الرسول عليه، ولقد ظهر أثر سخطه عليه بعد ذلك، فلم تعرف له حالة مرضية بعد إسلامه، بل لا تتحقق موتته على الإسلام، فقد قيل إنه مات سكراناً غريقاً في الخمر، ومن لم ترض حالته بعد إسلامه، وسخط عليه الرسول الأعظم، وقارن الكبائر، ومات ملابساً لأم الخبائث، كيف يسوى بإمام (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[1] وشهد عليهم الرسول، وأخبر برضوان الله عنهم، وأعجب من ذلك كله غفلته عن كون الحديث إنما ينطبق على رجلين استشهدا معاً، ولا قائل إن وحشياً الحبشي استشهد، بل قيل في حاله ما تقدم، مما هو والشهادة على طرفي نقيض، والحامل له على ذلك، والله أعلم، قلة مبالاته، مع ضيق عطنه في علم الحديث والسير، ولم يجد ما يمثل به لذلك لعدم معرفته بأخبار الصحابة وأحوال من استشهد منهم وتسمية قاتليهم، ومن أسلم منهم بعد ذلك ثم استشهد، ولما كانت موتة[2] سيد الشهداء حمزة وشهادته معروفة عند الخاص والعام، وعلم أيضاً أن قاتله قد أسلم، لم يجد ما يمثل به إلا ذلك، وليته ترك التمثيل وسلم من هذه الورطة التي لا تطابق الممثل، ولا تليق بالمقام ولو طابقت، والله يغفر لنا وله. ولم أذكر ذلك له ولا لأحد من أصحابه خشية أن يظن بي استراق السمع في مجلسه، والتطلب لعوراته، فيثير ذلك حقداً وحسداً، مع أنه أول مرة قد غص بمكاني كما ذكرته في ترجمته، وإنما ذكرت ذلك هنا تحذيراً وتنبيهاً وغَيْرة على مقام النبوءة، وليحافظ الناظر في هذا على الأدب إذا تكلم فيما يضاف إلى أهل بيت النبوءة، وما قصدت بذلك انتقاص وحشي ولا ذكره بسوء، ولا التعرض لإذايته لما له من فضيلة الصحبة في

[1] الأحزاب: 23.
[2] زيادة من ط.

تلك اللحظة الواقعة بعد النسبة الإسلامية، إلا أن الضرورة دعت إلى ذكر ما تقدم امتعاضاً لمقام السيد حمزة أسد الله ورسوله، وردا على المسوي بينهما، ولولا ذلك لكان الأولى الإعراض عن ذكره بالكلية كما فعلٍ، صلى الله عليه وسلم، فلا يذكر بخير تأدبا معه عليه السلام، ولا بقبيح تأدباً مع مقام الصحبة، ويدل على ذلك أنا ما رأينا قط أحدا من أهل الحديث والسير قال عند ذكره رضي الله عنه، كما يقولون في غيره من الصحابة، ولو كان من أصاغرهم الذين لم تعرف لهم فضيلة ولا أثر في الدين الصحبة، فإن غالب المحدثين إذا ذكروا واحدا منهم ترضوا عليه، والله يغفر لي ما طغى به قلمي، وزل فيه لساني من ذلك.

لطيفة:

وجدت عند صاحب الترجمة بطاقة بخط شيخنا السيد محمد باعلوي كتبها لصاحب الترجمة، نصها تيمنا بلفظه: باسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم:

[رجز]

لبستَ تلك الخرقة الأنيقة   وحُزت أسرارا لها دقيقة

فهمتَ ما قد لاح أو تلالا   من نُور تلك البرقة المشيقة

وأنتَ مخطوب لسر معنا   أهل الطريقة صرت والحقيقة

باسم المنور المحبوب العارف، موجه الوجه، الشيخ عبد الله بن نمي العمودي، كتبه الفقير إلى الله السيد محمد بن علوي بن محمد أبو بكر بن علوي بن أحمد بن بوبكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف هـ.

قلت: وحيث جرى في هذه البطاقة ذكر بعض نسب شيخنا السيد محمد، فلنذكر إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، على ما في بهجة المفاخر في معرفة النسب العالي الفاخر، وفيه بعض مخالفة لما هنا، وهو السيد محمد بن علوي بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن

عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي ابن أبي طالب والزهراء البتول بنت المصطفى صلى الله عليه وسلم. وأما سند شيخنا هذا في طريق القوم فقد لقيتُه بمكة المُشَرَّفة بداره أواخر سنة أربع وستين ولقنني وألبسني كوفية من لباس رأسه الكريم بيده المباركة، وهو أخذ عن شيخه السيد عبد الله بن علي صاحب الرهط، وهو عن السيد شيخ بن عبد الله صاحب أحمد أبادي، وهو عن والده عبد الله بن شيخ، وهو عن عمه القطب أبي بكر بن عبد الله العيدروس، وهو عن والده القطب عبد الله بن أبي بكر العيدروس، وهو عن أبيه وعن عمه الشيخ عمر المحضار ابني عبد الرحمن السقاف، وهما عن والدهما عبد الرحمن بن محمد، وهو عن والده محمد بن علي، وهو عن والده ابن علوي بن محمد، وهو عن والده القطب المحقق سيدي الفقيه محمد بن علي المعروف بمقدم التربة، وهو عن الشيخ عبد الله المغربي، وهو عن الشيخ عبد الرحمن المقعد المغربي،وهو عن الغوث الجامع سيدي أبي مدين شعيب دفين العباد بتلمسان، رضي الله عن جميعهم ونفعنا بهم آمين. وقد طال ما بحثت عن هذا السند فلم أظفر به إلا بعد مدة على يد خليلنا حسن بن علي العجيمي، ثم بعد ذلك أخبرني صاحبنا الشيخ عبد الله باعفيف أن خليلنا حسن إنما كتبه من عنده، وقد اغتبطت بالعثور عليه، لأن انتسابي إلى هذا الشيخ من النسب التي أرجو بركتها، وأعددتها ذخراً عند الله تعالى، وكانت وفاة شيخنا السيد محمد بن علوي يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الثاني عام واحد وسبعين وألف، وفي تاريخ وفاته قلت:

[رجز]

مات فتى المجد من آل علوي   محمد إمام أرباب النهى

قد كان بحرا في المعارفْ فلا   ترى له في الوقت طرا مشبها

وكان غوث مكة تاريخه   قولك قطب وقته مات بها

إنا لنا الله به ما نرتجي   دنيا وأخرى وكفانا ما دها

ومنهم المسن العابد، المحاسب نفسه المجاهد، السيد مصطفى، رجل من أهل البيت، قد طعن في السن وكف بصره، وله اجتهاد تام في العبادات، والناس

يعتقدون فيه الصلاح، وأثر العبادة ظاهر عليه، قلما يسبقه أحد إلى المسجد، وقلّما يخرج منه بعد دخوله، زرتُه مراراً عديدة، ودعا لي بما أرجو بركته، وقد أخبرني صاحبنا السيد عمر، وكان ثقة صدوقا، أنه رأى في منامه ذات ليلة رجلاً، وقال له[1]: تعال أريك رهطاً من الأولياء، لا أدري: قال النجباء أو الأبدال، قال: فدخلت معه إلى المسجد، فأراني جماعة جلوساً مستقبلين القبلة لم أعرف منهم إلا السيد مصطفى، رضي الله عنه، ومنهم شيخنا جمال الدين النقشبندي، رضي الله عنه، وقد تقدم جملة من خبره فيمن لقيته بمكة، وقد وصل إلى المدينة بعد إقامتنا بها، وقد بلغنا خبر موته ونحن بالمغرب، وأنه توفي سنة ست وسبعين، ودفن عند شيخه بالبقيع بحُش كوكب رضي الله عنهما آمين.

[1] ساقط من ط.

ذكر الخروج من المدينة المشرفة إلى مكة المعظمة زادهما الله تعظيماً وتشريفاً

ولما استهل شهر شعبان المكرم أخذت القوافل في الخروج من المدينة إلى مكة، ورجع من جاء من أهل مكة والطائف واليمن لشهود موسم الرجبية بالمدينة، فخرجت قافلة عظيمة ثاني يوم من شعبان، خرج فيها كثير من أهل مكة، وخرج فيها شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي، وكانت نيتنا في المجاورة من أول الأمر أن نقيم بالمدينة إلى قرب رمضان، ونشاهد رمضان بمكة، فقوي عزمنا على الخروج من المدينة، وأخذنا في أهبة السفر بقدر ما نرى إدراك أول رمضان بمكة، اغتناما لبركة مضاعفة الأعمال في الحرم المكي، خصوصا شهر الصيام، ولما ورد أن عمرة في رمضان تعدل حجة معه عليه السلام[1]، ولما ورد أيضاً أن شهود رمضان في مكة يزيد في الإيمان.

ولامني جماعة من الأصحاب المجاورين والمدنيين على الخروج، وقالوا: إن مذهب مالك أن المقام بالمدينة أفضل، ولم ألتفت إلي شيء من ذلك، وصرت إلى ما قوي عليه عزمي من السفر بعد الاستخارة، رائياً أن لكل من البلدين المشرفين حقاً وحرمة ومكانة عند الله، وفي كل من أنواع العبادات ما لا يوجد في الآخر، لما اشتملت عليه مكة من مشاهدة البيت والطواف به، وأداء المناسك من حج وعمرة وغير ذلك من القربات، مع أن الصحيح عند كثير من الأئمة، حتى من أهل المذهب، أن الأعمال تضاعف بحرم مكة زيادة على حرم المدينة، ولا ينافي ذلك أفضلية المدينة عند القائلين به لاختصاصها بمزايا أُخَر، ولما تقرر أنه قد توجد في المفضول مزايا ليست للفاضل، فعلى هذا ينبغي للمجاور أن يجعل لكلا البلدين حصة من إقامته ليغتنم بركتهما، ويفوز بثواب العمل الصالح فيهما، فإن القائل

[1] أنظر: صحيح البخاري 2:659.

بأفضلية أحدهما لا ينفي فضيلة الآخر إجماعاً بين الأئمة، فعلى هذا فالمؤثر للإقامة بأحدهما تاركاً حظه من الآخر لكونه مفضولاً غير مصيب في الرأي.

وفي فضل البلدين معاً، والإشارة إلى المسجد الأقصى الذي هو ثالثهما في الفضل قلت مضمناً لبيت معروف[1]:

[طويل]

أيا خيرَ خلقِ الله شرفتَ مكةَ ... وطيبة لما صرتَ طرزَ حلاهُمَا

حللتَ بهذا حلة ثم حلة ... بهذا فطابَ الواديانِ كلاهُما

لمكةَ فضلُ البدءِ والختمُ فضلةُ ... لطيبةَ فالثمْ يا مُحب ثراهُما

وجاورْ بهاذي مدةً ثم مُدة ... بهاذي ولا تطلبْ مكانا سِواهُما

ولا تعدِلَنْ بالمسجدين وإن يكنْ ... ولا بُد أن القدسَ كان أخاهُمَا

فما غيرُها تُحدَى الركابُ إليه أو ... يُساهمها عند الفخارِ تساهُمَا

ولما انتصف شهر شعبان تأهبنا للسفر، واكترينا جملين بثلاثة عشر قرشاً، واتخذنا لركوبنا شقدفاً وهبه لنا شيخ الأغوات آغا سُليم لما بلغه أني أريد شراء شقدف لركوبنا لأنا فضلة مرض، وهو محمل كبير ما رأيته إلا في أرض الحجاز، ذو شقتين توضع كل واحدة على جنب البعير، ويقرن بينهما بحبال وثيقة على ظهره، ولا بدَّ للراكب فيه من معادل له في الجهة الأخرى، مقارباً له في الرزانة، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بحبال يظلل عليها بغطاء يقي الحر والبرد، وهو من أشهى المراكب وأهناها، سيما لمن له فرش وثيرة ووسيدة يتكئ عليها من الجانبين، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول، وقد لا يستيقظ.

وتهيأ خروجنا من المدينة المشرفة ضحى يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان، فاغتسلت من المدينة، ولبست ثوبَيْ إحرامي، وكان قصدي اغتنام الإحرام من ميقات النبي، صلى الله عليه وسلم، بذي الحليفة، وجعلت آخر عهدي بالمدينة المترل بين يدي النبي، صلى الله عليه وسلم، والسلام عليه، ثم صلاة ركعتين فيما

---

[1] الإشارة للبيت الثاني، وهو لجميل بثينة.

بين القبر والمنبر، وخرجت وودعت غالب الأصحاب، وشيعني جماعة منـــهم إلى الحرة الغربية[1] خارج المدينة، وودعت شيخنا الملا إبراهيم في مترله، وزاد معـــي جماعة من الأصحاب إلى ذي الحليفة، وقطعت تلك المسافة راجلا، فوجدنا القافلة قد نزلت بذي الحليفة، ونزلنا هنالك إلى قرب العصر، فارتحلنا وودعنا الأصحاب الراجعين إلى المدينة، وعاودت الاغتسال لطول ما بين خروجنا من المدينة وارتحالنا من ذي الحليفة، وركعت ركعتي الإحرام، ولبّيت بالعمرة، وهالني الركـــوب في الشقدف لأني ما عاهدته قبل، وعادلني في الجانب الآخر أخي سيدي عبد الرحمن، ولم أستأنس ركوبه إلا بعد مدة، وكان يخيل لي إذ صرت في جنـــب الـــبعير أن الجانب الذي أنا فيه قد مال للسقوط، وكذلك كان يخيل لصاحبي حتى تمرّنا به، فكنا ننام فيه ما شئنا، ونمد أرجلنا ونضطجع كيف شئنا، وسرنا غالب تلك الليلة منفردين عن القافلة، لم نلحق من قبلنا ولا لحقنا من بعدنا، وكان المحل محل خوف لأن تلك المسافة يطرقها لصوص عترة، وهي في درك بني سالم، ومنازلهم بعيـــدة عنها، وصاحبنا المكاري من بني سالم، فطار قلبه خوفا من عترة، ولم نزل نـــسير رويدا طول الليل، وكان الفصل فصل الربيع، قد بقيت بالليل بقية برد، وأما النهار ففي غاية الاعتدال إلى أن وجدنا أول القافلة منيخين ببطحاء القريش[2]، فملنا عن الطريق قليلاً، وأنخنا تحت سمرة، وقد لحقنا من العياء ما لا مزيد عليه، وأثّر فينـــا السهر لأننا لم نعتد المشي في الليل كما هو شأن أهل تلك البلاد فإن غالب سيرهم بالليل، لا يحملون الإبل من السير إلا ما سمحت به أنفسها عن اختيارها، فيتركونها تمشي على مهل بلا سائق، وذلك الذي أعانهم على قطع تلك المسافات بـــضامر إبلهم، مع هزالها وضعفها، وفي ذلك راحة للمسافر، الراجل والراكب، وأعـــانهم على ذلك أيضاً ما بسط الله في تلك البلاد من العافية الوافية، فلا ترى لـــصاً ولا سارقاً في ليل ولا نهار إلا في قرب من المدينة، كما تقدم، وإنما تشتعل نار الحرابة والسرقة في تلك البلاد أيام الموسم فقط، لاختلاط الناس واجتماع الأوباش مـــن كل أوب. وقد عاينّا من الطمأنينة في الطريق والعافية والسكون في مسيرنا هذا ما

---

[1] الحرة الغربية: وتقابلها الحرة الشرقية، وهما حد المدينة المنورة من الجنوب والشمال: الجواهر الثمينـــة 1:140.

[2] البطاح: جمع بطحاء، وهي بطاح مكة، ويقال لقريش الداخلة البطاح، وقال ابن الأعرابي: قريش البطاح الذين ينزلون الشعب بين أخشبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خـــارج الـــشعب: معجـــم البلـــدان: الأباطح.

قضينا منه العجب، لأنا ما كنا نسلك هذه البلاد إلا في أيام الموسم، ونعاين ما يقع بها من النهب والسرقة والروعات المتوالية، فظننا أنها كذلك دائماً.

واسترحنا في مناخنا ذلك بقية ليلنا وعامة نهارنا إلى أن زالت الشمس وهبَّت الرياح قريباً من العصر، فارتحلنا وسرنا ليلنا أجمع أيضا على نحو السير المتقدم، ومررنا بشرف الروحاء قرب العشاء، ومررنا ببئر الروحاء وسط الليل، ووجدنا بركته مملوءة ماء لكثرة الأمطار في تلك السنة، وأنخنا سحراً قرب مسجد الغزالة مقابلة منقطع العرق في الوادي، فلما أصبحنا عطشنا، ودلنا المكاري على ماء هنالك في شق في[1] الجبل الأيمن، وما كنا نعرفه قبل ذلك. ثم ارتحلنا من هنالك قرب العصر، وقطعنا النازية[2] والشمس حية، ودخلنا في مضيق الخيف، ومررنا بقرية الجديدة ليلا، ولم نترل، وسرنا ليلنا أجمع، وما نزلنا الصفراء[3] حتى طلعت الشمس، وأقمنا بها يومنا في أرغد عيش، وتسوقنا أهلُ تلك القرى بالمحتاج من لحم وأدام ودلاع وغير ذلك، ثم ارتحلنا منها عشية ونزلنا بدراً وسط الليل، وأنخنا قريبا من البركة التي في مترل الحاج.

لطيفة:

لما عرفنا أن المرحلة[4] في تلك الليلة قريبة، وكنت في وقت العشاء راكباً، وشَقَّ عليَّ الترول، أخَّرت الصلاة إلى وقت الترول لاتساع الوقت، ولما نزلنا وكانت الظلمة، ومحل الماء هنا خلوة، فتيممت وصليت (العشاء)[5]، وسولت لي نفسي جواز ذلك، وترخصت، فنمت في أحد شِقي الشقدف وهو على الأرض، فغلبتني عيناي، ولم أرَ نومة أحلى منها، فلما كان آخر السحر، ولم يبق إلا مقدار ما أتطهر فيه وأصلي العشاء ثم يطلع الفجر، وقعت الجهة التي أنا فيها من الشقدف إلى الأرض وقعة منكرة، فاستيقظتُ فزعاً مرعوباً، وما كنت أشك أن إنساناً

---

[1] ساقط من ط.

[2] النازية: عين ثرة على طريق الآخذ من مكة إلى المدينة قرب الصفراء، وهي إلى المدينة أقرب: معجم البلدان: النازية.

[3] الصفراء: قرية فوق ينبع كثيرة المزارع والنخل ماؤها عيون يجري فضلها إلى ينبع، وبين ينبع والمدينة ست مراحل، والصفراء على يوم من جبل رضوى: معجم ما استعجم 836:3.

[4] في ط: تلك المرحلة.

[5] زيادة من ط.

تحامل عليها فألقاها بقوة، فنظرت يمينا وشمالا فلم أرَ أحداً، وإذا بالفجر قد قارب الطلوع، فوقع في قلبي أن صلاتي بالتيمم لا تصح لقرب الماء مني، ولا ضرورة تمنع منه، فذهبت وتوضأت وصليت، وأدركت بقية وقت الضرورة، فعلمت أن الله قد لطف بي، وأن سقوط شق المحمل إنما كان تنبيها من الله لئلا يفوتني الوقت، فحمدت الله كثيراً. وأقمنا يومنا هناك، وزرت مسجد الغمامة، ورأيت فيه خط أخي سيدي عبد الكريم، فأذكرني مسقط رأسي وبلادي، ثم ارتحلنا بعد الزوال من بدر، ونزلنا دور الخبت قرب السيل الأول الذي بالبزوة في وسط الليل، ووجدنا البزوة مخصبة كأنها بستان. ثم ارتحلنا منه غداء قرب الزوال أيضا، ونزلنا قرية مستيرة قرب الصباح، ووجدنا البطيخ بها أرخص ما يكون حتى اشترينا خمسة بمحلّق.

ثم ارتحلنا منها وصليت المغرب في ثنية هرشا، ونزلنا رابغ آخر الليل، ووجدنا السيول قد اجتاحت أكثر منازل أهله، وذهبت بمزارعهم، وهَدَّت الجانب الذي فيه المنارة من مسجدهم، وأفسد الطريق، وتعبنا في قطع الوادي. ثم ارتحلنا منه، وغوى أهل الرفقة عن الطريق وهدياً من الليل في الرمال التي بينه وبين قديد، ونزلنا آخر الليل عند السيل الذي هناك، ووجدنا به قهوة وقوماً يبيعون العلف والحبحب، ثم ارتحلنا منه ومررنا بقديد، ونزلنا خليصاً في أعلى الوادي قريباً من العين آخر الليل، ثم ارتحلنا ومررنا بعسفان وسط الليل، وعندما مررنا بالثنية التي نهبط منه على عسفان، تنسمنا نسيماً طيباً وعرفاً ذكياً، استنشقه كل من معنا من راكب وراجل، وقلنا لمن معنا من العرب: ما هذا الشذا؟ فقالوا: عرف الخزامى، فإن منبتها في هذا المحل كثير. فسألت أحداً منهم وناولني ضغثاً[1] منها، فإذا هو نبت له زهر ذو عرف ذكي، من أذكى مشموم شممناه في تلك البلاد. ونزلنا آخر الليل بمحل يُسَمَّى برقة، دون السيل الذي هناك، فيه رمال ذات أشجار، بين تلك الرمال تلاع تمرُّ بها السيول، فيها مزارع ومقاثي كثيرة، تجلب منها إلى مكة وإلى جدة ومُر الظهران، وتسوقنا العرب هناك بالحبحب الكثير الحلو الفاخر.

وعند قرية عسفان فارقنا من الربع، وهو القافلة بلغتهم، من أراد الذهاب إلى جدة، فعدلوا يمينا، ودخلوا في إحدى تلك الشعاب التي على يمين القرية، ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مرّ الظهران آخر الليل. ثم ارتحلنا منه بعدما زالت الشمس،

---

[1] الضغث: كل ما ملأ الكف من النبات: لسان العرب: ضغث.

ودخلنا مكّة المشرفة بعد ما ذهب ثلث الليل، وكنا حرصنا على دخولها نهاراً، فأبى من معنا من العرب، لأنهم كانوا يخافون من أخذ الأمير إبلهم يحملها إلى المدينة، فإنا وجدنا ولده في طائفة من العسكر بذي طوى، وقد أخرج مضاربه وخيامه إلى هناك برسم السفر إلى ناحية المدينة. فأخر العرب بنا حتى دخلنا ليلاً بعدما نام أكثر الناس ليلة الأحد التاسع والعشرين من شعبان، وأنخنا في سوق باب إبراهيم بالفسحة التي أمام رباط الموفق الذي هو مُعَدٌّ للمغاربة وطرحنا أمتعتنا هناك، وذهب العرب بإبلهم من ساعتهم، ودخلت المسجد، وطفت بالبيت، وسعيت بين المروتين، ثم حملنا أمتعتنا إلى دار نزلنا بها وراء سوق الشامي من ناحية الباب الذي يلي دار الندوة قريباً من جبل قعيقعان. فلما أصبحنا ذهبنا إلى المسجد وصلينا الصبح، وطفنا بالبيت، ولقيت شيخنا أبا مهدي عيسى الثعالبي حول البيت وسَلَّمتُ عليه.

لطيفة:

لما نزلنا من المحلات وجدنا السيل قد أفسد الطرق في الحجون وفي أعلى مكة، وذلك أنّه جاء سيل عظيم أظن أنهم أخبرونا أن ذلك يوم الثلاثاء العاشر من شعبان، أو يوم الأحد الثامن، لا أدري أيهما، فخرب غالب أسواق مكة، وهَدَّ دُوراً كثيرة، وأتلف أموالاً عظيمة، ومات فيه أناس، وهدم دار بعض أرباب الدولة، وذهب منها بنقد كثير على ما قالوا، ودخل المسجد الحرام، وكان أكثر دخوله من باب الصفا والأبواب الموالية له التي تلي دار الإمارة، وذلك أن السيل المنحدر من أعلى مكة لما قابل دار الإمارة لقيه سيل آخر مثله في العظمة نازل من الوادي الذي وراء جبل الحزورة، وخرج قريباً من دار الإمارة، فالتقى السيلان هنالك وتصادما، وحصر كل منهما الآخر، فانكفأ الماء راجعا وقد غفل الناس عن إغلاق الأبواب، فدخل المسجد حتى امتلأ المسجد كله، وارتفع الماء فيه إلى أن ذهب بقناديل المطاف كلها، وما في المسجد من ذواريق وبسط، وارتفع على قبة المقام وعلى سطح زمزم الأدنى، وارتفع في البيت سبعة عشر شبراً على ما قال لي من شبر ذلك، وبلغ حلق الباب وملأ كل البيت وخزانة في المسجد، وكان ذلك كله على ما زعموا في مقدار ساعة زمانية أو أقل.

أخبرني صاحبنا الحاج أحمد العجين الطرابلسي، وهو عندي ثقة، أنه كان في المقام بعد صلاة الظهر وأخذ المصحف يقرأ، فقرأ عشرة أحزاب بعد صلاة الظهر، فتكلم الرعد وأرخت السماء عزاليها، وانهمر المطر كأفواه القِرَب، فما جاء وقت العصر حتى امتلأ المسجد ماء، وأقلع المطر، و لم يقدر أحد على الوصول إلى البيت بقية ذلك اليوم والليل كله وفي الغد إلى الضحى، و لم يهتد أحد من الناس لموضع البلاليع التي في المسجد المعدة لخروج الماء، حتى جاء السلطان زيد بنفسه ودَلَّهم على أماكنها، فغاص الناس إلى محالها حتى فتحوها، وخار الماء ونقص، وطاف بعض الناس بالبيت عوماً ممن يُحسن السباحة، وكان ذلك أمراً مهولاً لم يعهد الناس مثله منذ زمان. وقد أخبرني من شاهد السيل الذي سجدت لله فيه الكعبة ووقع معظمها سنة تسع وثلاثين وألف بأنه لم يبلغ ما بلغ هذا السيل ولكن الله سلم فيه البيت لوثاقة البنيان وكونه قريب العهد، إلا أنه زلزل الرخام الذي فرشت به من داخل وحركه حركة باينت بعضه من بعض، فلما غاض الماء بقي المسجد كله ممتلئاً تراباً وطيناً، و لم يمكن الناس الصلاة فيه ولا الطواف إلا بمشقة، وأمر السلطان بإغلاق الحوانيت، واجتمع أهل مكة كلهم واجتهدوا في إخراج ما أمكن من التراب والأحجار والطين، وعمل فيه الناس كافة حتى السلطان بنفسه وأولاده وأقاربه، وعندما يبست الأرض بعض اليبس أمر السلطان بحرثها بالبقر ليتمكن الناس من رفعها، فحرثوها، فحرثوا فيها على ما قيل بثمانين من البقر، وعمل كافة الناس في ذلك أربعة أيام من غير أجر إلا على الله احتساباً، ثم بعد ذلك قدم نائب جدة أغا سليمان فعينوا لذلك من يقوم به، وأخرجوا لذلك مالاً جسيماً، وكان من لطف الله المقارن لقدره أن بعث السلطان الخاقان الأعظم في هذه السنة مائة ألف دينار ذهباً على ما قالوا لتجديد ما يحتاج إلى التجديد في معالم الحرمين، وكان المقدم لذلك نائب جدة، فصرفت جملة من ذلك المال في تنظيف المسجد والمسعى وما احتيج إلى التنظيف من مشارب الماء التي ملأها السيل، وكان يخدم في المسجد كل يوم ما يقرب من مائة وخمسين رجلاً بالكراء، وأدركنا المسجد لم ينظف منه إلا المطاف وأماكن قليلة حوله، فأخرجوا التراب حتى خلصوا إلى الحصباء التي فرش بها المسجد فوجدوها قد اختلطت بالحمأة، ورسبت فيها وصارت كالأرض الصلبة التي لم تحفر قط، فأخذوا يحفرونها، وكان من لطيف احتيالهم المغني عن تكلف نقل حصباء أخرى من خارج البلد أن اتخذوا غرابيل عديدة من حلفاء أو غيرها من نبات الأرض واسعة العيون، فكان الذين يخدمون

ثلاثة طوائف؛ طائفة تحفر، وأخرى تغربل ما حفرت تلك، والثالثة تلقي التراب المنخول خارج الأبواب ويتركون الحصباء مكانها، فصاروا لا يمرون بموضع إلا بلغ النهاية في النظافة كأنه لم يمر به أذى ولا تعلق به قذى، وينتقلون من مكان إلى مكان في المسجد حتى نظف كله وحصب كما كان أولاً من غير نقل حصباء من خارج ولا إخراج شيء من حصبائه، ودام العمل على ذلك إلى انتهاء رمضان وأكثر شوال، وفعلوا مثل ذلك بما بين المروتين، وأزيل منها ما فيها من الأحجار، وكان الناس قبل تنقيته يلقون منه أذى سيما من كان يسعى بالليل، واجتمعت من التراب المخرج من المسجد تلول وآكام عظيمة على أبوابه بقيت كذلك حتى أدركها الحاج وشاهدوا آثار قدرة الله وآثار همم الملوك المعتنين بتعظيم شعائر الله، وعندما فرغوا من تنظيف المسجد والمسعى أخذوا في تجديد الصباغات الرائقة والنقوش الرفيعة التي محق السيل أثرها من المقام وقبة زمزم وقباب مقامات الأئمة وغير ذلك على أرفع مما كان، وزيدت فيه أشياء عجيبة، وصبغت أعمدة الحديد الدائرة بالمطاف كلها بصبغ أحمر قاني مصقولة، ووضع على كل عمود هلال مذهب أبلغ تذهيب، وزيد في مصابيح المسجد والمسعى ثلاثمائة مصباح، وكانت قبل ذلك ستمائة وصارت تسعمائة، وكان بين كل عمودين من أعمدة المطاف، وهي نحو الثلاثين، سبعة مصابيح من زجاج صافي واسع، فإذا أوقدت بليل وأزهر نورها ولاقى إشراقها حمرة الأعمدة وبريق الأهلة المذهبة وبياض رخام المطاف وسواد برقع البيت، كان لذلك منظر رائق وجمال فائق، مع المهابة الربانية والجلالة الإلهية التي كسبها ذلك المحل على الدوام وجللها على مرور الأيام. هذا بعض ما يشاهده أهل البصائر الحسية فما بالك بما يكشف الله عنه لبصائر العارفين عند طوافهم ببيته وتقبيلهم الحجر الركن الذي هو يمين الله في الأرض مما وقعت الإشارة إليه بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنا نتراءى الله في ذلك المكان، وبما جاء به الأمر من قوله، عليه السلام، فيما بين زمزم والمقام: هنا تسكب العبرات[1].

ومما أتلفه هذا السيل خزانة من الكتب لشيخنا سيدي أبي مهدي عيسى الثعالبي، كانت بالمسجد على وجه الأرض، ولها باب مفتوح إلى المسجد فيما بين باب حزورة وباب إبراهيم، وكان يجلس فيها أحيانا، وهي مأواه قبل أن يتأهل،

[1] نوادر الأصول في أحاديث الرسول 20:2.

فلما سافر إلى المدينة ترك فيها بعض كتبه، وكانت مفاتحها بيد رجل من أهل إفريقية من أصحابه كان يأوي إليها، فطرق حادث السيل وغفل عن تنحية الكتب ظنا منه كغيره أن الأمر لا يبلغ إلى ما بلغ، حتى أتى الماء عليها كلها و لم يسلم منها شيء، وكانت نحو الثمانين سفراً، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها. ما كثر أسفه عليها بعد ذلك، فأمر بها، فحفرت لها حفرة في الأرض ودفنت فيها، كان منها أجزاء من المدونة الكبرى[1] التي هي أم الدواوين الفقهية و لم يسلم منها شيء، وكثر تأسفي على عدم رؤيتها لغرابتها، ولكون أكابر الفقهاء من قبل هذه القرون لم يظفروا منها بشيء، وأظن أنه أخبرني أنه وجد المذكورة في خزانة رباط الموفق وأنها كانت بيد الإمام الحطاب[2]. ومنها عيون الأدلة لابن القصار[3]، وكان يثني عليه كثيراً في بسط أدلة المذهب والانتصار له والرد على المخالفين، مع التحقيق التام، إلى غير ذلك من الكتب منها ما هو ملكه، ومنها ما هو من كتب الوقف.

ولقد أعقب هذا السيل بمكة ونواحيها خصبا كثيراً، ورخصت الأسعار، وغزرت المياه وعذبت فوق العادة، حتى زمزم قد زال ما فيها من الطعم، وغزر ماؤها وارتفع حتى كاد يتناول باليد، وانكسرت سورة[4] الحر في هذه السنة بمكة وبشعابها وبالمسجد وأفنيته لنداوة الأرض، ولقد أنعم الله علينا ببيت تحت مسكن شيخنا أبي مهدي بابه إلى المسجد كُنَّا نأوي إليه، ووجدنا أثر الماء قد كاد يبلغ منه إلى السقف، وبقيت أرضه وجدراته ندية، فكنا إذا اشتد وهج الحر ودخلناه وأغلقنا بابه علينا لا نحس بشيء من وهج الحر، ويغشانا فيه نسيم بارد، وكنا نحمد الله على ذلك كثيرا، وكان انتقالنا إلى هذا البيت من المسكن الذي سكنا فيه أولا لبعده من المسجد، فشق علينا التردد منه إلى المسجد مع شدة الحر، فأعطانا الشيخ أبو مهدي البيت الذي فيه كتب الوقف برباط الموفق، جعلنا فيه أمتعتنا وأخذنا بيتا آخر بإزائه للطبخ، وبالنهار نأوي إلى هذا البيت الذي بالمسجد حتى

---

(1) يقصد مدونة سحنون (ت 240 هـ) في الفقه، وقد طبعت مرتين بمصر: تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص: 106.

(2) محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني، الشهير بالحطاب المالكي الأنصاري، له شرح على مختصر خليل، توفي سنة 953 هـ: لقط الفرائد، ص: 299.

(3) علي بن أحمد البغدادي، ابن القصار، فقيه أصولي،. من مصنفاته: عيون الأدلة وإيضاح الملة، توفي سنة 398 هـ: معجم المؤلفين 12:7.

(4) في ط: صولة.

قربت أيام الموسم ورجع صاحب هذا البيت إليه، وأعطانا صاحبنا الشيخ محمد الغدامسي بيتا له حول باب الصفا وجدنا ماء ولا كصدى ومرعى ولا كالسعدان[1]، وأقمنا فيه إلى أن خرجنا من مكة قافلين، وهذه أماكن استيطاننا بمكة مدة إقامتنا بها بعدما رمنا أماكن أخر فلم توافقنا؛ منها بيت صاحبنا الشيخ عبد الرحمن أخي الملا إبراهيم، وكان برباط السلطان قايت باي المشرف على الصفا، وهو رباط مليح واسع فيه بيوت كثيرة جيدة جامعة لمرافق السكنى، في كل بيت منه خابية للماء ومكان للخلاء والوضوء. وكان بيت صاحبنا في أعلاه، وطلب منا السكنى معه، ورغب في ذلك، إلا أنا آثرنا الانفراد وكرهنا التضييق عليه؛ إذ ليس له مترل سواه، فجزاه الله خيراً وأجزل له أجراً. ومنها بيت لبعض أقارب خليلنا حسن العجيمي كان كتب إليه من المدينة فمكننا من مفتاحه، وكان في ناحية باب علي الموالي للمسعى، ولم يوافقنا أيضا لقربه من المحكمة التي يجلس فيها القاضي للحكومة، وليس بينهما إلا شباك، فشق ذلك علي، وخرجنا منه.

[1] أمثال العرب، ص: 127.

ذكر شهود رمضان بمكة المعظمة[1]
زادها الله تعظيماً وتشريفاً[2] (آمين)[3]

ولما دخل شهر رمضان أخذ الناس بالجد، وشَمّروا عن ساق الاجتهاد في العبادة، ونصبت الأسواق طول الليل كما هو شأن أهل المشرق في ليالي رمضان، فلا تكاد ترى بالمسجد ليلاً إلا طائفا أو تالياً أو مصلياً، وأخذ الناس من أهل مكة والمجاورين في الاعتمار، سيما ليلة الجمعة، فلا تكاد الطريق تنقطع طول الليل من التنعيم إلى مكة ركباناً ومشاة رجالاً ونساء وصبياناً وعبيداً وإماء، وكنت ممن أخذ بحظ من ذلك، والمِنّة لله، فكنت أعتمر كل ليلة اثنين وجمعة إلى انتصاف الشهر، فكنت أعتمر كل ليلة إلى ليلة أحد وعشرين فدخلت إلى الاعتكاف إلى آخر الشهر، والمنة لله وحده، وهذا من التحدث بالنعم، نسأل الله أن يخلص الأعمال منه. وجعلت منها عمرا للوالدين والإخوان والأصحاب والمشايخ، نفعنا الله وإياهم بذلك، و لم أحتفل بما هو مشهور المذهب من كراهة تكرار العمرة في السنة الواحدة، بل بذلت جهدي في ذلك اقتداء بمذهب المخالف وبمن قال ذلك إنما يكره للمقيم، وأما المسافر فليستكثر من الخير ما استطاع، وقد قال بعض أهل السلوك من أئمة المالكية: ينبغي لسالك طريق الآخرة أن يقتدي بمذهب الشافعي في أشياء ذكر منها هذه، وصحة الاعتكاف بلا صوم ولو في الحصة ليل أو نهار[4]، لأنه ولو لم يكن لازماً في مذهبنا فلا يدفع كونه قربة لأنه مكث في المسجد بقصد التقرب إلى الله مع التلبس بما تيسر من ذكر وتلاوة وصلاة، وهذا لا ينفي أحد كونه قربة، ولو لم يقل أحد بلزومه، وذكر منها أيضاً ألا يمتنع من الطواف بالبيت وركعتيه في أي وقت شاء من ليل أو نهار لقول النبي صلى الله عليه وسلم: لا

---

[1] ساقط من ط.
[2] في ط: تشريفا وتعظيما.
[3] زيادة من ط.
[4] في ط: يوم أو ليل.

تمنعوا أحداً طاف بهذا البيت أن يصلي في أي وقت شاء من ليل أو نهار[1]، فقد رأى الشافعية ومن وافقهم تخصيص عموم النهي عن الصلاة في الأوقات المكروهة بهذا الحديث وشبهه من كل صلاة لها سبب، وأدلتهم في ذلك في غاية القوة، على أني كنت أتحرج من هذا كثيراً، وإن طفت في وقت النهي أخرت الصلاة على أحد القولين في ذلك لأنه كان يُخيَّل لي أن ذلك إنما يترخص فيه من استغرق غالب أوقاته في الطواف وقصد الاستكثار منه قبل فواته، ولست بذلك المكان وفي الأوقات سوى المنهي عنه غنية لضعيف القوى مثلي.

واجتهد أهل الثروة من أهل مكة، فكان لكل واحد منهم[2] مصباح كبير بين يديه، وخصفة[3] يجلس فيها كل ليلة بالمسجد، ويأتي بنفر يقرؤون عنده في القرآن أجزاء على المناوبة، إلى أن تذهب حصة من الليل، فإن كان قارئاً قرأ معهم، وإلا استمع، ويسقيهم من الأشربة اللذيذة على قدر وسعهم، ويطيبهم، ويستعدون لذلك، فترى صحن المسجد على سعته يزهر مصابيح، وعلى كل مصباح نفر يقرؤون، فإذا كان ليلة الختم احتفل لها أكثر، حتى تكون ليلة العيد، فيعطي كل واحد منهم لمن يقرأ عنده كسوة ودراهم، على قدر حاله ومروءته، فينتفع بذلك غايةً ضعفة المغاربة المجاورين ممن كان يستظهر القرآن، سيما من كان حَسُن الصوت منهم. ومن كانت فيه صرامة يقرأ في عدة أماكن، ويأخذ من كل مكان ما شُورِط عليه.

وبولغ في تنظيف مقامات الأئمة الأربعة، وترتب في كل مقام إمام يصلي بصلاته جماعة كثيرة من أهل مذهبه، ولهم مسمع. وأعظمهم أئمة، وأكثرهم جعجعة وأصواتاً مرتفعة الحنفية، فيفصلون بين كل تسليمتين بتحميدات وتهليلات وتسبيحات يرفع بها جماعة كثيرة من المؤذنين أصواتهم فيرتج لذلك ما حولهم من المسجد.

فإذا كان ليلة ختم كل واحد من أئمة المقامات احتفل لذلك أتمَّ احتفال، وزيد في مصابيح المقام وفرشه وطيبه، وأُتي بشموع كبار هائلة، ورفعت على حسك عظيمة رائقة، ويحضر الختم غالب من في المسجد من الناس، ويخلع على

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي 2: 461.

[2] ف ط: منهما.

[3] الخصفة: الثوب الغليظ جدا: تاج العروس: خصف.

الإمام بعد الفراغ من الصلاة خلعة من عند السلطان، ويعطى فتوحاً[1] زائداً على الخلعة، كل على قدر حاله.

وأول من يختم الشافعي، وهو إمام مقام إبراهيم عليه السلام، ويختم ليلة إحدى وعشرين، والمالكي ليلة خمس وعشرين، والحنفي ليلة سبع وعشرين. وجدّ الناس في أنواع العبادات والطاعات، وقد رأيت من المجاورين من يعتمر كل ليلة. وفي ليلة خمس وعشرين يخرج غالب الناس للعمرة، من اعتمر قبل ذلك ومن لم يعتمر، واعتمر شيخنا أبو مهدي في تلك الليلة وكان لا يعتمر قبل ذلك، وكنت إذا تعجبت من احتهاد الناس ونشاطهم للعبادة، يقول لي: إن هذا تأييد إلهي لسكان الحرم ببركة هذا الشهر، ويقول لي: إذا خرج هذا الشهر الكريم لا ترى في الناس حتى عشر نشاطهم، وكان الأمر كما قال، فما هو إلا أن جاء يوم العيد خف المسجد من سكانه وعُماره، وفترت العزائم حتى أنكرت نفسي في أنواع القُرُبات من طواف وغيره، فما هي التي أعهد.

فتحت الكعبة مرتين في شهر رمضان أول جمعة وآخرها، ومنّ الله بدخولها على أحسن حال في كلا المرتين، وصليت فيها ما شئت مع سكون وتؤدة ووقار، وفتحت مرتين آخرين بعد ذلك؛ أحدهما الفتح المعتاد يوم كنس الكعبة في الثالث عشر من ذي القعدة، وتغسل فيه الكعبة وتطيب وترفع كسوتها إلى فوق حتى لا تنالها الأيدي، ويسميه العوام إحرام الكعبة. وفتحت قبل ذلك آخر شوال لإصلاح رخام أرض البيت الذي حركه السيل عند دخوله، و لم يدخل في هذا الفتح إلا أفراد من الناس، وكنت ممن دخل في هذا الفتح والذي بعده بفضل الله تعالى، وقد فتحت قبل ذلك في شعبان فتحاً عاماً أيضاً و لم ندركه، والعادة أن كل ما فتحت الكعبة يوماً للرجال فتحت في غده لدخول النساء، ولا يقرب ساحة البيت يوم دخول النساء أحد من الرجال كفعل النساء يوم دخول الرجال. ومن اضطر لطواف يوم دخول النساء لأجل عمرة طاف من وراء الأعمدة والقباب كلها، فتلحقهم مشقة في ذلك، ويفتح البيت عادة سبع مرات في السنة الأولى يوم النحر لتعليق الكسوة عند طلوع الشمس، ولا يدخل في ذلك اليوم إلا من زاحم وتعلق بالقرب، والثانية يوم عاشوراء، والثالثة يوم المولد النبوي في ربيع، والرابعة في شعبان، والخامسة والسادسة في رمضان، والسابعة في ذي القعدة، وقد مَنَّ الله

[1] الفتوح: الهبة والهدية، وغالبا ما تقترن بالمجال الديني: عامية مغربية.

بدخولها خمس مرات في هذه السنة. ويتمادى فتحها في غير يوم النحر من حل النافلة إلى قرب الزوال، ولما كان يوم الأربعاء، يوم الفطر، بَكّر الناس لأخذ مواضعهم للصلاة في المسجد، وبَكَّرت وجلست قرب المنبر لاستماع الخطبة، فلم يأتِ الإمام حتى ارتفعت الشمس وبدأ الحر، وخطب خطبة بليغة وأطالها.

وقَدِم مع الإمام جماعة من المؤذّنين وأكابر الناس معهم ألوية، وعلى المنبر ألوية أخر، وفرِش المنبر كله بالديباج، وجلس المؤذنون تحته إلى باب المنبر، فلما وصل إلى ذكر السلطان والدعاء إليه، قام إليه أحد أصحاب الأمير وخلع عليه الخلعة وهو يخطب، وما هو إلا أن يخلع عليه فيذهب الذين معه، وتتابع الناس أفواجاً حتى لا يكاد يبقى مع الخطيب إلا قليل من الناس، ولا ينتظرون فراغ الخطبة ولا دعاء الإمام، وكأن قصدهم إنما هو مشاهدة الخلع على الخطيب، وتلك عادة مذمومة.

ولما انقبض الجمع ذهب كل أحد إلى مترله، ومن كان له صديقٌ حميم أو قريبٌ أو وليُ نعمةٍ ذهب للسلام عليه في مجلسه ولو لقيه في المسجد أو جلس معه لا يكتفي بذلك حتى يأتيه إلى مترله.

لطيفة:

لما فرغ الإمام من الخطبة وطفت بالبيت ذهبت للسلام على شيخنا أبي مهدي في مترله، فوجدت الناس يدخلون عليه أفواجاً للتهنئة بالعيد، وكنت ترصدت قبل ذلك مجيء يوم العيد لسماع الحديث المسلسل بالسماع في يوم عيد ما أمكنني ذلك في هذا اليوم، وحدثني به يوم الأربعاء يوم فطر بمترله بباب حزورة، أحد أبواب المسجد الحرام. فقال: حدثني شيخنا أبو إسحاق إبراهيم الميموني بمترله بالقاهرة يوم عيد الفطر بسنده إلى السيوطي، قال الجلال السيوطي: أخبرني الحافظ تقي الدين أبو الفضل محمد بن محمد فهر[1] الهاشمي سماعاً عليه بالمسجد الحرام في يوم عيد الفطر بين الصلاة والخطبة، قال: أخبرنا الحافظ أبو حامد محمد بن عبد الله بن ظهيرة سماعاً عليه في يوم عيد الفطر، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المعطي سماعاً في يوم عيد الفطر، قال: أخبرنا

[1] في ط: فهنا.

الحافظ أبو عمرو عثمان بن محمد التوزري سماعا عليه في يوم عيد الفطر، قال: أخبرنا أبو الحسن علي ابن هبة الله الجميزي سماعاً في يوم عيد، قال: أخبرنا أبو محمد عبيد الله بن علي الأنبوسي ببغداد في يوم عيد الأضحى، وأخبرني عاليا بدرجتين أبو عبد الله بن مقبل الحنفي عن محمد بن أحمد المقدسي عن ابن البخاري عن أبي حفص بن طبرزد قال: أخبرني أبو المواهب بن ملوك سماعا في يوم عيد قالا: أنبأنا القاضي أبو الطيب الطبري في يوم عيد، قال: أخبرنا أبو أحمد بن الغطريف بجرجان في يوم عيد، قال: أخبرنا ابن ذاهب الوراق في يوم عيد الأضحى قال: حدثني وكيع بن الجراح في يوم عيد، قال: حدثنا سفيان الثوري في يوم عيد، قال: حدثنا ابن جريج في يوم عيد، قال: حَدَّثَنا عطاء بن أبي رباح في يوم عيد، قال: حدثنا ابن عباس في يوم عيد قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عيد فطر، أو أضحى، فلما فرغ من الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: أيها الناس قد أصبتم خيراً، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف، ومن أحب أن يقيم حتى يشهد الخطبة فليقم[1]. غريب بهذا السياق، هـ كلام السيوطي. وكتبت السند من خط شيخنا.

وقد اتصل لنا سماع هذا الحديث بحمد الله بوصفه المشروط في أشرف الأماكن؛ حرم مكة شرفها الله، والذي يغلب على ظني أنّي قد حضرت سماع الشيخ الثعالبي من الشيخ الميموني لهذا الحديث في يوم عيد الفطر بعد الصلاة بمترله المجاور للأزهر بالقاهرة سنة أربع وستين، إلا أني لما لم أحقق السماع آثرت روايته عن الثعالبي عنه بشرطه، وإن كانت إجازة الشيخ الميموني لي مرتين شاملة لذلك، إلا أن السماع لا تعادله الإجازة وإن تعددت، وأما الواسطتان اللتان بين الميموني والسيوطي فلا أعينهما على خصوص هذا الحديث، وأما في غيره فمعروفتان في ترجمته من هذه الرحلة وفي رسالة تحفة الأخلاء[2]، وفي رسالة اقتفاء الأثر[3]. وأظن أني سألت الشيخ الثعالبي أيضاً هل للميموني سند خاص بهذا الحديث بشرطه سوى عموم إجازات مشايخه فتوقف، وحيث كان القصد التبرك فهذا القدر

(1) لسان الميزان 25:2.
(2) إتحاف الأخلاء، ص: 159.
(3) اقتفاء الأثر، ص: 123.

يكفي. وقد بعث شيخنا سيدي عبد الرحمن المكناسي[1] من الطائف لأصحابه بمكة يوصيهم بتعهدنا يوم العيد بطعام، فأتانا أصحابه بعد الصلاة بطعام فاخر إلى منزلنا برباط الموفق، وبعث لنا بكسوة جزاه الله خيرا.

---

[1] عبد الرحمن بن أحمد بن محمد المكناسي، فقيه متصوف، ولد بمكناس من أرض المغرب سنة 1023هـ، رحل إلى مصر والشام، نزل بمكة واتخذها مقاما، توفي سنة 1085 هـ: خلاصة الأثر 346:2.

ذكر الأماكن التي ينبغي أن تزار بمكة (المعظمة)[1] ونواحيها

فمنها غار جبل ثور الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، رضي الله، عنه في هجرتهما، وصرح القرآن بذكره في قوله تعالى: (ثاني اثنين إذ هما في الغار)[2]، خرجت لزيارته يوم الأربعاء الثامن من شوال مع جماعة من أصحابنا المجاورين.

وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكّة، إذا مَرَّ السالك إليه فيما بين الخَنْدمة[3] وأبي قبيس، وهو وراءهما، وأما من مرّ بأسفل مكة حتى يدور إليه فأضعاف ذلك، وعليها يسلك من مرّ راكباً مع بُعدها، لتوعر القريبة. وخرجنا من المسجد بعد صلاة الصبح وسلكنا الطريق القريبة فما وصلنا إلى سفحه حتى ارتفع النهار ومتع، فأخذنا في الصعود إليه، وهو جبل منقطع عن الجبال التي حوله، ذاهب في الهواء، مشرف على كل ما حوله من الجبال، مكسوّ جلالة ومهابة، صعب المرتقى غاية، ما رأيت مثله فيما سلكته من الجبال على كثرتها، وفيه أماكن ما كنا نمر بها إلا حبواً على اليدين والرجلين جميعاً، وارتفاعه في السماء نحو من ثلاثة أميال أُخر. والغار في أعلاه من الناحية الموالية لمكة. فما بلغنا أعلاه إلا بعد جهد جهيد، واستراحة مراراً متعددة، وكان ذلك في وقت الحرّ وقد حملنا معنا ماء، وتركنا بعضه تحت شجرة بأصل الجبل، اتقاء لمعرّة العطش بعد الرجوع. فلما وصلنا إلى محل الغار وجدناه من عجائب آثار قدرة الله، وله بابان، الأصلي الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من ناحية الغرب وهو صغير جداً ملاصق بأرض الغار، لقد خُيِّل إليّ عندما رأيتُه أن أحداً لا يمكنه الدخول منه لضيقه، وهو شقّ صغير بين صخرتين عرضه ثلاثة أشبار، وارتفاعه أزيد من شبر، فأيست من

---

(1) زيادة من ط.
(2) التوبة: 40.
(3) الخندمة: اسم جبل بمكة: معجم ما استعجم 512:2.

الدخول منه، حتى رأيت من هو أعظم مني جثة قد دخل منه، فتحاملت ودخلت من ذلك الشق مع مشقة وترتيب أعضاء من تقديم إحدى اليدين إلى المنكـــب، واتباع الرأس لها، وإرسال اليد الأخرى مع الجنب.

ولقد طال تعجّبي من معرفة الناس بكونه غاراً متسعاً من داخل، فهو إن لم يكن معروفاً عندهم قبل ذلك معهوداً فالأقرب أنه بالوحي، أو إلهـــام مـــن الله لرسوله، لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفاً متسعاً من داخل، إذ هو صخرة واحدة، منقطعة عن غيرها، منكفية على أخرى، منقورة في وســـطها قدر الإنسان ارتفاعاً، وسعة نحو العشرة أذرع، ولولا عظم الصخرة وتواتر الخبر بأنه كذلك من قديم الدهر لتوهم أنها صخرة نقرت في وسطها، ثم قلبت علـــى أخرى بصنع آدمي.

وأما الباب الآخر فإنه إلى ناحية المشرق، وهو واسع يدخل منه الإنـــسان ويخرج كما شاء. وزعموا أنه مفتوح بصنع الآدميين، وأن سبب فتحه أن شخصاً تكلف الدخول فلم يقدر على الخروج وكرهوا تغيير الباب الأصـــلي بتوســـعة، ففتحوا هذا الباب من الناحية الأخرى لخروج ذلك الشخص، ويدخل منه من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلي. وبإزاء هذا الباب المفتوح مصطبة محـــوط عليها بأحجار شبه مسجد مفروش برمل، والناس يصلّون فيه ويصلّون أيـــضاً في داخل الغار.

وفوق الغار في قنّة الجبل غار آخر كبير واسع، تحت صخرة عظيمة مفتوح من جوانبه محوط عليه بأحجار شبه مسجد آخر، يجلس الناس فيه، ولا أدري ما أصله، وفيه منظر رائق يشرف منه الإنسان على بلاد كثيرة، و لم أرَ في تلك الناحية جبلاً أعلى منه إلا جبل أكرى[1] الذي يصعد منه إلى الطائف.

وقد ذكر بعض من ألّف في أخبار مكّة وجبالها أن من زار هذا الغار وكان به حزن آلمه وسأل الله إذهابه، يذهبه عنه ولا يحزن بعد ذلك، وكأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى: (إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)[2] و لم أطلع على هـــذا إلا بعد رجوعنا منه، و لم يمكني الرجوع إليه مرة أخرى بهذه النية.

---

[1] يقصد جبل كرا.
[2] التوبة: 40.

وبقينا هنالك في أعلى الجبل مستظلين بظل الغار الذي ذكرنا هناك حتى زالت الشمس بساعة، وصلينا هنالك الظهر وانحدرنا، وقاسينا في الهبوط مثل الطلوع أو أشد، ومررنا على الماء الذي خلفناه أسفل فشربنا، ولولا هو لأثر فينا العطش غاية، وما وصلنا إلى مكّة إلا مع أذان المغرب، وقد كَلَّتْ منا القُوى، وضعفت الأبدان، إلا أنّا مع ذلك كنا فرحين بما آتانا الله من فضله مستبشرين[1]. والله يتقبل ما تفضل به علينا، فهو المنعم المتفضل الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات.

ومنها مدينة جدة[2]، ولما كانت لي رغبة قوية في معرفة أرض الحجاز ورؤية ما بها من البلاد غير الحرمين، عزمت على الوصول إلى مدينتها لزيارتها وزيارة من بها من المساجد والمشاهد كالمحل الذي يقال إن فيه قبر أمنا حواء. وممن جزم بأن قبر أم البشر حواء بجدة ابن خلكان[3] في ترجمة ابن قلاقس[4] الشاعر وذكره أيضا في ترجمة أخرى. ولأنها في نفسها من أعظم البقاع فقد ورد في فضلها وفضل المقام بها والرباط فيها عدة آثار نقلها الإخباريون، فخرجت إلى زيارتها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة العاشر من شوال مع طائفة من أصحابنا المجاورين، واكترى لي شيخنا أبو مهدي حماراً لركوبي، ولم أرَ أسرع مشياً من حمير الحجاز ولا أوطأ مركباً، ولا أقل تَعَباً مع السرعة المفرطة في المشي، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي، فلا تكاد تتبين لي حركة شيء منها، مع أن مركوبي ليس من أجاودها. فلقد أُخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكّة يصلّي المغرب بجدّة فيركب عليه ويصَلّي الصبح بمكّة، وهي مسافة القصر تحقيقاً، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها، فيبلغ الحمار مائة دينار ذهباً. وقد رأيت حماراً عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجبيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة، تقبحه العين، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن.

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: (فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون): آل عمران: 170.

[2] جدة: بلدة على ساحل بحر اليمن وهي فرضة مكة بينها وبين مكة ثلاث ليال: معجم البلدان: جدة.

[3] وفيات الأعيان 5:389.

[4] ابن قلاقس، أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف اللخمي الإسكندري، الشاعر المشهور، دخل اليمن ومدح الكبار، مات شابا سنة 567 هـ: سير أعلام النبلاء 20:546. وفيات الأعيان 5:385.

ولما خرجنا من مكة عن الثنية السفلى إلى مناخ الحجاج أسفل ذي طوى عدلنا ذات اليسار قليلاً، وسلكنا في شعاب هناك وعقاب ليست بالوعرة. وبين مكة وجدة ثمانية قهاوي ينزل المارون في كل قهوة فيستريحون ويشربون القهوة أو الماء، ويشترون علفا للدواب، فأولها قهوة في مقابلة التنعيم[1] فيما أظن في شعب مررنا عليها قرب المغرب، والثانية في منفسح الوادي الذي يخرج منه إلى رمال الحديبية، والثالثة عند بئر الحديبية عند منتهى الحرم، ومنها يحرم الناس بالعمرة، من شاء منهم. وحول البئر مسجد معطل قد انهدم أكثره، وقد طلبنا من أهل القهوة حبلاً ودلواً حتى استقينا منها وشربنا من مائها للبركة، لما ورد في الصحيح أن النبي صلّى الله عليه وسلّم برك عليها حتى غزر ماؤها أو تفل فيها[2]. والرابعة: في قرية تسمى حدّة قريبة من شفير الوادي الكبير الذي يأتي أصله من مَرِّ الظهران، وفيه أثل وعشب كثير، ومزارع إذا جاء السيل. ثم الخامسة: حول مزرعة هناك كبيرة، يجلب منها بطيخ كثير إلى مكة مشهور عندهم بالجودة. والسادسة: عندما يريد الذاهب الصعود إلى جبال يمر الطريق بوسطها. والسابعة: عند منقطع الجبال حيث ينحدر الذاهب إلى مكة. والثامنة: جدة. وقد بلغنا إليها بعدما ارتفعت الشمس جداً، ومتع النهار، واشتدَّ الحرّ. وهي مدينة كبيرة ممتدَّة مع ساحل البحر نحو ميلين، في كلا طرفيها حصار[3] متقن البناء، فيه مدافع كثيرة، وعسكره لا يفارقه.

وقد رأيت في الحصار الغربي منها ما يستغرب وصفه من المدافع طولاً وكبراً، ورأيت فيها مدفعاً له خمسة أفواه، بصنعة غريبة. وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار، وغالبها معمول بالشريط صنعة عجيبة ليس فيها مسمار، وهي مع ذلك كبيرة المقدار، متباينة الأقطار، واسعة الأنحاء تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن.

وأسواق البلد ممتدَّة مع جانب البحر، وغالبها أخصاص واسعة، مفتحة إلى البحر وإلى ناحية البلد، فيها قهاوي ومجالس حسنة، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها، ورشها بالماء، وفيها جلوس غالب أهل البلد، وقد اتخذوا فيها أسِرَّة كثيرة، منسوجة بشريط المَسَدِ وبصنعة محكمة. وكان نزولنا بوكالة هناك قريبة

---

[1] التنعيم: موضع بين مر وسرف، بينه وبين مكة فرسخان، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة: معجم ما استعجم 321:1.
[2] شرح النووي على صحيح مسلم 13:4.
[3] حصار: حصن.

للمسجد، فإذا كان الليل خرجنا إلى جانب البحر، واكترينا لكل واحد سريراً يرقد عليه بدرهم إلى الصباح.

ومسجدها الكبير من أحفل المساجد، فيه أعمدة من الساج، مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط، طيب عودها، يحسبها من لم يتأملها رخاماً أحمر، أخبرني شيخنا أبو مهدي أنه يقال: إن أعمدة ذلك المسجد جلبت في صدر الإسلام من كنيسة بأرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون.

وزرنا المحل الذي يقال إن فيه قبر أمنا حواء في مقبرة معلّم عليها بحجارة سود، عند رأس القبر وعند رجليه وفي وسطه، وقد ذرعه بعض أصحابنا فكان قريباً من ثلاث مائة ذراع، والله أعلم بصحة ذلك.

و لم ألق بها من الأفاضل إلا مفتي الشافعية الشيخ عبد القادر، وليس عنده من العلم والرواية ما يرغب في أخذه، وهو رجل حسن الأخلاق جالسته ساعة.

ولقيت أيضاً مفتي الحنفية الشيخ مصطفى، وهو رجل له مشاركة في العلوم، سالك على طريق السادات النقشبندية، (أدرك الشيخ تاج الدين عثمان النقشبندي)[1]، وله خبرة بكلام القوم وأذواقهم، وفيه سخاء ومروءة، دعانا إلى داره، وأطعمنا وسقانا، وحصلت بيني وبينه ألفة ومودة وأخوة في الله. وكتبت له أبياتاً منها:

[رمل]

أُشهدُ اللهَ وأملاكَ السما | وجميعَ الرسْلِ طُراً وكفى
أنني أحببتُ في الله أخي | وخليلي وحبيبي مُصطفى
جمعَ الدين إلى الدنيا معاً | وحوَى من كل خير طرفَا
أسألُ الله وفاءً بالذي | قد عقدنا، فهْو يجزي من وفَى

ومن ينتحل الأدب من أهل جدة، وهو معدود من فضلائها، الشيخ محمد مُخبر، و لم يتيسر لي لقاؤه، وكتبت له بيتين مُوَرِّياً بلقبه، لأنا أقمنا بجدة ثلاثاً، ننتظر سفناً ترد من مصر بأخبار المغرب وهما:

---

[1] ما بين قوسين ساقط من ط.

[طويل]

يـــذكرُني بـــالثغر بـــرْدُ نـــسيمهِ بـــلادِي، فعيـــشي نـــاعمٌ متكـــرر

فقال خليلي: عَلِّلِ النفس واصـــطبرْ عسى فرج يأتي بـــه لـــك مُخْـــبر

ومن نظمه قصيدة في مدح النبي صلّى الله عليه وسلَّم وذكر فيهـــا أعـــلام المدينة المشرفة، نظمها لما قدم المدينة للزيارة في الرجبية، ونحن إذ ذاك بها، وبينما أنا ذات غداة بعد صلاة الصبح جالسٍ في المواجهة لوِردي من الصلاة على النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، إذ سمعت شخصاً ينشد بين يديِ النبي صلّى الله عليه وسلّم بصوت مطرب قصيدة بائية، فعلمت أنه نفس محب قريب العهد بالدار، فقطـــع عليّ حسن صوته وحلاوة مقاطعه ورونق كلامه تَمَامَ وردي، فاستمعت له حتى فرغ من إنشاده، ثم بعد ذلك سألت عنه فقيل لي: إنه من أصحاب الشيخ محمد مخبر، والقصيدة لشيخه، فبعثت من كتبها من عنده و لم يمكن لقاؤه لضيق الوقت. ولنذكر القصيدة بجملتها تبركا بها إذ أنشدت بين يديه صلى الله عليه وسلم، وهي هذه:

[بسيط]

مَثلْ لعينيك داراً شَـــامَ نَجْـــد قُبَـــا مـــنَ الحريـــر عليـــه حُلـــة وقُبـــا

لو قابلَ الشمس نوراً وهْـــيَ قائلـــة ضُحى أوِ البدرُ في أفْقِ السما وقَبَـــا

وحجرة حَجَّ روحي حِجْرَ كعبتـــها ووقفتِـــي وقفـــةً في بابهـــا أدبـــا

وقبـــةٌ قبـــةُ الجـــوزاءِ تغبطُهـــا وسدرةُ المنتـــهى تعتـــو لهـــا أدبـــا

والكوكبُ الأنـــور الـــدرِّي تمثلـــهُ جهراً، فما قَط عن قلب الُمحب خبَا

وروضةٌ روضةُ الفردوسِ لو نطقـــتْ قالت: بَخٍ لكِ حُزتِ القرب والقربا

لقد شرفتِ بمن جـــاورتِ حـــضرتَه وهْوَ الذي شرَّف الأفلاكَ والحجبـــا

يهْنَ الترابُ الذي قد مَس أخمَـــصهُ منكَ مليا جفانـــا كـــان أو رَطِبـــا

وبقعةٌ ســـجدتْ فيهـــا سَـــواجدهُ لله يـــسجدُ فيـــك وهْـــو مقتربـــا

ومسجدا جر ذيل التيــه مفتخــرا لأن محرابــهُ بــالرفعِ قــد نُــصبا
وفتيــة عمــروهُ بــالقرآن وبالــــ ـــعلمِ الشريف ففاقُوا الأنجُمَ الشهُبَا
ومنبرًا ما ترَى في الكــونِ مــشبهَهُ لأنهُ ورثَ الجــذعَ الــذي انتحبــا
فحــازَ بــالإرث إقــداما تقدمــه شــانا فعــز بمــن شــأوه خطبــا
وصفة الأصــفيا خُــدام حجرتــه وراث سكانها سبحان مــن وهبــا
وخصهم منه قربا حــولَ حــضرته كأنهم حــرس مــن قبــل يحتــسبا
وأســـطوانة أم المـــؤمنين فقـــد صلى إليها الحبيبُ المصطفى وحبــا
وتربـــة للثريـــا دونهـــا رتـــب كذا على العرشِ والكرسي علت رتبــا
عظيمـــة بعظـــيم ضـــم أعظمـــه ترابها وبهــا الــشيخان قــد تُربــا
الصاحبانِ الــصفيان اللــذان همــا هما فكم أحرزا فضلا وكــم وهبــا
أكرِم بها بقعــة كــم لي بهــا ولــه متى أمرغ مــن خــدي بهــا عتبــا
متى أسلم من باب الــسلام علــى خير الأنام وأقضي حق مــن عتبــا
وأذكر معاهدَ أثار الحبيــب عــسى تطيبُ عيشا وهم في ذكرها طربــا
فمبركُ الناقــة المــبروك أســعدها بوطء أقدام طــه بعــد أرض قُبــا
مازال بالذكرِ معمــورا وبالــصلحا والآن آل الجنيد الــسادة النجبــا
ودور أنــصارهِ ودارت بمــسجده كهالــة كلــها للأكــرمين خبــا
واذكر مساجد آيات بهــا نزلــت علــى الــنبي وآبــار لــه وربــا
واذكر مساجد أصحاب وتــابعهم واستقْف آثارهم فيها وكــن أدبــا
فمهبطُ الوحي والتزيل حيث غــدا من قد غدا بالحيــا والنــور منتقبــا
وخير أعمام خــير الرســل ســيدنا العباس ذلك نستسقي بــه الــسحبا

وفيــه بنــت رســول الله صــفوته أم الشريفين جدا في الــورَى وأبــا
والكامل الطفــل إبــراهيم شــافعنا شبيه يحيى وعيسى في الكمال صــبا
وآل بيــت رســول الله كلــهم وولــده ونــساه ثم مــن صــحبا
والتابعون وكم فيــه إمــام هــدى كمالك من لدين الحق قــد ذهبــا
للمذهب الخاص تفضيل المدينة عــن كشف لذا ما احتذا فيها ولا ركبــا
واذكر أبا الشبل ليــث الله ســيدنا حامي الحمى حمزة الضاري إذا وثبــا
أخا الــنبي رضــاعا عمــه نــسبا لذاك شج أبا جهــل وقــال صــبا
وعنده الشهدا سبعون وقد صــدقوا كــل قــضى نحبــه لــه محتــسبا
لله درك يــا أرض المدينــة كــم حزت همّاما يجلــي الهــم والكربــا
لو أن واحدهم بالصين حــق بــأن تسعى إليه المــوالي تطــرد النجبــا
فليهن قــوم أقــاموا في جــوارهم ومن أناخ بهــم مقــدار مــا حلبــا
وإن أتيت على بــدر فــزر شــهدا بدر ومن في حمــى آثــارهم ضــربا
من مثلهم قتلوا ســبعين واحتملــوا سبعين في القيد ممن طــول العــذبا
واذكر بــضاعة أو بطحــان أنهمــا مسامري حين نامت أعــين الرقبــا
كانت مواطن أنسي حيث كان بهــا معراج قدسي وكانت لي زمان صبا
مع الحبيب الذي أروتــه مــا فيهــا راحات سلمى فأسقي بعدما شــربا
فآه يا ليــتَ أوقــاتي تعــود بهــا وهل يعــودُ زمــان بعــدما ذهبــا
فيــا خليلــي إن وافيتمــا وطنِــي في طيبة طنبــا في ســرحها وطبــا
ويا حويذا المطايــا ذا النقــا فــاتح وانح الضريح الذي للمسك منه نبا
واقرَ السلام على من حلــه وأقــم مُستبشرا آمنــا في مــترل رحبــا

وخصه بتحيات مُباركة ... عني وخص أبا بكر وخُص أبا

حفص وناد بقلب خاشع وله ... مُستعطفا مستجيرا خاضعا أدبا

قل يا محمد إني جئتكم قاصدكم ... حَق الضيوف على أهل الوفا قد وجبا

قل يا محمد إني جئت زائركم ... لقولكم وجبا قل لي نعم وجبا

قل يا محمد إني ما قصدتكم ... إلا لأحسب فيمن عندكم حسبا

قل يا محمد لا تنسوا سميكم ... وناشر المدح فيكم زاحم الأدبا

يرجو الإجازة بالقبول منكم ... وبالإقبال لا يرتجي درا ولا ذهبا

ويطلب الإذن منكم في زيارتكم ... في عامه مع صنو قلبه التهبا

بالشوق لكنما الأقدار غالبة ... وهو الذي كان لي في نظمها سببا

فإن رضيتم فهذا جل مقصده ... وإن أبيتم فوا حزناه وا حربا

لكن حاشاكم تخييب قاصدكم ... أبا حماهم يرد القاصدين أبا

فكيف لا وله في حبكم صلة ... بشيخه العلوي من للعلا خطبا

قطب الوجود غياث الجود سيدنا ... محمد بن علوي من علا وربا

به رضيت إماما مرشدا وبه ... أمنت من وهَج البلوى إذا لهبا

وجده المصطفى المختار لي سند ... وشافع نافع دنيا ومنقلبا

فصل رب وسلم ما بقيت على ... مُحمد من له في المعجزات ربا

فلا تعد ولا تحصى وأيسرها ... أحييت أما له قد أسلمت وأبا

فنوره كان من صلب إلى رحم ... في الساجدين من الأخيارِ منقلبا

نعم وهذا حقير من خصائصه ... فكم قرانا بما قد خصه كتبا

والآل والصحب ثم التابعين لهم ... والأولياء مَع السادات والنجبا

واغفر لناظمهــا حقــا ومنـــشدها	أيضا وسامعها وعيــا ومــن كتبــا
واغفر لعبد الرحيم الحبر من بـــرع	فقـــد أتـــاني مـــن نيابتـــه نبـــا
فقال في خلدي هل من عراض على	مثل لعينيك خدرا في الحمى ضـــربا
فقلت بـــالعجز والتقـــصير ممتـــثلا	مثل لعينيك دارا شـــام نجـــد قُبـــا

وهذه القصيدة كما ترى فيها أبيات سلسلة منسجمة، وفي بعضها ركاكة وتعقيد وشبه تصحيف، ولا أدري هل ذلك من أصلها أو من تصحيف الكاتب، إذ لم آخذها عن منشئها، وقد ذكر في آخرها أنه عارض بها قصيدة أولها: مَثِّـــلْ لعينيك خِدْراً في الحمى ضُربا...

بسؤال صاحبه الشيخ عبد الرحيم البرعي، أثابه الله على قـــصده الـــصالح، وجعلها من سعيه الناجح.

وخرجنا من جدة قافلين إلى مكة بعد صلاة الظهر، من يوم الثلاثاء، وسرنا على طريقنا الأولى، نتيخ بالقهاوي المذكورة للاستراحة، ودخلنا مكة مـــع أذان الصبح، وتوضأنا وأدركنا الصلاة بالمسجد الحرام. وقد شاهدنا في هذه الحضرة من العافية التي بسطها الله في الطرق والقرى، والأمان التام ما قضينا منه العجب، فمن ذلك أنا لقينا عيراً في ليل مظلم، تحمل أحمالاً من البز الهندي والقماش الرفيع نحواً من عشرين جملاً، وطلبنا أحداً من أصحابها نسأله عن خبر البلد فلم نجد معهـــا أحداً، وذهبنا نحواً من ميل فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين، وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرضها أحد، وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت أيام الأمير زيد وولده محسن، فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلاً جاء للسلطان محسن فقال: إني وجدت بالبلاد الفلانية جملاً من البز في الطريق. فقال له: ومن أخبرك أنه من البز. فقال: مسسته برجلي. فأمر بقطع رجله وقال له: لم مسسته برجلك؟ إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات لا نعلم صحيحها من سقيمها.

ومن لطيف ما شهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها، أن المسافرين من مكة إلى جدة، ومن جدة إليها، يكترون الحمير للركوب ولا يذهب صاحب الدابـــة معها، فإذا بلغ المكتري إلى المحل الذي ذهب إليه أرسل الحمار، ولا عليه فيه، فلا يأخذه أحد إلا ربه إن كان في ذلك البلد أو نائبه، ولكل واحد مـــن أصـــحاب

الدواب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكريها له ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه.

وقد رافقنا من مكة إلى جدة ذهاباً وإياباً صاحبنا الحاج علي العنابي التونسي، وكان من التجار المجاورين بمكة في هذه السنة، وكان معه جملة من أصحابه، فلم يتركنا أن ننفق في هذه السفرة ولو درهما واحداً، وكان الإنفاق من عنده في كل ما ينوب في منازل الاستراحة وكراء المترل وما ينوب أيام الإقامة، فجزاه الله خيراً. وكانت فيه سخاوة نفس ودماثة خلق، قد نال غيرنا من المجاورين وأهل مكة من معروفه أكثر مما نالنا، ولقد طوقني من منته ما عجزت عن مكافأته إلا بالدعاء له، وقد أعارني فرسه للركوب مرات عديدة إلى أماكن مختلفة، ركبته مرة إلى الحديبية ومرة إلى الجعرانة، ومرة إلى الطائف، وكلما سمع بعزمي على التوجه إلى مكان يبعث به إلي ويعزم علي في ذلك. ولم يتيسر لي إحرام بعمرة يوم رجوعي من جدة فدخلت مكة بلا إحرام مترخصا في ذلك على مذهب من لا يرى الإحرام على من خرج إلى مثل جدة. ثم بدا لي أني قد غبنت في ترك الاعتمار من الحديبية إذ هي من الأماكن المأثور فضلها بإحلال النبي صلى الله عليه وسلم فيها، فقامت له ولأصحابه مقام الوصول إلى البيت العتيق، وكانت فيها بيعة الرضوان، ومآثرها غير خفية، فخرجت إليها بعد ذلك بليال مع صاحب لي بعد أن صلينا العصر وبلغنا إليها بعد العشاء، ونزلنا واسترحنا ثم اغتسلت وصليت وأحرمت بعمرة، فبلغنا إلى مكة سحراً، فصرت بتلك العمرة متمتعا، وكان ذلك مني عن قصد؛ لأنه تقدمت لي حجات والحمد لله مفردا، فقصدت استيعاب أوجه الإحرام الثلاثة للاختلاف المشهور في أيها أفضل، ولذلك أحرمت عند إرادة الخروج إلى الحج قبل يوم التروية بالقران، فحصلت لي الأوجه الثلاثة، والحمد لله.

ولما رجعنا من جدة يوم الأربعاء الخامس عشر من شوال كما تقدم، وجدناهم قد شرعوا في تجديد السقف الأعلى للبيت العتيق، وذلك أن للبيت سقفين بينهما مقدار ذراعين ونصف، أو ثلاثة على ما قيل، صيانة له عن وصول شيء من التغير إليه بترول ماء أو غيره، فإن احتاج أحدهما إلى تبديل كان الآخر صونا للبيت. ثم إنه بعد ذلك السيل المتقدم ظهر في البيت شبه أثر قطر، فكشف عن ذلك، فوجد في بعض خشبات السقف الأعلى متآكل بالأرضة لطول العهد، فاقتضى نظر الخاصة تجديد السقف كله، فشرعوا في ذلك يوم الاثنين الثالث عشر

من شوال، فنصب سلاليم من جهة الحجر مشدودة بحبال وأعمدة متخذا لها شبه سرير من خشب في الهواء في مقابلة حزام ستر البيت يصعد منها الفعلة، ونصبت خصفات من الجريد على المحال التي يخشى عليها التلوث من أستار البيت، وجعلوا فيها بين الركن اليماني والحجر من أعلى البيت جرارة تجذب اللبن والجبص، واختير لذلك من الفعلة ما يحتاجون إليه، وبعثوا إلى نقل خشب الساج من جدة فجئ بخشبتين عظيمتين لتنصب عليهما الجوائر. قيل لي إنه اكترى على حمل كل واحدة من جدة إلى مكة بمائة وثلاثين ريالا، وتنافس الناس في العمل في ذلك ابتغاء الأجر، وقد منّ الله علي بالصعود يوما من الأيام ضحى بواسطة الحاج سليمان، صاحب لي صعيدي كان من الفعلة، فصليت في سطح البيت عدة ركعات، وناولتهم شيئا من الطين واللبن تبركاً بالخدمة، وأعطوني شيئاً من الخشب المنكسر المقطوع في حال الإصلاح، وتحيّلت على أن اشتريت نحو ثلاثين لبنة من خالص ما أجد، أدخلت في بناء البيت كل ذلك تطفلاً على باب أرحم الراحمين بالانتساب إلى ما صحت نسبته إليه من بيت وغيره وهو أكرم الأكرمين، فلا يخيب من تطفل عليه وما أخرج من الخشب من سقف البيت جعل فيما احتيج إليه من سقوف القبب والمنارات، وأما التراب فكوم في جانب من المسجد وقالوا إنه يجعل دكة، وأخذ الناس من نجارات الخشب وبعض التراب للبركة، وكثير من الناس لا يجيز ذلك بناء على أنه كتراب الحرم وأحجاره وأشجاره لا يجوز إخراج شيء من ذلك، ومن أخرج شيئاً من ذلك وجب عليه رده على ما نص عليه علماء الشافعية، وتبعهم على ذلك جماعة من المالكية ممن ألف في المناسك. قال ابن فرحون في منسكه: وهو لا يجري على أصول المالكية، بل الجاري على أصولهم الجواز، واستدل على ذلك بأشياء يطول ذكرها. وهذا مستندنا في نقل ما نقلنا من خشب سقف البيت للبركة، والله ولي التوفيق.

ومنها محل في الجبل المشرف على المحصّب، على يمين الذاهب من مكة إلى منى، يزعم أهل مكة أن فيه قبر عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، فيخرجون إليه في إحدى ليالي ذي القعدة، أظنها الثالثة عشر، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، فيبيتون هناك عامة ليلتهم، ولم أخرج معهم تلك الليلة، إذ لا أعلم أصلاً لذلك. وسألت أهل العلم بمكة فأخبروني أنهم لا يعلمون لذلك أصلاً.

غريبة:

من جملة خرافاهم المتعلقة بتلك الليلة في ذلك المحل أهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة ويزعمون أن من دفن شيئاً حصل له في تلك السنة بعدده ريالاً أو دنانير. وأغرب من ذلك ما حكى بعض أصحابنا تصديقاً لزعمهم ذلك، أنّ الشيخ علي بن الجمال الشافعي[1]، وكان من فقهاء مكة المعتبرين، خرج مع أهل مكة في بعض السنين إلى هذا المحل، فلما رأى فعلهم ذلك أنكره، ثم أنه جمع شيئاً من النوى نحو المائتين ودفنها، ثم وجد سبعاً أخرى ودفنها، وهو في كل ذلك كالمتلاعب، فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس في المسجد الحرام، إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرّة كبيرة، وقال له: إن جماعة من طلبة الأحساء كانوا يقرؤون هنا عندك قبل هــذا، وقــد جمعوا لك هذه الدراهم بقصد التبرك منك وهم يسلمون عليك، وهي مائتا ريال. قال: فوقع في نفسي تصديق ما زعموا وإني كنت دفنت مائتي نواة، ثم قلت: وأين السبعة التي دفنتها بعد ذلك؟ فلم أبرح مكاني حتى رجع إليّ ذلك الإنسان وقال لي: يا سيدي وهذه سبعة أخرى قد تبعني بها شخص بعــدما فارقــت أولئــك الجماعة. وقال لي: أوصلها إلى الشيخ. قال:فتعجبت من ذلك، ومــن موافقتــه للحال. والذي أخبرني بذلك عن الشيخ ثقة عندي، و لم أدرك حياة الشيخ علــي في هذه المرة، وأدركته فيما قبل هذا، و لم يتفق لي لقاؤه، ولا الأخذ عنه، وكــان من فضلاء الشافعية المدرسين بالحرم المكي، رضي الله عنه، وأرضاه.

ولأهل مكة في هذه الليلة أيضا عمل مولد كبير في مشهد السيد العيدروس عند الشبيكة، يجتمع هناك جماعة من أولاده وأتباعه السالكين على طريقه، ويعمل هنالك سماع وقراءة وتلاوة، ويجتمع فيه خلق كثير، وقد فرش المشهد كله ومــا حوله، وأعدت للحاضرين أطعمة وأشربة، ويستكثر هنالك من المصابيح، وقــد زرته في هذه الليلة، رضي الله عنه، ومشهده من المشاهد المشهورة بمكة والمزارات المعظمة، وبيتهم له صيت ومكانة عند الخاص والعام.

---

[1] علي بن أبي بكر بن علي، ابن الجمال المصري، فقيه شافعي، ولد بمكة سنة اثنتين ألف واشــتهر بهــا إماما مشاركا، توفي سنة 1072 هــ: خلاصة الأثر 3:128. اقتفاء الأثر، ص: 133.

ومنها جبل حراء، وفضله مشهور، وفيه الغار الذي كان، صلى الله عليه وسلم، يتحنث فيه قبل النبوة، وفيه نزل الوحي أول ما نزل، وفيه نزلت سورة اقرأ لما في الصحيح. وهو جبل متوحد بأعلى مكّة على ثلاثة أميال منها، وعلى رأسه قبّة ترى من المسجد الحرام، والغار في أعلاه من الناحية الغربية المو الية لمكّة، وقد خرجت لزيارته مع جماعة من أصحابنا في إحدى ليالي ذي القعدة سَحَراً، وصلينا الصبح بعدما جاوزنا بيوت مكة كلها ووصلنا أعلاه عند طلوع الشمس، وهو مع صعوبته قد سُوّيت طريقه، وأُزيلت الأحجار المعترضة من غالب طريقه، وبُني ما يحتاج إلى البناء فيها بحيث إنّ الدابّة يمكنها الصعود براكبها إلى أعلاه، وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبة، يصلي فيه الناس، والغار من أسفل القبة بين صخرات هناك، وهو صغير جداً يسع ثلاثاً أو أربعاً فيما أظن، ويصلّي فيه الناس للبركة، وقد جلسنا هناك هنيهة ريثما حلّت النافلة فصلينا فيه ودعونا. وباب الغار منتكب إلى ناحية الشمال، وقد كنت أسمع هذا -ورأيته منصوصاً- أن الجالس في الغار يرى الكعبة، ولذلك اختار النبي، صلى الله عليه وسلم، التحنث فيه، لأن النظر إلى البيت عبادة، فتجتمع له أنواع من العبادات، لا تكاد تجتمع في غيره، وهذا لا يصح إلا أن يريد المحل الذي هو فيه، فإن البيت قبل أن يكتنفه البنيان العظيم قد يظهر من خارج، وأما من الغار نفسه فلا.

غريبة:

أخبرني شيخنا أبو مهدي عيسى أنه خرج ذات مرة للتحنث بهذا الغار، وكان يخرج إليه قبل ذلك بهذا القصد، وخرج معه في هذه المرة ثلاثة من أصحابه من الهنود[1]، وكان اثنان منهما مقيمين معه، والثالث يتردد عليهما بما يحتاجان من ماء وطعام، قال: وكان معي كتاب بداية المجتهد للحفيد ابن رشد، أطالع فيه أحياناً، فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحباه في القبة، والثالث تحت صخرة هناك، إذ عرض في السماء عارض غيم وبرق، ثم أرزم الرعد[2]، وأتى بأمر هائل، قال: ما رأيت مثله قط، فلم أشك أنه الموت، ولزمت مكاني، وطبت نفساً بشرف البقعة، وقلت: حبّذا لقاء الله في مثل هذا المكان، وألزمت نفسي حضور القلب،

[1] في ط: الهند.
[2] أرزم الرعد: اشتد صوته: لسان العرب: رزم.

منتظراً حلول القضاء، حتى انكشف ذلك، وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبة قد ماتا، وأحدهما جالس على هيئته، لم تتغير منه شعرة، والآخر ساقط قد سال الدم من بعض منافذه، فلم أرَ منظراً أهول ولا أفزع من ذلك، فالتمست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله، فبعثته إلى مكة ليعلم أصحابنا، فبقيت هنالك وحدي منفرداً في الليل، فلم أرَ أمراً أفزع ولا أوحش من ذلك، وكان أعظم وأشق علي من الحال التي كنت عليها في الغار، فما جاءني الناس مع صاحبي حتى كدت أهلك غمّاً، فاحتملنا صاحبينا، وذهبنا. فمن ذلك الوقت ما رجعت للتحنث فيه إلا أن أذهب زائراً ثم أرجع.

قلت: والانفراد عن الناس، سيما في المفازات والمغارات البعيدة من العمران لا يقوى عليه إلا من أيد بروح القدس، وكانت له همة عالية، وسقطت من قلبه مخافة غير الله، فإن الإنسان مدني الطبع لا يتحمل وحشة الانفراد، سيما إن نزلت به مُلِمَّة وهو منفرد عن الناس، فإن عيشه يتكدر، وحاله يتغير، وتضيق نفسه، وتخرج عن معتادها، فربما يتلف من ذلك أو يذهب عقله. وأما من كان قلبه متعلقاً بالله لا يلتفت إلا إليه في السراء والضراء، فذلك موقرة عينه، ولو انطبقت السماء على الأرض ما زاده ذلك إلا تلذُّذاً بما فيه، لأنه في تلك الحال يقوى تعلقه بربه وانحياشه إليه، وتنتفي الخواطر المشتتة له في أودية الأغيار، وأي شيء هو طلبة المريد وبغيته إلا هذه الحال. ولذلك قيل: مواسم الفاقات أعياد المريدين. ولا أظن أن شيخنا في ذلك الوقت كان من أهل هذه الحال لما غلب عليه من محبة العلوم الرسمية وصرف همته إليها، يدلك على ذلك استصحابه لكتاب بداية المجتهد، ومن كانت هذه حاله، وإن كانت محمودة، لا يقوى على تحمل واردات القدر الخارجة من باب القهر المتلفعة بمروط الجلال والهيبة لتعَلُّق قلبه بأمور وخيالات وعلوم هي في الحقيقة وسائل، فإذا تجَلَّى الحق بصفة القهر ذهبت الوسائل وحق الحق (وبطل ما كانوا يعملون)[1]، فيفجأ القلب أمر غير معهود له ولا مألوف ولا متصور قبل ذلك، فلا تسأل عما يكابده من ألم الغربة والوحشة والخروج عن المألوف، نسأل الله أن يثبت قلوبنا ويؤيدها بنور المعرفة عند كل وارد، وعند واردات القهر خصوصا، ويشهدنا اللطف المصحوب بها، ويغرقنا في بحار التلذذ بمشاهدته حتى لا نحس بذلك، وعافيتك أوسع لي يا أرحم الراحمين.

---

[1] الأعراف: 117.

ومنها الجعرانة، وهي موضع بين مكة والطائف، إلى مكة أقرب بكثير، بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، ومنها كانت عمرة النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذي القعدة حين قسم غنائم حنين كما في الصحيحين. وذكر المحب الطبري عن الواقدي أن إحرامه بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، قال المحب الطبري: ومنها يحرم أهل مكة كل ليلة في ليلة سبع عشرة من ذي القعدة، وذلك خلاف ما ذكر الواقدى، هـ. قال القاضي تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة في شفاء الغرام: "وما ذكره الطبري يخالف ما أدركنا عليه أهل مكة فإنهم يخرجون من مكة في اليوم السادس عشر من ذي القعدة ويقيمون اليوم السابع عشر بالجعرانة ويصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر، ويحرمون ويتوجهون إلى مكة وهو يلائم ما ذكره الواقدي"[1]. قال الحطاب: وعلى ما ذكره القاضي تقي الدين أدركنا عمل أهل مكة.

قلت: ولا أدري متى انقطع عمل أهل مكة هذا فإنهم الآن لا يحرمون منها، ولا تكاد تجد أحداً يعلم أنه من مواقيت العمرة، إلا من مارس كتب الفقه منهم، وأما العوام فلا يطلقون اسم العمرة إلا على التنعيم. ومن أغرب ما وقع لنا في ذلك أنا لما نزلنا بالمحصب بعد تمام الحج في آخر سنة أربع وستين بدا لنا أن نذهب من هناك إلى الجعرانة لنحرم منها بالعمرة لأفضليتها على غيرها من الأماكن كما هو مقرر، فطلبنا من يهدينا الطريق إليها، وسألنا من هناك من الأعراب وأهل البلد فقالوا: وما شأنكم بالجعرانة، فذكرنا لهم الاعتمار، فاشتد نكيرهم وقالوا: ما نعلم أحداً يعتمر من هناك، وإنما العمرة من التنعيم، ولكنكم قوم مغاربة أهل حيل قد يكون قصدكم إخراج كنز هناك، فعميتم قصدكم بذكر العمرة، وإلا فأي عمرة في الجعرانة. وما كادوا يصدقوننا في ذلك، فقلنا لهم: يذهب معنا أحدكم بأجرته ويشاهد ما نريد من ذلك، فاكترينا رجلاً منهم، فأسرى بنا حتى اعتمرنا، ولما كان اعتماره، صلى الله عليه وسلم، منها إنما هو في ذي القعدة في السابع عشر والثامن عشر، توخينا ذلك في هذه السنة إذ أمكننا بالمجاورة في مكة هذه المدة، فخرجنا مع جماعة من أصحابنا ليلة الاثنين السابع عشر من ذي القعدة اغتناما لفضيلة الوقت والمكان، فوصلناها بعدما ذهبت طائفة من الليل، وأنخنا بها إلى قريب من السحر، ومكانها واد أفيح كثير العضاه، ماؤه شديد الحلاوة غزير، وبها

[1] شفاء الغرام 1:192.

بئران عظيمان مطويان بالحجر المنحوت، وعنده دوحات عظيمة، وعلى شـفير الوادي مكان مسجد يقال إن منه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه أحرمنا بعد الاغتسال والركوع، وقفلنا إلى مكة ودخلناها ضحى، والحمد لله.

ومن فضائل الجعرانة ما ذكره الجندي عن ابن ماتك أنه اعتمر من الجعرانة ثلاثمائة نبي. ويقال إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم فحص موضع مائها بيده المباركة فانبجست، فشرب منه وسقى الناس. ويقال إنه غرز فيه رمحه فنبع.

ومن الأماكن التي لا ينبغي للمجاور أن يهمل زيارتها بلد الطائف فإن فيها مزارات كثيرة، حسبما أذكر بعضها، وقد خرجنا إليها من مكة بعـد العـشاء الأخيرة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة مع جماعة من أصحابنا في رفقة من أهل مكّة والطائف، ومررنا على طريق الحاج إلى منى ثم إلى مزدلفة، ثم إلى بسيط عرفة، ثم تركنا الموقف شمالاً، وأنخنا هناك في قهوة قريباً من نصف الليل، والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي يستريح المارة بالنزول فيها، واشتراء المحتاج من طعام وعلف، على نحو ما ذكرنا في طريق جدة.

ثم ارتحلنا من هناك قرب طلوع الفجر، وسلكنا مع طريق الساقية التي تأتي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر، ثم إلى مكة، ومنها تأتي المياه إلى مكة في هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التي تأتي من الجعرانة، وقد ذكر المؤرخون أخبار العينين معاً، وأن التي من الجعرانة من عمل بني أمية، وهذه من عمل بني العباس، وهي من صدقات زبيدة بنت جعفر بن المنصور، إلا أنها ما وصلت إلى مكـة إلا في دولة بني عثمان، ملوك العصر من التركمان، وقد شاهدنا في بنيان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم، وقوة اعتنائهم بأمر الحرمين. فكلما مررنا غلـوة أو غلوتين وجدنا عيناً منها مفتوحاً عليه بناء وثيق، ووجدنا الفعلة في وقتنا جَادِّين في إصلاح ما وَهى من بنائها، وكنسِ ما تَهوَّر من أرجائها، وهي صاعدة مع وادي نَعمان الأراك، بفتح النون، الذي أكثرت شعراء العرب فمن بعدهم من ذكـره، وهو وادٍ عظيم أفيح، منحدر من جبل نجد، وبه أدواح يانعة، يصافحها نسيم نجد فتهتز أغصانها طرباً، وتميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة الناعمة الملتفة بحـافتي ذلك الوادي. وقد كساه الخصب من مروط الزهر ألواناً، وعمَّم رؤوس هـضابه أقاحي وأرجوانا، فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرا، فعدلنا يميناً مع بعض تلك الهضاب، وآوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صـخور عظـام،

حولها ماء صافٍ يجري على حصباء كالزبرجد، عذب بارد، سهل التناول للصادر والوارد، ما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكاناً أشبه ببلادنا منه، فلما زالت الشمس وتوضأنا للصلاة أخذنا في صعود الجبل العظيم الذي لا يماثله في عظمته جبل من جبال تهامة، وسلكنا في طرق تميل مع خراطيمه الهابطة من أعلاه، وغالب الطريق في هذا الجبل قد نقي من الصخور العظام، ونضدت الحجارة فيه ببناء وثيق مصفح على ممره، يقال: إن ذلك من عمل بني العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف ونزول ولاة الحجاز منهم به، وقد أثّرت السيول مع طول العهد في أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه، وكثرت للسالك عناءه، ووجدنا في هذا الجبل أشجاراً عظيمة من العرعر وغيره من أشجار بلادنا، فأنسنا بذلك غاية، ورأينا القرود به تصيح، وتثب في أعالي تلك الصخور، فتعجبنا من ذلك، فأخبرنا أنها توجد في هذا الجبل، وما سمعنا قد أنها بأرض الحجاز، وإنما يقال إنها تجلب من الشام والروم إلى مصر والحجاز.

ولقد لقينا في صعود هذا الجبل مشقة ونزلنا عن الدواب، وأرجلتنا أوعاره وأغواره كرهاً، وما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب وصليناه، وتلفعنا بثيابنا لشدة البرد، وتعجبنا من صنع الله وبديع قدرته، فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر وسمومه ما كادت العظام منه تذوب وتتفطر القلوب. وكابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه، وكلّت القوى عنه. ثم وصلنا إلى قهوة هناك ونزلنا بعد العشاء، وطلبنا خِصا يُكِننا من شدة البرد، فأدخلونا محلا أوقدوا فيه نيراناً عظيمة فاصطلينا بها عامة ليلنا، وحمدنا الله على ذلك. وكان هذا في إبان الحر الشديد، ولذلك خلفنا ثيابنا في مكة، ولم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت، وقضينا عجباً من شدّة الحر والبرد معا في المكانين المتقاربين.

ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبة هناك هي دون التي طلعناها بكثير إلا أنها وعرة، وسلكنا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف، إلى أن خرجنا إلى قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد، وبإزائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه، حولها وادي يسيل ماؤه، وتجاوزناها قرب الطلوع، وسلكنا بين تلول هناك في صعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلد

الطائف وهو قصور في مستوى من الأرض، تحيطها جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة، (وفواكه مما يشتهون)[1].

وقصدنا المسجد الأعظم، فأول من لقيناه على بابه رئيس المقرئين وأستاذ المجوّدين، الذي لا يشاركه في تحقيق فن القراءة بأرض الحجاز غيره، ولا يجهل عند الخاص والعام من أهل تلك الديار أمره، الشيخ عبد العزيز بن حسن بن عيسى التواتي، رضي الله عنه، و لم نكن نعرفه قبل ذلك، ولا يعرفنا إلا بالخبر، وإنما عرف كلاً منا بصاحبه السيد الأجل الفقيه الأمثل، صاحبنا السيد عمر المدني، من متفقهة أهل المدينة، تعرفنا به فيها، فوجدناه جالساً مع الشيخ المذكور، عند باب المسجد، فرحب بنا الشيخ غاية، وأظهر لنا من بشره النهاية، وطلب منا النزول عنده في داره، وأقسم على ذلك جهد يمينه، وبذل في القِرى المستطاع من ملك يمينه، فدخل معنا إلى المسجد، ووصل معنا إلى محل الزيارة، فزرنا وصلينا في المسجد، ثم ذهبنا إلى المترل، وأنزلنا في أطيب مكان فيه، وأدخل أمتعتنا ودوابنا.

فلما استقر بنا المجلس، وخرج عنا في بعض شؤونه قلنا لصاحب لنا: (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً)[2]. فخرج إلى السوق واشترى لنا ما يصلح للوقت، فلما وضعه بين أيدينا دخل علينا الشيخ، وقد رآه حين دخل وهو يقول: واعيباه واعيباه يكررها، وتلك لغة أهل البلد، كيف تشترون الطعام وأنتم في مترلي؟ ولكن الذنب مني إذ أبطأت عليكم بالقِرى، فاعذروني، وما كنت مشتغلاً إلا في ذلك، فأخجلنا واعتذرنا له، فلم نبرح من مكاننا حتى أتى بالغداء، فأكلنا واسترحنا.

ولقد أجزل لنا القرى مدة الإقامة فجزاه الله خيراً. إلا أنه لما بلغ خبر قدومنا إلى جواد زمانه، وحاتم أوانه، وجُنيد عصره، وغوث قطره، السيد عبد الرحمن المكناسي، وكان إذ ذاك بالطائف، بعث إليه بعض خدامه بالمحتاج إليه من طعام وإدام ولحم ونحو ذلك، وقال له: إنما علينا قراهم لا عليك إلا أنهم لما نزلوا في مترلك لم يمكنا إخراجهم من عندك، فعليك المترل وعلينا النُّزُل والقِرى، و لم يزل يتعاهده بأمثال ذلك إلى أن خرجنا.

---

[1] المرسلات: 42.
[2] الكهف: 61.

ولما كان الغد ذهبنا لزيارة السيد عبد الرحمن في مترله، وكان بأعلى البلد، فدخلنا عليه وبالغ في الترحيب والتحفي، وهشَّ وبشَّ، وسأل عن الحال وأظهر السرور بقدومنا، وكنا لقيناه في مترله مترله بمكّة يوم دخولنا أو غده وهو متهيئ للخروج إلى الطائف في يوم لقائنا له، ووجدنا ركائبه ببابه، وآلة السفر بين يديه، فلم تطل مجالستنا له، واعتذر لنا عن ذلك، وأخبرنا أن الخروج في ذلك الوقت لم يكن باختياره، وأنه لوارد قهري، وكان اتخذ ذلك عادة منذ أعوام كثيرة، إذا أقبل رمضان وقرب خرج إلى الطائف، وكثيراً ما يستهلُّ له رمضان في الطريق، لأنه كان يسير سيراً رفيقاً، وربما أقام، وربما أفطر بعض أصحابه يوماً أو يومين في الطريق لأجل السفر، فاتخذ الجهال والحسدة له ذلك ذريعة، وتطرقوا منه إلى الوقوع في عرضه، والاتهام له في دينه، وقالوا: إنه إباحي، وما جعل السفر في هذا الوقت ديدنه إلا ليتوصل به إلى الأكل في نهار رمضان، وإلا فأيُّ ضرورة تلجئه إلى الخروج في هذا الوقت كل سنة إلى غير ذلك مما يلقيه الشيطان إلى أوليائه من شياطين الإنس والجن (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)[1] سنة الله في أنبيائه وفي أوليائه بالإرث، إذ جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين[2]. وكذا كل وليّ، على ما نص عليه غير واحد، على أنَّ هذا الشيخ ممن ظهرت شواهد صدقه في حاله، واشتهرت كرامته، وعلمت ديانته، فينبغي التسليم له، سيَّما في الأمور التي لا تصادم الشريعة كهذا، وقد أخبرني، رضي الله عنه، ببعض حاله في سفره هذا، وكأنه توهم أني سمعت شيئاً مما يقوله الناس في ذلك وقال لي: والله ما كنت أخرج من هذا البلد مع غلبة الحال وقوة الوارد حتى أسمع النداء: يا عبد الرحمن ألا تخرج تخاف على إيمانك، فأخرج حينئذ خوفاً على نفسي.

قلت: ومن كانت له بصيرة نورانية وذوق رباني وكشف إلاهي، لا ينكر مثل ذلك، فإنَّ أحوال الواردات الإلهية لا تنضبط لزمام، والناس في تحملها أنواع، وقد علم من أحوال هذا الشيخ أنه أسير الحال في أكثر الأحوال، ولعل السر في قهره على الخروج عند قرب رمضان، فاعلم أن شهود رمضان في مكة يزيد في الإيمان، وإن الواردات الإلهية تقوى في هذا الشهر وفي أشهر الحج بعدها، فإذا انضاف إلى شرف الوقت شرف المكان ربما ورد على القلب الضعيف من

---

[1] الأنعام: 112.

[2] إشارة إلى قوله تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا): الفرقان: 31.

الواردات ما يعجز عن حمله ولا يقوى على القيام بحقه، سيما إن كان مغلوبا من قبل، كهذا الشيخ، فقد يتسع عليه النطاق، ويرد عليه مالا يطاق، وربما أداه ذلك إلى خرق سياج الشريعة مغلوباً، فيخاف عليه في دينه كما وقع للحلاج وغيره من المغلوبين. فعلى هذا فقد يكون الخروج إلى محل يخف عليه فيه الحال وتنكسر سورة الوارد فيه بعدم معاضدة شرف البقعة ألطف به وأرفق وأرحم وأليق بحاله، وهذا أمر غامض لا يدركه إلا أهله.

فإن قيل:ينقض عليك هذا بشهود الموسم فإنه لا مكان ولا زمان أشرف من تلك المشاعر العظيمة في تلك الأزمان الشريفة. قلت: إنّ الموسم يجتمع فيه من الخلائق من سائر الآفاق من لا يعد كثرة، وفيه من طوائف أهل الحضرة كل صنف من أبدال ونقباء ونجباء وأوتاد والغوث والقطب، وأنواع أهل دائرة الولاية على اختلاف مراتبهم، فتتعاضد أنوارهم وهممهم وعزائمهم سيما والقطب المتصرف في الكل حاضر حساً ومعنى، فيقوى المدد ويكثر سريانه في كل سالك على قدر قوته وضعفه، فينجبر بذلك ضعف القابل، ويقوى به عجز المغلوب، وهذه إشارة إلى ما عجزت عن إبانته العبارة، يعلمه أهله، ولا ينكره إلا من لم يؤمن بطريقهم، فإن أول درجات هذا الطريق الإيمان بأحوال أهله التي لم يقم دليل قطعي على عدم صحتها.

وأحوال هذا الشيخ في الوجود غريبة، وأعظم شاهد على صدقه في حاله زهده في الدنيا، مع كثرة ما يُجبى إليه منها، فلا يبالي من أخذها من يده من غني وفقير، ومأمور وأمير، ورفع همته عن الخلق سيما أرباب الدولة، فإنهم لا يرون في مكان أذل منهم في بابه. ولقد كنا عنده بمترله في الطائف فاستأذن عليه السيد حسن بن زيد، أحد أولاد السلطان زيد، فلأياً بلأي ما أذن له، وعند دخوله لم يقم له، ولا احتبل له، وغاية ما قال له، كالمعتذر عن تأخير الإذن: إنا اشتغلنا بهؤلاء السادات، وما هم دونك في المكانة عندنا، وإن كان لك حق الشرف، فلهم حق النسبة إلى الله، وطلب العلم، والغربة، أو نحو من هذا الكلام، و لم يأنف ذلك الشريف من هذا الكلام مع ما هو فيه من حداثة السن ونخوة الملك والشرف بل ألان الكلام بين يديه وتلطف. وذلك شأن هذا الشيخ مع أرباب الدول، وأهل المناصب الدنيوية، وسنذكر بقية أخباره عند ذكر من لقيناه بمكة من أهل الفضل.

و لم نلقَ بالطائف أحداً ممن ينتسب إلى علم أو صلاح، سوى الشيخ عبد العزيز الذي نزلنا عنده، وأصله من المغرب من بلاد أوكرت من بلاد تيجورران، وشهرته بالتواتي، وقد جال في المغرب وقرأ على كثير من علمائه كسيدي الصغير ابن المنيار التادلي، ودخل فاساً وقرأ على سيدي عبد الواحد ابن عاشر[1] وعلى غيره، ثم ارتحل إلى المشرق قديماً بعد الأربعين وألف، ودخل القاهرة، وأتقن القراءة على مقرئها وأستاذها الشيخ سلطان، وختم عليه إحدى عشرة ختمة، وأجازه بالقراءات السبع، بل وبالعشر، وكتب له خطه بذلك، ثم انتقل إلى الحجاز وحج، ثم استوطن الطائف منذ أعوام كثيرة، وتزوج امرأة من أهله، ورزق منها عدة أولاد، وله عند أهلها مكانة. يحج كل سنة ويحضر الموسم.

وقد سمعت منه المسلسل بسورة الصف، قرأها علينا أمام ضريح الحبر ترجمان القرآن، عبد الله بن عباس ثلاث مرات؛ مرتين بقراءة قالون[2]، ومرة بقراءة ابن كثير، وأجازنا بها. قال: قرأها على شيخ الإقراء بالقاهرة الشيخ سلطان. قال: قرأها علينا الشيخ حجازي. قال: قرأها علينا الشمس العلقمي. قال: قرأها علينا جلال الدين السيوطي. قال: قرأها علينا أبو عبد الله الحاكم. قال: قرأها علينا أبو إسحاق التنوخي. قال: قرأها علينا أبو العباس الصالحي. قال: قرأها علينا أبو المنجا الليثي. وسند الشيخ سلطان إلى ابن الجزري. قال: قرأها علينا أبو الحجاج الصيرفي. قال: قرأها علينا أبو المعالي عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد المطعم. قال: قرأها علينا ابن المنجد عبد الله بن عمر الليثي. قال: قرأها علينا أبو الوقت عبد الأول السجزي[3]. قال: قرأها علينا أبو محمد الداودي[4]. قال: قرأها علينا محمد بن كثير. قال: قرأها علينا الأوزاعي. قال: قرأها علينا يحيى بن أبي كثير. قال: قرأها علينا أبو سلمة. قال: قرأها علينا عبد الله بن سلام. قال: قرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها.

---

(1) عبد الواحد بن أحمد بن عاشر، الأندلسي الفاسي، فقيه مشارك، له تآليف منها المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، توفي عام 1040 هـ: خلاصة الأثر 96:3. التقاط الدرر، ص: 91. شجرة النور الزكية 434:1.

(2) أبو موسى عيسى، قالون: مقرئ المدينة وتلميذ نافع، توفي سنة 220 هـ: سير أعلام النبلاء 326:10. النجوم الزاهرة 235:2.

(3) في ط: السجزرني.

(4) في ط: الداودي.

وقرأت عليه أيضا في المحل المذكور من أول الفاتحة إلى قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً)[1] بقراءة نافع من طريق قالون، رواية أبي نشيط والحلواني، ومن طريق ورش رواية الأزرق والأصبهاني، كل ذلك بطريق الطيبة. وأجازني به. ولنذكر نص ما كتبته بين يديه بعدما ناولني إجازة الشيخ سلطان له:

الحمد لله، وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم. يقول العبد الفقير إلى الله تعالى، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي: خرجت من مكة المشرفة بعد العشاء الأخيرة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة إلى الطائف لزيارة حبر الأمة، ترجمان القرآن، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، ووصلناها ضحى يوم الأربعاء، ولقينا هنالك رئيس المقرئين، وأستاذ المجودين، الشيخ عبد العزيز بن حسن بن عيسى التواتي، وأنزلنا عنده، وقام بالحق الواجب أتم قيام، فجزاه الله خيرا. وسمعت منه سورة الصف، قرأها علينا أمام ضريح الحبر ابن عباس ثلاث مرات؛ مرتين بقراءة قالون، ومرة بقراءة ابن كثير. وأجازنا بها بإسناده الآتي إلى ابن الجزري. وقرأت عليه من أول الفاتحة إلى قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً)[2] أمام الضريح المذكور، بقراءة نافع من طريق قالون، على روايتي أبي نشيط والحلواني، ومن طريق ورش على روايتي الأزرق والأصبهاني، كل ذلك بطريق الطيبة. وأجازني به وبكل ماله قراءة وحديثا ونحوا وأصولا وتصوفا حسبما سطر ذلك كله في إجازة الشيخ سلطان، شيخ الإقراء بمصر، له بعدما ختم عليه إحدى عشرة ختمة. أما سند القراءة فأخذ الشيخ سلطان عن الشيخ سيف الدين الشافعي ابن عطاء الله الفاضلي البصير بقلبه، وهو عن الشيخ شحاتة اليمني، وهو عن الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، وهو عن زكرياء الأنصاري، وهو عن الشيخ شهاب الدين البيجوري، وهو عن شمس الدين ابن الجزري، وهو عن أبي محمد عبد الرحمن بن أحمد بن علي البغدادي المصري، وهو عن محمد بن أحمد بن عبد الخالق المصري المعروف بالصائغ، وعن أبي الحسن علي بن شجاع العباسي المصري صهر الشاطبي، وهو عن أبي القاسم الشاطبي. قال الشيخ سلطان: وهذا الإسناد لا يوجد اليوم أعلى منه، تسلسل بمشايخ الأفراد وبالشافعية وبالديار المصرية وبالإقراء

---

(1) البقرة: 17.
(2) البقرة: 17.

والتلاوة، وأخذ الشاطبي عن أبي الحسن علي بن هذيل عن أبي داوود سليمان، عن أبي القاسم الأموي، عن أبي عمرو الداني، وسند الداني معروف. قـال الـشيخ سلطان: وأخذت الحديث على جماعة منهم: الشيخ شهاب الدين بـن خليـل السبكي (مع زيادة)[1]، وقرأت عليه أيضا في التصوف. ومنـهم الـشيخ سـالم السنهوري، ومنهم الشيخ نور الدين الزيادي، ومنهم الشيخ يحيى الحنبلي. وأخذت أصول الفقه والدين والنحو والعروض عن جماعة يطول ذكرهم، وقد أجزت بكل ذلك الشيخ عبد العزيز المذكور يرويه ويرويه لمن شاء، هـ باختصار من خـط الشيخ سلطان المذكور في إجازته لشيخنا عبد العزيز. وقد أجاز لنا شيخنا ذلـك كما أجيز له، هـ. وكتب عشية يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي قعدة الحرام سنة ثلاث وسبعين وألف.

هذا نص ما كتبته بيدي وما ناولته إياه فتصفحه وكتب تحته بخطه ما نصه: صحيح ذلك كما ذكره، ولا ينساني من دعائه، وكتب الفقير إلى الله تعالى عبـد العزيز بن الحسن الحفصي كان الله له آمين.

وإنما أطلنا بكتابة ما كتبته وما كتبه بلفظه تبركا بألفاظه في الرواية، وتثبتا في النقل على طريقة أئمة النقل من المحدثين، ولا ينكر هذا إلا الجاهـل بأصـولهم واصطلاحهم، ولولا ذلك لكان الاختصار والإتيان بألفاظ قليلة تؤدي هذا المعنى ممكناً.

---

[1] زيادة من ط.

وأما الأماكن التي تُزار في بلد الطائف: فمنها البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله، وأنه منقول من الأرض المقدسة، نقله جبريل عليه السلام (بإذن الله تعالى)[1]. وورد في الحديث أن، النبي صلّى الله عليه وسلّم، حرّم عِضَاه وَجٍّ[2]، وهو الطائف، وهو عند الشافعية كحرم مكة لا يقطع شجره، وكفاه هذا فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

ومنها قبر ترجمان القرآن، حبر الأمة، سيدنا عبد الله بن عباس، وهو في قبلة المسجد الأعظم من يمناه[3]، وعليه بناء فخم حوله على يمين الداخل من الباب قبر البطل الهمام، والليث المقدام، فارس بني هاشم، سيدنا محمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، (رضي الله عنه)[4]، فضائله مشهورة، وسبب انحيازه هو وابن عمه عبد الله بن عباس إلى الطائف مذكور في التواريخ، فلا نطيل بذكره. وبإزاء قبر ابن عباس قبر يُقال إنه قبر عبد الله الطيب الطاهر، ولد سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، والناس يتبركون به بهذه النية.

ومنها المسجد الأعظم نفسه فإنه في محل نزول عسكر النبي صلّى الله عليه وسلّم عند محاصرة ثقيف بعد غزوة حنين، وفي صحن المسجد مسجد صغير يقال إنه منزل النبي، صلّى الله عليه وسلّم، في الحصار المذكور، وفيه محل يقال إنه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة وقبة أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهما، وخبر حضورهما معه، صلّى الله عليه وسلّم، في هذه الغزوة وإنه اتخذ لكل واحدة قبة، ومصلاه، صلى الله عليه وسلم، بين القبتين مذكور في كتب السير.

---

(1) ساقط في ط.

(2) جاء في مسند أحمد: حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا عبد الله بن الحرث من أهل مكة مخزومي، حدثني محمد بن عبد الله بن إنسان قال: وأثنى عليه خيرا، عن أبيه عن عروة بن الزبير، عن الزبير رضي الله عنه قال: ثم أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة، حتى إذا كنا ثم السدرة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في طرف القرن الأسود حذرها فاستقبل نخبا ببصره، يعنى واديا ووقف حتى اتفق الناس كلهم، ثم قال: إن صيد وج وعضاه حرم محرم لله، وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيف: مسند أحمد 165:1.

(3) أنظر: شفاء الغرام 89:2.

(4) زيادة من ط.

وآثار حصن ثقيف الذي انحازت إليه بعد الهزيمة وحوصروا فيه باقية إلى اليوم. وقريب من ذلك محال متعددة فيها آثار في الصخر الصلد كأثر ظلف الغزالة، والناس يتبركون بها ويقولون إنها أثر غزالة جاءت النبي صلّى الله عليه وسلّم وسلّمت عليه في ذلك المحل، و لم نرَ لذلك ذكراً في شيء من كتب السير وأخبار معجزاته صلّى الله عليه وسلّم.

ومن المحال التي تزار بالطائف مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد، فيه شجرة كبيرة أظنها سدراً، لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممر الشاة، يقال إنها الشجرة التي اعترضت النبي، صلّى الله عليه وسلّم، في طريق له فأنشقت شقين، حتى مر بينهما لئلا تعنته فيمر يميناً أو شمالاً [1]، وخبرها مذكور في بعض الأحاديث. و لم أرَ من ذكر أنها في هذا المحل، ولا أنها باقية إلى هذا العهد، وأظن أن حديثها مذكور في معجم الطبراني الصغير[2]، والله أعلم.

وهناك مسجد آخر على شفير الوادي قريب من هذا يزار أيضاً. ولا أذكر الآن شيئاً من خبره. فهذا ما علق بذهني من المحال التي تزار بالطائف.

وفي هذا البلد أسواق حافلة، يحضرها الناس من أطراف نجد، ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل إلينا أننا لم نرَ مثل ذلك في الكثرة من الأسواق العظيمة.

و لم تطل إقامتنا في هذا البلد لقرب زمان الموسم، ولأنا وجدنا به مرضاً كثيراً فاشياً في أهله، وأخبرونا أن ذلك شأنه في السنة التي تكثر أمطارها كهذه السنة، وإنما كانت إقامتنا فيه بقية يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة.

وخرجنا منه ليلة السبت قريباً من نصف الليل على طريقنا التي مررنا عليها ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد بعد طلوع الفجر، ونزلنا حتى توضأنا وصلّينا، وأحرمت من هناك بعمرة و لم أغتسل للإحرام لبرد الماء والهواء، بل اقتصرت على الوضوء.

---

(1) أنظر: شفاء الغرام 89:2

(2) لم يرد هذا الحديث في معجم الطبراني الصغير.

لطيفة:

كنت قبل ذلك كثيراً ما أطيل الفكر في مسألة من الحقائق تتعلّق بوحدة الوجود الذي يقول به كثير من محققي الصوفية، كالشيخ محي الدين وأتباعه، فلا ينقدح في قلبي من فهمها شيء يثلج له القلب وينشرح له الصدر، فلمَّا كان وقت السحر من هذه الليلة أطلت الفكر فيها على عادتي، فكشف لي من معناها الموافق لكلام الأئمة ما لم يخطر لي قبل ذلك على بال، وانشرح الصدر لقبوله لأنه لم يعارض نص كتاب ولا سُنَّة، ففرحت بذلك، وحمدتُ الله كثيراً، وتعجبت من ذلك كيف اتضح من دون إلقاء أحد ولا تبيينه، وقد تعسر قبل ذلك مع تقرير المشايخ وتبيينهم، ثم وقع في نفسي أن ذلك لعله لخاصية في المكان كما ذكر الشيخ محي الدين في الفتوحات[1] أن الفتح يسرع في بعض الأمكنة بالخاصية، ثم ردف ذلك خاطر آخر يشهد لصحة هذا الظن، وهو ما ورد في قضية عرض النبي، صلى الله عليه وسلم، نفسه على القبائل؛ إذ عرض نفسه على ابني عبد يا ليل، وإساءهما إليه، صلى الله عليه وسلم، وأنه قال: فانطلقت مهموماً، ولم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فإذا بملك الجبال، إلى آخر الحديث. ومعلوم أن استفاقته، صلى الله عليه وسلم إنما هي بالترقي من مقام إلى مقام أعلى، وأن ذلك الترقي حصل له في ذلك المكان بدليل ما عقب ذلك من الرحمة التي استولت عليه، صلى الله عليه وسلم، إذ أجاب ملك الجبال حين قال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال عليه السلام: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً[2].

---

[1] يقصد كتاب الفتوحات المكية، ولم ترد الإشارة في الطبعة التي اعتمدناها من الكتاب.

[2] جاء في صحيح مسلم: وحدثني أحمد بن عمرو بن سرح وحرملة بن يحيى وعمرو بن يخلو العامري وألفاظهم متقاربة، قالوا: حدثنا بن وهب، قال: أخبرني يونس عن بن شهاب، حدثني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حدثته أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ ز فقال: لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا: صحيح مسلم 1420:3.

وانظر هذه الرحمة العظيمة والشفقة العميمة التي استولت عليه بعد ذلك الهم الذي انطلق معه بلا شعور، فلا تسأل عن شدة المقام الذي انتقل عنه، وشدة المقام الذي انتقل إليه، فما أجدى هذا المكان الذي حصل فيه هذا الترقي لسيد الوجود، صلى الله عليه وسلم، بأن تكون خاصية الفتح القريب في الأمر الغريب والعلم عند الله تعالى.

ثم صلّينا الصبح في الميقات، وذهبنا ومررنا على القهوة التي بتنا بها قبل عند الطلوع؛ أي طلوع الشمس، وانحدرنا مع العقبة الكؤود؛ عقبة أكـرى المتقـدم ذكرها، وتعجبنا من صعود إبل أهل ذلك البلد فيها، وهبوطها بأحمال الفاكهة الثقيلة، مع كثرة الأوعار، وتضايق الصخور الكبار، مع الأحجار المعترضة فيهـا، المشرفة على المهاوي البعيدة، وما وصلنا إلى القهوة التي بسفح الجبل حتى اشـتدَّ النهار، وحمى وطيس الهجير، فاتقينا بأخصاصها وهج الظهيرة إلى أن فاء الفـيء، فآثرنا الركاب، وعالجنا بقية الحرّ في التلوي مع أطراف تلك الشعاب، وما وصلنا وادي نعمان الأراك إلا بعد العصر، وسايرناه مع العشي مسايرة الخـل الرقيـق والخدن العشيق، نكرع من عيونه المترعة التي هي من أصل الساقية المتقدم ذكرها، إلى أن وصلنا إلى القهوة التي هي على حَدٍّ بسيط عرفات بين العشائين، ونزلنا بها في أرغد عيش، حول عين من الساقية تجري على وجه الأرض، وصـلينا صـلاة العشاء، وتعشينا ثم أغفينا إغفاءة، ثم ارتحلنا قريباً من ثلث الليل الآخر، ومررنـا بنمرة، ثم بالمأزمين، ثم بجمع، ثم ببطن مُحَسِّر[1]، كل ذلك ليلاً، فطلع الفجر ونحن بمنى، فدخلت مسجد الخيف، وصلّيت به الصبح، وليس به داعٍ ولا مجيب. وقد كان في وقت الموسم ربما لا يجد الإنسان أن يضع جبهته من الأرض أحياناً لكثرة الزحام.

وتأملت بسيط منى وشعابه، وتبينت سعتها وامتدادها، وكانـت في أيـام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق. ومن رأى منى وما حولهـا مـن الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال: من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

---

[1] محسر: واد بجمع وهي مزدلفة: معجم ما استعجم 4:1190.

ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها؛ قصور عالية وأسواق حافلة وجنود مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومراكب هنيّة، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة، إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل، وصلاة وقراءة ونحر وذبح وإطعام طعام ورمي جمار، وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا. ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى (لا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً)، فلا ترى في منازلهم إلا عظاماً نخرة وخرقاً بالية، وفضلات منتنة، وغثاء أحوى، وقتاما[1] أغبر تسفيه الريح وتذروه، وهذا هو المثال الحقيقي للدنيا، فليعتبر أولو الأبصار من سكان البادية والأمصار.

ثم دخلنا مكة ضحى يوم الأحد، وأحللت من عُمرتي، ووجدنا مكة قد غصَّت بساكنها، والوفود ترد عليها من كل أوب. ولله المِنَّة.

---

[1] القتام: الغبار: لسان العرب: قتم.

ذكر من لقيته بمكة من الأفاضل أيام المجاورة وذكر بعض من لقيته من الإخوان وما اقتبسته من الفوائد خلال ذلك

فممن لقيته بمكة عالمها وابن علمائها مفتي الشافعية وإمام المقام شيخنا زين العابدين الطبري الحسيني[1]، و لم يتيسر لي قراءة شيء عليه في هذه المـدة، وقـد طلبت منه ذلك فاعتذر بكثرة الأشغال ومباشرة خطة الفتوى، وقد كان السـيل الذي ذكرنا خبره قد اجتاح جانباً من إيوان داره، فاشتغل ببنائه و لم يمكن إلا مجرد اللقاء والتبرك بدعائه. ولما كتبت الاستدعاء الذي استدعيت فيـه الإجـازة لي ولإخواني من علماء الحرمين كان هو ممن كتب عليه، وسيأتي نص ما كتـب في آخر الرحلة عند ذكرنا للرسالة التي جمعت فيها كتاباهم، وقد كنت لقيته سـنة أربع وستين وقرأت عليه ما تيسر، وأجازني، وأسانيده مستوفاة عندي في اقتفـاء الأثر[2] وفي تحفة الأخلاء[3]. وممن انتفعت بلقائه، وكان معظم استفادتي بمكة من تلقائه، وجل مروياتي من سماعه وإلقائه، شيخنا العلامة، المحقق الفهامـة، نـادرة الزمان، وإمام من ضمه الحرَمان، خائض بحار العلوم، ومطير مكتومها من جنس المعلوم، المرقى من الرواية على أعلى ذروته بعدما جلس من الرواية علـى أرفـع منصتها، الحائز من علم الباطن أوفر نصيب بعدما رمى في العلم الظاهر بـسهم مصيب، شيخنا ومفيدنا وهادينا ومرشدنا، سيدي أبو مهدي[4] عيسى بن محمـد الثعالبي الجعفري، رضي الله عنه[5]، أوحد عصره في حسن الأخـلاق، وغريـب الشكل في دهره على الإطلاق، قائم بحق الله في نفسه وفي معاملة أبناء جنسه، لا تُمل محادثته، ولا تسأم مجالسته، إن حادثته في أخبار الدنيا أمتعك، وفي أحـوال

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) اقتفاء الأثر، ص: 136 – 137.
(3) إتحاف الأخلاء، ص: 134 وما بعدها.
(4) في ط: محمد
(5) تقدمت ترجمته.

الآخرة نفعك، لم يتنسك تنسك المتنطعين من المتصوفين، ولا استرسل مع العادات استرسال المسرفين، بل سلك في ديانته أقوم سبيل، واقتدى من الكتاب والسنة بأهدى دليل، مع اعتقاد تام في سالكي طريق القوم، واشتراء بضائع علومهم بأعلى سَوْم، يخضع عند ذكر أحدهم غاية الخضوع، ويخشع عند سماع كلامهم نهاية الخشوع، يسلم لهم غاية التسليم في كل الأفعال والأقوال، حتى ربما عِيب عليه ذلك في بعض الأحوال، تلقى من عدة مشايخ، وسلك على طريقهم، إلا أنه لم يعدل عن حزب الشاذلية وفريقهم، فلذلك كان مقبولاً عند أهل الباطن والظاهر كما هو شأن أئمة الشاذلية المشاهر، لا يملك عينيه إذا ذكرت الآخرة وأهوالها، ولا تستفزه نضارة عيش الدنيا وأموالها، لا يغشى أبواب الأمراء، ولا يستنكف عن مجالسة الفقراء، لا يسأل الناس شيئا من أموالهم، ولا يرد ما أتاه الله من نوالهم، قاسى في أول مجاورته من الفقر شدة، فاتخذ الصبر عُدة، فلم يكشف قناع وجهه لطلب نوال أمير، وقنع بالكسرة والماء النمير، ثم اشتهر بعد ذلك أمره، وظهر للناس خيره، فانثال الناس عليه من كل جانب، وبسط له من الرزق، وأشربت قلوب الخاصة والعامة محبته، وعكف في آخر أمره على سماع الحديث وإسماعه، فجمع من الطرق العوالي والأسانيد الغريبة والفوائد العجيبة ما لم يجمع غيره، وكتب الكثير وسمع وأسمع من المسانيد والمعاجم والأجزاء ما لم يتفق مثل ذلك ولا قريب منه لأهل عصره. وكان أول نشأته، رضي الله عنه، في بلاده من وطن الثعالبة قومه، وهي من عمالة الجزائر بإفريقية، وعشيرته ينتسبون إلى الإمام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ العالم الصالح سيدي عبد الرحمن الثعالبي[1] المشهور رضي الله عنه، ثم نشأ في حجر أبيه وجده وحملاه على الاشتغال بالقراءة، فقرأ في بلاده على فقهائها، فاشتاقت نفسه إلى طلب العلم، وسمت همته إلى ما تقاصرت عنه همم أهل وطنه من الإفادة والاستفادة، فدخل الجزائر وقرأ على علمائها وتبرك بصلحائها، وكان من مساعدة القدر له على ما رامه من ذلك أن صادف دخوله للجزائر بقصد القراءة وصول العالم العلامة حافظ وقته سيدي علي بن عبد الواحد

---

(1) تقدمت ترجمته.

الأنصاري الفيلالي[1] إليها، وإقباله على نشر العلم بين أهلها وتصَدِّيه للتعليم بكليته وحصول القبول التام له عند عامتها وخاصتها، فاتصل به الشيخ أبو مهدي ولازمه لزوم الظل للشاخص، وخدمه خدمة الراغب الناصح، حتى اختص به وصار من علية أتباعه، وحظي عنده الحظوة التي ليس فوقها شيء، فزَوَّجه ابنته، وصار من جملة أهل بيته، وهو في خلال ذلك لم يدخر عنه من علومه شيئاً إلا أبداه له، وقرأ عليه كتبا عديدة في علوم كثيرة استوفى ذكرها في فهرسته المسماة بكنز الرواة[2]، وكان مع لزومه لشيخه المذكور ينتفع بغيره في بعض الأحيان، وممن انتفع به من أهل الجزائر أيضاً عالمها وصالحها وفقيهها العلامة المشارك المسن سيدي سعيد بن إبراهيم قدورة[3]، أجاز له جميع ما يرويه عن شيوخه ومنهم سيدي سعيد المقري، رضي الله عنه، ولم تزل حال شيخنا سيدي عيسى مع شيخه تترقى إلى أن وقع له ما أوجب تطليق ابنة الشيخ بأمر من والدها، فلم ينقطع مع ذلك عن خدمته وملازمته، وكانت للشيخ مكانة علية عند والي البلد يوسف باشا، وكان ذا همة عالية وشهامة تُركية، ومع ذلك يحب العلماء ويفهم بعض مقاصدهم، فعظمت مكانة شيخنا أبي مهدي عنده أيضاً، واتصل به، وكان من جملة خواصه إلى أن وقع للأمير المذكور ما أوجب عزله عن الولاية وتنقله خارج البلد في عمالتها، فكان شيخنا في صحبته في كل ذلك إلى أن وقعت أمور وأمور، ومات الشيخ الأنصاري، ومات الأمير، ومات كثير من أقارب شيخنا أبي مهدي في الوباء الواقع لذلك العهد، وبقي هو متنقلا في تلك البلاد بين جبال زَواوة[4] وقسَمطينة وبسَكرة ونواحيها، ثم لقي صالح وقته ببلاد الزاب سيدي أحمد بن المبارك الملقب بالَتواتي[5]، وهو كبير أولاد سيدي ناجي لذلك العهد، وبقي عنده مدة معظم

---

(1) علي بن عبد الواحد بن محمد، أبو الحسن السجلماسي، فقيه مالكي، ولد بتافيلالت، أقام بمصر مدة قبل أن يستقر بفاس، نصب مفتيا للجبل الأخضر، من مؤلفاته: المنح الإحسائية في الأجوبة التلمسانية، توفي بالجزائر سنة 1057 هـ: خلاصة الأثر 1:173. الأعلام 4:310.

(2) قال العياشي إتحاف الأخلاء: وقد اقتصر شيخنا في هذا الثبت على عد المشايخ ولم يرفع من أسانيدهم شيئا لضيق الوقت، وقد استوفى مشايخهم وما رواه عنهم في كتابه الذي لم يؤلف في هذا الفن مثله المسمى كنز الرواة المجموع من درر اليواقيت المسموع، وهو نافع جدا يطلع في نحو من مجلدين: (إتحاف الأخلاء، ص: 144 – 145)، وقال الكتاني في فهرس الفهارس أنه ظفر بالمجلد الأول من هذا الثبت الذي سماه: كنز الرواية المجموع في درر المجاز ويواقيت المسموع: فهرس الفهارس: 1:503.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) زواوة: بليد بين إفريقية والمغرب: معجم البلدان: زواوة.

(5) تقدمت ترجمته.

الحرمة إلى أن مات الشيخ المذكور، وكنت لقيته إذ ذاك[1] ببسكرة أوائل سنة تسع وخمسين، و لم آخذ عنه شيئا، وإنما كانت مذاكرة ومحادثة أبانت منه عن عقل ذكي وفضل جلي، ولما توفي الشيخ التواتي ومات إخوانه وأقاربه، و لم تبق له علاقة في تلك البلاد قادته أزمة السعادة، وساقه سائق الإرادة، فألقى في قلبه التوجه إلى الأماكن المختارة لقضاء الحج والزيارة، فتوجه إلى الحج في سنة إحدى وستين، فكمل الله عليه، فحج وجاور بالحرمين سنتين، وأقبل على نشر العلم وبثه، وكان كامل الأدوات من نحو وتصريف ومنطق وكلام وبيان وأصول، فأعجب أهل الحرمين بحسن تقريره وتبيينه وتحقيقه، فطار له عندهم صيت، وانتشر له ذكر، وتجَدَّدت له رغبة في خدمة الحديث النبوي، وكان فيه قبل ذلك من الزاهدين، فأقبل على الرواية والأخذ والسماع مشمرا عن ساق الجد، فأخذ عمن أدرك من علماء الحرمين كشيخنا القشاشي، وشيخنا زين العابدين الطبري، وأخيه أبي الحسن، والشيخ عبد العزيز الزمزمي[2]، والشيخ علي بن الجمال[3]، وشيخنا تاج الدين المالكي، والشيخ محمد بن علاء الدين البابلي المصري[4]، وكان إذ ذاك مجاورا بالحرمين الشريفين، واستفرغ ما عند هؤلاء من الروايات فلم يشف ذلك غليل أوامه، ولا أبرأ عليل هيامه، وإنما زاده ذلك نهما في طلبه وتغاليا في ارتياحه وطربه، فرجع إلى مصر للأخذ عن علمائها والتبرك بصلحائها، فاستوطنها سنة أربع وستين وخمس وستين، فأكثر الأخذ عن شيخنا الإمام، شيخ مشايخ الإسلام، إمام المالكية وشيخهم أبي الحسن علي الأجهوري، وعن المحقق المسن شيخنا شهاب الدين الخفاجي الحنفي، وعن شيخنا المسند أبي الحسن إبراهيم الميموني الشافعي، وعن جملة كثيرة من مشايخ القاهرة، وقيّد الكثير، وقرأ من الأجزاء والمسانيد الغريبة ما صار به فرد وقته في رواية الحديث، وأعطي القبول التام عند المشايخ وأصحابهم بحيث لا يبخلون عليه بكتاب، ولا يضجرون منه عند إرادة سماع، بل كان يخف على قلوبهم، ويرتاحون للقائه، وقد أخبرني أن شيخنا الأجهوري، مع أخذ الكبر منه غاية وضجره من طنين الذباب في أغلب الأوقات، كان إذا دخل عليه يبتدئه قبل أن يطلب السماع، فيقول له: شنف الأسماع، علما منه أنه لا يأتي إلا لسماع

(1) في ط: إذ ذاك لقيته.
(2) تقدمت ترجمته.
(3) تقدمت ترجمته.
(4) محمد بن علاء الدين البابلي المصري، الحافظ المحدث، جاور بمكة ودرس بها، توفي سنة 1076 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 135. خلاصة الأثر 4:39. التقاط الدرر، ص: 168.

حديث أو رواية غريب، وما دخل على أحد قط من المشايخ فيخرج إلا بفائدة له وللحاضرين، ولو قيل إن مشايخه كانوا يستفيدون منه أكثر مما يستفيد منهم لم يبعد لأن غالب استفادته منهم إنما هي الرواية، وهم يستفيدون منه في درايته وتحقيق معانيه. وقد أخبرني أن الشيخ البابلي كان يقول له: ما وصل إلينا من المغرب أحفظ من الشيخ المقري ولا أذكى منك. فأقول له: يا سيدي إنما تقول ذلك لإنصافك.

ثم ارتحل شيخنا أبو مهدي بعدما قضى حاجته من القاهرة إلى الصعيد للقاء الشيخ الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي أبي الحسن علي المصري، رضي الله عنه، فتلقى منه وقرأ عليه من مصنفاته في طريق القوم، وسمع عليه الحديث. وقد لقيت شيخنا أبا مهدي بالقاهرة في آخر سنة أربع وستين وأوائل سنة خمس وستين، وأخذت عنه وتلقنت منه، وسمعت منه ما تيسَّر، ورافقته في السماع من بعض المشايخ، وكان لقائي له في أواخر رمضان، فكتبت له يوم عيد الفطر أبياتا أهنيه بالعيد، ومن جملتها قولي:

[متقارب]

هنيئًا لأهلِ الصيامِ الذي ... حباهُمْ بهِ اليوم مولاهمُ
لئن جاءَ إن لهُمْ فرحتينْ ... فعندي ثلاثٌ بلقياهمُ

وقد كتبتُ له أيضاً بعد رجوعنا من الحجاز قصيدة يقدمها نثر استعطفه وأستعين به على قضاء الوطر من لقاء المشايخ والأخذ عنهم، إذ كان أعرف بي منهم، وأجرأ على الهجوم عليهم مني، وهذا نص ما كتبته له:

إنَّ أولى ما استعمل به الأديب بنانه وأرسل فيه الأريب عنانه، وأحلى ما تغالت فيه النفوس من مراشف الكؤوس، وأعلى ما استخدمت فيه الألباب، واستعملت الأوتاد والأسباب، واختير له من الألفاظ أبلغها، ومن المعاني أسبغها، ومن المباني أبرعها، ومن الحلي أبدعها، رسالة تهدى، أو يتيمة تسدى، من طالب شائق، أو محب عاشق، إلى شيخ فائق، أو محبوب وامق، تحف بكل لفظ رائق، وتزف بكل معنى لائق، فإن أصاب فمشكور، ولمثله يقال لصدقه في المقال: منحت جواد الفضل من هو راكبه، وإن أخطأ فمعذور، والعذر من مثله مقبول،

والعفو عن زلته مأمول، فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه، وقد تحرك أشعب[1] طمعي، وأجرى جفان هلعي، إن أهدى قصيدة، وليتها عصيدة، لبعض من تمنطق بالجوزاء علوا، وأخذ من الفرقدين سُمَوًّا، وارتدى بالمهابة والديانة، واتزر بالعفاف والصيانة، وتوج تاج البهاء والكرامة، فقدم على رغم الحسود للإمامة. وهذه القصيدة وإن أبانت عواري، وفضحت ما كنت من الفهامة أواري، فربما استحسن منها، تفضلا منه، ما استقبح، ورضى منها تكرما قليل ما منح، فتكون ترميما لما عفا من رسوم الوصال، وتجديدا لما ارتث من حبال الاتصال، فاغتفرت ذلك لهذا، وهب إن بان نقصي كان ماذا. وأقول تطفلا وإن لم يجز فريضة فتنفلا[2]:

[طويل]

إذا غلبتكَ[3] النائباتُ فغالِب ... بفخرِ فُحولِ العلم عيسى الثعالب
أجل الورى قدْرا وعلمًا وفطنةً ... وألينهمْ عطفا على كل طالب
وأحسنَهم خُلقا إذا ما اختبرتَهُ ... وبدرُ سماء المجدِ صدرُ المناقب
إمامٌ همامٌ لا ترَى مثله ولو ... ضربتَ جميعَ الأرضِ جم المناقب
وبحرُ نوالٍ لا تغيضُ زلالُهُ ... ولو كثرتْ ورادهُ كف ساكب
فحرفتهُ التقوى وصنعته الندَى ... ومكسبه التفويضُ خير المكاسب
رئيسُ المعالي نخبة الدهرِ ماجدٌ ... وعقد لآلي الحمدِ تاج المراكب
وأفضلُ من تسمو له همةٌ سَمَتْ ... ودانتْ لأدناها عَوالي الكواكب
على رتبةٍ من دونها البدرُ قد غدَا ... وزاحمَ فيها المُشتري بالمناكب
وخاضَ بحارَ العلم غير مُذَمم ... على مركبِ الإنصافِ أنجى المراكب
فكمْ صاغَ من دُر يقل نظيرُهَا ... ولم تبتذلها قبلهُ كف ثاقب

[1] إشارة إلى أشعب الطماع؛ ابن جبير المدني، ويعرف بابن أم حميد، وهو مضرب المثل في الطمع، توفي حوالي سنة 154 هـ: سير أعلام النبلاء 7:66.
[2] وردت القصيدة في الثغر الباسم ص: 271.
[3] في ط: غالبتك.

وكم نثرتْ سـلكَ البلاغـةِ كفـهُ | وكم نظمتـهُ بـالنجومِ الثواقـبِ
بحقكَ أنصِتْ هل سمعـتَ بفاضـلٍ | سَني سواهُ سـاطع الـذهن ثاقـب
فليسَ له مأوى تـراهُ بـه سـوى | صدورِ الكراسي أو بطونِ المحـارب
فلا تلتفـتْ يومـا لقـولِ عداتـهِ | ولو نقنقتْ منهم شـيوخُ مَحـارب
يوَفِي لكلٍ من ذوي الحـق[1] حَقـه | ويخضعُ للمـولى بـصدرِ مراقـبِ
إذا رمتَ منه القربَ يومـا لحَاجـة | فلا تغلُ في الإطْرا وسـددْ وقـاربِ
وليسَ من الإطـراءِ إن قلـتَ إنـه | لأفضلُ من مُدتْ له كـف راغـب
هو الفـذ في كـل العلـومِ وإنـهُ | على من معالي أصْلها فوق راغـب
وما قلتُ ذا ظنـا ولكـن لخبرتـي | بكـل الـبلادِ شـرقها والمغـارب
فكمْ من تآليف لـهُ يُهتـدى بهـا | إلى الرشدِ ممن جهلـهُ في غياهـب
لمذهبـه فخـرٌ بـه ومكانَـة | وعز بـه يعلـو جميـعَ المـذاهب
حباهُ الذي حلاه علمـا وحكمـةً | وشرفهُ بالـذكر أعلـى المواهـب
وبلغـهُ في كـل مـا رامَ عـاجلا | من الله في دنيـاهُ أسـنى المطالـب
وبَـوّاهُ في[2] دار الكرامـةِ آجـلا | وعقباهُ عنـد الله خـير العواقـب

وقد أجابني عن هذه الأبيات بما نصه: الحمد لله، يقول كاتـب الأحـرف المسمى نفسه آخرا: إن صاحبنا الأديب البليغ الناظم الناثر، ريحانة الآداب وواسطة الأحساب، سيدي عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، وصل الله إكرامه، وبلغه من محمود المقاصد مرامه، خاطب العبد الفقير بقصيدة متمكنة الأعجاز والصدور، مسبوقة بأسجاع متناسقة، ولا تناسق القلائد في النحور على الصدور، فجرى قلم فكري الفاتر وذهني القاصر، شاكرا لفضله بهذه الأبيات المتأخرة عـن مبـاراة

---
(1) في ط: الحق.
(2) زيادة من ط.

الصاحب الأرضى، البائنة عن صوب معاقد البلاغة، إن لم تنظر بعين المسامحة والإغضاء، وهي هذه:

[طويل]

حبا بابنة الفخم العلا والمناقب فريدة فرد في امتطاء المناصب

أتتْ تتهادى في مُروط ملاحة تجررها تيها على كل كاعب

وتأنف إن كانت يتيمة دهرها جمالا بديعا عن إجابة خاطب

ولا بِدع في إعجاب بكر محاسن من ابن أبي بكر أتتْ بعجائب

سوت غُررا في مشرق آي حسنها كما بهرت من مغربِ بغرائب

وقد يممتْ فضلا عديم كفاءة وعاطل جيد من حلى المناقب

أباحتْ له وهي المنوع جمالها ودانت وما كانتْ تدين لراغب

فأهلا بها بكرا عرُوبا قد أعربت قضايا ثناها عن براعةِ عارب

ومنت وما منت بود مؤيد بجازم عقد واجب غيرِ واجب

فيا روحَ آداب وشخص فضائل وناظر أحداق الذكاء لطالب

جُزيت بما أسديت أفضل منحة وبُلغت من رغباك أسنى المطالب

قاله وكتبه العبد الفقير إلى مولاه، الطامع في واسع رحماه، عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري.

وممن أجاب عن قصيدتي المتقدمة أيضا صاحبنا الفقيه النبيه سيدي أحمد القصري الملقب بالسبع، وكان إذ ذاك بالقاهرة معدوداً من جملة أصحاب شيخنا أبي مهدي، فكتب إلي قصيدة طويلة في روي قصيدتي ووزنها، تركت إيرادها لطولها، ولما وقع من الانحلال في كثير من أبياتها، فأجبته عنها بأبيات هذا نصها:

[طويل]

أتاني نظامٌ كالنجوم الثواقبِ أو الدر مجلي في نور الكواعبِ

أو الزهر المزهو في الروض قد بدا تصافحُ أعلاه أكف السحائب
فما هو إلا البدرُ أشرق نورهُ فأبدى لنا وجهَ الضحى في غياهب
أو الراحُ أبدتْ للعيون حبابها وقد أخذت بالثأر من عقل شارب
بسحرٍ حلال واضح نفثت به قريحة خل واقد الذهن ثاقب
إمام همام فاضل متبين أديب زكي الأصل جم المناقب
ليهن بلاد الشرق ما افتخرتْ به قديما عليها منه أقصى المغارب
فلا تعجبوا من غربة قذفت به فكم مثلها في دهرنا من عجَائب
وقدما نبت الأكرمين ديارهم وما قصروا عن نيل أعلى المناصب
وكم من غريب حل بعد اغترابه من المجد في أعلى الذرى والغوارب
هزبر العلوم اللوذعي ومن غدا يُنادي إذا ما حاربت باسم غالب
إذا اغبرت الهيجا واحمرت القنا وقيدت لدرس العلم حُمر النجائب
هنالك يبدو حاسرا غير دارع لها بجنان حاضر غير غائب
فيوضح منها مشكلا ويزيله وترنو له الأحداق من كل جانب
ودانت له صعب العلوم بأسرها ومدت له الأعناق من كل طالب
هو العلمُ الفردُ الذي بجنابهِ مخافة جهل يلتجي كل هارب
جزاه إلاه الخلق ما هو أهله وسن له في القرب أعلى الرغائب

ولما قضى نهمته من بلاد مصر واستفرغ ما عند علمائها، كَرَّ راجعاً إلى الحرمين فاستوطنهما، وألقى عصاه بهما وقر عينا بتلك البقاع المطهرة كما قرت به أعينا، نادته السعادة هنا امكث أزمنا، فتفرغ حينئذ لجمع ما كتب ونشر ما نشر[1]، وإقراء ما قرأ، وإسماع ما سمع، وجمع من عوالي المسند وغرائب المسلسلات

---

[1] في ط: لنشر ما جمع، ونشر ما كتب.

ونوادر التواريخ ما تقاصرت عن أدناه همم أهل زمانه، وتتبع الخزائن الكبار بمصر والحجاز فاستخرج منها غرائب المصنفات، قيد الكثير منها، وانتقى الثنائيات والثلاثيات والرباعيات من الأحاديث وما فوق ذلك إلى العشاريات من كثير من المصنفات والجوامع والمسانيد والأجزاء بحسب أزمنة مؤلفيها، فينتقي من كل مصنف أعلى ما فيه، وضبط من الأسماء والأنساب ما قَلَّ أن يوجد عند غيره، وأظهر من طرق الرواية ما كان عند غيره مخفياً. وبالجملة فهو نادرة الوقت ومسند الزمان. ولما علمت إني، وإن اجتهدت فوق طاقتي وطفت ما عسى أن أطوف على المشايخ، لا يمكنني أن أجمع ما جمع، ولا أن أحصل من النفائس ما حصل، رأيت أنه قد كفاني المؤنة، وأن الله قد جمع لي ما كان مفرقاً في واحد، فرأيت كل العلمين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا[1].

فعكفت على القراءة عليه والسماع منه، فيسر الله تعالى أن قرأت عليه وسمعت في أزمان قليلة ما لم يسمع غيري في عمره، وكفيت مؤنة تقييد الأسانيد بموافقتي له في كثير من شيوخه وكثرة ما جمعت من ذلك قبل بحمد الله، وإن كان دون جمعه، مع تحصيلي لفهرسته المسماة بكنز الرواة، وهو تأليف سلك فيه مسلكاً عجيباً، ورتَّبه ترتيباً غريباً جمع فيه من غائب الفوائد شيئا كثيراً، وهو إلى الآن لم يكمل، وإذا مَنَّ الله بإكماله يطلع في عدة أجزاء. والمسلك الذي سلك فيه أنه رتبه على أسماء شيوخه فبدأ أولاً بالتعريف بالشيخ، وذكر مؤلفاته ومقرؤاته وأسماء شيوخه حتى يستوفي جميع ذلك، ثم يذكر قراءته هو عليه وما قرأ عليه من المؤلفات، ثم يذكر سند شيخه إلى ذلك المؤلف فيكتب شيئاً من أوله، ثم يعرف بمؤلف ذلك الكتاب أبسط تعريف مع ما يستتبع ذلك من الفوائد والضبط، وكذلك يجعل في كل شيخ من شيوخه وفي كل مؤلف قرأه عليه أو شيئا منه، فاستوفى بذلك تواريخ غالب الأئمة المؤلفين وأسانيد مؤلفاتهم، وذك مما يدل على اعتناء عظيم وحفظ تام ومطالعة واسعة، والحاصل أن هذا المؤلف نزهة الناظرين وغبطة السامعين. وقد وَهَبَ لي خليلي الشيخ حسن بن علي العجيمي نسخة بخطه مما وجد من هذا المؤلف، وأجازني به مؤلفه وناولنيه. وسألته هل سميته؟ فقال لي: ما سميته شيئا ولا وضعت في أوله خطبة. وقال لي: أريد منك أنت أن تضع له

---

[1] تضمين لبيت المتنبي (شرح ديوان أبي الطيب المتنبي 2:290):
ولقد لقيت كل الفاضلين كأنما   رد الإله نفوسهم والأعصرا

خطبة في أوله وتسميه، فتعللت واعتذرت، فلم يقبل عذري. فلما رأيت أن الأمر منه جد قلت: أيكون ذلك على لساني أم على لسانك؟ فإن لكل مقام مقالا. فقال لي: أيهما شئت فافعل، فقلت: إن الذي في خاطري إنما يتيسر لي على لساني، فقال لي: انهج أي طريق شئت، فاخترت أن يكون ذلك على لساني ليتيسر لي ما أردت من البناء على المؤلف والتأليف، وهذا نص ما كتبت له مستعينا بالله:

باسم الله الرحمن الرحيم: إنَّ أصح ما يستند إليه الضعيف من أحسن الأعمال، وأعز شاهد يعتبره العقل ويتابعه النقل على بلوغ الآمال، حمد العزيز الفرد المطلق في كل أمر ذي بال على ما تسلسل واشتهر واستفاض من آلائه عند كل ذي بال، ونشكره على تواتر على العالي والنازل من آحاد خلقه من مقبول الأفضال، وتحمله الأبناء على الآباء من مِننه على التفضيل والإجمال. وأفضل صلاة وسلام على خير مرسل على غيره عند الله مرفوع، وأكمل من أدرج في خلقه كل مفرق من الكمال ومجموع، فإليه ينتهي كل مروي من الفضل ومسموع، وبعثته كل منكر متروك وموضوعٍ، وكلٍ رشاد موصول غير مقطوع ولا ممنوع. أنزل الله عليه أحسن الحديث كتاباً متشابها، وأخمل بظهوره ما كان من الكفر والضلال نابهاً؛ صلى الله وسلم عليه وعلى كل هاد من أصحابه وسائق، وكل سابق من آله ولاحق، وكل تابع لهم بإحسان غير ملحد في الدين ولا مارق، وعلى كل حامل للدين بعدهم غير مجانب للجماعة ولا مفارق، خصوصا عصابة أئمة الأثر السالكين بعدهم على الأثر، الناظمين من درر الحديث في سلك الرواية ما انتشر، والمجددين لما عفا من رسومه واندثر. هذا وإني قد جبت غالب البلاد بتيساري، وحككت جل المنتحلين للعلم بها على معياري وأسبر غور أنجادهم بمسباري، واسم بواتر سيوفهم بمصماري، وأسابق بين جيادهم في مضماري، عسى أن أصادف سيفاً منهم مع مقارعة النوائب لا ينبو، وجوادا إذا تصادمت الفرسان في الميدان لا يكبو، تكون له قوة إقدام على تفريق كتائب المعقولات وجمع شوارد المنقولات، متضلعاً من علوم الرواية، جامعا لفنون الدراية. أجعله في فتح معاقل المشكلات أميري، وأتخذ كلامه في وحشة الجهل سميري، وأصعد في سلمه إلى غرف من الرواية من فوقها غرف من الدراية تجري من تحتها أنهار من الرعاية، واستغني بتطوافه على أعلام الرواية عن تطوافي وتردادي وبجوْبه لمهامه الدراية عن تجوابي، وإسنادي يكون مانعاً جامعاً، وجامعاً لا مانعاً، يغني بعلم، ويقني ويقرب

بفهمه، ويدني ويؤنس بخلقه ولا يؤيس، ويقوم على ساق الجد ولا يجلس، ويطلق عنان التقرير ولا يحبس، فلما كاد ظلام اليأس أن يكسف نور رجائي، وأخذ الوهم في إقصائي عن نيل المطلوب وأرجائي، هممت أن أميل إلى بعض القرى وأستبدل من فوائد الإقراء موائد القرى، وأقتصر من التعليم على ما لا بُدَّ لي منه ولا غنى لي عنه، وأتخذ لأورادي سبحة، ولا أطالع من أوراقي صفحة، و لم أزل في أمري متحيراً، ولما أنتحله من النحل متخيراً، إلى أن هتف بي هواتف السعادة أن تعلم العلم من أقوى العبادة، فلا تترك الاستفادة والإفادة، وامزج الطلب بالإرادة، واتخذ العزم إمامك، فالذي تطَّلَب أمامك، وأمّ أُم البلد وابذل في ذلك الطريف والتلاد، عساك تصادف هنالك بعض بغيتك، وإلا فأنت على نيتك في أوبتك، فلما بلغت البيت العتيق، وتضمخت بمسكه الفتيق، طفقت أتصفح الوجوه ببصري، وأسِمُ البصائر بميسم فكري، فبينما أنا كذلك متفكر إذ حانت من فكري التفاتة متذكر إلى إمام الحرمين المشرفين، وعلم المغربين والمشرقين، فارس المنابر، ومخدوم الأقلام والمحابر، جامع أشتات العلوم النقلية، ومبرز خفايا لطائف الآراء العقلية، محي رسوم الرواية بعدما عفت آثارها، ومشيد مبانيها الأنيقة بعدما انهدم منارها، وسالك مسالك أئمة السلوك، ومالك ملاك أمره في مجانبة الملوك، وهالك في محبة الله مستهلك فيه عن كل هالك وهلوك، المهاجر في الله وبالله وإلى الله عن أهله وبلاده، السائر بسيرة الإنصاف والتواضع لله في عباده، حامل راية الهداية في موكب الولاية بكف العناية لأهل البداية والنهاية، المقتبس له بالإشارة على سبيل البشارة من صريح العبارة في قول خير من ركب عيسا: لا مهدي إلا عيسى[1]. ولا بدع في إشارة مثاره لا تعفى من الظاهر آثاره لنكتة لا تنكر وقد لا تذكر، شيخنا الفهامة، ومعلمنا العلامة، أبي مهدي عيسى بن محمد الثعالبي الجعفري، رأس مقانب[2] العلوم، العبقري، نسب عريق في السيادة، مثمر للمتقين، ولا يزال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. لا زال وأغصان دوحات علومه يتفيا ظلالها العقبات، وحواس إدراكه المدركات لخفي المدركات سالمة من كل الآفات. فلما ألقي في روعي ما ألقى من أمره، علمت أنه الحق الذي لا معدل عنه إلى غيره، فصرفت عنان الاعتناء لاجتناء جنى ثماره، وحدقت بصر البصيرة في استطلاع شوارق أقماره، فاستخرجته و لم أكن به من

---

(1) المستدرك على الصحيحين 4:488.

(2) مقانب: جمع مقنب، كف الأسد: لسان العرب: قنب.

قبل، وإن كنت ممن يخبر عنه خبيراً، فوجدتُه قد حصل من العلم والعمل والذوق جانباً كبيراً، فهَزَّني ما خبرت منه، وشاقني وقادني إلى التتلمذ له برقبتي، وساقني ثم قال لي الوهم: جدد النظر ولا تقلد ما يبدو للبصر، فإن الحس قد يغلط، والغث بالسمين قد يختلط، فارجع البصر هل ترى من فطور أو خلل، ثم ارجع البصر كرتين[1] بلا ملل، فرأيتُ أن قوله الحزم والأمر الجزم، فعاودت النظر كرة ثم أخرى فوجدتُه أحق بأكثر مما ظننت فيه وأحرى، وما اختبرته في أمر ما إلا وجدتُه حُرًّا، وهلم جرا، يزيد وجهك حسنا إذا ما زدته نظرا، ثم قلت للوهم المسير بالتوفيق حين حصل التعرف: إليك عني فما تري مني.

[وافر]

أَلَمْ تعلمْ بأني صَيرفيٌّ | أحُكُّ المدعينَ على مِحَكِّي[2]
فمنهمْ بهرجٌ لا خيرَ فيهِ | ومنهمْ من أجَوزُهُ بِشكِّ
وهذا الخالصُ الذهبُ المُصَفى | بتزكيتي ومثلِيَ من يُزكي

وعندما انكشف الغيب وزال الريب، علمت أني على الخبير سقطت، وأزلت الحجاب عن مطلبي وأمطت، فتوجهت إلى الأخذ عنه بكليتي، وتركت ما كنت أتعلل به قبل من الذي والتي، فاستفدت ورويت، وشربت من حوضه المعين وما روِيت، وصرت في مطلبي المزيد ذا إمعان ومنهومان لا يشبعان، إلى أن رأى نار حرصي على الأخذ بما في يديه لي لا تنطفي، وظمئان عزمي في هواجر التلقي عنه بصغار الكؤوس لا يشتفي، فأطلعني على بحر زخار وعسكر جرار، ومجموع له جموع لو تروّحن لكان منتهى الجموع، جمع فيه الطم والرم من مروياته ومسموعاته ومرئياته، جمعه لما علم أن هذا الأمر عليه قد تعين، وإن صباح انفراده بهذا العلم لذي عينين قد تبين، وقصده الإشراف من سائر الأطراف للأخذ عنه والتلقي والتسليك على يديه والترقي، فلم يكن له بد من جمع مروياته في سلك تصنيف ليأخذ منه كل طالب حاجته من غير تطفيف، فلما سبحت في بحاره، وأجلت جواد فكري في مضماره، غرقت فيه وكنت قبل أحسن العوم. وقال الفكر النفاذ: هذا شيء ما رأيته قبل اليوم، فلم أزل أتردد ما بين أزهاره وأنهاره

[1] إشارة إلى قوله تعالى: (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير): الملك: 4.
[2] الأبيات ليحيى الصنافيري: الدرر الكامنة 6:235. الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 375.

وحياضه وأشجاره، فما أفتن من عجب إلا إلى أعجب، ولا أخرج من طيب إلا إلى أطيب، حتى أهمته بالمطالعة، وعدت عليه ثانياً بالمراجعة، فوجدته بسائر المطالب كفيلاً، وعلمت أني لا أجد له في فنه مثيلاً، فاقتطفت منه على حال استعجال من الأمر واختلاس من يد الدهر أزهارا على تعاقب الفصول لا تذبل، ودرراً لا تُبَاع من الذهب بوزن يذبل، وكيف لا وقد اختص بأشياء لا توجد في غيره، ولا يسير فيها أحد قبله ولا بعده بسيره، وامتاز بطرائق عديدة ولطائف حميدة تمتطى في اقتناء أدناها الركائب والمراكب، ويزاحم محصلها الجوزاء بالمناكب، أحدها ما شنف به المسامع وانقطعت عن وجدانه مجموعا في غيره المطامع من التعريف بكل إمام اتصل به سنده تعريفاً يصيره كالمشاهد بالحس ولو طال أمده. ثانيها ما أتعب الأفكار في الأبكار والآصال[1]، ومن ضبط غالب أسماء الرجال، وقد ضاق على كثير من الفحول فيه المجال. ثالثها: ما طرز به برده المحبر حتى فاق المنظر فيه المخبر من الإتيان بجملة من أول كل مروي تنشر من محاسنه بعض المطوي. رابعها: ما أدرج في خلاله من الحكايات والطرف الآخذة من الحسن بطرف إلى غير ذلك مما بين النظر مكمونه، ويثير الفكر مدفونه.

وحاصل الأمر فيه أن متأمله لا يقف لمحاسنه على غاية، وأنه على تمهر صاحبه في العلوم أكبر آية. وقد سألت مستخرج درره من البحور إلى أعالي الأجياد والنحور بمَ سميت هذا العقد بعد نظم جواهره، وهذا الرياض بعد انفتاق أزهاره؟ فقال لي: إلى الآن ما سميته، ولا حليته بما يستحقه بعدما أمليته، غير أني لا أراه أهلا للتحلية، وإليك النظر في التسمية، فبادرت إلى تنميق هذه الأسطار المتأرِّجة بطيبه المعطار، فكتبتُها على حسب حالي لا على حسب حاله، وسَمَّيتُه لئلا يتطرق مُدَّعٍ إذا تطاول الأمد إلى انتحاله: كنز الرواة المجموع من درر المجاز ويواقيت المسموع. وجعلت ما كتبته خطبة يدخل من بابها لهذا الحرز، وطلسما يستعان به على فتح هذا الكنز، فمن أضافها إلى أول الكتاب فلا حرج عليه ولا عتاب، وقد اقتدى بي ونعم ما فعل، وإلا فكل لرحله انتعل، ومن منع فلا يلام في منعه، وربما يحمد في صنعه، لأنه كره إضافة الترب للتبر، والذهب للصفر، وأنفَ من إضافة الشكل إلى غير شكله، فلا حرج عليه أيضاً في فعله، إلا أن إضافة الجميل إلى الأجمل قد يكون في التنويه به أكمل، والسيف الصقيل لا ينقصه رثاثة

[1] في ط: الآصال والأبكار.

غمده، والسيد لا يؤاخذ بجناية عبده، فإن أحسن العبد فهو لسيده وما ملك، وإن أساء فالعبد فيما جنى وما استهلك، والله لا يضيع أجر من أحسن عمـــلا[1]، ولا يخيب لراجيه وإن أساء أملا، فنعم المولى ونعم النصير، وهو حسبي وإليه المصير.

قال شيخنا، أطال الله بقاءه، وأدام في أوج الكمال ارتقاءه، فيما قرأت عليه بعضه وأجازنيه وأذن لي فيه وناولنيه، أن أول ما غمرتني إفادته، وشفعت الخطبة المتقدمة بقصيدة دالية أدرجتها[2] فيها أدراج القنو المذلل بين أغصان الدالية، جبرت بانسجام نظمها ما عسى أن يقع في النثر من تفكيك، وبلفظها الفصيح ما لعلـــه وقع من معنى ركيك، وهي هذه:

[طويل]

أتتيكَ تهديني الرشـــادَ أبـــا مهـــدي ... فمثلي من استهدى ومثلك من يهـــدِي

جمعتَ خصالاً لم تكن جمعـــت لمـــن ... سواكَ بهذا العصر من خالص المجـــد

جُبلت عليها ثم أخـــرى اكتـــسبتها ... فحزت كلا المجدين بالجـــد والجَـــد

وخُضت بحارا مـــن علـــوم كـــثيرة ... فأخرجتَ منها الدر عارٍ من الزبـــدِ

فحليتني من ذاك الـــدر مـــا غـــدا ... على الرأس تاجا أو سوارا على الزنـــدِ

غنيت به بعد العنـــا غايـــة الغـــنى ... فأثرت به وكفى وأوري بـــه زنـــدِ

فحسبي الذي قد قلتُ منك فلا أرى ... مدى الدهر محتاجا لعمرو ولا زيـــدِ

شكرتك بعـــد الله فيمـــا حبـــوتني ... فأنت حر بالمـــدح مـــني وبالحمـــدِ

فقد جاء من لم يشكر الناس لم يكن ... ليشكر رب الناس والـــضد بالـــضد

تقبل بفـــضل منـــك تُحفـــة قـــادم ... ووصلة ظمآن الحشا صادق الـــود

فيا ليت شعري ما الذي لي عنـــدكم ... من الود هل ياتي كبعض الذي عنـــدي

أحبك حبـــا صـــادقا أرتجـــي بـــه ... من الله ظل العرش في جنـــة الخلـــدِ

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا): الكهف 30.
[2] في ط: درجت.

فلا تنسني مـــن دعـــوة في تـــضرع | لكم بفناء البيـــتِ للواحـــد الفـــردِ
فـــإني محـــسوب عليـــك وإنـــني | عيال عليك اليوم في القرب والبعـــدِ
فمُن علـــى فقـــري بعقـــد أخـــوة | تزيد على طول المدى شـــدة العقـــدِ
وودني لو أســـطيع عقـــد عبـــودة | ولكن أخاف العجز من خدمة العبدِ
أقل انتساب منك يكفي ولا عـــنى | عن أكثره للعبد لو كـــان ذا ســـعدِ
فإنـــك جـــار الله جـــار رســـوله | فإن كنت جار الجار قد فزت بالرشدِ
وقصدي بهذا كله أن يكـــون مـــن | دعائك لي سهم ولو كـــان بالوعـــدِ
على أن وعد الحـــر عـــين عطائـــهِ | ووعد ســـواه في الحقيقـــة لا يُجـــد
أبنت لكم قصدي وأخفيـــت جلـــه | فلله مـــا أخفـــي ولله مـــا أبـــدي
وأزكـــى صـــلاة الله ثم ســـلامه | على خير هاد قد تكلـــم في المهـــدِ
يكونان لي في الحشر خـــير وســـيلة | إلى الله ترضيني وشيخي أبا مهـــدي

فلما قرأت عليه النثر المتقدم والقصيدة سر بهما واستبشر وتلقاهما بالقبول، وأطنب في الثناء والحمد ودعا لي بدعوات كثيرة ووعد بأمثالها في مظان الإجابة، فحمدت الله وشكرته إذ وفقني لما استجلبت به مودة الصالحين من عباده، وأغتنم به بركة دعائهم، وعقد لي ما قرت به عيني من أخوته ومودته، وألبسني قباء لـــه كان يشهد به مواسم الخير من جمع وزيارات، وحباني من بره وإكرامه ما لم أكن أهلا لبعضه فضلا عن كله.

وكتبت له أيضاً أُهنّيه بمولود ولد له ونحن إذ ذاك بمكة شرفها الله تعالى هذه الأبيات مؤرخا بها ولادته:

[كامل]

يهنيكَ يـــا مـــولاي بـــدر طـــالعٌ | في أفْق ســـعد قـــد بـــدا إســـعادهُ
أبقـــاه ربي نافعـــا لعلاكـــمُ | بـــأتم مـــا نفـــعَ امـــرءا أولادهُ

وأدامَ نفعـــك للعبـــاد معظمـــا   حـــتى تقبـــل كفكـــم أحفـــادهُ

وأقـــر عيـــنكم بـــه في نعمـــة   تغـــشاه مقرونـــا بهـــا إرشـــادهُ

تاريخـــه الميمـــون وقـــولي صـــادقا   ولـــد ســـعيد ســـركم مـــيلاده

ذكر بعض ما سمعت عليه من المرويات (رضي الله عنه)[1]

سمعت منه، رضي الله عنه، جميع معجم الطبراني الصغير بلفظه، إلا مجلساً واحداً بروضة الجنَّة من المسجد النبوي، لما قدم المدينة للزيارة في شهر رجب. وسمعت من لفظه أيضاً أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً للشيخ تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة ونزيلها بالحرم النبوي أيضا، وسمعت منه أيضا بالحرم النبوي نحو الربع من الشمائل بلفظه، وسمعت من لفظه أيضا بالمسجد الحرام في شهر رمضان جميع الخلعيات إلا مجلساً واحداً، وهي الفوائد المنتقبات الحسان من الصحاح والغرائب، تخريج أبي نصر الشيرازي من أصول سماعات القاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الخلعي، رضي الله عنه[2]، وهي عشرون جزء، وكان يسمعنا كل يوم جزء.

ولنذكر بعض أحاديث هذا الكتاب تبرّكاً بها وبجامعها لغرابة، هذا الكتاب بقطرنا، ولسماعنا لها من لفظ مسند الزمان في أشرف مكان وزمان، فأقول: وهذا ما انتقيته من الجزء الخامس: أخبرنا الشيخ أبو مهدي عيسى ابن محمد الجعفري المالكي المغربي بالمسجد الحرام قبالة الركن اليماني في شهر رمضان من سنة ثلاث وسبعين وألف، عن الشيخ أبي الحسن الأجهوري، عن الرملي، عن زكرياء، عن الحافظ ابن حجر، عن أبي الفرج الغزي الشهير بابن الشيخة، عن أبي الحسن علي بن قريش المخزومي، عن الزكي عبد العظيم المنذري، عن أبي محمد عبد الله بن المجلي الرملي، عن القاضي أبي محمد عبد الله بن رفاعة، عن القاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الخلعي، رضي الله عنه، قال: أخبرنا أبو عبد الله شعيب

---

(1) زيادة من ط.

(2) علي بن الحسن بن السين الخلعي الشافعي، كان يبيع الخِلع لملوك مصر فنسب إليها، ولد بمصر سنة 405 هـ وبها توفي سنة 492 هـ، خرج أحمد بن الحسين الشيرازي أجزاء من مسموعاته في الحديث سماها الخلعيات: الأعلام 4:273.

بن عبد الله بن المنهال قراء عليه وأنا أسمع، نا أحمد بن الحسين بن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمر بن خالد، نا عبيد الله بن عمر عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن نافع، عن ابن عمر، عن حفصة بنت عمر؛ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كـان إذا أذن المـؤذن بالفجر قام فصلى ركعتي الفجر ثم خرج إلى المسجد ويحرم الطعام،قال: وكان لا يؤذن حتى يصبح[1].

أخبرنا أبو عبد الله شعيب بن عبد الله بن المنهال قراءة عليه وأنا أسمع: نـا أحمد بن الحسين بن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمر بن خالد، نا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بهذا السواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة[2].

أخبرنا أبو عبد الله شعيب بن عبد الله بن المنهال، نا أحمد بن الحسن بـن إسحاق الرازي، نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمر بن خالد، نا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن عطاء عـن جابر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: عمرة في رمضان تعدل حجة[3].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزار، نا أبو الحسن شعبة بن الفضل بن سعيد التغلبي، نا إبراهيم بن عبد الله اللهبي[4]، نا محمد بن عبد الله الأنصاري، نا إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أنس قال: قال رسـول الله، صلى الله عليه وسلم: من كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار[5].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن الخصيب القاضي، نا أبي عبد الله بن محمد بن الخصيب، أملأنا أحمد بن يحيى بن إسحاق، نا سعيد بن سليمان عن شريك عـن

---

(1) المعجم الكبير 192:23.
(2) الأحاديث المختارة 233:10.
(3) أنظر: صحيح البخاري 659:2.
(4) في ط: الكحبي.
(5) المعجم الكبير 170:2.

جامع بن أبي راشد، عن وائل عن عبد الله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. و لم يكن يعلمنا هذا كما يعلمنا التشهد؛ اللهم ألف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، أو قال: ذريتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين مثنين بها عليك قائليها، وأتمها علينا بخير.

أخبرنا أبو العباس منير بن أحمد بن الحسن بن علي بن منير الشاهد قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن أحمد بن إسحاق البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو عمر مقدام بن داود بن عيسى بن تليد الرعيني إملاء، نا أسد بن موسى، نا مروان بن معاوية، نا محمد بن أبي قبيس مولى بني هاشم عن رجل، عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يقول على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أكرموا المهاجرين الأولين، أكرموا الذين صاحبوني، أكرموا الذين آووا ونصروا، ثم الذين يلونهم خير ممن بعدهم، ثم الذين يلونهم ثم أولئك خير ممن بعدهم، ثم يظهر الكذب، فيشهد الرجل ولا يستشهد، ويحلف ولا يستحلف، ويبذل نفسه بخطب الزور، ولا يدعي إلا بمن هو بحبوحة الجنة، فلا ينتر من جماعتكم التي أفارقكم عليها فإن ملائكة تحرسها، فمن رغب عنها برئت منه ذمة الله ورسوله، وهو من الهالكين، ألا وإياكم أن يسأل أحدكم عن الإيمان ليعرف الرجل نفسه، إلا فمن أشفق منكم من سيئة ورجا حسنة فذلك المؤمن.

أخبرنا أبو العباس منير بن أحمد بن الحسن بن علي بن منير الشاهد، نا أبو الحسن علي بن أحمد بن إسحاق البغدادي، نا أبو عمرو مقدام بن داوود ابن عيسى بن تليد الرعيني، أملأنا أسد بن موسى نا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم عن أبيه سعد بن إبراهيم عن محمد بن جبير قال: أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم

فكلمته بشيء، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ تعني الموت، قال: إن لم تجدني فآت أبا بكر[1].

أخبرنا أبو العباس منير بن أحمد بن الحسن الخشاب، نا علي بن أحمد بن الحسن البغدادي، نا مقدام بن داود بن عيسى بن تليد الرعيني، نا أسد بن موسى، نا محمد بن حازم الكوفي عن عبد الله بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة، عن عائشة قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعبد الرحمن بن أبي بكر: إيتني بكتف حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يفترق عليه. قالت: فقام ليجيء بالكتف فقال: اجلس يأبى الله والمؤمنون أن يختلف على أبي بكر.

أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسين بن جعفر العطار قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكر، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق بن جامع المدني سنة سبع وتسعين ومائتين، نا أبو الحسين سفيان بن بشر الأسدي الكوفي، نا علي بن هاشم بن البريد عن فطر بن خليفة عن أبي الطفيل قال: جمع علي عليه السلام الناس في الرحبة فقال: أنشد الله امرؤا مسلماً سمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول يوم غدير خم ما قال، من كنت مولاه فعلي مولاه[2]، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، إلا قام يشهد. قال: فقام أناس من الناس يشهدون. قال أبو الطفيل: فخرجت، فكان في نفسي شيء، فلقيت زيد بن أرقم فقلت: إني سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول كذا وكذا. قال: وما ينكر من ذلك؟ فقد سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول ذلك كله.

أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسين ابن جعفر العطار: نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكر، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق ابن جامع المديني، نا أبو الحسين سفيان بن بشر الأسدي، نا علي بن هاشم بن البريد عن فطر عن ابن إسحاق وعن سعيد بن وهب وعمرو ذي مر وزيد بن بثيع، قال: قال علي عليه السلام: أشهد الله امرؤا مسلماً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم ما قال الإمام. قال: فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا، ستة من جانب، وسبعة من جانب. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

---

[1] صحيح مسلم 4:1856.
[2] المعجم الكبير 5:202.

أخبرنا أبو حازم محمد بن الحسين ابن خلف الفراء البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع: نا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدار قطني الحافظ، نا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، نا وهب بن بغية، نا عبد الله بن سفيان الواسطي عن ابن جريج عن عطاء بن أبي الدرداء قال: رآني النبي، صلى الله عليه وسلم، أمشي أمام أبي بكر، رضي الله عنه، فقال: يا أبا الدرداء أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة، ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيئين أفضل من أبي بكر رضي الله عنه.

أخبرنا أبو حازم محمد بن الحسين الفراء: قال أبو الحسن علي بن عمر الدار قطني، نا إبراهيم بن محمد العمري، نا أحمد بن سهيل الواسطي، قال: نا محمد بن ماهان، نا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حفظني في أصحابي ورد علي الحوض، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يرد علي الحوض، ولم يرني إلا من بعيد. وبه إلى الدار قطني، نا ابن منيع، نا عبد الله بن عمر الكوفي، نا عبد الله بن حراش، نا العوام بن حوشب عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر نزل جبريل، عليه السلام، على النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد قد استبشر أهل السماء اليوم بإسلام عمر، رضي الله عنه.

أخبرنا أبو محمد إسماعيل ابن رجاء بن سعيد بن عبيد الله العسقلاني، نا أبو بكر محمد بن أحمد الخندري المقري بعسقلان، نا أبو محمد عبد الله بن أبان بن شداد قراءة عليه وأنا حاضر: نا أبو الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، نا عمرو بن أبي بكر السكسكي عن سفيان وعباد والربذي، عن سهيل ابن أبي صالح، عن أبيه عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم، صلى الله عليه وسلم، يقول: حَرَّم الله عيناً بَكَت من خشية الله على النار، وحرم الله عينا سهرت في طاعة الله على النار، وحرم الله عينا بكت في الدنيا على الفردوس على النار، ويل لمن استطال على مسلم فانتقضه حقه، ويل له[1]. وبه إلى السكسكي عن الربذي عن محمد بن كعب القرطبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: هنيئا للمتحابين في الله جنات عدن، ومن أحب أن يرافقني فيها فلينصف من نفسه،

(1) الكامل في ضعفاء الرجال 6:430.

ومن أمسى وأصبح وهمه الدنيا والدرهم تكاثرا، حشر مع اليهود والنصارى والذين قالوا: و(ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)[1].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل المقري قراءة عليه وأنا أسمع، نا القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بُجير بن عبد الله بن أسامة الذهلي، إملاء، نا أبي، نا يعقوب بن إبراهيم الدورقي، نا عثمان بن عمر، نا شعبة عن قتادة، قال: سمعت أنس بن مالك يحدث عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصا من قلبه، وإني محمد رسول الله دخل الجنة[2].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل ابن عمرو بن إسماعيل المقري، نا أبو القاسم الحسين بن عبد الله القرشي، نا أبو القاسم علي بن الحسن بن قُديد الأزدي، نا أبو الربيع بن أخي رشدين، نا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبب قال: قال هشام بن عبد الملك لابن شهاب: أبَلغكَ أنه من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: كان ذلك قبل أن تترل الفرائض، فلما نزلت الفرائض فلم تنفع لا إله إلا الله إلا بأدائها[3].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل ابن عمرو بن إسماعيل المقري، نا أبو محمد الحسن بن أبي الحسن المعدل، نا أبو علي الحسن ابن علي بن الحسن السرقمدي الأعسم، حدثني أشعت بن محمد الكلابي، نا عيسى بن يونس عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ربى صبيا حتى يقول لا إله إلا الله لم يحاسبه الله[4].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله ابن عمر بن الخصيب القاضي قراءة عليه وأنا أسمع: نا أبي إملاء، نا يوسف بن يعقوب، نا أبو الربيع، نا أبو شهاب عن القاسم بن الوليد عن داوود بن أبي غمرة أن عليا، رضي الله عنه، قال: لا يخافن أحدكم

---

(1) الجاثية: 23.

(2) ملء العيبة 5: 383.

(3) ملء العيبة 5: 383.

(4) ورد الحديث في كتاب المغني في الضعفاء بصيغة: " إبراهيم بن البراء، عن سليمان الشاذ كوني عن الدراوردي عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعا: من ربى صبيا حتى يتشهد وجبت له الجنة اتهم به: المغني في الضعفاء 1: 11.

إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم[1].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله، نا أبي، نا جعفر بن محمد الفرياني، نا أحمد بن أبي الحواري، نا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن بشر بن عبيد الله الحضرمي، قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد.

أخبرنا الخصيب بن عبيد الله، نا أبي، نا جعفر بن محمد، نا أحمد بن عيسى، نا عبد الله بن وهب عن مالك بن أنس، أن سعيد بن المسيب كان يقول: إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد[2].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن سعيد البزاز، أملأنا الشيخ الزاهد أبو العباس أمد بن الحسن بن داناج الأصطخري إملاء سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، نا عبد الله بن أحمد بن حنبل وموسى بن هارون، ومحمد بن العباس المؤدب قالوا: نا الحكم بن موسى أبو صالح، قال: نا عبد الله بن أحمد الشيخ الصالح، نا العلاء بن أسلم بن أخي العلاء بن زياد عن رؤبة بن العجاج قال: دخلت على النساب البكري فقال لي: من أنت؟ قلت: ابن العجاج. قال: قصدت والله وعرفت. قال: ثم قال: لعلك كقوم عندي إن سكت عنهم لم يسألوني، وإن حدثتهم لم يعوا عني. قلت: أرجو أن لا أكون كذلك. قال: فما أعداء المروءة؟ قلت خبرني. قال: بنو السوء، إن رأوا صالحا دفنوه، وإن رأوا قبيحا ادعوه. ثم قال: إن للعلم آفة ونكد وهجنة، فآفته نسيانه، ونكده الكذب، وهجنته نشره عند غير أهله.

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد ابن النحاس إملاء، أنا أبو الفضل يحيى بن الربيع بن محمد العبدي، نا إسحاق بن إبراهيم ابن يونس، ثنا أبو الطيب الضرير أحسبه عن الأصمعي عبد الملك[3]:

[بسيط]

---

[1] ملء العيبة 5: 385.
[2] ملء العيبة 5: 386.
[3] الأبيات لأبي الأسود الدؤلي، الديوان، ص: 16.

العلم زينٌ وتشريف لصاحبه | فاطلب هديتَ فنون العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدبٌ | حتى يكون على ما زانه حدبَا
كم من حسيب أخي عي وطمطمة | فدمٍ لدى القوم معروف إذا انتسبَا
في بيت مكرمة آباؤه نجب | كانوا رؤوسا فأمسى بعدهم ذنبَا
وخامل مغرب الآباء ذو أدب | نال المعالي والأموال والنشبا
العلم كنزٌ وذخر لا نفاذ له | نِعم القرين إذا ما عاقلا صحبَا
قد يجمعُ المرء مالا ثم يسلبهُ | عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامعُ العلم مغبوط به أبدا | فلا يُحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامعَ العلم نعم الذخر تجمعه | لا تعدلن به درا ولا ذهبا
فاشددْ يديك به تحمد مغبته[1] | به تنال الغنا والدين والحسبا

آخر الجزء الخامس من الفوائد المنتقات من مسموعات الخلعي، رضي الله عنه، والحمد لله رب العالمين.

وكتبت من نسخة عتيقة عليها سماع جملة من المشايخ منهم: عبد العظيم المنذري وعليها خطه، ومن المتأخرين الحافظ بن حجر وعليها خطه.

ومما انتقيته من الجزء السادس: أخبرنا شيخنا بسنده المتقدم إلى القاضي أبي الحسن الخلعي قال: أنا أبو عبد الله شعيب بن أحمد بن المنهال، أنا أحمد بن الحسن ابن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمرو بن خالد، نا بكر بن مضر عن عمرو بن الحارث عن أبي الزبير المكي عن ابن الطفيل عامر بن واثلة البكري أن معاذ بن جبل حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع في غزوة تبوك بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى رجعنا.

أخبرنا أبو عبد الله شعيب ابن عبد الله بن المنهال، أنا أحمد بن الحسن بن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا

---

[1] في ط: معيشته.

عمرو بن خالد، نا بكر بن مضر عن عمر بن الحارث عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك أنه قال: صلينا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الظهر بالمدينة أربع ركعات ثم خرج إلى بعض أسفاره فصلى بنا العصر عند الشجرة ركعتين.

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزاز، نا أبو الطاهر أحمد بن محمد بن عمرو المديني، نا أبو موسى يونس بن عبد الأعلى الصدفي، نا عبد الله بن وهب، حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل بالبراق إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: فكأنها صدت أذنيها، فقال لها جبريل: قر يا براق، فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا هو بعجوز نائية على جانب الطريق فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال جبريل: سِر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا بشيء يدعوه منتحى على الطريق: هلم يا محمد. فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير. قال: ثم لقي خلقا من الخلق فقال: السلام عليك يا أول، والسلام عليك يا آخر، والسلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد. فرد السلام، ثم لقيه الثاني فقال له مثل مقالة الأول، ثم لقيه الثالث فقال له مثل مقالة الأولين حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الماء والخمر واللبن. فتناول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة لو شربت الماء لغرقت ولغرقت أُمَّتُك، ولو شربت الخمر لغويت ولغويت أمتك، ثم بعث له آدم ومن دونه من الأنبياء، فأمهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تلك الليلة، ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جنب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذلك عدو الله إبليس أراد أن تميل، وأما الذين سَلَّموا عليك فذلك إبراهيم وموسى وعيسى[1].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى الإشبيلي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن علان الحراني، أملأنا أبو العلاء أحمد بن صالح نا محمد بن حميد الرازي أراه قال: نا زافر بن سليمان، نا محمد بن عتبة عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن جبريل عليه السلام أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من

[1] الأحاديث المختارة 259:6.

أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس[1].

أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن زريق الكوفي قراءة عليه وأنا أسمع، نا إسماعيل ابن يعقوب بن الجراب البغدادي، إملاء، نا عبيد الله بن عبد الواحد بن شريك، نا ابن أبي مريم، نا ابن فروخ، أنا أسامة، أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جَدِّه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: هل في الناقة أجر، تأتي وقد لطت حوضي إن سقيتها؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل كبد حرى أجر.

أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن رزيق الكوفي قراءة عليه وأنا أسمع، نا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع، نا محمد بن زياد السمسار، نا محمد بن حاتم، نا محمد بن الحسن الواثقي ثقة مرضي، عن معونة بن يحيى، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يفضل الذكر الذي لا تسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً[2].

أنا أبو العباس منير بن الحسن بن علي بن منير الشاهد قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن أحمد بن إسحاق البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو عمرو مقدام بن داوود بن عيسى بن تليد، إملاء، نا أسد بن موسى، نا ابن لهيعة، نا أبو قبيل أنه سمع سقا يقول: حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو قبيل لا أحسبه إلا عبد الله بن عمر قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ففيمَ العمل إذا كان هذا الأمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سددوا أبشروا، وإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار،

[1] المستدرك على الصحيحين 4:360.
[2] شعب الإيمان 1:408.

وإن عمل أي عمل. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بيده ،فمدها، فـــرغ ربكم من الخلق (فريق في الجنة وفريق في السعير)[1].

أخبرنا أبو العباس منير بن أحمد بن الحسن الشاهد، نا أبو الحسن علي بـــن أحمد بن إسحاق البغدادي، نا أبو عمرو مقدام بن داوود بن عيسى بـــن تليـــد الرعيني، نا أسد بن موسى، نا الليث بن سعد عن ابن قبيل عن شفي الأصبحي عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني: قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفي يده كتابان، قال: أتدرون ما هذا؟ قلنا لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. فقال: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم ولا ينقص منـــهم أحـــد. فقـــال بعضهم: فلم نعمل إذا؟ قال: بلى، سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النـــار وإن عمل أي عمل، وقال: بيده فرغ ربكم من الخلق، (فريق في الجنـــة وفريـــق في السعير)[2].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد إملاء، نا الـــشيخ الزاهد أبو العباس أحمد بن الحسين بن داناج الإصطخري إملاء سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، نا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الديري قال: قرأنا على عبد الرزاق، أنا معمر عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: سمعـــت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول في الشونيز: عليكم بهذه الحبة السوداء فإن فيها شفاء من كل شيء إلا السام ؛ يريد الموت[3].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزازي إملاء، أنا أبو الحسن أحمد بن سعيد البغدادي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، نا أبـــو مـــسلم إبراهيم بن عبد الله بن مسلم ومعاذ بن مثنى العنبري، واللفظ لأبي مسلم، قالا: نا بكار بن محمد السيريني، ثنا ابن عون عن محمد بن سيرين، عـــن أبي هريـــرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دخل على بلال فوجد عنده نوى تمرتين فقال:

---

(1) الشورى: 7.
(2) الشورى: 7.
(3) تحفة الأحودي 162:6.

ما هذا يا بلال؟ قال: تمر أدخره. فقال: ويحك يا بلال، أوَ ما تخاف أن يكون له بخار في النار؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً[1].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزازي، نا أحمد بن سعد البغدادي، نا محمد بن يحيى بن سليمان المروزي، نا عاصم بن علي، نا قيس عن أبي حصين عن يحيى بن وثاب، عن مسروق عن عبد الله قال: دخل النبي، صلى الله عليه وسلم، على بلال وعنده صبر من تمر، فقال: ما هذا؟ قال: أعددته لك ولضيفانك. قال: أما تخشى أن يكون له بخار في جهنم، أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب القاضي قراءة عليه وأنا أسمع: نا القاضي أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخصيب القاضي إملاء، نا محمد بن يحيى ابن إسماعيل، نا عاصم بن علي، نا المسعودي عن الفرات بن أبي الفرات، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد قال: أطلع علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: ماذا تذكرون؟ أوَ تذكرون ماذا قدم ذلك أواخر الشك مني؟ قلنا: الساعة يا رسول الله. قال: إنّ الساعة لا تقوم حتى يكون عشر آيات: الدخان، والدجال، والدابة وثلاث خسوفات؛ خسف بمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وطلوع الشمس من مغربها، وفتح ياجوج وماجوج، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر[2].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب، نا أبي عبد الله بن محمد بن الخصيب إملاء، نا إبراهيم بن هاشم أملى علينا في مسجده يوم الجمعة في جمادى الأخيرة من سنة خمس وتسعين، نا شيبان بن فروخ، نا جرير بن حازم، نا الحسن، نا عمرو بن تغلب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أشراط الساعة أن تُقَاتِلوا قوماً من عراض الوجوه صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة[3].

---

(1) المعجم الكبير 1:341.
(2) المعجم الكبير 3:170.
(3) مسند أحمد 3:31.

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد ابن سعيد البزاز، نا أبو الطاهر أحمد بن محمد بن عمرو المدني، نا يونس بن عبد الأعلى، عن الشافعي عن محمد بن خالد الجندي، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن أنس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارا، ولا الناس إلا شحا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، ولا مهدي إلا عيسى بن مريم[1].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد العسقلاني قراءة عليه وأنا أسمع: نا أبو بكر محمد بن محمد الجندري المقري بعسقلان، نا أبو محمد عبد الله بن أبان بن شداد قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الدرادء هاشم ابن محمد الأنصاري، نا عمرو بن بكر السكسكي عن الربذي وعباد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يصيح صائح يوم القيامة: أين الذين أكرموا الفقراء والمساكين في الدنيا؟ أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون. ويصيح صائح: أين الذين عادوا مرضى الفقراء والمساكين في الدنيا فيجلسون على منابر من نور فيحدثون الله والناس في الحساب[2].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد بن عبيد الله، نا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد الجندري، نا عبد الله بن أبان بن شداد أبو الدرداء هاشم بن أحمد الأنصاري، نا عمر بن بكر السكسكي عن الربذي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: خيار المؤمنين القانع، وشرارهم الطامع[3].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد العسقلاني، نا أبو بكر محمد بن أحمد الجندري، نا عبد الله بن أبان بن شداد، نا أبو الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، نا عمرو بن بكر السكسكي عن سفيان وعباد عن منصور بن المغيرة عن مجاهد عن كعب، أن الرب تباركت أسماؤه قال: يا موسى إذا رأيت الغنى فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين. يا موسى إنك لن تتقرب إلي بعمل من أعمال البر خير من الرضا بقضائي، ولم تأت بعمل أحبط لحسناتك من البطر، وإياك والتضرع لأبناء الدنيا إذا أعرض عنك،

---

(1) المستدرك على الصحيحين 4:488.

(2) التدوين في أخبار قزوين 2:492.

(3) مسند الشهاب 2:240.

وإياك أن تجود بدينك لدنياهم إذا آمر بأبواب رحمتي فتغلق عنك، أدن الفقراء وقرب مجالسهم منك تكرم علي، وأبعد الأغنياء وبعد مجالسهم منك، لا تركن إلى حب الدنيا فإنك لن تلقاني بكبيرة من الكبائر أشد عليك من الركون إلى حب الدنيا، يا موسى قل للمذنبين النادمين أبشروا، وقل للعاملين المعجبين اخسئوا.

أخبرنا أبو محمد الحسن ابن محمد بن رزيق الكوفي، نا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي إملاء، نا محمد بن غالب بن حرب التمتام، نا أبو المعتمر عمار بن زربي، نا بشر بن منصور السليمي عن داوود بن أبي هند عن وهب بن مُنَبّه قال: رأيت[1] في بعض الكتب التي أنزل الله من السماء أن الله قال لموسى عليه السلام: أتدري لأي شيءٍ كلمتك؟ قال: لأي شيء؟ قال: لأني اطلعت على قلوب العباد فلم أرَ قلباً أشد حبا لي من قلبك[2].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن سعيد الشاهد إملاء، نا أبو الفضل يحيى بن الربيع بن محمد العبدي، نا إسحاق بن إبراهيم بن يونس، نا الربيع بن الفضل قال من قول علي عليه السلام[3]:

[كامل]

أبني[4] إني واعظٌ ومؤدبٌ	فافهم فإن[5] العاقلُ المتأدبُ
واحفظْ وصيةَ والدٍ مُتحنن	يغذوكَ بالآداب لا يتغضبُ[6]
أبني إن الرزقَ مكفولٌ به	فعليك بالإجمال فيما تطلبُ
لا تجعلنّ المال كسبك مفردا	وتقى إلهك فاجعلن ما تكسبُ
فاتل الكتابَ كتاب ربك موقنا[7]	فيمن يقوم به هناك وينصبُ
بتدبر وتفكر وتقرب[1]	إن المقرب عندهُ يتقَربُ

---

(1) في ط: قرأت.
(2) سير أعلام النبلاء 15:498.
(3) ديوان الإمام علي، ص: 36 – 37.
(4) في الديوان: أحسين.
(5) في الديوان: فأنت.
(6) في الديوان: كي لا تعطب.
(7) في الديوان: فاقرأ كتاب الله جهدك واتله.

واعبد إلهك بالإنابة مخلصا[2] وانظر إلى الأمثال فيما تضربُ

وإذا مررت بآية تصف العذا[3] ب فقل وعينك بالتخوف تسكبُ

يا من يعذب من يشاء بقدرة[4] لا تجعلني في الذين تعذبُ

إني أبوءُ بعثرتي وخطيئتي هربا وهل إلا إليك المهربُ[5]

بادر هواك إذا هممت بصالح وتجنب الأمر الذي يتجنبُ

واعمل لنفسك إن أردت حباءها إن الزمان بأهله يتقلب

أبني كم صاحبت من ذي غدرة فإذا صحبت فانظر من تصحب

واجعل صديقك من إذا آخيته حفظ الإخاء وكان دونك يضرب

واحذر ذوي الملق اللئام فإنهم في النائبات عليك فيمن يحطب

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي والنصح أرخص ما يباع ويوهبُ

انتهى.

ومن الجزء الثاني: أخبرني[6] شيخنا بسنده إلى أبي الحسن الخلعي قال: نا الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزاز قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو سعيد أحمد ابن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري المعروف بابن الأعرابي قراءة عليه بمكة وأنا أسمع، نا أبو عثمان سعد ابن نصر بن منصور المخرمي، نا سفيان بن عيينة أبو محمد الهلالي عن عمر ابن أبي مليكة، عن يعلى بن مملك، عن أم الدرداء ترويه عن أبي الدرداء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير، من حرم حظه من الرفق فقد

---

(1) في الديوان: بتفكر وتخشع وتقرب.
(2) في الديوان: واعبد إلهك ذا المعارج.
(3) في الديوان: وإذ مررت بآية وعظية تصف العذاب فقف ودمعك يسكب.
(4) في الديوان: بعدله.
(5) في الديوان: هربا إليك وليس دونك مهرب.
(6) في ط: أخبرنا.

حرم حظه من الخير. وقال: وإن أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن، إن الله يبغض الفاحش البذيء[1].

أخبرنا أبو عبد الله شعيب بن عبد الله بن المنهال، نا أحمد بن الحسن بن إسحاق بن عتبة الرازي،نا أبو الزنباع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا يوسف بن عدي، نا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي صالح عن أبي الدرداء قال: سألت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن قول الله عز وجل: (لهم البشرى في الحياة الدنيا)[2] قال: ما سألني عنها أحد قبلك، هي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن أو ترى له[3].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى الشاهد، نا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عثمان الإمام إملاء، أنا أبو عبد لله عبد الكريم بن إبراهيم بن حبان، نا الحسين بن الفضل بن أبي حديدة قال: سمعت ضمرة بن ربيعة القرشي الرملي يقول: سمعت يحيى بن أبي عمرو الشيباني يقول: سمعت عمرو ابن عبد الله الحضرمي يقول: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله استقبل لي الشام وولى ظهري إلى اليمن، فقال لي: يا محمد إني جعلت ما وراءك مردا لك، وجعلت ما تجاهك عصمة لك ورزقاً، قال: والذي نفسي بيده لا يزال الله يزيد في الإسلامٍ وأهله، وينقص الشرك وأهله حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى إلا جوراً؛ يعني جور السلطان. قيل: يا رسول الله: وما النطفتان؟ فقال: نحو المشرق والمغرب. قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل[4].

أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن رزيق الكوفي قراءة عليه وأنا أسمع، أنا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي، نا إسماعيل بن إسحاق القاضي، نا حفص بن عمر الحوضي، نا شعبة عن واصل الأحدب عن مجاهد عن أبي در عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: أعطيت الشفاعة، وهي ثابتة لمن مات من أمتي لا يُشرك بالله شيئاً.

---

(1) مسند الشهاب 1:274.
(2) يونس: 64.
(3) مصنف ابن أبي شيبة 6:174.
(4) المعجم الكبير 2:58.

أخبرنا أبو العباس أحمد ابن الحسين بن جعفر العطار قراءة عليه وأنا أسمع: نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق بن جامع المديني سنة تسع وتسعين ومائتين، نا عبدة بن عبد الرحيم، نا وكيع، نا الأعمش عن عدي بن ثابت الأنصاري عن زر بن حبيش عن علي، رضي الله عنه، قال: لعهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم الأمي أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق[1].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسين بن جعفر العطار، نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق بن جامع المديني، نا عبدة بن عبد الرحيم، نا وكيع، نا ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان علي، عليه السلام، يلبس ثياب الشتاء في الصيف وثياب الصيف في الشتاء، فقيل لأبي لو سألته عن هذا؟ فسأله. فقال: قلت يا رسول الله إني أرمد العين، فتفل في عيني وقال: اللهم اذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حَرًّا ولا برداً منذ يومئذ، فقال عليه السلام: لأعطين الراية رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، ليس بفرار[2]. قال: فتشرف إليها الناس[3]، فبعث إلى علي عليه السلام فأعطاه الراية. قال: وقال ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو قال عبد الرحمن: وكان أبي يسمر مع علي عليه السلام.

أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن رزيق الكوفي، نا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي، نا الحسن بن سليمان بن نافع الدارمي، نا عبد الواحد، يعني ابن غياث، نا خلد، أنا حسن بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قبض يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله (عَزَّ وجل)[4] أوجب الله له الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر، ومن عال ثلاث بنات فأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة. قال قائل: يا رسول الله أو اثنتين. قال: أو اثنتين، حتى لو قال أواحدة لقال واحدة، ومن أذهب الله عز وجل كريمتيه كان ثوابه على الله عز وجل الجنة. فقالوا: يا رسول الله وما كريمتاه؟ قال: عيناه.

(1) صحيح مسلم 1:86.
(2) الأحاديث المختارة 2:275.
(3) في ط: فتشوف الناس إليها.
(4) زيادة من ط.

قال: فكان ابن عباس إذا حَدَّث بهذا الحديث قال: هذا والله من كرائم الحـــديث وغرره[1].

وأخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج قال: وأخبرنا أبو القاسم علـــي بن يعقوب بن إبراهيم الهمداني قراءة عليه وأنا أسمع بدمشق، نا محمد بن إسحاق بن الحريص، نا إبراهيم بن هشام، حدثني أبي عن عروة بن رويم عن هشام بـــن عروة عن أبيه عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من كان ذا وصلة لأخيه المسلم إلى ذي سلطان في تبليغ بر أو تيسير عسيراً أعانه الله على إجازة الصراط يوم دحض الأقدام[2].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى الشاهد، نا أبو الطيـــب محمد بن جعفر بن در بن غندر، نا إسماعيل ابن علي الشافعي، نا محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي، نا أبو نواس الحسن بن هاني، نا حماد ابن سلمة عن ثابت عـــن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله وسلم: لا يموتن أحدكم حتى يحسن الظن بالله، فإن حسن الظن بالله ثمنه الجنة[3].

أخبرنا أبو العباس منير ابن أحمد بن الحسن بن علي بن منير الشاهد، نا أبو الحسن علي ابن أحمد بن إسحاق البغدادي، نا أبو عمرو مقدام بـــن داوود بـــن عيسى بن تليد الرعيني إملاء، نا أسد بن موسى، نا المبارك بن فضاله، حدثني ثابت البناني، أخبرني عبد الرحمن أن رسول الله، صلى الله وسلم، صلى صلاة الـــصبح فلما قضى صلاته قال: أيكم أصبح اليوم صائما؟ فقال عمر بن الخطاب: أما أنا فبت الليلة وأنا لا أحدث نفسي بالصوم فأصبحتُ مفطراً. فقال أبو بكر: أنا يـــا رسول الله بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم، فأصبحت صائماً. قال: فـــأيكم عاد اليوم مريضاً؟ فقال عمر: إنا صلينا الساعة و لم نبرح فكيف عود المرضـــى؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، أخبرونا بالأمس أن أخي عبد الرحمن بن عـــوف وجِع فجعلت طريقي عليه فسألت عنه ثم أتيت المسجد. فقال رسول الله صلى الله وسلم: فأيكم تصدق اليوم بصدقة؟ فقال عمر: يا رسول الله، والله ما برحنا معك منذ صلينا، أو قال: لم نبرح منذ صلينا، فكيف نتصدق؟ فقال أبو بكر: أنـــا يـــا

(1) مسند أبي يعلى 342:4
(2) أنظر: سير أعلام النبلاء 571:20.
(3) معجم الشيوخ 301:1.

رسول الله لما جئت من عند عبد الرحمن بن عوف دخلت المسجد فـإذا سـائل يسأل، وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة فأخذها فناولتها للسائل. فقال: أنت فأبشر بالجنة، أنت فأبشر بالجنة. فلما سمع عمر بذكر الجنة تنفس فقال: هاه. فنظر إليه رسول الله، صلى الله وسلم، فقال كلمة رضي بها عمر، فقال رسول الله صلى الله وسلم: رحم الله عمر، إن عمر يقول ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقني إليه[1].

أخبرنا الخصيب ابن عبد الله بن محمد بن الخصيب القاضي قراءة عليه وأنـا أسمع قال: نا أبي القاضي أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخصيب إملاء، نا أحمد بن يحيى بن إسحاق، نا عبد الأعلى ابن حماد النرسي، نا يعقـوب بـن إسـحاق الحضرمي، نا سعيد بن خالد عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله وسلم المؤمن واهي راقع، وسعيد من هلك على رقعة[2].

أخبرنا الخصيب ابن عبد الله قال: نا أبي عبد الله بن محمد إملاء، أنا يحيى بن محمد البختري، نا عباد بن الوليد النرسي، نا عبد الواحد بن زياد، نـا سـليمان الأعمش، نا أبو يحيى مولى جعدة بن هبيرة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتؤذي جيرانها بلسانها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير فيها، هي في النار. وقالوا: فلانة تصلي المكتوبة وتصدق بالأثوار؛ يعني الأقط، ولا تؤذي أحداً. فقال صـلى الله عليه وسلم: أبشر فهي في الجنة[3].

أخبرنا أبو حازم محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء البغدادي، نا أبو الحسن علي ابن عمرو بن أحمد بن مهدي بن مسعود الدارقطني الحافظ، نا أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الصمد بن المهتدي بالله، نا سيار بن نصر أبو الحكم، نا عمر بن حفص بصري، نا العلاء بن عمرو، نا الوضاح عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأبي بكر، رضي الله عنه: يا أبا بكر إن الله أعطاني ثواب من آمن بي منذ خلق الله آدم

---

[1] مجمع الزوائد 3: 164.
[2] شعب الإيمان 5: 419.
[3] المستدرك على الصحيحين 4: 184.

عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، وإن الله أعطاك يا أبا بكر ثواب من آمن بي منذ بعثني الله عز وجل إلى أن تقوم الساعة[1].

أنا أبو حازم محمد بن الحسين بن خلف الفراء، نا أبو الحسن علي بن عمر بن مهدي الدار قطني الحافظ، نا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد وأبو حمد الحضرمي والحسين بن إسماعيل قالوا: نا محمد بن عمرو بن سليمان بن أبي فرعون، نا هشيم، نا مالك بن مغول عن الشعبي وأبو إسحاق عن الشعبي عن الحارث عن علي عليه السلام قال: أقبل أبو بكر وعمر إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كل واحد منهما أخذ بيد صاحبه، قال: فلما رآهما قال: هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين المرسلين، لا تخبرهما يا علي[2].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد بن عبيد الله العسقلاني قرأ عليه وأنا أسمع، نا أبو بكر محمد بن أحمد الحيدري المقري، نا أبو محمد عبد الله بن أبان بن شداد، نا أبو الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، نا عمرو بن بكر السكسكي عن ابن المثنى عن ابن الزبير عن أبي الدرداء عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: يصيح صائح يوم القيامة من كانت له عند الله عدة فليقم، أين أهل العفو فيدخلون الجنة. ثم يصيح صائح: من كانت له عند الله عدة فليقم، أين أهل الصدقة؟ فيقومون فيدخلون الجنة، وهم أول الناس دخولا الجنة.

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد بن عبيد الله، نا أبو بكر محمد بن أحمد الحيدري المقري، نا أبو محمد عبد الله بن أبان بن شداد، نا أبو الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، نا عمرو بن بكر السكسكي عن عباد عن أيوب بن موسى وإسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من مكارم الأخلاق التزاور في الله، وحق على المزور أن يقرب إلى أخيه ما تيسر عنده، وإن لم يجد إلا جرعة من ماء، وإن احتشم أن يقرب إلى أخيه ما تيسر لم يزل في مقت الله يومه وليلته، ومن استحقر ما يقرب إليه أخوه لم يزل في مقت الله، عز وجل، يومه وليلته.

---

(1) الرياض النضرة 2:121.

(2) المعجم الأوسط 2:191.

أخبرنا أبو الفرج عبيد الله بن محمد بن النحوي في المسجد الأقصى قــراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو أحمد محمد بن محمد بن عبد الرحيم القيسراني، نا محمد بن جعفر ابن محمد بن سهل الخرائطي بقيسارية، نا محمد بن جابر الضرير، نا عبيد الله بن عمر القواريري، نا جعفر بن سليمان الضبعي عن مالك بن دينار عن الحسن قال: ما من عبد يخطب خطبة إلا سائله الله عنها يوم القيامة ماذا أردت بها. وكان الحسن إذا ذكر هذا الحديث بكى.

أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن زريق الكوفي، نا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي، نا محمد بن يونس القرشي، نا حرم بن حفص نا صــدقة بــن عبادة الأسدي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: (فعرفهم وهم له منكرون)[1] قال: دخل إخوة يوسف، عليه السلام، عليه وبين يديه جام من فــضة مخــوص بالذهب، وبيده حصاة يضرب بها الجام ويطن الجام، ثم قال لهم: تدرون ما يقول هذا الجام؟ قالوا: لا أيها الملك. قال: يقول لي إنه كان لكم أخ من أبيكم فعلتم به كذا وفعلتم به كذا. قالوا: معاذا الله. قال ابن عباس: وهو قول الله عز وجل: (فعرفهم وهم له منكرون)[2].

أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن زريق الكوفي، نا إسماعيل بن يعقوب بن الجراب البغدادي إملاء، نا الحسن بن سليمان بن نافع، نا هدبة بن خالد، نا حماد بن سلمة عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هارون، عليه السلام، مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال له: ما هذا الذي تصنع؟ قال: أصنع ما ينفع ولا يضر. فقال هارون عليه السلام: اللهم أعطه ما سألك على مــا في نفسه. فلما قفا هارون عليه السلام قال السامري: اللهم إني أسألك أن يخــور. فكان إذا خار سجدوا، وإذا خار رفعوا رؤوسهم، وإنما خار لدعوة هارون.

أنشدنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج الإشبيلي قال: أنشدنا القاضــي أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر قال: أنشدنا أحمد بن محمــد بــن المسلم قال: أنشدنا عبد الرحمن بن صالح قال: أنشدنا جلــيس لأبي بكــر بــن عياش[3]:

---

(1) يوسف: 58.
(2) يوسف: 58.
(3) أنظر ترجمته وبيته في: معجم لأدباء 2:751.

[بسيط]

إن الكـــريمَ الـــذي تبقـــى مودتـــهُ ويكتم السر إن صـــاف وإن صـــرما
ليس الكريمُ الذي إن زل صـــاحبهُ أفشَى وقال عليه كـــل مـــا كتمَـــا

هـــ.

ومن الجزء السابع عشر: أخبرنا شيخنا بسنده إلى القاضـــي أبي الحـــسن الخلعي، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد بن النحاس قراءة عليه وأنا أسمع، أنا أبو سعيد أحمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري المعروف، عـــن محمد بن عبد العزيز، عن مولى لأبي بكرة عن أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذنبان لا يغفران وتعجل لصاحبهما العقوبـــة؛ البغـــي وقطيعـــة الرحم[1].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف الفراء، نا أبو الفوارس أحمد بن محمد بن الحسين الصابوني، نا إبراهيم بن أبي داوود، نا آدم، نا إسماعيل بـــن عياش عن إسحاق بن عبد الله عن يوسف بن سليمان عن جدته ميمونة عن عبد الرحمن بن سنة قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: والذي نفسي بيده ليأرز الإيمان إلى ما بين المسجدين؛ مسجد مكة ومسجد المدينة كما تـــأرز الحيّة إلى جحرها[2].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف الفراء، نا أبو الفوارس أحمد بن محمد بن الحسين الصابوني، نا إبراهيم ابن أبي داوود، نا آدم، نا إسماعيل بـــن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن يزيد الـــسكوني عـــن أبي بحريـــة السكوني عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الملحمـــة العظمى وفتح القسطنطينية في سبعة أشهر[3].

أخبرنا أبو عبد الله شعيب بن عبد الله بن أحمد بن المنهال قراءة عليه وأنـــا أسمع، أنا أبو العباس أحمد بن الحسن بن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنبـــاع روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمرو بن خالد، نا عبد الله بن لهيعة عن

---

[1] مسند أحمد 5:36.
[2] الفتن: 2:491.
[3] مسند أحمد 5:234.

أبي يونس عن أبي هريرة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: نعم القوم الأزد؛ نقية قلوبهم، بارة أيمانهم، طيبة أفواههم[1].

أخبرنا أبو عبد الله شعيب بن عبد الله بن المنهال قراءة عليه وأنا أسمع، أنا أبو العباس أحمد بن الحسن بن إسحاق بن عتبة الرازي، نا أبو الزنباع عن روح بن الفرج بن عبد الرحمن القطان، نا عمرو بن خالد نا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن ناعم أن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل رجل من الأعراب فقال: يا رسول الله إني أحب الجهاد والهجرة. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل بقي من والديك أحد؟ قال: نعم، كلاهما. قال: فارجع فأحسن صحبتهما.

أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى الإشبيلي الشاهد قراءة عليه، وأنا أسمع، نا أبو الفضل العباس بن محمد ابن نصر بن السري الرافقي إملاء، نا سعيد بن يحيى بن يزيد نا مصعب بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أثنوا عليها خيراً صلى عليها، وإن أثنوا عليها غير ذلك قال لأهلها شأنكم بها، و لم يصل عليها[2].

وأخبرنا أبو العباس أحمد قال: وأنا أحمد بن إبراهيم بن محمد بن جامع نا علي هو ابن عبد العزيز قالا: نا عثمان بن ابن زفرح وأنا أبو العباس حمد بن محمد الإشبيلي قال: وأنا عبد الله بن إبراهيم بن إسحاق بن الفراء له نا علي بن محمد بن كاس، نا محمد بن خلف التميمي، نا عثمان بن زبرزاد ابن جامع في حديثه الكوفي، نا محمد بن زياد، قال زكريا عن محمد بن زياد الطحان عن محمد بن عجلان عن أبي الزبير عن جابر قال: أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل فلم يصل عله، فقيل: يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة إلا على هذا؟ فقال: إنه كان يبغض عثمان بن عفان[3]، هذا لفظ علي.

---

[1] مسند أحمد 2: 351.
[2] صحيح ابن حبان 7:328.
[3] ساقط من ط.

وقال زكرياء: أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة رجل ليصلي عليه فأبى أن يصلي عليه، قالوا: يا رسول الله ما رأيناك تركت الصلاة على أحد غير هذا؟ فقال إنه كان يبغض عثمان بن عفان أبغضه الله.

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزاز، نا أبو الطاهر أحمد بن محمد بن عمرو المديني، نا يونس بن عبد الأعلى الصدفي، نا ابن وهب، نا يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن أبي سلمة أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو فكأنما رآني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي[1].

وقال أبو أسامة: قال أبو قتادة: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من رآني فقد رأى الحق[2].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى الإشبيلي، نا القاضي أبو بكر يوسف بن القاسم ابن يوسف الميانجي إملاء بمصر، نا محمد بن طاهر بن أبي الدميك، نا سليمان بن الفضل الربذي أبو الفضل، نا عبد الله بن المبارك عن همام عن قتادة عن أنس أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من حسن عبادة المرء حسن ظنّه[3].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف الفراء، نا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية بن زياد المعروف بابن الحداد إملاء، نا زكريا بن يحيى السجري، ويعرف بخياط السنة، نا أبو مروان العثماني محمد بن عثمان، نا أبي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي عثمان وهو عند باب المسجد فقال: يا عثمان هذا جبريل عليه السلام يخبرني أن الله تبارك وتعالى زوَّجك أم كلثوم على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها[4].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب القاضي قراءة عليه وأنا سمع، نا أبي القاضي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخصيب، نا أحمد بن يحيى الحلواني، نا علي بن جعفر الأحمر، نا عبد السلام عن يونس بن عبيد عن زياد بن

---

[1] صحيح مسلم 4:1775.
[2] صحيح مسلم 4:1776
[3] لسان الميزان 3:100.
[4] المعجم الكبير 22:436.

جبير عن سعد قال: قامت إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، امرأة جليلة كأنها من نساء مضر، فقالت: يا رسول الله أنأكل على آبائنا وأبنائنا وأزواجنا فما الذي يحل لنا من أموالهم: قال: الرطب تأكلنه وتهدينه[1].

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب، نا أبي عبيد الله بن محمد بن الخصيب إملاء، نا عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب، نا يحيى بن عبد الله بن الضحاك، نا الأوزاعي، وحدثنا الزهري، وحدثنا سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا هريرة يقول: قرأ الناس مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في صلاة جَهَر فيها بالقراءة، فلما قضى صلاته، صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم فقال: هل قرأ معي منكم أحد آنفاً؟ فقالوا: نعم يا رسول الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أقول مالي أنازع القرآن[2]. قال الزهري: فاتعظ المسلمون بذلك فلم يكونوا يقرأون.

أخبرنا القاضي أبو الحسن الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب، نا أبي، نا الحسن بن علوية القطان، نا إسماعيل بن عيسى العطار، نا إسماعيل بن زكرياء عن سفيان ومسعد، عن زياد بن علاقة، عن يزيد بن الحارث، عن أبي موسى، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: فناء أمتي بالطعن والطاعون. قيل: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: وخز أعدائكم من الجن، وفي كل شهداء[3].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسين بن جعفر العطار قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق بن جامع المديني، نا أبو الحسين سفيان بن بشر الأسدي الكوفي، نا علي بن هاشم بن البريد عن عبد الملك بن حميد عن الحكم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن بريدة قال: غزوتُ مع علي عليه السلام اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم ذكرته فتنقصته، فرأيت وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتغير،

---

[1] المستدرك على الصحيحين 4:149.
[2] سنن البيهقي الكبرى 2:157.
[3] مسند أبي حنيفة 1:99.

فقال: يا بريدة ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فإنَّ علياً مولاه[1].

أخبرنا أبو العباس أحمد بن الحسين بن جعفر العطار، نا أبو محمد الحسن بن رشيق العسكري، نا أبو عبد الله محمد بن رزيق بن جامع، نا أبو الحسين سفيان بن بشر الأسدي الكوفي، نا علي بن هاشم بن البريد عن ابن هلال الراشدي عن قادة عن سعيد ابن المسيب قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سفراً فخلف علياً عليه السلام، فقال: إنك مني بمنزلة هارون من موسى[2] إلا أنه لا يوحى إليك.

أخبرنا أبو حازم محمد بن الحسين ابن محمد بن خلف الفراء البغدادي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد ابن مهدي الدارقطني الحافظ قراءة عليه، نا علي بن عبد الله بن مبشر، نا محمد بن حرب النشاي، نا وكيع عن سفيان ومسعود ح ونا القاضي الحسين بن إسماعيل، نا يعقوب بن إبراهيم وسلم بن جنادة ويوسف بن موسى، قالوا: نا وكيع، نا مشعر بن كدام وسفيان الثوري عن عثمان بن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة الوالبي عن أسماء بن الحكم الفزاز عن علي ابن أبي طالب، عليه السلام، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حديثا نفعني الله بما شاء، فإذا حدثني عنه غيري استحلفته، فإذا حلف لي صدقته.

وحدثني أبو بكر الصديق، وصدق أبو بكر، أنه قال: ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له.

أخبرنا أبو النعمان تراب بن عمر بن عبيد بن محمد الكاتب قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدار قطني الحافظ، نا أبو حامد محمد بن هارون الحضرمي، نا محمد بن يزيد الأدمي، نا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن ابن جريج عن الزهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أرَ ذنباً أعظم من آية أو سورة أوتيها

---

(1) المعجم الكبير 202.5.

(2) المعجم الكبير 146:1.

رجل ثم نسيها[1]. قال الدار قطني: هكذا قال الأدمي في هذا الإسناد عن الزهري عن أنس وغيره يرويه عن عبد المجيد عن ابن جريج عن المطلب ابن عبد الله بن حنطب عن أنس وهو الصواب.

أخبرنا أبو النعمان تراب بن عمر بن عبيد الكاتب إملاء، حدثنا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني الحافظ إملاء بمصر، نا أبو بكر أحمد بن نصر يعرف بحبشون البندار، نا إبراهيم بن الأدمي، نا داوود بن مهران، نا عمر بن يزيد عن أبي إسحاق عن عبد خير، نا علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت أبا بكر الصديق وهو الصدوق، يقول: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من عبد أذنب ذنبا فقام فتوضأ فأحسن الوضوء، وقام فصلى ركعتين ثم استغفر الله تبارك وتعالى إلا كان حقا على الله أن يغفر له[2]. قال: فجعل ينادي بها على المنبر صدق أبو بكر صدق أبو بكر، فإن الله يقول: (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً)[3].

أخبرنا أبو الفرج عبيد الله بن محمد النحوي قراءة عليه وأنا أسمع في المسجد الأقصى، نا أبو أحمد محمد بن محمد بن عبد الرحيم القيسراني سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، نا محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي بقيسارية في رجب سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، نا علي بن حرب، نا أسباط بن محمد، نا سليمان التميمي عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن منكم قوما يتعبدون حتى يعجب الناس وتعجبهم أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية[4].

أخبرنا أبو الفرج عبيد الله بن محمد النحوي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو أحمد محمد بن محمد بن عبد الرحيم القيسراني، نا محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي، نا أبو بدر عباد بن الوليد الغبري، نا أبو عمر الحوضي، نا عبد الحكم بن ذكوان عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر البرية عند الله منزلة يوم القيامة من أذهب آخرته بدنيا غيره.

---

(1) المعجم الأوسط 6:308.
(2) الرياض النضرة 2:160.
(3) النساء: 110.
(4) الأحاديث المختارة 7:18.

أخبرنا أبو الفرج عبيد الله بن محمد النحوي، نا أبو أحمد محمد بن محمد بن عبد الرحيم القيسراني، نا محمد بن جعفر بن محمد بن سهل الخرائطي، نا إبراهيم بن الجنيد، نا سعيد ابن أبي مريم، نا نافع بن يزيد، حدثني عياش بن عباس القتابي عن عيسى بن عبد الرحيم، عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرج عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلى مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له: ما يُبكيك يا معاذ؟ قال: يبكيني شيء سمعته من صاحب هذا القبر. قال: وما هو؟ قال: سمعته يقول: يصير الرياء شركا، وأن من عادى أولياء الله قد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفتقدوا، وإن حضروا لم يدعوا لم يقربوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة[1].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل بن أسد المقري قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني الحافظ، إملاء، نا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي، نا علي بن الجعد بن عبيد الجوهري، نا الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى طيب ولا يقبل إلا طيباً، وإنَّ الله عز وجل أمرٍ المومنين بما أمر به المرسلين فقال: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً)[2]، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[3]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر يمد يده إلى السماء: يا رب يا رب أشعث أغبر، مطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بحرام، فأنى يستجاب لذلك[4].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد المالكي قراءة عليه وأنا أسمع، أنا أبو الحسن شعبة بن الفضل بن سعيد التغلبي البغدادي قراءة عليه في الجامع، نا خلف بن عمرو العكري، نا المعلى بن مهدي الموصلي، نا عمران بن خلد الخزاعي، نا ثابت عن أنس قال: دخل سلمان على عمر بن الخطاب رضي

---

(1) تهذيب الكمال 22:628.
(2) المومنون: 51.
(3) البقرة: 172.
(4) صحيح مسلم 2:703.

الله عنه وهو متكئ على وسادة فألقاها إلي ثم قال: يا سلمان ما من مسلم يدخل على أخيه فيلقي له وساد إكراماً له إلا غفر الله له[1].

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد المالكي، أنا أبو الحسن شعبة بن الفضل بن سعيد التغلبي البغدادي، نا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، نا علي بن المديني، نا حاتم بن إسماعيل عن ابن مجمع عن أبي الزبير عن علقمة بن سفيان الثقفي قال: قال أبو أيوب سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من توضأ كما أمر وصلى كما أمر غفر له ما تقدم من ذنبه[2].

أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد بن عبيد الله العسقلاني قراءة عليه وأنا أسمع، أنا أبو بكر محمد بن أحمد الجندري المقري بعسقلان، أنا أبو محمد عبد الله بن أبان بن شداد قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري، نا عمرو بن بكر السكسكي عن إبراهيم بن أبي غبلة قال: سمعت أبا أبي بن أم حرام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بالسنا والسنوت[3]، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام. قالوا: يا رسول الله: وما السام؟ قال: الموت[4]. قال أبو الدرداء: لعمري وما السنوت؟ قال في غريب كلام العرب: وفي عكة السمن تعصر فتخرج خطوطاً سوداً مع السمن، وقال الشاعر:

[طويل]

هم السمن بالسنوت لا السمن فيهم　　　وهم يمنعون الجار أن يتقردا[5]

قلنا: ما السمن فيهم؟ قال: لا عسر فيهم. قلنا: ما يتقرد؟ قال: لا يذل جارهم. قال الشاعر:

[طويل]

وجاءت به شكلاء ذات أسرة　　　يكاد عليها ربة النحر تكمدُ

---

(1) المعجم الأوسط 2:160.
(2) سنن النسائي 1:90.
(3) السنوت: قيل هو العسل، وقيل الرب، وقيل الكمون: لسان العرب: سنت.
(4) المستدرك على الصحيحين 4:224.
(5) البيت للحصين بن القعقاع: لسان العرب: سنت.

أخبرنا الخصيب بن عبد الله بن محمد بن الخصيب القاضي قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبي القاضي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخصيب إملاء، نا أحمد بن الحسن بن أحمد الحداء، نا أحمد ابن إبراهيم: حدثني أبو الوليد خلف بن الوليد، نا المحاربي عن بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن الحسن قال: قراء القرآن ثلاثة: رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس، وقوم قرأوا القرآن حروفه[1] وضيعوا حدوده، واستدروا به الولاة، واستطالوا به على أهل بلادهم، فقد كثر هؤلاء الضرب في حملة القرآن لا كثرهم الله، ورجل قرأ القرآن فبدأ بدواء القرآن فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وهملت عيناه، تسربلوا بالحزن وارتدوا بالخشوع، ركدوا في محاربهم وحثوا برانسهم فبهم يسقي الله الغيث وينزل النصر ويرفع البلاء، والله لهذا الضرب في حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر[2].

أخبرنا الخصيب ابن عبد الله بن محمد بن الخصيب، نا أبي، نا أحمد بن الحسين بن نصر، نا أحمد بن إبراهيم، حَدَّثَني أبو النضر عن الأشجعي عن سفيان عن عمران المنقري قال: سألتُ الحسن عن مسألة قال: فلما أجاب قلت: إن بعض هؤلاء الفقهاء يقول فيها غير هذا. فقال: وهل رأيت فقيها بعيك، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير لدينه، المداوم على عبادة ربه.

أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سعيد البزاز قراءة عليه وأنا أسمع، نا أبو الحسن أحمد بن وهذاذ بن قهران قراءة عليه يوم الاثنين سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، نا محمد بن زكريا الغلاي، نا عبد الله بن الضحاك الهدادي، نا الهيثم بن عدي قال: أوتي الحجاج بن يوسف برجل من الخوارج فأدخل عليه والحجاج يتغذى، فجعل الخارجي ينظر إلى حيطانه وما قد نجد، فجعل يقول: اللهم اهدم، اللهم اهدم، اللهم اهدم. فقال له الحجاج: هيه، كأنك لا تدري ما يراد بك؟ فقال الخارجي: هيه، نزع الله ماضغيك وما عليك لو دعوتني إلى طعامك، أما أن فيك ثلاث خلال مما نعت الله به عادا فقال: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين)[3]، فامتلأ

[1] ساقط من ط.
[2] شعب الإيمان 532:2
[3] الشعراء: 128 – 130.

الحجاج غيظا فأمر بقتله فأخرجوه الحراس[1] إلى الرحبة ليقتلوه، فقال لهم: دعوني أتمثل بثلاثة أبيات. فقالوا: تمثل بما شئت، فأنشأ يقول:

[منسرح]

ما رغبةُ النفس في الحياة وإن ... عاشت طويلا فالموت لاحقها

قد أيقنتْ أنها تعود كما ... كان براها بالأمس خالقها

ألا تمتْ غبطة تمت هرما ... للموت كأس والمرء ذائقها

ثم مد عنقه فضربت، فانصرف قاتلوه إلى الحجاج فأخبروه، فقال: لله دره ما كان أصرمه في حياته وعند وفاته.

هـ ما انتقيته من الأجزاء المتقدمة تبركا بلفظها، واغتفرت طولها لفائدتها، وقد اقتديت في الإكثار من النقل من هذا الكتاب بإمام المرتحلين وشيخ المحدثين، الشيخ محمد بن رشيد السبتي في رحلته المسماة بملء العيبة بما جمع من طول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة[2]، وقد أكثر فيها من الفوائد، خصوصا من هذا الكتاب، فربما ينقل الجزء بكماله تكثيرا للفائدة، وقد علمت أن الناظر فيما كتبته لا يسأم من مطالعته هذه الأحاديث وأمثالها من الفوائد، إلا أن يكون ممن قصده الإسمار من الجهلة الأغمار، ولا عبرة بهم عند العلماء المحصلين.

ومما رويته عنه وكتبته من خطه رسالة الإمام أبي القاسم القشيري المسماة بشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة[3]، وهي غريبة ذكر فيها أشياء مما نسبه أهل البدعة للإمام الأشعري. أخبرني بها بسنده إلى ابن حجر عن الزين العراقي عن أبي محمد المقدسي العطار قال: أخبرنا الفخر بن النجاري عن ابن الفاخر قال: أنا زاهد بن طاهر السحامي قال: أنا أبو القاسم القشيري قال: الحمد لله المجمل في بلائه، المجزل في إعطائه، العدل في قضائه، المكرم لأوليائه، المنتقم من أعدائه، الناصر لدينه بإيضاح الحق وتبيينه، المبين للإفك وأهله، المسحق للباطل من أصله، فاضح البدع بلسان العلما، وكاشف الشبه ببيان الحكما، ومهمل الغواة حيناً غير مهملهم، ومجازي كل غدا على مقتضى عملهم. نحمده على ما عرفنا من

[1] في ط: الحرس.
[2] أنظر: ملء العيبة 381 – 393.
[3] وردت هذه الرسالة في: طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الرابع، ص: 400 وما بعدها.

توحيده، ونسترفقه على آداء ما كلفنا من رعاية حدوده، ونستعصمه من الخطـإ والخطل والزيغ والزلل في القول والعمل، ونسأله أن يُصَلّي على سيدنا محمد المصطفى وعلى أهله مصابيح الدجى وأصحابه أيمة الورى. هذه قصة سميناها شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة بخبر عن بثة مكروب ونفثة مغلوب، وشرع ملم مولم، وذكر مهم موهم، وبيان خطب فادح، ونشر سافح للقلوب جارح، رفعها عبد الكريم بن هوازن رحمه الله، إلى العلماء الأعلام لجميع بلاد الإسلام. أما بعد: فإن الله تعالى إذا أراد أمراً قَدَّره، فمن ذا الذي يمسك ما يسره، أو يقدم ما أخَّره، أو يعارض حكمه بغيره، أو يغالبه على أمره بقهره، كلا، بل هو الله الواحد القهار الماجد الجبار. ومما ظهر ببلاد نيسابور من قضايا التقدير في مسلخ سنة خمس وأربعين وأربعمائة من الهجرة ما دعا أهل الدين إلى شق صدر صبرهم وكشف قناع ضيرهم، بل ظلمة الملة الحنيفية تشكو غلبها وتبدي عويلها، وتنصب عوالي رحمة الله تعالى على من يستمع شكواها، وتصغى ملائكة السماء حين يندب شجوها، ذلك مما أحدث من لعن إمام الدين، وسراج ذوي اليقين، محي السنة، وقامع البدعة، وناصر الحق، وناصح الخلق، الزكي الرضي، أبي الحسن الأشعري قدس الله روحه، وسقى بالرحمة ضريحه،وهو الذي دب عن الدين بأوضح حجج، وسلك في قمع المعتزلة وسائر أنواع المبتدعة أبين منهج، واستفرغ عمره في النصح عن الحق، وأورث المسلمين بعد وفاته كتب الشهادة بالصدق. وسمعت الأستاذ الشهير أبا علي الحسن بن علي الدقاق، رحمه الله، تعالى يقول: سمعت أبا علي زاهر بن أحمد الفقيه، رحمه الله، يقول: مات أبو الحسن الأشعري رحمة الله عليه ورأسه في حجري، وكان يقول في حال نزعه[1] من داخل حلقه، فأدنيت إليه رأسي وأصغيت إلى ما كان يقرع سمعي، فإذا هو يقول: لعن الله المعتزلة موهوا وغرقوا، وإنما كان أبو الحسن الأشعري، رحمه الله تعالى، يتكلم في أصول الدين على جهة الرد على أهل الزيغ والبدع تأدياً لما أوجبه الله سبحانه على العلماء من النصح في الدين وكشف تمويه الملحدين والمبتدعين، ولما من الله الكريم على أهل السنة بركاب السلطان المعظم المحكم في رقاب الأمم، الملك الأجل، شاهشناه ظفرلنك السلجوقي[2]، وقام بإحياء السنة والمناضلة عن الملة، حتى لم يبق

---

[1] في ط: نزاعه.

[2] شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى،قتل شاهنشاه المذكور في الواقعة التي اجتمع فيها الفرنج سبعمائة ألف ما بين فارس وراجل على ما يقال وتقدموا إلى باب دمشق

من أصناف المبتدعة حزبا إلا سل لاستئصالهم سيفا عضبا، حرجت صدور أهل الزيغ عن محمل هذه النقم، وضاق صدورهم مقاساة هذا الألم، ومنوا بلعن أنفسهم على رؤوس الأشهاد بألسنتهم، و(ضاقت عليهم الأرض بما رحبت)[1] بانفرادهم الوقوع في مهواة محنتهم، فسولت لهم أنفسهم أمراً وظنوا أنهم بنوع تلبيس وضرب تدليس يجلون لعسرهم يسرا، فسعوا إلى عالي مجالس السلطان المعظم بنوع نميمة، ونسبوا الأشعري إلى مذاهب ذميمة، وحكوا عنه مقالات لا يوجد في كتبه منها حرف، بث في المقالات المصنفة للمتكلمين الموافقين والمخالفين من وقت الأوائل إلى زماننا هذا المنشي منها حكاية ولا وصفا، بل كان ذلك تصوير بتزوير، وبهتان بغير تقرير: وإن مما أدرك الناس من كلام النبوءة: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت[2].

قال: ولما رفعنا إلى المجلس العلي هذه الظلامة، وكشفنا قناع هذه الخطة، وذكرنا أنَّ هذه المقالات لم تسمع من السنة الزمرة، ولم توجد في كتبهم من هذه الجملة، ورجونا منه لهذه الظلامة نقض بنيانها وإبطال بطلانها، كان الجواب بغير ما أردنا وعما رجونا وأملنا، صددنا، إلى أن قال: ثم انصرفنا وما نقموا من الأشعري، إلا أنه قال بإثبات القدر لله خيره وشره، ونفعه وضره، وإثبات صفات الجلال له من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وبقائه وسمعه وبصره وكلامه ووجهه ويده، وأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنه تعالى موجود تجوز رؤيته، وأن إرادته نافذة في مراداته، وما لا يخفى من مسائل الأصول التي يخالف طريقه طريق المعتزلة والمجسمة فيها، وإذا لم يكن في مسألة لأهل القبلة غير قول المعتزلة وقول الأشعري، فإذا بطل قول الأشعري فهل تتعين بالصحة لقول المعتزلة، وإذا بطل القولان فهل هذا إلا تصريح بأن الحق مع غير أهل معاشر المسلمين، الغياث الغياث، سعوا في إبطال الدين، ورأوا هدم قواعد المسلمين، وهيهات هيهات (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره)[3] وقد وعد الله الحق نصره وظهوره، والباطل محقه وثبوره،إلا أن كتب الأشعري في الآفاق منشورة، ومذاهبه عند أهل

وعزموا على قصد بلاد المسلمين قاطبة ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، وكان قتله في شهر ربيع الأول سنة 543هـ: وفيات الأعيان 2:452.

[1] التوبة: 118.

[2] صحيح البخاري 3:1284.

[3] التوبة: 32.

السنة من الفريقين معروفة مشهورة، فمن وصفه بالبدعة علم أنه غير محق في دعواه، وجميع أهل السنة خصمه فيما افتراه، فأما ما حكي عنه وعن أصحابه أنهم يقولون أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، ليس بنبي في قبره ولا رسول بعد موته، فبهتان عظيم، وكذب محض لم ينطق به أحد منهم ولا سمع في مجلس مناظرة ذلك عنهم ولا وجد في كتب لهم، كيف يصح ذلك وعندهم أن محمداً، صلى الله عليه وسلم، حي في قبره. قال الله تعالى: (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله)[1] الآية. فأخبر سبحانه أن الشهداء أحياء عند ربهم، والأنبياء أولى بذلك لتقاصر رتبة الكافة عن درجة النبوءة. قال الله تعالى: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء)[2]. فرتبة الشهداء[3] ثالث درجة النبوءة. ولقد وردت الأخبار الصحيحة والآثار المروية بما يدل على هذه الجملة، فمن ذلك ما رُوي عن ابن مسعود عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: إن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض تبلغني عن أمتي السلام[4]، ولا تبلغ[5] السلام إلا لمن كان حياً. ومنها ما روي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من نبي يموت فيقوم من قبره إلا أربعين صباحاً حتى يرد الله إليه روحه. ومنها عن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام[6]، دل الخبر على أن الميت لا يعلم متى يرد الله عليه الروح، ودل على أن النبي، صلى الله عليه وسلم، حي في قبره.

ومنها عن أبي هريرة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: من صَلّى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي غائباً بلغتني. ومنها عن أنس بن مالك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: أتيتُ على موسى ليلة أُسريَ بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره. ومنها حديث الإسراء ومروره بالأنبياء في السماوات وخطابهم إياه. ومنها ما رواه ابن قتيبة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون، فإذا ثبت أن نبينا، صلى الله عليه وسلم، حي، فالحي لا بد أن يكون إما عالماً أو جاهلاً، ولا يجوز أن

[1] آل عمران: 169.
[2] النساء: 69.
[3] في ط: الشهادة.
[4] الترغيب والترهيب 2:326.
[5] في ط: يبلغ.
[6] مسند أحمد 2:527.

يكون النبي، صلى الله عليه وسلم، جاهلا لقوله تعالى في صفته: (ما ضل صاحبكم وما غوى)[1]. وقال: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه)[2]، فثبت أنه مؤمن، ورتبة النبوءة رتبة الشرف وعلو المترلة، وهو، صلى الله عليه وسلم، يزداد كل يوم شرفاً ورتبة إلى الأبد، فكيف لا يكون عارفاً ولا نبياً، والرسول فعول، بمعنى المرسل، ولا نظير له في اللغة، والأرسال كلام الله، وكلامه قديم، وهو قبل أن خلق كان رسولاً بأرسال الله، وفي حالة النوع، وإلى الأبد رسول لبقاء كلامه وقدم قوله واستحالة البطلان على أرساله الذي هو كلامه. ولقد سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقيل له: متى كنتَ نبياً؟ فقال: وآدم منجدل تحت طينته[3]. وقال، صلى الله عليه وسلم، إني لخاتم النبيّين وإن آدم سجد لي في طينته، فإن قيل: فأين وقعت هذه المسألة و لم يكن لها أصل؟ قيل إن بعض الكرامية ملأ الله قبره نارا، وظني أن الله قد فعل ألزم بعض أصحابنا. وقال: إذا كان عندكم الميت في حال موته لا يحس ولا يعلم، فيجب أن يكون، صلى الله عليه وسلم، في قبره غير مومن لأن الإيمان عندنا المعرفة والتصديق، والموت ينافي ذلك، ومن لا يكون مومنا لا يكون نبياً، وما ألزموه باطل، لأن عندنا أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حي يحس ويعلم وتعرض عليه أعمال أمته، ويبلغه الصلاة والسلام على ما بينا، ثم الأشعري لا يختص بقوله إن الميّت لا يحس ولا يعلم، بل جميع الطوائف ما عدا الكرامية عليه، وجواب الأشعري كجواب جميع الناس، وأما ما قالوه من أنه يقول أن الله لا يجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم ولا يعذب الكفار والعصاة على كفرهم ومعاصيهم، فذلك أيضاً بهتان، وكيف يصح من قول أحد يقر بالقرآن، وأن الله يقول: (جزاء بما كانوا يعلمون) (جزيناهم بما كفروا)[4] (جزاء من ربك عطاء حسابا)[5] (كذلك نجزي من شكر)[6] وغير ذلك من الآيات، وليس الخلاف في ذلك، وإنما الخلاف في أنه هل يجب على الله أن يثيب المطيعين وأن يعذب العاصين حتى تكون الطاعة والمعصية علتين في استحقاق الثواب والعقاب كما يقول المعتزلة، أو لا يجب شيء من ذلك، وهو مذهب أهل السنة، لأن الخلق

(1) النجم: 2.
(2) البقرة: 285.
(3) المعجم الكبير 20:353، وفيه: وآدم بين الروح والجسد.
(4) سبأ: 17.
(5) النبأ: 36.
(6) القمر: 35.

خلقه، والملك ملكه، والحكم حكمه، فله أن يتصرف كيف شاء، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[1] وقد وعد المؤمنين الجنة، وقوله صدق فلا محالة أنه يجازيهم، فالمطيعون لا محالة لهم جزاء الطاعة، ولكن بفضل الله عليهم لا باستحقاقهم، والعاصون لا محالة لهم ما توعدهم به ولكن بعدله لا باستحقاقهم، فالطاعات والمعاصي علامة للثواب والعقاب بلا علل ولا موجبات. قال الله تعالى حكاية عن أهل الجنة (الذي أحلنا دار المقامة من فضله)[2]. وقال: (لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً)[3]. وقال: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً)[4]. وقال: (لو شئنا لآتينا كل نفس هداها)[5]. وقال: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)[6] الآية. وروينا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس أحدكم ينجيه عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمّدني الله برحمة منه ومغفرة. وهذه المسألة من شعب مسألة القدر، وأهل الحق لا يقولون بوجوب شيء على الله، ويقولون: لله أن يحكم على عباده بما يريد ويخص من شاء بما شاء. ولقد روى ابن الديلمي قال: أتيت أُبي بن كعب فقلت: إنه وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه[7] من قلبي. فقال: لو أن الله، عز وجل، عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبل الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، ولو مت على غير هذا دخلت النار. ثم لقيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم لقيت حذيفة فقال مثل ذلك، ثم لقيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي، صلى الله عليه وسلم، بمثل ذلك. وروينا عن حذيفة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: سيكون قوم يقولون لا قدر، أولئك مجوس هذه الأمة، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، فإنهم شيعة

---

(1) الأنبياء: 23.
(2) فاطر: 35.
(3) النور: 21.
(4) يونس: 99.
(5) السجدة: 13.
(6) الأنعام: 125.
(7) في ط: يؤتيه.

الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بهم[1]. وأما ما يقولون عن الأشعري أن مذهبه أن موسى عليه السلام لم يسمع كلام الله، فسبحان الله، كيف لا يستحي من يأتي بمثل هذا البهتان الذي يشهد بتكذيبه كل مخالف وموافق، إذ حد ما يجوز أن يسمع عند الأشعري هو الموجود، وكلام الله موجود قديم، وكيف يقول لا يجوز والله يقول: (وكلم الله موسى تكليما)[2]، وإنما هذا على مذهب القدرية القائلين إن كلامه مخلوق في الشجر، فلزمهم أن موسى سمع كلام الشجرة لا كلام الله، وهذا كما يقال في المثل: رمتني بدائها وانسلت. ومن نسب إلى أحد قولاً لم يسمعه منه ولا حكي له عنه ولا وجد في كتبه ولا قاله أحد من أصحابه ولا وجد في كتب المقالات لموافق ولا مخالف علم أنه بهتان وكذب، وقد قال تعالى: (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا)[3] الآية. وأما ما قالوا أن مذهبه أن القرآن لم يكن بين الدفتين فهذا أيضا تشنيع فظيع وتلبيس على العوام، فإن الأشعري وكل مسلم غير مبتدع يقول إن القرآن كلام الله، وهو على الحقيقة مكتوب في المصاحف لا على المجاز، قديم غير مخلوق، ولم يزل ولا يزال، ولا يجوز انفصاله عن ذات الله تعالى ولا الحلول في المحال، وكونه مكتوبا على الحقيقة في الكتاب لا يقتضي حلوله فيه ولا انفصاله عن المتكلم، قال الله تعالى: (النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)[4]، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، على الحقيقة في التوراة والإنجيل، وكذلك القرآن، مكتوب على الحقيقة في المصاحف، كما أنَّ الله تعالى على الحقيقة لا على المجاز معبود في مساجدنا، معلوم في قلوبنا، مذكور بألسنتنا، وهذا[5] واضح بحمد الله، ومن زاغ عن هذه الطريقة فهو قدري ومعتزلي يقول بخلق القرآن، وأما ما قالوه أنه يقول بتكفير العوام، فهو أيضا كذب وزور، وهو أيضاً من تلبيسات الكرامية على العوام؛ فإنهم يقولون الإيمان هو الإقرار المجرد، ولا فرق بين المؤمن والكافر إلا بالإقرار، وغير من أهل القبلة يقول: الإيمان هو جميع الطاعات، فرضها ونفلها، والانتهاء عن جميع ما نهى الله عنه تحريماً

---

[1] ورد الحديث في المعجم الأوسط بصيغة: حدثنا أبو مسلم قال: حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي، قال: حدثنا زكريا بن منظور قال: حدثنا أبو حازم عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم: المعجم الأوسط 3:65.

[2] النساء: 164.

[3] النور: 16.

[4] الأعراف: 157.

[5] في ط: وهو.

وتتريهاً، وهذا مذهب أصحاب الحديث. وعند الأشعري: الإيمان هو التصديق، وهو مذهب أبي حنيفة، رضي الله عنه، والظن بجميع عوام المسلمين أنهم يصدقون الله تعالى في أخباره، وأنهم عارفون بالله مستدلون عليه بآياته، فأما ما تنطوي عليه العقائد ويستكن في القلوب من اليقين والشك فالله تعالى أعلم به. فإن قيل: فقد قال الله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يومن)[1] الآية. فمن أقر حكم بإيمانه فعلم أن الإقرار هو الإيمان، قيل: هذا لا يختص الأشعري بجوابه، بل هو وغيره فيه أسوة. فالجواب أنا نحكم في الظاهر بإيمانه، والله أعلم بحقيقة حاله، وهذا كقوله: (ولا تقربوهن حتى يطهرن)[2] فإذا قالت طهرت جاز قربها، وإن كانت في نفس الأمر على خلاف ذلك، فإن قالوا: الأشعري يقول إن العوام إذا لم يعلموا علم الكلام فهم أصحاب تقليد فليسوا بمومنين. قيل: هذا أيضاً تلبيس، فإن الأشعري لا يشترط في صحة الإيمان ما قالوا، بل هو كجميع أهل التحصيل من أهل القبلة يقولون: يجب على المُكَلّف أن يعرف الصانع المعبود بدلائله التي نصبها على توحيده، وليس المقصود استعمال ألفاظ المتكلمين من الجوهر والعرض، وإنما المقصود حصول النظر والاستدلال المؤدّي إلى معرفة الله عز وجل، وإنما استعمل المتكلمون هذه الألفاظ على سبيل التقريب والتسهيل والسلف الصالح وإن لم يستعملوها لم يكن في معارفهم خلل، والمستعملون ليس بينهم وبين السلف مباينة في الحق، ولا ما استعملوه بدعة في الدين، وهذا كاصطلاح الفقهاء على ألفاظ مثل: العِلّة والمعلول والقياس وغيره، واصطلاح النحاة وأهل التصريف وغيرهم. فإن قيل: إن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفة لطريقة المسلمين. قيل: لا يختص الأشعري بهذا دون غيره من متكلمي أهل القبلة، ثم الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية الذين لا تفصيل لهم، وكيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر وأنهم رضوا بالتقليد، حاشى أن يكون ذلك وصفهم. وبالجملة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين: جاهل ركن إلى التقليد وشق عليه سلوك طريق[3] أهل التحصيل وخلا عن طرق أهل النظر، والناس أعداء ما جهلوا، أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة فينطوي على بدع خفية يلبس على الناس عوار مذهبه ويعمي عليهم فضائح عقيدته. هـ باختصار.

---

(1) البقرة: 221.
(2) البقرة: 222.
(3) ساقط من ط.

ومنها قصيدة: ما شأن أم المؤمنين وشأني، لأبي عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي في فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، سمعتها عليه بكمالها، وأخبرني بها بسنده المعروف إلى شيخ الإسلام زكرياء عن ابن الفرات عن العز بن جماعة، أنا أبو عبد الله محمد بن أبي الحرم المكي السمسار سماعاً، أنا الحافظ الرشيد أبو الحسن يحيى بن علي القرشي عرف القطان عن ناظمها إجازة، (قال رضي الله عنه)[1]:

[كامل]

ما شأنُ أم المؤمنين وشأني ... هُدِيَ المُحب لها وضَلَّ الشاني[2]

إني أقولُ مُبينا عن فضلهَا ... ومترجمًا عن قولها بلسَاني

يا مبغضي لا تأتِ قبرَ مُحمد ... فالبيتُ بيتي والمكانُ مكاني

إني خصصت على نسَاء محمد ... بصفات بر تحتهن معاني

وسبقتهن إلى الفضائل كلها ... فالسبقُ سبقي والعنان عناني

مرض النبي وماتَ بين ترائبي ... فاليوم يومي والزمان زماني

زوجي رسول الله لم أرَ غيره ... الله زوجني به وحبَاني

وأتاه جبريلُ الأمين بصورتي ... وأحبني المختارُ حين رآني

أنا بكره العذراء عندي سِره ... وضجيعه في منزلي قمرانِ

وتكلم الله العظيم بحجتي ... وبراءتي في مُحكم القرآنِ

والله خفَرني وعَظم حرمتي ... وعلى لسان نبيه بَرَّأني

والله في القرآن قد لعنَ الذي ... بعد البراءة بالقبيح رَماني

والله وبَّخ من أرادَ تنقصي ... إفكا، وسبح نفسه في شاني

إني لمحصنة الإزار بريئة ... ودليل حسن طهارتي إحصاني

---

(1) زيادة من ط.

(2) قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب الصديقة عائشة رضي الله عنها، ص: 63.

والله أحصنني بخاتم رسله   وأذل أهلَ الإفك والبهتان

وسمعتُ وحي الله عند محمد   من جبريل ونوره يغشاني

يوحي إليه وكنت تحت ثيابه   فجثا علي بثوبه وخباني

من ذا يفاخرني وينكر صحبتي   ومحمد في حجره رباني

وأخذتُ عن أبوي دين محمد   وهما على الإسلامِ مصطحبان

وأبي أقامَ الدين بعد محمد   فالنصلُ نصلي والسنان سناني

والفخرُ فخري والخلافة في أبي   حسبي بهذا مفخرا وكفاني

وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد   وحبيبهِ في السر والإعلان

نصر النبي بماله وفعاله   وخروجه معه من الأوطانِ

وجنى الغنى حتى تخلل بالعبا   زهدا وأذعن أيما إذعانِ

وتخللت معه ملائكة السما   وأتته بشرى الله بالرضوانِ

وهو الذي لم يخش لومةَ لائم   في قتل أهلِ البغي والعدوان

قتل الألى منعوا الزكاة بكفرهم   وأذل أهل الكفرِ والطغيان

سبق الصحابة والقرابة للهدى   هو شيخهم في الفضل والإحسان

والله ما استبقوا النيل فضيلة   مثل استباقِ الخيل يوم رهان

إلا وطار أبي إلى عليائها   فمكانه منها أجل مكانِ

ويل لعبد خانَ آل مُحمد   بعداوة الأزواج والأختانِ

طُوبى لمن والى جماعة صحبه   ويكون من أحبابه الحسنانِ

بين الصحابة والقرابة ألفة   لا تستحيل بنزغَة الشيطانِ

هم كالأصَابع في اليدين تواصلا   هل يستوي كفٌّ بغير بنان

حصرت صدور الكافرين بوالدي | وقلوبهم مُلئت من الأضغانِ
حبا لبتول وبعلها لم يختلف | من ملة الإسلام فيه اثنانِ
نسجت مودتهم سدا في لحمة | فبناؤها من أثبت البنيانِ
الله ألف بين ود قلوبهم | ليغيض كل مُنافق طعانِ
رحماء بينهم صفت أخلاقهم | وخلت قلوبهم من الشنآنِ
فدخولهم بين الأحبة كلفة | وسبابهم سَبب إلى الحرمانِ
جمع الإلهُ المسلمين على أبي | واستبدلوا من خوفهم بأمانِ
وإذا أراد الله نُصرةَ عبده | من ذا يطيق لهُ على خذلان
من حبني فليجتنب من سبني | إن كان صان محبتي ورعاني
وإذا محبي قد ألظ بمبغضي | فكلاهما في البُغض مستويانِ
إني لطيبة خُلقت لطيب | ونساء أحمد أطيب النسوان
إني لأم المؤمنين فمن أبَى | حُبي فسوف يبوءُ بالخُسران
الله حببني لقلبِ نبيه | وإلى الصراط المستقيم هداني
والله يكرم من أراد كرامتي | ويهين ربي من أراد هواني
والله أسأله زيادة فضله | وحمدته شكرا لما أولاني
يا من يلوذُ بأهلِ بيتِ مُحمد | يرجو بذلك رحمة الرحمنِ
صِل أمهات المؤمنين ولا تَحد | عَنا فتسلب حلى الإيمانِ
إني لصادقة المقال كريمة | إني والذي ذلت له الثقلان
خُذها إليك فإنما هي روضةٌ | محفوفة بالروح[1] والريحان

[1] في الأصل: الراح، والصواب من نص القصيدة المطبوع.

صلى الإلــه علــى الــنبي وآلــهِ فــيهم نــشتم أزاهــرَ البُــستان

انتهت القصيدة في مدح أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وإنما أثبتها بكمالها لحسنها وغرابتها.

وسمعت منه أيضاً بلفظي الأحاديث الدالة على الخصال المكفرة لما تقدم أو تأخر من الذنوب، جمع الإمام ابن حجر في جزئه المُسَمَّى بالخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة، رويتها عنه محذوفة الأسانيد بعد أن كتبتها من خطه، واتفق لي فيها اتفاق عجيب وأمر غريب، اغتبطت به اغتباطا كثيرا وحمدتُ الله عليها حمداً أثيراً، وذلك أني قرأتها بلفظها على شيخنا أبي مهدي وكلانا محرم بالحج والعمرة يوم عرفة بعرفة، وكنت تحينت ذلك الوقت وذلك المكان رجاء أن يغفر الله لي وله المتقدم والمتأخر من ذنوبنا فإنه لا يتعاظمه شيء سيما في الوقت الذي تنصب فيه رحمته انصبابا، وتنكب الخلائق على موائد أفضاله انكباباً، وتتسع الأطماع، وتمتلئ بالتضرع إلى الله الأسماع، والله يحقق رجاءنا فيه، فإنه الكريم الذي لا يخيب راجيه، ولنذكر الأحاديث بتمامها تبركا، محذوفة الأسانيد كما رويتها، فأقول: أخبرني شيخنا بسنده إلى الحافظ ابن حجر بسنده إلى حمدان بن أبان مولى عثمان بن عفان قال: دعا عثمان بماء فأكثر ترداد الماء على وجهه ويديه، فقلت: حسبك قد أسبغت الوضوء والليلة شديدة البرد، فقال: صب فإني سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يسبغ عبد الوضوء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ومسنده.

وأخرج أبو عوانة في مستخرجه على مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سمع المؤذّن فقال أشهد أن لا إله إلا الله، رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وفي رواية رسولاً، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال له رجل: يا سعد: ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال: هكذا سمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم[1]. وأخرج أبو داوود أنَّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال للعباس بن عبد المطلب: يا عباس، يا عماه، ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك، ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته: أن

[1] مسند أبي عوانة 1: 284.

تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً، ثم تهوي ساجداً فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون مرة في كل ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل[1]، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة، هـ.

وأخرج ابن وهب في مصنفه عن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن الملائكة تؤمن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[2].

وأخرج آدم بن أبي ياسر في كتاب الثواب له عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً كتب الله له بها مائتي حسنة، ومحا عنه مائتي سيئة، ورفع له مائة درجة، أو مائتي درجة، وغفر له ذنوبه كلها ما تقدَّم وتأخَّر إلا القصاص[3].

وأخرج أبو عبد الرحمن السلمي عن أنس، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: من قرأ إذا سلم يوم الجمعة قبل أن يثني رجليه فاتحة الكتاب و(قل هو الله أحد)، و(قل أعوذ برب الفلق)، و(قل أعوذ برب الناس)، سبعاً سبعاً، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأعطي من الأجر بعدد كل من آمن بالله واليوم الآخر، وفي إسناده ضعف شديد جداً[4].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[5].

---

(1) المعجم الكبير 11:243.
(2) صحيح مسلم 1:307.
(3) تنوير الحوالك 1:85.
(4) فيض القدير 6:204.
(5) مسند أحمد 2:232.

وأخرج أحمد عن عبادة بن الصامت أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: ليلة القدر في العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتها فإن الله تبارك وتعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر؛ تسع أو سبع، أو خامسة أو ثالثة، أو إحدى وعشرين[1].

وأخرج أبو سعيد النقاش في أماليه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام يوم عرفة غُفِر له ما تقَدّم من ذنبه وما تأخر، من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أو وجبت له الجنة. أخرجه أبو داوود عن أم سلمة. من جاء حاجًّا يريد وجه الله فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[2]، وشفع فيمن دعا له. أخرجه أبو نعيم عن عبد الله بن مسعود.

إذا خرج الحاج من بيته كان في حرز الله، فإن مات قبل أن يقضي نسكه وقع أجره على الله، وإن بقي حتى يقضي نسكه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[3]، أخرجه أبو يعلى وأحمد بن منيع عن جابر. من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحشر يوم القيامة من الآمنين. ذكره القاضي في الشفا[4]. من قرأ سورة الحشر غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أخرجه الثعلبي وابن مردوية في تفسيرهما. من علم ابناً له القرآن نظراً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن علمه إياه ظاهرا فكلما قرأ آية رفع الله بها الأب درجة حتى ينتهي إلى آخر ما معه من القرآن[5]. أخرجه الطبراني عن أنس.وأخرج أبو محمد عبد الله بن محمد في فوائد الأصبهانيين عن أم هانئ، وكانت تكثر الصيام والصلاة والصدقة، فدخل عليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فشكت إليه ضعفها، فقال: سأخبرك بما هو عوض من ذلك؛ تسبحين الله مائة فتلك مثل مائة رقبة تعتقينها متقبلة، وتحمدين الله مائة مرة، فتلك مثل مائة بدنة مجللة تهدينها متقبلة، وتكبرين الله مائة مرة، وهناك يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر[6].

---

(1) مسند أحمد 5:324.
(2) فيض القدير 6:204.
(3) الفردوس بمأثور الخطاب 1:319.
(4) الشفا 2:310.
(5) مجمع الزوائد 7:16.
(6) شعب الإيمان 1:432.

من عدد في البحر أربعين موجة وهو يكبر غفر الله له ذنوبه ما تقدم منـــها وما تأخر، وإن الأمواج لتحث الذنوب حَتّاً. ذكره أبو الحسن الربيعي في فضائل الشام.

وروي أيضاً عن أنس عنه عليه السلام: مدينة بين الجبلين على البحر يقال لها عكا من دخلها رغبة فيها غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن خرج منـــها رغبة عنها لم يبارك له في خروجه، وبها عين تسمى عين البقر من شرب منها ملأ الله بطنه نوراً، ومن أفاض عليه منها كان طاهرا إلى يوم القيامة، هذا حديث منكر جداً.

من قاد مكفوفاً أربعين خطوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[1]، أخرجه ابن مندة في أماليه.

عن ابن عمر: من سعى لأخيه المؤمن في حاجة قضيت له أو لم تقض غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكتب له براءتان من النار وبراءة من النفاق، أخرجه ابن الناصح في فوائده عن ابن عباس ما من عبدين متحابين في الله، وفي رواية: ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان، ويصليان على النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا لم يفترقا حتى يغفر لهما ذنوبهما ما تقدم منها وما تأخر[2]. أخرجه أبو يعلى عن أنس. من أكل طعاما ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني من الطعام ورزقني من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومن لبس ثوبا جديدا فقـــال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول غفر له ما تقدم من ذنبه ومـــا تأخر[3]، أخرجه أبو داوود عن أنس.

وأخرج الحكيم الترمذي عن عثمان قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: قال الله عز وجل: إذا بلغ عبدي أربعين سنة عافيته مـــن البلايـــا الثلاث: من الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حساباً يسيراً، فإذا بلغ ستين سنة حببت إليه الإنابة، فإذا بلغ سبعين سنة أحبته الملائكة، فإذا بلغ الثمانين سنة كتبت حسناته وألغيت سيئاته، فإذا بلغ تسعين سنة قال الملائكـــة:

---

(1) كشف الخفاء 2:353.
(2) مسند أبي يعلى 5:334.
(3) سنن الدرامي 2:378.

أسير الله في أرضه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفع في أهلـه[1]. قـال الحكيم: هذا من جيد الحديث هـ.

وأخبرني شيخنا أبو مهدي بحديث وضع اليد على الرأس عند خاتمة الحشر وكتبته من خطه قال: أخبرني به شيخنا أبو محمد عبد الكريم البكور القسمطيني، عن أبي زكرياء يحيى بن سليمان الأوراسي، عن الشيخ طاهر بن زياد عن الشيخ زروق، عن أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي، عن أبي القاسم البرزلي قـال: أخبرنـا شيخنا أبو الحسن البطرني عن أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم اللبيـدي، عـن الأستاذ أبي العباس أحمد بن علي البلاطي، عن المحدث أبي عمرو عثمان بن حسن بن علي بن دحية الكلبي، عن الحافظ أبي القاسم بن بشكوال، عن القاضي الشهيد أبي علي الصدفي عن أبي منصور عبد المحسن بن محمد بن علي المالكي، عـن أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب، عن أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأنـصاري الحافظ، عن أبي الطيب محمد بن أحمد المقري، عن إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرأت على خلف فلما بلغت هذه الآية: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل)[2] قال لي: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على حمزة فلما بلغت هذه الآية قال لي: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش فلما بلغت هذه الآية قال لي: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة فلما بلغت هذه الآية قال لي ضع يدك على رأسك، فإنا قرأنا على عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، فلما انتـهينا إلى خاتمة سورة الحشر قال: ضعا أيديكما على رؤوسكما فإني قرأت على النبي، صلى الله عليه وسلم، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإن جبريل عليه السلام لما نزل بها إلي قال لي ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كـل داء إلا السام؛ والسام الموت[3].

(1) ورد الحدث في مسند أحمد برواية: حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا أنس بن عياض حدثني يوسـف بـن أبي بردة الأنصاري، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، عن أنس بن مالك أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال: ثم ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من الـبلاء؛ الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله عليه الحساب، فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابـة إليـه بما يحب، فإذا بلغ سبعين سنة أحبه الله وأحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين قبل الله حسناته وتجـاوز عـن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله في أرضه وشفع لأهل بيتـه: مسند أحمد 3:217.

(2) الحشر: 21.

(3) لسان الميزان 5:52.

ورويت أيضاً عنه هذه القصيدة وكتبتها من خطه، وهي للشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي ذكر فيها المسائل التي اختلف فيها الأشعرية والماتريدية، وهي ثلاث عشرة؛ سبعة منها الأولى الخلاف فيها بينهما لفظي، والستة الباقية الخلاف فيها معنوي، لكنه لا يؤدّي إلى تبديع وتضليل، وهذه القصيدة غاية في الحسن والسلاسة والإفادة، وقد رأيتها في محل آخر أطول من هذا إلا أن هذا القدر منها هو الذي يتعلق بما ذكرنا من الخلاف بين الإمامين. أخبرني بها إجازة و لم يكن سماعا بسنده إلى زكريا عن ابن الفرات عن المؤلف تاج الدين السبكي قال[1]:

[كامل]

يا صاحِ إن عقيدةُ النعمانِ ... والأشعرى حقيقةَ الإيقانِ

وكلاهُما والله صاحبُ سُنة ... بهدى نبي الله مُقتديانِ

لا ذا يُبدع ذا ولا هذا وإن ... تحسبْ سواه وهمت في الحسبانِ

من قالَ إن أبا حنيفةَ مُبدع ... رأيا فذلك[2] قائلُ الهذيانِ

أو ظَن أن الأشعَرى مُبدّع ... فلقد أساءَ وباءَ بالخسرانِ

كُل إمام مُقتد ذو سُنة ... كالسيفِ مسلولا على الشيطانِ

والخلفُ بينهما قليلٌ أمرهُ ... سهلٌ بلا بدع ولا كُفرانِ

فيما يَقِل من المسائل عَدةُ ... ويهونُ عند تطاعنِ الأقرانِ

ولقد يَؤولُ خلافها إما إلى ... لفظٍ كالاستثناءِ في الإيمانِ

وكمنعهِ أن السعيدَ يَضِل ... أو يشقَى ونعمة كافر خوانِ

وكذا الرسالة بعد موتٍ إن تكن ... صحتْ وإلا أجمعَ الشيخانِ

وقد ادعى ابن هوازنَ أستاذنا ... فيها افتراءً من عدو شانِ

وهو الخبيرُ الثبت نقلا والإرا ... دةُ ليس يلزمُها رضا المنان

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى 3:383.
[2] في ط: ذاك

فـــالكفر لا يرضـــى بـــه لعبـــادهِ ويريـــــدهُ أمـــــرانِ مفترقـــــانِ
وأبـــو حنيفـــة قائـــلٌ إن الإرا دةَ والرضـــا أمـــرانِ مُتحـــدانِ
وعليهِ أكثرُنـــا ولكـــن لا يـصـــ ـــح. وقيل مكذوبٌ على النعمـــانِ
وكذاكَ إيمانُ المقلـد وهـو مــ ـــما أنكر ابـن هـوازن الربـاني
ولـو أنـه ممـا يـصح فخلفهـم فيـهِ للفـظ عـادَ دون معـانِ
وكذاكَ كـسبُ الأشـعَري وإنـه صـعب ولكـن قـامَ بالبرهـانِ
من لم يقلْ بالكسبِ مالَ إلى اعتـزا ل أو مقـالِ الجـبر ذى الطغيـانِ
أو للمعاني وهْـو سـت مـسائل هائـت مـداركها بـدون هـوانِ
لله تعـذيبُ المطيـع ولـو جَـرى ما كـانَ مـن ظلـم ولا عـدوانِ
متـصرفٌ في ملكـهِ فلـهُ الـذي يختـارُ لكـن جـادَ بالإحـسانِ
فنفَى العقابَ وقال سـوف أثيبـهم فلـهُ بـذاكَ علـيهم فـضلانِ
هـذا مقـالُ الأشـعري إمامنـا وسـواهُ مـأثورٌ عـن النعمـانِ
ووجوبُ معرفةِ الإلـهِ الأشـعرى يقـولُ ذاكَ بـشرعةِ الـديانِ
والعقلُ لـيس بحـاكم لكـن لـه الإدراكُ لا حكـم علـى الحيـوانِ
وقضوا بـأن العقـلَ يُوجبـها وفى كتب الفـروعِ لـصحبنا وجهـانِ
وبـأن أوصـافَ الفعـال قديمـة ليـست بحادثـةٍ علـى الحـدثانِ
ورأيتُ فيهم مـن يقـول بـأن ذا كـذبٌ عيـه جـاء مـن فَتـانِ
وبأن مكتـوبَ المـصاحفِ مـترل عـين الكـلام المـترلِ القـرآنِ
والبعضُ أنكرَ ذا فإن يـصدق فقـد ذهبـت مـن التعـداد مـسألتانِ
هـذي ومـسألة الإرادة قبلـها أمـرانِ فيمـا قيـلَ موضـوعانِ

وكما انتفى هـــذان عنـــهم هكـــذا عنـــا انتفـــى ممـــا يقـــالُ اثنـــانِ
قالوا ولـــيسَ بجـــائزٍ تكليـــفُ مـــا لا يـــستطيعُ فـــتى مـــن الفتيـــانِ
وعليه من أصحابنا شـــيخُ العـــراق وحجـــةُ الإســـلامِ ذو الإتقـــانِ
ورآه مجتهـــدُ الزمـــانِ مُحمـــد بن دقيقِ عيد[1] واضـح الـــسبلانِ
قالوا وتمتنعُ الـــصغائر مـــن نبـــ ـــي الإلـــه وعنـــدنا قـــولانِ
والمنعُ مروي عن الأســـتاذِ والـــ ـــقاضي عياض وهو ذو رجحـــانِ
وبه أقول وكـــان رأي أبي كـــذا[2] رفعـــا[3] لرتبتـــهم عـــن النقـــصانِ
والأشـــعري إمامنـــا لكننـــا في ذا نخالفـــهُ بكـــل لـــسانِ
ونقـــولُ نحـــن علـــى طريقتـــه ولا كـــنْ صـــحبه في ذاك طائفتـــانِ
بل قـــال بعـــضُ الأشـــعرية إنهـــم بـــرآءُ معـــصومون مـــن نـــسيانِ
وأبو حنيفـــةَ هكـــذا مـــع شـــيخنا لا شـــيء بينـــهما مـــع النكـــرانِ
متناصـــرانِ وذا اخـــتلافُ عـــين عـــار عـــن التبـــديع والخـــذلانِ

وسمعت من لفظه أيضا نحو النصف من كتاب الشفا للقاضي عياض، رواية ودراية، يقرره أحسن تقرير، ويبين مقاصده، ويطالع عليه شرح شيخنا شـــهاب الدين الخفاجي، وكنت أمسكه عليه في حال التقرير وأسرد له المحتاج منه، ويحضرٍ مجلسه فيه غالب النجباء من متفقهي أهل مكة، وكان يوم ختمه يوما مـــشهودا حضره أكابر الفقهاء، وأديرت فيه كؤوس الأشربة الحلوة، وأطلقت فيه أنـــواع البخور والروائح الطيبة، وهذه هي أنهى تكرمة عند أهل ذلك القطر.

وسمعت من لفظه أيضا كتاب الدعاء لابن أبي الدنيا بكماله، وأجازني بـــه وبكل ما اشتمل عليه من أدعية وأذكار، وبالأربعين الإدريسية، خصوصاً إذ هي

---

[1] في ط: محمد القوصي.
[2] ساقط من الطبقات.
[3] في ط: دفعا.

من جملة الأذكار الواردة فيه. وسمعت عليه جملة صالحة أيضا من صحيح مسلم بلفظه رواية ودراية، كان يكتب نسخة من صحيح مسلم بخطه فيصحح منها كل يوم حصة بحضرة الفقهاء وإحضار غالب المحتاج إليه من شروح الكتاب.

وسمعت من لفظه أيضاً جملة صالحة من سنن أبي داوود ومثلها من جامع أبي عيسى الترميذي، ومثلها من سنن ابن ماجة. وسمعت من لفظه أيضا جميع السنن للنسائي المسمى بالمجتبى، كل ذلك بالمسجد الحرام قبالة الركن اليماني بإزاء مترله الذي كان يسكن فيه، رضي الله عنه.

وأنشدت له، رضي الله عنه، يوم ختم كتاب المجتبى هذه الأبيات:

[طويل]

ختمنا كتابَ المُجتبى وأتمه ... وأسْمعناهُ شيخنا مسندَ الدنيا

مُحدث هذا العصرِ شيخ شيوخه ... ومن نالَ بالتحديثِ مترلةً عُليا

قُبالة بيتِ الله في المسجدِ الذي ... جميعُ عبادِ الله يأتونهُ سعْيا

شكرناكَ فيما قد حبوتَ فزد لنا ... إلى أن نرَى ما بين أظفارنا رَيا

أجزنا وكل الحاضرينَ جميع ما ... رويتم بلا شرطٍ يخص ولا ثنيَا

وسمعت عليه بلفظ غري جملة صالحة من مناسك الحطاب الكبيرة تفقهها بالمسجد الحرام، وكان يحضر مجلسه فيها أرباب المذاهب غير المالكية، وكان يقرأ المناسك في أشهر الحج في غالب السنين، وسمعته يقول: إن عشنا إلى قابل، أو كلاما هذا معناه، قرأنا إن شاء الله منسك ابن جماعة الكبير، ويحضر جماعة أصحابنا من أهل المذاهب ليكون أتم نفعا، وهذا المنسك التزم فيه صاحبه ذكر كلام أرباب المذاهب الأربعة في المناسك، فأراد، رضي الله عنه، تحقيق مناسك الحج على المذاهب الأربعة كلها بحضور أصحاب المذاهب المحققين لفروع مذاهبهم لأنه اليوم ملجأ الناس في الاستفتاء في المناسك.

وسمعت منه خطبة القاموس في اللغة، وأجازني باقيه، وسمعت منه خطبة كتاب نفح الطيب في أخبار الأندلس وأبي عبد الله بن الخطيب للحافظ المتفَنِّن سيدي أحمد المقري، وهو كتاب حافل جمع فيه من أخبار علماء الأندلس

وشعرائها وأحوالها شيئا كثيراً، واستوفى فيه أخبار لسان الدين بن الخطيب، وكأنه هو المقصود أولا بالتأليف، وهذا التأليف فيما قيل لي يطلع في نحو من أربعة أسفار، و لم أشاهده كله، وقد أجاد في خطبته غاية، وجمع فيها من علوم البلاغة ما سحر العقول، فلا يمل سامعها مع طولها، لما اشتملت عليه من النثر الرائق، والنظم الفائق.

وسمعت من لفظه أيضا وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده الثلاثة، وهي من جملة ما اشتمل عليه التأليف المتقدم، وهي في غاية الحسن والسلاسة والجمع لمقاصد الوصية بما فيه صلاح الدين والدنيا. وقد أخبرني أنه سمعها على شيخنا تاج الدين المكي[1]، قال لي: ومن عجيب الاتفاق أن كان سماعها بحضور أولاده الثلاثة، وكأنها وصية منه لأولاده، إذ لم يعش بعد السماع إلا أمدا قليلا، وكان يخيل لي أن ذلك بالقصد منه رحمه الله تعالى.

وعرضت عليه قصائدي المدحية المرتبة على حروف المعجم، وقد تقدم بعضها أول الرحلة، وراجعته فيما يحتاج إلى المراجعة منها، فاستحسنها، ولقوة إنصافه استجازني فيها، رضي الله عنه، وصححت بمراجعته ضبط ألفاظ لغوية فيها، وسمعت بلفظه الدعاء في سجدات القرآن للحكيم الترمذي، ولنذكره لغرابته لأنه لا يوجد في كثير من نسخ نوادر الأصول، فأقول: أخبرني به سماعا وقراءة عليه شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي قال: أخبرني به سماعا وإجازة شيخنا أبو الحسن علي الأجهوري رحمه الله تعالى، عن القاضي بدر الدين القرافي وعن الجمال يوسف بن شيخ الإسلام زكرياء قالا: أنا أبو يحيى زكريا الأنصاري[2] عن أبي الفضل بن حجر بإجازته مشافهة من أبي الحسن علي بن محمد بن أبي المجد عن سليمان بن حمزة عن عيسى بن عبد العزيز، وهو آخر من حدث عنه، عن أبي سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني، وهو آخر من حدث عنه بإجازته من أبي الفضل محمد بن علي بن سعيد المطهر قال: أنا أبو إسحاق محمد بن إبراهيم ابن محمد البرقي الخطيب قال: أنا أبو بكر محمد بن عبد الرحمن المقري قال: أنا أبو نصر أحمد بن أحيد بن حمدان أن البيكندي قال: أنا الحكيم محمد بن علي

---

[1] تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المكي المالكي، من قضاة مكة، فقيه مشارك، توفي سنة 1070 هـ: اقتفاء الأثر، ص: 136. خلاصة الأثر 1:457.

[2] أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي، قاضي القضاة بمصر، من شيوخ أبي سالم العياشي، مولده تقريبا سنة 826 هـ، ووفاته سنة 926 هـ: إتحاف الأخلاء، ص: 177. فهرس الفهارس 1:457.

الترمذي، رضي الله عنه، قال: فصل ما يقرأ في السجود: روي عن ابن مسعود عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه كان إذا سجد يقول: سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، أبوأ بنعمتك علي وأبوأ بذنبي، هذا ما جنيت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا أنت. وروت عائشة أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول في سجود القرآن بالليل مرارا: سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته[1]. وأيضا روت عائشة أنه كان يقول في سجوده: أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك، جل وجهك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك يا عظيم[2]. وأيضا كان يقول في سجوده: اللهم اغفر لي ذنبي كله دقيقه وجليله، أوله وآخره، سره وعلانيته. قال الشيخ رحمه الله: هذا ما جاءنا عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا نعلم أنه وقت شيئا في ذلك، فهذه الأشياء التي ذكرها كلمات ضرع وملق يريد أن يخرج بها إلى ربه من الأحداث، فكان ينطق بما يتراءى له في وقته، وبذلك يناجي ربه. ثم لمن بعده من الصحابة والتابعين مقالات في سجداتهم، وأما ما يتراءى لنا في كل سجدة من سجود القرآن فهو ما ذكرنا هاهنا:

سجدة الأعراف: طابت لهم منازل القربة عندك، فتطهروا عن الاستكبار وأذعنوا لك خضوعا بما عاينوا من عظيم كبريائك، وعزيز جبروتك في الملكوت فتلقوا عظمتك واستكانوا بالسجود لك خشوعا، هؤلاء بديع كلماتك، ونحن ولد بديع فطرتك وصنع يدك وأمة حبيبك الممدوحين في التوراة والموصوفين في الإنجيل بما منحتنا من مننك وفضلك، وأهديت إلى المخبتين منا هداياك وكراماتك رأفة، سجدنا لك بما منحتنا من رأفتك ورحمتك، وألقينا بأيدينا سلما نرجو مددك وسبيلك ومعروفك، يا معروفا بالعطايا الجزلة، ومحمودا على صنائعك الجميلة.

سجدة الرعد: سجدت الأحباب طوعا والأعداء كرها، سجد لك شخص الأحباب وظلال الأعداء، أدركت رحمتك شخص الأحباب فنالت السجود وانزوت عن الأعداء فحرمت، سجدت لك ظلالهم بالغدو والآصال تميل مع ميل الأظلة والأفياء، طهرت تلك الأجرام والأشباح فطهارة قلوبهم بنور التوحيد فأهلتهم للسجود لك، ونزهت سجدتك عن تلك الأجرام النجسة التي نجست

---

[1] صحيح مسلم 1:553.
[2] سنن الدار قطني 1:144.

برجاسة الشرك وتمكن العدو منها، فلك الحمد على ما اصطنعت، إلي وإليك الرغبة يا إلهي في دوامها علي فكما جعلتني أسجد لك سجود الأحباب طوعا وسلما، فاجعلني في جميع متقلبي في محياي لك كذلك طوعا وسلما.

سجدة النحل: لك سجدت الملائكة وخافوك من فوقهم وفعلوا ما أمرتهم ذلك بأنك عريتهم من الشهوات وطهرتهم من الآفات، ومكنت لهم الزلفات، فخافوك فوقهم وفعلوا ما أمرتهم، ولم يسبقوك بقول وهم من خشيتك مشفقون، فهم عبادك المكرمون، ونحن عبيدك المرحومون المحبوبون، بالرأفة ابتدأتنا، ومن باب الرحمة أخرجتنا، ومن ضعف خلقتنا، وبالشهوات ابتليتنا، وللآفات عرضتنا، وبالوعد والوعيد في الوحي أدبتنا، وبجودك ومنتك هديتنا، وبعظيم حظنا منك وسعت علينا، وأشرعت إليك السبيل لنا، وجعلت منا أولياء وأحباء بالمنازل القربة لديك، فخوفنا لك مع الشهوات، وأفعالنا مع الوساوس والخطرات والآفات، فارحمنا فإنك أعلمتنا أنك معنا في العون والنصر والتأييد يا خير من أشفق علينا ورحمنا.

سجدة سبحان: لك خرت العلماء سجدا، وحق لهم بأنهم شاهدوا بقلوبهم عرصة التوحيد، وعاينوا بنور علم القربة ماهيات لأحبابك هناك في مراتبهم من البر والوداد، فخرّوا لأذقانهم سجدا مع البكاء والعويل، وسجدوا لربوبيتك، وأيقنوا بوعدك عند تلاوة وحيك، وزادهم بكاؤهم لك خشوعا، فخشعت لك جوارحهم لأن الخشعة ميراث بكاء الخشية، ذلك بأنك جعلت للباكي من خشيتك من عاجل الثواب أن تملأ جوارحه في الدنيا والآخرة ضحكا، فيا حنان تحنن علينا بعطفك، وزدنا علما يقربنا إليك، واجعلنا من الشاكرين لك، وتقبلها منا كما تقبلتها من الذين أوتوا العلم من قبلنا.

سجدة مريم: يا خير المنعمين أنعمت على النبيين المهديين والمخبتين بالنبوءة والهداية والخباتة فيك وصاروا إلى محبوبك من الأعمال، وخروا لتلاوة آيات الرحمن لك سجدا وبكيا، تلك خشعة الأحباب، وأهل الوداد سجدوا مع البكاء شوقا إليك وقلقا بطول الحبس عنك في سجون الدنيا يا ودود، فليس من لقيك في السجن عبدا قنا في العبودية كمن لقيك في دارك دار السلام، حرا ملكا محبورا مسرورا، يراك جهرا قد كشفت الغطاء وتجليت لأهل الوداد عن حجب الكبرياء والجلال، فأنبأتنا عن أحوالهم وأخبارهم وحيا وتنزيلا، فحذونا على ذلك من

فعلهم هذا، سجودهم قد علمته، فليت شعري من أين بكاؤهم وما الذي أبكاهم، وأين أصول ذلك المنبع وهم أهل صفوتك ونجباء عبيدك، إلهي فسهل لنا السبيل إلى ذلك من فعلهم ظاهرا وباطنا، ووفر حظنا من ذلك برحمتك علينا.

سجدة (أول)[1] الحج: سجد لك الخلق والخليقة علوا وسفلا، وبرا وبحرا، والحجر والمدر والدواب والشجر وكثير من الآدميين، وكثير حق عليه العذاب. ثم قلت: (ومن يهن الله فما له من مكرم)[2]، فلك الحمد إذ أكرمتنا بالسجود لك و لم تجعلنا ممن أهنته فما له من مكرم، ثم قلت: (إن الله يفعل ما يشاء)[3] فلك الحمد على ما بدا من مشيئتك فينا، وعلى الرحمة التي جرت بمشيئتك فينا، وبإكرامك إيانا، إلهي فلا تهنا بعدما أكرمتنا على تفريطنا وقلة شكرنا ووفائنا وجفوتنا، ولا تسلبنا خير ما أوليتنا، يا عظيم الرجاء، يا حسن البلاء، يا كثير النعماء، يا جزيل العطاء، يا جليل الثناء.

الثانية من الحج: بك آمنا، ولك ركعنا، ولوجهك الكريم الباقي الدائم سجدنا، وإياك عبدنا، وإليك أنبنا، ربنا وفعل الخير قصدنا، والفلاح رجونا وأملنا، والنجاح لك بك طلبنا، فأعنا ولا تقطع مردك وعنايتك عنا، خذ إليك بنواصينا، واجعل فيما لديك رغبتنا، ونور قلوبنا واشرح لنا[4] صدورنا، وحسن أخلاقنا، واختم لنا بأحسن ما ختمت لعبادك الصالحين من أهل ملتنا.

سجدة الفرقان: للرحمن سجدنا، وإياه وحدنا، وما عنده أملنا، وبما أمرنا من السجود ائتمرنا، فالرحمن مولانا، والرحمن خالقنا ومالكنا[5]، والرحمن هادينا وناصرنا، والرحمن من مَنَّ علينا باسمه الرحمن ووَفَّر منه حظنا، وبالرحمة العظمى نلنا من الرحمن حظنا، فالله ولينا ومولانا، والرحمن أحياناً، والرحيم أعاننا، والقيوم آوانا، فيا أكرم مأمول، ويا خير معبود، ويا أحسن خالق، ويا أكرم مالك، تمم علينا معروفك وما ابتدأت من الإحسان، وتول منا ما توليت من أهل رأفتك ورحمتك، وتعطف علينا بجودك وكرمك، تبارك اسمك الرحمن ذو الجلال والإكرام، علمت القرآن، وخلقت الإنسان، وعلمته البيان، فلك الآلاء والنعماء،

(1) زيادة من ط.
(2) الحج: 18.
(3) الحج: 18.
(4) ساقط من ط.
(5) ساقط من ط.

يا ذا الملك والملكوت، يا عزيز الجبروت، إليك الرغبوت، ومنك الرهبوت، هديتنا لاسمك الرحمن، ووفرت منه حظنا فأحييت به قلوبنا ونورت به أفئدتنا، فالفرح الدائم لمن وصل له اليوم الرحمن قلبا، والسرور والبهجة وقرة العين لمن وصل إليه غدا بدنا، عمتنا رحمتك العظمى فزادني اسمك سروراً وزاد أعداءك نفوراً، وإنما نفرهم عن اسمك الرحمن حرمان حظهم من الرحمن فلم تنلهم رحمتك فجهلوا اسمك ونفروا من ذكره وهو الاسم الذي به حييت القلب فتمكنوا به في دارك دار السلام.

سجدة النمل: سجدت لمن يخرج الخبء في السماوات والأرض، عالم الخفيات، محصل ما في الصدور ومبلي السرائر، ولم تخف عليه حركات جوارحنا ومكتوم ضمائرنا وخواطر قلوبنا، وهم نفوسنا، ونوازع الأهجاس منا، سجدت لله الذي (لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[1]، يا ذا الأمثال العلى، والأسماء الحسنى، فأنت رب العرش العظيم واستويت عليه، وأنت عال على العرش، وكيف لا يعظم وهو مقامك للربوبية، يا حي يا قيوم، فمن دون (العرش)[2] إلى ما تحت الثرى في جوف العرش العظيم، يا شاهد كل نجوى، ومن حبل الوريد إلينا أقرب وأدنى، هب لنا ما أحصيته علينا مما أسرفناه على أنفسنا وتفضل علينا بعفوك يا ذا الجود والأفضال.

سجدة السجدة: آمنا بآياتك وخررنا لك سُجَّدا، فسبحانك اللهم وبحمدك تعاليت، ولك الكبرياء في السماوات والأرض وأنت العزيز الحكيم، نبرأ إليك من أن نتكبّر على عظمتك، ونعوذ بك من أن ننازع أمرك أو أن نسبقك بقول أو نخالفك عن أمرك، أو نلجأ إلى أحد سواك، أو نركن إلى مخلوق، أو نعلق قلوبنا بمن دونك، لجلالك خضعت رقبتي، ولكبريائك ذلت نفسي، ولوجهك الكريم الباقي الدائم وضعت وجهي، ولجاهك أرغمت أنفي، ولعظمتك خرت قامتي ساجدة، ولربوبيتك أسلم شخصي عبودة ورقا، فاجعل مولاي حركاتي ومتقلبي وهمي لك خالصا وعلى حقوقك عكوفا، وبالعبودة لك قائما فانيا، وبقلبي إليك هائما لا أوثر على حبك أحدا ولا على أمرك أمراً.

---

[1] النمل: 26.
[2] زيادة من ط.

سجدة ص: لك خررت راكعاً وساجداً مفتوناً وغير مفتون، مستغفراً تائباً منيباً، وأنت الذي مننت على عبدك داوود في وقت حلول الفتنة بأن جعلت لـــه السبيل إلى التوبة والاستغفار حتى خر راكعا وأناب، فغفرت له ذلك، وأعلمـــت العباد أن له مع المغفرة عندك لزلفى وحسن مآب، وهذا في كرمك وفضلك على أحبابك موجود، يا جواد وأنت به معروف، وما أنهيت إلينا هذا الخبر من صنيعك به إلا أنك رجيت عبيدك وأملته ما أوليته من معروفك لئلا يقنط المفتونـــون، ولا يتحيَّر الخطاؤون ولا ييأس المذنبون.

سجدة فصلت: سبح لك من عندك فلم تلحقهم سآمة ولا فتور، ذلك بأنك قربت مقامهم وعريتهم من أشغال النفوس وأنقذهم من الوســـاوس والآفـــات، وخلقتنا بموضع رحمة من الشهوات والآفات، تعتورنا أسباب البلاء وأزمة القضاء، فنعوذ بك أن نتكبر عن عبادتك أو نرفع بأنفسنا عن السجود لك والإلقاء بـــين يديك سلما، فمن رام عزا فإنما ناله بالتذلل لك، وكيف لا يعز من انتصب لـــك خادماً وألقى نفسه بين يديك عبودة وتسليماً، إلهي لو كانت لي نفوس غير واحدة لحق لي أن ألقيها بين يديك وأجود بها كلها عليك، وكيف وإنما هـــي واحـــدة، وكيف لا أجود بها عليك وإنما نلتها من عندك، وكيف لا أجود بها وإنما سألتنيها لترحمها وتكنفها وتحوطها وتغذوها برأفتك لتصلح لجـــوارك غـــدا والمـــصير إلى ضيافتك في فردوس الجنان يوم الزيارة فيك، أعوذ من جماحات نفسي وحرنها عن حقوقك يا أكرم داع ويا حق مجيب.

سجدة النجم: لك سجدنا وإياك عبدنا وبأمرك ائتمرنا، وحق أن نـــسجد، إلهنا خلقتنا من تراب ثم من نطفة ثم من علقة في ظلمات ثلاث في بطون؛ الأمهات والأرحام والمشيمات، ثم أخرجتنا إلى محل الابـــتلاء والامتحـــان ودار الـــسباق والمضمار، وعرضتنا للبلايا والرزايا وعظيم الأخطار وفتن دار الغرور وكيد العدو وأمور الغيب في مشيئتك، يا ذا القدرة والعلو والرفعة، دعوتنـــا إلى دار الـــسلام وأنذرتنا سجون الأعداء، ومننت علينا مِنَّة الأحباب، وأبهمت العواقب علينا مـــن أمورنا فمن ذا يرحمنا إن لم ترحمنا، ومن ذا يغفر لنا إن لم تغفر لنا، من ذا يكشف ضرنا إن لم تكشف، يا خير مدعو وأكرم مسؤول، يا أرحم المذنبين تفضل علينا بعفوك.

سجدة الانشقاق: الحين والشقاء أحاط بهم مولاي فاستكبروا عن توحيدك، وفوت حظ منك نالهم إلهي فتعظموا على الإيمان بك، وجعلوا معك إلها مغترين بقول العدو، فلا إله إلا أنت سبحانك، وكيف يسجدون إذا قرئ عليهم القرآن وهم المطرودون من بابك (ينادون من مكان بعيد)[1]، إنما يسجد لك أحبابك وأهل رأفتك ورحمتك الممنون عليهم، بذلك قربتهم، ووفرت حظهم منك، ونورت قلوبهم بالسراج المنير، وشرحت صدورهم بعظيم آلائك، وأحييت قلوبهم بك، ووصلت حبلهم بحبلك، فكلما تلوا آياتك فذكروا ذكر الصفاء رموا بأنفسهم إليك خروا لوجوههم، واستروحوا إلى ذلك، وتنسموا روح القربة، وسكنوا بلطائف مقالتك، ضمأ الشوق إليك منهم وتلقوا أمرك بإلقائهم بين يديك مترضين لك، فاجعلني ممن يترضاك فترضى يا خير المقصودين.

سجدة القلم: لك سجدنا، وبأسباب وسائلك تعَلَّقنا، ونفوسنا بين يديك ألقينا قصدا للاقتراب منك، مولانا قد أنزلت في وحيك علينا أن اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة، ثم قلت لنبيك: (واسجد واقترب)[2]، فجعلت له بالسجود إلى القربة سبيلاً، من ذا يستحق القربة منك مولاي إلا من رحمته فقربته، فقد اقتربت بفعلي وإلقاء نفسي بين يديك تأميلا لفضلك وطمعا فيما رجيت عبيدك هـ.

ومما أجازنيه بالخصوص وسمعته منه بلفظي خطبة النبي، صلى الله عليه وسلم، الأخيرة من خطبه، وهي نهاية في الطول توازي إحدى الطوليين من القرآن، وما سمعنا حديثاً قط أطول منها، رواها الحارث بن أبي أسامة التميمي في مسنده بسند فيه داوود بن المحبر، قال ابن حجر إنه متروك، ولغرابتها آثرنا ذكرها، فنقول[3]: أخبرنا شيخنا أبو مهدي، رضي الله عنه، قال: حدثنا شيخنا الأجهوري بسنده إلى الحافظ بن حجر بقراءته لبعض المسند منه، عن أبي المعالي عبد الله بن عمر الحلاوي وإجازته لسائره بسماعه والقدر المقدر عليه عن أبي العباس أحمد بن كشتغري الصيرفي وإجازته لسائره، قال: أنا به أبو النجيب عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني بإجازة من أبي سعيد خليل بن بدر مكاتبة من أصبهان قال: أنا أبو علي الحداد قال: أنا أبو نعيم، قال: أنا أبو بكر بن أحمد بن يوسف بن خلاد،

---

[1] فصلت: 44.

[2] العلق: 19.

[3] وردت هذه الخطبة النبوية الشريفة في مسند الحارث 1:310-321.

قال: أنا به أبو محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة، رحمه الله، في مسنده الذي رتبه على الشيوخ قال: نا داوود بن المحبر بن قحذم بن سليمان البصري، قال أنا ميسرة بن عبد ربه عن أبي عائشة السعدي عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز عن أبي أسامة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة وابن عباس، رضي الله عنهم، قالا: خطبنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خطبة قبل وفاته، وهي آخر خطبة خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل، فوعظنا فيها موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، واقشعرت منها الجلود، وتقلقت منها الأحشاء، أمر بلالاً فنادى الصلاة جامعة قبل أن يتكلم، فاجتمع إليه الناس فارتقى المنبر وقال: أيها الناس ادنوا فأوسعوا لمن خلفكم ثلاث مرات، فدنا الناس وانضم بعضهم إلى بعض، فالتفتوا فلم يروا أحداً، ثم قال: ادنوا وأوسعوا لمن خلفكم، فدنوا وانضم بعضهم إلى بعض فلم يروا أحداً، فقام رجل فقال: لمن نوسع، للملائكة؟ قال: لا، إنهم إذا كانوا معكم لم يكونوا من بين أيديكم ولا من خلفكم، ولكن عن أيمانكم وعن شمائلكم، فقال: و لم لا يكونون بين أيدينا ولا خلفنا؟ أهم أفضل منا؟ فقال: بل أنتم أفضل من الملائكة، اجلس. فجلس. ثم خطب فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، ونستغفره ونومن به ونتوكل عليه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أيها الناس إنه كائن في هذه الأمة ثلاثون كذاباً، أولهم صاحب اليمامة وصاحب صنعاء، أيها الناس إنه من لقي الله وهو يشهد أن لا اله إلا الله مخلصاً لا يخلط معها غيرها دخل الجنة، فقال علي: يا رسول الله بَيِّن لنا كيف لا يخلط معها غيرها، بأمي وأمي يا رسول الله، كيف يخلص بها حتى لا يخلط معها غيرها، بين لنا هذا حتى نعرفه، فقال: حرصا على الدنيا وجمعا لها من غير حلها، ورضا بها وأقوام يقولون أقاويل الأخيار ويعملون عمل الجبابرة والفجار، فمن لقي الله وليس فيه شيء من هذه الخصال يقول لا اله إلا الله فله الجنة، ومن اختار الدنيا على الآخرة فله النار، ومن تولى خصومه قوم ظلمة أو أعانهم عليها نزل به ملك الموت يبشره بلعنة ونار خالدا فيها وبئس المصير، ومن خف لسلطان جائر في حاجة فهو قرينه في النار، ومن دل سلطان على جور قرن مع هامان في النار وكان هو وذلك السلطان من أشد أهل النار عذاباً، ومن عظم صاحب دنيا ومدحه طمعاً في دنياه سخط الله عليه وكان في درجة قارون في أسفل جهنم، ومن بنى بناء رياء وسمعة حمله يوم القيامة مع

سبع أرضين يطوقه نار توقد في عنقه ثم يرمى به في النار. فقيل وكيف يبني بناء رياء وسمعة؟ قال: يبني فضلاً على ما يكفيه ويبنيه مباهاة، ومن ظَلَمَ أجيراً أجره أحبط الله عمله وحَرَّم عليه ريح الجنة، وريحها يُوجد من خمس مائة عام، ومن خان جاره شبراً من الأرض طَوَّقه يوم القيامة إلى سبع أرضين نارا حتى يدخل جهنم، ومن تعَلَّم القرآن ثم نسيه متعمداً لقي الله مجذوماً مغلولاً وسَلَّط الله عليه بكل آية حية تنهشه في النار، ومن تَعَلَّم القرآن فلم يعمل به آثر عليه حطام الدنيا وزينتها استوجب سخط الله وكان في درجة اليهود والنصارى الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً[1]، ومن نكح امرأة في دبرها أو رجلاً أو صبياً حُشِرَ يوم القيامة وهو أنتن من الجيفة يتأذّى به الناس حتى يدخل جهنم، وأحبط الله أجره ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ويدخل في تابوت من نار وسد عليه مسامير من حديد حتى تشبك تلك المسامير في جوفه، ولو وضع عرق من عروقه على أربعمائة أمة لماتوا جميعاً وهو من أشد أهل النار عذاباً يوم القيامة، ومن زنا بامرأة مسلمة، أو غير مسلمة حرة أو أمة، فتح عليه في قبره ثلاث مائة ألف باب من النار يخرج عليه منها حيات وعقارب وشهب من النار، فهو يعذب إلى يوم القيامة بتلك العقارب مع ما يلقى من تلك العقاريب والحيات، ويبعث يوم القيامة يتأذى الناس بنتن فرجه ويعرف بذلك حتى يدخل النار فيتأذى به أهل النار مع ما هم فيه من العذاب لأن الله حرم المحارم، وليس أحد أغير من الله ومن غيرته حرم الفواحش وحد الحدود، ومن اطلع إلى بيت جاره فرأى عورة رجل أو شعر امرأة أو شيئاً من جسده كان حقاً على الله أن يدخله النار مع المنافقين الذين كانوا يتحينون عورات النساء، ولا يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله ويبدي للناظرين عورته يوم القيامة، ومن تسخط رزقه وبث شكواه و لم يصبر، لم ترفع له إلى الله حسنة، ولقي الله عز وجل وهو عليه ساخط، ومن لبس ثوباً فاختال فيها خسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ومن نكح امرأة حلالاً بمال حلال يريد بذلك الفخر والرياء لم يزده الله إلا ذلاً وهواناً، وأقامه الله بقدر ما استمتع منها على شفير جهنم ثم يهوي فيها سبعين خريفاً، ومن ظلم امرأة مهرها فهو عند الله زان، يقول الله له يوم القيامة: عبدي زوجتك على عهدي فلم توف بعهدي، فيتولى الله حقها فيستوعب حسناته كلها، فلا تفي به، فيُؤمر به إلى النار. ومن

[1] إشارة إلى قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون): البقرة: 101.

رجع عن شهادة، أو كتمها، أطعمه الله لحمه على رؤوس الخلائق، ويدخل النار وهو يلوك لسانه. ومن كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما في القسم من نفسه وماله جاء يوم القيامة مغلولاً مائلاً شقه حتى يدخل النار، ومن آذى جاره من غير حق حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ألا وان الله عز وجل يسأل الرجل عن جاره كما يسأله عن حق أهل بيته، فمن ضيع حق جاره فليس منا. ومن أهان فقيراً مسلماً من أجل فقره فاستخف به فقد استخف بحق الله ولم يزل في مقت الله وسخطه حتى يرضيه. ومن أكرم فقيرا مسلما لقي الله يوم القيامة وهو يضحك إليه. ومن عرضت له دنيا وآخرة فاختار الدنيا على الآخرة لقي الله وليست له حسنة يتقي بها النار، وإن اختار الآخرة عن الدنيا لقي الله وهو عنه راض. ومن قدر على امرأة أو جارية حراماً فتركها لله مخافة منه أمَّنه الله من الفزع الأكبر، وحَرَّمه على النار، وأدخله الجنَّة. وإن واقعها حراماً حرم الله عليه الجنة وأدخله النار. ومن كسب مالاً حراماً لم يقبل له صدقة ولا عتق ولا حج ولا عمرة، وكتب له بقدر ذلك أوزاراً ما بقي ثم موته وكان زاده إلى النار. ومن أصاب من امرأة نظرة حراماً ملأ الله عينيه ناراً ثم أمر به إلى النار فإن غض بصره عنها أدخل الله قلبه محبته ورحمته وأمر به إلى الجنة، ومن صافح امرأة حراماً جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ثم يُؤمر به إلى النار، وان فاكهها حبس بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام، والمرأة إذا طاوعت الرجل حراماً فالتزمها أو قبَّلها أو باشرها أو فاكهها أو واقعها فعليها من الوزر مثل ما على الرجل، فإن غلبها الرجل على نفسها كان عليه وزره ووزرها. ومن غشَّ مسلماً في بيع أو شراء فليس منا ويحشر يوم القيامة مع اليهود لأنهم أغش الناس للمسلمين، ومن منع الماعون من جاره إذا احتاج إليه منعه الله فضله يوم القيامة ووكله إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه هلك آخر ما عليها ولا يقبل له عذر. وأيّما امرأة آذت زوجها لن تقبل صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعتبه وترضيه ولو صامت الدهر وقامته وأعتقت الرقاب وحملت على الجياد في سبيل الله، وكانت أول من يرد النار إذا لم ترضه وتعتبه. قال: وعلى الرجل مثل ذلك من الوزر والعذاب إذا كان لها مؤذياً ظالماً. ومن لطم خد مسلم لطمة بدد الله عظامه يوم القيامة، ثم تسلط عليه النار، ويبعث حين يبعث مغلولاً حتى يرد النار. ومن مات في قلبه غش لأخيه المسلم بات وأصبح في سخط الله حتى يتوب ويرجع، وإن مات على ذلك مات على غير الإسلام. ثم قال: ألا إنه من غشنا فليس منا، حتى قال ذلك ثلاثاً، ومن تعلَّق سوطاً بين يدي

سلطان جائر جعله الله حية طولها سبعون ألف ذراع فتسلط عليه في نار جهنم خالداً مخلداً. ومن اغتاب مسلماً بَطل صومه ونقض، يعني وضوءه، فإن مات وهو كذلك مات كالمستحل ما حَرَّم الله، ومن مشى بالنميمة بين اثنين سَلَّط الله عليه في قبره ناراً تحرقه إلى يوم القيامة ثم يدخل النار. ومن عفا عن أخيه المسلم وكظم غيظه أعطاه الله أجر شهيد. ومن بغى على مسلم وتطاول عليه واستحقره حشره الله يوم القيامة في صورة الذر يطؤه العباد بأقدامهم ثم يدخل النار، ولم يزل في سخط الله حتى يموت. ومن رد عن أخيه المسلم غيبة سمعها تُذكر في مجلس رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، وإن هو لم يرد عنه وأعجبه ما قالوا كان عليه مثل وزرهم. ومن رمى محصناً أو محصنة حبط عمله، وجلده يوم القيامة سبعون ألف ملك من بين يديه ومن خلفه، ثم يُؤمر به إلى النار. ومن شَرِب الخمر في الدنيا سقاه الله من سم الأساود وسم العقارب يشربه فيتساقط لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها تفسخ لحمه وجلده كالجيفة يتأذّى به أهل الجمع، ثم يؤمر به إلى النار، ألا وشاربها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها سواء في إثمها وعارها، ولا يقبل الله له صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا عمرة حتى يتوب، فإن مات قبل أن يتوب منها كان حَقّاً على الله أن يسقيه بكل جرعة شربها في الدنيا شربة من صديد جهنم، ألا وكل مسكر خمر وكل مسكر حرام. ومن أكل الربا ملأ الله بطنه ناراً بقدر ما أكل، وإن اكتسب منه مالاً لم يقبل الله شيئاً من عمله ولم يزل في لعنة الله وملائكته ما دام عنده منه قيراط. ومن خان أمانته في الدنيا ولم يؤدها إلى أربابها مات على غير دين الإسلام، ولقي الله وهو عليه غضبان، ثم يؤمر به إلى النار فيهوي من شفيرها أبد الآبدين. ومن شَهد بشهادة زور على مسلم أو كافر علق بلسانه يوم القيامة ثم صير مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار. ومن قال لمملوكه أو مملوكته، أو لأحد من المسلمين، لا لبيك ولا سعديك، قال الله له يوم القيامة لا لبيك ولا سعديك، أتعس في النار. ومن أضر بامرأة حتى تفتدي منه لم يرض له بعقوبة دون النار، لأن الله يغضب للمرأة كما يغضب لليتيم. ومن سعى بأخيه إلى السلطان أحبط الله عمله كله، فإن وصل إليه مكروه أو أذى جعله الله مع هامان في درجه في النار. ومن قرأ القرآن رياء وسمعة، ويريد به الدنيا، لقي الله ووجهه عظم ليس عليه لحم،

وزخ[1] القرآن في قفاه حتى يقذفه في النار فيهوي فيها فيمن هوى. ومن قرأه ولم يعمل به حشره الله أعمى فيقول: (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً)[2] فيقول (كذلك أتتك آيتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)[3] ثم يؤمر به إلى النار. ومن اشترى خيانة وهو يعلم أنها خيانة كان كمن خانها في عارها وإثمها، ومن قاود بين امرأة ورجل حراما حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وساءت مصيراً. ومن غش أخاه المسلم نزع الله منه رزقه وأفسد عليه معيشته ووكله إلى نفسه. ومن اشترى سرقة وهو يعلم بها فهو كمن سرقها في عارها وإثمها. ومن ضار مسلما فليس منا ولسنا منه في الدنيا والآخرة. ومن سمع بفاحشة فأفشاها كان كمن أتاها. ومن سمع بخير فأفشاه كان كمن عمله، ومن وصف امرأة لرجل فذكر جمالها وحسنها حتى افتتن بها، فإن أصاب منها فاحشة يخرج من الدنيا مغضوباً عليه، ومن غضب الله عليه غضبت عليه السماوات السبع والأرضون السبع، وكان عليه من الوزر مثل وزر الذي أصابها، قلنا: فإن تابا وأصلحا؟ قال: قبل منهما، ولا تقبل توبة الذي وصفها. ومن أطعم طعاماً رياء وسمعة أطعمه الله من صديد جهنم، وكان ذلك الطعام ناراً في بطنه حتى يُقضى بين الناس. ومن فجر بامرأة ذات بعل انفجر من فرجه واد من صديد مسيرة خمس مائة عام يتأذى به أهل النار من ريحه، وكان من أشد الناس عذابا يوم القيامة، واشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها أو من غير ذي محرم منها، وإذا فعلت ذلك أحبط الله كل عمل عملته، فإن أوطأت فراشه غيره كان حَقّاً على الله أن يحرقها بالنار من يوم وضعت في قبرها، وأيما امرأة اختلعت من زوجها لم تزل في لعنة الله وملائكته ورسله والناس أجمعين، فإذا نزل بها ملك الموت قال لها أبشري بالنار، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ادخلي النار مع الداخلين، ألا وإن الله ورسوله بريئان ممن أضر بالمرأة حتى تختلع منه، ومن أم قوما بأذنهم وهم بهم راضون فاقتصد بهم في حضوره وقراءته وركوعه وسجوده وقعوده فله مثل أجورهم، وإن لم يقتصد بهم في ذلك ردت عليه صلاته، ولم تجاوز تراقيه، وكان بمنزلة أمير جائر معتد لم يصلح إلى رعيته ولم يقم فيهم بأمر الله. فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، وما منزلة الأمير الجائر المعتدي الذي لم يصلح إلى

(1) زخ: زخ في قفاه: دفعه: لسان العرب: زخخ.
(2) طه: 125.
(3) طه: 126.

رعيته و لم يقم فيهم بأمر الله قال: هو رابع أربعة، وهم أشد الناس عــذاباً يــوم القيامة؛ إبليس وفرعون وقابل قاتل النفس والأمير الجائر رابعهم. ومن احتاج إليه أخوه المسلم في قرض فلم يقرضه وهو عنده حرم الله عليه الجنــة يــوم يجــزى المحسنين، ومن صبر على سوء خلق امرأته واحتسب الأجر من الله أعطاه الله من الثواب مثل ما أعطى أيوب على بلائه، وكان عليها من الوزر في كل يوم وليلــة مثل رمل عالج، فإن ماتت قبل أن تعتبه وترضيه حشرت يوم القيامة منكوسة مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار. ومن كانت له امرأة و لم توافقه و لم تصبر على ما رزقه الله وشقت عليه وحملته ما لا يقدر عليه لم تقبل لها حسنة، فإن ماتــت على ذلك حشرت مع المغضوب عليهم، ومن أكرم أخاه المسلم فإنما يكرم ربه عز وجل، فما ظنكم؟ ومن تولى عرافة قوم حبس على شفير جهنم بكل يوم ألــف سنة، ويحشر ويده مغلولة إلى عنقه، فإن كان أقام أمر الله فيهم أطلق، وإن كــان ظالماً هوى في جهنم سبعين خريفاً، ومن تحلم بحلم كان كمن شهد الزور ويكلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين يعذب حتى يعقدهما ولن يعقدهما. ومن كان ذا وجهين ولسانين في الدنيا جعل الله له وجهين ولسانين في النار، ومــن اســتنبط حديثاً باطلاً فهو كمن حدث به. قيل: وكيف يستنبطه؟ قال: هو الرجل يلقــى الرجل فيقول: أكان ذيت وذيت، فيفتحه، فلا يكونن أحدكم مفتــاح الــشر والباطل. ومن مشى في صلح بين اثنين صلت عليه الملائكة حتى يرجع وأعطي أجر ليلة القدر، ومن مشى في قطيعة بين اثنين كان عليه من الوزر بقدر ما أعطي من أصلح بين اثنين من الأجر، ووجبت عليه اللعنة حتى يدخل جهنم فيضاعف لــه العذاب، ومن مشى في عون أخيه المسلم ومنفعته كان له ثواب المجاهدين في سبيل الله، ومن مشى في غيبته وكشف عورته كان أول قدم يخطوها كأنما وضــعها في جهنم، ثم تكشف عورته يوم القيامة على رؤوس الخلائق. ومن مــشى إلى ذي قرابة أو ذي رحم يسأل أو يسلم عليه أعطاه الله أجر مائة شهيد، وإن وصله مع ذلك كان له بكل خطوة أربعون ألف حسنة، ويحط عنه بها أربعون ألف ســيئة، ويرفع له بها ألف ألف درجة، وكأنما عبد الله مائة ألف سنة. ومن مشى في فساد بين القرابات والقطيعة بينهم غضب الله عليه في الدنيا ولعنه وكان عليه كوزر من قطع الرحم. ومن عمل في فرقة بين امرأة وزوجها كان عليه لعنة الله في الــدنيا والآخرة وحرم الله النظر إلى وجهه. ومن قاد ضريراً إلى المسجد أو إلى مترلــه أو إلى حاجة من حوائجه كتب الله له بكل قدم رفعها أو وضعها عتق رقبة وصلت

عليه الملائكة حتى يفارقه، ومن مشى لضرير في حاجة حتى يقضيها أعطاه الله براءتين: براءة من النار وبراءة من النفاق، وقضي له سبعون ألف حاجة من حوائج الدنيا، و لم يزل يخوض في الرحمة حتى يرجع. ومن قام على مريض يوما وليلة بعثه الله مع خليله إبراهيم حتى يجوز على الصراط كالبرق اللامع. ومن سعى لمريض في حاجة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. فقال رجل من الأنصار: فإن كان المريض قرابته أو بعض أهله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ومن أعظم أجراً ممّن سعى في حاجة أهله، ومن ضيع أهله وقطع رحمه حرمه الله حسن الجزاء يوم يجزي المحسنين، وصيره مع الهالكين حتى يأتي بالمخرج، وأنّى له بالمخرج. ومن مشى لضعيف في حاجة له أو منفعة أعطاه الله كتابه بيمينه. ومن أقرض ملهوفاً فأحسن طلبه فليستأنف العمل وله عند الله بكل درهم ألف قنطار في الجنة. ومن فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة، ونظر إليه نظر رحمة ينال بها الجنة. ومن مشى في صلح امرأة وزوجها كان له أجر ألف شهيد قتلوا في سبيل الله حقاً، وكان له بكل خطوة عبادة سنة صيامها وقيامها. ومن أقرض أخاه المسلم فله بكل درهم وزن جبل أحد وحراء وثبير وطور سيناء حسنات، فإن رفق به في طلبه بعد حله جرى له بكل يوم صدقة، وجاز على الصراط كالبرق اللامع لا حساب عليه ولا عقاب، ومن مطل طالبه وهو يقدر على قضائه فعليه خطيئة عشار، فقام إليه عوف بن مالك الأشجعي فقال: وما خطيئة عشار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خطيئة العشار أن عليه في كل يوم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، (ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً)[1]. ومن اصطنع إلى أخيه المسلم معروفا ثم من به عليه أحبط الله أجره وخيب سعيه، ثم قال: ألا وان الله حرم على البخيل والمنان والمختال والجوّاظ[2] والجعظيم[3] والعُتُل[4] والزنيم[5] ومدمن الخمر الجنة. ومن تصدق بصدقة أعطاه الله بوزن كل ذرة منها مثل جبل أحد من نعيم [الجنة][6]. ومن مشى بها إلى المساكين كان له مثل ذلك، ولو تناولها أربعون ألف إنسان حتى تصل إلى المساكين كان لكل واحد

(1) النساء: 152.
(2) الجواظ: المتكبر الجافي: لسان العرب: جوظ.
(3) الجِعْظُ والجَعِظُ: السيئ الخُلُق المُتَسَخِّطُ عند الطعام: لسان العرب: جعظ.
(4) العُتُل: الجافي الغليظ: لسان العرب: عتل.
(5) الزنيم: الدعي في النسب: لسان العرب: زنم.
(6) زيادة من مسند الحارث.

منهم مثل ذلك الأجر كاملاً، (وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا وأحسنوا)[1]. ومن بنى لله مسجداً أعطاه الله بكل شبر، أو قال بكل ذراع، أربعين ألف مدينة من ذهب وفضة ودر وياقوت وزبرجد ولؤلؤ، في كل مدينة أربعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف ألف دار، في كل دار سبعون ألف ألف بيت، في كل بيت أربعون ألف ألف سرير، على كل سرير زوجة من الحور العين، وفي كل بيت أربعون ألف ألف وصيفة وأربعون ألف ألف وصيف، وفي كل بيت أربعون ألف ألف مائدة، على كل مائدة أربعون ألف ألف قصعة، في كل قصعة أربعون ألف ألف لون من الطعام، ويعطي الله عز وجل وليه من القوة ما يأتي على الأزواج وذلك الطعام والشراب في يوم واحد. ومن تولى أذان مسجد من مساجد الله عز وجل يريد بذلك وجه الله أعطاه الله ثواب أربعين[2] ألف ألف نبي، وأربعين ألف ألف صديق، وأربعين ألف ألف شهيد، ويدخل في شفاعته أربعون ألف ألف أمة، كل أمة أربعون ألف ألف رجل، وله في كل جنة من الجنان [أربعون الف ألف مدينة، في كل مدينة أربعون ألف ألف] قصر، في كل قصر أربعون ألف ألف دار، في كل دار أربعون ألف ألف بيت، في كل بيت أربعون ألف ألف سرير، على كل سرير زوجة من الحور العين، سعة كل بيت منها مثل سعة الدنيا أربعين ألف ألف مرة، بين يدي كل زوجة أربعون ألف [ألف] وصيفة وأربعون ألف ألف وصيف، في كل بيت أربعون ألف ألف مائدة، على كل مائدة أربعون ألف ألف قصعة، في كل قصعة أربعون ألف ألف لون، لو نزل به الثقلان لأدخلهم أدنى بيت من بيوته بما شاؤوا من الطعام والشراب واللباس والطيب والثمار وألوان التحف والطرائف والحلي والحلل، كل بيت منها مكتف بما فيه من هذه الأشياء عن البيت الآخر، فإذا قال المؤذن أشهد أن لا اله إلا الله اكتنفه سبعون ألف ملك كلهم يصلون عليه ويستغفرون له، وهو في ظل رحمة الله [حتى يخلو]، ويكتب ثوابه أربعون ألف ألف ملك. قال: ثم يصعدون [به] إلى الله عز وجل، ومن مشى إلى مسجد من المساجد فله بكل خطوة يخطوها عشر حسنات ويمحى عنه عشر سيئات، ويرفع له عشر درجات. ومن حافظ على الجماعة، حيث كان ومع من كان، مر على الصراط كالبرق اللامع في أول [زمرة من] السابقين ووجهه أضوأ من القمر ليلة البدر، وكان له بكل يوم وليلة حافظ عليها ثواب شهيد. ومن

---

[1] القصص: 60.
[2] ساقط من ط.

حافظ على الصف المقدم فأدرك أول تكبيرة من غير أن يؤذي مؤمنا أعطاه الله مثل ثواب المؤذن في الدنيا والآخرة. ومن بنى بناء على ظهر طريق يأوي عابر السبيل بعثه الله يوم القيامة على نجيبة من در، ووجهه يضيء لأهل الجمع حتى يقول له أهل الجمع: هذا ملك من الملائكة لم ير مثله حتى يزاحم إبراهيم في قبته ويدخل الجنة بشفاعته أربعون ألف رجل، ومن شفع لأخيه المسلم في حاجة نظر الله إليه وحق على الله أن لا يعذب عبدا نظر إليه حتى إذا كان ذلك يطلب منه أن يشفع إليه، فإذا شفع له من غير طلب كان له مع ذلك أجر سبعين شهيداً. ومن صام رمضان وكف عن اللغو والغيبة والكذب والخوض في الباطل، وأمسك لسانه إلا عن ذكر الله عز وجل، وكف سمعه وبصره وجميع جوارحه عن محارم الله عز وجل وعن أذى المسلمين كان له من القربة عند الله أن تمس ركبته ركبة إبراهيم خليله. ومن احتفر بئراً حتى يستنبط ماءها فبذلها للمسلمين كان له أجر من توضأ منها وصلى وله بعدد من شرب منها حسنات أنس أو جن أو بهيمة أو سبع أو طائر أو غير ذلك، وله بكل شعرة من ذلك عتق رقبة ويرد في شفاعته يوم القيامة حوضٍ القدس، قيل: وما حوض القدس؟ قال: حوضي حوضي حوضي. ومن حفر قبراً لمسلم حرمه الله على النار وبوأه بيتا في الجنة لو وضع فيه ما بين صنعاء والحبشة لوسعها، ومن غسل ميتاً وأدى الأمانة فيه كان له بكل شعرة عتق رقبة ورفع له بها مائة درجة، فقال عمر بن الخطاب: وكيف يؤدي فيه الأمانة يا رسول الله؟ قال: يستر عورته، ويكتم سيئته، وإن هو لم يستر عورته ولم يكتم سيئته أبدى الله عورته على رؤوس الخلائق، ومن صلى على ميت صلى عليه جبريل ومعه سبعون ألف ملك وغفر له ما تقدم من ذنبه، فإن أقام حتى يدفن وحثا عليه التراب انقلب وله بكل خطوة حتى يرجع إلى مترله قيراط من الأجر، والقيراط مثل أحد. ومن ذرفت عيناه من خشية الله كان له بكل قطرة من دموعه مثل أحد في ميزانه، وله بكل قطرة عين في الجنة على حافتيها من المدائن والقصور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واصف. ومن عاد مريضا فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى مترله سبعون ألف حسنة ومحي عنه سبعون ألف سيئة ورفع له سبعون ألف درجة ويوكلون به سبعون ألف ملك يعودونه ويستغفرون له إلى يوم القيامة. ومن تبع جنازة فله بكل خطوة يخطوها حتى يرجع مائة ألف حسنة ومحي عنه مائة ألف سيئة ورفع له مائة ألف درجة، وإن صلى عليها وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له حتى يرجع، وإن شهد دفنها استغفروا له حتى يبعث من

قبره. ومن خرج حاجا أو معتمرا فله بكل خطوة حتى يرجع ألف ألف حسنة، ومحو ألف ألف سيئة، ورفع ألف ألف درجة، وله عند ربه بكل درهم ينفقه ألف ألف درهم، وبكل دينار ألف ألف دينار، وبكل حسنة يعملها ألف ألف حسنة، حتى يرجع وهو في ضمان الله عز وجل، فإن توفاه أدخله الجنة، وإن رجع رجع مغفوراً له مستجاباً له، فاغتنموا دعوته إذا قدم قبل أن يصيب الذنوب، فإنه يشفع في مائة ألف رجل يوم القيامة، ومن خلف حاجا أو معتمراً في أهله بخير كان له مثل أجره كاملا من غير أن ينقص من أجره شيء. ومن رابط أو جاهد في سبيل الله كان له بكل خطوة حتى يرجع سبع مائة ألف ألف حسنة، ومحو سبع مائة ألف ألف سيئة، ورفع مائة ألف ألف درجة، وكان في ضمان الله، فإن توفاه بأي حتف كان، أدخله الجنة، وإن رجعه رجعه مغفورا له مستجابا له. ومن زار أخاه المسلم فله بكل خطوة حتى يرجع عتق مائة ألف رقبة ومحو مائة ألف سيئة، ويكتب له بها مائة ألف درجة. قال فقلنا لأبي هريرة: أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أعتق رقبة فهي فداؤه من النار؟ قال: بلى، ويرفع له سائرها في كنوز العرش عند ربه عز وجل. ومن تعلم القرآن ابتغاء وجه الله وتفقه في الدين كان له من الثواب مثل جميع ما أعطى الملائكة والأنبياء والرسل. ومن تعلم القرآن رياء وسمعة ليماري به السفهاء ويباهي به العلماء، ويطلب به الدنيا، بدد الله عظامه، [يوم القيامة وكان من أشد أهل النار عذاباً]، ولا يبقى فيه نوع من أنواع العذاب إلا عذب به لشدة غضب الله وسخطه. ومن تعلم العلم وتواضع في العلم وعلمه عباد الله يريد بذلك ما عند الله لم يكن في الجنة أفضل ثواباً، ولا أعظم منزلة [منه]، ولم يكن في الجنة منزلة ولا درجة رفيعة نفيسة إلا وله فيها أوفر النصيب وأشرف [المنازل]، ألا وان العلم أفضل العبادة وملاك الدين الورع، وإنما العالم من عمل بعلمه وإن كان قليل العلم فلا تحقرن من المعاصي شيئاً، وإن صغرت في أعينكم فإنه لا صغير مع إصرار، ولا كبير مع استغفار، ألا وإن الله عز وجل سائلكم عن أعمالكم حتى عن مس أحدكم ثوب أخيه. واعلموا عباد الله أن العبد يبعث يوم القيامة على ما مات عليه وقد خلق الله الجنة والنار، فمن اختار النار على الجنة فأبعده الله، ألا وإن ربي عز وجل أمرني أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على

الله عز وجل، ألا وإن الله عز وجل لم يدع شيئا نهى عنه إلا وقد بينه لكم (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة)[1]، ألا وإن الله لا يظلم ولا يجوز عليه ظلم، وهو بالمرصاد(ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى)[2] فمن أحسن فلنفسه (ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد)[3] أيها الناس انه قد كبرت سني، ودق عظمي، وانهد جسمي، ونعيت إلى نفسي، واقترب أجلي واشتقت إلى ربي عز وجل، ألا وان هذا آخر العهد بيني وبينكم، فما دمت حيا فقد تروني، وإذا [أنا] مت فالله خليفتي على كل مسلم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم نزل فابتدره رهط من الأنصار قبل أن ينزل [من المنبر]، فقالوا: جعلنا أنفسنا فداك يا رسول الله، من يقوم بهذه الشدائد؟ وكيف العيش بعد هذا اليوم؟ فقال لهم: وأنتم فداكم أبي وأمي، نازلت ربي عز وجل في أمتي فقال لي: باب التوبة مفتوح حتى ينفخ في الصور، ثم قال: من تاب قبل موته بسنة تاب الله عليه. ثم قال: سنة كثير، من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه. ثم قال: شهر كثير، من تاب قبل موته بجمعة تاب الله عليه. ثم قال: جمعة كثيرة،قال: (من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه ثم قال يوم كثير. ثم قال)[4]: من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه. ثم قال: من تاب قبل أن يغرغر بالموت تاب الله عليه. ثم نزل فكانت آخر خطبة خطبها صلى الله عليه وسلم، هـ.

وسمعت على شيخنا أبي مهدي الثعالبي جميع رسالة أبي محمد بن أبي زيد بلفظي في منزله بجانب المسجد الحرام، وأجازني بها وبسائر مروياته، خصوصا مؤلفات أهل مذهب مالك (بأسانيده إلى أربابها، حسبما أذكرها، وقد جمع، رضي الله عنه، سلسلة الفقه على مذهب مالك)[5] جمعا لم يسبق إليه بعدما حارت فيه فحول الأئمة كما هو معروف، فرفع الأسانيد من طريق شيخه الأنصاري إلى مشاهير أئمة المذهب المتأخرين، ثم إلى من فوقهم في الشهرة والزمان، ثم كذلك على أسلوب غريب إلى أن أوصلها إلى الإمام مالك، ثم إلى النبي، صلى الله عليه

---

(1) الأنفال: 42.
(2) النجم: 31.
(3) فصلت: 46.
(4) ما بين قوسين ساقط من ط.
(5) ما بين قوسين ساقط من ط.

وسلم، ولنذكر جمعه المذكور بلفظه، وإن كان فيه طول، فربما يغتبط به. قال، رضي الله عنه، وهو مما أدرجه في كتابه: كنز الرواة، ما نصه:

باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم:

في ذكر سند الفقه من طريق شيخنا قدس الله روحه، قد تقدم ذكر ما أخذته عنه في الفقه، وهو أخذه، رحمه الله، دراية ورواية عن أعلامه الأدلاء، ومفاخره الأجلاء، أبي محمد بن طاهر الحسني[1]، وأبي عبد الله بن أبي بكر الدلائي[2]، والشهاب أبي العباس المقري التلمساني. أما الأول فأخذه كذلك عن غير واحد من، أجلهم العالم النظار أبو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي[3]، وهو أخذه عن جماعة منهم العلامة أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد القصري المعروف بسقين[4]، والعلامة أبو الحسن علي بن هارون المطغري[5]، والعلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليسيتني[6]، وأبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي[7] الفاسيون، وهم أربعتهم أخذوه عن حافظ المذهب في عصره أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي[8]، وزاد سقين عن شيخ العلمين، ومحقق الفنين، الإمام أبي أحمد زروق الفاسي، وزاد عبد الواحد عن أبيها حامل لواء المذهب أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي، مؤلف المعيار المعرب في

---

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أبو بكر بن محمد بن سعيد المجاطي الدلائي، صاحب الزاوية الدلائية، إمام عارف، توفي سنة 1021 هـ: التقاط الدرر، ص: 65.نشر المثاني 1:163. اقتفاء الأثر، ص: 105.

(3) أبو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي، فقيه مشارك، له مراقي المجد في آيات السعد، وشرح عقيدة ابن زكري، مولده سنة 926 هـ، وتوفي سنة 995 هـ: دوحة الناشر، ص: 59، شجرة النور الزكية 1:415.

(4) عبد الرحمن سقين، فقيه مشارك، رحل إلى الحجاز ولقي المشايخ وأخذ عنهم، وعاد إلى فاس وتقلد بها الفتيا، توفي سنة 956 هـ: دوحة الناشر، ص: 56. لقط الفرائد، ص: 301.

(5) علي بن هارون المطغري، الشيخ الفقيه الراوية، تولى الفتيا والتدريس بفاس، توفي سنة 951 هـ: دوحة الناشر، ص: 51. لقط الفرائد، ص: 298.

(6) أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد اليسيتني، فقيه مشارك، رحل إلى مكة والقاهرة للأخذ عن شيوخهما، رجع إلى فاس سنة932 هـ للتدريس بها، له تآليف منها شرح على مختصر خليل، توفي سنة 959 هـ: دوحة الناشر، ص: 58، شجرة النور الزكية 1:409. الفكر السامي 4:316.

(7) أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي، الفقيه العالم المفتي، صاحب كتاب المعيار المعرب، توفي في آخر سنة 955 هـ: دوحة الناشر، ص: 53. لقط الفرائد، ص: 300.

(8) محمد بن أحمد ابن غازي المكناسي العثماني، الشيخ الراوية، تولى الإمامة بجامع القرويين والفتيا بفاس، له كتاب: الروض الهتون في التعريف بأخبار مكناسة الزيتون، توفي عام 919 هـ: دوحة الناشر، ص: 46. لقط الفرائد، ص: 285.

النوازل. وأما الثاني والثالث فأخذاه عن شيخ الفتوى بفاس، العلامة المحقق أبي عبد الله محمد ابن قاسم القيسي الشهير بالقصار[1]، وهذا أخذه عن اليسيتني وغـــيره، وأخذه اليسيتني عمن تقدم، وعن الفقيه الحافظ أبي العباس أحمد بن علي الزقاق[2]، والفاسي، وهو أخذه عن أبيه العلامة المحقق أبي الحسن علي بن قاسم بن محمــد الزقاق[3]، وزاد الثالث، وهو الشهاب المقري فأخذه عن عمــه إمــام الفتــوى بتلمسان، بل بالمغرب سنين سنة، أبي عثمان سعيد بن أحمد المقري[4]، وهو أخذه عن العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد التنسي، وهو أخذه عن أبيه الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني، وقد انتهت الطرق باعتبار ما اقتصرنا عليه إلى خمسة أعيان من أعلام فاس وتلمسان الإمام ابــن غــازي، والشيخ زروق، والعلامة الونشريسي، والمحقق أبي الحسن الزقاق، والحافظ التنسي. أما ابن غازي فأخذه عن جماعة من أجلهم العلامة الحافظ أبو عبد الله محمد بــن قاسم القوري[5] اللخمي المكناسي ثم الفاسي، والمحقق النظار أبو العباس أحمد بــن عمر المزدغي، والفقيه المتفنن أبو زيد عبد الرحمن الكاواني، أما القوري فأخذه عن الحافظ أبي موسى عمران ابن موسى الجاناتي، وأما المزدغي والكاواني فأخذاه عن شيخ الجماعة بفاس أبي مهدي عيسى بن علال المصمودي، وتلميذه الحــافظ أبي القاسم التازغدري، والحافظ الجاناتي، وابن علال المصمودي أخذاه عن الحــافظ شيخ الفتيا بفاس أبي عمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي الفاسي[6]، وهو أخذه عن الفقيه الضابط عبد العزيز القوري الفاسي[7] صاحب التقييد على المدونة المنسوب لأبي الحسن الصغير، وهو أحسن التقاييد وأصحها، وعن شيخ الرســالة

---

(1) أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي، الشهير بالقصار، فقيه محدث، له مؤلفات مفيدة، ولد سنة 936 هـ، وتوفي سنة 1012 هـ:التقاط الدرر، ص: 39. خلاصة الأثر 4: 121. روضــة الآس ص: 352.شــجرة النور الزكية 1: 427.

(2) أبو العباس أحمد بن علي الزقاق، فقيه متكلم، رحل وحج، له تآليف منها شرح على منظومة أبيــه فــي القواعد، توفي سنة 931 هـ: دوحة الناشر، ص: 51.شجرة النور الزكية 1: 396.

(3) أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق التجيبي، الفاسي، فقيه مشارك، له لامية الزقاق وتقييد علــى مختــصر خليل، توفي سة 912 هـ: دوحة الناشر ص: 54.شجرة النور الزكية 1: 396.

(4) أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري، علامة مشارك، تولى الفتيا والتدريس بتلمسان، ولد قبــل ســنة 930 هـ، وتوفي في حدود سنة 1010 هـ: التقاط الدرر، ص: 38. شجرة النور الزكية 1: 427.

(5) أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري، شيخ الفتوى بفاس، توفي سنة 872 هـ: وفيات الونشريــسي، ص: 149.

(6) أبو عمران موسى ابن معطي العبدوسي، فقيه حافظ، توفي سنة 776 هـ: شرف الطالب، ص: 85.

(7) أبو فارس عبد العزيز بن محمد القوري الفاسي، الفقيه العلامة، له تقييد على المدونة، توفي ســنة 750 هـ: شجرة النور الزكية 1: 318.

والمدونة أبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي[1]، والقوري أخذه عن شيخ الإسلام والقائم على المذهب الجامع بين العلم والعمل، أبي الحسن علي بن عبد الحق الزرويلي[2] المشهور بأبي الحسن الصُغير، بضم الصاد المهملة وفتح الغين المعجمة وتشديد المثناة التحتية، وهو وابن عفان الجزولي أخذاه عن شيخ الفتيا، وأتبع الناس للحق أبي الفضل راشد بن أبي راشد الوليدي الفاسي، وعن شيخ المدونة أبي إبراهيم إسحاق بن يحيى بن مطر الأعرج صاحب الطرر على المدونة، وهما أخذاه عن شيخ المغرب علما وعملا الإمام الكبير أبي محمد صالح الهسكوري الفاسي[3]، وهو أخذه عن الحافظ الكبير أبي موسى عيسى بن مع النصر الموماني الفاسي وأبي القاسم بن البقال، وهما أخذاه عن الحافظ الضابط الواسع الدراية والرواية أبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، وهو أخذه عن فحول المذهب وأعلامه؛ أبي محمد عبد الرحمن بن عتاب، وأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

وأما شيخ الكمال أبو العباس أحمد زروق فأخذه عن القوري بسنده، وعن عالم الصلحاء وصالح العلماء أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري مؤلف شرح ابن الحاجب وغيره، وعن الحافظ أبي العباس ابن عبد الرحمن بن موسى المعروف بحلولو[4] شارح المختصر وغيره، وعن قاضي الجماعة ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم الرصاع التونسي مؤلف شرح حدود ابن عرفة وغيره، والثلاثة: الثعالبي وحلولو والرصاع أخذوه عن العلامة النظار حافظ المذهب وشيخ الفتيا أبي القاسم بن أحمد بن إسماعيل التونسي البرزلي مؤلف النوازل المشهورة. وزاد الثعالبي عن العلامة النقاد أبي عبد الله محمد بن خلفة الأبي مؤلف كمال الإكمال، والحافظ أبي الفضل ابن مرزوق الحفيد. وزاد حلولو عن الحافظ أبي الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي[5] شارح الرسالة والمدونة. وزاد الرصاع عن

---

[1] أبو زيد عبد الرحمن الجزولي، فقيه حافظ، توفي بفاس سنة 745 هـ: شرف الطالب، ص: 80.

[2] أبو الحسن علي بن عبد الحق الزرويلي، الشهير بالصغير، فقيه علامة مشرك، توفي سنة 656 هـ: الفكر السامي 4: 278.

[3] أبو محمد صالح بن محمد الهسكوري، فقيه مشارك، توفي سنة 631 هـ: شجرة النور الزكية 1: 266.

[4] أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الشهير بحلولو، الطرابلسي، له شرحان على المختصر، كان حيا سنة 837 هـ: الفكر السامي 4: 301.

[5] أبو الفضل قاسم بن عيسى بن ناجي، فقيه حافظ، له شرح على الرسالة مطبوع وشرح على المدونة، توفي سنة 837 هـ: شجرة النور الزكية 1: 350. الفكر السامي 4: 301.

العلامة المحقق أبي عبد الله محمد بن عتاب التونسي، وأخذ الرصاع أيضا عن الثعالبي عن نادرة الدنيا في الحفظ والاتساع أبي القاسم عبد العزيز بن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي الفاسي، والجميع ما عدا العبدوسي، أخذوه عن إمام المذهب وأستاذ التحقيق أبي عبد الله محمد بن عرفة الورغمي التونسي، وزاد البرزلي عن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن حيدرة التونسي. وأما أبو القاسم العبدوسي فأخذه عن أبيه أبي عمران موسى بن محمد العبدوسي بسنده المتقدم، وأخذه الإمام ابن عرفة والقاضي ابن حيدرة عن جماعة منهم قاضي الجماعة وشيخ الفتيا أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري[1] التونسي شارح ابن الحاجب، والإمام المجتهد أبو عبد الله محمد بن هارون التونسي[2] شارح ابن الحاجب ومختصر المتيطية، وهما أخذاه عن جماعة منهم العلامة الإمام المعمر أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون القرطبي ثم التونسي، وهو أخذه عن الحافظ أبي القاسم أحمد بن يزيد بن بقي القرطبي، وهو أخذه عن الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي، وهو أخذه عن شيخ الفقهاء أبي عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع. أما الحافظ أبو العباس الونشريسي فأخذه عن جماعة أعلام أجلهم شيخ الإسلام ومفتيه المجتهد أبو الفضل قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التلمساني[3] وتلميذه ولده أبو سالم إبراهيم بن قاسم، والعلامة أبو عبد الله محمد بن العباس العبادي التلمساني، وأخذه ابن العباس عن أبي الفضل قاسم المذكور، وعن إمام المغرب وقطبه الحافظ المطلق أبي الفضل محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد التلمساني، وهما أخذاه عن الإمام الكبير المجتهد والد الأول أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني، وزاد الحفيد عن أبيه وعن العلامة المحقق أبي محمد عبد الله بن محمد الشريف التلمساني، وعن الإمام ابن عرفة بسنده المتقدم. أما الإمام سعيد العقباني وابن عرفة أيضا فأخذاه عن خزانة المذهب العلامة أبي عبد الله محمد بن سليمان السطي، وزاد العقباني عن العالمين الراسخين، والعلمين الشامخين الأخوين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني إمام التلمسانيين، وهما أخذاه عن جماعة منهم: الفقيه الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن تميم اليفرني،

---

(1) محمد بن عبد السلام الهواري، الفقيه القاضي، له شرح على مختصر ابن الحاجب في الفقه، توفي سنة 750 هـ: شرف الطالب، ص: 81.: شجرة النور الزكية 1:301.

(2) أبو عبد الله محمد بن هارون التونسي، فقيه مفتي، توفي سنة 750 هـ: شرف الطالب، ص: 81.

(3) أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، الإمام المفتي، توفي سنة 853 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 144.

عرف بالطنجي، وهو والحافظ السطي عن شيخ الإسلام أبي الحسن الصغير بسنده. وأما والد الحفيد أحمد بن محمد بن أحمد ابن مرزوق فأخذه عن والده الإمام الجليل ابن مرزوق الخطيب، وهو أخذه عن الحافظ السطي[1] بسنده، وعن العلامة المحقق أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن راشد البكري القفصي[2] شارح ابن الحاجب، وهو عن العلامة الجهبذ واحد الدهر أبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي مؤلف الذخيرة وغيرها، وعن القاضي ناصر الدين الأبياري، وعن العلامة النظار المتبحر في المعارف أبي العباس ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير الإسكندري[3]، وثلاثتهم أخذوه عن إمام التحقيق وفارس الإتقان أبي عمرو جمال الدين عثمان بن أبي بكر ابن الحاجب، وهو أخذه عن العلم الراسخ شمس الدين علي بن إسماعيل المشهور بأبي الحسن الأبياري بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها مثناة تحتية، وهو أخذه عن إمام عصره المرجوع إليه في الفتوى أبي الطاهر إسماعيل ابن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهري من ذرية سيدنا عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، وهو أخذه عن الإمام الكبير أبي بكر الطرطوشي. وأما العلامة عبد الله الشريف التلمساني فأخذه عن والده الإمام محقق النظار المجتهد أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني، وهو أخذه عن ابني الإمام أبي زيد وأبي موسى، وعن الحافظ السطي بسندهم المتقدم، وعن العلامة أبي عبد الله البروني، وهو عن أبي الحسن الصغير بسنده. وأما أبو الحسن الزقاق والفاسي فأخذه عن القوري، وقد تقدم سنده، وعن الحافظ المحقق أبي عبد الله محمد بن يوسف العبدري الغرناطي المعروف بالمواق[4]، وهو أخذه عن جماعة منهم: الإمام قاضي الجماعة بغرناطة وحامل لواء الفقه بها أبو القاسم محمد بن محمد بن سراج الغرناطي، وهو أخذه عن شيخ الشيوخ وإمام الفتوى أبي سعيد فرج بن قاسم بن أحمد بن لب الغرناطي، وهو أخذه عن القاضي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد الأشعري المالقي المعروف بابن بكر، وهو أخذه عن الحافظ

---

(1) محمد بن سليمان السطي، شيخ الفتيا بالمغرب، إمام حافظ، توفي سنة 750 هـ: وفيات الونشريس، ص: 117. شجرة النور الزكية 1:319.

(2) محمد بن راشد البكري القفصي، فقيه مشارك، له شرح لمختصر ابن الحاجب والفائق في الأحكام والوثائق، توفي سنة 736 هـ: شرف الطالب، ص: 78.

(3) أبو العباس احمد بن محمد بن منصور الإسكندري، ابن المنير، فقيه مفسر، له ديوان خطب، توفي سنة 683 هـ: شجرة النور الزكية 1:269.

(4) أبو عبد الله محمد بن يوسف العبدري، المواق الغرناطي، له شرح على المختصر، توفي سنة 897 هـ: شجرة النور الزكية 1:378. الفكر السامي 4:311.

الكبير أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، وهو أخذه عن جماعة منهم: القاضي الجليل أبو عبد الله محمد ابن غازي الأنصار السبتي، والقاضي أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل بن واحب السكري، وهو أخذه عن أبيه أحمد بن خليل، وهو والقاضي ابن غازي أخذاه عن إمام الشورى وشيخ القضاء والفتيا أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي مؤلف التنبيهات وغيرها، وهو أخذه عن شيوخ المذهب وحفاظه وضابطي معانيه وألفاظه القاضي الكبير أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي وعليه عمدته، وقاضي الجماعة بقرطبة وشيخ الفتوى بها أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي مؤلف البيان والتحصيل والمقدمات وغيرها. والإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج القرطبي صاحب النوازل وغيرها. وشيخ الحفظ والإتقان القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي مؤلف القبس وغيره، والإمام الواسع المتبحر أبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي، وبالإجازة عن آخر المجتهدين أبي عبد الله محمد بن علي المازري التميمي مؤلف شرح التلقين الذي ليس للمالكية مثله. وأما الحافظ التنسي فأخذه عن جماعة منهم الحافظ أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد، وهو أخذه عمن تقدم ومن جملتهم العلامة عبد الله بن محمد الشريف التلمساني، وهو أخذه عمن تقدم وعن الإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن قاسم المعروف بالقباب[1]، وهو أخذه عن قاضي الجماعة بفاس أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي[2] صاحب الوثائق، وهو أخذه عن أبي الحسن بن سليمان القرطبي، وهو أخذه عن أبي عمر عبد الرحمن بن عبد الله بن سليمان بن حوط الله القرطبي، وهو أخذه عن أبيه أبي محمد عبد الله بن سليمان، وهو أخذه عن الإمام الجليل أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الحفيد مؤلف بداية المجتهد ونهاية المقتصد وغيره، وعن الحافظ المبرز أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون[3] مؤلف الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار وغيره. فالأول وهو الحفيد أخذه عن أبيه عن جَدِّه وعن الإمام النظار المجتهد المديد الباع في تحقيق النظر أبي عبد الله محمد بن علي التميمي

---

(1) أبو العباس أحمد القباب، فقيه مشارك، له شرح على قواعد عياض، وشرح على بيوع ابن جماعة التونسي، توفي سنة 79 هـ: شرف الطالب، ص: 85.: وفيات الونشريسي، ص: 128.

(2) محمد بن محمد بن احمد بن عبد الملك الفشتالي، قاضي الجماعة بفاس، توفي سنة 777 هـ: وفيات الونشريسي، ص: 127.

(3) أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون الأندلسي، من تلامذة القاضي عياض، له كتاب الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار، توفي بإشبيلية سنة 586 هـ: شرف الطالب، ص: 66.

المازري مؤلف شرح التلقين وغيره. والثاني وهو ابن زرقون أخذه عن القاضي أبي الفضل عياض.

جامعة مشارق أنوارها لامعة:

قد انتهت الطرق إلى أعلام الطبقة وشيوخ الفتيا وأئمة الشورى، الإمام المازري وأبي الوليد ابن رشد وابن الحاج وأبي بكر الطرطوشي وابن العربي وأبي محمد بن عتاب والقاضي ابن عيسى التميمي. أما الإمام المازري فأخذه عن الإمام المتفنّن رأس الفتيا بإفريقية أبي الحسن علي بن محمد اللخمي مؤلف التبصرة، والمحقق النظار أبي محمد عبد الحميد بن محمد المعروف بابن الصائغ مكمل تعليقة التونسي، وهما أخذاه عن الإمام المرجوع إليه أبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي مؤلف التعلقة على المدونة، والعلامة النظار أبي القاسم بن محرز القيرواني مؤلف التبصرة، وهما أخذاه عن الإمامين الكبيرين والعالمين الجليلين أبي بكر بن عبد الرحمن وأبي عمران الفاسي، وهما أخذاه عن شيخي المذهب وموشيي طرازه المذّهب، وحليّ الدنيا من سائر الأقطار أبي محمد عبد الله بن أبي زيد مؤلف الرسالة والنوادر والمختصر وغيرهما، وأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي[1]، وزاد أبو بكر بن عبد الرحمن عن أبي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي الجوهري المصري. وزاد أبو عمران الفاسي عن أبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالوشا المصري، وهذا؛ أعني الوشا والجوهري أخذاه عن رأس المالكية في عصره بمصر أبي إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي[2]، بقاف مضمومة وراء ساكنة وطاء مهملة بعدها ياء النسبة، المصري مؤلف الزاهي ومختصر ما ليس في المختصر، وهو أخذه عن الفقيه الكبير أبي بكر أحمد بن موسى بن عيسى بن صدقة الصدفي المصري المعروف بالزيات[3]، وهو أخذه عن رابع المحمدين وكبير الفقهاء الراسخين، أفقه أهل عصره بمصر أبي عبد الله محمد بن عبد

---

[1] أبو الحسن علي بن خلف القابسي، فقيه متكلم، له تصانيف منها الممهد في الفقه وكتاب المعلمين وكتاب الذكر والدعاء، توفي سنة 403 هـ: شجرة النور الزكية 1:145.

[2] محمد بن القاسم بن شعبان المصري، ابن القرطبي، فقيه حافظ، له كتاب الزاهي في الفقه وغيره، توفي سنة 355 هـ: شجرة النور الزكية 1:120.

[3] أبو بكر أحمد بن موسى بن صدقة المصري، ابن الزيات، الفقيه الإمام، توفي بمصر سنة 306 هـ: شجرة النور الزكية 1:120.

الله بن عبد الحكم[1]، وهو أخذه عن أبيه وعن ابن القاسم وأشهب وابن وهب. وأما الشيخان والراسخان والجبلان الشامخان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو الحسن القابسي فأخذاه عن الحافظ أبي ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي، وعن عالم إفريقية القائم على مذهب مالك أبي العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الإبياني، بكسر الهمزة والموحدة المشددة المكسورة بعدها مثناة تحتية، وزاد ابن أبي زيد عن الحافظ المبرز الجليل القدر أبي بكر محمد بن اللباد القيرواني، وعليه عمدته، وعن العالم الثقة أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي. أما أبو ميمونة دراس فأخذه عن جماعة منهم الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي مطر، وهو أخذه عن محقق المذهب ومنقح مسائله والمعول على قوله في عصره أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن المواز مؤلف المختصر المعروف بالموازية، وهو أخذه عن محمد بن عبد الحكم وابن الماجشون وأصبغ والحارث بن مسكين والأخيران أخذاه عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب. وأما الثلاثة أبو العباس الأبياني وأبو بكر بن اللباد وأبو العرب التميمي فأخذوه عن الإمام الحافظ المجاب الدعوة أبي زكريا يحيى بن عمر الأندلسي القيرواني مؤلف اختصار المستخرجة، وعن الحافظ المقدم أبي جعفر أحمد بن أبي سليمان المعروف بابن الصواف، وعن العالم الورع أحمد بن محمد الأشعري المعروف بحمديس القطان، وثلاثتهم أخذوه عن إمام العلم والعمل أبي سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد التنوخي القيرواني مؤلف المدونة وتسمى أيضا المختلطة، وهو أخذه عن علي بن زياد التونسي وابن أشرص وابن غانم وابن القاسم وأشهب وابن وهب وعبد الله بن الحكم وعبد الملك بن الماجشون. وأما زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب؛ أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، والحافظ المشاور أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحاج فأخذاه عن جماعة منهم شيخ الشورى أبو جعفر أحمد بن محمد بن رزق القرطبي، وعليه معولهما، وعن شيخ الفقهاء القوال بالحق أبي عبد الله محمد بن فرج مولى ابن الطلاع القرطبي مؤلف كتاب الشروط وكتاب الأحكام، وهما أخذاه عن أحفظ الناس للمدونة والمستخرجة إمام المذهب وشيخه أبي عمر أحمد بن محمد بن عيسى المعروف بابن القطان القرطبي، وهو أخذه عن الإمام الجليل أبي محمد عبد الله بن يحيى بن دحون

[1] أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحكم، العالم المبرز، له عدة تآليف، منها: كتاب الشروط والوثائق وكتاب أحكام القرآن، توفي سنة 268 هـ: شجرة النور الزكية 1: 101.

القرطبي وعن شيخ المفتين أبي محمد عبد الله بن سعيد المعروف بـــابن الــشقاق القرطبي، وهما أخذاه عن أحفظ الناس لأقوال مالك وأصحابه أبي عمر أحمد بـــن عمر بن عبد الملك المعروف بابن المكي القرطبي مؤلف كتـــاب الاســتيعاب في المذهب، وهو أخذه عن أفقه أهل زمانه أبي بكر محمد بن أحمد المعروف باللؤلؤي القرطبي، وعن صدر الفتيا أبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن مسرة القرطبي مؤلف كتاب النصائح، فالأول، وهو اللؤلؤي، أخذه عن الحافظ أبي صالح أيـــوب بـــن سليمان المعافري القرطبي[1]، والثاني وهو إبراهيم أخذه عن أفقه الناس وأعـــرفهم باختلاف أصحاب مالك أبي عبد الله محمد بن عمر بن لبابة القـــرطبي[2]، وعـــن الحافظ الخبير بمسائل المذهب أبي عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي[3]، والثلاثة، أبو صالح وابن لبابة وابن أيمن، أخذوه عن الحافظ الكبير أبي عبـــد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي نسبة إلى عتبة بن أبي ســـفيان ولاء، ويقـــال ولادة، القرطبي مؤلف العتبية، ويقال لها المستخرجة أيضاً، وعن الحـــافظ معلـــم الأندلس أبي عبد الله محمد بن وضاح القرطبي[4]، وعن فقه الشورى الحـــافظ أبي زكرياء يحيى بن إبراهيم بن مزين القرطبي[5] مؤلف المستقصية وغيرها، وعن الفقيه النظار أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطروح الأعرج، وبه يعـــرف القـــرطبي، والأربعة، أعني العتبي وابن وضاح وابن مزين وابن مطروح، أخذوه عـــن كـــبير الأندلس ورئيسها أبي محمد يحيى بن يحيى الليثي القرطبي، وعن أفقه الطبقة الإمام الحجة النظار أبي عبد الله أصبغ بن الفرج المصري، وزاد الثلاثة سوى ابن مـــزين عن الإمام سحنون، وزاد ابن مطروح وابن مزين عن فقيه الأندلس والمقدم للفتيا أبي محمد عيسى بن دينار القرطبي[6] صاحب الأسمعة، وهو وسحنون وأصبغ ويحيى

---

[1] أيوب بن سليمان بن صالح بن هشيم المعافري، أبو صالح القرطبي، فقيه حافظ، توفي ســـنة301 هـــ: الديباج المذهب 1:91.

[2] أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابة القرطبي، الفقيه الإمام، توفي سنة 314 هـ: شجرة النـــور الزكيـــة 1:129.

[3] أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن القرطبي، الإمام الفقيه، صنف كتابا علـــى ســـنن أبـــي داوود، توفي سنة 330 هــ: شجرة النور الزكية 1:132.

[4] أبو عبد الله محمد بن وضاح بن يزيد القرطبي، فقيه محدث، له تآليف كثيرة منها رسالة السنة وكتـــاب الصلاة وغيرهما، توفي سنة 286 هــ: شجرة النور الزكية 1:114.

[5] أبو زكريا يحيى بن زكريا بن مزين القرطبي، العالم الحافظ، له تفسير الموطأ والمستقصية وغير ذلـــك، توفي سنة 255 هــ: شجرة النور الزكية 1:112.

[6] عيسى بن دينار، فقيه مشارك، تولى الفتيا بقرطبة، حج حجات، وولي قضاء طليطلة للحكم والـــشوري بقرطبة، توفي سنة 212 هــ: الديباج المذهب 1:179.

عن ابن القاسم، وزاد ابن وضاح عن ثقة الثقات القاضي أبي عمرو الحارث بـــن مسكين المصري، وعن الفقيه الزاهد أبي مروان عبد الملك بن الحسن المعـــروف بزونان، وعن عالم الأندلس وحافظها أبي مروان عبد الملك بن حبيـــب مؤلـــف الواضحة وغيرها، والأولان: ابن مسكين وزونان أخذاه عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب، والثالث وهو ابن حبيب أخذه عن أصبغ بن الفرج وعن الغازي بن قيس، وعن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، وعن مطرف وابن الماجشون وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم. وأما شيخ الشيوخ أبو بكر محمد بـــن الوليد الطرطوشي فأخذه عن الإمام النظار الحافظ أبي الوليد سليمان بن خلـــف الباجي الأندلسي مؤلف المنتقى وغيره، وهو أخذه من طريق الأندلسيين عن حافظ المدونة والمستخرجة أبي الأصبغ عيسى بن سهل القرطبي مؤلف الأعلام بنـــوازل الأحكام، ومن طريق القرويين عن الحافظ أبي محمد علي بن أبي طالب القيـــسي القيرواني القرطبي، ومن طريق العراقيين عن إمام المذهب بالمشرق في عـــصره أبي الفضل محمد بن عبد الله بن عبدوس البغدادي. أما ابن سهل فأخذه عن أبي عمر بن القطان بسنده، وعن شيخ المفتين ومعتمدهم أبي عبد الله محمد بـــن عتـــاب القرطبي ولازمه واختص به، وعن الفقيه الأنبل أبي بكر يحيى بن محمد بن حسين الغساني المعروف بالقليعي[1]. أما ابن عتاب فأخذه عن جماعة منهم القاضي أبـــو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشير المعروف بابن الحصار[2] ولازمه واختص به وكان يفخر به، وعن كبير المفتين أبي بكر عبد الرحمن بن أحمد التجيبي المعروف بابن حويبل، فالأول، وهو ابن بشير أخذه عن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان[3]، وهو أخذه عن الإمام المشاور أبي محمد قاسم بـــن أصـــبغ البياني القرطبي[4]، وهو أخذه عن محمد بن وضاح بسنده، والثاني، وهو ابن حويبل

---

[1] أبو زكريا يحيى بن محمد بن حسين الغساني المعروف بالقليعي، الفقيه العامل، توفي ســنة 442 هـــ: شجرة النور الزكية 1:170.

[2] أبو المطرف عبد الرحمن بن احمد، ابن الحصار، الفقيه الإمام، توفي سنة 422 هـــ: شـجرة النـور الزكية 1:167.

[3] أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان، الفقيه الإمام، توفي سنة 403 هـ: شجرة النور الزكية 1:153.

[4] أبو محمد قاسم بن اصبغ البياني القرطبي، الفقيه المحدث، له مؤلفات عدة، منها المجبى وأحكام القرآن، توفي سنة 340 هـ: شجرة النور الزكية 1:133.

أخذه عن شيخ الشورى والفتيا أبي عبد الله محمد بن حارث الخشني[1] مؤلف كتاب الاتفاق والاختلاف في المذهب، وهو أخذه عن شيوخ المذهب وحفاظه يحيى بن عمر، ومحمد بن سحنون، ومحمد بن عبدوس، وجميعهم أخذوه عن سحنون.

وأما القليعي فأخذه عن كبير المحدثين والفقهاء أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي زمنين[2]، بفتح الزاي والميم وكسر النون، البيري مؤلف كتاب المنتخب في الأحكام، وهو أخذه عن أبي إبراهيم بن مسرة بسنده. وأما أبو محمد مكي فأخذه عن شيخي المذهب أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي بسندهما. وأما أبو الفضل بن عمروس فأخذه عن قاضي المذهب ومحكمي أحكامه العالم النظار أبي الحسن علي بن أحمد البغدادي المعروف بابن القصار[3] مؤلف عيون الأدلة في الانتصار للمذهب، وليس في معناه مثله، والعلامة القائم بالحجة للمذهب أبي محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي[4] مؤلف التلقين والمعونة والممهد وغيرها. وهو أخذه عن الأول، وعن الحافظ النبيه أبي القاسم عبيد الله بن الجلاب البغدادي[5] مؤلف التفريع، وهو وابن القصار وكذا عبد الوهاب أخذوه عمن انتهت إليه الرياسة في المذهب وتحقيق مداركه الشيخ أبي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري[6] مؤلف الشرح لمختصر ابن عبد الحكم، وهو أخذه عن القاضي أبي الفرج محمد بن عمر الليثي البغدادي مؤلف الحاوي، وعن قاضي القضاة أبي عمر محمد بن يوسف من آل حداد، وعن الفقيه الكبير أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد

---

[1] أبو عبد الله محمد بن حارث بن أس الخشني الأندلسي، الإمام الحافظ، له عدة تآليف منها كتاب الاتفاق والاختلاف في المذهب، وكتاب طبقات علماء إفريقية وغيرهما، توفي بقرطبة سنة 310 هـ: شجرة النور الزكية 1:141.

[2] أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري القرطبي، الفقيه الحافظ، له تآليف منها تفسير القرآن العظيم والمنتخب في الأحكام وكتاب المه1ي وغير نلك، توفي سنة 399 هـ: شجرة النور الزكية 1:150.

[3] علي بن احمد البغدادي المعروف بابن القصار، الأبهري الشيرازي، الإمام الأصولي الحافظ، توفي سنة 398 هـ: شجرة النور الزكية 1:138.

[4] أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي، الفقيه الحافظ الحجة، ألف تآليف مفيدة منها: النصرة لمذهب مالك، والمعونة بمذهب عالم المدينة، والممهد في شرح مختصر ابن أبي زيد، والتلقين وشرحه، توفي سنة 421 هـ: شجرة النور الزكية 1:155.

[5] أبو القاسم عبيد الله بن الحسن بن الجلاب، من أهل العراق، فقيه حفظ، له كتاب في مسائل الخلاف وكتاب التفريع في المذهب، تفي سنة 378 هـ: شجرة النور الزكية 1:137.

[6] أبو بكر محمد بن عبد الله البهري، الفقيه المقرئ، له تصانيف منها شرح المختصر لابن عبد الحكم وكتاب الأصول وغيرهما، توفي سنة 395 هـ: شجرة النور الزكية 1:136.

بن الجهم، ويعرف بابن الوراق، والمروزي مؤلف كتاب: مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك وشرح المختصر الصغير لابن عبد الحكم، وهو وأبو الفرج وأبو عمر أخذوه عن أستاذ المذهب والإقراء شيخ المالكية في وقته القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن حماد البصري، وهو أخذه عن نادرة الدنيا والمثل السائر في الذكاء أبي الفضل أحمد بن المعذل العبدي البصري، وهو أخذه عن أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ومحمد بن سلمة. وأما الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي فأخذه عن أبي بكر الطرطوشي بسنده، وعن أبيه عبد الله ابن العربي، وهو أخذه عن أبي عبد الله بن عتاب بسنده. وأما الإمام الصدر المشاور رحلة الدنيا أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب فأخذه عن أبيه بسنده. وأما القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي السبتي فأخذه عن أبي محمد عبد الله ابن حمو بن عمر اللواتي المعروف بالمسيلي، والعلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز، واختص بهما وعليهما عمدته، وعن الحافظ أبي علي الحسين ابن محمد بن أحمد الغساني الجياني القرطبي. أما المسيلي فأخذه عن رأس فقهاء سبتة أبي إسحاق إبراهيم بن يربوع القيسي السبتي، وعن الحافظ النظار أبي محمد عبد الله بن غالب الهمداني السبتي، وهذا أخذه عن ابن أبي زيد أخذ عنه جميع كتبه بسنده، فالأول وهو ابن يربوع أخذه عن أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بالباجي، وهو أخذه عن ابن لبابة وابن أيمن بسندهما. وأما أبو عبد الله بن العجوز فأخذه عن أبيه الفقيه المشهور أبي محمد عبد الرحمن، وهو أخذه عن أبي إسحاق التونسي بسنده، وعن أبيه شيخ الفتيا أبي عبد الرحمن عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز الكتامي السبتي، وهو أخذه عن ابن أبي زيد ولازمه واختص به بسنده. وأما أبو علي الجياني فأخذه عن شيخ الأندلس ومسندها وأحفظ الناس بها لسنة مأثورة أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر مؤلف الكافي والاستذكار والتمهيد وغيرها، وهو أخذه عن أبي عمر بن المنكدر بسنده، وعن الحافظ القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي القرطبي، وهو أخذه عن جماعة أعلام منهم: الفقيه المشاور أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الفخار البيري وعن أبي الحسن مجاهد بن أصبغ الأندلسي البجاني بموحدة الجيم مشددة. أما الأول وهو ابن

الفخار فأخذه عن الحافظ الكبير أبي سلمة فضل بن سلمة[1] مؤلف مختصر الواضحة وغيره، وهو أخذه عن جماعة منهم الثقة العدل البارع في الفقه القاضي أبو القاسم حماس بن مروان الهمداني القيرواني، وهو أخذه عن محمد بن عبدوس، وهو عن سحنون، وأخذه حماس أيضا عن سحنون وعن محمد بن عبد الحكم. وأما الثاني وهو مجاهد بن أصبغ فأخذه عن الحافظ المشهور أبي عثمان سعيد بن مجلون البجاني[2]، وهو أخذه عن الحافظ النبيل يوسف بن يحيى المغامي الدوسي[3] من ذرية أبي هريرة، رضي الله عنه، وعن الإمام الجليل أبي بكر أحمد بن ميسر بفتح السين المهملة، فالمغامي أخذه عن يحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب وابن مزين وغيرهم بسندهم، وإن ميسر أخذه عن محمد بن المواز بسنده.

جامعة كبرى ولامعة دوافق أسرارها تترى:

قد ارتقت الأسانيد المتان وانتهت سلاسلها البديعة الإتقان إلى مشاهير أصحاب الإمام وأعلام أئمة الإسلام، مدوني طريقته الغراء، ومنتهجي محجته الزهراء، من المدنيين؛ الإمام الثقة أحد من دارت عليه الفتيا، المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي[4] والفقيه الثقة إمام الفتيا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن دينار الجهني[5] مولاهم، والثقة الجامع بين العلم والورع أفقه الفقهاء بالمدينة أبو هشام محمد بن سلمة ابن هشام[6]، والثقة المقدم أبو مصعب مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار اليساري[7]، والفقيه بن الفقيه من دارت عليه الفتيا في وقته أبو

---

[1] فضل بن سلمة بن جرير الجهني البجاني، الحافظ، ألف مختصر المدونة واختصر الواضحة، مات سنة 319 هـ: شجرة النور الزكية 1:123.

[2] أبو عثمان سعيد بن مجلون الأموي، محدث الأندلس، توفي سنة 346 هـ: شجرة النور الزكية 1:133.

[3] يوسف بن يحيى المغامي القرطبي، الفقيه الإمام، له رحلة على المشرق،من تآليفه كتاب في فضائل مالك، مات بالقيروان سنة 288 هـ: شجرة النور الزكية 1:144.

[4] المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي، الإمام الفقيه، أحد من دارت عليه الفتوى بعد وفاة مالك بالمدينة، توفي سنة 188 هـ: شجرة النور الزكية 1:84.

[5] أبو عبد الله محمد بن دينار الجهني، الفقيه الإمام، مفتي المدينة، توفي سنة 271 هـ: شجرة النور الزكية 1:86.

[6] محمد بن سلمة بن هشام، الجامع الثقة، أخذ عن مالك وغيره، توفي سنة 206 هـ: شجرة النور الزكية 1:85.

[7] أبو مصعب مطرف بن عبد الله بن مطرف المدني، الإمام الثقة، توفي سنة 220 هـ: شجرة النور الزكية 1:86.

مروان عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون[1]، والثقة الثبت أحد أئمة الفتوى أبو محمد عبد الله بن نافع[2] مولى بني مخزوم. ومن المصريين أثبت الناس في الإمام وأعلمهم بأقواله، صحيح الرواية والدراية، أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العُتقي[3]، وأفقه الناس الإمام أبو عمرو أشهب مسكين ابن عبد العزيز القيسي[4]، والإمام الجامع بين الفقه والحديث أثبت الناس في الإمام أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي[5] مولاهم، والعلامة الصالح الثقة المحقق أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم[6].

ومن الإفريقيين الثقة المأمون،الخيار البارع في الفقه، أبو الحسن علي بن زياد التونسي[7]. والحافظ الثقة أبو محمد عبد الرحيم بن أشرص الأنصاري. ويقال اسمه عبد الرحمن. والإمام المجتهد المجاب الدعوة أحد أوتاد المغرب البهلول بن راشد القيرواني[8]. ومن الأندلسيين إمام الناس بقرطبة وأول من أدخل الموطأ للأندلس أبو محمد الغازي بن قيس الأموي القرطبي[9] القائل: والله ما كذبت منذ اغتسلت. وفقيه الأندلس وأول من دخلها متقنا أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن المعروف

---

(1) عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون القرشي، مفتي المدينة، تفقه بمالك وبغيره، توفي سنة 212 هـ: شجرة النور الزكية 1:84.

(2) عبد الله بن نافع بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، الفقيه الثقة، توفي سنة 216 هـ: شجرة النور الزكية 1:84.

(3) أبو عبد الله عبد ارحمن العتقي المصري، فقيه حافظ، صحب الإمام مالك وتفقه به، توفي سنة 191 هـ: شجرة النور الزكية 1:88.

(4) أبو عمر أشهب بن عبد العزيز القيسي المصري، الفقيه العالم، توفي بمصر سنة 204 هـ: شجرة النور الزكية 1:89.

(5) أبو محمد عبد الله بن وهب بن ملم القرشي، الإمام الجامع، له تآليف كثيرة، توفي سنة 197 هـ: شجرة النور الزكية 1:89.

(6) أبو محمد عبد الله بن الحكم، الفقيه الحافظ، له تآليف منها المختصر الكبير والأوسط والصغير، توفي سنة 214 هـ: شجرة النور الزكية 1:90.

(7) أبو الحسن علي بن زياد التونسي، الحافظ الثقة، أول ما أدخل الموطأ إلى المغرب، توفي سنة 183 هـ: شجرة النور الزكية 1:91.

(8) أبو عمران البهلول بن راشد القيرواني، الإمام الكبير، سمع مالك والثوري وسواهما، توفي سنة 183 هـ: شجرة النور الزكية 1:92.

(9) أبو محمد الغازي بن قيس الأموي، فقيه محدث، سمع الموطأ من مالك، توفي سنة 199 هـ: شجرة النور الزكية 1:95.

بشبطون[1] من ولد حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه. والإمام الحجة رئيس الأندلس وكبيرها أبو محمد يحيى بن يحيى الليثي[2].

وجميعهم قدس الله أرواحهم، وأجزل من وافر عطاياه أبراحهم، أخذوه عن إمام دار الهجرة، المعني بحديث عالم المدينة، عند من أظهر من كنوز خباياه سره، أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه، وهو أخذه عن أوتاد الدين وجهابذة الإتباع المهتدين، من ضربت إليهم من أرجاء البسيطة آباط المطايا، وتسامت إلى أوج الكمال بلقيهم المزايا، منهم إمام السنة الحافظ المجمع على جلالته أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي[3]، والإمام الحجة أحد من دارت عليه الفتيا بالمدينة أبو عثمان ربيعة بن أسد عبد الرحمن فروخ[4] مولى ربيعة بن عبد الله بن الهديد التميمي القرشي، والإمام المقدم أبو يحيى إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري[5]، وأبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي نصر الليثي من أنفسهم، والعلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب[6] مولى الخرقة، والخرقة فخذ من جهينة، وأبو عبيدة حميد الطويل بن أبي حميد[7] مولى طلحة الطلحات، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر الثقفي[8]، وأبو عثمان عمرو بن أبي عمرو ميسرة[9] مولى المطلب ابن عبد الله بن حنطب المخزومي. وهؤلاء أخذوا عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن القرطبي المعروف بشبطون، الإمام الحافظ،، توفي سنة 193 هـ: شجرة النور الزكية 1:94.

(2) يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي، من علماء الأندلس وفقهائها الكبار، توفي سنة 233 هـ: شرف الطالب، ص: 42. شجرة النور الزكية 1:95.

(3) أبو بكر محمد بن مسلم الزهري القرشي، أحد أعلام الفقهاء بالمدينة،مات سنة 125 هـ: شجرة النور الزكية 1:70.

(4) أبو عثمان ربيعة بن عبد الرحمن فروخ، مفتي المدينة، أدرك جماعة من الصحابة واخذ عنهم، توفي سنة 136 هـ: شجرة النور الزكية 1:70.

(5) إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري المدني، أخذ عن مالك بن انس، توفي سنة 132 هـ: شجرة النور الزكية 1:70.

(6) العلاء بن عبد ارحمن بن يعقوب المخزومي المدني، الفقيه الثقة، روى عن ابن عمر وانس وغيرهما، مات بعد بضع وثلاثين ومائة: شجرة النور الزكية 1:70.

(7) وأبو عبيدة حميد الطويل بن أبي حميد البصري، روى عن أنس، مات سنة 142 هـ: شجرة النور الزكية 1:70.

(8) وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر الثقفي، روى عن أنس بن مالك: شجرة النور الزكية 1:71.

(9) أبو عثمان عمرو بن أبي عمرو ميسرة، روى عن انس، مات بعد الخمسبن ومائة: شجرة النور الزكية 1:71.

ومنهم الإمام أبو الزبير المكي محمد بن مسلم ابن تَدُرس[1] مولى حكيم بن حزام وأبو عبد الله، وقيل أبو بكر محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير التميمي القرشي، وأبو أسامة زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب، وأبو نعيم وهب بن كيسان مولى عبد الله بن الزبير بن العوام، وهؤلاء عن جابر بن عبد الله الأنصاري، رضي الله عنهما، وزاد وهب بن كيسان عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه. ومنهم الإمام الحافظ الثبت الثقة أبو عبد الله نافع، والحافظ أبو عبد الرحمن عبد الله بن دينار موليا عبد الله بن عمر، وهما عن سيدهما ومولاهما أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، وزاد نافع عن أبي سعيد الخدري وأبي لبابة رضي الله عنهما.

ومنهم الإمام أبو حازم سلمة بن دينار الحكيم مولى لبني ليث، وهو عن سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، وكذا عنه ابن شهاب الزهري أيضا. ومنهم الحافظ أبو سعيد المقبري سعيد بن أبي سعيد، واسمه كيسان مولى لبني جندع، وهو عن أبي شريح الكعبي رضي الله عنه. ومنهم نُعيم بن عبد الله المجمر[2]، وهو عن البحر الزاخر أبي هريرة عبد الرحمن ابن صخر الدوسي رضي الله عنه.

واقتصرنا على هؤلاء الأعلام من مشايخ الإمام لكونهم المروي لهم الثنائيات في الموطأ، والجملة المعربة من الصحابة المدركون عين صواب الإصابة تلقوه عن سيد الكونين وجمال الثقلين أبي القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم، وهو عن الروح الأمين، عن رب العالمين جل جلاله وتقدس كماله، انتهى من خط جامعها وصاحب سلسلتها العالم الجليل السيد النبيل سيدي عيسى بن محمد الثعالبي نفعنا الله به آمين يا رب العالمين، وقيدها بالمسجد الحرام في أواسط ذي القعدة الحرام عام ثلاثة وسبعين وألف، أسمع الله لنا فيه عن سائر تعلقاتنا وأحبابنا خيرا بمنه ويمنه آمين آمين آمين.

هذه وجادات وجدتها بخط شيخنا أبي مهدي وقيدتها عنا لتكثير الفائدة: الحمد لله الخزرجية: يرويها المقري عن عمه سعيد ابن أحمد بن جلال عن سعيد

---

[1] أبو الزبير المكي محمد بن مسلم ابن تدرس، روى عن جابر بن عبد الله وغيره، مات سنة 168 أو 128 هـ: شجرة النور الزكية 1: 71.

[2] نُعيم بن عبد الله المجمر المدني، مولى آل عمر رضي الله عنهم:: شجرة النور الزكية 1: 71.

الكفيف عن الشيخ السنوسي عن أبي الحسن القلصادي عن أبي العباس أحمد بن محمد بن زاغو، بإجازته من شمس الدين محمد بن محمد بن القماح الخزرجي بسماعه لها من بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي الدماميني[1] بثغر الإسكندرية، بسماعه لها من أبي محمد محي الدين عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرحمن الشهير بالقروي، بإجازته من ناظمها أبي محمد عبد الله الخزرجي.

البادسية: يرويها الحفيد ابن مرزوق، عن ابن قنفذ، عن ناظمها حسن بن أبي القاسم بن باديس[2] القسنطيني ولد سنة 701، يروي عن ناصر الدين المشدالي[3] والقاضي ابن عبد الرفيع وآخر عن الحافظ صلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيكلدي العلائي القدسي، وله نظم القصيدة توفي سنة 787. ولد شيخنا الأجهوري بمصر سنة خمس وسبعين وتسعمائة، وتوفي سنة ست وستين وألف، أخذ عن محمد بن أحمد الرملي وعن ابن أبي بكر نور الدين القرافي الشافعي، والبرهان إبراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر العلقمي، وشمس الدين محمد بن محمد بن أحمد الفيشي المالكي، ومحمد البنوفري، وقاضي المالكية بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر القرافي، والمسند الكبير عمر سراج الدين الجاني الحنفي، والمسند بدر الدين حسن الكرخي الحنفي، وصالح البلغيثي، وأحمد بن قاسم العبادي، وتفقه بالبنوفري والبدر القرافي، وكريم الدين البرموني والشيخ عثمان الغزي أصيب ببصره بسبب غريب، له ثلاثة شروح على المختصر الكبير في اثني عشر مجلدا، والصغير في مجلدين. العلقمي يروي عن الشرف السنباطي عن ابن حجر، وهو والنور القرافي وابن الجاني والكرخي عن السيوطي، ويروي الفيشي، عن أبي حفص عمر العبادي، عن أحمد بن عبد القادر طريف الشاوي، عن أبي الحسن بن أبي المجد عن الحجار. ويروي ابن الجاني أيضا عن الشهاب أحمد بن محمد الحجازي المنصوري، وهو سمع جميع الصحيح عن علي بن أبي المجد عن الحجار، صحب الشيخ الأجهوري بدر الدين القرافي والواعظ محمد بن الترجمان الحنفي، وهما صحبا الشعراني، وهو زكرياء، وهو رضوان الكعبي، وهو ابن

---

[1] بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني الإسكندري، أديب نحوي، له شرح على الخزرجية وجواهر البحور في العروض، توفي سنة 827 هـ قتيلا بالهند: شجرة النور الزكية 1:346.

[2] حسن بن خلف الله بن باديس، القيسي القسنطيني، قاضي قسنطينة، توفي سنة 784 هـ: شرف الطالب، ص: 87.

[3] أبو علي ناصر الدين المشدالي، فقيه مشارك، توفي ببجاية سنة 731 هـ: شرف الطالب، ص: 77.

الجزري، هو ابن حراقة المقدسي الحنبلي، وهو الفخر على بن أحمد المعروف بابن البخاري، وهو أبا علي حنبل بن عبد الله المكبر، وهو أبا القاسم هبة الله بن محمد الشيباني، وهو أبا علي الحسن بن علي المعروف بابن المذهب، وهو أبا بكر أحمد بن جعفر القطيعي، وهو أبا عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد ابن حنبل، وهو أباه، وهو سفيان بن عيينة، وهو عمرو بن دينار، وهو ابن عباس، وهو صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الأربعة وأيضا صحب أحمد بن حنبل الشافعي، وهو مالكا ومحمد بن الحسن، ومحمد أبا حنيفة، وأبو حنيفة ومالك صحبا جعفر الصادق، وهو أباه محمدا، وهو أباه زين العابدين، وهو أباه الحسين، وهو أباه عليا، وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

سيدي عبد الكريم الفكون[1] بفتح الفاء وضم الكاف المشددة، أخذ عن والده وعن أبي زكرياء يحيى بن سليمان الأوراسي شرح نظم المكودي في التصريف، وشرح شواهد الشريف على الجرومية، والتزم عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد، وشرح جمل المجراد، وشرح مخارج الحروف من الشاطبية وكتاب في حوادث فقراء الوقت. أخذ والده عن جده سيدي عمر الوزان القسنطيني، وأخذ سيدي يحيى عن سيدي طاهر بن زيان الزواوي، عن سيدي زروق عن الثعالبي. وأخذ سيدي طاهر أيضاً عن عبد العزيز بن غانم الصحراوي، عن سيدي عيسى بن أحمد بن يوسف المليتشي عن الثعالبي. وألبس سيدي عبد الكريم الخرقة عن سيدي يحيى عن سيدي طاهر عن سيدي أحمد زروق الصغير، عن والده عن السنوسي عن سيدي إبراهيم شيخنا محمد بن عبد الفتاح الطهطائي، نسبة طهطا قرية بالصعيد، ثم القاهري الأزهري من نظم أبي جعفر الفارقي[2]:

[متقارب]

أجازَ لهم عمرُ الشافعِي | جميعَ الذي سأل المستجيزْ
ولم يشترطْ غير ما في اسمهِ | عليهم وذلك شرط وجيزْ

يعني العدل والمعرفة المانعين من الصرف.

---

[1] تقدمت ترجمته.
[2] ورد البيتان في تاج العروس: جوز.

ومن نظم الحلاج[1]:

[مجتث]

عجبـــــتُ منـــــكَ ومـــــني أفنيـــــتُ بـــــك عـــــيني[2]

أدنيتِـــــي منـــــك حـــــتى ظننـــــتُ أنـــــك أني

ولغيره:

[رمل]

إنمـــا أجـــزعُ ممـــا أتقـــي فـــإذا حـــلَّ فمـــا لي والجـــزعْ

وكـــذا أطمـــعُ فيمـــا أبتغـــي فـــإذا فـــاتَ فمـــا لي والطمـــعْ

توفي الشعراني سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة.

الملخِص للقابسي، ذكر صاحب تثقيف اللسان[3] إنه بكسر الخاء، وكذلك سماه صاحبه، جمع فيه أحاديث الموطأ لأبي عمران موسى بن محمد بن عبـد الله الأندلسي، يرويها ابن الفرات عن العز بن جماعة، أنا أبو عبد الله محمد بـن أبي الحرم مكي السمسار سماعا، أنا الحافظ الرشيد أبو الحسين يحيى بن علي القرشي عرف العطار عن ناظمها إجازة. ولبعضهم:

[بسيط]

أبـــو حنيفـــة زيـــنُ التـــابعينَ روى عن جابرٍ وابن جزءٍ والرضا أنَـــسِ

ابـــن ســـيار وحـــديث ووائلـــة وبنت عجرد علم الطيـــبين قـــبس

الحاجب[4]:

[مخلع البسيط]

(1) ديوان أبي المغيث الحلاج، ص: 97.
(2) في الديوان: يا منية المتمني.
(3) تثقيف اللسان لابن مكي الصقلي.
(4) ابن الحاجب؛ الفاضل،عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، الإمام العلامة النحوي،ولد سنة 571 هـــ. وتوفي سنة 646 هـــ: شرف الطالب، ص: 152.

كنت إذا ما أتيتُ عيْبا أقول بعد المشيب أرشَدْ
فصرتُ بعد ابيضاض شيبي أسوأ ما كنتُ وهْو أسودْ

روى ابن حبيب في كتاب الرغائب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: ابتدءوا بلا إله إلا الله قبل كل كلام.

[وافر]

علومُ الكيمياءِ لديَّ أجْلى من الشمسِ المُنيرةِ للبصيرِ
علومٌ حقةٌ لا شك فِيها بتصْعيدٍ وتقطيرٍ يسيرِ
إذا ما رُمت تصعيدا فصَعِّدْ إلى الرحمنِ أنفاسَ الزفيرِ
وقَطِّرْ دمعكَ المخزون حتى يبينُ لك الصفاءُ من الضميرِ
وقلْ يا جابرا رِفقا بعبْد لما أنزلتَ من خيرِ فقيرِ

ذكر في الإصابة نسطور الرومي، وقال: أحد الكذابين زعم أنه عاش بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، ثلاثمائة سنة[1]. ومن حديثه قال: سقط سوط رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك، فترلت ومسحته ودفعته إليه، فقال لي: مد الله في عمرك. وذكر المعمر وقال: شخص اختلق اسمه بعض الكذابين من المغاربة، وذكر سند المصافحة إلى أبي الحسن علي الحطاب التونسي، قال: صافحني الصقلي، قال: صافحني المعمر وكان عمره أربعمائة، قال: صافحني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ودعا لي فقال: عمرك الله يا معمر ثلاث مرات. قال الحافظ: وهذا من جنس رتن قيس بن تميم وأبي الخطاب وثعلبة ونسطور. وقد بسطت ترجمة المعمر في لسان الميزان[2]، وقد استوعبت هؤلاء في كتاب المعمرين، وبالله التوفيق.

وذكر قيس بن تميم الطائي الكيلاني الأشج، من نمط أشج العرب ومن نمط رتن الهندي قرأت في تاريخ اليمن للجندي أنه حدث في سنة 817 عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وعن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: خرجت من بلدي

(1) الإصابة 1:555.
(2) أنظر: لسان الميزان 6:93.

وكنا أربعمائة وخمسين رجلا، فضللنا عن الطريق، فصال علينا ثلاث صـولات، فقتل منا في كل مرة أزيد من مائة، فبقي منا ثلاثة وثمانون، فاستأمنوه، فإذا هـو علي بن أبي طالب، فأتى بنا النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو يقسم غنائم بـدر، فوهبني لعلي، فلزمته، ثم استأذنته في الذهاب إلى أهلي، فـأذن لي، فتوجهـت ثم رجعت إليه بعد قتل عثمان بن عفان، فكنت صاحب ركابه، فرمحتني[1] بغلتـه، فسال الدم، فمسح على رأسي وهو يقول: أمد الله يا أشج في عمـرك مـدا، ثم رجعت بعده إلى بلدي، ثم ساق أكثر من أربعين حديثا زعم أنه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومسند الدارمي المسلسل بالعين: نا عبد الصمد بن عبد الوارث قال: نا عبد الوارث عن أبيه، واسمه عبد الرحمن، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قـال: قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا كان النصف من شـعبان فامـسكوا عـن الصوم[2].

سورة الصف. قال الشيخ سلطان قرأها علينا الشيخ حجازي قال: قرأهـا علينا الشمس العلقمي، قال: قرأها علينا الجلال السيوطي، قال: قرأها علينا أبـو عبد الله الحاكم، قال: قرأها علينا أبو إسحاق التنوخي، قال: قرأها علينـا أبـو العباس الصالحي، قال: قرأها علينا أبو المنجا بن اللتي. قال ابن الجزري: قرأها علينا أبو الحجاج يوسف الصيرفي قال: قرأها علينا أبو المعالي عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد المطعم، قال: قرأها علينا ابن المنجا عبد الله بن عمر اللتي، قال قرأها علينا أبو الوقت عبد الأول، إلخ.

من نظم الحصري:

[وافر]

وقالوا قـد عميـت قلـت كـلا — فـإني اليـوم أبـصر مـن بـصير

سـواد العـين زار سـواد قلـبي — ليجتمعـا علـى فهـم الأمـور

[1] رمح: رمح الفرس والبغل والحمار وكل ذي حافر، ضرب برجله، وقيل برجليه جميعا: لسان العـرب: رمح.

[2] سنن الدارمي 2:29.

قال في الإصابة: جميع من في الاستيعاب ممن ذكر فيه باسم أو كنية أو هما معا ثلاثة آلاف وخمسمائة. وذكر ابن فتحون في ذيله أنه استدرك عليه على شرطه قريبا ممن ذكر، قال: وقرأت من خط الذهبي على ظهر التجريد لعل الجميع ثمانية آلاف وخمسمائة وأربعة وخمسون نفسا. قال الحافظ: ومع ذلك فلم يحصل لنا جميعا من ذلك الوقوف على العشر بالنسبة إلى ما جاء عن أبي زرعة الرازي قال: توفي النبي، صلى الله عليه وسلم، (وجملة)[1] من رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان من رجل وامرأة كلهم قد روى عنه سماعا أو رواية، قال ابن فتحون: أجاب أبو زرعة بذلك سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم.

الحمد لله، ومن خط شيخنا العلامة[2] الثعالبي ما نصه: قال أبو الوليد الأزرقي في تاريخه في صفة الشاذروان، ومن أصله كتبت: ذرع البيت من خارجها في السماء من البلاط المفروش من حولها تسعة وعشرون ذراعا وستة عشر أصبعا[3]، وطول الشاذروان سبعة وعشرون ذراعا، وعدد الحجارة التي حول الكعبة ثمانية وستون حجرا في ثلاثة وجوه، من حدار الركن الغربي إلى الركن اليماني خمسة وعشرون حجرا، منها (حجر طوله ثلاثة أذرع ونصف، وهو عتبة الباب الذي سد في ظهر الكعبة، وبينه وبين الركن اليماني أربعة أذرع، وفي الركن اليماني حجر مدور، وبين الركن اليماني والركن الأسود تسعة عشر حجرا، ومن حد الشاذروان إلى الركن الأسود ثلاثة أذرع ونصف)[4] واثنا عشر إصبعا ليس فيها الشاذروان، ومن الركن الشامي إلى الركن الأسود ثلاثة وعشرون حجرا، ومن حد الشاذروان من هذه الجهة إلى الركن الأسود ذراعان ليس فيهما شاذروان، وهو الملتزم، وطول الشاذروان في السماء ستة عشر إصبعا وعرضه ذراع، هـ.

وقال في باب ذرع الكعبة: طول الكعبة في السماء تسعة وعشرون ذراعا، وذرع طول وجهها من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعا، وذرع دبرها من اليماني إلى الغربي خمسة وعشرون ذراعا[5]، (وذرع شقها اليماني

---

[1] زيادة من ط.
[2] ساقط من ط.
[3] ساقط من ط.
[4] ما بين قوسين ساقط من ط.
[5] ساقط من ط.

من الأسود إلى اليماني عشرون ذراعا)[1] وذرع سقفها الذي فيه الحجر من الشامي إلى الغربي أحد وعشرون ذراعا، وذرع عرض جدار الكعبة ذراعان، والذرع أربعة وعشرون إصبعا هـ.

قال الحافظ تقي الدين ابن فهد في ذيله على طبقات الحفاظ: بلغ ابن حجر في سرعة الكتابة والكشف والقراءة إلى غاية لا تلحق، فمن ذلك أنه قرأ البخاري في عشرة مجالس من بعد صلاة الظهر إلى العصر، ومسلما في خمسة مجالس في نحو يومين وشطر يوم، والنسائي الكبير في عشرة مجالس، كل مجلس منها قريب من أربع ساعات، والمعجم الصغير للطبراني من الظهر إلى العصر. وفي مدة إقامته بدمشق، وكانت شهرين وعشرة أيام قرأ فيها قريبا من مائة مجلد مع ما يعلقه ويقضيه من أشغاله، توفي ليلة(...)[2] من ذي الحجة سنة 842، ودفن بالقرافة الصغرى.

قلت: قال المنوي في طبقاته في ترجمة سيدي علي بن وفا بعد أن نقل عن ابن حجر في حق سيدي علي كلاما فيه بعض الازدراء به ما نصه: ودأب الحافظ ابن حجر أنه إذا ذكر أحدا من الطائفة لا يبقي ولا يذر، والله يغفر لنا وله. ومن كلامه في سيدي علي قال: وشعره ينعق بالاتحاد المفضي إلى الإلحاد كشعر أبيه[3]، ورتب لأصحابه أذكارا استمال بها قلوب العوام، وذكر أنه اجتمع به في وليمة، وأنكر على أصحابه. ومن مشايخ ابن فهد عبد الرحمن بن عمر اللخمي المصري القبابي بكسر القاف وفتح الموحدة، نسبة إلى القباب الكبرى من قرى أشموم بالصعيد، سمع من الصلاح ابن أبي عمرو. ومنهم محمد بن عمر البارنتي بفتح الموحدة وبعد الألف راء مكسورة فنون ساكنة، جمال الدين المصري الشافعي سمع من الصلاح الزفتاوي والبرهان الشامي. ومنهم محمد بن عمر التونسي الشهير بابن عزم. قال: وقع لنا في مجلس شيخنا ابن حجر في الإملاء حديث أبي هريرة: ثلاثة لا ترد دعوتهم. فقال شيخنا: هذا قسيم بيت منظوم يا شعراء. فنظمت ذلك بيتين وهما[4]:

---

(1) ساقط من ط.

(2) فراغ في ط: خ وط.

(3) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية 202:3.

(4) ورد البيتان في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 480.

[منسرح]

دينــي وفقــرِي وهــم عــائلتي دعــت نــداك لعــل تــرحمهم

حاشا يخيبــونَ إن دعــوك وهــم " ثلاثــةٌ لا تــرد دعــوتهم"

دمياط: أبو الحسن علي بن الصباغ السكندري، أخذ عن الشيخ عبد الرحيم القناوي عن أبي يعزى. وأخذ ابن شافع عن ابن الصباغ.

أبو الوليد الباجي روى عنه حافظ المشرق والمغرب الخطيب البغدادي وابن عبد البر، وهما أسن منه وأكبر.

ومن نظم الحُصري[1]:

[مخلع البسيط]

يمــوتُ مــن في الأنــامِ طُــرا مــن طيــب كــان أو خبيــث

فمســـــتريحٌ ومُســـــتراح منــهُ كمــا جــاءَ في الحــديثِ

وللشيخ محي الدين بن عربي في ليلة القدر بعد أبيات[2]:

[طويل]

وضابطُها في القــولِ ليلــة جُمعــة توافيكَ بعد النصف في ليلــة الــوترِ

أخذ عن الخيطي بالإجازة أبو القاسم محمد بن إبراهيم الــدكالي، وعبــد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق، ومحمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمــساني، وأبو القاسم بن عبد الرحمن الحميري، وأبو عبد الله محمد القاسم الــشهير بــابن القاضي، ويحيى السراج[3]، وأحمد بن محمد ابن عيسى الماواسي، وأحمد بن علــي المنجور، وعبد الواحد الحيري، وأحمد الزموري.

تصانيف شيخنا أحمد بن محمد بن خفاجة: شرح الشفا في أربع مجلــدات، وحاشية على البيضاوي في نحو ست مجلدات، وشرح درة الغــواص في مجلــد،

(1) ورد البيتان في نفح الطيب 154:2.

(2) ورد البيت في نفح الطيب 169:2.

(3) يحيى بن محمد السراج، فقيه حافظ، تولى خطة الفتوى بفاس، توفي سنة 1007هـ: لقط الفرائــد، ص: 330.

وكتاب المجالس مجلد، وحاشية على فرائض الحنفية، وكتاب السوانح في نحو سبعين كراسا، وكتاب الرحلة، وديوان شعره.

الشمس محمد بن أحمد الرملي[1] مولده سلخ جمادى الأولى سنة 919، وتوفي سنة 1000، أخذ عن زكرياء رواية، وعن ابن النجار الحنبلي وناصر الدين اللقاني والشيخ عبد الرحمن الديبع، ولد رابع المحرم سنة 866، وتوفي سنة 911.

[طويل]

عداد أحاديث البخـــاريِّ خالـــصا   من العَودِ والتكرارِ ألفانِ معْ نِـــصفِ

وزِدْ عشرةٌ مــــن بعـــدِها وثلاثـــةٌ   أضفها إليه تنجُ من سُـــبَّةِ الخَلْـــفِ[2]

سمع الشهاب الحجازي من زين الدين العراقي[3]، وسمع من ولده أبي زرعة عن محمد بن عطاء الله أخي الشيخ تاج الدين عن النووي.

سوء بخت المسلمين في ملوكهم أن الملك ليس في شريعتنا وإنما هو في شرع من قبلنا، وفي شرعنا الخلافة، فلما صارت ملكا لم يستقم.

ومما أفادنيه شيخنا أبو مهدي وكتبته من خطه ما نصه: محمد بن أحمد بـــن علي الهواري شمس الدين الضرير شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعيـــة مـــن نظمه[4]:

[بسيط]

في كُـــلِ فاتحـــةٍ للقـــولِ مُعتـــبرَه   حق الثناء على المبعُـــوث بـــالبقرهْ

في آل عمران قِـــدما شـــاعَ مبعثـــهُ   رجالهم والنساءُ استوضحوا خـــبره

إلى آخرها وهي من غرر القصائد، ولو لم يكن إلا هي له لكفت. وكثير من الناس ينسبها للقاضي عياض، وكنت في أول الاشتغال ممن يعتقد صـــحة تلـــك

(1) تقدمت ترجمته.

(2) الخلف: الخَلْفُ: الولد الصالح يبقى بعد الإنسان، والخَلْفُ والخالفةُ: الطالح: لسان العرب: خلف.

(3) زين الدين عبد الرحيم العراقي، إمام محدث، توفي بمصر سنة 806 هـ: وفيـات الونشريـسي، ص: 135.

(4) نفح الطيب 7: 324.

النسبة حتى وقفت على شرح البديعية لرفيقه أبي جعفر الإلبيري فإذا بـه نـسبها للناظم ابن جابر هـ من نفح الطيب لأبي العباس المقري[1].

ومنه أيضاً يذكر عند ركوب البحر: يا حفيظ عدده ويا لطيف عدده.

ومنه:

[وافر]

لقد كثـرتْ دعـاةُ الفقـهِ حـتى | لقد غلبَ النـهيقُ علـى الـصهيلِ
وما كـل الوقـودِ كنـار موسـى | ولا كـل الفـواطِم كـالبتولِ

ومنه مما قيل في معجم البرزالي وهو أكثر من عشرين مجلدا:

[كامل]

يا طالبًا نعتَ الـشيوخِ ومـا رووا | ورَووا علـى التفـصيلِ والإجمـالِ
دارَ الحديثِ انزلْ تجدْ مـا تبتغـي | لـك بَـارزا في مُعجـم البَـرْزَالي

ومنه في الضوء اللامع للسخاوي من قول حسان يرثي سيدنا إبراهيم بـن النبي عليه السلام[2] :

[طويل]

مضَى ابنُك محمُود العواقبِ لم يشبْ | بعَيب ولم يُـذمم بقـول ولا فعـلِ
رأى أنهُ إن عاشَ سـاواكَ في العُـلا | فآثرَ أن تبقَـى وحيـدا بـلا مِثـلِ

ومنه[3]:

[مخلع البسيط]

قرابـةُ الـسوءِ شـر داء | فاحمـلْ أذاهُـمْ تعـشْ حَميـدا
ومـن تقـعْ قُرحـة بفيـهِ | يـصبرْ علـى مـصه الـصديدا

---

(1) نفح الطيب 7: 327.
(2) الضوء اللامع 7: 126.
(3) البيتان للسميسير، وهما في نفح الطيب 4: 20.

ومنه الشيخ محمد البكري لقَّنني الذكر وهو: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاثاً، ولا إله إلا الله ثلاثاً، ويدي في يده ورداؤنا من فوقنا هـ.

قلت: وقد مَنَّ الله علي بتلقين الذكر المذكور من الشيخ محمد البكري المذكور على الصفة المتقدمة بجانب المنبر قبالة البيت العتيق بالمسجد الحرام يوم عيد الأضحى سنة أربع وستين وألف بعد الخروج من البيت والصلاة فيه بإثر طواف الإفاضة، فيا له من تلقين شريف من شيخ مكين في مكان عظيم في يوم كريم إثر عمل صالح بعد انتهاء الحج الأكبر، نسأل الله المتفضل بذلك أن يختم بالسعادة آجالنا، ويقرر بالعافية غدونا وآصالنا آمين.

ولنختم هذه الترجمة بقصيدة أنشأتها بالحجاز يحسن إنشادها حول البيت العتيق رجاء أن ينشدها هنالك في غيبتي أحد من المحبين فينفعني الله بذلك، ولا آلو ما استكثرت من الأسباب التي أتطفل بها على كرم الله تعالى عسى أن ينفحني منه بنفحة خير تغنيني عمن سواه دنيا وآخرة إنه جواد كريم منعم متفضل، وهي هذه:

[طويل]

ألا أيها البيتُ العتيقُ المُرَفَّعُ   جمالكَ لا يُخفيه عنيَ بُرقعُ
وقدركَ عند الله ليسَ ينالهُ   وإن كثُرتْ فيهِ المرافقُ موضعُ
أتاكَ عظيمُ الجُرمِ ما لندائهِ   سوى الله في وقتِ الشدائدِ يسمعُ
أنادِي إذا ما كنتُ بالحِجر واقفا   نداءَ مُنيبٍ دائما يتضرعُ
وعند استلامِ الركنِ والحجرِ الذي   إليه وجوهُ الخلقِ باللثمِ تُسرعُ
وعندَ مقامِ للخليلِ فيا لهُ   مقامٌ جليلٌ والدعا فيهِ ينفعُ
فيا ربِّ أنتَ الله والملكُ الذي   لهيبتهِ تعنُو الوجوهُ وتخضعُ
وإني أنا العبدُ الضعيفُ وليسَ لي   سواكَ إليه في الشدائدِ أفزعُ
يذكرني الإحسانُ فضلكَ سيدي   فأرجو وأخشى العذلَ منك فأجزعُ
ولكنَّ أهلَ الفضلِ أولى به فمن   أتى يرتَجي إحسانَهمْ ليس يرفعُ

فما ليَ من أرجو إذا مــا طــرَدتني وما ليَ بــابٌ غــير بابــك أقــرعُ

فكــن ليَ في يــوم طويــل وقوفــه به يحصدُ المرء الذي كــان يــزرعُ

وما إن زرَعنا غيرَ سُــوء اجترامنــا ولكننا في فــيض فــضلك نطمــعُ

ولا نرتجي دُنيــا وأخــرى يُغيثنــا ســواكَ إلهــي أو حبيبُــك يــشفعُ

ولِمْ لا ونحنُ مؤمنــونَ بكــل مــا أتانا بــهِ إذ جــاءَ بــالحق يــصدعُ

سَمعنا أطعنــا واتبعنــا ومــا لنــا منَ الأمــرِ إلا أن يقــولَ فنــسمعُ

فيــا رَب وَفــقْ لاتبــاعِ طريقــهِ عُبيــدكَ فهْــوَ الــسائِلُ المُتــضرعُ

وحُطني منَ الأسْواء في كل لَحظــة فأنتَ الذي منها إذا شــئتَ تمنــعُ

وهيئْ لنا من أمْرنــا رشَــدا وجُــد لنا بالرضا في كــل مــا الله يــصنعُ

أيا زائــرًا للبيــتِ قُــل بــسكينة أ مولايَ قل لي إنني فيــكَ أطمــعُ

وبلغْ أخــي عبــدَ الإلــهِ مُــرادهُ فمطلوبهُ مــا قــد ســألتكَ أجمــعُ

يدي يــدهُ عنــد الــدعا ولــسانهُ لساني وقلبي قلبــهُ حــين أخــضعُ

ووارِدُ بَحر الجــود يُــروي برَيــهِ سواهُ وفضلُ الله مــن ذاك أوســعُ

بجاهِ رســولِ الله أفــضلِ مــن بــهِ توَســلنا وهْــو الــشفيعُ المُــشفعُ

أصَلي عليهِ مــا حييــتُ مُــسلما صلاة بها سَــعْيي غــدا لا يُــضَيعُ

ومما منَّ الله علي بمخاللته ومصافاته، وأسرى إلي من بــره وإحــسانه مــا عجزت عن مكافأته، خليلنا الأصفى، وحبيبنا الأوفى، أبسط من لقيته من أهــل مكة، كفا وأبر من اتخذته منهم إلفا، الشاب الظريف، الناسك العفيف، المشارك في العلوم الشرعية، المبرز في الأذواق الصوفية، أبو علي حسن بن علي بن يحيى بن عمر العجيمي[1] المكي الحنفي أدام الله مقامات العرفان وارتقاءه، وأطال في سلوك مسالك السعادة بقاءه، شاب نشأ في عبادة الله وجُبِل على محاسن الــشيم مــن

---

[1] تقدمت ترجمته.

صغره، وأعانته العناية الإلهية على اكتساب ما فاته منها في كبره، صحب من أدرك من مشايخ الحرمين، وانتفع بصحبتهم وخدمهم، فنال المقام الأعلى بخدمتهم، وأجل من انتفع بخدمته عارف وقته ووحيد عصره، غوث الزمان، شيخنا صفي الدين القشاشي، صحبه مدة مديدة، وسمع وتلقن واكتسى منه مرات عديدة، وترقت منزلته لديه حتى صار يعد من جملة من ينتسب إليه، وانتفع به في علوم كثيرة وأذواق غزيرة، يكثر زيارته، ويمتثل إشارته، ويتردد إليه من مكة مراراً، ويقدمه على نفسه إعلاناً وإسراراً، ويلازم مجلسه بالمدينة شهوراً إلى أن صار بين أصحابه علماً مشهوراً، أذن له على ما أخبرني بالاشتغال بعلم الأسماء والدوائر وأسرار الحروف وفن الدعوات وخواص الأذكار وسائر العلوم التي لم يزل المشايخ يتواصون على إخفائها، ويحذرون الضعفة من الاشتغال بها، وقال له إن فيك أهلية ذلك، ومثلك من يرجى له خيرها، ولا يخشى عليه ضررها، أو كلاماً هذا معناه أو قريب منه، فكانت له ببركة الشيخ في هذه العلوم يد طولى ومآثر تتلى، مع حسن الهدى والسمت بلا عوج في أحواله ولا أمت. وكنت ربما أنكرت عليه التفاني في طلب هذه العلوم وأحذره غائلتها كما هو معلوم، إلى أن أخبرني بإذن الشيخ له، فعلمت أن الرجل ملحوظ بالعناية، مؤيد بنظر أهل الولاية، فسلمت له حاله، وصدقت مقاله. ومع اشتغاله بسلوك طريق القوم لم يخل نفسه من الاشتغال بالعلوم الظاهرة، سيما علم رواية الحديث، فقد جد فيه كل الجد وبلغ في الاعتناء به منتهى الحد، فأخذ عن شيخه الصفي وأجازه بسائر مروياته عن سائر شيوخه، ولازم شيخنا أبا مهدي عيسى الثعالبي فسمع منه الكثير وروى عنه غالب مروياته، ولا يقدم أحد من علماء الآفاق على الحرمين الشريفين إلا جد في لقائه والأخذ عنه، ورزق في ذلك سعادة وإقبالاً من المشايخ ما رآه أحد إلا أحبه، ولا خالطه إلا ملأت مودته قلبه، فكثرت بذلك مروياته، واتسعت مسموعاته، وقد استجازني مراراً، وسمع مني كثيراً، وقيّد من أسانيدي ما احتاج إليه، وكان لقائي له أول مرة بالمدينة قدمها للزيارة في شهر رجب، وكانت أخباره ترد إليَّ بالمدينة وأخباري ترد عليه بمكة قبل الاجتماع بواسطة شيخنا الملا إبراهيم وأخينا السيد محمد بن رسول لارتباطنا جميعاً بالنسبة العلية القشايشة، جعلنا الله من المتمسكين بحبلها المتين، السالكين على منهجها الأقوم المبين. وعندما ورد المدينة، وبلغني خبر قدومه، بادرني بالمجيء إلي والسلام علي، فرحب وأنس واستقصى في السؤال على الحال، وأقبل بقلبه وقالبه غاية الإقبال، ولم يزل يواصلني وأواصله، وتجمعني وإياه

مجالس شيخنا الملا إبراهيم محافله إلى أن توجهت إلى مكة، فتخلف هو في المدينة لعارض وقتي، فأوصى إلى بعض أقربائه بمكة بالاعتناء بي وتهيئة المترل، و لم يزل في المدينة إلى أن قضى نسك صيامه، فقدِم إلى مكة فلازم زيارتي والإيناس بي، قلّ ما يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه طرفي النهار، وأفادني في تلك المدة أكثر مما أفدته، وقيّد لي بخطه من غرائب الفوائد شيئاً كثيراً، وأعانني باستعارة ما أحتاج إليه من الكتب من عند من كان بها ضنينا، وكانت له وجاهة وقبول تام عند أهل الدنيا والآخرة معا.

لطيفة:

وقد بلغني مكتوب منه ونحن بالقاهرة بعد الرجوع من القدس الشريف من جملته ما نصه: وقد استجزت لكم من رجل اسمه محمد من ذرية سيدنا عدي بن مسامر، وهو من صالحي أهل الشام، فأجاز لكم رواية ما تصح له روايته عن جميع أشياخه، أجلهم سيدي الشيخ أيوب بن أحمد الدمشقي الأموي[1]، وهو عن الشيخ إبراهيم أحمد الدمشقي عُرِف بالأحدب، وهو عن شيخ الإسلام أحمد بن حجر المكي، وعن الشيخ رضي الدين الغزي وغيرهما، وبهذا السند يروى الحديث المسلسل بالأولية بشرطه، انتهى المطلوب منه فجزاه الله عنا أفضل الجزاء آمين.

وقد جمع صاحبنا هذا رسالة استوعب فيها طرق أئمتنا الصوفية الموجودة في هذه الأزمنة غالباً، وذكر ما يتميَّز به أهل كل طريق وذكر سنده إلى إمام تلك الطريقة وكيفية اتصاله به، وهي غاية في الباب مستوعبة أتم استيعاب، ما رأيت مثلها لأحد قبله ممن سلك الطريق، وعد من أولئك الفريق، وهي دالة على سعة اطلاعه وكثرة اعتنائه بالطريق ولقاء أهله، و لم يفرغ منها أيام إقامتنا بمكة وبعد الرجوع من مكة كتبتُ إليه من طرابلس أطلبها منه وأستجيزه فيها وفيما اشتملت عليه من الطرق، فبعث إلي منها نسخة هي من مسوداته، وكتب إلي معها كتاباً، فلنذكر جملته تيَمُّناً بألفاظه، ونصه: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أهل المحبة والمودة، من العبد الفقير الحقير الكسير، حسن بن علي العجيمي إلى شيخه وأستاذه وبركته وسيده

[1] تقدمت ترجمته.

وحبيبه وصفيه ووليه في الله الشيخ العلامة، والحبر الفهّامة، القدوة المحقق، والعارف المتفنن المدقق، سيدنا ومولانا الشيخ أبي سالم عبد الله بن محمد حفظه الله بما حفظ به عباده الصالحين، وبلغه سؤله، وأدام النفع به آمين، أهدي إليه من محبه شريف السلام وعميم التحية والإكرام، ورحمة الله وبركاته على الدوام، صدرت الأحرف من مكة المشرفة لآداء واجب السلام وتجديد العهد بأخلاقكم الكـــرام، وينـــهي الحقير إلى سيدنا وصول كتابه الكريم ومثاله الجسيم، وإنه كان أعز واصل وأكرم نازل، حيث أخبرنا بصحتكم وسلامتكم التي هي القصد والمراد، مع ما اشـــتمل عليه من التعريف بخالص المحبة وصادق الوداد، وذكرتم، شكر الله صنيعكم، أنكم استجزتم لي من الشيوخ الذين لقيتموهم، فجزاكم الله عني خير الجزاء، وذكرتم أنه لم يتيسر لكم إفراد استدعاء لمحبكم فيما كتبتموه كفاية، كان الله لكم، وما ذكرتم من الأمر المهم من أننا نبذل الدعاء مع ما نعرفه بالخير مـــن الإخـــوان بـــالفرج للمسلمين، فقد فعلنا ذلك مع الأخ سيدي الشيخ سليمان الحَجّار، ورفعنا أيدينا بالالتجاء إلى الله تجاه الكعبة في ذلك، ومع مولانا الشيخ عيسى حفظه الله، ونرجو من كرم الله الإجابة. هذا وقد استجزت لكم من مولانا الشيخ أبي بكر بن سالم شيخان مرتين بواسطة سيدي الشيخ أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف، فأجاب إلى ذلك ووعدنا بكتابة الإجازة إلى بعد خروج الحجاج مـــن مكـــة، وذكـــرتم الاستجازة من مولانا الشيخ إسحاق جمعان[1]، فنعرفكم أنَّ مولانا الشيخ علـــي الديبع ما حج هذه السنة لاشتغاله بخدمة شيخه المذكور لأنَّه مريض نحو ســـنة، ومقصودي إرسال كتاب إليه أستجيز لكم فيه، وتأتيكم إجازته وإجازة السيد أبي بكر شيخان مع ما يتجَدَّد من الفوائد إن شاء الله العام القابل وأنتم بخير وعافية، والفقير على ما تعهدونه منه من النيابة عنكم في الطواف والاعتمار وعقد الأخوة لكم ممن ألقاه من الشيوخ الصادقين أرباب الأحوال، وطلب الدعاء لكم منـــهم ولمن تحبون، والاستجازة، إن شاء الله، ممن يفد إلى مكة من الفضلاء، فـــادع لي بالتوفيق والإعانة والسداد والصيانة، وما قصدي بذكر هذا إلا التعرض لنفحـــات توجهاتكم وبركات دعواتكم، وأبلغت سلامكم مولانا الشيخ عيسى وســـيدي سليمان الحجار والشيخ أحمد باقشير ومولانا السيد محمد وسائر الإخـــوان ممـــن لقيت، وأكدتم في طلب الرسالة التي كنت جمعتها في الطرق وهي مشتملة علـــى

[1] تقدمت ترجمته.

أربعين طريقاً مع التمييز بين كل منها، إلا أنها ما بيضت لاشتغالي عنها، ولأني ما أحب إظهارها، بل أستغفر الله على ما أقدمت عليه فيها من إفشاء أسرار ذوقية عز ببذلها كثير من أهل التحقيق في الطريق، هذا مع عدم منازلتي لذلك بكمال الذوق، وكان كثيراً ما يختلج في صدري محوها لذلك، لكن لما جاءني مكتوبكم ما وسعني ذلك، وما أمكنني إلا إرسالها، إلا أني أردت تبييضها واختبارها بالمرور عليها مع إمعان النظر فيها، فما تيسر لضيق الوقت، فإن مكتوبكم ما وصلني إلا أمس، فلعلكم تشرفوها بحلول نظركم السعيد عليها والتصرف فيها بما تستحسنوه من تقديم وتأخير وزيادة وحذف، بل ومحو إن لم تعجبكم، ففي رأيكم السديد كفاية، وإن رأيتم أن تجعلوا لها خطبة وتنسبوها إليكم إن ناسبتكم فلا بأس، لكن يا سيدي لا تُطلعوا عليها إلا من تتحققوا منه كمال الإيمان بكلام أهل الطريق وسلوك أحسن سبل التأويل للغامض من إشاراتهم، وقد أمرتم محبكم بالإجازة لكم بها، وقد عظم علي ذلك لعلمي بحقارتي وقصور باعي وقلة معرفتي وكمال علمكم ومزيد فضلكم، ولكن لا يحمل مني إلا مقابلة أمركم بالامتثال فأقول: أجزتكم وكل من علمتم أهليته من أولادكم وأحبابكم روايتها وإلباس الخرقة، وتلقين الذكر، ومَد اليد بالتوبة للتائبين، وأخذ العهد والبيعة عليهم، وفتح مجالس الذكر والانتساب إلى أهل الله، كما أخذت ذلك، وأخص منه من شيخنا وأستاذنا وبركتنا وإمامنا الإمام الفرد صفي الدين أحمد بن محمد القشاشي قدس الله سره ونفع به، وقد أخذتم ولله الحمد عنه وعن خليفته الملا إبراهيم، فلا حاجة لكم بالرواية عن هذا الحقير إلا ما سَطَّره في الأوراق، وهو رشحة من علومكم، فاستروا العبد ولا تذكروه فإنه أحقر من أن يذكر، وبز أوراقه حقيق بأن يُطوى ولا ينشر، واجعلوا ذكركم له ببذل الدعاء منكم والتماسه من صالحي أصحابكم له بحسن الختام، والفوز بمتابعة السنة المحَمّدية على الدوام، وجمع الشمل بكم على أسر حال وأنعم بال، والرسالة واصلة إليكم ومعها خرقة عتيقة ألبسوها من شئتم، والمقصود من إرسالها أن تذكروا العبد، فرب ذكرى قربت من ترجا، وسلموا لي على ساداتنا إخوانكم ومن شئتم، ويسلم عليكم الملا عبد الرحمن، وذكرتم أني أؤكد على سيدنا الملا إبراهيم في شرح القواعد الكبرى التي أرسلتموها إليه، فكذلك إن شاء الله أرسل إليه ورقة وأكلمه في ذلك، وهو إن خلد من الأشغال لا يقصر في مطالب الإخوان، جزاه الله خيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله

وصحبه وسلم. كتبته عجلا تجاه الكعبة داعيا لكم في ضحى يوم الاثنين تاسع عشر ذي الحجة سنة 1070 ختمها الله بخير، هـ كتابه بحروفه رضي الله عنه.

ورسالته المذكورة مشتملة على أربعين طريقا وهذه أسماؤها: محمدية، أويسية، قلندرية، صديقية، ملاماتية، كبروية، همدانية، ركينية، نورية، خلوتية، مولوية، جهرية، برهانية، أحمدية، سهروردية، خفيفية، شاذلية، وفائية، زروقية، بكرية، جزولية، خواطرية، عيدروسية، مشارعية، حاتمية، قادرية، عرابية، مدينية، قشيرية، رفاعية، خرازية، جشتية، مدارية، شطارية، عشقية، نقشبندية، غوثية، حلاجية، جنيدية، سهلية، هـ.

أما المحمدية فمنسوبة إلى سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، ووجه اختصاصها بالانتساب إليه، مع أن الكل راجعة إليه ومستمدة منه، أن صاحبها بعد تصحيح بدايته وسلوكه على منهج الاستقامة المُبيَّن في الكتاب والسنة يشتغل بالصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى أن تستولي محبته على قلبه، ويخامر سره تعظيمه بحيث يهتز عند سماع ذكره ويغلب على قلبه مشاهدته، ويصير تمثاله بين عيني بصيرته، فيسبغ الله عليه نعمه ظاهراً وباطناً، ولا يجعل لمخلوق عليه منة، إلا للنبي، صلى الله عليه وسلم، فيراه يقظة ومناما، يسأله عما يريد، وقد سلك على هذا المقام جماعة من المشايخ قديما وحديثا، ذكر صاحب الرسالة جماعة منهم.

قلت: وقد لقيت بالقاهرة سنة أربع وستين بجامع المارديني الشيخ محمد الخلوتي، وهو رجل مسن منقطع بالمسجد له أصحاب، فسألته عن طريقه ولمن ينسب. فقال لي: أما أنا فطريقي محمدية لا أنتسب لأحد، وذكر أنه محافظ على استحضار صورته عليه السلام في باطنه، فأغناه ذلك عن التقليد بشيخ والاستمداد منه، أو كلاماً قريباً من هذا.

وأما الأويسية فهم المنتسبون إلى روحانية بعض الأنبياء أو المشايخ كأخذ سيدنا أويس[1] عن روحانية سيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم، وكأخذ أبي يزيد عن روحانية الإمام جعفر الصادق، رضي الله عنه، فصار كل من يأخذ عن روحانية المشايخ تسمى طريقه أويسية.

---

[1] الإشارة إلى أويس القرني الزاهد، أنظر أخباره في: الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 42.

وأما القلندرية فمبنى طريقهم على حصول طيبة القلب والتقلل من الـــدنيا وترك الادخار، ومن شأهم أهم لا يشتغلون بترك الملذوذات من الأطعمة المباحة، لا بالزيادة على الفرائض إذا حصل لهم.

وأما الصديقية فمنسوبة إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وقد ذكرها ابن عطاء الله في مفتاح الفلاح.

وأما الملاماتية فمبناها على الخروج من رعونات النفس وتطهيرها من جناية العجب والرياء وحب الجاه والرياسة وإسقاط المترلة من قلوب الناس بأمور ينكرها العوام والمسنوب إلى هذه الطريق فرق ذكر صاحب الرسالة جملة منهم، وأسانيدها تنتهي إلى أبي يزيد البسطامي.

وأما الكبروية فمنسوبة إلى نجم الدين الكبرى، رضـــي الله عنـــه، وهـــي مشهورة.

وأما الهمدانية فهي شعبة من التي قبلها، إلا أن أهلها يختارون الإسرار بالذكر إلا بعد فريضة الصبح فإنهم يقرأون الأوراد الفتحية بالجهر، وبعد العـــصر الأوراد العصرية، وهما لشيخ هذه العصابة السيد علي الهمداني. وقد ذكر الملا جامي أن سيدنا عليٍ الهمداني ساح الربع المعمور وصحب ألفا وأربعمائة ولي، أخذ من كل واحد ذكراً وجد ذلك الشيخ ثمرته فجمعها، ثم لما زار النبي، صلى الله عليه وسلم، رآه وقد أعطاه شيئاً وقال له: خذ هذه الأوراد فرآها فإذا هي التي جمعهـــا عـــن مشايخه، فجعلها ورداً في الصباح، وقف على بركتها كثير ممن لازمها، وقد أخذها صاحب الرسالة عن بعض ذريته.

وأما الركنية فهي شعبة من التي قبلها، إلا أن لأستاذها مولانا زكي الـــدين علاء الدولة السمناني في كيفية الذكر بالكلمة الطيبة جلسة معينـــة وزيـــادة في الضروب.

وأما النورية فهي شعبة من التي قبلها، إلا أن لشيخ خرقتها سيدنا نور الدين الإسفرايني كيفية أخرى.

وأما الخلوتية فمبنى طريقهم على الذكر بالكلمة الطيبة بكيفية مخصوصة، ثم يشتغل بذكر الجلالة، ثم يذكر هذه الأسماء العشرة على الترتيب وهي: هو حـــق

حي، قهار وهاب، فتاح واحد أحد، صمد قيوم، وتنتهي طريقهم إلى الشيخ قطب الدين أحمد بن محمد الأبهري.

وأما المولوية فمبناها على دوام الذكر الخفي مع حبس النفس والدوران، ومن أكبر المشايخ الذين تنتهي إليهم هذه الطريقة وينتسب إليه أكثرهم مولانا جلال الرومي.

وأما الجهرية فمبناها على الجهر بالذكر في جميع الأوقات إلا في الخلوة، ولهم أوراد معلومة، وتنتهي إلى الخوجة أحمد اليسومي، رضي الله عنه، وهو عن سيدنا الخضر عليه السلام.

وأما البرهانية فتنتسب إلى سيدنا برهان الدين إبراهيم الدسوقي[1]، ومن شأنهم الذكر بالجهر، والاستهتار بذكر دائم بياء النداء، ولبس الزي وهو الأخضر.

وأما الأحمدية فتنتمي لسيدي أحمد بن علي بن إبراهيم الشهير بالبدوي، مبناها على الاشتغال بتلاوة القرآن وبالذكر الجهري على كيفية مخصوصة، ومن شأنهم حمل العكاز عملا بالسنة وتذكيرا بسفر الآخرة، ولبس الزي وهو الأحمر.

وأما السهروردية فمعروفة. وأما الخفيفية فمنسوبة إلى أبي عبد الله بن خفيف الشيرازي، وطريقه الغيبة والحضور. وأما الشاذلية فمعروفة، والأربعة بعدها شعب منها.

وأما الخواطرية فمبناها على الذكر بكلمتي التوحيد على كيفية مخصوصة لطرد الخواطر من القلب حتى لا يبقى فيه إلا الله، ومن شأنهم الاشتغال بالرياضة الشاقة والتجريد وقراءة الأوراد المذكورة في كتب الشيخ علوان الحموي وابن عراق، وأشهر مشايخ هذه السلسلة شيخهما سيدي الشيخ علي بن ميمون الإدريسي الفاسي.

وأما العيدروسية فمبناها على الاشتغال بالذكر المفرد بالجهر، ومن شأنهم دخول الخلوة بالجوع وضبط الحواس، وحفظ الأنفاس بالذكر على الدوام، ونسبتهم إلى سيدي عبد الله بن أبي بكر العيدروس.

---

[1] إبراهيم الدسوقي، من أجلاء مشايخ الفقراء، صاحب كرامات ومقامات: الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 234.

وأما المشارعية فمبناها على ذكر الجهر، ومن شأنهم السماع بشروطه، ومطالع كتب القوم وقراءتها ولبس الزنبيل للدروزة، وهي الوقوف على الناس للسؤال، ونسبتهم إلى الشيخ أحمد بن موسى المشرع اليمني. وأما الحاتمية فمنسوبة إلى الشيخ محي الدين بن العربي، وهي معلومة. وأما القادرية فإلى القطب شيخنا أبي محمد عبد القادر الجيلي، رضي الله عنه، وهي معروفة.

وأما العرابية فشعبة منها منسوبة إلى الأستاذ سيدي عمر العرابي. وأما المدينية فمنسوبة إلى الغوث أبي مدين. وأما الرفاعية فإلى سيدي أحمد الرفاعي، وكلها شعب من القادرية. وأما القشيرية فإلى الأستاذ أبي القاسم القشيري. وأما الخرازية فإلى أبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز[1].

وأما الجشتية فإلى قطب الدين مودود بن يوسف بن محمد بن سمعان الجشتي. وأما المدارية فإلى الشيخ بديع الدين الشاه مداري. وأما الشطارية فمبناها على عمارة القلب بالتوحيد، ويشغلون المريد بالذكر الجهري، وقد يستعملونه إن كان قوي الاستعداد بفن الدعوة لمشاهدة عجائب آيات الله في ملكه وملكوته، وتنسب إلى الشيخ عبد الله الشطاري.

وأما العشقية فطائفة من الشطارية مبناهم على طريق الفناء المطلق والعشق، وتنسب إلى الشيخ أبي يزيد العشقي. وأما النقشبندية فمنسوبة إلى الخوجة بهاء الدين نقشبند. وأما الغوثية فهي خلاصة السادة الشطار فتنتهي إلى إمام العارفين سيدنا بهاء الدين محمد بن خطير الدين غوث الله صاحب كتاب الجواهر الخمس. وأما الحلاجية فإلى الحسين بن منصور الحلاج. وأما الجنيدية فمعروفة للجنيد. وأما السهلية فإلى سهل بن عبد الله التستري[2] رضي الله عن جميعهم وعنا بهم آمين.

وقد استوفى صاحب الرسالة أسانيده إلى أرباب الطوائف المتقدمة وما تتميز به كل طائفة، فجزاه الله خيراً، وإنما ذكرت من ذلك شيئاً قليلاً لئلا تتشوف نفس الناظر في هذا الكتاب إلى من تنسب إليه هذه الطرق لغرابة أكثرها بقطرنا ما عدا الشاذلية وشعبها، والله تبارك وتعالى ينفعنا بمحبتهم ويرحمنا بالتطفل عليهم بمجرد

---

(1) أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز، متصوف عارف، أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، وتوفي سنة 286 هـ: سير أعلام النبلاء 420:13.

(2) سهل بن عبد الله التستري، من أئمة الصوفية واعلامهم، ولد سنة 200هـ، وتوفي سنة 283 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 400.

الانتساب العاري عن الاكتساب، فهو المتفضل على الإطلاق، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وما ذكر صاحب الترجمة في كتابه المتقدم من استجازته لي شيخنا أبا بكر بن سالم شيخان، رضي الله عنه، فقد وصل إلي بعد ذلك كتاب آخر منه ومعه إجازة الشيخ أبي بكر المذكور، وقد أجازنا فيه واستوفى التعريف بمشايخه وأسانيدهم، ومعه أيضا رسائل أخر لوالده سيدي سالم شيخان، ولنذكر بعض ما يتعلق به الغرض من كتابه هذا، فمن ذلك ما نصه: وقد استجزت لكم السيد أبا بكر بن سالم شيخان فكتب بعد ترددي إليه إلا أنه من جملة ما كتبه في الإجازة سند أبيه في دعاء السفر إلى الخضر عليه السلام، وطلبت منه النسخة المسندة، فوعدني بها مرارا وما أعطانيها لأشغال هو فيها حتى أنه ما كتب الإجازة إلا بعد أن أعنته بكتابة ترجمة شيخنا وأسانيده، ثم قابلتها معه، لكن إن شاء الله أكتب منه النسخة المذكورة وتأتيكم بعد، إن شاء الله، وسأكتب لكم نسختين من أحسن رسائل والده أحدهما تسمى إيوان المقعر الحر في جمع ضوابط الفن، فأوعى، وهي حقيقة بما قال فيها، تغني العارف عن شمس المعارف[1]، وتكفي الماهر عن الجواهر[2]، فإنها اشتملت على قواعد شتى من فن الدعوات وعلم البسط والتكسير وطرف من علم الخافية وفائدة جليلة في مثال وضع الطلاسم، وألحقت في آخرها مثالاً آخر فيه، ورسالة أخرى اسمها حل المغنم في حل الطلسم، جرى فيها على طريقة اختارها في وضع الطلاسم إلا أنه أوضحها غاية الوضوح، رحمه الله، وقد قابلتها على أصله واستجزت لكم الأستاذ محمد الشريف الصديقي شيخ الملا إبراهيم فأجاز لكم بجميع مروياته بإجازته من والده علي الرملي وبما كتبه على محلات من تفسير القاضي البيضاوي وبحاشية والده عليه، وأكدتم على كتابة ما تتشوف إليه النفوس من أخبار بلدنا فما تجدد من الأخبار سوى دوام الستر والسلامة إن شاء الله، نعم حصل في هذا العام مرض شديد بمكة وبقطر اليمن وقباء، ومات خلق كثيرون، فممن توفي إلى رحمة الله تعالى في رابع عشر ربيع الأول الشيخ إسحاق بن محمد جمعان شيخ سيدي علي الديبع، ودفن بزبيد، ومات محبكم الشيخ أحمد بن علي باقشير في النصف الأخير من شهر جمادى

[1] يقصد كتاب شمس المعارف الكبرى للبوني.

[2] يقصد كتاب الجواهر الخمس.

الأولى من سنة 74 العام الماضي، ودفن بمكة. وتوفي الشيخ جمال الدين الهندي النقشبندي ليلة الجمعة، ودفن صبيحتها سادس عشر جمادى الأولى من هذا العام، يعني سنة ست وسبعين، ودفن في البقيع، رحمهم الله تعالى وأبقاكم في عافية كاملة هـ. هذا نص ما أثبته هنا من كتابه لما اشتمل عليه من الفائدة، وفي آخر الكتاب حرر في سابع عشر ذي الحجة سنة 1072.

وأما إجازة شيخنا أبي بكر بن سالم فهي طويلة جدا حسنة غاية، وسأثبتها إن شاء الله آخر الكتاب مع إجازات من أجاز لي من المشايخ في هذه الرحلة، ولنذكر افتتاحها هنا تبركاً به، قال شيخنا قدس الله سره: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المحيط بما منه الذي لا يدرك غيره له كنه، حمدا لائقا بكمالاته الإلهية، جامعاً لمحامده الذاتية، صادراً من عبد الله الجامع في تعلقه بالتخلق للتحقق بنعوت الأسماء ومقتضياته في المظاهر وارداً عنه إليه بلسان جمع الجمع في موكب التجليات الربانية والمحاضر، متصلاً بصفات كمال الجمال، الأول والآخر مستغرقاً بشؤون جمال الجلال، من حضرتي الباطن والظاهر، حمدا معنويا من حيث هو لا إنشائيا ولا إخباريا، أزليا لا جزئيا ولا حكميا، أبديا لا سلبيا ولا عدميا، بسيطا في المقاعد العندية والمناظر ليتضح بذلك للسالك في المشاهد أنه هو الحامد والمحمود بلا ريب ولا شهود، ويعلم علما يقينيا سريان هوى الأحدية في الوجود واحتياز الأثر قي التعلق للمآثر، وارتباط ضمائر سر الألوهية بالموجودة الظواهر. والصلاة والسلام على الرؤوف الرحيم، أصل مبدإ الإنشاءات والدوائر في الأزل القديم المضمحل بنوره عن كل شيء في ليل العدم، المتولي به للفيض الإلهي على القوابل من سوابق القدم، وبالتبعية على الهيكل الموجود بكن، والمصطنع باليدين وكلتا اليدين يمين، وهو الجوهر الفرد الذي لا يسل من حيث هو التسديس والتثمين دار الندوة للشؤون، ومهبط القدس بالفيض المقدس من الغيب المكنون، وهو المقصود بالذات بالمظنون، والمفهوم من العبارة الأوان من الحجارة، وكم لائحة وبارقة في الإشارة، وبعد فإني:

[بسيط]

أهدي لحضرتكَ العلياء تَحملها ريحُ الصبا لتُبث الشوقَ من قِبَلِ

تحيةً هي من نشرِ العبيرِ شذا أذكى وأشهَى لمفتون من القُبَلِ

وقد حثك سيدي باعث ظنك الحسن على طلب الإجازة والسند في الذكر السري والجهري ولبس الخرقة والمصافحة والصحبة والمشابكة واقتفاء ما لأهل الطريق من الآداب والسنن. وفي المرويات من العلوم التي صح اتصال سلسلة سندي به وفيه إلى سيدي والدي وإلى غيره، وإلى التعرض لذكر طرق مما له ولي من منثور ومنظوم والإجازة في الرواية لما من ذلك أمكن.

ولعمري إني لحقيق بالتماس هذا منك، ولجدير بأخذ العلوم واكتسابها بالترقي عنك، وحيث كنت أيها السيد الجليل أهلا لتلبية داعيك ومحلا لإيداع السر الخفي المأمول بناديك، اقتحمت خطر هذه العقبة، واجترعت على الارتقاء إلى تلك المرتبة إسعافاً لما له طلبت، وإتحافاً لما إليه وفيه رغبت مبتدئاً في ذلك بالتراجم المحضة، ثم أتبعها بزبدة الفوائد المتمخضة. هـ.

ثم ذكر ترجمة والده ومشايخه وأسانيده وأطال وأطاب، ثم ترجمة شيخه شيخنا صفي الدين القشاشي، فأجاد وأفاد، ثم ترجمة شيخه السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن شهاب بن عبد الرحمن باعلوي فأوعب وأوجز، ثم ذكر شيئا من نظم والده ونثره، ثم نبذة من نظمه هو ونثره، فمن نظم والده قصيدة همزية في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، مطلعها:

[خفيف]

لك ذاتُ العلومِ والأسماءِ   يا نبيا نوابةُ الأنبياءُ

شرفُ المرسلينَ في القدر أسمى   بك يا من همُ به سفراءُ

عِصمةُ الله فيهم عنك كانت   لم يزالوا بها همُ العصماءُ

سبحة الوجه أنت أنت كريمٌ   أنت في الأصل درة بيضاءُ

سابق الكل في الوجودِ تَنبُّا   قبلٌ لا آدم ولا حواءُ

وأنت خاتم النبيئين فردا   ليس مثلٌ له ولا أكفاءُ

ومنها:

أنتَ أصلٌ لكل أصل فكل   أصل عنك فرعٌ وإن همُ آباءُ

قـــد تبنـــاهمُ بمعـــنى فـــلا غـــر   وَ لهـــذا هــــمُ لــــهُ أبنـــاءُ
هو تاءُ الضمير مـــن كنـــتَ كـــترا   كيـــف ترقـــى رقيـــةُ الأنبيـــاءُ
وكذا الباءُ منْ فبِي كنت يـــا مـــن   فـــوق عليـــاهُ لم تكـــن عليـــاءُ

ومنها:

دروة للكمـــال مركزهـــا الفـــر   د محـــــــــــــيطٌ وراءهُ لا وراءُ

ومن نظم شيخنا أبي بكر قدس الله سره قوله:

[طويل]

أراهمْ معي لا بـــل أرى أنـــني هـــمُ   بنفـــي حلـــولِ واتحـــادِ المكـــذبِ
سلام عليكم أهلَ وديَ مـــا انتـــهى   لمركـــزكمْ دورٌ لـــصدقِ التحبـــبِ

وقوله:

[وافر]

ســـــقى الله العقيـــقَ وســـــاكنيهِ   وعهـــــدا في معاهـــــدهِ قـــــضيتهُ
بشُرب مدامـــة مـــن ثغـــرِ حِـــب   حـــشايَ علـــى مودتـــهِ طويتـــهُ

وقوله:

[وافر]

جرى خلفَ الورى في فهـــمِ مَعـــنى   ولِـــي قـــد صـــانهُ المـــولى العلـــيُّ
وعنـــدي مـــن تـــولاهُ بحفـــظ   وأولاهُ الـــــيقينَ هـــــو الـــــوليُّ

ومما أفادنيه صاحب الترجمة وكتبه لي بخطه رسالة لطيفة لـسيدي ســـالم شيخان في علم الخط المسمى خط الرمل سماها سقط السمط وسمط المرط في علم الخط، وهي مع صغر حجمها مفيدة في بابها. ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه أيـــضا رسالة أخرى لسيدي سالم في مداخل الأوفاق سماها النصر المبين بالتصرف المبين، وهي وجيزة نافعة.

ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه للوصول إلى مقام الطيران والذهاب إلى أي مكان تريد ترتاض 3 أربعينيات بشرائطها من ترك الحيوان، ويذكر كل يوم يا حي يـا قيوم عشرين ألفا يحصل لك ذلك بإذن الله تعالى ومشيئته.

ومما أفادنيه لرؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، في المنام من فوائد السيد جلال الدين نفع الله به، قال: تذهب إلى الماء الجاري ثلاثة أيام بعد الإشراق وتغتسل وتقرأ البقرة وآل عمران وطه ويس، ثم تصلي ركعتين لروح النبي، صلى الله عليه وسلم، تقرأ في الأولى بعد الفاتحة سورة المزمل، وفي الثانية سورة الفجر، وبعد السلام تصلي على النبي، صلى الله عليه وسلم، ألف مرة بهذه الصيغة: يا حي يا قيوم، يا حي حين لا حي، يا حي محي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض، يا إلهي صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد، وتَرَحّم على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وترحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، ثم يغمض العينين ويراقب فإنه يتشرف برؤية جماله صلى الله عليه وسلم.

ومما أفادنيه من خط شيخ شيخنا سيدنا أحمد الشناوي نفع الله به: ترتاض 44 يوماً وتقرأ الفاتحة في كل يوم ألفا وفي كل ليلة ألفا، وتكون متروحنا عن أكل كل ذي روح وما خرج منه صائماً قائم الليل، فإن عرض عليك ملك شيئاً من الدنيا فلا تقبل ولا تلتفت إلى الآتي، ثم بعد أيام يأتونك ويقولون: ما حاجتك؟ فقل: مقصودي نور الهداية. فيقولون: وجهك إلى غيرنا وينصرفون. وبعد أيام يأتون ويقولون: ما حاجتك نحن نقضوها. فقل: ما حاجتي إليكم، حاجتي هو أعلم بها. فبعد أيام يأتيك رجل أعظم صورة وأحسن خلقة فترى الفاتحة مكتوبة في وجهه تقرأ منه كما تقرأ من اللوح، وهو واقف قبلك ويسألك عما تطلب من الله، فاسأله مطلبك ولا تفزع منه، فما هو من الملائكة، بل هو سيد المرسلين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم هـ.

ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه من فوائد السيد مخدوم العالم جلال الدين البخاري قدس الله سره ونفع به للوصول إلى قدم الكرامة والتشرف بزيارة البيت العتيق والطواف به في ليلة واحدة من الأماكن البعيدة، وبزيارة المدينة والروضة المشرفة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والعمل فيه بعد طول ونهى

عن إظهاره (والله أعلم حيث يجعل رسالاته)[1] ومن يختص بموالاته، نسأل الله أن يجعلنا من أهل ولايته بمنه وكرمه.

ومما أفادنيه وكتب لي بخطه: للباسور يكتب في فتيلة ويتحمل بها المريض وهو: شلطيط ملطيط جهلطوط، ويكتب في إناء ويشرب محوا وهو هذا: باسم الله الرحمن الرحيم (ونترل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[2] يا سلغتوت يا غلتوت يا ملغثوت أغث وأزل هذا المرض الذي يسمى باسورا، الله الله الله الله الله الله الله هـ.

ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه لرفع البواسير وزواله بإذن الله: تصاغ حلقة فضة نقية صافية خالصة زنتها قفلة محررة من غير زيادة ولا نقصان، وهي ستة عشر حبة من نواة الخرنوب المتوسطة قبل طلوع شمس يوم آخر أربعاء من شهر صفر، ويختتم بها المريض في يده فإنه يشفى إن شاء الله، وقد أفادني بذلك الأخ الجليل الفاضل النبيل سيدي أبو بكر بن علي باشة الأحسائي عن شيخه سيدنا تاج الدين بن زكرياء العثماني رحمه الله تعالى ونفع به، وقد جربت مراراً فصحت.

وأفادني الأخ الثقة الزكي أحمد بن عبد الواحد المغربي عن الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ عبد الكبير با حميد الحضرمي ثم المكي عن والده، وكان ممن اجتمع بالشيخ تاج الدين فيما يغلب على الظن، أن المريض بالباسور يداوم مع لبسه إياها، أعني الحلقة على قراءة (سبح اسم ربك الأعلى)[3] كل يوم وردا، ولو مرة.

ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه ما نصه: فائدة لطول العمر: يصلي ركعتين يوم عاشوراء ويقرأ هذا الدعاء وهو مستقبل القبلة بحضور قلب سبع مرات، كذا في الجواهر الغوثية. وقال قطب الدين الحنفي: يقرأ عشر مرات. قال سيدنا الغوث: فإن من قرأ العدد المذكور يوم عاشوراء لم يمت في تلك السنة، فإذا دنا أجله لم يوفق لقراءته، هـ. وممن جرب ذلك قطب الدين ووالده علاء الدين. وزاد قطب الدين على ما ذكره الغوث فقال: ينفخ على نفسه في كل مرة من العشر مرات، وأنه إذا قرئ على الأطفال الذين لم ينطقوا ونفخ عليهم القارئ في كل مرة لم

---

[1] الأنعام: 124.
[2] الإسراء: 82.
[3] الأعلى: 1.

يموتوا. قال: ويلقن لمن استطاع منهم النطق فإنه جرب مرارا وما تخلف قط هـ. والفقير جربه، وهذا هو الدعاء: سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش، لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، سبحان الله عدد الشفع والوتر وعدد كلماته التامات كلها، أسألك السلامة برحمتك يا أرحم الراحمين وهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا.

ومما أفادنيه وكتبه لي بخطه ما نصه: ذكر الشعراني[1] أن من الفوائد المجربة لإخراج سم الحية والحنش والعقرب أن يرفع الملدوغ مقدار مثقالين من العذرة بماء أو غيره، فإن السم يخرج من القيء من جميع جسده هـ. وأخبرني الشيخ أحمد بن إسماعيل الأزهري المعروف بالسرطان عن والده الشيخ محمد الحمصاني فعله الملدوغ فشفي من حينه، هـ.

وأفادني، رضي الله عنه، أشياء أخر كثيرة اقتصرت على القدر المتقدم من إفادته جزاه الله خيرا، وقد بالغ، رضي الله عنه، أيام إقامتي بمكة في المواصلة والقيام بالوظائف الدينية والدنيوية، وما رأيت في تلك الديار أكرم منه نفساً وأعلى همة، مع قلة ذات اليد، أردت إعانته بشيء من العرض الفاني فامتنع كل الامتناع، وفي ليلة خروجي من مكة شيعني إلى خارج البلد على رجليه، وتأسف لمفارقتي، وأودعته الدعاء وأودعنيه، وإني لأرجو أن يجعلني وإياه من المتحابين فيه، وأن يجمع الشمل به عن قريب. وقد أمرني عند الخروج من باب إبراهيم أحد أبواب المسجد الحرام بقراءتي (إن الذي فرض عليك القرآن)[2] فقرأتها داخل المسجد، ولما خرجت أمرني بقراءتها أيضا، ثم أمرني بالدخول وقراءتها ثالثة، ثم خرجت وأخبرني أنه مجرب بهذه الكيفية للرجوع إلى ذلك المكان، والله يحقق رجاءنا فيه آمين.

وممن لقيتُه بمكة ممن ينتسب إلى طلب العلم وسلوك طريق القوم صاحبنا النبيل الأسعد الجليل الفقيه المشارك سيدي أحمد بن باقشير[3]، أصله من اليمن،

---

(1) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، ص: 500.

(2) القصص: 85.

(3) أحمد بن علي بن عبد الرحمن باقشير، ولد بحضرموت، ارتحل إلى مكة وبها تلقن ولقن، وانفرد بعلمي الفرائض والحساب، توفي سنة 1075 هـ: خلاصة الأثر 252:1. نشر المثاني 146:2.

وبيتهم بيت علم، وعمه الشيخ عبد الله باقشير من أعلى طبقة فقهاء الشافعية بمكة، وقد انتفع صاحبنا هذا به في علوم كثيرة ولازمه وزوج بنته وبالغ في خدمته، فصار عنده مثل الولد، ولما حل شيخنا أبو مهدي بالحرمين أكثر ملازمته وانتفع به كثيرا، ولم أرَ أحداً من أصحابنا المكيين أكثر منه له ملازمة، سمع معي الكثير مما تقدم عن الشيخ وسمعه أكثر من ذلك في فنون شتى، وانتفع دراية في الأصلين والمنطق، وأخبرني أنه قرأ عليه قراءة بحث وتحقيق شرح العقباني على جمل الخونجي، وقويت رغبته في الأخذ عن الواردين على مكة، فلأجل ذلك سمع مني أشياء واستجازني، وكان يرى لي من الحق أكثر مما كنت أرى له، ويبالغ في التودد والمحبة، ولي فيه اعتقاد صالح ومحبة خالصة، أسأل الله أن ينفعنا به، وقد بلغني خبر وفاته في سنة خمس وسبعين، رضي الله عنه وأرضاه، وتقبل صالح عمله وتجاوز عنه بفضله وكرمة. وأما عمه الشيخ عبد الله فلم يتيسر لي لقاؤه، وكان به مرض وقت إقامتنا هناك مع ضعف الكبر، فقل خروجه وتعذر الأخذ عنه، وقد أخبرني ابن أخيه المذكور أنه ليس عنده من الرواية ما يرغب في مثله، والغالب عليه الدراية، والوقت يضيق عنها، وكان يذكر لي عنه عجبا في فقه الشافعية تقبل الله منه.

وممن لقيته ممن ينتسب إلى الصلاح صاحبنا وأخونا في الله الشيخ سليمان بن شمس الدين الحجار، ولي من أولياء الله حقاً، وصديق فيما أعلم، ولا أقول إلا صدقا، مجهول بين أهل الأرض، معروف في أهل السماء، دؤوبا على الذكر والتلاوة حيثما وكيفما، ما رأيت أعبد منه ولا أزهد ولا أورع، وسبب معرفتي به أني رأيته من يوم قدومنا إلى مكة مسرمداً للطواف بالبيت تالياً للقرآن سراً لا يسمع قراءته إلا من تنبه له، لا يكلم أحداً ولا يقف إليه، ولا شغل له سوى الطواف بالبيت وقراءة القرآن، وأظن أنه يختم كل يوم لأني ترصدته مرات في وقت معلوم فأسمعه في الغد يقرأ قريباً من موضعه بالأمس، إما قبله بقليل أو بعده، وسألت الناس عنه لم أجد خبره إلا عند الخواص، وأخبروني أنه كان في أول أمره معلم الصبيان ثم ترك ذلك واشتغل بالعبادة، فإذا اشتد الحر قرب الزوال وصارت حجارة المطاف كالرصف المحمي انقطع أكثر الناس عن الطواف، وهو في كل ذلك لا يبالي ولا يخرج من المطاف إلا هنيئة قبل الغروب، وأظنه مقدار ما يدخل إلى مترله لطهارة أو عشاء، ثم يعاود الطواف، ولا يزال كذلك إلى أن تذهب طائفة من الليل ويغلب على النوم، فأذهب وهو على حاله في الطواف، فإذا

خرجت إلى المسجد سحراً وجدته قد سبقني إلى الطواف، ولا أدري متى يذهب من الليل ولا متى يعود. وكنت أولاً إذا لقيته وسألت منه الدعاء، ربما أعرض عني إلى أن أنس بي وصار يقبل علي ويدعو لي، وتأكدت الألفة والمحبة بيني وبينه، وعقد لي معه عقد أخوة في الله، وقد رأيت منه خلقا غريباً في أهل وطنه، أعطيته ذات يوم دريهمات، فقال لي: إن كانت من الزكاة فلست من أهلها فأعطها لغيري. فقلت: إنما هي صلة مني إليك. فقبضها مني، ولو أعطيت الزكاة لأغنى غني من أهل الحجاز لقبضها ورأى أنه أحق بها من غيره.

وممن لقيتُه بمكة من أهل الفضل والإيثار والمبادرة إلى الخير والإكثار شيخنا الولي الصالح المشفق على عباد الله الناصح الدين، الناسك والمجذوب السالك، ذو المآثر الغريبة والأحوال العجيبة، سيدي أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد المكناسي الحسني[1] رضي الله عنه وعنا به، رجل ملأ الآفاق ذكره، وعم الوارد والصادر خيره، وسكنت قلوب أهل الدنيا هيبته، وعمر صدور أهل الآخرة محبته، أحبه الله فحببه إلى عباده، واصطفاه فأسكنه خير بلاده، وجعله رحمة لسكان حرمه، ومظهرا من مظاهر جوده وكرمه. كان أصله من مدينة مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى، ونشأ فيها مع أبيه مرموقاً بعين الصلاح من صغره، موسوماً بنوع من البله بين أترابه في كبره، متغلبا في أمور الدنيا، ربما ينبز بلقب يتضاحك منه الولدان، كما هو شأن أسواء الأحوال في كل البلدان، وكان يلقب كأسلافه بالزناتي، وقد ذكر هو أنه شريف حسني إدريسي، وأصلهم من تامسنا، وهي وطن زناتة في العهد الأول، فطرأ أحد أجداده مكناسة على حالة رثة فاستحيى أن ينتسب شريفا، فانتسب زناتيا وعرف به بد ذلك، والله أعلم، وأكثر المغاربة يقدحون في نسبته هذه إذ لم يظهرها إلا في بلاد المشرق، والناس مصدقون في أنسابهم سيما من علمت عدالته كهذا الشيخ. وقد أخبرني الثقة أنه أقسم له أن أباه أوصاه بهذا النسب، قال: ومع ذلك لم أظهره حتى أمرني النبي عليه السلام بإظهاره. وقد جال في واسطة بلاد المغرب، ودخل فاسا وقصر كتامة وما والى تلك البلاد، وغلب عليه التنسك من صغره، وفاجأته الجذبة الإلهية، وأدركته العناية الربانية، فيسر له لقاء الأفاضل، فأخذ عن رجل من الصالحين بمكناسة يسمى سيدي مالك، ولقي بفاس سيدي موسى القاطن بكرنيز، واستمد منهم مدا

[1] تقدمت ترجمته.

قوياً، وأخذ أيضا بالقصر عن سيدي محمد القجايري، وكل هؤلاء كانوا من أهل الحال القوي غير معروفين بالتسليك والتربية، وإنما يتصرفون بالحـال والجذبـة، ولذلك كان هذا الشيخ أسيراً لأحوال، مغلوبا بالواردات الإلهية في كـثير مـن تصرفاته التي حارت فيها عقول المترسمين، وسلمها المحققون منهم، وأذعن لها أهل البصائر النورانية، و لم يزل بالمغرب يتقلب خامل الذكر لا يؤبه به، أشعث أغبر ذا طمرين، لو أقسم على الله لأبَرَّه، إلى أن قادته العناية السابقة والهداية اللاحقة إلى التوجه إلى بلاد المشرق لحج البيت وزيارة الرسول، فتوجه بعد الأربعين وألـف وحج مراراً، وجال في أرض المشرق ورجع إلى مصر ثم إلى الإسكندرية متوجهاً إلى المغرب، فركب في البحر، فألقتهم الريح إلى بر الروم، فدخل القـسطنطينية وانتشر له صيت هناك، وخضعت له رقاب الأمراء، وهو في كل ذلك على مـا أخبرني مسلم للأقدار منقاد له، وإن كانت نيته إلى المغرب، فهتفت به هواتـف السعادة من حرم الله الأمين: أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، فكر راجعاً إلى مكة فاستوطنها في حدود الخمسين إلى وقتنا هذا، فطار صيته في الآفاق، وأقبل الناس إلى زيارته من كل أوب، وأتحفه أمراء الأطراف بالهدايا السنية وفـاخر العطيـة، وحصلت له بمكة وجاهة كبيرة ومترلة خطيرة عند أمرائها، وبث العطاء في العباد، وسال من غيث سخائه كل واد، فعم معروفه أهل مكة الأمراء فمن دونهم، ولا يتمسك من الدنيا بقليل ولا كثير، ولا يقتني منها ملبوساً ولا مركوباً، ما تـزوج قط ولا تسرى، وكان له عبيد وإماء للخدمة في غير الدار التي يسكنها، و لم يتخذ من الفرش سوى حصير يجلس عليه، أو لبد وما يشبه ذلك، غالب لباسه شـتاء وصيفا قميص واحد وكوفية على رأسه، كثر ازدحام الناس عليه إلى أن منع من الخروج، فكان لا يشهد جماعة ولا جمعة، واغتفر الناس له ذلك لما يعلمون مـن حاله، ووجد السبيل بذلك إلى الطعن عليه من لا يعد من أشكاله، ولـه خـبرة بطريق القوم وحكاياتهم وأذواقهم، سيما مشرب الشيخ محي الدين الحاتمي فإنـه يبالغ في اقتناء كتبه ويحض عليها ويفهم أسرارها، وقد غلبت عليه الرحمة لعباد الله والشفقة عليهم، فكثرت شفاعاته المقبولة عند أمراء البلد، وربما يثقل علـيهم في أمور ولا يجدون محيصاً عن قبول شفاعته. وقد تحدث معي يوما في هذا المعنى إلى أن قال لي: إني أرحم جميع عباد الله حتى اليهود والنصارى، ولعلك تنكر ذلـك. فقلت له: إني لست، والحمد لله، ممن ينكر ذلك، ولا أعظم منه ممن صار مظهراً لأوصاف الحق، وقد وسعت رحمته كل شيء، ورحم الطائع والعاصي، والمـؤمن

والكافر في هذه الدار، بل وفي تلك الدار على ما شهدت به بصائر أهل الكشف، إذ ما من عذاب إلا وفي قدرة الله ما هو أشد منه، فلا يخلو أحد من رحمة الله، وإن تفاوتت مراتب العباد فيها. والرحمة التي حرمها الكافرون إنما هي الرحمة الخاصة بالمؤمنين المقترنة بالكرامة والنعيم والرضوان المقيم، فلا يبعد أن تكون منه رحمة أخرى للكافرين مقرونة بالإهانة والنكال والسلاسل والأغلال، فمن ظن انفكاك لطفه عن قدره فلقصور نظره. وكان، رضي الله عنه، لا يُشير بمقاله وحاله إلا إلى الله، ولا يدل إلا عليه، ولا يعبأ بالدنيا وأهلها قلامة ظفر، وقد تقدم شيء من خبره في غير هذا المحل. وقد أخبرني بعض أصحابنا أن له في كل يوم مصروفاً نحو من مائة قرش في أهل مكة، منهم ذو الدرهمين إلى العشرة إلى العشرين إلى أكثر، سوى ما يكون للفقراء والغرباء من خبز ولحم وغير ذلك. وكان بعد أن كثرت حمالته واتسعت دائرته وفشا معروفه في الناس وصار أكثر الفقراء والمنتسبين بمكة عيالا عليه، ربما يقل ما بيده فيستدين، وربما بلغ الدين الذي عليه إلى الخمسين ألفا أو إلى مائة ألف، فيؤدي الله ذلك عنه. وقد أخبرني بعض ثقات أصحابه أنه عذله مرة في كثرة ما عليه من الدين. فقال له: إن الله وعدني أن لا أموت حتى لا يبقى علي درهم واحد لأحد، ولما علم أبناء الدنيا ذلك من حاله فربما يبيعون له إذا احتاج ما يساوي المائة بأضعافها، فيربحون عليه وهو لا يبالي، ومع هذا كله فلا يتشوش فكره من ذلك ولا يختلج في سره شيء من أمور الدنيا، ولا يباشر شيئا من تلك الديون عند أخذها واقتضائها، وإنما كان له أصحاب ووكلاء يتعاطون ذلك، وقد لا يشعر بذلك الدين إلا بعد اقتضائه وقضائه.

وبالجملة فأحواله غريبة لا تنضبط لزمام، إلا أن معيار صدقه هو زهده في الدنيا مع نيله منها بلا كلفة ما عجز عنه أكابر الملوك مع الكلفة والمشقة. وقد أخبرني أنه أخذ بمكة عن سيدي أبي الحسن علي الغماري[1]، وهو أخذ عن سيدي عبد الرحمن الفيلالي وعن سيدي محمد الكومي كلاهما عن سيدي أحمد الفيلالي عن سيدي الغازي رضي الله عنه.

وأخبرني أيضاً أنّه أخذ عن الشيخ أحمد أفندي بأصطنبول وعن بعض السادات الخلوتية، وعن شيخنا صفي الدين القشاشي، وكلهم أجازوه وألبسوه

---

[1] أبو الحسن علي بن ميمون الغماري، متصوف من طائفة تعرف بأهل الخواطر، توفي سنة 1004 هـ: مرآة المحاسن، ص: 303.

رضي الله عنهم. وقد ألبسني، رضي الله عنه، مراراً ولقّنني وصافحني وناولني شرح الحكم[1] لسيدي محمد ابن عباد وقال لي: أجزتك به كما أجازني به مشايخي، ووهب لي النسخة المناولة. وقد من الله علي بملاقاته وزيارته مرارا عديدة مع عزة ذلك على غالب الناس، ربما يجلس أحد أعواما بمكة ولا يصل إليه ولا يراه، سيما إن كان من أهل الجاه الدنيوي، وقد لقيته قبل هذا سنة أربع وستين، وكانت بينه وبين والدي رحمه الله مواصلة غيبية وصحبة روحانية، ولقيته ثاني يوم دخولي مكة للمجاورة في داره وهو متهيئ للخروج إلى الطائف، ولقيته بالطائف أيضا، ولقيته بمكة مرتين أخريين بعد الحج، وودعته يوم الخروج وأحسن وتفضل ودعا، فجزاه الله خيراً آمين.

وممن لقيته بمكة ممن ينبغي ذكره ولا يهمل أمره، صاحبنا النبيه، الفقيه الوجيه، قاضي المالكية بمكة المشرفة وإمام مقامهم الشيخ أحمد بن شيخنا نادرة العصر، وإمام ذلك المصر، القاضي تاج الدين المالكي[2] ورث خطة أبيه في القضاء والتدريس والصلاة دون أخويه، وليس بأكبرهم سنا إلا أنه قد ترشح لذلك بأهليته، له خلق حسن وطبع مستقيم ومروءة ظاهرة ووجاهة باهرة، ملازم لشيخنا أبي مهدي من لدن حياة أبيه وانتفع به، ويراعي له شيخنا حرمة والده فيجلّه ويكرمه، وله مشاركة في الفنون. كتب لي بخطه أسعده الله قصائد من نظم والده رضي الله عنه. وكان والده إمام الأدباء وجمال الخطباء، ووارث فصاحة العرب العرباء، له رواية ودراية في فنون العلم، لقيتُه بداره بمكة سنة أربع وستين، وسمعت عليه بعض الصحيح، وأجازني وكتب لي بذلك خطه، رضي الله عنه وأجله، شيوخه؛ الشيخ خالد بن أحمد الماكي أجل تلامذة الشيخ السنهوري رضي الله عنه، وتوفي شيخنا تاج الدين رحمه الله قرب سنة سبعين. ولنذكر بعض قصائده رحمه الله التي كتبها لي ولده وهذا نص ما كتب لي: الحمد لله، يقول كاتب هذه الحروف الفقير إلى عفو الله الباري أحمد بن تاج الدين المالكي الأنصار عفا الله عن والديه وعنه والمسلمين، أن هذه القصيدة لسيدي الوالد المذكور أسكنه الله مع الحور في القصور، ممتدحاً بها سيد الكونين وإمام الثقلين، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم:

---

[1] شرح الحكم العطائية لمحمد بن إبراهيم الرندي، ابن عباد المتوفى سنة 733 هـ وهو مطبوع.

[2] تاج الدين المالكي، قاضي المالكية بمكة المكرمة وإمام مقامهم، توفي سنة 1070 هـ: نشر المثاني 106:2.

[بسيط]

طالَ المنامُ على أرجُوحــةِ الــصغرِ　　وبالغَ الشيبُ في التحــذيرِ بالنــذرِ
وجيشُ ليلِ الــصبا فــرتْ كتيبتــهُ　　لما أتى جيشُ صبحِ الــشيب بــالبترِ
فاغسلْ بدمعكَ جفنا بات مُكــتحلا　　بنومهِ واكتحَل من إثْمــد الــسهرِ
وانهضْ لتصقلَ مرآة البــصيرةِ مــن　　غينِ الغشاءِ وما للذنب مــن أثــرِ
إن الذنوبَ وإن جلــتْ فــإن لهــا　　إتيان ســاحةِ طــهَ ســيد البــشرِ
فشد حزم المطايــا قــصده وأنــخ　　ببابــهِ والــثمِ الأعتــابَ واعتفــرِ
وقفْ تُجاه شريفِ الوجه منهُ وقــل　　أسندتُ ظهريَ مــن وِزري إلى وزرِ
ولذْ بمــن تفــدُ الأمــلاكُ مُحدقــة　　به كما تحــدقُ الهــالات بــالقمَرِ
ونادِ يا نفسُ هــذا البحــرُ منهلــهُ　　عذبُ الورودِ ورِد صفوا بلا كــدرِ
مُدي شباكَ الرجــا في مَــد لُجتــهِ　　مدى الشباكِ لدى الشباك وأنتظــرِ
واستمطري عينَ سحب الجُود من يده　　واذرفي المدامعَ لا تُبقــي ولا تــذرِ
فهْو الشفيعُ المُرجى يــوم لا أحــد　　سِواهُ يشفعُ من خوف ومن خطــرِ
أســـرَى بــهِ الله لـــيلا ثم قربــهُ　　وأم في ليلة الإســـراءِ كــل ســبرِ
وشرفَ المــلأَ الأعلــى وجــاوزهُ　　بحُب من خلع التــشريفَ في مــررِ
سادَ الخلائقَ من جن ومــن ملــك　　والرسْل والناسَ من بدوٍ ومن حضرِ
كم معجزات له جلــتْ وأعظمهــا　　ما أفحمَ البلغــاء اللــسْن بالحــصرِ
أغناهُ عن مدحــة المُــداح قاطبــة　　ما كان من ذلك من الآياتِ والسورِ
وجاءَ من جاءه مــستغفرا مُحيــت　　ذنوبهُ في الكتــب الــصادق الخــبرِ
وعنــك يــروى صَــلاة دائمــة　　عليكَ يا صادق الأقوال مــن بــررِ

فيا نبي الهُدى وفيت مرتجيا ... منك الذي جاء في القرآن والأثر
أرجوه منك ومالي غير حبك قد ... جعلته في معادي خير مُدخر
حب أزِمتهُ قادتْ إليك فتى ... طوى بأيدي المطايا شقة السفرِ
جاب المهامِه من سهل إلى جبَل ... شوقا لمنظرِ تلك الروضة النظِر
وها أنا الآن ضيف قد حللتُ بها ... والضيف يُقرى وأرجو أن يكون قرِ
ولي مطالب حسبي العلم منك بها ... إذ أنت أدرَى بما في النفس من وطرِ
فامنن بها من ذرى عطف على وجل ... بالباب يرجفُ من خوف ومن حذرِ
ما زال يطمعهُ[1] طورا ويؤيسهُ ... حسنُ الرجاءِ وذنبٌ قاصِم الفِقرِ
فامْحِ الإياسَ وحَققْ في الرجا طَمعا ... وافتح بحُسن ختام آخر العمُرِ
واشفعْ تَشفَّعْ وقل نسمعْ ومنَّ بما ... للقلبِ والعينِ من سُؤل ومنتظَرِ
واقبلْ هديةَ ذي فقرٍ لرب غِنى ... يرجو خزائنَ ذي جود لمفتقِرِ
أذابَ تِبر المعاني ثم أبرزَها ... في اللفظِ مُفرغة من فوطة الفكَرِ
لولا صفاتُك لم تصبحْ قوالبُها ... تُضيء كالزهرِ في الأفلاكِ والزهرِ
بها تَطفل تاجُ دُره صدقا ... فكلل التاج يا ذا التاج بالدررِ
أنتَ جواهرُ تاجِ التاج تفصحُ عن ... تاريخها وهْو وجهٌ أبلجُ الطررِ
والظن أنك قد حليتهُ فلقد ... أتى بذا شاهدٌ حي بمعتبرِ
فيهِ دليلٌ بنيلِ القصدِ أجمعهِ ... يا من مُرجيهِ بالمأمولِ منه حرِ
دامتْ صلاةُ صلاة كل آونة ... تزف وهْي من الأملاكِ في زُمرِ
تَغْشاك والآل والأصحاب ما عذُبتْ ... أرواحنا بشَميم الروضة العطِرِ

---

[1] في ط: يطعمه.

هـ.

وكتب لي أيضاً ما نصه: ولسيدي الوالد المرحوم المتقدم ذكره يمتدح سلطان الحجاز وابن سلطانه الذاب بفيضه وسمره عن غنيه وصعلوكه، مولانا السيد الشريف ذي الحسب الباذخ المنيف، إدريس بن الحسن[1]، ويتشكر منه على تمكينه من وظيفة الخطابة وإلباسه القفطان يوم مباشرتها سنة 1028.

[طويل]

زها بك دستُ الملك والتاجِ والعقْدِ ... غداةَ إليك الحل أصبحَ والعقدُ

مُطاعا بعطفِ الله بعدَ رسُوله ... أولي الأمر فالعاصي لأمرك مرتد

أبا شَرف إدريس مُنتخب العلا ... أبى الشرفُ الوضاحُ غيرك والمجدُ

لقد خطبتْ شمسُ الخلافة بدرَها ... فقارنتها في الأوْجِ والطالعِ السعدِ

قنصت العلا بالترهيبة واللهى ... كما شركاها لا الأماني ولا الوعد

وقمتَ بعبءٍ آذ غيرُك حملةُ ... منالُ المهاوي ليسَ تدركةُ الرفدُ

وشرفتَ دستَ الملك حين حللتهُ ... ومرقاك المرقاة والفرس النهدُ

فكنتَ به إدريسُ إدريسَ إذ رقا ... مكانا عليا خَصه الصمدُ الفردُ

وكنتَ ولم تفتْ سليمان إذ دعا ... فأوتيتَ ما لا ينبغي لفتى بعدُ

وما لم ينلهُ غير آبائك الألى ... ربوعَ الندا شادُوا وأزرَ العُلا شدوا

ملوكهم الأنياب للملك والسدى ... إذا نسبوا كانوا الزوائد أوعد

توّلوا وأفضَى مُلكهم لمُحجب ... تَصَادم تيجانُ الملوكِ إذا يبدو

تأخرَ عصرٌ فاستزادَ من العُلى ... كما زادَ بالتأخيرِ ما ترقُم الهندُ

وأصبحَ عُطلا جيدُ من رامَ عقدها ... سواهُ وأضحى يستضيءُ به العقدُ

---

[1] إدريس بن الحسن بن محمد بن بركات، أمير الحجاز، ولد سنة 974 هـ، ولي بعد أخيه طالب سنة 1011 هـ، وتوفي سنة 1034 هـ: خلاصة الأثر 3:288. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 338.

تفردَ طُود المُلــك بالمَجــد جامعــا مزاياهُ فهْو الجــامعُ العلــمُ الفــردُ
رأى إن عرتــةُ خلــة منــه خلــة فصيرهُ قــصرًا عليــه فــلا يعــدُ
فيا ملكا بالفــضلِ أذعَــن ضــده وما الفضلُ إلا ما أقــر بــه الــضدُ
بك الدستُ يزهو يومَ سلمَك البرد ويوم الوغى يزهو بك السرج والشرد
وما زلتَ في حاليْك سِلما وضــده عليك رواقُ المجــدِ يُرفــع والبنــدُ
فيشقى به الجَــاني ويــسعدُ مخفــق ويأمنُ مطــرودٌ وترهبــك الأسْــدُ
إذا بيَّت الأعــداءُ أمــرا تــضاءلتْ لدى خطبه الآراء واســتتر الرشــد
وتَرْت قويمَ الفكر قوســا لــوترهم وأنفذتَ سهم الرأي لــيسَ لــه رَد
وحكّمتَ فيهم عَاضبا غــير مُغْمــد من العزمِ لم يلــهم لــه أبــدا حَــد
وقُدت من الوفــد الجِيــاد مقاتبــا إذا طُلبت يــدنو بتقريبــها البعــدُ
وغل إلى الأعنــاق يــرى بطــشهم من الرعبِ جيشٌ لا تُشام له جنــدُ
فأحياؤهم في الأرض مــوتى كأنهــا عليهم وقد ضاقت بما رحبت لحــد
ســجايا أبي فــلا يجــار طريــده ولا راع يوما جــار عقبتــه طــود
ملك هــو الطــود الأشــم للاتــذ هو البطل المطعان والأســد الــورد
جوادٌ لــه في المــال صــولة تــائر تحكم في الجــاني وأحفظــه الحفــد
صرت نحونا بالوفــد كــل تنوفــة نجاة نجد الأرض مــن حرهــا خــد
وصاد فلم يفقــد مرامــا فجــوده فقل عوضا عن جاد قد فقــد العــد
هو البحرُ عذب للمــوالي وللعــدا عذاب لهم مرنجــة الحــزن والــد
هو الغــوث يهمــي للــولي وليــه فينبــــتُ إلا أن منبتــــه الحمــــد
تعدو العدا والسم سمهــا في لهابــه وتبلغها منــه الــصواعق والرعــد

أخا الجود قد قلبت الجود ودونها | تقلبت أعناق والمطامع تنفد
وأمطيتني من كاهل العزم مركبا | ترين ذكا كالغور صهوته النجد
ينافسني قوم شارت وقصروا | وما كضليع ضالع خلفه يعدو
ويبخس منهم در نظم زعانف | فوا عَجبا من أين للنقدى والنقد
سماء سمات الفضل لقطى نجمها | ولم يخفهِ ألا ترى ضوءه الرمد
وإني كما خلوتُ أهلي ولم أكن | كفوا مسودا إنما أسعد الجد
ولست به لا عين أسمو وإن يكن | هو الفخرُ يوم الفخر والشرف الفد
ولكن بنفسي والعبدية التي | بها شرف الآباء من قبل والجد
وإني لأرجُو منك ما نالَ من مضى | ولا عجب إن عز بالسيد العبد
بقيتَ بقاء الدهر فينا مملكا | بك التاجُ يزهو والغلائل والبرد

وله أيضا رحمه الله مؤرخا سكنى سيدنا ومولانا السيد الشريف الهمام الغطريف[1] سلطان الحرمين الشريفين مولانا السيد الشريف محسن بن حسين[2] دار الخلافة لما صارت إليه في أول ولايته، وذلك في سنة أربع وثلاثين وألف:

[سريع]

بشراكِ دارَ الملك قد صرت في | حوزة سُلطان الملوك العظيم
من أصبحت من وطء أقدامهِ | رؤوسنا تغبطُ منك الأديم
ملك زهت أم القرى عندما | أصبح للملك الكفيل الزعيم
إن ممشاه بها في بطحى فاح من | أفنيته كافور البطاح الشميم
يكادُ من عرفان كفيه أن | يمسكهُ البيت والركن الحطيم

(1) الغطريف: السيد الشريف السخي: لسان العرب: غطرف.
(2) محسن بن الحسين بن حسن، أمير الحجاز، ولد سنة 984 هـ، استقل بأمر الخلافة سنة 1034 هـ، توفي سنة 1038 هـ باليمن: خلاصة الأثر 3:309. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 340.

فرعٌ زكي مـــن دوحـــة المـــصطفى | أكـــرمِ بفـــرع وبأصـــل كـــريم
فخـــر بـــني عبـــد منـــاف وهـــم | فخرُ بـــني الـــدنيا أســـاة الكلـــيم
ســـهم وفي الوعـــدِ ذو فطنـــة | إدراكها يكفـــي الكـــلام الكلـــيم
مطـــاع حكـــم نافـــذ أمـــره | حتمـــا بتتريـــل حميـــد حكـــيم
شبت كهـــولٌ عنـــده مثـــل مـــا | شاب برعب منـــه فـــود الفطـــيمْ
أمـــد بالرعـــب فأعـــداؤه | عنـــدهم المقعـــد منـــه المقـــيم
يـــرد عنـــهم كيـــده خوفـــه | ســـهم مـــن قـــوس رأي قـــويم
والبيضُ والـــسمر ومـــن فـــوق ذا | وقايـــة الله الـــسميع العلـــيمْ
تـــبلجَ الملـــك بـــه مـــشفرا | عـــن طلعـــة غـــرا وأمـــر وســـيم
واعتـــدل الدســـت بـــه وازدهـــى | غـــداة أضـــحَى ملكـــه مُـــستقيم
وتـــاهَ قـــصر الملـــك مـــذ حلـــه | كالروح حلت جسمَ عظـــم رمـــيم
كـــل مهنيـــك بمـــا نلتـــه | قصر العلا مـــن ذا يـــسل الغـــديم
بـــشراك ألبـــست ثيـــاب البـــها | والعـــز والـــسعد الـــذي لا يـــريم
عـــز حكـــى التـــاريخ تأييـــده | إذا صـــح فيـــه بيـــت در نظـــيمْ

وله أيضاً سامحه الله معارضا بها قصيدة لبعض فضلاء عصره ممتدحا سلطان الحجاز السيد الشريف مسعود بن المرحوم إدريس بن حسن[1] رحمهم الله آمين:

[بسيط]

غُديت ذُر التـــصابي قبـــل مـــيلاد | فلا ترمْ يـــا عـــذولي فيـــه إرشـــاد
غي التصابي رشـــادٌ والعـــذاب بـــه | عذب لدي كبرد المـــاء للـــصادِي

---

[1] مسعود بن إدريس بن الحسن، أمير الحجاز، ولي سنة 1039 هـ، توفي سنة 1040 هـ: خلاصة الأثر 240:1. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 344.

وعاذل الصب في شرْع الهوى حرج يـــرومُ تبـــديل إصـــلاحِ بإفـــسادِ
ليت العذول حوى قلـــبي فيعـــذرني أو ليت قلب عذُولي بـــين أكبـــادِي
لو شامَ برق الثنايـــا والتـــثني مـــن تلك القدود انتهى من عطف الأســـعادِ
ولو رأى هادي الجيـــداء كـــان درا أن انشقاقَ الهُدى مـــن ذاك الهـــاد
كم باتَ عقدا عليه ساعدي ويـــدي نطـــاق مجتمـــع المخفـــي والبـــادِ
إذا عين العـــين لا تنفـــك طاميـــة لـــو رد مـــاء شـــبابي دونَ أنـــداد
فيا زمنَ الصبا حييـــت مـــن زمـــن أوقاتـــهُ لم نـــرع فيهـــا بأنكـــادِ
ويـــا حبتنـــا زوى تعاهـــدكم في العهـــادِ ســـنون رائـــح غـــادِ
معاهـــدكن مـــصطفاي ومرتعـــى وكم لها طال بل كم طالَ تـــردادي
فيا راحلـــينَ وقلـــبي إثـــر ظعنـــهم ونازحينَ وهـــم ذكـــري وأورادي
إن يطلبوا شرح ما أيدي النوى صنعت بمعروف حلـــف لا عـــاس وإيجـــادِ
فقابلوا الـــريح إن هبـــت شـــامية تروي حديثي لكم موصول إســـنادِ
وا لهفَ نفسي على مغـــنى ســـلمت أيام صـــفو لنـــا كانـــت كأعيـــادِ
كأنهـــــا واد أم الله مــــشبهها أيام دولة صـــدر الدســـت والنـــادِ
ذو الجود مسعود المـــسعود طالعـــهُ لا زال في بـــرج إقبـــال وإســـعادِ
عـــادت بدولتـــه الأيـــام مـــشرقة تهتـــز مختالـــة أعطـــاف ميـــادِ
وقلـــد الملـــك لمـــا أن تقلـــده فخرا علـــى مـــر أزمـــان وآبـــادِ
وقـــام بـــالله في تأييـــده فغـــدا موفقـــا حـــال إصـــدار وإيـــرادِ
حق لك الحمد بعـــد الله مفتـــرض في كـــل آونـــة مـــن كـــل حمـــادِ
أنقذتم مـــن يـــد الأعـــداء متخـــذا عنـــد الإلـــه يـــدا فـــيهم بأنجـــادِ

داركتهم سهدا رفقا فعادلهم غمض بجفن وأرواح لأجسادِ
بشراك يا دهر حاز الملك كافله بشراك يا دهر أخرى بشريف بادِ
عادتْ نجوم من الزهراء لا أفلت لعودة الدولة الزهر المعتادِ
وأخضل روض الأماني حين أصبحت الآجواد عقدا على أجياد أجياد
وأصبح الدين والدنيا وأهلهما في حفظ مالك أهل العدل ميداد
مبيح هام الأعداء من صوارمهِ ما استحصدت بالتعاص كل حصاد
شهم أيادي أياديه ونائله على الورى أصبحت أطواق أجيادِ
يفضي يعمم جود راحتيه إلى طلق المحيا كريم الكف جوادِ
بذل الرغائب لا يعتاده كرما ما لم يكن غير مسبوق بميعادِ
والعفو عن قدرة أشهى لمهجته صينت وأشفى من استيفاء إيعادِ
مآثر كالدراري رفعة وسنا وكثرة فهي لا تحصى تعدادِ
تسمو مناقب من كل الكمال حوى وأنت ذلك عن حصر بأعدادِ
وأنت من معشر إن غارت أو عرضت جبر إليها وفي النادي كأطوادِ
كم هزمة لك والأبطال محجمة ووقعة أوقفت ليث الشرى العادِ
بكل أبيض مقصود لمصطهر وللمرائر والمرار قصاد
فخر الملوك الألى فخر الزمان بهم ذُم حائز ملك آباء وأجداد
واستحل أبكار أفكار مخدرة قد طال تعنيسها في فكر نقاد
كم رد خاطبها حتى رأتك وقد أمتك خاطبته يا نسلَ أمجاد
أفرغت في قالب الألفاظ جوهرها سبكا بذهن ورى الزند وقادِ
وصاغها في معاليكم وأخلصها ود ضميرك فيه عدل إشهاد

يحدو بها العيس حاديها إذا زمت | من طُول وجد وإرقال وإسهاد
كأنها الراح بالألباب لاعبة | إذا شذا بين سما ربها شادِ
بفضلها فضلاء العصر شاهدة | والفضل ما كان عن تسليمِ أضداد
فلو عدت من حبيب في مسامعه | أو الصفى استحال بعض حسادِ
واسترلا عن مطايا القول رحلهما | واستوقفَ العيس لا يحدو بها الحاد
وحسبها في التسامي والتقدم في | عد المفاخر إذ يعدو لتعدادِ
تقريضها عندما جاءت معارضة | عُوجا قليلا كذا عن أيمن الواد

هـ.

وله رحمه الله ملغزا في مسألة فريضة:

[بسيط]

إليكمُ معشرَ الفُراض مسألة | تدقُّ إلا على من كان ذا ملكةْ
أبٌ توفي عن بنت فقط فحوتْ | بالإرثِ سبعة أثمان من التركةْ

وسئل، رحمه الله، عن حل لغز لبعض علماء البصرة، وصورة اللغز:

[خفيف]

أيها المدعي التصرفَ في صر | ف ومن تهتدي به الفصحاءُ
قل لنا أي صيغة ليسَ فيها | من أصولِ الحُروف إلا الفاء
وهي مع ذا حروفها[1] أربع ليـ | ـس بها مرية ولا افتراء
وإذا ما أردت زدت مثليها | عليها واللفظ فيها سواءُ
ليس فيها من النواصب شيء | لا ولا جازم فماذا البناء

فأجاب سامحه الله عن ذلك بقوله:

---

[1] ساقط من ط.

[كامل]

يـــا فاضـــلا في جَامعيـــة فـــضله | لا خلفَ بـــين مُفـــصل أو مُجمـــلِ
طارَ حتى بالفحص عما فيـــه ألغـــز | ناظما كـــتر العـــلا عبـــد العلـــي
وطلبت كشفَ غطا محاسن وجهـــه | فخذِ الجواب ونـــصهُ مـــن مقـــولِ
مهما رأيت تـــرى بنـــون مؤنـــث | قـــد باشـــرته فإنـــه لا ينجـــلِ
وإذا انجلى لك ما أراد فاسأله عنـــه | لغـــز يحـــير فكـــرة المتأمـــلِ
اســـم إذا صـــحفت بنيتـــه تـــرى | عددَ المسمى عنـــد أهـــل الجمـــلِ
لازلتمـــا بحـــرين تظفـــر فيهمـــا | بجواهر تـــسمو علـــى دُرر الحـــلِ

وقد تأملت ما ألغز فيه شيخنا آخر هذه الأبيات فوقع في نفسي أنه لفظ عام أو حول، لأنك إذا صحفت لفظ بنيته صار سنة، ونقطتها على حساب المغاربـــة ثلاثمائة وخمس وخمسين، وهي عدد أيام السنة العربية القمرية. وإن شئت قلـــت صار بعد التصحيف شنة بالشين المعجمة، ونقطها على حساب المشارقة كذلك، ويحتمل أن يكون اللغز في السنة مفرد السنين، ويكون المراد ببنيته لفظ السنة، أي حروفها، إلا لفظ بنيته كما في الوجه الأول. ولا شك أنك إذا صحفت سنة صار شنة بالشين المعجمة، ونطها على حساب المشارقة عدد أيام الحول المسمى بالسنة.
قلت: وسئل أيضا رحمه الله عن قول القائل:

[كامل]

سَلمْ على شيخِ النحـــاةِ وقُـــل لـــه | عندي ســـؤال مـــن يجيبـــهُ يعظـــمِ
أنا إن شككتُ وجـــدتموني جازمـــا | وإذا جزمـــتُ فـــإنني لم أجـــزمِ

فأجاب سامحه الله عن ذلك فقال:

[كامل]

أعـــدِ الـــسلامَ لـــسيبويْه زمانـــهِ | واذكُر له قبـــل الجـــوابِ المُحكـــمِ
أني مجيبـــك شـــارطا أن تلقـــي | السمع المـــصيخ إصـــاخة المـــتفهم

وإذا وفيــت بــه فجــزم صــادق حصل الجواب به لــدى المــستدم

فمتى عراك الشك فيه جزمت مــع شك وإن تكــن جازمــا لم تجــزم

فاجزم ولا تجزم واشــكك جازمــا تر كيف صحة جزم مــن لم يجــزم

قلت: فإن يكن جواب اللغز ما ذكرته، فقد نظمته في أبيات في وزنه ورويه وهي هذه:

[كامل]

يا منْ له الوجــهُ الجميــلُ ومنطــقٌ منهُ اســتعارَ جميــلَ بعــض تجمُّــلِ

صحف بنيتــه يــا جميــل فعنــدها من قصدك المكنــون كــل مؤمــل

تصحيفها المعــدود ألــف منــه في وصل كتــصحيف بكــسر الأول

عش منه قرنا بعــد قــرن صــاعدا رتب الكمال إلى المقــام الأكمــل

أردت بالبيت الثالث أن تصحيف شنة سنة بفتح السين وألف سنة في وصال الحيا بها كسنة بكسر أولها.

ولنذكر بعض ما قيدته بمكة من كتب غريبة عثرت عليها فيها، فمنها: رحلة الشيخ المحدث محمد بن رشيد السبتي، رأيت منها عدة أجزاء بمكة عند شيخنا أبي مهدي، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق، وعلى هذه النسخة خط المصنف في أماكن[1]، وخط تلميذه الإمام عبد المهيمن الحضرمي، وكانت النسخة ملكا له، وهذه الرحلة كثيرة الفوائد العلمية، فمنها قال: أخبرني بعض الشاميين من أهــل العلم بالروضة الشريفة يوم الجمعة قال: حكى لي أبو بكر بن العربي الحاتمي الطائي أنه قال: كنت هنا يوماً فجاء رجل فقال لي: أنت ابن العربي؟ فقلت: نعم. قال: أنت الطائي الحاتمي؟ قلت: نعم. فقال: أنت الفتى الذي تزعم أنك تخبر عن الله؟ فقلت: نعم. فقال: فما قال لك؟ قال: فرمت أن أنطق فلم أطــق، فعلمــت أن صاحب الحال يقطع صاحب المقال.

---

[1] أشار الأستاذ أحمد حدادي في دراسته لرحلة ابن رشيد أن العياشي "قد قرأ النسخة التي كانت في مكتبــة الحرم الشريف، ويرجح أن تكون كاملة لما فيها من إفادات بعضها لا يوجد في أجزاء الرحلة المعروفــة": رحلة ابن رشيد 225:1.

ومنها قال: "ولما وافينا ينبع خرج مغنون بأصوات طيبة عذبة يرددون هذه الأبيات ويحيّون بها القادمين ويحيّون نفوسهم الميتة بطيب تلك النغمات"[1]:

[خفيف]

أيهــا القــادمونَ أهــلا وســهلا	كيف نجد وكيــف بــانُ المُــصلى؟
كيــف خلفــتمُ العقيــقَ وســلعا	وقُبــا والنقــا ومــن ثم حــلا؟
فأجــابوا لله مــا كــان أهنــا	زمن الملتقــى ومــا كــان أحلــى

قال ابن رشيد: "لله درهم حادوا عن الجواب، لما رأوا أنهم لا عذر لهم في الإياب [...] وينبع عن يمين رضوى، ولمن كان منحدرا من المدينة إلى البحر [...] روي أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صلى في مسجد ينبع"[2]، وهو من حديث محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم هـ كلامه.

قلت: يفهم من كلام ابن رشيد: لله درهم، أن كيف في كلام السائل للإنكار والتوبيخ عن الرجوع من تلك الأماكن، وكيف طابت نفوسهم حتى خلفوها، وليس في الكلام ما يدل على ذلك، بل يمكن أن تكون للسؤال حقيقة عن تلك الأماكن على وجه التحسر والتحزن والاشتياق إليها كالتي قبلها. وإذا كان كذلك فالجواب مطابق لأنه إخبار بما يزيد في شوق السائل وحنينه إلى تلك المعاهد.

وأما مسجد ينبع فقد ذكر السيد السمهودي أنه من المساجد التي صلى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وأنه مسجد القرية التي ينزلها الحاج، وقد ذكر أهل السير أن النبي، صلى الله عليه وسلم، وصل إليها في إحدى غزواته[3]. وأما الأبيات المتقدمة فقد اشتهرت بين أدباء المغرب في قرب ذلك العصر وعارضها بعضهم وذيل عليها آخرون، وممن ذيل عليها الأديب البارع أبو بكر محمد بن الحسن بن

---

[1] ملء العيبة 5: 277.
[2] ملء العيبة 5: 279.
[3] وفاء الوفا 3: 218.

يوسف بن الحسن ابن حَبيش اللخمي الزاهد[1] نزيل تونس المتوفى بها سنة سبع وثمانين وستمائة.

قال العزفي[2] بعد التعريف به وذكر جملة مستكثرة من نظمه ما نصه: وأنشد بعض حجاج المغاربة هذه الأبيات فذكرها وذكر له أنه سمعها بالبقيع وسأله أن يزيد عليها فقال رحمه الله [3]:

[خفيف]

حيثُ روضُ النعيم بالأنسِ يجنى ... وعروسُ السرور بالسعدِ تجلى
حيثُ دار الحبيبِ تدعى سماء ... والذي حجبت من الشمسِ أعلى
وحلى حمده من البدرِ أبهى ... وعُلا مجده من الصبح أجلَى
من رأى ذلك المَحل المحلى ... كيف بالصبرِ بعده يتَحلى
كيف يدنُو إلى دَنية دنيا ... من له ذلك الجَلال تجلى
أجميلٌ ينسى بثينة أو يرضى ... بذاك الجمال دَعدا وجملا
أو لقيس لُبانة غير لبنى ... أو يرى عروة لعفرا مثلا
أو يزيد سوى حُبابة يهوى ... أو كثير عن عَزة يتسلا
ويح صَاد أبيح وردا بصدى ... إن حلا فهو بالفراق يَحلا
أصعب الهجر في المَحبة هجر ... ذاقهُ الصب بعدما ذاق وصلا
يا أحبتنا وللعذر يعزى ... من تعزى على النوَى أو تسلا
طيبة الطيبينَ قدس منها ... مترل هيئتْ به الخلد نزلا
ضاعَ ريا وضاء رويا فقلنا ... زهر طالَ أو صباح طلا

---

[1] أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف ابن حَبيش اللخمي، من شيوخ ابن رشد، توفي سنة 687 هـ: نفح الطيب 311:4.

[2] أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد العزفي السبتي، من فقهاء سبتة وعلمائها الكبار، توفي سنة 716 هـ: شرف الطالب، ص: 102. لقط الفرائد، ص: 174.

[3] رحلة ابن رشيد 467:2.

بعد وادي العقيقِ لا شهد يحلو لا ولا مشهَد بعيني يحلا

مهلا كان رشفةُ أو يروى وظمائي يزيدُ لو كان علا

ليس لي غير حُب أحمد ذخر ليسَ يبلى إذا السرائرُ تبلا

هو لي في قبري وحرشي كما قد همت فيه شيخا وكهلا وطفلا

ليس إلا مُحمد قيل فيه سَيد الخلق وحده ليس إلا

مصطفاه أحبه وحباهُ بخصال حَازت من السبقِ خصلا

ما عسى ينتهي له كُل مثن والمثاني بوصفِ علياه تتلا

ما تنسمت بعد ذكراه مِسكا ما تعرضت بعد جدواه وبلا

قلبوا القلبَ تبصروا فيه للرو ضة والأقبر الثلاثة شكلا

واقرأوا للهوى بخدي طِرسا كتب الدمعُ فيه ما الشوق أملى

يا محب الرسولِ هذا ثراه عَفر الخد حيثُ أوطأ نعلا

وقبول الصلاة والصوم إن رمت فحاوله حيث صامَ وصلى

هاك يا ربعَ الأحبة مني أربعا أمنت مُحبك محلا

مقلتي مُزنة وحيي روضا وقريضي ورقا وصَدري ظلا

ثم أطال فيها وهي كلها سلسة غريبة المناحي رائقة الألفاظ عذبة المعاني.

ومنها قال: و"وافينا من ينبع [...] المُغَيَّرَة ماء يحتفر في أحساء، وضبطُ هذا الاسم مفعلة بفتح الغين من التغيير"[1].

قلت: والماء المذكور يسمى في هذه الأزمان نبط، وقد تقدم في محله، وما ذكر في ضبطه أن كان من التغيير كما قال، فيكون مفعلة بفتح الغين المعجمة وتشديد الياء اسم مفعول، والذي ينطق به الكافة في أمثالها وهي كثيرة، ومُغَيْرة

(1) ملء العيبة 5:279.

بفتح الغين المعجمة وياء ساكنة خفيفة، تصغير مغارة من الغور، وهو الأنسب بالأمكنة المسماة بهذا الاسم، والله أعلم.

ومنها قال: "مغارة شعيب [عليه السلام، و] هي ماء مدين [ومدينٍ] بلد جذام، ويروى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال لوفد جذام: مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى، ولن تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له[1]"[2]. ومدين الذي سميت به أحد بني وائل بن جذام.

ومنها قال: "ورحلنا من نُخَيل ضحى يوم الأربعاء [...] إلى موضع يعرف بالقباب وافيناه ضحى يوم الخميس [فقِلنا هناك، و] فيه مصانع للماء كثيرة في جباب مقبوة، وفيه غدُر"[3]. وأنشد في وصف تلك الليلة[4]:

[بسيط]

ليل كأن مداه عكس أحرفه ليل وليل فلا طول ولا قصر

قلت: ولا أثر لشيء مما ذكر من المصانع والجباب في وقتنا هذا في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية. وأما البيت الذي أنشده فليتأمله العارف بمقاصد البلغاء هل يدل على طول الليلة وشدتها، أو حسنها واعتدالها، وهو إنما ساقه مساق الدلالة على طولها وشدتها، ولم يتبين لي الآن وجه ذلك، والله أعلم.

ومنها[5] أنه نظر في قول ابن الصلاح وغيره أحاديث الصحيحين مقطوع بها بأن علماء الشأن لم يزالوا يرجحون بعض أحاديثهما على بعض باعتبار رجاله

---

[1] نص الحديث كما ورد في المعجم الكبير: حدثنا أبو خليفة، ثنا الحسين بن محمد بن سعيد الكرابيسي المعروف بشعبة، وكان يجالس علي بن المديني، ثنا حفص بن سلمة بن حفص بن المسيب بن شيبان بن قيس عن قيس بن سلمة عن سلمة بن سعد ثم أنه وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وجماعة من أهل بيته وولده، فاستأذنوا عليه، فدخلوا فقال: من هؤلاء؟ قيل له: هذا وفد عنزة، فقال: بخ بخ صحيح البخاري، نعم الحي عنزة، مبغي عليهم، منصورون، مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى، سل يا سلمة عن حاجتك. قال: جئت أسألك عما افترضت علي في الإبل والغنم والعنز، فأخبره. ثم جلس عنده قريبا، ثم استأذنه في الانصراف فقال له: انصرف فما غدا أن قام فقال اللهم ارزق عنزة كفافا لا قوت ولا إسراف: المعجم الكبير 7:55.

[2] ملء العيبة 5:279.

[3] ملء العيبة 5:279.

[4] ملء العيبة 5:279. ويشير الشاعر في البيت إلى أن كلمة ليل تقرأ من اليمين إلى الشمال كما تقرأ من الشمال إلى اليمين بذات المعنى.

[5] ملء العيبة 5:330.

وبغير ذلك من وجوه الترجيحات النقلية، ولو كان الكل مقطوعا به ما بقي مسلك للترجيح فهذا يعارض الإجماع الذي استقراه ابن الصلاح وبأن الأمة إذا أجمعت على ظن شيء إنما يلزم أن ذلك الشيء مظنون لا موهوم أو مشكوك أو معلوم. هـ قلت: أما قوله: وبأن الأمة إلخ، فقد قال جماعة من الأصوليين أن ظنهم لا يخطيء، وإذا كان كذلك فيفيد القطع. وأما الترجيح المذكور فيقال عليه إن كان باعتبار الرجال فلعله قبل انعقاد الإجماع أو عند من لم يتفطن له و لم ينتبه، إذ ليس هذا من الإجماعات المشهورة المعلومة لكل أحد، أو نقول لتلك الأحاديث جهتان: جهة نقلها آحادا، وجهة الإجماع عليها بعد النقل، فمن نظر إلى الطريق الذي نقلت به واقتصر عليه و لم يلاحظ كونها مجمعا عليها بعد نقلها بطريق الآحاد أمكنه الترجيح بينهما، فإذا لاحظ كونها مجمعاً عليها بعد ذلك ارتفع الترجيح. وأما إن كان الترجيح بغير اعتبار الرجال فلا يضر في كونها مقطوعا بها كما علم من محله، فليتأمل.

ومنها قال: "وضايقت شيخنا الشرف الكركي في تحقق الكسب فآل كلامه إلى أنه إطلاق لغوي من حيث أن العبد صدر منه ذلك الفعل، يعني على وجه الاختيار في الظاهر، فنسب إليه وأنه في الحقيقة مجبور، وهذا الذي قاله ليس بحث الأشعريين عنه"[1]. والكركي هذا شريف إدريسي ولد بفاس وقرأ بها على أبي محمد صالح، ثم انتقل إلى المشرق وقرأ على عز الدين ابن عبد السلام وأخذ على العبقوي، وهو الزكي عبد العظيم المنذري بن القوي المنذري العبقوي نسبة إلى أبيه[2] هـ.

قلت: فإذا علمت أن تحقيق الكسب من الأمور المعضلة عند الأشعرية التي عجزت عن تحقيقها الفحول منهم فلا تلومن من دفع منه إلى مضيق عجز فيه عن التحقيق، ولا تبادر إلى تضليل أو تبديع من أبدى فيه وجها غير معروف عندك ولا مفهوم، والله أعلم.

ومنها بيان في وصف بعض الطفيليين[3]:

[سريع]

---

(1) ملء العيبة 5: 344.
(2) نفسه.
(3) ملء العيبة 5: 342.

لــــو طُبخـــت قـــدر بمطمـــورة   في الهند أو أقـصى بـلاد الثغـور

وأنـــــت بالـــــصين لوافيتـــــها   يا عالم الغيـب بمـا في القـدور[1]

هـــ. قلت: لو قال بالغرب بل الصين لكان أبلغ، ولو قال: يا عالما بغيب ما في القدور، لحسن وتجافى عن لفظ عالم الغيب المشهور بكونه من أسماء الله تعالى، ومثله يتحامى وصف غيره به، ولو كان له وجه صحيح سيما في مقام الهزل، والله أعلم.

ومنها: وللحمّامي[2]:

لا تقُــــلْ مـــا حييـــت إلا بخـــير   ليكـــون الجـــواب خـــيرا لـــديكا

قـــد سمعـــت الـــصدا وذاك جمـــاد   كــــل شــــيء تقــــول ردٌّ عليكــــا

وله لغز في مخفية[3]:

[سريع]

مــــا اســـمٌ تـــراني أبـــدا شـــيّقا   لـــه ولـــو كنـــت علـــى نيّـــه

حروفـــــه تكتبـــــها ظـــــاهرا   ولـــيس تُقـــرا غـــير مخفيـــه

وله يعرض بالسراج عمر الوراق من جملة أبيات لغز[4]:

[طويل]

أيا سامع الأبيات دونـك شـرحها   وإلا فنم عنـها ونبِّـه لهـا عمـر

(1) في ملء العيبة: الصدور، وهي قراءة من المحقق لأن الكلمة معفاة بالأصل.
(2) ناصر الدين نصير بن أحمد بن علي المصري الحمامي المُنياوي، نسبة إلى بعض منى مصر، من الأدباء الظرفاء، توفي سنة 712 هـ: ملء العيبة 5:363.
(3) ملء العيبة 5:367.
(4) ملء العيبة 5:366. والأبيات في الأصل خمسة، لم يورد منها العياشي إلا البيت الأخير الذي لا يقدم مراد الشاعر الإلغاز بالنار والتعريض بالسراج، وبقية الأبيات:

ما اسم ثلاثي به النفع والضرر   له طلعة تغني عن الشمس والقمر
وليس له وجه وليس له قفا   وليس له سمع وليس له بصر
يمد لسانا تختشي الريح باسه   ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
يموت إذا قمت تسقيه قاصدا   وأعجب من ذا أن ذاك من الشجر

ومنها كتب في صفة حمام بإشبيلية[1]:

[طويل]

ولم أدخل الحمَّامَ ساعةَ بينهم طلاب نعيم بل رَضيت ببُوسي

ولكن لتجْري دمعتي مُطمئنة فأبكي ولا يدْري بذاك جليسي

ومنها: دخل ابن الدوري الحمام ومعه ابن رزين فقال[2]:

[بسيط]

لله يوم بحمّام نعمت بها والماء من حوضها ما بيننا جار

كأنه فوق شقّات الرخام ضحا ماءٌ يسيل على أثواب قصار

قال ابن رشيد: ظن المجيب أنه من تشبيه المفردين فأتى بما يزري بالمشبه، وهو إنما شبه المجموع بالمجموع، ولا خفاء في حسنه.

قلت: والصواب أنه من تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد، فالتغاير حينئذ بين المشبه والمشبه به بتغاير القيدين بحسب غرابة القيدين يحسن تشبيه المقيدين، فالمشبه ماء هنا مقيد بقيد كونه جار فوق شقات الرخام ضحى، والمشبه به ماء مقيد بكونه يسيل على أثواب قصار. والقيدان، وإن كان وجه الشبه بينهما جليا لا غرابة فيه، فلما يخطر أحدهما بالبال عند خطور الآخر، فاكتسب التشبيه بذلك غرابة وحسنا كما هو معروف في محله، إلا أن ألسنة الشعراء حداد[3]، يصورون الحق بصورة الباطل، فمن سمع تشبيه الماء بالماء أنكر ذلك واستبرده من أول وهلة، فإذا تأمله الناقد للشعر العالم بمحاسنه ومعايبه علم حسنه، والله تعالى أعلم.

ومنها: قال أبو حيان: أنشدنا أمين الدين أبو اليمن بن عساكر لنفسه وقد بعث إليه صاحب له فتى اسمه محمد يستدعي ختمه، فبعثها وبعث معها[4]:

[كامل]

---

(1) ملء العيبة 5: 369.

(2) ملء العيبة 5: 369.

(3) رجل حَديدٌ وحُدادٌ: يكون في اللَّسَنِ والفَهم والغضب: لسان العرب: حدد.

(4) ملء العيبة 5: 375.

مـــــولاي إن مُحمــــــدا أوفى إلى ... علياك بالــذكر الحكــيم رسُــولا

علقت بــه روحُ الأمــين صــبابة ... فعليــــه نــــزّل حُبّـــه تتزيــــلا

قلت: وهذا في غاية اللطف في التورية، إلا أنه كان الأولى تجنب اســتعمال هذه الأسماء الشريفة في مقام المداعبة، وهو محمد والذكر الحكيم والرسول الروح الأمين والتنزيل، ولم ينكر ابن رشيد هذا عندما ذكره، ولعله استخفه لما لم يكن في معنى مستهجن، وإنما هي حكاية الواقع اتفقت فيه هـــذه الأسمــاء والأوصـــاف مستعملة في معانيها دون تجوز ولا كناية، وهو في غاية الحسن.

وأما أبو حيان[1] الذي ذكره فلا أدري هل هو النحوي المشهور أم لا، فإنه وصفه بصاحبنا، ولم يعده من المشايخ، ولا شك أن أبا حيان إن كـــان دخـــل القاهرة في ذلك الوقت فغايته أن يكون من لداته وأترابه لا من مـــشايخه، إلا أني الآن لست على يقين وعلم بالوقت الذي وصل فيه أبو حيان إلى القاهرة، وابـــن رشيد دخلها في حدود ست وثمانين وستمائة في غالب ظني. وبعد أن كنت كتبت هذا تذكرت أنه تقدم فيما اقتطفته من طبقات السبكي أنه قدم مصر قبل ســـنة ثمانين وثمانمائة.

ومنها[2]:

[بسيط]

صنائع العرف عند الحـــر موجبـــة ... شكرا وعند لئـــيم توجـــب الإثمـــا

كالغيث يثمر في الأصداف لؤلـــؤه ... وفي فم الحيـــة الرقطـــا غـــدا سمـــا

وقد انتحلت هذا المعنى بأخصر من اللفظ من غير زيادة معنى فقلت[3]:

---

(1) ذكر ابن رشيد في رحلته أبا حيان قال: "قال أبو حيان الأندلسي، وسطره بخطه: حدثنا التاجر أبو عبـــد الله البرجوني بمدينة عيذاب من بلاد السودان، وبرجونة قرية من قرى دار السلام، قال: كنت بجامع كولَم من بلاد الهند، ومعنا رجل مغربي اسمه يونس، فقال لي: أنكر لنا شيئا؟ فقلت له: قال علـــي صـــلوات الله عليه: إنا وُضع الإحسان في الكريم أثمر خيرا، وإنا وضع في اللئيم أثمر شرا، كالغيث يقع في الأصـــداف فيثمر الدر، ويقع في فم الأفاعي فيثمر السم. فما راعنا إلا ويونس المغربي قد أنشد لنفسه: " وأتى بالأبيـــات المذكورة. ملء العيبة 5: 375.

(2) ملء العيبة 5: 375.

(3) ورد البيتان في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 496.

[سريع]

العــرفُ في الحــر بــشكرٍ حــري وعنـــدَ نـــذل مُوجـــب ذمـــا

كالغيـــثِ في الأصـــدافِ دُر وفي فـــم الأفـــاعي مُثمـــر سُـــما

ثم اختصرته في بيت[1]:

[بسيط]

الغيثُ في صدفٍ أو في فَم الأفعَـى كالعُرفِ في الحُر أو في النذلِ لا يُرعى

إلا أنه قد فات ذكر وجه الشبه.

وفي آخر[2]:

[بسيط]

العرفُ في الحُر مثل الغيثِ في صدف يزكو ويخبثُ في قول كفِي الأفعـى

العرفُ في الحــر والنــذلِ عواقبــهُ كالغيثِ في صَدفٍ أو في فمِ الأفعـى

وأحسنها البيت الأخير.

ومنها[3]:

[وافر]

لهيـــبُ الخـــد حـــين بـــدا لعـــيني هَـــوى قلـــبي عليـــه كـــالفرَاشِ

فأحرقـــه فـــصارَ عليـــه خـــالا وها أثرُ الـــدخانِ علـــى الحواشـــي

وآخر[4]:

[بسيط]

(1) ورد البيت في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 496.
(2) ورد البيتان في كتاب: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، ص: 496.
(3) ملء العيبة 5: 376.
(4) قال ابن رشيد: "وتوجهت يوما لزيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وتطوفت بالقرافة لزيارة فضلاء من بها، فقرأت في حائط مكتوبا بفحم...": ملء العيبة 5: 378.

لا تحسبنْ شامةً في خده طبعتْ   على وضءة خد راق منظرهُ
وإنما خده الصافي تخالُ به   سوادُ عينيك خالا حين تنظرهُ

ومنها: وفي الجزء الخامس من الخلعيات عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة عن أمها أم حبيبة عن زينب زوج النبي، صلى الله عليه وسلم، قالت: استيقظ النبي، صلى الله عليه وسلم، من نوم محمرا وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله ثلاث مرات، ويل للعرب من شر قد اقترب[1]، إلخ. قال المؤلف: اجتمع في هذا الحديث أربع صحابيات؛ زوجتان للنبي، صلى الله عليه وسلم، وربيبتان.

ومنها يعرف مواقع الوتد المفروق من دائرته بأنه إنما يكون أبداً في التفعيل المفرد في الأنصاف هـ. ومعنى ذلك أنه لا يكون في التفعيل المكرر في شطر واحد كمستفعلن في الرجز والسريع، وفاعلاتن في الخفيف والرمل لتكرره في شطر واحد مرتين أو ثلاثاً، وإنما يكون في الذي لا يتكرر كمفعولاتن في السريع والمنسرح والمقتضب، ومستفع لن في الخفيف والمجتث، وفاع لاتن في المضارع.

ومنها مختصر رعاية المحاسبي لعز الدين بن عبد السلام في عدد المختصرات المفضلات على الأمهات.

ومنها قوله تعالى: (وما ربك بظلام للعبيد)[2]، قال ابن زيتون التونسي: لا ينتسب إلى الله قليل الظلم ولا كثيره، ولكن جرت عادة العرب ألا تنفي عن عظمائها إلا ما يصح نسبته إليها، فلا تقول مثلاً: الملك لا يضيم في تمرة أو يحيف في كسرة، وإنما تقول: لا يظلم بقتل النفوس ونهب الأموال، فيقولون على هذا الأسلوب: الملك ليس بظلام، ولا يقولون ليس بظالم. هـ. قلت: وهو حسن إلا أنه يرد عليه قوله تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة)[3] و(لا يظلم الناس شيئا)[4]، وأشباه ذلك مما بقي فيه الشيء الحقير لإرادة نفي الكثير بالأولوية لإفادة العموم. والظاهر أن المراد المبالغة على بابها لنفي كثير الظلم. ووردت آيات أخر لنفي قليله

---

[1] المعجم الكبير 23:416.
[2] فصلت: 46.
[3] النساء: 40.
[4] يونس: 44.

وأخرى لنفي الظلم مطلقا الآيات المتقدمة، وكقوله (وما ظلمهم الله ولا يظلم ربك أحدا)[1] كما هو عادة القرآن في التفنن في التعبير، وكل ذلك منفي عن الله من قليل وكثير وشديد وغيره، فيقال: لم عبر في هذا المحل بظلام الذي للمبالغة، وفي محل آخر بغيره؟ وذلك من أسرار البلاغة التي لا يطلع عليها إلا الحذاق، كأن يقال مثلا في قوله (وما ربك بظلام للعبيد)[2] إثر قوله: (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها)[3]، معناه أن إساءة الإنسان مقصور وبالها عليه، وجزاؤها لا يتعداه إلى غيره ممن عمل صالحا، ولو تعدى لغيره لكان ذلك نهاية في ظلم من يصح أن يصدر منه ظلم كما يقع من بعض ملوك الدنيا يؤاخذون الجار بذنب جاره، والمرء بجريرة غيره، وهو في النهاية في الظلم. ولما كان الظلم المتصور منا عظيم حسن الإتيان بصيغة المبالغة لتدل على أن الظلم المنفي هنا لو وقع كان عظيما حذر الله بذلك عباده لئلا يقعوا في مثل هذا الظلم الفظيع، وإلا فهو تعالى لا يتصور منه ظلم أصلا، إذ لا يتصرف إلا في ملكه، فليتأمل.

ومنها قوله: رُفِع عن أمّتي الخطأ، أي حكم الخطأ، وهو أولى من إثم، إذ لا تحصل المبالغة من نفي الحقيقة إلا برفع جميع لوازمها، ومن قدر إثما فلأن المحزون يتقدر بمقدار الضرورة وإثم أخص وهو أيضا مجمع عليه، وما سواه مختلف فيه هـ. قلت: والمسألة مبسوطة في كتب الأصول. ومنها قوله في الحديث لا ها الله إذ لا يعمد، معناه: لا إله إلا الله، أي لا يكون ذلك، ثم ابتدأ، إذ لا يعمد بفتح الياء وضمها، وفتح الميم وكسرها. ومنها قوله: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[4] برفع الله ونصب العلماء، أي يجامل، لأن الخاشي يخاشي ويرضي من يخشاه.

ومنها: إذا تعارض في المجاز حمل اللفظ على مسببه أو سببه، فالثاني أولى لأنه يستدعي مسبباً خاصاً كما إذا قلت: أكلتُ خبزاً كثيراً، فيستدعي الشبع، وإذا قلت: شبعت استدعى مأكولاً غير معين، وهذا معنى قولهم إطلاق السبب على المسبب أقوى من العكس.

---

(1) الكهف: 49.
(2) فصلت: 46.
(3) فصلت: 46.
(4) فاطر: 28.

ومنها كتاب الفصوص تأليف أبي العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي جمعه للمنصور بن أبي عامر لما قدم الأندلس ليضاهي به كتاب النوادر لأبي علي القالي هـ.

قلت: وحكايته معروفة عند المؤرخين إذ أمر المنصور بتغريقه، فأنشد فيه بعض الشعراء[1]:

[سريع]

قد غاصَ في البحر كتابُ الفصُوص ... وهكذا كل ثقيل يغوصْ

فأجابه مؤلفه بقوله[2]:

[سريع]

عاد إلى عنصُره إنما ... تخرجُ من قعر البحورِ الفصوصْ

وهذا نهاية في حسن الجواب.

ومنها مشكلات التلقين للقاضي عبد الوهاب في ألفاظ ومشكلات التفريع لابن الجلاب في فقهه.

ومنها لأبي الفضل ابن شرف[3]:

[وافر]

ولم أجزعْ لهولِ الموْت لكن ... بكيتُ لقلة الباكي عَليا

وأن الدهرَ لم يعرفْ مكاني ... ولا عرفتْ بنوهُ ما لديا

زمانٌ سوف أُنشَر فيه نشرا ... إذا أنا بالحِمام طُويت طيا

أُسَر بأنني سأعيشُ ميْتا ... به ويسوؤني أن مت حَيا

هـ.

---

(1) ورد البيت بلا نسبة في نفح الطيب 3:78.
(2) ورد البيت في نفح الطيب 3:78.
(3) وردت الأبيات في نفح الطيب 3:229.

قلت: و لم أسمع بأحد رثى نفسه في حياته بأبلغ من هذا.

ومنها يروي عبد الكريم ابن عطاء الله عن أبي الطاهر بن عوف الزهري عن الطرطوشي هـ.

قلت: والذي في كثير من الفهارس أن ابن عطاء الله يروي عن الطرطوشي، وكنت أستبعد ذلك إلى أن ظفرت بهذا فعلمت أنه سقط واحد في كلام أهل الفهارس.

ومنها لما ذكر عبد الله الصُنابِحي راوي حديث الموطأ: إذا توضأ العبد فمضمض واستنشق خرجت خطاياه من فيه[1]، ما نصه: اختلف الناس هل وجد في الصحابة من اسمه عبد الله الصنابحي أو لم يوجد، وإنما هو أبو عبد الله الصنابحي التابعي المشهور. ثم ذكر العلماء وأطال إلى أن قال: "وقد وقفت على كلام جيد في المحاكمة بين هذين القولين في كتاب المآخذ الحفال السامية عن مآخذ الإغفال في شرح ما تضمنه كتاب بيان الوهم من الأخلال أو الإغفال وما انضاف إليه من تتميم وإكمال مما تولى تعليقه الحافظ الناقد أبو عبد الله محمد بن الإمام يحيى بن المواق رحمه الله تخريج بعضه من المبيّضة، ثم اخترمته المنية و لم يبلغ من تكميله الأمنية، فتوليت تكميل تخريجه مع زيادة تتمات، وكتب ما تركه المؤلف بياضا"[2] هـ. وذهب فيه إلى صحة وجود عبد الله المذكور، وهو صحابي، وأنه غير أبي عبد الله التابعي المشهور.

قلت: وإنما كتبت هذا لأني رأيت في نسخة من تكملة ابن الأبار عند ذكر عبد الحق الإشبيلي، أن ابن القطان ألف في أوهام كتابه الأحكام، فرأيت في هامشه بخط الإمام القصار ما نصه: وتعقب الناقد المحقق أبو عبد الله المواق كتاب شيخه ابن القطان هذا تعقبا ظهر فيه إدراكه ونبله هـ. فظن بعض الأصحاب أن المراد به المواق شارح المختصر، فاستبعد ذلك، فلما ظفرت بهذا علمنا أنه غيره، والله أعلم.

ومنها: قال: حضر في مجلس بعض شيوخه بتونس شخص من طلبته قال: ما كنت أعرفه قبل ذلك، فجرى ذكر مسألة من شك في النجاسة. فقلت إن شك في

---

(1) سنن ابن ماجة 103:1.

(2) ملء العيبة 50:5.

النجاسة وتحقق الحصول وجب النضح كمن حلف بالطلاق وشك في الحنث وهو سالم الخاطر حنث على المشهور، وإن شك في الحصول وتحقق النجاسة لم يلزم النضح، أو كان مستحبا كمن شك أطلق أم لا، لا يؤمر بالطلاق إذ لم يستند إلى أصل، وإن شك فيهما فلا نضح. قال: فقوي عندي هذا التنظير وأعجبني وغفلت عن مشهور المذهب، فقلت: هذا هو المعروف. فقال ذلك الشخص: يا سيدي هذا المعروف يحتاج إلى معرف، فكأنما ألقمني حجرا، فقام و لم أجتمع به بعد ذلك. ثم أنشد ابن رشيد:

[متقارب]

ومن ظن ممن يُلاقي الحُروب   بأنْ لا يصابَ فقد ظن عَجزا[1]

ثم ذكر المذهب بعد ذلك إلا أنه في خلال ذلك قوي التنظير الذي ذكر.

قلت: وفي تقويته نظر إذ لا يتمشى على قواعد مذهب مالك، فإن الشك في المانع عندنا لا يضر بخلاف الشك في الشرط والسبب. والشك في الحنث بعد تحقق الحلف شك في الشرط عندنا، وهو دوام العصمة، وعند الشافعية شك في المانع كالشك في الحدث بعد تحقق الطهارة، فعندنا يضر وعندهم، لا بناء على ما تقدم. وأما الشك في الطلاق فشك في المانع عند الجميع، وكذلك الشك في النجاسة مع تحقق الحصول أو دونه شك في المانع الذي هو النجاسة، فلا يضر. وتحقق النجاسة مع الشك شك في الشرط الذي هو عدم ملاقاة المصلي للنجاسة فيضر؛ إذ طهارة الخبث شرط في الصلاة على المشهور، والشك في ملابسة الشيء الحاصل مانع من صحة الصلاة، وانتفاء حصول الشيء النجس شرط لها، والفرق بينهما يدرك بالتأمل، فالشك في أحداهما غير الشك في الآخر من كل الوجوه، وتحقق المسألة يحتاج إلى طول وبيان أن انتفاء المانع هل شرط أم لا، وهي مسألة خلاف بين الأصوليين.

ومنها: قال من تردد نظره في العمرة لاختلاف العلماء بين الوجوب والندب، هل يأخذ بالنية العامة، وهي كونها مطلوبة. أجاب شيخنا ابن عبد القادر التونسي بأنه يقلد أحد القائلين.

---

[1] البيت للخنساء، الديوان، ص: 277.

قال ابن رشيد: ولي في تسويغ النية العامة سؤال شديد ملخصه أن أحد الأمرين لازم، أما إبطال القول بأن الأحكام الشرعية منحصرة في خمسة، أو خلاف الإجماع في جواز الإقدام على العمل من غير وقف بالمطلقات إذا تعرت عن القرائن كأعتق وأضرب، فمن جعل الأمر حقيقة في القدر المشترك دفعا للمجاز والاشتراك لزم القول بالقدر المشترك فنشأ عن هذا جواز الإقدام من غير توقف عند قول الشارع، مثلا اعتمروا من غير قرينة معتقدين للقدر المشترك، وذلك يستلزم ثبوت حكم سادس، وهو كونه مطلوبا، وذلك أعم من كونه واجبا أو مندوبا، والعام لا إشعار له بالخاص، وهذا معنى النية العامة، أو يلزم التوقف على الإقدام على العمل في المطلقات العريات عن القرائن وهو خلاف الإجماع، فلقد لزم أحد الأمرين إما ثبوت حكم زائد، أو لزوم التوقف، وكلاهما خلاف الإجماع. ومما يستدل به لصحة النية العامة قول ابن عمر لما سئل عن الوتر أواجب أم لا؟ قال: أوتر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأوتر المسلمون. فأعيد عليه السؤال، فأعاد الجواب، والسؤال قوي وما يجاب عنه به ضعيف هـ كلامه.

قلت: و لم يتبين لي قوة السؤال بل تبين لي ضعفه من وجوه أحدها: لا نسلم انحصار الأحكام الشرعية في الخمسة لأن تقسيمها اصطلاح أصولي. وقد اختلفت أقوالهم، فمنهم من قسمها إلى ثلاثة أقسام، وعد خطاب الوضع منها لأنهم قسموا خطاب الله المتعلق بفعل المكلف المفسر به الحكم الشرعي إلى طلب وإباحة ووضع لهما، ثم قسموا الطلبة إلى أربعة والوضع إلى ثلاثة كما هو معلوم، فصارت الأحكام تسعة. ثانيها أن ميل المراد خطاب التكليف لا خطاب الوضع، وإن كان يسمى حكما، فنقول: هو كذلك أيضا منهم من قسمه إلى قسمين: طلب وإباحة، وإلى ثلاثة: طلب فعل، أو طلب ترك أو إباحة. وبعضهم لا يعد الإباحة من خطاب التكليف. ومنهم من قسمه إلى خمسة، وهو المتعارف، وعد الإباحة. وزاد بعضهم سادسا وسماه خلاف الأولى، وعليه جرى المتأخرون، فإذا صح زيادة قسم سادس فلم لا يصح زيادة سابع بعد أن يكون داخلاً تحت التعريف وهو خطاب الله إلخ.

ولا شك أن هذا القسم الذي قال ليس خارجا عن التعريف، بل هو مثل تقسيم من قسم إلى طلب فعل وطلب ترك. وهذا طلب فعل، ثم بعد أن يعد قسما يمكن تصييره قسمين أو أقساما كما تقدم، أو إبقاؤه قسما واحدا ثالثها: سلمنا

انحصارها في خمسة فلا نسلم أن هذا خارجاً عنها بل هو واحد من اثنين منها لا بعينه، فيكون المطلوب به الإنسان عند قبوله، اعتمدوا الإتيان بالعمرة بنية الفرض والنفل، وأيتهما ترى كفت في سقوط الطلب، ولا بدع في ذلك كما في الواجب المخير، وكما في كثير من النوافل التي تقوم مقام الفرض ويسقط بها طلبه سيما في باب الحج. رابعها: لا نسلم بأن القول بالقدر المشترك قول بالنية العامة لأن معناه أن الأمر موضوع للقدر المشترك بين أقسام الطلب، فهو مقبول عليها بالتواطئ حقيقة في كل قسم منها حذراً من المجاز والاشتراك، وهذا معنى القدر المشترك عند المحققين، فإذا فهمت هذا فالمتواطئ هل هو عام في إفراده فيلزم الإتيان بها كلها إذ هو ظاهر فيها على المشهور، أو مطلق، فيكفي فرد منها، أو مجمل، وقد قيل به فيتوقف عن العمل حتى يقع البيان في الأقوال الثلاثة خلاف طويل عريض مشهور بين الأصوليين، فليت شعري قوله آخراً وكلاهما خلاف الإجماع متى استقر هذا الإجماع بعد الخلاف الذي تلوناه عليك في كلا القسمين، ولا يمكنه دفعه، أم قبله. والحاصل أن الإجماع لا يصح بحال في قسم من القسمين.

وأما قوله: والعام لا إشعار له بالخاص، يعني من حيث خصوصه. أما من حيث كونه فرداً من أفراد العام غير معين فيشعر به، وإلا لما كان عاماً. وعلى كل حال فمن أتقن ما يتعلق بالمسألة من أصول الفقه علم عدم تحرير السؤال وأنه ليس بالمكان الذي زعم من القوة، وأنه لا يلزم ثبوت حكم زائد ولا التوقف عن العمل وعلى تقدير لزومهما أو أحدهما لا كبير محذور فيه من مخالفة إجماع لأنها أقوال قيلت معزوة لأربابها من الأئمة في محالها فليتأمل.

ومنها لأبي بكر بن صقلاب:

[كامل]

كم قلتُ ما أجفى مُحبا غافلا ... حتى ابتليتُ فقلتُ ما أجفاني

زارَ الحبيبُ فلم يجدني بَاسطا ... بطريقهِ خدي ولا جفّانِي

ولغيره:

[كامل]

وإذا أتيتكَ زائِرا مُتشوقا ... قصرَ الطريقُ وطال عند رُجوعي

قلت: لو قال: سهل الطريق وشق عند رجوعي لكان أولى لأن المحب يستسهل كل ما يلقى في طريق لقاء محبوبه. أما وصفه بالقصر فهو خلاف المعروف عند الشعراء من استطالتهم أيام الوعد في طريق الأحبة، فمن واعده حبيبه بأن يزوره غدا طالت عليه تلك الليلة غاية الطول، وإنما يستصغرون أيام الوصل مما يترقبون بعدها من الفراق. والحاصل أن كل زمان يترقب بعده حصول محبوب، فهو عند النفس طويل، وكل زمان يترقب بعده حصول مكروه فهو قصير، هذا بالنظر إلى ما قبل زمان الحصول وما بعده. وأما بالنظر إلى زمن الحصول فلا يخفى أن زمن حصول المحبوب قصير وضده طويل فليتأمل.

ومنها: أراد أبو الحسن الرعيني سفرا فشيعه الوزير أبو الحسن سهل بن مالك، فمر معه على بعض حدائقه، فقَدَّم له خياراً، فلما أراد القيام قال له: ألم تسمع قول الشاعر[1]:

[طويل]

ولو نُعطى الخيارَ لما افترقنا ... ولكن لا خيارَ مع الزمانِ

وقد أعطيتك الخيار.

ولأبي الفتح[2]:

[طويل]

لأول أشكالِ القياس نتائِج ... تفيدُ شفاءً في جميعِ المطالبِ

وليسَ لثانِيها إذا ما سبرتَهُ ... نتائجُ في التحقيقِ غير السوالبِ

وللثالث الجزئي إذا ما نظرتَ في ... نتائجهِ والحق أصدقُ طالبِ

فكنْ حَفظا ما قلتهُ تنتفعْ بهِ ... فلن يستجيبَ الدَّر إلا لحالبِ

ولغيره:

[طويل]

[1] ورد البيت بلا نسبة في نفح الطيب 2: 454.
[2] رحلة ابن رشيد 2: 888.

وكُل قَــصِيٍّ الــدارِ يــذكُرُ أهلــهُ ولكنْ كذِكْري ليسَ يــذكرُ ذاكــرُ

ولغيره[1]:

[كامل]

صــبرًا لحُكمِــك أيهــا الــدهرُ لــك أن تجــورَ ومــنيَ الــصبرُ

آليــتُ لا أشــكوكَ مُجتهِــدا حــتى يَــرُدكَ مــن لــهُ الأمــرُ

قال أبو الحسن الزيات: ماشيت بعض الأدباء بشرقي قرطبة، فمررنا بمسجد خرب وذلك في وقت خلاء وقائلة، فكتب ذلك الأديب على المسجد هذا:

[وافر]

بــأي جنايــةٍ وبــأي ذنــب بُيــوت الله خرَّبهــا الزمــانُ

فأفحم، ودُرنا بجوانبه ثم عدنا و لم نَرَ أحداً، فوجدنا بيتاً مكتوباً:

[وافر]

فــسادُ النــاسِ خرَّبهــا ولــولا فسادُ النــاس مــا فــسد الزمــانُ

ومنها[2]:

[طويل]

لئن درستْ أسبابُ ما كــان بيننــا من الأنس ما شوقي إليكم بــدارس

وما أنا مِــن أن يجمــعَ الله شملنــا على خيرِ مــا كنــا عليــه بــآيسِ

ومنها: أكثر ما ورد من رواية الصحابة بعضهم عن بعض أربعة، وذلك فيما رواه البخاري في كتاب الأحكام من جامعه قال: نا أبو اليمان، نا شعيب عــن الزهري قال: نا السائب بن يزيد أن ابن أخت نمر حويطب ابن عبد العزى، أخبره أن عبد الله بن السعدي، أخبره أنه قدم على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في

(1) البيتان لابن سيدة، وهما في النجوم الزاهرة 165:5.
(2) ورد البيتان بلا نسبة في زهر الأكم 190:3.

خلافته فقال له عمر: ألم أحدث أنك تلي من أعمال الناس أعمالا، فإذا أعطيت العمالة كرهتها[1].

ومنها: وممن تجدد لنا لقاؤه بحضرة تونس عند[2] مقدمي عليها قافلاً من الوجهة الكريمة صاحبنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان الشاطبي[3] قال لنا: حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد ابن علي المصري التوزري[4] قال: ولد عندنا بتوزر حرسها الله ليلة غرة رجب الفرد عام أربعة وسبعين وستمائة جدي أسود غرته بيضاء وفيها مكتوب بالأسود: محمد، بخط بيِّن يقرؤه كل أحد، فألفت في ذلك تأليفا سميته بكتاب الغرة اللائحة والمسكة الفائحة في الخطوط الصمدية والمفاخر المحمدية، ونظمت في ذلك قصيدة منها:

[كامل]

جدي غدا كالجَدي أشرق نُوره   فمحلهُ فوقَ السماكِ الأعزلِ

رقمَتْ يدا الأقدارِ صفحةَ وجهه   رقما بديعا باسْم أكرَمِ مُرَسلِ

ثم ساق أكثر أبياها، ثم قال: أبو عبد الله التوزري هذا أحد أعلام العلماء وصدور القضاة الفضلاء، وله معارف جَمَّة وتصانيف مفيدة، وكان زاهداً فاضلاً نَفَع الله به، مولده بتوزر ليلة الخميس السادس والعشرين من شعبان المكرم عام ثمانية عشر وستمائة، وفاته يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الأخير سنة إحدى وثمانين وستمائة، شرح قصيدته التي خمس بها الشقراطيسية في مجلدات عدة، هـ.

ومنها: قال لنا ابن حيان عندما أنشدنا هذه القصيدة، يعني قصيدة ابن سهل في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[5]، قال لنا أبو مروان بن خليل عندما أنشدناها:

---

(1) صحيح البخاري 6:2620.

(2) ساقط من ط.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حيان، الأوسي الأنصاري، الشيخ المقرئ، ولد سنة 631، أجاز له جماعة من أهل المشرق والمغرب، له فهرسة شيوخه على حروف المعجم لم تكتمل، مات بتونس سنة 718هـ: فهرس الفهارس 1:361.

(4) أبو عبد الله محمد بن علي المصري التوزري، ابن الشباط، من القضاة الفضلاء، له تآليف مفيدة، توفي بتوزر سنة 681 هـ: شجرة النور الزكية 1:274.

(5) هي قصيدة عينية في 26 بيتا، مطلعها: (الديوان ص: 53 – 55).

تنازعني الآمال كهلا ويافعا   ويسعدني التعليل لو كان نافعا

كان ناظمها أبو إسحاق إبراهيم ابن سهل الإسرائيلي[1] يهوديا وأسلم وتبين إسلامه، وكان يكره أن يذكر له دين اليهود أو يداعب به، ولما علم الوزير أبو علي الحسن بن أحمد بن خلاص القضاعي حبه في الإسلام ظاهراً نهى أن يذكر له، وشدد في الوعيد لمن ذكره له أو داعبه به. قال: ومات أبو إسحاق عام خمسة وأربعين وستمائة غريقا في الغراب الميمون صحبة أبي القاسم محمد بن الوزير أبي علي بن خلاص، وسنه نحو أربعين سنة، هـ ما قاله ابن حيان.

وقال ابن رشيد: قلت: أبو إسحاق هذا هو الكاتب المشهور الشاعر الغزِل المجيد، إشبيلي الدار وبها قرأ وتأدب، وكان يظهر الإسلام، وقد اختلف في أمره، وقد ذكر لي شيخنا أبو القاسم القَبْتَوْري[2]، وكان ممن صحبه أنه سأل عنه بعض من يعرف دخلته فأخبره أنه يسر دين قومه ويظهر دين الإسلام، والله أعلم. وقد رأيت بخط أبي عبد الله بن الجنان[3] ما يدل على أن ابن سهل باق على يهوديته، وكان يسيء الرأي فيه، والله أعلم هـ كلام ابن رشيد.

قلت: ورأيت في الهامش هنا من هذه النسخة بخط الخطيب ابن مرزوق جد الحفيد ابن مرزوق ما نصه: صحح لنا من أدركناه من أشياخنا أنه مات على دين الإسلام.

ومنها: وممن لقيته بتونس الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم التجاني[4]، وقد وصفه صاحبنا حفيد عمه أبو الفضل محمد بن علي بن إبراهيم بن محمد في كتابه الذي سماه الحلى التيجانية الذي جمعه برسمنا حفظه الله فقال: آدب الجماعة، وحافظ الآداب، وكاتب العلامة، وعلامة الكتاب، وناظم

---

[1] إبراهيم بن سهل الإشبيلي، نشأ في إشبيلية الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، ثم هجرها فور استيلاء الإسبان عليها، اتصل بابن خلاص والي سبتة، ومات غريقا معه سنة 649 هـ: ديوان ابن سهل، ص: 5 من مقدمة المحقق.

[2] أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القبتوري، الإشبيلي المولد والمنشأ، ولد سنة 615 هـ، كتب لأمير سبتة، وحدث بتونس عن العراقي وجاور زمانا وتوفي بالمدينة سنة 704هـ: نفح الطيب 595:2.

[3] محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري، أبو عبد الله ابن الجنان، من أهل مرسية، محدث راوية،كاتب شاعر، خرج من بلده سنة 640 هـ فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبتة الرئيس أبو علي ابن خلاص، فوفد عليه، ثم توجه إلى إفريقية فاستقر ببجاية إلى أن توفي بها سنة 650 هـ: نفح الطيب 416:7.

[4] أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التيجاني، الأديب، لقيه ابن رشيد بتونس خلال رحلته: رحلة ابن رشيد 328:1.

الحفاظ، وحافظ أولي النظم، وعالم الحفاظ، وحافظ أولي العلم. وأنشد له أبياتا منها[1]:

[هزج]

لا تحـــــزن ولا تقـــــنط   فـــإن الـــرزق مقـــسوم

فـــإن ضـــاقت بـــك الحـــال   فتفـــويض وتـــسليم

قوله: وإن ضاقت بك الحال استعمل فيه التخميع، ويقال التجميع، وهو عيب، ومعناه أنه هيأ البيت للتصريع و لم يصرع لاضطراره للقافية، ولو قال: وإن ضاقت به حيل، يعني بالرزق، لخرج عن هذا العيب اللاحق.

ومنها: أبو العباس بن محمد بن أحمد الأزدي الإشبيلي عرف بابن الحاج، توفي من خارج تونس عام تسعة وأربعين وستمائة، له تصنيف على كتاب سيبويه، ونقد على مغرب ابن عصفور، وكان يقول: إذا أنا مت صنع أبو الحسن بن عصفور في كتاب سيبويه ما أراد لأنه لا يجد من يرد عليه.

ومنها: ولأبي الحسن حازم[2]:

[وافر]

صـــليه أو كليـــهِ لمـــا يُلاقـــي   ولا تتكلفـــي خـــدع المـــآقي

ودُونك فانظُري طمحـــان عـــرفي   إلى أعلـــى المراقـــب والمراقِـــي

بأعمـــالي حروفـــا مُـــضمرات   نواصـــب في الهجـــير لمـــا تلاقـــي

قال ابن رشيد: عرض له بقوله في الهجير انصراع، لأن المقصود من التورية أن لا يكون في الكلام لفظ يعين المقصود من التورية إلى الوجه الواحد. وقوله في الهجير عيّن أنه النوق، وكثيرا ما وقع هذا الصدع بجماعة من الشعراء و لم أر من تفطن له. قلت: وهو كثير في كلام فحول الشعراء، و لم أر من عابه إلا هذا الإمام، بل هو كالترشيح في الاستعارة بالكناية.

---

[1] ورد البيتان في كتاب: رحلة ابن رشيد 328:1.
[2] رحلة ابن رشيد 626:2.

ومنها: روى عن أحمد بن خزيمة الكناني قال: كنت ليلة في بستاني وصليت الغداة، قد سقط الطل عن الزهرة، فاستحسنتها ورأيت شقائق النعمان ففكـرت فيها، وقلت في نفسي: ليت شعري من النعمان الذي تنسب إليه هذه الريحانة، ثم غلبني النسيم فنمت، فرأيت في منامي كأن قائلا يقول لي: إن النعمان ولي مـن أولياء الله سأل الله أن يريه لباسه في الجنة فنبتت هذه الريحانة فنسبت له، وقعـت هذه الحكاية في تاريخ [ابن] السمعاني[1] الذي ذيل به تاريخ بغداد للخطيـب في اسم عبد الرحمن بن أحمد الطبري.

ومنها:

[وافر]

كـأن عـذارهُ المـسكي لام ومبـسمهُ الـشهي اللـثم صـاد

وطُـرة شـعره ليـلٌ بهـيم فـلا عجَـبٌ إذا سـرقَ الرقـاد

وهذا معنى عجيب أنتج مما تخيله من مقدمة اللام والصاد التي ركب منـها لصا، ومن مقدمة الليل البهيم تمكن اللص من سرقة الرقاد، فوجـب أن ينتفـي التعجب من سرقة الرقاد.

ومنها: ولعبد العزيز المعروف بابن رأس الحجلة[2] يخاطب بعض الأمـراء في مداعبة دعاه فيها إلى المشاركة في اصطناع طعام:

[بسيط]

منك السَّميدُ ومني النـار أنفخهـا والماءُ مني ومنك الزبـدُ والعـسلُ

كل على قـدرهِ في حـالِ قدرتـه الوقت سيفٌ فلا ريـث ولا مهـلُ

فدفع له ستة دنانير ذهباً.

---

[1] ابن السمعاني: أبو سعد عبد الكريم ابن الحافظ معين الدين أبي بكر بن أبي المظفر منـصور التميمـي السمعاني المروزي، صاحب التصانيف، ولد سنة 506 هـ، وتوفي بمرو سنة 562 هـ: فهرس الفـهارس 1039:2.

[2] أبو فارس عبد العزيز بن عبد الرحمن الجعدي المعروف بابن رأس الحجلة، أديب ناظم، تولى بعـض الخطط بتونس، وهو ممن التقاهم ابن رشيد خلال رحلته: رحلة ابن رشيد 314:1.

ومنها: بعث بعض وزراء مدينة شريش[1] إلى أبي بكر بن رفاعة جبنا، فكتب إليه أبو بكر[2]:

[سريع]

قد أقسمَ الجبنُ على حرد[3] لا ينثني عن صحبة الزبدِ

وغلظ الزبدُ يمينا لما يحل عقد من يد الشهدِ

واختصمُوا في حكم أيمانهم وغلبوا الأوحدَ في المجدِ

فوجه الدَّرْمَك[4] يقضي لهم بالجمع في مائدة الحمْد

أكْرِم به من حاكم فاضِل قد أوتي الحكمة في المهدِ

وهو من السهل البديع الممتنع الرفيع.

ومنها: [قال] أبو عمرو بن الصلاح: ويرقى على قُزح[5]، وهو جبل صغير إن أمكنه، وإلا وقف عنده وتحته. قال: وقد استبدل الناس بالوقوف على الموضع الذي ذكرناه الوقوف على بناء مستحدث في وسط المزدلفة، ولا تتأذى بذلك هذه السُّنة، والله المستعان[6].

قال أبو عمرو: "أول مُحسر من القرن المشرف من الجبل الذي على يسار الذاهب إلى منى، ثم يخرج منه سائرا إلى منى سالكا للطريق الوسطى التي تخرج إلى العقبة، وليس [وادي المحسر] من مزدلفة ولا منى، وهو مسيل ماء بينهما"[7].

ومنها[8]: يستحب تلاوة القرآن في الطواف عند نزول المطر لما يرجى من اجتماع البركات التي وردت في الآيات الثلاث وهي قوله تبارك وتعالى: (إن أول

(1) شريش: مدينة كبيرة من كورة شذونة بالأندلس: معجم البلدان: شريش.
(2) أنظر: رحلة ابن رشيد 2:639.
(3) حرد: الحَرْد: الجد: لسان العرب: حرد.
(4) الدرمك: دقيق الحُواري: لسان العرب: درمك.
(5) قُزح: جبيل صغير، وهو آخر المزدلفة: ملء العيبة 5:102.
(6) ملء العيبة 5:102.
(7) ملء العيبة 5:101.
(8) أنظر: ملء العيبة 5:84.

بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً)[1]، وقوله: (كتاب أنزلناه إليك مبارك)[2]، وقوله: (ونزلنا من السماء ماء مباركا)[3]. وفي هذا القدر كفاية لما انتقيته من رحلة ابن رشيد.

لطيفة:

رأيت بمكة سِفْراً في القالب الكبير في أمداح النبي، صلّى الله عليه وسلّم، قال كاتبه في آخره: كمل السفر التاسع من كتاب منتهى السول من مدح الرسول[4]. وذلك في أوائل ربيع الآخر عام ثلاثة وسبعين وستمائة. وكتب محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري، قلت: وهذا التأليف لم يقصد فيه جامعه جمع كلامه أو كلام مخصوص، بل ما انتهى إليه عمله من الأمداح النبوية وما شاكلها، والله أعلم كم بقي لتمام الكتاب.

ومن جملة ما في هذا السِّفر: المعلم الرابع من كتاب الدرَّة السنية في المعالم السنية[5]، وهو في السيرة النبوية والأعلام المحمدية، للقاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي، وذكر في آخره أن عدد أبيات الكتاب سبعة آلاف بيت من الرجز، وأنه أنشأه بقرطبة سنة أربع عشر وستمائة في أشهر، آخرها مستهل صفر من السنة المذكورة. والمعالم الثلاثة لا أدري فيما هي.

ومن جملة ما في هذا السفر، وهو نحو النصف كتاب اللآلئ المجموعة من باهر النظام وبارع الكلام في صفة مثال نعل رسول الله عليه الصلاة والسلام. مما انتدب لجمعه رجاء نفعه عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي، وسبب جمعه -على ما قال- أنه سئل منه نظم أبيات تكتب على النعل المشرفة فكتب في

---

[1] آل عمران: 96.
[2] ص: 29.
[3] ق: 9.
[4] كتاب منتهى السول من مدح الرسول للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عذرة المغربي الأنصاري: نفح الطيب 7:459.
[5] الدرة السنية في مقتضى المعالم السنية للقاضي محمد بن عيسى بن محمد بن اصبغ الأزدي المالكي القرطبي، وهي أرجوزة في مجلد، أولها الحمد لله اله الحمد الخ، رتب على أربعة معالم؛ الأول في التعريفات، والثاني في النكت الاصولية والادلة الشرعية، والثالث في الفروع، والرابع في السير، وأبياتها سبعة آلاف واثنان، فرغ بقرطبة في صفر سنة 614 هـ: كشف الظنون 1:740.

ذلك قطعة، وندب أدباء قطره الأندلسي لذلك فأجابوا، وكتب من ذلك ما وصل إليه، وجملة ما فيه من المقطعات ما ينيف على مائة وثلاثين بين صغيرة وكبيرة.

قلت: ولم يطلع على هذا التأليف شيخ مشايخنا الحافظ سيدي أبو العباس المقري مع سعة حفظه وكثرة اطلاعه، ومبالغته في التنقير والتفتيش عما قيل في النعل، ولم يطلع لمن قبل عصره إلا على عدد أقل من هذا بكثير، وغالب ما أودعه في كتابه فتح المتعال في مدح النعال[1] كلامه وكلام أهل عصره، ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتبط به كثيراً[2].

ومما رأيته من الكتب الغريبة بمكة المشرفة تاريخ الإسلام[3] للحافظ أبي عبد الله الذهبي[4]، وهو عشرة أجزاء كبار رتبه على السنين من أول الهجرة، فجعل كل عشر من سنين طبقة، فصار سبعين طبقة، إلى آخر المائة السابعة، وهو كتاب حافل لم يدع شاذة ولا فاذة مما تتشوق إليه النفس من علم التاريخ إلا أودعها كتابه مع الاختصار والإتقان، فكأنما جمعت له الدنيا وأهلها في صعيد واحد، وهو موجود في وقف قايت باي بمكة في رباطه المعروف. وقد رأيت منه أجزاء وطالعت بعضها، ومما قيدت من بعضها ما أذكره من ذلك في ترجمة أبي الحسن السخاوي، قال ابن خلكان: رأيته مراراً راكباً وحوله اثنان أو ثلاثة يقرأون عليه في أماكن مختلفة دفعة واحدة، وهو يرد على الجميع[5]. قال الذهبي: وفي نفسي شيء من صحة الرواية على هذا النعت لأنه لا يتصور أن يسمع مجموع الكلمات فـ(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)[6]، وأيضا فإن مثل هذا الفعل خلاف

(1) فتح المتعال في مدح النعال لأحمد المقري،طبع الكتاب بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد سنة 1334 هـ.

(2) أشار الأستاذ إحسان عباس في مقدمة تحقيقه لكتاب نفح الطيب إلى هذا الرأي وفنده، مستدلا بإشارة المقري للكتاب المذكور ونقله عنه: انظر: نفح الطيب 7:459.

(3) وقفنا على طبعة دار الكتاب العربي لكتاب تاريخ الإسلام للذهبي التي وقفت عند حدود سنة 400 هـ.

(4) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ولد سنة 673 هـ، من مؤلفاته: تاريخ الإسلام، وهو عشرة أجزاء كبار رتبه على السنين من أول الهجرة إلى آخر المائة السابعة، توفي الذهبي بدمشق سنة 748 هـ: فهرس الفهارس1:417.

(5) وفيات الأعيان 3:341.

(6) الأحزاب: 4.

السنة، ولا أعلم أحدا من شيوخ المقرئين كان يترخص في هذا إلا الشيخ علم الدين، ومن شعره[1]:

[سريع]

قالوا غدا نأتي ديارَ الحمى ... وينزلُ الركب بمغناهمُ

الأبيات الأربعة المشهورة.

ومنه في ترجمة يعيش النحوي[2] سأله رجل عن معنى قوله:

[طويل]

أيا ظبيةَ الوعساءِ بين جلاجل ... وبين النقا آأنتِ أمْ أُم سَالم[3]

فأوضح وأطال، والسائل ساكت إلى أن فرغ، فقال له السائل: يا سيدي وأي شيء في المليحة يشبه الظبية. قال: قرونها وذنبها هـ.

قلت: ولما ظهر له جهله وجموده علم أن تقريره له لم يصادف محلا فأجابه تهكما، فأقبح ما في الظبية وأبعده من وصف الآدمي تنبيها له على غباوته وأن مثله لا تقرر له لطائف المعاني، والحكاية مذكورة في تاريخ ابن خلكان[4].

ومنه في ترجمة قطب الدين العلوي: كان من ظرفاء وقته، بدت منه كلمة فقال: نريد حليقة حديد، على وجه التصحيف، فبلغت الناصر فقال: ألا يكفيه حليقة ولكن حليقتان، فقيد وحمل فسجن بالكوفة، ثم استخلف الظاهر فأطلقه.

ومنه في ترجمة هبة الله عز الكفاة[5]، ولي الحجابة لبعض الأئمة فعزل للين جانبه كما عزل الذي قبله لخيانته، وكتب الإمام: يلحق الثقة العاجز بالخائن الجلد[6].

---

(1) ورد البيت في وفيات الأعيان 3:341.

(2) موفق الدين ابن يعيش،أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش، شرح كتاب المفصل لأبي القاسم الزمخشري، وشرح تصريف الملوكي لابن جني،كانت ولادته سنة 553هـ بحلب وبها توفي سنة 643هـ: وفيات الأعيان 7:46.

(3) البيت لذي الرمة: الديوان 2:767.

(4) وفيات الأعيان 7:46.

(5) الصاحب عز الكفاة، أبو المعالي هبة الله، ولد سنة 561هـ، كان والده وكيل الناصر، وولي هبة الله واسط ثم صرف للينه، توفي سنة 645هـ: شذرات الذهب 3:233. سير أعلام النبلاء 23:230.

(6) ورد هذا التوقيع في: سير أعلام النبلاء 23:230.

ومنه قول ابن شخانة على ابن رواج فقال: الإبط بكسر الباء، فقال: لا تحركه يفح صنانه[1].

ومنه في ترجمة ابن مطروح وقد أبدع في هذين البيتين[2]:

[طويل]

إذا ما سقاني ريقهُ وهْو باسِم تذكرتُ ما بين العذيب وبارقِ

ويُذكرني من قده ومدامعي مجر عوالينا ومَجرى السوابق

ومنه في سنة إحدى وأربعين وستمائة حجت والدة المعتصم بالله من بغداد وعدت جمال الركب عند المدائن فكانت زيادة على مائة وعشرين ألفاً.

ومنه في حوادث سنة سبع وأربعين وستمائة: وفيها وصل إلى بغداد أبو منصور الأصبهاني رجل كهل صغير الخلقة جداً، طوله ثلاثة أشبار وثلاثة أصابع، ولحيته طولها أكثر من شبر، فحمل إلى دار الخلافة فأنعم عليه، ودار على الأكابر. وفي السنة التي قبلها ولدت امرأة ببغداد أربعة أنفس في بطن، فطلبهم الخليفة ورآهم وتعجب منهم، ثم أمر لهم بستمائة.

ومن الكتب الغريبة التي رأيتها بمكة طبقات الصوفية للمنوي وقد أجاد فيها سيّما للمتأخرين من الصوفية فلم أرَ أخبارهم مستوفاةً في غيرها، فمنها في ترجمة الشيخ زروق[3]: وكتب على الحِكم نيفاً وثلاثين شرحاً [4]هـ. وهذا شيء ما رأيته في غيره، فأعلى ما ريء من شروح الشيخ زروق السابع عشر.

ومنها في ترجمة سيدي علي بن وفا[5]، رضي الله عنه، بعد أن نقل عن الحافظ ابن حجر أنه إذا ذكر أحدا من الطائفة لا يبقي ولا يذر، والله يغفر لنا وله. ومن كلامه في سيدي علي قال: وشعره ينعق بالاتحاد المفضي إلى الإلحاد كشعر

(1) الصنان: نفر الإبط: لسان العرب: صنن.
(2) ورد البيتان في وفيات الأعيان 6:263.
(3) تقدمت ترجمته.
(4) طبقات الصوفية 3:167.
(5) علي بن محمد وفا السكندري الشافعي، من كبار الصوفية وأئمتهم، ولد بالقاهرة سنة 759 هـ، طبقات الصوفية 3:201. الطبقات الكبرى للمنوي، ص: 315.

أبيه، ورتب لأصحابه أذكاراً استمال بها قلوب العوام، وذكر أنه اجتمع بـــه في وليمة وأنكر على أصحابه[1].

قلت: وأخبرني ثقة عن بعض متأخري صلحاء المغرب أنه قال: إن ابن حجرٍ ينكر كرامات الأولياء و لم يتابع على ذلك، واستبعد كون ابن حجـــر متـــصفاً بذلك، ولعله إنما قال: يكثر الطعن على أهل الطريق والازدراء بهم كما هو شأن كثير من الأكابر المحدثين، كالذهبي وابن نعيم وابن الجزري وغيرهم، يعرف ذلك من كلامهم. وأما الكرامات فلا ينكرها سني، ومن تأمل كلام الحافظ ابن حجر في مواضع كثيرة علم منه ذلك، وما كان ينبغي له ذلك والله يغفر له.

ومنها من دعائه صلى الله عليه وسلم: اللهم أنك سألتنا من أنفسنا مـــا لا نملكه إلا بك، فأعطنا منا ما يرضيك عنا.

ومنها ورد أن من صلى كل ليلة بعد صلاة المغرب قبل أن يتكلم ركعـــتين يقرأ في كل ركعة بالفاتحة (وإنا أنزلناه) وسورة الإخلاص ستا، والمعوذتين مـــرة مرة، ويسلم منهما فإن الله يحفظ عليه الإيمان. وبمعناه جاء عن ابن عمر مرفوعـــا هـــ.

قلت: وقد ذكرها الشيخ السنوسي عن بعض أهل الكشف بزيادة: اللهم إني استودعتك ديني وإيماني فاحفظهما علي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي ثلاثا في كل سجود، و بزيادة كون الإخلاص سبعا، و لم يذكر رفعهما والله أعلم.

ومنها: وقال محمد بن إبراهيم الرجراجي مما جربنا لرد الضالة: اللـــهم يـــا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع علي ضالتي، ويقرأ قبله سورة الضحى ثلاثا[2].

ومنها: ومن كلام كعب الأحبار: من أراد أن لا يتخم من طعام فليقرأ عند أكله (شهد الله أنه لا إله إلا هو)[3] الحي الحكيم، ومن قرأ آية الكرسي أول السنة ثلاثمائة وستين مرة دفع الله عنه الحزن والمكروه والشر والوباء، وحفظه من كـــل خوف.

---

[1] طبقات الصوفية 202:3.
[2] طبقات الصوفية 125:2.
[3] آل عمران: 18.

ومنها في ترجمة الشيخ قطب الزمان أبي الحسن الشاذلي ما نصه: نشأ ببلده فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها وصار يناظر عليها مع كونه ضريرا هـ.

قلت: وما ذكره من كونه ضريراً أمر مستغرب، مع ما عرف له من السياحات في البلاد البعيدة، شرقاً وغرباً، وسكنى الجبال والمغارات وقطع المفاوز وحده، وهذه الأمور يتعذر مثلها عادة من الضرير وقد أنكرته حين رأيته، ثم رأيت في تاريخ الإسلام للذهبي مثله أيضاً، وقد سألت عن ذلك الشيخ المسن خادم رتبة الشيخ أبي العباس المرسي بالإسكندرية، رضي الله عنه، وكان واعية لأخبار الشاذلية، فأخبرني بذلك أيضا، إلا أن الذي يظهر لي من كلامه أن ذلك حصل له في آخر عمره لا كما يتوهم كلام المنوي، قال: فإن كان كذلك فممكن والله أعلم.

ومنها لخوف العطش يقرأ الفاتحة سبعا عند الصباح ويتفل في يديه ويمسح بهما وجهه، ويكون على الريق فإنه لا يظمأ ذلك اليوم هـ.

ومما رأيته بمكة من الكتب كتاب إتحاف الورى بأخبار أم القرى[1] للشيخ نجم الدين عمر بن فهد وطالعته وانتقيت منه أشياء فمنها: وفي سنة إحدى وستين ومائة أمر المهدي بشراء جميع ما كان من الدور بين المسجد والمسعى، فاشترى كل ذراع مكسراً مما دخل المسجد بخمسة وعشرين ديناراً، وما دخل في الوادي بخمسة عشر ديناراً، ودخل في ذلك دار خيرة بنت سباع الخزاعية بلغ ثمنها ثلاثة وأربعون ألف دينار دفعت إليها، ودار الأزرق وثمنها ثمانية عشر ألف دينار.

ومنها أن شهود صيام رمضان بمكة يزيد في الإيمان. ومنها: حملت ملابس جسم سليمان بن عبد الملك لما حج على سبعمائة بعير، وقيل تسعمائة بعير.

ومما رأيته بمكة القوانين[2] لابن أبي الربيع في علم النحو، وقيدت منها ما نصه: اعلم أن ياء حيي يجري مجرى الشين من خشي لا تعتل كما اعتلت في هاب، لأنك لو أعللتها فقلت: حاي كما قلت هاب، لوجب أن تعلها في المضارع فتقول: يحاي كما تقول يهاب، ولو فعلت ذلك لظهرت الضمة في اللام وهي ياء،

---

[1] إتحاف الورى بأخبار أم القرى للشيخ نجم الدين عمر بن فهد المكي المتوفي سنة 885 هـ: كشف الظنون 1:306.

[2] يقصد كتاب: ملخص القوانين في النحو لعبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع العثماني الإشبيلي الأموي المتوفى سنة 688هـ: كشف الظنون 2:1819.

وقد اطرد في اللام إذا كانت ياء أن تكون ضمتها مقدرة، فإن حذفتها كما حذفتها مما آخره ياء توالى إعلالان، وهذا ليس من كلامهم، يعني العرب، فصحت لذلك العين وجرت مجرى الصحيح، فإن كانت اللام مفتوحة فتحة لازمة جاز لك وجهان؛ أحدهما الإدغام لالتقاء المثلين. الثاني: الإظهار، فتقول في حيي حيى، وفي أحيي أحي. وحكى يونس عن كثير من العرب حي وأحي، قريء بهما هـ منه.

قلت: وإنما قيدت هذا منه لأني كنت استشكلت عدم إعلال عين حيي وعيي وأشباههما مع استكماله لشروط الإعلال المذكورة عند النحاة، فكتبت ونحن بالمغرب سؤالاً منظوماً وأجاب عليه صاحبنا العلامة المحقق سيدي محمد بن شيخنا سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنهما، وقد رأيت أن أذكر هنا السؤال والجواب معا تتميما للفائدة، وتربية للإفادة، ونص السؤال:

[وافر]

نُحاةَ العصْر أربابَ المعاني ... فُحول العلم أعلامَ الزمانِ
أسَائلكم ولا حرج على من ... يُسائل للرشادِ وللبيانِ
فعينُ عيي أعيتني أجيبُوا ... وفكوا بالكتابة ما أعَاني
مُحركة أتت من بعد فتح ... وقد فقد الموانعُ بالعيانِ
فلمَ صحت ولم تعلل كما قد ... أعل نظيرُها في ذا المبانِ
سلامُ الله يصحبكم جميعا ... ورحمتهُ فتلك مِني الأمان

ونص الجواب:

[وافر]

سلامٌ باللسانِ وبالبنانِ ... عليكمْ ما أقام الفرقدان
وبعد فإن المنصوصَ فيما ... رأيت فيما سيوضحه بيان
فقيلَ لم تعل لأنهم قد ... تحاموا من يحاي في المبان
وقيل إنهم قد ألحقوهُ ... بباب قوي في هاذي المعَان

وباب قــوي قــد أجــروهُ مجــرى رضـــى إذا عـــل منـــه ثـــان

وأبقـــى أول خَـــوف اجتمـــا ع للإعلالـــين فـــأظهر بالأمـــان

ولا عجب إذا ما الفــرع ضــاهى أصولا أو عفا عــن ذنــب جــان

فقابل بالـــسماح ســخيف نظمــي فأنـــت الفــذ يــا بــدرَ الزمــان

ثم ذكر نص ابن الحاجب في الشافية نثراً، ونص السعد، وهو نحو ما تقـــدم عن ابن أبي الربيع، إلا أن كلام ابن أبي الربيع أوضح، والله أعلم.

لطيفة:

قد نزلت ونحن بمكة نازلة فقهية، وهي أن إمام الحنفية هو الذي يتقـــدم في صلاة المغرب ويصلي معه غالب الناس، فلما قرب الموسم تقدم يصلي في الحجر، وصلى معه الناس على عادتهم، فجرى كلام في ذلك بين الطائفة المالكية في صحة الصلاة وراءه وعدمها، فكتبت في ذلك رسالة أوضحت فيها الحق إن شـــاء الله وهذا نصها:

باسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وســـلم تسليما، الحمد لله الذي عهد إلى إبراهيم وإسماعيل (أن طَهِّــرَا بــيتي للطــائفين والعاكفين والركع السجود)[1]، وجعل الكعبة والبيت الحرام قياما للناس ومثابـــة وأمنا يأتونه من الأغوار والنجود، وشرف بها المسجد الحرام على سائر المساجد، وصيرها قبلة لكل راكع وقانت وساجد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد هادي الخلق إلى الحق بالحق، وداعيهم إلى التصديق والصدق بالـــصدق، وعلـــى آلـــه وأصحابه وسائر أحبابه.

أما بعد، فهذه رسالة غريبة الوضع عظيمة النفع يحتاج إليها أهل مكة البررة الكرام، ويرغب عنها من لم يكن حاضري المسجد الحرام، سميتها رفع الحجر عن الاقتداء بإمام الحجر، رتبتها على مقدمة وتنبيهات وخاتمة.

---

[1] البقرة: 125.

أما المقدمة ففي ذكر سبب وضعها وذكر اختياري الاقتداء بإمام الحجر، وأما التنبيهات ففي كلام الأئمة في الاقتداء بالمخالف في الفروع وبيان دلالتي على هذه المسألة بالأولوية أو المساواة، وأما الخاتمة ففي محصل كلام الأئمة المنقول في التنبيهات وتبيين طريقهم في المسألة وتوجيه الحكم بالصحة في مسألتنا على جميع طريقهم، والله أسأل أن ينفع بها، ويجعلها لي وسيلة عنده، ويعتدها لي خدمة مقبولة لساكن حرمه الأمين، آمين.

مقدمة: اللهم اهدنا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم[1]، سبب تأليفي لهذه الرسالة أنه قد نزلت نازلة فقهية ونحن بمكة المشرفة في سنة ثلاث وسبعين وألف، وذلك أن الأئمة في المسجد الحرام متعددون بتعداد أئمة المذاهب، ولكل أهل مذهب مقام يصلي فيه إمامهم، إلا أنهم لا يصلون جميعاً في سائر الأوقات إلا في أيام الموسم وما قرب منها، وأما فيما سوى ذلك فإمام الشافعية والحنفية يصليان الصلوات الخمس، وأما المالكي فلا يصلي إلا الصبح والعشاء، وأما الحنبلي فما رأيته يصلي إلا الصبح، وكان الذي يتقدم في الصلوات كلها ما عدا المغرب هو الشافعي، ويصلي معه غالب الناس ممن في المسجد من أهل المذاهب لما علم أنه لا يجوز لمن حضر المسجد بشروط الصلاة أن يجلس بعد إقامة الصلاة منتظراً لجماعة أخرى يصليها معها، وقد حكى بعضهم الإجماع على هذا. وأما المغرب فيتقدم فيها الحنفي فيصلي معه غالب الناس أيضا لما ذكرنا بناء على جواز تعدد الأئمة في المسجد الحرام باعتباره كمساجد متعددة، وإن كان المشهور خلافه، وأن التعدد لا يجوز، وأن الإمام الراتب هو الشافعي إمام مقام إبراهيم كما ذكر غير واحد ممن ألف في مسألة تعدد الأئمة بالمسجد الحرام، وقد ألف فيها رسائل بالجواز والمنع نقل زبدهما الحطاب مقويا قول من قال بالمنع، والمسألة بين أرباب المذاهب شهيرة[2]، ولكن لما كانت المسألة ذات خلاف، والجلوس بعد الإقامة في المسجد بلا صلاة ممنوع بالإجماع، آثر المتدينون الصلاة مع الأول في المغرب، وهو الحنفي، وإن كانت الصلاة مع الشافعي أولى على الجلوس بلا صلاة، وعلى الصلاة بنية النفل قبل صلاة المغرب لكراهته أو منعه أيضاً، ولأجل هذا كنا معشر المالكية من المجاورين وأهل مكة نصلي المغرب مع

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى: (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم): يونس: 25.
[2] حول اقتداء المذاهب بعضهم ببعض كالحنفي يصلي وراء المالكي وبالعكس، أنظر الفكر السامي: 4:505. وقد استشهد المؤلف في هذا الفصل بالرأي الذي ساقه العياشي هنا.

الحنفية، والحال أن الإمام الحنفي يصلي في مقامه مقابل الحجر، فلما كان في إحدى ليالي بعض أشهر الحج تقدم الإمام الحنفي للصلاة في الحجر، وكانت العادة أنه لا يُصَلّي في الحجر إلا في أيام الموسم حيث يصلي كل إمام في مقامه سائر الصلوات، و لم يشعر بذلك المالكية حتى أقيمت الصلاة، فاختلف ذوو الرأي منهم، فمنهم من جلس و لم يصل، ومنهم من صلى بنية النفل وأضاف إليها رابعة، ومنهم من صلى واقتصر على تلك الصلاة فاكثر الكلام في ذلك. وكنت ممن رأى، والحالة هذه، أن الصلاة معه بنية الفريضة أولى من الحالتين الأخريين محتجا على ذلك بأن الأمر في هذه النازلة دائر بين أحد أمور ثلاثة كلها جارية على غير مشهور المذهب، وهي الجلوس بلا صلاة، أو النفل قبل المغرب، أو الاقتداء بإمام يصلي في الحجر، والثالث أخفها وأقربها، بل لو قيل بأنه المشهور لم يبعد لما سيذكر من نصوص الأئمة، لأن الصلاة في الحجر لا يحكم ببطلانها لأن الإعادة فيها وقتية على المشهور، هذا لو كان الإمام مالكيا فإنا لا نتجرأ على القول ببطلان صلاة المقتدي به، كيف ونحن لا نقول ببطلان صلاة الإمام نفسه، وإنما نأمره بالإعادة في الوقت، ومعلوم أن كل إعادة وقتية هي على الاستحباب فما بالك إذا كان الإمام حنفياً أو شافعياً ممن[1] يرى صحة ذلك وجوازه، فإن الاقتداء بمخالف الفروع الظنية جائز إجماعاً كما حكى عن ذلك الإجماع المازري وغيره، وهو على إطلاقه في الظنية، سواء تحقق فعله لسائر الشروط والواجبات على مذهبنا أو لم يتحقق، وهو الموافق لظاهر عبارة المختصر، وأخذه ابن ناجي من المدونة وبه جزم القرافي في الفروق، وفي كتاب الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام، وسأذكر نصه، و لم يستثن القرافي من ذلك إلا ما خالف إجماعاً أو نصاً أو قياساً جلياً، أو جرى على خلاف القواعد، وأما ما كان مدركه ظنياً فلا يمتنع الاقتداء فيه، ولا شك أن هذه المسألة ليست من إحدى المسائل ولا مما يقرب منها فإن المدرك فيها ظني ودليل المخالف فيها في غاية القوة. ولما كان تحقيق هذه المسألة يتوقف على نقل كلام أئمتنا في الصلاة في الحجر هل هي جائزة أو مكروهة، أو ممنوعة أو باطلة، وعلى نقل كلامهم في الاقتداء بالمخالف هل يمتنع مطلقاً أو يجوز مطلقا، أو يجوز في حال دون حال، أردنا نقل ذلك في ذلك، ونبين انطباقه على النازلة إذ لم أرَ فيها نصاً، إلا أنها من جزئيات قاعدة الاقتداء

[1] ساقط من ط.

بمخالف[1] في الفروع، وسألت أهل العلم بمكة هل عند أحد منهم في النازلة ما يشفي، وذكر لي أن بعض المتأخرين من أهل مكة ألف فيها رسالة، فذكر لي شيخنا أبو مهدي أنه ليس فيها ما يعتمد، فتكلفت كتب هذه الرسالة وجمعها من مظانها رجاء انتفاع أهل البلد الحرام بها:

[طويل]

وكنتَ كذي داءِ تبغي لدائهِ طبيباً فلما لم تجدهُ تَطببا

فرتبت أقوال الأئمة في تنبيهات، وأدرجت في كل تنبيهة ما يتعلق به من بيان أشكال وذكر كيفية أخذ حكم نازلتنا منه فأقول:

التنبيه لأول: قال في باب السهو من كتاب الصلاة الثاني من المدونة: ومن صلى خلف من يرى السجود في النقصان بعد السلام فلا يخالفه لأن الخلاف أشد، ويروى أشر. قال ابن عرفة: لا مفهوم لما ذكره من التصوير، بل وكذلك العكس لقوة الخلاف. قلت: وقول ابن عرفة لقوة الخلاف يشير إلى ترجيح ما ذكره القرافي من أنه لا بأس بالاقتداء به من كل أمر مختلف فيه، وإنما يمتنع في الأمر المجمع على خلافه، أو يكون الخلاف ضعيفاً لمخالفته القياس الجلي والقواعد والنص، ومعلوم أن الصلاة في الحجر ليست بهذه المثابة لقوة الخلاف في المذهب نفسه بالكراهة والمنع والجواز في الصلاة في الكعبة فضلاً عن الحجر. حمل جماعة من شراح الرسالة ظاهرها على جواز الصلاة في الكعبة. قال ابن ناجي: ظاهر كلام الشيخ أن الصلاة في حرف الكعبة جائزة، وهو كذلك، سواء كانت فريضة أو نافلة، قاله اللخمي هـ. وقد قال اللخمي: أجاز أشهب في مدونته الفرض في الكعبة من غير إعادة، وإن كان لا يستحب له أن يفعل إلا أني لم أر من شهر هذا، وعبارة الفاكهاني في نقل مذهب أشهب. وأجاز ذلك أشهب في مدونته في الفرض وقال: إن فعل فلا إعادة عليه، وإن كان يستحب له أن لا يفعل، والعبارة الأولى لابن الملقن في شرح العمدة، والفرق بينهما أن الأولى لا تقتضي كراهة، والثانية تقتضي خلاف الأولى. ونقل الفاكهاني عندي أصح، ويصح الجمع بين العبارتين، والمشهور في المذهب أن الصلاة في الحجر مكروهة أو ممنوعة، ومع ذلك فهي صحيحة، ولذلك كانت الإعادة وقتية، ولو كانت باطلة لأعاد أبدا كما

---

[1] في ط: بالمخالف.

صرح به الشيخ سالم السنهوري في شرحه، إذ قال: إن الإخراج في قوله لا فرض من الجواز إلى المنع لا من صحة إلى بطلان قطعا بدليل قوله: يعاد في الوقت، ومن تأمل كلام الشارحين علم أن المشهور الأرجح عندهم إطلاق الإعادة الوقتية، وأن التأويل المقيد بالناسي لا يقاومه في القوة، فعلم أن المشهور صحة الصلاة مطلقا، عامداً أو ناسياً. قال بعض: و لم أرَ من شهر الإعادة أبداً إلا التقي الفاسي هـ.

قلت: والمنع المذكور، وإن كان على جهة التحريم فلا يستلزم البطلان، ويحتمل أن يكون المراد به الكراهة الشديدة، فإن ابن عرفة قد عبر بالكراهة إذ قال: وكره الفرض فيها مالك وأعاده في الوقت، وقد صرح محقق المذهب وناصره القاضي أبو محمد عبد الوهاب بالكراهة في كتاب المعونة فقال: وتكره الصلاة داخل الكعبة عند مالك لأنه يستدبر بعض البيت، والأولى أن يصلي بحيث يكون جملة البيت تجاهه، لا يستدبر شيئاً منه، ويجوز فيه النفل، ثم وجه الفرق بين النفل والفرض، ثم حكى عدم الجواز عن أصبغ وقوم من أصحابنا البغداديين وجهه أيضاً. قلت: وقوله: وأولى أن يصلي إلخ، نص في أن الكراهة عنده ليست للتحريم، وإنما المراد بها خلاف الأولى، وعلى كل حال حيث حكمنا بصحة الصلاة، ولو مع التلبس بممنوع أو مكروه، فلا وجه لبطلان صلاة المقتدي، بل ولا بمنعها، إذ صلاته هو سالمة من ملابسة هذا الممنوع والمكروه على القول بعدم الارتباط، وعلى القول بالارتباط فصلاة إمامه صحيحة، إلا أنه متلبس بممنوع أو مكروه في مذهبنا، وأما في مذهبه هو فلا منع ولا كراهة، ولو اقتصرنا على هذا التقرير لكفى في جواز الاقتداء بإمام الحجر، ولكن لما كانت هذه الرسالة برسم تحقيق هذه المسألة، آثرنا ذكر نصوص الأئمة وبيان تطبيقها على هذه النازلة وتناولها بالأولوية والمساواة كما يتضح عند التقرير.

الثاني: قال ابن ناجي: ويقوم عندي من قولها أن صلاة المالكي خلف الشافعي جائزة، ولو رآه يفعل خلاف مذهبه، يعني بقولها ما تقدم في أول التنبيه الأول. قلت: وما أقامه ابن ناجي من المدونة هو الذي حمل عليه جماعة من شراح المختصر كلام المصري، وأنه على إطلاقه. قال شيخ مشايخنا السيد إسماعيل السندفاوي ما نصه: وجاز اقتداء في الصلاة برجل مخالف في الفروع الظنية كمالكي بحنفي. وحكى الإمام المازري وجماعة الإجماع على ذلك، وإن نظر فيها بعضهم بوجوه الخلاف، وظاهر كلام المصري الصحة، ولو رأى المخالف يفعل ما

يخالف مذهبه؛ كما لو رأى مالكي شافعيا يمسح بعض رأسه، أو حنفيا يقبل زوجته، وهو كذلك، ولم يعتبر تقييد من قيد ذلك بما إذا لم يره يفعل ما يخالف، لأنا إذا قلنا كل مجتهد مصيب فلا إشكال، أوالمصيب واحد لا بعينه، فمجزئة لعدم تحقق المصيب، قاله في كفاية المسائل[1].

وقد علم أن الإمام يرى أن كل مجتهد مصيب، ولذا شهر الصري الاقتداء بالمخالف في الفروع الظنية. قال العلامة اللقاني: وأنا أقتدي به لأنه على صواب ولا أصلي منفردا مع وجوده هـ كلامه بحروفه، وهو في غاية الحسن وكفاية السائل الذي ذكره هو شرح العلامة التتائي على الشامل، والعلامة اللقاني المذكور المراد به محقق المذهب ناصر الدين اللقاني، فهو من أشياخه. قلت: وقد علم تناول هذا التقرير لمسألتنا بالأولوية لأنه مثل فيها بمسح بعض الرأس وهو مبطل للصلاة عندنا، وبتقبيل الزوجة، وهو ناقض عندنا أيضاً، والصلاة في الحِجر صحيحة على المشهور كما تقدم، وعلى القول ببطلانها فمعلوم أن القول ببطلانها ليس في القوة كالقول ببطلان صلاة تارك المسح والمقبل، وما نقله هذا الشارح قد نقله جماعة من شراح المختصر بعبارات مختلفة، واقتصرت على نقله لجمعه واختصاره، وما ذكر من تشهير المصنف لصحة الاقتداء مطلقا هو ظاهر من تركه التقييد مع شرطه، تبين ما به الفتوى، وكفى بتشهير المصنف حجة. الثالث: قال ابن الحاجب: وحكى المازري الإجماع في المخالف في الفروع الظنية واعتذر عن قول أشهب فيمن صلى وراء من لا يرى الوضوء من القبلة أعاد أبدا فإنه رآه كالقطع وقواه بقوله مس الذكر. وخرج اللخمي الخلاف من قول أشهب هـ. قال في التوضيح: ولفظ المازري وقد حكى حذاق الأصوليين إجماع الأمة على إجزاء الصلاة خلف الأئمة المخالفين،لأنه إن كان كل مجتهد مصيب فواضح، وإن كان المصيب واحدا فكذلك لعدم تحقق المصيب. ثم ذكر كلاما مضمونه البحث في حكاية الإجماع وتقوية وجود الخلاف، وليس في ذلك ما يمنع كون المشهور هو الائتمام مطلقا كما يفيده تصديره به. ومعنى قوله: وقواه بقوله بخلاف مس الذكر، ووجه التقوية أن أشهب لو كان يرى المنع مطلقا لما فرق، ولولا أن وجوب الوضوء من القبلة عنده كالقطع لما فرق بينه وبين المس حتى منع في

[1] يقصد كتاب: كفاية المسائل لأبي نصر بن الصباغ عبد السيد بن محمد الشافعي المتوفى سنة 477 هـ: كشف الظنون 2:1501.

أحدهما دون الآخر مع وجود المخالفة فيهما معا، فقوي بتفريقته أن المخالفة عنده ليست مانعة، وأن الذي قال فيه بالمنع ليس للمخالفة فقط، بل لكونه رأى الدليل عليه كالقطعي، وسيأتي مزيد بيان لهذا.

الرابع: قال الفاكهاني في شرح الرسالة: الصنف السابع، يعني من المختلف في إمامته، المخالف في سائر الفروع لا خلاف أنه لا يفسق ولا يمنع الاقتداء به، وخرج اللخمي الخلاف فيه من قول أشهب في قوم صلوا في بيت مظلم فأصاب الإمام القبلة وأخطأوها أنهم يعيدون، وإن أصابوها وأخطأ الإمام أعادوا أجمعون. وذكر قول أشهب أيضاً فيمن صلى وراء من لا يرى الوضوء من القبلة،أنه يعيد أبدا لأن القبلة من اللمس، وإن صلى وراء من لا يرى الوضوء من مس الذكر أنه لا يعيد، وقول سحنون بل يعيد فيهما بحدثان ذلك، فإن طال لم يعد. قال المازري: فخرج اللخمي على هذا صلاة المالكي خلف الشافعي والعكس، ورأى أنها مختلف فيها. قال الإمام: وإجراؤكم ذلك على الإطلاق عندي لا يصح. قال: وقد حكى بعض الأصوليين إجماع الأمة على إجزاء صلاة الأئمة المختلفين في الفقه بعضهم وراء بعض، ثم اعتذر عما حكى عن أشهب من الإعادة في القبلة أبدا، فإنه رأى المسألة من الوضوح حيث يقطع بخطإ المخالف. قال: وهو معنى قوله إن القبلة من اللمس لأن القرآن جاء به، وكان إيجاب الوضوء به يلحق بالمقطوع به. قال: وأدل دليل على صحة هذا التأويل تفرقته بين مس الذكر والقبلة. قال: وعلى هذا يجري اختلاف أصحابنا في نقض بعض الأحكام في مسائل اختلف فيها وإمضاء الأحكام في غيرها، وإن كان قد اختلف فيها هـ.

قلت: وقد ظهر من كلام الفاكهاني أنه لا يمنع الاقتداء مطلقا بلا خلاف وصدر به ثم ذكر أن الخلاف مخرج، وسيأتي أن الكلام على أن محامل الفروع المخرجة عليها ما عدا القِبلة بكسر القاف فقد كفانا المئونة فيها القرافي وأتباعه، وأنها مما لا يصح الاقتداء فيها بالمخالف كمسألة الأواني والثياب، وأوضح الفرق بينهما وبين غيرهما من الفروع، وسيأتي كلامه بتمامه.

الخامس: ولسند بن عنان[1] في طرازه قال: وفيه تحقيق ذلك أنه متى تحقق فعله للشرائط جاز الاقتداء به، وإن كان لا يعتقد وجوبها كما لو مسح الشافعي

---

[1] سند بن عنان بن إبراهيم الأسدي المصري، الفقيه الإمام، ألف كتاب الطراز الذي شرح به المدونة، توفي بالإسكندرية سنة 541هـ: شجرة النور الزكية 1:184.

جميع رأسه فلا يضر اعتقاد سنيته بخلاف ما لو أم في الفريضة بنية الفريضة أو مسح رجليه. قلت: والتحقيق الذي أراده سند تحقيق الجمع بين الإجماع الذي حكاه المازري وبين الخلاف الذي استقراه اللخمي من قول أشهب يعيد من صلى خلف من لا يرى الوضوء من القبلة، لا من لا يرى الوضوء من مس الذكر. سحنون: يعيد فيهما ما لم يطل، ومن قول ابن القاسم في العتبية: لو أعلم أن أحدا يقرأ في الركعتين الأخيرتين ما صليت خلفه، فجمع سند بينهما بأن الإجماع إنما هو في المخالف في الفروع من حيث الاعتقاد فإن الشافعي وإن كان لا يقول بوجوب مسح جميع الرأس يقول به على وجه السنية، وإذا مسح فلا يضر اعتقاده إجماعا، وأما إذا خالف اعتقاداً وفعلاً كان قبل أو مس الذكر و لم يتوضأ أو ترك القراءة في الأخيرتين فليس من محل الإجماع وإذا تبين لك تحقيق سند إنما دل على أنه إذا خالف فعلا فلا يتناوله الإجماع، لا على أنه إذا خالف لا يصح الاقتداء به كما توهمه كثير ممن نقل كلامه، علمت أن كلامه لا يكون حجة على من أجاز الاقتداء مطلقا، أو حيث لم يخالف أحداً علمت أن كلامه لا يكون حجة لأشياء أربعة كما ذكر القرافي، وما ذكر سند هو نحو ما ذكر ابن ناجي عن شيخه ابن عرفة أنه كان ينقله عن عز الدين ابن عبد السلام ويفتي به من أن جواز الاقتداء حيث لا يراه المخالف بفعل وإلا فلا.

قلت: وعلى كل حال فلا بد من تقييد كلام ابن عرفة وغيره ممن يختار ذلك من كونه يراه مخالفا بترك ما هو من شروط الصلاة وواجباتها التي تبطل بتركها، أو بفعل ما هو من مبطلاتها كما يشير إلى ذلك تعبير سند بالشرائط لأن مجرد المخالفة فيما ليس من قبيل ما ذكر لا قائل ببطلان صلاة فاعله عن صلاة المقتدي بفاعله متأولاً.

وهذا واضح غني بنفسه عن الإيضاح، وإذا كان كذلك فمسألتنا على مشهور المذهب ليست المخافة فيها من قبيل ما تبطل الصلاة بفعله كما تقدم بيانه، وإنما المخالف فيها متلبس بممنوع أو مكروه إن كان من أهل مذهبنا ولا نتجاسر على إطلاق المنع والكراهة عليه إن كان من أهل المذاهب الصحيحة حتى المتداولة التي ندين الله تعالى باعتقاداتهم، وكلهم على هدى كالحنفية والشافعية، فبعيد أن يقال ببطلان صلاة المقتدي بأحد منهم عند تلبسه بأمر لم يقم نص صريح ولا قياس جلي على بطلان الصلاة به، فضلا على الإجماع، وإنما هو رأي رآه الإمام

مستندا فيه إلى ظواهر وعمومات تقبل التأويل والتخصيص بأخرى مثلها في القوة أو أقوى منها، ولذلك ألم يقل الإمام مالك، رضي الله عنه، ومحققو أتباعه ببطلان صلاة فاعل ذلك، فضلاً عن صلاة المقتدي، وإنما قال بالبطلان بعض الأتباع تخريجاً لا نصاً.

السادس: اختار العوفي من عند نفسه ضابطاً، وهو أن كل ما كان من الشرائط في صحة الصلاة التي المؤتم مطلوب بها في نفسه لا ينفعه فيها صحة صلاة من ائتم به، مثل أن يكون الإمام[1] متنفلا فلا يصح لمن لا يجيز أن يأتم المفترض بالمتنفل، وإن كان الإمام يعتقد صحة هذا، لأن المأموم هو في خاصة نفسه مطلوب في مذهبه بأن لا يأتم بمتنفل، بخلاف ما إذا كانت الشرائط معتبرة في حق الإمام؛ مثل مسألة المتدلك مع من لا يتدلك، أو لا يرى الوضوء من القبلة أو اللمس، فأن هذه عند المأموم شروط في صحة الصلاة للمصلي لا في صحة الائتمام.

قلت: حاصل ما اختاره العوفي التفريق بين ما هو شرط في صحة الاقتداء، ككون الإمام غير متنفل وغير صبي، ومساواة الصلاتين ونية الإمامة في الجمعة، وما ذكر معها وغير ذلك مما هو مذكور في كتب الفروع وبين ما هو شرط في صحة صلاة الإمام، فتضر المخالفة عنده في القسم الأول دون الثاني، وقد يشكل على ذلك كون صحة صلاة الإمام شرطاً أيضاً في صحة الاقتداء، إذ لا يصح الاقتداء بالكافر والمُحْدِث وغيرهما من متلبس بما تبطل به صلاته. فيجاب بأمرين أحدهما أنا لا نسلم أن كل ما يبطل صلاة الإمام يبطل صلاة المأموم فإن المحدث الساهي تصح صلاته وتصح صلاة المقتدي به، وكذلك غيره ممن تجب إعادته دون إعادة مأمومه، وإذا كان كذلك فليس كل ما هو شرط في صحة الصلاة شرط في صحة الاقتداء. ويجاب أيضاً بأنا لو سلمنا كون صحة صلاة الإمام شرطاً في صحة الاقتداء فمعناه صحة صلاته في مذهبه، فإنا لو سئلنا عن نفي مس ذكره وصلى، أو عن شافعي ترك الدلك أو مسح كل الرأس، لما أمكننا أن نقول بطلت صلاته، وإلا بطل المعتقد من كون الأئمة المجتهدين على هدى وأن مقلديهم كذلك، فإذا فهمت ضابط العوفي علمت أنه لا يتناول مسألتنا، إذ ليس من شروط المقتدي، لأن المصلي مطلوب به في خاصة نفسه، ولو لم يقتد به أحد، أو ما هو من شروط

---

[1] ساقط من ط.

الاقتداء إنما يطالب به الإمام أو المأموم، أو هما معاً، لا الفذ المصلي وحده، وكل ما يطالب به الفذ فهو من شروط الصلاة لا من شروط الاقتداء، وقد نقل الفيشي في حواشيه عن شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم اللقاني أن طريقة سند والعوفي متفقتان على أن الاقتداء صحيح ما لم يأت بمناف، أي يتيقن أنه أتى بمنـــاف برؤيـــة أو إخباره، وارتضاه ابن عرفة، وأنا لا نعمل إلا به، هـــ ما نقله[1] عنه.

قلت: ومراده بالمنافي إخلال بشرط أو وجود مانع، وليس في مسألتنا إخلال بشرط ولا وجود مانع، بل تلبس بجائز على مذهب أشهب، أو مكروه أو ممنوع تصح الصلاة معه على مذهب غيره الذي هو المشهور، إلا أن ظاهر كلام اللقاني أن العوفي وسند متفقان في سائر المنفيات وليس كذلك كما يظهر من كلاميهما الذي نقلته، فإن المنافي عند العوفي خاص بما فيه إخلال بشرط من شروط الصلاة لا في الاقتداء، وعند سند عام في كل ما فيه إخلال بشرط من شروط الـــصلاة، سواء كان من شروط الاقتداء أو لا، على ما يظهر من كلام ناقلي كلامه، وقد تقدم لنا أن كلامه المذكور لا يقتضي ذلك، وإنما يقتضي أن ما حـــصلت فيـــه المخالفة الفعلية ليس من محل الإجماع، اللهم إلا أن يكون له كلام آخر صريح في المسألة غير المنقول، و لم ينقل الشارحون والمتكلمون على المسألة عنه إلا ما ذكرنا، ورأيت في طرة غير معزوة أن المعتبر في شروط الصلاة مذهب الإمام، وفي شروط الإمامة مذهب المأموم. وإذا كان الإمام يرى أنه يصح أن يعيد الـــصلاة ثانيـــة مأموماً، والمأموم لا يرى ذلك، فلا يصح الاقتداء به لأن العبر بعقيدته هـــ. وكأنه تحصيل لطريقة العوفي. فإن قيل لا نسلم أنه ليس من شرط الاقتداء، لأنه داخل في محل النزاع، فإن النزاع في كون المخالفة تمنع من الاقتداء أو لا تمنع، وأن الموافقة هل هي شرط في الاقتداء أم لا. وجوابه أنه لا قائل بأن مجرد المخالفة يمنع مـــن الاقتداء، ولا بأن الموافقة في غير الشرط والواجب شرط في الاقتداء، لأنَّ الإجماع منعقد على أن مالكياً لو اقتدى بشافعي مستكمل لشروط الصلاة وشروط الاقتداء على مذهبنا صَحَّت صلاتُه، ولو أخَلَّ بشيء مما ليس بشرط ولا واجب، والإجماع في هذا لا أظن أن له مخالفا، والنزاع إنما هو حيث يخـــل بـــشرط أو واجـــب، والإجماع في هذا لا أظن أن له مخالفا، والنزاع إنما هو حيث يخل بشرط أو واجب من شروط الصلاة أو من شروط الاقتداء، فخص العوفي المنع بأحد الإخلالـــين،

[1] في ط: نقلته.

ومعلوم مما تقدم أن الصلاة في الحجر إنما قال أهل المذهب أنها ممنوعة في حق المصلي نفسه سواء اقتدى به أحد أو لم يقتد، ومع ذلك فليس مانعاً من صحة الصلاة على المشهور، وإنما هو ممنوع في نفسه، ولو سلم أنه مانع من الصلاة فليس تركه من شرط الاقتداء، لأن ما كان من شروط الاقتداء إنما يتصور تركه في صلاة فيها اقتداء، إذ هو فعل لا بد فيه من مقتد ومقتدى به، فكل فعل اشترط أو منع في حق صلاة الإنسان وحده فلا يقال فيه أنه من شروط الاقتداء، والصلاة في الحجر إنما قيل بمنعها في حق المصلي وحده ولو لم يقتد به أحد. نعم يرد على هذا الضابط في الجملة أشكال من قيل من يقول أن المخالفة الفعلية في الشروط والواجبات تمنع من صحة الاقتداء مطلقاً، ومنهم القرافي في الذخيرة فإنه قال: الشرط السادس من شروط الإمامة موافقة مذهب الإمام في الواجبات، ثم ساق كلام ابن القاسم في العتبية، وكلام أشهب وسحنون، ثم كلام سند وما ذكره في الذخيرة مخالف لما ذكر في الفروق، والعبرة بما في الفروق لأنه متأخر عن الذخيرة، وبيان الإشكال وهو أن يقال: التقسيم الواقع في الضابط مختل لأن المقسوم لا بد أن يكون أعم من كل واحد من قسميه أو أقسامه، كتقسيم الحيوان إلى ناطق وطائر وناهق، وهو غير ذلك، فكل واحد من الأقسام أخص من المقسوم في الأمور المعنوية، أو أقل منه في الأمور المحسوسة، وهذا التقسيم على خلاف ذلك، لأن المقسوم عندنا هو المخالفة الفعلية الكائنة بين الإمام ومأمومه في الشروط والواجبات، فقسمناها إلى مخالفة فيما هو من شروط الاقتداء تمنع من الاقتداء، وإلى مخالفة فيما هو من شروط صحة صلاة المصلي نفسه، فلا تمنعه. والقسم الأول هنا أعم من المقسوم، فإن من شروط الاقتداء عندنا موافقة الإمام لمأمومه في فعل الشروط والواجبات، فإذا خالف فقد وقعت المخالفة فيما هو من شروط الاقتداء مساوية بالمخالفة في شروط الاقتداء مساوية للمخالفة في الشروط الفعلية أو أعم منها، فكيف يكون قسما منها، وإن شئت قلت أن المخالفة في شروط الاقتداء أعم من المخالفة في شروط صحة صلاة المصلي، فكيف يكون قسيما له، والجواب أن يقال هذه مغالطة، فإنما هو في الشروط التي يمكن أن تقع فيها المخالفة لا في نفس المخالفة، والشروط التي يمكن أن تقع فيها المخالفة منقسمة إلى قسمين ليس أحدهما أعم من المقسوم ولا مساو، ولا يقال أن الموافقة في الشروط من جملة شروط الاقتداء لأنا ننقل القسمة إلى الشروط التي تقع فيها الموافقة فيدور، فعلم أن

ما وقعت فيه القسمة لا يصح إدخاله في أحد الأقسام غير القسم. وإذا أوقع القسمة فيه فكيف يجعله من جملة الأقسام.

السابع: ولما كان عمدة المتأخرين في تحقيق مسألة الاقتداء بمخالف في الفروع، وهو كلام القرافي في الفروق، وكان أبسط وأوعب وأقرب إلى التحقيق من غيره، أردنا أن ننقل من كلامه في كتاب الفروق وفي كتاب الأحكام ما تتضح به المسألة، ثم نعقبه بكلام من اقتفى أثره من المؤلفين في قواعد المذهب كالقاضي أبي عبد الله المقري وإمام المذهب سيدي أحمد الونشريسي وغيرهم، فنقول: قال القرافي في كتاب الأنوار والقواعد السنية في الأسرار الفقهية ما نصه: الفرق السادس والسبعون بين قاعدة المسائل الفروعية التي يجوز التقليد فيها من أحد المجتهدين فيها للآخر، وبين قاعدة مسائل الأواني والثياب والكعبة وغيرها لا يجوز لأحد المجتهدين فيها أن يقلد الآخر هذه المسألة، يقال إن الشافعي، رحمه الله، سُئل عنها فقيل أيجوز أن يُصَلِّي الشافعي خلف المالكي، وإن خالفه في مسح الرأس وغيره من الفروع، وهل يجوز لأحد المجتهدين في الكعبة والأواني أن يصلي خلف المجتهد الآخر، فسكت عن الجواب عن ذلك، وكان الشيخ عز الدين رحمه الله يحكي ذلك عنه، وكان يفرق هو رحمه الله بأن الجماعة في الصلاة مطلوبة لصاحب الشرع، فلو قلنا بالمنع من الائتمام بمخالف في المذهب، وأن لا يصلي المالكي إلا خلف مالكي، ولا شافعي إلا خلف شافعي لقلَّت الجماعات، وإذا منعنا من ذلك في القبلة ونحوها لم يخل ذلك بالجماعات كبير خلل لندرة وقوع مثل هذه المسألة، وكثرة وقوع الخلاف في مسائل الفروع، هذا جوابه رحمه الله، وقد ظهر لي في ذلك جواب هو أقوى من هذا، وهو أن القاعدة أن قضاء القاضي متى خالف إجماعاً أو نصاً أو قياساً جلياً، أو القواعد، نقضناه، وإذا كنا لا نقر حكما تأكد بقضاء القاضي، فأولى أن لا نقره إذا لم يتأكد، فعلى هذا لا يجوز التقليد في حكم هو بهذه المثابة، لأنا لا نقره شرعاً، وما ليس بشرع لا يجوز التقليد فيه، فعلى هذا كل من اعتقدنا أنه خالف الإجماع لا يجوز تقليده، وبهذه القاعدة يحصل الفرق في غاية الجودة. بيانه بذكر[1] أربع مسائل: المسألة الأولى المجتهدون في الكعبة إذا اختلفوا لا يجوز أن يقلد أحدهم الآخر، لأن كل واحد منهم يعتقد أنه ترك أمرا مجمعا عليه، وهو الكعبة، وتارك المجمع عليه لا يقلد، أما المختلفان في

[1] ساقط من ط.

مسح جميع الرأس، فإنما يعتقد كل واحد منهم في صاحبه أنه خالف ظاهراً من نص أو منطوق آية أو مفهوم لفظ، وذلك ليس مجمعاً على اعتباره، ولا وصل إلى حد القطع، بل هو في محل الاجتهاد، فجاز له الصلاة خلفه وتقليده، بخلاف اعتقاده أنه خالف الكعبة المجمع عليها المقطوع باعتبارها، وهذا فرق في غاية الجلاء، فأين المقطوع من المظنون، وأين المجمع عليه من المختلف فيه هـ. ثم ساق المسائل الثلاث الأخر وهي من هذا النمط. الثانية: منها المجتهدون في الأواني التي اختلف طاهرها بنجسها، إذا اختلفوا. والثالثة المجتهدون في الثياب التي اختلط طاهرها بنجسها إذا اختلفوا، وذكر أنه لا يأتم أحدهما بالآخر. والرابعة: إناء وقع فيه روث عصفور توضأ به مالكي، وصلى يجوز للشافعي أن يصلي خلفه ولا يضره ذلك كما لا يضره ترك المالكي البسملة وغيرها مما يعتقده الشافعي، ثم ذكر لو أنه اختلط هذا الإناء بإناء طاهر فاجتهد فيه شافعيان فاختلفا لا يجوز لأحدهما أن يقتدي بالآخر، وفرق بينه وبين اقتداء الشافعي بالمالكي المتوضئ، لأن الشافعيين مقلدان لمن يعتقد نجاسة الروث، والإجماع منعقد على أن حكم الله تعالى في حق الشافعي ومن قلده ما ظهر من اجتهاده يعتقد أن الشافعي الآخر قد أصاب ما هو مبطل لصلاته بالإجماع، ومن اعتقدنا فيه مخالفة الإجماع لا نقلده بخلاف صلاة هذا الشافعي خلف المالكي، لأنَّ حكم الله في حق مالك ومن قلّده صحة صلاته بروث العصفور إجماعاً، وأنه لم يخالف إجماعاً بل خالف قياساً مظنوناً، أو ظاهر نص غير مقطوع به. ثم قال: فتأمَّل هذه المسائل وهذه المباحث فهي دائرة كلها على حرف واحد، وهو من اعتقدنا فيه أنه خالف مقطوعا به لم يجز لنا تقليده والصلاة خلفه، وهو روح الفرق، وهو فرق جيد جدا، ولكن بعد التأمل هـ. مع بعض اختصاره.

قلت: وبما ذكره القرافي في المسألة الأولى يتضح ما ذكرناه في آخر كلام الفاكهاني الذي نقلته أنه لا يصح تخريج اللخمي الخلاف على قول أشهب في قوم صلوا في بيت مظلم لافتراق المسألتين، فلا يصح تخريج إحداهما على الأخرى، وبقوله لو اختلط هذا الإناء بإناء طاهر إلخ، يندفع النظر الذي ذكره المؤلف كما سيأتي بعد ذكره للفرع الذي نقله ابن عبد البر عن ابن حنبل، وحكايته عن القرافي في جواز التقليد في المسائل الفروعية دون الثياب والأواني. قلت: وقد علم مما تقدم مرارا أن نازلتنا ليست في ورد ولا صدر مما ذكر القرافي أنه يمتنع فيه الاقتداء، لأن

المصلي في الحجر لم يخالف إجماعاً ولا نصاً قاطعاً، ولا قياسا جليا، ولا جرى على خلاف القواعد، هذا كله لو كان مشهور مذهبنا بطلان صلاة المصلي فيه، وأما من حيث كان المشهور الصحة كما تقدم فنحن في غنى عن الاستدلال بهذا كله.
الثامن: لما كان من المستفيض عن المتأخرين أنه لا يقبل من كلام القرافي في الفروق إلا ما قبله الإمام أبو القاسم بن الشاط السبتي رحمه الله في كتابه الذي سماه: أدوار الشروق على أنوار الفروق، وأردت أن أذكر كلام ابن الشاط فيما تعقب به هذا الفروق، وليعلم الناظر فيه أنه لم يتعقب من فقهه شيئا، وإنما تعقب أمورا ترجع إلى تحقيق الفرق وبيانه وأن فقهه مسلم عنده كما يظهر من مجرى كلامه. فأقول: تعقب عليه قوله: يجوز التقليد فيها، فقال هو موهم، ومراده يجوز الاقتداء، ثم ذكر فرق عز الدين بن عبد السلام فقال بعقبه. فقلت: الفرق الصحيح أن مسألة اقتداء المالكي بالشافعي مع أنه لا يتدلك، لا يمكن الخطأ فيها على القول بتصويب المجتهدين، أو لا يمكن فيها تعيين الخطإ على عدم التصويب. ومسألة الأواني ونحوها لا بد من الخطإ فيها، ويمكن تعيينه في بعض الأحوال هـ كلامه.

قلت: وما فرق به ابن الشاط وزعم أنه هو الصحيح نص في مسألتنا مما يصح فيها الاقتداء إذ هي مما لا يمكن فيه الخطأ أو تعيينه، وأنت خبير بأن فرقه لا يخالف فرق القرافي في فقهه لأن كل ما يقول فيه بصحة الاقتداء يقول به القرافي، وإنما اختلفا فيما يفرق به بين ما يصح فيه الاقتداء وما لا، ولا شك أن فرق ابن الشاط أوضح وأبين وأقل تشعيبا، وإن كان فرق القرافي مآله إلى هذا، لأن من خالف إحدى الأمور الأربعة تعين خطؤه إن انفرد وإن التبس بغيره أمكن تعينه، والمصلي إلى غير القبلة مخالف الإجماع إلا أنه إن كان وحده لا يتعين خطؤه إلا بعد ظهور الدليل، وإن كان اثنان وصلى كل واحد إلى جهة فأحدهما مخالف للإجماع، ويمكن تعيينه بظهور الأدلة إذ لا يمكن كون القبلة في جهتين، والمنصف يعلم أن فرق ابن الشاط وإن كان حسنا، فالقرافي هو الذي نهج له الطريق في تحقيق ذلك وبسيره اقتدى في تبيين ما هنالك، فله فضل السبق في استنباطه، والآخر له فضل التتبع في تحقيقه وتبيينه، ثم ذكر فرق القرافي، ثم قال ما نصه: قلت: الفرق إنما ينبغي أن يكون من لوازم أحد الأمرين المفرق بينهما وذلك موجود فيما ذكر ولا فيما ندري. قال في المسائل: صحيح بناء على ما قرر، وهو أن الفرق مخالفة الإجماع في أحد الطرفين ذلك صحيح، غير أن الإجماع إنما انعقد

في أحد الطرفين دون الآخر لتعين المناط في مسألة الأواني، وعدم تعينه في مسألة البسملة ونحوها، هـــ كلامه بحروفه، و لم أترك شيئاً مما تعقب به هذا الفرق.

قلت: وما ذكره من انعقاد الإجماع في أحد الطرفين دون الآخر فيه عندي شيء إن كان معناه ما فهمته، وهو أن مسألة القبلة أحدهما مخطئ بالإجماع دون ترك البسملة لتعين المناط في الأولى دون الثانية، لأنا نقول أن عدم تعيين المناط في مسألة البسملة لا يمنع انعقاد الإجماع، فإن مراد القرافي كما يظهر من كلامه أن مسألة البسملة ونحوها، وإن لم يتعين فيها المناط بالإجماع منعقد على أن حكم الله فيها في حق كل واحد ما أداه إليه اجتهاده فيها، وكذا كل من قلده. وإذا كـــان كذلك فالإجماع منعقد في كلا الطرفين، إلا أن مستنده في الطرفين مختلـــف، ولا ضرر في استناد الإجماع إلى أمر مظنون كما نص عليه الأصوليون وإن كان معنى ما يذكره غير ما فهمته، فليبين من فهمه وجه كون الإجماع منعقـــدا في أحـــد الطرفين دون الآخر، والله أعلم. التاسع: وأما كلامه في كتاب الأحكام في تمييـــز الفتاوى عن الإحكام فقد قال في آخر السؤال الثامن والثلاثين ما نصه: مـــسألة بعيدة الغور معضلة، نقل الشافعية أنها سئل عنها الشافعي رحمه الله و لم أرهم نقلوا جوابه فيها، وهي أن المقلدين لأرباب المذاهب يجوز أن يصلي بعـــضهم خلـــف بعض، وإن كان كل منهم يعتقد أن مخالفه فعل ما لو فعله هو لكانـــت صـــلاته باطلة، كمن مسح بعض رأسه أو ترك البسملة أو التدلك في الطهارة ونحو ذلك، وكذلك يجوز لأحد المجتهدين في هذه المسائل أن يصلي خلف من يخالفـــه مـــن المجتهدين. ويحكى أن ذلك جائز إجماعاً وأن الخلاف فيه مسبوق بالإجمـــاع، ثم انعقد الإجماع على خلاف ذلك في المجتهدين في الأواني والقبلة والثياب المختلط نجسها بطاهرها ونحو ذلك إذا أدى اجتهاد أحد الشخصين إلى خلاف ما أدى إليه الآخر أنه لا يجوز تقليده له ولا أن يصلي خلفه لأنه يعتقد بطلان صلاته باعتبار ما خالفه فيه، فما الفرق بين البابين؟ لم ينقل عن الشافعي، رحمه الله، فيها جوابـــا. وأجاب بعض متأخري الشافعية بأن القسم الأول لو منعنا الاقتداء منه لأدى إلى تقليل الجماعات لعموم موانع الاختلاف في تلك المسائل وكثرتها بخلاف القـــسم الثاني فالاختلاف فيه نادر، فمنع الاقتداء فيه لا يفضي لذلك وهو ضعيف فـــإن مصلحته للاقتداء إن كانت لا يبطلها الخلاف في الاجتهاد وجـــب تجويزهـــا في الجميع، وألا فيمتنع في الجميع، ولأنه فارق وبحث لا يشهد له شاهد بالاعتبـــار.

والجواب الحق أن فقه المسألة أن الله تعالى شرع لكل فريق من المخالفين في مسألة مسح الرأس ونحوها ما أدى إليه اجتهاده وجعله شرعا مقررا في نفس الأمر، كما جعل الحل في الميتة للمضطر وتحريمها على المختار حكمين ثابتين في نفس الأمر لفريقين بالإجماع، وجعل الله تعالى الظنين في حق المجتهدين كالوصفين من الاضطرار والاختيار في حق المكلفين بالنسبة إلى الميتة. أما المجتهدان في القبلة ونحوها فقد أجمعا على أن ثم حكماً معتبراً في نفس الأمر، وهو القبلة أو الطهورية، وأن تركه خطأ بإجماع الفريقين إذا تعين، وكل واحد من الفريقين غلب على ظنه أن مخالفه مخالف للإجماع امتنع تقليده إجماعاً، ولذلك ينتقض ما خالف الإجماع المنقول بخبر الآحاد أو القواعد أو النص، وإن كان ذلك مظنوناً فهذا قاعدة انعقد الإجماع على اعتبارها، ولا يقطع باعتباره وهو معارض البتة، فلم يمكن تقليده من يخالفه في ظننا، وفي الأول لما تقابلت الظنون أمكن أن يكون كل ظن معتبراً في حق صاحبه، ولذلك تقرر شرعا عاما في حق ذلك المجتهد وحق من قلده إلى يوم القيامة، سواء فرّعنا أن كل مجتهد مصيب أم لا، ونظيره لو اجتمع شافعيان يعتقدان أن نجاسة الأرواث، واجتهدوا في ثوب نجس بالأرواث لم تجز صلاة أحدهما خلف الآخر، وتجوز صلاته خلف المالكي المعتقد طهارة ذلك الثوب، بسبب أنهما اجتمعا في الأول على عدم تقليد مالك والصلاة بالروث مع عدم تقليد من يعتقد طهارته باطلة بالإجماع، فامتنع تقليده له لأنه غلب على ظنه أنه خالف الإجماع وكذلك ماء نجس لم يتغير غير أنه أخذ من ماء دون القلتين إن كان شافعي امتنع، أو مالكي وشافعي جاز، فضابط هذا الباب أبدا أنه متى كان المقلد فيه على خلاف الإجماع في ظن المقلد امتنع وإلا جاز، وهو سر الفقه في المسألة فتأمله. هـ بكماله و لم أختصر منه شيئاً لحسنه وهو أبيَنُ وأوضح من كلامه في الفروق، وبه يتضح ما ذكرناه من كون الإجماع منعقداً في الطرفين لا كما زعمه ابن الشاط، وهو صريح في قوله، ومن غلب على الظن أنه مخالف امتنع تقليده إجماعا، والحاصل أن كلام القرافي في المسألة هو المعتمد عند المتأخرين وتلقوه بالقبول. العاشر: وممن تبعه قاضي الجماعة أبو عبد الله المقري في قواعده فقال ما نصه: قاعدة القرافي لا يجري القول بأن كل مجتهد في القبلة لتعارض أدلة الأحكام دون أدلة القبلة، فلا يقع فيها الخلاف فيها بين عالمين، لكن بين عالم وجاهل. قلت: ومن ثم قال المالكية لا يأتما، بخلاف من يوجب الفاتحة مثلا لمن لا يقرؤها، وأصل القاعدة أن تعيين الحكم يمنع تعَدُّد المصيب وبالعكس كأحد

الإناءين والثوبين، وكالعقليات ونحو ذلك، ومن قال المصيب واحد إنما قالــه لأن اعتقاده أن لله، عز وجل، في الاجتهاديات أحكاماً معيّنة أمر المجتهدين بالبحـــث عليها، وقدرهم بعد استفراغ الوسع بعدم إصابتها بل آجرهم على بذل جهدهم في طلبها، وهو الأقرب. ومن قال: كل مجتهد مصيب فما قاله إلا على الاعتقاد أن لا حكم إلا ما ظن المجتهد فيها، والأحكام تابعة للمظنون، وليس في نفس الأمـــر حكم معين، وهذا يقول حكم الله عز وجل في هذه الواقعة التحليـــل والتحـــريم لشخصين أو لشخص في وقتين هـــ كلامه.

قلت: وإذا تأملت كلام المقري وجدته زبدة كلام القـــرافي في الكتـــابين وموافق لكلام ابن الشاط غير مخالف لكلام القرافي عند التحقيق. وقوله: ومن ثم قال المالكية إلخ نص في نازلتنا وشاهد لها بالأولوية لأن الحكم فيها ليس بمـــتعين، ولا الخلاف فيها كالفاتحة التي مثل بها والله أعلم. الحادي عشر: وممن تكلم على المسألة وأجاد حافظ المغرب من المتأخرين وإمام المحققين، شيخ مشايخ مـــشايخنا سيدي أبو العباس أحمد المنجور في شرحه لكتاب المنهج المنتخب إلى نظم قواعد المذهب، وجامعه الشيخ أبو الحسن علي بن قاسم بن محمـــد التجـــيبي الـــشهير بالزقاق[1] فقال في شرح قول الناظم:

[رجز]

هل كل من لــهُ اجتـــهاد واحـــد فيمـــا يظـــن نـــسبة أو واحـــد

ما نصه: أي هل كل مجتهد في الفروع الظنية مصيب، أو المصيب واحد لا بعينه، اختلفوا فيه ومن ثم أجمعوا على إجزاء صلاة المـــالكي خلـــف الـــشافعي وبالعكس، وإن اختلفوا في مسح الرأس وغيره من الفروع. حكى هذا الإجمـــاع المازري واعتذر عن قول أشهب: من صلى خلف من لا يرى الوضوء من القبلـــة أعاد أبداً فإنه رأى الوضوء من القبلة كالأمر القطعي، وقوى اعتذاره بقول أشهب بخلاف مس الذكر لأنه رآه ليس كالقطعي، وخرج اللخمي الخلاف في جـــواز ائتمام أهل المذاهب الفرعية الظنيّة من قول أشهب ابن راشد. وفيما قاله المازري نظر، ومن أين لأشهب دليل قطعي على وجوب الوضوء من القبلة، وقد قال ابن

[1] أبو الحسن علي بن قاسم الزقاق التجيبي، فقيه علامة، ألف لامية في الأحكام معروفة بلاميـــة الزقـــاق، توفي سنة 912 هـــ: شجرة النور الزكية 1:396.

الخطيب في محصوله: الدلائل السمعية لا تفيد اليقين إلا بنفي تسع احتمالات، وما أظن ذلك بموجود. نعم مراتب الظنون تقوى وتضعف، وبالجملة استقراء اللخمي صحيح.

ابن عبد السلام ليس هناك إجماع، وقد نص الشافعية على الخلاف عندهم في ذلك، بل ظاهر كلام المازري في كتاب الأقضية وجود الخلاف في ذلك لأن في العتبية عن ابن القاسم: لو أعلم أن أحداً لا يقرأ في الركعتين الأخيرتين ما صليت خلفه. ابن عرفة: هب أن المازري اعتذر عن قول أشهب فيما يعتذر به عن قول سحنون: من ائتم بمن لا يرى الوضوء من القبلة أو مس الذكر أعاد ما لم يطل. ابن عرفة: فالإجماع المذكور في المخالف هو من حيث اعتقاده لا من حيث تركه ما يوجب المأموم، فهذا هو المخرج فيه، وكذا لابن عبد السلام، وعليه إذا اختلف اجتهاد الرجلين في القبلة أو الأواني أو الأثواب التي بعضها نجس هل يؤم أحدهما الآخر أم لا. ابن الحاجب في القبلة: وإذا اختلفا لم يأتما. ابن عبد السلام: هذا بين، وهو أبين منه في مسألة الأواني إذا كثرت. ابن راشد: رأيت في بعض كتب المالكية جواز الائتمام مع كراهة، فيصلي كل واحد إلى الجهة التي أدَّاه إليها اجتهاده هـ. ثم ذكر كلام المقري المتقدم وبعض كلام القرافي المتقدم غير منتقد لشيء منه، وذكر كلام الونشريسي في إيضاح المسالك، وسأذكره بعد هذا. وتنظير ابن راشد في قول المازري مدفوع بأن المازري إنما قال إن أشهب يراه كالقطعي، ومستنده ما تقدم في كلام الفاكهاني أنه يرى القبلة من اللمس الذي جاء به القرآن، فإذا كان أشعب يرى بالأدلة الصحيحة عنده أن القبلة من اللمس المذكور في القرآن، فهو عنده كالقطع، ويحتمل أن أشهب لا يسلم ما قال ابن الخطيب، وعلى تقدير تسليمه، فقد يكون أشهب ظهر له ما ينفي الاحتمالات التسع، وعلى كل حال فالمازري لم يقل إنه أمرٌ مقطوع به إنما قال إنَّ أشهب يراه كالقطعي، وليس فيما ذكر ابن راشد ما يدل على أن أشهب لا يراه كالقطعي، وإنما يدل على أنه ليس قطعياً، وفرق بين قولنا هو أمر قطعي، أو أشهب يراه كالقطعي، فإذا احتمل أن يكون أشهب يراه كالقطعي صح اعتذار المازري، ولو لم يصح كونه قطعيا، يظهر ذلك بالتأمل. قلت: وإن كلامه نص في جواز مسألتنا وغيرها من الفروع التي يقع فيها الخلاف من غير تقييد بشرط أن لا يراه يفعل ما ينافي ما في مذهبه، وما صدر بهذا حتى ارتضاه كما هو ظاهر كلام غيره أيضا،

وعليه يحمل كلام صاحب المختصر كما ذكره جمع من شراحه، وقد تقدم هـذا وما عقبه به مما يقدح في الإجماع لا يقدح في كون هذا هو مشهور المذهب، لأنّ النزاع إنما هو في كونه مجمعاً عليه أو محل خلاف، وعلى تسليم الخلاف فليس في كلام المثبتين ما يدل على تشهير المنع، وهاهنا نكتة تقوي الصحة في مسألتنا بالخصوص، وذلك أن أقوى ما استدل به مثبتو خلاف قول أشهب بالإعادة خلف من لا يرى الوضوء من القبلة، وقد تقدم أن قول أشهب في الصلاة في الحجر الجواز بلا منع، فليست هذه المسألة عند أشهب داخلة في المخالفة أصلاً. وإذا كان كذلك فهي داخلة في الإجماع لا يتطرق إليها اختلاف أشهب كيف وأشهب يقول بخلاف مس الذكر فإنه لا يرى الإعادة على من صَلَّى خلف المخالف فيه، ولا يشك منصف أن الصلاة في الحجر عنده أخف من مس الذكر، بل وعند غيره، لأن مشهور المذهب أن مس الذكر عندنا ناقض مبطل للصلاة بخلاف الصلاة في الحجر. وأما قول ابن عرفة بم يعتذر المازري عن قول سحنون إلخ، أقول: إن قول سحنون لا يدل على بطلان الصلاة، بل يدل على الصحة لأن قيد الإعادة عدم الطول، وذلك يدل على صحة الصلاة عنده، وإلا لقال بالإعادة أبداً. وأما قول ابن القاسم في العتبية: لو أعلم أن أحداً لا يقرأ في الركعتين إلخ، فلا نسلم أن قوله: ما صليت خلفه، يدل على بطلان صلاة المصلي خلفه، لأنه إنما ينبغي أن يصلي خلفه، وذلك لا يدل على بطلانها لاحتمال أن يرى ذلك هو مكروهاً أو ثقيلاً عليه، أو أنه خالف الأولى عنده، وقد علم من ديانة ابن القاسم وورعه واحتياطه في دينه ما يمنعه من ارتكاب المكروه، وخلاف الأولى، ويصير ذلك كالممنوع في حقه تورعاً. هذا إن لم ينقل عنه سوى هذا اللفظ، ولو نقل عنه ما يكون صريحاً في البطلان فلا يبعد أن يكون ذلك عنده مخالفا للقطعي فلا يكون داخلا في الإجماع، لأن دليل القراءة في الأخيرين في غاية القوة والوضوح والصحة، وكل من يخالف فيه من أرباب المذاهب لا يبعد أن يعد خلافه من الخلاف الضعيف الذي ينقض معه حكم الحاكم، وهو خارج عن محل الإجماع، وإنما الخلاف عندهم هل تتعين القراءة بالفاتحة أو بما تيسر من القرآن. وأما ترك القراءة فيها أصلا للفذ والإمام فلا. وهذه الأقوال الثلاثة، وهي أشهب وسحنون وابن القاسم هي التي خدش بها الإجماع، وقد ذكرنا محاملها حتى أنها لا تتناول مسألتنا، وما يقرب منها من الفروع الظنية، والله الموفق للصواب.

الثاني عشر: قال الإمام المحقق حافظ المغرب في أوانه، وجامع شوارده المتفق عليها والمختلف فيها، سيدي أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي في كتابه: إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك ما نصه: قاعدة: كل مجتهد في الفروع الظنية مصيب، أو المصيب واحد لا بعينه، اختلفوا فيه، ومن ثَمَّ أجمعوا على إجزاء صلاة المالكي خلف الشافعي وبالعكس، وإن اختلفا في مسح الرأس وغيره من الفروع، ثم قال: تنبيه: قد تقرر في مذهبنا أنه لا يجوز تقليد أحد المجتهدين الآخر في مسألة الأواني والقبلة، وجاز ذلك في أكثر المسائل الفروعية. وقيل إن الشافعي سئل عنها فلم يجب، ثم ساق جواب العز ابن عبد السلام وقبله وارتضاه، ثم ذكر كلام القاضي أبو الدعائم سند بن عنان، ثم قال: فائدة، وذكر فيها الحكاية التي ذكر ابن رشيد في رحلته فيما وقع بينه وبين ابن دقيق العيد في قراءة المالكي البسملة أول الفاتحة، وأن المازري كان يعد ذلك خروجاً من الخلاف، والحكاية مشهورة فلا نطيل بذكرها. ثم ذكر جواب القرافي عن المسألة التي سكت عنها الشافعي ولم يتعقبه، وقد تقدم هذا، حاصل ما ذكره الونشريسي في هذه القاعدة، وقد تقدم لنا من الكلام في مواضع ما يغني عن بيان دلالته على جواز نازلتنا، والله الملهم للصواب.

الثالث عشر: قد نقل المواق عند قول صاحب المختصر: ولا يقلد مجتهد غيره ما نصه: عبد الوهاب إن اختلف مجتهدان لم يأتما. اللخمي: اختلف في هذا الأصل في صلاة المالكي خلف الشافعي والعكس. أبو عمر: سئل أحمد بن حنبل عن رجل صلى وعليه جلد ميتة فقال: لا بأس بالصلاة خلفه، إذا تأول قيل له: أفتراه أنت يطهر؟ قال: لا. قيل: فكيف يصلي خلفه وهو مخطئ؟ قال: ليس من تأوَّل كمن لا يتأول. ثم قال: كل من يتأول شيئاً عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من أصحابه فيذهب إليه، فلا بأس أن تصلي خلفه، وإن قلنا نحن بخلافه من وجه آخر. ثم ذكر حكاية إمام الحرمين وتقديمه عبد الحق الصقلي المالكي للصلاة لما اجتمع به بمكة وقال له: البعض يدخل في الكل، يعرِّض له بمسألة الرأس. ثم ذكر قول القرافي في المسائل الفروعية: يجوز التقليد فيها من أحد المجتهدين فيها للآخر بخلاف الأواني والثياب، ثم قال: انظر قوله في الثياب مع قول ابن حنبل في جلد الميتة هل بينها وبين اختلاط الطاهر بالنجس فرق هـ كلامه.

قلت: أما قول عبد الوهاب إن اختلف مجتهدان لم يأتما، فالظاهر أنه إنما قال ذلك في المختلفين في القبلة، ولذلك نقله الشارح في القبلة، وقد فحصت على هذا الكلام في كتاب المعونة فلم أره فيه، ولعله في غيره، وعلى تسليم عمومه في المختلفين فهو حيث يرى كل واحد منهما أن صاحبه مخالف للقطعي كالمجتهدين في القبلة والأواني، وإن حملناه على غير ذلك فلا بد من تقييده بالاختلاف في الشروط والموانع المبطلة. وأما قول اللخمي: اختلف في هذا الأصل إلخ. فمعناه اقتداء المجتهد بالمجتهد المخالف به والمقلد بالمقلد المخالف، وما نقل أبو عمر عن ابن حنبل موافق لقول جماعة في جواز التقليد مطلقا، ووجهه بين. وأما حكاية أبي المعالي فلا تدل على الجواز مطلقا لاحتمال أنه إنما قدمه لكون مسح كل الرأس مخالفا لبعضه كما ذكر، ولا على المنع مطلقا، لأن المخالفة ليست محصورة في مسح الرأس لأن الشافعي يوجب البسملة ولا يوجبها المالكي، وغير ذلك. وما قوله: انظر إلخ، فإنه ذهول منه، رحمه الله، وهل حقق القرافي في الكتابين إلا ذلك، فقول القرافي المتقدم ونظيره لو اجتمع شافعيان يعتقدان نجاسة الأرواث إلى آخر ما ذكر في آخر المسألة المنقولة من كتاب الأحكام هو نص في الفرق الذي نظر فيه المواق رحمه الله، ولذلك أشرنا إليه عند نقلنا لكلام الفروق.

خاتمة: فإذا تأملت نصوص الأئمة وتطبيقنا إياها على النازلة وتبيين ما أشكل منها وتوجيه ما خفي منها[1] على مدر بضاعتي المزجاة علمت أن تحصيل المسألة في تقليد المخالف في الفروع الظنية أقوال أحدها، وهو أشهرها، الجواز مطلقا، وهو الذي حكى عليه المازري الإجماع على ما فيه، وهو ظاهر كلام المختصرين، كابن الحاجب، وصاحب المختصر وغيرهما، وهو أسعد بظاهر النقول وبقواعد أصول الدين. ثانيهما: طريق القرافي في كتاب الفروق وفي كتاب الأحكام، وهو الجواز مطلقا، إلا فيما خالف إجماعاً أو نصاً قاطعاً أو قياساً جلياً، أو القواعد، ولا يبعد أن يكون ذلك هو قصد المازري أيضاً لاعتذاره عن أشهب في القبلة بأنه رآه كالقاطع، فعلم أن ما خالف القاطع عنده ليس من الجواز في شيء، بل يتعين حمل كلامه على ذلك، لأن الكلام إنما هو في المخالف في الفروع الظنية وما فيه إجماع أو نص قاطع ليس من الظن في شيء، فالإجماع عنده إنما قام على صحة الاقتداء بالمخالف في الفروع التي مدركها ظني. وأما ما مدركه قطعي فيلغي خلاف

(1) ساقط من ط.

المخالف فيه، فعلى هذا فطريقه وطريق القرافي شيء واحد، ويكون كلام القرافي كالبيان لكلام المازري، إلا أنه يبقى النظر فيما خالف القواعد والقياس الجلي هل يلتحق عند المازري بما خالف القاطع فيكون خارجاً عن الإجماع، أو يكون سبيله سبيل ما كان المدرك فيه ظنياً إن لم يخرج بعد عن رتبة المظنون ولا وصل إلى حد القطع الذي لا يعتبر غيره. ثالثها: طريق سند وهي الجواز إذا كانت مخالفته في الشروط اعتقاداً لا فعلاً، وقد تقدم شرحها، وأن كلامه المنقول إنما يدل على الإجماع إذا كانت المخالفة اعتقاداً والخلاف إذا كان فعلاً. رابعها: طريق العوفي، وهو المنع إذا خالف فيما هو من شروط الاقتداء، وقد تقدم تقريرها أيضاً، وبقي طريقان آخران ربما يفهمان من عموم كلام بعض المصنفين ولم أرَ من صرح بهما، بالخصوص أحدهما، وهو الجواز مطلقاً، ولو خالف قطعياً فإنه ربما يفهم من كلام المختصرين والمصنفين في القواعد كالمقري والونشريسي. وثانيهما المنع مطلقا بمجَرَّد المخالفة، ولو وقع الاتفاق في الشروط والواجبات، وربما يفهم من قول من يطلق الخلاف من أهل القواعد، فيقول اقتداء المالكي بالشافعي مسألة خلاف بالجواز والمنع. ولا أظن أحداً يقول بهذا إذ لا وجه له فقها وتفقها. والصحيح الذي لا محيد عنه أن الأقوال الأربعة المتقدمة المتوسطة بين الطرفين كلها مقبولة لها وجوه في النظر والنقل، وأقربها الأول ثم الثاني إن لم يكونا قولاً واحدا، ثم الثالث، ثم الرابع، والقولان الأخيران غير معتبرين سيما الأخير منهما.

وأما نازلتنا فقد علم أن الصلاة فيها صحيحة على الأقوال الأربعة في مشهور المذهب أن صلاة المصلي في الحجر صحيحة، سواء قلنا إنها ممنوعة أو مكروهة، فضلاً عن كونها جائزة، وإذا قلنا إنها باطلة إذا تعمدها كما هو مذهب ابن حبيب وأصبغ وبعض البغداديين، وهي صحيحة أيضاً إلا على قول سند، إن وجد في كلامه ما يدل على ما نسبوه إليه، فمجموع التقريرات المعتبرة فيها ستة عشر تقريراً، تبطل في واحد منها وتصح في الباقي، وبيان ذلك أن كل واحد من الأقوال الأربعة له أربع تقريرات فعلى قول المازري يصح الاقتداء، سواء قلنا أنها جائزة أو ممنوعة أو مكروهة أو باطلة، وكذا قول القرافي أيضاً في الأوجه الأربعة، وكذا قول العوفي في الأوجه الأربعة، وكذا قول سند إذا قلنا إنها جائزة أو ممنوعة أو مكروهة، وإن قلنا إنها باطلة فتبطل على قوله، وهو التقرير السادس عشر، وأي مشهور أقوى مما يصح على خمسة عشر تقريرا، وبطل على تقرير واحد بعدما

اعتضد به من حكاية الإجماع الشامل له، ولغيره مما هو أولى منــه بــالمنع، والله الهادي إلى الصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمــد وآلــه وصحبه وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله: ومن المزارات المشهورة بمكة دار الأرقم[1] التي اختفى فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، وفيها كان إسلام عمر، وخبرها مشهور في السير، وهي الآن مسجد قرب الصفا. ومنها موضع بسوق مكة يسمى المودع، يقال إن فيه ودّع النبي، صلى الله عليه وسلم، أهل مكة لما أراد الخروج إلى المدينة في حجة الوداع، وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة، وليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلا هذا، فيقف الناس فيه للدعاء. وقريب من هذا المكان رباط ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني يسكنه الفقراء، وله أوقاف، وبه قبور تُزَار، لا أتحقق أصحابها. ومنها مسجد الجنّ، وهو بأعلى مكة بجانب الطريق بين الدور، وفيه شجرة، يأوي إليه الفقراء، ويستظلون فيه، وهو المكان الذي جاء فيه الجنُّ إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وأسلموا. ومنها مولده، صلى الله عليه وسلم، وقد تقَدَّم ذكره. ومنها دار خديجة[2] ومولد فاطمة[3]، ومنها مولد علي، ومنها دار أبي بكر[4]، وكل هذه اتخذت مساجد. ومنها حجر في بعض أزقة مكة مبني في جدار فيه أثر مرفق يقال إنه مرفق النبي، صلى الله عليه وسلم.

ومنها شِعْب أبي طالب الذي انحاز إليه هو وبنو هاشم، وخبره مشهور في السِّير. ومنها جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها، والمسجد والبيت وفيه مغارة يقال إن فيها قبر آدم، والحجاج يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية ويصعدون إليه يأكلونها فيه، ويزعمون أن من فعل ذلك أمن من وجع الأسنان والرأس. ومنها قبل على الجبل الذي على يسار الذاهب إلى السبيكة، يقال إن فيها مولد عمر رضي الله عنه.

وأما المقابر فالحجون كلها مزارات، وأشهر المزارات فيه قبة فيها قبر أم المؤمنين خديجة، رضي الله عنها، وقبة فيها قبر الفضيل بن عياض وغير ذلك، ومحوط فيه قبور كثيرة للأئمة من العلماء الغرباء، قرأت على حجر فيه: هذا قبر

---

(1) دار الأرقم المخزومي، وهي الدار المعروفة بدار الخيزران عند الصفا، والمقصود بالزيارة منها هو المسجد الذي فيها، وهو مشهور، شفاء الغرام، ص: 274.

(2) دار خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضي الله عنها، تقع بالزقاق المعروف بزقاق الحجر بمكة، ويقال أيضا زقاق العطارين: شفاء الغرام، ص: 272.

(3) هي نفس الدار السابقة كما ذكر التقي الفاسي: شفاء الغرام، ص: 272.

(4) بني على هذه الدار مسجد في المحرم من سنة 623 هـ: شفاء الغرام، ص: 274.

الإمام القشيري، وهذا غريب إلا أن يكون نقل بعد موته إلى هناك فلم نَرَ أحداً من المؤرخين ذكر أنه مات بمكة. وعلى حجر آخر قبر أبي حامد بهاء الدين السبكي وجماعة كثيرة.

وبأسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثيرة غالبها للشرفاء من أمراء مكة. ومنها قبة سامية عالية يقال لها قبة أبي طالب، وعوام الغرباء يظنونها قبة أبي طالب عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يقول أبو طالب المكي، فسألت أهل العلم بمكة، فأخبروني أنه أمير من أمراء مكة المتأخرين من أشرافها من آل أبي نمي اسمه أبو طالب[1]. قالوا: وكان في حياته شجاعاً مقداماً فاتكاً، دَوَّخ بلاد الحجاز وقهر عربانها غاية القهر، وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرخون بموته فيقولون: كان هذا في زمان أبي طالب. قالوا: وكان سَفَّاكاً للدماء، ومع ذلك كان حسن السيرة، و لم يكن أحد يأنه بالولاية لما هو عليه من الفتك والبطش، إلا أن بعض أهل الكشف كان يقول: هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية أقيم في مقام الجلال، فلما توفي ظهرت له كرامات كثيرة وصار قبره من أعظم المزارات. فمما ظهر له أنهم قالوا: جلس جماعة من القراء حول قبره يقرؤون القرآن قرب موته كما هو عادتهم، وبين أيديهم شمعة تضيء بليل فوقعت إلى الأرض، فانطفت، فتحيروا و لم يجدوا من يوقدها لهم، فانشق القبر عياناً وخرج منه فأوقد لهم الشمعة ورجع. أخبرني بذلك ثقة وزعم أنه مستفيض عندهم. ومنها أن بدوياً خرج من مكة بقفص عنب، فلما وصل قبره تذكر حاجته بمكة، فوضع القفص ورجع، فجاء سارق ليأخذه، فيبست يده والتصقت بالقفص وبقي واقفا عنده حائراً إلى أن جاء البدوي فرأى ذلك، فلما علم الأمر قال على حسب نيته: جد يا أبا طالب، جد يا أبا طالب، أطلقه الآن فقد قضيت حاجتي، فانطلقت يد السارق وذهب.

ومن المزارات قبر القطب الولي الشهير الذكر عند أهل مكة وأعرابها سيدي عمر العربي، وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه، وأهل البادية تسمع الرجال منهم والنساء يقولون: شيء لله يا عربي، وهو عندهم عظيم القدر

---

[1] أبو طالب بن الحسن بن محمد بن بركات، أمير الحجاز نيابة عن أبيه ومستقلا بها بعد وفاة والده سنة 1010هـ، ولد سنة 965 هـ، كان حسن الهيئة شديد الهيبة، توفي سنة 1012 هـ: خلاصة الأثر 131:1. تاريخ أمراء المدينة المنورة، ص: 337.

شهير الذكر، وحق له ذلك، فإنه كان من أئمة الطريق رضي الله عنه. ومزارات مكة كثيرة جدا فلنقتصر على هذا المقدار منها. وقد زرت جميع ما ذكرت هنا، لكن سقت أخبارها مختصرة.

ولما استهل شهر ذي الحجة غصت مكة بالوفود وكَثُر الناس بها كثرة ما رأينا مثلها في غير هذه السنة، وحج خلق كثير من أهل اليمن وأطراف نجد والحجاز لأن السنة كانت مخصبة، فسهل عليهم ذلك وهم أكثر الناس في هذه السنة، وإن كان الأفاقيون أيضاً في غاية الكثرة إلا أن رحاب المسجد وأفنيته والشعاب إنما امتلأت من هؤلاء، فتهيأ أهل مكة للخروج من أول الشهر، وخرج غالب أهلها حتى العواتق وذوات الخدور، وبالغوا في انتقاء الفرش والمراكب للزينة ولذيذ الأطعمة كما هي عادتهم وخروج غالبهم إلى عرفات في اليوم السادس، ويقيمون بها السابع والثامن، وتكون لهم فيها سوق عظيمة حافلة لا يرى مثلها، يجلب طرائف الأطعمة، كما هو عادتهم، من الفواكه وغيرها من كل مكان، وأحرم بعض الناس من أول الشهر، وغالب القادمين من الآفاق من قبل ذلك بقوا على إحرامهم لأنهم أحرموا بالحج، وغالب الناس إنما يحرمون يوم خروجهم. وأما أنا فأحرمت ليلة الجمعة السابع من الشهر قارنا، ونويت الاعتكاف في هذه الليلة ويومها، وجمع الله لي بين عبادات قلما تجتمع من حج واعتكاف وصوم، وأقمت بمكة إلى ضحى اليوم الثامن، فخرجنا من مكة راجلين بلا دابة وقلت لأصحابنا: قد حججنا مراراً ركبانا فتعالوا بنا نحج في هذه المرة مشاة لتمكن ذلك لنا لخفة الحال وقلة الأتباع، وليست عندنا دواب تشوشنا، ولا خباء يثقلنا، فنأوي إلى المساجد والكهوف فنجعلها حجة صعلوكية عسى الله أن يرحمنا بالتزيي بزي الفقراء والضعفاء، فخرجنا يحمل أصحابنا زادنا على ظهورهم وأدواتنا، ولم نخرج معنا ما يثقلنا لتمكن شراء المحتاج إليه في كل مكان، فوصلنا إلى مِنَى ظُهْرًا، ونزلنا بمسجد الخيف[1] مختلطين بالفقراء، وطاب وقتنا وخفت ظهورنا، وكنا في غير هذه المرة لا نتمكن مما نريد من الجلوس في المساجد والتطواف على القانتين بها، فبتنا بالمسجد ليلة مباركة، ولم يكن به إلا طوائف قليلة من الفقراء لذهاب كثير من الناس إلى عرفات كما هو شأنهم من إماتة هذه السنة؛ وهي البيات بمنى، فلما كان الغد خرجنا قرب طلوع الشمس وذهبنا إلى عرفات فلم نصل إلى نمرة حتى اشتد

[1] مسجد الخيف، يقع بمنى، وهو مسجد عظيم الفضل: شفاء الغرام، ص: 265.

الحر وتعبنا واستقينا من المشعر ماء للاغتسال بعرفة، وآوينا إلى ظل جدار من جدران المسجد، ووجدنا الماء كثيراً في أبواب المسجد سبله بعض أرباب الدولة، جزاه الله خيراً، يبعث راوياً، حتى إذا فرغت بعث غيرها لا يزاد عنها شارب ولا متطهر إلى أن صَلَّى الناس وذهبوا إلى الموقف و لم يعهد ذلك في غير هذه السنة، فقدمنا على تحمل المشقة في استصحابه، وكان شيخنا أبو مهدي نازلاً في رواق مظلل لبعض أصحابنا التونسيين، فذهبت إليه وقَيَّلتُ عنده وقرأت عليه هناك أحاديث الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة حسبما تقدم في ترجمته، ولما زالت الشمس وجمعنا الصلاتين ذهبنا إلى الموقف في حر شديد ما رأيت طول عمري مثله، وبلغ مني الجهد غاية، وتذكرت حر القيامة فكنت كلما عزمت على الجلوس في مكان جددت ذكره، فتحاملت فكنت أنظر يميناً وشمالاً عسى أن واحداً أعرفه فآوي إلى خبائه، فمن الله علي، فلم أرَ أحداً، وتحاملت على أشد ما يكون من التعب ومقاساة الحر الشديد، سيما بعد أن دخلنا مزدحم الناس وانضغاطهم وامتزاج حرارة أنفاس الحيوانات بحرارة الشمس، وثوران غبار الأقدام على الرؤوس، حتى لا يكاد الإنسان يشك أنها نار تلظى، إلا أنها بحمد الله لا يصلاها إلا السعيد الذي آمن وأقبل على الله تعالى، وتحاملنا في ذلك الحر مع المشَقَّة التامة إلى أن وصلنا إلى موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، وما عرفناه قبل هذه السنة، وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلا دلنا عليه، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخرات مفترشة، وبنى على تلك الصخرات محوط شبه مسجد، فوقفت فيه[1] ساعة، فغلبت ثم جلست إلى أن فات وقت العصر، وقضيت الوظيف المعهود من الدعاء والاستغفار والتكبير والتهليل والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، فخرجنا عن مزدحم الناس، وطلبت هديا اشتريته لقراني وتمتعي لأذبحه بمنى، فلم يتيسر ذلك، وتأخرت إلى أن اشتريته بمكة وأرسلته إلى الحل، ثم ذبحته بمكة، و لم نزل بقية يومنا ندعو ونكبر، واشترينا لبنا خالصا سائغا للشاربين، فتروينا منه للسنة.

ولما كان قرب الاصفرار نفرت محامل الأمراء والجند، وذهب معه حطمة الناس، وتلك عادتهم لا ينتظرون الغروب في الموقف، إلا أنهم في الغالب لا يتجاوزن الحل إلا بعد الغروب. وأما الجمالون ومن في معناهم فيرحلون بعد

[1] في ط: به.

الزوال، فيذهبون بلا حج إلا على قول من قال إن الوقوف بعد الـــزوال، وإن لم يكن فرضا، يقوم مقام الفرض، وما نفرنا نحن إلا بعد الغروب وإقبال الليل، فنفرنا مع أواخر الناس على أشد ما يكون من التعب، فلم نصل إلى مزدلفة حتى قاسينا من التعب ما لا مزيد عليه، وجمعنا العشاءين، وصعدنا إلى جبل قزح وبتنا عليـــه تنحيا عن مواطئ الأقدام ومواضع الأداء، وبتنا حتى أصبحنا، ووقفنا إلى قـــرب الطلوع بالمشعر الحرام، ثم سرنا رويدا نجر الأقدام على الأرض جَرًّا، فما وصـــلنا مسجد الخيف حتى اشتد الحر، وخفت أن أجلس للاستراحة فأغلب عن رمـــي جمرة العقبة، فذهبت على ما بي حتى رميت الجمرة، فرجعت فبمجرد جلوسي ثار علي قيء وتدويخ حتى كدت أن يغشى علي، فبقيت عامة يومي لا أنتفع بنفسي، ويئست من طواف الإفاضة في تلك الأيام، وحلقت رأسي وأخرت الإفاضة إلى أن رجعنا من منى، وأقمنا بمنى ثلاثاً و لم نتعجل مع من تعجل.

ولما كان اليوم الثالث من أيام منى، وخف الناس من منى و لم يبق بها إلا بقية قليلة مع ركب أهل العراق، وهم يترلون أقصى منى، فخرجت لزيارة الأماكن التي تزار بمنى؛ منها المسجد نفسه، فإنه مترل النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو في القبة التي في وسط الصحن، وهي قبة كبيرة مثمنة الشكل، والمسجد حولهـــا منـــازل أصحابه. ومنها الغار الذي نزلت فيه سورة المرسلات، وهو فوق المسجد. ومنها مسجد النحر وهو موضع منحر النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو في وسط الدور مقابلة الجمرة الوسطى، وما عرفته إلا في هذه السنة، دَلَّني عليه شيخنا أبو مهدي، وهو مسجد واسع حسن البناء إلا أنه انهدم أكثره، وتلَوَّث بالأقذار والكناسات. وغالب المساجد والمزارات التي هي خارج مكة تنتهك في أيام الموســـم، ويترلهـــا الناس بدوابهم، ويطبخون فيها من غير نكير، وهي من البلايا العظيمة.

ومنها مسجد الكبش[1] وهو في شعب مقابل الجمرة الوسطى علـــى يمـــين الذاهب إلى العقبة، وهو بين صخور كبار، ليس حوله ديار، ويقال إنه الموضـــع الذي أخذ فيه إبراهيم، عليه السلام، الكبش الذي فدى به الذبيح عليه الـــسلام، وهناك ذبحه.

---

[1] مسجد الكبش: مسجد مشهور بمنى، والكبش الشار إليه هو الذي فدى الله تعالى به نبيه إســـماعيل بـــن إبراهيم عليهما السلام: شفاء الغرام، ص: 263.

ومنها مسجد صغير حول جمرة العقبة يقال إنه المحل الذي حلق فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ومنها مسجد العقبة في وسط الشِّعْب الذي هو أسفل من جمرة العقبة على يمين الذاهب إلى مكة، وفيه بايع الأنصار بيعة العقبة المشهورة.

ولما زالت الشمس من اليوم الثالث من أيام منى رمينا الجمار وذهبنا وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمحصب، فدخلنا مكة بعد العشاء فوجدنا المسجد الحرام غاصا بأهله لا تكاد تجد فيه مجلس رجل واحد ليس به أحد، فجلست إلى الأرض ريثما أستريح وأطوف طواف الإفاضة، فوقعت ضجة في المسجد، وانجفل الناس انجفال الغنم من غير سبب، وأخبرنا أنها وقعت ضجة أخرى مثلها قبل دخولنا أظنها بسبب سارق، فلما رأيت ذلك تركت الطواف ذلك الوقت، وخشيت أن يقع شيء وأنا متلبس بالطواف فتلحقني معرة، فذهبت إلى منزلنا وأخرت الطواف والسعي إلى آخر الليل، فوجدت الزحام قد خف، وطفت وسعيت في سعة، وتجشم بعض أصحابنا ممن أخر الطواف والسعي في ذلك الوقت، وطاف وسعى فلقي من المشقة والحرج مالا مزيد عليه. وقال بعد أن تلبست بالطواف ندمت ووددت أني اقتديت بك وأخرت إلى آخر الليل لما رأى من المشقة، وما وصل إلينا إلا بعد هزيع من الليل.

ذكر خروجنا من مكة إلى المدينة المشرفة

ولما قضينا تفثنا[1] وفرغنا من نسكنا، أخذنا في الأهبة بالرحيل وليس معنا من آلته شيء، وعزمنا على الخروج مع القوافل التي تذهب إلى المدينة قبل خروج الأركاب، وما تهيأ لنا ذلك إلا مع القافلة الثانية بعد لأي ولأي، وقاسينا مشقة عظيمة في ذلك، و لم نجد مكاريا، ولا اشترينا غالب أسباب الرحيل من خباء وأثاث إلا قرب الرحيل، واكترينا من عند أناس من عرب الحجاز ليس لهم دين ولا مروءة، كلما عقدنا معهم عقداً حلوه، وأبرمنا أمراً نقضوه، طلباً للزيادة في الكراء إلا بعد شد الأحمال على الجمال. وكان خروجنا من مكة ليلة الثلاثاء في الثامن عشر من الشهر، وكنت طفت طواف الوداع وقت العصر من يوم الاثنين، وأخذنا في حمل الأمتعة ووداع الناس من المشايخ والأصحاب، فخرجت الرواحل و لم أتمكن أنا من الخروج حتى صليت المغرب في المسجد، و لم أتمكن من إعادة الطواف، وذهبت حتى قبّلت الحجر ودعوت عنده، وخرجت ومررت بالشيخ أبي مهدي في مترله، وودعته وبكى وأبكاني، فجزاه الله عني خيراً، وخرج معي صاحبنا أبو علي حسين العجيمي، رضي الله عنه، فما لحقنا برواحلنا إلا في ذي طوى، فصلينا العشاء هناك وودعناه والقلوب مطويات على أساها، وحسرات على طول المدى لا ننساها، وأشغلنا ما دفعنا إليه من القلق ومقاساة أجلاف الأكرياء عن التألم بآلام الفراق والتسويغ لأجاجة المر المذاق، واكتفينا بعلم الله بما تكنه جوانحنا، وإن لم تقم بواجب حق البقعة جوارحنا، وسلينا أنفسنا بدعاء من خلفناه من الأصحاب، وأودعناه الدعاء من الأحباب، نسأل الله أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بتلك الأماكن المعظمة والمشاعر المحترمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه هو حسبنا ونعم الوكيل.

[كامل]

ما كان أحلاها لياليَ قد مضتْ   بالمكتين وعينُ دهري غافلهْ

---

[1] التفث: وهو ما يكون في النسك من قص الشعر وقطع الأظافر: لسان العرب: تفث.

ما كنتُ أحسبُ من حيَاتِي غيرهـــا وأرَى سِـــواها مـــن زمـــانِي نافلـــةْ
أيام جار الله كنـــتُ وجـــارَ مـــن جمـــع المحامـــدَ والمزايـــا الكاملـــةْ
عُدْ لي بها يا دهـــرُ بيعـــا واحـــتكم في غيرهـــا مـــني تجـــدني بادِلـــةْ
صـــلى عليـــه الله خـــيرَ صَـــلاته وأمـــدني بـــصِلاته المتواصـــلةْ

ثم سرنا مع رفقة ليس فيها أحد من أبناء جنسنا، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنزول والحملان، ونزلنا بمر الظهران، وهو الموضع المسمى بالوادي، بعد نصف الليل، وأقمنا به إلى أن زالت الشمس، وهبت ريح شديدة سموم تلفح الوجوه وتثير الأرض حتى لا يكاد أحد يرى رفيقه، وظننا أن الناس لا يرتحلون في مثل ذلك، فارتحلنا وقاسينا ما الله عالم به من المشقة، وسرنا حتى نزلنا آخر الليل ببرقة، ثم منها إلى خليص، ونزلنا برأس العين بقهاوي هناك، واستطال علينا المكارون، وإذ ليس بالقافلة أحد من المغاربـــة، وقـــالوا إن أمتعتكم ثقيلة، فإما أن تزيدوا في الكراء، وإما أن نطرح لكم أمتعتكم هنا حـــتى يقدم عليكم الركب، وزدنا لهم في الكراء.

والحاصل أن ما اكترينا به من مكة إلى المدينة أزيد مما اكترى الناس به من مكة إلى مصر، واغتفرنا ذلك كله رغبة في إقامة أيام بالمدينة قبل الركب، فكمل الله مرغوبنا.

ثم ارتحلنا من خليص ونزلنا السيل الذي بين قديد ورابغ، وفي تلك المرحلة التقيت بصاحبنا الشيخ عبد الله باعفيف اليمني أحد أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي، رضي الله عنه، سايرته بعدما نزلنا من عقبة السكر من المغرب إلى العشاء على أرجلنا، وتعرفت عليه وجدته من احسن الناس خلقا وأطيبهم عشرة.

وكان معنا في الركب معاشر للشيخ علي الضرير أحد فقهاء المدينة، وللشيخ صالح أحد فقهاء الحنفية بالمدينة، وكان الثلاثة في خباء واحد، وكلهم أهل فضل جمعتهم النسبة العلمية وتوطن بالمدينة المشرفة، وربما نزلنا في بعض الأحيان بقربهم، وسيأتي ذكر صاحبنا هذا فيمن لقيته بالمدينة بعد الرجوع من مكة، ثم ارتحلنا من السيل ونزلنا رابغ. ثم إلى مستيرة، ثم خرجنا منها، وعدلنا يمينا عن طريق الركب المعهودة، وتركنا المسافة المسماة بالبزوة يساراً، ودخلنا بين تلول وكثبان رمـــل

عظيم، ونزلنا بئر الملا نافع قرب الصباح، بعدما غلبت الإبل، وهذه البئر تنسب إلى أحد الفقهاء الحنفية المستوطنين المدينة، وقد تقدم ذكره، وهو الذي حفرها بماله، ونفع الله بها العباد، لأنها في مكان منقطع بين رمال كثيرة، وكان صاحبها الذي تنسب إليه حاضراً معنا في القافلة لأنه حجَّ في هذه السنة.

وهذه الطريق لا يسلكها إلا القوافل لكثرة رمالها، وإنما سلكوها لأنها أقصر من الأخرى بيوم فإنها تأخذ عن يمين بدر إلى أن تنزل بالصفراء، ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الصفراء وسط الليل. ثم منها إلى حديدة، وكنا نسير في هذه الليالي كلها سيرا رفيقا على معتاد القوافل نترك الإبلٍ على حسن اختيارها. ولما ارتحلنا من حديدة جدوا في السير، وساروا سيراً حثيثا. ونزلنا قبورِ الشهداء عند طلوع الشمس، ثم ارتحلنا من هناك قبل الظهر، وساقوا سوقاً عنيفاً، وكانوا يتخوفون عادية من لصوص عَنَزَة في تلك المسافة، وما غابت الشمس حتى دنونا من جبل مفرح.

وكان معنا في القافلة شيخ حرم المدينة، تجدّد في تلك السنة، وقدم من اصطنبول، وعزل الذي كان قبله، فقدم مكة أولاً وحج، ثم سار إلى المدينة، وعندما وصلنا السبيل الذي هناك وجدنا طائفة هناك من عسكرِ المدينة جاءوا يتلقونه، فأمن الناس واطمأنت قلوبهمٍ، وخرج شيخ الحرم من محفّته ولبس أحسن ثيابه، وركب فرسه وسرنا سيراً حثيثاً فوصلنا ذا الحليفة نصف الليل، ولم ينيخوا بها، فسرنا حتى جئنا آخر العقيق، وأخذنا في الصعود إلى الحرة الغربية، فهممت بالترول والمشي على رجلي تأدبا لقرب المدينة، وكنت أركب أنا وأخي في شبرية واحدة، فرأيت ظلمة الليل وسرعة السير واختلاط الناس وليس معنا سائق إلا بدوي واحد، وله جمال أخر، فقلت إن نزلت وتعبت واشتغلت بسوق الإبل، تشتت فكري، ولم أحصل على طائل من أمري، فحضور القلب بالركوب أولى، فلما استقر هذا الخاطر في نفسيٍ لم أشعر بالجمل إلا وقد مال، فلم ننتبه حتى وقع بالأرض، فسقطت سقوطاً منكراً على أم رأسي، وسلم أخي لأني سبقته على الأرض، وتكسرت الشبرية، فعلمت أني قد أوتيت من ذلك الخاطر، وأن المشي أولى، ورعاية الأدب مع تلك البقعة المشرفة أجدر بي، فقلت لنفسي: أبَيتِ من الترول على رجليك فترلت على رأسك، هذا جزاء عبد يهمل رعاية الأدب مع

سيده، فاستغفرت الله وسرت على رجلي حتى دخلت المدينة قريبا مـــن الثلـــث الأخير من ليلة السبت التاسع والعشرين من ذي الحجة.

ذكر دخولنا إلى المدينة المشرفة

ولما وصلنا وجدنا أبواب المدينة مغلقة، فطرحنا أمتعتنا بالمناخة قرب مسجد العيد، وقد بقي معها أصحابنا، وذهبت إلى الباب فوقفنا به ساعة حتى فتح، فدخلت مع أول داخل، وقصدت المسجد فوجدته مغلقاً، فذهبت إلى العين التي في شرقي المسجد من ناحية باب البقيع فاغتسلت بها، وجئت إلى رباط سيدنا عثمان فلقيت بعض أصحابنا المجاورين، وجلست هنيئة حتى فتحت أبواب المسجد، فدخلت وصليت وسلمت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعلى صاحبيه، رضي الله عنهما، ودعوت بما تيسر، وجلست في المسجد حتى صليت الصبح، ودخل أصحابنا الذين تركتهم بالمناخة، وطرحنا أمتعتنا في مترلنا الأول بمقام سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق، رضي الله عنه، وأقمنا بالمدينة ثلاثة أيام، فدخل الركب المغربي ليلة الثلاثاء، واغتنمنا تلك الأيام وزرنا البقيع وقباء، ولقينا أصحابنا ومشايخنا، فذهبت إلى شيخنا الملا إبراهيم ولقيته بمترله، فرحب بنا غاية، ووجدته مشتغلا بملاقاة شيخه الذي عليه معوله في العلوم العقلية الملا محمد شريف[1]، وكان حج في تلك السنة وقدم المدينة مع القافلة التي جاءت قبلنا، ودخلوا قبلنا بيوم، فترل بجوار شيخنا الملا إبراهيم، فأقبلت معه للقائه والسلام عليه، وذكر له شيخنا الملا إبراهيم قصدي، وأثنى علي عنده، وراطنه بالفارسية هنيئة، وإذا هو يثني علي ويصف له حالي، وقال له إن له مشاركة في العلوم، وله اعتناء برواية الحديث، وقد حصل منه ما قل أن يوجد عند غيره، ولقوة إنصافه، رضي الله عنه، أشار عليه بالاستجازة لي، وسماع الحديث المسلسل بالأولية مني، فذكر لي ذلك شيخنا بحضرته، فأخجلني غاية، وتضاءلت لدي نفسي وأكبرته أن أكون ممن يجيزه أو يسمعه، فلم يملكني من أمري شيئا، فأسمعته وأجزته لفظا، ولما خرجت من عنده سألت من شيخنا التوسط في سماع مجلس واحد من تفسير البيضاوي، وكانت له في معرفته يد بيضاء، ولولده عليه حاشية، وله هو كتابات كثيرة على محال منه،

---

[1] محمد شريف بن محمود الكوراني، عالم محدث، توفي سنة 1078 هـ: خلاصة الأثر 4:280.

فوعدني الغد، فرجعت إليه غدا وأحضر شيخنا نسخة من التفسير قال لي: اختر أي محل شئت قراءته، فاخترت قراءة تفسير سورة (تبارك الذي بيده الملك) رجاء بركتها، وحضر في قلبي ذلك الوقت ما قيل أنها سورة المتوكلين، وأن قدوة المتوكلين في زمانه الغوث أبا مدين كان يلازمها ويقول: هي سورة من القرآن، فقرأت عليه تفسيرها إلى آخره مع السؤال عن محال مشكلاتي منه، قرر لنا تقريرا حسنا في كلام البيضاوي على قوله تعالى (فسحقا لأصحاب السعير)[1]، وأخبرني شيخنا هذا أن لشيخه هذا كتابة عجيبة في تقرير هذا المحل، وأن بعض مشايخه كتب أيضا على هذا المحل، وطال الكلام بينهم فيه، ولا أدري هل استجزته أنا أم لا، وقد استجازه لي أخونا وخليلنا حسين بن علي العجيمي المكي بعد ذلك، لأن الشيخ محمد استوطن المدينة بعدنا، وهذا نص ما كتب به إلي خليلنا المذكور جزاه الله خيرا آمين:

الحمد لله، اجتمعت بمولانا الشيخ الأستاذ إمام المعقولات، فارس التفسير الملا محمد شريف بن القاضي المحقق يوسف بن محمد الصديقي الكوراني ليلة الثاني عشر من ذي الحجة سنة 1076 بعد صلاة العشاء، فسألته أن يتفضل بالإجازة العامة لشيخنا العلامة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي المغربي، فأجاب إلى ذلك وتلفظ بها، وأخبرني أنه ما انتفع في العلوم إلا بوالده، ولم يكن له شيخ غيره، وأن والده أدرك حياة الجمال الرملي فشملته إجازته، وأن له حاشية على تفسير القاضي البيضاوي، ثم سألته أن يكتب ذلك بخطه الشريف فقال لي: في إخبارك عني كفاية، أو كلاما قريبا من هذا، ولله الحمد أولا وآخرا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله تعالى حسين بن علي بن يحيى العجيمي المكي الحنفي غفر الله له وللمسلمين هـ ما كتبه إلي بخطه نفع الله به آمين.

وأخذنا تلك الأيام التي أقمناها في أهبة السفر وتهيئة الزاد والتزود من زيارة النبي، صلى الله عليه وسلم. ومما زرته من الأماكن التي لم أزرها من قبل البير المسماة بزمزم، وهي إحدى الآبار المتبرك بها بالمدينة المنسوبة إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، واشتهرت بزمزم تشبيها لها بزمزم المكية المشهورة لبركتها واستشفاء الناس بها، وكانت هذه البير إذ ذاك بيد رجل من أصحابنا المغاربة، فخرجنا معه

[1] الملك: 11.

إليها، وهي في غربي المدينة مما يلي الحرة، وماؤها عذب، فشربنا من مائها وتوضأنا، وأكلنا من ثمارها.

وممن لقيته بالمدينة هذه المرة صاحبنا المتقدم ذكره، الشيخ عبد الله باعفيف اليمني، وكان ذكر لي إذ لقيته بين الحرمين الشريفين، كما تقدم، أن له قصائد في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وفي مدح شيخنا فريد وقته السيد محمد باعلوي الحضرمي المكي، وواعدني بالاطلاع عليها بعد الوصول إلى المدينة، فلما لقيته بالمدينة ناولني بعض ذلك، ولنذكر منها ما يدل على نباهته ومعرفته بأساليب البلاغة واطلاعه على مقاصد الصوفية والتحلي بأذواقهم السنية. فمن ذلك قصيدة له في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، عارض، بها دالية شيخنا الشيخ إبراهيم الخياري المتقدم ذكرها في ترجمته وهي هذه:

[بسيط]

كُوني سلامًا وبردا نارَ أكباد ... على خليلك أو زيدِي حشا الصادِي
واستبدلينا جُلودا كلما نضجتْ ... منا جلودٌ عنت للناشئ الشاذِي
قال ادخلوا فدخلنا طوع مالكها ... في أممٍ قد خلت من خير أجنادي
لما بدت لكليم الوجد آنسها ... بذاته لا بأطوار وأطوادِ
هي النعيمُ وإن دارت على خلدي ... وأمها قلبي المضنى بأخلادِ
فاقصد ربوعَ اللوى والرقمتين وجُز ... وادي العقيق وزمزم أيها الحادي
وانح الديار وإن شطت مرابعُها ... وحالَ من دونها أصلابُ أصلاد
أفدي السواري في جنح الظلامِ طوت ... طي السجيل هضابا ذات آمادِ
إلى رياضٍ من الفردوس فائحها ... يفوقُ رياه ريا المسك والجادِ
دارتْ على الأيك أقدام مُعطرة ... من سَجسج الصبح تهدي نشرَ أعواد
فغادر الورق والأوراق دائرة ... من رَاقص أو لعوب فوق ميادِ
وتلك آثارُ غزلان النقا نفحت ... من حولها الريجح واجتازت بأبراد

مست قدودا كساها الحسنُ رونقـــه فاستيقظَ البانُ إذ مرت على الوادي
ومالت العـــذبات الخـــضرُ مائـــسة ميلَ المتيم إذ يشدو لـــه الـــشادي
فـــذكرتها عهُـــودا في دِيـــار قبـــا فاســـتهترت بـــين أغـــوار وأنجـــاد
تناوح البوم بالوجـــدِ الـــشديد إلى بطحائها لا جفاهُ الـــرائح الغـــادي
منازل القومِ لا عهدي القـــديم بهـــا عهدي ولا عادهم بـــالمُنحنى عـــاد
من لا يـــرد تـــلاق لا لحـــاق بـــه وجيرة بـــالحمى النجـــدي وفـــادِ
هيهات ذلك وقت فـــاتَ عائـــده لولا تذكر فضلِ المصطفى الهـــادي
مُحمد خير مبعـــوث دعـــا فمحـــا صبح الهدى ليل إشـــراك وإلحـــادِ
مُهذب قد زكـــا في أصـــل فطرتـــه من قبـــل تكـــوين آبـــاء وأجـــدادِ
وسارَ في الجـــد لا للمجـــد ربتمـــا قد كـــان بالمجـــدِ تمجيـــد الأمجـــاد
وكيف يسمو بشيء وهو منه سَمَـــا إذ كان أصلا بـــدا في كـــل إيجـــادِ
شمس وما الشمس لولا نورُ طلعتـــه بدر وما البدر لـــولا وجهـــه البـــادِ
غيثٌ وما الغيث والسحب الرزان كما على متون الـــروابي وقـــع أجـــوادِ
بحر وما البحرُ يغني الـــواردين بمـــا يجاوز القصدَ مـــن آمـــال مرتـــاد
فـــإن علـــتني أقـــوام ودونهـــم نفسي وإبليس قـــد قامـــا بمرصـــادِ
وصدني الحظ عن قصدِ السبيل فلي من نوره جـــذب مـــستخذ بإيقـــادِ
أبيتُ أشـــدو بأوصـــاف مقدســـة زانـــت تفاعيـــل أســـباب وأوتـــادِ
لعـــل ممـــدوحها يومـــا يجـــازيني علـــى مجـــادع أنجـــاب وأوتـــادِ
إلى نزاهـــة معـــنى في حقائقهـــا تجلـــي دقـــائق زهـــاد وعُبـــاد
في موطنِ الفرق بعد الجمع شاخصة على تباهي النهى عن جمع أضـــدادِ

يا كنزَ رسل وأملاك مطهرة		وأولياء وأقطاب وأفرادِ
وافي عبيد والعبرات لؤلؤها		يجري على خده في لونِ فرصاد
من موبقاتٍ أنالته الهوان على		كز التخاليط من إلف ومعتادِ
وفي جوائزك العظمى النجاح فما		جوائز الصيدِ من أملاك بغداد
وما ابن حيان أولى بالحياءِ وقد		أثنى زهير بإكثار وتعداد
فخذ به لروابي الجمعِ واسمُ به		من ذي الوهاد وبرد حر وقاد
جوزيتَ خير جزاء الله أكرم من		يغني ويغني ولا يلوي لترداد
فقد أتيتك بالعجزِ الصريح وبالـ		ـفقر الصحيح بلا ماءِ ولا زاد
ونحن في زمن أفصحت فيه لنا		عن أجر خمسينَ نلناها بآحاد
فما ترى بعدها هاذي بضاعتنا		رُدت إلينا بأتعاب وأنكاد
وأمن صحبي وأحزابي ومن لهم		يعزى بود وإخوان وأولاد
وخص منهم فتى ما زالَ ترمقني		منه المودة بين الحضر والبادِ
وكن له من صروف النائبات إذا		قام الأذى بين أعداءِ وحساد
واشمله في الدينِ والدنيا برحمة		لا يهتدي الدهر معها له بإفساد
واقبلْ مديحي وإن إكرام وجه له		تحت المقادر من مهد ومن هادِ
فساق نظما لأعلى من بهم شرفت		فصاحة العرب عند النطق بالضادِ
تعرضا لعظيمِ الفضل منك لمن		يدلي إليك بإنشاء وإنشادِ
وهبْ لنا خيرَ مامول منازلة		بقدرِ مجدك واكفنا بإسعادِ
وسق إلى عبدك استعداد منتهج		سبل اتباعك للخيراتِ منقاد
قل قد فعلت وعندي الخير أجمعه		دُنيا وأخرى بإذن المحسن الهادِ

وقـــم بـــأمر جميـــع المـــسلمينَ إذا قـــام الكفـــور بـــأغلال وأصـــفادِ
صلى عليك الإله جل عـــن مثـــل وعن شـــريك وأضـــداد وأنـــدادِ
تعداد وصفكَ ما دام الوجـــود وفي دار الخلـــود وفي آبـــاد الآبـــاد
والآل والصحب ما غنـــتْ مُطوقـــة علـــى أرائـــكِ أفنـــان وأعـــواد
موصـــولة بـــسلام منـــه يعقبـــها أسنى التحيات يعيي ضـــبط أعـــدادِ

انتهت، وذو الذوق السليم يعلم أن جيد هذه القصيدة أعلى طبقة في مراقي البلاغة من جيد القصيدة المعارضة، والله تعالى أعلم.

ومنها قصيدة رائية يرثي بها شيخنا السيد محمد باعلوي، وهي مـــن غـــرر القصائد أثابه الله عليها:

[طويل]

عواطـــف آلاء بأيـــدي غـــوامر علينا الشعب عامر شـــعْب عـــامر
بها أنعمت نُعمى وجـــادت لعبـــدها وحقت بتحقيـــق المُـــنى والبـــشائر
دعتنا إلى اللقيا وقد كـــشفتْ لنـــا خبايا زوايا عـــن محـــاجر حـــاجر
أعادت لنـــا عـــن لعلـــع وطويلـــع أويقـــات أسمـــار بتلـــك المـــسامرِ
ليـــال إذا مـــا زارَ ليلـــى طيفهـــا بتـــذكار أهلـــها تبلبـــلَ خـــاطر
لنا ولهم مذ أخلف الـــدهرُ بـــالنوى قلوب تلاقـــى في جـــسُوم نـــوافر
حيي يا ثنيات اللوى زمنـــا مـــضى بلذة عيشِ الوصل في سفح ســـامرِ
بأعلى الكثيبِ الفرد والصمد من قبا مسارح مع غزلانِ الكناس السوامر
إذا ما تمـــشت ســـاجِبات برُودهـــا وأبدت شموسا من فُـــروع غـــدائر
غدا من سناها البدرُ والشمس خجلة وأزرت بمياس الغـــصونِ النـــواظر
فيـــا طلـــلا بـــالغور في أذكـــارهِ تبلبـــلَ مـــشتاق وأنـــة حـــائرِ

يـــسمني مـــن جزعـــه وعقيقـــه | عقيق وجزع حائص مـــن محـــاجر
فديت الأولى أأنت ربـــاط شموســـه | بلا غلالها صرف الليـــالي القـــوائر
هم الغرر السادات من آل هاشـــم | بنو الماجد المفـــضال تـــاج المفـــاخرِ
إمـــام المَعـــالي نعمـــة الله ســـيدي | أبي عـــامر أكـــرمْ بـــه وبعـــامر
همام رقى في القرب أشـــرفَ رتبـــة | وقـــام مقـــامَ الأكـــرمين الأكـــابر
وسافر مـــن علـــم الـــيقين لعينـــه | إلى حقه في غيبِ غيـــب الـــسرائر
وعادَ مـــن المـــولى بـــأكرم خلعـــة | لأكرم جحجاح[1] عظـــيم الـــشعائرِ
دقـــائق تجلـــى في علـــوم حقـــائق | تقاصرَ عن إدراكهـــا كـــل مـــاهرِ
وفي أن تعـــدوا نعمـــة الله مـــشعر | بنيل الكرامـــات العظـــام البـــواهرِ
ولْمْ لا وفي جرثومة الفضل قد غدت | ســـلالته تنمـــى لعبـــد القـــادر
ظـــواهره تـــنبي بحـــسن بـــواطن | بواطنـــه تـــنبي بحـــسن ظـــواهرِ
وماذا إذا رقّ الزجاج ورقت الحميا | ترى الأعيـــان مـــن كـــل نـــاظرِ
لـــه في مقامـــاتِ الـــسلوك مـــآثر | تـــؤمُ البرايـــا نحـــو تلـــك المـــآثر
خلوص وداد في اســـتقامةِ مخلـــص | وعزلـــة وأوسمتـــه سمـــت ســـاهرِ
وزفت له الأمداح من كـــل مـــادح | ينـــافسُ في أشـــعاره كـــل شـــاعرِ
فغادرها تحـــت الركـــام حـــواملا | سحابا ثقـــالا أرســـلت بـــالمواطرِ
جوائز لا يدري ابن حيـــان طرفهـــا | وإن جادَ بالأيدي البوادي البـــواترِ
فإن أنطقـــتني بـــالقريضِ صـــفاته | فكم علمتني البكم من كل قاصـــرِ
فبان لهـــا ســـحبان تحـــت ثرائـــه | فصيحَ السجايا بين بـــاد وحاضـــرِ

[1] الجحجح: السيد الكريم: لسان العرب: جحجح.

فيا أيها الصيدُ الأكـــارم حيـــث لا ... ت حين تلاق وبعد تلـــك المحاضــرِ
إذا استجمعت عند الضريح ذواتكم ... بنور التجلي في القلـــوب الظـــواهرِ
فلا تحرمونا من عظـــيم ابتـــهالكم ... لذلكم الصمصام جـــنح الـــدياجرِ
فذلكم البحـــر الغطمطـــم[1] أنـــتم ... جداوله يحظـــى بهـــا كـــل زائـــرِ
وخصوا إذا رحـــتم لابنـــة خويلـــد ... قبي عندها في الشعب زاكي العناصر
إمامي وشيخي عُدتي عنـــد شـــدتي ... وفي موقف الأشهاد أســـنى ذخـــائرِ
ألا فالثموا عـــني ضـــريحهما فلـــي ... هنـــاك مقـــام المـــستبد المثـــابرِ
وإن حال صرف الدهر بيني وبينـــه ... فقلبي مُقـــيم بـــين تلـــك المقـــابرِ
واذكر ما يشدو بـــه ابـــن حمامـــة ... وقد نالَ بالمختار وصـــف المهـــاجرِ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الـــصفا ... أنيس وما بالـــدار وقفـــة ســـامرِ[2]
وقولوا لهم عني خويـــدمكم ونـــت ... ركائبـــهُ تحـــتَ الهمـــوم القواصـــرِ
وصـــلى الإلـــهُ كـــل آن مـــسلما ... على المُصطفى مفني العـــدا بـــالبواترِ
محمـــد المختـــار مـــن آل هاشـــم ... وأصـــحابه والآل خـــير العـــشائرِ

ومنها أيضاً قصيدة أخرى في معنى ما تقَدَّم، وهي هذه:

[بسيط]

عز العزاءُ وجد الوجـــدُ واشـــتعلا ... لست الملوم على ما نهـــلَ وانهمـــلا
دعني أداوي كُلومي إن بكيت فـــي ... من جملة الكل خلى الكل وارتحـــلا
أحل من مقلتي للدمع أوكية القـــلال ... حـــــتى أراهـــــا وارت القُلـــــلا

---

[1] الغطمطم: العظيم الكثر الأمواج: لسان العرب: غطمط.
[2] ينظر هنا الشاعر إلى قول عمرو بن الحارث بن مضاض:
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
لسان العرب: حجن.

فقف بتلك الربوعِ الهامــدات لمـــا ... قد نالها وقفـــة النحـــرين إن ذُهـــلا

واستخبرِ الدار ما أبقى الزمانُ لهـــا ... بعد الحبيب الذي عن سومها انفـــتلا

عج بالحجونِ ترى الأنوارَ ســـاطعة ... فـــإن لي ثم بـــدرا كـــاملا أفـــلا

والشمس تجـــري لمـــستقرها لقـــرا ... ن مكسب نورها من تحتها حـــصَلا

فتدرك البدر وبدرا في المحاق وقـــد ... ألقى البراء العصا من حيثُ ما وصلا

أعني خـــديجتنا الكُـــبرى وســـيدنا ... إمامنـــا قـــدوة الهـــادين والنـــبلا

شيخي التريل بأقصَى الشعب تحت لوا ... بنت الخويلد أوفى مـــن لـــه نـــزلا

عليها من رضـــا الـــرحمنِ أكملـــه ... ما ضوى النيِّران والسهل والجـــبلا

وقل إذا شـــئت يومـــا أن تؤرخـــه ... عز العزاء وجد الوجـــد واســـتقلا

وهذا الشطر الأخير أرخ به سنة موته، وهي يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الثاني سنة 1071.

ومنها تصدير وتعجيز بقصيدة ابن الخيمي البائية التي أولها: يا مطلباً ليس لي في غيره أرب[1].

وهي مشهورة عند أهل الحجاز، ينشدها المؤذنون في الحـــرم الـــشريف في بعض الأوقات، وهي من الطراز العالي في الرقة والسلاسة، متضمنة لمعان رشيقة في الاستعطاف والتذلل والتشوق، ويزيدون في آخرها أبياتا مشعرة بأن كل ذلـــك التغزل المتقدم في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، وأظنها ليست من أصلها لأني رأيتها في بعض الدواوين وليس فيها هذه الأبيات.

ولنذكر هذه القصيدة لكونها ما ينشد في الحرم الشريف، وتلذذا بما تضمنته من المعاني الأنيقة والألفاظ الدقيقة، وهي هذه:

[بسيط]

ما إن تقضي طلابي عن جنابك بـــل ... يا مطلبـــا لـــيس لي في غـــيره أرب

---

[1] عجز البيت: إليك آل التقصي وانتهى الطلب: نفح الطيب 2:619.

من ذله بالمعنى يحمل الهـرب إليـــــ ك آل التقـــصي وانتـــهى الطلــــب
وما طمحــــت لمـــرأى أو لمـــستمع يستعذب السمع أو يستهدف الهرب
فما أذاعت خبايا الكون من ملــح الألمعــــي إلى عليــــاك ينتـــــسب
ومـــــا أراني أهــــلا أن تواصـــلني لأنني عنك للـــسلوان أصـــطحب
نعم أنزه ذاك الحسن عـــن نظـــري عسى علوا فـــإني فيـــك مكتئـــب
لكـــن ينـــازع شـــوقي تـــارة أدبي وربما عنك يومـــا زالـــت الحجـــب
جاز دمعي وباشـــتياقي في خليفتـــه فاطلب القرب لمـــا يـــضعف الأدب
ولست أربح في الحـــالين ذا قلـــق لمعهد بالحمى شـــطت بـــه الحقـــب
غدوت عنه غـــداة الـــبين ذا ولـــه تام ووجد لـــه في أضـــلعي لهـــب
ونـــاظر كلمـــا كففـــت صـــبيه أقل وعارضـــه في عارضـــي يجـــب
لا تنـــسحب وأطعـــني في مكـــالمتي صونا بحبـــك يقـــصيني وينـــسحب
ويدعي في الهوى دمعـــي مقـــاسمتي مع التصابي وعندي غـــيره عجـــب
وعنـــد عجـــب أيـــضا ينـــازعني حزني ووجدي ويجري وهو مختضب
كالطرف يزعم توحيد الحبيـــب ولا يفارق الطـــرف والعـــدا ينتحـــب
هيهات توحيده يبكي الربـــوع ولا يـــزال في ليلـــه للـــنجم يرتقـــب
يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا همني فلي مهجة أودت بهـــا كـــرب
ومسني وصب أســـعد فيـــه فـــسا عدني على وصبي لا مسك الوصب
بالله إن جزت كثبانا بـــذي ســـلم حادت بأردافها أكنافهـــا العـــرب
فغادرت عندها بانـــا علـــى كثـــب قف بي عليها وقل لي هذه الكتـــب
ليقضي الخد من جرعائهـــا وطـــراً من لثمها ومعنى الـــدمع ينـــسكب

فينبت العشب مخضر الفـــروع بـــه   من تربها ويؤدي بعـــض مـــا يجـــب
ومل إلى البان من شـــرقي كاظمـــة   ميل المتـــيم دارت حولـــه النجـــب
وقف لأقضي مـــن شـــرقيها أربـــا   فلي إلى البـــان مـــن شـــرقيها أرب
حيث الهضاب ورضواها يروضـــها   شئوب دمع وصب المدمع الوصـــب
فإن عفت بالـــسنين الغـــبر عرقهـــا   دمع المحـــبين الأنـــداء والـــسحب
أكـــرم بـــه مـــترلا تحميـــه هيبتـــه   تحت السكينة والأعداء تـــضطرب
دعني أعلل نفـــسا عـــن مطالبـــها   حـــتى عـــراني الكـــرى والتعـــب
فيبعث للوصل روحا عـــز جانبـــها   فيه وقلبـــا لعـــذر لـــيس ينقلـــب
ففيه عاهدت قدما حب من حسنت   به العلا وفنـــون المجـــد والحـــسب
وعز في ذاتـــه لقـــد شـــرفت بـــه   الملاحـــة واعتـــزت بـــه الرتـــب
دان وأدنى وعـــز الحـــسن يحجبـــه   عمن تحكم منه القـــصد والطلـــب
حتى رأيت جنـــود الحـــب تمنعـــه   عـــني وذلي والإجـــلال والرهـــب
أحيا إذا مت مـــن شـــوقي لرؤيتـــه   والنور للأم يدعى عنـــدها الهـــدب
فأنثني وأنـــا الـــصب الكلـــيم بـــه   لأنـــني لهـــواه فيـــه أنتـــسب
ولست أعجب من حـــي وصـــحته   كيموسها الصدق والبهتان والكذب
حتى سلا النفخ والهجـــران منـــشأه   من صحتي إنما سقمي هو العجـــب
يا لهف نفسي لـــو يغـــني تلـــهفها   وما التلـــهف بـــالمغني ولا الرعـــب
إن لم تجـــدهم الـــدنيا فـــو أســـفا   وجدا ووا حربا لو ينفـــع الحـــرب
يمضي الزمان واشـــوقي مـــضاعفة   لهم فاسجد من شـــوقي وأقتـــرب
وعـــزة المجـــد والإجـــلال يمـــنعهم   يا للرجال ولا وصـــل ولا ســـبب

هبت لنا نفحـــات مـــن ديـــارهم | تناوب الأيك مـــن هباتها نـــوب
حتى إذا لعبت من وجـــدها طربـــا | لم يبق في الركب من لا هزه الطرب
كدنا نطير سرورا مـــن تـــذكرهم | ففيه منهم لنا الألطـــاف والقـــرب
فاستهزت لنا فنون مـــن لطـــائفهم | حتى لقد رقصت من تحتنا النجـــب
يا راقيا بأعـــالي الـــرقمتين ســـدى | من أين شاكلتني لا هـــزك العجـــب
هم أقول بحر أنـــت حيـــث تـــرى | لقد حكمت ولكن فاتـــك الـــشنب
أما خفوق فؤادي فهو عـــن ســـبب | وجد عـــلاه ونـــار فيـــه تنتـــهب
قد كنت في المهد لا أدري برؤيتـــه | وعن خفوقك قل لي ما هو الـــسبب
ويا نسيما سرى من نحـــو كاظمـــة | فعانق البان حتى ماســـت القـــضب
فبات يمليهما عـــن حـــاجر ســـيرا | بالله قل لي كيف البـــان والعـــذب
وكيف ذاك الحـــي هـــل حفظـــوا | ما أحرز الرحم الموصول والنـــسب
فقد تحملت مذ فارقـــت معهـــدهم | عهداً أُراعيه إن شَـــطُّوا وإن قربـــوا
أم ضيعوا ومرادي منـــك ذكـــرهم | على الحقيقة إن مـــروا وإن عـــذبوا
فالسلب منهم عطاء وافـــر وهـــم | هم الأحبة إن أعطـــوا وإن ســـلبوا
وإن كان يرضيهم إبعـــاد عبـــدهم | فليفعلـــوا مـــا أرادوه ولا عتـــب
فإن هم بعـــدوا ولات حـــين قلـــى | فالعبد منهم بذاك البعـــد مقتـــرب
والهجران كان يرضيهم بلا ســـبب | فهو الغنيمة لا نجـــس ولا صـــخب
كأنـــه جـــاء في اللقيـــا يخـــبرني | بأنه من قبيـــل الوصـــل يحتـــسب
وإن هم احتجبوا عـــني فـــإن لهـــم | عزا تزاح به عـــن بـــاطني الريـــب
لأن عنـــدي مـــن آثـــار عـــشقهم | شهود حسن بقلبي ليس ينحجـــب

قد نزه الحسن والإشـراق بهجتـه ... فاستهترت في هواها العجم والعرب
بدت فلم تخـف بـالأنوار تمنعهـا ... عن أن تمنعها الأسـتار والحجـب
ما ينتهي ناظري منـهم إلى رتـب ... فينتهي في مداها الوجـد والطـرب
إذ ما يلوح له مـن لحظهـا رتـب ... في الحسن إلا ولاحت فوقها رتـب
وكل ما لاح معـنى مـن جمـالهم ... راحت لبهجتـه الأرواح تنجـذب
أظل دهري ولي من حسنهم طـرب ... آثاره الحب لا الـصهباء والحبـب
فمن عظيم غرامـي فـيهم فـرح ... ومن إليهم استباقي نحـوهم هـرب
وكم أموه بالعرب الكواعب والـ ... وادي التياغـا ولا واد ولا عـرب
فكم أفوه بكثـب والقـضيب بـه ... تشذو الحمام ولا قضب ولا كثـب
كالشمس يسترها بالمـاء ناظرهـا ... إن خاف منها على الأبصار تنسلب
والقـصد خـير نـبي عـم نائلـه ... تضيق عن وصفه الأشعار والخطـب
وأين يـترل مـدح المـادحين لـه ... مما رووا عنه من فضل ومـا كتبـوا
فمدحة الوحي والتتريـل معجـزة ... لا ما تـصنعه الأقـلام والكتـب
محمد المصطفى الهادي الـشفيع إذا ... أودت بمحشرنا الأهوال والكـرب

ومن فوائد صاحب الترجمة الشيخ عبد الله باعفيف ما نصه: قال في العقد النبوي من كلام الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس[1]: وصية ثلاثة أيام وخلوة أسبوع وخلوة شهر وخلوة أربعين يوماً. أما خلوة ثلاثة أيام فهي الاثنين والخميس والجمعة، ولها وظائف دوام ذكر الليل والنهار، والاعتزال في الزاوية وأكله بعد العشاء، وترك النظر إلى الحرام، ولا ينام حتى يقول قبل النوم على طهارة في خلوة واحدة: يا كريم يا رحيم ألف مرة، والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم، ألف مرة، فقد فتح لجماعة في هذا. وأما خلوة الأسبوع بالصوم والعزلة وترك

[1] عبد الله بن علي العيدروس، صاحب الشبيكة بمكة المكرمة، أثرت عنه أحوال وكرامات، توفي سنة 1050 هـ: خلاصة الأثر 62:3.

ذكر الدنيا وأهلها، وكذلك خلوة الشهر والأربعين، ولكن الأدب نصف الدين، بل الدين كله، والأدب مع الله وترك كل معصية، ومع الصالحين ترك الاعتراض عليهم، والمسلمين سلامتهم من لسانه ويده، والخير كله في تلاوة القــرآن، مــع الأدب بين يدي المتكلم رب السماوات والأرضين هـــ.

وقد أخبرني صاحب الترجمة أن الشيخ محمد باعلوي كان يأمر أصحابه بهذه الخلوات، ولها بركات عظيمة.

ومن فوائده أيضاً قال: ومما كان السيد يعلمه أصحابه ما نَصَّه، وهو مـــن كلام الشيخ محي الدين: اعلم أنَّ القهر عذاب، ومن أراد أن يزول عنه حكم هذا فليصحب الحق تعالى بلا غرض ولا شوب، بل ينظر في كل ما وقع في العالم وفي نفسه فيجعله كالمراد، له فيلتذ به ويتلقاه بالقبول والبشر والرضا، فلا يزال مـــن حاله هذه مقيما في النعيم الدائم لا يتصف بالقهر ولا بالذلة. قال: ومـــا رأيـــت الواقع التغير له تغير تطلب الحق منه التغيير، وكامن هذا التغيير هو المطلوب، لأنه هو الواقع إذ ذاك، وليس بمقهور فيه، بل هو ملتذ بالموجب للتغيير فتأمل هـــــ. وهو نفيس لمن رزق استعماله. وأقمنا بالمدينة خمسة أيام وكأنها طيف منام، فتهيأ الرحيل ودنا، و لم نظفر بالمنى، وعاقتنا أشغال السفر عن ملازمة الحرم واتباع النهل بالعلل من موارد الكرم.

ذكر الخروج من المدينة المشرفة

فكان سفرنا من المدينة المشرفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، عشية يوم الخميس الثاني من محرم فاتح سنة أربع وسبعين وألف، واكترينا جملين من رجل من المغاربة القاطنين بأرياف مصر، وكانت فيه مروءة، فأحسن وأجمل، فكان خروجنا من المدينة بعد صلاة العصر، وودعنا النبي، صلى الله عليه وسلم، وخرجنا نعثر في أذيال الحسرات، ونُتبع الزفرات بالزفرات، وعطف الشوق علينا رجله وخيله، وكأننا لم نبت بطيبة إلا[1] ليلة، فكان خروجنا على باب الشامي لأن مترل المغاربة كان به، فوجدناهم قد قضوا، وذهب المكاري بالأمتعة، فانعطفنا من وراء المدينة إلى ناحية المناخة حتى ودعنا شيخنا الملا إبراهيم في مترله، وخرج معنا إلى قرب داره، وأذن خلفنا، وذهبنا على أرجلنا، ولم نلحق بالإبل، فلما هبطنا إلى واد العقيق تعبت غاية، فلحقنا هناك رجلا من الفلاحين ومعه جمل يسوقونه، وحان وقت المغرب، والمحل محل خوف، فخاف أن يذهب أصحابنا عنه ويبقى وحده. فقال لي: تعال يا شيخ تركب على الجمل، وأقسم عليَّ، وعلم أن أصحابي لا يذهبون ويتركونني، فركبت وتعجبت من لطف احتياله، وما قدر الله لي في ذلك من اللطف لأني لولا الجمل ما ظننت أني ألحق بالركب إلا أن يكون بعد مشاق عظيمة، فسرنا وما لحقنا بالركب إلا في ذي الحليفة قد نزلوا بعد صلاة العشاء، فبتنا بها ثم ارتحلنا صباحا. وأعد الناس السير، ولم يقيلوا إلا سويعة قدر ما أكلوا شيئا قريبا من العريش، ومررنا بشرف الروحاء قبل المغرب، ولم نبت إلا قرب منصرف الروحاء، وفي الغد ارتحلنا ومررنا بمسجد الغزالة، وسرنا حتى نزلنا بالجديدة بعدما اشتدت القائلة، ووقف الناس بها هنيئة ريثما أخرجوا أمتعتهم التي اختزنوها، فارتحلوا ولم يترلوا إلى قرب الصفراء، حيث تنصرف الطريق يمينا إلى ينبع.

---

[1] في ط: ولا.

وفي الغد ارتحلنا وملنا يميناً مع شعاب متوعرة، وعند المنصرف قبر يقال إنه قبر عبيدة بن الحارث سيد شهداء بدر، أحد المبارزين في ذلك اليـوم، وزرنـاه وسرنا إلى قريب من الظهر، فوصلنا بسيط الدهناء، ووجدنا البركة المعمولة هناك ممتلئة ماء، ووقع شنآن بين المغاربة الإفريقيين والجُوانيين، ولم يترلوا حتى كاد يبدو لهم نخل[1] ينبع، وانحاز كل إلى ناحيته في الترول، وما سرنا قط مثل هذه المراحل طولا، إلا أن الله لطف بالركب فلم يروا محارباً ولا سارقاً.

وفي الغد نزلنا ينبع صباحاً، وبات الركب فيه ليلتين، واشتد الحر يوم إقامتنا غاية، وحمدنا الله تعالى إذ لو صادف ذلك اليوم الرحيل لكان فيـه فنـاؤهم. ثم ارتحلنا من ينبع واشتد الحر أيضا وسط النهار، وبقيت من الركب إبـل، ونـزل الناس عصرا بعدما حاوزوا وعرتين من السبع وعرات، ولم يترلوا حـتى عـاينوا الهلاك وخافوا من الاستيصال. ووقعت عن الجمل وقعة منكرة يومئـذ بـسبب الدخول بين قطارين من أقطار الجمال أدمت وجهي وأوهت مفاصلي.

وتزايد الحر بعد الترول وخافوا بعدما نزلوا، فأذنوا بالرحيل ليلا، ونـادى المنادي أن تعشوا بعد المغرب وتهيأوا للرحيل، فشق ذلك علينا، وكانت من أعظم الليالي التي قاسيناها في سفرنا. ارتحل الناس بعد العشاء وصاروا ليلهم خائفين من اللصوص ومن إدراك الحر لهم قبل بلوغ المنهل. فأناخوا هنيئة قبل السحر في وسط واد النار، ولم يحطوا الأحمال إلى أن طلع الفجر فارتحلوا وساروا سيراً حثيثاً.

ولما طلعت الشمس ووقع شعاعها على الأرض ثار منها لهيـب روعـت الركائب كما هو شأنها غب السرى، فلم يصلوا إلى المنهل حتى قرب الـزوال، وضاع ناس من الفقراء بقوا في الوادي بمضيعة، وهلكت إبل، ولكن لطف الله أتم ما كان الناس يظنون، إلا أنه يتلف معظم الركب، وتخوفوا مثل ما وقع في العـام الماضي للركب في ذلك المحل فقد تلف فيه آلاف من الخلـق، سـيما الركـب المصري، وسلم الله المغاربة في هذه السنة، ووقع مثل ذلك للمصري في الحضيرة، فمات منهم نحو السبعمائة على ما زعموا وهم نازلون، وهبت عليهم ريح فكان الرجل في حوائجه حتى يقع ميتا، ثم قيَّل الركب على منهل النبط حتى اسـتقوا

---

[1] في ط: نخل

وسقوا إبلهم، فارتحلوا بعد العصر ونزلوا قريبا من المغرب لأنهم رأوا لصوصا على رؤوس الجبال فتخوفوا عاديتهم إذ اختلط الظلام.

وفي الغد نزلنا الحوراء قرب العصر وباتوا بها، وفي الغد ارتحلنا فلما طلعنا من العقبة السوداء اشتد الحر غاية وسرنا سويعة فترل الناس قهرا وتفرقوا في العضاة يستظلون، فترلنا تحت سمرة وتفرق عنا أصحابنا، ولم نجد من نستعين به في نصب الخيمة، فبسطنا ثوبا على أغصان رثة وأدخلنا رؤوسنا تحته، ولم يرتحل الناس إلى قريب من العصر، فخافوا معرة العطش لبعد المنهل وقبح المياه التي وردوها، والتي أمامهم، فأسروا ليلهم وخسف القمر في تلك الليلة، وسار الناس إلى أن ذهب أزيد من نصف الليل فترلوا، وفي الغد نزلنا كُدا قرب الزوال، وبات الناس به، وبالغد سار الناس ولم يبيتوا إلى قرب الوجه، وفي الغد نزلنا الوجه عند طلوع الشمس ووجدنا به أول الملاقي، ورخص السعر وكثر العلف وارتحل الناس منه عشاء، وباتوا بعد أن خرجوا من تلك الشعاب وقربوا من واد الأراك.

وفي الغد مررنا باصطبل عنتر، واستقى الناس منه وتجاوزوه، وفي الغد مررنا بالأزلم وتجاوزوه، وفي الغد مررنا بكفافة، فلما قرب الناس من شق العجوز، ودخل معظم الركب فيه ولم يبقَ إلا القليل، أغار اللصوص على أواخر الركب قرب بئر الدويدر، فلم يجدوا هناك جماعة إلا طائفة قليلة من أعراب برقة، ورجلان من أصحابنا ذهبوا لسقي ماء من البئر فقاتلوهم أشد قتال، وقتل من اللصوص رجلان، ومع ذلك أخذوا من الإبل قريباً من الثلاثين بأحمالها، ودخلوا في مضيق تلك الشعاب وتعذّر الغوث، بيد أنه ليس في الركب في هذه السنة من يدفع، بل ولا من ينفع، وكان شيخ الركب سيدي أبو زيان حفيد سيدي أحمد ابن يوسف الملياني، وهو رجل لين وليست له عصبة قوية، إنما كان يتأخر في بعض الأحيان هو وفارس آخر من أصحابه، فكان من قدر الله في ذلك اليوم أن ركب[1] على جمل لإراحة فرسه، وتقدم وما رأى الناس قطا لصا في ليل ولا نهار من مكة إلى هذا المحل، وكأنهم أمنوا وقل حذرهم، فساروا حتى جاوزوا دار أم السلطان، وباتوا، وفي الغد أتينا المويلح ضحى بعدما اشتدَّ الحرّ، ولما قربنا من البندر تقدمت أمام الإبل، وملت إلى حائط من نخل لأستريح، فوجدت حارسه رجلاً من المغاربة من زناتة إفريقية، تعوّق هنا فأدخلني الحائط وآواني إلى عريش له، حوله حابية ماء

[1] في ط: أن ركب في ذلك اليوم.

بارد، وقدّم لي من رطب الحائط، فأكلت وقيّلت هناك عنده واسترحت حتى ذهبت سورة الحر، فتقدمت إلى المترل، فجزى الله أهل الإحسان خيرا وأثابهم.

وبات الركب تلك الليلة في المويلح في أرغد عيش، وفي الغد ارتحلنا بعد الزوال ونزلنا حيث تنعطف الطريق يميناً عن البحر، وفي الغد مررنا بعيون القصب واستقينا، وفتناه غير بعيد ونزلنا، وفي الغد نزلنا مغارة شعيب قرب المغرب، وفي الغد ارتحلنا بعدما طلعت الشمس وارتفعت، وبتنا أعلى الوادي دون شرف بني عطية، وفي الذي يليه نزلنا أسفل الوادي قريباً من البحر حيث تميل الطريق إلى ظهر الحمار، وفي الذي يليه نزلنا العقبة ظهراً. ووجدنا أهل غزة وأهل معان قدموا بعنب كثير وفاكهة، وبات الناس بها تلك الليلة وأقاموا غدا، وهناك تجددت لنا نية السفر إلى القدس الشريف وزيارة ثالث الحرمين ومشاهدة الأرض المقدسة المباركة ومعاينة آثار الأنبياء وزيارة الخليل وبنيهم عليهم الصلاة والسلام، وكان ذلك يختلج في أفكارنا أيام المجاورة كلها ونرغب إلى الله تعالى في تيسير ذلك في مظان الإجابة، وهي إحدى المسائل التي سألت الله تعالى فيها الملتزم، وجعلنا هذه عنوان ما غاب منها، فمنَّ الله بالإجابة، إلا أنا مع ذلك كنا نرى الوصول إلى تلك الأماكن متعسرا أو متعذراً على أمثالنا لقلة ذات اليد وعدم القدرة على مقاساة المشاق العظيمة التي يوجبها الانفراد عن الطريق المألوف والسلوك في بلاد غير معهودة، والمعارف بها مفقودة، والرفقة إليها غير مأمونة، والمخاوف فيها إن لم تحقق فهي مظنونة، فكنا نُمني أنفسنا بعد الوصول إلى مصر واستقرار الأركاب بها نجدد رحلة من هناك إلى القدس، (وكان أمر الله مفعولاً)[1]، ومن اختار له كان على كاهل السلامة محمولا، فلما نزلنا بالعقبة ووجدنا بها رفقة أهل غزة، قوي عزمنا على ما كنا نأمله، وتركنا الالتفات إلى ما كانت النفس تسوله، وفوضنا الأمر إلى الله، وتوكلنا عليه وأعاننا على ذلك صاحبنا الحاج أحمد العجين الطرابلسي، وكان معنا في الركب وقوى عزائمنا، واكترى لنا جملين للركوب وحمل الماء من رجل اسمه صبح الرباب من عرب الحكوط، وهم أهل تلك الناحية، وسلف لنا ما نحتاجه من النفقة في الطريق، وبعثنا كتبنا وأمتعتنا مع بعض أصحابنا في الركب إلى مصر، وفارقنا ركب المغاربة هناك. وارتحلوا صبيحة يوم الأحد التاسع والعشرين من محرم، وأقمنا بعده يوما، وزرنا في ذلك اليوم قبر الشيخ

[1] النساء: 47.

إبراهيم اللقاني، وهو دون البندر في مقبرة هناك معلم عليه بأحجار، وما عرفناه إلا في هذه المرة دلنا عليه بعض أصحابنا الإفريقيين. فلما خلا المترل منهم و لم يبق داع ولا مجيب اشتدت علينا الوحشة، وتسوغت مرارة الاغتراب في الغربة، وبقينا منفردين ليس لنا خباء يكننا من الحر، وثلاثتنا مثل الأثافي لا رابع لنا إلا عناية الله التي شملتنا ولطفه الذي حف بنا، فحملنا أمتعتنا على ظهورنا إلى حائط نخل قرب الركب المصري، ونزلنا فيه حتى جاء صاحبنا المكاري عشاء، فأتينا[1] مأواه في قافلة أهل غزة، فنقلنا إليه أمتعتنا وبتنا عندهم.

وفي الغد أخذ الركب المصري في الارتحال من العقبة من نحو نصف الليل، وما خرج آخره من الدار حتى زالت الشمس، وكان أول من رحل باشة الأزلمية، وهو الأمير الذي يقدم مع أول الملاقين إلى الوجه، و لم يزل الناس يرحلون بعده شيئا فشيئا، وقبل الظهر رحل المحمل وبعده باشة العقبة، وهو آخر من رحل، و لم يبق بعده إلا من أراد المشي إلى غزة.

فلما خرجوا من المترل و لم يبق به أحد منهم، وذهبوا[2]، وتأخر رفقتنا الشاميون حتى غابوا عن أعينهم ودخلوا في شعاب العقبة أخذوا في الارتحال، وارتحلوا في خفارة أمير الوحيدات وما والاها من عرب غزة المسمى الشيخ بشير، وكان ورد العقبة في نحو من عشرين فارسا من أصحابه، وهو صاحب درك الركب المصري والشامي في تلك البلاد. وكانت بينه وبين كبير حجاج أهل غزة في تلك السنة الحاج حسن المغربي معرفة، فتكلم معه على أن يذهب بهم بإتاوة إلى غزة يؤدونها له، فخاف الحجاج غدره وعدوانه، فتكفل لهم صاحبه الحاج حسن المغربي بكل ما يقع منه من نقض وغدر، وتوقى منه بصاحبه، وذهبوا به إلى أمير الحاج المصري حتى تكفّل لهم بذلك بين يديه، وكتبوا عليه سجلاً على ما زعموا، وسبب ذلك أن هؤلاء الأعراب نافقوا على عسكر غزة في هذه السنة، ووقع بينهم وبينه قتال، ونهبوا عسكر أمير غزة، وخرجوا عن طاعته، فلذلك خاف منهم الحجاج الشاميون، ولولا توثقهم بضمان حسن المغربي ما ذهبوا معه، ومع ذلك فقد ذهب أكثرهم إلى مصر و لم يأمنوا أن يذهبوا معه، وكانت الجعالة التي تكلموا بها معه ثلاثة قروش لكل جمل، وفي الرفقة أزيد من مائة جمل، ولحسن المغربي منها

(1) في ط: أرانا.
(2) ساقط من ط.

نحو من أربعين. وسرنا إلى العقبة بعدما صلينا الظهر واستقينا الماء سيرا رفيقا لا خوف فيه ولا قلق، ووصلنا فم النقب عند صلاة المغرب وصليناها في المضيق الذي هو مبدأ الصعود، وطلعنا العقبة رويدا، ووافينا ذروتها قريبا من ثلث الليل الأول، و لم نَرَ فيها لصاً ولا سارقاً ولا طارقاً، إلا طارقا يطرق بخير، لأن غالب المكاريين من عرب تلك الناحية، وكل من في تلك الناحية من الأعراب، في درك خفير الركب بشير. وشرف في تلك الليلة حمل من الفلفل للحاج حسن المغربي فبعث بشير من قص الأثر، فأتى به و لم يضع منه شيء، فلما طلعنا لسطح العقبة فارقنا أواخر ركب المصري، وكنا أدركناهم في العقبة، وعدلنا ذات اليمين وقد وجدنا من الإبل الباقية من الركب المصري في صعود العقبة ما ينيف على المائتين بين حي وميت، فربما يكون بالموضع الواحد خمسة أو ستة مصرعين، فكأنما جزرهم جازر، فقضينا العجب من ذلك، وما ذاك إلا من الثقل وللسوق العنيف، وما كانت إبل الأعراب الذين معنا إلا دون تلك في السمن بكثير، ومع ذلك لم يضع منها واحد. و لم نزل نسير تلك الليلة في سطح العقبة إلى قريب من ثلث الليل الآخر، فأنخنا في فحصاص أسود لا ماء به ولا كلأ ولا ظل، وأصبحنا فيه، وجعل الأعراب يعدون الإبل والأجمال لأخذ الغفر الذي شارطوهم عليه، فأخذوا على كل جمل قرشين، وعلى كل جمل من جمال الأقوام ثلاثة، والأقوام عندهم هم الفلاحون. وكنا توهمنا أنهم يأخذون منا، فصرفهم الله عنا، وليس معنا متاع يأخذون عنه، والإبل التي ركبنا عليها هي لهم، فلم يتعرضوا لنا بسوء. و لم نرحل من ذلك المترل إلا بعد العصر، وسار الناس سيرا شديدا طول ليلهم، وقل الماء في القافلة، وأضر بنا السهر حتى وقعت مني خيزرانة كانت عندي حججت بها وشهدت بها المشاهد، فتألمت لفقدها، و لم أصب في طريقي كلها بمثلها.

ولما كان آخر الليل ذهب مكارينا سلمان، وهو ابن أخي صبح المتقدم بعثه معنا، ورجع هو حين قل الماء، وقال لنا إني أعلم هنا موردا كنا حفرنا في هذه السنة لنعمنا، وذهب معه بالجمل ليأتنا بالماء، فلم يدركنا حتى نزلنا ضحى قريبا من ماء آخر، فأتانا بماء بارد حلو، وأقمنا يومنا هناك إلى العصر فارتحلنا، فلما كان الثلث الأول من الليل دخلنا في جبال وعرة وسلكنا في عقاب إلى آخر الثلث الثاني، فترلنا على ماء يسمى مائق، وهو ماء بارد حلو في مسيل واد في حفائر، وكان أصله ماء المطر المتحقن في باطن الأودية، وأقمنا فيه إلى العصر، فارتحلنا

وحصر شيخ العرب الناس حتى عاود لحساب الإبل والأجمال، فأراد أن يعد إبلنا، فقال شيخ القافلة حسن المغربي: هؤلاء حجاج فقراء لاشيء معهم فتركها، فلما كان بعد المغرب رأوا سواداً عقبهم إلى الماء فظنوهم عدوًّا، فرجعت الخيل إلى الماء وبات الناس هنالك، فإذا هم قوم من العرب معهم أحمال للتجارة فروا بها من الغفر، فأتوا بها وغفروها، ثم ارتحلنا صباحا وقيلنا في واد قرب موضع يقال له العين، فلقيني قرب المنزل شيخ العرب وقال: يا حاج، يا مغربي، هات القرسين، يداعبني. فقلت: إن شاء الله. و لم يذكرها لي بعد، وعطشت خيل العرب فأخذوا من الناس الماء قهرا لسقيها، ثم ارتحلنا من هناك نقطع أرضا بها أثر العمارة والحرث أشبه الأرضين بأرض برقة، ومررنا تحت الموضع المسمى بالعين. وبعد نصف الليل نزلنا على ماء يسمى بيرين، وهو عبارة عن آبار غزيرة المياه باردة حلوة عليها أدواح عظيمة من شجر البطم، وأصبحنا بها وأقمنا إلى العصر، فارتحلنا وانحدرت بنا الأرض إلى سواحل الشام. وفي الثلث الأول من الليل وصلنا إلى كثبان رمل وجبال منه ممتدة، و لم نزل نقطعها إلى أن غاب الغمر في السادسة، ونزلنا إلى الصباح فارتحلنا وقيلنا في موضع يسمى الرحيبة[1]، وبه آثار عمارة كبيرة ومدينة خالية نزلنا عن يسارها، ثم ارتحلنا عند العصر ومررنا بموضع يسمى الرابية عند الأصفرار[2]، فلما كان عند المغرب أمر شيخ العرب الناس فنزلوا قرب الوادي المسمى بالفارغ، وكانت إبل حسن المغربي قد تأخرت، فلما جاء وجد الناس قد نزلوا، وأبى عن النزول، فارتحل الناس بعدما حطوا رحالهم، وفارقهم شيخ العرب وجماعته لأنهم خافوا من باشة غزة، فإنهم قتلوا منه في الشهر الذي قبل هذا نحو ثلاثمائة، وسار الناس على حالة، وجل ليلهم أجمع، لأن المحل موضع بين الفريقين، فلما طلع الفجر صبيحة الاثنين السابع من صفر أناخوا بباب غزة، فنزلنا خارجها، واطمأنت القلوب بعدما كانت في وجل، ورأينا البساتين والأشجار والمنازل والقصور وكأنما نشرنا من القبور، ودخلنا في عالم آخر سوى الذي كنا فيه، وحمدنا الله كثيرا، وشكرنا شكراً أثيراً، ودخلنا المدينة بعد طلوع الشمس، وتلقانا أول ما دخلنا رجل من تجارها فأدخلنا داره تبركا وأطعمنا، ثم ذهبنا إلى المسجد الكبير ونزلنا به، وما شعرنا أن به الدويبة المسماة عندهم بالدلم، وهي أضر شيء لبدن الإنسان، تلسع لسعاً تسري سميته في البدن فيحكمه أياماً، وكثيراً ما يعقب

---

[1] في ط: الرجبية.
[2] في ط: الأصفر.

مرضاً ردياً والعياذ بالله، فتأثر من ذلك بعض أصحابنا، ورأينا من غزة بلدا فسيحا ومنظراً رائقاً، وأسواقاً حافلة، وأسعاراً رخيصة، وفاكهة كثيرة، مع ما هم فيه من التشويش من أجل العرب المخالفين فإنهم يغيرون على القرى التي حول المدينة وينسفون زروعها، وعجز الباشا عن مقاومتهم، وكان في تلك الأيام يضم البيارق من النواحي ويتهيأ للخروج إليهم، والبيرق عندهم عبارة عن جماعة من الخيل لهم رئيس يقدمهم، ولكن الباشا مع كثرة ما جمع يقدر على البروز إليهم لنجدتهم وشجاعتهم، وكانوا يحكون عن بشير وجماعة من أقاربه الأبطال أموراً غريبة من الشجاعة، وقد رأيت عند بشير فرساً أنثى كحيلية زعموا أنه اشتراها بألف قرش، والكحيلية نوع من الخيل عندهم معروفة بالنجدة والعتاقة، وقد كنت استصحبتُ كتاباً من عند صاحبنا الشيخ إسماعيل النابلسي الحنبلي لما افترقت معه في العقبة، كتبه إلى صالح علماء غزة وعالم صلحائها ذي البيت الشهير، والجاه الكبير، الشيخ عبد القادر بن الغصين[1] أوصاه فيه بشأني، وعرفه فيه بحالي، فلما دخلت المسجد الكبير وكنا تعبنا ليلنا، وأثّر فينا السرى، لم أطق حراكاً ولم أخرج من المسجد حتى صلينا الظهر، وسألت عن الشيخ عبد القادر فعرفت بصفته، فلما جاء وقت العصر ودخل المسجد للصلاة ناولته الكتاب فأخذه وذهب به إلى مترله، وبتنا تلك الليلة بالمسجد ولم يرجع إلينا شيئا[2].

وهذا المسجد من أحسن المساجد رواء عالي البناء فسيح المنظر له صحن رائق مفروش بالمرمر والحجارة المنحوتة وفيه دالية عنب قد غطت بأغصانها الناعمة جهة منه، وفيه شجرتان كبيرتان من الزان بسقتا في السماء بسوقاً مفرطاً كأنهما نخلتان سحوقتان، وعلى يمين قبلة الصحن مسجد كبير مرفوع على سواري كبيرة من الحجارة المنحوتة، وهو مفصول عن الصحن بشبابيك غريبة الصنعة ولا يصلون فيه إلا في أيام الشتاء، ووجدنا الفعلة مجتهدين في تبييضه وتجديد نقوشه، وأما بنيانه فلا يحتاج إلى تجديد لفخامته ووثاقه، وكان أصله كنيسة كغالب مساجد ذلك الساحل،إلا أن المسلمين لما ملكوا البلاد من يد الإفرنج صيروها مساجد، وقد سمعت من بعض أهل غزة أن مسجدهم ذلك كان كنيسة في زمن المسيح عليه السلام.

---

(1) عبد القادر بن أحمد بن يحيى ابن الغصين، الغزي الشافعي، عالم عامل، رحل إلى مصر وأخذ على يد شيوخها، ولد سنة 1013 هـ، وكانت وفاته سنة 1087 هـ: خلاصة الأثر 2:47.

(2) في ط: بشيء.

ومما عيب على أهل هذا البلد عدم احترامهم للمساجد، فإن لهذا المسجد، وهو أعظم مساجدهم، أبواباً بعضها إلى ناحية السوق، وبعضها إلى ناحية الدور، فلا يكون لأهل الدور مروراً إلى السوق إلا في وسط المسجد، ويمرون في صحنه بنعالهم ويستعملون فيه الدخان الذي يشربونه، وقد قال بعض المغاربة المجاورين هناك مداعباً: إن هؤلاء لا يعدون المسجد إلا الحصير بنفسه فإنهم يحترمونه مادام مبسوطاً ولا يطئونه بنعالهم، وما سوى المكان المفروش لا فرق عندهم بينه وبين الأزقة. ولما كان الغد من يوم وصولنا دخلت على الشيخ عبد القادر في مدرسته فسلمت عليه، وقال لي: أين الرجل الموصى عليه في الكتب الذي ناولتني أمس؟ أين نزل فإني لم أجد من يدلني عليه، وكان لا يظنني إياه لما رأى من رثاثة هيئتي، فقلت: أنا هو. فأعاد السلام ورحب، واعتذر عما صدر منه من التغافل، وبعث في الحين من أتى بأمتعتنا وأصحابنا من لمسجد، وأنزلنا في مكان واسع مهيأ للمرافق من مدرسته، وأحسن غاية الإحسان، ومدرسته هذه في قبلة المسجد الأعظم ليس بينه وبين المسجد إلا الطريق، وغالب جلوسه فيه، ويأوي إليه أصحابه فيه، ويقرؤون خمسة أحزاب من القرآن كل يوم قبل طلوع الشمس مناوبة، وفيه خزانة كتب، وتقرأ فيه كتب علمية، وأخبرني، رضي الله عنه، أن أمير البلد هو الذي بنى هذا الرباط وأوقفه عليه، وجعل له أوقافا، وأخبرني أن الشيخ أبا العباس المقري، رضي الله عنه، هو السبب في ذلك، وأنه لما جاء من مصر إلى الشام، وكان نزوله عند والد الشيخ الغصين، وكانت للشيخ المقري مكانة عند الأمير. قال: وكانت دارنا بعيدة من المسجد، فآتي إلى المسجد أقرأ فيه وأقري، فسألته أن يطلب لي الإذن من الأمير في بناء بيت ببعض رحاب المسجد وأشتغل فيه بالمطالعة والقراءة، فقال لي: لابد من حضورك معي عند الدخول على الأمير. قال: فلما دخلنا عليه قدم له الشيخ مقدمات في فضل بناء المساجد والمدارس، ثم أثنى على الشيخ عبد القادر وقال له: إنه من أهل العلم وليس ببلدكم مثله وأراد أن تأذنوا له في بناء بيت في المسجد يقرأ فيه ويقري. فقال الباشا: مثله لا يليق له البناء في المسجد، ولكن هنا موضع نحبسه عليك، وهو موضع المدرسة الآن، وكان يسكنه أقوام لا خلاق لهم من أعوان الدولة. فقال له الشيخ المقري: لما هممت بهذا فامضه الآن ولا تُؤخر. فلم يبرح من المحل حتى دعا القاضي وكتب وشهد الشهود، وأخرج ما كان في ذلك المحل، وحبس على المحل أوقافا يتحصل منها نحو خمس قطع كل يوم. و لم يزل المحل بعد ذلك عامرا بالذكر والقراءة ولله الحمد.

قال: فما نحن فيه كله من بركة الشيخ المقري، قال لي: ومن قوة تواضع الشيخ المقري، رضي الله عنه، أنه لما أتى من مصر جاء بكتاب من عند الشيخ النجار فيه وصاية إلى والدي به، فأنزله والدي عندنا وأكرمه غاية، فلما أنس بنا وتداخل معنا قال له والدي يوماً: يا سيدي أحمد إنا نشتهي الطعام المسمى عند المغاربة بالكسكس، فهل في أصحابكم من يحسن صنعته؟ فقال له فيهم؟ والله لا يصنعه لكم أحد غيري. قال: فأتينا بشاة لحم ودقيق وسمن وما يحتاج إليه، فصنع لنا بيده طعاماً من أجود ما يكون من ذلك النوع. ومما حكي لي عنه أن والده أتى إليه بولده الصغير المسمى عبد الرحمن وسأله أن يدعو له. قال: فدعا له وبرك وكتب له وفقا في صحيفة من فضة وأمر بتعليقه عليه، فقال يحصل لذلك الولد جاه عظيم وحظوة كبيرة عند الأمراء وأرباب الدولة، وهو الآن شيخ التجار بتلك البلاد، وكلمته نافذة عند العام والخاص، وله أخ بمصر هو من كبار تجارها، وأخوهم الثالث هو الشيخ عبد القادر مشتغل بالعلم والعبادة، لا يشتغل بشيء آخر من أمور الدنيا قد كفاه إخوانه مئونة كل شيء، فانتشر له صيت وجاه بتلك الديار من قبل علمه وصلاحه، ومن قبل جاه أخويه الدنيوي، فجمع له جاه الدين والدنيا معا، وقد استجزته فأجازني حسبما أذكره في جملة الإجازات في آخر الكتاب.
وقرأت عليه بلفظي منظومة شيخه المقري في العقائد المسماة بإضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة كلها، وأخبرني بها عنه وقال لي: أنا ممن كان السبب للشيخ في نظمها فإني كنت أقرأ عليه صغرى الشيخ السنوسي بمصر، فسألنا منه نظما في العقائد، فكان كلما قرأ درسا نظمه فيقرأه غدا كذلك، إلى أن ختمها، وعند الشيخ الغصين نسخة من هذه المنظومة عليها خط الشيخ في أماكن، وعليها إجازة لمالكها الشيخ عبد القادر، ولنذكر بعض ما رأيته مكتوبا في هوامشها بخط المؤلف تبركا به، وزيادة للإفادة، فمن ذلك قوله: واستحل معنى من لنفسه عرف ما نصه، حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه. قال النووي فيه أنه غير ثابت، وقال بعضهم، وأظنه السمعاني، من كلام يحيى بن معاذ، وألف بعض شيوخنا المغاربة فيه مصنفا سماه: القول الأشبه في حديث من عرف نفسه عرف ربه. قال مؤلف العقيدة الفقير أحمد بن محمد المقري وفقه لله: وممن صرح بأنه حديث العارف سيدي محي الدين بن عربي فإنه صرح في المسامرات في غير ما موضع بنسبته إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، وأظن أنه صرح به أيضا في وصايا الفتوحات، والله أعلم.

وكتب أيضا على قوله: آخرها وفاء عده بنصف الألف، البيتين ما نـــصه، قولي وفاء، عده بنصف المائة، ألفيتها خمسمائة، وهذا لم أسبق إليه، والله أعلـــم. وقولي: وكان إتمامي له في القاهرة، هو جملة التاريخ لأن عدة حروفـــه بالجُمـــل 1039، قاله وكتبه مؤلفه أحمد المقري.

وكتب أيضاً في آخرها ما نصه: يقول مؤلف هذه العقيدة العبد الفقير أحمد المقري المالكي، جبره الله، أني صححت هذه النسخة جهد استطاعتي، وأصلحت فيها ما عثرت عليه، وقد كتب من هذه العقيدة فيما علمت بمصر المحروسة والشام والحجاز والمغرب نيف على ألف نسخة، ولله الحمد، وكتبت خطي علـــى نحـــو المائتين منها، وقد كتبها غالب طلبة مكة لما قرأتها هنالك وأهل بيت المقدس لمـــا قرأتها به أيضا، وأهل دمشق حين درستها بها، وأخذ منها أصحابنا إلى المغـــرب والصعيد نسخا، وكتب لي بعض أصحابنا بالصعيد أنه كتب منه هناك نيف على مائة نسخة، وكذلك الأمر برشيد والإسكندرية، جعلها الله خالصة لوجهه الكريم، وكتب لشوال سنة 1037، وعرض علي شيئا من منظومة أبي الحجاج الضرير في العقائد، وسألني عن تفسير أبيات منها، وكان فيه قوة إنصاف وزيادة تواضـــع، رضي الله عنه، وله ولد نجيب شارك في العلوم، حافظ للقرآن، نهجَ نَهْج أبيـــه في اكتساب الأخلاق الحميدة، وغالب من له مشاركة في علم من العلوم يحضر عند الشيخ عبد القادر في هذه المدرسة أحيانا كثيرة، وبالجملة فهو الملحوظ والمنظـــور إليه في البلد علماً وصلاحاً وحسن سمت وهدى، وهو ملجأ الواردين من العلماء والفقهاء، وإليه يأوون، فهو محط رحالهم ومنتهى آمالهم إذا أحب الله عبدا حببـــه إلى خلقه، وقد كتبت له أبياتا بعدما أنست به وأنس بي وعمني بره، وهي هذه:

[وافر]

لدى الشيخ الغصينِ أنختُ رحلـــي ... بغـــزةَ مـــا أعـــز بهـــا مكـــان

فـــأكرمني وأتحفـــني بـــنزل ... ونلـــتُ بقربـــه كـــل الأمـــانِ

ولِمْ لا وهْو شـــيخ العـــصر علمـــا ... وجـــودا وهـــو نـــادرةُ الزمـــان

فمن خافَ الـــردى وأتـــاه جـــارا ... أجـــير وبـــاتَ في ظـــل الأمـــان

إمـــام عـــارف بـــالله حقـــا ... ســـخا قلبـــهُ بـــسط البنـــان

به الحسب الصميم وحسن خلق إذا تلقاه يظهر للعيانِ
فمن خلق الكرام له صفات حسان ليسَ تحصر باللسان
جزاهُ الله عني كل خير يكون ختامه سكن الجنانِ

وهذه الأبيات، وإن كانت في الرتبة الوسطى من البلاغة فقد ابتهج بها سروراً وبالغ جلساؤه في إطرائها، وتناقلوها، وذلك لشغور البلد من أهل هذه الصناعة، بل وممن يحقق غيرها من العلوم، فإن أمثل ما فيها شيخنا هذا، إنما له مشاركة حسنة وديانة ظاهرة أكسبته وقارا وهيبة ووجاهة عفت ما عسى أن يظهر أثره من قصور أو تقصير، وقد رأيت قريبا من مقابلة المكان الذي يجلس فيه في المدرسة بيتين في رق ملصق في حائط ذكر لي أنهما لبعض الواردين هناك وهما:

[مجزوء الرمل]

يا سائلي عن غزة ومن بأرضها مقيمْ
فابن الغصين إنه على صراط مستقيم
وسائل عن غزة ومن بها من الكرام
أجبته مختصرا نجل الغصين والسلام

وكتبت[1] بإزائهما ما هذا قريب منه إن لم يكنه:

مدرسة ذات جمال وبهاء باهر
لكن كمال حسنها بالشيخ عبد القادر

وممن لقيته بغزة أيضاً قاضي الحنفية بها الشيخ عمر المشرقي[2]، وهو صهر الشيخ عبد القادر، وله مشاركة أيضاً، ويُشار إليه في المعقولات على حسب مقتضى الحال، وبيتهم بيت علم، وأسلافه بغزة، كانت لهم رياسة علمية، فانضاف إليها موالاته في الوقت لآل الغصين، فاكتسب بذلك رياسة تولى بها خطة القضاء،

---

[1] ساقط من ط.
[2] عمر بن عبد القادر المشرقي الغزي، العلامة المتفنن، تولى خطة الفتيا ببلده، كانت وفاته بغزة سنة 1087 هـ: خلاصة الأثر 212:3. نشر المثاني 140:2.

فعظمت بها مترلته، وكان أولا على مذهب الإمام الشافعي كأسلافه، ثم اتفق موت قاضي الحنفية في البلد، ولم يكن معه في البلد من يقوم بوظيفة القضاء، فرشح لذلك، فانتقل لمذهب أبي حنيفة بسبب ذلك على ما أخبرني به بعض أهل البلد، وغالب من يتمذهب بمذهب أبي حنيفة في هذه الأعصار وما قبلها بأزمان إنما ينتقلون لمثل هذه الأغراض، بل هذا من أحسنهم عذرا لأنه ما انتقل إلا بعد أن احتيج إليه في ذلك المذهب، وغيره ينتقل رجاء في التقرب إلى أرباب دولته، ولينال خطة يوما ما من الدهر، وقد حذر العلماء حتى الحنفية بأنفسهم من الانتقال في المذاهب لأغراض سوى ظهور ترجيح المنتقل إليه، سيما إن كانت الأغراض دنيوية. وسيأتي بقية الكلام على ترجمة هذا الشيخ عند ذكر لقائي له عند الرجوع من القدس.

وفي مدينة غزة مزارات كثيرة ومساجد فاضلة في أطراف البلد قد استولى الخراب على أكثرها، فإن هذه المدينة كانت في أول الأمر من أمهات المدن في الجاهلية والإسلام، وقد أثر الهدم فيها لوقتنا غاية، وبلغ الوهن في أطرافها النهاية، ولم يبق بها إلا رسوم ماثلة تدل على أبهة كاملة في قصور الأمراء والمساجد والرباطات والمشاهد، ومعظم عمارتها اليوم إنما هو في قرب المسجد الكبير إلى دار الإمارة، وما يقرب من ذلك مما هو في أعلى الربوة التي هي فيها لأنها في رابية مشرفة على بساتين وجنات من نخيل وأعناب (وفواكه كثيرة مما يشتهون)[1]، ومعظم أجنتها في زمننا هذا من جهتها البحرية متصلة إلى قريب من عسقلان، وهي على ساحل البحر بينها وبين غزة نحو من ثلاثة فراسخ، وبين غزة والبحر نحو من فرسخ.

ومن المزارات التي زرناها مولد الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهو في مغارة تحت الأرض قرب الجامع الكبير، وقد ذكر المؤرخون أنه ولد بغزة. ومنها قبر هاشم بن عبد المطلب جد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإليه تنسب غزة إلى الآن، فيقال: غزة هاشم، وهو في طرف المدينة من الناحية البحرية، وقد ذكر أهل السير أنه مات بغزة، إلا أنه يبعد تعيين قبر عربي مات في زمن الجاهلية بأرض غربة في أرض العجم ويستمر تعيينه إلى زمننا هذا، ولاشك أن هاشما رئيسا في قومه، جواداً سخياً ممدحاً عظيماً في قريش، لا تجهل مكانته، والعرب كانت تعتني

---

[1] المرسلات: 42.

بتعظيم مقابر عظمائها، فلو كان في بلاد العرب ما بعد كل البعد أن يتعين في الجاهلية ثم يبقى كذلك في الإسلام لمكانته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإلا فكم من قبر لعظيم من عظماء العرب كان مشهورا في الجاهلية ينحر عنده ويستجار به كما هو مذكور في مآثرهم قد محا الإسلام بنوره آثار ذلك كله، وجرت عليه الرامسات ذيولها (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا)[1]، وقد زرنا هذا المكان بحسن النية لغرابته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واقتداء بمن قال من الأئمة أن أجداده، صلى الله عليه وسلم، مسلمون كلهم على دين إبراهيم عليه السلام، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

ومن المزارات أيضا بغزة قبر الإمام الأوزاعي، رضي الله عنه، ومكانته في العلم والصلاح مشهورة، وهو إمام أهل الشام في زمانه، وله مذهب مُتّبع، وزرنا أماكن كثيرة سوى هذه، نسأل الله أن ينفعنا بذلك آمين. وكانت إقامتنا بغزة خمسة أيام، وارتحلنا منها يوم السبت الثاني عشر من صفر، واكترينا حمارين لركوبنا إلى الرملة، وخلفنا بعض ما يثقل من حوائجنا. وكتب لنا شيخنا الشيخ عبد القادر كتابا إلى الرملة، وآخر إلى القدس وآخر إلى الخليل، يوصي بنا، فخرجنا ضحى مع قافلة وسرنا في أجنة غزة وكرومها قريباً من فرسخ، ثم خرجنا إلى فحص واسع ذي مزارع وزيتون كثير، ومررنا بقرى متعددة، وتركنا عسقلان على الشمال بيننا وبين البحر، وكنت أود زيارتها وزيارة ما فيها من المساجد فلم يقدر لي ذلك، وكانت في العصر الأول من أمهات المدن إلى أن خربها السلطان صلاح الدين بن أيوب بعد فتح القدس، خشية استيلاء الإفرنج عليها فيجعلوها ذريعة إلى التوصل إلى القدس، وقد عجز المسلمون عن حفظها في ذلك الوقت كما ذكر المؤرخون، ولم أر من ذكر أنها عمرت بعد ذلك عمرانا معتبرا. وسرنا يومنا[2] إلى العصر فوصلنا محلاً يُسَمَّى خان أردود، وهو منزل معلوم تنزله القوافل الآتية من مصر على الطريق السلطانية أو من الشام، ولهم منازل معلومة لا يتعدونها، طالت الرحلة أم قصرت من مصر إلى الشام، بل وإلى اصطنبول على ما أخبرني من مارس تلك البلاد، وبجانب هذا الخان مسجد فيه قبر ولي الله تعالى

[1] مريم: 98.
[2] في ط: ذلك اليوم.

الشيخ إبراهيم المتبولي[1]، وهو من أكابر الأولياء، وقد أطنب سيدي عبد الوهاب الشعراني في التعريف به وذكر له كرامات، وإلى جانبه من جهة القبلة مسجد صغير تحته مغارة يقال إن فيها قبر سلمان الفارسي، ونزلنا في ذلك المترل وصلينا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقرأنا فيه من القرآن ما تيسر، وكنت جهدت أن أختم فيه ختمة كان ابتداؤها من مكة المشرفة، فلم يتيسر ختمها إلا بالمسجد الأقصى.

ثم ارتحلنا منه نصف الليل ونزلنا الرملة حين ارتفعت الشمس، ومررنا بقرب الرملة بقبة عتيقة يقال إن فيها كان باب المدينة في قدم العصر، وقد انهدم رأس تلك القبة، وأخبرنا من معنا من أهل الرفقة أن سبب هدمه أن كان مكتوبا فيه: العقل في الرأسٍ، ولا يعلم أحد معنى ذلك إلى أن جاء رجل ليلاً فهدم رأس القبة ووجد فيه مالاً على ما زعموا، فلما دخلنا الرملة نزلنا عند محبنا الفقيه الصالح السيد محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني، وإليه كتب لنا الشيخ عبد القادر الغصين فأكرمنا غاية الإكرام، وأقام بالحق الواجب، فجزاه الله خيراً، وهذا السيد من أمثل فقهاء الشافعية في تلك البلاد، وقد تولى القضاء مدة بالقدس، ومترله بالرملة مألف الأفاضل إليه يأوون، وعنده يترلون وهو محترم يقصده الناس للزيارة، وأسلافه كانوا أهل فضل وبركة، وهو الآن منفرد في مترله أعد فيه مكانا للوضوء والصلوات، يقيم الصلوات الخمس بمترله مع من حضر، وصادفنا وقت اجتناء القطن عندهم، فكان يمتهن نفسه في ذلك مع من حضر في المترل، ولا يأنف منذ ذلك، ولم يحوجنا مدة إقامتنا إلى شراء شيء من النفقة، فجزاه الله خيرا، ولما كان الغد من يوم نزولنا بالرملة توجهت مع السيد محمد إلى لقاء الشيخ المسن العلامة المتقن السيد الراوية، إمام الحنفية ومفتيهم، وإليه مرجعهم في تلك الديار الشيخ خير الدين الرملي، وكان لقائي له يوم الاثنين الرابع عشر من صفر بداره الجديدة التي شرع في عمارتها بمدينة الرملة، فسمعت منه الحديث المسلسل بالأولية، وأوائل كل من الكتب الستة، ومسند الشافعي وأحمد وأبي حنيفة والسنن للدار قطني، وكان يورد أبحاثاً رائقة في خلال ذلك تدل على تمهره، وأجازني عن شيخه الحنبلاطي، وعن الشيخ سالم وغيرهما ممن كان في عصرهما، وأخبرني أنه دخل

---

[1] إبراهيم المتبولي، المصري، صوفي عارف، توفي أثناء رحلته إلى القدس سنة نيف وثمانين وثمانمائة: الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 398.

الأزهر المعمور للاشتغال سنة سبع وألف وعمره أربع عشرة سنة، وخرج منه وعاد إلى الرملة سنة سبع عشرة. ومما أخبرني أنه غرس بيده المباركة ما يزيد على مائة ألف شجرة كلها أطعمت وأكل من ثمرها، وهذا أغرب ما يكون، وما سمعنا بمثله. وأغرب ما ذكر البلوي في كتابه ألف با عن بعضهم أنه غرس ثلاثين ألف شجرة[1]. قال لي: وكان ابتداؤه في الغرس من سنة سبع عشرة وألف، وكان هذا الشيخ مباركا له في عمره، وجمع له فيما بين الدين والدنيا، وليس في تلك السواحل كلها أكثر منه عقارا، ومع ذلك فلم يترك ما هو فيه من الاشتغال بالعلم تدريسا وفتوى. أخبرني الثقة أنه بنى في الرملة ما يزيد على ألف عتبة، وغالب خانات الرملة وكرومها له، أخبرني أنه أدرك الرملة وليس بها من الفاكهة إلا القليل، فلما اشتغل بالغرس تابعه الناس فصارت الآن من أكثر بلاد السواحل فاكهة. وأخبرني أنه لا يدخر شيئا إنما يدخل بيده من المستغلات، فما فضل عن حاجته أنفقه. وأخبرني الثقة أن مدخوله في كل يوم يزيد على مائة قرش، وما ولي قط ولاية ولا منصب، وإليه انتهت الفتوى ببلاد الشام. جلست عنده عامة يومي والفتاوى ترد عليه من أقطار الشام فيجيب عنها بلا أجر، وله ملكة وقوة عارضة في مذهب أبي حنيفة، وكان بين يديه صهره الشيخ محمد بن تاج الدين الرملي، شاب صالح له مشاركة يكتب الأسئلة ويجيب عنها الشيخ، ولما اكتريت إلى القدس نادى المكاري وقال: لا تأخذ منه كراء، ودفعه من عنده واعتذر إلي. ومما أخبرني به أن عند علماء الحنفية إذا لم يوجد حكم الفرع منصوصا عليه عندهم ووجد حكم ذلك الفرع في مذهب مالك فإنه يجب العمل به عندهم لأن أصول الإمامين متقاربة. وأخبرني أيضا أن مما جرى به العمل في مملكة بني عثمان كلها، ويكتب في عهد العمال أن لا تسمع دعوى بعد خمسة عشر سنة إلا في وقف أو حق يتيم أو غائب، وقال لي إن الحاكم إذا حكم بغير ذلك فسخ حكمه لأنه معزول في غير ما عهد إليه، فلا ولاية له.

ونص ما كتبت من خطه في هذه المسألة: سئلت عن مسألة كثر وقوعها والسؤال عنها، وهي إذا منع السلطان نصره الله عن سماع كل دعوى مضى عليها خمسة عشر سنة إلا مال اليتيم، والغائب والوقف هل يمتنع على القاضي سماعها في غير هذه الثلاثة أم لا، فأجبت: يمتنع على القاضي سماعها في غير هذه الثلاثة،

[1] لم نقف على هذه الإشارة في الطبعة التي اعتمدناها من كتاب ألف باء.

والقاضي فيها كالرعية، ولو سمعها لا ينفذ قضاؤه لأن القضاء يتخصص بالزمان والمكان والحوادث والأشخاص، صرح به كثير من علمائنا، وهو مما أجمع عليه فقهاؤنا، فكان القاضي فيه كواحد من الرعية، والله أعلم. وكتبه الفقير خير الدين أحمد الحنفي الأزهري حامداً مصلياً مسلماً، وأنشدته بعد المذاكرة لبعض الأقدمين[1]:

[بسيط]

ما أكثرَ الناس بل ما أقلهم الله يعلمُ أني لم أقل فندا[2]

إني لأفتحُ عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرَى أحدا

فأنشدني لبعضهم في معناه:

[رجز]

ما أكثرَ الناس وما أقلهُم وما أقل في القليلِ النجبَا

يا ليتهمْ إذ لم يكونوا خُلقوا مُهذبينَ صحبوا المُهذبا

وهما أخصر من الأولين وأتم فائدة، وقد كتبت له يوم لقائي أبياتاً وهي هذه:

[طويل]

إلى الشيخ خير الدين أمت ركائبي فابن ومن يحملنه خير آيب

وردنَ خفافا ثم عدن كما ترى ثقال المتون من سَنى الرغائب

وحاشا لمن قد مد كفا إليكم تردُ إليه منكم كف خائبِ

هو البحرُ في أي العلوم اختبرته تجده عبابا زاخرا بالغرائبِ

على أنه عذب زُلال لوارد فلم يخشَ منه غصة كل شارب

يفيدك في أي العلومِ استفدته بذهن ذكي حاضر غير غائبِ

---

(1) البيتان لدعبل، وهما في العقد الفريد 1:236.

(2) الفند: الخطأ في الرأي والقول: لسان العرب: فند.

ولا سيما علمَ الحديث فإنه | إمام هدى فيه عظيم المناقب
وقد رامَ هذا العبد منه إجازة | وإن لم يكن أهلا لتلك المراتب
بكل الذي يرويهِ عن فئة مضوا | ونالوا من التحقيق أعلى المناصب
وإن كان من بعد السماعِ لبعض ما | يخف عليكم كان أسنى مطالب
جزاكم إله العرشِ عن نشر دينه | بأزكى تحيات وأسنى المواهب
وأزكى صلاة الله ثم سلامه | على المصطفى المبعوث من آل غالبِ
يدومان ما دامت نجوم علومه | وأقماره تجلو ظلام الغياهب

وسيأتي نص إجازته لي، وكتبها نظما.

ومن المزارات المشهورة بالرملة قبر الصحابي المشهور الفضل سيدنا الفضل بن عباس عم النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر المؤرخون أنه مدفون بفلسطين، وكانت الرملة قاعدة فلسطين في العهد القديم، وقد من الله علي بزيارته، وحصل لي من السكينة والوقار والتعظيم له عند زيارته ما لا أشك إذ ذاك معه أن ذاك قبره، وقد ذهب معي لزيارته صاحبنا الذي نزلت عنده السيد محمد الأشعري، وكان من أهل الخير ومن أفاضل أهل النسبة إلى الله، أقمت عنده في مترله ثلاثا، فرأينا منه خلقاً باهراً وفضلاً ظاهراً وديناً متيناً، وقد من الله علي بعقد أخوة معه عند قبر سيدنا الفضل ابن عباس، وكتبت خطي بذلك وكتب لي هو[1] أيضا هو بخطه، ونص ما كتبه لي: الحمد لله، واصل المنقطعين، والصلاة والسلام على من بشر المتحابين في الله بأسنى مراتب المقربين، وعلى آله وأصحابه صلاة وسلاما دائمين باقيين متلازمين ما حن غريب إلى أوطانه واشتاق للمحبين، وبعد، فمما منَّ الله به من النعم أن قدر لي الاجتماع بحضرة مولانا العالم النحرير المفخم، من جمع شتات الفضائل، وأبرز من يم بنات أفكاره فوائد هي من نظم ونثر، ورسائل حضرة الأخ في الله والمحب لوجه الله، أبي سالم عبد الله ابن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي المغربي، كان الله له حيث يكون، ودبرني وإياه في الحركة

---

[1] ساقط من ط.

والسكون، ونفعني بأخوته (يوم لا ينفع مال ولا بنون)[1]، آمين آمين آمين آمين، والحمد لله رب العالمين، قاله بلسانه، وكتبه ببنانه، أضعف العباد وأحوجهم إلى عفو ربه يوم التناد، محمد الأشعري الحسيني الشافعي، حامداً مصلياً مسلماً.

ومن المزارات العظيمة بالرملة الجامع الأبيض[2]، وهو مشهور الذكر عند الصوفية، وقد ذكر الشعراني في كثير من كتبه أن جماعة من الأولياء كانوا يأتونه من الأقطار البعيدة للصلاة فيه، وقد زرناه، ولله الحمد، وصلينا فيه. وفي صحنه مسجد تحت الأرض فيه مغارة قد زعموا أن بابها مسدود برصاص، وأن فيها جماعة من الأنبياء، وفي جانبه الغربي مسجد يقال أنه متعبد صالح عليه السلام، وفي شرقيه قبر الحافظ أبي عبد الرحمن النسائي صاحب السنن، وهذا المسجد خارج البلد على حد العمران، وهو خال في أكثر الأوقات مع سعته وبهائه وانشراحه لا يشك ذو ذوق أنه مأوى الصالحين.

وفي اليوم الثالث من إقامتنا بالرملة ذهبت إلى مدينة لُد[3] لزيارة بعض الإخوان هناك، وهي مدينة مليحة فسيحة مجاورة لمدينة الرملة، بينهما نحو من فرسخ من ناحية البحر، وفيها أسواق ومساجد ومزارات، ومن مزاراتها قبر يقال إنه للمقداد بن أسود[4] الصحابي المشهور، ومشهد يقال إنه لعبد الرحمن بن عوف، إلا أن الصحيح أنه مات بالمدينة المشرفة.

ومن الغرائب التي شاهدناها في هذه المدينة أنَّ مسجدهم الأعظم كان في الأصل كنيسة، وصار اليوم نصفه مسجد ونصفه كنيسة، تسمع أصوات كل من المحلين في الآخر، وزعموا أنَّ سبب ذلك أن المسلمين في وقت فتح البلد دخل بعضهم من ناحية صلحا، وبعض من الناحية الأخرى عنوة، فاجتمعوا في وسط الكنيسة، فصار نصفها مسجد والنصف الآخر كنيسة، والله أعلم، وأظن أن ذلك في فتح الشام عند فتح دمشق. وقد صادف دخولنا الرملة نزول أكابر أغوات

---

[1] الشعراء: 88.

[2] الجامع الأبيض: يقع بالرملة، ويقال أن في قبلته ثلاثمائة من الأنبياء مدفونين عليهم السلام: رحلة ابن بطوطة 1:80.

[3] لد: بالضم والتشديد، قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين: معجم البلدان: لد.

[4] المقداد بن الأسود: المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني، من الصحابة الأجلاء وشهد بدرا، توفي سنة ثلاث وثلاثين في أرضه بالجرف، وحمل إلى المدينة وقبره بالبقيع: شذرات الذهب 1:39. سير أعلام النبلاء 1:385.

السلطان بها، وقدم من اصطنبول في أبهة عظيمة على ما يُحكى، وزعموا أنه هو الذي ربّى السلطان في حجره، وهو المتولي الدار التي فيها حرم السلطان وجواريه، ثم حصل بينه وبين السلطان جفوة، واستحيا السلطان أن يواجهه بمكروه، فبعثه إلى مصر مصحوباً بجميع ماله، و لم يرزأه شيئاً، ثم أتبعه رسولاً إلى مصر يأمرهم بقتله خفية، فأخذوا جميع ماله وبعثوه إلى الصعيد، فلم يظهر له أثر بعد ذلك. وقد حكى لنا من أبهته أمور مستغربة، من ذلك أن له خمساً وثلاثين مَحَفّةً، في كل محفة جارية من حظاياه، وأزيد من مائة فرس من عتاق الخيل بجميع ما تحتاج إليه من الآلة كلها مجللة. وزعموا أنه اكترى من اصطنبول نحواً من خمسين سائساً لخيله بأزيَد من أربعين فرساً لكل واحد سوى ما يتبع هذا من بسط وفرش وأموال وذخائر وإبل وعبيد وإماء للخدمة، بحيث يستغرب أن يكون مثل ذلك لملك من ملوك الأرض.

وقد سمعت ونحن بالرملة من يقول إنّ أهل البلد قد تضرروا بالعطش في هذه الأيام، فإن أمير البلد قد أمر بجميع كل سقاء في البلد يستقون للآغا. وقد أخبرني أهل خان يونس أنه لما نزل بهم لم يجد أحد من أين يستقي جرعة ماء من جميع السواني التي في البلد، وقد أشغلها كلها يسقي خيله وإبله وملء قربه ورواياه.

وفي اليوم الرابع ارتحلنا من الرملة صبيحة الأربعاء عند طلوع الفجر قاصدين إلى القدس الشريف، وطلعنا شعابا وعرة فوجدنا بها قوما من أهل تلك الجبال يأخذون الغفر من كل من مر من تلك الطريق، وكانت على رؤوس أصحابنا مظللة من الدَّوْم[1] أو من جريد النخل كنا نتقي بها من حر الشمس، فلما رآنا قوم من أهل تلك الجبال صاحوا بنا من أعلى الجبل: يا للعر والشتم. فقلنا للمكاري الذي كان معنا: ماذا يقولون؟ فوجم أن يخبرنا، فلما ألححنا عليه قال لنا: إنهم لما رأوا ما ظللتم به على رؤوسكم ظنوا أنكم نصارى فجعلوا يسبونكم، فإن هذا إنما يفعله النصارى في هذه البلاد، فأزلناها عن رؤوسنا و لم نعد إليها من ذلك اليوم، والإنسان يحمي عرضه ودينه.

و لم نزل يومنا سائرين في صعود وهبوط في أرض وعرة، وعلى يميننا ويسارنا قرى ذات كروم، إلى أن وصلنا إلى قرية هي أدنى القرى إلى المدينة بها عين ماء

---

[1] الدوم: شجر المُقل، واحدته: دَوْمة: لسان العرب: دوم.

يجري، فنزلنا بها وتوضأنا وصلينا الظهر، وسرنا ودخلنا مدينة القدس وقت العصر، وصلينا العصر بقبة الصخرة، وأنزلنا حوائجنا أولاً بزاوية المغاربة حتى لقيت الشيخ محمد الصيداوي نقيب رواق الشيخ منصور الكائن تحت صحنِ الصخرة المقدسة، وقد كتب إليه الشيخ عبد القادر كتابا يوصيه بنا، فأعطانا بيتاً بإزاء الرواق نقلنا إليه حوائجنا، وكان داخل المسجد، فاغتبطنا به لتمكننا من الجلوس في المسجد والصلاة فيه في أي وقت أردنا، وهذا المسجد المُقَدَّس آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة المقدار، فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة، تحت كل شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظله أغصان الشجرة، فيه شكل محراب يجلس الناس تحتها للصلاة والقراءة، ويأوي إليها الفقراء المتجَرّدون، وطوله من الجهة الشرقية ستمائة ذراعٍ وخمسة وستون ذراعاً بالذراع المالكي، وعرضه أربعمائة ذراع وستون ذراعاً بالذراع المالكي، وأما الأروقة التي في داخله والبيوت التي في خارجه، فشيء كثير. وفي وسط المسجد قبة الصخرة ماثلة في الهواء مُثمنة الشكل، لها أربعة أبواب دون القبة، كلها نحو من خمسمائة قدم. وحيطان القبة وأرضها كلها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة، وهي في غاية الارتفاع وإتقان البناء، وأبوابها في غاية العظمة والإتقان، وداخل الأبواب درابيز[1] فيما بين الأساطين على دور الصخرة، وفي داخل الأساطين الصخرة المقدسة يحيط بها شباك من خشب دوره نحو من تسعين خطوة، والصخرة لونها يميل إلى الزرقة في غاية الصلابة، وشكلها فيه استدارة يغلب عليه الطول، وغلظها نحو من ذراعين، وعلى ظهر الصخرة ندوب ومربعات صغيرة وكبيرة كأنها أماكن أحجار قطعت منها، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها كانت في زمن بني إسرائيل طويلة جدا، وأنهم قطعوها وبنوا منها الكنيسة المسماة بقمامة[2]، وعجائب هذه الصخرة والسلسلة التي كانت عندها في عهد بني إسرائيل مرتفعة، وهي واقفة في الهواء على ما ذكروا، لا يمسكها إلا الله.

وأما في عصرنا هذا فقد بُني بإزائها ومن تحتها إلى أن صار ما تحتها شبه مغارة على هيئة مسجد يُصَلِّي فيه الناس، ويدخل الناس إليه من تحت طرفها

---

(1) في ط: دريز.

(2) قمامة: أعظم كنيسة للنصارى بالبيت المقدس، وصفها لا ينضبط حسنا وكثرة مال وتنميق عمارة، وهي في وسط البلد والسور يحيط بها، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها، والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلد: معجم البلدان: قمامة.

المُسَمَّى بلسان الصخرة، وهو من ناحية القبلة، وكنت أدخل إليها في غالب أوقات الصلوات وأُصَلِّي تحتها ما تيَسَّر. وبين الباب القبلي والغربي في أحد الأساطين حجر يقال إن فيه بعض أثر أعضائه صلى الله عليه وسلم، والناس يتبركون به.

ومن وراء قبة الصخرة قبة لطيفة يصلي فيها الناس، يقال إن منها عرج برسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليلة المعراج، ويحيط بمسجد الصخرة صخر كبير مفروش بالحجر المنحوت، وعلى أطراف الصخر بيوت يترلها المتعبدون، وكذلك تحته، وهي متعددة. وفي قبة الصخرة من تحت الصحن بغلوة المسجد الأقصى، وهو كله مسقف، وفيه تصلى الجمعة، وبناؤه من أرفع الأبنية، وفيه موضع زعموا أن فيه صلى عمر رضي الله عنه لما دخل بيت المقدس، وفي ركنه الشرقي موضع يزار فيه حجر منحوت يقال له مهد عيسى، وهناك طاقات واسعات في جدار المسجد يشرف منها إلى الوادي الذي يقال له وادي جهنم، وورد في بعض الآثار تسميته بذلك، وهناك رأس عمود من رخام خارج من جدار المسجد يقولون إنه رأس الصراط المنصوب على جهنم، وهو لا أصل له، ويترل من ذلك الركن في درج إلى مسجد آخر تحت المسجد الأقصى واسع جدا مرفوع على أساطين من حجارة منحوتة هي من البناء السليماني، وزعموا أن ذلك هو المسجد في عهد سليمان، وأن الذي فوقه إنما بني بعد ذلك، وما ذكروه هو الأقرب، وذكروا أنه ممتد كذلك إلى الصخرة، وأن أرض المسجد الآن كلها سطح ذلك المسجد، ولا يبعد ذلك.

وبالجملة فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولها من المزارات شيء كثير، وقد أُلِّفت فيه التآليف، وإنما نذكر من ذلك بعض ما رأيناه وزرناه، فمن ذلك حجر خارج بعض أبواب المسجد الغربية مثقوب هو في أصل حائط يزوره الناس ويدخلون فيه أيديهم ويتمسحون به، يقولون إنه الذي ربط به النبي صلى الله عليه وسلم دابة البراق ليلة المعراج، وخبره مذكور في الصحيح[1]، ومن عجائب صفة هذا المسجد أن ناحية منه شرقية قد غلب عليها العشب والكلأ اليابس فلا يقدر أحد أن يمشي فيها بلا نعل لكثرة شوكها المنكسر بعضه على بعض، وإنما يمر الناس في خط رقيق بين ذلك المشيح، وذكروا أن ذلك المحل ربما زرعوا فيه بعض الحبوب في بعض الأحيان ويستغلوها بالبغل لأن البلد كثيرة

---

[1] صحيح ابن حبان 1:235.

الأمطار، وقد ذكر بعضهم أن من خاصية هذا البلد الشريف أنه ما رئيت السماء صاحية فيه يوماً كاملاً، صيفاً ولا شتاء، ولا بد أن يرى في السماء غيم، ولا يبعد ذلك، فقد ورد في الآثار أن الأرض المقدسة هي أرفع مكان في الأرض وأقربه إلى السماء، وأنها أقرب إلى السماء من جميع الأرض بثمانية عشر ميلاً، وبقدر ما ترتفع الأرض تقل حرارتها وتكثر أمطارها.

ومن المزارات خارجها طور زيتا[1] من شرقي المسجد، بينه وبين الوادي الكبير المسمى بوادي جهنم وطور زيتا مشرف على القدس كله، وعلى غالب تلك البلاد التي حوله، وفي أعلاه مزارة فيها مكان يقال إن منها رُفِع المسيح عليه السلام من فوق حجرة هناك، وكان هذا المحل في أيدي النصارى، وسعى شيخ مشايخنا قطب زمانه، الشيخ محمد العلمي[2] جد شيخنا الشيخ الآتي ذكره في استخلاصه من أيدي النصارى ونصح لله في ذلك، وتعصب عليه النصارى بأهل الدنيا، وبذلوا في ذلك الأموال، فأعانه الله عليهم حتى أخرجه من أيديهم، وهو الآن في يد أولاده، وعمر تحته مشهدا ورباطا فيه قبره رضي الله عنه.

ومن المزارات التي على جبل الطور قبر العابدة العدوية[3] في مغارة تحت الأرض. ومن المزارات قبر مريم عليها السلام في كنيسة في أصل الوادي، وهي بأيدي النصارى، فتحرجنا من الدخول إليه، وزرناه من خارج. ومنها عين سلوان[4]، وهي في أسفل الوادي و لم أصل إليها إلا برأي العين، فبعثت من أتانا منها بماء، ووردت آثار في فضلها، وزعم بعض الفقراء أنه وقعت منه آنية في بئر زمزم بمكة فذهب إلى القدس فوجدها على باب المحل الذي فيه عين سلوان، وزعموا أنهم استخرجوها من العين، فيقولون إن مادتها من زمزم، ويذكرون في

---

(1) طور زيتا: جبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر، ولذلك سمي طور زيتا، وفي فضائل البيت المقدس: وفيه طور زيتا وقد مات في جبل طور زيتا سبعون ألف نبي... وهو مشرف على المسجد، وفيما بينهما وادي جهنم، ومنه رفع عيسى بن مريم عليه السلام، وفيه ينصب الصراط، وفيه صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه قبور الأنبياء. قال البشاري: وجبل زيتا مطل على المسجد شرقي وادي سلوان وهو وادي جهنم: معجم البلدان: طور زيتا.

(2) محمد بن عمر بن محمد العلمي القدسي، عالم عارف، استقر أولا بدمشق، وحج وجاور، ثم عاد إلى القدس واشتهر بها أمره، كانت وفاته سنة 1038 هـ: خلاصة الأثر 4:78. الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، ص: 197.

(3) مقام السيدة رابعة العدوية البصرية المشهورة، وقبرها على رأس جبل الطور في زاوية ينزل إليها بدرج: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، ص: 197.

(4) عين سلوان: عين مشهورة برأس الوادي: الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، ص: 187.

ذلك أثرا وهو بعيد من حيث العادة أقرب شيء بالنظر إلى أثر قدرة الله تعـــالى، وليست عينا معينا يجري ماؤها على وجه الأرض، إنما هي مثل حوض يترل إليـــه بدرج على ما أخبروا. قالوا: وربما ارتفع ماؤه حتى يجري على وجـــه الأرض في سنين الخصب.

ومن المزارات قبر شداد بن أوس[1] وعُبَادة بن الصامت الصحابيان، رضـــي الله عنهما، وهما تحت سور المسجد الشرقي بينه وبين الوادي الذي يقال له وادي جهنم، وهناك مقبرة عظيمة وحول قبرهما في سور المسجد صخرة عظيمة منحوتة طولها نحو من أربعة عشر ذراعا، وعرضها نحو من ذراعين أو أزيد، والله أعلم كم عرضها الداخل في الجدار، وسور المسجد هذا كله من بناء نبي الله سليمان عليه السلام بنته له الجن بتسخير الله لهم، وأثر ذلك ظاهر ليس في قوة البشر تعاطي مثل ذلك.

وحول باب المسجد الموالي لناحية الوادي موضع يقال إن فيه عرش سليمان، وهو من المزارات، وقد ذكر بعض العلماء أن الدعاء عنده مستجاب، وهو قريب من الباب الذي يقال له باب حطة. وفي خارج المدينة قريباً من غربيها مزار يقال إن فيه قبر داوود عليه السلام، وكان بأيدي النصارى فاستخلصه منـــهم أيـــضاً الشيخ العلمي أو غيره من الصالحين، وغالب مزارات تلك البلاد هـــي بأيـــدي النصارى، فمما بأيديهم بيت لحم الذي فيه مولد المسيح، وهو على نحو فرسخ من المدينة إلى ناحية القبة، وقد مررنا قريباً منه لما ذهبنا إلى زيارة الخليل عليه السلام، ومنها قبر يونس بن متى، عليه السلام، في قرية قرب مدينة الخليل[2]، وقد مررنـــا قريبا منه أيضا، وزرناهما من بعيد تأثما من دخول متعبد النصارى ولضيق الوقت.

وأما قبر موسى، عليه السلام، بينه وبين القدس نحو من نصف مرحلـــة أو أزيد إلى ناحية المشرق، وقد أروني ما يحاذيه من الأمكنة عندما صعدنا إلى الطور، وأخبروني أن المسافة بيننا وبينه مخوفة غاية، ولا يوصل إليه إلا في قـــوة ومنعـــة،

---

[1] شداد بن أوس بن ثابت بن حرام، هو ابن أخي حسان بن ثابت، من فضلاء الصحابة وعلمـــائهم، نـــزل بيت المقدس، مات سنة 58 هـــ وهو ابن خمس وسبعين سنة: معجم الصحابة 333:1. سير أعلام النـــبلاء 462:2.

[2] الخليل: وتسمى حبرون، وهي القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام بالبيت المقدس، وقد غلب على اسمها الخليل،ويقال لها أيضا حبرى، وروي عن كعب الحبر أن أول من مات ودفن في حبرى ســـارة زوجة إبراهيم عليه السلام: معجم البلدان: حبرون.

وكنت كثير الاشتياق لزيارة[1] ولمشاهدة ما هناك من العجائب، وإن لم يرد أثر صحيح في أن ذلك قبره، ولم يشتهر ذلك المكان في العهد القديم ولا في صدر الإسلام، وإنما بناه وأظهره المتأخرون من الملوك، وأظن ذلك كان في المائة السادسة أو السابعة بإشارة أهل الكشف.

ومما ذكروا من العجائب هناك أن حول القبر حجراً في حائط لا يزال ترى فيه صور منها ما يكون كالفارس أو الراجل عليه سلاح أو غير ذلك، يشاهده كل من كان في ذلك المكان، وقد أخبروني بكرامة وقعت في بعض الأزمنة القريبة وذلك أن المحل الذي هو فيه ليس فيه عمران إنما يأتيه الوفود في وقت معلوم للزيارة، وعليه بناء متقن عظيم، وعلى المزار أبواب عظيمة مغلقة لا يتمكن أحد من فتحها بحيلة حتى يقدم القيم من القدس فيفتحها، ثم إن الستر الذي على قبره، وكانت له قيمة عظيمة، وُجد مبيعا في بعض أسواق الشام، وعرفه الناس فسألوا عن بائعه، فإذا هو أعرابي فقير، فأُخِذ وأُتي به إلى والي البلد، فبعث إلى المشهد فوجدوا الستر قد أخذ منه والأبواب على حالها مغلقة، فأمر بعقوبة الأعرابي، فأقَرَّ أنه هو الذي سرقه، فسأله كيف تَمَكَّنت من أخذه مع غلق الأبواب. فقال: إني أصدقكم في ذلك، فإنه لما أن حان وقت موسم من مواسم السنة، وأنا فقير ذو عيال ولا مال لي، جئت إلى المشهد فناديت: يا نبي الله، يا كليم الله، إني فقير ومضطر، وقد أقبل الموسم ولاشيء عندي، فأعطني ما أنفق على بناتي، أو قريباً من هذا الكلام. قال: فمددت يدي إلى أول مغلق فانفتح، وكلما وقعت يدي على مغلق انفتح حتى وصلت إلى القبر وأخذت الستر، فلما خرجت غلقت الأبواب كما كانت، وظهر لهم أثر صدقه فأطلقوه ولم يعاقبوه.

واستشرت بعض الإخوان في وجه نتوصل به إلى زيارة المحل المذكور وإلى مدينة الخليل عليه السلام، فإن الطريق في تلك المدة قد فسدت ولا يوصل لزيارتهما إلا مع قوة، وقد خشيت أن أحرم زيارة المكانين ونحن في غاية القلق لا يمكننا تطويل الإقامة خشية فوات الركب بمصر، فأشار علي المستشار بالوصول إلى قاضي البلد والتعرف له فإنه قد يتمكن ذلك على يده، وكان القاضي في ذلك الوقت الشيخ محمد النفاتي التونسي المغربي، قدم من اصطنبول متقلدا لقضاء القدس، وكانت له وجاهة عند السلطان والعسكر من لدن عهد أخيه الشيخ أبي

---

[1] ساقط من ط

الحسن النفاتي رحمه الله، فترقى بجاه أخيه، واستوطن اصطنبول مدة أعوام، وقدم في هذه السنة إلى القدس وليست له قوة الحافظة العلمية، إنما هو مجرد ترسم ووجاهة أكسبته ذلك، إلا أنه ينتمي إلى الصلاح بسبب أسلافه، فيظهر الانخراط في سلكهم، فتوصلت إليه وسلمت عليه، وأكرمني غاية، وهش وبش، وأظهر المسرة بقدومي وقال لأصحابه: هيئوا له مترلاً يترل فيه هو وأصحابه، وأجروا له من الضيافة ما يليق به مدة إقامته. فقلت له: إنا قد نزلنا ببيت في المسجد ولا يمكننا التحول منه إيثاراً لقرب المسجد والصلاة فيه، فأجرى لنا المحتاج له من خبز ولحم يصلنا كل يوم إلى مترلنا، بل أجرى لنا ما يفضل عن كفايتنا، فجزاه الله خيراً، فأبنت له مقصدي من إرادة الوصول إلى المقامين فقال لي: أما مشهد الكليم عليه السلام فلا يتيسر في هذه المدة، مع هذا الضيق الذي أنتم فيه لشدة الخوف وبعد الشقة، ولا عمران هناك، ويحتاج إلى ذهاب القيم من هنا، وعليه في الذهاب كلفة، ولا أرى لك تحمل هذه المشقة كلها مع كون المحل ليس موثوقا به أنه قبر الكليم ولا هو قريب من الوثوق، فقبلت عذره في ذلك، ورأيت أن النية كافية، وتوجهنا إلى المحل بقلوبنا ووجوهنا عندما طلعنا إلى الطور وزرناه من هناك، والله يتقبل. قال لي: وأما الخليل عليه السلام فلا بد لكم من زيارته، وسأبعث معكم إن شاء الله من يوصلكم، و لم أزل أتعاهده بالسلام أيام إقامتنا إلى أن تهيأ لنا السفر للخليل على يده حسبما أذكره إن شاء الله، وقد امتدحته بقصيدة مكافأة له على بره ومآله على إنجاز الغرض المطلوب فتقبلها بقبول حسن، وهي هذه:

[طويل]

لقاضي قُضاة القدس قدس سرهُ ... عُلو غدا فوق السما مُستقرهُ

تَبَدى بأفْقِ الغَرب من خير عِشرة ... هلالا به قدْما تشرقَ قطرهُ

فصارَ بأفْقِ الشرقِ يَسري إلى العُلا ... ولم ينقطعْ حتى علا النسرَ سَيرهُ

غدا قمرًا فيهِ يضيءُ لقاصدٍ ... ولكنهُ في القدسِ قد تم بدرهُ

تولى به دونَ البلادِ لنسبةٍ ... يراها لبيبٌ قد تهذبَ فكرهُ

وذلك أن القدسَ أرفعُ بلدة ... كما قد أتانًا في الأحاديثِ ذكرهُ

وهذا الإمامُ البحرُ أرفعُ عالِمٍ ... تفتقَ في ذا العصر بالجودِ نورهُ

ولله ســـر في التناسُـــبِ غـــامض		خفا وقد يُبديه مـــن شـــاءَ غـــيرهُ
فـــأكرمْ بـــه مـــن عـــالمٍ مُتبحـــر		بكل فنونِ العلـــم فالعـــدلُ أمـــرهُ
فمن ذا سواهُ اليومَ في الأرض كلها		إذا ما تولى الحكـــمَ يـــؤمنُ جـــورهُ
وما ذا عجيبٌ فهْو من ســـادة فـــلا		يُقاس بهم زيدُ الزمـــانِ ولا عمـــرهُ
وقد نالَ هذا الفضل إرثا أتـــاهُ مـــن		أبي الحسنِ المشهور في الناس خـــيرهُ
فمن حَل أرضا كان فيها ومـــا بـــه		تشرف لم يقبل لـــه الـــدهرُ عـــذرهُ
لذلك هذا العبدُ قـــد جـــاءَ زائـــرا		لأرضٍ بها نورُ الهُدى انـــشق بحـــرهُ
ترددَ في ذا الأمـــرِ إذ كـــان شـــأنهُ		قديما مـــن الحكـــامِ ينفـــرُ ســـرهُ
فرامَ انقباضـــا ثم قـــال ألـــيس ذا		أبوهُ الـــذي عـــم الأفاضـــل بـــرهُ
فليسَ على نهـــج الـــذينَ ظننتـــهم		فبـــادرْ إليـــهِ يَـــستبنْ لـــك أمـــرهُ
تجده على نهـــجِ الإمـــام أخيـــهِ لا		يخالفُ فيه ســـره الـــدهرَ جهـــرهُ
بطبـــعِ كـــريم لا يغـــيره الـــذي		ترى بـــل بـــه يـــزدادُ لله شـــكرهُ
هو البدرُ لكن ليسَ يكسفُ نـــورهُ		هو البحرُ لكن ليس يـــدرك قعـــرهُ
علـــى أنـــه عـــذب زلال وموجـــهُ		غرائـــر فـــضل والمعـــارف درهُ
فللـــه مـــا أسْـــنى فوائـــد علمـــه		ولله في در الكمـــــــــالاتِ درهُ
فخذها وغض الطرفَ عن بنت سَـاعة		بها يغـــبطُ الـــنظم المهـــذب نثـــرهُ
فأغض بفضل منك عن عيبها وجُـــد		لها بقبول يـــشملُ العيـــبَ ســـترهُ
وأزكـــى صـــلاة الله ثم ســـلامهُ		على مُـــصطفى الله المعظـــم قـــدرهُ
تبلـــغ عبـــد الله غايـــة ســـؤله		ويعطـــى بهـــا أجـــرا ويغفـــر وزرهُ

وقد أطنب جلساؤه في مدح هذه القصيدة وما ذلك منها ببعيد.

ومن لقيته بالقدس رجل يسمى شهاب الدين الحنفي المصري، قدم من مصر إلى القدس قبلنا بمدة، وأقام بالقدس نحو الشهرين، وبلغنا بالرملة وغزة أن عالما من علماء القاهرة ورد إلى القدس وأخذ يدرس الحديث، وبالغوا في الثناء عليه، وذكروا له محلاً عظيماً في العلوم الشرعية، فاشتقت إلى لقائه لأجل ذلك، فلما وردت القدس ونزلت برواق الشيخ منصور داخل المسجد، وكان هو نازلاً بقربه، فبعث إلي بين العشاءين قبل أن أذهب إليه، فدخلت إليه في مترله، ورحب بي وسأل عن أخبار الحجاز، وكنت ألحظه بعين التوقير على قدر ما كنت أسمع، وإن تبين لي من كلامه أن ليس عنده تحصيل، فأحمل ذلك على محامل حسنة، وفي الغد رجعت إليه ووجدت بعض الحنفية يقرأون عليه المناسك في فقه الحنفية، فجرى ذكر يوم التروية[1]، فقال: إنه مشتق من الرؤية، فقلت إن هذا لا يصح، وإنما هو مصدر تروى من الماء لأنهم كانوا يتروون فيه من الماء لعرفة، لأن عرفة لم يكن بها إذ ذاك ماء على حسب ما ذكر غير واحد، وإما من الرؤية فبعيد من اصطلاح أهل التصريف، فأبى من قبول ذلك وأصر على ما عنده، ثم جرى ذكر فسخ الحج إلى العمرة، فقال: الإجماع على أنه لا يصح، ولم يقل به أحد من العلماء. فقلت: كيف ينعقد الإجماع على أمر أمَر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحض عليه في حجته قبيل موته بقليل، ومع ذلك فمشهور مذهب الحنابلة جوازه، بل بعض محققيهم يراه أولى من غيره لأمر النبي، صلى الله عليه وسلم، به في تلك السنة وعدم الترخيص فيه لمن لم يسق الهدى وتمنى أن يكون فعله بقوله لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما فعلت، ولولا أني سقت الهدى لأحللت[2]. فأنكر أن يكون ورد في الحديث أصلاً. فقلت له: مثلك في جلالة قدره وغزارة علمه لا يخفى عليه مثل هذا، وهو في الصحيحين تكرر جدا في أبواب عديدة، خصوصاً صحيح البخاري فقد أورده مكرراً كثيراً بأسانيد مختلفة ومتعفقة مطولاً ومختصراً، فألح على إنكاره وأعرضت عنه، فعلمت أنه ممن طبع على قلبه وتبيّن لي جهله وغباوته، وأن ما انتشر له من الصيت إنما هو بغلبة الجهل على أهل تلك الديار وقلة المحصلين بها، فضلاً عن المحققين، واستعان على ذلك بما أُعطي من الجرأة والتجاسر على الحديث الشريف، وهو رجل صيت لسِن، فكان يدرس لهم

[1] يوم التروية: يوم قبل يومِ عَرَفَةَ، وهو الثامن من ذي الحجة، سمي به لأن الحجاج يتَرَوَّوْنَ فيه من الماء، وينهضون إلى مِنىً ولا ماء فيتزوَّدون ريَّهم من الماء؛ أي يَسقون ويَستَقُون: لسان العرب: روي.
[2] المعجم الكبير 7:124.

في صحن الصخرة بين العشاءين الأربعين النووية، ويطرز مجلسه بحكايات ونقول فقهية، وأعانه أيضاً كون ذلك الكتاب كثرت شروحه واتسعت نقول أربابها، وغالب أحاديثه أحكام، فمن كانت له أدنى ممارسة بالفقه لا يعسر عليه تدريسه، وهو قد شد طرفاً من فقه الحنفية زعم أنه أفقه من زفر أو محمد بن الحسن، ومع ما عاينت من جهله وغباوته تعاميت عنه وأعرضت، و لم أرد فضيحته كما هو شأني في عدم الرغبة في الفضول والدخول في مثل ذلك، إلا أن ألجئت، فلما كان الغد وأراد الله فضيحته على رؤوس الأشهاد، دعانا شيخنا أبو حفص عمر بن عبد الصمد بن الشيخ القطب محمد العلمي إلى مترله، وكانت لشيخنا هذا مكانة عظيمة في قلوب الخاصة والعامة، فحضر في داره جماعة من وجوه الناس، وكان هذا المصري ممن حضر، لأنه عندهم في مكانة خطيرة، فتفاوضت الكلام مع شيخنا العلمي، وكان ربما سألني عن أشياء من معاني بعض الأحاديث والآيات، وربما تكلم المصري أيضاً، ثم إنه قال لي في خلال الحديث قاصدا بذلك انتقاصي لما رأى من إقبال الشيخ علي: لقد راجعت صحيح البخاري فما وجدت فيه ما ذكرت بالأمس أنه فيه. فقلت: لعلك نظرت في غير محله. فقال: ليس ذلك فيه قطعاً، وصمم ولا ورد شيء من الأحاديث. فقلت لشيخنا: أخرج لنا ما حضر هنا عندكم من كتب الحديث. فأخرج البخاري وكتاب المواهب، فأخذت الجزء الذي فيه الحج من كتاب البخاري، فسردت عليه حديثا في ذلك، ثم آخر، ثم آخر وآخر، وأقرر له وللحاضرين دلالة الحديث على فسخ الحج إلى العمرة، وأنا أسرد عليه الأحاديث وأقول له: أكفاكَ أم أزيد؟ إلى أن وجم وسكت، وأخذت كتاب المواهب، وقرأت عليه ما نقل من أقاويل العلماء في معنى الأحاديث، وأنه لم يأخذ به من أرباب المذاهب الأربعة إلا ابن حنبل وغيره أنه حمله على أنه خاص بتلك السنة لبيان جواز العمرة في أشهر الحج مستندين في الخصوصية إلى حديث رواه النسائي في ذلك، فلم يقم من ذلك المجلس إلا مدحوراً، إلا أنه لجرأته أظهر عدم المبالاة و لم يقم في البلد بعد ذلك المشهد إلا يوما أو يومين وخرج راجعا إلى مصر.

ولما دخلت مدينة الخليل وجدته فيها، فخرج وأدركته بغزة، ثم اجتمعت به في خان يونس، وألجأه الأمر إلى أن كان عديلي في شقة شقدف، وكنت أنا وهو

إلى الطينة، فجاملته على خلقه، وعاملته معاملة أنه فقيه إمام إلى أن افترقنا بضمياط[1] على خير.

ولما كان صبيحة يوم الخميس ثاني يوم دخولنا دخلنا إلى الشيخ إمام الصوفية وابن إمامها في تلك الديار الشيخ عمر العلمي، وهو حفيد العالم العامل، الغوث الشيخ محمد العلمي، وجده هذا هو شيخ شيخنا العالم العلامة سيدي أبي بكر بن يوسف السكتاني، تلقى عنه الذكر، وألبسه وأجازه، وكان يثني عليه كثيراً ويقول: ما رأيت أعبد منه مع علمه وورعه.

وممن أخذ عنه أيضاً الشيخ المقري، وهو الذي أشار على الشيخ أبي بكر بلقائه والأخذ عنه، وسأذكر التعريف بهذا الشيخ آخر الترجمة. ثم إن الشيخ عمر عزم علينا إلى داره بعد عصر يوم الجمعة الثامن عشر من شهر صفر، فأخذت عليه العهد، ولقنني وشد المئزر في وسطي وأقعدني وأقامني، ثم أقعدني قائلاً: اجلس مريداً، وقم خادماً للفقراء، واجلس مربيا لهم، ووهب لي الفوطة التي شد بها وسطي، وأجازني وكتب لي إجازة متضمنة لخطوط جماعة من أصحابه وأصحاب جده يشهدون بذلك، ونص الإجازة سأذكرها بعد هذا، وقد كتبت له قصيدة بعد ذلك أمتدحه بها وهذا نصها:

[طويل]

جزَى الله عنا كل خيرٍ أبا حفصِ ... إمام الهُدى من للكمالاتِ ذا قنصِ
سليل إمامٍ كان قطبَ زمانهِ ... ومنزلةُ في خاتم الفضل كالفَص
فكم من مُريد جاءه وهْو ناقص ... فكلمهُ حتى غدا ليسَ ذا نقصِ
ولِمْ لا وقد ولاهُ ذلك جدهُ ... وطهره مما يشينُ من الغمصِ[2]
فكل كمالاتِ المشايخ جُمِعت ... له فهو [فيها] واحد الفضل بالشخص
فأنوارُ أهلِ الفضل من شمسه بدتْ ... يمد الجميعَ وهو للكل كالقرصِ
سبرتُ بلادَ الغربِ والشرق كلها ... وأعملتُ فيها غاية السبرِ والفحصِ

[1] دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل: معجم البلدان: دمياط.
[2] الغمص: العيب.

لئن حازَ قــومٌ بالقيــاسِ فــضائلا | فقد حُزتَها يا سيدي أنــت بــالنص
فلم أرَ فيهــا مثــل أخلاقــه الــتي | يكادُ لها المحــزونُ يعلــن بــالرقص
فحسبي فــإني لا أطيــقُ أعــد مــا | حباهُ به الرحمنُ منــها ولا أحْــص
هو البحر والأخلاق فيــه جــواهر | وما كنت في إخراجها محسن الغوص
كفــانيَ فخــرا أن لي منــهُ نــسبة | كستني حُلى أغنت عن التاجِ والقمص
تقــربني مــن كــل خــير أرومــة | ومن كل شر أتقــي أبــدا يقــص
أصلي على المبعوثِ للنــاس رحمــة | أجل صلاة للكمــالاتِ تــستقص

ومن أصحاب شيخنا عمر محبنا وأخونا في الله الشيخ محمود السالمي والشيخ قاسم إمام، وقد عقدت معهما عقد أخوة في الله وتكفلا لي بالدعاء مدة حياتهما في تلك المقامات الشريفة، ووهب لي أخونا الشيخ محمود السالمي ديوان الـشيخ محمد العلمي، وفيه من جيد القصائد المحتوية على قصائد الصوفية وأمداح خـير البرية ما لا يحصى كثرة، ووهب لي جملة من رسائله، وسأذكر بعـضها إعلامـا بمقامه وحاله. وشيخنا عمر هو القائم مقام جده في تربية المريدين وخليفته في إقامة وظائف الدين وترتيب مجالس الذكر، ويجلس للذكر كل ليلة مع جماعة كثيرة من أصحابه بين العشاءين بباب الصخرة، وكان أبوه عبد الصمد توفي في حياة والده، وبقي ولده هذا في كفالة جَدِّه إلى أن تُوفي فصار هو الخليفة من بعده، وقد شملته عناية جده وظهرت عليه آثار بركته ولله الحمد.

وهذا نص الإجازة التي كتبها لي، رضي الله عنه، وقد نقلتها مع طولها تبركا بها: باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي رفع للفقراء مترلة وقدرا وأعزهم في الدين دنيا وأخرى، وأيدهم بالتوفيق في الأقوال والأفعال سراً وجهرا، وأزال من قلوبهم حسداً وضَرًّا، وحماهم من الشيطان فأنكبه منهم خائفا صِفرا، فمن أحبهم نال من الله الكريم أجرا، وصار له بين الأنام عزا وفخرا، فهم أولياء الله تعـالى، بذكرهم تكسى الأكوان عطراً، ليس لهم إلا حب مولاهم ذكرا، إذا نزلوا أرضاً مجدبة أصبحت من وطء أقدامهم خضرا، بهم يرحم الله العباد ويسقي ماحل البلاد قطراً، فسبحان من خصهم بهذه العطايا وسقاهم كؤوس المحبة تترى، أحمده سرا

وجهرا، وأشكره على نعم لم نحط بها حصرا، وأسأله التوبة والمغفرة وأن يجعلها لنا ذخرا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله قهر العباد قهرا، وأسبغ عليهم نعمه وأجزل لهم أجرا، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أرسله رحمة شاملة بالبشرى، وصلى الله عليه وسلم وعلى روحه الطيبة الزكية صلاة دائمة غرا، وعلى آله الذين فازوا السعادة الكبرى، وعلى أصحابه الذين نصروا الدين نصرا، خصوصا على أفضلهم أبي بكر الصديق الذي حاز قصب السبق فنال مرتبة غرا، وعلى عمر الفاروق الذي بهر بسطوته أهل الكفر بهرا، وعلى عثمان ذي النورين الصابر على البلاء صبراً، وعلى علي بن أبي طالب الذي كان للعلوم بحرا، وعلى الستة الذين كمل بهم العدد عشراً، وعلى سائر الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليما كثيراً دائماً يقرا، وبعد: فهذه سلسلة أهل الكمال من الأقطاب والأوتاد والأنجاب والأبدال، فهم أحباء الله تعالى في حضرة قدسه، المخصوصون بألطاف كرمه وأنسه، طريقهم أشرف الطرق وأعلاها، ومطلبهم أعز المطالب وأغلاها، فهم في الحقيقة أهل الكشف والأسرار المشاهدون للأنوار في حضرة الجبار، ومددهم منه مع ذلك على أقسام بحسب ما منحهم ذو الجلال والإكرام، فلذلك قسمهم أقساماً وفرقاً، وأخذ عليهم عهداً قديماً وموثقاً، ومنحهم بعنايته ورحمته، ونظر إليهم بعين كرامته ومحبته، وحماهم من الأعيان، ووقاهم من الأقذار، ورعاهم بحسن رعايته، ونقاهم من الحظوظ البشرية، ورفعهم إلى حضرته العلية، وسقاهم بكأس محبته الهنية، فطاب كل منهم بنشوة شرابه، وسما إلى حضرة أحبابه، ولذذهم بسماع الخطاب، وزال عنهم الشك والارتياب، فأورثهم بذلك البلاد، وأقامهم لصلاح العباد، وجعل لهم منهم[1] غوثاً وأقطاباً، وأبدالاً وأوتاداً، ونقاباء ونجباء[2] رجالا، فالأبدال الأربعون أقرهم بالشام سواحا وجوابا، والنقباء سبعون أقرهم بمصر حفاظا ورقابا، والنجباء ثلاثمائة استخلفهم بالغرب للقيام بالحرب، فانتصبوا في طاعته انتصاباً، والأوتاد سبعه أركزهم في الأقاليم السبعة فلا يزالون لمصالح العباد طلابا، والغوث واحد جعلت له مكة بابا، فسبحان من اصطفاهم، ومن الكدر صفاهم، وقربهم وطهرهم واجتباهم ومن عليهم بفتح الباب، وكل منهم دعي فأجاب، فترى منهم الداهش والحيران والولهان والصاحي والسكران، فمنهم من سقي بكأس الوصال، ومنهم من غلب

---

(1) ساقط من ط.

(2) في ط: أجدابا.

عليه الحال، ومنهم من استغرق في ذات الأحد، فما شاهد في الدارين غير الصمد، ومنهم رجال الحضرة الذين أطلعهم على عجائب القدرة، فمن اقتدى بهم نجا من نار الجحيم، ومن تبع طريقهم هدي إلى صراط مستقيم، ويكفيهم عزا وشرفاً قوله تبارك وتعالى في كتابه المكنون (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]، فمن أجلهم ذو الكرامات والأحوال التي شهدت له بها الأكابر من فحول الرجال، الفرد القطب الرباني سيدنا ومولانا المحمدي الشيخ حسن الراعي القطناني، فهو الذي سارت بأمداده الركبان، وثبت أنه يمحو ويكتب في الديوان، فسبحان من تفضل بمنه وكرمه عليه، وأنقذه من الدعي وأحسن بفضله وجوده إليه، إذ أصله من فلاح شهبة من قرى حوران، فجاء إلى قرية قطنا ورعى بها المعز بخير قدر له وحان، فبينما هو ذات يوم في المرعى وإذا ثلاثة رجال خيالة إلى نحوه تسعى، ففر الرعاة بين يديه، وثبت هو إلى أن وصلوا إليه، فإذا هم الأقطاب السادات الذين تتشرف بوجوههم الأزمنة والأوقات، وتقضى ببركتهم عند الله الحاجات، القطب الرباني، الهيكل الصمداني، سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلاني، والقطب العارف الذي أجاب الداعي، سيدنا ومولانا الشيخ أحمد الرفاعي، والقطب العارف بربه القادر سيدنا ومولانا عدي بن مسافر[2]، فقرأوا عليه السلام، وطلبوا منه قرى الكرام، و لم يكن له من المعز سوى عترة فريدة، فأحضرها وحلبها ببركتهم على مرات عديدة، وكان السعد له هناك داعي، فجلبها ووضع اللبن أمام الأستاذ الشيخ أحمد الرفاعي، رضي الله تعالى عنه، فقال له: هو لك يا أستاذ. فقال: وله منكما الامتداد. فقال له: افعل ما تريد وله من كل خير مزيد، فأخذ عليه العهد والميثاق، وأمدوه إلى أن علا على أهل عصره وفاق، وثفلوا له في اللبن، وقال: خذها يا حسن فإن شربها لك وحدك، أو مخفية لك ولذريتك ومحبيهم بعدك. فقال: بل مخفية، وسرها لي ولجميع الذرية، الإناث والذكور، وسائر أولاد الظهور، فشربها وقد ظهرت منه الكرامات والأحوال، وغارت منه فحول الرجال، وكان في زمنه رجل بالأحوال مشهور يعرف بالشيخ أبي بكر، وهو من قرية يعفور، فلما بلغه خبر الشيخ حسن المذكور قال له: لا بد وأن تظهر لك شيئا من الأمور. فقال له: أمرك على طاعة، فأمر بما شئت في هذه

---

[1] يونس: 62.

[2] عدي بن مسافر الأموي، من كبار المتصرفة وأقطابهم، أثرت عنه خوارق وكرامات، استوطن بالس، وبها توفي سنة 558 هـ: الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 196.

الساعة. فقال له: يا حسن، تقد في بيتي ست قناديل متوالية، وأنا أنفخ وأطفيها من هذه الزاوية. ففعل. فنفخ الشيخ فيها وأطفاها، وأخرج ليلها، وأخفى سناها. فقال الشيخ حسن لامرأته: اصعدي السطح واركضي عليه في ست مواضع، فعادت القناديل تشعل ونورها بإذن الله ساطع. ومنها أن البلاد بجميعها كانت بيده، فلما ظهر الشيخ حسن تغيروا عليه، فاشتكى عليه للأولياء وللسادات والأقطاب والأنبياء، وكانت القرى بوادي بردا، فأرسلوا يقسمون عليه بأن يكف عنه الأذى والردى وأن لا يدخل إلى بلاده لئلا تحول أصحابه عن اعتقاده، فجاء لقرية بعيدة وحرك إحدى يديه، فما أحس أهل تلك البلدة إلا وهم بين يديه من نساء ورجال تركوا ما كانوا فيه من الأشغال، وهم مدهشون حيارى كأنهم من تلك الحركة سكارى، إلى غير ذلك مما لا يحصى من الكرامات الظاهرة والأحوال الشهيرة المتواترة.

ولما كانوا مع الله تعالى بهذا الشأن والتأييد الصادق والبرهان، أحب أن يندرج في سلك أهل هذه الطريقة الغرا، وأن ينتظم في عقد أصحاب هذه الحقيقة الزهرا، مولانا الشيخ الصالح والعالم الناجح، المحدث المحقق والعلامة المدقق، زبدة أهل الفضل والصلاح، ومعدن الحلم والسماح، فخر المتقين السالكين، وعين أرباب اليقين، الشيخ عبد الله أبو سالم بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي المالكي، كان الله تعالى له وليا، فقدم بعزم صادق وقلب بحب[1] السادة الرفاعية واثق، وطلب من مولانا وسينا الشيخ الإمام العالم النحرير الهمام صاحب المعارف الربانية والعوارف الصمدانية، والأنفاس الزكية المرضية والأحوال السنية البهية، ذو المنار الأسنى، والسيرة الحُسنى، سراج الدنيا والدين، مربي المريدين، وكهف الصلحاء الواردين، المعمر بمدد الله تعالى العلي المبين، سيدي عمر بن سيدنا ومولانا الإمام العارف قدوة أهل الخير والمعارف، الواثق بالواحد الأحد الفرد سيدي عبد الصمد بن سيدنا ومولانا قطب العارفين وعين أعيان الجهابذة المحققين، من فضله كالعلم المشهور، شمس الدنيا سيدي الشيخ محمد العلمي القدسي الرفاعي قدس الله تعالى أسراره الطاهرة ونفعنا بعلومه المتكاثرة، الإجازة بسلوك أهل طريق الله تعالى، فأخذ عليه العهد والميثاق، ولاحظه فكان ممن سما مجده وفاق، وكان ممن انتقل من حال إلى حال، واستحق الخلافة بين الرجال، فأجلسه

---

[1] في ط: محب

على السجادة، وأذن له أن يتصرف من طريقتهم المنيرة على العـــادة، وأمـــره أن يتمسك مع الله سبحانه وتعالى بالأدب والافتقار والتواضع والذل والانكـــسار، مستوثقاً بالقواعد الشرعية والطريقة المحمدية الشريفة المرعيـــة، ملازمـــاً علـــى الصلوات المفروضات بالخشوع والآداب والمسنونات، منتهياً عن جميع المحظورات، وأن لا يفعل كبيرة ولا يصر على صغيرة، وأن يفشي السلام ويطعـــم الطعـــام، ويستعين بالصبر والصيام والصلاة بالليل والناس نيام، محافظـــاً علـــى الخـــضوع والخشية والطاعة، والورع والزهد والقناعة، والاستقامة في نفسه ليستقيم به مـــن صحبه من أبناء جنسه، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والغيبة والنميمـــة في مجلسه لا تذكر، وأن يوقر الشيخ الكبير ويرحم الطفل الصغير، وأن يعفو عمـــن ظلمه، ولا يشتم من شتمه، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يؤذي من يؤذيـــه، وأن يرى نفسه دون كل جليس، وأن يكون للفقراء والغرباء نعم الأنيس، وأن يصفح للإخوان عن الزلات، ولا يأخذهم بالهفوات، وأن يسعى في مصالح إخوانه الفقرا ويقضي حوائجهم على حسب ما يرى، وأن يعاهد الفقرا ويربيهم ويسقيهم اللبن ويحسن إليهم، وأن يجري في شعورهم المقراض، ويظهر لهم أن تربيتهم لها لا يكون بغير الله تعالى، وينهاهم عن العمل بسيء الأعراض، وأن يقبل ويرد مـــن غـــير اعتراض، وأن يخلف ممن فيه الأهلية لذلك، وأن ينقب ممن هو بطريـــق الفقـــراء سالك، وأن يمص السم من الملسوعين، ويدوس ظهور الموجوعين، ويرد اللقـــوة للمصابين، وأن يفعل ذلك كله وهو بالله سبحانه وتعالى يستعين، وأن يلبس الخرقة السوداء ويلبسها من أراد كما كان يفعل الأستاذ لما في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء[1]. وعن الحسن، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: كانت عمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء، وكانت رايته، صلى الله عليه وسلم، المسماة بالعقاب سوداء، إلى غير ذلك. وأن يقام الوقت بحضرته في أي مكان أراد، ويسلك بذلك طريق أهل السداد، وأن يضرب بين يديه بالدف مثل أهل الهمم، وأن يحمل على رأســـه إذا سار العلم، ثم طلب من مولانا المشار إليه نظر الله تعالى بعين عنايته إليه أن يمـــده بسلسلة الطريق لتكون فرجا له من كل مضيق، فأخبره أنه صحب بها وأخذها من أجل هذه الذرية القطبانية، وأكمل شيوخ الطريقة الرفاعية سيدنا ومولانا الشيخ

[1] صحيح مسلم 2:990.

حسن، وسيدنا ومولانا محمد القطنانيين نسباً، الرفاعيين طريقة، المصحب كل منهما آباءه وأجداده المتصل ذلك بحضرة سيدنا قطب العارفين سيدي أحمد الرفاعي قدس الله تعالى أسراره الطاهرة، وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركات مواهبه الزاهرة، وأخبره أنه صحب بها وتلقاها وتلقنها من حضرة جده وشيخه ومرشده شيخ الطريقة، ومعدن السلوك والحقيقة، عمدة العلماء العاملين، وإمام الزاهدين السالكين، الشيخ العارف العلامة والعالم المحقق الفهامة العلم الفرد في الآفاق، من طاب نشره، وصفا ذكره، وفاق شيخ الإسلام والمسلمين، وحجة الحق على المريدين، العارف الرباني، المحقق الصمداني، سيدي الشيخ محمد بن مولانا شيخ الإسلام ومفتي الأنام، وعمدة علماء الأعلام، المكرم سراج الدين عمر العلمي المقدسي، وهو صحب بها وأخذها عن جميع ذرية الأستاذ الكبير، لاسيما الشيخ موسى ذي المقام الخطير، وهو صحب بها مولانا المذكور أيضاً أجل هذه الذرية، وأكمل هذه الطريقة الرفاعية، القطب الرباني، سيدي الشيخ حسن القطناني عبد الله، وهو صحب بها والده الشيخ طعيمة، وهو صحب به والده الشيخ محمد أبا كرش، وهو صحب بها والده الشيخ عبد الله، وهو صحب بها والده الشيخ يوسف الذي رد المركب بيده الشمال، وهو صحب بها والده الشيخ عبد الله المدفون بقب الياس، وهو صحب بها والده الشيخ عبد الهادي، وهو صحب بها والده القطب الرباني الشيخ عبد الرحيم القطناني، هو صحب بها الشيخ الكبير الغوث الرباني سيدنا ومولانا الشيخ حسن القطناني، وهو صحب بها سلطان الأولياء والعارفين، وقدوة السالكين والمحققين، ذي الكرامات الكثيرة والأحوال الشهيرة، الذي صحت له الإرادة، وثبت أنه يمحو الشقاوة ويثبت السعادة، بإذن الله تعالى ذو القدرة والإرادة، موصل كل عرجاء بالسليمة، وملحق كل عوجاء بالمستقيمة، من ذلت الله الأسود والأفاعي، سيدنا ومولانا أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه وعنا به. وهو صحب بها الشيخ علي القاري الواسطي، وهو صحب بها الشيخ أبا الفضل بن كامخ، وهو صحب بها الشيخ علام بن بركان، وهو صحب بها الشيخ علي الروذباري[1]، وهو صحب بها الشيخ علي العجمي، وهو صحب

---

[1] أبو علي أحمد بن محمد الروذباري، من أعلام التصوف، أصله من بغداد، أقام بمصر وبها توفي سنة 322هـ: الرسالة القشرية، ص: 416.

بها أبا بكر الشبلي[1]، وهو صحب بها صاحب الأمداد المحمدية، وسيد الطائفة الصوفية، أرباب المقامات العلية والأحوال المحمدية، أبا القاسم الجنيد البغدادي[2]، وهو صحب بها الولي الكبير سيدي سري الدين السقطي[3]، وهو صحب بها سيدنا العارف الجليل والأستاذ النبيل أبا محفوظ المعروف الكرخي[4]، وهو صحب بها مولانا الشيخ داوود الطائي[5]، وهو صحب بها الولي الكبير سيدي الشيخ حبيب العجمي، وهو صحب بها سيد التابعين سيدنا الحسن البصري، وهو صحب بها الإمام الهمام زوج البتول وابن عم الرسول صلى الله تعالى وبارك عليه وزاده فضلا لديه، البحر الزخار، والفارس الكرّار، باب مدينة العلم والعرفان، وبواب حضرة الغرب والرضوان، آية الله في خلقه، ونقمته على منكري حقه، كاشف المشكلات، ومحل المعضلات، عن الأئمة العبدلين، ورابع الخلفاء الراشدين، مظهر العجائب، ومفرق الكتائب، فارس المشارق والمغارب، أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وعنا به، وأعاد علينا من بركاته، وهو صحب بها ابن عمه نبي الثقلين، وجد الحسنين، وأفضل العالمين، وشرف الكونين، وحياة الدارين، نبي الرحمة، وكاشف الغمة، زين من وافى للقيامة، ونال المقام المحمود والوسيلة والكرامة، سيد الأولين والآخرين، حبيب رب العالمين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى سائر إخوانه السادات الأنبياء والمرسلين وآلٍ كل وصحبه أجمعين، وسائر عباد الله الصالحين، والحمد لله أولاً وآخرا، ظاهراً وباطناً، نسأله سبحانه الهداية والتوفيق لمناهج هذه السادات الكرام، أهل المجد والاحترام، لنندرج في طريقهم، ونعد من حزبهم وفريقهم بحول الله تعالى وقدرته، وجوده ورحمته، متوسلين بسيدنا وحبيبنا المختار صلى الله عليه وسلم في نيل ذلك، إنه تعالى القادر على ذلك، آمين.

---

(1) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، البغدادي، من أعلام التصوف، توفي سنة 342 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 419.

(2) الجنيد بن محمد، أبو القاسم، من كبار أهل التصوف، توفي سنة 297 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 430.

(3) أبو الحسن سري بن مغلس السقطي، خال الجنيد وأستاذه في طريق القوم، توفي سنة 253 هـ: الرسالة القشرية، ص: 417.

(4) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، من أعلام الصوفية، توفي سنة 200 هـ: الرسالة القشيرية، ص: 427.

(5) أبو سليمان داود بن نصير الطائي: اشتهر بالزهد والورع، أنظر أخبار في " الطبقات الكبرى للشعراني، ص: 109.

انتهت الإجازة البهية على يد أضعف البرية، محمود السالمي القدسي، راجيا دعوة بظهر الغيب من أستاذنا الشيخ الكبير المجيز، ومولانا وشيخنا المجاز، حفظهما الله تعالى آمين، وذلك آخر صفر الخير سنة 1074.

الحمد لله الذي اختار من عباده من شاء لنفسه وقربه إليه وأجلسه على بساط أنسه وسقاه من كؤوس محبته فأصبح هائما ببهاء جمال قدسه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي هو لكل طريقة عنوان المرسل بأشرف معجزة وأبهر برهان، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان ما تعاقب الملوان، وبعد: فقد شاهد وحضر ما في هذه السلسلة الفخيمة والإجازة الكريمة الصادرة من أهلها لمن هو أهلها ومحلها، الإمام المُحَدِّث المُحَقِّق والنبراس الوهاج المدقق كان الله له وليا وبه حفياً، والمرجو أن لا ينساني وأهلي وأولادي من دعوته المجابة في خلواته وجلواته وأحواله المستطابة. قال ذلك بفمه وحرره بقلمه أفقر البرية عبد الباقي بن عبد القادر بن الأستاذ الكبير الشيخ محمد العلمي، أمدنا الله بمدده، المدعو بأحد العلمية غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهما وإليه. شهد بذلك الفقير إلى الله سبحانه وتعالى درويش التميمي أحد الفقراء العلمية، شهد بذلك نقيب الحضرة العلمية والفقراء الرفاعية بالقدس المحمية، النقيب يحيى بن شيبنانة عامله الله بغفرانه آمين.

الحمد لله الذي أمد من اعتمد عليه وفوض أموره كلها إليه، ولازم بابه بالافتقار فبلغ بفضله تعالى غاية في الأوطار، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي من اعتمد جاهه الشريف ما خاب، وعلى آله الكرام والسادة الأصحاب، وبعد فقد حضر وشهد بما في هذه الإجازة الكريمة والسلسلة المستقيمة الواقعة في عين الصواب بالصواب الصادرة بالحق المستطاب، راجياً من حضرة مولانا وشيخنا المجاز أن يشملني بدعواته الكريمة، ولا يخليني من خواطره المستقيمة، سيما عقب إيراد الأحاديث الكريمة الجليلة، والمسائل الفقهية الجميلة، وإني الفقير إليه سبحانه علي بن عمر بن عبد الصمد بن القطب الرباني سيدي الشيخ محمد العلمي الرفاعي القطناني قدس الله سره آمين. شهد بذلك النقيب أحمد بن حسن الرجواني نقيب الجلسة العلمية، وقارئ الفاتحة بها، لطف الله به رب البرية. شهد بذلك الفقير إلى رحمة ربه الغني الفقير قاسم بن عبد المعطي الملتمس من مولانا الشيخ

المجاز صالح الدعوات، وأن لا يخليه من خامر خاطره في المجالس السنيات، فإنه تشرف بصحبته، وملازمته[1] له على الدعاء بالقدس الشريف.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا وقرة أعيننا محمد الحامد المحمود، وعلى سائر الأنبياء الكرام أهل الفضل والجود، وعلى آل كل وصحبه ما تعاقب الجديدان واستقبل الفرقدان، وأضاء النيران، وبعد: فيقول الفقير كاتب أصل هذه الإجازة الكريمة محمود السالمي القدسي أني شملتني بركة من الله سبحانه بحضور ما وقع في هذه الإجازة الكريمة، وبالاجتماع بمولانا وشيخنا المجاز الإمام العلامة الذي لأصناف الفواضل والفضائل حاز، سيدي المحدث المحقق أبو سالم عبد الله العياشي حفظه الله، وكان به حفيا وله وليا وحافظا وناصرا وواقيا وراجيا، أن لا ينساني من دعواته الكريمة في خلواته وجلواته وفي مجالس حديثه ورواياته، وإني أيضا لا أنساه، وكيف وهو شيخي في الحديث الشريف المبجل المنيف، فأكرم بها من إجازة صادرة بالحق من الحق، والله تعالى ولي الهداية والتوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. شهد بذلك الفقير إلى الله سبحانه الخلاف عبد الرحمن بن الحاج أحمد الدقاق لطف الله به وبسائر الرفاق.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاده فضلا وشرفا لديه، وبعد: فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه العلي علي الحوراني خليفة الأستاذ ولي الله تعالى سيدي الشيخ محمد العلمي قدس الله سره، وقد وقفت على هذه الإجازة السنية والسلسلة المرضية فرأيتها صادرة بالحق والصواب من أهلها ومحلها إلى من هو أحق بها وأهلها، (وإني)[2] راج منه أن لا ينساني من دعائه وأنفاسه، حفظه الله تعالى ولطف به وبلغ مراده على أكمل حال آمين آمين. شهد بذلك نقيب السجادة الفقير يحيى بن المهدي لطف الله تعالى به. شهد بذلك الفقير إلى ربه الكريم الفقير علي الكرمي أحد الفقراء العلمية.

الحمد لله الذي فتق رونق الغياهب بجلال الخشية، ونور المواهب على سماء قلوب من شاء، واختار من عباده العلماء العاملين وأشرق لهم معارف نجوم الكواكب بأرض أبحر المطالب، فكانوا بضيائها مهتدين، منحهم بنفحات عبير

---

(1) في ط: بأنه ملازم له.
(2) زيادة من ط.

طيبها لا ينكر، بل هو من كل طيب أشهر، وعوارف معارف در جوهرها من الشمس في الظهيرة أظهر، سقاهم من رحيق شرابه المختوم، وأودعهم خزائن سره المكتوم، وجعلهم من أهل حضرته، ونظمهم في سلك عقد محبته، نصبهم لشرف طاعته، فتراهم لها مسرعين، ورفع قدرهم بأنواع عبادته، فترملوا بها مجددين مجتهدين، وعلى قدم الإخلاص ملازمين، ومن الحول والقوة متبرئين، ليس لهم مقصد سواه، ولا طلب إلا إياه، جذبهم بسابق الفضل إليه، ودلهم به عليه، والصلاة والسلام على بحر الأمداد، وعين العناية والإرشاد، سيدنا ومولانا محمد زين العباد، وعلى آله وأصحابه السادة القادة الأمجاد، وعلى تابعي هداهم الأنوار، وسننهم الأزهر صلاة وسلاما دائمين ليوم البعث والمنشر. وبعد، فلما قدم من الحج الشريف والمعبد المنيف، الشيخ الصالح، والعالم الناصح، الفاضل المحقق، والكامل المدقق، عمدة المحدثين، وقدوة السالكين، مولانا الشيخ أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي شكر الله مساعيه، وأمده بما يسره ويرضيه لزيارة البيت المقدس والمعبد الذي على التقوى مؤسس، حصل معه بركة الاجتماع، ونظر الاطلاع، والتشرف بأنوار علمه وعمله، فكان من حسن السلوك إلى الله تعالى على قدم أكمل، ومنهاج لمراقي رتب المجد والكمال هو به أحرى وأجمل، أجزت بما أجزت به وتلقيته من السادات الكرام والأئمة الفخام، وجعلته خليفة يخلف وينقب ويلقن الأذكار والأوراد، راجيا أن يكون نفعاً للطالبين وموصلاً للسالكين، وكهفا للغرباء والواردين، سائر فضله سبحانه أن يمن لنا وله بفيض الأمداد ودوام العناية والرشاد، والتوفيق في الأقوال والأفعال، تحقيق حقائق إرادات الأحوال، وأوصيه وإياي بتقوى الله في السر والعلن، ومراقبته سبحانه وتعالى فيما ظهر وبطن، فإن أكرم الخلق لدى الملك الحق المتقون، وأن لا ينساني وأبنائي وإخواني وأحبائي من صالح دعواته في أوقات طاعته وخلواته وجلواته، لاسيما عقب إيراد أحاديث سيد الأنام ومصباح الظلام، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام. والله سبحانه وتعالى يمن بالقبول إنه خير مأمول ومسؤول بجاه نبيه محمد الرسول صلى الله عليه وسلم، وزاده شرفا وكرما لديه آمين. اللهم آمين.

وكتب ذلك العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير، خادم السادات الصوفية بالقدس البهية السنية، عمر بن عبد الصمد بن محمد العلمي الرفاعي، عفا الله عنه وعن والديه، وأحسن في الدارين إليهما وإليه، وللمسلمين أجمعين آمين. وكان

تحرير ذلك نهار الاثنين المبارك من شهر صفر الخير من رابع وسبعين في العشرة الأخيرة وألف.

ذكر التعريف بجده الإمام الهمام قطب الأنام الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد العلمي

وقد ألّف رحمه الله ورضي عنه رسالة لطيفة ذكر فيها مبدأ أمره وتنقلات أحواله ومشايخه في الطريق، فرأيت ذكرها بتمامها أوعب وأتم فائدة، وهي هذه، وسماها رسالة معالم التصديق لمعرفة دخول الفقير في الطريق، ونصها: باسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي، الحمد لله المنعم البر الجواد الجاذب إليه من أحب وأراد، وصلاته وسلامه المتواليان بالأمداد على من أتانا بالخير والإسعاد والهداية والإرشاد، أفضل الخلق وأشرف العباد، وعلى آله السادات الأمجاد وأصحابه الهادين إلى سنن السداد، وعلى تابعي طريقهم إلى يوم البعث والتناد، وبعد: فيقول العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير، خويدم السادات الفقراء، محمد بن عمر العلمي من بجناب مولاه الكريم منتمي، ورد على خاطر الفقير وارد إحسان، أحببت أن أخبر به[1] الأبناء والإخوان ليكونوا من حضرة الكريم المنان على بصيرة وإيقان، إذا سئلوا عن كيفية دخول الفقير إلى طريق الإله، المولي آلاء الصدق والعز والجاه، من أضافه بفضله وكرمه إليه، وأخذه عنه ودله عليه، فأضحى فريدا في الأنام لا يعرف إلا الملك العلام، مشغوفا بوجوده عن شهوده. قال سبحانه وتعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[2]. ويروى في بعض كتب الله المنزلة: ابن آدم خلقتك من أجلي، وخلقت الأشياء كلها من أجلك، فلا تشتغل بما خلق لك عما خلقت له، ابن آدم، أنا برك اللازم فالزم برك. ومن كلام السادات جذبة من جذبات الحق توازي أعمال الثقلين من أعمال الجوارح. وقال جل وعلا (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[3]. وهذا أوان الشروع في المقصود بفضل الملك

---

(1) ساقط من ط.

(2) الذاريات: 56.

(3) آل عمران: 73.

المعبود، ولا بأس بذر بعض من اجتمع بهم الفقير من سادات هذا الطريق الذين هم من أرباب الأحوال والتحقيق، ولا بأس أيضاً بذكر شيء من بعض المبشرات المدليات لسبل العناية والمسرات، كما أخبر به بعض الصلحاء من المنامات لأنها جزء من أجزاء النبوة، ولذلك تحرك جأش العبد إلى متابعة الأكياس الذين حفوا بنفائس الأنفاس، ولتظهر آثار الفتوة والتقوى لمن رآها أوريت له في عالم السر والنجوى، والله الموفق إلى الهداية والصواب، ومنه المبدأ وإليه المرجع والمآب. فأول شيء أتحف به العبد في حالة المراهقة أنه مرض مرضاً شديداً قل أن يرجى البرء من مثله، وكان ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم، في شهر رمضان المعظم قدره في شهور عشر الثمانين بعد التسعمائة، فبينما الفقير في شدة تلك الحال وما يكابده فيها من الأهوال في حالة بين النوم واليقظة إذ دخل عليه رجلان عظيمان، فتخيل للفقير أنهما حلقا رأسه، وجاءوا له بدهن بنفسج ودهن به جبينه وأنفه، ومضى أحدهما وجلس الآخر عند رأس الفقير وقال له: لا ترفع رأسك إلى المساء، وربما أن دخولهما كان بين الصلاتين، والله سبحانه وتعالى أعلم. فأخذت الفقير منه هيبة، وامتثلت أمره، ووضعت اللحاف على وجهي، فكنت إذا ضاق نفسي أرفع اللحاف برفق على وجهي، فنظرت إليه، فإذا هو ذو شيبة لطيفة، وعليه صوف أخضر في غاية ما يكون من اللطف والحسن، فأجرى الله على لساني أن أسأله عن اسمه الكريم وعن اسم رفيقه، فذكر أنه خليل الرحمن، صلى الله عليه وسلم، وأن رفيقه الشيخ سيدي علي بن عليل الشهير بابن عليم قدس الله سره العظيم، ثم أخذتني ببركته شبه سنة نوم إلى قرب المغرب، فاستيقظت عرقاناً، ومنَّ الله بالعافية، فعلق قلبي حب هذه السادات، وصار يخطر لي إذا أحياني الله تعالى، وكبرت أن أنقطع عند سيدي الشيخ علي بن عليل، لما كنت أسمع عنه وعن مكانه الشريف، وأنه على شاطئ البحر بمكان حسن، ثم منّ الله تعالى علي[1] برجل من كبار الصالحين من أرباب الأحوال والكرامات والتمكين صحبته مدة من الزمان بالقدس الشريف يقال له الشيخ حسن الكركي، وكان خليفة لسيدي الشيخ عمر العقيبي الدمشقي، وسيدي الشيخ عمر المذكور خليفة للعارف الرباني سيدي الشيخ علوان الحوني، والشيخ علوان خليفة بحضرة قطب زمانه الشيخ الشريف الحسيب النسيب الشيخ علي بن ميمون نفعنا الله بهم أجمعين. فلازمت الشيخ

---

[1] ساقط من ط.

سيدي حسن المذكور مدة مديدة في ابتداء حال السيبوبة بمسجد بيت المقدس بجامع المغاربة، لأن والدي، رحمه الله تعالى، كان يجتمع به كثيراً، وكانت الفقراء يشكون له الخواطر، وكان يقول لإخواني السادة الكبار: ليتكم لو كنتم مثل هذا الشاب، وكان قبل ذلك قدر الله تعالى علي المرحوم سيدي وشيخي الوالد بالتوجه إلى دمشق الشام لأمر أراده الله تعالى غصباً عليه بعد انقطاعه بمسجد بيت المقدس قدر عليه بالتوجه إلى ديار السلطنة ببلاد الروم، وأخذ المدرسة النورية والفتيا بمدينة بعلبك المحمية، فتبعه الفقير إلى هنالك، ثم قدر عليه بالتوجه إلى ديار الروم، فتوجه الفقير معه في خدمته، ودخلت في طريق المدرسين بدمشق المحروسة، وكان في يد الفقير حصة في قرية شرقي دمشق يقال لها ضمير[1]، فاجتمعت فيها برجل من السادات أرباب الأحوال الظاهرة والكرامات المتكاثرة يقال له الشيخ جمعة من قرية عذراء، وكان من جملة كراماته إذا نذر له إنسان نذرا يأتي إليه ويقول له: يا ولدي هات نذري، فبعض الناس ينكر عليه، ويقول له: يا سيدي، وما نذرك؟ فيقول له: الشيء الفلاني، ألا كنت بالمحل الفلاني، وحصل لك الشيء الفلاني، فيصدقه ويدفع له نذره. فلما بلغ الفقير عنه مثل ذلك، ورأيت سمته وصلاحيته ظاهرة سألت منه الأخوة لله تعالى، فتخاويت[2] معه، وزاد به شوقي في محبة الصالحين.

ومنهم رجل يقال له الشيخ علي[3] اللؤلؤي، وكان يدعى بأبي الفقراء، وكان من كبار رجال الشام، والله أعلم، أنه كان من الأبدال، وله أحوال كثيرة ومحبة ورحمة زائدة للفقراء، رحمه الله، وكان أولا مصاحبا لسيدي الشيخ شهاب الدين ولد شيخ الإسلام بدر الدين الغزي رحمه الله تعالى، وكان هذا الشيخ أولاً من أهل العلم، وابتلى بمحبة الصالحين والفقراء، فكان أكثر ما يجالسهم وينفق عليهم ما يقدره الله تعالى من الخير، فلما تُوفي رحمه الله تعالى جاء وصحب الفقير، وكان قبل صحبته عند الفقير رجل من الصالحين اسمه الشيخ خليل ابن قرقوز[4] القدسي رحمه الله تعالى، وكان ممن نوره الله تعالى ظاهرا وباطنا، وكان يخبر كثيرا أن أهل الله لا بد أن يأخذوا الفقير إلى طريقهم، وكان أيضاً بجوار الفقير بدمشق

(1) في ط: خمير.
(2) في ط: فتخاللت
(3) ساقط من ط.
(4) في ط: قزمون.

المحروسة امرأة كبيرة صالحة حبشية، وكانت كثيرة الاعتقاد لحضرة سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره العزيز، فأخبرت الفقير، و[1] كانت بجواره أنها رأت ذات ليلة في المنام أنهم أخذوا الفقير ووضعوا على[2] رأسه علمين، إلى غير ذلك. ثم إن الفقير رأى في ليلة جمعة أنه بجامع بني أمية، وأن حواليه جماعة، وأنه استفتح بهم الذكر فجاء إليه شخص وقال له: اصبر ما لك؟ أو لعله قال: إلى أن تستدعي الناس، فحصل خجل للفقير من كلامه، فبينما الفقير كذلك، وإذا بالوقت قد قام واتسع المجلس، وإذا برجل صار يتواجد في المجلس ويرتفع على الأرض، فإذا عاد إلى الأرض نبت العشب تحت أقدامه قدر شبر أو نحو ذلك. فقال الفقير عند ذلك للرجل: هذا شيخي. فلما أراد الفراغ من المجلس وجاء إلى جانب الحائط الشمالي ضم (ذلك)[3] الشيخ، قدس الله سره، الفقير إلى صدره الشريف وقال له: أجزتك بجميع ما يجوز لي، وأخذ الفقير وسار به إلى جهة باب العبرانية[4]، فاستقبلنا رجل ذو شيبة بهية وعليه جابية بيضاء، وتصافح مع الفقير، ولم أعرفه، وصار بي الشيخ، رحمه الله، ونفعنا به إلى قرية قطنا[5]، وأخذ يريني أشياء ويذكر لي أشياء، فاستيقظت وقد وعيت ذلك، ولم أكن قبل هذا أعرف الشيخ رحمه الله، ولا دخلتُ تلك القرية، فلما أصبحت وجلست في محل الجلوس مع الإخوان، وجاء بعضهم، ذكرت لهم ذلك، وكان بمنزل الفقير رجل من قرية سقيا من أعمال دمشق المحروسة في جماعة من المشايخ، فلما سمع ذلك من الفقير رجل وصفة الشيخ المذكور، قال: هذا سيدي الشيخ حسن أبو علي، وجميع ما ذكرته صحيح كذلك، ثم تشاغل عن مثل ذلك بما هو فيه من أحوال خدمة العلم الشريف وأحوال الدنيا، ثم بعد مدة رأيت في المنام أنهم أخذوا الفقير إلى قرية قطنا، وأن رجلاً جالساً إلى جانب قبة مرتفعة وبيده شد أحمر وهو يرمي بطرفه إلى الفقير لأتمسك به وأطلع إليه، فاستيقظت وأصبحت[6]، فذكرته لبعض الإخوان، ووصفت الرجل الذي كان بيده الشد، فذكر لي أنه والد سيدي الشيخ موسى، واسمه الشيخ محمد عين رحمه الله تعالى. ثم بعد مدة رأيت أن خمسة رجال

---

[1] في ط: إذ.
[2] في ط: فوق.
[3] زيادة من ط.
[4] في ط: العنبارية.
[5] قطنا: من قرى دمشق: معجم البلدان: قطنا.
[6] ساقط من ط.

دخلوا على الفقير ثلاثة جاؤوا من الجانب الأيمن، واثنان جاؤوا عن يسار الفقير، والفقير يشبه حالة الجالس، فجلس أحدهما إلى جانب الفقير، وصار بمنزلة المتكئ على فخذي الأيسر، وبقي الواحد قائماً وبيده بند أو شيء يشبه ذلك، وطرفه بيد، وأخذ الثلاثة الواقفين عن يمين الفقير، أو هو بيد الثلاثة، من شدة هيبتهم، ما علمت حقيقة ذلك، ووضعوه على ظهر الفقير، وصاروا يحركون الفقير به حركة لطيفة، وإذا بي كأني أسمع من يقول لي: هذا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره العزيز، وكأني به وهو يقول لي عن الشيخ الذي على فخذي: الزم هذا الراعي، وكأني بالشيخ، فأمرني بلبس الخرقة السوداء، وألبسنيها ولا أعلم أي حقيقة، ذلك كان من هيبتهم وجلالتهم، فلما استيقظت خطر ببالي أن الراعي سيدي الشيخ أحمد البدوي قدس الله سره العزيز، لما يحكى عنه أنه رعى الجمال لبنت بري، قدس الله سرهما، فلما أصبحت ذكرت ذلك للإخوان بارك الله فيهم، فقال لي بعضهم: الراعي الشيخ حسن القطناني جد هذه السادات الموجودين الآن بقرية قطنا، أدام الله تعالى قدرهم وكثر عددهم، ثم بعد مضي مدة من ذلك بينما الفقير ذات يوم عند الشيخ الوالد رحمه الله تعالى بمحلته العمارة بدمشق، وإذا برجل من أصحاب الفقير جاء وقال لي الفقير[1] الشيخ القطناني في المنزل، فظن الفقير أنه غير الشيخ حسن الذي رأيته أولاً، وكان بيت الفقير قريبا من باب توماق الغبرية، فلما أتيت المنزل رأيت شابا لطيفا حسن الهيئة والمنظر، ومعه بعض جماعته من فقرائهم، فسَلّمتُ عليهم، وجلسنا فقال سيدي الشيخ للفقير في أثناء مصاحبته[2]: إن لم تجيئونا جئناكم، ما في المحبة من عار. وجلس مدة أيام بلياليهن يقيم الأوقات والأوراد بالمنزل عند الفقير، ثم دعاني وأجلسني بين يديه فأخذتُ العهد عليه، وكل شيء أمر به الفقير امتثلته منه لما تقدم لي قبل ذلك، وهو سيدي الشيخ موسى ولد الشيخ محمد عين قدس الله تعالى روحهما. وأخبر الفقير بأن مدده بالأكثر من سيدي حسن والد سيدي الشيخ علي أطال الله تعالى بقاءه، ورحم والده الشيخ المذكور[3]، ثم إنّ الشيخ موسى أخذ الفقير وتوجَّه به لقرية يقال لها سقيا، من قرى دمشق، كان بها في زيارة الأستاذ سيدي الشيخ حسن، رحمه الله تعالى، مع بعض جماعة، وحصلت أيضاً الإجازة بالخلافة من الأستاذ بعناية الملك الجواد لأنَّه هو

---

(1) ساقط من ط.
(2) في ط: مداعبته.
(3) ساقط من ط.

أول من رآه الفقير في منامه وجميع طائفته وغيرهم من صلحاء عصره الكـائنين بدمشق المحروسة، يعترفون بعلو شأنه وبما أولاه به مولاه من فيض بِرّه وإحسانه، وإن كانت طائفته جميعه بعناية الله تعالى أرباب أحوال النساء منـهم والرجـال والكبار والأطفال، وبذلك جرى مددهم من العلي المتعال، وهـم مـشهورون ومعروفون به عند أهل تلك المسالك (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)[1]، ثم توجه بعد ذلك السيد الشيخ موسى لمحروسة صيدا، وكان قبل ذلك فتح الله تعالى على يده خيراً كثيراً بتلك الديار لتربية المحبين، فاخترمتْه المنية، ودفن هناك خارج بابها على شاطئ البحر بمكان كان يشير بدفنه فيه إلى جانب قـبر رجـل مـن السادات يقال له سيدي الشيخ أبو الريش، فعمل له مدفن، وجعلت عليه قبـة، ويعمل عنده به محيا في يوم من أيام الجمعة رحمه الله تعالى.

فصل:

في ذكر من حصل منهم الإجازة للفقير من السادات الكرام والأئمة القداة للأنام، وذلك علم الله من غير طلب من الفقير، وإنما ذلك فضل من الله تعـالى الكبير. قال بعض السادات:

شعر:

[بسيط]

من أين من أيـن لي إن لم تـوفقني مولاي مولاي من لي بتوفيق من قبلي[2]

وقال سبحانه وتعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير ممـا يجمعون)[3].

فمنهم سيدي وشيخي والدي، رحمه الله تعالى (ورضي عليه ووالاه بالعفو والرضوان)[4]، اجتمع بكثير من عباد الله الصالحين. وممن جمع الله له بين الشريعة والحقيقة، كان يكتب له في براءته مفتي ومدرس، وكانت الفقراء يـشكون لـه

---

[1] آل عمران: 73.
[2] البيت مكسور.
[3] يونس: 58.
[4] ما بين قوسين ساقط من ط.

الخواطر وبواديهم، وكان من جملة دعائه للفقير: وهبك الله تعالى التصديق كما وهبه لأبيك، أجاز الفقير بما أجيز به من الأشياخ والأسياد أهل العناية والأمداد.

ومنهم سيدي الشيخ أحمد ذو الأحوال الظاهرة والكرامات الباهرة، وله شهرة شهيرة في غالب البلاد عند السلاطين وغيرهم من أفاضل العباد، الشهير نسبه الكريم بابن عبدو القصيري الخلوتي صاحب الأسماء، أخبر أنه أخذ عنه حين مجيئه لزيارة القدس الشريف. ومنهم الشيخ الرباني سيدي الشيخ حسن الكركي، وتقدم أنه أخذ عن سيدي الشيخ عمر وسيدي الشيخ عمر عن سيدي الشيخ علوان عن سيدي الشريف العارف الصمداني والعالم الرباني سيدي الشيخ علي بن ميمون المغربي، قدس الله أسرارهم، وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاتهم آمين.

ومنهم الشيخ النبيل خليفة المحب الشريف بدمشق المحروسة سيدي الشيخ عبد القادر بن سوار[1]، رحمه الله تعالى، تفضل في حاله ابتداء تحول الفقير إلى هذا الطريق الشريف إلى محل الفقير بدمشق المحروسة، فهنيئا للفقير بذلك، وعقد الأخوة مع الفقير[2]، وأجازني بالمحيا الشريف، وكان من جملة من صحبه من الإخوان الأعز الأخ الصالح المعروف بين الأشياخ بالشيخ محمد اللباب الصعيدي، صيرفي القلوب، وله من المكاشفات والأحوال شيء كثير، منها أنه كان في بعض ما عوض له من المكاشفات يخبر بعض الناس بما وقع له في ابتداء أمره إلى ذلك الحين وإلى غير ذلك.

ومنهم المرحوم الأخ في الله تعالى سيدي الشيخ علي اللؤلؤي، وكان يشار له[3] أنه من الأبدال بدمشق المحروسة، وكان نفعه متعديا لكثير من الأنام، وتقدم ذكره، ويقال إن الست زينب الكبرى بنت سيدنا علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه[4]، هي التي كنته بأبي الفقراء. ومما حصل للفقير منها قدس الله تعالى سرها ونور ضريحها في بعض الزيارات أن غلب على الفقير حالة نوم في النهار فتمددت تجاه بابها الداخل وتوجه بقلبه إليها، فبينما هو بين حالة نوم ويقظة، وإذا بها طالعة من محلها الشريف وبيدها الكريمة عمامة كبيرة تشبه عمائم العلماء، غير أن محل

---

[1] عبد القادر بن محمد، ابن سوار الدمشقي، من الصلحاء، رحل إلى مصر بقصد التجارة وعاد إلى دمشق حيث اشتهر أمره بالصلاح، توفي سنة 1014 هـ: خلاصة الأثر 2: 454.

[2] في ط: معه.

[3] في ط: إليه.

[4] في ط: رضي الله عنه وعنها.

شكلتها باق لم يوضع في محله، وعليها حلتان حريراً من الختم الفوقانية ياقوتية بأكمام إلى خلف، والسفلى بيضاء، وهي تتهادى بين خادمتين، وكل واحدة منهما آخذة بيدها من تحت إبطها، ودفعت العمامة للفقير فلبسها، وكان ذلك في بدء دخول الفقير في الطريق. ومن المشهور عنها أنه لا يعطى أحد ولاية بأرض الشام إلا من بابها الشريف.

ومنهم الشيخ الجليل الرباني سيدي الحسيب النسيب الشيخ محمد الصمادي[1] القادري والد سيدي الشيخ مسلم[2]، رحمهما الله رحمة واسعة، وكان من أعيان المشايخ المشهورين في غالب الآفاق بالأحوال والكرامات، فمن بعض كراماته الظاهرة مع الفقير حين توجه لزيارته في بعض الأعياد مع شيخ الإسلام ابن العم مفتي دمشق الشيخ محمد العلمي، ومع فخر المدرسين شمس الدين الصمادي القدسي، ومع الأخ في الله الشيخ العلامة محمد السروري، وبعض المحبين (رحم الله الجميع)[3]، فلما انتهى المجلس من عنده وصافحه السادات المذكورون وتأخر الفقير لصغره عنهم لتقبيل يده الشريفة، فأخذنه إلى صدره وضمه[4] إليه وجعل يقبل بين عيني الفقير[5]، من هنا ومن هنا، يفعل ذلك مراراً بتلَهُّف وتشوق، فتعجبت من ذلك من حيث أن المشايخ المشار إليهم لم يفعلوا مع أحد شيئاً من ذلك، ولعله دعا للفقير بدعاء همهمه و لم أفهم منه، فقدس الله تعالى سره، وسر آبائه وأبنائه وأتباعه إلى يوم الدين.

ومنهم سيدي الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ تاج الدين بن داوود القدسي رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وذلك أن الفقير كان بأهله ببيت المقدس بمحلة المغاربة من مدة تزيد على خمس وعشرين سنة، ولعله في ختام الألف، والوقت كان مقاربا لأذان العصر فإذا بباب مترل الفقير يدق، فترلت إلى الباب فرأيت سيدي الشيخ المذكور ومعه نقيبه الشيخ محي بن قاضي عصفور، فتلقاهما الفقير وطلع بهما لمحل جلوسه مع الإخوان فإذا بالشيخ، قدس الله سره، رفع صوفاً

---

[1] محمد بن محمد بن خليل الصمادي القادري الشافعي، شيخ الطريقة الصمادية بالشام، توفي سنة 994 هـ: خلاصة الأثر 363:4.

[2] مسلم بن محمد بن محمد بن خليل الصمادي القادري الشافعي، شيخ الطريقة الصمادية بالشام بعد أبيه، سافر في آخر أيامه إلى بيت المقدس، كانت وفاته سنة 1015 هـ: خلاصة الأثر 363:4.

[3] زيادة من ط.

[4] في ط: فأخذني إلى صدره وضمني.

[5] ساقط من ط.

أخضر عن كتفيه وألبسه للفقير وقال: عملت هذا لنفسي فرأيت سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، قدس الله تعالى سره العزيز، وكان الشيخ خليفة له في طريقته وقال لي: البس هذا الصوف لفلان، يعني الفقير، وها أنا فعلت ما أمرت به، فقرأ الفاتحة بما ألهمه الله تعالى، ولعله أخذته العبرة عند ذلك، فجزاه الله خيراً، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

ومنهم السيد الجليل والعارف النبيل، الأخ في الله سبحانه وتعالى الشيخ عبد القادر الشهير نسبه الكريم بابن قضيب البان[1]، كان قدم لزيارة بيت المقدس مجردا ومعه أخوه سدي الشيخ عثمان ومعهما جماعة من الصالحين، وكان ذلك في التاريخ المذكور أو قريب منه، والله أعلم، فقدر الله بالاجتماع معه في بعض المرات بالمسجد الأقصى بالخلوة التي بقرب الأقصى العتيقة، وكان الشيخ المذكور، أطال الله بقاءه، لابسا صوفا لطيفة أهداه له بعض المُحِبِّين، وكان على الفقير جبة صوف سوداء، فقال: يا أخي تلبسني هذه؟ فخلع الفقير الجبة، وخلع الشيخ حفظه الله، وألبسني جبته، ولبس من الفقير الجبة المذكورة، وكان آخا الفقير قبل ذلك، وفي هذا التاريخ أيضا قدم الشيخ الفاضل الصالح الكامل الشيخ موسى المصري الشعرواي لزيارة القدس الشريف، وآخا الفقير واجتمع مع النفير ببلد الله الحرام، وهو الآن ببجيلة، حفظه الله تعالى.

ومنهم العارف الرباني الشيخ النبيل القدر الجليل الشيخ أحمد بن سليمان كان من أجلاء المشايخ بدمشق رحمه الله. أخبر الفقير في مجلسه بزاويته أن بينه وبين الشيخ عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته آمين، أربعة أيدي في المصافحة، وأن يده الخامسة، وحصلت المصافحة معه مراراً، ولله الحمد (ورحمه الله تعالى)[2].

ومنهم سيدي الشيخ محمد بن عبد الهادي نسيب الشيخ عبد القادر بن سوار، وكان من كبار الصالحين وأجل أرباب التمكين، حصلت معه المحبة

[1] عبد القادر بن محمد أبي الفيض المعروف بابن قضيب البان، صاحب أحوال وكرامات، جاور بمكة المكرمة مدة، وانتقل إلى القاهرة قبل أن يعود إلى حلب، له كتاب نهج السعادة في التصوف، ورسالة في أسرار الحروف، وديوان شعر، توفي سنة 1040 هـ بحلب: خلاصة الأثر 2:464.
[2] ساقط من ط.

والأخوة الأكيدة والإشارة بالمبشرات العديدة، وكان قادرياً، رحمه الله تعالى وسلفه، وجعل البركة في ذريته آمين.

ومنهم شيخ السادات الغزاة بدمشق، وكان من المعمرين بالتقوى والدين، الشيخ حسن الصلتي، أخبر الفقير ومن كان في مجلسه من المشايخ بجامع كريم الدين بالقرب من باب الله بدمشق المحروسة أنه اجتمع في حال شبابه لما زار بيت المقدس بسيدي الشيخ أبي العون الغزي المدفون بالرملة المحروسة، وأنه لوى له المئزر على رأسه، وربما أن الشيخ حسن، رحمه الله تعالى، جاوز المائة، والله أعلم. ومنهم سيدي الشيخ علي بن سيدي الشيخ عمر العقيبي، وربما أنه وصل إلى هذا السن أو أكثر، وكان من كبار الصالحين.

ومنهم سيدي الشيخ نجم الدين، كان إماماً بقلعة دمشق، ولعله عمره نحواً مما تقَدَّم، وكان يُخبر الإخوان بالفقير، والفقير إذ ذاك في صغيره[1]، أنه يخدم سيدي الشيخ العارف الصمداني سيدي الشيخ عبد القادر بن حبيب الصفدي قدس سرهما العزيز.

ومنهم سيدي الشيخ العارف بالله أبي البركات البزوري، تخاوى مع الفقير بدكانه بسوق البزورية بدمشق المحمية، ورأى الفقير في المنام أنه قطب الشام، وكان مشهورا بالكرامات والأحوال، ولعَلَّه كان في السن نحو مما تقدم ذكرهم، وكان من أصحاب سيدي الشيخ محمد بن عراف قدس سرهما العزيز.

وبالجملة، فنعم الله تعالى على هذا الفقير في هذا الطريق المنير لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، ولكن شيخ القلب في الحقيقة سيدي الشيخ حسن والد سيدي الشيخ علي القطناني، وهو الذي لف المئزر للفقير وألبسني لبادته التي كانت على رأسه الشريف من مدة تزيد على خمس عشرة سنة، ونصب (في البحر)[2] الأعلام ورسوله الذي كان في اليقظة سيدي الشيخ موسى المدفون بشاطئ بصيدا قدس سرهما وأعلى درجاتهما لديه، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، وتنتهي طريقتهما إلى سيدي الشيخ الكبير ذي الأحوال الشهيرة والبركات الكثيرة جدهما المعروف بالشيخ حسن الراعي قدس الله أرواحهم، ويقال بينما هو ذات يوم في المرعى وإذا

---

[1] في ط: كان صغيرا.
[2] زيادة من ط.

بثلاثة من السادات لنحوه تسعى، فإذا بهم سيدي القطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني والقطب سيدي أحمد الرفاعي، والقطب العارف بربه القادر سيدي عدي بن سامر، فأتاهم بشيء من حليب الغنم ووضعه بين أيديهم بفضل المولى المنعم، وكان له هناك للخير داعي، وكان قريبا من سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي، فأخذ عليه العهد، وتفلوا له في اللبن، فحبي ببركتهم بجزيل الفضل والمنن، أعاد الله علي من بركاتهم والمسلمين آمين.

فصل في ذكر بعض السادات المشايخ الأعلام أئمة العلماء الكرام الـــذين أخذت عنهم ما تيسر من العلم الشريف، وانتفعت بفوائـــدهم الجليلـــة تبركـــا بذكرهم، وإيضاحا لجليل قدرهم، واستجلابا للدعاء لهم، رحمهم الله تعالى أجمعين آمين. فأولهم سيدي وشيخي والدي رحمه الله تعالى، أخذت عنه كثيراً من الفقه، قراءة وسماعاً وكشفاً للفتاوى ومطالعة لدروس من كان يقرأ عليه، ذلك نحو من خمسة عشر درسا في علوم متفرقة كل بحسب مطلبه، وأخذت عنـــه الحـــديث الشريف، وقرأت وسمعت عليه كثيراً من كتب النحو وشـــيئا مـــن التـــصريف والأصول وغير ذلك من العلوم.

ومنهم شيخ الإسلام العالم العامل الورع الزاهد المحقق الكامل الشيخ شمس الدين محمد الخديم الحنبلي المقدسي، قرأت وسمعت عليه كتبا كثـــرة في النحـــو وغيره، ولازمته مدة مديدة أحضر دروس الإخوان في النحو وفي كثير منها يفيـــد من علوم كثيرة، وحصل لي منه نفع كثير رحمه الله رحمة واسعة.

ومنهم شيخ الإسلام مفتي دمشق ابن عم والدي وخالي، سيدي الشيخ شمس الدين محمد العلمي الحنفي خدمته في قراءة بعض كتب النحو من شروح ألفية ابن مالك وفي غالب مختصر المعاني والبيان، وكنت أسمع كثيراً من دروســـه وأبحاثـــه المفيدة من غالب العلوم بالتحرير وحسن التقرير، رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الإسلام والمحدثين بدمشق الشام شمس الدين محمد بـــن داوود المقدسي، أخذت عنه شيئاً كثيراً من النحو من شرح ملا جامي على الكافية، ومن الحديث والمعاني والبيان بقراءة غالب عقود الجمان وغير ذلك من دروسه التي كان يبدأ فيها من آخر الليل إلى أواخر النهار مشحونة بالفوائد الجمة والفرائد المهمة، رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الإسلام مفتي الأنام، إمام العلوم، النحرير ذو البيان والتحرير، الشيخ تقي الدين بن غالب الحنفي، قرأت عليه في النحو مغني اللبيب لابن هشام بطرفيه قراءة تحقيق، مع حضور دروس له كثيرة بمدينة بعلبك، وكان يفتي بها على المذاهب الأربع قبل أن يلي الفتيا بها سيدي الشيخ الوالد رحمهما الله تعالى، ومع ذلك كان بها جماعة من العلماء الأعلام، لاسيما من الشافعية والحنابلة.

ومنهم الشيخ الحافظ العلامة الحبر النحرير الفهامة سيدي الشيخ علي المغربي المالكي صاحب الأخلاق المرضية والأيدي السخية، قرأت عليه غالب ألفية ابن مالك حفظا وحلا مع غيرها من العلوم والقراءات، توفي بالقدس الشريف، ودفن بباب الرحمة، رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخي الذي قرأت عليه القرآن الشريف، سيدي الشيخ حسن الشهير بابن حسين، حفظت عليه نحواً من ربع كتاب الله العزيز، ونحو ربع كتاب الكتر وملحمة الأعراب والأجرومية، ولعل، كان ذلك، وسن الفقير ثمان سنوات أو تسع، والله سبحانه وتعالى أعلم، رحمة الله تعالى عليه وعلى المسلمين أجمعين، والقصد بذكرهم التبرك والترحم عليهم، والحمد لله رب العالمين.

فصل في ذكر بعض من اجتمعت بهم من السادات بمكة المشرفة والمدينة المنورة، زادهما الله شرفاً، فمنهم السيد الحسيب النسيب العالم العلامة الفهامة صاحب التحقيق والتدقيق والعلوم والفوائد المهمة صبغة الله الهندي، روَّح الله تعالى روحه ونور ضريحه، حصل الاجتماع به بالمدينة المنورة سنة إحدى وعشرة بعد الألف.

ومنهم من السادات من أهل اليمن السيد الأستاذ عارف الوقت والزمان صاحب الكمالات والعرفان، سليل السادات الأقطاب المنقذين من حال إلى حال، صاحب اليد الموسوية، سر العصر اللطيف، مولانا السيد الشريف الشيخ أحمد ابن القطب الكبير صاحب العرف العبير، صائم الدهر، صاحب الكرامات الباهرة والبراهين الظاهرة القائل: من رآني أو رأى من رآني ضمنت له على الله الجنة، فخر الدنيا والدين، أبي بكر بن سالم الحضرمي القافي، أعاد الله تعالى علينا من بركاته، وقد اجتمعت به بمكة المشرفة تجاه بيت الله الحرام عند مقام المالكي، وتصافحت

معه يد الأخوة، وأشار لي بإشارات وأخبار بشارات لحالة الفقير، وما من الله به عليه، وذلك في عام أحد عشر بعد الألف.

ومنهم السيد الشريف الوله بحب سيده ومولاه، المتصرف في أبناء عصره حسبما من به عليه مولاه الذي بذلك تولاه وأولاه، سيدي الشيخ أبو الغيث الشهير بالفخر اليمني الأصل، رحمه الله تعالى، وكان عند الفقير تردد في العزم على المجاورة أو العود إلى الوطن، فأطلعه الله تعالى على خاطر الفقير، وأشار بالمجاورة، وحصلت معه يد الأخوة، وكان له كرامات ظاهرة، وبركات متكاثرة، رضي الله عنه تعالى عنه.

ومنهم الشيخ الصالح الناسك الناجح المعمر لأوقاته بالذكر والعبادات، الشيخ شهاب الدين أحمد العمودي اليمني الحضرمي رضي الله تعالى عنه. ومنهم سيدي الشيخ العارف بالله تعالى سليل السادة الأولياء الكرام أرباب القدر والجد والاحترام، الشيخ ياسين ابن الشيخ عمر بن الشيخ الكبير، صاحب العرف العبير الشهير، بعبد الله رحمه الله تعالى، المدفون ببلد شبيكة، اجتمعت به بمترله بين الصفا والمروة. ومنهم من جذبته يد الإحسان بلطائف المجد والامتنان للمجاورة بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، أخونا في الله تعالى الشيخ الزاهد المنقطع إلى الله الشيخ شهاب الدين الملكاني. ومنهم الشيخ العارف الجليل والبحر النحرير النبيل سليل السادات الكرام والأئمة العلماء الأعلام الشيخ شهاب الدين أبو المواهب أحمد الشناوي الغزي[1] حفظه الله وبنيه وأهله ومحبيه. ومنهم الشيخ الصالح شيخ الطريقة والحقيقة، الملازم لتلاوة كتاب الله الموله بحب مولاه الهادي إلى صراط الله الشهير بالشيخ محمد الجيد اليمني، رحمه الله تعالى. ومنهم صاحب القدر والإجلال، الشيخ بلال شيخ الطائف الأحمدية بباب الرحمة رحمه الله. ومنهم صاحب النفحات الزكية والأوقات المرضية سيدي الشيخ أبي الفتح الأحمدي الحلبي خادم سيدي حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء، رضي الله تعالى عنه، من أكابر السادات أرباب الكرامات، وبكثير من المجاورين والقاطنين ممن كان في ذلك العام بالحرمين الشريفين والواردين عليهما نفعنا الله والمسلمين ببركاتهم آمين.

---

[1] تقدمت ترجمته.

فصل في بيان المقصود من ذلك على التفصيل والإعادة فيها الإفادة، ليتضح بذلك للأبناء والإخوان، وفقهم الملك المنان، إذا سُئلوا عن شيء ذلك أن يخبروا بالحقيقة ما يقفوا عليه بعون الله تعالى بقرب من اجتمع بهم الفقير من المشايخ الكرام إلى من يُعَوَّل عليهم من أرباب المجد والاحترام.

فمنهم سيدي الشيخ والدي رحمه الله تعالى، أخذ الأسماء عن سيدي الشيخ أحمد بن عبدو، واجتمع بكثير من المشايخ أرباب المعارف والأحوال، وسيدي الشيخ حسن الصلتي اجتمع بسيدي الشيخ أبي العون الغزي، وسيدي الشيخ أحمد بن سليمان، ذكر أن بين يده ويد الشيخ عبد القادر الجيلاني قَدَّس الله سره العزيز أربعة أيدي. وسيدي الشيخ نجم الدين إمام القلعة كان من جماعة الشيخ عبد القادر بن حبيب الصفدي، وسيدي الشيخ حسن الكركي هو أول من لازمت مجلسه بجامع المغاربة وحصل منه خير كثير، أخذ عن سيدي الشيخ عمر وسيدي الشيخ عمر عن سيدي الشيخ علوان، والأخ الشيخ علي اللؤلؤي أجاز الفقير بذكر الأنفاس، ونسيت اسم شيخه الذي أخذ عنه، وسيدي الشيخ عبد القادر ابن سوار، وأجاز الفقير بمحيا النبي المختار. وأما لبس الفقير للخرقة السمراء وغيرها فقد تقدَّم ذلك، وأما حقيقة المبايعة فلشيخي سيدي حسن القطناني والد سيدي الشيخ علي حفظه الله تعالى يروي عن سيد الأنام عليه الصلاة والسلام: ليس الصيد لمن أثاره، إنما الصيد لمن اقتنصه[1]. وعن سيدي الشيخ أبي مدين: شيخك من سدت فيك لإشارته وحلت في وجودك عبرته.

وبالجملة فكراماته أجل من أن تحصى، ومناقبه عند عارفيه لا تستقصى، ولقد أخبرت من الثقات أنه كان في يوم نزوله من قريته إلى محروسة دمشق يرتج له كثير من رجالها إجلالا ومهابة لشأنه، رحمه الله تعالى رحمة واسعة على ممر الأزمان آمين.

وأما الذين تخاووا مع الفقير من سادات الناس وغالب الأجناس فربما يزيدون على ألف إنسان مشهورين بالخير والصلاح والهداية والفلاح، فلا أخْلاني الله تعالى والمسلمين من بركاتهم آمين، ورحم الله من مضى، وحفظ من كفى منهم، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

---

(1) لسان الميزان 253:2.

فصل في ذكر من منَّ الله تعالى بهم على الفقير من الأولاد، وعدهم ثلاثة عشر ولدا، ثمانية من بنت العم ستة ذكور وبنتان، وخمسة من بنت الشيخ موسى العسيلي، فأول الثمانية محمد، وبعده الشيخ عبد الصمد حفظه الله تعالى وبنيه، وبنية لابنة، وعيسى وزاهرة وعبد القادر وبعده محمد أيضاً، وبعده الشيخ عبد القادر حفظه الله وبنيه، و لم يبق منهم إلا الشيخ عبد الصمد، والشيخ عبد القادر، أطال الله بقاءهما وجعل البركة فيهما وفي بنيهما ومحبيهما. ومن بنت المرحوم الشيخ موسى ولدان ذكران نزلاً في إخلاصهما ميتين، وثالث بنات توفي منهما ثنتان وبقيت واحدة حفظت بحفظ الله تعالى بالتقوى والإيمان آمين. وأما أبناء القلب فلا يعلم عددهم إلا الرب سبحانه، وجعل تبارك وتعالى البركة فيهم وفي بنيهم وأتباعهم ومحبيهم إلى يوم الدين، إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. وأما مولد العبد الفقير فأخبرني سيدنا الوالد رحمه الله أنه كان في شهر رجب سنة ثلاث وستين وتسعمائة، وأسأل الله خاتمة الخير من غير فتنة ولا بلاء ولا محنة بمنه وكرمه إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. وأوصي الجميع من أبنائي وإخواني وأحبائي وإياي بتقوى الله الكريم الديان في السر والإعلان، وأسألهم صالح الدعاء لي ولأشياخي وآبائي وأبنائي وإخواني ولمن في الله تعالى أحبني ووالاني، والحمد لله رب العالمين هـ.

وخرجنا من القدس الشريف ضحى يوم الأربعاء الثالث والعشرين، وما كنا عزمنا في ذلك اليوم على الخروج في ذلك اليوم إلى أن بعث إلينا القاضي النفاتي المتقدم ذكره، وقال: إني وجدت رفقة مأمونة وهي تيسير لنا، فاعزموا على المشي، فودعنا الشيخ عمر، وخرج معنا أصحابنا إلى خارج المدينة، وودعنا القاضي ودفع كراء الدواب التي ركبناها إلى الخليل من عنده، وكتب كتاباً إلى نائبه في مدينة الخليل عليه السلام يوصيه بنا، فسرنا في حفظ الله تعالى، ومررنا بالجوابي التي يأتي منها الماء إلى المسجد الأقصى، وهي جوابي عظيمة في غاية السعة لم أرَ أوسع منها، وهي ثلاثة متوالية يجتمع فيها الماء من عين هناك حتى إذا امتلأت ذهب في قنوات محكمات تحت الأرض إلى أن يدخل المسجد، ولم نجد فيها في هذه السنة إلا قليلا من الماء لقلة الأمطار، فغارت العيون، ثم مررنا ببيت لحم وزرناه من بعيد، ولم نزل نسير يومنا في ارتقاء وانخفاض بين غياض ذات أشجار مختلفة من شجر البادية، وعلى يميننا ويسارنا قرى إلى أن دخلنا مدينة الخليل قرب العصر، وأنزلنا قاضيها نائب قاضي القدس ببيت في جوار المسجد، وقام بالواجب جزاه الله خيرا، واسمه الشيخ عثمان، وهو تركي، فتوضأنا هناك ودخلنا المسجد للصلاة والزيارة، فزرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور بنيه الكرام، سيدنا إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقبور أزواجهم، والقبور كلها في مغارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاقة مفتوحة في وسط المسجد مثل البئر قد علقت فيها مصابيح توقد ليلاً ونهاراً، وفي أرض المسجد شبابيك على شكل القبور مغطاة بستور من ديباج في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة، إلا قبر يوسف عليه السلام فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يغلق عليه ولا يفتح إلا في أوقات مخصوصة، واقتحمنا دخول المسجد اقتداء بمن جوز ذلك من العلماء ورخص فيه، وإن كان كثير من أئمتنا المالكية قد شددوا في ذلك النكير وقالوا: لا يحل دخوله لأن قبور الأنبياء مقطوع بأنها هناك، ولا نعلم أعيانها، فكل محل يطأ فيه يمكن أن يكون هو موضع القبر، ولا يحل الجلوس والمرور على قبر مسلم، فكيف بقبر نبيٍ، ولكن العمل منذ افتتحت البلاد على خلاف ذلك، فقد صار ذلك المحل مسجداً تقام فيه الجمعة والجماعات على مر الأعصار، والعلماء الأخيار يفدون عليه

ويسمونه في تآليفهم وأسمعتهم مسجداً، وحكم المسجد لا يمنع أحد من الدخول فيه، وقد استدل لجواز الدخول فيه الحنبلي مؤرخ القدس بما يطول ذكره.

وممن لقيته بمدينة الخليل الفقيه الراوية المسن المسند يوسف القاسمي الجنيدي من ذرية أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه فسمعت عنه من أول الصحيحين، وأجازني بأسانيده، وستأتي عند ذكر الإجازات.

وممن لقيته بحرم الخليل صاحبنا الأبر، الفقيه الأطهر، الشيخ إبراهيم ابن شهاب الدين المرواني، وهو من فضلاء ذلك البلد، له ديانة ومروءة وأخلاق حميدة، ومشاركة في العلوم الشرعية، وهو ممن صحب شيخنا القشاشي وانتفع به. كتب إليه الشيخ عبد القادر الغصيني يوصيه بنا، فقام معنا أتم قيام، فجزاه الله خيراً، وله بيت في صحن المسجد فيه كتبه يأوي إليه عامة يومه. ولقوة إنصافه رضي الله عنه استجازني بعدما سمع مني ما تيسر، فكتبت له إجازة مشتملة على نظم ونثر لأنه أطلعني على إجازة الشيخ المقري لوالده، وهي نظم، فعلمت أنه يحب الكتابة على ذلك المنوال، وهذا نص الأبيات التي كتبتها في الإجازة:

[وافر]

أجزتُ بكل ما أرويهِ طُرا ... وما صنفتهُ نظما ونثرا

وما لي من مجاز عن شيوخي ... بمكة أو بطيبةَ أو بمصرَا

وما أرويهِ عن عُلماء قطري ... شيوخ الغربِ ما أزكاهُ قطرا

من المعقولِ والمنقولِ مما ... قرأتُ أو سمعتُ الغيرَ يقرا

حديثًا أو تصوفا أو كلاما ... وتفسيرا وفقها فهْو أحْرا

ونحوًا أو عرُوضا أو سواها ... فيروي إن أحاطَ بذلك خبْرا

أبا إسحاق إبراهيم أكْرم ... به حبرا يفوقُ البحرَ حبرا

على الشرطِ الذي شرَطوا وإني ... أزيدُ له شروطا ثم أخرى

صفا قلب وإخلاصا وأيضا ... دعاء لي بحيث قرا أو أقرَا

وأشياخِي الذينَ رويتُ عنهم ... كثيرٌ لم أطقْ للكل حصرا

لم أذكــــرهم نظمـــا ولكــــن سأذكرُ بعـضهم مـن بعـد نثْـرا

صـــلاةُ الله تمـــلأ كـــل كَـــون وخـــيرُ ســـلامه عـــشرا فعـــشرا

وألفـــــا ثم ألفـــــا في أُلـــــوف على الهادي ختـام الرسْـل تتْـرا

وأصــــحاب فتــــابعِهم وآل فتــابع تــابع فلــهم جــرا

يعــود علــيَّ منــها كــل نفــع ويعظــمُ لي بهــا الــرحمنُ أجــرا

ويجعـــل لي بهـــا وأخـــي المُـــسمى خـــلال الـــنظم في عـــدن قفـــرا

ويعظـــم خيرُهـــا فيُـــصيب كـــلا مـــن الأهلـــين والإخـــوان طـــرا

وكـــل المـــسلمينَ وكـــل هـــذا يعـــد مـــن عطـــاء الله نـــزرًا

وصاحبنا هذا ممن يتولى الإمامة في مسجد الخليل، ويقيم مجلس الذكر فيه في أدبار الصلوات كما هو عادة أهل تلك البلاد كلها[1]، فقد استبدلوا من مجـالس العلم مجالس الذكر، فقلما يخلو مسجد من مجلس ذكر برفع الصوت والجماعات والإنشادات على هيئة سماع الصوفية، إلا أن متعاطي ذلك أميون أرباب دنيا، فقلّ بذلك العلم في هذه البلاد والسواحل الشامية كلها، بقياس ما لم أر منها على ما رأيت، وبأخبار من رآها من الواردين، وقد سمعت صاحب الترجمة يختم مجـالس الذكر هو وأصحابه بقصيدة فيها التوسيل بخليل الله تعالى نظمها لـيس حـري بذلك، ولكن نية صاحبها بالغة إلى أن صارت تقرأ في ذلك المكان المبارك، وقـد منَّ الله علي في بعض أيام الإقامة هناك بإنشاء قصيدة تضمن ما في تلك وزيـادة امتدحت بها خليل الله، وتوسلت إلى الله به وببنيه الكرام، وتضرعت إلـيهم بمـا أرجو من الله قبوله ببركتهم، فكتبتها له وتركتها عنده عسى أن ينالها من بركات أولئك السادات ما نال تلك القصيدة، فتقرأ في ذلك المشهد العظيم، فيسعد بذلك منشئها سعادة عظيمة، وهذا نص القصيدة المذكورة[2] التي أنشأتها:

[طويل]

(1) ساقط ن ط.
(2) ساقط ن ط.

ألا يـــا خليـــلَ الله جئتـــكَ زائِـــرا   أجوبُ الجبالَ السود نحوك سَـــائِرَا
يقود بيَ التوفيقُ والـــشوقُ ســـائق   إليك فلو أســـطيعُ جئتـــك طـــائِرا
وقد كنتُ قدْما أرتجي الوصلَ ها أنا   بذاكَ بحمـــدِ الله أصـــبحتُ ظـــافِرا
وقفتُ بباب الجودِ بابـــكَ خاضـــعا   ذلـــيلا مُنيبـــا حامـــدا لله شـــاكرَا
مددتُ أكف الفقرِ نحوكَ حاشَ يـــا   أبا الرسْل عنكَ أن تُـــرد حَواســـرا
وأنت الذي سَن القِرى ودعا الورى   لأم القُرى لـــا امتثلـــتَ الأوامـــرا
فيا فوزَ عبدٍ قـــد أجـــابَ نـــداءكم   وجاءَ لِحج البيتِ يـــسْعى مُبـــادرا
وأدى به النسكُ الذي قد شـــرعتهُ   ولَبى وطـــاف ثم جـــاء المـــشاعِرا
ومن بعدهِ زارَ ابنك المُصطفى الـــذي   لـــه جمـــعَ الله العظـــيمُ المـــآثرَا
وفضلهُ قطعاً على الرسْـــل كلـــهم   وأُرســـلَ للـــدينِ الحنيفـــي ناشِـــرا
وبـــيَّنَ أعـــلام الحنيفيـــة الـــتي   شرعْتَ فعادَ باطنُ الـــدين ظـــاهرا
محمـــد المحمُـــود حيـــا وميتـــا   وأحمـــد المبعـــوث للـــذين ناصِـــرا
وأول رسْـــلِ الله طـــرا نبـــوءة   وإن كان في الأرسالِ قد جاء آخرا
عليـــهِ صـــلاةُ الله ثم ســـلامُه   يَعُمان آصـــالَ الـــدنا والبـــواكِرا
ومن بعـــدهِ يـــأتي إليـــك مُـــؤملا   نداكَ أبا إســـحاق للكـــسرِ جـــابرا
يُمرغ في أعتـــاب بابـــكَ وجهـــهُ   وبابُ بنيـــكَ الأكـــرمينَ الأكـــابرَا
ويـــضرعُ فيـــه بكـــرةً وعـــشية   حقيرًا ذليلا خاملَ الـــذكرِ صـــاغرًا
لتنظـــرَ فيـــه نظـــرة تُبلـــغُ المنـــا   وتهدي طريقَ الرشد من كانَ حـــائرا
وتـــشفعُ للـــرحمنِ فيـــه لعلـــهُ   يُجللهُ عفوا عـــنِ الـــذنبِ ســـاتِرا
ويمنحـــهُ علمـــا وخلقـــا مُهـــذبا   ويلبسهُ ثوبا من الـــشوبِ طـــاهرًا

ويلهمـــهُ بعـــدَ الغوايـــةِ رشـــدهُ ويجعلـــهُ بَـــرا وإن كـــان فـــاجرا
فإنـــكَ عنـــد الله أعظـــمُ شـــافِع متى تدْع أو تشفَع تشفع بـــلا مِـــرا
وأنـــتَ خليـــلُ الله أولُ مـــن قَـــرا ضيوفا وقد أصبحتُ ضيفكَ حاضِرا
وإن قرايَ أن أُجـــابَ بكـــل مـــا طلبتُ من المَولى وإن كنـــتُ آثـــرا
وإني لأرجـــو أن يكـــونَ قـــراكمُ على قدركم حتى يعـــم الـــذخائِرا
وأما إذا كان القِرى منـــك ســـيدي على قدر هذا العبد قد عادَ خاسِـــرا
أجـــرني وإخـــواني وكُـــل أحـــبتي وأهلي وأبنـــاء العبيـــد الأصـــاغرا
فـــإنيَ عبـــدٌ مـــستجير بكـــم ولا يُضامُ لكم جَار وإن كـــان جـــائرا
وبالباب عبدُ الله ضـــيفكَ فالتفـــتْ إليـــهِ التفاتـــا للمواهـــب عـــامِرا
تُنلـــه بهـــا قلبـــا مُنيبـــا مقارنـــا لسانا مـــدى الأوقـــاتِ لله ذاكـــرا
وإحضار قلب في العبـــاداتِ كلـــها وعمْرا طـــويلا بالمعـــارفِ عـــامرا
وعافيـــة مقرونـــة كـــل لحظـــة بعفـــو يكـــون للمـــآثم غـــافِرا
ويَـــسرْ إلهـــي كـــل أمـــر يرومـــهُ لعبـــدكَ تيـــسيرًا يزيـــلُ الـــضرائرا
وهيئ لـــه رشـــدا ولطفـــا مُقارنـــا لـــه ثاويـــا في أهلـــهِ أو مُـــسافرا
وكنْ راضيا عنه وحَببْ لـــه الـــذي يُرضيك واجعله على ذلـــك قـــادرا
ووفقهُ للخـــيراتِ واخـــتمْ حياتـــهُ بخـــير إذا حَـــل الفقـــيرُ المقـــابرا
بجاهِ الخليل المُجـــتبى وبنيـــهِ والـــ رسولِ الذي نالَ المدى والمَفـــاخرا
محمـــد الهـــادي الحبيـــب علـــيهمُ صـــلاةٌ وتـــسليم يـــنيرُ الـــسرائرا

ثم ارتحلنا من مدينة الخليل عليه السلام يوم السبت الـــسادس والعـــشرين، واكترينا حميراً لركوبنا من المكان الذي أكرى لنا من القدس، وكان فيه حـــسن

خلق، و لم نخرج من فناء المدينة حتى متع النهار[1] جداً، وكنا ننتظر رفقة معها عدة فرسان لنسير معهم لأن المحل مخوف، وغالب أهله متلصصون، وقد أخبرنا بعض من سافر معنا من أهل البلد بعد ذلك أن جماعة من متلصصي ذلك البلد جاؤوه وقالوا له: وافِقنا على سلب هؤلاء المغاربة، فإذا شلحناهم[2] أخذنا نحن الأمتعة وأخذت أنت ما معهم من الذهب، وشلح في لغتهم بمعنى سلب، والمغاربة في أقطار المشرق كلهم متهمون بالذهب ولو كان أحدهم ذا أسمال خلقة، ولولا أن صاحبنا الشيخ إبراهيم المرواني كان أكد كثيرا على كل من سافر معنا من أهل البلد وقال لهم: لا يخلص إليهم[3] بسوء إلا إن عمكم، لباعونا وأكلوا أثماننا، ولكن الله سلم.

وسرنا بقية ذلك بين غياض وتلول وقرى إلى أن نزلنا بعد العصر بقرية يقال لها بيت حيرين وفيها قلعة فيها بعض العسكر، وبتنا بها وأضافنا أهلها، وفي الغد ارتحلنا منها ضحى وفارقنا الجبل واستقبلنا أرضاً جرداء ذات مزارع وخصب كثير، وسرنا فيها بقية يومنا خائفين من العرب لأنهم يغيرون في ذلك المحل لما وقع بينهم وبين باشة البلد كما قدمنا. ونزلنا قرب المغرب بقرية يقال لها السوافر، وأضافنا أهلها ضيافة حسنة، وأدخلونا دارا خوفا علينا من إذاية السراق، وفلاحة بلاد الشام كلهم أهل كرم وصدق ووفاء خلاف فلاحة مصر.

ثم ارتحلنا بعدما صلينا الصبح وسرنا خائفين إلى أن قربنا من مدينة غزة، فلقينا هناك بيرقاً معه خيل كثيرة خرجت من عند الباشة لغزو العرب، فاطمأنت قلوبنا وحصل لها الأمن، فدخلنا غزة قرب الظهر، ونزلنا بمحلنا الأول من رباط الشيخ عبد القادر الغصيني ووجدناه (قد خالفنا إلى القدس مع أكبر أولاده لغرض لهم عند قاضي البلد)[4]، وكانوا يرون أنهم يدركوننا هناك لنتوسط لهم عنده فلم يقدر ذلك، وقد أظلم علينا الجو لما لم نجده هناك، فإنه كان سراج هذه المدينة، على كبرها وإنسان عينها ونور بصرها، إلا أن الله تعالى بلطفه أنس وحشتنا ونفس كربتنا لقاء شيخنا فقيه البلد وابن فقهائها وكبيرها وابن كبرائها المشارك في فنون من العلم، المتخلق بأخلاق ذوي النهى والحلم، الشيخ عمر بن عبد القادر

---

[1] متع النهار: ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال: لسان العرب: متع.
[2] شلح: شُلِّح فلان: إذا خرج عليه قطاع الطريق فسلبوه ثيابه وعروه: لسان العرب: شلح.
[3] في ط: لهم.
[4] ساقط من ط.

المشرفي، وكان يتعاهدنا بقِراه كل يوم، يبعث به إلى محلنا لما علم غيبة شيخنا الشيخ عبد القادر، وأنا في خلال ذلك لا أفارق مجلسه ويحلني فوق ما أستحقه من الإجلال، ويفاتحني بالكلام، وذاكرته في مسائل كثيرة من فنون العلم، وله في البحث قوة إنصاف وحسن تحل بالعلم واتصاف، وقد قرأتُ عليه بعض صحيح البخاري، واستجزته لي ولمن يذكر في الاستدعاء من الأصحاب، فأجاز بذلك وكتب لي خطه بذلك، وسيأتي نص إجازته لي في آخر الرحلة عند ذكرنا لإجازات المشايخ، وله في الرواية سند قوي. أخذ عن شيخ لإسلام الأستاذ المحقق الشيخ الصالح التمرتاشي بأسانيده، وأخذ أيضا عن الشيخ الإمام شيخ مشايخ الإسلام الشيخ غرس الدين الخليلي ثم المدني رضي الله عنه، وأخذ أيضاً عن شيخنا شهاب الدين الخفاجي المصري رحمه الله، لقيته في رجوعي من بلاد الروم، وقرأ عليه وأجازه حسبما رأيت ذلك بخطه عنده، وقد أطلعني على تأليف له سَمَّاه الدر والعقيان في طبائع الإنسان، ذكر فيه أول نشأةَ الإنسان وما يعرض له من الأحوال وكيفية تنقلاته في سائر أطوار من طور النطفة فما بعده، ونقل فيه كثيراً من أقوال الحكماء والأطباء والأدباء وما يشاكل ذلك من الآيات والأحاديث إلى غير ذلك مما هو مشاكل لغرضه. وكتبت له عليه تقريضا حسناً من جملته هذه الأبيات[1]:

[كامل]

حُبُّ الورى للدر والعقيانِ ... طبعٌ بَدا في نشأةِ الإنسانِ

لاسيما العقدُ الثمينُ منهما ... فيه الفصوصُ مثلث الأركانِ

فالنفسُ أميَلُ ما تكونُ لمشتهى ... يبدُو لها في غايةِ الإتقانِ

مثل الذي أبداهُ أوحدُ عصره ... مُفتي الأنامِ ووارث النعمانِ

عمر بن عبد القادر الأسمَى الذي ... خَضعتْ لرفعتهِ علا الأقران

لله ما أسْنى فضائلهُ وما ... أزكى مواصلهُ على الإخوانِ

خاضَ البحارَ زواخرا فأجاد في ... إخراجه الدر العظيم الشانِ

من كل جوهرة تكادُ لحسنها ... أن لا تُنالَ بغايةِ الأثمان

[1] وردت الأبيات في: نشر المثاني 2:141.

لكنـــه جـــادتْ يـــدهُ بهـــا علـــى طُلابهـــا مـــن جـــودة المتـــان

فأفـــادَ في هـــذا الكتـــاب وجمعـــهِ مـــا لم يُفَـــد أحـــدٌ مـــن الأعيـــانِ

وأجـــــاد في ترتيبـــــهِ وســـــياقهِ فغـــدا رياضـــا نـــاعِمَ الأغـــصانِ

من شـــك في ذا فليطـــالعْ بعـــضه تغنيـــه رؤيتـــهُ عـــن البرهـــانِ

كم فيه من حِكَـــم يلـــذ سماعُهـــا ويحـــارُ فيهـــا ثاقـــبُ الأذهـــانِ

حسبي فلا أستطيع حـــصر صـــفاته ولـــو اســـتعنتُ بـــسائرِ الأوزان

لازال جامعـــــهُ إمـــــام يُقتـــــدى بعلومـــــهِ في ســـــائرِ الأزمـــــانِ

فجزاهُ عن إحـــسانهِ رب الـــورَى بـــالعفو والإفـــضال والإحـــسانِ

ولما طالع الأبيات طار بها فرحاً، واختال في برد الإعجاب بها مرحـــاً، ولا أقول ليست بذلك جديرة، فقد حوت من محاسن البلاغة جملة كثيرة، يعلمها كل ذي ذوق سليم إذا أنصف وقال بما هو به عليم، وقد حمله الإطراء لها والتبجيح بها إلى أن أبلغها إلى مجلس الأمير، وكانت له ماسة بالطلب وخبرة ببعض أســـاليب الكلام على ما قيل.

ولما طالت إقامتنا وجلوسنا بغزة وتعذرت السبل وانقطعت لاشتعال نـــار الفتنة بنهب الأعراب المخالفين لسائر الضواحي، وعجز الباشا عن مدافعتهم، لحقنا قلق لذلك وانزعاج خاطر خوف فوات الركب وخروجه من مصر، واستعنت في أمرنا بكل ذي رأي من أصحابنا فعجزوا، وزادني غما غيبة الشيخ عبد القـــادر الغصين عن البلد، وانتظرت قدومه فأبطأ علينا، فعلمت أنه لا ينجي إلا اللجء إلى الله والتوسل إليه بخالص أحبابه وإمام أنبيائه، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليـــه وسلم، ففزعت إلى عادتي المعروفة وسجيتي المألوفة من مدح المصطفى لما عـــودني الله تعالى عند أمداح نبيه من تفريج الغموم ونيل المطلب[1] المروم، وفي ذلك قلت في القصيدة الهمزية:

[طويل]

[1] ساقط من ط.

إذا نـــابني أمـــرٌ فزعـــتُ لمدحـــهِ فأُعطى به خيرا وأُكفى بـــهِ سُـــوءا

ولقد تحققت عند انقداح ذلك في خاطري وجولانه في ضمائري أني ألهمت رشدي، وبلغت بحمد الله قصدي، فوقعت بيدي نسخة من بردة الإمام[1]، فتأملتها فوقع في نفسي أن لو تكلفت تخميسها، وإن كنت لا أحسن تجنيسها لما جرب من بركتها ويُمن نقيبتها، فاستخرت الله تعالى، وشرعت في ذلك بحسن النية وصادق الطوية على أسلوب عجيب ومنهج غريب، محولاً أكثر معانيها الغزلية إلى مقاصد وعظية، مع حسن التناسب والارتباط الوافي، ولزوم ما يلزم في غالب القـــوافي، فراق بذلك مدؤها عند من جمع بين الأدبين، وقضى به منشدها منتهى الأربـــين، فقلت:

[بسيط]

كادتْ دُموعي تُباري البرقَ في الظلمِ من خوفِ ذنبٍ على ظهري كالعلمِ

فقـــالَ لي لائِمـــي لـــا رأى ألمـــي أمِن تـــذكرِ جـــيران بـــذي ســـلمِ

فقلتُ: كلا ولكن خـــوف خاتمـــة إذ هل منا الحشا عـــن لـــوم لائـــمِ

فمـــا أبَـــالي أبـــانَ حـــي فاطمـــة أم هبت الريحُ من تلقـــاء كاظمـــة

وكتبت من ذلك التخميس نحو الخمسين بيتا، فيسَّر الله تبارك وتعالى الأمر وتيسر لنا الخروج بعدما بلغ منا القنط كل مبلغ، وخرج من كان معنا من الحجاج ممن لهم قدرة على المشي يتسللون مع السواحل، إذ ليس لهم أمتعة يخافون عليها. وكان خروجنا من غزة يوم الثلاثاء السابع من ربيع الأول مع السرايا الجـــالبين للبطيخ من خان يونس، واكترينا منهم أربعة من الحمير باثني عشر فضة، ووصلنا إلى الخان بين الظهرين بعد جهد وخوفٍ كثير، فنزلنا في علية على باب الخـــان، ووجدنا الآغا علي صاحب الخان غائباً في ناحية العريش، ذهب مع الأولاق الذي جاء من اصطنبول، وكان الشيخ عمر كتب لنا كتابين مختومين بخاتم الخوجة عبد الرحمن الغصين، وهو صاحب الأوامر بغزة، أحدهما إلى الأغا صـــاحب الخـــان، والآخر إلى الأغا أحمد صاحب العريش يوصيهما علينا ويؤكد عليهما في شـــأننا،

[1] يقصد قصيدة البردة للإمام البوصيري.

وأقمنا بالخان حتى قدم صاحبه علينا وأعطيته الكتاب، فما أحسن ولا أجمل، فأقمنا بالخان ثلاثة أيام واشتد الأمر علينا أكثر مما كان في غزة، واشتغلت بما شرعت فيه من التخميس هناك، إلى أن وصلت إلى قوله:

تباركَ اللهُ ما وحْيٌ بمكتسَبٍ[1]

وكان من لطف الله بنا أن صادفنا صاحب الخان محتاجا إلى الطعام، واضطر إلى بعث إبله إلى الطينة لتأتيه بالعلوفة، فاكترينا من عنده الركوب والحملان بستة قروش، فلم يحسن الاقتضا، و لم يأت بما يرتضى.

لطيفة:

لما كان يوم الجمعة بكرت إلى المسجد بالخان وتطهرت، وأخذت المصحف العظيم أقرأ فيه، وخطر لي أثناء القراءة وأنا متفكر فيما يؤول إليه أمرنا من المسير أو التعويق، وقلت في نفسي وأنا مسترسل على القراءة، فإذا جاء الخطيب فأي آية وافق مجيئه قراءتي لها يكون فيها جلية أمري إن شاء الله، وكان ابتداء قراءتي من المائدة، ولا أظن أني أصل في القراءة إلى سورة الأعراف قبل مجيء الخطيب لأنهم يبكرون بالصلاة، فتماديت على القراءة وأنا أنتظر دخول الإمام، فلما دخل صادف قراءتي لقوله تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت)[2]، ففرحت بذلك كثيراً واستبشرت بالفرج بعد الشدة، لأن أصحابنا الذين قدموا معنا من القدس ذهبوا كلهم و لم يبق إلا ثلاثتنا، فكان الأمر كذلك والحمد لله فقد تيسر لنا الخروج آخر ذلك اليوم و لم يقع لنا بحمد الله تعويق بعد ذلك.

لطيفة:

لما قدم الأغا علي صاحب الخان من العريش وأعطيته المكتوب الذي كتب الشيخ عمر، و لم يهتبل بذلك، ورأيته في خلال كلامه يحسن شيئا من العلم ويفهم

---

(1) بقية البيت: ولا نبي على غيب بمتهم: قصيدة البردة، ضمن مجموع مهمات المتون، ص: 86.
(2) التوبة: 118.

بعض مقاصد أهله، فخطر في نفسي أن لو كتبت إليه بأبيات أستعطفه بها، فزجرت نفسي عن ذلك فقلت: إنه يفتح لي التعلق بمخلوق بعد التعلق بالله ورسوله، وكنت كالمعاهد نفسه أن لا نمدح أحداً من الولاة رغبة في نواله، فانفتح لي باب من حسن التلطف في السؤال فقلت: إن احتجت إلى التوصل إلى وال في طلب نوال أو دفع مكروه التجأت إلى الله، فإن طالبتني النفس في امتداحه امتدحت أحدا من الصحابة أو أكابر الأولياء أو العلماء، فمن كان اسمه موافقا اسمه، وتوسلت إلى الله فإن اللطيفة التي وقع بها الاشتراك في التسمية ستطلب على سميه ذلك حتى يتيسر المطلوب من قبله، وكان اسم هذا الأمير عليا، فامتدحت الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذه الأبيات، فيسر الله المقصود من قبل سميه هذا في أقرب مدة، وهي هذه:

[طويل]

ألا يا أبا السبطين يا فارسَ الحرب ... ويا قدوةَ الأبطالِ في الطعنِ والضربِ

قصدتكَ يا زوجَ البتولِ وخير من ... ينم لخيرِ الخلقِ بالصهر والقربِ

لتشفعَ عند الله لي فيمدني ... بيُسر وتيسيرٍ إلى بلدِ الغَربِ

فلي فيهِ أفراخٌ يعز عليهمُ ... فراقي وأخشَى أن أُعاقَ عن الركبِ

ووالدةٍ قد أوجبَ الله حقها ... يَحن لها رُوحي ويصبو لها قلبي

فيَسرْ وعَجلْ بالوصولِ إليهمُ ... وقَربْ مسيري بالمسرة يا ربي

ثم يَسَّر الله خروجنا من الخان آخر يوم الجمعة قبل[1] غروب الشمس، وهو اليوم العاشر من ربيع الأول، وسرنا ليلنا أجمع ونحن خائفون من سلابة العرب، ومررنا بالزعقنة نصف الليل ولم نترل بها، وهي قناق للقوافل، والقناق بلغتهم اسم لكل حصن تترل فيه القوافل الذاهبة من مصر إلى اصطنبول، فإن لهم منازل معلومة يترلون فيها حصون معدة لذلك يسمونها بلغتهم القناق.

وسرنا بقية ليلنا وجئنا إلى العريش بعدما أمتع النهار واشتد الحر، ونزلنا به وأقمنا بقية يومنا فيه، ولم أذهب إلى أميره أغا أحمد بالكتاب الذي كتب إليه المفتي

---

[1] في ط: قبل.

من غزة وقلت: وهل يفعل إلا مثل ما فعل صاحبه الذي بالخان، والعريش بلـــد كبير على ساحل البحر فيه نخل كثير وأجنة، وبه مسجد كبير وفنادق وأسواق، وهو آخر عمالة الشام وأول عمالة مصر، فقد ذكر المؤرخون في حدود مصر أنها من العريش إلى أسوان بلد بأعلى الصعيد، وذكروا في حدود الشام أنها من العريش إلى الفرات نحو مسافة شهر، وقد دخلت علينا ليلة المولد فيه، ووددنا أن لو بات الجمالون فيه تلك الليلة للاستراحة واغتنام بركتها، فأبوا وارتحلوا بنا بعد صـــلاة العشاء من تلك الليلة الشريفة، وسرنا ليلنا أجمع سيراً حثيثاً في سباخ ولـــيس في الطريق حجر ولا شجر، وكان عديلي في شق المهية شهاب الدين المصري الذي لقيته بالقدس، فكنت أقطع الليل معه بمحاورات ومذاكرات، لأنه ينتحل العلـــم ويزعم أنه فيه أوحد عصره، وكنت أعامله على حسب ما يقتضيه حاله في زعمه وأسايره فيه بسيره وأتأدب معه ولا ألاحيه، وإن تبين خطأه في المذاكرة، و لم نزل كذلك معه حتى افترقنا في دمياط وكانت تلك الليلة من أشد الليالي التي سرناها في تلك الطريق، فلم نترل حتى طلعت الشمس فترلنا في موضع يقال له الجونيـــة، ولا ماء به، وفيه رسم قرية داثرة، وهو رأس ثلاثة برود من العريش قطعناهـــا في ليلة واحدة. ثم ارتحلنا منه قبل الزوال وجئنا إلى محل يقال له أم الحسن عند العصر، وهي من المنازل المعروفة عند الجمالين لأنها نصف الطريق بين العريش وقاطية فإنها رأس أربعة برود، وبين البلدين ثمانية برود، وعند أم الحسن هـــذه أثـــر عمـــران خراب، وفيها ماء مالح لا يكاد يُساغ، وقد تجاوزناها و لم نبت إلى موضع يقال له رأس الدروب، نزلناه عند المغرب وارتحلنا منه في النصف الأخير من الليل ونحـــن خائفون لأنا وجدنا حلة من العرب نازلين في تلك الرمال، وجئنا إلى بئر العبد مع الفجر وتجاوزناه، و لم نترل إلى قطيبة، وجئناها عند الزوال، وعندما قربنـــا منـــها أنزلنا المكارون عن الإبل لئلا يؤخذ منا غفر، وكانوا أخبرونا أن لا غفر علينـــا، ولأجل ذلك تغالينا في الكراء وقصدنا المسجد، وهو على طرف البلد، في هيئـــة الصعاليك نحمل بعض أمتعتنا على ظهورنا، ودخلنا المـــسجد واضـــطجعنا فيـــه للاستراحة، فلم يرعنا إلا خادم الكاشف جاء يطلبنا، و لم أدرِ لماذا، فمررت معه إلى أعوان الكاشف، فطالبوني بالغفر، فقلت له: إني اشترطته علَى الجمالين، وأنكر الجمالون ذلك، فلم يسمع مني، ودخلت إلى الكاشف في محله الذي هـــو فيـــه، فوجدت بيده سبحة يديرها، فقلت: عسى أن أصادف عنده فرجا، فإذا أقسى من جلمود، وقال لي: هذا مال السلطان لا يمكننا ترك شيء منه، وإن اشترطت أنت

شيئاً على الجمالين فخذه منهم، فلما أيست من خيره وخيرهم دفعت لهم أربعة قروش غير ربع بعدما هددونا بالحبس، وطالبوني بالغفر عن رجل من أصحابنا كان يخدمنا، فتعللت لهم بأنه فقير ليس عنده ما يعطي، فأدخلوه الحبس و لم يخرج منه حتى دفعت عنه ما ينوبه من الغفر، وبتنا تلك الليلة في نكد عظيم وغم أليم لما فعل بنا ولحقنا من المذلة والإهانة، و لم نعهد مثل ذلك قبل هذه الواقعة، ونزلنا هناك تحت أثل عظيم قريباً من البلد إلى أن كان بعد العشاء بقليل إذا بضجة في البلد وقالوا إن العرب جاؤوا لقتال الكاشف بسبب محبوس منهم كان عنده، فنقلنا حوائجنا من ذلك المكان إلى المسجد خوفاً علينا وأغلقناه على أنفسنا، وكنت قبل ذلك شرعت في قراءة أسماء يدعى بها على الظالم لما لحقنا من ظلم ذلك الكاشف وأعوانه، وأقبلت على تلاوتها بجد وجمع همة، فلما وقع من الضجة وأدى الحال إلى أن خفنا على أنفسنا أقلعت عما شرعت فيه وتركته وأعرضت عن ذلك خشية أن يترل به من عقاب الله ما يعمنا وإياه.

وبتنا في المسجد على حالة وجل إلى الصباح، فلما أردنا الخروج من البلد قرب الظهر أخبرونا أن من لم يأخذ معه كتابا من النصراني القابض بأنه قد دفع الغفر لا يتركه أهل الطينة[1] يدخل البلد، فذهبنا إلى النصراني القابض، فبعث معنا غلاما له إلى مشيد الطينة وهو اسم لمن يتولى القبض في الطينة، وكان حاضراً هناك في البلد إذ ذلك، وقال له إن هؤلاء قد أنقدوا ما عليهم فلا تتعرض لهم، وحينئذ ارتحلنا من قطيبة فلما خرجنا من البلد اعترضنا خيل أخرى وقالوا لنا: لا بد أن تؤدوا لنا غفر الطريق من هنا إلى الطينة فإن أمامكم بالرمانة عرب إن لم تؤدوا إلينا درهما لكل راكب سلبوكم، فأدينا ليهم. فسرنا بقية يومنا في رمال كثيرة، ومررنا ببلد الرمانة وهي ذات نخل كثير قد غلب الرمل على أكثرها فترى النخلة السحوق قد رسيت في الرمل حتى لا يظهر إلا جريدها، وهي مع ذلك في غاية الاخضرار والنعومة كأنها في أطيب تربة وأعذب ماء، و لم أرَ مثل نضارتها في جريدها واحمرار ثمارها واصفرار قنوانها، فتجتمع من تلك الألوان الناعمة هيئة عجيبة تسر الناظرين، ووقفنا هناك حتى صلينا العصر وشربنا من ماء فيها عذب، وسرنا و لم نصل إلى الطينة حتى قربت العشاء، ونزلنا بمسجد هناك مبني على ساحل البحر المالح يضرب موجه حيطانه، وبتنا فيه إلى الصبح، وجاءنا أعوان

---

[1] الطينة: بليدة بين الفرما وتنيس من أرض مصر: معجم البلدان: الطينة.

واليها يفتشون أمتعتنا هل فيه شيء من تجارة تُعطي عليه المكس، فلم يجدوا عندنا إلا قربتين جئنا بهما من بلد الخليل، فأعطينا عليهما درهما أو درهمين، فما أكثر المكوس بهذه السواحل وأقل العوافي، فلا كثر الله في بلاد المسلمين أمثالها، وعجل على ولاة الظلم بها بسبب أفعالهم وبالها آمين، و لم نبت في الطينة إلا ليلة واحدة، وهي قرية خبيثة لا دنيا بها ولا دين، وليس فيها ماء إلا ما يؤتى به في القوارب من سواحل النيل على مسافة يوم أو أزيد، وطلبنا فيها مركبا من دمياط فلم يتيسر لنا إلى الظهر، فاكترينا فيه بثلاثة فضة لكل واحد منا، وركبنا فيه في بحيرة من البحر المالح قد دخلت إلى ناحية البر كثيراً، وسرنا فيها بقية يومنا إلى الليل، وفي تلك البحيرة كثير من صيد البحر، وقد رأيت فيها الدابة المسماة عند البحريين بالدنفيل، ويقولون هي خنزير البحر، كبيرة الخلقة جافية تأتي إلى قرب المركب، وسرنا ليلنا أجمع فلما طلعت الشمس بدا لنا ساحل دمياط، و لم نصل إلى مرساها إلا قرب الظهر، فترلنا بها خارج البلد، واكترينا على جمل أمتعتنا ودخلنا إلى البلد بين أجنة كثيرة وبساتين مخصبة إلى أن دخلنا المدينة، وهي مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل ذات مساجد كثيرة وأسواق حافلة وخانات عامرة ومرسى عجيبة غصت بها السفن الكبار والقوارب الصغار فيها من أنواع الفواكه والثمار وصنوف الأطعمة ما لا يكاد يوجد في غيرها، وكان نزولنا بمسجدها الكبير، وهي مسجد وثيق البناء فسيح الفناء على ساحل البحر يضرب الماء في سورها، يتناول الشارب والمتوضئ الماء بيده من البحر وهو جالس في باب المسجد، وفي المسجد طائفة من الطلبة يقرؤون ويدرسون على هيئة ما في الأزهر، ولقيت بهذا المسجد الشيخ المدرس العالم العامل المحدث الراوية الشيخ عبد الله بن محمد السديري، وحضرت تدريسه بعد العصر في سيرة شيخه إمام المحدثين الشيخ علي الحلبي، وقرأت عليه أوائل البخاري ومسلم، وقرأت عليه الفاتحة، وأجازني وسائر الجماعة المذكورين في الاستدعاء، وسيأتي بقية خبره عند ذكر الإجازات.

وبتنا بالمسجد تلك الليلة، وكانت ليلة الجمعة، وأحيا أهله الليل كله بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذلك دأبهم في كل جمعة، فلما أصبحنا ذهبت لأنظر مركبا في المقايسة فإنهم يسافرون إلى مصر في كل جمعة ويوم اثنين، و لم أزل أضرب يمينا وشمالاً إلى قرب الظهر حتى لغبت[1] ودخلت أكثر جهات

[1] لغب: أعيا أشد الإعياء: لسان العرب: لغب.

المدينة، فلما صلينا ظهر يوم الجمعة خرجنا إلى المرسى فوجدنا قياسة صغيرة تسافر إلى منية عمرو، واكترينا منهم بثلاثة فضة لكل واحد، وسافرنا بعد الصلاة من دمياط، وسرنا بقية يومنا إلى العشاء وبتنا في بلدة قرب فارس كور، وهي مدينة كبيرة على ساحل النيل. وفي الغد سافرنا ومررنا بقرى كثيرة ومدن عديدة على ساحل البحر منها مدينتان إحداهما تسمى رأس الخليج والأخرى تسمى السرو متقابلتان وبينهما قتال على ما أخبرونا في غالب الأوقات، وسرنا يومنا إلى العشاء ومررنا بشربين وغيرها من المدن، وبتنا بإزاء قرية، وفي الغد جئنا إلى منية عمرو عند الزوال يوم الاثنين العشرين من ربيع، والله يسهل الطريق وييسر الرفيق، ويمن بالتوفيق ويزيل التعويق، بجاه كل نبي وولي وصديق.

وفي هذا اليوم مررنا بقرية، وأخبرنا النواتية أن كل من قال لهم أبو الحسن هل هو هناك ؟ شتموه وضربوه ويتأذون بذلك، وأنهم لا يتسمون بهذا الاسم ولا يذكرونه، وسبب ذلك قصة شنيعة، وقد ذكر لهم بعض النواتية عند مرورنا بهم ذلك، فجعل بعضهم يشتمنا وبعضهم يرمينا بالمدر إلى القياسة، وقد مررنا بامرأة منهم فقال لها صاحب المركب: يا حرمة أبو الحسن هل هو عندكم؟ فقالت له: هو عند امرأتك يؤنسها أيام غيبتك. ومررنا بقرية أخرى يتأذون بكلمة أخرى ولا أعلمها الآن.

ولما نزلنا بالمنية، وهي مدينة كبيرة فيها مساجد وخانات لم نجد بها مركبا يسافر، وضاقت صدورنا خوف التعويق، وسألنا هناك بعض من جاء من مصر، فأخبرونا أن الركب عازم على الخروج من مصر، فأقلقنا ذلك، وقد رأيت بهذه المدينة المشعوذ المسمى بو لهوان، وهو صبي صغير دون البلوغ قد ركب حبالاً على أعمدة وهو يمشي فوقها بقبقاب من حديد، فرأيت أمراً عجيباً وصنعاً غريباً ما رأيته قبل ذلك، ولما اشتد غمنا خشية التعويق أخرجت أوراقي ودخلت إلى المسجد، وكان على ساحل البحر، لأكتب شيئاً من تخميس البردة، فبينما أنا كذلك إذ سمعت مناديا ينادي: يا ماشي لمصر. فخرجت، فإذا بمركب كبير جاء من المحلة الكبرى ذاهبا إلى مصر، وهم يريدون من يحملونه معهم، فاكترينا منهم بثلاثة فضة لكل واحد، وقلت لأحد النواتية: انظر لنا محلا يخصنا ولك عندي قهوة، ففعل، وكان جلوسنا بموضع بإزاء نصارى في المركب، ولم تحصل لنا منهم إذاية ولا حصلت لهم منا إلى أن افترقنا بخير، وكان المركب جيدا ركبنا فيه قرب

الاصفرار وسرنا إلى قريب من الثلث الأول من الليل، ونزلنا وخرجنا إلى البر، ونمنا نوما قليلا إلى قريب من نصف الليل، فأقلعوا وسرنا بقية ليلتنا، وطاب الهواء آخر الليل وسائر اليوم، ومررنا أول ذلك اليوم بقبر الشيخ داوود الأعزب، وقرأنا له فاتحة، وذلك دأب البحرية كلما مروا بقرية فيها قبر رجل من الصالحين قرأوا له فاتحة، ومررنا بموضع يقال له كرش البقرة قد اتسع البحر فيه عرضا وبعد عن العمران فصارت المراكب تخاف فيه من اللصوص إن مرت هناك بليل يجتمع لصوص من ملاحي تلك النواحي فيركبون في زورق إذا جنهم الليل، فكل من استقبلوه في ذلك المحل وقدروا عليه سلبوه، وقد يسر الله علينا بطيب الهواء، فكان الخروج منه نهارا، ولم يأت وقت المغرب آخر ذلك اليوم إلا وقد أرسينا ببولاق، وهي مرسى القاهرة الكبيرة التي تجتمع فيها مراكب دمياط ورشيد والصعيد، وهممنا أن نبيت في المركب إلى الصباح، فاستخرت الله تعالى، فقوي عزمي على الخروج، وتجشمنا مشقة الخروج من السفينة بين العشاءين من الزحام الكثير من كثرة المراكب بحيث لم يتمكن لنا الخروج إلا على ظهور المراكب من مركب إلى آخر، وأصحابها يمنعوننا ويشتموننا، فلما خرجنا تعرضنا المكاسون، فلما لم يجدوا عندنا شيئا يعشر أخذوا يشتموننا، فأعرناهم أذنا صماء لأنها آخر ساعة لنا معهم، وكثيرا ما كنت أسمع صاحب المركب التي ركبنا فيها من دمياط يقول لمن في المركب إذا وقعت بينهم خصومة على مكان أو أمر غيره، اصبروا واعلموا أن السفر قصير، فنفعني الله بهذه الكلمة، وأثرت في، فكلما وقع لي في سفري أمر[1] يحرج الصدر تذكرتها[2] فيخف علي الأمر، ولقد صدق فإنما الدنيا كلها سفر لأنها ساعات تنقضي شيئا فشيئا، وما كانت ماهيته مركبة من الانقضاءات فهو أقصر من كل قصير، وإلى الله المصير.

ولما خرجنا من مرسى بولاق حملنا أمتعتنا إلى جامع السانية، وإليها يأوي فقراء المغاربة ببولاق، فأدخلنا حوائجنا فيها ووجدنا هناك بعض من نعرفه من المغاربة، فأخبرونا عن أصحابنا الذين خلفناهم وعن الركب أنه لم يخرج، فاطمأنت نفوسنا، وفي الغد اكترينا حمارين بنصف فضة لكل واحد، وركبت أحدهما وحملت على الآخر أمتعتنا، وجئنا إلى الأزهر بعد طلوع الشمس،

---

[1] في ط: شيء.
[2] في ط: تفكرتها.

واجتمعنا بأصحابنا وبالشيخ علي الدمشيتي، وطلبنا بيتاً للكراء فليم يتيسر لنـــا، وهممنا بالقعود في المسجد لقرب الوقت، فلم يخف علينا، فيسر الله لنا بيتا بسطح المسجد في الركن الشرقي، واكتريناه بثمانية فضة، وهو ضيق غاية، إلا أنا أدخلنا فيه حوائجنا، ولا يفارقه أحدنا ليلاً ولا نهاراً، وكنت أنا أبيت في المسجد إلى أن احتلمت فيه ليلة فشق ذلك علي، ولم أبت فيه بعد ذلك، ثم أخذنا في تهييء أمر السفر وشراء الإبل، ولم يتيسر لنا لقاء المشايخ إلا القليل، منهم الشيخ الميمـــوني ترددت إليه مرارا وسمعت عليه أوائل كل من أبي داوود والترمـــذي والنـــسائي والموطأ. ومنهم الشيخ سلطان، وسمعت عليه حديثاً واحداً من أول البخاري، وقال لي: أجزتك بالبخاري ومسلم، وانتهرني لضيق خلقه الذي جبل عليه، فعفا الله عنا وعنه، وقد كان من أفذاذ الرجال علماً وعملاً وزهادة، إلا أن شكاسة أخلاقـــه غطت على ذلك ومنعت كثيرا من الناس عن الانتفاع به، وقد ضاق صدري من انتهاره حتى كدت أن أجاوبه، فعصمني الله تعالى، مع أني ما قدمت على ذلـــك حتى استأذنته فأذن، إلا أني قلت له: أقرأ حديثا أو حديثين؟ فلما سمع الحـــديث الأول من البخاري ظن أني أريد أن أقرأ الحديث الذي بعده الطويـــل في بـــدء الوحي، فنهر[1]، وقال لي رحمه الله: حتى ترجع من بلادك.

ومنهم شيخنا المقرئ المحقق شيخ الإسلام الشيخ علي الشبراميلي رضي الله عنه، فما أغزر علمه وأوسع حلمه وأكثر احتماله وأجمل أفضاله، وهو والـــشيخ سلطان فارسي الإقراء وإمامي القراء بالقاهرة، وهما مع ذلك على طرفي نقيض في الأخلاق، وسمعت عليه أوائل كل من الكتب الستة وابـــن ماجـــة، وأجـــاز لي وللجماعة المذكورين في الاستدعاء بأسانيده الآتية عند ذكر الإجازات. ومنـــهم الشيخ عبد النور الشافعي من أصحاب اللقاني، أقعد فلازم بيته منذ زمان، سمعت عليه من أوائل الصحيحين. ومنهم الشيخ البابلي، سمعت عليه بعض الأربعة وبعض الموطأ وبعض مسند ابن أبي الدنيا وأجاز لي وللجماعة. ومنهم الشيخ عبد السلام اللقاني[2] أجاز لي وللجماعة وكتب لي خطه بذلك. ومنهم الشيخ أحمد البشيشي أجل تلامذة الشيخ علي الشبراميلي له قوة إدراك وحسن تصرف ومشاركة حسنة في كثير من العلوم إلى ما أعطى من سكون وتؤدة وحسن خلق، مـــا رأيـــت في

---

[1] في ط: فوجد.

[2] عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني، المصري المالكي، حافظ محدث مشارك، تـــصدر للتـــدريس بالأزهر، له ثلاثة شروح على عقيدة والده الجوهرة، توفي سنة 1078 هـــ: خلاصة الأثر 2:416.

مدرسي الجامع أعقل منه ولا أكثر تحقيقا، سيما العلوم المعقولة فهو فيهـــا آيـــة، قرأت عليه بلفظي دروساً من شرح المحلي على ابن السبكي، وحضرت مجالس في التصريح للشيخ خالد الأزهري يقرر تقريراً حسناً بسكون وتؤدة وتفهم وإنصاف. ومنهم الشيخ العالم العامل الناسك الورع المتقشف الزاهد المتعفف مدرس المالكية الشيخ محمد الخرشي، سمعت عليه أوائل كل من النكـــت الـــستة، وأجـــاز لي وللجماعة.

فهؤلاء الذين تيسر لي لقاؤهم في هذه الكرة لمزاحمة الأشغال وضيق الوقت، واستحثاث الركب للخروج، وكنت طول نهاري ذاهبا وجائيا في قضاء الأوطار وتهيئة أسباب الأسفار وشراء كتب، وقد يسر الله منها جملة اشتريتها نحو الخمسين من جملتها نسخة من الكشاف قرئت على العلامة الجرابردي، اشـــتريتها ليلـــة خروجنا بواسطة محبنا وأخينا الشيخ علي الدميتي[1] من عند رجـــل لـــه تعلـــق بالعسكر، واشتريت من مصر فرسا أنثى جيدة لركوبي، وقل ما بيدي من النفقة، فأسلفني صاحبنا الحاج أحمد العجين الطرابلسي مائة قرش حتى أبعثها لـــه مـــن طرابلس، فجزاه الله خيرا، ولم أطلب منه ذلك، وإنما كان هو الراغب فيه لحسن نيته، وسألته أن أشهد له بها علي، فأبى، وقلت له: أكتب لك بخطـــي وأتركـــه عندك، وحلف لا فعل شيئاً من ذلك، وأوصاني أن لا أخـــبر بـــذلك أولاده في طرابلس، وكنت رفعت له معي حوائج لأولاده، وكانت أمامنا بالقاهرة نحوا من أربع عشر يوماً.

غريبة:

قد وصل إلى القاهرة قبل خروجنا منها بأيام بريدٍ من الخاقان الأعظم ملك القسطنطينية يأمر بتزيين القاهرة سبعة أيام بلياليها سروراً بفتح مدينة عظيمة مـــن مدائن النصارى يذكر من أمر حكايتها وفخامتها أمر عظيم منها أنه يوم افتتحها وصلت إلى يده مفاتيح ثلاثين (قلعة)[2] عظيمة حصينة كلها من عمالة تلك المدينة، وكان فتح هذه المدينة على يد الوزير الأعظم مع عساكر السلطان، وأمده التتـــار

---

[1] في ط: الدمشقي.
[2] زيادة من ط.

بستين ألف فارس، والسلطان يومئذ مقيم بأدرن وقد غاب في سفره قريباً من السنتين، فلما وقع هذا الفتح العظيم كتب إلى جميع بلاد الإسلام التي في أيالته بخبر الفتح ويأمرهم بالزينة وإظهار السرور، فزينت الأسواق والطرقات، وتعطل البيع والشراء إلا ما يناسب ذلك من طعام ونحوه، وأوقدت الشموع طول الليل في سائر الأسواق والطرقات، وعلقت أستار الحرير والديباج في الحوانيت، ونصبت التصاوير الغريبة الشكل في الخانات وغيرها، وتفصيل ذلك يطول. فخرجنا من مصر صبيحة يوم الأربعاء السادس من ربيع الثاني فجئنا إلى مرسى بولاق فوجدنا الزحام على المراكب، وكان مترل الركب بعيداً بموضع يسمى القطعة على مسافة يوم، فلما رأينا الزحام على المراكب اكترينا مركبا خاصا لأنفسنا بقرشين، و لم يدخل معنا غيرنا فيه خشية معرة الحجاج وسوء أخلاقهم، فركبنا من بولاق ضحى وكانت معنا في المركب ناقة لبعض أصحابنا لم تألف البحر، فكادت تغرق بنا المركب مرارا كثيرة، كلما بدا لها موج البحر اضطربت، والمركب صغير، فيميل بنا، و لم نخرج من ذلك المركب حتى عاينا بعض ما يعاينه البحرية عند هيجان البحر، فوصلنا إلى مترل المركب بالقطعة بين العشاءين، ونزلنا مع أصحابنا الفاسيين، وأقمنا بالقطعة يوم الخميس ويوم الجمعة، وكان عزمي أن أذهب مع ركب أهل الجزائر رغبة في مرافقة سيدي يحي الشاوي[1]، وكان من فقهاء بلده ورفيقه سيدي المختار، وكان أيضاً من نجباء الطلبة فرغب في المرافقة كرغبتي أو أشد لمشاكلة الجنس ورجاء المذاكرة في بعض العلوم إن تيسر ذلك، فلما رأى أصحابنا المغاربة من أهل مراكش عزمي على ذلك جاءوني بأكابر الركب مستشفعين، فقبلت شفاعتهم وجلست، وكان في ذلك خير، فقد حمدت مرافقتهم وأحسنوا إلي وأجملوا العشرة.

ثم ارتحلنا من القطعة يوم السبت، وفي اليوم الرابع مررنا بالحوش عند الظهر، ووجدنا ركب أهل الجزائر نازلين فيه، وكان بينهم وبين المغاربة الجوانين تنافس، فلم يترلوا فيه، وسرنا يومنا وفي الغد انحرفنا يسيرا مع السبخة لأن الماء غمرها فلم يتمكن قطعها إلا من أعلاها، وبتنا قريبا منها، وفي الغد قطعناها من أعلاها من مقابلة البوصير[2]، ورجعنا إلى الاسكندرية مشرفين فترلنا خارجها عشية يوم

[1] أبو زكرياء يحيى الشاوي، تولى التدريس بالأزهر، ثم ولي إمارة الحاج المغربي وحج بالركب مرتين: نشر المثاني 2:376.

[2] بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، منها بوصير قوريدس؛ ولعلها المقصودة: معجم البلدان: بوصير.

الخميس بالمحل المعروف لنزول الركب عند باب السدرة من أبوابها، وبه ينزل المغاربة ذهابا وإيابا نسأل الله السلامة آمين. وتقدمت أمام الركب وسرت كما أنا إلى أن نزلت بباب مشهد القطب الشهير الولي الكبير الشيخ سيدي أبا العباس المرسي ودخلت، فلما رآني خادم المشهد الشيخ باكر بن سالم عرفني، وكنت أتعجب من ذلك مع كبر سنه وطول غيبتي عنه نحو العشر سنن، وزرت الشيخ رضي الله عنه، وزرت تلميذه سيدنا ياقوت العرشي، وكان لقبه الحبشي لأنه من الحبش، فيذكر أن الشيخ قال لهم: إنما هو العرشي لا الحبشي، فجرى عليه العرشي، وزرتُ أيضاً الإمام أبا عمرو بن الحاجب رضي الله عنه في ذلك اليوم، ورجعت إلى الركب ووجدتهم قد نزلوا، ولم أزل أتعاهد زيارة الشيخ كل يوم مدة إقامتنا، وكانت سبعة أيام، وبت عنده ليلة الاثنين وليلة الجمعة التي ارتحلنا في صبيحتها.

لطيفة:

جئت يوما لزيارة الشيخ رضي الله عنه فلما جلست بين يديه وأخذت في الدعاء لي ولإخواني ومشايخي، وعندما شرعت في الدعاء لشيخنا أبي محمد عبد القادر الفاسي رضي الله عنه لحقني أمر ما كنت أعهده من نفسي قبل ذلك، وحضرني من الخشوع والأدب ما الله عالم به، حتى خيل لي أن شيخنا أبا محمد حاضر هناك، فعلمت بذلك أن شيخنا، ولله الحمد، ممن تحقق بحال الشيخ وسلك على قدمه وورث علومه، ومن علم أحوال الشيخ المرسي وأحاط خبرة بكلامه وسيرته وشاهد ما عليه شيخنا وهديه علم صحة ما ذكرنا.

غريبة:

ذهب بعض أصحابنا يوم دخولنا إلى الإسكندرية لزيارة الشيخة الصالحة الست نعيمة مستعجلين، وكانت نية أهل الركب أن لا يقيموا بالإسكندرية إلا يومين أو ثلاثة، وعندما دخلوا عليها قالت لهم: أنتم تقولون نقيم يومين أو ثلاثة، لا بد لكم من ستة أيام أو سبعة، فاستبعدنا ذلك غاية، فقلت لأصحابي: من هنا

يظهر لنا صدقها أو خلافه. فكان الأمر كما قالت، أقمنا نحن سبعة أيام، وأقام الركب الجزائري ستة أيام، وقد استفاض على ألسنة الحجاج كثيراً من المكاشفات منها، وقد زرتُها مرتين فلم أرَ شيئاً من ذلك، والله أعلم بحقيقة الحال، والغالب أنها من أهل الأحوال، وقد أخبرتنا أن عمرها مائة وأربع سنين وأربعة أشهر، وقالت: لا أدري هل أصل إلى رمضان أم لا؟ ومن جملة ما قالت لنا إنَّ الغرب الآن في هذا الوقت أحرش ولا تصلون إليه حتى تجدونه في خير كثير ولا وباء فيه. وقالت أيضا: إن الدولة العثمانية قد انقرضت لظلم أهلها، وأن السلطان يأتينا من وراء فاس يبطل المكحلة والكابوس والمدفع، ويمشي الذيب مع النعجة في كلام كثير لا أحفظه، إلا أن بعضه مصادف للواقع، وبعضه الله أعلم بمرادها فيه. وقالت لنا أيضا: إن الركب لا خوف عليه فإن أهل الشرق من أولياء الله[1] تكفلوا به حتى يوصلوه إلى سيدي أحمد زروق، ومن هناك يتكفل به رجال الله من أهل الغرب، وما رأينا في الطريق، والحمد لله، إلا خيراً، مع ما كنا نتوقّعه من الشرور والمحن في الطريق لقلة الركب مع اختلاف أهواء أهله، والله المستعان.

ومدينة الإسكندرية من أمهات المدن المذكورة في الدنيا، وهي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام، وبها كان المقوقس الذي كان في زمانه عليه السلام، وناهيك بفخامة ملك بانيها الإسكندر وشهرته واستيلائه على الممالك، وقد ذكر المؤرخون أخباره وأخبار بنائه لهذه المدينة وكيفية بنيانها، وأنه جعلها مدينتين أحدهما تحت الأرض، والأخرى فوقها ظاهرة، وأن الماء يجري من النيل أيام فيضه حتى تمتلئ السفلى، ويستقي من العليا من تحتهم، وآثار ذلك باقية إلى اليوم.

ومن عجائبها العمود المشهور بعمود السواري، وهو باق إلى اليوم ماثل في الهواء تحار الأفكار في صنعه، وقد زعموا أنهم كانوا قبل ذلك أربعة وفوقها قبة. ومن عجائبها المنارة المشهورة، إلا أنها الآن داثرة و لم يبق منها شيء، وقد سألت صاحبنا الشيخ باكر عن محلها، فأخبرني أنه في البحر، وأن البحر استولى على أكثر المدينة. قال: وقد شاهدنا الآن رسوماً بأيدي الناس فيها شراء دور وحوانيت وفناديق حول المنارة، وكل ذلك قد استولى عليه البحر الآن و لم يبق منه بقية، وقد كنت أتعجب مما ذكر المؤرخون من فخامتها وعظمها، و لم أرَ بعض البعض، فلما ذكر لي صاحبنا ذلك علمت أن البحر هو الذي أزال أكثر رسومها.

---

[1] في ط: أولياء الله من أهل الشرق.

لطيفة:

أخبرني صاحبنا الحاج باكر أن السلطان سليم العثماني لما دخل الإسكندرية بعد مجيئه من مصر طلع ذات يوم إلى كوم مشرف على البلاد وجاءه أهل الإسكندرية وقالوا: يا سلطان، إن بلدنا هذا قد استولى عليها الخراب كما ترى، فنريد كمال جودك أن ترحمنا وتصرف نظرك إلى عمران هذا البلد فإن مكانته من مدائن العالم معروف، فعسى أن يرجع إلى بعض حاله الأول على يدك. قال: فسكت عنهم ساعة وهو مطرق، ثم رفع رأسه إليهم وقال لهم: إن هذه البلدة قد نظر إليها الحق وقال لها: كوني كذا، وأنا لا أقدر أن أعمر ما أذن الله في خرابه، فانصرفوا عنه.

قلت: لقد نظر هذا الملك نظرة عارف، وغاص بفكره الفائق في دقائق حكمة الله الجارية في مملكته، فكأنه نظر إلى ما اشتملت عليه هذه المدينة من المرافق الدنيوية واكتنافها من أسباب العمران مع توسطها في الممالك الإسلامية، وجمعها بين الأسباب البرية والبحرية، والأجناس البدوية والحضرية، فبابها الشرقي متصل بأرياف مصر التي هي مزرعة الدنيا التي لا نظير لها، وبابها الغربي متصل ببادية برقة الفاصلة بين بلاد المشرق والمغرب، فلا بادية في الدنيا تدانيه في اتساع الأقطار وطيب المرعى وصحة الهواء، وبابها البحري مقابل لأرض الروم التي منها تجلب البضائع النفيسة، فإذا كانت بهذه الحيثية، فأسباب العمران متوافرة بها، فلا موجب لخرابها إلا إرادة الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه، فإذا كان خرابها بكلمة كن من الله فلا مطمع للعبد في عمران ما أذن الله في خرابه. ولعمري إن هذا لنظر مصيب وفكر عجيب، ولا عجب في ذلك فإن السلطان سليم رحمه الله كان معروفا بأصالة الرأي وثقابة الذهن وجودة التدبير في المملكة، وبه فخمت دولة بني عثمان، وهو المستولي على الممالك الشامية والمصرية والحجازية وما انضاف إليها من البلاد.

ومن المزارات التي زرناها بالإسكندرية قبر الإمام الجامع بين العلمين الشيخ أبي بكر الطرطوشي، رضي الله عنه، وهو من المزارات المشهورة بالإسكندرية. ولقد أخبرنا شيخنا العلامة أبو بكر السكتاني رضي الله عنه لما زرنا معه هذا

المشهد سنة ستين وألف بحكاية من كرامات هذا الشيخ. قال: لما استقر الطرطوشي آخرا بالإسكندرية وتصدى بها لنشر العلم وانتشر صيته، وشى به بعض الحساد إلى سلطان مصر في وقته، فبعث إليه (فلما وصل إليه)[1] وأراد إهانته، فدعا عليه الشيخ، فانتفخ حتى صار كالزق، فبعث إلى الشيخ يتنصل ويعتذر إليه ويطلب منه أن يدعو له، فقال الشيخ: لا أدعو له إلا أن يعطيني جميع ملكه، فأعطاه جميع ملكه، فذهب الشيخ ودخل عليه وضربه برجله فضرط الملك وزال ما به من النفخ، فقال له الشيخ: أف لك ولملكك الذي قيمته ضرطة، كيف ينبغي لعاقل أن يرغب فيه، قد رددناه عليك، فخرج الشيخ وقد عظمت مكانته عند الملك من يومئذ.

ومن المزارات أيضاً مشهد سيدي علي البدوي، رضي الله عنه، ومنها قبر الخزرجي، منسوب[2] مشهور هناك بنسبته، ولا أدري هل هو صاحب المنظومة في العروض أم غيره؟ وبإزائه قبر الإمام الفاكهاني. ومنها قبر الشيخ الصالح سيدي عبد الرزاق أجل تلامذة سيدي أبي مدين، رضي الله عنهما، وأجل من نشر طريقه بعده وأخذها الناس عنه، وقدره بين أهل الطريقة معروف. وزرنا قلعة أبي الحسن الشاذلي التي كان يأوي إليها هو وأصحابه، وهي قلعة كبيرة في سور البلد الشرقي فيها بيوت متعددة، والطائفة الشاذلية، رضي الله عنهم، إلى الآن يأتون في ليلة معلومة في السنة ويبيتون بها ويطعمون ويذكرون الله تعالى ويقرؤون ثم يفترقون من هناك إلى مثل ذلك الوقت في السنة الأخرى.

ومن المزارات قبر سيدي أحمد المناري، وهو مشهور البركة، وسبب تسميته بالمناري فيما أظن على ما أخبرني به الشيخ باكر أنه ذهب مع الشيخ المقري لزيارته وأخبره أن سبب تسميته بذلك أنه قدم البلد ومعه حمارة له، وقال لهم: أين أبيت؟ فأشاروا كالمستهزئين به إلى المنارة فقال: باسم الله وصعد بحمارته إلى أعلاها، فاجتمع الناس (إليه)[3] ينظرون متعجبين، وهذا قليل في حق أولياء الله تعالى ولست على يقين في الحكاية لطول العهد. وقد أخبرني صاحبنا المذكور أيضا أن الشيخ سيدي علي الأنصاري لما قدم الإسكندرية وزار مزاراتها فلما خرج إلى

---

[1] ساقط من ط.
[2] ساقط من ط.
[3] زيادة من ط.

الباب وشيعه أصحابه من أهلها جعل يمرغ وجهه في بابها ويقول لهم: ادعوا لي هنا فكم من ولي وصديق من هذا المكان. قلت: والشيء بالشيء يذكر أن الشيخ الأنصاري قد اقتبس ذلك من كلام شيخه سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، فقد ذكر لي بعض أقاربه أنه كان يقول لهم: إذا ذهبتم لزيارة الشيخ أبي يعزى ومررتم بالطريق السلطانية التي تمر من فاس إلى مراكش فقفوا عندها واقرأوا الفاتحة، فكم مَرَّ بها من ولي وصديق. ولا شك أنه مر بباب الإسكندرية أكثر مما مر بتلك الطريق (بأضعاف مضاعفة لأنها من أول الإسلام إلى الآن دار إسلام يقصدها)[1] الواردون والصادقون من أقطار الأرض. وأخبرني أيضاً صاحبنا أن الإسكندرية كانت في قديم العصر لا توجد فيها كناسة ولا قمامة في طرقها وأبواب دورها لطلسم كان في بيت عند باب البحر مغلق، ففتح بعض الملوك ذلك البيت فوجد فيه تمثال رجل مشمراً بيده مساحة من حديد، فبطل الطلسم من يومئذ.

لطيفة:

لما دخلت مشهد الشيخ أبي العباس المرسي، رضي الله عنه، وجدت القصيدة التي بعثتها عند ذهابنا ملصقة بالجدار القبلي بإزاء المحراب، وحولها قصيدة لي أخرى كتبتها هناك سنة أربع وستين، وبإزائها قصيدة الشيخ الأديب الهمام محمد الحافظ ابن جمال الدين المقدسي القاضي بالبهنسا أمتدح بها الشيخ رضي الله عنه متوسلاً به إلى الله في قضاء مآربه لما مر بالإسكندرية قاصداً إلى بلاد الروم، فخشي معرة البحر، فكتب القصائد وألصقها هناك مع قصائدي، ولنذكرها متبركاً بأنفاس من مدح بها الشيخ رضي الله عنه، وهي هذه:

[خفيف]

ما على من أتَى هُنا من بَاسِ ... لابِسا بالرجا أجَل لِباسِ
رافِعَ الكف خافض الطرْفِ ذُلا ... طالبَ الفيضِ من أبي العباسِ
غبت في الحُسن عن شُهود سواه ... فلذا زالَ بالفنا إحساسي

[1] ساقط من ط.

أنــــا لعَمــــري عبــــدهُ وفتــــاه لم أزلْ واصِــــلا بــــه أنفاسِــــي

أنا منــهُ مــدى المــدى مُــستمد أنا من غرسِــهِ ســقيتُ أغراســي

فضلهُ عــم في الوجــودِ وجــودي وعلاني وفاضَ مــن فــوق راســي

عَــز مــن جــاءَ بانكــسارِ وذل لمقــــام بــــه تُقــــامُ الكراســــي

هــو حَــي بــه[1] الحيــاة لمَيْــت لعــــلاه يــــذل صَــــعب المــــراسِ

يا مدارَ الوُجودِ يــا أيهــا القُطــــ ــــبُ احفظ العبدَ من أذى الأرجاسِ

جاء للبــاب خاضِــعا مُــستجيرا باســـطا كــف حاجــة والتمــاسِ

فــــسلِ الله أن يَقيــــهِ ببحــــر كــــل ريــــحِ مُخــــالف وعــــاسِ

واســــألِ الله أن يحلــــهُ فــــضلا بمحــــــل مُشعــــــشع النــــــبراسِ

لا تكلــهُ لــصبرِ قلــب ضَــعيف حــال كــرب ولــذة وافتــراسِ

ها يدُ الفقــير والتــضرع مُــدت لمقــــام سمــــا بحُــــسن أســــاسِ

أيها الغوثُ أنــت غَيثــي وغــوْثي فاحْم من جاس للحمى مــن بــاسِ

أنت مَرسى بحــر شــرق وغــرب مركبُ العبــدِ عنــد بابــكَ راسِ

قدم العبدُ عــرض حــاج ويرجُــو منك في الحــالِ رفعــة القرطَــاسِ

ســـــبقتني إلى الأمَـــــاني أُنـــــاس هم وحوشٌ على صِــفات الأنــاسِ

مــس هــام العــلا أشــل أيــاد مــا لــهُ بالكمــالِ أدنى مــساسِ

إن هذا الزمــانَ مــا زال يــسقي كأسَ غدر لكل مــن هــو كَــاسِ

هــل جميــل بــأن مثلــي يُقاســي كل هولِ مــا إن لــهُ مــن قيــاسِ

ولهذا الجنــابِ أضــحى انتــسابي وبــه الفخــرُ لي علــى جُلاســي

---

[1] في ط: له.

أنــــزل العبـــدَ في ســـفينة أمــــن | وأفرج الكرب قبل رجـــفِ الميــاس
واجبر الكسر واكفهِ الأسرَ والحَــر | ق والغـــرق بـــأر رب النـــاس
وأعـــــدهُ إلى الـــديارِ ســـريعا | بــالمُنى والهنـــا وحفـــظ الحــواس
وعليك السلامُ مــن عنــد عبــد | في رحاب الوفــودِ ألقــى المَراســي
ما سقى العــرض المتــونَ رياضــا | بـــاهرات بفيـــضها الميــــاسِ
وتــــلا حـــافظُ الزمـــانِ مقـــالا | ما على من أتـــى هُنـــا مــن بــاسِ

وله أيضاً (رحمه الله)[1] دالية وهي هذه:

[خفيف]

سَيدي ســيدي شِــهابَ الوُجــودِ | احفظِ احفظْ من الهــلاكِ وجــودي
حافظ العهد مُــن لــست أنــادي | أنـــا واللِـــه حـــافظٌ للعهـــودِ
أيهـــا القطـــبُ أيهـــا الغــوثُ إني | ممن يريبـــكْ بــينَ أهــلِ الــشهودِ
أنـــا مـــن جُملـــة العبيـــد لبـــابِ | فيه صُفتْ صُفوفُ أهــلِ الــسجودِ
أسعدِ اسعدْ ببحـــرِ ســـعدكَ عبــدا | لم يزل منـــك في مَراقـــي الـــسعودِ
أيها البحرُ حـــافِظ الــدين أهــدي | دُر فكــــرِ مُكلــــل للعقــــودِ
هُو من بحركَ الــذي قــد تــسامى | أيها القطبُ عن جهـــات الحـــدودِ
بحـــركَ العـــذب في المـــواردِ وردي | وارتـــشافي مـــن بحـــرك المـــورودِ
أجزل الله خـــيرهُ طـــولَ عمـــري | في ذهـــابي وعـــودتي وقعُـــودي
رب عَجـــلْ بجـــاهِ قطبـــك هـــذا | ما أُرجيـــهِ منـــك مـــن مقـــصودِ

وله أيضاً رحمه الله عنه سينية:

---

[1] زيادة من ط.

[طويل]

أيا سالِكا بحــرَ الحقيقــةِ والحــس | ويا داخلا في جوفِ حوباء كالحبسِ
إذا ما خشيتَ البحرَ يومــا لهولــهِ | وخفتَ على الحالِ النفيسِ مع الــنفْسِ
وأوثقتَ حبلَ العزمِ والحــزم طالِبــا | ركوبَ الجواري المُنشئات على الأس
فلذْ بأبي العبــاسِ وانــزل برحبــهِ | وقل يا غفيرَ البحر يا أحمد المرســي
أغثنا أغثنــا في الــشدائدِ واحمِنــا | من الأسرِ واحرسنا من العكسِ والــنكس
وسلم بأسمــاء الــسلام وجودهــا | من الكسرِ واحفظها من الغمس والطمسِ
وقفنا على أعتابِ فــضلكَ نرتجــي | فِداك وعفرنا الخدودَ على الــرمسِ
لنا فيك يا قطبَ الوجُــود عقيــدة | براهينُها في ذروة الصدق كالشمسِ
فكم لك من فــضلٍ عَمــيم ومنــة | على راكبِ القاموس في حالة اليأسِ
على بابك المرفوع يا أحمد المُرســي | عُبيدكَ راجي فيضك الحافظ القدسِ
نوى سفَرا للروم من بَاب فيــضكم | فكونوا له في اليَم كالدرع والتــرسِ
أفيضوا عليه من سحائبِ فــضلكم | ليعلوا قهرا على النــوع والجــنس
ويسمُو على الأقران في كل مطلَب | ويدرس أهل الحقدِ بالعلم والــدرس
فيا خالق الأرضينِ يا مُوجد الــورى | ورب السما والروح والعرش والكرســي
إليــكَ توســلنا بحُرمــة شــيخنا | وأستاذنا المعلومِ للعــرب والفُــرس
أنلنا المنى من غــير كــد ولا عَنــا | بمصر العلا من دُون نقص ولا بَخس
وعجل بعَوْدِ العبــدِ للثغــرِ آمنــا | من السوءِ في اليوم الجديد وفي الأمسِ
ألا يا أبا العباسِ يــا مــن لــصادق | كبِشر وللأعداء يُعــزى إلى عــبْسِ
عرضنا بروض الصدْق في سَاحة الصبا | فروعا وهذا الزهرُ من ذلك الغــرسِ

فرَوي بماءِ الفـيض قلبـا مقدسـا وروضا بقدس الأنس في غاية الأنسِ
فيا سندي بحـرا وبـرا وعُمـدتي ويا سيدا شرفتُ من مدحهِ نفـسي
سفينةُ هذا العبـدِ في كـل حالـة على بحركَ المحروس يا سيدي تُرسي
وقد حِرتُ في أمري وضاق تَصَبري وضاق عليَّ الحال في عـالم الحـس
وكرتْ خيولُ الهم من كل جَانـب وأصبحتُ في وهْم وأمسيتُ في حلسِ
ولا علـمَ لي أي المراكـب سـالما فأركب فيهِ سالما من ذوي الـرجسِ
وأنـت بعلـمِ الله تعلـمُ ذا وذا وتعرفُ وقتَ السعدِ من ساعة النحسِ
فعـرفْ مريـد الحـي أي سـفينةٍ يُسافر فيها سـالمَ المـال والـنفسِ
وسلْ لي من الرحمن حفظـا ورحمـة فأنت قريبُ القلبِ من حضرة القدسِ
وقد قدمَ القدسيُّ حـافظ عهـدكم قصيدتهُ والقصدُ في داخلِ الطـرسِ

هـ.

ومن المزارات بالإسكندرية زاوية لأبي محمد صالح يترلها المغاربة ولهم فيهـا أوقاف وفيها سلاح معلق يتبركون به يزعمون أنه من سلاح الصحابة الذين فتحوا المدينة، ولا أصل لذلك.

ومن المزارات أيضاً مصحف كبير بجامعها الكبير يزعمون أنه من المصاحف التي بعثها سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الآفاق، ولا يصح نسبته إليه. ومن مبانيها العجيبة التي لا شبيه له في الدنيا حمامها الكبير فقد أثنى عليه الأطبـاء وذكر المؤرخون أنه انفرد في سعته وحسن شكله وفخامة بنائه عن غـيره مـن حمامات الدنيا، وقد خرب غالب المدينة ولم يبق إلا عمارة قليلة حولـه، وقـد تحولت العمارة في هذه الأزمنة إلى خارج المدينة مما يلي بابها البحري بينه وبـين البحر، فهناك معظم أسواقها وخاناتها حول المرسى. وبالجملة فهي عقيلة الـبلاد الحائزة للطريف من المحاسن والتلاد، عقيلة أبلى الدهر شبابها ومزق جلبابها، وأكل لبابها، ولم يترك إلا أسوارها وأبوابها فقد نبت الكلأ والعشب في أفنيتها، وعَشَّش البوم في أبنيتها، تسير فيها نصف الميل أو أكثر ماشياً ولا تلقى ذاهباً ولا جائيـاً،

فهي عبرة لمن اعتبر، ومزهدة في الدنيا لمن تدَبَّر، وأوفى حجة على منكري الفنـــاء الأكبر، تخبر أطلالها البالية بأخبار القرون الخالية، و لم يبقَ من غرائب آثارها الدالة على فخامة ملك عمارها إلا العمود المسمى بعمود الصواري المسالم للعوادي من آفة الدهر والطواري، وهو عمود واحد من حجر ماثل في الهواء لا يمل في أرضه من التواء، من فوقه حجر مُرَبَّع مثل الكرسي الذي تحته دورةَ نحو الثلاثين ذراعاً ما رأينا أعجب من طول العمود وفخامته، ومن وضع ذلك الكرسي فوق هامته أي قدرة من قدر البشر تبلغ ذلك؟ وأي حيلة أو سبب يوصله إلى هنالك يرى مـــن أمكنة بعيدة كالنخلة السحوق، وقد زاحم بمنكبه الجوزاء والعيوق، وبالجملة فهو من مباني الدنيا الغريبة ومن مآثر هذه المدينة العجيبة.

ذكر ارتحالنا من الإسكندرية متوجهين إلى المغرب في كفالة الله ورسوله وحماية أوليائه

كان ارتحالنا من الإسكندرية يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الثاني بعدما تزودنا واكترينا، وكانت رفقتنا مع ركب المراكشيين، وقد أحسنوا بنا، فجزاهم الله خيراً، ورحل ركب الجزائر قبلنا بيوم، وتخلف عنهم هناك فقيههم سيدي يحيى الشاوي[1]، (وكان معه أهله)[2] فاستهول المشي في البر، وشق عليه قطع مسافة برقة مع استقبال أيام الشتاء وشدة البرد، فاختار ركوب البحر، وكان ذلك لأمر أراده الله به، فإنه دخل إلى الإسكندرية بعد ارتحال الركب ينتظر سفر البحرية، ثم بدا له في الرجوع إلى القاهرة في تلك السنة، فلما وصلها اعصوصب[3] عليه جماعة من طلبة المغاربة بالأزهر للتدريس، فطار له صيت عند المغاربة إلى أن توصل لأرباب الدولة، فتولى قضاء المالكية وعزل عنه الشيخ عمر فكرون[4]، زاعما أنه يجور في الحكم ويداهن بأخذ الرشا، وترقت به الحال إلى أن تولى إقامة الحاج المغربي، وحج بالركب مرتين، وانتشرت القالة فيه، وكثر مادحوه، وأكثر منهم ذاموه، وكان من أذكياء الطلبة النجباء، له معرفة حسنة بعلم النحو ومشاركة في غيره، مواظب على التعلم والتعليم، إلا أن الرئاسة إذا سكنت قلب إنسان لا تقصر به عن ذهاب رأسه، نسأل الله العافية آمين.

ثم استقبلنا بادية برقة المتناهية الأطراف المخوفة الأكناف، الضاحية الأرجاء، البعيدة الأنحاء، القليلة المرعى، المجهولة المسعى، نقطعها مراحل، ونرِد فيها المناهل في أيام الشتاء القصيرة ولياليها المستطيلة المستطيرة، نقطع المرحلة منها في يومين،

---

(1) أبو زكريا يحيى الشاوي، فقيه مشارك له حواشي على الصغرى، اشتغل بالتدريس في الأزهر، تولى إمارة ركب الحجيج المغربي وحج به مرتين، توفي سنة 1096 هـ: خلاصة الأثر 4:486. التقاط الدرر، ص: 250.

(2) ساقط من ط.

(3) اعصوعب: استجمع: لسان العرب: عصب.

(4) تقدمت ترجمته.

كأننا نسير على أجفان العين، لا نتحقق ارتفاع الشمس في الأفق إلا وقد مالت للأفول، ولا يزمع رائد الارتحال إلا وقد آن بالقفول، فطالت لـذلك المـسافة، وعظمت لقلة الزاد من الجوع المخافة، طاولنا مراحلها بالتجلد فطالت، وداولنـا تقصيرها بالسوْق العنيف فما حالت.

وفي اليوم السادس من رحيلنا من الإسكندرية مررنا بمورد الجميمة ضحى، ونزلنا بعيدا منها، فأصابتنا هناك سماء منعتنا من الرحيل بعدما رمناه، فتعذر بكثرة الوحل حتى تكسر بعير لدليل الركب، فأقمنا هناك يومين كأنـا علـى الجمـر قاعدون، وبسبب التعطيل مع الانزعاج متواعدون. وفي اليوم العاشر طلعنا العقبة الصغيرة، والمسافة بينها وبين الإسكندرية نحو من أربع، ولقينا هناك قافلة امتاروا تمرا من بلاد سِيوى، فاشترى الناس منهم حاجتهم من التمر، وتمر هذا البلد أحسن تمر رأيناه في بلاد المشرق حلاوة ونقاء وكبراً تشابه تمر سِجلماسة، يحملونـه في مقاطف صغار من عسب النخل تسَع كل واحدة أزيد من ربع القنطار، ويبيعونها كذلك بأوعيتها، وأخبرونا أنها لا تباع في بلادها إلا كذلك، فمشتريها لا يحتاج إلى حبال للشد ولا غرائر للحمل، بل يشتري حاجته منها فيعلقها على بعيره، فمن الإبل ما يحمل العشرين فما دون.

ثم سرنا فيما بين العقبتين بمثل سيرنا الأول نرد المناهل الـتي ذكرناهـا في الذهاب، والأرض مجدبة كأنها لم تكن قبل ذلك[1] مخصبة قد أطارت الرياح ما فيها من الهشيم، ويبس أوراق الشجر بترادف البرد العقيم. وقطعنا ما بين العقبتين في عشرة أيام، وطلعنا العقبة الكبرى في اليوم العاشر، ولم يتزود الناس من الماء يـوم طلوعنا، ظنا منهم أن الماء يجدونه لكثرة الأمطار وخبر العربان، فلمـا طلعـوا لم يجدوا من الماء إلا شيئاً قليلاً في ماجل فوق سطح العقبة، فترحوه فمـا قـارب كفايتهم. وفي الغد، وهو يوم الخميس، ظل الناس سائرين خائفين من العطـش كلما رأوا نشزا[2] من الأرض الحمراء تسابقوا إليه، والخبير أمامهم وهـم بـأثره كأجود الخيل إلى المغرب، فلم يجدوا ماء ولا سمعوا له خبراً، ونزل النـاس بعـد المغرب في صحصاح[3] من الأرض لا ماء به ولا كلأ، وذهب الدليل وحده يطلب

---

[1] في ط: كذلك.
[2] النَّشْزُ والنَّشَزُ: المتن المرتفع من الأرض، وهو أيضاً ما ارتفع عن الوادي إلى الأرض: لسان العـرب: نشز.
[3] الصحصاح: ما استوى من الأرض: تاج العروس: صحص.

الماء، وظن به أكثر الناس السوء، وزعموا أنه قال لهم: إن لم أجد الماء فلا أرجع إليكم، وهو في ذلك مصيب، فإنه إن رجع إليهم بغير ماء قتلوه بلا شك، وبقي الناس في حيرة، كل واحد يزجر طيره ويسأل عن تفريج كربته غيره، فلما كان بعد العشاء الأخيرة جاء الخبير وأخبرهم أنه وجد الماء، فمن الناس من صدق ومنهم من كذب، وكانت معنا فضلة ماء تقسطناها شربا و لم نطبخ عشاء، وادخرنا فضلة منها لغد خوفا من عدم وجدان الماء، ولولا أن الفصل فصل برد أوائل دجنبر لهلك بعض الناس عطشاً.

فلما أصبحنا استبق الناس إلى الماء فوجدوا ما كفاهم من ماء المطر في مسيل وادي ذي أحجار لم يمر عليها الركب الذي أمامهم، فأخذ الناس منه حاجتهم وساروا.

لطيفة:

لما أصبحنا في ذلك اليوم بعثت أحد[1] أصحابنا إلى الماء مع السيارة المتقدمين، وكان معه مفتاح قيد من حديد على فرسي، و لم أشعر بذلك إلى أن طلع النهار وارتحل الناس، فتفقدت المفتاح و لم أجده، وأعيتنا الحيلة في فتح القيد إلى أن خرج الناس من المترل ويئست من انفتاحه، فلما حصل الاضطرار جاءت الاستغاثة من الملك الجبار، فحركنا الفرس فطار القيد من رجليها من غير صنع أحد، فحمدنا الله كثيراً وكبَّرناه تكبيراً، وسرنا بقية ذلك اليوم. وفي الغد منه نزلنا إلى البطنان، فترلنا في أرض سهلة مطمئنة، وسرحت الإبل قرب المترل، وعندما اختلط الظلام عدا بعض متلصصة عرب هنادي على فرس لبعض الحجاج، فركضها من فناء الخيام، فركبنا وتبعناه فلم نقع له على أثر، وحال الظلام بيننا وبينه، ثم بلغ الخبر إلى شيخ الفريق الذي هناك من الهنادي، وجاء بالليل إلى شيخ الركب واعتذر له وبعث إليها من جاء بها من أهلها، فواعدوه بكسوة فلم يوفوا له بما وعدوا، وتلك شيمة في حجاج المغاربة يكادوا أن يعاملوا بمثلها، والله يلطف بالعباد.

---

[1] في ط: بعض.

وفي الغد نزلنا ظهرا على ماجل كبير في البطنان يوم الأحد حتى سقى الناس إبلهم واستقوا وأقاموا بقية يومهم، والله الحفيظ (فهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين)[1].

ثم في الغد نزلنا قرب المكان المُسَمَّى بالمدور، وهو مكان فيه مآجل للماء قل ما تخلو منه إلا في السنة المجدبة، وفيه مزارع ربما مررنا بها، وفيه زرع كأجود ما يكون.

ثم في الغد نزلنا على البسيط الذي يمر منه إلى عين الغزالة، ثم في الغد مررنا على يمين الطريق فوق الجبل المستطيل بين الطريق والبحر بماجل فيه ماء كثير، واستقى الناس منه، ولم يمر الركب به أجمع وإنما مر به من قصده للورود، وكنت جُنُباً وكان اليوم شاتياً، فكنت أسال الله أن ييسر لي الاغتسال، فوجدت ماجلاً مهدوماً ودخلته أنا وصاحب لي، وأورينا ناراً وسَخَّنا الماء، فاغتسلت في مكان أشبه الأمكنة بالحمام دفئاً، بحيث لا أحس بشيء من البرد مع شدته، فحمدت الله كثيرا وشكرته، ومررنا يومنا على يسار عين الغزالة، وهي ماء فيه ملوحة تسح من سفح الجبل وتصب في بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح يحف بها القطب[2] والعريش وأنواع النبات المادي[3]، يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلد من كثرة المارة. وبتنا تلك الليلة في سفح الجبل المقابل لها من غربيها، ثم في الغد يوم الجمعة نزلنا على التميمي ضحى، ووجدنا ركب الجزائر مقيمين فيه، وكرهنا الورود عليهم لأجل ما بين الركبين من الشنآن، وكانوا يتوقعون منهم فتنة، فوقى الله شرها، ونزل ركبنا دون الوادي بنحو ميل، فلما أصبحنا ارتحل أهل الجزائر وأقام أصحابنا، وكان من أشد يوم رأيناه بردا مشوبا ببلل يشوي الوجوه، فضلاً عن غيرها من الأعضاء، وحمدنا الله على الإقامة، ورأينا ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[4]، وهم الذين رحلوا رائين أنهم حازوا قصب السبق بالتقدم وتحَمَّلوا مشقّة ذلك اليوم العبوس القمطرير لحظ عاجل في

---

[1] يوسف: 64.

[2] القُطْب: القطبُ والقُطْبَة: ضربانِ من نبات، وقيل: هي عشبة، لها ثمرة وحب مثل حبِ الهَراس: تاج العروس: قطب.

[3] النبات المادي: الماد من النبات: اللين الناعم: لسان العرب: ماد.

[4] الأعراف: 187.

فلوات من الأرض لا يحمدهم عليه ربهم ولا أحد من العباد، نسأل الله تعالى أن لا يملكنا لحظوظ أنفسنا الزائلة، وأن لا يجعل أزمتنا بأيدي الآراء القائلة.

ولم يجد الناس ما يتسوقون في مورد التميمي، وكان معهوداً بالسوق غالباً إلا شرذمة من مُتَفَرِّقة أعراب ذلك البلد وشيخهم يدعونه سيد حسين العجل من متفقرة الأعراب، مزج تفقره بمشيخة الصرم الذي هو فيه، جلبوا إلى الركب شياها وعترا وتيسا وكن هزالا، وبيع الزرع هناك بسبعة قروش لإردب[1] القمح، وأكثر من اشتراه عرب البلد، وأخذ الحجاج منه قليلاً، وكانت معنا قافلة لبعض الأعراب تحمل زرعاً بقصد البيع لما رأوا في العام الذي قبله من المجاعة التي لحقت الركب في برقة، وذلك الغالب على من سلك برقة في أيام الشتاء، تقصر الأيام وتكثر المراحل وتتسع الأمعاء للأكل، فلا يكاد يكفي الإنسان ما يحمله من الزاد من مصر إلا من له فضل ظهر يستظهر حملان أكثر مما يحتاج في الغالب، وقليل ما هم، وعامة الناس إنما يحملون الزاد من أرياف مصر مقسطا على المراحل المعتادة لقلة الظهر وطول المسافة، فيتضررون لذلك بزائد المراحل التي يوجبها قصر الفصل، مع كثرة العوارض المؤذية بالإقامة من شدة برد أو مطر أو عروض مخافة توجب الإقامة، وهذا عكس ما وقع لنا في الطلوع في فصل الربيع، فقد فضل للناس بعد الخروج من برقة عامة أزوادهم ولم ترزأهم المسافة منها إلا القليل حتى قال بعض الحجاج بعد الوصول إلى مصر: قَدَّر الله علينا أن نأكل الطعام بأغلى ثمن في أرض رخيصة الأسعار كثيرة الأرزاق، وذلك أنهم اشتروا الطعام من طرابلس بسعر غال، واكتروا عليه بأضعاف مما اشتروه به إلى مصر، فلم يقدر لهم أن يأكلوه إلا في مصر، فيأكلون الأكلة منه في مصر بثمن ثلاثين أكلة في مصر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، وقد تسوق إلى الركب بعض الأعراب هناك بسلع نهبوها من سفينة تكَسَّرت في بعض سواحل البطنان، فمن الناس من اشترى، ومنهم من كف، وقليل ما هم. ومن جملة ما أتوا به للبيع مصحفا بخط مشرقي، وكتاب آخر فيه شرح منية المصلي[2] في فقه الحنفية، وهو غاية في بابه، فهممت باشترائه استخلاصاً له من أيديهم، لأنه عرضة للضياع والإهانة، ثم كففت خشية أن

---

[1] الإردب: مكيال ضخم لأهل مصر، قيل يضم أربعا وشرين صاعا: لسن العرب: ردب.

[2] منية المصلي وغنية المبتدي للشيخ الإمام سديد الدين الكاشغري، محمد بن محمد المتوفى سنة 705 هـ: كشف الظنون 2:1887.

يقتدي بي في استحلال شراء أموال المسلمين، ولغلبة الظن أني لا ألقى ربه فأرده عليه، فآثرت السلامة.

وفي الغد منه أقام الناس ثانياً لجمع ما فرضوه لخلاص الدليل ولسوى مصالح ذلك، وكان جملة ما فرضوه نحو سبعين ريالاً للدليل، منها ثلاثة عشر قيمة ناقة له تكسرت قرب الجميمة، فغرمها الحاج له تطييبا لخاطره، وعشرون منها أجرته، وخمسة عشر أعطوها لشيخ من شيوخ الركب كان قليل ذات اليد شكس الأخلاق، ومعه طائفة من أهل بلدته يرون رأيه، فكان الناس يدارون منه بعض الحد خشية افتراق الكلمة، ويعرف بابن مؤمن من أندلس مراكش، والشيخ في الحقيقة الذي لا ينبغي أن يعدل عنه عند وجوده الحاج محمد بن الحاج عمران المراكشي، فقد كانت له سراوة نفس وطيب أخلاق وحسن عشرة واحتمال مع طوائف الناس، وله سخاوة يد وعِفّة قلب عن المطامع، وآتاه الله مع ذلك سعة من المال إلا أنه ليس معه عصبية، وقسيمه الآخر في الرئاسة قد اعتضد بعصبة من أجلاف الأندلس وشياطينهم، ومعظم الناس لا يعدلون بابن عمران أحدا. ومن جملة ما فرضوا عشر ريالات للعلامين، وثلاثة للبراح[1]، وضربوا الأجرة في هذه المرة على أحمال السلع خاصة، وكان معي حمل من الكتب و لم يأخذوا عليه شيئاً و لم يطالبوا أحدا ممن ليس معه سلع، وهو أرفق بالمساكين، وإن كان الأوجه من حيث النظر ضرب الأجرة على كل الإبل لاشتراك الكل في منفعة الدليل على حد السواء لأن منفعته هداية الطريق، والدلالة على موارد الماء وأهل الأحمال وغيرها من الاحتياج إلى هذين الغرضين على حد سواء، بخلاف أجرة المجير الذي يجير الركب من اللصوص فليس خوف صاحب الأحمال والسلع الكثيرة كخوف غيره، لأن المقصود بالإذاية في الغالب هو من له أحمال وسلع، والفقير قل ما يتعرض له سيما مع وجود غيره.

---

[1] البراح: المنادي بالأخبار والإعلانات في الأسواق وما سواها: عامية مغربية.

لطيفة:

سمعت شيخنا العلامة أبا بكر السجتاني[1] المراكشي، رضي الله عنه، يقول: جرى البحث في الأزهر أيام اشتغاله بالإقراء هناك في هذه المسألة، وهي أجرة دليل الركب، هل تكون على الإبل أو على أحمال السلع أو على أصحابها؟ أو هل تكون على التابع دون المتبوع؟ قال: ولم يُوجد نص في ذلك. قال: ويمكن استخراج حكم المسألة من أصل ما ورد في حديث الهجرة من استئجار النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، رضي الله عنه، من ابن أريقط الديلي، وكان مع أبي بكر غلامه عامر بن فهيرة[2]، فهل كانت الأجرة على الإبل أو على الرؤوس؟ وعلى الثاني هل أعطى أبو بكر عن غلامه أم لا؟ قال: ولم يتحَصَّل بين المتباحثين ما يعتمد عليه إذ ذاك. قال: ثم إن الشيخ علي الأجهوري أورد هذه المسألة في شرحه للمختصر، وذكر فيها ما جرى من التوجيهات، وصير ذلك كله كأنها أقوال في المذهب مع أنه لم يوجد فيها نص في المذهب، وكان من جملة ما ينقض عليه في شرحه وهو جدير بذلك هـ.

قلت: وما ذكر من أخذ الحكم من الحديث فبعيد مما علم من حال النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر، رضي الله عنه، من تصرف النبي، صلى الله عليه وسلم، في مال أبي بكر كيف شاء من دون مشاحة ولا مكايسة بينهما في ذلك، حتى تجعل الأجرة على الرواحل أو على الرؤوس، أو يحاسب النبي، صلى الله عليه وسلم، أبا بكر بما ينوب غلامه عامراً، وكلاهما في الحقيقة غلام وخادم للنبي، صلى الله عليه وسلم، وهو أيضاً بعيد مما علم من مكارم أخلاق النبي، صلى الله عليه وسلم، هذا نظير ما لو قيل إن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر تفارضاً في الزاد الذي حملاه في هجرتهما وحاسب النبي أبا بكر بما يأكل غلامه، وهذا لا يتوهمه أحد ممن عرف كمال مقام النبوءة وفضيلة الصديق، رضي الله عنه، وحاله معه، وليس الأجرة والزاد مثل الراحلة التي أبى، صلى الله عليه وسلم، أن يأخذها إلا بالثمن ليسارة أمرها، ولما أجاب به بعض العلماء أيضا على امتناعه عليه من

---

[1] تقدمت ترجمته.

[2] أنظر في هذا: صحيح البخاري 2:790. الطبقات الكبرى 3:173.

أخذها إلا بالثمن، فإن الهجرة لما كانت من أجل القربات وأعظمهـــا، وليـــست بعمل يتكرر غالبا فيتيسر مثله، أراد النبي، صلى الله عليه وسلم، أن ينفق فيها من ماله كما أتعب فيها بدنه الشريف صلى الله عليه وسلم. نعم هذا التوجيه يقتضي أيضاً أن يكون الزاد من عنده والأجرة أيضاً ليكمل ثوابه.

قلنا: لا نمنع أن يكون ذلك من عنده كله أو من عند أبي بكر كله، أو بعض من هذا وبعض من هذا بحسب ما تيسر دون محاسبة ولا تقسيط على الـــرؤوس، وذلك هو الذي تقتضيه المروءة وشرف النفس، فكيف بكمال المـــروءة وغايـــة الشرف، بخلاف أخذ الراحلة بالثمن، فإن كل ذي ذوق سليم وعـــالم بـــأحوال المروءة يدرك أن أخذ الرجل الراحلة من صاحبه في السفر بثمنها لا ينافي المروءة، لا من الآخذ ولا من المأخوذ منه، بخلاف الزاد بـــالثمن والمقاسمـــة في الأجـــرة ومحاسبة الرجل صاحبه بما ينوب غلامه فإنه بعيد من مكارم الأخلاق، وقد علم أن مئونة سفرهما، من زاد وراحلة وأقتاب وغير ذلك، كان من دار أبي بكر، رضي الله عنه، لأنه هو الذي كان يستعد لذلك، والنبي عليه السلام إنما فاجـــأه الأمـــر بذلك من عند الله، فلو أخذ النبي عليه السلام من عند أبي بكر شيئا سوى الراحلة بالثمن لذكر ونقل، ولكنه لم ينقل، فعلم أنه لم يقع. نعم لو وقع ونقـــل لكـــان وجهه قصد التشريع وبيان الأحكام، إلا أنَّ اللائق به مقام غير هذا، وكان يقع من النبي، صلى الله عليه وسلم، مع غير أبي بكر في غير هذه السفرة، بـــل اللائـــق والغالب في تشريع ما يبعد من المروءة أن يقع من غيره عليه السلام، فـــيعلم بـــه ويقره ولا ينكره للإعلام بجوازه من غير أن يقع منه هو لكمال منصبه، صلى الله عليه وسلم، في سائر تقلباته وأحواله، والله تعالى أعلم هـــ.

و لم يقدم أحد من دونه للسوق كالعادة لأجل الفتنة الواقعة بـــين أهلـــها وأميرها الحاج محمود عامل عصمان باشا صاحب طرابلس، وذلك أن أكثر سكان البلد مغاربة لأنها حديثة العهد بالعمارة، و لم يبق من أهلها بالأصالة أحد، فلمـــا عظمت شوكة الوالي أنف سكان البلد من الفضيحة، فأضمروا له العداوة وثاروا عليه في المدينة فأخرجوه وصار في مركب إلى جزيرة[1] كندية، وبعث إلى طرابلس يعلم الباشا بالخبر، فبعث مركبا من طرابلس مشحونا بالمقاتلة، ورجع الحاج محمود من كندية في مركب آخر، فتوافوا على البلد، فاخرجوا كل من كان فيها مـــن

[1] في ط: مدينة.

المغاربة بعد قتل ذريع ونهب، وصاروا لا يتركون أحدا يدخل البلد ممن ليس من أهلها، حتى الصعاليك من الحجاج والمتسوقة فيبيعون ويشترون خارج البلد.

ثم ارتحلنا من التميمي يوم الاثنين، فلما نزلنا ليلا، وكانت عادة الجمّالين أنهم يعتمون في مسارح الإبل فلا يرجعون إلا بعد هوي من الليل، ولم يروا قبل ذلك باشا، فاطمأنت قلوبهم، فجاءهم على عدة قوم من الأعراب الذين تركناهم بعين الغزالة، فأغاروا على بعض إبل الركب، فأخذوا منها نحوا من عشرين بعيرا، فلما أصبح الناس هموا بالرجوع إليهم وغزوهم في حلتهم، ثم تراجع الناس عن ذلك وكان بعض الإبل لمرابطة سمالوس، فتبعوهم وردوا إبلهم إليهم، ولم يلحقوا بنا إلى أن جاوزنا سمالوس وبعض الإبل للجوابس، وهم رهط معتوق دليل الركب فلم ترجع.

ثم ارتحلنا ونزلنا قرب غدير يسمى بوهندي، وفي الغد مررنا به ضحى وسقا الناس واستقوا، ونزلنا المخيلي قرب المغرب بقليل، وكان به أثر مسجد تهدم ولم يبق إلا منارته وعلى بابها قبر شيخ الحجاج عمران، وولده محمد هو شيخ الركب بعد موت أبيه، وموت أبيه كان في شهر رمضان في السنة الفائتة، وهذا الذي طلع بالركب من مراكش ولده، فلما باتوا بهذا المحل وتسحر قبل الفجر وما به من ناس، ثم أصابه سعال شديد بأثر ذلك مات منه قبل أن يرتحل الناس من المترل، ودفن هناك رحمة الله عليه، فعندما مررنا عليه وقف الحجاج عليه هنيئة، وقرأوا ما تيسر، وبنوا عليه حائطا من الحجارة، ونزل الركب بقربه.

ثم ارتحلنا من المخيلي، وفي اليوم الثالث مررنا بسمالوس ظهرا، وسقى الناس واستقوا ووجدنا فيه ماء كثيرا، وهو وادي كبير يهبط من الجبل الأخضر تصب فيه أودية كثيرة من أودية الجبل قلما يخلو من ماء إلا في الأعوام المجدبة، وفي اليوم الثاني منه استهل جمادى الثانية ليلة الاثنين، وفي اليوم الثالث نزلنا بإزاء قصور الرجبية، ووجدنا هناك أعرابا كثيرة من عرب الجبل؛ السعادي الفرائد وغيرها. وفي الغد ارتحلنا وسرنا في وادي كله ربيع[1] وماء وأعراب، والناس يتسوقون ويشترون اللبن والسمن عامة يومهم، ونزلنا بعد العصر بالبيوت آخر الجبل

---

[1] الكلمة غير واضحة في ط.

الأخضر ولحقنا هناك أواخر ركب الجزائر، وكانوا يظنون أن لا نلحق بهم، فلما لحقناهم جدوا في السير و لم يترلوا إلى الليل.

وفي الغد ارتحلنا وتركنا مورد سلوكهم عن يميننا وقصدنا الجابية والركب الجزائري أمامنا يتراءى لأولنا آخرهم، وفي اليوم الثالث نزلنا الجابية عصرا ومررنا بهم وهم نزول، فبعثوا إلينا أن تأخروا عنا حتى نرتحل أمامكم، فأنف أصحابنا من ذلك، فتجاوزوا الجابية و لم يترلوا بها ولا عرجوا عليها، و لم يترل ركبنا إلى العشاء الأخيرة على آبار أخر على نحو فرسخ من الجابية وعليه أثر قصر تهدم، وكان أهل الجزائر قد طلبوا من أصحابنا أن يتأخروا عنهم يوما يقيمونه بالجابية معتلين بأن معهم من أكابر تُرك الجزائر طائفة لا يرضون أن يتقدم عليهم صعاليك المغاربة لأنهم جيش السلطان، فأخذت أصحابنا الحمية والأنفة وقالوا لهم: نحن لا نعرف عزا ولا سلطانا، وحلف الآخرون أن لا يتقدموا عليهم حتى خشينا أن تكون فتنة، فكف الله أيديهم وجهدوا أن يلحقوا بنا فلم يقدروا بعد ذلك.

ثم ارتحلنا من هناك مجدين في السير خشية لحوق أهل الجزائر بنا فتكون فتنة على غير شيء، وفي اليوم الثاني ألقينا على قصيرات وعتلا عرب الجهمة الذين قتلوا عبد القادر بن أخي عبد الرحمن الجبالي، وقد قدموا من فزان، فلما رأوا أوائل الركب ظنوه غازيا للجبالي، فانجفلوا إلى فدفد على ساحل البحر تحيط به سباخ يتعذر سلوكها إلا من محل واحد. وبعدما وصلوا إليه رجعت خيلهم وتلقت الركب من أمام فتشوش الحجاج منهم، فلما وصلوا إلينا وعرفوا أننا حجاج جاء أشياخهم وتكلموا كلاما طيبا وقالوا: ما نحن إلا في بركة الحجاج، وإنما ظنناكم من جموع الجبالي، سيد روحه ونحن قاصدون إلى الهنادي، وهم عرب العقبتين، ومعنا مائتا فارس وأربعمائة راجل، وكتبوا مع شيخ الحجاج كتابا إلى الباشا زاعمين أنهم لم يقصدوا مخالفته وإنما أضرهم الجبالي حتى وقعوا فيه، وأنه إن أمرهم بترول الجبل نزلوه، وكانوا قد استنصروا بسلطان فزان على الجبالي لما ثقلت عليهم وطأته، فجاء معهم بجموعه ومن انضاف إليهم من عرب تلك الناحية حتى أغاروا عليه في بلد سارت وأهل حلته غارون منتشرون في إبان الحرث، وأخبرونا أنهم في وقت الغارة صادفوا عبد الرحمن وابن أخيه عبد القادر يأكلان لحما حنيذا بينهما، فلما أحسوا بالخيل قال عبد القادر لعمه: انج بنفسك وأنا أدافع عنك الخيل ريثما تبعد عنهم، فنجا برأس طمرة ولجام، ودافع عنه ابن أخيه حتى قتل وأخذ جميع من

معهم من حلل الأعراب، وخلت قصور سارت من يومئذ ونهبوا ما فيها ورجعوا إلى فزان، وأقاموا هناك حتى جاؤوا في هذه الكرة.

ثم ارتحلنا من هناك وأصابنا مطر أول النهار إلا أنا كنا بأرض مسترملة فلم يمنعنا من السير، وإن عاقنا بعض التعويق، ونزلنا قرب المضيق الذي دون المنعم، وفي الغد مطرنا أيضا مطرا أشد من الأول وتقدم الناس إلى المورد ليستقوا فلم يخرجوا من مضيق السبخة عند منقطع الرمل حتى وجدوا الطريق ممتلئة ماء، فاستقى الناس منها و لم يقفوا ولا تعطلوا، وأغناهم الله بماء السماء عن ماء الآبار، وتجاوزنا مورد المنعم قبل الظهر و لم نترل إلى المغرب، وفي الغد بينما نحن نسير أول النهار إذ سمعنا صوتا هائلا مثل الرعد القاصف فظنناه مدافع حرب وقع في البحر بين المراكب، فتسارع الناس للصعود على الحاجب الذي بيننا وبين البحر، وكنت فيمن ذهب فلم نر في البحر شيئا، وأخبرنا بعض الناس ممن لهم علم بأحوال البحر أن ذلك صوت يسمع في البحر أحيانا يسمى تمد لا يعلم له سبب، وأظنه أنه قال: إن ذلك إنما يقع في الغالب عند إبان المطر. ثم مررنا وسط النهار يوم الخميس بأسفل السبخة التي فيها منقطع الكبريت، وبه سمي المكان، وبقي في ذلك اليوم جمل لنا تخلف عليه بعض أصحابنا، فتخلفت لأجلهم مع طائفة من الحجاج، و لم نصل إلى الركب حتى قرب العشاء وهم نزول، وفي الغد عدلنا عن السبيخة يسارا وسلكنا أطراف الشعاب التي تشرف على الساحل، وهي طريق غير معتادة للكرب إلا أنها مخصبة صلبة لا يخشى فيها من وحل السباخ إذا نزل المطر.

وفي الغد مررنا بغدران كثيرة وربيع كثير في تلك الأودية، وذلك[1] أوائل بلاد سرت، فلما بتنا قرب الكحيلة في أعلى واديها ترقب الناس قدوم الشيخ وجماعته إلى الليل، فلم يقدموا، وكانوا تأخروا في بعض تلك الأودية يطبخون غذاءهم، وتلك عادتهم من يوم خروجنا من الإسكندرية يتناوبون ذلك فيما بينهم، فكل يوم يأتي أحدهم بآلة الطبخ والمطبوخ على قدر كفايتهم، فيتقدمون أمام الركب من المترل، فإذا وجدوا محلا مخصبا نزلوا وطبخوا وأكلوا ورقدوا حتى يجوزهم الركب فيقومون، وفي ذلك اليوم كانت المرحلة ذات شعاب كثيرة، فلما فرغوا من أكلهم وركبوا ضلوا عن طريق الركب وكانوا اثني عشر رجلا ببغالهم ومكاحلهم، فذهبوا ذات اليسار، فلما علموا أنهم حادوا عن طريق الركب اختلف

[1] في ط: وتلك.

رأيهم في السير يمينا أو شمالا، ثم اتفق رأيهم على المبيت إلى الصبح، وبات الناس تلك الليلة يخوضون في أمرهم، وأوقدوا نارا على قدر ورفعوا مصباحا على رمح، وضربوا بالطبل والمدافع فلم يقعوا لهم على خبر، فلما أصبحنا ارتحلنا وظنناهم أمامنا وذهبنا أمام الركب نقتص الأثر فلم نقع لهم على أثر، فبينما نحن كذلك إذ لحقوا بالركب ظهرا، وكان من أمرهم أنهم لما أصبحوا اتفق عزمهم على أن يذهبوا إلى ناحية البحر، فلما ساروا قليلا رأوا ركب الجزائر فقصدوهم، فلما عرفوهم عدلوا عنهم إلى أن وقعوا على أثر الركب فاتبعوه.

ولم نبت تلك الليلة إلى قريب من الشقة، ووجدنا بها أوائل عرب زاوية أولاد سيدي ناصر، وفي الغد مررنا بالشقة ضحى ولم نجد بها ماء، وفي الغد مررنا بقبر قدير ونزلنا مورد الأحمر، ثم ارتحلنا منه ونزلنا قرب الموضع المسمى بالمدينة، وفي الغد مررنا بها ولم نزل نسير ذلك اليوم والغد منه في مزارع وربيع كثير إلى أن نزلنا إلى عفران، ووجدنا قصوره خالية من لدن قتل سلطان فزان مع الجهمة والهيابية لعبد القادر، وأخذ أعرابه وقد جاؤوهم غارين ظانين أن لا يقدر عليهم أحد فقتلوه ونهبوه كما تقدم خبر ذلك. ثم ارتحلنا منه واستقبلتنا ريح باردة لم نر مثلها قبل ذلك ودامت طول النهار وغده، إلا أنها في اليوم الثاني أخف، وفيه مررنا بحَسّان ظهرا، وهذا الاسم الآن صار علما على موضع فيه مورد ماء ضنين يوجد فيه ما يكفي الركب إلا في أزمنة الخصب، وكان في الأصل اسما لعامل بعض ملوك بني مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن عامر[1] أمير إفريقية ومفتتحها وارتداد غالب أهل إفريقية، فنزل في هذا الموضع وبنى فيه قصورا تسمى الآن قصور حسان، وكان يغير من هناك على إفريقية، وأقام بذلك المحل نحوا من ثلاث سنين، وخبره قد كرر في تواريخ فتوح إفريقية.

وقريبا من هذا المحل لقينا أوائل عرب الجبالي عبد الرحمن الذين استنفرهم الآخذ بالثأر وهو معهم بمحلته من الأتراك وغيره، وظننا أنه يعارضنا للسوق فلم يجتمع بنا واجتمع بركب الجزائر، وكان قد حمى واسطة سرت فلم يقدر أحد من أعرابه أن يتقدم إليها مع غاية خصبها حتى يقدم، وفي الغد سرنا طول النهار والبحر عن يميننا والسبيخة عن يسارنا، وكنا نقطع مخاضة الهائشة آخر ذلك اليوم

---

[1] يقصد عقبة بن نافع الفهري الذي افتتح بلاد إفريقية واختط مدينة القيروان: البداية والنهاية 8:45. الكامل 3:450.

فلم نقدر، وبتنا قريبا منها، وفي الغد لقينا صبحا بعض الصعاليك ممن تقدم من المغرب فأخبرونا ببعض أخبار المغرب في الجملة، وقطعنا مشرع الهائشة و لم نجد به شيئا من الملح وطلب الناس فيه، ولو ما يعشيهم فلم يجدوه لأنها صارت كلها ماء بكثرة الأمطار، ووجدنا ماء الهائشة كله أقبح ما يكون، وكنا ظننا أنه يحلو بكثرة الأمطار، فلم تزده إلا مرارة، وسرنا بقية يومنا، وفي الغد نزلنا بوكدية آخر منازل برقة التي قيل: غرقة ولا برقة.

وفي الغد لاحت لنا أعلام العمارة وظهرت لنا من الدنيا إمارة، وتصايح الحجاج: البشارة البشارة، هذا أوائل العمران قد كشف لنا أستاره بأمان، ودخلنا قصر أحمد[1] ظهرا نظهر فرحا ونُسر ذعرا، لأننا لم نر العمارة دهرا، يخيل إلينا أن المباني والنخيل شيء ما عرفناه، وانتشار الناس في جرائها أمر ما ألفناه، وكأننا أموات نشروا ومن المقابر حشروا، وما أسرع انقضاء سفر تنقصته الليالي والأيام، فكيف بعمر مرت له الشهور والأعوام، نسأل الله حسن الختام بالموت على الإيمان والإسلام، والعفو والعافية على الدوام آمين.

ولما دخلنا قصر أحمد[2] سألت عن صاحبنا الحاج عبد الله بن غلبون فدلوني على مسكنه و لم أجده فيه، ونزلنا بالفناء حتى قدم فأكرم نزولنا، وأجزل قرانا وعلف خيلنا، وعرض علينا المبيت فأبينا لعدم نزول الركب، وقد طلب منهم أهل البلد النزول متبركين بهم فأبوا، و لم يبيتوا تلك الليلة إلى تكبيران بلد ولي الله تعالى قطب الزمان وإمام أهل العرفان سيدي أحمد رزوق، رضي الله عنه، ونفعنا به، وسرت أنا وصاحب لي كما نحن و لم نعرج على منزل الركب بقرب مسجده، ودخلنا للزيارة والصلاة وأردنا المبيت بالمسجد فوجدناه غاصا بالصعاليك من الحجاج، وأكثروا فيه اللغط فذهبنا إلى دار صاحبنا سيدي أبي العباس خادم الزاوية، فبتنا عنده تلك الليلة وأكرمنا، وكانت ليلة الجمعة، وكتب لي سؤالا في مسألة من بيع الثنيا هل تبطل بموت البائع والمشتري. وكتبت له في ذلك ما حضرني في الوقت مرجحا بطلانها بموت المتطوع بها لأنها هبة لم تقبض كما قيل بذلك، و لم أعلم أن النزاع بينه وبين ابن عمه في ذلك، فقدم طائفة من المجاورين هناك سيدي عبد الواحد فوجد عليَّ في نفسه، و لم يظهره لي، وأقام الركب هناك

---

(1) في ط: أحمر.
(2) في ط: أحمر.

يوم الجمعة والسبت، نتعاهد زيارة الشيخ طرفي النهار والأمطار قلما يخلو منها الجو، وذلك دأبه من يوم رحيلنا من الجابية، قلما يمر علينا يوم صاح، فأخصبت البلد لذلك وغزرت مياهها، فتجد على طرف كل بلد بحيرة من الماء النازل من الجو والنابع من الأرض، وربما أضر ذلك بالإبل في سيرها لكثرة الوحل، والغيث كما قيل لا يخلو من الغيث، سيما على المسافر الذي طال سفره وانتهى وطره.

وكان ارتحالنا من سيدي أحمد رزوق يوم الأحد، وبقيت لنا هناك ناقة وهبتها لصاحبنا أبي العباس خشي أن يشاركه فيها من بقي من خدام المحل، قال لي: اذهب مع ولدي ومكنها له ولا تقل أنها هبة، ففعلت ابتغاء مرضاته، وفي الغد من يوم رحيلنا مررنا بزاوية سيدي عبد السلام ظهرا ودخلنا إلى المسجد وزرنا ضريحه نفعنا الله به، ولقيت سيدي أحمد بوبجيب[1] وقد تقدم التعريف به، وبتنا خارج البلد، وفي الغد مررنا بساحل حامد وزرنا سيدي مفتاح، رضي الله عنه، وبتنا قريبا من آبار السليم، وسرقت لنا تلك الليلة سطلة عظمت علينا المصيبة بها، لأنها كانت تكفينا في أشغال كثيرة أعظمها تسخين الماء للطهارة لأن الوقت وقت برد، وفي الغد نزلنا النكارة ونزلنا قرب بيوت، وفي الغد نزلنا واد المسير بأعلاه ووجدنا فيه ماء كثيرا غزيرا لكثرة الأمطار، وقاسى الناس في قطعه مشقة ولم ينزل آخر الركب إلا بعد العشاء، بل بات بعضهم في عدوته القصوى.

وفي الغد ارتحلنا ورافقت الركب إلى واد الرمل، وتقدمت أمامه مع بعض أصحابي ولقينا أهل طرابس الخارجين للقاء إخوانهم أفواجا، وبلغنا تاجورا عند الظهر وجاوزناها، واجتمعت بينها وبين الهنشير بصاحبنا سيدي محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي خرج لقائنا ومعه طعام يتلقانا به، ورجعنا به معنا، وكنت نويت زيارة الشيخ السيد فجئنا إليه، ووصلنا بعد صلاة[2] العصر وتوضأنا وزرنا ولقينا ولده سيدي عبد الحفيظ، وأخرج لنا طعاما فأكلناه، ولما دعانا للأكل وكنت بالمسجد تربصت ريثما صليت الظهرين آخر وقتيهما، فعتبني على ذلك وقال: إذا حضر الغذاء تؤخر الصلاة؟ فهممت أن أقول له إنما ذلك مع اتساع الوقت، فشممت منه رائحة عدم قبول المراجعة، فتركته، وكان له صيت ملأ الخافقين،

---

(1) تقدمت ترجمته.
(2) ساقط من ط.

أصله ديني فتحول دنيوي، فمزجا بتدين، غمره إقبال الخلق ونفوذ الكلمة عند الأمراء، والله أعلم بسريرته. وأكثر الناس يقولون بحسبها، ومذهبي التسليم.

وكان شيخنا سيدي أحمد بن مساهل[1] من عادته صلاة الجمعة في الهنشير، فرجوت أن أدركه، فوجدته قد خرج أمامنا، ثم صلينا العصر وسرنا ودخلنا المدينة قبيل غروب الشمس، آخر يوم الجمعة الرابع من رجب، وتيممنا منزلنا المعهود بجامع الحاج إبراهيم وبتنا فيه، وفي الغد لقينا شيخنا ابن مساهل و لم يقدم أصحابنا بالإبل إلا قريبا من الظهر، وكانوا قد باتوا قريبا من تاجورا و لم نجد هناك شيئا من خبر المغرب، وقلق الناس من ذلك، فمن زاعم أنه لم يبق به من يجيء، من قائل منعهم الجوع أو الوباء أو الخوف، وأنا في ظني أن الوقف قد تأخر شيئا ما، وبعد نحو من جمعة دخلت علينا الأركاب الآتية من المغرب؛ ركب أهل فاس أميرهم الحاج محمد القسيمي، وركب أهل مراكش وأميرهم الشيخ المبارك الحاج إبراهيم الفران، و لم يقدم أحد من أهل بلدنا إلا أنه جاءت مكاتب كثيرة من إخواننا شرحت الأحوال جميعها وأقامت مقام المعاين سميعها، فابتهجنا بها فرحا، وأزالت عنا ترحا، وملأت أكفنا ورَقا، بفتح الراء لا بالكسر، وجبرت بعض ما كان في القلوب لا في القوالب من الكسر، وقاسينا في تلك المدة ما الله أعلم به من الشدة غالب ما نأكل في اليوم والليلة أكلة واحدة، وقلوبنا مع ذلك شاكرة لله حامدة، وكنا ننتظر شيئا يصل إلينا من بلادنا نستعين به في زادنا فلم نر شيئا من الإخوان ولا من أحد من الأقران إلا ما وصل إلينا من صاحبنا الصديق الود الوثيق ذي العهد القديم الإيخاء، العزيز السخاء، سيدي الحاج بوشت المنفوشي ضاعف الله مثوبته، وطيب أحدوثته، ووقاه من كل الشرور، وأجزل حظه في الدنيا والآخرة من جميع السرور[2] آمين آمين، بعث إلينا عشر ريالات مع بعض الحجاج الفاسيين أقمنا بها الأود، وقضينا بها بعض مصالح ذلك الأمد، ولا شيء أشد علي[3] قضاء دين صاحبنا الحاج أحمد العجين الذي استدنته من القاهرة ووعدته ببعثه من طرابلس ظنا مني لم تصدق مخايله أنه يأتيني بشيء من البلد أو ألقى هناك من أتسلف منه، فلما انقشع غيم ذلك العارض وأخلف خلب برقة الوامض، علمت أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا وسيلة أكرم عليه من رسوله المكين لديه، صلى الله

[1] تقدمت ترجمته.
[2] في ط: الخيرات.
[3] في ط: والأشد من كل شي.

عليه وسلم، فشرعت في تكميل تخميس البردة المبتدأة في غزة قاصدا بذلك التوسل به إلى الله تعالى أن ييسر خلاص الدين من وجه سهل، فأكملته في نحو من أربعة أيام وأنا في خلال ذلك أكابد هم الدين مصدقا بأثر: لا هم إلا هم الـــدين، ولا وجع إلا وجع العين.

وفي اليوم الذي أكملت فيه التخميس، بل في المكان الذي فرغت فيه منه، منَّ الله بخلاص الدين من جهة أرجو من الله إتمامها بلا كلفة، وقد فعـــل، فللـــه الحمد والشكر، وذلك أني أوصيت بعض أصحابنا أن ينظر لي من يبيع سلعا من الحجاج بالسعر الذي بلغهم أنها تساوي في المغرب ويربح كلفة الطريق، والأمـــر من خطره، فتردد في ذلك تلك الأيام فلم يجد شيئا إلى أن يسَّر الله ذلك في ذلك اليوم من عند بعض شرفاء مكناسة، وهو سيدي إدريس بن أبي عبد الله، أحد أهل البيوتات وذوي الثروة والرئاسة في مكناسة، فاشتريت منه مائة مثقال أشقوبية إلى المغرب ما بيع في طرابلس بنحو من مائة ريال، فبعثنا إلى صاحب الدين ماله علينا، واسترحنا من هم الدين، وأخذنا في التجهيز لما يحتاج إليه الـــسفر مـــن الـــزاد والرواحل والأسباب، فبعنا ما فوق وما تحت لشراء الظهر، وفي كل جمعة أركب للعمروس لشراء الإبل، وهو أعظم أسواق طرابلس، تجلب إليه الإبل مـــن كـــل مكان، وأردت بيع الفرس فيه فلم يتيسر، وكنت أرجع في كل جمعة أصلي الجمعة بزاوية سيدي محمد الصيد وأنا فيما بين ذلك أخرج طرفي النهار للسعي في قضاء الدين، وفي خلال ذلك ترد علي الفتاوى من أهل البلد لما سمعوا بي وأجيب عليها بقدر الحال، وهممت ببيع بعض الكتب فلم أجد من يسأل عنها، ولم يزل لطف الله علينا في ازدياد وبركته في تتابع أمداد، وجاءني رجل ممن ينتحل العلم من أهل الزاوية الغربية يمت إلى صاحبنا سيدي محمد أحمد بقرابة، وكلفني قـــراءة بعـــض التلخيص للقزويني، فقرأ ما تيسر منه وكلفني صاحبنا قراءة بعض الألفيـــة، وورد علي في طرابلس صاحبنا سيدي أبو راوي من حفدة الشيخ سيدي عبد السلام، وذاكرنا واستفاد أشياء في التوقيت على قصر باعي فيه، وجاء ونحن هناك مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم يأمر فيه بالزينة التي جاء خبرها ونحـــن بمـــصر، فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها على نحو ما وقع بمصر، وأكثروا من الأعاجيب ومن تماثيل وتصاوير، فصوروا صورة الفيل وصورة الجمل ملبسا بجلود الـــضأن، وفيها رجال يمشون بها حتى لا يشك الرائي أنه جمل وغير ذلك، وتعطـــل علـــى

الحجاج بسبب هذه الزينة جل أسبابهم من بيع وشراء، وزاد ذلك في أمد عطلتهم طولا، وجاءنا ونحن بطرابلس خبر سيد روحة عبد الرحمن الجبالي أنه أخذ الجهمة وأصحابهم، وزاد ذلك في سرور أهل البلد وأميرهم لأنه كان يتوقع عاديتهم[1] ويتخوف انقطاع طريق الجبل الأخضر بسببهم، فوقى الله شرورهم بمنه وفضله، ودخل علينا في طرابلس ركب أهل تونس في شارة حسنة وفخامة هيئة في بشر كثير وسواد عظيم كسواد الليل يفعم الطرقات كإفعام السيل، يجرون سبع كراريط وخمس محفات زادت في أبهتهم وزينتهم، وأميرهم أبو الفضل مفتي تونس ومعه جماعة من كبراء تونس، ومنهم ابن أخي قاضي القدس الشيخ محمد النفاتي اجتمعت به وسألني عن عمه، وأخبرته أنه يريد الحج في هذه السنة، وجاء معهم الشيخ العلامة الفقيه المشارك سيدي عاشور القسمطيني[2] ارتحل إلى الحجاز بجميع أسبابه وحمل معه جميع كتبه، ونوى الاستيطان والمجاورة في تلك البلاد، فلما بلغ إلى طرابلس وقع بينه وبين أهل تونس بعض ما يقع من المسافرين في سفرهم من مراجعة، فانخذل عنهم ورجع إلى أهل بلده أهل قسمطينة، وقد لقيته وتبركت به واستجزته لنفسي ولمن ذكر في الاستدعاء من الإخوان، وأجاز لي ولهم لفظا، وهو يروي عن سيدي محمد التواتي وعن سيدي عبد القادر بن خدة عن الشيخ السنوسي، رضي الله عنه، ويروي أيضا عن سيدي محمد السوسي عن المنجور، ويروي أيضا عن سيدي سليمان التمارسي عن الشيخ سالم السنهوري وأسانيد الشيخ السنوسي والشيخ المنجور والشيخ سالم السنهوري معروفة في محلها، وكتبت له يوم لقيته هذه الأبيات الثلاثة:

[كامل]

للشيخِ عاشُور الإمامِ الأمجَد ... حَاوي الكمالاتِ التقيِّ الأرشَدِ
مُدت يدي لتنالَ كل فَضيلة ... عِلما وذَوقا من إمامٍ مُرشدِ
حاشا تُرد يدٌ إليك مددتُها ... يا حائِزا أقصى العُلا والسؤددِ

---

[1] في ط: عداوتهم.
[2] عاشور بن عيسى القسنطيني، عالم عامل، استوطن تونس، كان حيا سنة 1074 هـ: شجرة النور الزكية 1:449.

واعتذر لي عن كتب الإجازة بضيق الوقت ومزاحمة الأشغال لقرب السفر، فقبلت عذره، وقد كتب من هناك كتباً إلى أصحابنا بالحرمين الشريفين ومشايخنا الشيخ عيسى الثعالبي والملا إبراهيم بن حسن الكوراني، وصاحبنا الشيخ حسن بن علي[1] العجيمي المكي، وكتبت إليهم بإجازات المشايخ لهم، وكتبت إلى شيخنا الملا إبراهيم أستنجزه الوعد في شرح قواعد الشيخ زروق، فبعث إليه نسخة من القواعد، وكتبت على ظهرها هذه الأبيات، وأخبرت بعد ذلك أن ذلك كله سرق من حامله و لم يصل، ولنذكر الأبيات:

[طويل]

قواعدُ هذا الفنِ صَون قوَاعد ... يئِسنَ نكاحا ينتظرنَ مواعِدا
مواعد صدقٍ من إمَام مُحقق ... بشرحٍ لمعناها يكونُ مُساعدا
فيرجعنَ بعد اليأسِ يخطبن رغْبة ... يُواصلنا من كان قبل مُباعدا
يُبين منها مُشكلا ويُزيح مُعـ ... ـضلةْ فيعدنَ للعفاة مواجدا
تمد لذا أبوابكمُ كف فاقة ... وتبسط للشكوى ذراعا وساعدًا
قواعدُ في الأعتابِ يبغينَ فضلكم ... فقوموا لها حتى تكونَ قَواعدا
فقد جمعتْ علم السلوك وحكمة ... وفقها صَحيحا واسعا عقائدا
وذي كلها هي التصوفُ فاجتهد ... لتودِعها من كل فن فوائدا
واستوهب التوفيقَ من ربنا لكم ... وعونا على القدرِ الذي كان زائدا
بجاه رسول الله أفضل من غدا ... إلى الخير هاديا وللرشد قائدا
عليه صلاة الله ثم سلامةُ ... يدومانِ ما دام المُهيمن واحِدا

وقد كثر تطلبي من علماء الوقت شرح هذا الكتاب، فلم ييسر الله ذلك على يد أحد منهم مع كون هذا الكتاب ليس مثله مما يترك ويسهل، ولا هو مستغنى على الشرح فيؤخذ على ما هو عليه ويحمل لوجازة لفظه ودقة معناه، مع

---

[1] ساقط من ط.

استمداده من علوم كثيرة يتوقف في تحقيقها على مشاركة تامة في جميع العلوم واطلاع عظيم على نوادر العلوم وغرائبها، وقد وعد شيخنا الملا إبراهيم بشرحه وهو بذلك جدير إن وفق إليه وأعين، والله خير معين.

وكتبت من هناك أيضا كتابا لأصحابنا المجاورين في المدينة المشرفة أوصيهم فيه بالدعاء شاكيا إليهم أمر ما وقع في الغرب من الفتن، خصوصا بلادنا، وسائلا منهم أن يرفعوا أمرها إلى صاحب حضرة الرسالة ومعدن الجمال والجلالة، صلى الله عليه وسلم، وقد ظهر والحمد لله أثر ذلك في الوجود ظهوراً لا يشك فيه من علم بالحال وميز ما كان عليه الأمر وما إليه آل، خصوصا فتنة العصابة الناجمة ببلادنا من أهل الغواية المنتهكين لحرمة الشرع المسددين سهام إذايتهم لأهل الدين خصوصا، ولكل من لم يتابعهم على ضلالتهم عموما، فقد أكثرت التأكيد على أصحابنا المكيين والمدنيين في رفع الشكاية إلى الله لمتبوعهم الذي ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا الذي فيه عيناه، وقد رأى بعض الفقراء في واقعة منام إثر وصول الكتاب إليهم أن النبي، صلى الله عليه وسلم، في دار والناس يدخلون عليه فيها أفواجا، فسأل الرائي عن ذلك فقيل له: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، يبايع الناس على البراءة من فلان، ومن ذلك اليوم أخذ ذكره في السقوط وأمره في الهبوط، ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1]، وفي ضمن الكتاب الذي بعثته للمجاورين ثلاث أبيات أمرهم بإلصاقها حذاء المكان الذي كنت أجلس فيه بالمسجد النبوي يكون ذلك تذكرة لهم[2] بقائلها فيقسمون له من دعواهم في أشرف الأماكن، وقد كتبوا إلي أنهم فعلوا، والحمد لله كثيراً على ما من به من ذلك، وهي هذه:

[طويل]

أجيرانَ خيرِ الخلق مُنوا بدعوة ... لمن نابَ عنه في الخطابِ بنانهُ

لئن غابَ عنكمْ شخصهُ ففؤادهُ ... لديكم رهانٌ لا يُفك رهانهُ

فإن خفتمُ نسيانهُ فكتابه ... يذكركمْ به وهذا مكانهُ

---

[1] يوسف: 21.

[2] في ط: لهم تذكرة.

نسأل الله تعالى بجلال وجهه العظيم ووجاهة نبيه الأكرم الكريم أن يرزقنا العود إلى تلك الأماكن المطهرة، وينعم قلوبنا وقوالبنا بالتقلب في تلك البقاع المنورة، ويحشرنا في زمرة أهلها أحياء وأمواتا، ويجعل محبة سكانه لأرواحنا أقواتا، إنَّه جدير بالإجابة قريب لما واظب في دعائه إلا عليه آمين آمين.

وممن لقيته بطرابلس مفتيها الشاب الظريف الأريب العفيف الفقيه المشارك سيدي محمد المكي، بيتهم بيت علم ورياسة من لدن أسلافهم، إلا أنه لم تكن له رحلة في طلب العلم، وقد حج مع أبيه في صباه، ومات أبوه قبل أن يستفيد منه، فقرأ على شيخنا ابن مساهل وعلى بعض متفقهة البلد، فأعانته الحظوة والذكاء ونباهة الفكر واقتناء الكتب الكثيرة على ولاية منصب الفتوى بعد عزل شيخنا ابن مساهل، وقد تقدم شرح ذلك في أول هذا الكتاب، وقد شاهدت منه حسن أخلاق، ويدل على طيب أعراق، وقد استعرت منه كتبا فما بخل بإعارتها، بل استعار لي من غيره كراريس من شرح المختصر لشيخنا الأجهوري مست الحاجة إليها لتكميل جزء ناقص عندي، فتوسط لي في ذلك توسط أمثاله، و لم يقصر عَمَّا يقتضيه مجده من رتب كماله، فأوجب على ذلك أن أكتب له بعد إتمام الجزء أبياتاً ثلاثة أشكر صنعه وأشيد ذكر نعمته التي بذل في إتمامها وسعه، لأن الكتاب كان بيد من يضن به عن ملاقاة الهواء ومماسة الهباء، لولا استعانة بوجاهة من ذكر، وجلالة من شكر، وهي هذه:

[طويل]

سأشكرُ إحسانا بدَا منك سَيدي	وأشكرُ فعلا منك قد صدقَ القولا
ويشكرُك الشرحُ الذي تم نقصه	ولولاك كان النقص قطعا به أوْلى
وقد قيل من لم يشكرِ الناسَ لم يكن	ليشكرَ رب الناِس في كل ما أولى

لطيفة:

الحديث شجون، سيما عند إرادة تكثير الفوائد وجمع الفنون، والشيء بالشيء يُذكر، ووصل فائدة بمشابهها لا ينكر، وذلك أني ضمنت الأبيات الثلاثة

قصيدة بعثتها إلى بعض الفضلاء من الإخوان النبلاء (كنت)[1] استعرت منه شرح المواقف للنسخ، فمطلت برده حولا، وقد كان الوعد شهراً أو شهرين، فكتبت إليه معتذرا ولإغضائه منتظراً، وقد كنت كتبت في حال الاستعارة قصيدة ليست معانيها من غيرها معارة، فأجاب عنها بأفضل منها، ونص ما كتبت[2]:

[طويل]

أمولى غدا حُر الكـــلام لـــه مـــولى ... وبحر نـــدى لم يخـــشَ واردهُ هـــولا

ومن نظمهِ يسبي العقـــولَ رحيقـــه ... سوى أنـــه لا إثمَ فيـــه ولا غـــولا

سأشكرُ إحسانا بدا منـــك ســـيدي ... وأشكر فعلا منك قد صدقَ القـــولا

ويشكركَ المـــتنُ الـــذي تم شـــرحه ... ولولاك كان النقصُ قطعا بـــه أوْلى

فقد قيلَ من لم يشكر الناس لم يكـــن ... ليشكرَ رب الناسِ في كل مـــا أولى

تطولت حـــتى طلـــت غـــيرك ثم لم ... تدع لسواك اليومَ طولا ولا طـــوْلا

فمثلك من أولى الجميلَ وسوغ الـــ ... جزيلَ ولم يطلب على قولـــهِ فعـــلا

فقد حزتَ إرث الأولين وأدخلـــت ... فضائلك الغر على من أتـــى عـــولا

وعُذرا فقد أخلفتُ وعدي ممـــاطلا ... ولم أرَ شهرا قبله قـــد غـــدا حـــولا

على أنهـــا الأيـــامُ تعـــرض تـــارة ... وآونـــة ترنُـــو بعـــين لهـــا حـــولا

فنـــبرم أمـــرا والمقـــدرُ غـــيره ... فلا قـــوة للعبـــد في ذا ولا حـــوْلا

وقد أجاب عن هذه القصيدة بقصيدة له طنانة، ضربت في الإبداع بسهم مصيب، وحازت من رقة اللفظ وجزالة المعنى أوفر نصيب، بيد أنه تحامى روي قصيدتي لقلته، بل لتعذره وعزته، سيما مع لزوم ما لا يلزم، على أنه قد أتى من بديع النظم بما هو أحزم، ونص قصيدته التي أجاب بها:

[طويل]

---

(1) زيادة من ط.

(2) وردت القصيدة في: البدور الضاوية 730:3 (رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب الرباط).

قوافٍ لأسلاك العقودِ على النحـــر | بها الشعرُ قد أبدى فنونا من السحْر
وطبــعٌ يحاكيـــه النـــسيجُ لطافـــة | وقد عنبرت أذيالـــهُ نفحـــة الزهـــرِ
ومجدٌ يُنبي عن محاسن مـــن مـــضى | كما أنبى للإسفارِ عن صادقِ الفجر
أ رَبَّ المعالي والقوافي ومـــن غـــدا | له الفضلُ مسطورا على صفحة البـــدر
أتاني شـــعر هـــذب الطبـــع لفظـــه | كما هذب الصواغ صـــافيةَ التـــبر
غدا فتنة العقـــل الرصـــين كأنمـــا | به قد نفثت السحر من عقد الفكـــر
ومالت بأفكـــاري حـــلاوة لفظـــهِ | كما قال سكران على نشوةِ الخمـــر
وقلـــدني فخـــرا وعـــزا وسُـــؤددا | يرى مثل عقد الدر في لبـــة البـــدر
حنانيك إن الفكرَ أدهـــاه حـــادث | لهول وهم قد تلجلـــجَ في الـــصدر
ولولا نظام منـــك أيقـــظَ فكـــرتي | لكنت بليدا عن نظـــام وعـــن نثـــرِ
وهبْني صغتُ الشعر تاجـــا مرصـــعا | لبدر الدجا والشمس والأنجم الزهر
أ أرضاهُ للمجد الـــذي ذاع فـــضله | وأخرس أرباب الفـــصاحة بالـــشعر
عليك سلام مـــن محـــب تباعـــدت | به الدارُ مثل المسك أو عنبر الشحرِ

ثم كتب بإثر هذا النظام نثراً وهو هذا: حمدا لدهر أطلع في فلـــك المعـــالي شمسك، ولزمان أزهر في روض السيادة غرسك، لقد أتحفتني منك بتميمة ليس لها إلا نفس الأحرار قيمة، وأقسم بمن زين العقود على النحور، وأخجـــل الـــبروق بمياسيم الحور، وصير النيرات قنائص أقلامك، والدر والياقوت معادنهمـــا بحـــور كلامك، لو قدرت لصيرت لك النثرة نثراً، والشعر شعراً، فضلاً عن القـــريض، ولكن كيف حال المريض، فليقبل سيدي ما أنا بريئ من عهدته ومـــتفص عـــن عقدته، إذ هذه عجالة ارتحال مع توالي الأوحال وضيق المجال، ولولا الحرص على إرضائك والاعتماد على إغضائك ما سطرت ما إن لحظته لفظته، والله يبقيـــك وعلى معارج الاصطفائية يرقيك ويعلمِ الله وهو المطلع. إني وإن تناءيـــت عنـــك شخصا فإن قلبي قد صار بحبك مختصاً، فليدع سيدي لأخيه لعل الله أن ينير لنا ما

أدلهم ويفرج ما أهم، وأن لا يروع سربنا، ولا يكدر شربنا، بجاه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، هـ ما كتب.

ولعمري، وما عمري علي بهين، إن الإذعان لهذا المعجز من القول على كل بليغ لمتعين، فوالله ما أدري أي كلاميه أبلغ، وأي ثوبي براعته أسبغ، أنظامه الذي رقت ألفظه فراقت معانيه وضاقت على استحسان محاسنه طاقة الفكر لدقة مبانيه، أم نثره المزري بنثار المسك الفتيق المتلاعب بالعقول ولا كتلاعب الخمر الرحيق، ما تأملته إلا أبدى لي من محاسنه ما لم أعهد، ولا عاودته النظر إلا أشهدني ما لم أكن أشهد، كأنه روض تأنقت أزهاره، فما عسى يد الناظر منه أن تقتطف، ومن أين لها من كل ألوانه أن تختطف كلما استجاد شيئاً عاقه عن اجتنائه أجود، وكلما عاود النظر كان العود بالفائدة أعود، وبالجملة فالمنصف اللبيب لا يمتري أنه السهل الممتنع، ولا يرتاب أنه الشافي الكافي والقليل المنقنع، وما بعد العيان من بيان، وربما تشوقت نفس الأديب وتطلعت أمنية اللبيب سماع القصيدتين اللتين أوجبت ذكر ما قبلهما، وكانتا في الحقيقة أصلهما، والكلام يقود بعضه برسن بعض، ومسالكه تتشعب بالطول والعرض وتتسع بالرفع والخفض، وتتمايز بالقبول والرفض، والأديب لا يمل فيها الترداد، بل لا يزال نشاطه مع الترداد يزداد، فلنذكر القصيدتين وسببهما، وذلك أني كتبت له أولاً نثراً لا بأس به، فرجع الرسول واضعاً إحدى يديه على الأخرى راضيا من الغنيمة بالإياب، محتسبا في ذهابه أجرا، فرددته إليه بقصيدة بائية للحظ في الطلب ثانية، وهي هذه[1]:

[بسيط]

أنالكَ المجدُ موروثا ومكتسبا زكاء أصل وفرع أثمرَ الحسبا

ماء الصبا ووقار العلم إذ مُزجا بوجهكَ اكتسبا نورا به التهبا

هدى إلى بابك الآمال فيض قدا منك سقى من نأى عنكَ ومن قربا

وقد سما أملي إليك يقدمه ظن جميل فلا ترده مكتئبا

وجهتُ وجه سؤالي لك حين غدا وجهكَ قبلة من في الخير قد رغبا

[1] وردت القصيدة في: البدور الضاوية 727:3 (رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب الرباط).

ما كان ظني أن الوفدَ مــن أملــي ومن كتابي يعــودانِ كمــا ذهبــا
حتى أتى رائدِي صفرا اليدين وقــد غدا بخُفــي حــنين منــك محتقبــا
فعــاتبتني وســاوسُ الــصدور ولم أعبأ بهــا فــرددتُ الوفــد منقلبــا
فقلتُ عَودا على بدء فعــد أملــي إن الجــوادَ إذا اســتوهبته وهبــا
قد يخلــفُ النــوء أحيانــاً فيعقبــه غيث يكون لذاك النــواء منتــسبا
وللمقــاديرِ أوقــات فربتمــا صادفت غيثا نداه اليــوم منــسكبا
فإن يعــد ثانيــا مــن دون رغبتــه فلأردنــــه بــــالرغم محتــــسبا
حتى أنالَ المنى أو يقضي الناس مــن فعلي وفعلكــم في ذلــك العجبــا
بأن يقولوا وحاشا الجود غاض وقــد أبلى الفتى العذر فيما فيه قــد دأبــا
وإن يعد بالمنى فسوفَ أنــشر مــا يملأ أسمــاعَ مــن يهــواكم طربــا
أشدو بــشكركم وأســتعينُ علــى أداءِ واجبــه إخــواني الأدبــا
وأودع الكتــب منظومــا وأنثــره بين المحافل أقضي منــه مــا وجبــا
لكي يقــولَ بــني الآداب أبلــغ في شكركما أكثر الإلحــاح إذ طلبــا
وإنــي بكــلا الأمــرينِ مــضطلع لو مَسني نصب لا أشــتكي نــصبا
وقد وجدتُ مكان القول ذا ســعة كما وجدتُ لــسانا قــائلا دربــا

فلما بلغته القصيدة بعث بالكتاب ومعه جوابها من بحرها ورويها وهو هذا: [بسيط]

ما روضةٌ زادها مزن قــد انــسكبا والفجرُ ينثر من عقد الــدجا شــهبا
فافتر زهرُ اللقاح الروضِ من طرب والشمسُ ما رشفت من ثغرهِ الشنبا
ولا الكؤوسُ ولو لاحــت أشــعتها كــأن حمرتهــا خــدٌ قــد التــهبا

على أغان غــوانٍ في دجــا ســحر تصبي الرموزَ بشدو يبعــثُ الطربــا
ولا وصالَ حبيب زار عن شــحط فرد للجسم روحــا كــانَ مغتربــا
عندي بأحسن مــن شــعر ينمقــهُ من قد غدا علما في الــشعر للأدبــا
الناثر الــدر في طــوقِ المهــار وإن خط وأبلغ من أملــى ومــن كتبــا
در مقول مذهب الكتــاب صــولته تخاله من غــرار الــسيفِ مقتــضبا
شمسُ العلوم تبــدت في سمــا دول تزيحُ أنوارهــا الأحــلاك والحجبــا
وافت خليلك أبيات خجلــت لهــا تُبدي اعتذارا وتخفي تحتــه غــضبا
إن صدرتْ هفوة من خلكم ســفها يظل ما عاشَ منها الــدهر مكتئبــا
فجدْ بعفوك إن العفــو مــن كــرم والعفوُ من أحسن الأشيا لمن غلبــا
لِمْ لا أنيلكَ ما ترجــوه مــن أمــل وأنت تولي لراجيــكَ الــذي طلبــا
وكيــف أمنــع مــن أدراك بغيتــه من بلغ الطالبين الــسول والأربــا
كل يساء بما يعطيــه مــن نــشب يا من يُسر بمــا يعطــي إذا وهبــا
لا تلــزمني ذنبــا ســاقهُ قــدر أدهى وأغرى بنا الأحداث والنوبــا
وبيننــا ذمــم ترعــى شــرائطها فكيف تهجر منك العلــم والأدبــا
هذا جوابي عــن أبيــات شــعركم ومن يساجل بحرا مــاج واضــطربا
لا زلتَ تحيي رسوما للعلا اندرست ما قبلت وجنات الورد ريحُ صــبا

هـــ.

ومن جملة ما وصل إلينا من المكاتيب من المغرب، كتباً[1] من صاحبنا الأريب الأديب سيدي عثمان بن علي، ومن جملتها قصيدة له فائية أردت إثباتها هنا وهي هذه، وقبلها نثر بليغ وهو: من ترك الجسم وهنا، واللب وهنا، وأصلى الفؤاد بنار

[1] في ط: كتابا.

البعاد، وأعرض و لم يبال، وأسلم إلى وبال، وأغاب وأطال، وأذال وصال، فلــولا التعلل بلقائه لم يحقن من المحب فضل دمائه، المعنى بهذا التغزل والمطلــوب منــه التفضل بالتوصل، فقد طال على الكئيب أمد الهجران، وأمضه التأسف والهــوان فقال منشدا، ولبعض لهب الأسى مخمدا:

[طويل]

أهاجرةً بعــد الوصــالِ لهــا إلفــا وغادرةً من كــان أوْفى لهــا إلْفــا

ومحرمة جنبــا لــه خيْــر مَـضجع ومانعة للظلم مــن ظلمهــا رَشــفا

أجاح الهوى جوانحَ الصب مُذ صبا إذ رامَ فتحا منــك أتحفــهُ حتفــا

رقدتَ هنيئا إذ قدرت على النــوى وجفنُ محب من بعــادكَ لا يغفــى

وأضرمتَ جمرا في الحــشا ورجمتــه فرجمك لا ينفي وجمــركَ لا يطفــى

وأزمعتَ صرما دون عفــو كــأنني فرقت من الأوزار ما عنهُ لا يعفــى

حكيت صديقي في خلائق تقتــضي مواصلة الأحزانِ والبشر لا يلقــى

أخالكمــا حــسبتما إن جفوتُمــا تركت الهوى كلا فلم أغضض الطرفا

صدودكما أغرَى الفؤاد وما سَــلا بحقكما عن صَــد حبكمــا كفــى

صِــلاني غشــاني دمــائي[1] أبقيــا فإني وإن طالَ الجفا أرتجــي العطفــا

صديقي ثدي الأنس ارضع مرضــيا به القلب مني قبل ثم ارتضي الحيفــا

فاعقب أنسي بالتناسِــي ومــا درى بأن الردى في الطرد كيف به كيفــا

واشرع رمح الهجرِ بالصد جــاهرا وســل إلى قتلــي بجفوتــه ســيفا

فإن كان غمر عن صــديقي ســائِلا فذا ابن جلاء في الأحبــةِ لا يخفــى

هو العرفُ واعدو من عداه منكــرا وعند ذوي العرفانِ ما أظهر العرفــا

---

[1] في ط: أنعشني نمامي.

أبـــا ســـالم لا زالَ دهـــرا مـــسالما — لـــه أبـــدا ولا عدمتـــه لي إلفَـــا

أبـــا ســـالم أفجعـــتني بتخلـــف — وصَيرتني ذا غربـــة للأســـى حلفـــا

أبا ســـالم شـــوقي للقيـــاك شَـــفني — فهل منكم[1] وصلٌ يزيد الذي شـــفا

أبـــا ســـالم أوحـــشتني وتـــركتني — مَريضا فهل طب بطبـــك يـــشتفى

أبا سالم عهدي بكم أرأف الـــورى — فما لكـــم عـــدتم أفَـــضهم أجفـــا

أبا سالم أحرجت صـــدى لـــودكم — صَديقا وخط لا يرى يقبل الـــصرفا

فلولا المبـــيح للتخلـــف والنـــوى — لما صافحت كفي لكم في اللقا كفـــا

ولكن أجبـــت في مُجـــاورة الـــذي — لإكرامه أعيـــت محاســـنه الوصـــفا

بلغت الذي تنسى الأحبـــة عنـــده — ويرمى بكل الأهلِ من أجله خلفـــا

أرحت فـــؤادا إذ أزحـــت عنـــاءه — بمكث لدى من كان في شدة كهفـــا

شفيت جنانـــا بالحـــضورِ وطالمـــا — بغيته على شفا الهلك قـــد أشـــفَى

ومتعت نفـــسا في بقـــاع شـــريفة — ونزهتَ دون الريب في حسنها الطرفا

هنيئا لـــك الجـــوارُ بعـــد زيـــارة — لسيد كل الخلق من عـــدم الإلفـــا

أعلـــل نفـــسي والتعلـــل باطـــل — وهيهاتَ لا يُجدي لعل ولا ســـوفا

تمـــنى ولـــو أن الـــتمني حاصـــل — أسيرُ مع الركبان يحـــصل لي الزلفـــا

ولكن حسبي عـــن وفـــاق مقـــدر — وهمي في التدءاب لا يقبل الكـــشفا

فعندي من الأثقال ما يمنعُ الـــسرى — وعندي من الأوزان ما يوجب الخوفـــا

ونـــسأل ربي[2] أن يَمُـــن بتوبـــة — تخففُ وزري علـــني أنـــزل الخيفـــا

وأزكـــى صـــلاة الله معهـــا تحيـــة — على أحمد تنـــهل كالمزنـــة الوكفـــا

---

[1] في ط: لكم.
[2] في ط: واسأل إلا.

وأهدي سـلاما وافـرا نامِيـا إلى أبي سالم لا زالَ مـن همـه يكفـا

وممن لقيته بطرابلس الشيخ الفقيه المشارك النبيه سيدي محمد بن العلامـة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بـن محمد بن عبد الكريم الفكون القسمطيني، رضي الله عنه ونفعنا به، قدمها حاجـا وهو أمير ركب الجزائر وقسمطينة وتلك النواحي على نهج أبيه وعادته في ذلـك محافظا على سلوك سيرة والده من التؤدة والحلم والوقار، فأحبته القلوب، ومالت إليه النفوس، ولم يطلع أميراً إلا في هذه السنة، وقبل ذلك إنما كان يطلع بالركب والده، رضي الله عنه، فلما توفي قام ولده هذا مقامه في ذلك، أعانه الله وسدده، وكانت وفاته، رضي الله عنه، عشية الخميس السابع والعشرين ذي الحجة سـنة ثلاث وسبعين وألف شهيداً بالطاعون، وكانت لنا به، رضي الله، وصلة وانتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه في سنة أربع وستين، وقد قال لي، رضي الله، عنه لما طلبت منه الاتصال بحضرته والانخراط في سلك أهل خدمته: إني أقول لك كما قال الإمام الشاذلي رضي الله عنه: لك ما لنا مـن الخدمـة، وعليك ما علينا من الرحمة.

وكان، رضي الله عنه، في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق ومجانبة علـوم أهل الرسوم بعدما كان إماماً يقتدى به فيها، وله في كثير منها تآليف شهد له فيها بالتقدم أهل عصره، فألقى الله في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب والتردد إلى الحرمين الشريفين مع كبر السن، وكان يقول إذا ذكر لـه شيء من هذه العلوم قرأتها لله وتركتها لله، وقنعت منه، رضي الله عنه، بالكلمـة التي قالها لي لما علمت حاله وخشيت أن أثقل عليه وأكلفه ما لا تطيب به نفسه، فإنه، رضي الله عنه، من أهل القلوب، ومروياته، رضي الله عنـه، مـستوفاة في فهرسة شيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي، فنحن نروي عنه جميعها بواسطته، فلما لقيت ولده هذا تقربت له وانتسبت له بمعرفة والده، فوجدت عنه بعض علم بي، وقال: أما أنت الذي وصل إلي كتابك الوالد المبعوث من وادي ريغ عتده قبـل موته بعام، فقلت: نعم، ورحب بي، وهش وبش وأنس، ووجدت عنده عدة من مؤلفات والده، وبعضها بيده، رضي الله عنه، فأعارها لي مدة إقامته هناك، فمنها شرحه على أرجوزة المكودي في التصريف، وهو مجلد أجاد فيه غايـة الإجـادة وأحسن كل الإحسان، وأعطى النقل والبحث فيه حقهما، ولم يهمل شيئا ممـا

يقتضيه لفظ المشروح، ومعناه ألا يكلم عليه، وأجاد كما هو شأنه في تأليفه، وأول خطبته: الحمد لله الذي أجرى تصاريف المقادير بواسطة أمثلة الأفعال، وأوضح بيان افتقارها إليه بتغير حالاتها من حركة وصحة واعتلال، ونوع أشكال عين وجودها إلى ضم الانضمام إليه وكسر الانكسار لديه، وفتح الانفتاح في مشاهدة العظمة والجلال.

ولا يخفى عليك ما اشتمل عليه هذا المطلع من براعة الافتتاح ولطيف الإشارة إلى أنواع الإعراب والتصريف، وقد فرغ من تأليف أوائل صفر من عام ثمانية وأربعين وألف، وشرحه هذا أوسع نقلاً وأكثر بحثاً وأتم تحريراً من شرح العلامة سيدي أبي عبد الله المرابط الدلائي، ولا أدري أيهما سبق إلى شرحه.

ومن تآليفه، رضي الله عنه، ديوانه في مدح النبي، صلى الله عليه وسلم، المرتب على حروف المعجم، وكتب عليه مما يمدح به عند الغمة وساعة الغياهب المدلهمة، والتزم أن جعل مبدأ كل شطر حرفا من حروف: إلاهي بحق الممدوح اشفني، آمين. وجملة ذلك خمس وعشرون حرفا، ففي كل قصيدة مثلها أبيات، فلنذكر بعضها تبركا، فمنها في روي الهمزة:

[طويل]

أبدر أبدتْ في الخافقين سعوده ... ونورا به الأكوان أضحت تلألأُ

له في العُلا أعلى العلا رتبة وفي ... مراقي ذوي العرفانِ قدما مبدأُ

أضاءَ وجود الكائنات ببعثه ... وطلعته الغرا من الشمسِ أضوأُ

هوَ الغيثُ أحيا الأرض بعدَ مماتها ... وخاتم كل الرسل تمت مبدأُ

يرى ذا لواء الحمدِ في الحشر إذ غدا ... مكينا وفي الأهوال للخلقِ ملجأُ

بمولدهِ الأرضُ فخر على السما ... وحُق لها بالفخر وهو المنبأُ

حوى ليلةَ المعراج كل فضيلة ... وأمَّ بها نعم الإمام المبرأُ

قرير العينِ عادَ بالسؤلِ والمُنى ... وتَوَّجهُ المولى بما هو أهنأُ

أتم له بالفرضِ أشرف خلعة ... وأخدمه الأملاك والحجب توطأُ

لهُ المعجزات الغــر أســطع نورهـــا وأرفعها قــدر أمــد الــدهر يقــرأُ
مكين أمين صادق القــولِ مرتــضى به القلبُ يجلى عنه ما كــان يــصدأُ
مــآثره محمــودةٌ فــوق مــا أتــى به من بديع الذكرِ للعــرف ينــشأ
دعا فاستجابَ في المعــاد ادخارهــا أراح بهــا كــلا فللجمــع تخبــأُ
وكم له مــن آي كــريم شــهيرة أصــابعهُ أروتْ إذا الجــيش يظمــأ
حــنينٌ لجــذع وانقيــاد لدوحــة كما قمر قــد شــق نافيــه يــشنأُ
إشارة كف عندما الشمس فاخرت قضى طمسها فالضوء لا بــه يعبــأ
شكا جملٌ أشكا والــضب إذ لجــا بذعر فنالَ الأمــن والــذعر مــدرأ
فلله كم قد حازَ من مُعجــز وكــم له مــن ســنى القــدرِ والله يكــلأ
نبي له الجــاهُ العظــيم فمــن أتــى حماه نجــا والهــون لا عنــه يطــرأُ
ينادي الحِمى يا مــن يلــوذُ ببابنــا له الأمنُ والأوصاب تشفى ويهنــأ
أيا خيرَ خلــق الله أمّيــت قــصتي إليك فإن الجــسمَ بالــسقم يــرزأُ
أنلني المُنى من جود طولــك إنــني على ظمإ من منهلِ العــذب أمــلأُ
منادي الشفا مما به الجــسمُ مبتلــى تشفع فــذو الآلام ينجــو ويــبرأُ
يمينٌ جرتْ من نــاظم عــن تــيقن بأن لك جاه لــيس داعيــه يخــسأُ
نظمت وقد أهديتُ أبغي الرضا غدا وما هو في الأبياتِ للــصدر مهــدأُ

قافية الباء:

[طويل]

أحبتنــا إني كلفــتُ بحــب مــن لهُ العز قِــدما والرســالة منــصبُ
لدى نــوره الأنــوار تخبــو ولــيلا ومنه استمدت والــشواهد تكتــبُ

أيـا سـيدا فـاقَ النبـيين كلـها وبدرٌ لـه فـوق المراتـب مرتـبُ
هديتَ نفوسا بعدما ضـل سـعيها ومولدك الأسنى به القلـبُ يطـربُ
يفوحُ ذكاء المسك من ريحك الـتي بها طابت الأكوانُ والـريح أطيـبُ
بطلعتك الغـراء أشـرقت الـدنا وأضحَى على الإشراك للباس مرهبُ
حللتَ مـن العرفـانِ كـل محلـة بذا كانت الأرسال تـنبي وتخطـبُ
قرأتَ سطور السر لـما سـريتَ إذ تقدمت عن جبريل تـدنى وتقـربُ
أتاكَ الندى يا أفضلَ الخلـق أقـبلن فكنت كقاب القوس بل أنت أقربُ
لك البقية العظمى فسلْ تعطَ وارغبن أبحنا لك الأكوان إذ فيـه ترغـبُ
منحناك قربـا لا لغـيرك مطمـع إليه وأعطيناكَ مـا أنـت تطلـبُ
هناك سراح الطرف متـع تطـولا أزلنا عن الأبصارِ ما كـان يحجـبُ
دنوتَ وحيدا إذ دعيـت لحـضرة بها الأين والأثـار تفـنى وتـذهبُ
وتوجتَ يا محبوبـا تـاج كرامـة وبالكأسِ من بحر المعارفِ تـشربُ
حظيتَ بما حليت من خلعـة البـها وطوقت فرضـا بالمهابـة يرقـبُ
أتيـت كلـيم الله بعـدَ تـردد إليهِ بتخفيـف لمـا كـان يـصعبُ
شكوتَ له إذ ما وما لـك دعـوة بقـدر الحيـاءِ والجلالـة أرهـبُ
فترهت في الفـردوس نفـسا بهيـة وفي ملكـوت الله طُـرا أتقلـبُ
نهضتَ لهذا الـسر في بعـض ليلـة رجعتَ من المسْرى وما الليل يذهب
يرومُ العدا التنقيصَ عنـد سماعهـا فما كـان إلا والـبراهينُ تـضرب
أتى العيرُ بالتصديق مـرأى ومخـبرا وفي المسجد الأقصى دليـل يرتـبُ
أيا مالك الأوصافِ فُقت الورى فما به خصك المولى من الذكر أعجـبُ

معالم ديـــن الله قـــد ســـطرتَ بـــه		وإخباء صـــدق والأماثـــل تقـــربُ
ينادي عليل الجسم غوثـــا ببـــابكم		فيشفى كما الأسقام عن ذاك تسلبُ
نهضت بمـــدحي مـــستغيثا وطالبـــا		فلاحا وما في أول الـــسطر يجلـــبُ

قافية اللام:

[طويل]

أعـــيني جَـــوادا بالـــدموع تأســـفا		لصب نحيل الجـــسم زايلـــه عقـــلُ
لدى غصني لفح من الحب فانمحت		مَحاسن وجه ذاب إذا بقي الـــشكلُ
أذاعت شهورُ الوجد كـــامنَ دفقـــه		فأضحَى المحيا كاسفا ضاء من قبـــلُ
هللت الـــنيران النـــوائس أضـــلعي		فيا ليتَ كان الوصلُ وانتظم الشمل
يبيت من الأشـــواقِ قلـــبي معـــذبا		كملدوغ رقط أو تناصـــله النبـــلُ
بنـــاظر عَـــيني لاحَ ســـاطع نـــوره		على روضة الخضراء حيثُ بدا الوصل
حـــوت قبـــة لم يخلـــق الله مثلـــها		ولا شـــابهته الأنبيـــاءُ ولا الرسْـــل
قبابٌ بها مسك يفـــوح لنـــا شـــذا		وغرتـــه الأنـــوار كلامـــه تجـــل
أتتك به أخبارٌ مـــضت كتـــب بهـــا		هواتفُ صدق بان من وصفها الفـــضلُ
لمولدِهِ الأســـنى تـــدلت كواكـــب		وحفت به الأملاكُ وازدحمَ الحفـــل
مزاياه عند الوضع جـــاءت شـــهيرة		فقد حضرته العينُ لما انقضى الحمـــلُ
مكارمـــه إذ ذاك أبـــدت فـــضائلا		لذا جاء مسرورا بكحل الهدى كحل
دنـــت شـــرفا للـــهاشمي محمـــد		ملائكـــة تـــسعَى بخدمتـــه تعلـــو
وقد صانهُ الرحمن من كشف ســـوءة		توالـــد مختونـــا فلـــيس لـــه مثـــلُ
حوى الطست والإبريق أيدي ملائـــك		كما حوت المنديل من سُندس تجبـــل

أزالوا من المنـديلِ خـاتم صـدقه بـه ختموا ظهرا فقد كمـل النبـلُ
شريف المحيا غسله قـد بـدا إذا بمـاء الإبريـق نائلـه جـزل
فالقوا عليه جفنة خـوف أن يـرى بسبق لجـد إذا تلاحظـه الأهْـلُ
نزيدُ بأملاك لـه الطـرف نزهـت لدى ملكـوت الله وأنـس لم يخـل
يجوبون أقطارا وقـد كتبـوا اسمـهُ على ورقِ الأشجار والشيم القفـل
أيـا نخبـة لم يخلـق الله مثلـها جنيت وبـالأوزانِ يـنكني الثقـل
أتيت ذليلا خائفـا بابـك الـذي به أمن المـذعورُ وانقـشع المحـل
محلك غوث والعليـلُ بـه التجـا تذبح من الآلام كي يذهب الـشكلُ
يحن طبيـبٌ للمـصاب وأنـت لي طبيب ومنك الطب إذ ما بدا السؤلُ
نسائلك التخليصَ من كـل عاهـة وفوز الرضى والسؤل من مبدإ يجـلُ

قافية الياء:

[طويل]

أيا باهرَ الإشراقِ يـا غايـة المُـنى ومن حازَ في تشريفهِ الرتبـة العليـا
لوجهكَ يا بـدرَ الكمـالِ تلألـؤ وغيثٌ به الأكوانُ إذا ما بـدا تحيَـا
أزحت ظلامَ الشركِ بالطلعـة الـتي أضاءتْ كما أوليتَ من نورها هديا
هداك صِراط مستقيم مـن اقتفـى مراشده استهدى وقد جانبَ الغيـا
ينجى من العاهـاتِ مُعتـصما بـه وقد جاءَ بالبُشرى كما يدفع الخزيـا
به فازَ من قد فاز يا خـير مرشـد لذا ورث الفردوس إذ ورث الوحيًا
حوى كل علـم سـابقا ومُـؤخرا وأهدى إلى من قد يناضـله العيـا
قوارعهُ من نظمـه قـدت الحـشا فما وجدوا طعنا ولا أظهـروا أليـا

أيا من سما فوق السماواتِ والعُـــلا　　　وجاوزَ كل الحجب يرقي إلى البغيـــا

لقد جئت يا دخري وكنزي وعُدتي　　　ليوم تعادُ الخلـــق فيـــه كمـــا هيـــا

حصينا من الزلات ضَـــارع علـــة　　　توالت على من نابذ الكفر والخزيـــا

مدحتك والتقصيرُ شـــأني وشـــيمتي　　　وقد خفت من ربي إذا جئتـــه حيـــا

دعاني الصبا للـــهو حـــتى أقـــامَني　　　مقاما تراني قد خبئت بـــه الـــسعْيا

ولعـــت بآثـــامِي زمـــان شـــبيبتي　　　وحملتها الأهـــواء فأحـــسنت رأيـــا

حللت محل الجود والفـــضل أبتغـــي　　　نوالا يريحُ الذنب كي يكسب المحيا

أغثني إذا ما الموتُ أحكم ســـكرتي　　　بحضرتك الحسناء تصلح لي الوصـــيا

شفاعتك العليا أراعـــي بمحـــشري　　　لتـــستر زلاتي وتـــسقطَ لي البغيـــا

فظني جميل فيك يا أكـــرمَ الـــورى　　　عطاء أبث جزلا كما تحسن الرعيـــا

نريدُ جوار الخلق معـــك وفي الـــدنا　　　فلا تحرمني مـــا بـــهِ مهجـــتي تحيـــا

يحقـــق آمـــالي ويـــدفعُ كـــربتي　　　مديحك يا مختـــارُ أكـــرم بـــه ريـــا

أما والذي أحيا بك الكـــون إنـــني　　　ببابك راج مـــا تلبثـــت في الـــدنيا

ألم يـــك للمهـــدي جـــزاء يـــسره　　　على من له أهدى بشرعك ذي الفتيـــا

مواهبك الفـــضلى طلبـــت لمنـــيتي　　　جزاء على مدح وأنعم بـــه البُغيـــا

يمن عظيم الجود مـــن ســـيح بحـــره　　　بتحقيق آمَالي كمـــا يكـــرم اللقيـــا

نـــشاب بـــنظم رؤيـــة الله في غـــد　　　وسؤلي وما لبدء من ذي وذي ثنَيَـــا

هـــ.

ولنقتصر على هذه القصائد تبركاً بمن قيلت فيه، وبنفس هذا الشيخ المبارك، رضي الله عنه، وبآخرها بخطه: تم بحمد الله وحسن عونه هذا المديح في المصطفى المليح الفصيح في ليلة الجمعة وقت العشاء منها ليلة ثلاثة وعشرين من جمـــادى

الأخيرة من سنة إحدى وثلاثين وألف، عرفنا الله خيره وكفانا شره، بجاه رسول الله وأصحابه وأوليائه، وأسأله بحرمة المديح والجاه أن يعجل بالشفاء الذي لا سقم معه، ويتحف بالمطلوب وما هو لي فيه مرغوب، إنه سميع مجيب، مع عقب صالح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن تآليفه، رضي الله عنه، جزء في تحريم الدخان سماه: محدد السنان في نحور إخوان الدخان، وهو في عدة كراريس مشتمل عل أجوبة عدة من الأئمة، وقد لخصنا بعضه بحسب ضيق الوقت، ولنذكر ذلك تتميما للفائدة، وهذا نص ما قيدته: الحمد لله، سئل الأجهوري من علماء المالكية بالقاهرة المحمية من علماء العصر عن حكم الدخان فأجاب: الدخان المذكور ليس مسكراً قطعاً، لأنَّ المسكر ما غيب العقل دون الحواس مع نشوة وطرب، وهذا إن سلم أنه يغيب العقل، فليس معه نشوة وطرب كما هو مشاهد، وأخبرنا به جمع كثير ممن يفيد خبرهم العلم الضروري، وإذا لم يكن من المسكر وسلمنا أنه يغيب العقل فيجري على حكم المفسد والمرقد، فيحرم على من يغيب عقله، ولا يحرم على من لا يغيب عقله، وهذا يختلف باختلاف الأمزجة وكثرة الاستعمال وقلته، لأن المفسد هو ما غيب العقل دون الحواس لا مع نشوة وطرب، والمرقد هو ما غيب العقل والحواس جميعا. صرح أئمتنا بأنه يجوز للشخص أن يستعمل منهما القدر الذي لا يغيب العقل ولو لغير ضرورة، وممن ذكر ذلك القرافي صاحب الذخيرة، والشيخ خليل في توضيحه، وابن غازي في تكميل التقييد وغيرهم هـ.

وعليه مؤاخذات، فقول الشيخ المذكور: الدخان ليس بمسكر قطعا يؤذن بأن علة التحريم عموما منوطة بالإسكار حتى يصح له الاستدلال، وعليه فحذف الكبرى[1] من المقدمتين للعلم بها، والسياق يرشد إليها، والتقدير فيها، وما ليس بمسكر فليس بحرام، وهذا غير صحيح، لأن التحريم غير خاص بما فيه الإسكار، وهو أوضح من أن يوضح ولا يعتقد في المجيب إرادته إلا أنه اقتضاه اللفظ والكلام على مقتضى الألفاظ، فإن قلت: لا نسلم أنه مقتضى العبارة إلا لو كان المحذوف المقدر ما قررتموه، وليس كذلك لأن الثانية من المقدمتين هي ما أشعر بها قوله بعد ذلك، وإذا لم يكن من المسكر وسلمنا أنه يغيب العقل. قلت: فهم هذا من كلامه بعيد لمن وقف مع ظاهر الألفاظ التي هي قوالب المعاني وذلك لأن قوله: وهذا إن

[1] ساقط من ط.

سلم أنه يغيب العقل دليل عنده على أنه لا يغيبه بقرينة أن الشكية الداخلة على فعل سلم فإن التسليم الواقع على طريق الجدل وقوفا مع الأدلة، وظاهر اللفظ، وإذا حكم بمقتضاه فهو عنده لا يغيب العقل و لم يتضح في المقدمة الثانية إلا ما قررناه لعدم الجامع بين المقدمتين، وهو اشتراكهما في الحد الوسط. لا يقال فعل التسليم الداخل عليه أن هو تسليم انقطاع لا تسليم جدل حتى يلزم ما ذكرتم، بل ليس عنده إلا ما ذكر من كونه مغيبا للعقل، وحينئذ لا يصح أن يكون قوله بعد ذلك، وإذا لم يكن مسكراً هو المقدمة الثانية لأنا نقول حمل الكلام على هذا يورث ركاكة ونفوراً لسماعه لذوي الألباب، فلا ينبغي أن يتناول لهذا الشيخ المحب مثله، وأيضاً ذكره في بيان تعليل نفي أن المسكر ما غيب العقل ينافيه إذ لو كان عنده مغيبا اقتصر في نفي الإسكار عنه على الصفة الخالصة به فقط، فإن قلت في الكلام حذف دل عليه أمراً أحدهما قوله قطعاً فهو يؤذن بأن المنفي قطعا إنما هو الإسكار وغيره ليس محقق الانتفاء، بل هو معروض لتطرق الاحتمال، وهو كونه مغيبا للعقل[1].

والثاني ما يفهم من قوله: وسلمنا أنه يغيب العقل، وحينئذ فكأنه، قال: ليس بمسكر قطعا، وهو مغيب احتمالا أي أن الدخان مقطوع بنفي إسكاره ومحتمل لتغيب العقل، وإذا لم يكن مسكرا وسلمنا تغييبه العقل فيجري إلخ، فيمكن إذا أن يكون نظم الدليل على هذا النمط. قلت: لا يخفى ضعفه، أما أولا فلأن طريق أهل المناظرة أن الدعوى المسلمة في ثاني حال على طريق الجدل مرجوحة، والراجح عدم اعتبار عدمها، وإنما سلمت لإقناع الخصم وتدريبه إلى ما هو أجلى في نظره، وعلى هذا فيبطل ادعاء كون قوله: وإذا لم يكن مسكراً مقدمة. وأما ثانيا فلأنه أخلاها من دليل يدل على كونه مغيبا سلمنا كونه مقدمة ثانية فيرد عليه ما ورد أولا من أن علة التحريم ليست منوطة بالإسكار وتغيب العقل، ولا إشعار لنفي الأخص بنفي الأعم. سلمنا ذلك فقوله: فيجري على حكم المفسد والمرقد غير صحيح، أما أولا فلاقتضائه الشك في كونه مرقداً، وليس كذلك لأن المرقد ما غيب العقل والحواس، وهذا لا غيبة معه للحواس بالمشاهدة. وأما ثانيا فلما فيه من مجاراة الشيء على حكم نفسه، فإن قلت: هذا غير لازم لأنه أحال على ما هو أعم من المسألة فهو أمر باق يجري في الإباحة وعدمها على ما ليس بمسكر مما

[1] في ط: للعقول.

وافقه في صفته، وإنما يلزم ما ذكر أن لو حكم فيه بحكم المفسد تعيينا ثم أجـــراه عليه، قلت: لا نفي عنه أن يكون مسكراً من حيث انتفاء النشوة والطرب تعين أنه سليم الحواس، وتسليمه تغييب العقل مع ذلك حكم عليه بأنه مفسد لدخوله في تعريف المفسد من الأقسام الثلاثة، فاتضح ما ذكرناه لمن أنصف واتبع الحـــق و لم يتعسف، ثم لجأ المجيب في صحة الصغرى بدعوى نفي الإسكار إلى دليلين الأول المشاهدة، والثاني الإخبار المفيدة العلم الضروري، وكلاهما لا ينهض حجة على ما ادعاه، أما الأول فلأن المشاهدة إنما يحكم بمقتضاها فيما هو متعلق لها، وإنما يصح ذلك إن لو كان مدلول الإسكار عربدة الساكر وممايلته ورقصه وغير ذلك ممـــا يتعلق بالمشاهدة، وليس كذلك، وسيأتي إن شاء الله، وإنما الإسكار نشوة وطرب يتعلق أمره بالقلب، فتارة يعظم فينتشر أثره على الجوارح فيحصل معها ما ذكر، وتارة تقتصر على فرح قلبي وزهو لبي[1]، وهذا كثيراً ما يشاهد من متناول الخمر لا يحصل منه ما يظهر على جوارحه من العربدة ونحوه، سيما بعـــضهم، بـــل لا يكون سكره إلا قاصراً على حالة الباطن، فهم في ذلـــك باعتبـــار الأشـــخاص والأمزجة والطبائع.

وإذا ظهر لك ما قررناه علمت بطلان ما ذكره المجيب من كون المـــشاهدة دليلاً على عدم السكر. فإن قلت: هذا مسلم، إلا أنا لم نشاهد من أصحابه دلالة ظاهرة على سكره ولو نادرا، ألا ترى الخمر، وإن كان لا يميل بعض الناس عياناً، فقد شاهدنا منهم من يعربد ويظهر أثرها للمشاهدة. قلت: إذا عرفت ما ذكرناه من الإسكار ظهر لك الجواب من هذا، ألا يرد فيمكن أن يكون سكر الدخان مما لا يبلغ ظهور أثره لحس المشاهدة، وإنما هو منوط بالباطن فقط، ولا يـــشترط في حقيقته ما يشاهد من حال بعضهم في عرابيده كما أشرنا إليه قبل، وسيأتي تمامه إن شاء الله.

وأما الدليل الثاني فهو الذي يعبر عنه بالتواتر، وهو معارض بخبر من أثبت له نشوة وطربا، وكثيراً ما سمعنا ممن تناوله أنه يجد لنفسه معه نشوة وطرباً، وأن منهم من أقلع عنه، ونبذه لذلك الحال الوجداني، ومنهم من أصر على ذلك، والعيـــاذ بالله، ويدل لما ذكروه من النشوة والطرب استغراق أربابه الأزمنة لشربه وتفويت ما لديهم من الأموال في جلبه، ونسيان ما سواه من منافعهم حالاً، وحالاً عنـــد

---

[1] في ط: ولهو قلبي.

شربه وعدم التفاهم إلى لوم لائم وعذل عاذل، وما ذاك إلا لما استغرقوا في شربهم إياه من السرور والنشوة، وبهذا استدل الشيخ سيدي عبد الله المنوفي على أن الحشيشة ذات نشوة وطرب حسبما ذكره تلميذه الشيخ خليل رحمه الله في توضيحه، على أن الخبر الذي أراده إن كان مستنده أصحاب شربه فلا ينهض حجة لما فيه من الاتهام، وقد اعتبروا أشراط نفي الاتهام فيما اعتبر من عدد التواتر حسبما نقله الأصوليون. وذكر التفتازاني في كتاب التلويح في اشتراطهم في التواتر أن لا يمكن تواطؤهم على الكذب، أن هذا الشرط عند المحققين تفسير للكثرة، بمعنى أن المعتبر في كثرة المخبرين بلوغهم حداً يمتنع عند العقل تواطؤهم على الكذب حتى لو أخبر جمع غير محصور بما يجوز توافقهم على الكذب فيه لغرض من الأغراض لا يكون متواترا، وأنت خبير بما في تلقي آلفي السكر منهم من الغرض الفاسد الموجب الاتهام في بقائهم على ما هم عليه من تناول ما اغتبطوه، واستمرارهم عليه. فإن قلت: المُقَرَّر عند أهل الأصول عدم اشتراط العدالة فيمن يفيد خبرهم العلم، بل حكموا بإفادته العلم ولو كانوا ذوي فسق. قلت: يفيد ذلك بما إذا لم يكونوا يخبروا بما لهم فيه أرب وبغية، وأما ما لهم فيه أرب وشهوة كهذه المسألة فلا كما تقدم قريباً. فإن قلت: ما حملت عليه كلامه يخالف ما قرره القرافي في تنقيحه حيث جعل ما مدركه الوجدانيات في فصل غير فصل التواتر، فهو مما أفاد العلم ضرورة بطريق غير طريق التواتر، وكلام المجيب يوافقه حيث قال: وأخبرنا به جمع عظيم ممن يفيد خبرهم العلم الضروري. قلت: تنقده التادلي قائلاً بعد أن ذكر تمثيل القرافي له بأخبار كل واحد منهم أنهم وجدوا الطعام الفلاني شهيا أو كرها أنه راجع إلى التواتر المعنوي، ثم هذا كله إن كان المعتمد في نفي الإسكار خبر من أمر بتركه وأباه ما شاهدناه من أهل بلدنا وما هم عليه فيه من التعصب الجهلي، وأما من ليس بهذه المثابة فيكفي في تضعيفه ما قررناه قبل من[1] معارضته بقول من أثبته. فإن قلت: ناهي الإسكار هم من الكثرة بحيث يبلغ من قبول الخمر والصدق مبلغ الضرورة ومثبته على ما زعمت أفراد فلا يعدوا خبرا لواحد فيسقط التعارض. قلت: حيث ما ثبت الإسكار ثبت التحريم، وانتفاؤه في بعض الأشخاص أو جلها لا يبيحه لما تَقَرَّر من درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وتقديم المحذر على المبيح، على أن خبر الواحد إذا احتفت به قرائن أفاد

[1] ساقط من ط.

العلم كما تقرر في فن الأصول، وقد قمنا ما هو قرينة لذلك، وإذا ضعف المدرك الثاني للمحب ضعفت قطعية نفي الإسكار المأخوذة في دليل إباحة شربه، وقوله: فيحرم على من يغيب عقله، ولا يحرم على من لا يغيب عقله يقتضي بحسب الظاهر أن حكم المرقد والمفسد كذلك، و لم يذكر العلماء ذلك في المفسد والمرقد، بل أطلقوا القول بتحريمه في عموم الأشخاص، نعم على ما ذكره القرافي حسبما نقله عنه وعن تابعيه يحرم ما يغيب العقل منه دون ما لا يغيب معه وعيه، فصواب العبارة: فيحرم استعمال قدر ما يغيب العقل منه ولا يحرم استعمال القدر الذي لا يغيبه، وفرق بين العبارتين لما يلزم على عبارته من جواز تناول من لا يغيب عقله القدر الذي لا يغيب العقل معه في غيره، وذلك فاسد لثبوت تغيب العقل معه في ذلك، فيحرم ولو تخلف. فإن قلت: يلزم مثله فيما إذا كان قدراً لا يغيب معه العقل لأن تلك الذات في الجملة ثبت لها التغييب فيحرم تناوله مطلقاً وهو باطل لما نص عليه العلماء من جواز تناول القدر الذي لا يغيب معه العقل كما تقدم. قلت: القدر المذكور لم يثبت له وصف التغييب قط، فهو سالم من وجوب الحظر بخلاف ما ثبت له وصف التغييب في صورة، فقد وجب فيه الحكم بالتحريم، فحيث ما وجد ذلك القدر وجب ابتعاده، صاحبته تلك الصفة أم لا. وقوله هذا يختلف باختلاف الأشخاص في تسليم منه لكونه يغيب العقل كما أشرنا إليه قبل وإقرار بعدم انضباطه في شخص معين، وقدر مبين وهو بعينه معتبر في الإسكار بدليل المخبر على إثباته فلا يكون إفادة خبر الجمع عنه نفيه ضرورة بالإطلاق، وإذا جاز إسكاره وعدم إسكاره بتعدد المحال والمقادير صح امتناع تناوله لما قدمناه من سد الذرائع المبني عليها مذهب مالك، رضي الله عنه، ولعدم تيقن أن هذا الشخص المأذون له في تناوله ممن لا يسكره، ولما ورد في الصحيح: ما أسكر كثيره فقليله حرام[1]، إذ العلة الإسكار، وحيثما ثبت لذات وجب تحريمها، فلا فرق فيه إذن بين ما أسكر منه وغيره كما هو معلوم بين الأئمة وعلماء الأمة، وقوله: لأن المفسد، وهو ما غيب العقل والحواس إلخ، دليل على إرادة الاحتمال الأول من الاحتمالين الذين ذكرنا، وهو ينافي فحوى كلامه من أن الدخان لا يغيب الحواس لما قَرَّرناه. وقوله: صَرَّح أئمتنا بأنه يجوز للشخص إلخ، هو مع تيقن القدر الذي لا يغيب العقل، وأما مع نفي ذلك فلا، فإذا ظن الغيبوبة أو شكها، فكما لو تيقنها

---

[1] المستدرك على الصحيحين 3:466.

في طلب المباعدة من تناوله. وقوله: ممن ذكر ذلك القرافي إلخ، من نسب إلـيهم سوى القرافي ليس ما ذكر قولاً لهم، وإنما هي نقلة عن القرافي بلفظه إلا أن يقال حكايتهم له عنه وتسليمهم إياه يتنزل منزلة القول به، وهي مسألة خلاف.

وكنت اطلعت أول ما فشا شربه، أعني الدخان، بهذه البلدة على جواب فيه يذكر أنه لمفتي القيروان خدم به حضرة أمير إقليمه إذ ذاك طال عهدي بـه، ولم آخذ فيه بالحزم حتى أحفظه أو أنسخه تهاونا بشأن المسألة إذ ذاك لما لم أظن يصير أمر الدخان إلى ما شاهدناه[1]. ثم نقل كلاماً في تحريمه لصاحبه الأستاذ أبي عبد الله محمد السوسي المغربي المتوفى بالجزائر سنة ثلاث وعشرين بعد الألف، وبحث معه في استدلاله، ونقل ما استحضره من كلام جمال الدين مفتي القيروان وأبطلـه، ثم نقل أجوبة في تحريمه منظومة لبعض الفاسيين ولمفتي القسنطينة أبي محمـد سـعد الدين. ثم قال: فاعلم أنَّ الكلام على اجتناب الدخان من ثلاثة أطراف من حيث ذاته، ومن حيث صفته، ومن حيث عوارضه، وقدم مقدمة في أن المؤمنين أمروا بما أمر به الرسل من أكل الطيب، وهو المستلذ، ورجحه، أو الحلال، وأن الـدخان ليس بمستلذ طبعاً وليس بمباح لأنه كريه الرائحة، والنبي مأمور باجتناب خبيـث الرائحة وكريهها، وكذلك المؤمنون لأمرهم بما أمر الرسل، فعلى هذا هو مطلوب الترك إما على وجه التحريم أو الكراهة، فانتفت الإباحة والإدمان على المكـروه حرام. ثم قال: الطرف الأول في اجتنابه من حيث ذاته، لنا عليه أدلة أحـدها أن نقول: الدخان خبيث الرائحة، وكل ما كان كذلك فالشرع طلب اجتنابه بيـان الصغرى واضح لذي طبع سليم، وبيان الكبرى ما في المقدمة من أن المراد بالطيب الحلال أو المستلذ به أمر الرسل وأمر المؤمنون بما أمر به الرسل، ولا شك أنَّ النبي مأمور باجتناب كريه الرائحة ولا يحسن بمسلم أن يحب ما يكرهه الرسول إلى أن قال: ولا يخطر ببال من يألف جنس الدخان من الطبائع في الحيوان البهيمي فضلاً عن أرباب الألباب حتى أن النحل تترك ما كابدت عناءه لأجله، ثم ذكر وقعـة الجراد الوارد في سنة ثلاث وعشرين وأربع وخمسين حتى عم الأفق كثرته وأجدب السهل والجبل وطأته حتى كان قنطرة على الوادي يجوز الناس على متنه ويرمـى بأضخم حجر فيمسكه متنه عن الوادي، وتغير منه ماء الوادي ما يزيد على شهر، وصار كالقطران ولا يشرب، ففقد الماء وغلا، واستعانوا على تنفيرها بالـدخان،

[1] في ط: شاهدته.

وذلك حين اشتهار أمر هذا الدخان، وكأن الله عاقبهم عليه بهذا الجراد ونبههم بنفورها منه، وهم لا يبصرون. ثم قال: حيثما تقرر لدلائل طلب اجتنابه تعين أنه غير مباح فدأبه بين التحريم والكراهة، وقد قيل بالقولين في الثوم ونحوه، لأنّ التحريم لأهل الظاهر. ثم ذكر أن المستلذ في الآية لا يمكن أن يفسر بحساب طبائع جميع الناس، فوجب اعتبار طبائع العرب الذين بعث فيهم الرسل وكل ما يستطيبه العرب فهو حلال، والمحرم الخبيث لا يستطاب عند الشافعي. وأما الطرف الثاني فأدلته أن الدخان نار، والنار يجب اجتنابها لباطن الجسد، فالدخان يجب اجتنابه لباطن الجسد، أما أنه نار فلأن حقيقته على ما قال الأطباء أجزاء هوائية ممتزجة بأجزاء نارية، وذكر رؤيا، وهي أن رجلا كان يشربه فرآه الشيخ في النوم في دار يكثر الترداد إليها ولامه على الدخان. قال: وقلت له: إنه يثقل اللسان عند الموت عند ذكر الشهادة، ولم أطلع على من وصفه بذلك، فقضى الله بعد ذلك أن وقع للرجل سبب أوجب كثرة دخوله لتلك الدار فظهر تصديق الرؤيا هـ. ما قيدت منه مستعجلاً، وقد كثر خوض المتأخرين من علماء هذا القرن في أمر هذا الدخان بين مبيح ومحرم، والأكثر على التحريم منهم علامة زمانه الشيخ إبراهيم اللقاني وشيخه المحقق الشيخ سالم السنهوري[1]، وممن ألف في إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهوري، وكلامه هو الذي رده الشيخ الفكون. ومنه الشيخ أحمد بابا التنبكتوي السوداني[2]، وقد أخبرنا شيخنا سيدي أبو بكر السجتاني، رضي الله عنه، أنه راجعه في كثير من أدلته التي استدل بها على إباحته، فلم يجد عنده تحقيقا أيضا. قال: وقصارى ما قال لي إنها ليست من أخلاق الصالحين، وقصدنا تنفير الناس عنها. قال لنا شيخنا المذكور: قد رأيت في شأنها نحوا من ثلاثين تأليفا بين محلل ومحرم، ولا أرتضي شيئاً منها، وكان، رضي الله عنه، يقول: مذهبي فيها التوقف وعدم الجزم فيها بتحريم أو تحليل، لأن إحداث حكم من أحكام الشرع في نازلة من دون برهان واضح من البلاء العظيم الموقع في الدين شديدا أمره، ومن أظلم ممن قال إن الله حرم هذا أو أحله بدون نص من الشارع، أو قياس مقبول مسموع جار على أصول الشرع وقواعده، إلا أنه كان يجزم بوجوب تركه من

---

[1] سالم بن محمد السنهوري، مفتي المالكية بمصر، توفي سنة 1015 هـ: شجرة النور الزكية 418:1.

[2] أحمد بابا التنبكتي السوداني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر، من فقهاء المالكية الكبار، له عدة تآليف منها شرحه على المختصرونيل الابتهاج بتطريز الديباج الذي نيل به ديباج ابن فرحون، واختصر شرح صغرى السنوسي وغير ذلك، توفي عام 1035 هـ: روضة الآس، ص: 303. التقاط الدرر، ص: 87. صفوة من انتشر، ص: 114.

جهة أخرى وهو أنه مجهول الحكم، ولا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وهذا الأمر قد جهلنا حكم الله فيه في هذا الوقت وإلى الآن لم يتضح فيه شيء يثلج له الصدر ويبين فيه الأمر، وقال لي، رضي الله عنه، وقد رأيت قصيدة في تحليلها للعشابي الدرعي تزيد على مئين من الأبيات، قال: وقد عارضتها بمثلها وكتبت في آخرها ما معناه: لست ممن يذهب في هذا إلى التحريم ولا إلى التحليل، وإنما أردت أن يعلم الناظر في القصدين أن كل واحد منا يتكلم بهوى نفسه وليس على يقين فيما يقول. وقال لنا رضي الله عنه: وأبلغ واعظ رأيته في شأنها يدل على تحريمها، لو كنت ممن يعتمد المرائي وأشباهها في التحليل والتحريم، وذلك أني كنت بدرعة أول ما ظهرت هذه العشبة وأنا حديث السن في أوائل الاشتغال بالطلب، بينما نحن ذات ليلة والطلبة مجتمعة في ليلة خميس كما هو شأنهم في ليالي تعطيل القراءة، فأتى بعضهم بهذا الدخان فتناولوه فيما بينهم على أن جاءت إلي فتناولتها وأخذت منها نفسا أو نفسين، فلما نمت جاءني في عالم نومي رجلان بيدهما حرب من حرب السودان، وما كنت رأيتها قبل ذلك، فأخذ يضرباني ويعذباني ويقولان لي لم تناولت الدخان وأنا أعتذر لهما وأقول لا علم لي بشأنها، ولم يقبلا عذري وعذباني عذاباً شديداً حتى استيقظت ووجدت أثر الضرب في جسدي ظاهراً أتألم منه ألماً شديداً، وبقيت مريضاً من أجل ذلك نحواً من سبعة أشهر. قال لنا رضي الله عنه: وأنا لا أشك في صدق الرؤيا، ومع ذلك فأنا متوقف عن الحكم بالتحريم لما في الحكم من الخطر، ولم أخبر شيخنا اللقاني بهذه الرؤيا خشية أن يعتمدها في التحريم هـ. ما ذكر لنا شيخنا وغالبه بمعناه.

قلت: والذي أرتضيه ما ذكره شيخنا هذا، رضي الله عنه، من الوقف، مع الميل القوي إلى التحريم، وغالب المتورعين من الفقهاء ومعهم جميع الصوفية أرباب القلوب[1] الصافية يصرحون بالتحريم، والذي أعتقده أن الفقهاء إذا اختلفوا في حكم وكانت الصوفية في جانب واحد، فالحق معهم لأن الله يؤيدهم، وهوى النفوس معقود منهم فلا ينطقون إلا عن حق وصواب. وقد سألنا شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكردي ثم المدني عن قول شيخنا قطب زمانه الجامع بين العلمين، صفي الدين القشاشي، رضي الله عنه، في شأن هذا الدخان فقال لي: سمعناه مراراً يقول بكراهته ولا يبلغ فيه التحريم، وعامة فقهاء المشرق متساهلون

---

[1] في ط: البصائر.

فيه، فضلاً عن عوامهم، وقد رأينا كثيراً ممن يستعمله في المساجد ولا يتحَرَّجون، وهذا أمر شنيع لا ينبغي أن يختلف في امتناعه لكراهة رائحته وخبثهـا ومنافـاة تعاطيعا للتعظيم والوقار المطلوبين في المساجد، حتى إنه يحرم كل ما يخل بتعظيمها ويقتضي إهانتها حتى الثوم والبصل، مع الاتفاق على إباحتهما، ولو اضطر إليهما الآكل للدواء، إلا أن أهل المشرق في الغالب مخلون بتعظيم المساجد يأكلون فيهـا ويشربون ويحلقون رؤوسهم وينامون. وأما شيخنا علامة الوقت أبو محمد عبـد القادر الفاسي، رضي الله عنه، فطريقه فيه كنحو طريق شيخنا السكتاني وأشد منه فإنه يميل كثيراً إلى التحريم ويصوب أدلة قائله ويرجحها ما أمكن، ومع ذلـك لا يصرح بالتحريم إلا أنه يبالغ في التنفير منه والتقبيح لشأنه، وذلك رأي شيخه وعمه العارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن الفاسي رضي الله عنه. قلت: وأحسن سؤال وجواب رأيته في شأنها سؤال العلامة سيدي العربي الفاسي[1] وجواب عمه العارف بالله سيدي عبد الرحمن، فقد بالغ السائل في السؤال وحقق المناط في ذلك حتى أنه لو وقع عليه جواب مطابق لجميع فصوله لانفصلت القضية، وجواب عمه فيـه بعض اختصار غير مناسب لإطناب السائل مع ما فيه من التحقيق، وهو مائل إلى التحريم، ولولا الإطالة لكتبناهما معا تتميما للفائدة، وفي الإشارة ما يغني اللبيـب عن إطالة العبارة.

---

[1] العربي بن أحمد بن علي الفاسي، فقيه مشارك،توفي عام 1096 هـ: التقاط الدرر، ص: 232.

ذكر ارتحالنا من مدينة طرابلس (أمنها الله)[1]

كان ارتحالنا منها بعد ارتحال الأركاب كلها، المشرقية والمغربية، يوم الاثنين الخامس من شعبان، وافترق الركب من هناك، وذهبت طائفة منهم مع الحاج محمد نين، والطائفة الأخرى مع الحاج محمد بن عمران والحاج محمد بن مؤمن، وهم جل الركب، وشيعنا من هناك صاحبنا سيدي محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي، وصاحبنا أبو راوي، وجماعة من الطلبة إلى زترون، ودخلنا المدرسة التي هناك ووجدنا بها صاحبنا الناسك الخاشع سيدي محمد بن بلقاسم الغرياني، وتلقانا الطلبة بالترحيب، وأطعمونا، وهذه المدرسة أحسن المدارس التي في تلك السواحل، وقد زرنا على بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد، أظن أنهم ذكروا أنه يعرف بالعريفي[2]، وأخبرني من أثق به بحكاية وقعت لبعض الناس مع صاحب هذا القبر في شأن الدخان تدل على قبحه وخبثه، وذلك أنه كان عند قبره زيتونة كان يجلس إليها في حياته، فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان، وكان من أكابر البلد، فلما نام في الليل جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه فقال له: يا فلان، مكان كنت أجلس إليه فجئت إليه فنجسته، فأصبح الرجل أعمى. أخبرني بذلك من أخبره الأعمى، وبات الركب هناك قريباً من زترون، وبات معنا أصحابنا، وفي الغد ارتحلنا ومررنا ضحى بقرية هناك قريباً من الزاوية الغربية فيها رجل من الصالحين يزهد، وكل من جاءه ضربه بين كتفيه ثلاث ضربات ودعا له، وأخبروني أنه كان هناك رجل من الصالحين قبله يفعل مثل ذلك، وكان هذا غير معروف، فلما مات أصبح هذا الرجل يفعل مثل ذلك، ونزلنا ذلك اليوم بالزاوية الغربية، وكان قد تقدم إليها صاحبنا الحاج عبد الرحمن غريط المكناسي وله عند أهلها مزية عظيمة، ويعتقدون فيه اعتقاداً كبيراً، ويرون أنه من أهل التصريف، فكل من له حاجة طلبها منه وأتاه بصدقة، ولا يذهب عنه إلا وهو يعتقد أنه قد ظفر بحاجته، وربما قضيت حاجة بعضهم، وربما اتفق له

---

(1) ساقط من ط.

(2) ترجم له صاحب الصفوة تحت اسم: مجهول نقلا عن الرحلة العياشية: صفوة من انتشر، ص: 287.

الأخبار بشيء فيقع كما أخبر، وهو رجل عامي نعلم طويته وعلانيته، خالٍ من كل ما يتوهمون فيه، وإنما أعانهم على ذلك حسن اعتقادهم وبركة إخلاصهم، فأضافوا الركب تلك الليلة ضيافة كبيرة يتقربون بذلك إلى مرضاة الشيخ عبد الرحمن، وفي الغد ارتحلنا ومررنا قبل الزوال بقرب ولي الله تعالى سيدي راشد الكاليلي، وتؤثر عنه كرامات كثيرة، ونزلنا قريبا منه، وزرناه من هناك، ودعانا صاحبنا سيدي محمد بن أحمد بن عيسى البربوعي ورفيقه سيدي أبو قطاية من نسبه، و لم نبت إلى مقابلة زواغة، وفي الغد نزلنا الزاوية الشرقية بعد المغرب، ومنها إلى برج الملح، ومنه إلى قرب السواني، ثم مررنا بالسواني في المكان المسمى ابن كردان قرب الزوال، ونزلنا دون حاسي السلطان، ثم نزلنا بينه وبين واد السمار، ثم نزلنا قرب عرام، ثم زريق، واجتمعت بصاحبنا سيدي محمد الصالح سيدي عبد الله بن عبد العزيز المحروني، وأدخلني إلى محل تَعَبُّد والده، وبتنا هناك عنده، وأضافنا وأجزل القرى جهده، ووجدنا عنده جملة من الكتب، ومن جملتها مختصر معالم الإيمان وروضات الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان، وقد ذكر البلوي في رحلته أنه لقي صاحب التأليف وأثنى عليه وعلى تأليفه هذا، ولأجل اغتباطي بهذا الكتاب سهرت عليه معظم الليل وطالعت جُلَّه في تلك الليلة، وقد ذكر فيه خبر القبر المنسوب إلى أبي لبابة، رضي الله عنه، في مدينة قابس، وقد فحصت عن خبره كثيراً و لم أجد من ذكره إلا ابن ناجي في هذا الكتاب، فقد أطال في خبره وذكر أن قبره مما تواتر عند أهل بلده، وذكر أن شيخه البرزلي، رضي الله عنه، قال له مثل ذلك، وأن تواتره دليل على صحة ذلك، وذكر أن من لم يذكره ممن ألف في أسماء الصحابة وأمكنة وفياتهم، فلأنه لم يبلغه العلم به والتواتر المذكور مقدم على ذلك، وكاف في إثبات أن ذلك قبره، وكنت قبل ذلك ربما لحقني فتور في العزم عند زيارته لاستبعاد ذلك من غير أن يكون منصوصاً عليه، فلما رأيت ما في هذا الكتاب زال ما بقلبي من ذلك وقويت نيتي في زيارته، رضي الله عنه، وقد بنى عليه أمير تونس حموداً بنياناً عظيماً أثابه الله على قصده الجميل، ومما نقلته من هذا الكتاب أنه لما فشت البدعة بخلق القرآن بالقيروان شكوا ذلك إلى سحنون فقال لهم: لا يروعنكم ذلك فإن الله تعالى إذا أراد قطع بدعة أظهرها وأفشاها، فكان الأمر كذلك هـ بالمعنى.

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مدينة قابس ضحى ونزلنا بأبي لبابة، رضـي الله عنه، واجتمعت بقاضي البلد سيدي عيسى بن علي العبدي الدكالي المغربي، وهش وبش وبالغ في الإيناس ولاطف جهده، وله وجاهة تامة في البلد وعند أميرها، تربى على علمه بأضعاف مضاعفة وليس عنده من التحصيل في فن من الفنـون مـا يستحق به أدنى من تلك الحظوة، ولا بدع في ذلك فإن البلد شاغرة من العلوم، وسألته عن قراءته وأشياخه وعمن أخذ فلم أجد عنده ما يغبط فيه، وأخـبر أن قراءته إنما كانت بتونس، وأنه قدم من المغرب وهو صغير.

وفي الغد ارتحلنا وشيعنا القاضي إلى الحامة، وبتنا بها عند رجل من أهل الخير يقال له سيدي أبو القاسم السويدي وعنده رجل من أهل الخير اسمـه سـيدي مصطفى كان أصله علجا فأسلم وأناب إلى الله في كبره، ولإسلامه قصة، وظهرت عليه سيما الخير من الاجتهاد في العبادة والزهد في الدنيا والرضا بالدون بعـدما كان فيه من النعمة ومخالطة الأمراء، ثم انضاف إلى سيدي أبي القاسم المـذكور يتعلم منه دينه، وبالجملة فهما رجلان من أهل الخير فيما يظهر، وقرأ على القاضي في تلك الليلة أحاديث من البخاري وغيره، واستجازني فأجزته، ومن هناك ذهب طائفة من أصحابنا إلى الحاج مراد بي ولد حموداً، وهو أمير تلك البلاد، وكـان بقفصة، فقصده الحجاج في سرقة سرقت لهم في عمالته أيام طلوعهم فلم يـنجح سعيهم عنده ولا ظفروا بما قصدوا من عنده، ثم ارتحلنا من الحامة وكان نـزول الركب بعدما قطعوا[1] الوادي، ولم نبت تلك الليلة إلى نبس الذيب عند شـارية سيدي جمال بن سيدي حامد، وتطلبت في الوادي قبل النبش معـدن الزجـاج الحبري، وكنت عهدته فيه قبل هذا بأزمان فلم أجده لكثرة الأمطار في هذه السنة، وفي الغد نزلنا قصر الرمان، وفي الغد مررنا بزاوية سيدي حامـد، ولم نبـت إلى زاوية الرمل، ومنها قطعنا السبخة الكبيرة التي لا نظير لها إلى زاوية سـيدي أبي هلال السوداني، وتقَدَّمت أمام الركب في طائفة من الحجاج، ونزلنا البلد ظهـراً وقيلنا في النخيل إلى أن صلينا الظهر، فطلعنا إلى زاوية الشيخ سيدي أبي هلال في سند الجبل وعليه مشهد وعنده مسجد وثيق وحوله أبنية ليس فيها ساكن، وقبور كثيرة ربما ترى الأموات في بعضها عليهم أكفان لم يتغير منهم شيء، ومن لم يعهد مثل ذلك من الحجاج في بلاد المشرق من وضع الأموات في بيوت فيطير علـيهم

---

[1] في ط: قطع.

ربما زعموا أن ذلك كرامة ومنقبة لأولئك الأموات فيتبركون بهم، وقد جلسنا هناك هنيئة وطفنا في تلك الأماكن، ثم رجعنا ووجدنا الركب قد نزل خارج الزاوية، وبتنا هنالك تلك الليلة.

ولما ارتحلنا من زاوية أبي هلال مررنا ببلدة دقيوس وهي من أكبر بلدان تلك الناحية، وفيها مأذنة كبيرة، وفي الجبل الذي فوقها غار يسمى غار أهل الكهف، وكأنهم تلمحوا ذلك من كون البلد يسمى بلد دقيوس، وقد استفاض على ألسنة الحجاج وعامة أهل البلد أن أهل الكهف في ذلك الغار، وأخبرني بعض الأصحاب من أهل ذلك البلد ممن يعتقد طريق القوم أنّ كثيراً من الصالحين يذكر أنهم في الغار، وذكر لي صاحبنا أحمد بن عبد الإله عن سيدي محمد بلقاسم الجمني أنه ذهب مع بعض الصالحين من أهل جمنة إلي فم الكهف ودخل فخرج منتقعا لونه، وذكر أنه وجدهم هناك ورأى منهم عجباً، ولم يقضِ لي الوصول إليه لضيق الوقت، ولم أرَ من المفسرين من ذكر أنهم في هذا المحل، وقد ذكر المفسرون أماكن متعددة فمنهم من ذكره في الشام، وقيل بالعراق، وقيل بالأندلس، وذكرت أماكن أخر في المغرب.

لطيفة:

ذكر لي بعض الفقراء عن بعض المتفقهة أنه قال له: إن من زعم أنه رأى أهل الكهف أو دخل عليهم في غارهم وشاهدهم فقد كذب لأن الله تعالى قال لنبيه، صلى الله عليه وسلم: (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً)[1]، فإذا كان، صلى الله عليه وسلم، يفر منهم ويمتلئ رعباً فكيف بغيره من الخلق. قلت: وهذا الذي ذكره ربما يستحسنه من لم يتمدن بأساليب البلاغة ويقف مع ظواهر الألفاظ، والحق وراء ذلك إن شاء الله تعالى، فقوله تعالى: (لو اطلعت عليهم)[2]، الآية، تهويل لشأنهم وتعجيب من حالهم وتصوير له في حال مهولة مفزعة موحشة من شأنها أن يفر منها الرائي ويمتلئ رعباً، على أنا لا نسلم أن الخطاب في قوله تعالى: (لو اطلعت) للنبي، صلى الله عليه وسلم، بل هو

(1) الكهف: 18.
(2) الكهف: 18.

خطاب عام لكل مطلع من شانه ذلك كقوله تعالى: (ولو ترى إذ وقفوا على النار)[1]، ولو ترى يا من تصح منه الرؤية، فكيف يظن عاقل عالم بجلال النبوءة وكمال الرسالة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يفر ويرعب من رؤية أشخاص رقود أو أموات في محل موحش، كيف وهو ثابت الجأش رابط القلب تام العقل كامل الإدراك، قد شاهد من ملكوت السماوات والأرض ما لم يشاهده غيره، ورأى من عجائب مخلوقات الله ما لم يره أحد، وعاين الجنة والنار وجبريل على صورته، بل رأى ربه على أصح الأقوال، ولقد رأى من آيات ربه الكبرى، وما زاغ البصر منه عليه السلام، وما طغى، ولقد بعثه الله تعالى إلى جميع الثقلين ودعا جميعهم إلى الله، وكابد كل من خالف أمر الله، وبارزه بالعداوة ودفع إلى مضايق الأمور، وبارزه بالعداوة عظماء الإنس وعفاريت الجن، فكم من ظالم غشوم رام الفتك به، وكم من عفريت نفريت من مردة الجن تفلت عليه ليقطع عله صلاته، فما رغب لذلك ولا جزع، فكيف يفزع من رؤية أشخاص رقود في مكان موحش هذا أبعد منه بكثير.

ثم وصلنا إلى توزر ضحى يوم الأربعاء الواحد والعشرين من شعبان وبها وجدنا التجار الذين قاموا من تونس وبعض أهل جربة أرادوا أن يسافروا مع الحاج إلى المغرب، ولقيت صاحبنا سيدي سحراوي، وكان حج معنا وقدم قبلنا مع ركب أهل الجزائر، وهو رجل من أهل الخير صاحب وتلمذ لبعض أصحاب سيدي أحمد الدباسي، وكان أصله من عرب تلك الناحية، وسكن بعض أرباط توزر، وكان حج ماشياً حافياً، وذهب معنا لزيارة القدس والخليل عليه السلام، وقد جاءا إلينا بعد نزولنا خارج توزر، وأحسن إلينا ودخلنا ذلك اليوم إلى المدينة القديمة، وهي خالية، وزرنا قبر الإمام الشقراطيسي[2] وولده، وزرنا خلوة الإمام أبي الفضل بن النحوي رضي الله عنه، وهي بجانب المسجد، وزرنا مشاهد أخرى غير ذلك.

ومدينة توزر مدينة حسنة غزيرة المياه كثيرة الأجنة والنخيل، ينساب فيها وادي كبير، منبعه من غربيها، وأعرابها أهل بادية مخصبة، فيرخص فيها غالبا سعر اللحم والسمن، وأما التمر فيها فرخيص جداً، ولقيت من طلبة البلد سيدي أحمد

---

[1] الأنعام: 27.

[2] في ط: السرقسطي.

المولى، ولا بأس به، وسأل عن عدة مسائل فقهية، وبحث بحث مستفيد عالم بقواعد البحث، ودخلت إلى خزانة سيدي أحمد الدباسي عند حفيده سيدي يدين، ووجدت فيها عدة كتب منها السفر الثاني من كتاب الوجيز للشيخ عبد الغفار بن نوح، وهو كتاب نفيس جدا غية في بابه، وكان في ملكي السفر الأول وطال بحثي عن الثاني فلم أره إلا في هذه الخزانة، ولأجل اغتباطي به طالعت جله في هذه المدة، ولما كان يوم الجمعة ذهبت مع صاحبنا سيدي سحراواني[1] إلى مدينة نفطة[2] لزيارة سيدي أبي علي النفطي نفعنا الله به، وهو من أكابر الصالحين من أصحاب أبي الفضل البسكري مذكور في كتاب التشوف[3]، وسمعت من بعض الفقراء أن سيدي بوهلال السرادي معاصره، وبلغنا إلى نفطة قبل الظهر وبينها وبين توزر ثمانية عشر ميلا، وزرنا ذلك اليوم وجلسنا هناك حتى صلينا الظهر، ووجدت هناك سفراً من شرح الشقراطيسية لابن المصري، وهو كتاب ممتع غاية، طالعت بعضه في تلك الهنيئة وقيدت منه، ورجعنا في ذلك اليوم ووصلنا إلى توزر بعد المغرب، و لم نصل إلى الركب، وبتنا في مترل صاحبنا سيدي سحراواني[4]، وأجزل القرى، وأقمنا بتوزر إلى يوم الأحد ينتظر الركب أصحابهم الذاهبين إلى قفصة، و لم يصلوا إلا في يوم رحيلنا، وجاعت الإبل في ذلك البلد غاية، وأكثر ما يطعمهم أربابها أغصان الزيتون يشتروها من أهل البلد.

وممن لقيت بتوزر صاحبنا سيدي أحمد بن عبد العاطي، وهو من أصحاب شيخنا سيدي محمد بن ناصر، وأدخلني إلى داره وأضافنا وأراني عقد حبس عتيق عنده بخط الإمام ابن مرزوق وتاريخه سنة كذا وعشرين وثمانمائة، وفيه خط الإمام العقباني رضي الله عنهما، وقد أعطاني نحواً من صاع من تمر ذلك الجنان المحبس، فقلت آخذه على وجه البركة، وبقي عندي إلى أن دخل شهر رمضان، وكنت أفطر منه كل يوم بتمرات تبركاً بالحلال، وأي حلال يوجد اليوم أحسن من ملك بقي صاحبه نحو الثلاثمائة سنة، وشهد فيه الأئمة الأعلام بصحة الملك.

---

(1) في ط: سحرواي.
(2) نفطة: مدينة بإفريقية، من أعمال الزاب الكبير،وبين نفطة ومدينة توزر مرحلة، وإلى مدينة نفزاوة مرحلة، وبينها وبين قفصة مرحلتان: معجم البلدان: نفطة.
(3) قال التادلي: أبو السن ابن المصري النفطي، من أهل نفطة من بلد إفريقية، من أهل المعرفة والإقبال على الله: التشوف، ص: 433 – 434.
(4) في ط: سحرواي.

ثم في يوم رحيلنا دخلت إلى البلد القديم أيضا وزرت الإمام الشقراطيسي مرة أخرى، وزرنا سيدي علي بن عمران تلميذ سيدي أبي علي النفطي، ومقام ابن النحوي وجماعة من الصالحين، ودخلت المسجد القديم ورأيت في محرابه منقوشا ما هذا صورته: نقشت هذه القبلة سنة كذا وتسعين وخمسمائة.

وممن زرناه أيضا قبر ولي الله سيدي أحمد الدباسي وله كرامات كثيرة ومقامات عليَّة، وعليه تخرج العارف بالله محي الطريقة بالبلاد المشرقية سيدي علي بن ميمون الحسني الإدريسي الفاسي الأصل، وأكثر أتباعه، وانتشرت تآليفه في بلاد الشام ومصر والروم نفعنا الله به، ثم ارتحلنا من مدينة توزر يوم الأحد وبدا الركب في المرور بمدينة نفطة بعدما كانوا عزموا على سلوك الطريق اليمنى على الحامة، وهي المعهودة للأركاب لاتصال عمرانها، وفي هذه السنة مررنا بنفطة وزرنا الشيخ أبا علي مرة أخرى ذلك اليوم، و لم نبت إلى حاسي السلطان، ولقينا أهل نفطة قد بيتوا الجراد، وقد بقيت في البلاد بقية جوع، وكان بها جوع في الزمن الماضي، ونفطة مدينة كبيرة أيضا قريبة من توزر ولها واد مثل واديها يقال إن خراجها مثل ثلثي خراج توزر. ثم ارتحلنا من حاسي السلطان و لم نبت إلى قرب الكلابية، ثم وردناها ضحى يوم الثلاثاء بعدما داخ عنها الدليل وتحير الناس فلم يهتدوا إليها إلا بمشقة، ووجدناها مردومة، ونزل الناس عليها وجهروا وأقاموا عليها بقية يومهم في أرغد عيش على الماء والمرعى، والله المعين. وبات الجراد بإزاء الركب في الكلابية وسرى إليه طائفة من الحجاج فأخذوا منه ما استعانوا به في زادهم تلك المدة، وكان الجراد في إبان ولادته بيوضا وارتحل الناس من الكلابية، ونزلنا الرقيق وهي أحساء مُتَعَدِّدة وماؤها صافٍ، وهو مثل الذي قبله، ثم ارتحلنا ونزلنا قرب الأعرج، وفي ذلك اليوم خرجنا من الرمل إلى أرض صحيحة وجئنا إلى زريبة حامد ووجدنا عليها عرب نميلة، وأولا سيدي المبارك بن ناجي، ولقيت هناك أخا الشريف المجذوب صاحبنا، وهو أشبه الناس به، وأخبرني بموته رحمه الله، وكان رحمه الله[1] من أفضل من رأيته من المجاذيب، وله حال أقوى فيما أظن، لقيته سنة أربع وستين وسنة خمس وستين في ذلك البلد، وهو ينتمي إلى سيدي محمد بن بو علي البسكري رضي الله عنه. ولقيت هناك أيضاً صاحبنا سيدي عبد الله بن محمد بن المبارك ومعه جماعة من إخوانه وبني عمه، وكانوا يرتقبون قدومنا منذ

---

[1] في ط: وهو.

أيام، وفي ذلك اليوم أيسوا منا وراحوا آخر ذلك اليوم إلى الخنفة وهي بلـــدهم، فلما رأوا أعلام الركب تخفق جاؤوا وباتوا معنا وأضافونا ضيافة حسنة، وبعث إلى والده، وقدم صبحاً، وتبركنا به، وسألوا عن مسائل من أمر دينهم وهم أهل خير وبركة لهم رغبة في العلم وتعلمه، إلا أنهم في بلاد قل فيها أهل التحصيل، وأبلغتهم سلام شيخنا أبي مهدي، رضي الله عنه، وكانت بينه وبينهم ألفة قديمـــة ومـــودة أكيدة حياة عمهم الأكبر سيدي التواتي بن ناجي، وكان من العلماء العاملين، فلما توفي حصلت بينهم جفوة سببها منهم، و لم يحتمل لهم ذلك، وذلك أن شيخنا لما خرج من الجزائر وتقلب في البلاد آوى آخرا إلى سيدي التواتي وقام بحقه وألف به وبقي معه إلى أن طرق الوباء تلك الناحية في حدود الستين وألف، وفر غالب من كان مع الشيخ التواتي، وبقي معه الشيخ أبو مهدي صابراً محتسباً إلى أن طعـــن الشيخ التواتي، فقام أبو مهدي بأمره إلى أن توفي ودفنه وفرغ من تجهيزه، فجاء إلى إخوانه الذين في بلدهم بالخنقة، وكانت له عليهم آلة، ورأى أنه قد امتن علـــيهم وأسدى إليهم معروفا بما فعله مع كبيرهم وأخيهم، فلما رأوه تنكروا له وتجـــافوا عنه خشية العدوى فيما زعموا، فأنف هو من ذلك وذهب مغاضباً لهم، وتـــرك كتبه هناك عندهم وقال لي: لا أبعث إليها أبداً إلا أن يبعثوها من عند أنفـــسهم، وقد تعللوا أنهم لم يجدوا أميناً يبعثونها معه، وقالوا لي: لو مررت بنا لبعثناها معك، ولا عذر لهم في ذلك. ومن جملة ما سألونا عنه أنا وجدناهم متحيرين في أمرهم لطروق الوباء في نواحيهم، وتخوفوا أن يدهمهم في بلدهم وعزموا علـــى الفـــرار وسألوا هل يسوغ لهم ذلك قبل وصوله إليهم أو لا يسوغ إذ كان القصد الفرار منه ولو لم يطرق البلد فتوقفت في ذلك إذ لم أر نصا، وقلت لهم: مقتضى قول من علل حرمة الفرار لما يؤدي إليه من ضياع المرضى وعدم القيام بأمرهم الذي هـــو واجب أن ذلك يجوز قبل وصول الوباء إلى البلد، ومقتضى قول من علل بأنه شك في المقدور وعدم ثقة بالله أنه لا يجوز، وربما رخصت لهم في الخروج وقوفا مـــع ظاهر لفظ الحديث، ثم بعد ذلك رأيت الإمام الحطاب في كتاب الطواعن جعلـــه محل نظر ورجح الجواز، والله أعلم.

ثم ارتحلنا من ذلك المكان أول يوم من رمضان يوم السبت ومررنا بزريبـــة الوادي ضحى و لم نبت إلى المنصف، وهو نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة، ووجدنا المنصف نزلتين لأولاد صولة قد نزلوه ذلك اليوم، وكانوا أغاروا على نزلة

لبعض الأشراف وأخذوهم. وفي الغد جئنا لبلد سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه، وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة، ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة، ولقينا في ذلك اليوم نزلة الأشراف الذين أخذوهم أولاد صولة رجالاً ونساء راحلين وعليهم أثر الجوع باد، وفتتوا أكبادنا وهم قوم من الأشراف صح نسبهم واشتهر بين الحاضر والباد من أهل تلك النواحي، وأخبرني بصحة نسبهم شيخنا أبو مهدي وهو عارف بأخبار البلد وأهلها، وإنما أزرى بهم كونهم يرحلون ويترلون في البادية، وأما سيدي عقبة المنسوب إليه البلد فهو عقبة بن عامر التابعي[1]، وهو الذي افتتح بلاد إفريقية وبنى مدينة القيروان، وقد استوفى المؤرخون أخباره، وذكر ابن خلدون خبر قتاله مع الكاهنة التي بجبل أوراس، وقبره الآن مشهور ويزار، وعليه مسجد عجيب وحوله قرية كبيرة في وسط هذا البسيط، وفي مسجده مأذنة كبيرة متقنة البناء، وفي أعلاها عمود، والحجاج يزعمون أن من تمسك بذلك العمود وحركه وقال: أقسمت عليك أيتها المأذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت، فتهتز، وقد طلعت إليها ورأيت ذلك، وليس كما زعموا، وإنما هو من إتقان البناء وفرط طوله، فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز وذلك يقع في كل بناء، وغالب من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطين المسجد وحيطانه، ويكتب اسمه، واتخذوا ذلك ديدنا وعادة مستمرة، وقد دخلته مرارا، وقد عاقنا الوباء من دخوله في هذه المرة وزرناه من خارج، وبتنا بينه وبين بسكرة، وأصابتنا ريح عاصفة بليل منعت غالب الناس من وقود النار، فأصبحت مفطراً ذلك اليوم من أجل ذلك، ونزلنا بسكرة ضحى يوم الاثنين، وكان نزولنا خارج البلد من غربيه لأجل الوباء، واضطر الناس لدخول البلد لشراء الزاد، ووجدنا الركب الذين قدموا أمامنا نزلوا داخل البلد وأقاموا بها يومين قبلنا وخوف أهل البلد من عرب أولاد نصر ابن بو عكاز، وحذروهم من غاراتهم على إبل الركب، فلم تسرح للركب سارحة إلا ما يشترون من الحشيش، واقتفينا آثارهم في ذلك، ولحقتنا في ذلك مشقة عظيمة من حبس الإبل والشراء لها، ولم أدخل البلد لمزاحمة الأشغال إلى عشية يوم الأربعاء، ودخلت لزيارة أبي الفضل، رضي الله عنه، وقبره خارج المدينة وحوله مسجد ومساكن أقوام من جيرانه، ودخلنا المسجد وطلعنا إلى مأذنته، وهي في غاية الإتقان والطول والسعة، تقدر

[1] يقصد عقبة بن نافع الفهري الذي تقدمت ترجمته.

الدابة على الصعود إليها بحملها، وأدراجها مائة وأربعة وعشرون درجة، والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء، إلا أنه قل عامروه وضعف ساكنوه، فلا ترى به مدرسا ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعظم المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، مع توافر أسباب العمران فيها قد جمعت بين التل والصحراء، ذات نخيل كثير وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها، وأرحاء متعددة تطحن بالماء، ومزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها، وبالجملة فما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصن ولا أجمع لأسباب المعاش، إلا أنها ابتليت بتخلف الترك عليها وعساكر الأعراب يستولي عليها هؤلاء تارة، وهؤلاء تارة، إلى أن بنى الترك عليها حصنا حصينا على رأس الماء الذي يأتي إليها، فتملكوا البلاد وضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج، ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله، فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الترك من داخل، وقد أشرفت على الخراب، وقاربت أن تكون يبابا لولا ما تأثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكناها، وقد لقيت بها في سنة تسع وخمسين رجلا من الصالحين ممن جمع بين العلم والعمل والزهد والورع وصدق التوجه إلى الله، واسمه سيدي بوطيب نصير، لم تر عيني قبله ولا بعده أمثل منه في هديه وسمته، تخشع القلوب لوعظه، وتلين لكلامه ولو كانت أقسى من حجر، ولما رجعت من الحجاز في سنة ستين وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة، وكان وباء مفرطا مات به في بسكرة على ما قيل نحو من سبعين ألف نفس، وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالياً، ومساجدها دائرة، ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح، وهو رجل من أهل الخير منفرد في مسجد له بإزاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس ويجتمع إليه ناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم، وخرج إلينا أيضا من فقهاء البلد سيدي عبد الواحد الرماني، وهو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة والانقطاع عن الخلق، وقرأ علي أول صحيح البخاري، من رواية أبي ذر، وذهب معنا إلى زيارة أبي الفضل، وصلينا العصر في مسجد سيدي أبي الفضل، وفي الغد يوم الخميس ارتحلنا ودخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدي محمد بن بوعلي فوجدناه على سطح دار يشرف على الطريق، ولم يترل إلينا وقرأ لنا الفاتحة

من هناك ونحن في الطريق، ودعا لنا، وهو رجل من أهل الأحوال الصالحة مغلوب عليه في أكثر أوقاته تؤثر عنه كرامات[1]، وقد لقيته بداره سنة خمس وستين، وهو في مرمة له في داره يعمل بها بيده ينسج الثياب، وأخبرنا أن قوته من كسب يده، وأخبرنا بحاله ومبدأ أمره مع شيخه، وقد انتشر صيته في هذا الوقت بتلك البلاد، وله أتباع وأصحاب يجتمعون إليه في أوقات للسماع والذكر، وسمعنا من بعض الحجاج ممن زاره بعد ذلك أنه قال لهم: إن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له: إن النار لا تمس من رآك. وزعموا أنه قال: ومن رأى من رآك مراتب متعددة، والله أعلم بحقيقة ذلك، فإن صح أنه قاله فهو في الغالب لا يكذب، إلا أن كلامه يحتاج إلى تأويل ويبعد حمله على ظاهره، وأن المراد مجرد الرؤية البصرية، فإن القواعد تأبى بقاءه على عمومه فإنه يراه البر والفاجر، والمصر على الكبائر القارف لها، والجاهل الذي يتطرق الخلل إلى إيمانه لغلبة الجهل والآراء الفاسدة، ولكثر تهم جدا يبعد موت جميعهم على التوبة النصوح الموجبة لغفران جميع الذنوب الموجب للنجاة من النار، إلا أن كلام الأولياء لا ينبغي أن يرمى به جزافاً، فليحرص المرء جهده على لقائهم ورؤيتهم والتبرك بهم، فعسى أن يصادف نفحة من نفحات الحق فيسعد بها دنيا وآخرة فإن لله عبادا إذا نظروا إلى أحد أغنوه، ومع ذلك فلا يركن إلى ظواهر ما يجري على ألسنتهم كل الركون حتى يعتقد أنه إن رآهم أمن. فمن قال مثل ما تقدم فقد أمن النار، فإن لكلامهم وجوها واحتمالات تدق على أفهام أكثر الخلق ممن لا يسلك طريقهم، وأقرب ما يحمل عليه الكلام المتقدم أن تحمل الرؤية على القلبية والمرئي على صورته الباطنة التي توجب العلم بما هو عليه من سني الأحوال وسمي الأوصاف ورفيع المقامات، ولا شك أن من منح شهود ذلك وأشرف عليه فله نصيب وافر من التخلق بأخلاق الأولياء والورود من موارد الأصفياء، وحينئذ يكون جديرا بأن لا تمسه النار، وهذا من معنى ما اشتهر عن قطب الزمان مولانا عبد القادر الجيلاني، رضي الله عنه، أنه قال: أخذت العهد على ربي أن لا يدخل أحد من أتباعي النار إلى يوم القيامة فيحمل على من اتبع طريقه لا على مجرد الانتساب باللسان، ولو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره وعمومه لكان أولى بذلك الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وكثير ممن رآهم رؤية بصرية لم يوفق للاهتداء بهديهم فحرم بركة رؤيتهم، وكل مقام ناله ولي من

[1] وردت هذه الترجمة بنصها في نشر المثاني 2:137.

الأولياء فهو ميراث أتباعه لبنيه وما كان ميراثاً لا يصح أن يكون شيئاً لم يكـــن لموروثه، بل يستحيل عند أرباب القلوب أن ينال ولي ولو ذرة من مقام أو حال لم تكن بكمالها لمتبوعه، ومعلوم أن هذا الحال لم تكن لأحد قط فلا بد من التأويل وما أطنبت في هذا إلا أني رأيت كثيرا من الجهلة يغتر بأمثال هذا ويحمله علـــى ظاهره، وإلا فأنا والحمد لله ممن يعتقد تتريه ساحة الأئمة الصوفية عن الكـــذب والافتراء ويثق بأقوالهم ويصدق بكراماتهم ويحمل ما أشكل على أحسن محامله ولا أطعن فيه بوجه، وأسلم لهم فيما لم يتبين لي وجهه، والمنة لله وحده في ذلك.

وكان ارتحالنا من بلاد بسكرة قاعدة بلاد الزاب يوم الخميس وسرنا علـــى غاية من الوجل من عرب أولاد نصر لكثرة ما يخوفنا الناس منهم، واجتمع الركبان عند قطع الساقية وساروا جميعاً، ومررنا بقرية أمليلي ظهراً ثم بزاوية سيدي الشيخ عبد الرحمن الأخضري، ودخلنا لزيارته وصلينا بمسجده وهو إمام جامع بين علمي الظاهر والباطن له تأليف مشهور وكرامات مأثورة، واشتهر بتأليفه المنظومـــة في المنطق المسماة بالسلم المرونق[1]، وقد نفع الله بها، وله منظومة في السلوك تـــشابه المباحث الأصلية رائقة النظم فائقة الحسن، حلوة وله مقدمة في الفقه مشهورة عند أهل ذلك البلد، وبيتهم بيت علم وصلاح، وسمعت أنه هو الذي أظهر القبر الذي في بلاد الزاب المنسوب لنبي الله خالد بن سنان عليه السلام، وهذا القبر الآن من المزارات الشهيرة في تلك البلاد تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقية كلها، واشتهر أمره عند الخاص والعام، والبدو والحضر، وعليه مسجد عظيم، وحولـــه مدرسة، والناس يؤثرون عن ذلك المشهد كرامات، وقد أشكل أمره علي، وسألت عنه من يظن به علم فلم أجد عند أحد ما يشفي ولا رأيت خبره في تـــاريخ ولا تقييد، وغاية ما سمعت من بعضهم أن سيدي عبد الرحمن الأخضري أخبرهم أنه شاهد النور صاعداً من تلك البقعة إلى السماء ثلاث ليال أو نحوها، وأخبر أنه قبر نبي الله خالد، فإن كان اطلع على ذلك من كشفه فيسلم له فإنه أهل لذلك، وقد رأينا وسمعنا في بلاد المشرق بمشاهد متعددة من قبور الأنبياء والأولياء أظهرها أهل الكشف الصادق فتزار بحسن النية وجميل الاعتقاد وحسن الظن بقائل ذلك حتى أن المشهد المنسوب لكليم الله موسى عليه السلام بالأرض المقدسة إنما أظهره بعض أهل الكشف بعد الستمائة أو قريب من ذلك، وهو الآن من المزارات العظيمـــة

---

[1] أنظر هذه المنظومة في كتاب: مجموع مهمات المتون، ص: 262 – 270.

الشهيرة، وقد ذكر لي بعض الناس أن خبر خالد بن سنان هذا مذكور في بعض التفاسير المنقولة عن الإمام ابن عرفة، وأنه في هذا المكان، وبحثت عن ذلك فلم أقف عليه، ويبعد عندي كل البعد أن يكون خالد بن سنان العبسي مدفونا في هذا المكان فإن الأخبار المنقولة في شأنه المذكورة في كتب أهل السير تأبى ذلك فقد ورد في بعض الأحاديث أنه نبي من العرب بعث بين عيسى عليه السلام ونبينا، صلى الله عليه وسلم، وأنه بأرض الحجاز وأنه مات بها، وأنه أوصى بنيه أن ينبشوه بعد حول فيخبرهم بأخبار ما أرادوه وغير ذلك من الأخبار المنقولة عنه، فإذا ثبت ذلك فما أبعد الحجاز من الزاب، وقد ورد في بعض الآثار أنهم لم يدفنوه وأنهم حملوه على ناقة فذهبت به، فإن صح ذلك فربما يتوهم أنه بلغت به إلى هذا المكان ودفن فيه، وهو خرق عادة أيضا، وأقرب ما يحمل عليه أمر هذا المشهد إن صح أن به قبر نبي ما. قال لي شيخنا أبو بكر بن يوسف السجتاني، وقد سألته عنه لما مررنا به سنة ستين وألف فقال لي: لم أر خبره منصوصا، وأقرب ما يحمل عليه أحد رسل عيسى عليه السلام الثلاثة المذكورين في قوله تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية)[1] الآية، فقد ذكر بعض المفسرين أحدهم اسمه خالد، وأنه نبي أصحاب الرس، وقد ذكر بعضهم أن بلاد الزاب هي بلد أصحاب الرس، فإن صَحَّ أن هذا قبر نبي الله خالد فهو هذا، والله أعلم، وقد مدحت نبي الله خالد بن سنان بأبيات لما مررت بهذا المشهد سنة أربع وستين وهي هذه:

[خفيف]

يا نبي الإله يا ابن سِنان ... خالدا جُد لخائفٍ بأمانِ
مُذنب يطلب السماحَ ويرجو ... نفحة تطلقُ الأسيرَ العانِ
قد أناخَ ببابكم مُستجيرا ... بجنابك من صُروف الزمانِ
فاحمِهِ أنت خير من يمنع الجا ... رَ ويطعن دونه بسنان
وحاشاكَ يُسام جارك يا خير ... الورَى بمهانة وهوانِ
فاحْمِ من أم ابك الرحب يرجُو ... غارة يكشف الهمومَ الدوان

---

[1] يس: 13.

أيخـــافُ إذا أتـــى لحمـــاكم مـــستجير مـــن المهالـــك جـــانِ
كنْ كفيلا بمحـــو ذنـــبي فمـــا لي بالـــذي قـــد جئـــتَ منـــه يـــدانِ
ما أضـــاعكَ إذ أضـــاعتك عـــبس مـــن أجلـــك في أجـــل مكـــانِ
بـــل حبـــاك نبـــوة وارتفاعـــا قـــد غـــدا دونَ قـــدره الفرقـــدان
لـــو أطـــاعوكَ في وصـــيتك القـــرار أوَ مـــا تقـــولُ أي عيـــان
قـــد أتيتـــكَ طالبـــا وصـــلة الله فـــإن نلـــتُ هـــذه فكفـــاني
فبجاهـــــك أســـــألُ الله ربي لأفـــوزَ بهـــا بغـــير تـــوانِ
وقـــصدتكَ مادحـــا بنِظـــام مثل زهـــر الربـــا ونظـــم جُمـــان
فتقبـــل بفـــضلِ جـــودك مـــني حُلـــة رُمـــت نـــسجها بلـــساني
يـــا نـــبي الإلـــهِ فاجعـــل جزائـــي بالـــذي ابتغـــي وسُـــكنى الجنـــان
يا نـــبي الإلـــه فاقبـــلْ علـــى مـــا ســـطرته مـــن المـــديح بنـــانِ
فعليـــكَ مـــن الإلـــه ســـلامٌ وصـــلاة تتـــرا بكـــل أوانِ

وتجاوزنا زاوية الأخضري وبتنا ببلدة تُسَمَّى لؤي، وفي الغد ارتحلنا وسرنا جدا خائفين، ونزلنا ظهراً بالمكان المسمى بالدويسة بينه وبين أولاد جلال نحو من فرسخ، وهناك تحقق الناس أمر العرب وأنهم معترضون للركب قاصدون أخذه معهم نحو من ثلاثمائة فارس، وأنهم ارتحلوا بحللهم ونزلوا بأعلى واد سيدي خالد على حافتي الطريق، ومرادهم إذا توسطهم الركب وثبوا عليه رجالاً ونساء وصبيانا، وأخبرنا أهل البلد أنهم في غاية ما يكون من الجوع، وقالوا لنا لا طاقة لكم بهم، ولو قاتلتموهم وقتلتم ما عسى أن تقتلوه، فإن ذلك لا يردعهم عنكم، لشدة جوعهم، وأشاروا علينا بتنكبهم وترك الطريق التي هم عليها، وبعثوا إلينا دليلا عارفا بالطريق، واشتد الخوف على الحجاج وقوي العزم من جماعة أهل الركب على الرجوع إلى بلاد ريغ، وجاؤوا إلي مستشيرين فلم أوافق على الرجوع إلى ريغ واشتد ذلك علي وعلى سائر الضعفاء، ورأينا أن الرجوع إلى ريغ هو غاية

التعويق والانقطاع في بلاد الصحراء التي لا يقدر الضعفاء على سلوكها، وقلنا لهم إن وصلنا إلى ريغ فأنا أجلس هناك وسائر الضعفاء، ولا يصحبنكم منا أحد، و لم أزل أفتل لهم في الدروة والغارب إلى أن هداهم الله وعدلنا ذات اليمين إلى طريق الظهرا، وتنكبنا المحل الذي فيه أولئك المحاربون، وارتحلنا نصف الليل عند قرب مغيب القمر وسرنا بقية ليلنا في أرض حرشة وظلمة وخوف شديد لا تسمع إلا همسا بأخفاف الإبل، فلما أصبحنا خرجنا إلى أرض سهلة بيننا وبين الجبل أزيد من بريد، وزعم المخبر أن ذلك محل الخوف، وسار الناس سيرا حثيثا إلى أن دخلنا من خرزة في الجبل تسمى خرزة البطم ظهرا، وفي الجبل خرزات متعددة، والخرزة في لغتهم اسم لكل فرجة في الجبيل يخرج منها طريق، فلما دخلنا من الخرزة وعاد الجبل بيننا وبين العدو، أمن الناس بعض الأمن لدخولهم بين الجبال، ووجدنا هنالك غرباء آخرين ضعفاء وهم خائفون مثل خوفنا، ووجدنا عندهم سمنا فاشترى الناس منها بعض شيء، وبتنا قريبا منها.

وفي الغد ارتحلنا وعدلنا يمينا في أرض وعرة حرشة وسرنا إلى قرب المغرب، وفي الغد جئنا إلى الجرف ظهرا وهو ماء غزير عذب بين جبلين، ونزلنا فيه وأمنا من غائلة الأعراب، ورجع الدليل وهو من أولاد جلال، وقرية أولاد جلال من أكبر قرى الزاب وهي قرية جامعة فيها مدرسة للطلبة المهاجرين وهم يسمون الغرباء مهاجرين، وهم في قوة ومنعة من العرب لا يؤدون إليهم أتاوة، ويسمون كل من لا يؤدي إتاوة للعرب بالمجاهدين، وقد صدقوا في ذلك. وفي يوم نزولنا بالجرف ظهر الضعف في فرسي التي أركبها وكانت قد أصيبت بريح ليلة أسرينا من أولاد جلال، و لم أتفطن له. وفي الغد ارتحلنا في يوم بارد غاية مثل الذي قبله، وجئنا إلى عبد المجيد ضحى ونزلنا، وفي الغد نزلنا ظهرا أيضا قبل العوينة، ومات رجل من أصحابنا الفلاليين من أولاد الإمام أهل سجلماسة طعن بالوباء رحمه الله.

غريبة:

كنت أسمع هذا الرجل رحمه الله كثيراً ما ينشد قبل أن يطعن بأيام هذه الأبيات:

[وافر]

سَكناها ليالي آمنينَ   وأيامَا تسُر الناظرينَ
فلما أن جلاها الدهرُ عنها   تركناها لقوم آخرينَ

والأبيات لبعض أمراء بني زيان لما انجلوا عن تلمسان فكان ذلك من عجيب الاتفاق. وفي الغد جئنا للعوينة ضحى وعدلنا عن دماك يساراً، وبتنا، وفي الغد مررنا ضحى بأولاد سيدي مخلوف، فقراء أشراف قد بلغ الجهد منهم كل مبلغ، وبقيت هنالك فرسي وأيست منها ووهبتها لهم، وذكروا لي أنهم إن أيسوا منها ذبحوها ليأكلوها، وأخبرني بعض الحجاج بعد ذلك أنهم ذبحوها، وفي ذلك اليوم افترق الركب وحدث بينهم التنافس عندما أمنوا وهم الناس بالترول دون الماء وليس معنا ماء، وغالب الناس صائمون، فأبيت، فتبعوني و لم نترل عليه إلى المغرب في الفلجة، وفي الغد لم نرتحل إلى قرب الظهر ونزلنا إلى قرب العوينة التي دون الأغواط، وفي الغد مررنا بالعوينة ضحى ونزلنا الأغواط قبل الظهر يوم الأحد السادس عشر من رمضان، وكان في الركب أعراب سعاة من دمك يتكففون الناس، فقالوا لأهل البلدان: في الركب وباء، فلم يتركوا أحدا يدخل إليهم، ووجدنا الغلاء كثيراً عندهم مقدار مُدين فاسيين بريال قمحاً، فلم يخرج أحد منهم إلى الركب، وكانوا يدلون الزرع من فوق السور ويأخذون الريال ويغسلونه ولا يتناولونه إلا بعد الغسل، والله تبارك وتعالى يكتب السلامة والعافية آمين.

وفي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان ارتحل الناس من الأغواط بعدما تشاجروا في أي الطريق يسلكون، فمالت طائفة إلى طريق عين ماضي، وكان لي فيها أرب لبيع بعض الكتب ولقاء الأصحاب، و لم يقدر ذلك، ومالت طائفة وهي الأكثر إلى المرور على الطريق اليسرى لقربها وسهولتها وخصبها فيما زعموا وأكثروا مخبرا، وذهب الركب الآخر أمامنا وسرنا، فلما وصلنا إلى الماء الأدنى الذي بين الجبلين وجدنا الركب الذين تقدموا يحفرون في حسيانه لأنهم قدموا بلا ماء، وأما ركبنا فقد جاؤوا بمائهم، ولما كان قريبا من الظهر أرعدت السماء وأبرقت وأرخت عزاليها بماء غزير وبرد منع الناس من المسير، لأيا بلأي ما نزلوا، وأقاموا بقية يومهم وليلتهم وهي لا تصحو، ثم ارتحلنا منه، فلما كان الضحى وسخنت الأرض أخرجت الأرض من مخبآتها ما ملأ الأرض حتى لا تكاد ترمي ببصرك إلى ناحية إلا وقعت على عقرب، وأخذ الناس يقتلونها، فمنهم من قتل

المائة فما دون، وقضينا من ذلك عجب، إلى أن بتنا، ومن الناس من يقول إن العقارب نزلت مع المطر كما تترل الضفادع، والله أعلم بحقيقة ذلك، فلما بتنا أمطرنا بالليل، وفي الغد ارتحلنا ووجدنا وادي مساعد كله ماء وأرضه رخوة، فلم نقطعه إلا بمشقة عظيمة، وسرنا بقية يومنا وطلعنا إلى حمادة هناك في ريح بارد، وبتنا بها، وبات المطر يسح وأصبح في الأرض كذلك، وأقمنا وكان ذلك في نوء الثريا، فأنشدت بعض الأصحاب في ذلك:

[متقارب]

بلادِي التي كنتُ فيها هنيا | سقاكِ على البُعد نوءُ الثريا
وحَيا الإله حِماها ومن | ثوى بفناها جميعا وبيا
فسُقيا ورعيا لمربعنا | فكم قد حبَا الحي سقيا ورعيا

وقد خطر ببالي أيضا في تلك الإقامة ذكر البلاد وطول غيبتنا عنها وسآمتنا للسفر فأنشدت:

[بسيط]

يا رحلةً كلما قصرتُ شقتها | بالسيرِ طالت فعادتْ شهرها حينا
تسعاً وعشرين شهراً أتوهَّمُها | من السنين غدتْ عشرا وتسعينَا

وفي يوم إقامتنا خرج بعض جيراننا من أهل مراكش في طلب إبل له كان يظنها ذهبت، فذهب هو فلم يهتد إلى مكان الركب لأن أرض ذلك المكان مستوية في مرأى العين وهي ذات غيطان متشابهة، وفي الغد أصبح الناس يطلبونه إلى أن وجده الدليل راجعا من حيث جئنا وهو تائه يظن أنه متوجه إلى المغرب، فأتى الدليل إلى الركب فارتحلنا وسرنا والإبل في غاية ما يكون من الضعف من أجل البرد والمطر إلى أن قطعنا وادي الأشبور من أسفله ووجدناه حاملا، وبتنا، وفي الغد أصبحنا على قرية تسمى الماية، وليس فيها إلا رجلان أو ثلاثة في غاية ما يكون من الضعف والجوع، وزعموا أنهم شرفاء ولم يجد الناس عندهم ما يشترون إلا الملح يبيعونه بالطعام، وكان من لطف الله بهم أن الركب المتقدم أقام هناك يوما من المطر فماتت لهم ثلاثة من الإبل وانتفع أولئك الضعفاء بلحمها، وهناك وجدنا

شيئا من خبر الغرب وأن طائفة من عرب مولاي محمد رحمه الله أغارت على العرب الذين بأحواز الكراكدة، وأخبرنا أن الغرب أمطر مطرا عاما لم يعهد مثله، وبعد أن تجاوزنا الماية بيومين عدلنا ذات اليمين وقطعنا الجبل من ثنية هناك وعرة، وكان المخبر يظن أنها تسلك إلى الطريق فإذا بها تفضي إلى أودية وعرة وأماكن لا تكاد تسلك فيها الإبل، ووقع الناس في حيرة بعدما قطعوا كثيرا منها، فمن قائل نرجع إلى طريقنا، ومن قائل نبيت هنا حتى نرى في أمرنا، فنزل الناس قبل العصر وذهب المخبر وشيخ الركب يلتمسون الطريق فما رجعوا إلى قريب من المغرب، وفي الغد ارتحلنا وسلكنا وعرة ولم نخرج إلى أسهلها إلا قريبا من الظهر، ومررنا بقرية في بعض تلك الشعاب قائمة البناء ملتفة الأشجار كأنما خرج أهلها بالأمس، وسألنا بعض أهل تلك البلاد فأخبرونا أنها ربما سكنها بعض الضعفاء أيام الشتاء وعندما توغلنا في تلك الشعاب أيس أكثر الناس ممن لا خبرة لهم بالطريق، ولم نبت تلك الليلة إلى أسفل من وادي الغاسول، ووجدنا هنالك عشباً كثيراً، وتباشر الناس بالخير، وفي الغد لقينا طريق الحجاج المألوفة وتباشر الناس بالخير، وبلغنا قرية الكراكد، ووجدناها في غاية ما يكون من الغلاء وقد غارت عليهم خيل من خيول العمور بالأمس فأخذت لهم غنما بقيت لهم، وقد كانوا أغار عليهم عرب الشريف مولاي محمد رحمه الله صاحب تافلالت، وأخذنا ماءنا منها، وتجاوزناهم فلم نبت إلى موضع هناك يقال إن فيه مات الشيخ سيدي عبد القادر بن أبي سماحة، وفيه مزارة تزار، وفي الغد ارتحلنا ووجدنا عرب الأغواط الغربية قد فروا أمامنا من العمور، ونزلوا قريبا من قرى ربا، ونزلنا عندهم ظهراً فوجدنا لديهم سمناً كثيراً وقليلاً من الإبل، واشترى الناس حاجتهم من السمن، وكان أهل الركب قد جاعوا جوعاً عظيماً من يوم خرجوا من الأغواط لأنهم كانوا يظنون أنهم[1] يقطعون تلك المسافة في خمسة أيام فما قطعوها إلا في أزيد من عشر، وبلغ الشعير قريبا من ريال للصاع، وبلغ الدقيق أكثر من ذلك، وبقيت لي هناك ناقة أحمل عليها كتبي فبعتها بثلاث ريالات، وفي الغد مررنا بقرى بأصبحا، وفي الذي يليه نزلنا أبو سمغون عند المغرب ووجدناه أرخص من كثير من البلاد التي مررنا عليها قبل، وأقمنا فيه غدا آخر يوم من رمضان يوم الأحد، ومن هناك بعث

---

[1] ساقط من ط.

الحجاج المبشرين إلى بلادهم مراكش ومكناسة وفاس وتافلالت، وبعثت أصحابي معهم بكتاب إلى إخواننا واختصرته غاية، وكان في ضمنه بيتان وهما:

[طويل]

حملتُ جنينَ الشوقِ في بطـــنِ مكـــة زمانـــا إلى أن آنَ منـــها انفـــصالهُ

فزادَ نموا فاســـتوى عنـــدما غَـــدا ثلاثـــينَ شـــهرا حملـــه وفـــصالهُ

وفي ضمن الكتاب أيضاً بيتان آخران قد حازا من البلاغة مثل الذي قبلهما أو أوفر نصيب، وهما:

[طويل]

ألا عِم صباحا منزلي بـــين أطـــلال وذُم ذا صَفاء مـــن تغـــير أحـــوالِ

وخرج المبشرون صبيحة يوم العيد قبل طلوع الشمس، وبقينا بعدهم إلى أن صلينا مع أهل البلد، وكان من عادتهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيراً كان أو كبيرا، ويبنون في المصلى أحجاراً يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق، فلا يذكر الله في المصلى إلا أناس قليلون، وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة إلى أن فرغ الإمام من الخطبة، فرجعنا ورحلنا ذلك اليوم، واشتريتُ من هناك حماراً لركوبي بأربع ريالات لأني أضعفني المـــشي على رجلي كثيراً بعد موت الفرس، واكترى أمير الركب رجلا من أولاد سيدي سليمان بن أبي سماحة يذهب بهم ذات اليسار حتى يخرجوا في فجيج، وكان ماهراً خريتاً عارفاً بالطريق، فسار بنا في أرض سهلة مخصبة، وفي اليوم الثالث نزلنا وادي الناموس، وهو وادي كبير ملتف بأشجار الطرفا في حلاها قيعان تمـــسك المـــاء وتنبت الكلأ يكفي الأنجاع من العربان إذا أووا إليه، وفي أعلاه عند فرضة الجبل الذي يخرج منه إلى الصحراء قرية سندانة، وهم قوم من متفقرة ذلـــك البلـــد، وكبيرهم الآن صاحبنا سيدي محمد بن سليمان، وكان رجلا لا بأس به، ينتسب إلى الوالد رحمه الله بتتلمذ، وبعثت إليه ليأتينا فلم يجده من بعثته إليه، فلحقنا أخوه ليلاً ونحن بائتون في وادي الزبية، وفي الغد دخلنا فجيج خامس يوم من رحيلنا من بوسمغون، وكان دخولنا من طريق تمزوغت يوم الجمعة ظهراً، ووجدنا الرقاصين[1]

[1] الرقاصون: جمع رقاص، وهو حامل الأخبار، أو ساعي البريد بلغة العصر.

الذين جاؤوا من مراكش ومن مكناسة، وأخبرونا خبر الغرب، ووجدنا المبشرين الذين بعثناهم ذهبوا على طريق أنوال، وأقمنا فيه يوم الأحد وهيأ الناس زادهم، ولقينا صاحبنا فقيه البلد سيدي أحمد بن أبي بكر الشريف من بني صيكون بإشمام الصاد زايا، وهو بقية طلب فجيج، وعاملنا مقدوره وهو من أصحاب شيخنا سيدي محمد بن ناصر، رضي الله عنه، و لم أر أحدا من أولاد سيدي عبد الجبار إلا رجلاً ضريراً اسمه عبد القادر منقطع في داره، الغالب عليه أنه من أهل الخير، وطلبت الدخول إلى خزانة كتبهم فلم يتيسر لغيبة الذي عنده المفتاح، وأطلعني سيدي محمد بن أبي بكر على تأليف له جمع فيه مناقب الخلفاء الأربعة، والله يجازيه على قصده خيراً، واستعرت من عنده كتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول لمحدث الديار اليمنية الشيخ عبد الرحمن الديبع، وهو من أجداد شيخنا المقرئ الفصيح أبي الحسن الديبع، وهذا الكتاب غاية في بابه جمع أحاديث الأصول الستة بأوجز عبارة وأحسن ترتيب، وأسلوبه في ذلك ألطف من أسلوب البارزي في اختصاره المسمى بالمجتبى، وزاد عليه بتفسير الغريب، وقد اتصلت بحمد الله روايتنا لهذا الكتاب بالخصوص من طريق أبي الحسن شيخنا إلى جده مؤلفه، رضي الله عنهم، وهذا الكتاب غريب الوجود سيما في بلاد المغرب، وإنما دخل بيد صاحبنا المذكور من عند سيدي محمد بن إسماعيل المسناوي لما دخل بلدهم، وكان عنده نسختان من هذا الكتب، فوهب أحدهما لصاحبنا، وقد رأيت الأخرى بالمدينة من جملة كتبه الذي أوصى للحرم الشريف، ومن هذا الكتاب جمع صاحبنا كتابه المذكور في مناقب الخلفاء وأطلعته على كتابي إظهارا لمنه، فابتهج به سروراً، وكتابه بالنسبة إليه نقطة من بحر، والمنة لله ومن شكر الله التحدث بها، و لم تسخ نفس صاحبنا المذكور بإعارة كتابه حتى تكفلت له باستنساخ حاشية أبي الحسن على البخاري، فوفيت بحمد الله.

ثم ارتحلنا من فجيج يوم الأحد سابع شوال، وعندما حملنا على الإبل جاءني صاحبنا سيدي محمد بن سليمان السنداني وتأسف كثيراً لعدم الملاقاة قبل ذلك، وزعم أنه يواسي بمركوب لو اجتمعنا به وسرنا يومنا ذلك وبتنا قريبا من كلتة الرجم، وفي الغد جئناها صبحا، ومن هناك افترقنا مع أهل مراكش وأهل تافلالت وكتبت مع محبنا الحاج محمد الأحمر السلاوي إلى عالم مراكش وصالحها سيدي محمد بن سعيد، رضي الله عنه، آمين.

وذهبنا نحن مع أهل مكناسة وفاس بأحد عشر خباء، وأخذنا عن يمين جبل عنتر، وهو أعظم جبل في تلك الناحية، وسلكنا طريقا حرشة هنالك بين جبلين أحدهما جبل عنتر وهو عن يسارنا إلى أن خرجنا عند الثوميات، وفي الغد وصلنا إلى مرغل قبل الظهر وتجاوزناه، فلما وصلنا إلى قرية المناهة تفقدنا صاحبا لنا نام في وادي قبل أن نصل إلى موغل، فوقفنا ساعة ننتظره إلى أن وصلنا فسرنا وبتنا، وفي الغد جئنا لبوكايس ضحى ووجدنا واديهم ليس فيه إلا قليل ماء، وكان عهدنا به ذا ماء كثير، وأخبرنا أهل البلد أنه كان بأعلى الوادي غار في الجبل فيه بركة ماء طاف مستدير لا يعلمون من أين جاء ولا إلى أين يذهب، فبأذوا يحفرون عنه ليخرجوه ويزيدوه على ماء ساقيتهم، فلما أجروه وأبلغوه إلى الساقية انقطع ماء الوادي الذي يجري في الساقية، وتبين لهم أن الماء الذي في الغار هو أصل ماء الوادي، فذهب عناؤهم باطلا، إلا أنهم استفادوا من ذلك سلامة ساقيتهم من إجحاف السيول ببعدها عن مجرى الوادي، وتجاوزنا بوكايس ولم نبت إلى قريب من وادي زلمو، وفي الغد جئنا لقرية الحجوي وتجاوزناها إلى وادي بوعنان قبل العصر ووجدناه يجري بالماء العذب، وتجاوزناه وبتنا في سهب الحجارة، وفي الغد جئنا إلى السهلي ظهرا وزرنا سيدي عبد الرحمن، وهو من تلامذة سيدي علي بن عبد الله الفيلالي، وفي هذه البلدة وجدنا غاشي بلادنا ومن يخبرنا ببعض خبرها، ولم نلق قبل ذلك من عنده من يشفي من الخبر، وتجاوزنا إلى بني بودنيب وبتنا فيها، وفي الغد بتنا بقدوسة، ومنها إلى تولال نزلناها ظهرا لضعف أباعير الحجاج وأكرمنا بعض الأشراف النازلين هناك، وأطعم الحجاج فجزاه الله خيراً، وكنا ننتظر من يتلقانا من إخواننا في هذه القرى، فلما لم نجدهم هناك علمنا أنهم ذهبوا على طريق أخرى، وبعثت من هناك رجلا آخر إليهم، وفي الغد مررنا بتكرين ظهرا وتجاوزناها وبتنا وفي الغد خرجنا من فم الطبل ولقينا إخواننا في ذلك اليوم وبتنا معهم ومع الحجاج أصحابنا تلك الليلة، وفي الغد فارقنا الحجاج وبعثنا معهم من وصلهم إلى أوطاط.

ووصلنا بلدنا أمنه الله من كل سوء يوم الأربعاء ظهراً سابع عشر شوال من سنة أربع وسبعين وألف، وألقينا عصا التسيار واستقرَّت بنا الدار، وأكثرنا الاستغفار للملك الغفار، وحمدنا الله على السلامة من ركوب الأخطار والنجاة من غوائل الأسفار، ونسأله الإنابة والعافية وحسن القرار في هذه الدار وفي تلك

الدار بجاه سيدنا محمد المختار وآله الأطهار وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان من الأبرار، والله يختم بالسعادة آجالنا، ويقرن بالعافية غدونا وآصالنا، ويبلغنا من خير الدارين آمالنا بجاه سر الوجود ومنبع الجود سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وعلى آله وصحبه أجمعين، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين)[1][2].

---

[1] الصافات: 180-182.

[2] كتب في آخر النسخة خ: كمل تمام هذه الرحلة المباركة ضحى يوم الجمعة أوائل رجب الفرد سنة اثنين ومائة وألف على يد أحوج عباد الله أحمد بن عبد الرحمن العياشي المستوطن تاضغوت، متوسلا إلى الله تبارك وتعالى، بجاه مؤلف هذه الرحلة وأشياخه وأجداده وبركة ما احتوت عليه من الصالحين الأطهار والعلماء الأخيار والأولياء الأبرار، ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم المختار، وسائر الأنبياء وتلك والأقطار، وزيارة تلك البقاع الأطهار، وأن يختم آجالنا بحسن الختام بالموت على الإيمان والإسلام، والعفو والعافية على الدوام لنا ولأشياخنا ولأحبابنا ولأقاربنا ولمن قال آمين، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. وكتبناها لمولانا العلامة والبحر الفهامة القدوة المحقق والعارف المتفنن المدقق، باذل الجهد في اتباع السنة، ومستغرق الوقت في شهود المنة، ذي الجنان المرعي، شيخنا وسيدنا أبي العباس سيدي أحمد بن ناصر الدرعي، أطال الله لنا بقاءه، وأناله في الدارين نيته ومرامه، ورزقنا رضاه، آمين آمين آمين، يا رب العالمين.

وفي ط: انتهى الكتاب المبارك بحمد الله وعونه، اللهم اختم لنا بالسعادة التي ختمت بها لأوليائك، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك، يا أرحم الراحمين، بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

الفهارس الكشافة

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــــة	الســورة	الآية	الصفحة
ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم	البقرة	241	1: 610
ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض	البقرة	249	1: 610
ولكن الله يفعل ما يريد	البقرة	253	1: 366
وما يذكر إلا أولو الألباب	البقرة	268	1: 599
أن يمل هو فليملل وليه بالعدل	البقرة	281	1: 568
آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه	البقرة	285	2: 231
هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء	آل عمران	6	1: 610
شهد الله أنه لا إله إلا هو	آل عمران	18	2: 351
فاتبعوني يحببكم الله	آل عمران	31	1: 601
قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء	آل عمران	73	2: 442، 446
ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا	آل عمران	146	1: 490
ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله	آل عمران	169	2: 230
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل	آل عمران	173	1: 69، 224
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل	آل عمران	174	1: 69
إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا	آل عمران	196	2: 347
إن الله لا يظلم مثقال ذرة	النساء	40	2: 334
فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد	النساء	41	1: 390
وكان أمر الله مفعولاً	النساء	47	2: 404
فإن تنازعتهم في شيء فردوه إلى الله والرسول	النساء	58	1: 607
من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا	النساء	69	1: 556، 2: 230
ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما	النساء	110	2: 223

الآيــــــــة	الســورة	الآية	الصفحة
فنعم عقبى الدار	الرعد	24	1: 396
لكل أجل كتاب	الرعد	39	1: 606
والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب	الرعد	41	1: 233
ولكن الله يمن على من يشاء من عباده	إبراهيم	14	1: 587
بواد غير ذي زرع	إبراهيم	39	1: 516
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	الحجر	99	1: 512
أتى أمر الله	النحل	1	2: 90
وعلى الله قصد السبيل	النحل	9	1: 600
وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت	النحل	38	2: 120
من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين	النحل	66	1: 187
فلا تضربوا لله الأمثال	النحل	74	1: 512
ولا تقف ما ليس لك به علم	الإسراء	36	1: 430
وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم	الإسراء	44	1: 194
ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات	الإسراء	70	1: 266
وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق	الإسراء	80	1: 602
وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا	الإسراء	81	1: 602
وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين	الإسراء	82	1: 561، 2: 306
قل الروح من أمر ربي	الإسراء	85	1: 523

الآيـــــــة	الســورة	الآية	الصفحة
ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام	الحج	28	1: 325
لهدمت صوامع وبيع وصلوات	الحج	38	1: 312
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة	الحج	63	1: 125
فتبارك الله أحسن الخالقين	المؤمنون	14	1: 230
يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا	المؤمنون	51	2: 224
ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن	المؤمنون	72	1: 562
وهو يجير ولا يجار عليه	المؤمنون	89	1: 551
ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا	النور	16	2: 233
لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا	النور	21	2: 232
قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم	النور	30	2: 112
الله نور السماوات والأرض	النور	35	1: 254، 2: 25
رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله	النور	37	1: 353، 592
والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم	النور	44	1: 305، 2: 51
فليحذر الذين يخالفون	النور	61	2: 79
يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا	الفرقان	27	1: 160
إن كاد ليضلنا عن آلهتنا	الفرقان	42	2: 117
أرأيت من اتخذ إلهه هواه	الفرقان	43	2: 117
بل هم أضل سبيلا	الفرقان	44	1: 201
يوم لا ينفع مال ولا بنون	الشعراء	88	2: 419

الآيـــــــة	السـورة	الآية	الصفحة
أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون	الشعراء	128	2: 226
وتنحتون من الجبال بيوتا	الشعراء	149	1: 206
لا إله إلا هو رب العرش العظيم	النمل	26	1: 223، 2: 251
أمن يجيب المضطر إذا دعاه	النمل	64	2: 86
يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم	القصص	4	1: 221
ومن أضل ممن اتبع هداه بغير هدى	القصص	50	1: 563
وما عند الله خير وأبقى للذين اتقوا وأحسنوا	القصص	60	2: 261
وربك يخلق ما يشاء ويختار	القصص	68	1: 230
يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون	القصص	69	1: 223
إن الذي فرض عليك القرآن	القصص	85	2: 308
غلبت الروم	الروم	1	2: 34
لله الأمر من قبل ومن بعد	الروم	4	1: 188
فسبحان الله حين تمسون	الروم	16	1: 566
وكان حقا علينا نصر المؤمنين	الروم	47	1: 244
ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون	الروم	59	1: 534
ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون	السجدة	13	1: 564
ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه	الأحزاب	4	2: 348
يا أهل يثرب لا مقام لكم	الأحزاب	13	1: 592
رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه	الأحزاب	23	2: 130
وكفى الله المومنين القتال وكان الله قويا عزيزا	الأحزاب	25	1: 281
وكان أمر الله قدرا مقدورا	الأحزاب	38	1: 244، 250 2: 32، 51
والله لا يستحي من الحق	الأحزاب	53	1: 511
يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك	الأحزاب	59	2: 81

الآيـــــــة	الســورة	الآية	الصفحة
ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد	فصلت	46	2: 264، 334
سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم	فصلت	52	1: 509
أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد	فصلت	53	1: 509
ألا أنهم في مرية من لقاء ربهم	فصلت	54	1: 509
حم، عسق	الشورى	1، 2	1: 557
فريق في الجنة وفريق في السعير	الشورى	7	2: 207
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير	الشورى	9	1: 557، 609
خلقهن العزيز العليم	الزخرف	9	2: 122
ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله	الزخرف	87	2: 84، 122
ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر	الجاثية	23	2: 202
إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم	الفتح	10	1: 503، 601، 605
لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين	الفتح	27	1: 312
ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون	الحجرات	11	1: 565
وفي أنفسكم أفلا تبصرون	الذاريات	21	1: 503
وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين	الذاريات	55	1: 567
وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون	الذاريات	56	2: 441
ما ضل صاحبكم وما غوى	النجم	2	1: 231
إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس			1: 564
ولقد جاءهم من ربهم الهدى	النجم	23	
فلا تزكوا أنفسكم	النجم	31	1: 510
وإن إلى ربك المنتهى	النجم	41	1: 496
كذلك نجزي من شكر	القمر	35	2: 231

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الصفحة
إن الله تعالى يقول: إن عبدا أصححت له جسمه	1: 53
إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني	1: 504
إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء	1: 478
إن الله صانع كل صانع وصنعته	1: 609
إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر	1: 162
إن الله يفعل عند الأشياء لا بها	1: 611
إن لم تجدني فأت أبا بكر	2: 200
إن لله تسعة وتسعين اسما	2: 96
إن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض تبلغني عن أمتي السلام	2: 230
إن منكم قوما يتعبدون حتى يتعجب الناس وتعجبهم أنفسهم	2: 223
أنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر	1: 610
إنا معاشر الأنبياء أمرنا بثلاث	1: 445
أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا	2: 208
إنك مني بمنزلة هارون من موسى	2: 222
إنما يرحم الله من عباده الرحما	1: 490
إنه كان يبغض عثمان بن عفان أبغضه الله	2: 220
إنه يقول: لا أسوؤك في أمتك	1: 393
إني أقول مالي أنازع القرآن	2: 221
أول ما خلق الله نور محمد	1: 253
أيكم أصبح اليوم صائما	2: 214
أيما عبد أبق من سيده	1: 230
اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك	1: 417
ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء	1: 489، 490
بئس الميت أبو أمامة لليهود والمنافقين	1: 120
بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا	2: 177
بوادي العقيق أتاني الليلة آت فقال: صل في هذا الوادي المبارك	1: 417
تابعوا بين الحج والعمرة	1: 51
تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات الله	1: 512

فهرس الأعلام

(ابن)

(أبو)

(أم)

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأشعار

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
أيها المدعي التصرفَ في صر	الفصحاء	خفيف	2: 322
جئنا إلى الحَوْراء وهْيَ مَحَطة	للرائي	كامل	1: 298
لئن قيل في زرق العيون شآمة	الزرقاء	طويل	1: 410
إلى بئْرِ العلائي قد أتَيْنا	بالنماء	رمل	1: 282
كَفنُوني إن متُّ في دِرع أرْوى	ماء	خفيف	1: 417
لك ذاتُ العلومِ والأسماء	الأنبياء	خفيف	2: 304
أقولُ وحمدُ اللهِ أجعله بدْءا	البرءا	طويل	1: 59
إذا نابني أمرٌ فزعتُ لمدحهِ	سوءا	طويل	1: 60
أرسلتَ لي بُسرا حقيقته نوى	جلباب	كامل	2: 102
دعني أعفرُ جبهتي بترابها	أبوابها	كامل	2: 110
وكنتَ كذي داء تبغي لدائهِ	تطببا	طويل	2: 357
جهاتُ أموال بيتِ المال سبعتها	كاتبه	بسيط	2: 102
كمالُ الفتى بالعلم لا بالمناصب	المراتب	طويل	2: 114
إن الجِمالَ التي بالحملِ قد عُرِفَت	القتب	بسيط	1: 225
ببركَةِ الحج ترَى	عجب	مجزوء الرجز	1: 273
ما أكثرَ الناس وما أقلهُم	النجبا	بسيط	2: 417
العلم زينٌ وتشريف لصاحبه	الأدبا	بسيط	2: 204
أبني إني واعظٌ ومؤدبُ	المتأدب	كامل	2: 210
على أسْرَتي أزكَى سلامٍ وأطيبُهْ	أعذبه	طويل	1: 175
أراهمْ معي لا بل أرى أنني همُ	المكذب	طويل	2: 304
شاقنَا وادِي القباب المُرْتقي	الربا	رمل	1: 278

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
هم السمن بالسنوت لا السمن فيهم	يتفردا	طويل	2: 225
ادأبْ على جمْع الفضائلِ جاهدا	الجسد	كامل	2: 107
ثِقالٌ إذا لاقوا خِفافٌ إذا دُعُوا	شدوا	طويل	1: 280
كنت إذا ما أتيتُ عيْبا	أرشد	مخلع البسيط	2: 284
للشيخِ عاشُور الإمامِ الأمجَد	الأرشد	كامل	2: 503
قواعدُ هذا الفنِ صَوَن قوَاعد	مواعدا	طويل	2: 504
مُنايَ وإن عَز المُنى قُرب سيدي	بعدي	طويل	2: 67
زها بك دستُ الملك والتاجِ والعقْدِ	العقد	طويل	2: 315
وجاءت به شكلاء ذات أسرة	تكمد	طويل	2: 225
تَجردتُ لما أن وصلتُ لرابغٍ	الندا	طويل	1: 311
ما أكثرَ الناس بل ما أقلهم	فندا	بسيط	2: 417
عليكَ بصافِي ود ليْلى وكُنْ لها	العهد	طويل	1: 604
أتتيكَ تهديني الرشادَ أبا مهدي	يهدي	طويل	2: 195
سَيدي سيدي شِهابَ الوُجودِ	وجودي	خفيف	2: 482
وكيف ما دارتِ الأيامُ مقبلة	محمود	بسيط	2: 97
هنئيا لقلبي هذه دارُ سَيدي	يد	طويل	1: 371
أرومُ ارتَحالاً نحوهُ فتصُدني	القيد	طويل	1: 65
قرابة السوءِ شر داء	حميدا	مخلع البسيط	2: 291
ألا يا خليلَ الله جئتكَ زائِرا	سائرا	طويل	2: 460
لله يوم بحمّام نعمت بها	جار	بسيط	2: 330
حكمُ المنية في البريةِ جار	قرار	كامل	2: 92
إن الأهلةَ في السماء مناجل	الأعمار	كامل	1: 443
قد وَصَلنا إلى مَغار شُعَيْبْ	كالأنهار	خفيف	1: 290
صبرًا لحُكمِك أيهاَ الدهرُ	الصبر	كامل	2: 341
صف ذاتنا جودُ شخصٍ قد سمَا كرما	فترى	بسيط	1: 476
وضابطُها في القول ليلة جُمعة	الوتر	طويل	2: 289
انظرْ بعينكَ هل ترَى	الثرى	مجزوء الكامل	1: 126
أجزتُ بكل ما أرويهِ طُرا	نثرا	وافر	2: 458

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
وإذا أتيتكَ زائِرا مُتشوقا	رجوعي	كامل	2: 340
وإنما المرءُ حديثٌ حسَن	وعى	رجز	1: 280
خفْ إذا ما بت ترجو	خائف	مجزوء الرمل	2: 92
أَمَنْ لسواهُ النكرُ وهْو لهُ العُرْف	الحذف	طويل	1: 165
نزلَ الركْبُ بوادِ المُنصَرفْ	صرف	رمل	1: 278
غيبُ الهوية في هاء التنفس	فاعرفها	بسيط	1: 350
فكل فما قبلهُ مُبدل	يعرف	متقارب	2: 42
كل حرف بما قبله مبدل	يعرف	متقارب	2: 42
عداد أحاديث البخاريِّ خالصا	نصف	طويل	2: 289
حمدتُ إلاهًا قد تنزهَ عن كيْفِ	وصف	طويل	1: 86
أجنةَ علمٍ في سماءِ جلالة	القطف	طويل	1: 85
بطيبةَ قدْ خيمتُ بعد تَعشق	موقف	طويل	2: 51
هنيئا لقد قدمتهُ فرَطا يجري	موقف	طويل	2: 62
أهاجرةً بعد الوصال لها إلفا	إلفا	بسيط	2: 512
أُشهدُ اللهَ وأملاكَ السَما	كفى	رمل	2: 155
الرب ربٌ والعبَدْ عبد	المكلف	مخلع البسيط	1: 522
الروح روح والجسم جسم	المكلف	مخلع البسيط	1: 523
نعم بحق إثباتِ عبْد	يكلف	مخلع البسيط	1: 522
أسرارُ دور مِن الحُروفِ	اللطيف	مخلع البسيط	2: 26
قد استوى بشر على العرَاق	مهراق	كامل	1: 572
صليه أوِ كليهِ لما يُلاقي	المآقي	وافر	2: 344
ما رغبةُ النفس في الحياة وإن	لاحقها	منسرح	2: 227
إذا ما سقاني ريقهُ وهْو باسِم	بارق	طويل	2: 350
لنا عليكَ بمحْضِ الفضْلِ حق قِرى	حقي	بسيط	1: 328
فكأنهُ لما بدَا مُتشَمرا	أحدقوا	كامل	1: 316
خُذوا بَطْن هَرْشى أو قَفاها فإنها	طريق	طويل	1: 307
لبستَ تلك الخرقة الأنيقة	دقيقه	رجز	2: 131
سالَ العقيقُ ودمعِي	العقيق	مجتث	1: 419

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
أبو حَامد في العلم أمثال أنجُم	بالسبك	طويل	2: 115
يا رسولَ الإلهِ ما لكَ عِندي	عندك	خفيف	1: 469
أبا سالمٍ سلمتَ من عارضِ الضنكِ	المسك	طويل	2: 78
أسيدنا ًالبري أحمَد خير مَن	شك	طويل	2: 78
يا جُملتي لا تدْغمي وفَككي	فكك	رجز	1: 621
إليكمُ معشرَ الفُراض مسألة	ملكه	بسيط	2: 322
فحققكَ إنشادُ مَدى الدهرِ نادما	الأوائل	طويل	1: 160
يا حَي يا قيومُ يا ذا الجلالِ	الجمال	سريع	1: 210
أشكو إليك وأنت	حالي	مجزوء الكامل	2: 89
ومن رامَ في الدنيا حياة خَلية	محالا	طويل	2: 90
حملتُ جنينَ الشوق في بطنِ مكة	انفصاله	طويل	2: 549
أبنيّ إني ما تركْتُكَ عَن قِلى	وصالها	كامل	1: 68
تَعطفْ بمُضنى عليلِ المقالْ	المطال	متقارب	1: 626
إني لأعذرهُ لكثرةِ شُغلهِ	أشغاله	كامل	2: 64
اعملْ لنفسكَ صالِحا لا تحتفلْ	قال	كامل	2: 96
أبدر أبدتْ في الخافقين سعوده	تلالا	طويل	2: 515
يا طالبًا نعتَ الشيوخِ وما رووا	الإجمال	كامل	2: 290
لوجهِ رسولِ الله وجهتُ آمَالي	أعمالي	طويل	1: 468
ألا عِم صباحا منزلي بين أطلال	أحوال	طويل	2: 549
أهدي لحضرتكَ العلياء تَحملها	قبل	بسيط	2: 303
من أين من أين لي إن لم توفقني	قبلي	بسيط	2: 446
حيث روضُ النعيم بالأنسِ يجنى	تجلى	خفيف	2: 325
سلامٌ كعَرفِ المسكِ أو كجنا النحلِ	المحل	طويل	2: 68
تعدد هذا الكونُ والكثرةُ التي	محلها	طويل	1: 356
جدي غدا كالجَدي أشرق نُوره	الأعزل	كامل	2: 342
ربِّ بأسمائِك الحُسنى بأوصافِك	بالرسل	بسيط	1: 469
منك السَّميدُ ومني النار أنفخها	العسل	بسيط	2: 346
أيا سَائِلي عما أتانَا بهِ الأُلى	متسلسلا	طويل	1: 474

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
أيها القادمونَ أهلا وسهلا	المصلى	خفيف	2: 324
وسارقةُ المنديلِ تُدعى بزينب	العلا	طويل	2: 23
مضَى ابنُك محمُود العواقبِ لم يشبْ	فعل	طويل	2: 291
وقالوا فررتَ وليس الفرارُ	فعله	متقارب	1: 58
ما كان أحلاها ليالِيَ قد مضتْ	غافله	كامل	2: 383
إن الولايةَ ليس فيها راحةٌ	العاقل	كامل	2: 114
أعيني جَوادا بالدموع تأسفا	عقل	طويل	2: 518
صَعدُوا على ظهْرِ الحِمار لعلهمْ	الأمل	كامل	1: 287
أتعبتَ نفسكَ بينَ ذلة كادح	مؤمل	كامل	2: 106
من واحد العد كل العد منتشي	الجملا	بسيط	1: 356
يا منْ له الوجهُ الجميلُ ومنطقٌ	تجمل	كامل	2: 323
يا فاضلا في جَامعية فضله	مجمل	كامل	2: 322
فؤاديَ لا يحتاجُ فيه لشاهِد	الجهل	طويل	1: 532
أسيدَنا مفتِي الوَرى ابنَ مساهلِ	المناهل	طويل	1: 132
عز العزاءُ وجد الوجدُ واشتعلا	نُهل	بسيط	2: 394
تولى شبابي كأن لم يكنْ	تولى	متقارب	2: 101
إنْ جئتَ للإصطَبلِ لا	النزول	مجزوء الكامل	1: 293
مولاي إن مُحمدا أوفى إلى	رسولا	كامل	2: 331
أبا بَكرٍ أبَى كرْبِي يزولُ	طول	وافر	1: 171
فمُنوا بهِّ قبلَ الرحيلِ لنا كما	بالمطول	طويل	1: 146
سأشكرُ إحسانا بدَا منك سَيدي	القولا	طويل	2: 506، 507
يا أيها المُبتلى بذَمي	تقول	مخلع البسيط	1: 520
أمولى غدا حُر الكلام له مولى	هولا	طويل	2: 507
لقد كثرتْ دعاةُ الفقهِ حتى	الصهيل	وافر	2: 290
يا صاحِبي هل علمتَ شيئا	الإقامه	مخلع البسيط	1: 124
لو كانَ فيهم من عراهُ غرام	ولاموا	كامل	2: 94
ألا ليتَ شِعْري هلْ إلى الرملِ عَودة	لمام	طويل	1: 418
لكنهم جهلوا لذاذة حُسنهِ	ناموا	كامل	2: 94

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
بشراكِ دارَ الملك قد صرت في	العظيم	سريع	2: 318
يا سائلي عن غزة	مقيم	مجزوء الرمل	2: 412
أعظم بجهل فتية	أنا	مجزوء الرجز	1: 427
سلامٌ باللسانِ وبالبنانِ	الفرقدان	وافر	2: 353
حُب الورى للدر والعقيانِ	الإنسان	كامل	2: 463
ما شأنُ أم المؤمنين وشأني	الشاني	كامل	2: 235
كم قلتُ ما أجفى مُحبا غافلا	أجفاني	كامل	2: 340
يا صاحِ إن عقيدةَ النعمانِ	الإيقان	كامل	2: 243
يا نبِي الإله يا ابن سِنان	بأمان	خفيف	2: 543
فسدَ الزمانُ كما تَرى من حاله	الأزمان	كامل	1: 110
يقولون الزمانُ به فسادٌ	الزمان	وافر	1: 111
فذم الدهرِ للإنسان خير	الزمان	وافر	2: 103
أن يكونَ الزمانُ عيبي أوْلى	الزمان	خفيف	2: 103
مدلول لو ربط وجود ثان	الزمان	رجز	2: 119
ولو نُعطى الخيارَ لما افترقنا	الزمان	طويل	2: 340
بأي جنايةٍ وبأي ذنب	الزمان	وافر	2: 341
نُحاةَ العصْر أربابَ المعاني	الزمان	وافر	2: 353
لدى الشيخ الغصين أنختُ رحلي	مكان	وافر	2: 411
أمولايَ بدرَ الدين إنيَ ظمآنٌ	ريان	طويل	1: 632
فإن لا يكنها أو تكنه فإنه	بلبانها	طويل	1: 343
أجيرانَ خيرِ الخلقِ مُنوا بدَعوة	بنانه	طويل	1: 431
يا رُب جَوهرِ علمٍ لو أبوح به	الوثنا	بسيط	1: 594
أجزتُكَ لكن مثلكم من يُجيزني	يفيدني	طويل	1: 491
قد دخلنا بنْدرَ الوجهِ الذي	يختزن	رمل	1: 293
قلْ لإخوانٍ رأوني ميّتا	حزنا	رمل	1: 521
يا مَنْ لهُ بصَرٌ في أي ما فَن	السن	بسيط	1: 246
إن في الجنةِ نهرًا من لبَنْ	حسن	رمل	1: 332
قدْ شكَا لِي بعضُ المحِبينَ يومًا	ممكن	خفيف	1: 309

صدر البيت	القافية	البحر	الصفحة
أسيدَنا أبا عمْران أَنِي	مني	وافر	1: 242
يا منْ أَتَى أَكْرَه في سَيْرِهِ	المنه	سريع	1: 298
إمامُ التقى نجمُ الهدى شاذِليهم	المنن	طويل	1: 568
إذا رُمتَ آبارَ النبيِّ بطِيبة	وهن	طويل	1: 415
حَبذا بَنْدرُ ينبُوعٍ وما	عيون	رمل	1: 300
رثى لي عُودي إذْ عايَنُوني	العيون	وافر	2: 124
أيها السامِي سُمو الفَرقدينْ	الفرقتين	رمل	1: 240
أيها السامِي لكلتا الذروتَينْ	المروتين	رمل	1: 239
يا رحلةً كلما قصرتُ شقتها	حينا	بسيط	2: 547
سَكناها ليالي آمنينَ	الناظرين	وافر	2: 546
يا من لهُ رغبة في العلم يحملهُ	ياسين	بسيط	1: 621
عجبتُ منكَ ومني	عيني	مجتث	2: 283
ذريني أَردْ ماءَ المفاوز آجنا	معين	طويل	1: 52
وخمسةُ أحْرُف في اللَفظِ تُقْرا	بحرفين	وافر	1: 287
دهْرنَا أمسَى ضنينا	ضنينا	مجزوء الرمل	2: 125
أنظُرْ إلى الخضْراَء واغْنَمْ بسْطهَا	نزهة	كامل	1: 299
يا أيها المغرورُ بالله	الله	سريع	2: 111
مات فتى المجد من آل علوي	النهى	رجز	2: 132
ولمْ أنْسَ بالتيْهِ يوْما بهِ	ولوها	متقارب	1: 276
لا تَسْلكنَّ بوادي التيْهِ مُنفردا	فيه	بسيط	1: 279
ومنْ كان لا يُرضيه من حالَتي سوى	فيه	طويل	2: 102
ما اسمٌ تراني أبدا شيِّقا	نيه	سريع	2: 330
ما في خُمولي من عارٍ على أدبي	أهليها	بسيط	2: 103
وفي أكرهٍ والتي بعدهَا	القساوة	متقارب	1: 299
قد نزلنَا بطَارفٍ لقَديدِ	الحمايه	خفيف	1: 310
صبا للعلمِ صبا في صباه	الصبي	وافر	2: 105
وحلتْ سوادَ القلب لا أنا باغيا	متراخيا	طويل	2: 108
سبرنا العالمينَ فما رأَينا	الخياري	وافر	1: 628

فهرس المدن والأماكن والبلدان

فهرس البحار والأنهار والآبار والمياه

فهرس الزوايا والأضرحة والمقامات والأربطة والكنائس

فهرس الأبواب

فهرس الكتب الواردة في المتن

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة.
- أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، عبد الله بنصر العلوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1998.
- إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، أبو سالم العياشي، تحقيق: محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1999.
- الأحاديث المختارة، المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1410.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، عالم الكتب، بيروت، دت.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري، تحقيق: جعفر الناصر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، مصر، 1280.
- أسماء القبائل وأنسابها، معز الدين القزويني، شرح وتحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000.
- اعتقاد أهل السنة، هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم،المطبعة الملكية، الرباط، 1974.
- أعلام المغرب العربي، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1979.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة 8: 1989.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت.
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر،فهرس أبي سالم العياشي، تحقيق ودراسة: نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1996.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، محمد بن الطيب القادري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983.
- ألف باء، يوسف محمد البلوي، عالم الكتب، ط2: 1985

- أمثال العرب، المفضل الضبي، قدم له وعلق عليه: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1983.
- أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتاب ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام لأبي يحيى الزجالي، دراسة وتحقيق د. محمد بنشريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1975.
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ابن دقماق، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- أنس الساري والسارب، ابن مليح، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1970.
- البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، سليمان الحوات، تحقيق: عبد الرحمن كظيمي، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآداب الرباط.
- البداية والنهاية، ابن كثير، مطبعة المعارف، بيروت، دت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، خالد بن عيسى البلوي، مقدمة وتحقيق: الحسن السائح، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.
- تاريخ الإسلام للذهبي دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاريخ أمراء المدينة المنورة، تأليف: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر، 1418.
- تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407.
- تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، الشيخ عبد الحي الكتاني، ضبط وتعليق: د. أحمد شوقي بنبين ود. عبد القادر سعود، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1: 2004.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ابن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت، 1404.
- التحبير في المعجم الكبير، السمعاني، تحقيق: منيرة ناجي سالم.
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
- تذكرة الحفاظ، محمد بن طاهر القيسراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد إسماعيل، دار الصميعي، الرياض.
- التذكرة الفخرية، الصاحب بهاء الدين الإربلي، تحقيق: د. نوري حمودي القيسي، د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، ط1: 1997.
- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، أبو القاسم الزياني، حققه وعلق عليه: عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء، المغرب، 1967.
- الترغيب والترهيب
- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبو يعقوب يوسف التادلي، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط 2: 1997

- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة.
- التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، عني بنشره وتصحيحه، السيد عزت العطار الحسيني، 1955.
- التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، 1983.
- تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشبندية، تأليف: الشيخ محمد أمين بن فتح الله زاده الكردي، اعتنى به: الشخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
- التوجيهات (مخطوط الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط (ضمن مجموع) رقم: 1773 ك.
- الثغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم، محمد بن حمزة العياشي، (مخطوط الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط) رقم: 304 ك.
- الجامع الصغير للسيوطي، تحقيق: محمد عبد الرؤوف المناوي، دار طائر العلم، جدة.
- الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، محمد كبريت الحسيني، حققه وعلق عليه: د. عائض الردادي، الرياض، 1998.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، محمد حجي، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، دت.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، المطبعة الشرفية، مصر، دت.
- الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، عبد الغني النابلسي، تحقيق: أكرم حسن العلبي، المصادر، لبنان، ط 1: 1990.
- الحكم، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق وتقديم: أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، المكتبة الأزهرية للتراث.
- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول حققه: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1979
- الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، محمد الأخضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1977.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار صادر، بيروت،
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر، تحقيق: محمد حجي، راجعه: عبد المجيد خيالي، مطبعة الكرامة، الرباط، ط3: 2003.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ديوان ابن دراج القسطلي حققه وعلق عليه وقدم له د. محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، ط 2، 1389 هـ.
- ديوان ابن سهل الإسرائيلي، دراسة وتحقيق: يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

- ديوان أبي إسحاق الألبيري حققه وشرحه واستدرك فائته، د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1: 1991.
- ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار مكتبة الهلال، لبنان، 1998.
- ديوان أبي المغيث الحلاج، صنعه وشرحه وعلق عليه: موفق فوزي الجبر، دار المنير، دار معد، سوريا، 1999.
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ حققه أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- ديوان الإمام علي، جمعه وضبطه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998.
- ديوان حازم القرطاجني تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، 1964.
- ديوان الخنساء، شرح: ثعلب الشيباني، حققه: د. أنور أبو سويلم، دار عمار، الأردن.
- ديوان ذي الرمة، شرح أحمد بن حاتم الباهلي، دققه: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، ط 3: 1993.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1977.
- رحلة ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الواتي، تحقيق: د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405.
- رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، حررها وقدم لها: نوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- رحلة ابن رشيد ابن رشيد السبتي، دراسة وتحليل: د. أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2003.
- رحلة التيجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، 1981.
- رحلة العبدري، تحقيق وتقديم: محمد الفسي، منشورات جامعة محمد الخامس، 1968.
- الرحلة العياشية، ماء الموائد، لأبي سالم العياشي، وضع فهارسها: محمد حجي، الرباط، 1977.
- الرسالة القشيرية في علم التصوف، عبد الكريم بن هوزان القشيري النيسابوري، تحقيق: معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، 2001.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975
- روضة الآس العاطرة الأنفاس، أحمد بن محمد المقري، المطبعة الملكية، الرباط،1964.
- الرياض النضرة، أحمد بن عبد الله الطبري، تحقيق: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي، حقه: د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، دار الثقافة، لدار البيضاء، 1981.
- الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة، تقي الدين الفاسي، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 2001.

- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي.
- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، 1994.
- سنن المهتدين في مقامات الدين، محمد المواق الغرناطي، تحقيق: محمدن سيدي محمد ولد حمينا، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، 2002.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب أرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف، خرج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح ديوان حسان بن ثابت، وضعه وضبطه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي.
- شرح ديوان المتنبي، تهذيب وتعليق: د. يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1: 1997.
- شرح الزرقاني، محمد بن عبد الباقي الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح المقاصد، سعد الدين التفتازاني، تحقيق وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، 1989.
- شرح النووي على صحيح مسلم
- شرف الطالب في أسنى المطالب، أحمد بن قنفذ،(ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات) تحقيق: د. محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، 1976.
- الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، القاضي عياض اليحصبي،اعتنى به وراجعه: هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر، بيروت.
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تقي الدين الفاسي، دار إحياء الكتب العربية، 1956.
- صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، 1970.
- صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، الطبعة 3: 1987.
- صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، تقديم وتحقيق: د. عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1: 2004.
- ضرائر الشعر، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، لبنان، دت.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، مكتبة الحياة، بيروت، دت.
- طبقات الشافعية، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد، 1391.

- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، منشورات هجر للطباعة والنشر، 1992.
- الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الأخيار، عبد الوهاب احمد بن علي الشعراني، ضبطه وصححه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1-1997
- الطبقات الكبرى لبن سعد، طبعة ليدن، 1321.
- طبقات المحدثين، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، عمان.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، دار الجبل، بيروت.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3-1987
- فتاوى النووي المسمى المسائل المنثورة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379.
- الفتوحات المكية، ابن عربي، دار إحياء التراث العربي، دت.
- فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع الديلمي، تحقيق: السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، اعتنى به: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995.
- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المشايخ والمسلسلات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، اعتنى به: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1982.
- الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة، بيروت، 1978.
- فهرست عبد القادر الفاسي، ومعها إجازة عبد القادر الفاسي لأبي سالم العياشي، تحقيق: الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، 2003.
- فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، طبعة مصر، 1299.
- فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية، مصر.
- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، دار المعرفة، بيروت.
- قصيدة الواعظ الأندلسي في مناقب أم المؤمنين الصديقة عائشة رضي الله عنها، تأليف أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الله الواعظ، تحقيق: د فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط1: 1998.
- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، الشيخ محمد بن علي بن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي، ضبطه وصححه: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1997.
- الكافي في العروض والقوافي، الخطيب التبريزي، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، عالم المعرفة، بيروت، دت.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

- الكامل في ضعفاء الرجال، عبد الله بن عدي الجرجاني، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، 1988.
- كتاب أسماء جبال تهامة وجبال مكة والمدينة، عرام بن الأصبغ السلمي، تحقبق: د. محمد صالح شناوي، دار الكتب العلمية، بيروت،1990.
- كتاب التمهيد لابن عبد البر.طبعة القدسي، 1350.
- كتاب الجفر الجامع والنور اللامع لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مكتبة الكليات الأزهرية، دت.
- كتاب الجواهر الخمس، الشيخ الإمام سيدي محمد بن خطير الدين بن با يزيد بن خواجة العطار، نشر: الحاج عبد الله اليسار التجاني.
- كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، الإمام الحربي، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، السعودية، 1969.
- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة 3: 1405.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، استنبول، 1941.
- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين الغزي، حققه: جبرائيل سليمان جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2: 1979.
- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، دت.
- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- لقط الفرائد، ابن القاضي،(ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات) تحقبق: د. محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، 1976.
- لمح السحر من روح الشعر وروح الشحر، لابن ليون التجيبي، دراسة وتحقيق: سعيد بن الحرش، رسالة جامعية مرقونة بكلية الآدابن فاس.
- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، عبد الوهاب الشعراني، تقديم: الأستاذ محمد علي الإدلبي، دار القلم العربي، حلب، 1993.
- مجلة المناهل (وزارة الثقافة – المغرب)، ع 38، دجنبر 1989
- مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة بيروت، 1407.
- مجموع مهمات المتون، دار الفكر، دت.
- محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، محي الدين ابن عربي، ضبط نصه وصححه: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- مختصر العلامة خليل فيه فقه الإمام مالك، الشيخ خليل بن إسحاق، دار الفكر، دت.
- مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، محمد العربي الفاسي الفهري، تحقبق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، 2003.
- المساجد في الإسلام، الشيخ طه الولي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

- مسند أبي يعلى، أبو يعلى التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، 1984.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.
- مسند الربيع، تحقيق: محمد إدريس وعاشور بن يوسف، دار الحكمة، مكتبة الاستقامة، بيروت، سلطنة عمان، 1415.
- مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت.
- معجم الطبراني الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- معجم الطبراني الصغير، تحقيق: محمد شكور، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت عمان، 1985.
- المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، 1983.
- معجم ما استعجم، البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت.
- معجم المصطلحات والألفاظ التاريخية، مصطفى عبد الكريم الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- معلمة المغرب، تنسيق محمد حجي، مطابع سلا.
- المغانم المطابة في معالم طابة، مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، المملكة العربية السعودية، 1969.
- المساجد في الإسلام، الشيخ طه الولي، دار العلم للملايين، ط1: 1988.
- مسند أبي يعلى، أبو يعلى التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، 1984
- مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان، دار الكتب العلمية، 1959.
- مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط4-1981.
- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، تقديم وتحقيق: الشيخ الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، 1988.
- ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهمت من الأتباع، المهدي الفاسي، تحقيق وتعليق: عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، 1994.
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد العسقلاني، شرحه وعلق عليه: مامون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1996.
- المنقذ من الضلال، الإمام محمد بن محمد الغزالي، دار العلم للجميع، دت.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، عبد العزيز بنعبد الله، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1975.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

- النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغرى بردى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.
- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي،محمد الصغير الإفراني، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1989.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، القادري، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1977.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد المقري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- نوادر الأصول في أحاديث الرسول، محمد بن علي الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت.
- هدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي، طبعة إستانبول 1951.
- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بن تاويت، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت.
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن عبد الله السمهودي، تحقيق: د. قاسم السامرائي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط1: 2001.
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، 1968.
- وفيات الونشريسي، (ضمن كتاب: ألف سنة من الوفيات) تحقيق: د. محمد حجي، مطبوعات دار المغرب، 1976.

محتويات المجلد الثاني